الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية

مقالات حصرية نشرت في المجلة

لـ ٣٥ عالماً من علماء الأمة الإسلامية وأعلامها

ما بين عامي ١٣٨٥ هـ - ١٤٢٦ هـ

الجزء الثاني

الإصدار الرابع عشر

الوعي الإسلامي

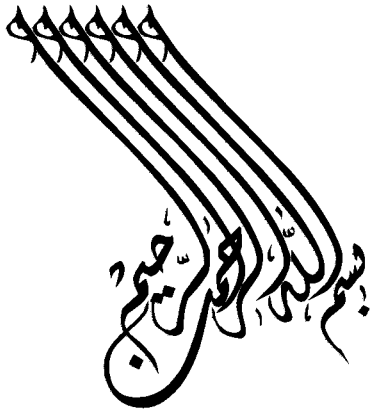
بسم الله الرحمن الرحيم

علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة الكويت
في مطلع كل شهر عربي
جميع الحقوق محفوظة

الإصدار الرابع عشر

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

الموقع على الإنترنت www.alwaei.com
البريد الإلكتروني info@alwaei.com

العنوان
ص.ب ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت
هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤ - فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

١٧

الشيخ حسن خالد

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- الحج.

العدد (٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير (١٩٦٨م).

٢- حكم الإسلام في كتاب «نقد الفكر الديني».

العدد (٦٢) محرم (١٣٩١هـ) - أبريل (١٩٧٠م).

٣- الشخصية المسلمة ضمان للسلام.

العدد (٧٣) محرم (١٣٩١هـ) - فبراير (١٩٧١م).

٤- الإسراء والمعراج.

العدد (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

٥- حديث عن لبنان.

العدد (١٦٢) جمادي الآخرة (١٣٩٨هـ) - مايو (١٩٧٨م).

ترجمة الشيخ

حسن خالد

● **مولده ونشأته**

هو الشيخ حسن بن سعد الدين خالد ، ولد في بيروت سنة ١٣٤٠هـ ١٩٢١م، وبدأ علومه الأولى في مدرسة الفاروق التابعة لجمعية المقاصد الخيرية في بيروت، ثم التحق بالكلية الشرعية في بيروت (أزهر لبنان) وبقي فيها حتى تخرج سنة ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م.

● **عمله**

عمل خطيباً في بعض مساجد بيروت ثم أرسله مفتي لبنان مع بعض زملائه إلى الجامع الأزهر في مصر لمتابعة تخصصه العالي في العلوم الدينية فالتحق بكلية أصول الدين التي بقي فيها إلى أن تخرج سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م، ثم عُيّن كاتباً في المحكمة الشرعية في بيروت، ثم ترقى فيها إلى درجة رئيس قلم.

عُيِّن الشيخ حسن قاضياً في محكمة عكار الشرعية، ثم في محكمة شحيم، بالإضافة إلى ممارسته التدريس في أزهر لبنان، والخطابة في بعض مساجد بيروت.

بعد استقالة الشيخ محمد علايا من منصب الإفتاء، رشَّح الشيخ حسن خالد نفسه لهذا المنصب وتم انتخابه من قِبل الهيئة الناخبة مفتياً للجمهورية اللبنانية بالإجماع، وأصدرت الحكومة اللبنانية مرسوماً باعتماد هذا الانتخاب وقعه رئيس الجمهورية اللبنانية.

كان الشيخ رحمه الله يتمتع بثقافة دينية واسعة أهلته لها دراسته الأزهرية، ومن خلال هذه الأهلية قام بتأليف عدة كتب منها: «المواريث، الأحوال الشخصية

عند المسلمين، الشهيد، وله كتاب يتضمن البيانات والتصريحات الصادرة عن دار الفتوى خلال الحرب الأهلية في لبنان»، كما تم تعيين الشيخ عضواً في عدد من المؤسسات، منها رابطة العالم الإسلامي، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد.

● **وفاته**

توفي رحمه الله في بيروت في ١١شوال سنة ١٤٠٩هـ الموافق ١٩/ ٥/ ١٩٨٩م إثر انفجار بجانب سيارته أثناء مرورها في الطريق، ودُفن بمقبرة الأوزاعي. رحمه الله رحمة واسعة.

الحج

العدد (٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير (١٩٦٨م).

الحج في اللغة القصد إلى عظيم. ثم خص بالقصد إلى مكة المشرفة للنسك. ويقال حججت بيت الله بمعنى قصدته لأفعال النسك. ويقال نسك وتنسك أي تعبد. ونسك نساكة صار ناسكاً. والنسك الذبيحة المتقرب بها. ثم توسع بها فصار اسماً للعبادة والطاعة. ومناسك الحج مواضع متعبداته.

والحج إلى بيت الله الحرام فرض عين إجماعاً، على كل مسلم حر بالغ عاقل مستطيع ذكراً أو أنثى. وهو أحد الأركان الخمسة في الإسلام لقوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله إلى قوله وحج البيت من استطاع إليه سبيلا».

والحج فرض على المسلم والمسلمة في العمر مرة وما زاد فهو نفل بدليل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً. فقال النبي ﷺ: لو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها. الحج مرة فمن زاد فهو تطوع».

والمراد بالبيت المسجد الحرام بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (آل عمران: ٩٦).

وهو أول بيت وضع للعبادة على الإطلاق وبإجماع العلماء بدليل النص القطعي. فهو سابق على المسجد الأقصى بعدة قرون. وهو كما قال المفسرون أقدم بيت وضع للعبادة. وليس ثمة أقدم منه.

وتحدثنا روايات عن وجود البيت من قبل آدم. ولكنا نمر عليها لنتحدث عما

تحدث عنه القرآن الكريم من بناء سيدنا إبراهيم له بمؤازرة ولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة: ١٢٧).

وقد اختلف العلماء في وقت ابتداء افتراض الحج والجمهور على أنه كان سنة ست للهجرة لأنه فيها نزل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦) ولا يعقل أن يأمر الله بإتمام شيء لم يكن مفروضاً. ويؤيد هذا ما ورد في قصة ضمام بن ثعلبة من ذكر الحج. وقد كان قدومه على ما ذكره الواقدي سنة خمس للهجرة.

ونقل النووي أنها كانت سنة تسع. وقد رجح هذا القول بعض العلماء. ولا يكون الحج فرضاً على المسلم إلا مع الاستطاعة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

وقد ذهب الإمام مالك إلى اعتبار الاستطاعة بالبدن، وأوجب الحج على من قدر على المشي والكسب في الطريق.

وذهب الإمام الشافعي إلى اعتبار الاستطاعة بالمال. ولذلك فقد أوجب الاستنابة على المريض الذي لا يرجى برؤه إذا وجد أجرة من ينوب عنه، معتمداً في ذلك على جواب الرسول ﷺ على من سأله عن السبيل بقوله: «الزاد والراحة».

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى اعتبار الاستطاعة بالصحة والمال معاً يؤيده في ذلك ما رواه عن ابن عباس أنه قال: السبيل أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به.

ويؤول الإمام أبو حنيفة ما وقع في الحديث الذي اعتمد عليه الإمام الشافعي بأن ما وقع فيه بيان لبعض شروط الاستطاعة، بدليل أنه لو فقد أمن الطريق لم يجب الحج عليه، والظاهر أنه ﷺ لم يتعرض لصحة البدن في الحديث كأحد مقومات الاستطاعة لظهور الأمر. يؤيد هذا أنه قد ورد في بعض الروايات عن الإمام علي كرم الله وجهه أن النبي ﷺ سئل عن السبيل، فقال: «أن تجد ظهر بعير». ولم يذكر الزاد.

- **الاستطاعة للمرأة**

ومن معاني الاستطاعة بالنسبة للمرأة أن يكون معها رحم محرم أو زوج.

والأئمة الأربعة متفقون على عدم اعتبار المرأة مستطيعة ما لم يكن معها زوج أو رحم محرم. غير أن الإمام مالك يزيد بأنه يجوز للمرأة أن تحج وتعتبر مستطيعة إذا كان لها رفقة مأمونون. كما أن الإمام الشافعي يعتبرها أيضاً مستطيعة ويوجب عليها الحج إذا كان معها نسوة موثوق بهن. أما إن وجدت امرأة واحدة فقط. أو لم تجد، وكانت الطريق مأمونة، فالحج غير واجب عليها ولا تعتبر مستطيعة. غير أنها إذا حجت جاز منها ذلك.

كل هذا في الحج الذي هو فريضة، أما حج النفل فلا يجوز من المرأة مطلقاً إلا إذا كان معها رحم محرم أو زوج.

وسبب هذا التصعيب في حق المرأة الأخبار الصحيحة الواردة بمنع المرأة من السفر منفردة والاختلاء بأجنبي. فقد ورد أن ابن عباس سمع النبي ﷺ يخطب يقول: «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم. ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم. فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال فانطلق فحج مع امرأتك» ومنها ما وقع عند الإمام الدارقطني بلفظ «لا تحجن امرأة إلا ومعها زوج».

● سفر المرأة للخارج!!

ومن استعراض رأي الفقهاء هذا والأخبار الواردة في الموضوع نجد مقدار تشدد الإسلام في موضوع سفر المرأة، وبالأخص إذا كان مسافة ثلاثة أيام مشياً. ونرى بالضرورة أنه ينبغي أن يلتفت نظرنا إلى ما يقع كثيراً من نسائنا وفتياتنا من سفرهن خارج البلاد، ومكثهن السنوات الطوال بين أحضان الغرباء بل المخالفين لنا في الدين والعقيدة، كما نرى بالضرورة وجوب إسداء النصيحة إلى النساء اللواتي يحججن إلى بيت الله الحرام حجة النفل منفردات، دونما محرم أو زوج بعدم السفر إلى الحج، وبالاستعاضة عنه بعمل صالح آخر من صدقة أو سواها.

● هل تجوز الإنابة في الحج

وقد يحول المرض أو الموت أو سواهما بين كثير من الناس وبين الحج، مع توفر الاستطاعة لديهم بمفهومها المالي أو البدني أو بمفهومهما، فهل يجوز لهم

الاستنابة؟؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال نقول إن العبادات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: بدنية محضة كالصلاة والصوم. ومالية محضة كالزكاة والصدقة، ومزيج منهما كالحج. ولا يقبل القسم الأول النيابة مطلقاً بينما يقبله القسم الثاني دونما خلاف. أما القسم الثالث فقد اختلف فيه العلماء.

فذهب الإمام مالك إلى القول بعدم جواز الإنابة في الحج. وذهب الأئمة الثلاثة الباقون إلى جواز ذلك شرط العجز المستمر.

والذين قالوا بالجواز اعتمدوا الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من خثعم قالت يا رسول الله إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره. قال: «فحجي عنه».

كما روي أيضاً عن ابن عباس قال أتى النبي ﷺ رجل، فقال: إن أبي مات وعليه حجة الإسلام أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو أن أباك ترك ديناً عليه أقضيته عنه؟ قال نعم. قال: «فاحجج عن أبيك».

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فقد أخذ بظواهر النصوص الواردة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النجم: ٣٦-٣٩). ولذلك فقد ذهب إلى القول بأن من مات ولم يحج، وهو قادر، ثم استأجر له ورثته من يحج عنه لم تكن حجة الأجير لتسقط الفرض عن كاهل المحجوج عنه.

ولما كان الأئمة الأربعة في هذا الموضوع بالذات مجتهدين وكان اجتهاد كل منهم عرضة للخطأ كما يمكن أن يكون صواباً.

ولما كان الإمام مالك رضي الله تعالى عنه قد ارتأى عدم جواز الاستنابة في الحج، فإن من واجبنا أن نستخلص أن على المرء المسلم القادر على الحج المبادرة إليه لأدائه بنفسه، خشية أن يكون رأي الإمام هو الصحيح، فيكون موته قبل الحج مع القدرة عليه سبب مؤاخذة شديدة جداً خصوصاً وأن العلماء غير

متفقين فيما إذا كان يجوز تأخير الحج مع القدرة أم لا؟!

فقد ذهب صاحب نيل الأوطار إلى القول بوجوب الحج على الفور بعد الاستطاعة، وأن التأخير معها يورثه إثماً كبيراً.

وإلى هذا القول ذهب الإمام مالك رضي الله تعالى عنه وأبو حنيفة وأحمد وبعض أصحاب الإمام الشافعي كما ذهب إلى هذا الرأي من آل البيت الإمام زيد بن علي.

بينما ذهب الأئمة الشافعي والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد من الأحناف إلى أن الحج واجب على التراخي، وأن التأخير مع الاستطاعة لا يجعل المؤخر آثماً إذا لم يكن خائفاً من فوات الحج بالفقر والعجز.

ولا يكون الحج صحيحاً إلا إذا كان الإحرام به في وقت خاص عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة: ١٩٧) وهذه الأشهر هي شوال وذو القعدة وذو الحجة أي أنه يمكن الإحرام بالحج من أول شوال وتنتهي أركانه وواجباته في آخرها وهو ذو الحجة.

وقد اختلف العلماء في هذا، فقال بعضهم إن الأشهر المعلومات هي الثلاثة من أولها إلى آخرها. وهو ما ذهب إليه ابن مسعود وابن عمر والإمام مالك رضي الله عنهم أجمعين. وقال بعضهم إنها الشهران وعشر من ذي الحجة. وهو ما ذهب إليه أبوحنيفة والشافعي وأحمد.

● أركان الحج

ولا يتم الحج إلا بالقيام بالأركان التالية:

١- الإحرام.

٢- طواف الزيارة ويسمى طواف الإفاضة.

٣- السعي بين الصفا والمروة.

٤- الوقوف بعرفة.

ولو نقص واحد منها بطل الحج باتفاق الشافعية والحنابلة والمالكية.

أما الأحناف فهم يرون أن أركان الحج اثنان فقط، هما: الوقوف بعرفة، وأربعة أشواط من طواف الزيارة. وما تبقى فهي واجبات لا يبطل تركها الحج بل

يجب جبره بتقريب الدم. وهو ذبح شاة أو سواها حسب الواجب المتروك.

● **الإحرام**

والإحرام يكون من المواقيت المكانية المحددة لكل بلد والمبينة في كتب الفقه. ولا يجوز مجاوزتها ولا محاذاتها دون إحرام فمن جاوزها دونما إحرام يلزمه الدم، اللهم إلا إذا كان ثمة ميقات آخر يمكن أن يمر عليه، فعلى قاصد الحج عند الوصول إليه الإحرام.

● **ما يحرم على المحرم**

ويحرم على من أحرم عقد النكاح عند الشافعي ومالك وأحمد خلافاً للأحناف، كما يحرم عليه الجماع ودواعيه كالقبلة والمباشرة. ويحرم عليه المخاصمة مع الرفقاء عملاً بقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

ويحرم عليه التعرض لصيد البر بالقتل أو الذبح أو الإشارة إليه أو الدلالة عليه. وأما صيد البحر فحلال وذلك لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ (المائدة: ٩٦).

ويحرم عليه استعمال الطيب، وتقليم الأظافر، ولبس المخيط إن كان رجلاً أو محيطاً ببدنه أو ببعضه بما تعود لبسه في غير أيام الحج.

ويحرم عليه أيضاً قص شعر رأسه أو حلقه أو غيرهما. كما يحرم عليه إزالة شعر غير الرأس، اللهم إلا إذا كان متأذياً به فيجوز له أن يزيله وعليه الفدية.

ويحرم على المحرم التعرض لشجر الحرم بقطع أو قلع أو إتلاف إلا الإذخر.

هذا ويسن للمحرم بعض الإجراءات ويكره له البعض الآخر. وبالإمكان الرجوع إلى المظان الفقهية للاطلاع عليها في هذا الباب[1].

وطواف الزيارة.. هو ركن كما قلنا. وإذا لم يقم به الحاج فيبطل حجه. وهو سبعة أشواط وعند أبي حنيفة أربعة أشواط والباقي من السبعة واجب.

---

(١) أصدرنا رسالة في الحج فيها بيان وتفصيل لأحكامه في جميع المذاهب، وقد وزعت هدية مع العدد الماضي من المجلة.

ووقعته من فجر يوم النحر إلى آخر العمر عند الأحناف، ولا يكاد يخالفهم في هذا الشافعية والحنابلة. أما المالكية فهم يرون أن نهاية وقته آخر ذي الحجة.

وهناك طواف الوداع وهو واجب، وطواف القدوم وهو سُنة.

ويطلب في الطواف شروط أهمها الطهارة من الحدث والنجس، وستر العورة والبدء بالحجر الأسود محاذياً له أو لجزئه، وجعل البيت عن اليسار. وله سنن وواجبات وهي كثيرة وبالإمكان الاطلاع عليها في مظانها الفقهية أيضاً لعدم تيسر ذكرها جميعها في هذه الكلمة.

أما السعي بين الصفا والمروة فيشترط فيه أن يكون سبعة أشواط وأن يبدأ بالصفا والموالاة، وأن يكون بعد الطواف مع خلافات يسيرة بين الأئمة فيها وله مندوبات كثيرة.

أما الوقوف بعرفة فيطلب فيه أن يكون المحرم بالحج موجوداً على أرض عرفة على أية حالة. يقظان أو نائماً، قاعداً أو قائماً، بشروط أولها أن يكون من زوال شمس اليوم التاسع من ذي الحجة إلى فجر يوم النحر عند الشافعية ويكفي الحضور في هذا الوقت ولو لحظة تجمع بين النهار والليل، ويشترط في الواقف أن يكون أهلاً للعبادة، فلا يقبل الوقوف من مجنون ولا سكران.

أما الأحناف فيرون جواز هذا الوقوف من أي إنسان مسلم. على أي حال كان ولو مجنوناً أو زائل العقل وسواء كان ناوياً أو لم يكن كذلك.

ويجب امتداد الوقوف حتى غروب الشمس إن وقف نهاراً وإن نزل قبل الغروب وجب عليه دم.

- **واجبات الحج**

يجب في الحج واجبات منها الوجود بمزدلفة، والمبيت بمنى ورمي الجمار والحلق والتقصير.

والوجود بمزدلفة يكون ولو بلحظة بعد نصف الليل، أما المبيت بمنى فيشترط فيه أن يكون بمعظم الليل من ليالي التشريق لمن لم يتعجل. أما من أراد التعجل والخروج من منى إلى مكة في اليوم الثاني من أيام التشريق أي ثالث أيام العيد فلا

بأس لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٢٠٣) بشرط أن يخرج منها قبل الغروب من اليوم التالي وأن ينوي ذلك ويجوز لمن به عذر أن لا يبيت فيها. كل هذا في رأي الشافعية.

أما الأحناف فيطلب عندهم من الحاج الوقوف بمزدلفة، ولو لوقت قصير بعد طلوع الفجر بقليل. فإذا لم يقف لغير عذر وجب عليه الدم. ثم ينزل إلى منى قبل طلوع الشمس ويرمي جمرة العقبة بكيفية مخصوصة، ثم يقطع التلبية ويذبح ويحلق أو يقصر، ثم يحل له كل شيء من محظورات الإحرام ما عدا النساء. وبعد الفجر من يوم النحر يمكنه أن يذهب إلى مكة ليطوف طواف الزيارة. ويسعى بين الصفا والمروة، وبعد الانتهاء منهما يحل له كل شيء حتى النساء. ومن ثم يعود إلى منى ليرمي الجمار الثلاث ثاني يوم النحر وثالثه ورابعه ولو بات خارج منى لم يجب عليه شيء، وإن أراد التعجل في يومين أيضاً فلا إثم عليه عملاً بالنص الحكيم.

ويفسد الحج بترك أحد هذه الأركان عند من اعتبرها أركاناً، كما يفسد بالجماع، على تفصيل بين المذاهب في الوقت الذي يكون فيه مفسداً للحج.

أما إذا ترك شيئاً من الواجبات، أو فعل شيئاً مما يحرم عليه فِعْلُه حالة الإحرام، كلبس المخيط المعتاد، أو التطيب أو تقليم الأظافر أو تغطية الرأس أو الوجه فعليه الفدية. وهي على التخيير إما إسالة دم، أو إطعام ستة مساكين أو صوم ثلاثة أيام.

بقي علينا أن نتكلم في كيفية حج النبي ﷺ. هل حج مفرداً أو قارناً أو متمتعاً وأيها أفضل؟

وبين يدي الجواب نقول إن الإفراد بالحج هو أن ينوي المحرم الحج فقط. والإقران هو أن ينوي الحج والعمرة معاً ويلبي بهما، والتمتع هو أن ينوي العمرة متمتعاً بها إلى الحج.

وسواء كان الحاج قارناً أو متمتعاً فإن عليه الدم. أما الأول فلما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ ذبح عن نسائه البقر يوم النحر وكن قارنات. وأما

الثاني فلقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾(البقرة: ١٩٦).

وقد وردت بعض الأخبار أن رسول الله ﷺ حج قارناً. وقد أكد هذه الأخبار ووثقها ابن القيم في كتابه زاد المعاد، وأسهب في التدليل على صحتها، وإبطال نسبة سواه إلى رسول الله ﷺ.

غير أن بعض الرواة نقل أنه ﷺ حج مفرداً، وبعضهم نقل أنه حج متمتعاً.

ويرى الشافعي أن الإفراد في الحج أفضل. بينما يرى الأحناف أن القران أفضل. أما مالك فيرى أن التمتع أفضل.

وإني لأرى أن ذلك متروك لظروف الحاج ووقته فيختار أيها أنسب له من ناحية الوقت وغيره.

● كيفية الحج

هذا ولو شئنا وضع خطة يسيرة مختصرة لأعمال الحج، فإنا نستطيع إيرادها كما يلي:

لو أراد أحدنا الحج فإن عليه أن ينوي الإحرام بعد أن يغتسل ثم يأتزر بإزار ويرتدي برداء غير مخيطين. ويتطيب ويصلي ركعتين ثم يقول اللهم إني أريد الحج فيسره لي وتقبله مني. ثم يلبي عقب الصلاة بقوله: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وبهذه التلبية مع النية بعد تلك الإجراءات. يصبح محرماً. ويكون هذا كله عند الميقات.

وبالإحرام يحظر على المحرم، الرفث والفسوق والجدال، وقتل الصيد والصيد ولبس القمصان والسراويل والبنطلونات والجاكيتات والعمائم والأحذية الكاملة التي تغطي كامل القدم. وتغطية الرأس والوجه ومس الطيب، وحلق الرأس وشعر البدن، ويطلب منه أن يكثر من التلبية. وبمجرد دخوله مكة يتجه إلى المسجد الحرام ثم يستقبل الحجر الأسود، ويكبر ويهلل، ويضعه عن يساره، ويطوف بالبيت سبعة أشواط، ثم يأتي المقام أو حيث يتيسر له من المسجد فيصلي ركعتين. ثم يخرج إلى الصفا، فيستقبل البيت، ويكبر ويصلي على النبي، ويرفع

يديه بالدعاء ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط. ثم يقصر أو يحلق، ويتحلل من الإحرام ويذبح شاة لهذا التمتع.

فإذا كان يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة، أحرم للحج وخرج إلى عرفات. فإذا زالت الشمس من اليوم التاسع صلى إن كان إماماً بالناس الظهر والعصر من وقت الظهر بأذان وإقامتين ولا يتطوع بينهما.

وإن كان منفرداً صلى الظهر حيث هو ثم عاد فصلى العصر في وقته أيضاً حيث هو.

ثم يتجه إلى الموقف. وعرفات كلها موقف إلا بطن عرنة، ويلبي ساعة بعد ساعة. حتى إذا غربت الشمس أفاض إلى مزدلفة، حيث يصلي الإمام بالناس المغرب والعشاء جمعاً بأذان وإقامة، والمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر ثم يصلي الفجر، وعند الإسفار يفيض إلى منى، ويبتدئ بجمرة العقبة، فيرميها بسبع حصيات مكبرا مع كل حصاة، ثم يذبح إن أحب، ويقصر أو يحلق. ويحل له كل المحظورات ما عدا النساء. ثم يأتي مكة من يومه. أو من غده، أو من بعد غده، ويطوف بالبيت طواف الزيارة ثم يسعى. ثم يعود إلى منى فيقيم بها حتى إذا زالت الشمس من اليوم الثاني من أيام النحر رمى الجمار الثلاث، ويكرر عمله في اليوم الثالث، ثم في الرابع، وإن أراد التعجل نفر إلى مكة في اليوم الثالث قبل طلوع فجر اليوم الرابع. وإن بقي حتى اليوم الرابع جاز له أن يقدم الرمي قبل الزوال وبعد الفجر. . ثم ينزل إلى مكة، ويطوف طواف الصدر، وهو ما يسمى طواف الوداع. وبذلك يتم الحج.

ولا ريب أن في هذا الذي سقناه من أعمال الحج ومناسكه مخالفات كثيرة لما عليه المذهب الشافعي وسواه ولكن هي طريقة اتبعها في غالبها الأحناف فلا بأس من اتباعها.

هذا وإن العمرة كالحج سواء بسواء إلا أنها تختلف عنه بأنه يمكن القيام بها طيلة أشهر السنة ولا يطلب فيها الوقوف بعرفة ولا المبيت بمزدلفة أو منى ولا رمي الحجار.

إن الحج إلى بيت الله الحرام عمل عام، جرى عليه العرب قديماً في الجاهلية والإسلام، ولا يزالون، وذلك لتعظيم هذا البيت الكريم. وأي تعظيم أكبر من افتراض حج الناس إليه على مدى الأجيال والقرون وتقلب الأوضاع والعهود؟

إنه أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد. فقد ورد عن رسول الله ﷺ «أنه سئل أي الأعمال أفضل؟ قال إيمان بالله ورسوله. قيل ثم ماذا؟ قال جهاد في سبيل الله. قيل ثم ماذا؟ قال حج مبرور».

والحج المبرور هو المقبول لأنه لم يخالطه إثم والذي قد وفيت أحكامه، بل إنه جعل الحج بالنسبة للنساء كالجهاد ويقوم مقامه. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله هل على النساء من جهاد؟ قال نعم عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة».

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

أيها الإخوة: في الحج منافع كثيرة أشار الله تعالى إليها بقوله ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ ومنافع الحج أكثر من أن نستوعبها في هذه الكلمة.

ولكن يكفي أن نقول إن في الحج تذكيراً للحاج بأحوال الآخرة والموت، لأنه عندما يقبل عليه يكثر من التوبة، ويحاول ما استطاع إخراج نفسه من المظالم التي سبق له أن وقع فيها، ويرد الحقوق إلى أصحابها، ويلبس ثياب الإحرام مشابها بذلك حال الميت عند قيامه من القبر مجردا حاسراً شبه عريان، مقبلاً على الله أشعث أغبر، ثم يقف في عرفات وقفة شبيهة بوقفة يوم العرض على الله.

فما أحلى أن يتذكر الإنسان دعاوى الخير، وما أجمل أن يعتبر من هذه التذكرات، فيصلح يومه وغده وحاله ومآله.

* * *

حكم الإسلام في كتاب نقد الفكر الديني

العدد (٦٢) محرم (١٣٩١هـ) - فبراير (١٩٧١م)

في هذه الفترة العصيبة من حياة العرب والمسلمين يحلو لبعض المحسوبين على الأمة العربية أن يعكروا صفوها، ويفرقوا كلمتها بما ينشرون من أفكار خاطئة وتهجمات ضارة، ينالون بها من الدين السماوي ومبادئه المقدسة، متذرعين بأنهم يقولون كلامهم في ظل من حرية الرأي، وهي دعوى تغري السذج والبسطاء يتأثرون بها، ويسيرون في ركاب هؤلاء المفسدين.

وكتاب «نقد الفكر الديني» نموذج من تلك النماذج المخربة، المجافية لأدب الدنيا وأدب الدين. ووضعا للحق في موضعه، وقطعاً لألسنة السوء، نوجه أنظار أبنائنا إلى ما يلي:

أولاً: إن الإسلام دين يكفل الحرية للفرد بكل أبعادها ليتصرف الإنسان من خلالها بمطلق أرادته. على أن للحرية في أعراف الناس وقوانينهم، كما أن لها في عرف الشرع وقانونه حدوداً يجب التزامها حتى لا تنقلب فوضى، تضر الفرد ذاته، وتضر مجتمعه، وتفقد فكرة المنطلق حرمته وقيمته. والمعروف أن حرية الإنسان تنتهي عند حدود حرية غيره وكرامته، وبهذا تصان الجماعة وتحفظ من الهزات والرجات والقلاقل.

ثانياً: إن في الإسلام مقدسات لا يجوز المساس بها ولا النيل منها لأي سبب وأي حجة. فالله والملائكة والجن والجنة والنار، والحساب والثواب والعقاب وخلق آدم من تراب وصدور الأمر من الله ﷻ لإبليس بالسجود له سجود تعظيم وتكريم، وإباء إبليس تنفيذ أمر ربه، كل هذه وغيرها مما ورد شبيهه في القرآن والسنة، مسلمات قطعية الثبوت في الإسلام، والإيمان بها فريضة محكمة على كل

مسلم، والتشكك في تصديقها أو تصديق بعضها كفر صراح يخرج المسلم من الإسلام.

ثالثاً: إن رفض التسليم بهذه الغيبيات وأمثالها مما قطعت الأدلة الشرعية المتواترة بثبوته بحجة مخالفته للعلم هو افتراء على العلم نفسه، ذلك لأن العلم الوضعي لم يزل يشتمل على طائفة كبيرة من الغيبيات لم ينفذ بعد إلى أسرارها ومع هذا يسلم العلم بها تسليماً عفوياً، وذلك باعتراف المؤلف، فكيف يؤخذ على الديانات التسليم بما هو غيبي. وفوق هذا فالعلم البشري بما أوتي من النفاذ والقدرة لم يستطع ولن يستطيع أن يكتشف تلك المغيبات التي هي من أمر الله وخاصة علمه، وليس عدم اكتشاف العلم الإنساني لأمر دليل على عدم وجوده، وما كشفه العلم حتى أيامنا هذه لا يزال يسيراً بالنسبة إلى ما هو مجهول، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

رابعاً: إن مشايعة المنكرين والسير معهم وتأييدهم في أفكارهم وتبرير هذا الإنكار بحرية الرأي هو رفض لأمر الله ومروق بالتالي من الدين.

خامساً: وبناء على هذه الحقائق التي أسلفنا بها فإن كتاب «نقد الفكر الديني» بما اشتمل عليه من إنكار للغيبيات وافتراء على الدين والقرآن يعتبر مؤلفه خارجاً عن الإسلام مرتدا وكذلك من يؤيده ويجاريه في رأيه.

سادساً: إن واجب الدولة أن تقطع الطريق على مثل هذه الأفكار الضالة الهدامة التي تضر الأمة في صميمها، وتعرضها لانقسامات خطيرة وفتن شعواء، لا يعرف مداها إلا الله وإن على الدولة أن تطبق ما لديها من القوانين الصريحة في معاقبة كل من يتعرض للشعائر الدينية وللمقدسات بما يسيء حتى لا يضطر المسلمون إلى سلوك الطريق الذي يرونه فيه حماية عقيدتهم وصيانة دينهم.

سابعاً: وعلى أبنائنا جميعاً أن يحذروا هذه الأفكار الضارة السامة التي لا تلتزم بشرع ولا تؤمن بدين والتي تلتقي في صميم اتجاهاتها مع أفكار الصهيونية العالمية التي تستهدف محاربة الأديان لإضعاف المواطنين والاستيلاء على أوطانهم ومقدراتهم ومرافقهم.

الشخصية المسلمة ضمان للسلام

العدد (٧٣) محرم (١٣٩١هـ) - فبراير (١٩٧١م).

السَّلام حديث اليوم في الشرق والغرب تتناوله أقلام المفكرين والأدباء والسياسيين في أعمدة الصحف اليومية والأسبوعية، كما يعالجونه في أبحاث مفردة مستفيضة.

وتهتم بالسلام في هذه الأيام الدول الكبرى والصغرى، ويغلب على الظن أن هذا الاهتمام هو لدى البعض منها بنسبة ما لها من مصلحة، ولذلك فإن خوضهم فيه يأتي بأساليب منوعة، فمنهم من يعقد له المؤتمرات المختلفة هنا وهناك يدعون إليها مختلف الجهات العلمية والدينية والفكرية والسياسية، وكثيراً ما يخفي البعض منهم وراء ذلك ما يهدم السلام.

ومنهم من يتحرك لذلك ويستخدم طاقاته كلها فكرياً ومادياً وعسكرياً، مقدماً على ذلك نشر قرارات وبيانات يخرج بها على الشعوب لابساً مسوح الرهبان ومدافعاً عن السلام وداعياً إليه، ومبرراً تحركه بأنه للسلام وحده، ولمصلحة الشعوب المتخلفة، ودون أن يكون له مأرب آخر. والله يعلم وهو يعلم وأذكياء الناس يعلمون أنه براء مما يقول، وأن مفهوم السلام لديه هو الاعتداء على أمن البلاد المتخلفة واستغلال ثرواتها وخاماتها ثم المحاولات الواضحة لإيجاد التوازن في المناطق عن طريق الضغط على هذه البلاد أو تلك لتسير في ركب سياسته أو تبقى في ظلاله.

ولقد كان لنا نصيب في المساهمة في عقد بعض هذه المؤتمرات على اختلاف الداعين إليها وتباعد مبادئهم الاجتماعية ومناهجهم السياسية.

ولا يساورنا الشك لحظة في أنه كانت تتخللها نوايا صادقة ونشاطات مخلصة

وجهود بارة. بيد أنه تبين لنا من خلال الاجتماعات ومناقشات المدعوين إليها والمشرفين عليها أن ثمة سياسات خاصة تعمل في الخفاء في توجيه المؤتمرين وتحرص على أن يظلوا في قراراتهم وتوصياتهم ومطالبهم وتمنياتهم ضمن إطار محدود كما ثبت لنا أيضاً أن هذه المؤتمرات وإن كان ينفق عليها الملايين من الدولارات تقتصر على تحصيل مكاسب آنية، تتناول الشكل والمظهر، متجاهلة الجوهر والحقيقة.

وكأننا بالغالبية من هؤلاء العاملين في هذه المؤتمرات أو على رأسها كأننا بهم لا يهمهم أمر السلام في الواقع ونفس الأمر.

بل إنا لنعتقد أنهم حتى ولو رغبوا فيه واهتموا وأخلصوا في القصد إليه، لا يملكون في ذواتهم ولا في مجتمعاتهم المادة التي تمكنهم من الوصول إلى تحقيق ذلك.

ذلك أن السلام ليس شعارات تطلق ولا مقالات تدبج، ولا أفكاراً ومناهج ترسل. كما أنه لا يكون بالمال الغزير يغدق على طالبيه والراغبين فيه والعاملين في الأجهزة المختلفة، ولا في أسلحة قوية من مختلف الأوزان والأحجام والطاقات الفاعلة، تمنح إلى هؤلاء وأولئك، وليس بالعلم المجرد يحصل ويستوعب ويستخدم لتحقيق منجزات وكشوفات رائعة في مختلف الحقول البشرية يفيد منها الناس أو يتضررون، ولا بالرجال الأشداء الموهوبين، الذين يحسنون العمل في مراكز الإدارة والسياسة والاقتصاد والتوجيه حتى ولا بالأنظمة التي توضع، والتشريعات والقوانين التي تنشأ. نقول إنها ليست بهذه الأمور وحدها بل لابد قبل ذلك من ضمان وجود الشخصية الإنسانية الصالحة، القادرة على تحمل مسؤوليات الحياة بأمانة وإخلاص، وصبر وتضحية، واستيعاب لمقاصد الحياة وما بعدها، التي تستطيع وحدها بالاستعانة بما سبق أن تعمل بجد وحرص وغيرة وحماس لبناء مجتمع السلام المنشود.

* * *

لقد شاء جميع المشرعين السابقين من وراء قوانينهم التي وضعوها تنظيم المجتمعات البشرية وتحديد تحركات أفرادها بحيث لا يطغى منهم أحد على أحد ويبقى لكل واحد منهم كامل حريته مع كامل حرية الآخرين وبحيث يضمن بالتالي الحياة الفاضلة والعيش الرغيد في ظل المحبة والطمأنينة والسلام.

ولكنهم مع ذلك كانوا في غالب الأمر يقعون في الأخطاء والمزايدات إذ يضفون على الأنظمة كثيراً من هوياتهم وذاتياتهم ويصيغونها بالأسلوب الذي يكفل لهم وللمقربين منهم مصالحهم وبذلك انحرفوا عند الخط القيم الذي شاءوه لأنفسهم وللناس ودفعوا بالمجتمعات لتعيش في ظل ورحمة مصالح بعض الأفراد، فاختلط الحابل بالنابل وانقلب السحر على الساحر وتصادم الناس وكانت الثورات فالحروب، وتبخرت فكرة العدالة وهيمن على الأرض الرعب والخوف بدل أن يخيم عليها الرخاء والسلام.

* * *

من أجل ذلك سبقت مشيئة الله تعالى أن لا يترك الإنسان وحده في متاهات الدنيا ومسبعاتها فأرسل الرسل وأنزل معهم الكتب ليقوم الناس بالقسط ويعيشوا بسلام. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ (الحديد: ٢٥).

وكان الإسلام هذا الدين الذي ارتضاه الله للناس أجمعين في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) أجل كان في أكمل ثوب وأدق صيغة وأصلحها لمعاشهم في الدنيا ولإعدادهم لليوم العصيب، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(الشعراء: ٨٨-٨٩). ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

بل كان هذا الدين الذي لم يرض سبحانه وتعالى من أي كان أن يتعبده إلا

بواسطته فقال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥). ذلك أن هذا الدين هو وحده بين أديان السماء الذي استوفى كل عناصر الخير الدنيوي والأخروي، حوى العقيدة السليمة التي تناسب الفطرة لامتيازها بالوضوح والبساطة وخلوها من التعقيد، وضم الشريعة الغراء التي ضبطت سلوك الفرد وكبحت جماحه فنظمت له علاقته مع الله بواسطة عبادات «الصلاة والصوم والزكاة والحج» ومن قبل بواسطة الإيمان به وبالملائكة والكتب المنزلة والرسل واليوم الآخر والقدر، ونظمت له علاقته مع أخيه الإنسان ضمن دائرة الأسرة أبا وأما وأخاً وأختاً وابناً وبنتاً، ثم المجتمع الكبير فالمجتمع الأكبر، وبينت له في كل منها حقوقه وواجباته وحدوده وكفلت له حريته الفكرية والعقيدية والعملية والحياة الآمنة المطمئنة المكتفية في دائرة الحكم الإسلامي الرشيد، وبهذا الدين الإسلامي الكامل عقيدة وشريعة وسلوكاً تبرز شخصية نادرة المثال هي شخصية المسلم التي يمكنها وحدها- لو وجدت- ضمان تحقيق السلام في العالم.

ذلك أن من طبيعة هذه الشخصية أنها تتقيد بالنظام الذي آمنت به ثم تعمل مخلصة على إنجاح التقيد به من الذين آمنوا في حال الانحراف ومن الناس أجمعين. فهي وإن كانت مأمورة بتنفيذ بنوده وتطبيقها على ذاتها أولاً «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ (لقمان: ٢٢).

غير أنها تعتبر ذاتها في الوقت نفسه صاحبة هذا النظام وترى ذلك واجباً عليها فترتفع في نفسها الحرارة الغيورة التي تدفعها للسهر على تطبيق الآخرين له والتعبد به بل إنها لتنظر إلى نفسها نظرة الإثم إذا هي لم تقم بهذا الواجب، وتنتظر من الله في اليوم الآخر سوء الحساب، وبتعبير آخر إن الشخصية المسلمة هي في الواقع والدولة الحاكمة سيان: تشاركها في الحكم وتنقاد لها وتسلم لإنجاح مقاصدها فيه وتأتمر بأمرها.

إن المسلم في الدولة الإسلامية ركن إيجابي مسؤول، يسهر على مصالحها،

ويتحمل معها مسؤولية الحكم. قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) ويروى عن رسول الله ﷺ قوله «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وقوله: «أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك».

* * *

وفضلاً عن هذا فإن شخصية المسلم مزودة بأجمل الأخلاق وأحلى الشمائل وأرق الصفات، وكلها تحدوه برفق وبصدق وعزيمة لتعزيز نزعة السلام والأمان في نفسه وفي من حوله، فالمسلم في عرف الإسلام هو «من سلم الناس من لسانه ويده»، وشعار المسلم في لقائه مع الناس ومنصرفه عنهم إفشاء السلام والأمان في نفسه وفيمن حوله، فالمسلم في عرف الإسلام يسن له السلام على من عرف ومن لا يعرف.

والمسلم في صلواته يتعهد باستمرار بضمان إشاعة السلام بين العباد الخيرين وتلافي الكبر وأسباب الخصام والنفرة مع الناس فهو يقول في جلوسه للتشهد من كل صلاة «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» كما يجتهد بأن يعفو عن السيئات ويتجاوز عن الهفوات، وإذا خاطبه الجاهلون قال حسنا وسلاماً. يقول تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ (الفرقان: ٦٣).

* * *

والسلام في العالم مادته الأولى كما نعتقد هي الناس، فهم منه كالقلب من جسم الإنسان. فكما أنه إذا صلح القلب صلح الجسد وإذا فسد فسد الجسد فإن الناس إذا صلحوا واستوفوا مادة الخير والتسامح تحقق السلام فيهم أو كانوا أقرب إليه من سواه، وإذا أفسدوا وأخلدوا إلى الأرض ومادتها ضلوا وزاغوا

ونزغ الشيطان بينهم وتعذر أن يشيع في ربوعهم السلام.

لذلك فإن الملحدين والمهرجين والماجنين والفسقة والمنافقين والماديين والكافرين بالله واليوم الآخر. كل هؤلاء وسواهم ممن يشاركونهم التخلي عن أديان السماء وفضائلها وحدودها وأنظمتها لا يمكنهم أن يؤمنوا للمجتمعات العالمية والخاصة ما تصبو إليه من الأمن والرخاء والسلام. ولو عقدوا المؤتمرات وأنفقوا الملايين وأتعبوا أدمغة المفكرين، ما برحوا لا يملكون في ذواتهم مادة الإسلام التي هي كما قلت سابقاً تكون في الشخصية الصالحة القادرة على تحمل مسؤوليات الحكم والحياة بأمانة وإخلاص وصبر وتضحية واستيعاب لمقاصد الحياة وما بعدها.

ولما كان يمكن تحقيق هذه الشخصية العاملة الساهرة المنتجة بالتعاليم الإسلامية، فإننا نرفع عقيرتنا موقنين أن في وجود الشخصية المسلمة وحدها الضمان لتحقيق السلام العالمي الصحيح، وإشاعة الأمان والطمأنينة والنجاة من الويلات وأحداث الرعب والدمار التي تزرعها الحروب في أي مكان تكون.

حفظ الله العالم من كل كرب وهدى الناس جميعاً لمادة الإسلام ولما يحب ويرضى ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ (النجم: ٥٦ -٥٨).

* * *

خواطر في ذكرى الإسراء والمعراج

العدد (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

في كل عام تتجدد ذكرى الإسراء والمعراج، وتتجدد بتجددها الآمال في مستقبل أكثر أمناً وعزة، من حاضر لا يخلو من أسباب القلق والاضطراب.

إن الأمة - والمجتمع منها - تكون مجموعة من الأفراد تقل وتكثر، فتتمثل فيهم وحدة المكان والزمان واللغة والدين والتاريخ والهدف، ويتم بينهم بالضرورة التعاقد على التعايش في ظل تعاون مخلص، وفي رعاية حكم يختارونه ويحتكمون إليه، ويسندون إليه أمر السهر على المثل والفضائل والأماني التي آمنوا بها، والمصالح التي اتفقوا عليها فيما بينهم، ووضعوا في ضوئها دستورهم، ونظام حياتهم ودولتهم. وهذا ما كان يشاهد واضحاً في أمة الإسلام من الخليج إلى المحيط، فقد تحققت فيها وحدة الزمان والمكان واللغة والدين والتاريخ والهدف، وارتضى أبناؤها بالضرورة التعاقد على أن يتعايشوا في ظل رخاء دائم، وتعاون مخلص وفي رعاية حكم قبلوه طوال قرون حتى نشأ بينهم النزاع .

واهتبل المستعمر الفرصة وبسط نفوذه عليهم وقطعهم دويلات، ولكنهم مع ذلك بقوا يمثلون فيما بينهم وحدة الزمان والمكان واللغة والدين، ووحدة التاريخ والهدف، رغم اختلاف الحاكم والمحكوم.

وما يزال شعار الوحدة يرتفع عالياً في مجتمعاتهم كلما سنحت الفرصة وهلت المناسبة، إن هذه الأمة ما تزال تتطلع إلى تحقيق أمانيها في ضوء كتابها ودستورها، وتعلم أن ذلك كله لا يليق أن يبقى أفكاراً وأماني راسبة في عقول ونفوس أبنائها، بل تتصدى لمحاولة إرساء قواعدها في حياتها الاجتماعية بصورة عملية فتجسدها في سلوك أفرادها وتصرفاتهم وتعاملهم وعلاقاتهم بعضهم مع

بعض، فقد قال التابعي الجليل جندب بن عبد الله ﷺ: «عليكم بالقرآن، فإنه نور بالليل، وهدى بالنهار فاعملوا به على ما كان من فقر وفاقة فإن عرض بلاء فقدموا أموالكم دون أنفسكم فإن تجاوز البلاء، فقدموا أنفسكم دون دينكم فإن المسلوب من سلب دينه فإنه لا فاقة بعد الجنة ولا غناء بعد النار» .

وتجسيد هذه المعاني والمفاهيم السامية في حياة الأفراد والجماعات في الأمة الواحدة يفتقر إلى سهر مستمد من سلطة نافذة القول والفعل فإن المأثور أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

ولا سبيل إلى إرساء وجود السلطة، وتعميق فاعليتها في الردع أو التشجيع والدفع إلا بفعل فئة تستمد قوتها ومهابتها من رضى المجتمع المؤيد لها، والذي يضعف، ويشتد بنسبة ما تكون عليه أريحية أبنائه سخاء وعطاء، وكلما كان البذل من هؤلاء سخياً جواداً تيسر لتلك الفئة الحاكمة مجال التوفيق، وتمكنت من التغلب على صعوبات الحياة ومشاكل المجتمع، وفازت بالنصر على المناوئين والمتمردين في داخل مجتمعاتها والطامعين بها من خارجها ولئن كانت السلطة الحاكمة بحاجة ماسة إلى عطاء رعاياها المادي وتشجيعهم المعنوي، فهي إلى مساعدتهم الشخصية أحوج.

ولهذا كان لزاماً على كل أمة تنشد لكيانها البقاء والاستمرار والأمن والوقار أن يكون جميع أفرادها دوماً مستنفرين وعلى أهبة النضال والدفاع ولو اقتضى ذلك منهم بذل الروح ذباً عن كيان الأمة وتعزيزاً لوجودها ومبادئها وتحصينا لهيبتها.

وكلما كثر في أفراد الأمة الموت دفاعاً عن حياضها، وحرصاً على كرامة عقائدها ومبادئها ووجودها اشتد عودها، وقوي جهازها الرادع، وهابها القاصي والداني من الناس وشاع في ربوعها الأمن والاستقرار وهنئ أبناؤها ورعاياها وانتشرت فيهم معالم البحبوحة والسعادة والرخاء.

والأمة التي لا يتعدد ضحاياها، ولا يكثر فيها المستشهدون دفاعاً عن العقيدة والشريعة والآداب والمثل التي أمرهم الله بالدفاع عنها والتي تنظم الحياة وتحفظ

الهيبة والكرامة والحق والحرية والعدالة أمة غير جديرة بالعزة، بل حرية بأن يتخطفها الناس من كل حدب، ويطمع بها القوي والضعيف والصالح والفاسد.

فالشهداء من الأمة إذن بمثابة القاعدة من البناء على جثثهم ينتهض بناء الأمة ويسمق حتى يطاول السحاب شموخاً وعزة وإباء.

والشهداء من الأمة بمثابة الروح من البدن يضوي كيان الأمة بدونهم ويذبل، ثم يصوح ويزول تماماً كما يكون من البدن ساعة تبارحه الروح إلى لقاء ربها.

بل إن كل قطرة من دماء الشهداء تهرق على أرض الوطن تشربها التربة، ولا تضيع فإذا كان الماء الذي يمس الأرض يهزها ويربيها، ويخرج منها من خلال النبات وأغصان الشجر حباً جنياً، وثمراً شهياً، وأكلاً طيباً هنياً فإن دم الشهيد لا يكاد يسيل من عروقه، ويسقي أديم الأرض، ثم يسوخ في ذرات التراب حتى يبرز من جديد من خلال أحاسيس البشر وأفكارهم، وطاقاتهم الوجدانية غضباً عاصفاً يموج في الأثير، ثم ينصب على رؤوس الظلمة الغاشمين عزة وشمما وقوة تربو بها نفوس الأبناء والآباء والإخوة والأقرباء، وأبناء الوطن الواحد.

بل إن دم الشهيد هو وقود حياة الأمة وهو الطاقة الخفية التي تشق للأمة طريق المجد والخلود، وتظللها بسحائب الرحمة والخير والطمأنينة والرخاء.

ومهما يكن عطاء الله لهؤلاء الشهداء بعد ذلك ومهما يكن احتفاؤه بهم وتمجيده لذكرهم وإكرامه إياهم، فهم له أهل، لأنهم عملوا في مرضاته تعالى، وشروا أنفسهم في سبيله.

كذلك كثر الشهداء في عصري الإسلام الأول والثاني فعلا نجم الأمة وانتشر ظلها حتى عم العالم القديم تقريباً.

وكذلك فإن العالم الإسلامي اليوم في معاركه السافرة الضارية مع الاستعمار والصهيونية أحوج ما يكون لتعزيز نضاله وشحذ نشاط بنيه وإلهاب أحاسيسهم للثأر من الظالمين والمعتدين، والدفاع عن أراضيهم وأعراضهم، ومقدساتهم وكرامة الآباء والأجداد، وأولا وقبل كل شيء للذب عن المعتقد الثمين، عن الإسلام العظيم الذي ارتضاه الله للناس ديناً.

أقول إنه أحوج ما يكون في ذلك إلى رسالة الدم الزكي القاني، وإزهاق الأرواح الطاهرة النبيلة، شهيدة، في سبيل الله والحق والعدل هذه المعاني الكريمة التي كفر بها كثير من الأمم وداسها ا(لإنسان الحديث بنعا).ه.

إن فلسطين ومقدساتها لن تعود للعرب والمسلمين بالكلام يطرح هنا وهناك، ولا بتفضل الناس الأباعد ومناصرتهم المشروطة أو غير المشروطة بل إن عودتها مرهونة بفضل جهاد أبنائها وجهاد إخوتهم المسلمين ونضالهم.

إن معركة فلسطين اليوم هي المحك لقدرة العرب والمسلمين في هذا العصر على حماية أنفسهم ومقدساتهم وعلى جدارتهم في العيش في عزة وكرامة وبمواكبة تدرج الأمم في مدارج الرقي والعز والشرف.

* * *

حديث عن لبنان عبر لقاء مع سماحة مفتيه الشيخ حسن خالد

العدد (١٦٢) جمادى الآخرة (١٣٩٨هـ) - مايو (١٩٧٨).

لبنان شغل العالم معه بأحداثه المتتابعة.. لبنان ميدان صراع منذ أمد بعيد.. لبنان تقع على أرضه أبشع جرائم ارتكبها إنسان الحضارة الزائفة.. وفي لبنان سالت دماء زكية.. وتداخلت الأحداث وتشابكت الأمور.. وامتد رداء الفتن الأسود ليغطي على لبنان الطبيعة.. الذي أبدعه الله جمالاً وإشراقاً.

لبنان بلد بالأحداث يغلي.. وكلما أوشكت نار الفتنة أن تخمد.. أمدها بالوقود تجار الحروب وسفاكو الدماء.. حتى كانت قمة المأساة في غزو بربري وحشي قامت به دولة الصهاينة غير الشرعية على أرض لبنان.. وسقط ألوف الشهداء... وتشرد ألوف الأبرياء... وعاثت إسرائيل في الأرض فساداً... والعرب والمسلمون - الرسميون - بقواتهم الرادعة في موقف المتفرج المستنكر للعدوان أحياناً... المهدد باتخاذه اللازم في الوقت المناسب.. والوقت المناسب- في نظرهم- لم يحن بعد!! ويعيش لبنان مأساته... جرحاً لا يندمل... ونزيفاً لا يتوقف... وهدماً لكل بنيان... وإزالة لمظاهر الحياة...

● **وبعد، جاءت قوات الأمم المتحدة... لتحتل مواقع الفدائيين...**

ولتؤمن انسحاب المعتدين... ولتحمي دولة الإرهابيين...

فماذا أنت فاعل يا أخي في لبنان؟ وماذا أنت فاعل يا أخي في كل مكان عربي وإسلامي؟ وكيف يتحقق سلام مع أعداء السلام؟..

اللهم إنه لا حل إلا في قولك... وقولك الحق- : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا

نَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال: ٦٠).

وعزاؤنا في كل نقطة دم طاهرة أريقت في سبيل الله.. وعزاؤنا في كل شهيد هو في رحاب الله... قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (آل عمران: ١٦٩- ١٧١) وسط هذه المشاعر استقبلت الكويت وفداً لبنانياً كريماً... جاء قبيل الأحداث الأخيرة ليقوم بواجب التهنئة لسمو أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الصباح بمناسبة توليه مقاليد الحكم في الكويت العزيز- كما قال سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد- وقال سماحته: لقد سعدنا بمقابلة سموه لهذه الغاية إلا أننا اغتنمناها فرصة طيبة لنتذاكر مع سموه ومع المسؤولين في دولة الكويت كل ما يعود على التضامن العربي، وعلى التعاون الإسلامي بالخير والبركة.

هذا... والوفد اللبناني برئاسة سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد.

وعضوية كل من السادة:

فضيلة الدكتور/ صبحي الصالح: مدير كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ونائب رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.

الأستاذ/ حسن القوتلي: المدير العام لشؤون الإفتاء وعضو المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.

السفير الأستاذ/ محمود حافظ: عضو المجلس الاستشاري للإفتاء.

الأستاذ/رفيق البراج: رئيس ديوان المحاسبة سابقاً وعضو المجلس الاستشاري للإفتاء.

وقام الوفد الضيف بزيارة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية... ودار الحديث بين الوفد اللبناني برئاسة سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد... والمسؤولين بالوزارة برئاسة الوزير السيد/ يوسف جاسم الحجي حول أوضاع

المسلمين في لبنان... وما يعانيه إخوة لنا هناك من صعاب... ووسائل التعاون بين وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية... ولبنان المسلم... من أجل رفع المعاناة عن المسلمين هناك. ثم كان لنا هذا اللقاء مع سماحة مفتي لبنان... وكان البدء التعرف على طبيعة منصب مفتي الجمهورية اللبنانية...

● **خطورة منصب الإفتاء في لبنان**

قال سماحته: إن قولكم إن منصب مفتي الجمهورية اللبنانية له طبيعة عمل خاصة تتميز عن طبيعة العمل بالنسبة للإفتاء في أي بلد آخر إنما هو قول واقعي وصحيح، فرضه الوضع العام في لبنان، فهو وضع لا يعطي مفتي الجمهورية هذه الطبيعة الخاصة في العمل والمسؤولية. وإنما يعطيها أيضاً لرؤساء الطوائف في لبنان جميعاً.

وإنها في الحقيقة مسؤوليات كبرى أمام الله والناس نرجو في كل لحظة أن يوفقنا الله للقيام بها بكل أمانة، كما نرجو أن يجنبنا الزلل والخطأ، فإننا في كل لحظة معرضون لذلك، ولكنا إذا استعنا بالله- وهذا شأننا في كل ما نعمل- فإننا بإذن الله سوف نظل في الطريق نحو ما نطمح إليه من مرضاة الله في خدمة الناس.

أما هذه الصلاحيات أو المسؤوليات التي أنيطت بالإفتاء فهي كثيرة ومتشعبة، إلا أنها لم تكن في يوم من الأيام متروكة من غير نصوص قانونية تضبطها، ومواد تشريعية تنظمها، ولقد نصت قوانين البلاد صراحة على هذه الصلاحيات، وإذا حاولنا أن نحدد مصادر صلاحياتنا ومسئولياتنا القانونية اللبنانية فإنها تنحصر في مرسومين أو قانونين أساسيين.

أولهما: المرسوم الاشتراعي رقم ١٨- الخاص باستقلال المسلمين في تنظيم شؤونهم الدينية.

ثانيهما: مرسوم تنظيم المحاكم الشرعية...

ومن خلال هذين القانونين يمارس مفتي الجمهورية مسؤولياته وصلاحياته على الأصعدة التالية: أولاً: الإفتاء ومن خلاله تمثيل المسلمين أمام جميع المراجع الرسمية في الداخل والخارج باعتباره رئيساً للطائفة الإسلامية السنية في لبنان.

ويتمتع بالامتيازات والصلاحيات التي يتمتع بها رؤساء الطوائف في لبنان جميعاً، هذا من الناحية التمثيلية لمنصب الإفتاء. أما من الناحية الإجرائية فإن مفتي الجمهورية هو مرجع الاستفتاءات جميعاً التي ترد إلى دار الفتوى في شؤون الناس الحياتية على ضوء أحكام الشريعة الغراء.

وعلى ذلك فإن هناك جهازاً للإفتاء منتشراً في مختلف مناطق الجمهورية، مؤلفاً من مفتين في المناطق، ومن مدرسي فتوى يساعدون مفتي الجمهورية في تحمل أعباء هذه المسؤولية.

ثانياً: وبطبيعة الحال، ولما كانت الدولة رسمياً دولة غير إسلامية فإنه ليس فيها وزارة للأوقاف والشؤون الإسلامية، فكان من نتيجة ذلك أن وقعت مسؤولية وزارة الأوقاف التي تضطلع بها أي وزارة للأوقاف في أي بلد إسلامي على مفتي الجمهورية.

فأصبحت الدعوة الإسلامية وشؤون المساجد، والتوعية الإسلامية، والإعلام الإسلامي في جميع مدارس الحكومة اللبنانية، كل ذلك يقع على عاتق الإفتاء وحده، عليه أن يخطط ويبرمج العمل هذا كله، وينفق عليه الإنفاق الكامل، ومفتي الجمهورية هنا يعاونه في تنظيم شؤون الأوقاف مجلسان: مجلس تشريعي يشترك في عضويته جميع رؤساء الوزراء السابقين ورئيس الوزراء الحالي كأعضاء طبيعيين، وعلماء الشريعة الإسلامية، وأساتذة الجامعات، واختصاصيون، بعضهم ينتخب من قبل هيئة عامة، وبعضهم يعين من قبل مفتي الجمهورية، وهذا المجلس يعاون المفتي في إدارة أحوال المسلمين وفي إصدار القوانين الإسلامية التي تطبق في البلاد متى صدرت عن هذا المجلس. ومجلس آخر: هو المجلس الإداري للأوقاف، والذي تنحصر أعماله في الإدارة الوقفية.

ثالثاً: المحاكم الشرعية التي تهتم وتنظم الأحوال الشخصية لدى المسلمين بمقتضى النصوص الشرعية، ويعتبر المفتي رئيس مجلس القضاء الشرعي الأعلى للطائفتين الإسلاميتين الكبيرتين السنية والشيعية.

رابعاً: الأمور أو المؤسسات الاجتماعية التي تعنى بالخدمات الاجتماعية

لأبناء المسلمين ولدور الأيتام، حيث تنص المادة ٣ من المرسوم الاشتراعي رقم ١٨ على أن مفتي الجمهورية يعتبر راعياً لها في جميع مناطق الجمهورية.

خامساً: الأحوال المصيرية العامة للمسلمين ومطالبهم العامة التي تتعلق بمسؤوليات الدولة والحكم تجاه المسلمين بشكل عام. إنها مسؤوليات كبرى كما ترى متشعبة، ولكن نستعين بالله أولاً وآخرا ونحن نقوم بها راجين من الله سبحانه أن يوفقنا لما فيه الخير والرضوان.

* * *

ويمضي بنا الحديث مع سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد.

وهو متحدث لبق، وذو ثقافة واسعة، فيه صفاء المسلم، وإشراق العالم الجليل.. فيقول سماحته عن التعليم الإسلامي ودوره في لبنان:

إن للتعليم الإسلامي دوراً في لبنان من غير شك، ولقد أشرت سابقاً إلى أن التعليم الإسلامي في مدارس الحكومة كلها وفي مختلف مراحل التعليم، وعلى مستوى الجمهورية مطلوب من الإفتاء باعتباره مسؤولاً عن الأوقاف التي تدفع ميزانية التعليم الإسلامي، ومع أن الدولة خصصت في مدارسها الحكومية ساعة في الأسبوع لكل فصل، فإن ميزانية الأوقاف الإسلامية لا تغطي من هذا التعليم إلا منطقة بيروت، وصيدا، وطرابلس وبعض المناطق الأخرى، بالرغم من مساعدة الأزهر الشريف بأساتذة أكفاء يوفدون إلينا كل عام.. وإننا نرجو أن يهيئ الله لنا الظروف التي معها نستطيع أن نغطي ساعات تعليم الدين الإسلامي في كل مدارس الحكومة اللبنانية.. هذا على الصعيد الحكومي.

أما على الصعيد الخاص فإن لدينا مدرستين إسلاميتين كبيرتين..

أولاهما: أزهر لبنان.

وثانيتهما: كلية التربية والتعليم في طرابلس.

وهما المدرستان الدينيتان الوحيدتان المختصتان بتعليم الدين الإسلامي وتخريج علماء الشرع بمستوى المرحلة الثانوية، بحيث يلتحقون بعد ذلك بجامعة

الأزهر الشريف، أو جامعة المدينة المنورة، ليكملوا دراستهم الشرعية على المستوى الجامعي، وهناك مدارس أخرى كثيرة - والحمد لله - تعلم الدين الإسلامي إلى جانب العلوم المدنية الأخرى، وتتراوح ساعات تدريس الدين الإسلامي بالنسبة لكل فصل في هذه المدارس الخاصة بين ساعتين وخمس ساعات في الأسبوع، وتأتي في طليعة هذه المدارس التي تربي الطالب المسلم تربية إسلامية صحيحة مدارس الإيمان، ومدارس المقاصد، في بيروت، وصيدا، وطرابلس، والقرى. إلا أننا نطمع دائماً في أن نرى المزيد من هذه المدارس يقوى وينمو في هذا الطريق القويم.

● المسلمون بين الواقع والأمل

ثم يأخذنا الحديث مع سماحة المفتي إلى إلقاء الضوء على واقع المسلمين- اليوم- ومدى تلاؤمه مع الإسلام كقيم عليا وتعاليم سامية.. فيقول الشيخ حسن خالد:

لا شك أن المسلمين في لبنان متمسكون بقيمهم الإسلامية، وتعاليمهم الدينية، تمسكا قوياً، يقوم على الوعي والفهم والالتزام بشكل يدعونا إلى التفاؤل بأن المزيد من الجهد والمزيد من العمل في نشر الدعوة الإسلامية من شأنه أن يعزز الواقع الإسلامي بالشكل الذي نطمح إليه.

إذن سماحتك متفائل، وتأمل في غد أكثر إشراقاً، وترى أن الجهد المبذول متى ضوعف من أجل النهوض بمسلمي اليوم سيؤتي ثماره الطيبة، وجناه الحلو، ونحن مع سماحتك نطمح إلى غد عزيز ولكن الغد يبنى على واقع اليوم.. وواقع لبنان أحزاب وتنظيمات سياسية بلا حدود.. فما طبيعة العمل الإسلامي في هذه المرحلة؟

يقول سماحته:

لابد من الإشارة إلى أن لبنان في أجواء الحرية عامة، والحرية غير الملتزمة بشكل خاص أصبح ميداناً رحباً للتيارات السياسية والعقدية ذات الدوافع المحلية من ناحية، والخارجية من ناحية أخرى، تتصارع فيه، ولكنها تتفق في مناوأتها

للإسلام محاولة ضربه وضرب المسلمين معاً. إلا أن المسلمين وقد شعروا منذ القدم بهذه الخطورة، فقد برزت بين صفوفهم حركات إسلامية واعية، تكتلوا على أساسها، وبرزت جماعات وأحزاب وهيئات ومؤسسات اجتماعية وثقافية في الغالب، تعلن التزامها بالدين الإسلامي عقيدة ومنهجا وتطبيقاً، ولقد قويت هذه النزعة خلال الحرب، فظهرت تنظيمات عسكرية، وأحزاب ومجموعات رفعت شعارات إسلامية صراحة، مما يبدو معه أن هذه التنظيمات في عهد السلام والوفاق ستلتزم بالنضال السياسي، والتكتل الاجتماعي على أساس إسلامي وطني، يمد لبنان وشعبه بالخير والرفاه.

● **سماحة الإسلام**

ويمضي الحديث سالكاً مجراه في انسياب وسهولة ويسر.. مكتسباً من طبيعة محدثي السمحة العذبة الشيء الكثير.. فيقول عن الإسلام وسماحته وتعايشه مع الطوائف الدينية في لبنان:

أريد أن أصحح أنه ليس هناك على الإطلاق طائفة دينية أخرى تحقد أو تعادي الإسلام والمسلمين، إذا كان من عداء للإسلام والمسلمين في لبنان، فإنه عداء سياسي غالباً ما يظهر من السياسيين أنفسهم،إما تحت ستار الطائفية وإما تحت ستار الحزبية الملحدة، فالطائفية التي هي مذهب سياسي في الغالب يقوم على أساس إعطاء الامتيازات الطائفية على حساب المسلمين، والحزبية الملحدة التي تقوم على ضرب العقيدة الدينية عند كل المتدينين هي سبب الحقد والعدوان.

إن مظاهر التسامح الإسلامي في لبنان تتمثل في دعوة المسلمين ومطالبتهم بالمساواة، والعدالة في معاملة المواطنين جميعاً بلا تفريق تحت أي شعار.. إننا نعترف بكل الأديان السماوية.. ونعظم كل رسل الله وأنبيائه، شعارنا الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الحقد الطائفي الذي هو سياسة بحد ذاته فيتلخص في الامتيازات الطائفية التي يحرص عليها البعض، والتي ليست من الدين في شيء.

* ولبنان بمآسيه وآلامه، بأحداثه ومشكلاته، بمعاناته وجراحاته، يشغل

عالمنا العربي والإسلامي، ويصيب الأمة في ضميرها.. ويدمي قلوب المؤمنين المخلصين.. ويقول البعض عن غياب الوجه الإسلامي عن ساحات الصراع في لبنان.. فيجذب طرف الحديث بطريقة بارعة محدثي الفاضل.

فيقول: صحيح أن الأحداث المؤسفة الأخيرة شغلت العالم العربي والإسلامي، بل والعالم كله، لأن العالم كله له دور في أحداث لبنان بشكل أو بآخر، إن الصراع العالمي بمتفرعاته لم يجد من ساحة له إلا هذه الرقعة الصغيرة من العالم التي هي لبنان، ولعل وضع الامتيازات الطائفية هو الذي ساعد على هذا الاستغلال لأرض لبنان وشعب لبنان، أما غياب الوجه الإسلامي عن ساحة الصراع هذه فأعتقد أنه حكم ليس في محله. لأن المسلمين كانوا قبل الحرب وخلالها وبعدها وما زالوا حتى هذه الساعة موجودين، يتشاورون، ويجتمعون في كثير من الأحيان، كما اجتمعوا وأجمعوا في دار الفتوى على إسقاط حكومة لم يرضوا عنها، وأحلوا محلها حكومة دولة الرئيس رشيد كرامي، والاجتماعات المتواصلة والمتكررة التي كان يعقدها زعماء البلاد المسلمون في «عرمون» بمنزلي.

حيث كانوا يطلبون باستمرار دعوتهم إلى هذا المنزل المتواضع ليجتمعوا فيه ويقرروا أمرهم، أضف إلى ذلك أن تنظيمات إسلامية- كما أشرت- ظهرت على الساحة، وأثبتت وجودها، وهذا كله يؤكد على الحضور الإسلامي، أما الغياب الذي يشير إليه البعض فأنا أعتقد أنه كان نتيجة للدعايات المغرضة التي يحاولون إلصاقها بالمسلمين في جولة إعلامية ذكية لكسب تأييد العالم العربي بشكل خاص.

● التقريب بين المذاهب الإسلامية

* وحول التقريب بين المذاهب الإسلامية.. والجهود المبذولة بهذا الصدد جرى بنا الحديث في واديه السهل الخصيب.

فيقول مفتي لبنان:

إن الدعوة إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية لا تجد صداها الحبيب في هذه

الأيام فحسب، وإنما هي دعوة ترضي الله في كل زمان ومكان، لأنها من صلب الدعوة الإسلامية، وفي أساسها.

ولقد كانت لنا قبل الحرب اجتماعات دورية، نعقدها باستمرار على صعيد رؤساء الطوائف الإسلامية فنتشاور في كل ما يعود على التقريب بين المذاهب بالخير، والرضا من الله سبحانه وتعالى، ولقد باشرنا- قبل الحرب أيضاً- في جلسات عمل مع سماحة الإمام موسى الصدر لوضع أسس للتقريب والعمل الإسلامي المشترك، وتوحيد النشاط الديني بشكل عام، إلا أن الحرب جاءت واستنزفت منا هذه الرغبة إلى حين، غير أننا بمشيئة الله وعندما تتوفر لنا أسباب الاستقرار، وأسباب أخرى لا بد منها، سوف نعود إلى أكثر مما كنا عليه من العمل في هذا المجال، وإننا لبالغوه بإذن الله.

• الإسلام دائماً مع الوفاق الوطني

*** وكانت قد ترددت في لبنان مؤخراً أنباء عن صدور الوفاق الوطني- فانتقل بنا الحديث حول هذا الوفاق الوطني، ومدى ملاءمته للطموح الإسلامي في لبنان.**

فقال محدثي الفاضل الواسع الثقافة الواضح البيان:

إن الوفاق الوطني في لبنان يسير في طريقه المرسوم الذي يبدو أن المواطنين جميعاً راضون عنه، فلقد اجتمعت الحكومة بعد استطلاع رأي الزعماء السياسيين، والروحيين، ووضعت عناوين لهذا الوفاق على صعيد الحكم، والإدارة، والجيش، وتنوي الحكومة أن تدفع بهذه العناوين من خلال قرارات تتخذها إلى المجلس النيابي ليقرها، ثم بعد ذلك تأخذ دورها في التطبيق، ويبدو حتى الآن من هذه العناوين أنها مستمدة من الوثيقة الدستورية المعروفة، إن المصلحة الإسلامية دائماً في الوفاق الوطني، ولا مصلحة للمسلمين بالاختلاف الوطني، فنرجو من الله سبحانه أن يساعدنا على دعم كل ما يمكن أن يجمع عليه اللبنانيون، محافظة على لبنان وعروبته ووحدته.

• الصحافة الإسلامية وسط صحافة لبنان

* ويعرج بنا الحديث إلى ميدان الصحافة في لبنان.. وهو ميدان صاخب شأن كل شيء في لبنان الآن.. وعن الصحافة بشكل عام والصحافة الإسلامية بشكل خاص.

قال سماحته: إن دور الصحافة في لبنان دورو خطير للغاية، ويكفي أن تعرف أن هناك تسعاً وتسعين مطبوعة في لبنان من صحيفة ومجلة، كلها تصدر في هذا البلد الصغير، لتعرف كم هي التيارات كثيرة ومتضاربة في لبنان، ولاشك أن لكل صحيفة تياراً واتجاهاً يعكس الأحداث اللبنانية من وجهة نظر مختلفة عن الأخرى، مما يزيد في البلية والفوضى، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أنه كانت هناك صحافة أساسية لها الدور في التوجيه الإعلامي خلال الحرب وبعدها.

أما الصحافة الإسلامية، فإننا في دار الفتوى نصدر مجلة شهرية هي «الفكر الإسلامي» وأعتقد أنها تصل إليكم، وهي تعبر بما تتضمنه من آراء عن الاتجاهات الإسلامية في كثير من القضايا المطروحة، ولقد قويت هذه المجلة بعد الحرب، ثم ظهرت صفحة إسلامية أسبوعية في جريدة يومية، ثم تلتها جريدة يومية أخرى بصفحة إسلامية أخرى، إلا أن هذا لا يفي بالحاجة بعد، وإننا نرجو أن ترتكز حركة الإعلام الإسلامي هذه على أسس من التنسيق والدعم الذي نأمل أن تتوفر له جميع الظروف المناسبة.

• إمكاناتنا لا تسمح بفتح مساجدنا كلها

* ولا يفوتنا الحديث عن المسجد ودوره الحضاري والتاريخي.. ومدى ما عاناه المسجد في لبنان..

يقول سماحة مفتي لبنان: إن لدينا في لبنان حوالي ٤٠٠ مسجد، منتشرة في مختلف مناطق الجمهورية، وأحب أن أقول هنا بكل صراحة إن إمكاناتنا منذ عشرين سنة أو أكثر لا تسمح لنا بفتح هذه المساجد جميعها، إنه بالرغم من مساعدة الأزهر الشريف بالدعاة، وبالرغم من مساعدة رابطة العالم الإسلامي بالمال لفتح كثير من مساجد «عكار» في الشمال، فإن بعضا من هذه المساجد

ما زال مغلقاً، إلا أن لدينا خطة لفتح كل المساجد المتبقية مهما كلف الأمر من مال وجهد، لأننا نعتقد أن للمسجد رسالته في بناء حياة المسلم وشخصيته، كما أن لدينا خطة لجعل المسجد مكاناً للخدمات الاجتماعية في الوقت الذي هو فيه مكان للعبادة، إننا نشعر شعوراً عالياً بعظم هذه المسؤولية الملقاة على عاتقنا لأن تأثير التيارات الغريبة على شبابنا يكاد يتهددنا، ونحن لا نستطيع أن ندفع بهذا الشر إلا من خلال بناء الشخصية الإسلامية من خلال المسجد الذي هو مدرسة الإسلام الأولى، تربي المسلم التربية النفسية والاجتماعية، والروحية اللازمة، وتؤدي له الخدمات والتوجيهات التي يحتاج إليها في حياته الخاصة والعامة.

ولكن: مما يؤسف له كثيرا أن عدداً كبيراً من المساجد في لبنان قد أزيل تماماً وهدم خلال الحرب، كما تصدعت الكثرة الكاثرة من العقارات الوقفية التي كانت تمد هذه المساجد بالمادة اللازمة للدعوة والنشاط.

● **لكل بلد مشكلاته.. والحل في كتاب الله وسنة رسوله**

* هكذا عايشت معي- أخي القارئ - الوضع الإسلامي في لبنان، واطلعت عن كثب على أوجه الصراع في لبنان، ورأيت مدى المعاناة والمشكلات التي تعرقل الجهد الإسلامي في لبنان، وحول هذه المشكلات والبحث عن مخرج منها يقول سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد:

أي واحد منا لا يستطيع أن يحصر في هذه العجالة مشكلات المسلمين داخل لبنان وخارجه، إلا أنني لست من الأشخاص المولعين بوصف دواء واحد لكل الأمراض، إنني أعتقد أن لكل بلد مشكلاته الاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والسياسية، وما إلى ذلك، فإذا استطعنا أن نأخذ كل بلد على حدة، وندرس مشكلات المسلمين فيه دراسة اجتماعية زمانية ومكانية تلحظ المتغيرات فإنه من الممكن أن نضع سلماً للأوليات في حل هذه المشكلات، ثم نبدأ بحلها واحدة بعد أخرى على ضوء كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الكريم.

● **قدمنا الحضارة للعالم**

وأخيراً.. أخذت من وقت محدثي زمناً طويلاً... وأراه في حاجة إلى وقت

يستريح فيه، فمدة تواجده بالكويت مشحونة ببرنامج خاص للاطلاع على نهضة الكويت، وزيارة معالم النشاط الإسلامي بها.

فرأيت أن نختم حوارنا مع سماحته بكلمة يوجهها إليك.

● **أخي القارئ:**

يقول إنه يسعدني أن أحيي أولاً مجلة «الوعي الإسلامي» التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لما تتحلى به من وعي إسلامي حقيقي، ومن حرص على رفع كلمة الله عالياً، وإني لأرجو من الله أن يوفقها ويوفق العاملين فيها إلى ما فيه الرضا والفلاح، وإنني عبر هذه المجلة الصادقة في دعوتها، لأرجو لقرائها مزيداً من الاطلاع، ومزيداً من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وبسيرة رجالاتنا العظام الذين صنعوا تاريخنا، وبنوا حضارتنا على أسس متينة، قدمها لنا الإسلام، فجعلنا نقدم الحضارة للعالم كله.

وهكذا نأتي على نهاية لقائنا الخير بسماحة الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية، ونرجو لسماحته وللوفد المرافق طيب الإقامة...والتوفيق في عملهم المتواصل من أجل خدمة المسلمين في لبنان.

غير أنه يبقى لبنان النغمة الحزينة في عالمنا العربي والإسلامي طالما ظل أتون حرب، وميدان تطاحن وصراع. وإننا لندعو الله مخلصين أن يحمي لبنان من كيد الماكرين، وعدوان الظالمين... اللهم آمين.

* * *

١٨ مقالات

الشيخ د. صبحي الصالح

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- ملحمة الهجرة خطة وتصميم.

العدد (٣٧) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م).

٢- البلاغة النبوية.

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو ١٩٧١م).

ترجمة الشيخ

د. صبحي الصالح

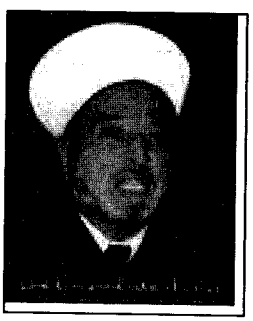

● **مولده ونشأته:**

ولد الشيخ صبحي الصالح في الجمهورية اللبنانية في مدينة طرابلس سنة ١٩٢٦م من عائلة تركية الأصل، وتابع فيها دراسته الابتدائية، والمتوسطة والثانوية المدنية والشرعية في دار التربية والتعليم، ثم حصل على الشهادة العالية «الإجازة» من كلية أصول الدين في الأزهر عام ١٩٤٧م ثم العالمية عام ١٩٤٧م ثم سافر إلى فرنسا فنال شهادة دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة السوربون عام ١٩٥٤م.

قضى حوالي ثمانية وعشرين عاماً في التدريس الجامعي، في جامعة بغداد ١٩٥٤-١٩٥٦م، وفي جامعة دمشق (١٩٥٦-١٩٦٣م)، وفي جامعة بيروت العربية عمل أستاذاً للإسلاميات وفقه اللغة منذ تأسيسها وحتى وفاته، وفي الجامعة الأردنية١٩٧١-١٩٧٣م، وكان فيها رئيساً لقسم أصول الدين، وعيّن أستاذاً في الجامعة اللبنانية منذ العام ١٩٦٣، وانتخب رئيساً لقسم اللغة العربية وآدابها فيها منذ عام ١٩٧٥م، ثم عيّن مديراً لكلية الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٩٧٧م، ثم صار أستاذ كرسي الإسلاميات وفقه اللغة العربية فيها. وحاضر أستاذاً زائراً في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، والكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين في الجامعة التونسية، وسمي في جامعة ليون الثالثة بفرنسا مشرفاً على رسائل الدكتوراه في الدراسات الحضارية واللغوية والإسلامية، عين نائباً لرئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في لبنان، وأميناً عاماً لرابطة علماء المسلمين، وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة، وأكاديمية المملكة المغربية،

والمجمع العلمي العراقي، ولجنة الإشراف على الموسوعة العربية الكبرى، كما منح جائزة التفكير الاجتهادي في الإسلام.

وله رحمه الله العشرات من المؤلفات والبحوث والدراسات مشهورة منثورة، ومنها ما خصَّ الشيخ به مجلة «الوعي الإسلامي» الكويتية.

كان له رحمه الله شخصية قوية، وبديهة حاضرة، وحضورا محببا، وجاذبية عفوية، وقد كان له في التلفزيون الأردني منذ أكثر من ثلاثة عقود مساجلات علمية راقية جداً مع بعض العلماء.

● **وفاته:**

توفي الشيخ في بيروت ٧/ ١٠/ ١٩٨٦م بإطلاق الرصاص عليه، رحم الله فقيدنا، وأسكنه فسيح جناته، وحشره مع الذين أنعم الله عليهم.

ملحمة الهجرة
خطـــة وتصميـــم

العدد (٣٧) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨).

إذا استشففنا حجاب التاريخ ألفينا فيه هجرة الرسول أبرز حادثة من حوادث الدهر، ولكي تكون كذلك- وهي حقاً كذلك- لا بد أن يكون لبطولة الرسول فيها أثر، ولا بد أن يكون لشجاعته ونضاله وجميل صبره وطول أناته فيها أثر، ولا بد بوجه عام من ربط عوامل نجاحها بشخصيته الكاملة وفكره الثاقب وعقله الراجح، فبهذا كله يسعنا أن نقول: إن تلك الهجرة كانت ملحمة خالدة، بل أخلد الملاحم، وإن بطلها هو النبي العظيم، لأنها قبل أن تختم بالنصر افتتحت بالاضطهاد والعذاب، وكانت بين الفاتحة والخاتمة سلسلة من صور بطولة النبي، ومواطن شجاعته، ومشاهد نضاله وجهاده.

ومن الناس من يقتنع في سذاجة عجيبة بأن ملحمة الهجرة لم تك إلا وحياً من عند الله خالصاً وأقل ما يعنيه هذا القول المدهش إلغاء كل عمل شخصي للنبي الكريم في إنجاح هجرته أو رسم خطته، كأنه عليه الصلاة والسلام لم يستشعر قط ضرورة القيام بها والتفكير فيها ثم تنفيذها على الوجه الأكمل. ومثل هذا القول كان يقتضي بداهة أن يقدم الله لنبيه الحبيب موعد هجرته إنقاذاً له من قومه الجفاة العتاة، ومن أذاهم واضطهادهم له وسخريتهم به، ولكن الله حين ترك نبيه البطل ثلاثة عشر عاماً في مكة يلقى صنوف العذاب ما ودعه وما قلاه، وإنما أراد أن يذيقه حلاوة النصر بعد مرارة الصبر والمصابرة والكفاح والنضال، حتى يفتح أعين الذين آمنوا على سنته في خلقه، فلا يغتروا بانتسابهم إلى الإسلام من غير جهاد، أو يستسلموا إلى الوهن وهم يحسبون أنهم على ربهم يتوكلون.

كان الجو في مكة قاتماً مكفهراً في كل ناحية، وكان كل شيء في مكة يدعو

إلى اليأس، ولكن النبي لم ييأس وما كان لنبي أن ييأس، فإن عليه تبليغ ما أنزل إليه من ربه وإن لم يفعل فما بلغ رسالته، والله يعصمه من الناس! رأى ﷺ من كفر قريش وكبرها وعنادها ما أكد له أنها لن تعرف طريق الإيمان، وعرض نفسه على القبائل فردته رداً غير جميل، ولاسيما في الطائف التي لقي فيها أشد العذاب، حتى لجأ إلى كرمة يتفيأ ظلها ويبتهل إلى ربه بهذا الدعاء الضارع المستغيث: «اللهم أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي» فلم يكن بد- بعد هذا الجو المكفهر المقيت- من أن يلتمس النبي الكريم للدعوة جواً تستطيع التنفس فيه، ولم يكن بد من أن يجد ﷺ الجو الآمن الجديد المبشر بالخير في غير مكة التي هي مسقط رأسه ومربى طفولته ومزدهر شبابه .

وفكر النبي الذي لا ينطق عن الهوى- أول ما فكر- بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة، لأن بها النجاشي الملك النصراني الذي «لا يظلم عنده أحد» كما قال الرسول الكريم.

وحين أذن الله لنبيه بالهجرة أمره بتنفيذ الخطة التي ألهمه رسمها وتصميم مراحلها، فلم تكن هجرته فراراً من الأذى وهرباً من الاضطهاد، إذ لو أراد ذلك لهاجر إلى بلد بعيد كالحبشة مثلاً، بعد أن نصح أصحابه بالهجرة، إليها، ولكنه صلوات الله عليه كان المثل الأعلى للشدة في الحق، والثبات على المبدأ، فظل يصبر ويصابر حتى تسنح الفرصة ويأذن الله، فلم يتألم من عدوان سفيه، بل كان يجد فيما يحسبه الناس ألماً لذة سامية، وكان سعيداً بآلامه الفوادح، لا يبالي ما دام الله معه يهديه ويسمع سره ونجواه ويكلؤه في منقلبه ومثواه. ولذلك حاول وهو في مكة لما يفارقها أن يضع خطة حكيمة يتابع تنفيذها طورا بعد طور واثقاً من النجاح، مطمئناً إلى تأييد الله، صابراً الصبر الجميل!

إن النبي عليه الصلاة والسلام ليعلم أن موسم الحج هو الملتقى الطبيعي للوافدين إلى مكة من غير المكيين ومن غير القبائل التي عرض نفسه عليها ودعاها

إلى دين الله. ويشاء الله أن تكون بداية الفرج خروج نفر من الخزرجيين إلى مكة في موسم الحج بعد وقعة بعاث المشؤومة التي قتل فيها مئات من الأوس والخزرج، فلقي النبي هؤلاء الحجيج ودعاهم إلى الإسلام فشرح الله صدورهم لدينه الحنيف.

ومع استدارة العام وحلول موسم الحج أتى مكة اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة، فالتقوا برسول الله ﷺ وبايعوه عند العقبة البيعة الأولى، وأرسل معهم لله مصعب بن عمير يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين.

ولما جاءه في العام القابل في موسم الحج سنة ٦٢٢م. خمسة وسبعون من أهل المدينة بينهم امرأتان، بايعهم عليه السلام سراً في جوف الليل على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، واتخذت هذه البيعة الكبرى عند العقبة صورة الحلف أو الميثاق، فقد قال الرسول الكريم للقوم يومذاك: «أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»، واختار منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وهو عليه السلام كفيل على قومه .

ولقد قال حينئذ البراء بن معرور سيد قومه، وهو من الذين أسلموا بعد العقبة الأولى، معلناً البيعة بلسان الجميع: «بايعنا يا رسول الله. فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر». واعترض أبو الهيثم بن التيهان يقول: «يا رسول الله، إن بيننا وبين يهود المدينة عهوداً نحن قاطعوها، فهل عسيت إن قطعنا هذه العهود ثم نصرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» وأجاب النبي الصفي الوفي. «بل الدم الدم والهدم الهدم».

ورغم ما أحيطت به بيعة العقبة الكبرى من سرية بالغة، ورغم إتمامها في جوف الليل عند شعب العقبة في عزلة عن الناس، تسرب إلى قريش نبأ هذه المعاهدة الخطيرة، وأحسب قريشاً قد أحست قبيل هذه البيعة بنشاط النبي في الدعوة ودأبه المتواصل لتبليغ الرسالة. فأرسلت بعض عيونها وجواسيسها يتابعون حركاته، إذ ما كاد الحلف يتم وما كاد الأنصار يقسمون للنبي على تنفيذه نصاً

وروحاً حتى سمعت قريش منادياً يناديها بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب: يا أهل المنازل بمنى، هل لكم في مذمم[1] والصباء الخارجين على دينهم معه قد اجتمعوا على حربكم؟ وربما كان هذا المنادي يريد في آن واحد تحذير قريش وتثبيط عزائم الأنصار. أما قريش فقد بلغ بها الحذر منتهاه حتى جاءت منازل الخزرجيين في شعب العقبة وأنشأ رجالها يعاتبون القوم قائلين: يا معشر الخزرج، نحن لا نريد حربكم، وما نكره أن نقاتل قوماً كما نكره أن نقاتلكم، فما بالكم تبايعون محمداً على حربنا وتخرجونه من بين أظهرنا؟

ولما أيقنت قريش أن هذا الحلف قد تم حقاً. وأن الأنصار سينفذونه فعلاً. خرجت تطلب من قدرت عليه منهم فلم تظفر إلا بسعد بن عبادة بأذاخر قريباً من مكة، فربطوا يديه إلى عنقه بجلد رحله، وجروه من شعره، وردوه إلى مكة وظلوا يعذبونه حتى أجاره حليفان له في الجاهلية جبير بن مطعم والحارث بن أمية.

وأما الأنصار فما ازدادوا إلا إيماناً وتسليماً حتى قال العباس بن عبادة للنبي: «والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا!» ولكن القائد الحكيم عليه السلام أجاب: «لم نؤمر بذلك، فارجعوا إلى رحالكم».

وبينما كانت قريش تفكر بالقضاء على حركة الأنصار في مهدها، وتفكر في حماية أصنامها وعبادها، وفي الإبقاء على سيادتها وزعامتها، أقدم النبي ﷺ ببراعة وحكمة على عمل سياسي عظيم، فأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة فرادى أو نفرا قليلاً، فسوف يجدون النصر والتأييد في يثرب أوسها وخزرجها بين قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وخافت قريش من هجرة المؤمنين إلى المدينة، ففرقت بين المرء وزوجه ومنعت الزوجة القرشية من المسير إلى يثرب مع زوجها المؤمن. ونكلوا أشد التنكيل بكل من أصابوه يعتزم الهجرة والرحيل.

وظل النبي البطل الشجاع في مكة دؤوباً على الدعوة إلى الإسلام، وقال لصاحبه أبي بكر حين استأذنه بالهجرة: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً». وفي رواية أخرى «لم يؤذن لي» وكأنه كان ينتظر الفرصة السانحة التي يلهمه الله

(١) لم يقل المنادي «محمد» عكسها فقال: «مذمم» بغياً من نفسه إثارة للقوم.

أنها ملائمة لتنفيذ خطته الحكيمة البارعة.

ومن يتتبع السيرة النبوية المطهرة بعمق ودقة يوقن بأن الدوافع النفسية التي كانت تحمل الرسول الكريم على اختيار المدينة مهاجراً له تكاد تقطع بأن عمله الشخصي في رسم خطة الهجرة لم يكن ضئيلاً: فقد كانت للرسول في المدينة علاقة قربى، ففيها أخوال جده عبد المطلب من بني النجار. وفيها قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب. وفي السادسة من عمره زار النبي ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب قبر أبيه، ومرضت أمه في الطريق فماتت ودفنت بالأبواء في منتصف الطريق بين مكة والمدينة. ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان أول الأمر يتجه في صلاته إلى ناحية المدينة جاعلاً قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس مقام النبيين، فهل يلغي الدارس هذه الدوافع كلها ولا يرى فيها شيئاً مذكوراً؟.

على أن وضع النبي ﷺ خطة الهجرة لا ينبغي أن يتعارض مع تأييد الله له فيها بالوحي، فإن كلا من الأمرين يتمم الآخر، وينسجم معه بدلاً من أن يناقضه: إذ المعروف عن الرسول الكريم في جميع مراحل حياته أنه قد امتاز بمضاء العزيمة، وعلو الهمة، والكفاح الدائب، والثبات على المبدأ، والثقة بالنجاح، وما كان يستمد هذه الخصال كلها إلا من اطمئنانه إلى الله حتى ذهب مذهب الأمثال قوله لعمه أبي طالب: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وحين أوى النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور، وقفا المشركون آثارهما، قال أبو بكر في جزع شديد: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فهمس النبي الشجاع في أذن صاحبه همسته الخالدة: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟ يا أبا بكر، لا تحزن إن الله معنا» ولذلك عد الله نجاح نبيه في هجرته نصراً ربانياً أيده به، فقال في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (التوبة: ٤٠) وصرح في

سورة الأنفال بأن الله هو الذي مكر بالقوم الذين مكروا برسوله، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال: ٣٠).

ليس من الخطأ إذا أن نقول: إن الله أيد بالوحي محمداً في الهجرة ونفخ فيه من روحه حتى نصره وأنجحه، فلا ريب أن هذا التأييد قد وقع، ولم يكن بد من أن يقع تكريما من الله لنبيه وتثبيتاً لفؤاده، ولكن الخطأ في قول من يقول: أن هذه الحادثة الكبرى كانت وحياً من الله خالصاً، كما أن الخطأ في قول من يزعم أن النبي انفرد برسم خطته، وأنه انتصر بمحض قدرته الشخصية وإرادته، فالحق أن أحداً من البشر مهما تبلغ مقدرته وحكمته وإرادته لا ينفرد بشيء، والنبي الكريم لم يكن بدعا من البشر، ولا بدعا من الرسل، ولكم قص الله على نبيه قصص الأنبياء السابقين: ﴿مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

وعلى هذا الأساس، يمكن الجمع بين الأمرين: فقد قام النبي البطل الشجاع المقدام بالهجرة، تبعاً لخطة وضعها وأحكمها ثم نفذها، وقد استمد عناصر النجاح من تأييد الله له ونصره، وانتظر الإذن الرباني بالشروع فيها وإتمامها على ما يرضي اللّه. وهكذا تجلت في ملحمة الهجرة مشاهد البطولة النبوية التي ما عرفت الأيام ولن تعرف لها نظيراً.

وعلى هذا الأساس أيضاً يمكننا أن نعالج آثار النكسة التي أصابت العرب والمسلمين في الصميم، فعلينا اليوم أن نحصر طاقاتنا كلها في مواصلة النضال، متوكلين على الله رب العالمين، واثقين أن النصر من عنده وحده، وهو العزيز الحكيم.

* * *

البلاغة النبوية

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م).

شغل الناس عن بحث البلاغة النبوية أمران، أحدهما يتعلق بالقرآن والآخر يتصل بالحديث.

أما القرآن فشغل الناس حديثهم عن إعجازه، حتى أخذ بعضهم بالصرفة، وزعموا أن الله صرف الناس عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

وأما الحديث فحالت مكانته التشريعية دون إسهاب البحث في مكانته الأدبية. بل تجرأ نفر من العلماء على أن ينكروا الاحتجاج بالحديث في اللغة والنحو- كما سنرى في حلقة أخرى من هذا البحث، وتجرأ آخرون فأنكروا الاحتجاج بالحديث ألآحادي حتى في التشريع كما سنوضح ذلك بعد قليل.

ولئن عذرنا القوم على انصرافهم بإعجاز القرآن عن بلاغة الرسول، فأنى لهم العذر وقد صرفهم فقه الحديث عن أدب الحديث؟

إن البلاغة النبوية تدور حول محور الحديث، وكما اشتمل الحديث على مواد غنية صلحت لاستنباط التشريع احتوى مواد أخرى لا تقل عنها غنى تصلح أطراً لبيان الرسول أفصح من نطق بالضاد. بل المواد التي صلحت أصولاً للفقه من وجه صلحت بنفسها صوراً للفصاحة من وجه آخر.!

وبلاغه أهل البيان إما شعر وإما نثر، ولكن البلاغة النبوية برئت - لأسباب دينية- من الشعر، وخلصت للنثر، فكان نطاقها الأساسي الحديث المنثور. بيد أن أطر هذا الحديث تعددت تبعاً لتعدد مدلوله الاصطلاحي، فكان في كمه وكيفه مغنياً برائع نثره عن جمال الشعر وسحره.

ولابد أن ننبه هنا إلى ضرب من التشابه آنسناه بين مصطلحات المحدثين وما

نود أن نقترحه من مصطلحات أدبية تعيننا على إماطة اللثام عن وجوه البلاغة النبوية. فالنثر البياني النبوي هو ما يسمى عند المحدثين «بالحديث» و«السنة» على مذهب من يقول بترادف هذين اللفظين[١] وهو على كل حال إما حديث شفوى، وإما خطبة مرتجلة وإما كتاب مدون. وحتى على الرأي القائل بانتفاء الترادف بين ذينك المصطلحين، ليس ضرورياً حصر نطاق دراستنا البلاغية فيما أطلق عليه لفظ «الحديث» بوجه خاص، ابتغاء التأكيد أنه وحده يشتمل على فنون قولية، مرتجلة أو مكتوبة، لأنا لو تناسينا موارد التسمية الاصطلاحية فيما عزي إلى النبي ﷺ من روايات لوجدناها جميعاً ترتد إلى «الأخبار»[٢] ونحن في بحثنا بلاغة الرسول ندور حول محور واحد: هو ما نقل من قول الرسول وأيدته أعماله.

وإنما ألححنا كرة أخرى على المادة القولية، لأنها تشتمل على الصياغة الأدبية اشتمالها على الفكرة التي أراد الرسول بيانها. لكنا- من غير أن نخوض في النزاع بين الشكل والمحتوى - لا يسعنا أن نحصر بحثنا- ولو بلاغياً- في المادة القولية، إذ نحتاج إلى المحتوى الفكري الذي حكى عن الرسول مستلهماً من قوله وفعله وسيرته المطهرة، وإن لم يثبت أنه نطق بالذات بما رووا من ألفاظه وتراكيبه.

والحق أن موضوع «الحديث» لا يغاير موضوع «السنة»، وبالرغم من أن كلا منهما أطلق في كثير من المواطن على غير ما أطلق عليه الآخر، وبالرغم من أن رد لفظيهما إلى أصولهما التاريخية يؤكد وجود بعض الفروق الدقيقة بينهما لغة واصطلاحاً[٣] نستنتج من الرأي السائد بين المحدثين، ولا سيما المتأخرين منهم، أن لا مانع من وضع أحدهما مكان الآخر، ففي كل منهما إضافة قول أو فعل أو تقرير أو صفة إلى النبي الكريم ﷺ[٤].

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني، هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (ج١ ص ٦٤).

(٢) كليات أبي البقاء (ص١٥٢).

(٣) قارن بكتابنا علوم الحديث ومصطلحه (ص٩) الطبعة الخامسة (دار العلم للملايين- بيروت).

(٤) المرجع السابق (ص٣).

على أنا- وإن لم نحصر نطاق دراستنا البلاغية فيما أطلق عليه لفظ «الحديث»- نؤثر أن نلتزم غالباً في جونا الأدبي هذا اللفظ الأشيع أدبياً، حتى نفيء إلى ظلاله الموحية، إذ لو استخدمنا لفظ «السنة» عوضاً عن لفظ «الحديث» لاصطبغ بحثنا- عن غير قصد منا- بلون فقهي أو شرعي، أبعد ما يكون عما تصدينا لإبرازه من أدب الرسول.

وإن ذلك ليملي علينا- فيما نستشهد به من نصوص وأمثلة- أن نعرض الأحكام الشرعية التي قد نضطر إلى شرحها عرضاً موجزاً لا نفصله إلا بالقدر الضروري لإلقاء الضوء على أصل الفكرة، باعتبار هذا الأصل أحد العنصرين المقومين لكل عمل أدبي، ولكل فن قولي، ولكي يصح هذا الاعتبار نحسب القارئ أكثر ارتياحاً إذا عبرنا له «ببلاغة الحديث» لا «بأدب السنة» وكذلك إذا عبرنا له «ببلاغة الحديث» لا «بلاغة السنة». ومع ذلك عنونا بحثنا «البلاغة النبوية» لا «أدب الحديث». وإن هذه التسمية لتشي بشيء آخر: وهو أن الأدب الخلقي الاجتماعي الذي حفل به الحديث حتى عنونت به بعض المصنفات- قد يظن أنه ما نرمي إلى تبيانه بوجه عام، مع أن مرادنا محصور في الجانب الفني تصويراً وتعبيراً لا الجانب الاجتماعي فضيلة وخلقاً .

وذلك لا يمنع أمرين: أحدهما أنا بعد هذا الاحتراز- قد نستعمل- إن شئنا- عبارة «الأدب النبوي» أو «أدب الحديث» ما دام السياق يعين أن الغرض بياني أو بلاغي محض. والآخر أنا بعد هذا الاحتراز أيضاً قد نبرز ما يطيب لنا إبرازه من شمائل الرسول ومكارمه، لا على أنها دراسة تفصيلية لفلسفته الخلقية بل على أنها أنماط من نظرته إلى جانب من جوانب الحياة، وتلك النظرة تشكل حينئذ جزءا لا يتجزأ من عنصر الفكرة في العمل البياني الرفيع.

نخلص من ذلك كله إلى أن قطب دراستنا هو الحديث المنثور الذي يشمل فنون الأدب النبوي مرتجلة ومكتوبة، كأنها انعكاسات لصوت الرسول على شريط مسجل، إذ ارتسمت فيها حركات روحه وخفقات قلبه، وتجلت عليها أصالة تفكيره، وألوان تصويره، ونغمات تعبيره.

ولكي نظل في نطاق هذا الحديث المنثور مفترضين أنه غالباً نتاج الرسول الأدبي فكرة وأسلوباً، ينبغي لنا- اصطلاحاً- أن نشترط في الحديث الذي ندرسه أن يكون مرفوعاً بوجه صريح. والمشهور في المرفوع أنه ما أضيف إلى النبي ﷺ خاصة من قول أو فعل أو تقرير، سواء أأضافه إليه صحابي أم تابعي أم من بعدهما، وسواء اتصل إسناده أم لا[١].

ومن الواضح أنا - بتعريف المرفوع على هذا النحو - إنما لاحظنا انتهاء متن الحديث إلى النبي الكريم بقطع النظر عن إسناده متصلاً أو غير متصل، محكوماً بصحته أو ضعفه: ذلك بأن القول والفعل والتقرير صالحة لأن تسمى «متن الحديث» من غير التفات إلى حال إسنادها حين ينظر إليها لذاتها[٢].

ومن الواضح أيضاً أنا- باشتراطنا المرفوع «الصريح»- احترزنا عن المرفوع حكما إلى النبي من قول أو فعل أو تقرير، وهو الذي يقال له «ما في حكم المرفوع»[٣]، لأن أمثلته وتعريفاته ترد إلى «الموقوف» الذي ينتهي متنه إلى الصحابي لا إلى الرسول، ومثله إذا قبل في الأحكام الشرعية فلفرط حاجتنا إلى الاحتجاج بالسنة العملية التي حكيت سنداً عن الرسول وإن كانت متناً من ألفاظ الصحابي[٤].

وحصر الحديث المنثور في نطاق «الرفع الصريح» يظل «احتمالياً، أو «افتراضياً» لا يلحظ فيه- كما أوضحنا- إلا انتهاء متنه غالباً إلى النبي، وذلك لا يكفي للاستيقان من صحته سنداً، بل ولا متنا، وذلك لا يكفي أيضاً- من زاوية أخرى- لإدارة بحثنا التحليلي الأدبي حول فكرته وأسلوبه، وألفاظه وتراكيبه، فلنخط خطوة أخرى، ولنضف إلى شرط الرفع شرط الاتصال، ليكون كل واحد من رواة الحديث سمعه ممن فوقه حتى انتهى ذلك إلى آخره وحينئذ نسمي الحديث

(١) توضيح الأفكار (الصنعاني) (١/ ٢٥٤) وقارن بشرح النخبة «لابن حجر» (٢٦).
(٢) قارن بكتابنا «علوم الحديث» (٢١٧).
(٣) شرح النخبة (٢٧- ٢٨).
(٤) قارن بتوضيح الأفكار (١/ ٢٦٢).

مسنداً.

لكن المسند - رغم غلبة استعماله في المرفوع المتصل، على الأرجح - لا يجعل منه مجرد إسناده حديثاً «صحيحاً»: لأن المسند- ومثله المرفوع والمتصل- مصطلحات مشتركة بين الصحيح والحسن والضعيف فلابد- ليكون الحديث «المسند» الذي ندرسه مقبولاً- من أن يكون على الأقل «حسنا» ونفضل عليه ما يكون «صحيحاً»، ولو «آحادياً» أما ما اصطلح على تسميته «بالضعيف» فلا مكان له في دراستنا، لأن المفروض في مثله أنه مردود وأنه لم يرد إلا لغلبة الظن بأنه ليس من كلام النبيﷺ، ونحن إنما نتناول بدراستنا الأدبية التحليلية ما رجحنا أنه تعبير النبي أو ما يمكن أن يكون نظيره صادراً عن النبي الكريم. وإلا فكيف نتقصى خصائص البلاغة النبوية من ألفاظ وتراكيب لم نكد نستيقن من صحة عزوها إلى أفصح من نطاق بالضاد!

* * *

١٩ مقالات

د. تقي الدين الهلالي

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- **أهل الحديث (١)**

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م).

٢- **أهل الحديث (٢)**

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠) ، مايو (١٩٧١م).

٣- **أهل الحديث (٣)**

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م.)

٤- **أهل الحديث (٤)**

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) ديسمبر (١٩٧١م).

ترجمة الشيخ

د. تقي الدين الهلالي

● **مولده ونشأته:**

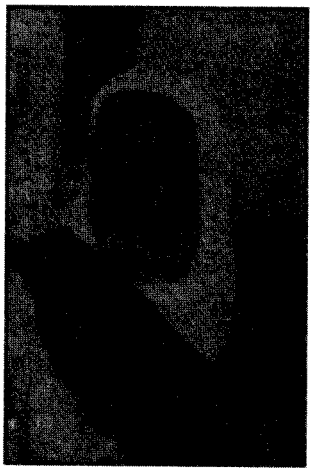

ولد المحدث اللغوي والأديب الشاعر تقي الدين الهلالي سنة ١٣١١ هـ بقرية الفرخ من بوادي مدينة سجلماسة في المملكة المغربية، وقد ترعرع في أسرة علم وفقه، فقد كان والده وجده من فقهاء المغرب.

قرأ القرآن على والده وحفظه، ولازم الشيخ التندغي الشنقيطي وقرأ عليه علوم اللغة العربية والفقه المالكي إلى أن أصبح الشيخ ينيبه عنه في غيابه.

طلب رحمه الله علم الحديث فسافر إلى الهند لينال بغيته، فالتقى بالعديد من العلماء منهم العلامة المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي» الذي أجازه، ثم سافر إلى البصرة حيث التقى بالعلامة محمد الأمين الشنقيطي، وهو غير العلامة المفسر صاحب «أضواء البيان»، ثم سافر إلى مصر ليلتقي محمد رشيد رضا حيث أعطاه توصية للملك عبد العزيز الذي أكرم ضيافته، وعينه مراقبا للتدريس في المسجد النبوي وبقي بالمدينة سنتين ثم نقل إلى المسجد الحرام والمعهد العلمي السعودي بمكة.

ثم سافر إلى برلين ليحصل منها على رسالة الدكتوراه.

عين مدرسا بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة ١٩٦٨م، ثم أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منتدباً من المغرب، وبقي بها حتى سنة ١٩٧٤م حيث ترك الجامعة وعاد إلى مدينة مكناس بالمغرب للتفرغ للدعوة، ومن مؤلفاته: «الزند الواري شرح البخاري، الإلهام والإنعام في تفسير الأنعام، الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق، أسماء الله الحسنى».

● **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في ٢٥ شوال ١٤٠٧هـ - ٢٢ يونيو ١٩٨٧م. بمنزله في مدينة الدار البيضاء ودفن بالسباتة. وقد شيع جنازته جمع غفير من الناس يتقدمهم علماء ومثقفون وسياسيون.

أهل الحديث (١)

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م)

ندبني الأستاذ رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» إلى المشاركة في تحرير مقالات هذه المجلة المباركة، التي أسست لإيقاظ المسلمين، ونشر الوعي في نفوسهم ليزدادوا تبصرا، واستنارة في أمر دينهم ودنياهم، ويعيدوا للإسلام عزته ومجده، ففكرت في الموضوع الذي أطرق بابه، فبدا لي موضوع شريف يهم كل قارئ من المسلمين، وكل طالب علم من المحصلين، ألا وهو معرفة أهل الحديث، نضر الله وجوههم، فإنه موضوع مع شرفه وفضله قل من يشتغل به في هذا الزمان، وإذا علمنا أن حديث النبي ﷺ هو خير الكلام بعد كلام الله تعالى، ولا يمكن تدبر الكتاب العزيز ومعرفة معانيه إلا بالعلم بأحاديث نبيه الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

فالتفكر والتدبر للقرآن متوقفان على بيان الرسول ﷺ، والحديث هو الأصل الثاني من أصول الإسلام التي عليها تقوم الشريعة، وبها تستنبط الأحكام، روى مالك في الموطأ عن النبي ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله».

قال مؤلف تنقيح الرواة في تخريج أحاديث المشكاة: سنده هذا المرسل بحديث «أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ» من رواية معقل بن يسار عند الحاكم بإسناد حسن. وأيضا له شاهد عن ابن عباس يرفعه عند الحاكم والبيهقي «إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه..» الحديث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ا.هـ.

وفضائل علم الحديث كثيرة، والمراد هنا ذكر نبذة في فضل أهل الحديث،

قبل ذكر تراجم أهل الحديث من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين فمن بعدهم.

قال أستاذي العالم الرباني عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري المتوفى سنة ١٣٥٣هـ في مقدمة كتابه «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي» ص ٦ ما نصه: وقد ورد في فضيلة علم الحديث وأهله أحاديث كثيرة، وأنا أقتصر هنا على ذكر خمسة أحاديث.

الأول: روى الترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة». وقال: هذا حديث حسن غريب. قال القاري في المرقاة شرح المشكاة: ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكره ميرك. والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

قال ابن حبان عقب الحديث: في الخبر بيان صحيح على أن أولى الناس برسول الله ﷺ في القيامة يكون أصحاب الحديث، إذ ليس في هذه الأمة قوم أكثر صلاة عليه منهم، وقال غيره: لأنهم يصلون عليه قولاً وفعلاً.

وقال الخطيب في كتابه «شرف أصحاب الحديث»: قال لنا أبو نعيم: هذه منقبة شريفة تختص بها رواة الآثار ونقلتها، لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول الله ﷺ أكثر ما يعرف لهذه العصابة نسخا وذكرا.

وقال أبواليمن بن عساكر: ليهن أهل الحديث هذه البشرى، فقد أتم الله تعالى نعمه عليهم بهذه الفضيلة الكبرى، فإنهم أولى الناس بنبيهم وأقربهم- إن شاء الله تعالى- وسيلة يوم القيامة إلى رسول الله ﷺ، فإنهم يخلدون ذكره في طروسهم، ويجددون الصلاة والتسليم عليه في معظم الأوقات في مجالس مذاكرتهم ودروسهم، فهم - إن شاء الله تعالى - الفرقة الناجية، جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم.

الحديث الثاني: روى الترمذي عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرءا سمع منا شيئا، فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»، وقال هذا حديث حسن صحيح.

وفي الباب أحاديث أخرى، وقال القاري: خص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء، لأنه سعى في نضارة العلم، وتجديد السنة، فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وهذا يدل على شرف الحديث وفضله ودرجة طلابه، حيث خصهم النبي ﷺ بدعاء لم يشرك فيه أحدا من الأمة، ولو لم يكن في طلب الحديث وحفظه وتبليغه فائدة سوى أن يستفيد بركة هذه الدعوة المباركة لكفى ذلك فائدة وغنما، وجعل في الدارين حظا وقسما.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: قال علماء الحديث ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة لقول النبي ﷺ «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها...» الحديث.

قال: وهذا دعاء منه - عليه السلام - لحملة علمه، ولابد بفضل الله تعالى من نيل بركته ا.هـ.

وإلى هذه النضرة أشار أبو العباس العزفي بقوله:

أهل الحديث عصابة الحق ... فازوا بدعوة سيد الخلق
فوجوههم زهر منضرة ... لألاؤها كتألق البرق
يا ليتني معهم فيدركني ... ما أدركوه بها من السبق

الحديث الثالث: روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي، قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يروون أحاديثي، ويعلمونها الناس».

قال القسطلاني في إرشاد الساري بعد ذكر هذا الحديث: ولا ريب أن أداء السنن إلى المسلمين نصيحة لهم من وظائف الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فمن قام بذلك كان خليفة لمن يبلغ عنه، وكما لا يليق بالأنبياء عليهم السلام أن يهملوا أعاديهم ولا ينصحوهم، كذلك لا يحسن لطالب الحديث وناقل السنن أن يمنحها صديقه، ويمنعها عدوه، فعلى العالم بالسنة أن يجعل أكبر همه نشر الحديث، فقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه، حيث قال: «بلغوا عني ولو آية...» الحديث، رواه البخاري.

قال المظهري: أي بلغوا عني أحاديثي، ولو كانت قليلة، قال البيضاوي: قال ولو آية، ولم يقل ولو حديثا، لأن الأمر بتبليغ الحديث يفهم منه بطريق الأولوية، فإن الآيات مع انتشارها وكثرة حفظتها تكفل الله تعالى بحفظها وصونها عن الضياع والتحريف.

وقال مالك رحمه الله تعالى: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عن تبليغهم العلم، كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقال سفيان الثوري: لا أعلم علما أفضل من علم الحديث، لمن أراد به وجه الله تعالى، إن الناس يحتاجون إليه حتى في طعامهم وشرابهم، فهو أفضل من التطوع بالصلاة والصيام، لأنه فرض كفاية. ا.هـ.

الحديث الرابع: روى البيهقي في المدخل عن إبراهيم بن عبدالرحمن العذري قال: قال رسول الله ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» كذا في المشكاة.

قال القسطلاني بعد ذكره من حديث أسامة بن زيد: وهذا الحديث رواه من الصحابة، علي، وابن عمر، وابن عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، وجابر بن سمرة، ومعاذ، وأبو هريرة، وأورده ابن عدي من طرق كثيرة، كلها ضعيفة، كما صرح به الدارقطني، وأبو نعيم، وابن عبدالبر، لكن يمكن أن يتقوى بتعدد طرقه، ويكون حسنا كما جزم به العلائي، وفيه تخصيص حملة السنة بهذه المنقبة العلية، وتعظيم لهذه الأمة المحمدية، وبيان لجلالة قدر المحدثين، وعلو مرتبتهم في العالمين، لأنهم يحمون مشارع الشريعة ومتون الروايات من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، بنقل النصوص المحكمة لرد المتشابه إليها.

وقال النووي في أول تهذيبه: هذا إخبار منه ﷺ بصيانة هذا العلم وحفظه، وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفاء من العدول يحملونه، وينفون عنه التحريف، فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد، وهو من أعلام النبوة، ولا يضر كون بعض الفساق يعرف شيئا من علم الحديث، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه، لا أن

غيرهم لا يعرف منه شيئا.

على أنه قد يقال ما يعرفه الفساق من العلم ليس بعلم حقيقة، لعدم عملهم، كما أشار إليه سعد الدين التفتازاني في تقرير قول التخليص: وقد ينزل العالم بمنزلة الجاهل، وصرح به الشافعي: ولا علم إلا مع التقى، ولا عقل إلا مع الأدب، ونظمته فقلت من بحر الطويل:

ولا خير في علم إذا لم يكن تقى ولا خير في عقل إذا لم يكن أدب

ولعمري، إن هذا الشأن من أقوى أركان الدين، وأوثق عرى اليقين، لا يرغب في نشره إلا صادق تقي، ولا يزهد فيه إلا كل منافق شقي.

قال ابن القطان: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، وقال الحاكم: لولا كثرة طائفة المحدثين على حفظ الأسانيد لدرس منار الإسلام، ولتمكن أهل الإلحاد والمبتدعين من وضع الأحاديث وقلب الأسانيد. ا.هـ.

وأقتصر على هذا في ذكر أقوال أهل العلم في فضائل أهل الحديث نثرا، وأما النظم فمن أجمل ما قيل في ذلك ما أنشده القسطلاني في مقدمة شرحه لصحيح البخاري لأبي بكر حميد القرطبي الأندلسي رحمه الله:

نور الحديث مبين فادن واقتبس واحد الركاب له نحو الرضا الندس
واطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت أعلامه برباها يا بن أندلس
فلا تضع في سوى تقييد شارده عمرا يفوتك بين اللحظ والنفس
وخل سمعك عن بلوى أخي جدل شغل اللبيب بها ضرب من الهوس

إلى أن قال

واقفُ النبي وأتباع النبي وكن من هديهم أبدا تدنو إلى قبس
والزم مجالسهم واحفظ مُجالسهم واندب مدارسهم بالأربع الدرس
واسلك طريقهم والزم فريقهم تكن رفيقهم في حضرة القدس
تلك السعادة إن تلمم بساحتها فحط رحلك قد عوفيت من تعس

وقد اقترح علي العالم السلفي محمد حسين الفقي الحجازي الجدي سنة ١٣٤١هـ حين حججت أول حجة تخميس هذه القصيدة، وكنت مشغول البال

بالاهتمام بالسفر إلى الهند في طلب علم الحديث، فلما وصلت إلى دلهي عاصمة الهند، واستقررت فيها، استجابت القريحة لطلب العالم المذكور فنظمت تخميسها ونشرته في دلهي مع قصائد أخرى سميتها «الهدايات» وقد نقله بتمامه أستاذنا الأحوذي، المتقدم ذكره، مصدرا له بقوله: وقال بعض الأعلام، أثبته هنا إلا بيتا واحداً، وهذا نص التخميس.

إن كنت تطلب علما جد ملتمس وحرت إذ غم عنك الرطب باليبس
فاسمع لنصح لبيب أي محترس

نور الحديث مبين فادن واقتبس واحد الركاب له نحو الرضا الندس
واقطع علائق من تحصيله منعت تنظر شموس الهدى في الأفق قد طلعت
وحجب غي ترى عن قلبك ارتفعت

فاطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت أعلامه برباها يا بن أندلس
ولازم الدرس واغنم من فوائده لا تقنع الدهر من حلوى موائده
واشرب فديتك علا من موارده

ولا تضع في سوى تقييد شارده عمرا يفوتك بين اللحظ والنفس
دع الكلام فما فيه سوى الخطل وانبذ مجالسه تحفظ من العلل
فذاك شر ابتداع جاء بالخلل

وخل سمعك عن بلوى أخي جدل شغل اللبيب بها ضرب من الهوس
الله يعلم كم سيق من ضرر للناس من أجله في البدو والحضر
أقبح بها بدعة تدني إلى سقر!

إلى أن قلت:

ورد بقلبك عذبا من حياضهما تغسل بماء الهدى ما فيه من دنس
شد الرحال إليهم كي تجالسهم واحذر فديتك يوماً أن تعاكسهم
لا تحسدنهم ولكن كن منافسهم

والزم مُجالسهم واحفظ مجالسهم واندب مدارسهم بالأربع الدرس

واطلب مودتهم وكن صديقهم وكن مجالسهم تشرب رحيقهم
وقرهم كلهم واعرف حقوقهم
واسلك طريقهم واتبع فريقهم تكن رفيقهم في حضرة القدس
هي الشريعة فانظر في سماحتها كفيلة للنفوس باستراحتها
في حظرها حكمة وفي إباحتها
تلك السعادة أن تلمم بساحتها فحط رحلك قد عوفيت من تعس

* * * *

أهل الحديث (٢)

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م).

وسمت هذه السلسة التي نسأل الله إتمامها على أحسن وجه بأهل الحديث وجعلت الحلقة الأولى في ذكر نبذة وجيزة في فضل أهل الحديث على أن تليها تراجم أهل الحديث وذكر أخبارهم التي ينشرح لها صدر كل مؤمن وكل طالب علم منصف، فمن هو أول أهل الحديث وأحقهم بالتقدم؟

الجواب: هو أول المسلمين من هذه الأمة وسيد ولد آدم أجمعين محمد رسول الله ﷺ الذي فتح له الله فتحاً مبيناً، ونصره نصراً عزيزاً، وأرسله مبشراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعل النصر والعزة مقرونين برايته ورايات من اتبعه إلى الأبد، وجعل الذلة، والصغار، حليفين لمن خالف أمره ونبذ ما جاء به وراء ظهره. وإن كان كالرمل في العدد، قال تعالى في سورة المؤمن (غافر) رقم (٥١، ٥٢) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ والظالمون المتعذرون يوم القيامة هم الذين عارضوا دعوته وسلكوا سبيلاً غير سبيلها وتولوا فريقاً غير فريقها قال تعالى في أول سورة النمل .﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ (النمل: ١-٥). ولما كان نسبه الشريف، وسيرته الكريمة، وغزواته المظفرة مشهورة ومعلومة عند القراء ومراجعتها سهلة في كل وقت أردت أن أذكر بدلها براهين صدق دعوته، وكمال رسالته، وإتمام

نعمة الله عليه وعلى من اتبعه إلى يوم القيامة، فإن كثيرا من الأغمار الجاهلين بهذه الدعوة ظنوا أن ما وعد الله لها من النصر والعلو خاص بزمان دون زمان، ومكان دون مكان، وقوم دون آخرين. وأول ما ابتدي به حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري في صحيحه بإسناد كالشمس ليس دونها غمام وهو مما شهد به أبو سفيان بن حرب مما شاهده قبل إسلامه من الآيات.

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

فإن هذا الحديث مبني على أدق قواعد الجدل وموزون بالقسطاس المستقيم، يجله الباحثون، ويجهله السفهاء الجاهلون قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدثنا أبواليمان الحكم بن نافع قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال: أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم نسباً فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه. . فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم، قلت هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت يقول: اعبدوا الله

وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظنه أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام».

في هذا الحديث مباحث:

الأول:

هو حديث صحيح أخرجه البخاري في عشرة مواضع من صحيحه قاله الكرماني، وقاله الحافظ في الفتح، فرواية صالح وهو ابن كيسان أخرجها المؤلف في كتاب الجهاد بتمامها من طريق إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس وفيها من الفوائد الزوائد ما أشرت إليه في أثناء الكلام على هذا الحديث من قبل، ولكنه انتهى حديثه عند قول أبي سفيان حتى أدخل الله علي الإسلام، زاد هنا «وأنا كاره»، ولم يذكر قصة ابن الناطور، وكذا أخرجه مسلم بدونها من حديث إبراهيم المذكور ورواية يونس أيضاً عن الزهري بهذا الإسناد أخرجها المؤلف في الجهاد مختصرة من طريق الليث وفي الاستئذان مختصرة أيضاً من طريق ابن المبارك، كلاهما عن يونس عن الزهري بسنده بعينه ولم يسقه بتمامه، وقد ساقه بتمامه الطبراني من طريق عبد الله بن صالح عن الليث وذكر فيه قصة ابن الناطور، ورواية معمر الزهري كذلك ساقها المؤلف بتمامها في التفسير اهـ. وقد تبين لك أيها القارئ الكريم أن إسناد هذا الحديث في غاية الصحة، اتفق على روايته البخاري ومسلم، ولما كنت في برلين سنة ١٩٤١م كنت أطالع كتاباً لأحد السويديين المتعصبين ألفه باللغة الجرمانية وذكر فيه هذا الحديث فكذب به واستبعده، وقال كلاماً قبيحاً لا أستطيع حكايته بتمامه، وسبب تكذيبه الحقيقي هو شدة بغضه للإسلام ونظره إليه بعين السخط التي تبدي المساوي.

أما السبب الذي أظهره فهو أن هرقل في الوقت الذي وصله كتاب النبي ﷺ كان على أشد ما يكون من القوة، وكان يستعد لغزو كسرى عظيم الفرس، فكيف يخاف هذا الرجل البدوي.. وهذا كلام من أعمى الله بصيرته، وطبع التعصب على قلبه، فليس في الحديث أن هرقل خاف أن يغزوه بعينه، ولكنه علم بما عنده من العلم بالكتب السماوية من ظهور خاتم النبيين، ولوفور عقله بعدما سمع صفات النبي ﷺ علم أنه حق أرسله الله ليظهره على الدين كله، وينسخ به الأديان

المحرفة السابقة، ونتيجة ذلك الحتمية خروج الروم من بلاد العرب وكذلك وقع، ولما وصلت في القراءة إلى ذلك الكلام القبيح غضبت وألقيت الكتاب على الأرض، وكانت عندي كاتبة جرمانية فنظرت إلي نظرة استنكار وكأنها تقول هب أن المؤلف تعسف وعدل عن الحق فما ذنب الكتاب؟ فأخذت الكتاب وفتحته وقلت لها اقرئي، فلما فرغت من قراءة ذلك الكلام عذرتني فيما فعلت، إما مداراة وهو الظاهر أو اقتناعاً بما فعلته أنه صواب.

- **البحث الثاني في سرد البراهين العقلية التي استدل بها هرقل على صدق النبي ﷺ:**

البرهان الأول:

المدة التي ماد فيها النبي ﷺ أبا سفيان بن حرب هي صلح الحديبية وما بعده إلى أن نقضت قريش العهد فغزاهم النبي ﷺ وتم فتح مكة، واختيار هرقل لأقربهم نسباً لا يخلو من حكمة. فإن القريب سواء أكان صديقاً أم عدواً يعرف من أخبار قريبه ما لا يعرفه البعيد. وكذلك أمره أن يجعل أصحابه من ورائه وأن يكذبوه إن كذب، فإن هرقل كان يعلم أن العرب حتى في جاهليتها وخصوصاً أشرافها يستقبحون الكذب ولا يرضون به أن يؤثر عنهم، وقد صرح أبو سفيان لشدة عدواته للنبي ﷺ أنه لم يمنعه من الكذب إلا الخوف من أن يحدث أصحابه أهل مكة إذا رجعوا إليهم أنه كذب، وهذا البرهان هو سؤال هرقل عن نسب هذا الرجل الذي يدعي أنه نبي أهو شريف أم وضيع، فأخبره أبو سفيان أن نسبه شريف، وإنما سأل هرقل هذا السؤال علماً منه بأن الله أرحم بعباده من أن يبعث رسولاً ذا نسب وضيع في قوم. ويكلفهم اتباعه وطاعته لأن النفوس تنفر من ذلك كل النفور، ولذلك نرى الملوك دائماً من ذوي الأنساب الشريفة بخلاف الفقر فإنه لا يضر النسيب الحسيب كما قال الشاعر:

ولا ترى فِيَ غير الصرم منقصة وما سواه فإن الله يكفيني

قال الله تعالى في قصة طالوت من سورة البقرة رقم ٢٤٧ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ

مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ اهـ. ولم نر رسولاً أرسله الله من أهل بيت وضيع، محتقر في قومه وبهذا احتج المهاجرون على الأنصار حين قالوا، منا أمير ومنكم أمير فقال المهاجرون: إن العرب لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش، ولذلك كانت الإمامة في قريش بنص الحديث الصحيح، ولم يخف هذا على هرقل فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

البرهان الثاني:

قال هرقل في سؤاله لأبي سفيان بن حرب فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ فذكرت أن لا، قال هرقل في الأجوبة وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله اهـ.

قال كاتب هذا المقال كل من نظر بإمعان في تاريخ المقالات، والدعوات، والطرائق، والمذاهب يجد أكثرها قد اتبع فيه اللاحق السابق حذوك القذة بالقذة حتى في الأمم التي ينتشر فيها العلم فكيف بأمة أمية! فبذلك سأل هرقل أبا سفيان هل دعا أحد من العرب عموماً، ومن أهل مكة خصوصاً إلى دعوة مماثلة لدعوة هذا الرجل فلم يسع أبا سفيان إلا أن أجاب بالنفي فضم هرقل هذه الحجة إلى سابقتها وأخذت نفسه تميل إلى تصديق النبيﷺ استناداً إلى هذه الحجج المنطقية التي هي الغاية في الدقة والاستقصاء.

البرهان الثالث:

قال هرقل لأبي سفيان فهل كان من آبائه من ملك؟ قال أبوسفيان، لا، قال له هرقل: وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. اهـ.

ولا يخفى أن من أعظم الحوافز والدوافع للدعوات أن يقصد الرجل بها استرداد ملك أبيه أو إمارته أو رئاسته، أو مشيخته، والأمثلة في التاريخ كثيرة،

وفي الزمان الحاضر أيضاً، وهذا من طبيعة البشر التي لا يكادون ينفكون عنها في كل زمان ومكان، حتى أهل الثروة إذا ورثوها عن آبائهم يرون أنفسهم، أهلاً لها، وإذا رأوا رجلاً غنياً حديث الثروة احتقروه وذموه واستكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا، حتى أن الأقرع، والأبرص، الواردين في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري حين جاء الملك ليختبر شكرهما وذكرهما بما كانا عليه من القرع، والبرص مع الفقر، قال كل واحد منهما كاذب إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر فعاقبهما الله وردهما إلى ما كانا عليه من العاهة، والفقر وهذا يدل على دقة نظر، وعلم بأحوال البشر.

البرهان الرابع:

قوله فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان بل ضعفاؤهم، قال هرقل وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

قال محمد تقي الدين كاتب هذا المقال: كل من درس الدعوات والمبادئ يرى أن الطبقة الفقيرة تكون مهضومة الحق، مظلومة، مستعبدة، موطوءة بالأقدام، فهم يتربصون الدوائر بظالميهم ومستعبديهم ليتخلصوا من نير ظلمهم، ويفكوا من أسرهم، فمتى رأوا دعوة إلى تأسيس حكم جديد بادروا إلى الاستجابة راجين أن يكون خلاصهم على يد صاحب تلك الدعوة، وبرهان هذا في كتاب الله ﷻ قال تعالى في سورة هود رقم ٢٧: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة الأنعام رقم ٥٢ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية قال الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود قال: «مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب، وبلال وعمار، وخباب،

وغيرهم من ضعفاء المسلمين وفيه فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك، أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعاً لهؤلاء؟! اطردهم، فلعلك إن طردتهم نتبعك.. فنزلت الآية». وهذا المعنى مذكور في مواضع من كتاب الله سبحانه. أ.هـ. ودعاة الشيوعية في هذا الزمان ينادونهم بلغاتهم العجمية بما معناه: «أيها المعدمون في جميع البلدان اتحدوا»، يعنون بذلك أن المعدمين أكثر عداداً من الموسرين، والموسرون يستغلون جهودهم ويعيشون على حسابهم عيشة ترف، وبذخ، مع أن هؤلاء المعدمين لو اتحدت كلمتهم وامتنعوا من العمل لساءت حال الموسرين وصار الأمر بيد المعدمين يتصرفون في الأموال التي هي ثمرة جهودهم ولكن شتان ما بين دعوة الرسل، ودعوة الشيوعيين، فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام يعدلون بين الناس ويأخذون للضعيف حقه من القوي، ولكنهم يتركون أمر الغنى والفقر بيد الله، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. فدعوتهم تسعد الأغنياء والفقراء ولا تحاول تغيير سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً. اهـ.

البرهان الخامس:

قال هرقل لأبي سفيان أيزيدون أم ينقصون؟ قال أبو سفيان: بل يزيدون، قال هرقل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. اهـ. أقول كل دعوة كتب لها النجاح. فإن أتباعها يزيدون ولا ينقصون، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان، وذلك أن المستجيبين للدعوة تتحسن أحوالهم، وأخلاقهم فيراهم نظراؤهم من الأشقياء فيرغبون أن يصيروا مثلهم وبذلك تنتشر الدعوة وتضطرد الزيادة. اهـ.

البرهان السادس:

قال هرقل لأبي سفيان: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه قال أبو سفيان: لا، قال هرقل: وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، أقول كل من دخل في دين، أو عقيدة، على علم، وبصيرة، واطلاع تام، يغتبط به ويزداد له حباً على

مر الأيام هذا إذا كان ذلك حقاً . . ففي كل يوم ينكشف للداخل فيه من فضائله ما يزداد به غبطة وابتهاجاً بخلاف العقائد الباطلة المظلمة إذا زخرفها المزخرفون فإن الداخل فيها تنكشف له كل يوم ظلمة جديدة ويبدو له عيب كان خافياً عليه فيسوء ظنه ويرتد عن ذلك الدين، أو العقيدة، أو المذهب، فالإسلام كمال قال الشاعر:

يـزيـدك وجـهـه حـسـنـاً إذا مـا زدتـه نـظـراً

البرهان السابع:

قال هرقل لأبي سفيان فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، قال أبوسفيان لا، قال هرقل: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. اهـ.

أقول وهذه الحجة من أقوى الحجج العقلية التي لا يرتاب فيها عاقل، لأن الكذب رذيلة يتنزه عنها كل إنسان له شرف ومروءة وقد رأينا أن أبا سفيان بن حرب على كفره وطغيانه ورغبته في محاربة رسول الله ﷺ وبذله في ذلك كل مرتخص وغال لم يرض لنفسه أن يكذب على عدوه أمام هرقل ومن سما بنفسه وضن بشرفه، ومروءته، فامتنع من الكذب على الناس يستحيل أن يسمح لنفسه بالكذب على الله ولما رأى عبد الله بن سلام الحبر الإسرائيلي وجه رسول الله ﷺ قال: فما هو إلا أن رأيته فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب.اهـ.

البرهان الثامن:

قال هرقل لأبي سفيان فهل يغدر؟ قال أبو سفيان لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال هرقل وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. اهـ.

استدل هرقل في جملة ما استدل به على صدق النبي ﷺ بتنزهه عن الغدر، فالملوك، والرؤساء، قد يغدرون إذا وجدوا فرصة في إهلاك عدوهم يخافون أن لا يجدوا مثلها.

أما الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنهم منزهون عن الغدر لأن دعوتهم إلى

مكارم الأخلاق تتنافى مع الغدر ولا تجتمع معه البتة ولأن الله ضمن لهم النصر وجعل لهم العاقبة فلا حاجة بهم إلى الغدر لأنهم واثقون بوعد الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ (غافر: ٥١) وقول أبي سفيان: «فلم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة» يدلنا على شدة بغضه للنبي وحرصه أن ينتقصه ما استطاع إلى ذلك سبيلا فإن إقراره بهذه الفضائل حجة عليه وعلى كل مخالف. وقوله: «ونحن منه في مدة» أي في معاهدة على الهدنة لا ندري أيفي بما عاهدنا عليه في المستقبل كما فعل في الماضي أم يغدر.

البرهان التاسع:

قال هرقل لأبي سفيان فهل قاتلتموه، قال أبوسفيان نعم، قال فكيف كان قتالكم إياه، قال: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. اهـ.

أقول وهذا شأن رسل الله مع أعدائهم إذا اقتتلوا معهم لأن حكمة الله اقتضت أن يدعو الرسول إلى الإيمان بالله وإقامة دين الله فإذا آمنت به جماعة من الناس قاتل بهم من كفر به ليثبت الأجر للمجاهدين ويعذب الله الكافرين بأيدي المؤمنين كما قال تعالى في سورة التوبة رقم ١٤، ١٥ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ولو أن الله أرسل على الكافرين صواعق فأحرقهم لكان ذلك إجباراً لمن آمن على الإيمان والله لا يجبر الناس على الإيمان لأن المجبر لا يستحق ثواباً وإنما يستحق الثواب من اختار طاعة الله واتباع رسله بعد أن تبين صدقهم، وعرف الحق فاتبعه والباطل فاجتنبه.

البرهان العاشر:

قال هرقل لأبي سفيان ماذا يأمركم، قال يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، قال هرقل وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما

تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. اهـ .

عرف هرقل بعلمه وعقله زيادة على ما تقدم من البراهين أن الذي يأمر بهذه الأمور وهو متصف بتلك الصفات هو صادق فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

والأمور المذكورة هنا ستة أمور:

أولها: عبادة الله وحده لا شريك له فلا يصلح دين ولا دنيا إلا بجعل العبادة خالصة لله وحده لا يعبد معه أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صالح، ولا طالح، وكتاب النبيﷺ لهرقل يوضح هذه الأمور كل التوضيح فإنه قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى». فوصف نفسه بالعبودية لله التي هي أعلى منزلة عند رسل الله والرسالة التي كلفهم بها، وجعل في قبولها سعادة البشر، ووصف هرقل بعظيم الروم أي كبيرهم وسيدهم، ثم قال على من اتبع الهدى وهذا إنصاف وحزم، والسلام هو السلامة وهي لا تكون إلا لمن اتبع الهدى وهرقل يزعم أنه يتبع الهدى ولا يكون متبعاً للهدى حتى يؤمن بجميع رسل الله ومنهم خاتم النبيين محمد رسول الله ﷺ فإن آمن به وبمن قبله فله السلام وإلا فلا سلامة له، وقوله: «أسلم تسلم» من جوامع الكلم في غاية البلاغة وهو مبين للذي قبله ومؤكد له فلا يسلم من عذاب الله إلا من أسلم لله وآمن بما جاءت به رسله كلهم، ويؤتك الله أجرك مرتين أجر الإيمان بعيسى، وأجر الإيمان بمحمد فإن توليت أي أعرضت عن قبول دعوة الإسلام فإن عليك إثمك وإثم الأريسيين أي الفلاحين أتباعك ثم بين النبيﷺ أصل دعوته وأساسها وهو توحيد الله تعالى: يا أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى تعالوا إلى كلمة أي أقبلوا إلى كلمة مستوية بيننا وبينكم ليس فيها تحيز لجانبنا ولا لجانبكم وهي كلمة «لا إله إلا الله» ومعناها أن نعبد الله مخلصين له الدين، ولا نشرك به شيئاً كيفما كان ذلك الشيء، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً آلهة، من دون الله كما فعلتم أنتم معشر النصارى فإنكم اتخذتم عيسى وأمه إلهين من دون الله، ثم اتخذتم غيرهما من رهبانكم آلهة من دون الله فإن تولوا أي أعرضوا فقولوا أيها المسلمون لهم اشهدوا بأنا مسلمون موحدون لا نعبد إلا الله

ونؤمن بكل ما جاء به رسل الله من آدم إلى محمد لا نفرق بين أحد منهم، وهذا هو الدين القيم، والصراط المستقيم.

الأمر الثاني: ترك ما كان يعبده آباؤهم وهو يقتضي ترك الشرك جملة وتفصيلاً، فإن من عبد الله وعبد معه غيره ولو شيئاً قليلاً لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا، قال تعالى يخاطب سيد خلقه محمداً ﷺ في سورة الزمر رقم ٦٥ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ وإذا تأملنا هذا الخطاب وشدته علمنا أنه موجه إلينا لأن النبي ﷺ معصوم من الذنوب كلها والأدلة المحذرة من الشرك كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله.

الأمر الثالث: الصلاة وهي بعد التوحيد أعظم الفرائض وأنفعها، كتب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله يقول إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حافظ عليها كان لما سواها أحفظ ومن ضيعها كان لما سواها أضيع» اهـ.

ومن المعلوم أن العامل مكلف بحفظ الأمن وإقامة العدل بين الناس وأخذ الزكاة والخراج وإقامة الحدود، والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ كل ما أمر الله به ورسوله من الشريعة الغراء وقد علمنا من كلام عمر أن صلاح الدين والدنيا يتوقفان على المحافظة على الصلاة ومتى اختلت المحافظة على الصلاة اختل كل شيء. والآيات والأحاديث التي تحث على المحافظة على الصلاة وتبين فضلها كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله، وأما الصدق فهو خلق شريف ما شاع في أمة إلا سادت وعزت وانتصرت على عدوها في الداخل والخارج وضده الكذب والفجور ما شاع في أمة إلا هبطت إلى الدرك الأسفل وذلت وتشتت أمرها، وهذا مشاهد بالعيان في كل زمان ومكان وأدلته في الكتاب، والسنة أكثر من أن تحصى.

الأمر الرابع: العفاف، وهو حفظ البطن، والفرج، واللسان، وسائر الجوارح، من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبه تنال سعادة المجتمع وتقع بين الناس الألفة والمحبة والتعاون وتلك هي أسباب السعادة:

تلك السعادة إن تلمم بساحتها ... فحط رحلك قد عوفيت من تعس

الأمر الخامس: الصلة وهي البر، والإحسان إلى الأقارب، قال الله تعالى يخاطب سيد الخلق ﷺ في سورة الإسراء ٢٦ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقال تعالى في سورة النساء رقم ٣٦ ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ - الآية.

وأخرج البخاري في كتاب الأدب ومسلم في كتاب البر والصلة بالإسناد المتصل إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك، ثم قال رسول الله ﷺ اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ (محمد: ٢٢- ٢٣) وفي رواية للبخاري قال الله تعالى: «من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته». اهـ.

وموعدنا المقال التالي بحول الله.

أهل الحديث (٣)

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م).

قال الحافظ ابو عبد الله شمس الدين الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ» ما نصه: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أفضل الأمة وخليفة رسول الله ﷺ، مؤنسه في الغار، وصديقه الأكبر، وصديقه الأشفق ووزيره الأحزم عبد الله ابن أبي قحافة عثمان القرشي التيمي قد أفردت سيرته في مجلد وسط وكان أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئًا، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لكِ شيئًا، ثم سأل الناس فقام المغيرة، فقال: حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه.

ومن مراسيل ابن أبي مليكة أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئًا، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه.

فهذا المرسل بذلك أن مراد الصديق التثبت في الأخبار والتحري لا سد باب الرواية، ألا تراه لما نزل به أمر الجدة ولم يجد في كتاب الله كيف سأل عنه في السنة، فلما أخبره الثقة ما اكتفى حتى استظهر بنفسه آخر ولم يقل حسبنا كتاب الله كما يقول الخوارج.

وحدث يونس عن الزهري أن أبا بكر حدث رجلا حديثًا فاستفهمه الرجل فقال أبو بكر: هو كما حدثتك، أي أرض تقلني إذا أنا قلت ما لم أعلم؟ وصح أن

الصديق خطبهم فقال: إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار.

وقال علي بن عاصم وهو من أوعية العلم لكنه سيئ الحفظ أن إسماعيل ابن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم قال سمعت أبا بكر الصديق يقول: إياكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان» قلت صدق الصديق، فإن الكذب رأس النفاق وآية المنافق والمؤمن يطبع على المعاصي والذنوب الشهوانية لا على الخيانة والكذب، فما الظن بالكذب على الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه، وهو القائل: «إن كذبا علي ليس ككذب على غيري، من يكذب على نبي له بيت في النار» وقال: «من يقل علي ما لم أقل..» الحديث. فهذا وعيد لمن نقل عن نبيه ما لم يقله مع غلبة الظن أنه ما قاله فكيف حال من تهجم على رسول الله ﷺ وتعمد عليه الكذب وقوله ما لم يقل، وقد قال ﷺ: «من روى عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»، فإنا لله وإنا إليه راجعون ما ذي إلا بلية عظيمة وخطر شديد ممن يروي الأباطيل والأحاديث الساقطة المتهم نقلتها بالكذب، فحق على المحدث أن يتورع في ما يؤديه وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقلة الأخبار ويجرحهم جهبذاً إلا بإدمان الطلب والفحص عن هذا الشأن وكثرة المذاكرة والسهر والتيقظ والفهم مع التقوى والدين المتين، والإنصاف والتردد إلى مجالس العلماء والتحري والإتقان، وإلا تفعل.

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

قال الله تعالى ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) فإن آنست يا هذا من نفسك فهما وصدقاً ودينا وورعاً وإلا فلا تتعن، وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب فبالله لا تتعب، وإن عرفت أنك مخلط مخبط مهمل لحدود الله فأرحنا منك فبعد قليل ينكشف البهرج وينكب الزغل ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فقد نصحتك، فعلم الحديث صلف، فأين علم الحديث؟ وأين أهله؟ كدت ألا أراهم إلا في كتاب أو تحت تراب.

نعم فرأس الصادقين في الأمة الصديق وإليه المنتهى في التحري في القول وفي القبول.

توفي الصديق ﷺ لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة (٦٣)..

توضيحات وشروح لما تقدم

١- قوله مؤنس في الغار هذه فضيلة من فضائل الصديق خصه الله بها وذكرها في كتابه العزيز قال تعالى في سورة التوبة «آية ٤٠» ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾

قال الإمام ابن كثير في تفسيره يقول تعالى ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي عام الهجرة لمَّا هَمَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام حتى يرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر الصديق ﷺ يجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»اهـ.

فهذه المزية مع شهادة الله له بالصحبة من المناقب التي خصه الله بها!.

٢- قوله وكان أول من احتاط في قبول الأخبار من المعلوم أن أعداء الإسلام الأولين والآخرين حاربوا الإسلام وكادوا له، فبعضهم حاربه، بوضع الأحاديث، وبعضهم حاربه بردها وعدم قبولها، وكلا الطرفين مذموم، وخير الأمور الوسط، فأهل الحق يتثبتون في الرواية عن رسول الله ﷺ، ومتى صح لهم حديث عضوا عليه بالنواجذ وتلقوه بالقبول، واعتقدوه وعملوا به وإمامهم في ذلك الصديق الأكبر، فلما جاءته الجدة تلتمس نصيبها من الميراث أخبرها أن كتاب الله لم ينص على شيء من الحق لها في الميراث، ولم ينف عن

النبي ﷺ أنه جعل لها حقاً، ولكن نفى علمه بذلك وهذا شأن الأئمة المحققين المتثبتين ثم سأل أصحاب رسول الله هل عندهم علم بأن النبي ﷺ جعل لها شيئاً فلما ثبت عنده الحديث برواية عدلين أعطاها حقها وهو السدس.

٣- قوله: ما ذي إلا بلية... الخ. إذا استمعنا إلى الخطباء في المساجد والوعاظ وما يذكرونه من الأحاديث وينسبونها إلى النبي ﷺ بدون عزو إلى مخرج ولا معرفة لصحيح أو ضعيف أو موضوع رأينا العجب العجاب، هذا مع أن كتب الحديث الصحيحة التي خدمها الأئمة بالشرح وبينوا صحيحها ومعانيها ميسورة، فلم يرد الخطباء والوعاظ بل والمدرسون في المعاهد الدينية أن يكلفوا أنفسهم دراسة تلك الكتب وأخذها من أهلها العارفين بها ونقل الأحاديث منها على نور وبصيرة، بل أقبلوا على دواوين الخطب التي تجمع كل غث وسقيم من فضائل الأيام والشهور، فتجد عندهم لكل شهر خطبة خاصة يجمعون فيها أحاديث واهية أو موضوعة في فضل ذلك الشهر أو يوم مخصوص منه، ولا يهمهم من شؤون الناس الذين يستمعون خطبهم إلا ذلك، وقد يذكرون أهل زمانه فلو عاش إلى هذا الزمان لرأى ما لم يخطر له ببال.. فإلى الله المشتكى.

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزكي بعضهم بعضاً ليسكت معور عن معور

٤- قوله: وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب فبالله لا تتعب... الخ.

ما أصدق هذا الكلام وأحسنه فإن طالب علم الحديث لا ينتفع به ويكون من أهله إلا إذا عقد العزم على اتباع الرسول ﷺ في كل ما صح عنه لا يمنعه من ذلك رأي كان من قبل يراه أو كان يراه أستاذه ولا مذهب ينتسب إليه بل ينشد دائماً قول القائل.

دعوا كل قول غير قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

بل يجعل نصب عينيه قول الله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١).

٥- قوله: أين علم الحديث وأين أهله؟ كدت ألا أراهم... الخ. هكذا يقول الإمام الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ وكان عصره مشرقاً عامراً بحفاظ الحديث ونقاده، فقد ألف الحافظ ابن حجر العسقلاني «كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» وذكر فيه جما غفيرا من الحفاظ المحدثين وهو أحد أئمتهم فكيف بزماننا هذا وماذا نقول فيه أكثر من «لا حول ولا قوة إلا بالله».

فوائد من سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

الأولى: ولد أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وفي الإصابة للحافظ ابن حجر أن عائشة رضي الله عنها قالت: تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي فكان النبي ﷺ أكبر، اهـ.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ ولد عام الفيل أي في العام الذي غزا فيه الحبش مكة بالفيلة فردهم الله على أعقابهم خاسرين (انظر تفسير سورة الفيل).

الثانية: صحب النبي ﷺ قبل البعثة، وكان أول من آمن به من الرجال على الصحيح واستمر معه طول إقامته بمكة ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى وفاته عليه الصلاة والسلام، وكانت الراية معه يوم تبوك وحج في الناس في حياة رسول الله ﷺ سنة تسع، واستقر خليفة بعده، ولقبه المسلمون خليفة رسول الله فمن يتنقصه يريد أن يستر الشمس بالغربال فهو:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وفي مثله ينشد أيضاً:

يا ناطح الجبل الراسي بهامته ... أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

وما أحسن قول المتنبي:

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها ... ويجهد أن يأتي لها بضريب

الثالثة: روى أبو بكر عن النبي ﷺ وروى عنه الجم الغفير من الصحابة والتابعين، منهم عمر وعثمان وعلي، وهم الخلفاء بعده وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عمر وحذيفة وزيد بن ثابت وخلق لا يتسع المقام لذكرهم.

الرابعة: روى سعيد بن منصور بسنده إلى عائشة قالت: اسم أبي بكر الذي

سماه به أهله عبد الله ولكن غلب عليه اسم عتيق.

الخامسة: كان أبو بكر ﷺ أبيض نحيفاً خفيف العارضين معروق الوجه ناتئ الجبهة يخضب بالحناء والكتم،- والخضاب بالحناء والكتم قريب من السواد وهو إلى السواد أقرب منه إلى الحمرة التي تنشأ عن الخضاب بالحناء - وقد صح عن جماعة من الصحابة أنهم كانوا يخضبون بالحناء والكتم هو الذي يسمى «بالوسمة» وقد قلت في ذلك شعراً:

إني لأخضب بالحناء والكتم ... أقفو بذلك خير العرب والعجم

محمدًا وأناساً من صحابته ... كانوا مصابيح تجلو داجي الظلم

السادسة: قال الحافظ في الإصابة وأخرج أبو يعلى بسنده إلى عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ وأصحابه بفناء البيت إذ جاء أبو بكر فقال النبي ﷺ «من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر».

السابعة: قال الحافظ وقال ابن إسحق كان أبو بكر مؤلفا لقومه محبباً سهلاً، وكان تاجراً ذا خلق ومعروف وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به. فأسلم على يديه عثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف اهـ.

قال الحافظ وأخرج أبو داود في الزهد بسند صحيح عن هشام بن عروة أخبرني أبي قال أسلم أبو بكر وله أربعون ألف درهم وأخبرتني عائشة أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهما.

الثامنة: قال الحافظ وأخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه بسنده إلى هشام عن أبيه قال أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً فأنفقها في سبيل الله، وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله أعتق بلالا وعامر بن فهيرة ونذيرة والنهدية وابنتها وجارية بني المؤمل وأم عبيس.

التاسعة: قال الحافظ وأخرج الدارقطني في الأفراد من طريق أبي إسحاق عن أبي يحيى قال: لا أحصي كم سمعت عليا يقول على المنبر أن الله ﷻ سمى أبا بكر على لسان نبيه ﷺ صديقاً، انتهى مستفاداً من الإصابة.

فوائد أخرى من «الاستيعاب» للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر رحمه الله

الأولى: كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبد الله هذا قول أهل النسب الزبيري وغيره.

الثانية: قال فيه حسان بن ثابت يمدحه:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس من قد صدق الرسلا
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صعدوا الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا ... خير البرية لم يعدل به رجلاً

وقال فيه أبو محجن الثقفي:

وسميت صديقاً وكل مهاجر ... سواك يسمى باسمه غير منكر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد ... وكنت جليساً بالعريش المشهر
وبالغار إذ سميت بالغار صاحباً ... وكنت رفيقاً للنبي المطهر

قوله: وكنت جليسا بالعريش المشهر، يعني أن أبا بكر كان يحرس النبي ﷺ في العريش الذي جعل له في غزوة بدر، فرافقه في العريش كما رافقه في الغار.

الثالثة: سمى الصديق صديقاً لمبادرته لتصديق النبي ﷺ في كل ما جاء به.

الرابعة: قال أبو عمر قال ﷺ «ما نفعني مال، ما نفعني مال أبي بكر» معناه ما نفعني مال مثل ما نفعني مال أبي بكر لأن ما الأولى نافية والثانية مصدرية.

الخامسة: قال أبو عمر قال رسول الله ﷺ «دعوا لي صاحبي أي أبا بكر، فإنكم قلتم لي كذبت وقال صدقت» وقال رسول الله ﷺ في كلام البقرة والذئب آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر».

ومعنى ذلك أن النبي ﷺ أخبر أصحابه أن بقرة تكلمت وأن ذئباً تكلم ثم قال لهم آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر، فشهد لهما بتصديقه في ما أخبر به من هذا الأمر الخارق للعادة، وهذه منقبة لهما، فويل لمن يعاديهما ويجحد فضلهما إنه لمن الخاسرين.

السادسة: قال أبو عمر قال عمرو بن العاص يا رسول الله من أحب الناس إليك، قال عائشة. قلت من الرجال؟ قال: أبوها، وروى مالك عن سالم بن أبي النضر عن عبيد بن حنين عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ «إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر».

السابعة: قال أبو عمر روى سفيان بسنده إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنهم قالوا لها: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ فقالت كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام فتذاكروا رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ المسجد فقاموا إليه وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم فقالوا ألست تقول في آلهتنا كذا وكذا، قال: بلى، قال فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقيل له أدرك صاحبك فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله ﷺ والناس مجتمعون عليه فقال «ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم» قال فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر يضربونه، قالت فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه وهو يقول تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

الثامنة: قال أبو عمر وروينا من وجوه عن أبي أمامة الباهلي قال حدثنا عمرو ابن عبسة قال أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ فقلت يا رسول الله من اتبعك على هذا الأمر قال (حر وعبد، أبو بكر وبلال) قال فأسلمت عند ذلك اهـ.

التاسعة: اجمع أصحاب رسول الله ﷺ على مبايعته بالخلافة، لما ظهر لهم من أمارات تدل دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ ارتضاه للخلافة بما تقدم من كونه أحب الناس إليه وتقديمه للصلاة بالناس، وروى أبو عمر بسنده إلى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فسألته عن شيء فأمرها أن ترجع إليه فقالت يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ تعني الموت، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجديني فأتي أبا بكر، قال الشافعي في هذا الحديث دليل على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر.

العاشرة: قال أبو عمر بسنده ذكره عن عبد الله بن زمعة بن الأسود قال كنت عند رسول الله ﷺ وهو عليل فدعاه بلال إلى الصلاة فقال لنا مروا من يصلي بالناس قال فخرجت فإذا عمر في الناس وكان أبو بكر غائباً فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته وكان مجهراً فقال رسول الله ﷺ فأين أبو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس طول علته حتى قبض رسول الله ﷺ، وهذا أيضاً واضح في ذلك.

ومناقب أبي بكر رضي الله عنه أكثر من أن يتسع لها هذا المقال، والمقصود هنا أنه رضي الله عنه هو أول أهل الحديث بعد رسول الله ﷺ، نسأل الله أن يجعلنا منهم وينفعنا بمحبتهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهل الحديث (٤)

عمر بن الخطاب

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١م).

● **مولده ونسبه:**

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب «ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: «إنه ولد بعد الفجار الأعظم بأربع سنين، وذلك قبل المبعث النبوي بثلاثين سنة، ورواية ابن عبد البر أوضح وعليها يكون النبي ﷺ أسن من عمر بن الخطاب بثلاث عشرة سنة».

فأما نسبه فهو عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية. قاله الحافظ ابن عبد البر وابن حجر وقال ابن هشام: «وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة وعلى هذا تكون أمه أخت أبي جهل بن هشام بن المغيرة». . .

وقال أبو عمر بن عبد البر: «وقالت طائفة في أم عمر: حنتمة بنت هشام بن المغيرة ومن قال ذلك فقد أخطأ. ولو كانت كذلك لكانت أخت أبي جهل بن هشام بن المغيرة وليس كذلك وإنما هي ابنة عمه. فإن هاشم بن المغيرة وهشام بن المغيرة أخوان. فهاشم والد حنتمة أم عمر وهشام والد الحارث وأبي جهل. وهاشم بن المغيرة هذا جد عمر لأمه كان يقال له ذو الرمحين».

● **صفته الخَلقية:**

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: «وأخرج ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن أبي رجاء العطاردي قال: كان عمر طويلاً جسيماً أصلع أشعر شديد الحمرة كثير السبلة في أطرافها صهوبة وفي عارضيه خفة».

وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند جيد إلى زر بن حبيش قال رأيت عمر

أعسر أصلع آدم قد فرع الناس كأنه على دابة قال فذكرت هذه القصة لبعض ولد عمر فقال سمعنا أشياخنا يذكرون أن عمر كان أبيض فلما كان عام الرمادة وهي سنة المجاعة ترك أكل اللحم والسمن وأدمن أكل الزيت حتى تغير لونه وكان قد احمر فشحب لونه.

وروى الدينوري في المجالسة عن الأصمعي عن شعبة عن سماك كان عمر أروح كأنه راكب والناس يمشون والأروح الذي يتدانى عقباه إذا مشى.

وأخرج سعد بسند فيه الواقدي كان عمر يأخذ أذنه اليسرى بيده اليمنى ويجمع جراميزه ويثب على فرسه فكأنما خلق على ظهره».

وقال الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب «وكان آدم شديد الأدمة طوالاً كث اللحية أعسر أيسر يخضب بالحناء والكتم».

نكتفي بهذا القدر من صفة خلقه بفتح الخاء وفيها ألفاظ تحتاج إلى توضيح ليعم النفع القراء كلهم قويهم وضعيفهم.

الفجار: قال في اللسان: «قال الجوهري الفجار يوم من أيام العرب وهي أربعة أفجرة، كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان في الجاهلية وكانت الدبرة على قيس وإنما سمت قريش هذه الحرب فجاراً لأنها كانت في الأشهر الحرم، فلما قاتلوا فيها قالوا قد فجرنا فسميت فجاراً.

والصهوبة: حمرة شعر الرأس واللحية.

والأعسر: هو الذي يشتغل بيده اليسرى والأعسر الأيسر هو الذي يشتغل بيديه جميعاً. وقد روي أن عمر كان كذلك.

والأدمة: الحمرة وهي حمرة ناشئة عن بياض لأنه جاء في وصف عمر أنه كان أبيض وقوله فرع الناس: أي كان أطول منهم، وقوله كأنه على دابة: أي إذا مشى مع القوم فكأنه راكب لطول قامته.

شحب لونه: شحب اللون ككرم، وشحب كمنع تغير لونه مع هزال أو عمل أو جوع أو سفر.

وهذا من مناقب عمر التي لا يتصف بها إلا خليفة نبي لأن المجاعة في العادة

لا تصيب إلا عامة الناس، أما الرؤساء فلا يجوعون وعمر ﷺ فضل الجوع وترك الطيبات من الطعام عند قلته إيثاراً للعامة على نفسه. رحمه الله ورضي عنه فويل لمن يتنقصه من المبتدعين الضالين.

قوله سعد: لعل الصواب ابن سعد.

وجراميزه: ثيابه ويدل ذلك على أن عمر كان رياضياً، قوي الجسم لأن ركوب الخيل بالصفة المذكورة لا يتأتى إلا لقليل من مهرة الرياضيين.

وفي ذلك دليل على أن المسلم ينبغي له أن يكون قوي البدن مرتاضاً. قال الله تعالى في سورة البقرة في قصة طالوت حين قال بنو إسرائيل لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله فأخبرهم أن الله سبحانه بعث لهم طالوت ملكاً. فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. فظنوا لجهلهم أن الملك خاص بالأغنياء فرد عليهم نبيهم بقوله: «إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم».

فالملك لا يكون أهلاً للملك بسبب ثروته وكثرة ماله، ولكن لقوة جسمه وعلمه وتقواه. فإن مال الدولة يكون بيده وهو الذي يقسمه طبقاً لما أمر الله به أن يقسم فما حاجته إلى المال. وهكذا قال العرب أهل مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١) فرد الله عليهم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف: ٣٢) فظنوا لجهلهم أن النبوة لما كانت الرئاسة ملازمة لها لا تكون إلا لمن كان غنياً كثير المال وقوة الجسم، والرياضة البدنية من السنة التي اتصف بها الأنبياء ولنبينا محمد ﷺ الحظ الأوفر من ذلك فقد ثبت في صحيح البخاري أنه سابق عائشة أم المؤمنين فسبقته فلما ثقل جسمها باللحم سابقها مرة أخرى فسبقها وقال لها: «هذه بتلك».

وقوله: **يخضب بالحناء والكتم**: ذكر الحافظ في الفتح عن جماعة من الصحابة أنهم كانوا يخضبون بهما وقد جاء مثل ذلك عن النبي. وقلت في ذلك شعراً.

إني لأخضب بالحناء والكتم ... أقفو بذلك خير العرب والعجم

محمداً وأناساً من صحابته كانوا مصابيح تجلو داجي الظلم

* والكتم: يسمى بالعامية العراقية «الوسمة» وهو نبات شديد الخضرة وصفة الخضاب بها أن يخضب الرأس أو اللحية أو هما معاً بالحناء ويبقى ثلاث ساعات ثم يغسل الشعر غسلاً جيداً ويخضب بالكتم وبعد ساعة يغسل الشعر فيصير أسود.

● **صفته الخلقية**

قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ: «أبو حفص العدوي الفاروق وزير رسول الله ﷺ ومن أيد الله به الإسلام وفتح به الأمصار وهو الصادق المحدث الملهم الذي جاء عن المصطفى ﷺ أنه قال: «لو كان بعدي نبي لكان عمر» الذي فر منه الشيطان وأعلي به الإيمان وأعلن الأذان.

قال نافع بن أبي نعيم عن نافع عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه. وأين مثل أبي حفص فما دار الفلك على مثل شكل عمر هو الذي سن للمحدثين التثبت. انتهى.

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ما نصه:

قال الزبير وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشراف قريش وإليه كانت السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشاً كانت إذا وقعت بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم بعثوا سفيراً وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر رضوا به ولقبوه منافرا أو مفاخراً.

● **إسلامه**

قال ابن إسحاق وكان إسلام عمر - فيما بلغني - أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما خوفاً من عمر وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه من بني عدي بن كعب قد أسلم وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن. فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، وكان مع

رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم فيمن أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً. أفلا ترجع إلى أهل بيتك، فتقيم أمرهم، قال: وأي أهل بيتي؟ قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه. فعليك بهما، قال فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «سورة طه» يقرئهما إياها. فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما فلما دخل قال: ما هذه الهيمنة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد. فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك قالت له أخته إنا نخشاك عليها. قال لها لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها. فلما قال طمعت في إسلامه وأعطته الصحيفة وفيها «طه» فقرأها فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر» فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد آتيه فأسلم. فقال له خباب هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه

ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه فقال رسول الله ﷺ ائذن له. فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة شديدة وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فتفرق - أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم.

وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق في سبب إسلام عمر قصة أخرى أختصرها فيما يلي:

قال عمر: كنت أحب الخمر وأشربها في الجاهلية. وكان لي رفقاء ينادمونني على شرب الخمر وكان لنا مجلس معلوم نجلس فيه كل ليلة نشرب الخمر فذهبت ليلة إلى المجلس فلم أجد منهم أحداً فقصدت حانة لخمار مكة لأشرب فلم أجده فقصدت الكعبة لأطوف بها سبعاً أو سبعين فرأيت رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين الركنين ركن الحجر الأسود والركن اليماني- مستقبلاً الشام جاعلاً البيت بينه وبين قبلته فأردت أن أستمع لقراءته دون أن يعلم بمكاني فجئت الكعبة من قبل الحجر فدخلت تحت كسوتها وأخذت أمشي بين جدارها وثوبها حتى قمت في قبلته مستقبلاً له وهو لا يراني ولا يعلم بوجودي.

فلما سمعت القرآن رق قلبي له حتى بكيت فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته انصرف إلى بيته فتبعته حتى أدركته في الطريق فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني فظن أني تبعته لأوذيه، فنهمني (أي زجرني) ثم قال: ما جاء بك يا ابن

الخطاب هذه الساعة؟ فقلت جئت لأومن بالله وبرسولهﷺ ومسح صدري ودعالي بالثبات.

وإذا أردنا أن نجمع بين القصتين نقول: إن القصة الأولى سابقة للثانية وأن عمر حين قرأ الصحيفة في بيت أخته مال قلبه إلى الإسلام ولكن أراد أن يسمع من النبي ﷺ القرآن فاحتال ذلك حتى سمعه منه فازداد يقيناً وأسلم في تلك الليلة ثم قصد بعد ذلك دار الأرقم التي عند الصفا وأعلن إسلامه.

ويؤيد ذلك ما روى ابن إسحاق في السيرة «عن أم عبد الله بن عامر ابن ربيعة بنت أبي حثمة. قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا.

قالت فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله. قالت فقلت نعم والله. لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجاً. قالت: فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها. ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا. قالت فجاء عامر بحاجته تلك. فقلت له: يا أبا عبد الله: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه قالت: نعم. قال فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإسلام».

ومن ذلك يظهر لنا أن إسلام عمر لم يكن فجأة فإنه من المستبعد في طباع البشر أن يكون الرجل على دين متعصباً له أشد التعصب ويرى ديناً جديداً فيحاربه أشد المحاربة ثم ينتقل من الدين الأول إلى الثاني فجأة بدون أن يتقدم انتقاله فترة تردد وتأمل. وهذا مشاهد معروف عند من خبر أحوال المنتقلين من دين إلى دين.

ومما يناسب ذلك أني كنت في برلين الغربية سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى فقصدت الجامع لصلاة الجمعة وهو في القسم الغربي، وكنت أعرفه وأصلي فيه حين كنت طالباً ومدرساً هناك من سنة تسع وثلاثين إلى سنة اثنتين وأربعين بالتاريخ المذكور فلما رآني الإمام دعاني لأصلي بهم الجمعة وبعد الفراغ من الصلاة قام وخطبهم هو باللغة الجرمانية ثم أخذنا نتجاذب أطراف الأحاديث فرأيت رجلاً حسن الإصغاء لكل حديث يدور حسن السمت تظهر عليه الرغبة في الازدياد من علوم الإسلام ويكثر الأسئلة فقلت له يا أخي تسمح لي أن

أسألك منذ كم سنة أسلمت؟ فقال لي لم أسلم بعد! فقلت ولماذا جئت إلى هنا وحضرت الصلاة؟ فقال حضرت الصلاة ولم أصل!! ولكن استمعت إلى الخطبة التي ألقيت باللغة الجرمانية فقلت هل زرت المسجد قبل هذه المرة؟ فقال لي منذ سنة لم تفتني ولا جمعة واحدة ومَسْكَني بعيد من المسجد، أركب ساعة في القطار لأصل إليه فقلت له: وإلى الآن ما تبين لك أن الإسلام حق؟ فقال لي: أريد أن أزداد يقيناً حتى يكون إسلامي مبنياً على أساس متين. فإن قلت: هذا الألماني بقي سنة يدرس الإسلام وعمر فيما ذكرت لم يبق إلا مدة قصيرة فهل كان الألماني أكثر تثبتاً منه؟ فالجواب أن بين الألماني وعمر فرقاً شاسعاً لأن الألماني لا يعرف لسان القرآن والرسول ﷺ ولا يستطيع أن يقرأ القرآن أو يسمعه فيفهمه وإنما يعتمد على ترجمة المترجمين ومن الفروق أن عمر يعرف رسول الله ﷺ من صباه ويعرف صدقه وأخلاقه ويعرف من آمن به قبله وهم أربعون رجلاً وإحدى عشرة امرأة وكيف ثبتوا على دينهم واستعذبوا العذاب فيه، وصبروا على مفارقة الوطن بل كان عمر يشاهد نور رسول الله ﷺ ولا يحجب إلا عن شقى.

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر بسند ذكره من طريق ابن معين عن هلال بن يساف قال: «أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة قال أبو عمر فكان إسلامه عزاً ظهر به الإسلام بدعوة النبي ﷺ».

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة بسند ذكره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: قال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل ابن هشام أو بعمر بن الخطاب» فأصبح عمر فغدا إلى رسول الله ﷺ.

وأخرج أبو يعلى وذكر سنده إلى ابن عمر قال: إن رسول الله ﷺ قال: اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام وكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب».

وأحب هنا أفعل تفضيل من حب بضم الحاء مبنياً لما لم يسم فاعله وقد منعه ابن مالك ولكنه كثير من كلام العرب، وهو من جريان أفعل التفضيل على غير بابه فأحب هنا بمعنى محبوب لأن أحدهما وهو أبو جهل لا يشارك الآخر في محبة

الله حتى يفضل عليه فهو كقولهم الأشج والناقص أعدلا ملوك بني مروان- أي عادلا ملوك بني مروان إذ لا عادل فيهم غيرهما.

ثم ذكر الحافظ روايات متعددة لهذا الحديث عن جماعة من الصحابة تختلف ألفاظها ويتفق معناها.

● **بعض مناقبه**

١- منها ما تقدم أن النبيﷺ دعا أن يعز الله الإسلام ويشده برجل يحبه الله تعالى فكان ذلك الرجل فثبتت له محبة الله تعالى.

٢- ومنها ما رواه البخاري في صحيحه في باب مناقب عمر بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة فقلت من هذا؟ فقال هذا بلال ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت لمن هذا؟ قال لعمر فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك فقال: عمر بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار» انتهى.

والخشفة بفتح أوله وثانيه أي حركة وقع الأقدام، وفي رواية أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى جانب قصر عمر امرأة تتوضأ والباقي مثل ما تقدم وفيها زيادة أن عمر حين سمع ذلك بكى وقال أعليك أغار يا رسول الله».

٣- ومنها ما أخرجه البخاري بسنده إلى حمزة عن أبيه أن رسول اللهﷺ قال: «بينا أنا نائم شربت يعني اللبن حتى أنظر إلى الري يجري في ظفري أو في أظفاري ثم ناولت عمر قالوا فما أولته يا رسول الله قال: العلم».

فهذه شهادة من النبيﷺ لعمر بالعلم النافع الذي أخذه عنه عليه الصلاة والسلام.

٤- ومنها ما أخرجه البخاري في مناقبه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعًا خفيفا والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن».

قال ابن جبير العبقري عتاق الزرابي، وقال يحيى: الزرابي: الطنافس لها

همل رقيق مبثوثة كثيرة.

شرح بعض ما يعسر فهمه على بعض القراء من هذا الحديث.

على دلو بكرة: البكر بفتح الباء والكاف: خشبة مستديرة يعلق عليها الدلو لتسهيل نزعه من البئر- والقليب البئر. الذنوب الدلو الممتلئة ماء. الغرب: الدلو العظيمة تتخذ من جلد ثور يعني أن عمر لما أخذ الدلو عظمت في يده وكبرت وذلك إشارة إلى كثرة الفتوحات التي أجراها الله على يديه واتساع حوزة الإسلام، ولم يقع مثل ذلك في خلافة أبي بكر الصديق، ولكن له مناقب أخرى كثيرة لا يشاركه فيها عمر.

والعبقري: قال أبو عمر: وعبقري القوم سيدهم وقيمهم وكبيرهم.

حتى روي الناس وضربوا العطن. قال في اللسان العطن للإبل كالوطن للناس، يعني حتى رويت الإبل وبركت بمعاطفها، كناية عما تقدم من كثرة الفتوحات والأرزاق، وانتشار العدالة والأمن، ورغد العيش وصلاح الأحوال.

٥- وأخرج البخاري عن سعد بن أبي وقاص قال أستأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرن عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال أضحك الله سنك يا رسول الله فقال النبي ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب» قال عمر: «فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله» ثم قال عمر «يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله» فقلن: نعم أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «إيه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجا قط إلا سلك فجا غير فجك».

قولهن «أنت أفظ وأغلظ» جرى أفعل التفضيل أيضاً على غير بابه، فإن النبي ﷺ ليس عنده شيء من الفظاظة ولا من الغلظة حتى يشارك عمر فيهما ويكون عمر أشد منه في ذلك، قال الله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ

فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ معناه برحمة الله وفضله لنت يا محمد لأصحابك فأحبوك ولو كنت فظاً غليظ القلب لتفرقوا عنك.

قال الجمل في حاشيته على الجلالين: الفظاظة الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلاً، والغلظة التكبر ثم تجوز فهي من عدم الشفقة وكثرة القسوة في القلب.

٦- ومنها أن الله أعز به المسلمين، فأخرج البخاري بسنده عن عبد الله يعني ابن مسعود قال عبد الله ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

٧- منها ثناء علي ﷺ على عمر، أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة، أنه سمع ابن عباس يقول: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قل أن يرفع، وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجل أخذ منكبي فإذا علي بن أبي طالب فترحم على عمر وقال: «ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن، أن يجعلك مع صاحبيك وحسبت أني كثيراً أسمع النبيﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر».

٨- ومنها بشارة النبي ﷺ بالشهادة أخرج البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله وقال: «اثبت فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان».

٩- منقبة التحديث والتكليم. ومنها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر»، زاد زكرياء بن زائدة عن سعد عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «لقد كان في من كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح. والسبب في تخصيص عمر بالذكر لكثرة ما وقع له في زمن النبي ﷺ من الموافقات التي نزل القرآن مطابقاً لها، ووقع له بعد النبي ﷺ عدة إصابات.

١٠- شهادة النبي ﷺ بقوة إيمان عمر، ومنها ما أخرجه البخاري بسنده في

صحيحه عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، قالا سمعنا أبا هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «بينما راع في غنمه عدا الذئب فأخذ منها شاة فطلبها حتى استنقذها فالتفت إليه الذئب فقال له: «من لها يوم السبع ليس لها راع غيري، فقال الناس سبحان الله فقال النبي ﷺ فإني أومن به وأبو بكر وعمر وما ثم أبو بكر وعمر» انتهى، يعني أن النبي ﷺ بالإيمان أخبر لهذا الأمر المغيب.

١١- كمال دين عمر

وأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض علي عمر وعليه قميص اجتره» قالوا فما أولته يا رسول الله قال: الدين.

١٢- بشارة النبي ﷺ لعمر بالجنة

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح، فقال النبي ﷺ: افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو أبو بكر فبشرته بما قال رسول الله ﷺ فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ: افتح له «وبشره بالجنة» ففتحت له فإذا هو عمر فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله. ثم استفتح رجل فقال لي: افتح له وبشره الجنة على بلوى تصيبه فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ فحمد الله ثم قال: الله المستعان.

١٣- ومنها قوله «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» أخرجه الترمذي وأحمد وصححه الحاكم.

وهذا الحديث يدل على فضل عمر ﷺ وتوفيق الله له لإصابة الحق، وكذلك حديث التحديث والتكليم، وأحاديث أخرى في هذا الباب ولا يدل شيء من ذلك على أنه معصوم من الخطأ فلا عصمة إلا للأنبياء.

وأقتصر على هذا القدر من مناقب هذا الإمام ﷺ فإنها لا تحصى إلا بكلفة

ولا يتسع لها المقام.

● **خلافته**

قال الحافظ أبوعمر بن عبدالبر في الاستيعاب:

وولى الخلافة بعد أبي بكر بويع له يوم مات أبو بكر ﷺ باستخلافه له سنة ثلاث عشرة فسار بأحسن سيرة، وأنزل نفسه من مال الله بمنزلة رجل من الناس، وفتح الله الفتوح بالشام والعراق ومصر، ودون الدواوين في العطاء، ورتب الناس فيه على سوابقهم وكان لا يخاف في الله لومة لائم، وأرخ التاريخ من الهجرة الذي بأيدي الناس اليوم، وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين لقصة نذكرها هنا إن شاء الله تعالى، وهو أول من اتخذ الدرة وكان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظا يا عمر».

ثم قال أبو عمر «وأما القصة التي ذكرت في تسمية عمر نفسه بأمير المؤمنين، فذكر الزبير قال: قال عمر: لما ولي كان أبو بكر يقال له خليفة رسول الله ﷺ فكيف يقال خليفة خليفة يطول هذا، قال فقال له المغيرة بن شعبة «أنت أمير المؤمنين ونحن المؤمنون فأنت أمير المؤمنين- قال: فذاك إذن».

● **استشهاد عمر وسبب قتله**

سبب قتله: المحافظة على إقامة العدل بين الناس.

قال ابن عبد البر عن الواقدي بسنده إلى الزبير بن العوام قال: غدوت مع عمر ﷺ إلى السوق وهو متكئ على يدي فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ألا تكلم مولاي يضع عني من خراجي، قال: كم خراجك قال دينار، قال ما أرى أن أفعل إنك عامل محسن، وما هذا بكثير ثم قال له عمر: ألا تعمل لي رحى، قال: بلى، فلما ولّى قال أبو لؤلؤة لأعملن لك رحى يتحدث بها ما بين المشرق والمغرب، قال فوقع في نفسي قوله، قال فلما كان في النداء لصلاة الصبح خرج عمر إلى الناس يؤذنهم للصلاة قال ابن الزبير «راوي هذا الخبر عن أبيه» وأنا في مصلاي وقد اضطجع له عدو الله أبو لؤلؤة فضربه بالسكين ست طعنات إحداها من تحت سرته هي قتلته- فصاح عمر أين عبد الرحمن بن عوف فقالوا: هو ذا يا

أمير المؤمنين فقال تقدم فصل بالناس، فتقدم عبد الرحمن فصلى بالناس وقرأ في الركعتين قل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، واحتملوا عمر فأدخلوه منزله فقال لابنه عبد الله: اخرج فانظر من قتلني، قال فخرج عبد الله بن عمر فقال من قتل أمير المؤمنين فقالوا أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فرجع فأخبر فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قتلي بيد رجل يحاجني بلا إله إلا الله.

وقد روى أبو عمر وغيره في قصة استشهاد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أخباراً كثيرة بأسانيدها وهي لا تخرج عن معنى ما تقدم.

● **تثبته في رواية الحديث عن النبي ﷺ**

كان عمر ﷺ متثبتاً في رواية الحديث عن النبي ﷺ إذا سمع أحداً يروي حديثاً عن النبي ﷺ من أصحاب رسول الله يتردد في قبوله منه حتى يتيقن وهذا مشهور عنه، فمن ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في التذكرة، وهو مروي في كتب الحديث أن أبا موسى الأشعري ﷺ سلم على عمر من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن، فرجع فأرسل عمر في أثره فقال لم رجعت؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع قال: لتأتيني على ذلك ببينة أو لأفعلن بك، فجاءنا أبو موسى منتقعاً لونه ونحن جلوس، فقلنا ما شأنك فأخبرنا وقال: هل سمع أحد منكم فقلنا نعم كلنا سمعه فأرسلوا معه رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره. أحب عمر أن يتأكد عنده خبر أبي موسى بقول صاحب آخر ففي هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد.

ولا يلزم من كلام الذهبي رحمه الله أن يكون الخبر الواحد ليس بحجة أو أنه لا يفيد العلم، وإن كان أكثر العلماء من المتأخرين يقولون إن الخبر الواحد يفيد الظن فقط، ولا يفيد العلم إلا خبر التواتر، قال المحققون إن خبر الواحد قد يحتف به من القرائن ما يجعله يفيد العلم، وقد عقد البخاري رحمه الله لذلك باباً في صحيحه وأورد حججاً كثيرة فليراجع.

ولا يفهم من تثبت عمر ﷺ أنه كان لا يقول بأن خبر الواحد حجة فإنه ﷺ هو نفسه حدث بأحاديث كثيرة انفرد بها وقبل خبر الواحد وجعله حجة حين كان يفتي

بأن من أجنب ولم يجد ماء ألا يتيمم بل يترك الصلاة حتى يجد الماء فجاءه عمار ابن ياسر وذكر أنه كان معه في سرية فأجنبا جميعاً فأما عمر فترك الصلاة، وأما عمار فتمعك كما تتمعك الدابة في الصعيد، فلما رجعا أخبرا النبي ﷺ فقال لعمار: «إنما يكفيك أن تفعل هكذا» وضرب بيده الأرض ضربة واحدة فمسح بها وجهه وظاهر كفيه صل الله عليه فعند ذلك قال عمر لعمار أبصر ما تقول يا عمار، فقال إن شئت لم أحدث به، فقال لا بل نحملك ما تحملت والقصة مشهورة في كتب الحديث.

● **بعض مروياته**

لا يتسع المقام لذكر كثير من مرويات هذا الإمام وهي سهلة التناول في كتب الحديث، ولا سيما كتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣١٠) أحاديث ولكني أردت أن أنتخب بعض مروياته لأختم بها هذا المقال تبركاً ليكون ختامه مسكاً وسأذكره بترتيب المحقق أحمد شاكر رحمه الله - ٨٩- قال الإمام أحمد بسنده عن معمر بن أبي طلحة اليعمري إن عمر بن الخطاب قام على المنبر يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر رسول الله ﷺ وذكر أبا بكر ثم قال: رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلي، رأيت كأن ديكا نقرني نقرتين، قال وذكر لي أنه ديك أحمر فقصصتها على أسماء بنت عميس امرأة أبي بكر فقالت: يقتلك رجل من العجم قال وإن الناس يأمرونني أن أستخلف وإن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته التي بعث بها رسول الله ﷺ وإن يعجل لي أمر فإن الشورى في هؤلاء الستة الذين مات نبي الله ﷺ وهو عنهم راض، فمن بايعه منهم فاسمعوا له وأطيعوا، وإني أعلم أناسا سيطعنون في هذا الأمر أنا قاتلتهم بيدي هذه على الإسلام، أولئك أعداء الله الكفار والضلال وأيم الله ما أترك فيما عهد إلى ربي فاستخلفني شيئاً أهم إلي من الكلالة وأيم الله ما أغلظ إلي نبي الله ﷺ في شيء منذ صحبته أشد مما أغلظ لي في شأن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال تكفيك آية الصف التي نزلت في آخر سورة النساء وإني إن أعش فسأقضي فيها بقضاء

يعلمه من يقرأ ومن لا يقرأ وإني أشهد الله على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتهم ليعلموا الناس ويبينوا لهم سنة نبيهم ﷺ ويرفعوا إلي ما عمي عليهم، ثم إنكم أيها الناس تأكلون من شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين هذا الثوم والبصل، وأيم الله لقد كنت أرى نبي الله ﷺ يجد ريحهما من الرجل فيأمر به فيأخذه بيده فيخرج به من المسجد حتى يؤتى به البقيع، فمن أكلهما لا بد فليمتهما طبخاً، قال فخطب الناس يوم الجمعة وأصيب يوم الأربعاء» رواه مسلم أيضاً .

٩- قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر قال: خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها فلما قدمناها تفرقنا في أموالنا، قال فعدي علي تحت الليل وأنا نائم على فراش ففدعت يداي من مرفقي فلما أصبحت أستصرخ على صاحبي فأتياني فسألاني عمن صنع هذا بك، قلت لا أدري، قال فأصلحا من يدي ثم قدما بي على عمر فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً، قال أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما بلغكم من عدوتهم على الأنصار قبله لا نشك أنهم أصحابهم ليس لنا هناك عدو غيرهم من كان له مال بخيبر فليلحقه به فإني مخرج اليهود فأخرجهم .

قال الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن معاوية الكندي أنه ركب إلى عمر بن الخطاب يسأله عن ثلاث خلال: قال فقدم المدينة فسأله عمر ما أقدمك؟ قال لأسألك عن ثلاث خلال، قال وما هن؟ قال ربما كنت أنا والمرأة في بناء ضيق فتحضر الصلاة فإن صليت أنا وهي كانت بحذائي، وإن صلت خلفي خرجت من البناء؟ فقال عمر تستر بينك وبينها بثوب ثم تصلي بحذائك إن شئت، وعن الركعتين بعد العصر، فقال نهاني عنهما رسول الله ﷺ قال وعن القصص؟ فإنهم أرادوني على القصص؟ قال ما شئت كأنه كره أن يمنعه قال إنما أردت أن أنتهي إلى قولك قال: أخشى عليك أن تقص فترتفع عليهم في نفسك ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك.

● **في هذا الحديث فوائد أذكر بعضها:**

الأولى: علو همة السلف وجدهم وصدقهم في طلب العلم فإن الحارث بن معاوية سافر إلى عمر ليسأله عن هذه المسائل الثلاث وكان في إمكانه أن يكتب إليه أو أن يكلف أحد المسافرين أن يسأله ويأتيه الجواب.

الثانية: فقه عمر ﷺ إذ أفتاه أن يجعل ثوباً يحول بينه وبين المرأة وتصلي إلى جانبه فكأنه فهم أن الحكمة في تأخر الزوجة إذا اقتدت بزوجها منع الملامسة وما أشبهها من الاستمتاع كالنظر فأباح صلاتها إلى جانبه للضرورة.

الثالثة: كان عمر ﷺ شديداً على من يصلي ركعتين بعد العصر حتى إنه تغيظ على علي بن أبي طالب حين صلاهما والذي نختاره وندين الله به أن النافلة بعد العصر لا تجوز حتى تغرب الشمس سواء أكان لها سبب أم لا.

الرابعة: اللغة وما أعظمها من فائدة وأجدرها بالاعتبار وهي القصص ومعنى القصص في لغة ذلك الزمان الوعظ والتعليم فقد خاف عمر ﷺ على سائله مع فضله وتقواه وورعه إذا انتصب للوعظ والإرشاد أن يشعر بالتعاظم والكبر فيخسر خسراناً مبيناً فنهاه عن ذلك.

ومحل ذلك إذا كان هناك من العلماء من يقوم لهذا الواجب ولم يتعين عليه وإلا وجب عليه أن يستعين بالله تعالى على النفس الأمارة ويعظ ويعلم ويرشد ولا يترك الوعظ خوفاً من ذلك.

٢٠ مقالات

الشيخ حمد الجاسر

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- رحلة إلى طيبة (١).

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ) _ مارس (١٩٦٨م).

٢- رحلة إلى طيبة (٢).

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) _ إبريل (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ
حمد الجاسر

● **مولده ونشأته**

هو حمد بن محمد بن جاسر عالم وباحث سعودي، ولد سنة ١٣٢٨ هـ في قرية البرود من إقليم السر في منطقة نجد من أب فقير.

درس القضاء الشرعي وعمل قاضياً، وهو عضو سابق في أكاديميات بغداد ودمشق والقاهرة.

عمل في قطاع التعليم، والقضاء، والصحافة والنشر، وأنشأ اليمامة، أول صحيفة في الرياض، في عام ١٩٥٢، وتبعتها جريدة الرياض في عام ١٩٧٦م وأخيرا العرب، وهي فصلية متخصصة في تاريخ وآداب شبه الجزيرة العربية.

أنشأ حمد الجاسر أول دار للطباعة في نجد في عام ١٩٥٥، وفي عام ١٩٦٦م أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

أسهم حمد الجاسر في ثقافة وطنه كعلّامة ومؤرخ وجغرافي، حيث كان أول مدير لكليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض اللتين كانتا النواة لإنشاء «جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية».

وخلّف العديد من الكتب التي تحمل اسمه والتي تغطي حقولا متنوعة من المعرفة: من المصورات الجغرافية والتاريخية إلى أدب الرحلات وكتب السيرة وطبعات نقدية للنصوص التراثية الهامة منها: «إطلالة على العالم الفسيح، معجم

قبائل المملكة العربية السعودية، مع الشعراء، نظرات في كتاب تاج العروس» وغيرها.

● **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ يوم الخميس ١٦ رجب ١٤٢١ هـ (١٤ سبتمبر ٢٠٠٠م) بعد حياة حافلة بالعطاء، فرحمه الله رحمة واسعة.

رحلة إلى طيبة (١)

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ) - مارس (١٩٦٨م).

الغاية من الحديث عن هذه الرحلة تكاد تنحصر في جانب واحد، هو أن كثيرا من مواضع بلادنا لا يزال محتفظا باسمه القديم الذي نقرأه في كتب التاريخ والرحلات وفي شعر الشعراء المتقدمين.

وقد خطر لي- أثناء تعليقي على القسم المتعلق بتحديد الأمكنة من كتاب اللغوي المعروف مجد الدين الفيروزآبادي عن تاريخ المدينة النبوية المسمى «المغانم المطابة من معالم طابة» - خطر لي القيام بزيارة البلدة الطيبة، لعلي أستطيع أن أحدد بعض الأماكن القريبة منها مما ذكره الفيروزآبادي أو التابعة لها على ما جاء في كتابه تحديدا صحيحا.

وكنت ضعيف الأمل في الاهتداء إلى معرفة تحديد كثير من الأمكنة لتغير الأسماء وانقطاع تدوين تحديدها منذ أمد بعيد.

وقلت في نفسي: لتكن تجربة، أقوم بها متتبعا طريق هجرة المصطفى ﷺ إذ العلماء أَوْلَوا آثاره، عليه الصلاة والسلام، عناية فاقت كل عناية.

وكان أن رجعت إلى أقدم المؤرخين الذين حددوا معالم تلك الطريق، وأقدم من استطعت الحصول على تحديده، هو ابن هشام مختصر سيرة ابن إسحق، ثم ابن جرير من بعده، فنقلت أسماء المواضع التي ذكرها هذان العالمان من كتابيهما المعروفين.

ووجدت من كرم أخي الأستاذ أبي الخضر عبدالرحمن الشيباني ما يسر لي وهيأ كل وسيلة لتحقيق إربي، فكان أن قمت بتلك الرحلة القصيرة إلى المدينة، وإن لم تكن كاملة من كل ناحية، إلا أنها بعثت في نفسي آمالا طيبة، وكان لها من

الآثار الحسنة ما ملأت فؤادي تفاؤلا بأن كثيرا من معالم تاريخنا، وما يتعلق بتحديد المواضع الأثرية في تاريخنا لا يزال سهلا ميسورا.

للمدينة المنورة من مكة طرق كثيرة أشهرها ثلاثة:

١- الطريق الساحلية التي تسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر - بحر القلزم- حتى تحاذي بلدة «بدر» التي كانت في السابق إحدى المحطات الرئيسية لطرق القوافل في غربي الجزيرة إلى الشام والتي حدثت فيها الوقعة العظيمة التي انتصر فيها الإسلام أعظم انتصار في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن بدر يتجه المرء إلى المدينة ذات اليمين، سائرا مع واديها الذي أعلاه «وادي الصفراء» حيث تجتمع أودية كثيرة تنحدر من السلسلة الجبلية جنوب المدينة- وسيأتي الحديث عنها- ثم يسلك المرء أحد تلك الأودية متجها صوب الشمال، حتى ينتهي منحدرا في واد آخر ويفضي به الطريق بعد ذلك إلى وادي العقيق مدخل المدينة المنورة.

٢- الطريق النجدية وهي طريق تتجه من مكة مشرقا حتى تقطع سلسلة جبال الحجاز ثم تسير منحرفة نحو الشمال بمحاذاة تلك السلسلة الجبلية مارة بأودية كثيرة ومخترقة قسما من بلاد هذيل، ثم بلاد بني سليم وطرفا من بلاد مزينة، ثم تأتي إلى المدينة من الناحية الشرقية، وهذه الطريق كانت مسلوكة إلى عهد قريب، وقد كان للعمل في معدن بني سليم - الذي تمر تلك الطريق بقربه في الأزمنة الأخيرة - كان للعمل في ذلك المعدن من الأثر ما أحيا هذه الطريق، وأصلح كثيرا من المواضع التي تحتاج إلى إصلاح وتقع محطات لها أو قريبة منها.

٣- الطريق الوسطى التي تعتبر الطريق الرئيسية إلى المدينة من مكة، وهذه تمر بكثير من الأودية وتعترضها عقبات، وأمكنة وعرة، وكانت قوافل الحجاج والزوار في العصور القديمة تسلك هذه الطريق، وقبل عشر سنوات أُصلِح بعضها حتى صار طريقا للسيارات، ومن أشهر العقبات التي تقع في هذه الطريق، عقبة «هرشا» وقد عبدت قديما لسلوك القوافل ثم سهلت لمرور السيارات.

وتجتمع هذه الطريق مع طريق الساحل في محطة تعرف قديما باسم

«المنصرف» وحديثا باسم «المسيجيد» قرية كبيرة الآن.

وهناك طرق فرعية أخرى، إلا أن فيها كثيرا من الوعورة بحيث لا تجتازها الإبل إلا بمشقة كطريق «الغاير» التي تتجه إلى المدينة قبل محطة «المسيجيد» بما يقارب مرحلة بسير الإبل.

ولحسن الحظ فإن هذه الطريق على وعورتها ومرورها في أودية رملية وتلاع صخرية، فإنها لا تزال تُسْلَك حتى عهدنا الحاضر، لأن الزوار في شهر رجب يسلكونها لاختصارها ولكونها هي الطريق القديمة وأكثر من يسلكها راكبو «الحمير» الذين يسيرون في موكب معروف في شهر رجب من مكة، ويجوزون ثنية الغائر، مشاة أو ركبانا فوق دوابهم فيصلون إلى قمة السلسلة الجبلية الواقعة بقرب المدينة ثم ينزلون مع وادي «ريم» إلى وادي العقيق في المدينة.

ومما ينبغي الانتباه له، أن بعض المتقدمين قد يحددون جبلا أو موقعا بأنه على الطريق بين مكة أو في شمال الطريق أو يمينه، وإذا لم يكن لدى الباحث العام معرفة بتلك الطرق وتعددها، قد يقع في إشكال من هذه الناحية.

ومثال ذلك ما ذكره بعضهم من أن جبل «عير» وهو جبل عظيم لا يزال معروفا ومشاهدا بقرب المدينة يقع على يمين طريق المتوجه من المدينة إلى مكة، وهذا الكلام حق بالنسبة لمن سلك طريق «ريم» ونزل من ثنية «الغائر» ولكن من أتى مع الطريق الوسطى مارا بالسيالة فملل فالفرش، يدعه عن يمينه إذا اتجه إلى المدينة، وعلى يساره إذا اتجه إلى مكة.

وملاحظة أخرى ينبغي إدراكها: هي أن الاسم قد يطلق على عدة مواضع، وكثير من المتقدمين لا يفرقون بين تلك المواضع، فيوردون تعاريفها وما قيل في تحديدها عند الكلام على إحداها فيقع الالتباس، ويقع التضارب عند المتقدمين عندما يحاولون تحديد موضع من المواضع، إذ يعتمد أحدهم على قول، ويعتمد الآخر على قول ثان يخالفه في ظاهر الأمر، وقد يكون في الواقع منطبقا على موضع آخر، بعيد عن الموضع المقصود، وأمثلة ذلك كثيرة فيما بين أيدينا من معجمات الأمكنة، وكتب التاريخ والرحلات، التي حاول مؤلفوها إيراد ما جاء

عن المتقدمين في تحديد بعض الأمكنة التي يتعرضون لذكرها.

ولقد سلك رسول الله ﷺ عندما هاجر إلى المدينة طريقا غير الطريق التي اعتاد الناس في ذلك العهد سلوكها، يقول السهيلي- في الروض- حاكيا عن دليلهما: فكنت آخذ بهم في إخفاء الطريق، وَفَقِه هذا أنهم كانوا خائفين، فلذلك كان يأخذ بهم إخفاء الطريق ومخارمه. أ. هـ.

وعندما خرج هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه أخذهما دليلهما فسلك بهما أسفل مكة، ثم مضى على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل «عسفان» ثم سلك بهما على أمج، ثم جاز بهما، تاركا الطريق على يمينه، وقد فعل ذلك خوفا من ترصد قريش للرسول ﷺ.

وإذا أردنا أن نبحث عن تحديد المواضع التي ذكرها ابن هشام وغيره فإنها تبدو بهذا الترتيب:

١- أسفل عسفان معروف، وهو أسفل الوادي عندما يصب في البحر بقرب «ذهبان» الذي يبعد عن جدة «٥٠» كيلا.

٢- أمج، وأمج هو أسفل وادي «ساية» الوادي الذي يقع في أسفله «خليص».

وقد حدد المتقدمون المسافة بين «عين خليص» وبين أمج، بميلين، أي أن العين بعد أمج للمتوجه إلى المدينة، وهذا الوادي يجتمع مع وادي «غران» فيكونان واديا واحدا يفيض في البحر فيما بين «ذهبان» «وثول».

٣- قديد: واد طويل، ويظهر أن طريق الرسول ﷺ كان على أسفل الوادي، لأن ابن هشام وغيره ذكر أن الدليل سلك بهما الخرار بعد قديد.

٤- والخرار على ما ذكر المتقدمون قريب من «الجحفة» وبعضهم يعده فيها، والجحفة لا تزال معروفة، فكأن الدليل جاز وادي «الستارة» وهو أسفل «قديد» ويصب في البحر فيما بين «القظيمة» و«ثول» ثم سار قريبا من الساحل حتى جاز «الخرار» ثم أخذ ثنية تدعى «ثنية المرة».

٥- وثنية المرة لم أجد من يعرفها، ولكن يوجد بجهة «كلية» فيما بينها وبين «رابغ» ثنية يسلكها المتوجه إلى «كلية» والمتقدمون يقولون: عن ثنية المرة: إنها

قريبة من ماء يدعى «الإحياء» وأنه في وادي «رابغ».

٦- ويسوق المتقدمون خبر الطريق فيذكرون أن الرسول ﷺ بعد «ثنية المرة» سلك «لقفا».

ولقف هذا واد لا يزال معروفا، وهو من روافد «وادي النخل» يقع بين وادي «الفرع» ووادي «مجاح» ويفيض في وادي النخل عند محطة «بئر رضوان» التي تبعد عن «بئر مبيريك» مسافة تقرب من «٣٠» كيلا من جهة مطلع الشمس.

ووادي النخل يصب في «القاحة» عند بئر «مبيريك» ووادي «القاحة» يصب في وادي «الأبواء» وقول ابن هشام: إن «لقفا» يقال له «لفت» واستشهاده بشعر معقل بن خويلد الهذلي على ذلك، يظهر أنه تصحيف، فابن إسحق أعرف منه بتلك المواضع لقدمه ولإقامته في المدينة، وقد سماه «لقفا».

ويظهر من سياق الخبر أن الرسول ﷺ ترك طريق ثنية «هرشا» يساره إذ هي الطريق المعروفة وأنه نزل من «مدلجة لقف».

٧- و«مدلجة لقف» تلعة كبيرة، تصب في وادي «لقف» تبعد عن «بئر رضوان» مسافة ١٠ أكيال إذا سندت في وادي «لقف» تفيض فيه من جهة الشمال.

٨- وفي الخبر: ثم استبطن بهما «مدلجة مجاح».

و«مدلجة مجاح» رافد من روافده لا يزال معروفا.

٩- أما مجاح فقد ورد بصيغ مختلفة «محاج» و«مجاج» و«مجاح» والأخيرة هي الصواب، وقد لاحظ هذا السهيلي حيث قال: وقد ألفيت شاهد الرواية ابن إسحق في لقف وفيه ذكر «مجاح» بالحاء المهملة بعد الجيم، وهو قول محمد بن عروة بن الزبير:

لعن الله بطن لقف، مسيلا ... و«مجاحا» وما أحب «مجاحا»!!

لقيت ناقتي به، وبـ «لقف» ... بلدا مجدبا، وأرضا شحاحا!

إن وادي «مجاح» لا يزال معروفا، وهو من فروع وادي النخل، يصب فيه قبل اجتماعه بوادي «القاحة»، بما يقرب من ٥ أكيال قبل «بئر مبيريك».

١٠- وورد في الخبر «مدلجة مجاح».

وهي رافد من روافده، ولا يزال معروفا، ومدلجة «لقف» ومدلجة «مجاح» يتقاربان حتى يلتقيا.

١١- ثم سلك بهما «مرجح مجاح».

«مَرْجِح» رافد من روافد «مجاح» مقابل لمدلجة مجاح، يصب فيه، وقد ورد في كتاب البلدان لنصر بن عبدالرحمن الإسكندري مصحفا: «مُدَجِّج» بضم الميم، وفتح الدال وتشديد الجيم الأولى وكسرها، والصواب: بفتح الميم وسكون الراء، وجيم مكسورة، بعدها حاء مهملة.

١٢- وجاء في الخبر: ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين، قال ابن هشام: ويقال «العضوين»، وأقول: المعروف الآن عند أهل الجهة «العصوين» بالعين والصاد المهملتين، تثنية عصا، وهما تلعتان كبيرتان، كل واحدة منهما تسمى «العصا» تلتقيان، ثم تصبان في وادي «مجاح» بقرب اجتماعه بوادي النخل، وأرى أن الغضوين أو العضوين تصحيف.

١٣- ثم بطن «ذي كشر».

يعرف هذا الموضع الآن باسم «أم كِشْد» بكاف مكسورة، وشين معجمة ساكنة، ودال مهملة، لا كما جاء في «سيرة ابن هشام» وفي «معجم البلدان» «وأم كشد» هذه تلعة تصب في وادي يدعى «ثقيب» وهو واد يجتمع مع وادي «القاحة» بعد أن يتجه المرء من «بئر مبيريك» إلى جهة المدينة، بما يقرب من ٥١ كيلا.

فكأن طريق الرسول ﷺ ترك وادي «القاحة» يسارا في هذه الجهة، ثم التقى بهذا الوادي فيما بعد.

١٤- وفي الخبر: ثم أخذ بهما على «جداجد» وهو واد صغير من روافد وادي «ثقيب».

١٥- وورد في الخبر ذكر «الأجرد» و«ذي سلم».

والأجرد يسمى الآن «أجيرد» بالتصغير «وذو سلم» يسمى «أم السلمة».

بعد أن يقطع المسافر ما يقرب من ثمانية أكيال سائرا في وادي «ثقيب» يصل

إلى موضع يدعى «البستان» مسكون، ومنه طريق إلى «الفرع» حيث اتجاه أعلى «ثقيب» وعلى بعد أقل من كيل واحد تقع «أم كشد» وهي وادٍ «أجيرد» على الشمال منها و«أم السلمة» تلعة كبيرة تصب في «أجيرد» وكلها تصب في «ثقيب» ثم يسير الطريق المتجهة إلى «القاحة» تاركا «أجيرد» على يمينه، جازعا أعلاه، وبعد أن يتركه ينحدر في تلعة تصب في وادي «القاحة» حيث ترجع الطريق إليها مرة أخرى.

١٦- وورد في الخبر أسماء منها «تعهن» و«أعداء».

أما «تعهن» فإنها واد كبير يصب في «القاحة» عند المحطة المعروفة الآن باسم «أم البرك» وقديما باسم «السقيا» كما سيأتي الحديث عن مراحل الطريق العام.

والغريب أن أهل تلك الجهة ينطقون هذا الاسم «تعهن» بفتح التاء بإمالة نحو الكسر، وكسر العين بالهاء المشددة المكسورة بعدها نون.

١٧- وذكر ابن هشام في سياق خبر الهجرة بعد أعداء مدلجة تعهن قال: ثم العبابيد، قال ابن هشام: ويقال: العبابيب، ويقال: العثيانة، يريد العبابيب.

لم أجد أحدا يعرف شيئا عن هذا الموضع الذي ذكر له ابن هشام ثلاثة أسماء، مع أن من قابلتهم لم يكونوا من أهل الموضع الذي يقع بعد «تعهن» ذلك أنني مررت بتلك الناحية ليلا، فلم أصادف أحدا من أهلها.

ولعل أخي الأستاذ سليمان سليم مدير التعليم في تلك النواحي يكرم (وهو كريم) فيحقق للقراء هذا الموضع وغيره مما تقدم أو سيأتي ذكره، فالمار والذي من غير أهل البلاد يفوته الشيء الكثير.

١٨- قال ابن هشام: ثم أجاز بهما الفاجة، ويقال القاحة (فيما قال ابن هشام).

وقول ابن هشام هنا هو الصواب، فالقاحة بالقاف ثم الحاء المهملة المفتوحة بعدها هاء، واد عظيم يفيض فيه في أعلاه وادي «تعهن» والسالك مع هذا الطريق بعد «تعهن» يجوزه، بقرب ما يدعى الآن «أم البرك» جمع بركة وهي قرية كانت كبيرة، إلا أنها ضعفت الآن، وكانت تدعى قديما «السُّقيا» بالسين المهملة

المشددة المضمومة بعدها قاف ساكنة فياء مثناة تحتية مفتوحة معدودة، وهي سقيا بني غفار قبيلة معروفة قديما كانت من مساكنها في القديم، وأعالي «السقيا» تبتدئ من مكان يبعد عن «أم البرك» بما يقارب ٥٤ كيلا بعد أم البرك للمتوجه إلى المدينة، عند محل يدعى «الرصفة» وهو جبل منحوت قديما لسلوك المسافرين أرضه مرصوفة.

ويمتد وادي القاحة من هذا المكان متجها صوب الجنوب حتى يفيض في وادي «الأبواء» وتجتمع به أودية كثيرة من أشهرها وادي «ثقيب» ووادي «النخل» الذي يفيض فيه سيل واديي «مجاح» و«لقف» وأودية أخرى كثيرة تقدم ذكر بعضها.

١٩- وقال ابن هشام: ثم هبط بهما «العرج».

والعرج على ما ذكر المتقدمون يبعد عن أول وادي «القاحة» بما يقارب ثلاثة عشر ميلا ولعله هو أعلى ما يسمى الآن وادى «الجي» بجيم مكسورة بعدها ياء مشددة، وهو يبعد عن أعلى وادي «القاحة» بما يقارب الميل الواحد، هذا أعلاه، فكأن طريق الرسول ﷺ جزعه من أثنائه.

ووادي «الجي» ليس له ذكر عند المتقدمين فهم لا يذكرون إلا «موضع الجي» ويقولون إنه منازل فيه بئران، عذبتا الماء، وأنه في سفح جبل، وأن «ورقان» الجبل العظيم المعروف ينتهي عنده، ويحددون المسافة بينه وبين «عقبة العرج» بأقل من عشرة أميال، ويقولون بأن عقبة العرج بين جبلي «قدس» و«ورقان» وهذا الوصف ينطبق على أعلى وادي «الجي» فكأن اسم الجي غلب على وادي العرج لوقوع الجي في أعلاه.

أما «قدس» هذا فكان من أشهر الجبال القديمة وأعرفها، ويسمونه الآن «إدقس» بهمزة مكسورة بعدها دال ساكنة، فقاف فسين، تحريف للاسم القديم.

من أول وادي الجى تتجه سيول الطريق مغربة حيث تجتمع كل الأودية الواقعة دون المدينة عن يسار جبل ورقان وهي السلسلة الجبلية الممتدة من نهاية وادي الجي إلى نهاية وادي «الروحاء» مما يسيل من هذه السلسلة وغيرها فتكون أودية عظيمة تجتمع بهذا الوادي المسمى الآن بوادي الجي ثم يجتمع معها وادي

الروحا، ووادي «النازية» بتخفيف الياء ووادي «وحقان» وتفيض كلها بوادي الصفراء ثم تتجه صوب البحر غربا حتى تصب فيه جنوب «مستورة» موضع «ودان» القديم.

لقد ترك الرسول ﷺ كل هذه المواضع بيساره وعدل عن الطريق المعروف وسلك ثنية الغائر.

٢٠- وجاء في السير من رواية ابن هشام وغيره أن الرسول ﷺ بعد أن هبط العرج، خرج منه، فسلك ثنية العائر عن يمين ركوبه، ويقال «الغائر».

والعائر بالعين المهملة تصحيف صوابه الغائر بالغين المعجمة وهي ثنية لا تزال معروفة، ويسلكها الذين يذهبون للزيارة قديما مشاة أو على الدواب، وهي ثنية صعبة السلوك، وغير معبدة في الوقت الحاضر، ولا تسلكها الإبل إلا بجهد ومشقة.

وعندما رغبت المرور بها، لم أجد في تلك الناحية أحدا يرشدني إلى الطريق، وقيل لي: إن الإبل- في هذا العام لتوالي الجدب- هزيلة ومن الأيسر أن أنزل معها نزولا من جهة المدينة.

٢١- وقال ابن هشام بعد ذكر ثنية الغائر: «حتى هبط بهما بطن «رئم».

ورئم هذا وهو ينطق الآن بتسهيل الهمزة «ريم»، وهو واد من روافد وادي عقيق المدينة، لايزال معروفًا.

رحلة إلى طيبة (٢)

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) - إبريل (١٩٦٨م)

يحسن إيراد وصف موجز للطريق العام الذي سار، عليه الصلاة والسلام، بقربه ولم يسلكه.

ولقد عني المتقدمون بتحديد مواقع هذا الطريق عناية كبيرة، كما عني ملوك المسلمين المتقدمون بإصلاحه ووضع العلامات التي تحدد المسافات فيه، لأنه الطريق الذي يصل بين المدينتين الكريمتين من أقرب المسافات، ولكن هجران هذا الطريق منذ أن اختل الأمن في أثناء العهد العباسي جعل الناس ينصرفون عنه لوقوع أكثر منازله بين أودية وجبال تحتلها القبائل الذين كثيرا ما تقسو عليهم الحياة وتضطرهم إلى النهب والسلب أثناء عجز ولاة تلك النواحي عن تأمين ذلك الطريق.

وكان من أهم الأمور التي دعت إلى تحديد منازل هذا الطريق سلوك الرسول ﷺ وسيره فيه أثناء أسفاره من المدينة إلى مكة، والمتقدمون كانوا يُعنون بتتبع آثار الرسول ﷺ وخاصة مساجده.

وقد كان من أبرز من عني بتحديد منازله من العلماء المتقدمين عالم يدعى أبا عبدالله محمد بن أحمد الأسدي[١] ولا نعرف عن هذا العالم إلا ما أورده السمهودي مؤرخ المدينة عنه فهو يقول «إنه من المتقدمين» يؤخذ من كتابه أنه كان في المائة الثالثة»[٢]. وقد ذكر أن له منسكا حدد فيه أمكنة المساجد النبوية، وأورد السمهودي ذلك التحديد مفرقا في كتابه.

(١) وفاء الوفاء ١/ ٨٦ الطبعة الأولى.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦٤ .

ويظهر مما نقل السمهودي عنه أنه من جهة العراق لوصفه مواضع تقع في طريق البصرة إلى مكة في نجد[١] ومواضع أخرى تقع في طريق الكوفة كتحديده للطريق من فيد إلى المدينة[٢] وقد حدد مواقع في طريق المدينة إلى مكة، الطريق النجدية مثل «أفاعية»[٣] وحدد الطريق من ذات عرق وهو ميقات أهل المشرق[٤].

وقد نقل القاضي عياض في شرح مسلم عند الكلام على أهاب عن عالم يدعى الأسدي ووصفه بأنه من مشائخه، ولا نعلم هل هو هذا أم غيره. يحدد المتقدمون مراحل هذا الطريق على النحو الآتي:

- من المدينة إلى الشجرة ٦ أميال، ومعروف أن الشجرة في ذي الحليفة مكان الإحرام المعروف الآن بأبيار علي.

ويستمر الطريق القديم مع الطريق الذي تسكله السيارات الآن إلى المسيجيد، ومن أشهر المواضع القديمة فيه «الروحاء»، ولا تزال معروفة وكانت لها شهرة قديمة، ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال، وهو في وادي الروحاء، مشيرا إلى الجبل العظيم الممتد عن يسار المتجه إلى مكة: «ما اسم هذا الجبل؟» فقالوا: «ورقان» فقال: اسمه «حمت» جبل من جبال الجنة، اللهم بارك لنا فيه وبارك لأهله فيه، أتدرون ما اسم هذا الوادي، يعني وادي الروحاء؟ هذا سجاسج، لقد صلى في هذا المسجد قبلي ٧٠ نبيا ولقد مر بها- يعني الروحاء- موسى بن عمران في ٧٠ ألفا من بني إسرائيل عليه عباءتان قطوانيتان على ناقة له ورقاء، ولا تقوم الساعة حتى يمر بها عيسى ابن مريم حاجا أو معتمرًا. والحديث من رواية ابن زبالة ومعروف مقامه عند المحدثين.

ولقدم الروحاء نشأت فكرة وجود قبر مضر بن نزار فيها، كما أشار إلى ذلك البكري في «معجم ما استعجم».

---

(١) وفاء الوفاء ٢/٢٢٨.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٦١ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٤٨ . .

(٤) نفس المصدر ٢/١٨٣ .

ويشاهد المرء غرب البئر والمسجد آثار بناء قديم ومقابر كثيرة هناك، وتبعد الروحاء هذه عن المدينة بما يقارب ٨٠ كيلا، وبعد الروحاء بأربعة أكيال يمر المسافر بطرق جبل عن يمينه يسمى عرق الظبية، بجواره مسجد متهدم وآثار قبور بطرف المسجد، وللمسجد هذا ذكر عند المتقدمين، حيث يعدونه هو ومسجد الروحاء من المساجد النبوية، والذي يعنينا من هذا هو الإشارة إلى قدم هذه المواضع.

ومن الروحاء إلى المسيجيد، القرية الكبيرة الآن ٨ أكيال، والمسيجيد اسم حديث، ويعرف قديما باسم المنصرف (بفتح الصاد) وفيه مسجد يعرف بمسجد الغزالة لا يزال معروفا، وهو قديم أيضا ذكره البخاري في صحيحه.

وسيل وادي الروحاء يفضي إلى المنصرف، ولهذا يسمى منصرف الروحاء، ويجتمع مع أودية النازية ورحقان ووادي الجي ثم تفيض هذه الأودية على الصفراء.

والطريق القديم ينصرف من المنصرف ذات اليسار، متجها صوب الجنوب، تاركا الطريق المعروف الآن بيمينه.

ومن الأمكنة القديمة التي كان يمر بها هذا الطريق الرويثة، وكانت من أشهر منازله، فيها آبار وحياض ويقع بقربها جبلان يدعى الشرقي منهما «الحسناء» ويدعى الغربي «الحمراء» ولا تزال آثار قرية الرويثة باقية بعد أن ينزل المرء في الوادي يشاهد تلك الآثار عن يمينه، ويحدد المتقدمون المسافة بينها وبين الروحاء بـ ١٥ ميلا على وجه التقريب.

ومن الرويثة إلى السقيا، وهذه درس اسمها، وتعرف الآن باسم أم البرك، وقد نقل السمهودي عن الأسدي أن في السقيا أكثر من ١٠ آبار، وأن عندها بركة وفيها عين غزيرة الماء تصب في بركة المنزل، وهي تجري إلى صدقات الحسن بن زيد، عليها نخل وشجر كثير، وكانت قد انقطعت ثم عادت في سنة ٣٤٢ هـ، ثم انقطعت في سنة ٣٥٢هـ، وعلى ميل منها تقع صدقات الحسن، فيها من الآبار المزروعة ٣٠ بئرا وفيها ما أحدث في أيام المتوكل ٥٠ بئرا، ماؤهن عذب وطول

رشائهن قامة وبسطة وأقل وأكثر، وعلى ثلاثة أميال من السقيا عين يقال لها «تعهن»، انتهى كلامه. وهذه السقيا تعرف قديما بسقيا بني غفار، تفريقا بينها وبين السقيا التي في وادي الجزل، وتقع السقيا هذه في أعلى وادي القاحة، حيث يلتقي بوادي تعهن.

وقبل السقيا هذه يمر المسافر بواد عظيم هو وادي الجي، وقد ذكرنا فيما تقدم أن هذا الوادي ليس له ذكر عند المتقدمين، وهذا سهو منا فقد ذكروه.

جاء في رسالة عرام بن الأصبغ السلمي: «ورقان جبل أسود عظيم ينقاد من سيالة إلى المتعشي بين العرج والرويثة، ويقال للمتعشي الجي، وبسفح ورقان من عن يمين سيالة ثم الروحاء ثم الرويثة ثم الجي».

وقال ياقوت في المعجم: «جي بالكسر واد عند الرويثة بين مكة والمدينة ويقال له المتعشي، وهناك ينتهي طرف ورقان وهو في ناحية الجبل الذي سال بأهله وهم نيام فذهبوا والله أعلم!» وهذا القول لنصر الإسكندري.

إن الطريق من المسيجيد إلى أم البرك المعروفة قديما بالسقيا، يتجه إلى الشرق ثم إلى الجنوب، وعندما يقبل على أم البرك، ينعدم اتجاهه إلى الجنوب فيتجه شرقا يميل نحو الشمال، ولا يزال على هذا الاتجاه حتى يصل مدينة رابغ.

أما الطريق الحديث، فإنه من المسيجيد يتجه غربا ثم يأخذ في الاتجاه صوب الجنوب عندما يصل بلدة بدر ويستمر بمحاذاة البحر.

وأهم المواضع الأثرية الواقعة على الطريق القديم بعد السقيا عين تعهن، وقد ضعفت هذه العين منذ أمد طويل، ولم يبق الآن سوى آثارها، يدعها المرء عن يساره إذا اتجه من السقيا إلى الأبواء.

يسير المتجه في وادي القاحة، والسقيا في هذا الوادي، ويلتقي بوادي تعهن بعد السقيا بكيلين اثنين تقريبا، ثم يدع وادي القاحة بيمينه وينزل في واد يدعى ثقيب، بفتح الثاء وكسر القاف، له ذكر من الشعر القديم، وفيه آثار عمران لا يزال باقيا منها موضع يدعى البستان وهو بستان كاسمه.

وثقيب من روافد وادي القاحة، ومنه طريق إلى الفرع في اتجاه أعلى الوادي،

وبعد ثقيب بما يقارب عشرة أكيال واد يدعى «نعا» في ملتقاه بوادي القاحة آثار بنيان وعمران قديم.

ثم يستمر السير في وادي القاحة، وعلى بعد عشرة أكيال من وادي نقا للمتجه نحو مكة، هناك يلتقي وادي النخل بوادي القاحة، وهذا الوادي من أشهر الأودية، وعند التقائه تتسع الأرض وتكثر آثار العمران القديمة حول المكان المعروف الآن باسم بئر مبيريك.

ويذكر المتقدمون أن بين السقيا وبين الأبواء، في الوسط بينهما عين تدعى عين القشيري وهي عين كثيرة الماء، ويقال للجبل الأيسر المشرف عليها قدس وأوله في العرج، وآخره وراء هذه العين، ويقال للجبل الذي يقابلها يمنة يقال له باقل، وللوادي الذي بين هذين الجبلين وادي الأبواء[1].

إن هذا الوصف ينطبق على الموقع المعروف الآن باسم بير مبيريك والتي يقال بأنها منسوبة إلى أحد مشايخ قبيلة زبيد أهل رابغ في العصر الحاضر، وأنه حفر هذه البئر منذ عهد قريب في هذا الموضع فنسبت إليه، ولا يزال يعرف بوادي الأبواء.

وعلى بعد خمسة عشر كيلا توجد القرية المعروفة باسم الأبواء، وكانت إلى عهد قريب تعرف باسم الخريبة، وفي سفح الجبل الواقع بقرب مدرسة هذه القرية يوجد آثار قبر منسوب إلى آمنة أم النبي ﷺ، وبقربه مسجد قديم، والمتقدمون يذكرون من المساجد النبوية، مسجد الأبواء.

ومن الأبواء يأخذ الطريق ذات اليسار، متجها صوب الشرق، وبعد ٩١ كيلا يصل إلى ثنية هرشا، وهذه الثنية تجزع طرفا يمتد من الحرة حرة رهاط، يمتد معترضا الطريق إلى الغرب حتى يقرب من البحر فيما بين رابغ ومستورة، وفي هذا الطرف قسم يدعى باسم هرشا فيه ثنيتان، الغربية منهما أسهل من الشرقية لتعبيدها، وفي هذه الثنية ورد المثل:

خذ أنف هرشا أو قفاها فإنما كلا جانبي هرشا لهن طريق

(١) وفاء الوفاء في الكلام على مسجد الرمادة.

وقد حرف هذا الاسم في بعض الكتب الحديثة إلى حرشا[١] وقد مهدت ثنية هرشا قبل عشر سنوات لمرور السيارات عندما كان هذا الطريق مسلوكا قبل إصلاح الطريق الحالي، طريق الخبت، وكان الطريق القديم الذي سلكه الرسول ﷺ إلى مكة ثم كان المسلمون قديما يسلكونه، كان يمر بهذه الثنية، ويحدد المتقدمون المسافة بينها وبين الأبواء بثمانية أميال، وقد سلكتها بالسيارة فبلغت من الثنية إلى مدرسة الأبواء ٩١ كيلا، وهذا يقارب تحديد المتقدمين.

وبقرب الأبواء تقع «ودان» وليست على الطريق، ولكنها في أسفل الأبواء، وادي الأبواء يفيض فيها، والذي يقصدها ينحرف إليها ذات اليمين قبل وصوله إلى الأبواء، وبعد صدوره منها يعود إلى ثنية هرشا، ولا يمر بالأبواء.

وتقع «ودان» بحسب ما حدده المتقدمون بقرب قرية مستورة، إذ وادي الأبواء يفيض في البحر عندما يحف مستورة من جهة الجنوب،

وودان هي بلدة الشاعر نصيب المشهور التي يقول فيها:

أقول لركب موجفين لقيتهم قفا ذات أوشال، ومولاك قارب
قفوا حدثوني عن سليمان إنني لمعروفه من أهل ودان طالب
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

يقصد الخليفة سليمان بن عبدالملك.

وممن عرف من شعراء هذه النواحي الشاعر خارجة بن فليح المللي، وكان يسكن وادي ملل، وهذا الوادي لا يزال معروفا ويقع بين الفريش الذي يبعد عن المدينة بـ ٩٤ كيلا، وبين وادي تربان الذي يصب في ملل ويبعد عن المدينة ٣٣ كيلا.

ومن «تربان» الشاعر عروة بن أذينة الكناني.

ومن هرشا يتجه الطريق إلى الجحفة، هذا الطريق القديم، وتقع الجحفة في الجنوب الغربي من بلدة رابغ، ولا تزال معروفة، وتبعد عنها بـ ٩١ كيلا، وكان المتقدمون يحرمون من رابغ قبل محاذاة ميقات الإحرام، لأن طريق رابغ يأخذ

(١) مسافات الطرق في المملكة.

الساحل ويدع الجحفة بيساره، ووادي الجحفة يصب في البحر عند نقطة تبعد جنوبا عن رابغ بـ ٢٠ كيلا.

والجحفة كانت قديما مدينة أثرية في العهد الجاهلي، وفي صدر الإسلام، ولا تزال آثار المسجد النبوي قائمة، وقد بني بقربه مسجد حديث، ويشاهد المرء على ضفاف الوادي آثار العمران من آبار ومزارع وقبور وأساسات بالصخور.

ومن أغرب ما يشاهده المرء بقرب الجحفة، وعلى مسافة ١٠ أكيال تقريبا غرب المسجد، يشاهد آثار بناء وأطلال قصر، لا تزال قائمة، يدعى «قصر عليا» ويحوك أهل تلك الجهة حوله أخبارا تتعلق بأبي زيد الهلالي وبصلة عليا هذه به، والعرب في هذا العصر كثيرا ما ينسبون كل شيء قديم إلى قبيلة «بني هلال» كما كان المتقدمون ينسبون كل شيء قديم إلى قبيلة «عاد».

وهذا القصر مبني بحجارة الحرة السوداء وبالجص بناء محكما وهو شبه مربع، ولا تزال جدران الجهة الغربية والجهة الجنوبية قائمة سامقة الارتفاع.

ويحيط به من داخله محاريب كثيرة باستطالة الجدارين القائمين، وهذه المحاريب ممتدة بامتداد الجدارين من الداخل، وليس فيها نوافذ.

ويظهر أن هذا معبد قديم، وهو يقع على الضفة الغربية من واد يدعى بالفايضة، يفيض في وادي الجحفة.

وعلى بعد ٢٠٠ خطوة تحت القصر في بطن الوادي، توجد بئر مطوية بالصخر وحولها آثار الزراعة، مما يدل على أنها كانت عامرة إلى عهد قريب، وفي فناء القصر توجد بعض الأشجار، مما يدل على أن الماء كان متصلا به.

* * *

٢١ مقالات

محب الدين الخطيب

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- عثمان (١)

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) - إبريل (١٩٦٨م).

٢- عثمان (٢)

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م).

٣- عثمان المفترى عليه (٣).

العدد (٤١) جمادى الأولى (١٣٨٨هـ) - يوليو (١٩٦٨م).

٤- عثمان (٤).

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ

محب الدين الخطيب

● مولده ونشأته

ولد محب الدين الخطيب بدمشق عام ١٨٨٦م، وكان والده عالماً دينياً، ويدرس في أحد المساجد، كما كان يعمل أميناً لدار الكتب الظاهرية فنشأ في بيئة محافظة، وتعلم القراءة والكتابة، وحفظ كتاب الله، التحق بكليتي الحقوق والآداب معاً، وقد مد له يد العون في تحصيله العلمي، شيخه الكبير العلامة طاهر الجزائري.

سافر إلى اليمن فأنشأ فيها مدرسة وكان يتولى تدريس معظم العلوم فيها، ثم عاد إلى دمشق، ثم إلى مصر حيث عمل في جريدة المؤيد، كما عمل مترجماً ومحرراً بجريدة الأهرام المصرية فترة قصيرة، وحين أصدر مجلة الفتح جعلها منبراً للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

أصدر رحمه الله مجلة الزهراء التي تعنى بالبحث العلمي والنقد الموضوعي للأفكار الوافدة والمقولات الباطلة.

انتقل محب الدين الخطيب في دنيا الكفاح الإسلامي ما بين دمشق، وبيروت، وتركيا والقاهرة، واليمن، ومكة المكرمة انتقال المكافح الذي يقف في مقدمة الصفوف، متعاوناً مع رجال الفكر والعلم أمثال: محمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان، حسن البنا، وتقي الدين الهلالي، وغيرهم.

وقد أثرى الشيخ المكتبة الإسلامية بمؤلفات وتحقيقات وتعليقات قيمة مثل تحقيقاته وتعليقاته على كتاب «العواصم من القواصم»، وكتاب «مختصر التحفة

الإثنى عشرية» لولي الله الدهلوي، وكتاب «المنتقى» للحافظ الذهبي، وكتاب «الخطوط العريضة»، وكتاب «الرعيل الأول»، وكتاب «تقويمنا الشمسي».

● **وفاته:**

توفي عام ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م ودفن بمصر، رحم الله العلامة محب الدين الخطيب، وجزاه الله عن المسلمين والإسلام خير ما يجزي عباده الصالحين.

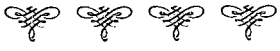

ذو النورين عثمان رضي الله عنه (١)

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) - إبريل (١٩٦٨م).

● نشأته

ولد عثمان بن عفان بمكة في السنة السادسة من عام الفيل، في أسرة كانت أقوى أسر قريش عصبية وجاها وثروة وعددًا ومكانة، وأبوه عفان هو ابن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي، وقصي باني مكة من حول الكعبة وحرمها، ومؤسس مجد قريش الذي قال فيه شاعرهم:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

وعثمان يشترك في النسب القريب مع النبي ﷺ في عبد مناف بن قصي.

وأم عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبدشمس بن عبدمناف ابن قصي، فهي تشترك في النسب مع النبي ﷺ في عبدمناف كذلك.

بل إن قرابة أمه من النبي ﷺ أقرب من ذلك بكثير لأنها هاشمية النسب من جهة أمها، فهي بنت البيضاء أم حكيم بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي، فأم ذي النورين بنت عمة رسول الله ﷺ، وحسبك هذا قرابة قريبة بين عثمان وبين المبعوث بأكمل رسالات الله صلوات الله وسلامه عليه.

ولأروى - أم عثمان - أخت هي سعدى بنت كريز، دخلت في الإسلام مبكرة، وكانت ترغب في أن يهدي الله ابن أختها عثمان للإسلام، وأن تسعد بأن تراه صهرًا للنبي ﷺ على بنته رقية، فتزداد أواصر القرابة وثوقا بين الفرعين الكريمين من بني عبد مناف: فرع هاشم - وفرع بني عبدشمس، وكان مما يحبب ذلك إليها أن رقية الهاشمية وعثمان العبشمي الصهر المرجو لها كانا من أجمل قريش جمالا، ومن أكملها كمالا.

كان عثمان مع جمال صورته كامل الأخلاق، مستجمعا لصفات الخير، فكان- مع الصدق الذي هو خلق جيله من أهل مكة- حييا حليما، كريما رحيما، لذلك كان محبوبا من قريش جميعا، من بداية نشأته الأولى، وكانت الأمهات يناغين أطفالهن في مهادهم، فيخاطبنهم بحنان:

أحبك والرحمن حب قريش عثمان

ولما كان عثمان يسمع بما يدعو إليه رسول الإنسانية ﷺ من مكارم الأخلاق ومعاليها لا يجد شيئا من ذلك غريبا عليه، بل إن هذه الرسالة تدعو الناس جميعًا إلى مثل ما يشعر عثمان بأنه متحل به من الأخلاق التي جعلته محبوبا إلى قريش، حتى ضربت نساؤها الأمثال لمحبتهن فلذات أكبادهن بمحبة قريش لعثمان.

من هنا كان لعثمان في بدء ظهور الدعوة الإسلامية عواطف متجاوبة مع هذه الدعوة من أخلاقه التي فطره الله عليها، فكان ذلك مع قرابة النسب بينه وبين النبي ﷺ إلى عبدمناف بن قصي، وكون أمه أروى بنت عمة النبي ﷺ، كل ذلك كان من الأواصر والميول النفسية التي سهلت على أبي بكر الداعية الأول للرسالة المحمدية مهمته في اكتساب قلب عثمان، وجعله أحد القلوب القليلة الأولى المؤمنة بآخر رسالات السماء إلى الأرض.

هذه خلاصة نشأة عثمان، وهي نشأة فيها إعداد من الله ليكون عثمان حجرًا من الأحجار الأولى في بناء الإسلام.

- **إسلامه وإصهاره إلى النبي ﷺ**

كان عثمان- كسائر شباب أسرته- مشتغلا بالتجارة، وكان أبو بكر من أعيان تجار مكة، وكان مؤلفاً لقومه، يدعو إلى الإسلام من يثق به، وكانت له مع عثمان صلات تجارية تتخللها أحاديث عن أحداث البلد، وكان أهم أحداث البلد في ذلك الحين قيام محمد رسول الله ﷺ بالدعوة إلى رسالته العظمى للإنسانية كلها، وكانت تعقد بينهما مجالس في فناء الكعبة لهذا الغرض.

نقل الحافظ ابن حجر في «الإصابة» عن كتاب «شرف المصطفى» لأبي سعد النيسابوري، أن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الملقب بالديباج، روى

عن أبيه عن جده، أن جده الأعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال: «كان لي مجلس من أبي بكر، فأتيته فأصبته في مجلسه، ولا أحد عنده، فجلست إليه فرآني متفكرًا، فسألني عن أمري- وكان رجلا رقيقًا- فأخبرته بما سمعته من خالتي، فقال لي: ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التي يعبدها قومك أليست حجارة صما لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؟ قلت: بلى، والله إنها لكذلك، قال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا محمد بن عبدالله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه؟ فقلت: نعم، والله ما كان بأسرع من أن مر رسول اللهﷺ ومعه علي بن أبي طالب، يحمل ثوبا لرسول اللهﷺ، فلما رآه أبوبكر قام إليه فسارّه في أذنه، فجاء رسول اللهﷺ، فقعد، ثم أقبل علي فقال: يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه، قال عثمان: فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية».

وذلك لأن خالته سعدى كانت من ورائه، ووراء رقية حريصة على إتمام هذا الزواج.

قال الحافظ ابن حجر في ترجمة سعدى بنت كريز، بعد أن نقل هذا النص عن قول عثمان نفسه عن كتاب «شرف المصطفى» وكان يقال: «أحسن زوجين رآهما إنسان رقية وزوجها عثمان»، ويقول أبوالمقدام مولى عثمان: بعث النبي ﷺ مع رجل بهدية إلى عثمان، فاحتبس الرجل، أي تأخر في العودة، إلى النبي ﷺ فسأله النبي ﷺ، ما حبسك إلا كنت تنظر إلى عثمان ورقية.

وفي إسلام عثمان ومصاهرته النبي ﷺ تقول خالته سعدى:

هدى الله عثمان الصفي بقوله ... فأرشده، والله يهدي إلى الحق
فتابع بالرأي السديد محمدًا ... وكان ابن أروى لا يصد عن الحق
وأنكحه المبعوث إحدى بناته ... فكان كبدر مازج الشمس في الأفق
فداؤك يا ابن الهاشميين مهجتي ... فأنت أمين الله أرسلت في الخلق

ويقول الحافظ أبو عمر بن عبدالبر في الاستيعاب: قيل إنه ولدت له رقية ابنا، فسماه عبدالله ومات، ثم ولد له عمرو فاكتفى به إلى أن مات، هذا ما عرفه التاريخ من خبر إصهار عثمان إلى رسول الله ﷺ.

● **هجرته إلى الحبشة**

بعد إسلام عثمان وإصهاره إلى النبي ﷺ اشتدت الحال على المسلمين في مكة، لأن النبي ﷺ، كان من قبل يلين في دعوة قريش إلى الإسلام، ثم اشتد في ذكر أوثانهم ومعبوداتهم، فتألبوا عليه، وائتمروا على المسلمين، وشرعوا في إيذائهم. قال ابن اسحاق، فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه، وأنه لا يقدر أن يمنعهم من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد. وكانت هجرة الحبشة عند دخول النبيﷺ شعب عبدالمطلب، وفترة عيشه في حمى أبي طالب.

كتب أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان في زمن خلافته إلى عروة بن الزبير يسأله عن هجرة الحبشة، فكتب إليه عروة: «أما بعد، فإنه- يعني رسول الله ﷺ - لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم وهم قليل، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء، فلما فُعِل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي لا يُظلم أحد بأرضه، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغًا (هنيئا) من الرزق، وأمنا، ومتجرًا حسنا، فأمرهم بها رسول الله ﷺ.

قال أبوجعفر الطبري: فاختلف في عدد من خرج إلى أرض الحبشة، وهاجر إليها هذه الهجرة الأولى، فقال بعضهم، كانوا في البداية أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وهم: عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول اللهﷺ، وأبوحذيفة بن عتبة بن ربيعة الأموي، معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام الأسدي، ومصعب بن عمير من بني عبدالدار سدنة الكعبة، وعبدالرحمن بن عوف الزهري، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، معه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية المخزومية، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبوسبرة بن أبي رهم العامري، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وسهيل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر، وعبدالله بن مسعود حليف بني زهرة. خرجوا من مكة حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشي، ووفق الله للمسلمين من أهل هذه الهجرة الأولى- ساعة جاءوا الشعيبة- سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب في السنة الخامسة من حين نبئ رسول اللهﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر، حيث ركب المهاجرون، فلم يدركوا منهم أحدا، قالوا وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه.

قال الطبري: فكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية بن عبدشمس بن عبدمناف عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ومعه امرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ. وروى الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام عن أنس بن مالك قال: خرج عثمان برقية بنت رسول الله ﷺ إلى الحبشة فأبطأ خبرهم، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد، قد رأيت ختنك ومعه امرأته، فقال: على أي حال رأيتهما؟ قالت: رأيته حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط.

● **بعض جوانب من أخلاقه وشخصيته وفضائله**

كانت الأخلاق الغالبة على ذي النورين عثمان السكينة والحلم والرحمة،

وطول العبادة والسخاء والكرم والعدل، وحب العافية في الدين والدنيا، للفرد وللجماعة.

روى عبدالله بن المبارك عن الزبير بن عبدالله أن جدته أخبرته- وكانت خادمًا لعثمان- قالت: كان عثمان لا يوقظ نائمًا من أهله إلا أن يجده يقظانا فيدعوه فيناوله وضوءه للصلاة.

وكان وضوءه وصلاته كأنهما وضوء النبي ﷺ وصلاته، وفي كتب السنة بيان كيف كان الناس يتعلمون وضوء النبي ﷺ من وضوء عثمان.

● **بئر رومة**

ومن أمثلة كرمه عقب هجرتهم إلى المدينة أن يهوديا كان يملك بئرًا يحتاج المسلمون إلى تناول الماء منها، فلا يمكنهم اليهودي من ماء هذه البئر- واسمها بئر رومة- إلا بالثمن الذي يجهدهم، فقال رسول الله ﷺ: من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في دلائها، وله بها مشرب في الجنة؟ فأتى عثمان اليهودي فساومه بها، فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى عثمان نصفها باثني عشر ألف درهم، فجعل عثمان نصف البئر للمسلمين، وقال لليهودي: إن شئت جعلت على نصيبي قرنين نستقي عليهما، وإن شئت فلي يوم ولك يوم. قال اليهودي: بل لك يوم ولي يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى اليهودي ذلك قال لعثمان: أفسدت علي ركيتي (بئرى)، فاشتر النصف الآخر، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم، وصارت البئر كلها مباحة للمسلمين في كل يوم يستقون منها مجانًا وبلا أي حرج.

ومن عجائب الأقدار في تقلبها، وعجائب الناس في مكافأتهم للمحسنين من رجالهم على إحسانهم، أن يحاصر دعاة الفتنة أمير المؤمنين عثمان فيمنعوه الشرب من ماء رومة، ومن كل ماء، فيشرف عثمان على دعاة الفتنة ويقول لهم: السلام عليكم، فما يرد عليه أحد، فقال لمن هناك من المسلمين الأولين: أنشدكم الله، هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة من مالي وجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين؟ فقيل: نعم، فقال: فعلام أمنع من مائها وأفطر على

الماء المالح؟ لأنه كان صائمًا، وإذا أراد أن يفطر لا يجد إلا ماء بئر مالح في داره.

● **شراؤه الأرض لتوسعة المسجد**

ولما ازداد عدد المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة، وضاق المسجد النبوي بالمصلين، قال رسول الله ﷺ من يزيد في مسجدنا؟ فاشترى عثمان - رضوان الله عليه - موضع خمس سوار من الأرض، فزاد في سعة المسجد ما يوسع على المسلمين.

فلما كانت الفتنة منعوه في آخر الأمر من الصلاة في المسجد، الذي زاد فيه من ماله، وهو في أقل التقدير له حق الصلاة فيه كما كان يصلي فيه على مقربة قريبة من رسول الله ﷺ، فيما بين الهجرة والوفاة النبوية، فخاطبهم معاتباً وسائلا: هل منع من الصلاة في هذ المسجد أي مسلم قبل أن يقع المنع عليه؟!

● **تجهيز جيش العسرة**

وفي غزوة تبوك، وكانت تسمى غزوة العسرة، لشدة من الحر وجدب في البلاد، وحين طابت الثمار والظلال فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها في الحر والجدب، فحض النبي ﷺ أهل الغنى على النفقة والتبرع بالركائب، لحملان المجاهدين في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى فاحتسبوا، وأنفق عثمان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته، فقد بلغ ما جهزه عثمان بنفسه لجيش العسرة تسعمائة وخمسين بعيرًا وأتم الألف بخمسين فرسًا، ثم زاد ذلك حتى بلغ ألف بعير وسبعين فرسًا.

وليقارن المسلم ذلك بحال عثمان لما قتل، واحتيج إلى حمله للقبر الذي يوارى فيه، كيف حمل؟ وكيف واراه أهل الحق والخير بالخفاء والستر على ما لا يرضاه الله ورسوله وصالح المؤمنين.

● **في أيام خلافته**

وفي أيام خلافته فتحت الفتوح، وسارت رايات الإسلام عزيزة ظافرة في كل فج، حتى دخلت في الإسلام بلاد المسلمين التي في روسيا الآن مجتازة الدربند،

التي كانوا يسمونها باب الأبواب، مما لم تبلغه دولة الأكاسرة في أقوى عصورها.

وكانت الأمة في عدل ورخاء ومحبة وتناصف. روى السدي عن السري بن يحيى عن ابن سيرين قال: كثر المال في زمن عثمان - ولم يكن المال في زمانهم إلا الفضة والذهب- حتى بيعت جارية بوزنها، وفرس بمائة ألف درهم، ونخلة بألف درهم.

وقال الحسن البصري سمعت عثمان يخطب وهو يقول: يأيها الناس، ما تنقمون علي، وما من يوم إلا وأنتم تنفقون فيه خيرًا؟

قال الحسن: وشهدت منادي عثمان ينادي: يأيها الناس اغدوا على عطيتكم، فيغدون، ويأخذونها وافية. يأيها الناس اغدوا على أرزاقكم، فيغدون، فيأخذونها وافية، حتى والله سمعته أذناي يقول: اغدوا على كسوتكم، فيأخذون الحلل، واغدوا على السمن والعسل. قال الحسن: أرزاق دارة، وخير كثير، وذات بين حسن. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا الا يوده، وينصره، ويألفه، فلو صبر الأنصار على الأثرة - أي كما أوصاهم النبي ﷺ - لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق، ولكنهم لم يصبروا، وسلوا السيف مع من سل، فصار عن الكفار مغمداً، وعلى المسلمين مسلولاً!

● **لماذا ولّى أقاربه**

روى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال: لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه، ولعله يشير إلى تولية عثمان أقاربه من بني أمية، وهم كانوا أهل كفاءة وبراعة في صناعة الحكم، حتى إن رسول الله ﷺ كان أول من ولى هذه الأسرة الأحكام، وبولايتهم كان الخير والرزق والسعة والعدل، وسائر ما وصف به الحسن البصري المجتمع الإسلامي أيام خلافة عثمان، فرجال عثمان كانوا بين فاتح ظاهر لا نظير له، وبين حاكم حليم عادل لا مثيل له.

وبعد وقعة الجمل لما ولّى علي عبدالله بن عباس على البصرة غضب الأشتر وقال: فلان على البصرة، وفلان على اليمن، وفلان على الحجاز، ففيم قتلنا الشيخ إذن؟ ويعني بالشيخ ذا النورين، يشكو من ولاية علي أقاربه، وغضب

وركب فرسه وتوجه إلى الكوفة، فترك علي أعماله، ولحق بالأشتر مسرعا لئلا يثير عليه فتنة كالتي أثارها على عثمان.

إن إدارة عثمان العادلة، وطريقته الرحيمة في الحكم، وتوسعه الباهر في الجهاد والفتوح، وإدخال الأمم في دين الله أفواجًا، قد جعل مدة خلافة عثمان لا يكاد يكون لها نظير في إذاعة الإسلام وإشاعته، وهذا هو اللائق بعثمان، وما كان يرجوه له ويدعو له به خاتم رسل الله ﷺ الذي كان يعلم بوحي من الله أن عثمان سيكون من أهل الشهادة والجنة.

روى الترمذي من طريق الحارث بن عبدالرحمن أحد كرام التابعين، عن طلحة ابن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان».

وفي كتاب فضائل الصحابة من صحيح الإمام مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال في عثمان: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟»

وقال النزال بن سبرة: قلنا لعلي حدثنا عن عثمان، قال: ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى «ذا النورين».

وقيل للمهلب بن أبي صفرة، لم قيل لعثمان «ذا النورين؟»، فقال: لأنه لم يعلم أن أحدا أرسل سترا على ابنتي نبي غيره.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: سألت ربي ألا يدخل النار أحدا صاهر إلي أو صاهرت إليه.

وفي صحيح البخاري عن نافع عن عبدالله بن عمر بن الخطاب قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم.

وقال عبدالله بن مسعود حين بويع عثمان بالخلافة، بايعنا خيرنا ولم نأل.

ووصفه علي بن أبي طالب بعد انقضاء أجله فقال: كان عثمان أوصلنا للرحم، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين.

وقال علي في عثمان بعد انتهاء الفتنة: من تبرأ من دين عثمان فقد تبرأ من

الإيمان، والله ما أعنت على قتله، ولا أمرت ولا رضيت. ويؤيد قول علي في ذلك فعله طول مدة الفتنة، فقد جعل ابنيه - الحسن والحسين - في حراسة عثمان، وأمرهما أن يطيعاه في الدفاع عنه، وأن يكونا عونا له في كل ما يطلب ويرغب مما يستطيعانه، ولما كان اليوم الأخير - يوم الشهادة لعثمان - كان الحسن بن علي أحد الجرحى في الدفاع عنه.

وروى موسى بن طلحة قال: أتينا عائشة رضي الله عنها نسألها عن عثمان، فقالت: اجلسوا أحدثكم عما جئتم له، إنا عتبنا على عثمان ﷺ في ثلاث خصال- ولم تذكرهن- فعمدوا إليه، حتى إذا ماصوه كما يماص الثوب بالصابون، اقتحموا عليه الحرم الثلاث، حرمة البلد الحرام، وحرمة الشهر الحرام، وحرمة الخلافة، ولقد قتلوه وإنه لمن أوصلهم للرحم، وأتقاهم لربه ﷺ في الخالدين.

ذو النورين عثمان رضي الله عنه (٢)

كيف تولى الخلافة؟

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م)

في حديث عمرو بن ميمون من صحيح البخاري (رقم ٣٧٠٠) أنه لما طعن أمير المؤمنين عمر قال له الناس: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض: فسمى عليا وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء- كهيئة التعزية له- فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، زاد المدائني، وما أظن أن يلي هذا الأمر إلا علي أو عثمان، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي فستختلف عليه الناس، ثم ذكر وصيته للخليفة من بعده، وآخرها: وصيته بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، ووصيته بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم.

قال عمرو بن ميمون: فلما قبض (رضوان الله وسلامه عليه) خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فلما بلغ موكب الجنازة منزل عائشة سلم عبدالله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت عائشة: أدخلوه فأدخل، فوضع هناك مع صاحبيه (رسول الله ﷺ وأبي بكر رضوان الله عليه).

فلما فُرِغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبدالرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف.

فقال عبدالرحمن بن عوف - يخاطب عثمان وعليا - أيكما تبرأ من هذا الأمر

فنجعله إليه (أي نجعل إليه اختيار الخليفة) والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان، فقال عبدالرحمن: أفتجعلونه إلي؟ (أي أنه يتبرأ من أن يكون هو الخليفة، ويقوم باختيار من يتولاها) والله علي ألا آلو عن أفضلكم، قال: (أي قال عثمان عن نفسه وعن طلحة، وقال علي عن نفسه وعن الزبير) نعم (أي وافقا وصاحباهما على أن يتولى الاختيار عبدالرحمن بن عوف بعد أن تنازل عن أي حق له في الولاية)، فأخذ عبدالرحمن بيد أحدهما (وهو علي) فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن؟ ثم خلا بالآخر (وهو عثمان) فقال مثل ذلك، زاد المدائني أن سعد بن أبي وقاص أشار عليه بعثمان، وأن عبدالرحمن دار تلك الليالي كلها على الصحابة، ومن وافى المدينة من أشراف الناس، لا يخلو برجل إلا أمره بعثمان، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك ياعثمان، فبايعه، فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه.

هذه وثيقة تاريخية عن شاهد عيان وهو عمرو بن ميمون حفظها لنا أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، عن أشياخه وهم من خيرة الرواة وأصدقهم، وليس في أخبار التاريخ خبر يضارع هذا الخبر في صحته وصدقه.

● **خطبة عثمان بعد ولايته الخلافة**

روى الطبري في تاريخه عن سيف عن بدر بن الخليل عثمان عن عمه قال: لما بايع أهل الشورى عثمان، خرج وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر رسول الله ﷺ، فخطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وقال: «إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صبحتم أو مسيتم».

«ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور». «اعتبروا بمن مضى، ولا تغفلوا، فإنه لا يُغفل عنكم».

«أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها، وعمروها، ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟».

ارموا بالدينا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلا، والذي هو خير، فقال ﷻ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ (الكهف: ٥٤-٦٤).

فلما انتهى الخليفة الثالث من خطبته، أقبل الناس يبايعونه البيعة العامة بعد بيعة أهل الشورى الذين اختارهم عمر الفاروق من صفوة الصحابة الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ.

● وقفة بين يدي خطبة الخلافة

كأني بالخليفة الراشد عثمان عندما تمت له البيعة في المسجد النبوي، وقام يخطو نحو منبر رسول الله ﷺ ليناجي الأمة فيما ينبغي لها وهي تستقبل عهداً جديداً، أنه كان يتمثل حال الإسلام وأهله في زمن حامل رسالته ﷺ وصاحبيه الكريمين، وأنهم كانوا في الجيل المثالي الذي لم تر الإنسانية نظيراً له في جميع الدهور قبله، ويخشى ألا يأتي نظير له في الدهور المنتظرة بعده، فنظر بنور الله نظرة ثاقبة إلى ما يتوقعه بعد الفتوح الواسعة التي بشر بها النبي ﷺ، وأنه صلوات الله عليه ما كان يخشى الفقر على أمته في المستقبل القريب، وإنما كان يخشى عليهم اتساع الدنيا بين أيديهم، وانشغالهم بها عما كان فيه الناس إلى يوم الناس هذا، من إيثار الآخرة على كل ما يخالف طريقها، فكان عثمان وهو يرقى درجات المنبر النبوي يعالج في ذهنه هذا المعنى العظيم، الذي أراد أن يلفت إليه أنظار إخوانه الذين ولاه الله أمرهم، وكان يرى أنه خير ما ينصح به لأمته ويناجيها به، فضرب لهم من كتاب الله مثل الدنيا والآخرة، وأن زينة الدنيا قصيرة زائلة كالنبات ينمو بماء السماء حقبة قصيرة، ثم يعود هشيما تذروه الرياح، وخير من هذه الزينة القصيرة الأمد الزائلة سريعاً أن نتعاون جميعا على إيثار الأعمال الصالحة الباقية، كالذي كنا عليه في العهد النبوي وامتداده في خلافتي الصديق والفاروق رضوان الله عليهما.

هذا ما نصح به الخليفة الجديد للأمة التي ولاه الله أمرها، وقد بقي عثمان

كما كان أسبق الناس إلى السخاء بماله في مرضاة الله للخاصة والعامة، وما تعارضت مصلحة الدنيا ومصلحة الآخرة في مدة خلافته إلا كان مؤثرا مصلحة الآخرة على مصلحة الدنيا إلى أن نال سعادة الشهادة، رحمة الله ورضوانه وسلامه عليه في الأولين والآخرين.

● **موقف عثمان من عبيدالله بن عمر في حادث مقتل الهرمزان**

روى الطبري في تاريخه (٥-٢٤) عن التابعي الجليل سعيد بن المسيب أن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق قال عند وقوع شهادة أمير المؤمنين عمر: «مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة النصراني من أهل الحيرة والهرمزان، وهم يتناجون فلما فاجأتهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل عمر؟ وخرج في طلب القاتل رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي، وقد كان ألظ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه، وجاء بالخنجر الذي وصف عبدالرحمن بن أبي بكر، فسمع بذلك عبيدالله بن عمر، فانتظر حتى مات أبوه، فاشتمل على السيف وأتى الهرمزان فقتله».

فلما تولى عثمان بعد البيعة له كان في أوائل ما اهتم به مقتل الهرمزان بسيف عبدالله بن عمر، وعند الطبري في ذلك روايتان: (إحداهما- في ٥-٣١-٤١) أن عثمان عرض على القماذبان بن الهرمزان أن يثأر لأبيه من قاتله وهو عبيد الله فأعلن أنه تركه لله وللمسلمين.

والرواية الثانية (في ٥-١٤) أن عثمان جلس في جانب المسجد، ودعا عبيد الله وكان محبوسا في دار سعد بن أبي وقاص- وهو الذي نزع السيف من يد عبيد الله - فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار، أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق، فقال علي: أرى أن تقتله، وقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث (أي مقتل الهرمزان) كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك، قال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي.

● موقف عثمان من أبي ذر الغفاري وإقامته في الربذة

سنة الإسلام في اقتناء المال والتصرف فيه ما برحت قائمة- في حياة النبي ﷺ وخلافة خلفائه الراشدين، وفي مذاهب الأئمة المتبوعين - على أساس الإباحة لكل مسلم أن يقتني المال من حله، بلا تحديد مقدار له، ثم أن يضعه في مواضعه التي أباحها الإسلام لأهله، وأن يخرج زكاته بالنظام الشرعي الذي استقر منذ بدء الإسلام، وقد حث الإسلام كل مسلم على السخاء في الإنفاق في سبيل الله وفي مرضاة الله، وفي سعادة المجتمع.

ولاشك أن المال في نظام الإسلام وسيلة لسد حاجات الفرد والجماعة، فهو في حكم الأمانة لله، تحت يد من ساقه الله إليه، يتصرف فيه بالمعروف، ومن الخطأ اعتبار جمعه غاية مقصودة لذاتها، فإذا تصرف فيه المسلم باعتدال، متوخياً سد حاجاته الذاتية وحاجات ذوي قرباه، وأداء ما عليه من الحقوق الخاصة والعامة، ولم يمسك يده عن البذل في مرضاة الله، فإن الإسلام لا يمنعه من أن يكون في أمانته، وتحت تصرفه أي مقدار من المال، من غير تحديد.

هكذا عاش أغنياء الصحابة وفي طليعتهم أمير المؤمنين عثمان، وأخوه عبدالرحمن بن عوف، وقبلهما الصديق الأعظم أبو بكر، وسائر تجار الصحابة من أصحاب الألوف إلى أصحاب الملايين، وهكذا عاش الأغنياء بعدهم من أئمة الدين كالليث بن سعد وأضرابه، وعبدالله بن المبارك وأضرابه، وهم في ذلك من صالحي المؤمنين، حتى لقد جرت المناظرات، وقدمت فيها الأدلة والبراهين، في أي المسلمين أحب وأقرب إلى الله وأكثر مثوبة عنده، الغني الشاكر، أم الفقير الصابر.

على هذا مضى المسلمون في صدر الإسلام إلى أن كان زمن خلافة أمير المؤمنين عثمان فخالف هؤلاء جميعا صاحبُ رسول الله ﷺ أبوذر الغفاري فرأى أن المسلم لا يجوز له أن يبيت وعنده دينار واحد زائد عن قوت يومه، وكان يرى اقتناء المسلم لأكثر من حاجته اليومية يجعله من الذين قال الله فيهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٤٣).

إن أبا ذر كان صادق اللهجة في كل ما يقوله بشهادة النبيﷺ له، ولكن مذهبه في اقتناء المال، ولو كان من حله، لا يوافق ما قام عليه نظام الإسلام في المال، ولو عمل المسلمون كلهم بمذهب أبي ذر لكان معنى ذلك إبطال فريضة الزكاة، ولتعطل كثير من مصالح الدولة والملة ولأقفلت أبواب المعونة العامة، والخير الشامل، وأن جميع صحابة رسول الله ﷺ ولاسيما عالمهم عبدالله بن عمر بن الخطاب كانوا يعلنون أن «ما أديت زكاته فليس بكنز».

- **أبوذر وابن سبأ**

نقل الطبري (٥-٦٦) وأكثر المصادر الإسلامية أن اليهودي ابن السوداء عبدالله بن سبأ ورد الشام فلقي أبا ذر فقال له: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية يقول «المال مال الله، ألا إن كل شيء لله» كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فأتى أبوذر معاوية فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين «مال الله»؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا تقله، قال معاوية: فإني لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول «مال المسلمين»، وأتى ابن السوداء الصحابيَّ الجليل فقيه أهل الشام أبا الدرداء فقال له: ما قال لأبي ذر، فأجابه أبوالدرداء: من أنت؟ أظنك والله يهودياً، وأتى ابن سبأ الصحابي المجاهد عبادة بن الصامت فتعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر.

قال القاضي أبوبكر بن العربي: ووقع بين أبي ذر ومعاوية كلام، وكان أبوذر يطلق من الكلام ما لم يكن يقوله في زمان عمر، فأعلم معاوية بذلك عثمان، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم، وإنما هي مخصوصة ببعضهم، فكتب عثمان إلى أبي ذر أن يقدم المدينة، فلما قدم اجتمع إليه الناس، فقال أبوذر لعثمان: أريد الربذة، فقال له عثمان: افعل، فاعتزل، قال قاضي الأندلس أبوبكر بن العربي: ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته.

«والربذة» ضاحية من ضواحي المدينة تبعد عنها ثلاثة أميال، وتتوفر فيها راحة

السكن والعزلة، وأبوذر نفسه هو الذي اختار الإقامة فيها، كما روى المؤرخ الكبير ابن خلدون في بقية الجزء الثاني من تاريخه (ص ٩٣١) قال: إن أبا ذر استأذن عثمان في الخروج من المدينة، وقال «إن رسول الله ﷺ أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا» فأذن له عثمان ونزل الربذة وبنى فيها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل، وأجرى عليه رزقا وكان يتعاهد المدينة بين حين وآخر، قال ياقوت في معجم البلدان، وكانت الربذة من أحسن منزل في طريق مكة.

والذي تحصل عندي من تتبع نصوص الشريعة في أمر المال، ومراقبتي لتطبيق هذه النصوص في سيرة السلف وعملهم بها، أن المسلم بعد أداء زكاة المال يكون في امتحان من الله كيف يحسن التصرف في ماله بما يرضي الله ويزيد المسلمين قوة وسعادة وعزاً، فإن كان تاجراً فمن طريق التجارة، أو مزارعاً فمن طريق الزراعة، أو صاحب مصنع فمن طريق الصناعة، والإسلام في دور قيامه استفاد من ثروة أغنياء الصحابة عونا ويسرا وقوة، وتجارة التاجر المسلم إذا أغنت المسلمين عن متاجر أعدائهم تعتبر قوة لهم، بقدر ما يصدق صاحبها في هذه النية، وكذلك مصنع الصانع المسلم، وزراعة الزارع المسلم، والنية في هذه الأمور أمرها عظيم، وميزانها العمل عندما تمس الحاجة إليه.

وبالجملة فإن للمسلم أن يكون غنيا بلا تحديد، بشرط أن يكون ذلك من حله، وأن يكتفي منه بالصرف على ما يكفيه بالمعروف، محاولا دائما أن يحرر نفسه من العبودية والانقياد للكماليات، فضلا عن توافه الحضارة وسفاسفها، وبعد أن يؤدي زكاة ما يملك يعتبر ما زاد عن حاجته كالأمانة لله تحت يده، فيتصرف فيها بما يزيد المسلمين ثروة وقوة ويسراً وعزا وسعادة.

أما طريقة أبي ذر في أن لا يبيت المسلم وعنده مال، فليست من مصلحة المسلمين، وطريقة بعض أغنياء المسلمين الآن، في أن يعيشوا لأنفسهم ومتعهم غير مبالين بعزة الإسلام وقوة دولته وحاجة أهله، ليست من الإسلام، والإسلام لا يعرف الذين لا يعرفونه، ولي في ذلك مقالة في صدر جزء شوال سنة ١٣٧٤هـ من مجلة الأزهر، لعل فيها ما يزيد هذا الموضوع بسطة ووضوحاً.

عثمان المفترى عليه (٣)

العدد (٤١) جمادى الأولى (١٣٨٨هـ) - يوليو (١٩٦٨م).

١- رد اعتبار الحَكم بن أبي العاص

من المؤاخذات التي يذكرها المتحاملون على عثمان ﷺ زعمهم أن النبي ﷺ نفى الحكم بن أبي العاص من المدينة، وأن عثمان أعاده.

وقد تناول هذه المسألة بالتحقيق أعلام المسلمين، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم «منهاج السنة» في الجزء الثالث ص ٦٩١، وقبله قاضي الأندلس الإمام أبوبكر بن العربي في «العواصم من القواصم» ص ٧٧، والإمام أبومحمد ابن حزم في كتاب «الإمامة والمفاضلة» المدرج في الجزء الرابع من كتابه «الفصل في الملل والنحل»، ومجتهد الزيدية السيد محمد بن إبراهيم الوزير اليمني في كتابه «الروض الباسم»، بل من هم أبعد الناس عن محاباة أمير المؤمنين عثمان ومنهم الحاكم المحسن بن كرامة المعتزلي المتشيع في كتابه «سرح العيون».

وخلاصة ما دارت عليه أقوال هؤلاء الأعلام:

١- أن نفي إنسان من بلد إلى بلد يكون بتغريبه عن بلده إلى بلد آخر، والحكم بن أبي العاص كان وطنه مكة ولم ينف منها إلى غيرها، ولم نعرف أن الحكم هاجر إلى المدينة حتى يطرد منها.

٢- قول شيخ الإسلام ابن تيمية أن قصة طرد الحكم ليس لها إسناد نعرف به صحتها.

٣- قوله: إن كثيرا من أهل العلم طعن في نفي الحكم وقالوا هو ذهب باختياره، أي إنه اختار الإقامة في بلده.

٤- إذا كان النبي ﷺ قد عزر رجلًا بالنفي، وهو ما لم يثبت في قصة الحكم، لم يلزم أن يبقى نفيا دائما، قال ابن تيمية: بل غاية النفي المقدر سنة، والتوبة مبسوطة، فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام، وصارت الأرض كلها مباحة له، كما قال الإمام ابن حزم.

٥- قال القاضي ابن العربي: قال علماؤنا: قد كان اذن له فيه رسول الله ﷺ، وقال- أي عثمان- لأبي بكر وعمر فقالا له: إن كان معك شهيد رددناه، فلما ولي قضى بعلمه في رده.

وإذن النبي ﷺ وسلم لعثمان رواه أيضا الحاكم المحسن بن كرامة المعتزلي المتشيع، قال ابن الوزير: والمعتزلة من الشيعة والزيدية يلزمهم قبول هذا الحديث لأن راوي الحديث عندهم من المشاهير بالثقة والعلم وصحة العقيدة.

٦- كان عثمان شفع في عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فقبل ﷺ شفاعته فيه وبايعه، فكيف لا يقبل شفاعته في الحكم؟ وقد رووا أن عثمان سأله أن يرده فأذن له في ذلك.

٧- أن قصة عبدالله بن سعد بن أبي سرح معروفة بالإسناد، وأما قصة الحكم فقد ذكرت مرسلة، وذكرها مؤرخون يكثر منهم الكذب فيما يروونه.

٢- إعطاء عثمان خمس الخمس لابن أبي سرح

ومن المؤاخذات التي يذكرها المتحاملون على عثمان إعطاؤه خمس الخمس لعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وقصة ذلك، على ما في تاريخ الطبري (٥١٩٤)، أن عثمان لما أمر ابن ابي سرح بالزحف من مصر على تونس لفتحها قال له: «إن فتح الله عليك غدا إفريقية فلك ما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة فضلًا»، فخرج بجيشه حتى قطعوا أرض مصر، وأوغلوا في أرض إفريقية، وفتحوها سهلها وجبلها، وقسم عبدالله على الجند ما أفاء الله عليهم، وأخذ خمس الخمس، وأرسل بأربعة أخماس الخمس إلى عثمان مع ابن وثيمة النصري، فشكا وفد ممن كان معه إلى عثمان ما أخذه عبدالله بن سعد فقال لهم

عثمان: أنا أمرت له بذلك، فإن سخطتم فهو رد، قالوا: إنا نسخطه، فأمر عثمان عبدالله بن سعد بأن يرده، فرده، ورجع عبدالله بن سعد إلى مصر، وقد فتح إفريقية.

وقد ثبت في السنة تنفيل أهل الغناء والبأس في الجهاد، كما فعل النبيﷺ في مكافأة سلمة بن الأكوع في إغارة عبدالرحمن الفزاري على سرح النبيﷺ، (انظر المنتقى في أحاديث الأحكام، للمجد ابن تيمية ٤١٣٤، وفي غزوات أخرى ٩١٣٤، ٠٢٣٤، ١٢٣٤). قال القاضي أبوبكر بن العربي: على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده وإن أعطاه لواحد جاز.

● **من هو ابن سعد؟**

وعبدالله بن سعد بن أبي سرح صحابي من بني عامر بن لؤي من قريش، كان أخا عثمان من الرضاعة استجار له عثمان يوم فتح مكة فأجاره النبيﷺ، وحسن إسلامه، وكان من عظماء المجاهدين الفاتحين، ولما أراد الله إدخال مصر في الأسرة الإسلامية كان ابن أبي سرح في طليعة الصحابة الذين أكرمهم الله بهذا الجهاد، فكان صاحب الميمنة في الحرب تحت لواء عمرو بن العاص، وكانت له مواقف محمودة في الفتوح، وبعد أن استتب الأمر لأصحاب رسول اللهﷺ في وادي النيل اختط ابن أبي سرح لنفسه خطة في بقعة الجهاد المباركة حول الفسطاط الذي قام عليه أول مسجد للإسلام في مصر.

وروى البرقي في تاريخه عن الليث بن سعد أنه قال: «كان ابن أبي سرح على الصعيد زمن عمر، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها، وكان محمودًا في ولايته». وهذه الحقيقة التي يقررها الليث بن سعد إمام مصر عن إمارة ابن أبي سرح على مصر سنة ٥٢هـ كان مقدمة لقيام هذا الإداري العادل بقيادة الجيوش سنة ٧٢هـ لافتتاح إفريقية، وكان ذلك من أعظم الفتوح، بلغ منه سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وكان العبادلة على جلالتهم تحت قيادة ابن ابي سرح في هذا الجهاد، ثم واصل هذا القائد جهاده سنة ١٣هـ في غزاة الأساود، وفي سنة ٤٣هـ في ذات السواري،

فلما وقعت الفتنة في المدينة كتب ابن أبي سرح إلى عثمان يستأذنه في القدوم إلى المدينة من طريق العريش والعقبة، واستخلف على مصر السائب بن هشام بن عمير، فتغلب على مصر محمد بن أبي حذيفة الذي منع ابن أبي سرح من دخول مصر، فمضى إلى فلسطين واختار الإقامة بين عسقلان والرملة واعتزل الناس إلى سنة ٧٥هـ، وفي صبح يوم من الأيام وهو بالرملة قال: اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صلى، فسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه يرحمه الله.

٣- الكتاب المزور على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

تحدثنا من قبل عن قصة الكتاب الذي زعم من زعم أن أمير المؤمنين كتبه إلى عامله على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح بأن يقتل محمدًا بن أبي بكر، وأن ينكل بمن معه من الثائرين على عثمان.

وذكرنا من أدلة تزوير هذا الكتاب، وأنه لم يصدر عن عثمان ولا عن كاتبه مروان، أن عثمان ومروان كانا يعلمان أن ابن أبي سرح لم يكن وقتئذ موجودًا في مصر، لأنه كتب من قبل إلى الخليفة يستأذنه في المجيء إلى المدينة وأنه فارق مصر، وتغلب عليها محمد بن أبي حذيفة رئيس البغاة وعميدهم في الفسطاط.

وذكرنا أن زعيمي ثوار العراق الأشتر النخعي وحكيم بن جبلة تخلفا في المدينة ولم يخرجا منها عند خروج جماعتهما من البغاة عائدين من المدينة إلى أوطانهم في المرة الأولى، مقتنعين بأجوبة أمير المؤمنين عثمان على الشبه التي وجهوها إليه، فكان من مصلحة مدبري الثورة أن يبتكروا وسيلة لإعادتهم إلى المدينة، ليجددوا الفتنة، وكان هذا الكتاب المزور هو الوسيلة المبتكرة لذلك، وذكرنا شواهد على تعدد الكتب المزورة بأيدي رؤساء البغاة.

فتزوير الكتب في مأساة البغي على أمير المؤمنين عثمان كان من أسلحة البغاة عليه، وهم حين قدومهم إلى المدينة في بداية الأمر، كانوا قد زعموا أنهم تلقوا من علي وطلحة والزبير رسائل يدعونهم فيها إلى الثورة على عثمان، بدعوى أنه غيَّر سنة الله، فالأشتر النخعي وحكيم بن جبلة وأمثالهم من منظمي الثورة والدعاة

إليها، هم الذين تكرر منهم تزوير الرسائل من قبل ومن بعد لتحقيق غرضهم السيئ المبيت.

وأعجب العجب في أمر الكتاب المزور على عثمان، وادعاء أنه كتبه إلى أميره على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي لم يكن حينئذ موجودًا في مصر، أعجب العجب في ذلك أن قوافل الثوار العراقيين التي كانت متباعدة في الشرق، عن قوافل الثوار المصريين في الغرب عادتا إلى المدينة معا في آن واحد، مع أن الكتاب المزور موجه إلى طائفة واحدة منهما وهي قافلة المصريين.

فمسرحية الكتاب المزور مثلت في الطريق الغربي الذي كان المصريون فيه وحدهم وكان الراكب المستأجر لحمل هذا الكتاب يتعرض لقافلة المصريين ثم يفارقها مبتعدًا عنها، ويكرر ذلك المرة بعد المرة ليثير شبهتهم فيه، وكان المفروض لو كان صادقا وغير ممثل لمسرحية تلقنها أن يختفي عن عيون أهل القافلة، ولا يشعرهم بوجوده، لكنه لما تراءى لهم المرة بعد المرة، قالوا له: مالك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر أن يصلبهم ويقطع أيديهم وأرجلهم، فصدقوا ما أريد لهم أن يصدقوه ولم يعلموا أن الكتاب من تزوير الأشتر وحكيم بن جبلة، اللذين لم يسافرا مع جماعتهما إلى بلديهما، بل تخلفا في المدينة (الطبري ٥/ ١٢٠)، ولم يكن لهما أي عمل يتخلفان في المدينة لأجله، إلا مثل هذه الخطط والتدابير التي لا يفكران يومئذ في غيرها.

فلما عادت قوافل الفريقين- العراقيين والمصريين- إلى المدينة وصلتا إليها معا كأنما كانوا على ميعاد، ومعنى هذا أن الذين استأجروا الراكب ليمثل دور حامل الكتاب أمام قوافل المصريين، استأجروا راكبا آخر خرج من المدينة قاصدًا قوافل العراقيين شرقا، ليخبرهم بأن المصريين اكتشفوا كتابًا بعث به عثمان إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح في مصر بقتل محمد بن أبي بكر (الطبري ٥/ ٥٠١).

فقال لهم علي بن أبي طالب ﷺ عند وصولهم جميعًا في آن واحد: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة، (يشير كرم الله وجهه إلى تخلف الأشتر

وحكيم في المدينة، وأنهما هما اللذان دبرا هذه المسرحية).

فأجابه الثوار العراقيون بلسان رؤسائهم: فضعوه على ما شئتم.. لا حاجة لنا إلى هذا الرجل، ليعتزلنا.

وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين عثمان، وسفك دمه الذي عصمه الله بشريعة رسول الله ﷺ.

٤- محاباة الأقارب وتوليتهم

ومن مؤاخذاتهم على عثمان أنه حابى أقاربه، وكان يوليهم الإدارة في البلاد، والقيادة للجيوش، وعثمان لم يول أقاربه محاباة لهم، بل لكفاءتهم في صناعة الحكم، وتفوقهم في قيادة الجيوش، ونجاحهم في انتصاراتهم التي لا يكاد يكون لها نظير.

وليس عثمان أول من ولى رجالات بني أمية الإدارة والقيادة، بل إن النبي ﷺ كان أسبق في إسناد الولايات إليهم، فقد استعمل عتاب بن أسيد الأموي على مكة كبرى مدن الوطن الإسلامي في الصدر الأول، وولى أبا سفيان بن حرب على نجران، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص، واستعمل غيرهم، وكذلك فعل أبوبكر في خلافته، ثم عمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة: والنقل عن النبي ﷺ في استعمال هؤلاء ثابت مشهور عنه، بل متواتر عن أهل العلم، فكان الاحتجاج على جواز الاستعمال من بني أمية بالنص الثابت عند كل عاقل في منتهى الظهور.

واذا كان عثمان قد ولى أقاربه لكفاءتهم وتفوقهم، فإن عليا ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه كعبدالله بن عباس، وعبيدالله بن عباس، وحكم بن عباس، وثمامة ابن عباس، وولى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي رباه في حجره وتزوج أمه بعد وفاة الصديق الأعظم.

قال ابن تيمية: والذين ينكرون ما ينكرون من ذلك على عثمان في ولاية أقاربه من بني أمية فإن عليا كان في ذلك أبلغ من عثمان، وإذا ادعي لعلي العصمة مما

يقطع عنه ألسنة الطاعنين، فإن ما يدعى لعثمان من الاجتهاد، والذي يقطع ألسنة الطاعنين، أقرب إلى المعقول والمنقول. (انظر منهاج السنة ٣/ ٣٧١ - ٤٧١).

٥- لين عثمان وبعض مظاهره

اللين والشدة من الصفات النسبية التي لا يمكن تحديدها في مختلف الأحوال، وقد يكون الحاكم ليّنا في نفسه، وفي معاملته لأفراد الناس، ولا يكون كذلك في حكمه وتصريفه لأمور الدولة.

وكان أبوبكر موصوفا باللين، لكنه كان يولي الشديد، ويستعين به ليعتدل بذلك أمره، ويخلط الشدة باللين، لأن مجرد اللين يفسد، ومجرد الشدة تفسد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مناهج السنة ومختصره المنتقى للذهبي (ص ٣٦٢) قال: ولهذا كان أبو بكر يستعين باستشارة عمر، وباستنابة خالد، وهذا من كماله الذي صار به خليفة رسول الله ﷺ، ولهذا اشتد في قتال أهل الردة، وبرز بشدته في ذلك على شدة عمر.

وعمر كان شديدًا في نفسه، فكان من كماله استعانته بأهل اللين ليعتدل أمره، فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة الثقفي، والنعمان بن مقرن، وسعيد بن عامر، وأمثال هؤلاء من أهل الصلاح والزهد الذين هم أعظم زهدًا وعبادة من مثل خالد بن الوليد.

وعثمان كان يقتدي في لينه بسلوك أبي بكر في لينه، فيستعين لكل أمر بأكفائه، ويحل المشكلات المالية بالتضحية لحلها من ماله الخاص، لذلك كان المجتمع في مدة خلافته الطويلة أسعد مجتمع نعرفه، كما وصفه الحسن البصري ومحمد بن سيرين فيما نقلناه عنهما من قبل.

وبلين عثمان الشخصي الممزوج بوجوه الشدة التي كان يستعين بها وبأهلها كانت جيوشه تضرب في أنحاء الأرض فاتحة ظافرة ناشرة كلمة الله في كل مكان.

وقد يذهب ذاهب إلى أن لين عثمان كان أعظم مظاهره موقفه من دعاة الفتنة لما أحاطوا به في المدينة لينزعوا عنه القميص الذي ألبسه الله إياه بإجماع الأمة خاصتها وعامتها، وما كان هذا من لينه، بل ليقينه أنه مقبل على لقاء الله شهيدًا

شهادة كان موعودًا بها من النبي ﷺ في أكثر من مرة.

لكن قد يكون من لينه أنه لم يقمع أسبابها الأولى، وهي تتكون خارج المدينة من دعاة الفتن متسلطًا عليهم إبليس اليهود عبدالله بن سبأ، ولعله تهاون في مطاردتهم وقمعهم، وهم لا يزالون في بداية التآمر والتدبير، لاعتقاده أن دعوتهم لن تستشري في حكم صالح، ذاق الناس فيه حلاوة العدل والإحسان، فهو يقول في نفسه: إني تجنبت فساد الشدة والاستعلاء على الناس، ومهدت لهم من أسباب السعادة ما استطعت، فما أظن أن اللين الذي عندي وهو من فطرة الله يبلغ بهم حد الفساد، بكفر النعمة والغفلة عما هم فيه من عز الفتوح، والاغتباط، بانتشار الإسلام، والتمتع بثمرات ذلك في الدنيا والدين.

ومما لاشك فيه أن من مظاهر اللين الذي فطر عليه عثمان إصغاؤه إلى شكاوى الشاكين من ولاته، ولو بغير حق، فقد نقل الحافظ ابن حجر عن كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك ان عثمان كان لين العريكة، كثير الإحسان والحلم، فكان إذا شكا له بعض الحجاج واليا لهم أن يستبدله فيرضيهم.

الوليـد بن عقبـة

وولايته الكوفـة لأميـر المؤمنيـن عثـمان (٤)

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

قد يظن من لا يعرف صدر هذه الأمة وسر الله فيما كان فيه من أمجاد وتوفيق، أن أمير المؤمنين عثمان جاء بالوليد بن عقبة من عرض الطريق فولاه الكوفة محاباة له لأنه أخوه لأمه، أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأنس بأحوال ذلك العصر ومفاخره وفضائل أهله، فيعلمون أن الوليد بن عقبة قبل أن يكون أخاً لعثمان من أمه فإنه كان ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول اللهﷺ وتوأمة أبيه.

وما كان عثمان أول من ولّى الوليد شيئاً من أمر الدولة في خلافته، بل إن دولة الإسلام الأولى في خلافة أبي بكر رضوان الله عليه هي التي تلقفت هذا الشاب القرشي الماضي العزيمة، الرضي الخلق، الصادق الإيمان، فاستعملت مواهبه في سبيل الله إلى أن توفي أبو بكر، وأول عمل له في خلافة الصديق أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس سنة ١٢ (الطبري ٤- ٧) ثم وجهه أبو بكر مدداً إلى قائده عياض بن غنم الفهري (الطبري ٤- ٢٢) وفي سنة ١٣ كان الوليد يلي لأبي بكر صدقات قضاعة ثم لما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في الحرمة والثقة والكرامة، فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين، وسار الوليد بن عقبة قائداً إلى شرق الأردن (الطبرى - ٢٩- ٣٠) ثم رأينا الوليد في سنة ١٥ أميراً على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة (الطبري ٤- ١٥٥) يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام لئلاً يؤتوا من خلفهم، فكانت تحت قيادته ربيعة وتنوخ - مسلمهم وكافرهم وانتهز الوليد بن عقبة فرصة ولايته وقيادته على هذه

الجهة التي لا تزال مليئة بنصارى القبائل العربية فكان- مع جهاده الحربي، وعمله الإداري- داعياً إلى الله يستعمل أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على أن يكونوا مسلمين كسائر العرب، وهربت منه إياد متوغلة في الأنضول الذي كان تحت حكم الروم البيزنطيين فحمل الوليد خليفته عمر بن الخطاب على كتابة كتاب تهديد إلى قيصر القسطنطينية بأن يردهم إلى حدود الدولة الإسلامية، وحاولت تغلب أن تتمرد على الوليد في نشره الدعوة الإسلامية بين شبانها وأطفالها بالإيمان الإسلامي، وقال فيهم كلمته المشهورة.

إذا عصبت الرأس مني بمشوذ فغيك مني تغلب ابنة وائل

وبلغت هذه الكلمة عمر، فخاف أن يبطش قائده الشاب بنصارى تغلب، فيفلت من يده، زمامهم في الوقت الذي كانوا يحاربون فيه مع المسلمين حمية للعروبة، فكف عنهم يد الوليد ونحاه عن منطقتهم.

بهذا الماضي المجيد جاء الوليد بن عقبة في خلافة عثمان فتولى له الكوفة وكان من خير ولاتها عدلاً ورفقاً وإحساناً. وكانت جيوشه- مدة ولايته على الكوفة- تزحف إلى آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة.

أراد الوليد بن عقبة منذ ولي الكوفة لأمير المؤمنين عثمان- أن يكون الحاكم المثالي في العدل والنبل والسيرة الطيبة مع الناس، كما كان المحارب المثالي في جهاده وقيامه للإسلام بما يليق بالذائدين عن دعوته، الحاملين لرايته، الناشرين لرسالته، وقد لبث في إمارته على الكوفة خمس سنين وداره إلى اليوم الذي زايل فيه الكوفة- ليس لها باب يحول بينه وبين الناس ممن يعرف ومن لا يعرف، فكان يغشاها كل من شاء متى شاء من ليل أو نهار. ولم يكن بالوليد حاجة لأن يستتر من الناس.

فالستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وكان ينبغي أن يكون الناس كلهم محبين لأميرهم الطيب، لأنه أقام لغربائهم دور الضيافة، وأدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم المال للولائد والعبيد، ورد على كل مملوك من فضول الأموال في كل شهر ما يتسعون به من غير أن

ينقص مواليهم من أرزاقهم وبالفعل كانت جماهير الشعب متعلقة بحب هذا الأمير المثالي طول مدة حكمه.

إلا أن فريقاً من الأشرار وأهل الفساد أصاب بينهم سوط الشريعة بالعقاب على يد الوليد فوقفوا حياتهم على ترصد الأذى له. ومن هؤلاء رجال يسمى أحدهم أبا زينب ابن عوف الأزدي، وآخر يسمى أبا مورع، وثالث اسمه جندب أبو زهير، قبضت السلطات على أبنائهم في ليلة نقبوا بها على ابن الحيسمان داره وقتلوه، وكان نازلاً بجواره رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أهل السابقة في الإسلام وهو أبو شريح الخزاعي حامل راية رسول الله ﷺ على جيش خزاعة يوم فتح مكة، فجاء هو وابنه من المدينة إلى الكوفة ليسيرا مع أحد جيوش الوليد بن عقبة التي كان يواصل توجيهها نحو الشرق للفتوح ونشر دعوة الإسلام، فشهد هذا الصحابي المجاهد وابنه في تلك الليلة سطو هؤلاء الأشرار على منزل ابن الحيسمان وسفكهم لدمه، وأدى شهادته هو وابنه على هؤلاء القتلة السفاحين، فأنفذ الوليد فيهم حكم الشريعة على باب القصر في الرحبة، فكتب آباؤهم العهد على أنفسهم للشيطان بأن يكيدوا لهذا الأمير الطيب الرحيم، وبثوا عليه العيون والجواسيس ليترقبوا حركاته، وكان بيته مفتوحاً دائماً. وبينما كان عنده ذات يوم ضيف له من شعراء الشمال كان نصرانياً في أخواله من تغلب من أرض الجزيرة وأسلم على يد الوليد، فظن جواسيس الموتورين أن هذا الشاعر الذي كان نصرانياً لا بد أن يكون ممن يشرب الخمر، ولعل الوليد أن يكرمه بذلك، فنادوا أبا زينب وأبا المورع وأصحابهما، فاقتحموا الدار على الوليد من ناحية المسجد، فلما فوجئ بهم نحى شيئاً أدخله تحت السرير، فأدخل بعضهم يده فأخرجه بلا إذن من صاحب الدار، فلما أخرج ذلك الشيء من تحت السرير، إذا هو طبق عليه تفاريق عنب، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون من الخجل، وسمع الناس بالحكاية فأقبلوا يسبونهم ويلعنونهم، وقد ستر الوليد عليهم ذلك وطواه عن عثمان، وسكت عن ذلك وصبر، ثم تكررت مكايد جندب وأبي زينب وأبي المورع، وكانوا يغتنمون كل حادث ويسيئون تأويله ويفترون الكذب. وذهب الذين

كانوا عمالاً في الحكومة ونحاهم الوليد عن أعمالهم لسوء سيرتهم، فقصدوا المدينة وجعلوا يشكون الوليد لأمير المؤمنين عثمان ويطلبون منه عزله عن الكوفة، وفيما كان هؤلاء في المدينة دخل أبو زينب وأبو المورع دار الإمارة بالكوفة مع من يدخلها من غمار الناس، وبقيا فيها إلى أن تنحى الوليد ليستريح، فخرج بقية القوم، وثبت أبو زينب وأبو المورع إلى أن تمكنا من سرقة خاتم الوليد من داره وخرجا، فلما استيقظ الوليد لم يجد خاتمه سأل عنه زوجتيه - وكانتا في مخدع تريان منه زوار الوليد من وراء ستر، قالتا إن آخر من بقي في الدار رجلان، وذكرتا صفتهما وحليتهما للوليد، وأدرك أنهما أبو زينب وأبو المورع، وأدرك أنهما لم يسرقا الخاتم إلا لمكيدة بيتاها، فأرسل في طلبهما فلم يوجدا في الكوفة، وكانا قد سافرا توا إلى المدينة، وتقدما شاهدين على الوليد بشرب الخمر، فقال لهما عثمان: كيف رأيتما؟ قالا: كنا في غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر، فقال عثمان: ما يقيء الخمر إلا شاربها، فجيء بالوليد من الكوفة، فحلف لعثمان وأخبره خبرهم، فقال عثمان: نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار.

هذه قصة اتهام الوليد بالخمر كما في حوادث سنة ٣٠ من تاريخ الطبري. وعناصر الخبر عند الطبري، أن الشهود على الوليد اثنان من الموتورين الذين تعددت شواهد غلهم عليه، ولم يرد في الشهادة ذكر الصلاة من أصلها، فضلاً عن أن تكون ركعتين أو أربعاً وهناك زيادة للحضين بن المنذر بلفظ «شهدت عثمان بن عفان وأتي بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر وشهد آخر أنه رآه يتقيأ». فكلمة صلاة الصبح وأزيدكم من كلام حضين، وحضين لم يكن من الشهود، ولا كان في الكوفة في وقت الحادث المزعوم، وإنما كان عند عثمان بالمدينة لما أتي عثمان بالوليد، وحضين لم يسند هذه الكلمات إلى إنسان معروف. وخبر حضين هذا مروي هكذا عند مسلم، ومروي أيضاً عند أحمد في موضعين ليس فيهما ذكر للصلاة بلسان حضين ولا غيره، فلعل أحد الرواة من بعده أدرك أن الكلام عن الصلاة ليس من

كلام الشهود، فاقتصر على ذكر الحد، وروي الخبر في مسند أحمد في موضع ثالث عن حضين بصيغة تعارض أصل الخبر في عدد الركعات. وفي الحالتين لا يخرج ذكر الصلاة عن أنه من كلام حضين، وحضين ليس بشاهد، ولم يرو عن شاهد، فلا عبرة بهذا الجزء من كلامه، وسائر الشهود مغرضون لا يقام بمثلهم حد الله على ظنين من السوقة والرعاع، فكيف بمجاهد كريم وضع الخليفة في يده أمانة قطر، وقيادة جيوش، فكان عند الظن به من حسن السيرة في الناس، وصدق الرعاية لأمانات الله، وكان موضع الثقة عند ثلاثة هم أكمل خلفاء الإسلام أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين.

بقيت ناحية من أمر الوليد لا يكون الكلام على حياته تاماً إلا باستيفائها، وهي ما تناقله المفسرون من أنه هو الذي نزلت فيه آية ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (الحجرات: ٦).

ولقد كنت أعجب فيما مضى كيف تكون هذه الآية نزلت فيه ويسميه الله فاسقاً. ثم تبقى له في نفس خليفتي رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر المكانة التي سجلها له التاريخ، وأوردنا الأمثلة عليها آنفاً عند استعراضنا ماضيه في بضعة عشر عاماً قبل أن يوليه عثمان الكوفة، إن هذا التناقض بين ثقة أبي بكر وعمر بالوليد بن عقبة، وبين ما كان ينبغي أن يعامل به لو أن الله سماه فاسقاً - قد حملني على الشك في أن تكون آية الحجرات نزلت فيه لا استبعاداً لوقوع أمر من الوليد يعد به فاسقاً، ولكن استبعاداً لأن يكون الموصوم بالفسق في صريح القرآن محل الثقة من رجلين لا نعرف في أولياء الله ﷻ - بعد رسوله ﷺ - من هو أقرب إلى الله منهما.

وبعد أن ساورني هذا الشك، أعدت النظر في الأخبار التي وردت عن سبب نزول هذه الآية، فلما عكفت على دراستها، وجدتها موقوفة على مجاهد أو قتادة أو ابن أبي ليلى أو يزيد بن رومان، ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار في مدة مائة سنة أو أكثر مرت بين أيامهم وزمن نزول الآية، وهذه المائة من السنين حافلة بالرواة من مشارب مختلفة، وإن الذين لهم هوى في تسويء سمعة

مثل الوليد، ومن هم أعظم مقاماً من الوليد، قد ملأوا الدنيا أخباراً مريبة ليس لها قيمة علمية، وما دام رواة تلك الأخبار في سبب نزول هذه الآية مجهولين من علماء الجرح والتعديل بعد الرجال الموقوفة هذه الأخبار عليهم، وعلماء الجرح والتعديل لا يعرفون من أمرهم حتى ولا أسماءهم فمن غير الجائز شرعاً وتاريخاً الحكم بصحة هذه الأخبار المنقطعة التي لا نسب لها وترتيب الأحكام عليها. فالوليد بن عقبة بريء شرعاً من نسبة سبب نزول هذه الآية إليه. ولذلك تفصيل فني أوردته في التعليق على كتاب العواصم من القواصم ولا أطيل به هنا لأن المجال في موقفنا هذا يضيق عن استيفائه.

● **مصحف عثمان وجمعه**

روى الإمام البخاري في صحيحه (رقم ٤٩٨٧) حديث أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: إن حذيفة بن اليمان أحد قادة جيوش عثمان- قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وفي رواية عمارة بن غزية أن حذيفة قدم من غزوة، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك الناس، قال عثمان: وما ذاك؟ قال: غزوت فرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق. وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضا.

وأخرج ابن أبي داود- في كتاب المصاحف- من طريق يزيد بن معاوية النخعي قال: «إني لفي المسجد - أي مسجد الكوفة - زمن الوليد بن عقبة في حلقة فيها حذيفة فسمع رجلاً يقول: قراءة عبد الله ابن مسعود، وسمع آخر يقول: قراءة أبي موسى الأشعري فغضب - أي حذيفة بن اليمان- ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين».

قال البخاري في تمام رواية أنس بن مالك: «فأرسل عثمان إلى حفصة أن

أرسلي إلينا بالصحف - أي التي دونها زيد بن ثابت في زمن أبي بكر بإلحاح عمر رضي الله عنهم - فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ففسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن- وفي رواية شعيب- في عربية من عربية القرآن- فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق».

إن العناية التي بذلها عظيما الإسلام أبو بكر وعمر، وأتمها أخوهما ذو النورين عثمان في جمع القرآن وتثبيته وتوحيد رسمه، كان لهم بها أعظم المنة على المسلمين، وبها حقق الله وعده في قوله سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩) وقد تولى الخلافة بعد هؤلاء الشيوخ الثلاثة أمير المؤمنين علي، فأمضى عملهم، وأقر مصحف عثمان برسمه وتلاوته، في جميع أمصار ولايته، وبذلك انعقد إجماع المسلمين في الصدر الأول على أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان هو أعظم حسناتهم بل نقل بعض علماء الشيعة هذا الإجماع على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. جاء في كتاب تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني (ص٤٦) من شيعة عصرنا أن علي بن موسى المعروف بابن طاوس (٥٨٩- ٦٦٤) وهو من علمائهم نقل في كتابه سعد السعود عن الشهرستاني في مقدمة تفسيره عن سويد بن علقمة قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «أيها الناس، الله، الله، إياكم والغلو في أمر عثمان وقولكم حراق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ جمعنا وقال: ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها، يلقى الرجل الرجل فيقول قراءتي خير من قراءتك، وهذا يجر إلى الكفر، فقلنا: ما الرأي؟ قال: أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم أن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً، فقلنا: نعم ما رأيت».

ومما لا ريب فيه أن البغاة على عثمان كانوا في خلافة علي- رضي الله عنهما- يقرأونه في مصاحف عثمان التي أجمع عليها الصحابة وعلي فيهم.

نعم، أراد عبد الله بن مسعود أن يحتفظ بمصحفه، ولكن لم يرد الله ونصر الله عثمان والحق ببقاء مصحف عثمان هو المصحف المتلو في أنحاء الأرض من زمنه إلى يوم الناس هذا، وإلى يوم القيامة، ولله الحمد على ذلك.

* * *

٢٢ مقالات

عبد الله مشاري الروضان
وزير الأوقاف الأسبق

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- رسول الله ﷺ قدوتنا.

العدد (٤٠) ربيع الثاني (١٣٨٨هـ) - يونيو (١٩٦٨م).

٢- في سبيل جيل مؤمن.

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

ترجمة الشيخ

عبدالله مشاري الروضان

● **مولده ونشأته**

ولد عبدالله مشاري الروضان في عام ١٣٢٨هـ الموافق ١٩١٠م، في بيت كرم وإحسان، وقد تأثر بهذه البيئة الطيبة ونشأ متصفاً بصفاتها، وأسرة الروضان من الأسر الكويتية الموغلة في القدم سكناً وعملاً.

حرص والده على تعليمه الكتابة والرماية وعلى ألا يكون رزقه إلا حلالاً طيباً، حتى امتن الله عليه بحفظ كتاب الله تعالى، ثم درس عبدالله الروضان رَحِمَهُ اللَّهُ بالكُتّاب مبادئ الحساب والقراءة والكتابة، وتعلم لدى المدارس الأهلية، وأولها مدرسة الملا عبداللطيف العمر، وهي مدرسة معروفة بتدريس الدين والقرآن الكريم والقراءة والكتابة، ثم التحق بالمدرسة المباركية، وهي مدرسة نظامية التحق بها معظم أبناء الكويت في ذلك الوقت.

عمل على تنشئة أبنائه التنشئة الصالحة والتعليم الجيد فكان ابنه ناصر الروضان نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية الأسبق، وعبداللطيف الروضان الأمين العام لمجلس الوزراء.

● **أعماله وتجارته**

عمل رَحِمَهُ اللَّهُ في تجارة اللؤلؤ وأصبح من التجار البارزين والخبراء في اللؤلؤ آنذاك، وكانت له العديد من المساهمات في الصالح العام من خلال عمله، وشارك مع إخوانه في نهضة الكويت، وعمل رَحِمَهُ اللَّهُ على المساهمة في عمارة

بيوت الله تعالى.

عين رَحِمَهُ اللَّهُ في العام ١٩٥١م عضواً في المجلس البلدي بمرسوم أميري.

كما تم تعيينه عضواً بمجلس معارف الكويت عام ١٩٦١م.

فاز بعضوية مجلس الأمة في الانتخابات التي جرت بتاريخ ٢٣/ ١/ ١٩٦٣م، وبعد فوزه أيام، عين وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٦٣م، واستمرت وزارته حتى ديسمبر ١٩٦٤م

وعين وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية، واستمرت هذه الوزارة من عام ١٩٦٥م، حتى عام ١٩٧١م، وكان له الدور الوافر بإنشاء الأمانة العامة للأوقاف، وهي الآن المشرفة على الوقف في جميع فئاته، وهي التي تديره وتدير ريعه فيما يخدم المسلمين في أمور دينهم.

واقترح رَحِمَهُ اللَّهُ على العلماء عمل موسوعة فقهية تكون مرجعاً للمسلمين في الكويت والدول الإسلامية الأخرى، وقد بذلوا بفضل الله تعالى منذ عام ١٩٧١م، جهداً في الإعداد لهذه الموسوعة، حتى رأت النور.

- **وفاته**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في يوم ١١ صفر عام ١٤٠٠هـ الموافق ٣٠ ديسمبر عام ١٩٧٩م، عن عمر يناهز ٦٩ عاماً، نسأل الله تعالى له الرحمة وحسن المآب، وأن يجعل أعماله في ميزان حسناته إن شاء الله.

معالي وزير الأوقاف يقول:

رسول الله هو قدوتنا في الصبر والجهاد

العدد (٤٠) ربيع الثاني (١٣٨٨هـ) - يونيو (١٩٦٨م).

احتفلت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بذكرى مولد الرسول ﷺ ونقل مراسم الحفل التليفزيون والإذاعة، وقد افتتح معالي السيد/ عبد الله المشاري الروضان وزير الأوقاف الحفل بهذه الكلمة المركزة الجامعة:

إن لكل أمة أياماً تعتز بها، وذكريات كريمة غالية في تاريخها لا تنساها، ولكنها تكون أشد ذكرا لها، حين تمر عليها مناسبتها، فتعيش معها بقلبها ووجدانها، وتأخذ منها العبرة والدرس ليومها وغدها.

وإننا اليوم والعالم الإسلامي كله معنا وذكرى ميلاد الرسول الأعظم تمر بنا لفي أشد الحاجة إلى أن نأخذ من ذكرى هذا اليوم يوم ميلاد الهدى والنور نقطة تحول في تاريخنا الحاضر. كما كان يوم الميلاد بدء ميلاد تحول جديد في تاريخ البشرية.

إن عظمة يوم المولد ترجع إلى ما كان للوليد اليتيم بعد ذلك من اختيار الله له، ليتم برسالته الرسالات ويختم بنبوته النبوات. ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويبني بهذه الرسالة أمة، ويؤسس على مبادئها حضارة ودولة.

إن محمدا ﷺ هو رسول الله ومصطفاه، وأحب الخلق إليه وأكرمهم عنده، وكان الله سبحانه قادراً على أن ينصره دون حرب ولا جهاد، ولكن الله أراد أن يجعل من حياة رسوله مثلاً وقدوة لعباده في كل ميدان من ميادين الحياة، وهو سبحانه يقول ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، ولقد

قضى رسول الله ﷺ حياته بعد بعثته مجاهداً صابراً، مع المشركين تارة، ومع اليهود تارة، ومع الروم تارة أخرى وكانت عدته وعدة أصحابه في هذا الجهاد الإيمان والصبر والثبات وحسن التأهب والاستعداد.

خاض معارك كثيرة، وانتصر وانهزم، فلم يحمله الانتصار على الغرور، ولم تدفعه الهزيمة إلى اليأس، بل ظل قوي الإيمان بالله، شديد البأس على أعدائه، حتى جاء نصر الله والفتح، وأتم له الدين، وأكمل عليه نعمته. وإذا كانت الأمة الآن تعيش أقسى أيامها وتمتحن امتحاناً شديداً في إيمانها وثباتها، وتقف وجها لوجه أمام قوى الشر المتجمعة عليها، فلقد امتحن رسول الله من قبل امتحاناً شديداً، وتألبت عليه قوى الشر في الدنيا كلها، فلم يضعف له إيمان، ولم تهن فيه عزيمة، لا هو ولا أصحابه المؤمنون به الذين باعوا الدنيا كلها رخيصة في سبيل عقيدتهم وإيمانهم بربهم ورسولهم.

ولقد وقف أعداء الله اليهود من رسولنا موقف العدو الألد يتربصون به ويؤلبون قوى الشر عليه، يحسن إليهم فيسيئون إليه، ويهادنهم فيتآمرون عليه... ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحشر: ٢).

وإن التاريخ الآن ليعيد نفسه، ويقف أعداء الله من الإسلام وأتباعه نفس الموقف الذي وقفه أجدادهم من قبل وصدق الله العظيم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ﴾ (المائدة: ٨٢).

فلنجعل من إيماننا ويقظتنا واتحاد كلمتنا وصبرنا في جهاد عدونا سلاحنا وعدتنا للقضاء على أعدائنا.

وإننا لنحيي بكل قلوبنا هؤلاء الأبطال الفدائيين الذين باعوا أرواحهم رخيصة في سبيل دينهم وتطهير ديارهم من أعداء الله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب: ٢٣).

أولئك الذين فتحوا باب الجنة وميدان الخلود لرجال هذه الأمة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وفي ختام كلمتي يسرني أن أرفع أسمى آيات التقدير والاحترام إلى مقام حضرة صاحب السمو أميرنا المعظم وولي عهده والشعب الكويتي الكريم، وأحيي إخواني المسلمين في كل مكان. وأسأل الله جلت قدرته أن يجمع كلمتنا ويوحد على الحق قلوبنا حتى تعود علينا هذه الذكرى الكريمة ونحن في فضل من الله بالعزة والانتصار.

والسلام عليكم

في سبيل جيل مؤمن

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

إن العالم الإسلامي يتعرض منذ فترة طويلة لتيارات جارفة من الإلحاد والتحلل، تحاول أن تجتاح ما في نفوس المسلمين من تدين، وأن تقطع صلتهم بالله. وإنه ليتكشف للرؤية من خلال الدعوات الهدامة عدة حقائق مريرة أظنها لا تغيب عن بال المصلحين المؤمنين:

يوجد تخطيط منظم حاقد على الإسلام يسعى جهده إلى تسميم العقول والأفكار، وإفساد القلوب والضمائر، وإشاعة الفوضى والإباحية.

وتزحف على مجتمعاتنا موجات مادية عارمة باسم الحرية والتقدمية تعمل لإبعادنا عن مواريثنا الروحية، وتقاليدنا الإسلامية، وتقطع الصلة بين ديننا ودنيانا.

وتستغل أساليب التوجيه الحديثة وأجهزة الإعلام الموجهة استغلالاً خبيثاً ماكراً لإغراقنا في رذائل الحضارة الغربية، ومباذل الحرية الزائفة.

وفي غمرة هذه الأخطار المحدقة بمقوماتنا السماوية يجب أن تتجه العقول المؤمنة، وتتحرك الأقلام المخلصة للحفاظ على ديننا والإبقاء على رسالتنا، والنجاة من عدونا.. في بيان ناصع وإقناع منطقي يجلي حقائق الإسلام، ويقف في وجه هذا الغزو الثقافي الخبيث، ويدعو إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة.

وإن من أقوى الوسائل التي تحمي جيلنا من هذه التيارات الدخيلة الوافدة أن يتناول كتابنا المتخصصون المخلصون المشكلات التي جدت في حياتنا والشكوك والأوهام التي طرأت على شبابنا في مقالات ميسرة واضحة الأسلوب جذابة

العرض تشد القارئ إلى دينه وترده إلى خالقه.

وإنه لمن دواعي سرورنا وتفاؤلنا أن تأخذ مجلة «الوعي الإسلامي» على عاتقها منذ صدورها الإسهام الجاد في هذا الميدان، وتقوم بدورها البناء في هذا المجال، فيتلاقى في ميدانها الرحب أصحاب القلوب المؤمنة: من الكتاب والقراء، ويلتف حولها كل متطلع إلى أن تعود للإسلام كلمته، وتخفق في دياره رايته.

وتلك رعاية الله للعاملين المخلصين.

٢٣ مقالات

الشيخ مناع القطان

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- رفع الحرج في الشريعة (١).

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

٢- رفع الحرج في الشريعة (٢).

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

٣- رفع الحرج في الشريعة (٣).

العدد (٥٤) جمادى الثانية (١٣٨٩هـ)- أغسطس (١٩٦٩م).

٤- الطريق إلى الله.

العدد (٥٦) شعبان (١٣٨٩هـ) - أكتوبر (١٩٦٩م).

٥- نشأة الفقه الإسلامي (١).

العدد (٦٨) شعبان (١٣٩٠هـ) - أكتوبر (١٩٧٠م).

٦- نشأة الفقه الإسلامي (٢).

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠هـ) - مارس (١٩٧٠م).

٧- دروس من الهجرة النبوية.

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - ما س (١٩٧٩م).

ترجمة الشيخ

مناع القطان

● مولده ونشأته

ولد الشيخ مناع خليل القطان في شهر أكتوبر سنة ١٩٢٥م - ١٣٤٥هـ في قرية شنشور، محافظة المنوفية بمصر من أسرة متوسطة الحال، وفي بيئة إسلامية مترابطة، حيث كان المجتمع الريفي يعتمد على الأرض الزراعية.

بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم في الكتّاب، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية، ثم التحق بالمعهد الديني الأزهري بمدينة شبين الكوم ثم التحق بكلية أصول الدين في القاهرة.

تأثر الشيخ رحمه الله بمشايخه الذين أخذ العلم عنهم ومنهم: «الشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ عبد المتعال سيف النصر، والشيخ علي شلبي، الشيخ محمد زيدان، والدكتور محمد البهي، والدكتور محمد يوسف موسى».

● نشاطه العملي والدعوي

انتخب رئيساً للطلبة بكلية أصول الدين، وشارك في التصدي للاستعمار الإنجليزي سنة ١٩٤٦م، شارك في التطوع للجهاد في فلسطين سنة ١٩٤٨م، وقد دخل السجن بعدها، وكان وثيق الصلة بالشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق، والشيخ أحمد حسن الباقوري.

عين مدرساً في المملكة العربية السعودية للتدريس في مدارسها ومعاهدها إلى سنة ١٩٥٨م، حيث انتقل للتدريس بكلية الشريعة بالرياض، ثم كلية اللغة العربية، ثم مديراً للمعهد العالي للقضاء، ثم مديراً للدراسات العليا بجامعة الإمام محمد

ابن سعود الإسلامية، بالإضافة إلى عضويته في مجلس الجامعة، ورئاسة اللجنة العلمية لكلية البنات وكذلك لجنة السياسة التعليمية بالمملكة، وكان يشرف على رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعات محمد بن سعود، وأم القرى، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والتي بلغ عددها ١١٥ رسالة.

● **مؤلفاته:**

له مؤلفات كثيرة في موضوعات شتَّى، وأهمها: «تاريخ التفسير ومناهج المفسرين، تفسير آيات الأحكام، مباحث في علوم القرآن الكريم، نزول القرآن على سبعة أحرف، التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً، مباحث في علوم الحديث، وغيرها كثير».

● **وفاته**

توفي يوم الإثنين ٦ ربيع الآخر سنة ١٤٢٠ هـ الموافق ١٩ يوليو ١٩٩٩م وصُلي عليه في مسجد الراجحي بمنطقة الربوة، ودفن في مقابر النسيم بالرياض، بعد مرض عضال، وكان عمره خمسة وسبعين عاماً. رحم الله الشيخ وغفر له وللمسلمين.

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (١)

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

● **تمهيد**

في مستهل حديثي عن رفع الحرج في الشريعة الإسلامية أحب أن أشير إلى الطابع العام الذي تتميز به هذه الشريعة.

لقد تميز الإسلام بأنه دين الحنيفية السمحة الذي يلائم الفطرة، ويلبي أشواقها في جوانب الحياة الإنسانية المختلفة دون إفراط أو تفريط.

فللإنسان أشواقه الروحية المتصلة بتربية العواطف، وتهذيب الوجدان، وتنمية مشاعر الخير التي تنطوي عليها النفس البشرية، حتى يصفو مشربها، وتزكو سريرتها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس (٧ -١٠) وسبيل هذه التزكية التي تورث صاحبها الفلاح أن تتجه النفس إلى بارئها، تدين بوحدانيته، وتخضع حياتها لشريعته. وتنقاد لأوامره ونواهيه في تذلل وانكسار، ولا تستطيع النفس أن تصل إلى هذا إلا إذا تحررت تحرراً كاملاً من سلطان أهوائها وشهواتها، وأعلنت عبوديتها لله وحده رب العالمين. وهذا هو لب الرسالات السماوية التي حملها رسل الله إلى البشرية عبر التاريخ، إعذاراً إليها، وبها بعث خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

وللإنسان مطالبه المادية التي تتصل بكيان حياته، وتنمية جسمه، والحفاظ على قواه المنتجة العاملة. حيث أجرى الله سنته في استقرار الأرواح بأجسادها، وربط معنى الحياة بالصلة الوثيقة القائمة بين هذه وتلك، وقوام الحياة المعيشية في

معترك العمل يهدف إلى تحقيق مطالب البدن في الغذاء والكساء، والمسكن والمركب، وسائر ما يستمتع به الإنسان مما أحل الله له .

والإسلام يفي بهذه المطالب من وجوهها المشروعة في الكسب الحلال، ويثير في النفس البشرية حوافز العمل الفطرية في غريزة حب التملك، ويتولى حراستها من الشطط، لتنطلق بطاقاتها على هدى من الله. تكد وتكدح ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ (الملك: ١٥). «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» ويمتد الأمل في هذا الكسب بما يخلفه الآباء للذرية من ميراث.

وهناك المطالب العقلية التي تتصل بالتفكير الإنساني، وإثارة العقل البشري للنظر في الكون وإدراك أسراره، والاستفادة منه. والسعي نحو تحقيق مستوى فكري لائق في حقل المعارف الإنسانية على اختلاف أنواعها .

ولطالما كان الرقي العقلي مظهراً للتقدم الحضاري، وسبيلاً إلى إرساء دعائم المدنية على نهج سديد في مراحل التطور البشري، وبناء الحضارات الإنسانية في القديم والحديث.

ولقد لفت الله أنظار عباده في القرآن الكريم إلى الطريق القويم في التفكير السليم، والنظر الصائب، بما يشحذ الذهن، ويبعث فيه حرية التفكير، ولذة التزود بالمعرفة، وجعل الحواس نوافذ يطل منها الإنسان على هذا العالم الفسيح، ليبصر حقائق الكون، ويعتبر بما فيه من دلائل قدرة الصانع ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ (البقرة: ١٦٤).

والشريعة الإسلامية بين شرائع الله كلها هي التي تحقق تلك النواحي الشاملة لجوانب الحياة البشرية. في الأشواق الروحية، والمطالب المادية، والرقي العقلي، في انسجام متكامل.

فالدعوة إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفات كماله تعتمد على النظر

العقلي والتفكير المنطقي ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النحل: ١٧).

والدعوة إلى العبادة للتهذيب النفسي والتربية الروحية تأتي مقرونة بالسعي في الأرض ابتغاء للرزق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩-١٠).

وطيبات الحياة التي أباحها الله تعالى لاستمتاع الإنسان تأتي كذلك مقرونة بالقربة إليه «وفي بضع أحدكم صدقة» «ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تضعها في في امرأتك».

والحد الفاصل في هذه الأمور كلها هو الاعتدال الذي تميزت به الأمة الوسط ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف: ٣١-٣٢).

وبهذا تميز الإسلام بأنه دين الحنيفية السمحة، وقال رسول الله ﷺ «بعثت بالحنيفية السمحة».

والشريعة الإسلامية هي مجموعة التكاليف التي شرعها الله تعالى وبينها رسول الله ﷺ لأمته والمراد بالتكليف خطاب الشرع بأمر أو نهي.

ويشترط في المكلف أن يكون ممكناً، لأن حصوله مطلوب الشرع، وكل ما كان مطلوب الحصول يجب أن يكون متصور الوقوع، وهذا معنى كونه ممكنا، لأن المحال لا يتصور وقوعه. وما لا يتصور وقوعه لا يستدعى حصوله. إذ إن استدعاء الحصول لا يكون إلا لفائدة. وحصول الفائدة مما لا يتصور وقوعه لا يعقل، وإذا ثبت أن المحال لا يستدعى حصوله فلا يكلف به لعدم فائدة التكليف، وهذه المسألة هي المعروفة بمسألة تكليف ما لا يطاق.

وبهذا ثبت في الأصول أن شرط التكليف القدرة على المكلف به. كما يدل على هذا نصوص الشريعة التي سنأتي على طرف منها فيما بعد. فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعاً.

ولم يخالف في هذا سوى قلة ممن لا يعتد بهم. واستدلوا على مذهبهم بأدلة تولى علماء الأصول ردها.

ويمكننا أن نوجز ما ذكره الغزالي في المستصفى من أدلتهم والرد عليها: استدلوا أولاً بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ والمحال لا يسأل دفعه.

وأجيب بأن المراد ما يشق ويثقل علينا، فإن من شق عليه التكليف بأعمال تكاد تفضي إلى هلاكه لشدتها يقال فيه حمل ما لا طاقة له به.

واستدلوا ثانياً بأن الله أخبر أن أبا جهل لا يصدق بالرسالة، وقد كلفه الإيمان، ومعناه أن يصدق محمداً فيما جاء به، ومما جاء به أنه لا يصدقه، فكأنه أمره أن يصدقه في ألا يصدقه، وهو محال.

وأجيب بأن أبا جهل أمر بالإيمان والتوحيد والرسالة، والأدلة على هذا كثيرة في شواهد الكون يدركها العقل وقد كان عاقلاً، فكان الإمكان حاصلاً، لكن الله تعالى علم أنه يترك ما يقدر عليه حسداً وعناداً، فالعلم يتبع المعلوم ولا يغيره، فيكون هذا من باب المستحيل لغيره لا لذاته.

واستدلوا ثالثاً بمثل قوله تعالى ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ وقوله ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

وأجيب بأن الأمر هنا للتعجيز لا للطلب، أو لإظهار القدرة كقوله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

وقد بين الشاطبي بناء على هذا أن ما تعلق به الطلب ظاهراً من الإنسان على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يكن داخلاً تحت كسبه قطعاً، وهذا قليل، كقوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وحكمه أن الطلب مصروف على ما تعلق به، وهو هنا استمرار الإسلام إلى الموت.

والثاني: ما كان داخلاً تحت كسبه قطعاً، وذلك جمهور الأفعال المكلف بها التي هي داخلة تحت كسبه، والطلب المتعلق بها على حقيقته في صحة التكليف

بها، سواء علينا أكانت مطلوبة لنفسها أم لغيرها.

والثالث: ما قد يشتبه أمره كالحب والبغض وما في معناهما، فحق الناظر فيها أن ينظر في حقائقها فحيث ثبتت له من القسمين حكم عليه بحكمه.

ثم أشار إلى أن هذه الأوصاف الفطرية في الإنسان يتبعها أفعال اكتسابية فالطلب وارد على تلك الأفعال. كقوله ﷺ «تهادوا تحابوا» وذلك كالنهي عن النظر إلى المرأة الأجنبية المثير للشهوة الداعية إلى ما لا يحل، وعين الشهوة لم ينه عنه.

وكذلك النهي عن الغضب، فإن الغضب وإن كان أمراً فطرياً إلا أن النهي عنه باعتبار لاحقه، فإنه يثير شهوة الانتقام، كما يثير النظر شهوة الجنس، كقوله ﷺ لمن قال له أوصني: «لا تغضب» مكرراً ذلك.

● **التكليف بما فيه مشقة**

وإذا كان شرط التكليف أن يقع المكلف به تحت مقدور المكلف لاستحالة التكليف بما لا يطاق. فهذا يدل على أن التكاليف الشرعية تقع تحت مقدوره، ولكنه لا ينفي التكليف بما فيه نوع مشقة، والتكليف في مدلوله يدل على هذا، فإنه يقال: تكلف الإنسان الشيء إذا فعله مع مشقة تناله في تعاطيه، وصارت الكلفة في التعارف اسما للمشقة. قال الراغب: ولذلك صار التكلف على ضربين: الأول محمود، وهو ما يتحراه الإنسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلاً عليه، ويصير كلفاً به. ومحباً له، وبهذا النظر يستعمل التكليف في تكلف العبادات. والثاني مذموم. وهو ما يتحراه الإنسان مراآة، وإياه عني بقوله تعالى ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (ص: ٨٦).

وإذا لم يكن هناك تلازم بين التكليف بالمشاق والتكليف بما لا يطاق، فقد ثبت في الشرائع الأولى التكليف بالمشاق، ولم يثبت فيها التكليف بما لا يطاق.

والمشقة في أصل اللغة من قولك: شق علي الشيء يشق شقاً ومشقة: إذا أتعبك، ومنه قوله تعالى ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ (النحل: ٧) والشق: هو الاسم من المشقة.

• رفع الحرج

وقد دلت النصوص على أن الله رفع عن الأمة الإسلامية التكاليف الشاقة التي فرضت على الأمم السابقة ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث بنيت الشريعة الإسلامية على اليسر وعدم الحرج، وشمل رفع الحرج شعب الحياة الإنسانية كلها، فإننا حين نستعرض النصوص الواردة في ذلك نجد أن الإسلام:

قد رفع الحرج عن حديث النفس وخواطر القلب.

ورفع الحرج في الدين عامة وفي العبادات خاصة.

ورفع الحرج في نواة المجتمع بحياة الأسرة.

ورفع الحرج بأسس الحياة الاجتماعية في التعامل بين الناس.

١- رفع الحرج عن حديث النفس وخواطر القلب:

للإنسان خواطره النفسية التي تجيش بصدره من حين لآخر، وهي ظاهرة يلمسها الإنسان بين جوانحه، ويحس نحوها بالبهجة والسرور أحياناً، وبالألم ووخز الضمير أخرى.

ولا شك أن هذه الخواطر النفسية ترتبط ببواعثها في الخير والشر، فهناك ما يبعث في النفس حوافز المعروف ويحركها نحوه، رغبة في الخير، واكتساباً للفضيلة، وطلبا للأجر، وهناك ما يبعث فيها دوافع المنكر، ويغريها بارتكابه ويزين لها ما فيه من شر بالصورة الحسنة الجميلة، وشهوة المتعة اللذيذة.

وإذا كانت الأسباب ترتبط بمسبباتها خيراً وشراً فإن النظر العقلي قد يقضي بالحساب على تلك البواعث النفسية التي تختلج في الصدور. وتعتمل فيها فترة من الزمن حتى تظهر آثارها في الوجود، ولئن خفيت هذه البواعث على الناس فإن رب الناس أعلم بها ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ (غافر: ١٩).

والتحكم في خواطر النفس يبدو أمراً بعيد النوال، وإن كان من الممكن أن يتحكم الإنسان في كثير من البواعث المؤدية إليها، فكان من فضل الله على هذه الأمة أن رفع الحرج عنها، فلم يؤاخذها على خواطر السوء التي تخطر بالنفس

وإن كان يعلم السر وأخفى.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه لما نزل قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ (البقرة: ٢٨٤) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله: كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابينمن قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما أقر بها القوم، وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ إلى آخر السورة.

وفي رواية لمسلم استجابة الله لدعائهم بزيادة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾. قال: قد فعلت: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال قد فعلت.

وبين رسول الله ﷺ تجاوز الله عن أمته في حديث النفس ما لم يتحول هذا الحديث إلى كلام أو عمل: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل».

وزادت منة الله على الأمة في التفرقة بين خواطر الخير وخواطر الشر. فالمرحلة النفسية التي تترجم إلى العمل: هي الخاطرة، والتردد، والهم أو الإرادة. ثم العزم. وحين رفع الله عن أمتنا المؤاخذة على خواطر النفس في هواجس الشر جعل الرجوع عنها حسنة يؤجر عليها العبد، بينما يثيبه على هذه الخواطر إذا كانت خيرة وإن لم تخرج إلى حيز العمل، ولا يجزيه على السيئة إلا بمثلها، ويجزيه على

الحسنة أضعافاً مضاعفة «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة».

٢- رفع الحرج في الدين عامة والعبادات خاصة

تدور كلمة «الدين» حول معان يأخذ بعضها بحجز بعض، فإنه يقال: دانه ديناً إذا ملكه وحكمه وساسه وحاسبه وجازاه وفي الحديث «الكيس من دان نفسه» أي حكمها وضبطها، والديان: الحكم القاضي.

ويقال: دان له: أي أطاعه وخضع له، فالدين: هو الخضوع والطاعة والعبادة. وهذا معنى ملازم للأول ومطاوع لها، يقال: دانه فدان له، أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع، ويتعدى الفعل بالباء فيقال: دان به أي اتخذه دينا ومذهباً، بمعنى اعتقده وتخلق به، وهو معنى تابع للأول. لأن العقيدة التي يدان بها تفرض سلطانها على صاحبها لينقاد لها ويلتزم اتباعها.

وأيا كان معنى الكلمة فإنها تدور حول لزوم الانقياد، وإن كان الدين بالفتح يتضمن الإلزام المالي، ويعرف بعض العلماء الدين بأنه وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات.

وتدل كلمة «العبادة» على الخضوع والتذلل والاستكانة، فالعبودية هي إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (يوسف: ٤٠).

وإذا كان من مستلزمات الدين والعبادة الخضوع والتذلل والانقياد والطاعة فإن هذه المعاني لا تحمل في مدلولاتها حقيقة القهر والإكراه، وإنما تعني حقيقة الاستجابة الفطرية المركوزة في طبيعة المخلوق نحو خالقه، باللجوء إليه، تضرعاً وتذللاً شعوراً بالحاجة، وتتضح حقيقة هذه الاستجابة في الانقياد لما جاء به رسل الله.

ونحن نطالع آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ فنرى ما يرفع عن النفس

توهمها مشقة الدين والقيام بما تعبدنا الله به.

يوجه الله سبحانه وتعالى نداءه للمؤمنين بالصلاة التي هي عماد الدين، بالنص على ركنيها الأساسيين في هيئتها وما يدلان عليه من تذلل وانكسار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ ثم يأمرهم بعد ذلك بما هو أشمل من الصلاة، بالعبادة التي تعني انقياد العبد لمعبوده في شؤون الحياة كلها على وجه القربة إليه. فإنَّ توجه القلب إلى الله بالعمل طلباً لمرضاته وفق شريعته يجعل السلوك الإنساني في شتى مظاهره عبادة ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

ثم يأتي الأمر بما هو خير في ذاته، وهذا يشمل ما كان صلة بين العبد وربه، وما كان صلة بينه وبين إخوانه ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ويرتب الله على هذه الأسباب في الاستقامة وحسن السلوك رجاء الفلاح والظفر ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وإذا أخذت الأمة الإسلامية نفسها بهذه الاستقامة فقد تهيأت للقيام بأعباء الدين والجهاد في سبيله إعلاء لكلمته وحماية لحوزته، وتلك هي الأمانة الكبيرة والتبعة الضخمة التي اختار الله لها هذه الأمة ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾.

وإذا كانت هذه التكاليف شاملة للدين كله، وختمت بذروة سنامه في الأمر بالجهاد الذي يوحي للنفس ببذل الجهد، فإن الله سبحانه وتعالى يقرن هذا بواسع رحمته. فإن الإسلام بتكاليفه وعباداته هو دين الفطرة الذي لا حرج فيه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ (الحج: ٧٧-٧٨) وأصل الحرج والحراج: مجتمع الشيء، وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج، وللإثم حرج.

ويبين رسول الله ﷺ سهولة هذا الدين. ويحذر من التعمق فيه ليأخذه المسلم برفق. فإن أحداً لا يبالغ في الأخذ به إلا انقطع به السبيل دونه، ولكنه القصد والاعتدال «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا».

ويتجاوز هذا التوجيه النبوي الأمر والإرشاد إلى السلوك العملي «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن آثماً».

(للحديث بقية)

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٢)

الرخص- الأسرة- المعَاملة

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

● الرخص

إن تكاليف الإسلام سهلة، ولكن الإنسان قد يعرض له في بعض الأحوال ما يجعل القيام بهذه التكاليف شاقاً عليه، وهنا تأتي مشروعية الرخص وهي أمر مقطوع به، ومما علم من دين الأمة ضرورة، كرخص القصر والفطر والجمع وتناول المحرمات في الاضطرار. وهذا يدل قطعاً على رفع الحرج والمشقة «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه».

لقد فرض الله الصيام على الأمم السابقة استعلاء للنفس على ضرورات الجسد كلها، وتربية للإرادة المؤمنة الحازمة التي تنفذ بمضاء وعزيمة لأداء رسالتها إيثاراً لما عند الله ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى: ١٧).

ولكن الصوم في الإسلام أيام معدودات. وليس فريضة العمر، ومع هذا فقد أعفي من أدائه المرضى حتى يصحوا، والمسافرون حتى يقيموا، تخفيفاً وتيسيراً ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقد علق الله تعالى هذه الرخصة بمطلق السفر ومطلق المرض، وإن كان الفقهاء- خشية أن يفرط الناس في الأخذ بهذه الرخصة لأدنى سبب - قد اشترطوا لذلك شروطاً وشددوا فيها، إلا أن الناس لا ينقادون إلى تقوى الله كراهية، والإسلام يربي الضمير الإنساني على الوعي الديني في العبادة حتى تكون خالصة لله، لا أن يفلت من أدائها تحت ستار الرخصة.

قال ابن تيمية: «ويجوز الفطر للمسافر باتفاق الأمة، سواء كان قادراً على الصيام، أو عاجزاً، وسواء شق عليه الصوم، أو لم يشق، بحيث لو كان مسافراً في الظل والماء، ومعه من يخدمه جاز له الفطر والقصر، ومن قال إن الفطر لا يجوز إلا لمن عجز عن الصيام فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وكذلك من أنكر على المفطر فإنه يستتاب من ذلك، ومن قال: إن المفطر عليه إثم فإنه يستتاب من ذلك، فإن هذه الأحوال خلاف كتاب الله، وخلاف سنة رسوله ﷺ، وخلاف إجماع الأمة.

وهكذا السنة للمسافر أن يصلي الرباعية ركعتين، والقصر أفضل له من التربيع عند الأئمة الأربعة، كمذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد والشافعي في أصح قوليه.

ولم تتنازع الأمة في جواز الفطر للمسافر، بل تنازعوا في جواز الصيام للمسافر، فذهب طائفة من السلف والخلف إلى أن الصائم في السفر كالمفطر في الحضر، وأنه إذا صام لم يجزه، بل عليه أن يقضي، ويروى هذا عن عبد الرحمن ابن عوف وأبي هريرة، وغيرهما من السلف، وهو مذهب أهل الظاهر، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس من البر الصوم في السفر».

ثم قال في مقدار السفر: وقال طائفة من السلف والخلف بل يقصر ويفطر في أقل من يومين، وهذا قول قوي- فإنه ثبت أن النبي ﷺ كان يصلي بعرفة ومزدلفة ومنى يقصر الصلاة، وخلفه أهل مكة وغيرهم يصلون بصلاته، ولم يأمر أحداً منهم بإتمام الصلاة.

وسئل عمن يكون مسافراً في رمضان ولم يصبه جوع ولا عطش ولا تعب، فما الأفضل له؟ الصيام أم الإفطار؟ فأجاب، أما المسافر فيفطر باتفاق المسلمين، وإن لم يكن عليه مشقة، والفطر له أفضل، وإن صام جاز عند أكثر العلماء ومنهم من يقول لا يجزئه.

ونحن نورد هنا حديث جابر رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ «كراع الغميم» فصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس، ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام،

فقال: أولئك العصاة، أولئك العصاة».

وعن أنس ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلا في يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء، ومنا من اتقى الشمس بيده، فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال النبي ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر».

في قصر الصلاة

وتأتي هذه الرخصة في قصر الصلاة بالسفر كما أشار ابن تيمية في كلامه الذي نقلناه آنفاً وقال تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (النساء: ١٠١) ويذكر بعض العلماء أن هذه الرخصة لا تقتصر على عدد الركعات، بل تشمل صفة الصلاة ذاتها، فالصلاة وما فيها من قيام وركوع وسجود قد تعوق المقاتل أو الضارب في الأرض، وهو في حاجة كذلك إلى صلته الدائمة بالله، فيراد بالقصر هنا كذلك القصر في صفة الصلاة ذاتها، كالقيام بلا حركة ولا ركوع ولا سجود ولا قعود للتشهد.

والقصر في السفر هو سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه الراشدين، ولم يصل رسول الله في السفر أربعاً قط. ولذا ذهب بعض العلماء إلى أن القصر واجب.

والمحققون على أن مسافة القصر ليس لها قدر محدود، وكان ﷺ يصلي في حجة الوداع بمنى وعرفة ركعتين، وخلفه أهل مكة وغيرهم ولم ينقل عنه أنه قال لهم هناك أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر. ولكن نقل أنه قال ذلك في غزوة الفتح لما صلى بهم داخل مكة، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، ثم زيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر» ولم يحد النبي ﷺ مسافة القصر بحد، لا زماني ولا مكاني، ولذا قال ابن تيمية: «إن المسافر يقصر الصلاة في كل سفر، ومن قصر السفر على طويل، وقصير، وخص بعض الأحكام بهذا وبعضها بهذا، وجعلها متعلقة بالسفر الطويل فليس معه حجة يجب الرجوع إليها».

والجمع بين الصلاتين

ويتبع رخصة القصر الجمع، وهو تخفيف على الأمة سواء كان السفر لحرب أو لغير حرب.

ونفى الجناح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ (النساء: ١٠١) لبيان الحكم وإزالة الشبهة. ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨) فإن نفي الجناح لأجل الشبهة التي عرضت لهم من الطواف بينهما في الجاهلية.

وذكر الخوف في الآية لأن القصر يتناول قصر العدد وقصر الأركان على نحو ما ذكرنا من قبل، فالخوف يبيح قصر الأركان والسفر يبيح قصر العدد، فإذا اجتمعا أبيح القصر بالوجهين.

وقد راعى كثير من العلماء روح الإسلام في رخصة الجمع، وما روي من أن النبي ﷺ جمع في غير سفر، فقالوا بجواز الجمع للمرض والحرج والشغل والمطر والوحل والريح الشديدة الباردة.

ومن باب اليسر في هذا كذلك ما ثبت من أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته في السفر قبل أي وجه توجهت به، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة.

وفي التيمم

ندع رخصة القصر والجمع في السفر فنجد رخصة التيمم لفاقد الماء حقيقة أو حكماً.

إن الطهارة شرط من شروط صحة الصلاة، والأصل فيها أن تكون بالماء. ولكن الإنسان قد يفقد الماء ويتعذر حصوله عليه، وقد يكون مريضاً يتأذى باستعماله، فيكفيه في مثل هذا أن يقصد صعيداً طيباً، فيضرب بكفيه، ثم ينفضهما، ثم يمسح بهما وجهه وكفيه.

وتدل آية التيمم على أن الله لا يريد أن يعنت الناس ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف، إنما يريد أن يطهرهم ويتم عليهم نعمته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ (المائدة: ٦)

فالطهارة الروحية هي المقصد الأسمى في العبادة وإن تبعتها الطهارة الحسية، وجانب التطهر الروحي أقوى من جانب التطهر البدني، وإن هدف الإسلام هو طهارة الظاهر والباطن. فحين يتعذر استخدام الماء يستعاض عنه بالتيمم الذي لا يحقق طهارة الجسد بنظافته، وإنما يحقق الجانب الأقوى في القصد إلى تطهير الروح ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(المائدة: ٦).

وبهذا المعنى تنكشف الغشاوة عن أعين أولئك الذين يرون في الاهتمام بنظافة الجسد كفاية لهم. أو يرون مشروعية التيمم متنافية مع القصد إلى النظافة. فإن القصد الأول إنما هو لتطهير الروح لا لتطهير البدن.

والتيمم من خصائص هذه الأمة، ففي الصحيحين: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل».

والفقهاء يذكرون رخصة التيمم عند العجز عن استعمال الماء لعدمه، أو لضرر في استعماله، من حرج أو برد شديد أو مرض يخشى زيادته، أو تطاوله واجب، ولهذه الأحوال كلها أدلتها المبسوطة في كتب الفقه.

٣- رفع الحرج في نواة المجتمع بحياة الأسرة

إن الأسرة هي نواة المجتمع، وفي مهدها تتربى الطفولة التي هي ذخيرة المستقبل، والرصيد الإنساني الممتد على طول الزمن، وفي جو الأسرة الذي يعبق بصلات الود والمرحمة تنمو المواهب الفطرية الأولى في حياة الطفولة.

والأسرة في الإسلام تولد في المجتمع لتبقى وتدوم حفاظاً على النوع الإنساني، واستمراراً لجهده الحضاري في الحياة.

والعلاقات القائمة بين الزوجين في الإسلام تتساوى فيها الحقوق والواجبات

بما يقطع دابر المنازعة والخصومة وهي العدل الإلهي الذي لا إجحاف فيه لواحد من الزوجين. قال تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (الطلاق: ٧) وقال عليه الصلاة والسلام «ولهن عليكم نفقتهن وكسوتهن بالمعروف» وقال لهند «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف».

وما دامت الأسرة وجدت لتبقى. حتى لو فسدت الحياة بين الزوجين وانفصمت عراها، فإن نظام الأسرة في الإسلام نظم تلك العلاقة التي بقيت بعد انفصام الزوجين بالطلاق، وهي علاقة النسل الذي ساهم كلاهما فيه.

فعلى الوالدة- وإن كانت مطلقة- أن ترضع طفلها حولين كاملين. وهي الفترة الطبيعية لنمو الطفل نمواً سليماً من الوجهة الصحية والوجهة النفسية، يتغذى من لبن أمه، ويستدفئ بعاطفتها، وعلى والد الطفل في مقابل هذا أن يرزقها ويكسوها بالمعروف. فكل منهما يقوم بواجبه بقدر طاقته ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

وليس انفصام الحياة الزوجية حداً فاصلاً لعلاقاتها، بل تظل هناك التزامات في النفقة والسكنى أو السكنى وحدها على التفصيل الفقهي لدى العلماء، وهذه الالتزامات في حدود المقدرة لدى الزوج ومستوى حياته، لا أقل ولا أكثر بلا مضارة أو تضييق، وخص ذوات الحمل بالنفقة، وإن طالت المدة إلى أن يضعن حملهن، ومن حقهن بعد ذلك إذا قمن بالرضاع أخذ الأجر لتستعين الأم به على حياتها، وعلى إدرار اللبن لصغيرها. وما الطفل سوى الثمرة المشتركة بين الأب والأم، وهو أمانة لديهما، يتشاوران في أمره بالمعروف، حتى لا تجني عليه نكبة فشلهما وهو الصغير البريء.

وتقدر هذه النفقة باليسر والعدل، لا يتعنت الرجل، ولا تتعنت المرأة، فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة، ومن ضيق عليه في الرزق فلا حرج عليه، فالله هو المعطي، ولن يكلف الله أحداً أن يعطي إلا في حدود ما أعطاه، وهو وحده القابض الباسط، ومنه يكون الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر ﴿أَسْكِنُوهُنَّ

مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق: ٦-٧).

٤- رفع الحرج بأسس الحياة الاجتماعية في التعامل بين الناس

الإسلام هو شريعة الله المتكاملة في العقيدة والعبادة والمعاملة، ومن عقيدته التي تقوم على توحيد الله وحده تنبثق شرائعه كلها، فهي القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط، في رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة، وفي رابطة العلاقات الاجتماعية والتعامل على اختلاف أنواعه، وتأتي هذه الشرائع في تناسق محكم في الوصايا المتتابعة بسورة الأنعام مبتدئة بالقاعدة الأولى في وحدانية الله وعدم الإشراك به، وتتلوها القيم الإسلامية الكبرى، إلى أن تأتي المعاوضات المالية بين الناس.

والمعاوضات المالية أساسها التجارة والبيع والشراء، وضابط ذلك الكيل والميزان، وقاعدة الإسلام في هذا تحري العدل والإنصاف. وذلك يوهم النفس بمشقة القيام به، فإن التبادل التجاري هو محور النشاط اليومي في حياة الفرد وحياة الأمة، وقلما تمر ساعة دون أن يتم هذا التبادل بين طرفين، ولكن الله تعالى يرفع الحرج في ذلك ما توفر القصد الحسن في أن تكون المعاوضات بالقسط ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾(الأنعام: ١٥٢).

وبهذا يكون الإسلام قد رفع الحرج عن شعب الحياة الإنسانية كلها.

ورفع الحرج عن حديث النفس وخواطر القلب.

ورفع الحرج في الدين عامة وفي العبادات خاصة.

ورفع الحرج في نواة المجتمع بحياة الأسرة.

ورفع الحرج بأسس الحياة الاجتماعية في التعامل بين الناس.

هذا وإن النصوص الواردة في رفع الحرج قد جاءت بصيغة العموم مع تأكيد

مدلولها، فالحرج جاء نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تعم، وأكد هذا بمن الزائدة التي تفيد التنصيص على العموم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨). ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة: ٦) وكذلك نفس المكلف جاءت نكرة في سياق النفي ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٣٣).

وقد أراد الله بذلك حكمة نتكلم عنها في عدد قادم إن شاء الله.

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٣)

العدد (٥٤) جمادى الثانية (١٣٨٩هـ) - أغسطس (١٩٦٩م).

• وجه رفع الحرج

قد أرجع الشاطبي رفع الحرج عن المكلف إلى وجهين:

أحدهما: الخوف من الانقطاع عن الطريق، وبغض العبادة وكراهة التكليف.

والثاني: خوف التقصير عن مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع.

أما الوجه الأول: فإن الإسلام هو شريعة الله السمحة التي يسرها لعباده وزينها لقلوبهم وحببها إليهم، ليقبلوا عليها بصدق وإخلاص. والنفس بطبيعتها تميل إلى السهولة واليسر والاستجابة إلى الحنفية استجابة فطرية ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ (الحجرات: ٧)

ولو تركت النفس لهواها وجاء الحق تبعاً لما تختار لأدى ذلك إلى العنت والحرج ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ (المؤمنون: ٧١).

ولهذا نهى النبي ﷺ عن التشديد في العبادة والتعمق في الدين، وقال: «هلك المتنطعون»، «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا وكأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء

فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وأمر نبي الأمة أن يأتي الناس من صالح العمل ما يطيقون، فإن الله لا ينقطع عن ثوب عباده حتى ينقطعوا عن عبادته، وليس في مقدورهم أن يصلوا في عبادتهم إلى الغاية «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا».

ولا شك أن ترك الرخص يؤدي إلى الانقطاع عن الاستباق إلى الخير، كما يؤدي إلى السآمة والملل. والنفير من العبادة، وكراهية العمل، وترك الدوام عليه، ودخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا هذا حبل لزينب فإذا أفترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ «حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا أفتر فليرقد».

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إني والله لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا فيها فقال: «ما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضباً في موعظة منه يومئذ، ثم قال: أيها الناس، إن منكم منفرين فمن أَمَّ بالناس فليتجوز فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة».

ونهى رسول الله ﷺ عن الوصال، فلما أبوا أن ينتهوا واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال فقال: «لو تأخر لزدتكم كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا» وبين في حديث آخر سماحة الدين وما يورثه التعمق فيه من كراهية للعبادة، وضرب مثلاً لانقطاع المتعمق دون غايته «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» وفي حديث قيام رمضان قال لهم: أما بعد: فإنه لم يخف علي شأنكم، ولكن خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها.

أما الوجه الثاني: الذي يرجع إليه رفع الحرج عن المكلف، وهو خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع؛ فإن الإسلام هو دين الحياة، وللحياة متطلباتها المشروعة في الكسب والاستمتاع بما أحل الله، ولكل مطلب من مطالب الحياة المشروعة حقه على العبد وإعطاء بعضها من العناية ما يفضي إلى التقصير في جانب الآخر لا يتفق مع روح القصد والاعتدال

في الإسلام. يقول الشاطبي «إن المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية لابد له منها. ولا محيص له عنها، يقوم فيها بحق ربه تعالى. فإذا أوغل في عمل شاق فربما قطعه عن غيره، ولاسيما حقوق الغير التي تتعلق به، فيكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعاً عما كلفه الله به. فيقصر فيه، فيكون بذلك ملوماً غير معذور. إذ المراد منه القيام بجمعها على وجه لا يخل بواحدة منها ولا بحال من أحواله فيها».

ونحن حين نطالع نصوص الشريعة الإسلامية نجد هذا واضحاً جلياً في كثير من المواضيع.

ففي حديث معاذ مثلاً نرى أن الشاكي رجل أقبل ببعيرين يستقي عليهما، وقد دخل الليل بعد أن أعناه طول العمل بالنهار اقتياتا لنفسه وعياله وأصبح في حاجة إلى أن يريح جسمه، فإذا بمعاذ يطيل عليه في الصلاة مما ألجأ الرجل إلى الانطلاق والتقدم بشكواه إلى رسول الله، عن جابر قال: أقبل رجل بناضحين، وقد جنح الليل فوافق معاذا يصلي، فترك ناضحيه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل وبلغه أن معاذا نال منه، فأتى النبي ﷺ «فشكى إليه معاذاً، فقال النبي ﷺ: «يا معاذ، أفتان أنت؟، أو أفاتن ثلاث مرات فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة».

وآخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. فقال له: نم فنام، ثم ذهب ليقوم فقال له: نم فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن.. فصلياً جميعاً، فقال له سلمان. إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان».

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص نحو هذا. فإن رسول الله ﷺ قال

له: صم وأفطر ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ يراعي الفطرة البشرية في معاملة أصحابه ويتلطف في سلوكه معهم بما يحقق الرغبات المشروعة في هذه الفطرة.

ولو كان هذا في صلاته وروي عنه أنه قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه».

وعند اختلاف الحظوظ فالإسلام يجمع بينها أو يرجح بعضها على بعض فإن الإفراط في بعض العبادات قد يعجز المكلف عن القيام بما هو أهم منها. والحظوظ متفاوتة، والشريعة الإسلامية تنظر إليها بعين العدل. ليأخذ المسلم منها ما لا يخل بواجب ويترك منها ما لا يؤدي تركه إلى محظور وإذا تزاحمت الأعمال وقع الترجيح بينها، فإذا تعين الراجح ارتكب وترك ما عداه، حكي عن عياض عن ابن وهب أنه آلى ألا يصوم يوم عرفة بالموقف أبداً، لأنه كان في الموقف يوماً صائماً وكان شديد الحر، فاشتد عليه قال: فكان الناس ينتظرون الرحمة وأنا أنتظر الإفطار، وفي الحديث «إنكم قد استقبلتم عدوكم والفطر أقوى لكم».

● ما جاء في الشرع مما يكون سبباً في المشقة

قد يكون فيما تضمنته الشريعة من مأمورات ومنهيات ما يكون سبباً لأمر شاق على المكلف، ولكن الشارع لا يقصد بهذا إدخال المشقة عليه، وإنما يكون قصده جلب مصلحة أو درء مفسدة. وذلك هو ما يقتضيه النظر العقلي والمنطق السليم. يصاب المرء بمرض يؤرقه ويقض مضجعه في جسمه أو في طرف من أطرافه فإذا رأى الطبيب أن سلامة صحته في دواء مر. أو أجراء جراحة. أو قطع عضو لم ير عاقل بأسا في شرب الدواء أو تعاطي الجراحة أو قطع العضو، مع ما في ذلك من إيلام تحقيقاً لمصلحة ناجحة في حفظ النفس، والإيلام ليس مقصوداً في العلاج، وإنما المقصود طلب الاستشفاء والأمل في العافية.

فالعقوبات المشروعة في الإسلام لارتكاب الجرائم كالقصاص والحدود تبدو فيها القسوة والمشقة ولكنها تزجر الفاعل وتكفه عن المعاودة. وتكون عظة لغيره أن يقع في مثل ما وقع فيه، وليست الصحة النفسية في حياة الفرد والصحة الجماعية في حياة الأمة بأقل شأناً من صحة البدن.

وفي شريعة الإسلام تهذيب للنفس وتربية لها على المثل العليا، بمخالفة هواها حتى يكون المكلف عبداً خالصاً لله، يدين له بالطاعة، ويتحرر من أهوائه وشهوات نفسه وليس مخالفة الهوى من المشاق المعتبرة في التكليف وإن كانت شاقة فيما جرت عليه العادة. إلا أنها تصل العبد بربه، والقصد الأول فيها هو تحقيق معنى العبودية لله ابتغاء مرضاته، وطلباً لثوابه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية : ٢٣)، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ (محمد: ١٤).

وفي الجهاد في سبيل الله مشقة وإن لم تكن خارجة عن المعتاد ولكنه يحقق غاية سامية في إعلاء كلمة الله، وإحقاق الحق والذود عن حياض الدين وحماية حوزة الفضيلة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦) فالقتال في سبيل الله فريضة في تحمل معنى المشقة، ولكنها واجبة الأداء لما فيها من خير كثير للفرد المسلم وللجماعة المسلمة وللبشرية كلها ولا ينكر الإسلام - وهو دين الفطرة- على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهية القتال، ولكنه يقرر من جانب آخر أن القتال وإن كان مر المذاق فإن وراءه حكمة تسيغ مرارته، وتهون مشقته، فلعل وراء المكروه خيراً، ووراء المحبوب شراً والله وحده هو الذي يعلم عواقب الأمور وغاياتها البعيدة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦) فقد تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمراً ويكون فيه الخير كل الخير، وقد تحب أمراً وتتهالك عليه وفيه الشر كل الشر، ولذا كان الثبات على محنة العقيدة التي تزلزل القلوب بأهوالها ضريبة الإيمان الصادق

وباب النصر المحقق في حياة الأنبياء والمرسلين ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ (البقرة: ٢١٤)

ومن هذا القبيل - وإن لم يدخل في التكليف - ما يلحق الإنسان من مصائب بلاء ومحنة «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن خطاياه».

وبعد:

فتلك هي الملامح الواضحة في الشريعة الإسلامية ببعض جوانبها حتى يرتفع الوهم الخاطئ في مشقة تكاليفها وثقل العبء في القيام بها.

إنها شريعة الفطرة التي تراعي جوانب الحياة الإنسانية وتلبي مطالبها العادلة وتستعلي بها على سفاسف الأمور.

إنها شريعة أخلاقية لا تكبل الناس بقيود تكاليفها ولكنها تخلصهم من أغلال عبودية الهوى والشهوة استعلاء للإرادة الإنسانية كي تختار مواضع هذه الشهوات في حدودها النظيفة التي وفرها الإسلام. وفي دائرة الطيبات التي أحلها الله.

وإذا استقامت النفس البشرية مع فطرتها ووجدت في شريعة ربها ما يلبي حاجاتها فإنها تبذل طاقاتها في يسر وسهولة، وتشق طريقها إلى المجد راضية مطمئنة واثقة بالغاية وإن طال بها الطريق.

والبشرية اليوم تعاني ما تعانيه من اعتساف المناهج الجاهلية وأصحابها وهي ترى في أفق التاريخ منهجاً إنسانياً واقعياً فريداً هو منهج الإسلام الذي خلصها بتجربته في الصدر الأول من شقوة الحياة. وقادها إلى بواعث الخير الفطرية وغايتها السامقة في يسر وسهولة، ولا سبيل لخلاصها اليوم من شقوتها إلا به وبيدنا نحن المسلمين هذا المنهج برصيده التشريعي وتراثه التاريخي، والوعي الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها يتطلع إلى محاولة تطبيق هذا المنهج من جديد حتى تعود البشرية إلى الحق والعدل والسلام. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء، والله من وراء القصد.

الطريق إلى الله

العدد (٥٦) شعبان (١٣٨٩هـ) - أكتوبر (١٩٦٩م).

يطيب لكثير من الناس أن يشعروا بالطاقة الفكرية التي يستمتعون بها.

وأن يستخدموا هذه الطاقة في إدراك الحقائق، لا سيما والبحث العقلي قد أصبح من سمات العلم الحديث ما استند إلى المشاهدة والاستقراء، وما علم هؤلاء أن هذا النهج هو وليد الفطرة، وأنه السبيل الذي أرشد به الخالق عباده إلى الاهتداء إليه والإيمان بوحدانيته.

● الحكم العقلي

يقسم العلماء الحكم إلى ثلاثة أقسام: عقلي وشرعي وعادي، والذي يعنينا من ذلك هو الحكم العقلي، وهو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بناء على تفكير دون توقف على شرع ولا تجربة أو تكرار.

وهذا الحكم منه الواجب والمستحيل والجائز.

فالواجب: هو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء لذاته، وذلك كثبوت العلم والقدرة والمحبة والرضا ونحوها من الكمالات لله، فإنها صفات ثابتة له تعالى لا تقبل الانتفاء.

والمستحيل: هو المنفي الذي لا يقبل الثبوت كشريك الباري، والجمع بين النقيضين ورفعهما، والجمع بين الضدين، فإنه يستحيل عقلاً أن يكون الشيء موجوداً ومعدوماً، أو أنه ينتفي عنه الوجود والعدم، كما يستحيل أن يكون أبيض وأسود في وقت واحد.

والجائز: ويقال له الممكن هو ما يقبل الوجود والعدم، كالمخلوقات التي نشاهدها، فإنها كانت معدومة فقبلت الوجود، ثم بعد وجودها تقبل العدم.

ومعنى كون الوجوب والاستحالة والجواز حكماً عقلياً أنها لازمة لما حكم له بها لا تقبل التخلف عنه ولا الانفكاك وإن جاءت بها نصوص الشرع، وليس المراد أنه لا علاقة للشرع بها، فإن نصوص الشرع قد جاءت بأصول الدين، وكشفت للعقل عما خفي عليه وقصر عن إدراكه من تفاصيل عقائد التوحيد وسلكت به طريق الحق، وهدته إلى سواء السبيل، ولولا ما جاء فيها من البيان لارتكس العقل في حمأة الضلالة، وقام للناس العذر، وسقط عنهم التكليف، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥) وقال ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النسا: ١٦٥).

● **إمكان العالم وحاجته إلى موجد**

كل ما شاهدناه في ماضينا من الكائنات وما نشاهد في حاضرنا ممكن. وضرورة أنا نراه يتحول من عدم إلى وجود، ومن وجود إلى عدم. ولو كان واجباً لما سبق وجوده عدم ولا لحقه فناء، ولو كان مستحيلاً لما قبل الوجود، وقد شاهدناه موجوداً، فثبت أنه ممكن.

وإذا كان العالم ممكنا وجب أن يستند في نشأته على من يكسبه الوجود، ويرجع في تصرفاته وتقلباته إلى من يتولاه ويحفظ عليه وجوده في كل أطواره، وهذا مما شهدت به الفطرة، وجبلت عليه النفوس، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠) وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

كما دل على ذلك العقل، فإن نسبة الممكن إلى طرفيه: الوجود والعدم: على السواء، فلو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح. وهو باطل، ولو أوجد نفسه لزم مع ذلك أن يكون متقدماً على نفسه باعتباره خالقاً لها، متأخراً عنها باعتباره مخلوقاً لها. وتقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها محال بالضرورة، لما فيه من التناقض الواضح، فثبت أن

الممكن لا بد له من موجد غير ذاته وحقيقته، يوجده ويدبر شؤونه في كل أحواله، وهذا هو الله سبحانه وتعالى.

وقد أرشدنا الله إلى ذلك في كثير من آيات القرآن، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الطور: ٣٥) فأنكر سبحانه أن يكونوا خلقوا بلا خالق، وأن يكونوا خلقوا أنفسهم، وبذلك تتفق الفطرة والعقل والسمع على حاجة العالم إلى صانع، واستناده إلى موجد.

إثبات وجوب الوجود لله تعالى

وإذا ثبت أن الله هو الذي أوجد العالم، فإن وجوده يختلف عن وجود الممكن، لأن لفظ الوجود بمعناه المطلق يشترك فيه الممكن والواجب، أي الحادث والقديم الأزلي، فالله يوصف بأنه موجود، والحادث من المخلوقات يقال له أيضاً موجود، إلا أن الممكن له وجود يخصه، فإنه حادث سبق وجوده عدم، ويلحقه الفناء، وهو في حاجة دائمة ابتداء ودواماً إلى من يكسبه الوجود ويحفظه عليه كما سبق.

ولله وجود يخصه، فهو سبحانه واجب الوجود لم يسبق وجوده عدم، ولا يلحقه فناء، ووجوده من ذاته لم يكسبه من غيره، إذ هو الغني عن كل ما سواه.

وبذلك جاء السمع وشهد العقل.

أما السمع فمنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣) وأما العقل، فلأنه لو كان مستحيلاً لم يصح أن يستند إليه الممكن في حدوثه بداهة، لأن المستحيل ما لا يتصور في العقل وجوده، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ولو كان ممكنا لافتقر في حدوثه إلى من يرجح وجوده على عدمه لما تقدم، فإن استمرت الحاجة فاستند كل في وجوده إلى نظير له من الممكنات، لزم إما الدور وإما التسلسل في المؤثرات، وكلاهما محال، وإذا انتفى عليه الإمكان والاستحالة ثبت له الوجوب، ضرورة أن أقسام الحكم العقلي ثلاثة، وقد انتفى اثنان، فتعين الثالث، وهو الوجوب، فالله واجب الوجود.

ولا يزعم أحد بعد ذلك أن وجود العالم كان وليد الصدفة بالاتفاق، أو أن

أطواره نشأت عن تفاعل بين عناصر المادة. فتفرقت إلى وحدات بعد اجتماع، أو اجتمعت وائتلفت بعد تفرق واختلاف، وصار لتلك الوحدات أو المركبات من الخواص ما لم يكن قبل هذا التفاعل، وبذلك تجددت الظواهر، وحدث ما يشاهد من تغير وآثار، مع جريانها على سنة لا تتبدل، وناموس لا يختلف ولا يتغير.

فإن انتحل أحد هذا الزعم قيل له: من الذي أودع تلك المادة طبيعتها؟ وأكسبها خواصها؟ فإنها إن كانت لها من ذاتها ومقتضى حقيقتها لم تقبل التغيير والزوال لأن ما بالذات لا يتخلف ولا يزول، وقد رأيناها تتبدل وتزول. فلا بد لها من واهب يهبها ذلك، وفاعل مختار عليم حكيم يدبرها، ويضعها في محالها، وليس ذلك المادة وحدها، ولا خواصها أو طبيعتها القائمة بها، فإنها ليس لها من سعة العلم وكمال الحكمة وشمول المشيئة، وعظيم القدرة ما ينتظم معه الكون على ما نشاهد من أحكام يبهر العقول دقة وجمالاً، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب.

فلم يبق إلا أن يكون الله تعالى هو الذي خلق هذه الكائنات في إحكامها الدقيق ﴿۞ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ (الملك: ١-٥).

وحدانية الخالق

وقد قامت الدلائل العقلية والسمعية على وحدانية الخالق في ربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، وفي ألوهيته.

فهو خالق كل شيء ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله في التصريف والتدبير، وقد أقرت بهذا فطرة الناس، ولم يعرف عن طائفة بعينها أنها قالت بوجود خالقين متكافئين في الصفات والأفعال، وإنما حكي عنهم نسبة بعض الأمور إلى ما

زعموهم آلهة لها شيء من النفع والضر، فقربوا إليها القرابين، وبيَّن الله سبحانه وتعالى بطلان ذلك، وأنكر على من زعمه، فقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (المؤمنون: ٩١-٩٢) فبين سبحانه أنه لو كان معه إله يشركه في استحقاق العبادة لكان له خلق وملك وقهر وتدبير، إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذلك حتى يرجى خيره ويخشى بأسه، ولو كان له خلق وتدبير وملك وتقدير لعلا على شريكه وقهره إن قوي على ذلك ليكون له الأمر وحده، ولذهب بخلقه، وتفرد بملكه دون شريكه، حتى يكون لديه من القوة والجبروت ما يفرض به سلطانه على الجميع، فإن من صفات الرب كمال العلو والكبرياء والقهر والجبروت.

وقد استخلص العلماء من ذلك دليلاً سموه دليل التمانع، فقالوا: لو أمكن أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمره لأمكن أن يختلفا بأن يريد أحدهما وجود شيء ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شيء ويريد الآخر سكونه، وعند ذلك إما أن يحصل مراد كل منهما وهو محال لما يلزمه من اجتماع الضدين، وإما ألا يحصل مراد كل منهما وهو محال لما يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر، فيكون الذي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون رباً.

وهذا الخالق الواحد هو الإله الحق الذي يفرد بالعبادة، قولاً وقصداً وفعلاً، فلا ينذر إلا له، ولا نقرب القرابين إلا إليه، ولا يدعى في السراء والضراء سواه، وبهذا أرسل، وجاءت الكتب، ورفع علم الجهاد لتوحيد الله.

وإذا ثبت فيما سبق توحيد الله تعالى في ربوبيته خلقاً وتدبيراً، فإن هذا هو الطريق الفطري لتوحيده في ألوهيته عبادة وقصداً، وبهذا احتج الله على المشركين ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المؤمنون: ٨٤ -٨٩).

ومنهج القرآن في ذلك مخاطبة الفطرة البشرية لإلزامها بالحجة العقلية التي تدل دلالة صريحة على توحيد الله ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل: ٦٤).

وبهذا التوحيد يستقيم أمر الحياة الإنسانية على الجادة، وتهتدي في شؤونها إلى سواء السبيل.

لقد ازدهرت الحركة العلمية في ديار الغرب بالعصر الحديث، وأينعت وأثمرت، واستطاعت أن تصل إلى بحوث عجيبة في جوف الأرض، وفي أجواء الفضاء، ووصلت الفنون والمبتكرات إلى ما حقق للإنسان الرفاهية والمتعة، ولا تزال هذه الحركة العلمية في تطور دائم، تأتي كل يوم بجديد، وتلد كل عجيب.

ولكن هذا العالم الحضاري المتقدم قد أظل الدنيا بوجوم رهيب، وسحابة كئيبة، حيث أقفرت النفس البشرية من كنزها الأصيل، ورصيدها الهائل، من القيم الإنسانية والمثل العليا، وما عمرته يد الإنسان باسم المدنية يوشك أن تخربه يد الإنسان باسم العلم.

والإيمان بالله وما يستتبعه هو سبيل النجاة من تلك المهالك. وهو الذي يحقق للإنسانية سعادتها، فإلى هذا الإيمان نوجه دعوتنا، وعلى طريقه تسير القافلة التي تقود الإنسانية إلى الخير والبر والرشاد.

* * *

نشأة الفقه الإسلامي (١) وأصول مذاهبه

العدد (٦٨) شعبان (١٣٩٠هـ) - أكتوبر (١٩٧٠م).

الحديث عن الفقه الإسلامي حديث عذب شائق، تتعدد جوانبه، وتشرق ملامحه في كل مبحث في مباحثه، ولطالما استشرفت النفوس المؤمنة في أنحاء العالم الإسلامي إلى مراجعة رصيدها الضخم، وذخيرتها الهائلة في التشريع الإسلامي، وفقه أئمته، حتى تبصر سبيل مجدها، وتدرك طريق سعادتها، وتعمل جادة على استئناف الحياة الإسلامية الفاضلة في كل ميدان من ميادين الحياة.

والفقه الإسلامي هو المعين الذي يمد الإنسانية بالمنهج السديد في كل شأن من شؤونها، حتى يستقيم أمرها على الجادة، وتشق طريقها على هدى من ربها، فحري بأبناء الإسلام أن يعو هذه الحقيقة، وبيدهم هذا الخير المتوارث الذي سعدت به البشرية قرونا عديدة، وهي اليوم - وقد كابدت ألوان الشقاء من جراء انحرافاتها عن الإسلام - أشد ما تكون تعطشاً إلى سبيل الخلاص، في فقه الإسلام ومبادئ الشريعة.

● **معنى الفقه**

والفقه في اللغة بمعنى الفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤) وقوله: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩١) وفي الاصطلاح: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية.

والفقه بمعناه العام واكب الحياة الإسلامية منذ بزغ فجر الإسلام، حيث كان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ، ويتلقاه عنه صحابته ولهم من سلامة الذوق العربي ما يمكنهم من فهم القرآن الكريم، والعمل بمقتضاه، ولم يكن لديهم حاجة

إلى الاجتهاد في استنباط حكم إلا حيث لا يجدون نصاً من كتاب أو سنة، وقد أقر رسول الله معاذاً على ذلك حين بعثه إلى اليمن فقال له: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله، قال فإن لم يكن في كتاب الله، قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله، قال: أجتهد رأيي، لا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ».

وقد نقل أهل العلم هذا الحديث، واحتجوا به على جواز اجتهاد الصحابة في حياة رسول الله ﷺ فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، ووردت حوادث تدل على أنهم كانوا يجتهدون في زمن النبي ﷺ في كثير من الأحكام ولم يعنفهم.

١- قال لهم رسول الله يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فاجتهد بعضهم وصلاها في الطريق حين أدركتهم الصلاة، وقال: لم يرد منا التأخير، وإنما أراد سرعة النهوض، وتعجيل المسير - فنظروا إلى المعنى - واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة، فصلوها ليلاً، - ونظروا إلى اللفظ - قال ابن القيم تعليقاً على هذا: وهؤلاء سلف أهل الظاهر، وأولئك سلف أصحاب المعاني والقياس.

٢- ولما كان علي رضي الله عنه باليمن أتاه ثلاثة نفر يختصمون في غلام، فقال كل منهم هو ابني، فأقرع علي بينهم، فجعل الولد للذي خرجت له القرعة، وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء علي رضي الله عنه.

٣- ومسألة الزبية مشهورة عن علي كذلك، روي أن قوماً من أهل اليمن حفروا زبية للأسد، فاجتمع الناس على رأسها، فهوى فيها واحد، فجذب ثانياً، فجذب الثاني ثالثاً، ثم جذب الثالث رابعاً، فقتلهم الأسد، فرفع ذلك إلى علي رضي الله عنه فقال: للأول ربع الدية لأنه هلك فوقه ثلاثة، وللثاني ثلث الدية لأنه هلك فوقه اثنان، وللثالث نصف الدية لأنه هلك فوقه واحد، وللرابع كمال الدية، وقال فإني أجعل الدية على من حضر رأس البئر، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فقال: هو كما قال.

٤- واجتهد سعد بن معاذ في بني قريظة، وحكم فيهم باجتهاده، أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فصوبه النبي ﷺ وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات».

٥- وخرج رجلان من الصحابة في سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمما صعيداً طيباً ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد، أصبت السنة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضأ وأعاد، لك الأجر مرتين، أي أنه صوبهما في اجتهادهما.

٦- وعن عمار قال: «أجنبت فلم أصب الماء، فتمعكت الصعيد، وصليت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنما يكفيك هذا» وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه، إلى غير ذلك من الحوادث.

فهذه ونظائرها نماذج لفقه الصحابة في عهد رسول الله ﷺ، عند غيبتهم عنه، حيث لا يجدون نصاً من كتاب أو سنة. وقد وجدوا في ذلك مندوحة، لأن يجتهدوا على ضوء ما عرفوه من شريعة ربهم، وهدي نبيهم.

الفتوحات الإسلامية ومقتضياتها

أخذ الفتح الإسلامي يبسط نفوذه في عهد الخلفاء الراشدين على الأقطار المجاورة للجزيرة العربية، ودخل تحت لواء الإسلام من أصحاب الحضارات القديمة ناس من الفرس والروم، لهم من العقائد والتقاليد والأنظمة ما يتنافى كله أو جله مع العقيدة الإسلامية وشريعتها الغراء، وطبيعة هذا الفتح تستوجب ثقل المسؤولية وعظيم التبعة على المسلمين الفاتحين، وتستدعي من الخلفاء أن يواجهوا هذا بتنظيم الجيوش وإمدادها، وتولية الولاة على البلاد المفتوحة، وإدارة شئونها.

أهم القضايا التي اتفق عليها الصحابة

١- كانت القضية الأولى التي واجهها الصحابة إثر وفاة الرسول ﷺ قضية الخلافة، حيث اختلفوا فيمن يخلف النبي ﷺ في سياستهم وتدبير شؤونهم، أما

الأنصار فظنوا أن الأمر ينبغي أن يكون فيهم، لأنهم آووا النبي ﷺ والذين هاجروا، وخاضوا المعارك في سبيل الله، فاجتمعوا بالفعل، وأزمعوا أن يبايعوا رجلاً منهم بالخلافة. ورشحوا سعد بن عبادة زعيم الخزرج، ولكن الأمر انتهى إلى زعماء المهاجرين، فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إلى الأنصار، ودار بينهم شيء من الجدال، وخطب فيهم أبو بكر، وقال لهم: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وأقنعهم بالأمر حتى سمحت نفوسهم، ثم أسرع عمر إلى بيعة أبي بكر فتبعه الأنصار، وبايع بعد ذلك سائر المسلمين.

٢- وكانت القضية الثانية التي واجهها الصحابة هي امتناع جماعة من العرب عن أداء الزكاة، فعزم أبو بكر أمره على قتالهم، ولم يكن من رأي عمر بادئ الأمر قتال هؤلاء لأنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فظل أبو بكر يراجعه حتى شرح الله صدره للقتال، واتفق الصحابة عليه.

٣- ومن القضايا التي اتفقوا عليها كذلك جمع القرآن، فقد توفي رسول الله ﷺ ولم يكن القرآن قد جمع في مصحف واحد، وليس هناك في كتاب أو سنة ما يدل على جمعه، ولكن عمر رأى ضرورة ذلك بعد موقعة اليمامة، وظل يراجع أبا بكر حتى اقتنع بذلك، وصار هذا إجماعا من الصحابة.

٤- وشاور عمر في تدوين الدواوين، وكان قد اتبع رأي أبي بكر في التسوية بين الناس في الأعطية، فلما جاء فتح العراق رأى التفضيل فيما بينهم بقدر بلاء الرجل وجهاده، واستشار في ذلك، وانتهى الأمر إلى قول عمر: «ما من أحد إلا له في هذا المال، وما أنا فيه إلا كأحدكم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ﷺ، والرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته».

أهم القضايا التي اختلفوا فيها

١- تدخل الأرض في البلاد المفتوحة عنوة في عموم الغنيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١) ومقتضى هذا أن تقسم الأرض

المغنومة قسم الغنائم، فيكون أربعة أخماسها للغزاة، والخمس للمصالح العامة المذكورة في الآية، ولما فتحت الفتوحات في زمن عمر سأله الصحابة قسمة الأرض التي فتحت عنوة بين الغانمين، ولكن عمر رأى أن مستقبل المسلمين في هذه البلاد وما تحتاجه من نفقات في إدارتها وتنظيم شؤونها وتحقيق مصالح الناس فيها يستدعي التفكير في إبقاء هذه الأرض دون أن تقسم، حتى يبقى لمن يجيء بعد الغانمين شيء، وذلك بوقفها على مصالح المسلمين، لهذا رأى عمر ترك الأرض لأهلها، على أن يوضع عليهم ما يحتملون من خراج تكون منه أعطيات المسلمين، وما يحتاجون إليه من نفقات للجند والقضاة والعمال وسد حاجة المعوزين من اليتامى والمساكين، ووافق عمر على رأيه جماعة من الصحابة، منهم عثمان وعلي ومعاذ بن جبل، وطلحة، وخالفه آخرون، منهم: عبد الرحمن بن عوف، وعمار بن ياسر، ورأوا أن تقسم الأرض، ويقسم أربعة أخماسها على الغزاة، والخمس لمن ذكروا في كتاب الله تمسكاً بآية الغنيمة.

وقد حاول بعض الفقهاء تبرير فعل عمر كما رواه أبو يوسف في الخراج، وذلك لقول الله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ (الحشر: ٨) إلى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ﴾ (الحشر: ١٠) ونقل عن عمر أنه قال في هذه الآية: فكيف أقسم لكم وأدع من يأتي بغير قسم، فأجمع على تركه، وجمع بين خراجه وإقراره في أيدي أهله، ووضع الخراج على أيديهم والجزية على رؤوسهم.

٢- حد الخمر: كان الأمر قبل خلافة عمر في عقوبة شارب الخمر على الضرب بالأيدي والنعال وأطراف الثياب دون حد مقدر، حيث لم يفرض الرسول ﷺ في الخمر حداً، ولم يسن سنة، فلما جاء عمر استشار الناس بعد أن كثر شرب الخمر، فقال عبد الرحمن بن عوف أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر.

٣- الطلاق الثلاث: وأمضى عمر بن الخطاب الطلاق الثلاث على خلاف ما كان الأمر قبله «فعن طاوس عن ابن عباس أنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن

الخطاب، إن الناس قد استعجلوا أمراً كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم».

٤- صلاة التراويح: ومما ينسب إلى عمر جمع الناس على صلاة التراويح في رمضان، وقد جاء قيام رمضان عن النبي ﷺ، وصلى رسول الله ﷺ بصحابته جماعة، ثم ترك ذلك مخافة أن تجب عليهم، وقد صلاها الناس فرادى في زمن الرسول ﷺ وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر، فخرج عمر ليلة فرأى الناس أوزاعاً يصلون في المسجد فقال: لو جمعتهم على إمام؟ فأمر أبي بن كعب فصلى بهم، ثم خرج ليلة أخرى فرآهم مجتمعين على أبي بن كعب فصلى بهم، كما ينسب إليه زيادة النفل في رمضان أو غيره على إحدى عشرة ركعة إلى عشرين ركعة أو أكثر، وهذا أمر لم يتم الاتفاق عليه.

٥- المعهود في حقوق العبد، التنصيف، واختلفوا في الطلاق عند اختلاف الزوجين في الحرية والرق، فأفتى عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت بأن الحرة تكون زوجة للعبد تحرم الحرمة المؤبدة بطلقتين، واعتبروا الطلاق بالزوج لأنه الموقع للطلاق، وهو الذي بيده عصمة النكاح، وخالفهما علي، فقال لا تحرم إلا بثلاث طلقات، أما الأمة تكون زوجة للحر فتحرم بطلقتين، فاعتبر الطلاق بالزوجة لأنها هي التي وقع عليها الطلاق.

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ (الطلاق: ٤) وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾ (البقرة: ٢٣٤) فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: ذكر الله في المطلقات أن عدة الحوامل أن يضعن حملهن وذكر في المتوفى عنها أن تعتد أربعة أشهر وعشرا، فعلى الحامل المتوفى عنها أن تعتد أربعة أشهر وعشرا وأن تضع حملها حتى تأتي بالعدتين معًا، إذ لم يكن وضع الحمل انقضاء للعدة هنا إلا في الطلاق.. ويقول غيرهم: إذا وضعت ذا بطنها فقد حلت، ونقل عن ابن مسعود أنه قال: من شاء باهلته، أن سورة النساء القصرى نزلت بعد سورة النساء الطولى، يعني البقرة،

ومآله تخصيص آية البقرة بآية الطلاق.

٧- سهم المؤلفة قلوبهم: عن ابن سيرين عن عبيدة قال: جاء عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس إلى أبي بكر فقالا: يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة، ليس فيها كلأ ولا منفعة، فإن رأيت أن تعطيناها؟ فأقطعها إياهما، وكتب لهما عليها كتاباً، وأشهد وليس في القوم عمر، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما، فلما سمع عمر ما في الكتاب، تناوله من أيديهما، ثم تفل فيه فمحاه، فتذمرا وقالا مقالة سيئة، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما، والإسلام يومئذ قليل، وإن الله قد أغنى الإسلام، اذهبا فاجهدا جهدكما، لا يرعى الله عليكما إن رعيتما.

فقد خالف عمر في ذلك أبا بكر رضي الله عنهما، ثم أمضى أبو بكر ما فعله عمر، مما يدل على أنه سوغ له اجتهاده، مع أن سهم المؤلفة قلوبهم مذكور بنص القرآن في مصارف الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦٠).

٨- واختلفوا في الجد: فقال زيد بن ثابت- وهو المروي عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود - يرث مع الإخوة - وقال أبو بكر، وروي عن عائشة وابن الزبير وعبد الله بن عقبة، أنهم جعلوه أبا وأسقطوا الأخوة معه.

● تفرق العلماء في الأمصار

بدأت الفتوحات الإسلامية تتسع في عهد عمر بن الخطاب، وظلت موجة المد الإسلامي في المشرق والمغرب تشق طريقها من بعده، وكان لابد للعرب المسلمين الفاتحين أن يؤهلوا أنفسهم لحكم البلاد التي فتحوها بالعلم والمعرفة، ولا بد للذين دخلوا في الإسلام من غير العرب أن يتعلموا العربية لدينهم ولدنياهم فاستتبع الفتح الإسلامي حركة علمية في البلاد المفتوحة.

وكان عمر يميل إلى استبقاء كبار فقهاء الصحابة بالمدينة للاستعانة بهم في الفتيا عند عرض المشكلات، والحيلولة بينهم وبين الاشتغال بالحياة الدنيا ومظاهر الحكم، ولكنه مع ذلك أرسل بعض الصحابة معلمين في الأمصار بعد أن

اتسعت الفتوحات، وكتب عمر إلى أهل الكوفة: «إني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وآثرتكم به على نفسي، فخذوا عنه» فقدم الكوفة ونزلها، وابتنى بها داراً إلى جانب المسجد.

وبعد عهد عمر كثر انتشار الصحابة في البلاد المفتوحة، وقد أنشأ هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا في الأمصار حركة علمية في كل مصر نزلوا فيه، ولدى كل واحد منهم من العلم ما قد لا يكون مع الآخر، وكونوا مدارس منهجية في تعليمهم، وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، فتخرج عليهم التابعون، وتأثرت البلاد التي نزلوا فيها بشخصياتهم، ونهجوا في العلم مناهجهم، ومن الطبيعي أن تزدهر هذه الحركات العلمية في المدن خاصة، لأنها أكثر ناساً وأوفر عمراناً، وقد تميز في هذه الحركة منهجان:

أحدهما: منهج أهل الرأي أو مدرسة الكوفة بالعراق. والثاني: منهج أهل الحديث أو مدرسة المدينة بالحجاز.

١- مذهب أهل الرأي في العراق

ربما كان عمر بن الخطاب أكثر الصحابة فقها للنصوص واجتهاداً في فهمه، وإقداماً على إبداء الرأي فيه، والمشكلات التي اعترضت الصحابة، واجتهدوا فيها تعطى لعمر بن الخطاب ﷺ هذه الميزة في أكثر من موضع، وإن كان قد حرص على استشارة الصحابة، والتريث في الأمور، فعن الشعبي قال: «كانت القضية ترفع إلى عمر ﷺ فربما تأمل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه، واليوم يفصل في المجلس مائة قضية» وسار عبد الله بن مسعود ﷺ على طريقة عمر، وتأثر به في آرائه، وروي عنه أنه قال: «إني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم» وجاء في إعلام الموقعين أن عبد الله لا يقنت ولو قنت عمر لقنت عبد الله» وهذا يدل على أن ابن مسعود نهج منهج عمر في التفكير والاستنباط والرأي حيث لا نص. وروي عن إبراهيم النخعي أنه كان لا يعدل بقول عمر، وابن مسعود إذا اجتمعا، فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان ألطف.

وقد عرفت من قبل أن عمر بن الخطاب ﷺ أرسل عبد الله بن مسعود إلى

أهل الكوفة ليعلمهم، وكانت حركته العلمية في العراق كبيرة واسعة، ونهج تلاميذه نهجه من بعده فاعتبرت مدرسة ابن مسعود بالعراق نواة لمدرسة الرأي حتى نسب إليها بعض التابعين فقيل «ربيعة الرأي».

ويرجع انتشار مدرسة الرأي في العراق إلى الأمور الآتية:

١- تأثرهم بالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ الذي كان من منحى عمر بن الخطاب وأستاذ الكوفة كما عرفنا.

٢- كان الحديث في العراق قليلاً إذا قيس إلى ما لدى أهل الحجاز، موطن الرسول ﷺ وكبار الصحابة.

٣- والعراق متاخم للفرس، واتصل بالحضارة الفارسية اتصالاً وثيقاً، وذلك من شأنه أن يحدث كثيراً من المسائل الجزئية والمشكلات المتعددة التي تحتاج إلى إعمال الرأي.

٤- وكان العراق موطن الشيعة والخوارج، وعلى أرضه دارت الفتنة، ثم شاع الوضع في الحديث تأييداً للمذاهب السياسية، وهذا جعل علماءه في مدرسته يقلون من رواية الحديث ويتحفظون فيها، تحرزاً من الوقوع في الأحاديث الموضوعة، فكانت الأحاديث التي يعول عليها لديهم قليلة، وهذا يدعوهم عند النظر في المسائل إلى القول بالرأي حيث لا نص.

- **مميزات مدرسة أهل الرأي**

١- كثرة تفريعهم الفروع لكثرة ما يعرض لهم من الحوادث نظرا لتحضرهم، وقد ساقهم هذا إلى فرض المسائل قبل أن تقع، فأكثروا من: أرأيت لو كان كذا؟ فيسألون المسألة ويبدون فيها حكماً ثم يفرعونها بقولهم «أرأيت لو كان كذا؟» ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة أحياناً، حتى سماهم أهل الحديث «الأرأيتيون»، وقال سعيد بن المسيب لربيعة الرأي وقد اعترض عليه في مسألةٍ: «أعراقي أنت؟» وقدم على مالك بن أنس، أسد بن الفرات، قال أسد: وكان أصحاب مالك يهابونه في السؤال فكنت أسأله عن المسألة، فإذا أجاب يقولون قل له: فإن كان كذا، فأقول له، فضاق علي يوماً فقال: هذه سليسلة بنت

سليسلة، إن أردت هذا فعليك بالعراق.

٢- قلة روايتهم للحديث واشتراطهم فيه شروطاً لا يسلم معها إلا القليل.

● **مذهب أهل الحديث في الحجاز**

كان للمدينة منزلة خاصة باعتبارها دار الهجرة التي نزل فيها التشريع وشهدت ما كان من رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً، وعاش فيها الخلفاء الراشدون، فأصبحت مهد السنة، ومنبع الحديث، وملتقى الصحابة، وهذا يجعل أهلها أثبت الناس بالفقه وأشدهم تمسكاً بالرواية، ووقوفاً عند الآثار.

ومدرسة المدينة فوق هذا تستقي منهجها من شيوخها الأوائل الذين في مقدمتهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم جميعاً، وقد عرف ابن عمر بحرصه الشديد على تتبع آثار الرسول ﷺ والاعتزاز به، وتأثر بهذا المنهج تلاميذه الذين حملوا لواء العلم بهذه المدرسة، وفي مقدمتهم سعيد بن المسيب الذي أكب على جمع الآثار وفتاوى الصحابة، وحفظ كثيراً منها، وقيل فيه أنه أعلم الناس بما تقدمه من الآثار، وأفقههم في رأيه، وعن ميمون بن مهران قال: «أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها فدفعت إلى سعيد فسألته»، ومن هذه المدرسة الشعبي الذي يقول: «ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله فخذوه، وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحسن».

ومذهب مدرسة أهل الحديث أنهم إذا سئلوا عن شيء فإن عرفوا فيه آية أو حديثاً أفتوا وإلا توقفوا، روي عن رجل سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شيء فقال: لم أسمع في هذا شيئاً، فقال له الرجل: فأخبرني أصلحك الله برأيك قال: لا، ثم أعاد عليه فقال: إني أرضى برأيك فقال سالم: إنى لعلي إن أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا غيره فلا أجدك.

وترجع أسباب وقوف أهل الحجاز عند النصوص إلى الأمور الآتية:

١- تأثر مدرستهم بالمنهج الذي التزمه علماؤهم كما ذكرنا في حرصهم على الأحاديث والآثار وتجنبهم الأخذ بالرأي وإعمال القياس إلا إذا كانت هناك ضرورة ملجئة.

٢- ما لديهم من ثروة كبيرة لدى الصحابة الذين استوطن أكثرهم الحجاز عامة والمدينة خاصة من أحاديث وآثار.

٣- بساطة الحياة لدى أهل الحجاز وقلة مشكلاتهم.. حيث كانوا على الفطرة الأولى بمنأى عما تحدثه المدنية الفارسية أو اليونانية من تفريع للمسائل.

٤- بعدهم عن مواطن الفتنة وبواعث النزاع بالنسبة لما كان عليه الأمر في العراق.

ومن مميزات هذه المدرسة:

١- كراهيتهم لكثرة السؤال وفرض المسائل وتشعب القضايا.

٢- الاعتداد بالحديث والوقوف عند الآثار.

وكان بين أهل الرأي وأهل الحديث منافسة شديدة، وعاب كل فريق منهم طريقة الآخر، وإن كان من بين الحجازيين من يميل إلى الرأي كربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك. أخرج مالك في الموطأ عن ربيعة قال: سألت سعيد ابن المسيب: كم في إصبع المرأة؟ قال عشرة من الإبل، قلت ففي إصبعين؟ قال: عشرون، قلت: ففي ثلاثة، قال: ثلاثون، قلت: ففي أربع؟ قال: عشرون. قلت: حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها؟! فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ فقال ربيعة: بل عالم مستثبت أو جاهل متعلم، فقال سعيد: هي السنة. يشير بهذا إلى ما أخرجه النسائي عن النبي ﷺ قال: «عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى تبلغ الثلث من ديتها» ومع ورود النص لا مجال للعقل، ولذلك عاب سعيد على ربيعة ما يعيبه على العراقيين يومئذ من تحكيم العقل في النصوص.

● **الفقهاء السبعة:**

وقد اشتهر من مدرسة أهل الحجاز الفقهاء السبعة:

قال ابن القيم في إعلام الموقعين: وكان المفتون بالمدينة من التابعين: ابن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد وخارجة بن زيد، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هاشم، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة ابن مسعود وهؤلاء هم الفقهاء، وقد نظمهم القائل فقال:

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجة
فقل: هم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجة

وعن هؤلاء السبعة انتشر فقه أهل المدينة وعلى يدهم تخرج من جاء بعدهم من الفقهاء، وتعتبر مدرسة الفقهاء السبعة المدرسة الفقهية الأولى في هذا العصر، حتى سمي باسمهم، فقيل عصر الفقهاء السبعة، وكان عملهم الفقهي أساساً لمنهج الفقه الإسلامي في البحث والنظر.

نشأة الفقه الإسلامي وأصول مَذاهبه (٢)

تطور الفقه- المدارس الفقهية- أسباب الاختلاف
المذاهب الفقهية المشهورة

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠هـ) - مارس (١٩٧٠م).

• تطور الفقه ومنهج أتباع التابعين

تطور الفقه الإسلامي أمر ضروري تتطلبه حياة الأمة التي تتجدد من زمن لآخر بمتطلباتها وحوادثها تلك الحوادث التي لا يمكن حصرها على مدى العصور، ولن يتأتى أن يكون لكل حادثة منها نص في كتاب الله أو سنة رسوله، ولهذا تدعو الحاجة إلى الاستنباط والاجتهاد لمعرفة حكم ما جد من حوادث، وفي هذا يقول الشهرستاني «وبالجملة نعلم قطعاً ويقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعاً أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك أيضاً، والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى.. علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد».

وقد حذا أتباع التابعين حذو أسلافهم من الصحابة والتابعين في فقه ما جد من حوادث معتمدين في ذلك على ما نقل إليهم من أقوال هؤلاء السلف بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لأنهم أقرب إلى عهد النبوة وأصدق فهماً للقرآن وما استنبطوه من أحكام ينبغي أن يكون موضع اهتمام إلا إذا اختلفوا فيما بينهم، وكان حديث رسول الله ﷺ يخالف قولهم مخالفة ظاهرة.

وهذا النهج الذي نهجه أتباع التابعين هو طريق السداد الذي تقتضيه الأمانة العلمية مصداقاً لقوله ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله».

وكان اختلاف آراء الصحابة والتابعين في المسألة الواحدة حافزاً لأتباع التابعين على البحث في مرجع هذا الاختلاف وتمحيص الرأي فيه، وأدى هذا إلى

إفساح المجال للاختيار وإن تأثر علماء كل بلد بشيوخهم السالفين.

● **المدارس الفقهية للأمصار**

كان من آثار استقرار عدد كثير من الصحابة في الأمصار الإسلامية أن نشأ في كل مصر منها مدرسة تولاها بادئ الأمر الصحابة بأنفسهم، ثم خلفهم أتباعهم الذين ورثوا عنهم فقههم ورووا فتاواهم وانتقل الأمر إلى أتباع التابعين على هذا النمط.

١- فقهاء المدينة السبعة المشهورون انتقل الفقه من بعدهم إلى نافع مولى عبد الله بن عمر، وأبي بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، ويحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري، وأبي الزناد عبد الله بن يزيد بن هرمز، وربيعة ابن أبي عبد الرحمن مولى بني تيم من قريش وهو المعروف بربيعة الرأي، ثم انتقل الفقه بعد ذلك إلى عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن إسحاق بن مالك بن أنس، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، والإمام مالك بن أنس.

٢- وفي مكة انتقل فقه التابعين فيها من تلاميذ ابن عباس: عطاء بن أبي رباح، وطاوس بن كيسان، ومجاهد بن جبر، وعمرو بن دينار، وعكرمة، إلى أبي الزبير المكي، وعبد الله بن طاوس، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وسفيان بن عيينة، ثم إلى مسلم بن خالد بن سعيد الزنجي- ولقب بذلك لحمرته - وسعيد بن سالم القداح ثم إلى محمد بن إدريس الشافعي.

٣- وفي الكوفة انتقل الفقه من كبار التابعين علقمة بن قيس النخعي، والأسود ابن يزيد النخعي وشريح بن الحارث الكندي القاضي وأبي ميسرة عمرو بن شرحبيل الهمداني إلى إبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير، ثم إلى حماد بن أبي سليمان، وسليمان الأعمش، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وشريك القاضي النخعي وسفيان بن سعيد الثوري، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت.

٤- وفي البصرة انتقل الفقه من الحسن البصري ومحمد بن سيرين وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري وجابر بن زيد أبي الشعثاء- إلى أيوب بن كيسان، والقاسم بن ربيعة، وإياس بن معاوية القاضي ثم إلى عبيد الله بن الحسن العنبري،

وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد.

٥- وفي الشام انتقل الفقه من أبي إدريس الخولاني وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وسليمان بن حبيب- إلى عبد الرحمن بن جبير، ومكحول وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة وعبد الملك بن مروان- الذي كان يعد من الفقهاء قبل أن يلي الخلافة - ثم إلى سعيد بن عبد العزيز والعباس بن يزيد وأبي إسحاق الفزاري صاحب ابن المبارك ويحيى بن حمزة القاضي، وأبي عمرو عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي.

٦- وقدم إلى بغداد بعد أن بناها المنصور عدد كثير من الأئمة والمحدثين، وكان من فقهائها أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي صاحب الشافعي، ثم كان أمام أهل السنة أحمد بن حنبل.

٧- وفي مصر انتقل الفقه إلى يزيد بن حبيب، وبكير بن عبد الله بن الأشج، وعمرو بن الحارث، ثم انتقل فقه هؤلاء إلى عالم مصر أبي الحارث الليث بن سعد الذي كان معاصراً للإمام مالك، ثم إلى عبد الله بن وهب، وأشهب، وابن القاسم من أصحاب مالك، والمزني، وابن عبد الحكم والبويطي من أصحاب الشافعي.

٨- كما نشأ في المدن الأخرى المفتوحة كثير من الفقهاء، فكان بالقيروان سحنون بن سعيد وسعيد بن محمد الحداد.

وكان بالأندلس يحيى بن يحيى، وعبد الملك بن حبيب، ومنذر بن سعيد، ويوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر.

وكان باليمن وهب بن منبه الصنعاني، ويحيى بن أبي كثير، ومطرف بن مازن قاضي صنعاء، وعبد الرزاق بن همام، وسماك بن الفضل.

وهؤلاء الفقهاء الذين عرفوا في الأمصار الإسلامية المختلفة كانوا جميعاً يتصدون للفتيا، دون أن يقلد أحدهم الآخر، وإن أخذ فقهاء كل مصر عن شيوخهم السابقين، يقول ابن حزم «ثم أتى بعد التابعين فقهاء الأمصار كأبي حنيفة، وسفيان، وابن أبي ليلى بالكوفة وابن جريج بمكة، ومالك وابن الماجشون بالمدينة وعثمان التبي وسوار بالبصرة، والأوزاعي بالشام، والليث

بمصر، فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم، واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم، وهو موجود عند غيرهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها»، وقد ذكر الخضري هذا المعنى فقال: «ولم يكن عرف بين الناس الانتساب إلى فقيه معين يعمل بما ذهب إليه من رواية أو رأي وإنما كان هؤلاء المفتون في الأمصار المختلفة معروفين بالفقه ورواية الحديث، فكان المستفتي يذهب إلى من شاء منهم فيسأله عما نزل به فيفتيه، وربما ذهب. مرة أخرى إلى مفت آخر، وكان القضاة في الأمصار يقضون بين الناس بما يفهمونه من كتاب الله أو سنة رسوله أو رأي إن ظهر لهم، وربما استفتوا من ببلدهم من الفقهاء المعروفين، وربما أرسلوا إلى الخليفة يسألونه، كما حصل كثير في عهد عمر بن عبد العزيز».

أسباب الاختلاف بين الأئمة في صدر هذه الأمة.

أولاً: الظاهرة البشرية: فمما لا شك فيه أن الناس بشر، وأن هؤلاء الأئمة يعرض لهم الخطأ والنسيان، وليست هناك عصمة فيما طريقه البلاغ إلا لرسول الله ﷺ، وقد نجد الرجل يحفظ الحديث ثم ينساه، ولا يحضره ذكره عند الفتوى، فيفتي بخلافه، بل ربما عرض هذا في آيات القرآن الكريم، وآية ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب على المنبر وأمر ألا يزاد في مهور النساء فذكرته امرأة بقول الله تعالى ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٢٠) فترك قوله وقال: كل أحد أفقه منك يا عمر.. امرأة أصابت وأمير المؤمنين أخطأ.

وأمر برجم امرأة ولدت لستة أشهر، فذكره علي رضي الله عنه بقول الله تعالى ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥) مع قوله تعالى ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (البقرة: ٢٣٣) فرجع عن الأمر برجمها.

ثانياً: أن الصحابة لم يكونوا على درجة واحدة في الأخذ عن رسول الله ﷺ وعند كل واحد منهم من العلم ما ليس عند الآخر، وفيهم المقل وفيهم المكثر، وقد تفرق هؤلاء وأولئك في الأمصار بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية، فإذا

عرضت قضية في مصر منها نظر الصحابة الحاضرون فيها، فإن وجدوا أثراً عن النبي ﷺ حكموا به، وإلا كان الاجتهاد، وقد يكون في تلك القضية حكم عن النبي ﷺ لدى صحابي آخر في بلد آخر، ولهذا أمثلة كثيرة.

١- فقد كان حكم التيمم عند عمار وغيره ولم يعلمه عمر وابن مسعود فقالا: لا يتيمم الجنب.

٢- وكان حكم الاستئذان عند أبي موسى، وعند أبي سعيد ولم يعلمه عمر.

٣- وكان حكم تحريم المتعة والحمر الأهلية عند علي وغيره، ولم يعلمه ابن عباس.

٤- وكان حكم الإذن للحائض في أن تنفر قبل أن تطوف عند ابن عباس وأم سليم، ولم يعلمه عمر وزيد بن ثابت.

٥- وكان حكم أخذ الجزية من المجوس عند عبد الرحمن بن عوف، ولم يعلمه عمر وجمهور الصحابة.

٦- وكان حكم إجلاء أهل الذمة من بلاد العرب عند ابن عباس وعمر، فنسيه عمر سنين، ثم ذُكِّر فَذَكَرَ فأجلاهم.

ثالثاً: أن بعض النصوص قد يبدو في ظاهرها التعارض، فيجتهد فيها أحد هؤلاء الفقهاء وهو مأجور أصاب أم أخطأ، فيميل إلى ترجيح أحد النصين على الآخر، بينما يميل غيره إلى ترجيح هذا الآخر لمرجح لديه.

كما روي عن عثمان في الجمع بين الأختين قال: حرمتهما آية، وأحلتهما آية، وكما مال عمر إلى تحريم نساء أهل الكتاب لقوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١) وقال: لا أعلم شركا أعظم من قول المرأة إن عيسى ربها، وغلب ذلك على الإباحة المنصوصة في الآية الأخرى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (المائدة: ٥).

● المذاهب الفقهية المشهورة وأصولها

تحدثنا آنفاً عن المدارس الفقهية، وذكرنا أئمة الفقه في كل مصر، ولكن بعض هؤلاء الأئمة قد وجد أتباعاً يعملون على ذيوعه وانتشاره، فكان مذهبهم أوفر

حظاً، وتتابع الأخذ به والتفريع عنه حتى صار مذهباً مشهوراً، بينما لم يجد الآخرون مثل هذا الحظ فأصبح فقههم منثوراً في بطون الكتب، ولم يتيسر لهم من الأتباع من ينشر مذهبهم، فالأئمة الأربعة المعروفون لم يكونوا جميعًا أحق بالخلود من آخرين كالأوزاعي إمام أهل الشام، وسفيان الثوري الذي قال فيه ابن عيينة: ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من الثوري، والليث بن سعد إمام أهل مصر، وصديق الإمام مالك الذي قال فيه الشافعي هو أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، وغير هؤلاء كثير، وسوف نقتصر هنا على بيان أصول المذاهب المشهورة إجمالاً بما يعطينا فكرة عن كل مذهب منها.

١- أبو حنيفة

تركزت مدرسة أهل الكوفة أو أهل الرأي في أبي حنيفة، ويمكن إجمال أصول مذهبه فيما يأتي:

١- التشدد في قبول الحديث

كان أبو حنيفة يتحرى عن رجال الحديث، ويتثبت من صحة روايتهم فقد لا يقبل الخبر عن رسول الله ﷺ إلا إذا رواه جماعة عن جماعة، أو اتفق فقهاء الأمصار على العمل به فأصبح مشهوراً، وبهذا تضيق دائرة العمل بالحديث، وقد نقل الشافعي في الأم عن أبي يوسف ما يوضح خطته وخطة أبي حنيفة شيخه في ذلك، قال أبو يوسف: فعليك من الحديث مما تعرفه العامة، وإياك والشاذ منه، فإنه حدثنا ابن أبي كريمة عن أبي جعفر أن رسول الله ﷺ دعا اليهود فحدثوه حتى كذبوا على عيسى، فصعد النبي ﷺ المنبر فخطب الناس فقال «إن الحديث سيفشو علي فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو مني وما أتاكم عني يخالف القرآن فليس مني» وكان عمر فيما بلغنا لا يقبل الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بشاهدين، وكان علي ابن أبي طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله والرواية تزداد كثرة ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه، ولا يوافق الكتاب ولا السنة، فإياك وشاذ الحديث، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث، وما يعرفه الفقهاء، فقس الأشياء على ذلك فما خالف القرآن فليس عن رسول الله ﷺ، وإن جاءت به

الرواية فاجعل القرآن والسنة المعروفة لك إماماً وقائداً، واتبع ذلك وقس عليه ما يرد عليك مما لم يوضح لك في القرآن والسنة.

٢- التوسع في القياس

وحيث ضاقت دائرة الأخذ بالحديث كان التوسع في الأخذ بالقياس، وهكذا كان أبو حنيفة يعمل رأيه في المسألة، ويجتهد في استنباط حكمها دون أن يتقيد بقول سابق للصحابة أو التابعين ما لم يتبين له صحة نقل عن رسول اللهﷺ، فقد روي عنه أنه قال: «إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع قول من شئت، ثم لا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب فلي أن أجتهد كما اجتهدوا».

٣- الاستحسان

يعتبر الاستحسان من أصول الأدلة في مذهب أبي حنيفة وإن بالغ في الأخذ به بعض العلماء الأحناف فقالوا: إن المجتهد له أن يستحسن بعقله إلا أن المتأخرين منهم على أن الاستحسان عبارة عن دليل يقابل القياس الجلي الذي تسبق إليه الأفهام.

٤- الحيل الشرعية

ينسب كثير من الباحثين إلى فقه أبي حنيفة الحيل الشرعية، وأنها كانت باباً واسعاً من أبواب الفقه في مذهبه، وقد تكلم ابن القيم عن الحيل في كتابه «إعلام الموقعين» وشنع على من توسع فيها وقال «إن المتأخرين أحدثوا حيلاً لم يصح القول بها عن أحد من الأئمة، ونسبوها إلى الأئمة وهم مخطئون في نسبتها إليهم». وأكثر ما ينسب إلى أبي حنيفة من ذلك أفتى به في مسائل تتعلق بالأيمان عامة وبالطلاق خاصة، وليس فيها تحايل على إبطال حق، ولكنها استنباط فقهي للخروج من مأزق كأن يحلف رجل ليقربن امرأته نهاراً في رمضان فيفتيه أبو حنيفة أن يسافر بها فيقربها نهاراً في رمضان، ويحلف آخر وقد رأى امرأته على السلم فيقول: أنت طالق ثلاثاً إن صعدت، وطالق ثلاثاً إن نزلت، فيفتيه أبو حنيفة أن

تقف المرأة على السلم ولا تصعد ولا تنزل، ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها على الأرض وهكذا.

٢- مالك:

كما تركزت مدرسة أهل الرأي في أبي حنيفة تركزت مدرسة أهل الحديث في مالك رضي الله عنه ومن أصول مذهبه:

١- الاهتمام بالحديث

اهتم مالك بالحديث ولم ينهج نهج أبي حنيفة في تضييق دائرته، واشتراط شهرته مع تحري صحة السند، وكان يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم.. لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به.

وقد جمع مالك في كتابه «الموطأ» ما صح من الأحاديث والأخبار لديه، واعتبره أساساً لمذهبه.

٢- عمل أهل المدينة

ذهب مالك إلى أن المدينة هي دار الهجرة، وبها نزل القرآن، وأقام رسول الله ﷺ، وأقام صحابته، وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله ﷺ للوحي، وهذه ميزات ليست لغيرهم، وعلى هذا فالحق لا يخرج عما يذهبون إليه، فيكون عملهم حجة يقدم على القياس، وعلى خبر الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد «إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن».

٣- قول الصحابي

ويرى مالك في مذهبه أنه إذا لم يرد حديث صحيح في المسألة عن النبي ﷺ، فإن قول الصحابي إذا لم يعلم له مخالف يكون حجة، وقد ضمن موطأه العديد من أقوال الصحابة والتابعين، فالصحابة أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد لأنهم حضروا التنزيل وسمعوا كلام رسول الله، فقولهم أولى بالأخذ يخص به العام،

ويترك لأجله القياس.

٤- المصالح المرسلة

والعمل بالمصالح المرسلة أساس من الأسس التي اعتمد عليها مالك في مذهبه، وهي جلب منفعة أو دفع مضرة لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق ضرورية كانت أو حاجية أو تحسينية، والضرورية: هي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمسة الثابتة في الملل جميعاً وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.

والحاجة: هي التي تؤدي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة.

والتحسينية: هي المتعلقة بمكارم الأخلاق، وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب مالك إلى أن هذه المصلحة تكون حجة.

٣- الشافعي

١- المنحى الوسط

كانت رياسة الفقه قد انتهت في العراق إلى أبي حنيفة، وفي المدينة إلى مالك ابن أنس، وقد لازم الشافعي مالكاً، وأخذ عنه كما أخذ عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فاجتمع إليه علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث، وانتحى مذهباً وسطاً أصل أصوله، وقعد قواعده.

خالف أبا حنيفة في تقديم القياس على خبر الآحاد، ودافع دفاعاً شديداً عن العمل بخبر الواحد، مادام راويه ثقة ضابطاً، ومادام الحديث متصلاً برسول الله ﷺ، ولم يشترط شهرته كما اشترط أهل العراق كما أنكر على أهل الرأي العمل بالاستحسان، وخالف مالكاً في حجية عمل أهل المدينة، والقول بالمصالح المرسلة.

٢- أساس مذهبه

دون الشافعي أساس مذهبه في رسالته الأصولية فهو يحتج بظاهر القرآن، ثم

بالسنة، ثم بالآثار الصحيحة، ثم يعمل بالإجماع عند عدم العلم بالخلاف، فإن لم يكن هناك دليل مما سبق عمد إلى القياس فعمل به، مشترطاً أن يكون له أصل معين يقول في رسالته «إن جهة العلم الكتاب والسنة والإجماع والآثار، ثم القياس عليها ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل ، فرضه وأدبه، وناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، ولا يجوز لأحد أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن، وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب، ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل وحتى يفرق بين المشبه، ولا يعجل بالقول به دون التثبت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد تثبتا فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك».

٤- أحمد بن حنبل

أصول مذهبه

فقه السنة:

أخص ما يتميز به مذهب أحمد أنه يقوم على فقه السنة، ولذا فإنه يعد من كبار المحدثين، وقد ذكر ابن القيم أن فتاوى أحمد بن حنبل مبنية على خمسة أصول نجملها يما يأتي:

١- أحدها النصوص

فإذا وجد النص أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ما خالفه، ولا من خالفه كائناً من كان، ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً.

وثانيها: فتاوى الصحابة، أي ما أفتى به الصحابة إذا وجد لبعضهم فتوى لا يخالفه فيها أحد منهم، ولم يقل الإمام أحمد أن ذلك إجماع، بل كان يقول تورعاً لا أعلم شيئاً يدفعه أو نحو ذلك.

وثالثها: الاختيار من فتاوى الصحابة إذا اختلفوا فإنه يتخير من أقوالهم أقربها

إلى الكتاب والسنة.

ورابعها: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يجد في الباب أثراً يدفعه ولا قوله صاحب فإن العمل به عنده أولى من القياس.

وخامسها: القياس للضرورة فإذا لم يكن عنده في المسألة نص ولا قول للصحابة أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو حديث ضعيف عدل إلى القياس فاستعمله للضرورة.

الظاهرية

كانت العراق قاعدة أصحاب الرأي، ولكننا نرى في مطلع القرن الثالث الهجري رجلاً يولد بالكوفة (٢٠٠- ٢٧٠هـ) وينشأ ببغداد، ويأخذ العلم عن إسحاق بن راهويه، وأبي ثور، ويدرس مذهب الإمام الشافعي، ويتعصب له، ويصنف في مناقبه، وتنتهي إليه رياسة العلم ببغداد، ثم يستقل بمذهب جديد على النقيض من مذهب أصحاب الرأي، فينكر القياس، ويرى أن عموم النصوص من الكتاب والسنة تكفي لبيان الأحكام، لأن القول بالقياس تشريع عقلي، والدين إلهي ولو كان الدين بالعقل لجرت أحكام على خلاف ما أتى به الكتاب والسنة، ولهذا وجب أن نتقيد بظاهرهما إلا إذا قرن النص بعلة الحكم، وقد قال الله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى: ١٠) لم يقل إلى الرأي والقياس.

ذلك الرجل هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني، المعروف بالظاهري.

وقد اتبع مذهب الظاهرية كثير من الناس في فارس والأندلس، ومن أشهر رجاله أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد المفلس، وأبو محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم الأندلسي، ومن أمثلة ذلك في فقههم.

١- أن الإسلام حرم الربا وقال ﷺ «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواء».

وقد ذهب عامة الفقهاء إلى أن الحرمة لا تقتصر على هذه الأنواع الستة بل

تتعداها إلى غيرها قياساً ما وجدت العلة واختلفوا في علة المطعومات

١- فقال جماعة إن علة تحريم الربا في المطعومات الكيل والوزن وعلى هذا يجري الربا في كل مكيل أو موزون بيع بجنسه مطعوماً كان أو غير مطعوم.

٢- وقالت طائفة: العلة كونه مطعوماً فيحرم الربا في كل مطعوم قوتاً كان أو فاكهة أو دواء.

٣- وذهب قوم إلى أن العلة كونه طعاماً مكيلاً أو موزونا.

٤- وقال آخرون العلة الاقتيات والادخار أي كون الطعام مقتاتاً مدخراً.

أما الظاهرية الذين لا يأخذون بالقياس فلم يوافقوا على هذا، وقصروا الربا على الأصناف الستة المذكورة في الحديث، وقالوا إن الشارع خص من المكيلات والمطعومات والأقوات أشياء أربعة.. فلو كان الحكم ثابتاً في كل المكيلات أو في كل المطعومات لقال مثلاً:

لا تبيعوا المطعوم بالمطعوم متفاضلا بالنص على علة التحريم، فإن هذا الكلام يكون أكثر اختصاراً وفائدة، فلما لم يقل ذلك، بل عد الأربعة علمنا أن حكم الحرمة مقصور عليها.

٢- وذهب الأئمة الأربعة إلى أن حد الأمة إذا زنت خمسون جلدة بكراً كانت أو ثيباً، أما الثيب فلقوله تعالى ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ (النساء: ٢٥) والمراد بالعذاب الجلد لأن الرجم لا يتجزأ، وأما البكر فلما في الصحيحين من أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن فقال «إذا زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فبيعوها ولو بضفير».

وقال داود: على الأمة نصف الحد إذا زنت وكانت محصنة لظاهر الآية وتجلد مائة إذا كانت بكراً لظاهر العموم في قوله تعالى ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢) وقد خرج من هذا العموم الأمة المحصنة بقوله تعالى ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ فتبقى التي لم تحصن في العموم.

هذه فكرة مجملة عن نشأة الفقه الإسلامي وأصول مذاهبه تصور لنا ذلك الجهد الذي بذله علماء هذه الأمة وأئمتها، وكيف حرص هؤلاء المجتهدون على النظر في شريعة الله؟ وأجهدوا قرائحهم في معرفة أحكام ما جد من حوادث، وقد خلفوا لنا تراثا فقهياً خالداً يتضمن من الشروح والتفسيرات ما يكشف عن ثروة شريعتنا وعظمة مبادئها ونمو قواعدها، فهي شريعة حية لا ينضب معينها، ولا يغيض ماؤها.

واليوم - وقد تكالبت على أمة الإسلام قوى الشر في الشرق والغرب، ونفثت سموم أفكارها وسحرت أعين الناس ببريق خداعها، وتخلت أقطار إسلامية عزيزة عن تحكيم شريعة ربها، وانسلخت عن تاريخ مجدها وولت وجهها شطر الغرب تارة، والشرق أخرى- اليوم وقد وصلت أمتنا إلى هذا الدرك تتطلع النفوس المؤمنة الواعية في أنحاء العالم الإسلامي إلى يقظة جديدة تنفض عن كاهل أمتنا ركام هزيمتها، وتعيد إليها ثقتها في عظمة شريعتها وتشق طرق الكفاح في سبيل هذه الغاية مجاهدة صابرة محتسبة حتى تحطم طواغيت الضلال والفساد ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ (النساء: ٦٠).

والإنسانية المعذبة التي تكتوي بنار الصراع الدولي في عصر يسمونه عصر المدنية تنتظر ساعة الخلاص مما أصابها من بلاء.

وعلى يد الجيل المسلم المجاهد في كل بلد ترتقب الدنيا هذه الساعة لتقر عينها ويهدأ بالها فالإسلام كان -ولا يزال- سفينة نوح في كل طوفان.

* * *

دروس من الهجرة

أسماء والهجرة

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - مارس (١٩٧٣م).

لم يكن حدث الهجرة حدثاً تاريخياً كتلك الأحداث التي تجري وفق سنن الله الاجتماعية في حياة الأمم، ولكنه كان حدثاً معجزاً فريداً، أعطى للحياة الإنسانية مفاهيم جديدة لوقائع التاريخ تبرز القيم الإسلامية وآثارها الحية التي يعجز البشر عن صنعها. فلا يلبث الناظر فيها طويلاً حتى يردها إلى القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن آيات الإعجاز في هذا الحديث التاريخي الأشم، وإنما نتناول جانباً مشرقاً منه في حياة امرأة من فضليات النساء المسلمات.

لقد عاشت المرأة في عصور الجاهلية مهينة ذليلة، تزدريها الأعين وتمقتها النفوس، وتوقع بها من ضروب العنف والجبروت ما لا تتحمله الجبال الرواسي، واعتبرتها الحضارات القديمة مخلوقاً شريراً لا يصدر عنه إلا الخطيئة، وحرمتها كافة الحقوق التي يتمتع بها الإنسان، ووأدتها جاهلية العرب صغيرة. وعضلتها وورثتها كبيرة ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل: ٥٨ -٥٩).

وعن ابن عباس قال: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٩). (رواه البخاري).

فلما جاء الإسلام رفع عنها هذا الغبن، ونفض عن كاهلها تلك الأوزار، ورد إليها كرامتها وإنسانيتها.

وفي ثنايا حادث الهجرة يبدو دور المرأة المسلمة في مواقف أسماء بنت أبي بكر الصديق مما لا يدع مجالاً للشك في مكانة المرأة بالإسلام.

الكتمان والسرية

لقد بايع علية القوم في المدينة رسول الله ﷺ على الإسلام والنصرة والإيواء، وكانت الهجرة، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بمكة أن يلحقوا بإخوانهم الأنصار، وقال: «إن الله ﷻ قد جعل لكم إخواناً ودارا تأمنوا بها»، فخرجوا أرسالاً، وأقام ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة، ولم يتخلف معه بمكة أحد إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب وأبوبكر بن أبي قحافة الصديق وأهله.

وكان وقع هجرة الصحابة على نفوس المشركين أليماً، حيث أدركوا أن المسلمين قد أصابوا منهم منعة.

وحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم بالمدينة. وأيقنوا أنه قد أجمع لحربهم، فائتمروا في دار الندوة، وتشاوروا فيما بينهم، وانتهى أمرهم إلى أن يضربه نفر من شبابهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، وبذلك يتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال: ٣٠).

استولى على قريش الذعر، وغشيتها كآبة الأسى، ودبرت أمرها هذا وهي تخشى كل الخشية أن يفلت رسول الله ﷺ من يدها ويلحق بالمهاجرين والأنصار، ثم يكر عليهم من منطلق حصين.

وأذن الله لرسوله بالهجرة، وفي مثل هذه الحال مِنْ تآمر المشركين وتربصهم يكون الكتمان أكبر عون على نجاح الخطة. حتى يحبط التدبير السيئ، ويحيق المكر بأهله، ويسقط في أيدي ذويه.

ولطالما كانت السرية من مقتضيات الحكمة في الانتصار للحق، وبلوغ غايته،

وتفويت الفرصة على خصومه والقرآن الكريم يحكي على لسان نوح عليه السلام قوله ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ (نوح: ٩) قد بدأت الدعوة إلى الإسلام سراً، وتربى في كنف سريتها رجال آمنوا بالله وبرسوله، وتجردوا لعقيدة الإسلام، وتعاهدوا على نصرتها، فكانوا القاعدة الصلبة للكيان الإسلامي الشامخ الذي بلغ قمة المجد والعزة، وماذا يجدي الصخب الداوي مع الخصوم الألداء الذين أعمى الباطل بصائرهم وأثارت العصبية أحقادهم، واستخفهم الشيطان فأطاعوه؟

ولن يستطيع رسول الله ﷺ أن يكتم أمر هجرته في نفسه دون أن يعلم به أحد سواه، فإنه في حاجة إلى من يستعين بهم من خاصته في هذا الخطب الجلل تدبيراً وإعداداً وصحبة، وقد استأخر أبا بكر في الهجرة، كما تأخر على ابن أبي طالب، ترى من يكون هؤلاء الذين يخصهم بسره؟ وهل يكون للمرأة دورها في ذلك؟

إن الإسلام كما يصنع الرجال المؤمنين الصادقين فإنه يصنع النساء المؤمنات الصادقات، والذكر والأنثى في تبعات الإيمان سواء عملاً وولاية:

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ (النحل: ٩٧).

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٣٥﴾ (الأحزاب: ٣٥).

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١).

ولم تعرف الدنيا عقيدة من العقائد أو نظاماً من الأنظمة أكرم المرأة وصان خصائصها الفطرية بمثل ما عرف في الإسلام.

وهنا يبدو تكريم المرأة المسلمة في ائتمانها على أكبر حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية بحياة نبي الإسلام ﷺ، حيث كانت أسماء بنت أبي بكر الصديق موضع

ثقة وأمانة، فعلمت بهجرة رسول الله، وكتمت الخبر، وأسرته في نفسها.

وقال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث، قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «اخرج عني من عندك»، فقال: «يا رسول الله، إنما هما ابنتاي»[١].

وإذا قيل: إن عائشة كانت زوجاً لرسول الله ﷺ فهي أمينة على أسرار زوجها فإن هذا لا يقال بالنسبة إلى أسماء، إنما يقال عنها: إنها كانت مؤمنة فائتمنها رسول الله ﷺ على سره.

«قال ابن إسحاق: ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج، إلا علي ابن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر»[٢].

● **البلاء والصبر**

من خصائص المرأة رقة العاطفة، ولين الجانب، وسرعة الانفعال، وهذه الخصائص تتنافى مع البلاء والصبر، فالمرأة بطبيعتها ليست صلبة العود، ولا تقوى على تحمل الأذى، ولا تصبر على النوازل، وتلك الحقائق النفسية لا يمارى فيها، وواقع الحياة أكبر شاهد عليها، فلا تكاد المرأة تسمع كلمة نابية تخدش كرامتها حتى يتجهم وجهها، وينحدر دمعها، ويرتفع صوتها بالعويل والصراخ.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني ص ١٢٨، ١٢٩- ط الحلبي وكان أبو بكر قد أنكح عائشة من رسول الله ﷺ قبل ذلك.

(٢) المصدر السابق ص (١٢٩) ج٢.

ولكن العقيدة تصوغ الإنسان المؤمن بها صياغة جديدة، يحتسب فيها كل ما يصيبه ابتغاء مرضاة الله. ويتجرد من أحاسيسه الشخصية ليكون إحساسه إحساس عقيدته.

لأنها خالطت شغاف قلبه، وامتزجت بروحه ومشاعره، فغني فيها عن نفسه، يستعذب الموت في سبيلها، ويرى التضحية من أجلها أسمى أمانيه.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب: ٢٢- ٢٣).

وهكذا كان شأن العقيدة في نفس أسماء بنت الصديق.

لقد باءت مؤامرة المشركين بالفشل وخرج رسول الله ﷺ من بيته بعد أن نام علي بن أبي طالب على فراشه وتسجى ببرده، وألقى حفنة من التراب على رؤوس الفتية المتربصين فأعشاهم الله فلم يبصروا رسول الله حين خرج.

واصطحب أبا بكر معه مهاجراً، ولم يتجه صوب المدينة بل جنح متوجهاً إلى غار ثور، وحين أصبحت قريش وعلمت بنجاة رسول الله ﷺ جن جنونها، وطار صوابها، وكبر ذلك على نفوس كبارها، فماذا يفعلون؟

إن بصيص الأمل في الاهتداء إلى وجهة رسول الله ﷺ لملاحقته يبدأ من بيت أبي بكر فهو البيت الذي تأخرت هجرته، وأبو بكر هو الذي صحب رسول الله، وهذا يعني أن سر كل شيء لدى هذا البيت.

عندئذ توجه أبو جهل بن هشام على رأس نفر من قريش إلى بيت أبي بكر، فسألوا أسماء عن أبيها. عسى أن يجدوا في جوابها بريق الأمل فما زادهم جوابها إلا حيرة، فنفس أبو جهل عن غيظه بلطمة سددها إلى خدها فطار منها قرطها، فقابلت ذلك بالصبر والاحتساب.

قال ابن إسحاق: فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: «لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت:

قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي»[١].

إن لطمة بكف أبي جهل ليست كسائر اللطمات، فقد عرف أبو جهل بصلابة البنية، وقوة الشكيمة، فإذا انحدر كفه على أحد كان كانحدار الصخر من جبل شاهق، وعلى من ينحدر كفه؟ أينحدر على رجل فظ غليظ مثله؟ أم على وغد خسيس لا كرامة له؟ لا، إنما ينحدر على فتاة قرشية من أعرق أسر قريش نسباً، وأعلاها كعباً، إنه ينحدر على أسماء بنت أبي بكر الصديق، فتلقته صابرة محتسبة، وأجابت بهذا الجواب الذي لا يشفي علة جبار غاشم، ولا يطفئ ظمأ هائم يتميز غيظاً، قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ وتمخض حلم أبي جهل فيما كان يأمله لدى أهل بيت أبي بكر عن سراب بقيعة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ (النور: ٣٩).

● العمل والجهاد

وللمرأة في ميدان الدعوة عمل وجهاد بما يلائم خصائصها ويناسب فطرتها، إنها تسهم بالقدر الضروري في حقل وظائفها الأساسية، وجهاد الدعوة يشمل كل جهد يبذل في سبيلها، ومن ذلك إعداد الطعام، وتمريض الجرحى، ومراقبة الأعداء.

ولم يكن دور أسماء بنت أبي بكر الصديق في الهجرة قاصراً على ما ذكرناه آنفاً من كتمانها الخير، وصبرها على لطمة أبي جهل، بل تجاوز هذا إلى الإسهام العملي مشاركة في هذا الحادث العظيم، الذي كان نقطة تحول في تاريخ البشرية.

لقد أقام رسول الله ﷺ في غار ثور ثلاثاً، ومعه أبو بكر، وما كانت قريش لتغمض لها عين حتى تأتي برسول الله حياً أو ميتاً.. وكانت هناك حاجة إلى أمور لا بد منها أخذا بأسباب النجاة ووسائل نجاح الهجرة:

---

(١) ابن هشام- (ج٢ ص١٣١- ١٣٢).

أولها: تسمع أخبار قريش لمعرفة ما يدبره القوم من مكائد، وما ينصبونه من شراك، وما يحيكونه من مؤامرة.

وثانيها: تعفية أثر من ينقل هذه الأخبار إلى رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار.

وثالثها: الطعام الذي يسد الرمق ويقوم به الصلب.

أما الأمر الأول، فقد تكفل به عبد الله بن أبي بكر، حيث كان يلتقط ما يدور على ألسنة قريش نهاراً، وينقله إلى رسول الله وصاحبه مساء.

وأما الأمر الثاني، فقام به مولى أبي بكر عامر بن فهيرة الذي كان يرعى الغنم ويريحها على رسول الله ﷺ وأبي بكر في الغار، فإذا قفل عبد الله من عندهما راجعاً اقتفى أثره بالغنم تعفية عليه، فمهمة عبد الله وعامر هي مهمة الجاسوسية المشروعة لحماية الإسلام ونبيه.

أما الأمر الثالث: وهو إعداد الطعام- فقد تكفلت به أسماء بنت أبي بكر.

قال ابن إسحاق: «فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور- جبل بأسفل مكة- فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره؛ ثم يريحها عليهما، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما»[1] والتزود بالطعام في السفر الطويل ضرورة ملحة، فكيف إذا كان هذا السفر في الصحراء القاحلة الجرداء لعدة مراحل تقطعها الراحلة يوما تلو يوم؟ إن الزاد حينئذ يكون قوام الحياة.

وأسماء بنت أبي بكر لم يفتها أن تزود رسول الله وأباها بطعام السفر الذي يرد عنهما غائلة الجوع، وهي في هذا تجود بأعز ما تحرص عليه المرأة، فالمرأة تهتم بزينتها، وزينتها في ثيابها، ونطاقها هو حلية هذه الثياب. وكان آنذاك تقليداً

(١) ابن هشام (ج٢ ص ١٣٠).

متوارثاً أصيلاً.

وقد نسيت أسماء حين أعدت طعام السفر أن تهيئ ما تعلقه به في الراحلة، فلم يسعها إلا أن تحل نطاقها وتجعله عصاماً تعلق به وعاء طعام السفر فسميت بذات النطاقين.

قال ابن إسحاق: «وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاماً، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فتحل نطاقها، فتجعله عصاماً، ثم علقتها به، فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر ذات النطاق لذلك».

قال ابن هشام: «وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول: ذات النطاقين، وتفسيره: أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر»[1].

هذه هي أسماء بنت أبي بكر في مقتبل عمرها، وهذه هي مواقفها في حادثة الهجرة، فما أروعها من سيرة عطرة لفضليات النساء والمسلمات! وقد كان موقفها في آخر حياتها من الحجاج الثقفي أشد روعة!!

(١) ابن هشام- (ج٢ ص ١٣١).

٢٤

مقالات

الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام (١).

العدد(٥٤)جمادى الثانية(١٣٨٩هـ) - أغسطس (١٩٦٩م).

٢- قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام (٢).

العدد (٥٨) شوال (١٣٨٩هـ) - ديسمبر (١٩٦٩م).

ترجمة الشيخ

عبد الفتاح أبو غدَّه

● **مولده ونشأته:**

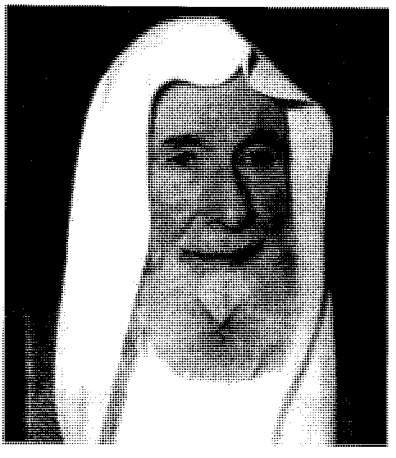

هو عبد الفتاح بن محمد بن بشير بن حسن أبوغدة الخالدي المخزومي الحلبي، ولد في مدينة حلب بسورية سنة ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٧ م في بيت ستر ودين فقد كان والده محمد رجلاً مشهوراً بين معارفه بالتقوى.

تخرَّج رحمه الله من كلية الشريعة بالجامع الأزهر الشريف في عام ١٣٦٨ هـ، ١٩٤٨م، ثم تخصص في أصول التدريس في كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر أيضاً وتخرج منه في عام ١٣٧٠ هـ، ١٩٥٠م وبعد ذلك عاد إلى موطنه حلب.

درَّس مادة التربية الإسلامية في ثانويات حلب وغيرها لمدة أحد عشر عاماً كما شارك في تأليف الكتب المدرسية المقررة لهذه المادة، ثم انتدب للتدريس في كلية الشريعة في جامعة دمشق، ودرس فيها لمدة ثلاث سنوات «أصول الفقه»، و«الفقه الحنفي» و«الفقه المقارن بين المذاهب». وقام بعد ذلك بإدارة موسوعة «الفقه الإسلامي» في كلية الشريعة بدمشق.

ثم تعاقد مع جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، ومع المعهد العالي للقضاء، وأستاذاً لطلبة الدراسات العليا، ثم أستاذاً زائراً لجامعة أم درمان في السودان ولمعاهد الهند وجامعاتها، ثم عاد للعمل مع جامعة الملك سعود في الرياض.

● **مؤلفاته**

له أكثر من سبعين مؤلفاً وأغلبها في علم الحديث، منها: «رسالة المسترشدين، حقق الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، حقق سنن النسائي» وغيرها.

● **وفاته:**

في عام١٩٩٥م عاد إلى بلده بعد غيبة سبعة عشر عاما، وبعد عام عاد إلى الرياض وتوفي فيها يوم الأحد ٩ شوال ١٤١٧ هـ الموافق ١٦ فبراير ١٩٩٧م.

قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام (١)

العدد (٥٤) جمادى الثانية (١٣٨٩هـ) - أغسطس (١٩٦٩م).

إن الحديث عن القضاء في الإسلام واسع الأطراف، متشعب الجوانب، غزير المادة لا تتسع له صفحات بل مجلدات، ولذا أراني مضطرا إلى أن أشير إلى قبسات من تاريخ ذلك القضاء الذي كان بحق غرة في جبين الإنسانية، وتاجا في تاريخ القضاء فيها.

ولنعرف فضل الإسلام في قضائه السامي الرفيع، يجمل بنا أن نذكر نبذة وجيزة عن القضاء عند العرب وعند غير العرب قبل الإسلام، لنتبين فضل قضاء الإسلام على قضاء الناس سواء من قبل ومن بعد.

ونظرا لضيق المقام واتساع الموضوع فلنكتف بهذا النموذج اليسير فإنه دال على ما سواه من جوانب القضاء عند غير العرب قبل الإسلام.

إن أول ما يلفت نظر الباحث في تاريخ القضاء عند غير العرب قبل الإسلام ما يجده لديهم من مؤاخذة الحيوان بجنايته إذا جنى هو، أو جنى صاحبه، ومن معاملتهم له في المسؤولية كمعاملة الإنسان العاقل المفكر وهذا أغرب ما تضمنه تاريخ القضاء في العصور القديمة والوسطى، حتى القرن التاسع عشر الميلادي أي من نحو سبعين سنة، فقد كان الحيوان يحاكم في هذه العصور كما يحاكم الإنسان، ويحكم عليه بالسجن والتشريد والموت، كما يحكم على الإنسان الجاني تماما.

ففي شرائع اليهود في الإصحاح الحادي والعشرين من كتاب الخروج: إذا نطح ثور رجلا أو امرأة وأفضى ذلك إلى موت النطيح، وجب رجم الثور، وحرم أكل لحمه، ولا تبعة على مالكه إذا لم يكن الثور معتاد النطح، فإذا كان من عادته

النطح، وأنذر الناس صاحبه فلم يعبأ بإنذارهم، وأهمل رقابته حتى تسبب في هلاك رجل أو امرأة، كان جزاء الثور الرجم، وجزاء صاحبه الإعدام.

وهناك حالة ثانية يعاقب فيها الحيوان في شرائع اليهود، وهي ما إذا واقع رجل أو امرأة بهيمة، وجب قتل الحيوان والرجل أو المرأة معا.

وفي شرائع قدماء اليونان، كانت عندهم محكمة خاصة لمحاكمة الحيوانات والجمادات المتسببة في هلاك إنسان، وكان يطلق على هذه المحكمة اسم «البريتانيون» وهو اسم المكان الذي كانت تعقد المحكمة جلساتها فيه، ومما ذكره أفلاطون في كتابه «القوانين» إذا قتل حيوان إنسانا كان لأسرة القتيل الحق في إقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء، ويختار أولياء الدم القضاة من المزارعين وفي حالة ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصا، وإلقاء جثته خارج البلاد، ويستثنى من ذلك القتل الناشئ عن مبارزة بين الإنسان والحيوان في مسرح الألعاب العمومية، فإن هذا لا يترتب عليه شيء[1].

ولم تكن مسؤولية الحيوان عندهم قاصرة على حالات القتل، بل هو مسؤول كذلك في الجنايات التي دون القتل، فإذا عض كلب إنسانا وجب على صاحب الكلب أن يسلم كلبه إلى المجني عليه مكموما ومشدودا في الوثاق، فيثأر الإنسان المعضوض لنفسه من الكلب الذي عضه، كما يشاء بالقتل أو التعذيب أو غيرهما وكذلك كان الحيوان عند اليونان يعاقب على جنايته سيده أو أسرته في بعض الحالات فمن حكم عليه بالإعدام لجريمة ارتكبها ضد الدين أو الدولة، كان هو وأسرته وحيواناته وممتلكاته محكوما عليها بالحرق أو التدمير أو المصادرة.

ولا بأس أن أزيد عن قضاء اليونان هذه الكلمة الصغيرة، وهي أنهم كانوا إذا سقط جماد كحجر أو خشبة أو شجرة، على إنسان فقتله، اختار أقرب الناس إلى القتيل قاضيا من جيرانه ليحكم على ذلك الجماد من الحجر أو الشجرة أو الخشبة أن ينبذ خارج حدود البلاد.

---

(١) بدهي أن هذه المبارزة الحيوانية شيء تمجه النفوس السليمة والفطر الزكية، وقد حرمها الإسلام الحنيف.

أما حال القضاء بالنسبة للحيوان عند قدماء الرومان فقد تضمنت شرائعهم مادة تقضي بعقوبة الإعدام على الثور وصاحبه إذا نقل الثور أثناء الحرث الحد الفاصل بين الحقل المحروث والحقل المجاور له، كما تضمنت شرائعهم عقوبة الكلب الذي يعض إنسانا بوجوب التخلي عنه للمعضوض، يتصرف فيه كما يشاء، وكذلك القضاء عندهم إذا رعى الحيوان عشبا غير مملوك لصاحبه، فإنه يجب تسليمه لصاحب العشب المرعي، يفعل فيه ما يشاء.

وكذلك كان حال القضاء بالنسبة لعقوبة الحيوان عند قدماء الجرمان كما كان عند الرومان واليونان.

أما عند قدماء الفرس فالأمر فيه أعجب وأطرف، ذلك أن الكلب المصاب بالكلَب إذا عض خروفا فقتله، أو إنسانا فجرحه تقطع أذنه اليمنى فإن تكرر ذلك منه قطعت أذنه اليسرى، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى، وفي الرابعة تقطع رجله اليسرى، وفي الخامسة يستأصل ذنبه[1].

أما حال الحيوان عند العرب قبل الإسلام إذا جنى الحيوان جناية بأن دخل أرضا حراما محمية لصاحبها، أو رعى عشب أرض ليس بين مالكه وصاحبها قرابة أو موالاة، فإنهم كانوا أرحم بالحيوان من اليونان والرومان والفرس واليهود، فإنهم كانوا لا يقتلون الحيوان، ولكن يشنون بسببه حربا تقتلهم قتلا، وتأكلهم أكلا!

هذه إلمامة سريعة في حكم واحد من تاريخ القضاء عند أولئك الناس قبل بزوغ الإسلام وإشراقه على البشرية التائهة الضالة، ندرك منها أن عقلية القضاء فيها خرافية سوداء، لا تستند إلى عقل سليم ولا شرع سماوي قويم، وإنما هي أوهام توارثوها واحتكموا إليها فحكمتهم، وخضعوا لها فركبتهم.

● شرف القضاء ومنزلته في الإسلام

ويحسن بنا بعد هذا العرض الوجيز لحال القضاء قبل الإسلام أن نعود إلى الحديث عن القضاء في تاريخ الإسلام، وهذا يقتضينا أن نبحث عن نظرة الإسلام

(١) من كتاب «من روائع حضارتنا» للدكتور السباعي رحمه الله تعالى.

إلى القضاء ومنزلته لديه.

إن حاجة الإنسانية إلى القضاء بمنزلة حاجتها إلى الشمس والهواء، فلو رفع القضاء من حياتها لهبطت إلى دركة البهائم والعجماوات، وأكل قويها ضعيفها، وكبيرها صغيرها كما تفعل الحيوانات والأسماك، فالقضاء - كما قال الخليفة المأمون - هو ميزان الله الذي تعتدل به الناس(١).

فبه تصان الحياة والكرامة والحرية لكل فرد، وبه تحفظ الدماء والأعراض وبه يتحقق للمجتمع التآخي بين أفراده، ولهذا كان للقضاء في الإسلام منزلة رفيعة سامية، فهو فريضة من أقوى الفرائض وعبادة من أشرف العبادات لمن ابتغى به وجه الله تعالى، لأنه إظهار للعدل، وإزالة للباطل وبالعدل قامت الأرض والسموات.

وقد وصف الله نفسه إذ قال سبحانه ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ (البقرة: ١١٣)، وقال أيضا ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ (يونس: ٩٣)، وأمر به نبيه ﷺ فقال: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ (المائدة: ٤٨)، وجعل أنبياءه قضاة بين خلقه فقال ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وبه أثبت سبحانه اسم الخلافة لداود عليه السلام حين قال له ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ (ص: ٢٦).

ولا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء، ولأجل منيف قدره، وسمو منزلته، اشترط الإسلام فيمن يتولاه من شروط الصحة والكمال، ما لم يشترطه فيمن يتولى غيره من الولايات، ولولا قيام القضاء بالعدل بين الناس لاختل النظام والمعاش، وسادت الفوضى والفساد قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ (المؤمنون: ٧١)، قال أيضا ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ

(١) في كتابه الى واليه على مصر عبدالله بن طاهر بن الحسين، وتمام كلامه «واعلم ان القضاء هو ميزان الله الذي تعتدل به الناس، وبإقامة العدل تصلح الرعية، وينتصف المظلوم، وتأخذ الناس حقوقهم».

﴿كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

وقد نبه سيدنا رسول الله ﷺ إلى عظيم أجر القضاء، وعلو منزلته في الأعمال الصالحات، وأنه موضع المنافسة منها، فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق - أي إنفاقه في الطاعات والخيرات - ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

قال الإمام الفقيه ابن قدامة الحنبلي في كتابه «المغني ٣٧٣» والقضاء من فروض الكفايات لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه، فكان واجبا عليهم كالجهاد والإمامة، قال أحمد: لابد للناس من حاكم، أتذهب الحقوق؟ وفيه فضل عظيم لمن قوي على القيام به وأداء الحق فيه، ولذلك جعل الله فيه أجرا مع الخطأ، وأسقط عنه حكم الخطأ، ولأن فيه أمرا بالمعروف ونصرة للمظلوم وأداء الحق إلى مستحقه وردا للظالم عن ظلمه وإصلاحا بين الناس وتخليصا لبعضهم من بعض، وذلك من أبواب القرب، ولذلك تولاه النبي ﷺ والأنبياء قبله فكانوا يحكمون لأممهم وبعث عليا إلى اليمن قاضيا، وبعث أيضا معاذا قاضيا.

وقد روي عن ابن مسعود أنه قال: لأن أجلس قاضيا بين اثنين، أحب إلي من عبادة سبعين سنة. وعن عقبة بن عامر قال: «جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله ﷺ فقال: اقض بينهما، قلت: أنت أولى بذلك، قال: وإن كان، قلت: علام أقضي؟ قال: اقض فإن أصبت فلك عشرة، وإن أخطأت فلك أجر واحد» رواه سعيد بن منصور في سننه». انتهى.

فالقضاة الأمناء يحرزون هذا الأجر الجزيل من الله، لأنهم حراس الشريعة وحماتها، وأعوان الحق وأنصاره، لا يعرفون فيه كبيرا ولا صغيرا، ولا مأمورا ولا أميرا، يقيمونه على الملوك قبل السوقة، ويحققون به رضوان الله قبل رضاء العباد، وفيهم جاء قول القائل:

إن الملوك ليحكمون على الورى ... وعلى الملوك لتحكم العلماء

• حكم الدخول في القضاء أو الإعراض عنه

ولسائل أن يقول: إذا كانت هذه منزلة القضاء في الإسلام، وهذا عالي قدره المنيف، فكيف نوفق بين هذا وبين ما ورد في التحذير من الدخول في القضاء، وبين ما اشتهر عن كثير من سلف الأمة أنهم هربوا من ولاية القضاء كل الهرب، حتى آثر الإمام أبو حنيفة السجن على أن يلي القضاء، ومات وهو سجين في بعض الأقوال، فكيف نوفق بين هذا وبين ما ذكرت؟

والجواب عن هذا أدعه للقاضي العلامة ابن فرحون المالكي رحمه الله تعالى، إذ يقول في كتابه العظيم «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام»: «اعلم أن أكثر المؤلفين من أصحابنا - المالكية - وغيرهم بالغوا في الترهيب والتحذير من الدخول في ولاية القضاء، وشددوا في كراهة السعي فيها، ورغبوا في الإعراض عنها والتنفير والهرب منها، حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء أن من ولي القضاء فقد سهل عليه دينه، وألقى بيده إلى التهلكة، ورغب عما هو الأفضل، وساء اعتقادهم.

وهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه، والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف، ومعرفة مكانه من الدين، فبه بعثت الرسل، وبالقيام به قامت السموات والأرض، وجعله النبي ﷺ من النعم التي يباح الحسد عليها.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام «القضاة ثلاثة، قاض في الجنة وقاضيان في النار، قاض عمل بالحق في قضائه فهو في الجنة، وقاض علم الحق فجار متعمدا فذلك في النار، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهو في النار».

فصح أن ذلك الوعيد إنما هو في القاضي الجائر، أو القاضي الجاهل، الذي لم يؤذن له شرعا في الدخول في القضاء، وفي هذا القاضي الجائر أو الجاهل قال بعض الظرفاء:

ولما توليت البرايا ... وفاض الجور من كفيك فيضا

ذبحت بغير سكين وإنا ... لنرجو الذبح بالسكين أيضا

وأما من اجتهد في تحصيل الحق على علم فأخطأ فيه، فقد قال عليه الصلاة

والسلام «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»: بمثل ذلك نطق الكتاب العزيز في قوله تعالى ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٨- ٧٩)، فأثنى الله على داود باجتهاده وأثنى على سليمان بإصابته وجه الحق»: انتهى بزيادة يسيرة.

وقال الإمام علاء الدين الكاساني الحنفي في كتابه الجليل: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٧: ٤ وهو يتحدث عن حكم الدخول في القضاء أو الإعراض عنه: «اختلفوا في أن القبول أفضل أم الترك، احتج القائلون بأفضلية الترك بما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من جعل على القضاء فقد ذبح بغير سكين». وهذا جار مجرى الزجر عن تقلد القضاء.

واحتج المفضلون الدخول في القضاء بصنيع الأنبياء والمرسلين، وصنيع الخلفاء الراشدين، ولأن القضاء بالحق إذا أريد به وجه الله تعالى يكون عبادة خالصة، بل هو من أفضل العبادات، والحديث المذكور محمول على القاضي الجاهل، أو العالم الفاسق، أو الطالب للقضاء الذي لا يأمن على نفسه». فأفاد هذا أن الأفضل قبوله والدخول فيه.

أما ما اشتهر عن الإمام أبي حنيفة وأمثاله المشهود لهم بالكفاءة من تأبيهم ولاية القضاء فهو عندي على أحد الحالين:

١- فمنهم من خاف على نفسه أن يضعف في النهوض بهذه الولاية العظيمة، فتأبى عنها وهرب منها، وكان بهذا التأبي منه مسوغا أن يلي هذه الولاية الرفيعة الخطيرة بعض الضعفاء عنها، فينجر ضعفهم عليها وعلى المجتمع معها، فكان ذلك المتأبي الكفء في اجتهاده بترك ولاية القضاء ذا أجر واحد، ولم يحرز بذلك أجرين.

٢- ومنهم من كان عرض هذه الولاية العظيمة عليه غير خال من شوائب معها مستورة وراءها كما وقع للإمام أبي حنيفة - رحمه الله تعالى -، فإنه من أعلم أهل عصره بسمو منزلة القضاء وأهميته في نظر الشرع الحنيف، وقد قرر ذلك في مذهبه

أوضح تقرير، فالذي يبدو أن عرض القضاء عليه لم يكن خالصاً من الملابسات السياسية، التي كانت تختفي وراء ذلك العرض الإلزامي القاسي. وما أحسن ما قاله العلامة الشيخ محمد الخضري في كتابه «تاريخ التشريع» ص٢٣٠ إذ تعرض لهذه الواقعة من حياة أبي حنيفة فوجهها توجيهاً حسناً، فقال رحمه الله تعالى: «أدرك أبو حنيفة تحول الأمر من بني أمية إلى بني العباس، وكانت الكوفة مركز الحركة الكبرى في هذا الانتقال، وبها تمت بيعة أبي العباس السفاح، ولم نسمع لأبي حنيفة في تلك الحركة ذكراً إلا أنه يقال: أن يزيد بن هبيرة والي العراق من قبل مروان بن محمد عرض على أبي حنيفة ولاية القضاء فأبى أبو حنيفة، فضربه من أجل ذلك.

وإنا إذا سهل علينا أن نفهم إباء شخص أن يتولى القضاء، فلا نكاد نفهم أن يضرب على ذلك، إذ إن الضرب بالسوط - وهو نهاية الاحتقار - لا يفعله عاقل ليحمل إنساناً على تولي أشرف المناصب بعد الإمارة وهو القضاء إذا لم يكن ثم إلا الإباء، فإنا لا نظن أنه يحدث في قلب الأمير من الضغن ما يحمله على إجراء تلك العقوبة، ولاسيما أن الفقهاء كانوا متوافرين بالكوفة، فلا يعز على ابن هبيرة أن يختار من بينهم من يؤدي هذه المهمة.

إني أظن - الكلام لا يزال للعلامة الخضري - إني أظن أن مثل هذا العرض، كان الغرض منه محنة المعروض عليه، حتى يعرف مقدار ولائه للدولة، فإن العلماء - على ما يظهر - كانوا يمتنعون أن يتولوا عملاً لدولة لا يحبونها لئلا يكون ذلك تأييداً لها، وقد حصل أن قام بالكوفة في هذا العهد ثائران: أولهما: زيد بن علي بن الحسين الذي خرج سنة ١٢١ في خلافة هشام بن عبد الملك وإمارة يوسف بن عمر الثقفي على العراق، فقتل.

والثائر الثاني: هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، في عهد اضطراب الحبل سنة ١٢٧، وقد كانت من أبي حنيفة كلمة تدل على امتداح زيد بن علي كما نقل ذلك عنه من كتبوا سيرته، ويمكن أن يكون قد عاد ذلك منه في أيام عبد الله بن معاوية، فأراد الأمير ابن هبيرة أن يختبر ولاءه لبني أمية، فعرض عليه القضاء

فامتنع فضربه، لأنه شعر بانحرافه عن بني أمية، لا لأنه أبى أن يتولى القضاء». انتهى كلام العلامة الخضري.

وقيل إن الذي دعا أبا حنيفة إلى القضاء وضربهُ عند امتناعه هو أبو جعفر المنصور، وكان في نفسه شيء من جهة أبي حنيفة، فإنه وشي به إلى المنصور أنه حسَّن فعل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي، الخارج على المنصور بالبصرة، قاله الأستاذ محمود عرنوس في «تاريخ القضاء في الإسلام ص ٣٧».

* * *

قبسَات من تاريخ القضاء في الإسلام (٢)

العدد (٥٨) شوال (١٣٨٩هـ) - ديسمبر (١٩٦٩م).

● خصائص القضاء في الإسلام ومزاياه

إن القضاء في الإسلام يقوم على أسس قويمة متينة، ويتميز بخصائص فريدة بارزة، ونجمل عماد تلك الخصائص والمزايا فيما يلي:

١ - الإيمان بالله تعالى

الذي يجعل من القاضي رقيباً على نفسه، في حكمه على القريب والبعيد، والعدو والصديق، فينتفي من حكمه الجور والتحيُّز والمُداهنة، ويسلم له العدل والمساواة والنصفة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة: ٨)، وهكذا يتضح لنا كيف أن الإيمان بالله، واستشعار المسؤولية بين يديه ينبعث عنه العدل والإنصاف، وهذا الأساس - الإيمان بالله - يفتقده كل قانون وضعي، مهما تحرى به العدل والأحكام، ومن خلال هذه الخاصة أيضاً يتبين لنا متانة القضاء في الإسلام، وأنه مقام منيع محصن من تدخّل ذوي النفوذ والجاه والقوة فيه، لأنه ينبعث من عقيدة الإيمان لا من تولية السلطان.

٢ - الله سبحانه هو الحاكم وحده

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ (الأنعام: ٥٧). وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾ (الرعد: ٤١). وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦). فلا حاكمية إلا لله وحده، والرسول ﷺ مُبيِّن لحكم الله،

حاكم بقول الله وشرعه، كذلك الحكام بعد رسول الله ﷺ إنما هم فيما يقضون به نواب عن الله، ومنفِذون لأحكامه لا غير، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص: ٢٦).

٣- الشريعة التي يحتكم إليها هذا القضاء شريعة عادلة كاملة محكمة، كيف لا وهي شريعة خالق الخلق وأحكم الحاكمين، وقد أكملها للناس وأنزلها خاتمة الشرائع السماوية وأتم بها نعمته وفضله على جميع العباد، وجمع لهم فيها خير الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩)، وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ (المائدة: ٣)، وقد كفلت هذه الشريعة بكمالها وتمامها للناس كل حاجاتهم، وأغنتهم عن كل تشريع آخر، فأي حكم بخلافها هو خروج عن العدل، ووقوع في الحيف الذي لا تسلم منه الأحكام والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم، فيشملها الضعف والهوى والقصور الإنساني، وطبيعي أن يتأتى عن ذلك الظلم والاضطراب والفساد.

أين شرع الناس من شرع الذي خلق الدنيا وسوَّى العالمين؟

٤- العدل

لقد تميز قضاء الإسلام فيما تميز به عن غيره بإقامته العدل بين الناس، دون تفريق بين أبيض وأسود، وملك وسوقة، وصغير وكبير، وغني وفقير، وشريف وحقير، فالناس في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب.

وقد فرض الإسلام العدل في الحكم مع العدو والصديق، والبعيد والقريب، وآيات القرآن الكريم الناطقة بذلك كثيرة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ (النساء: ١٣٥).

٥- المساواة

ونريد بها إلغاء ما تعارف عليه الناس من التمييز بين الشريف والوضيع في الحكم، بسبب الشرف والضعة، دون نظر إلى حق المحق وباطل المبطل منهما.

فالإسلام أقام التسوية بين أصناف الناس جميعا أمام الحق والقضاء، مهما تباينت منازلهم وألوانهم وأجناسهم وبلدانهم وألسنتهم وأديانهم.

وعلى هذا الأساس قام القضاء في الإسلام، وبه تميز، فكان غرة في جبين القضاء الإنساني أبد الدهر.

٦- الشمول لأنواع الحقوق وشؤون الحياة

القضاء في الإسلام قائم على شريعة الإسلام بطبيعة الحال، ونحن نعلم أن شريعة الإسلام كاملة، ومن كمالها تناولها شؤون الحياة كافة، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقال أيضا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

والقضاء الإسلامي يتناول - فيما يتناوله - شؤون الأموال والأعراض والدماء وسائر الحقوق، وهو يشمل نظام البيوت، ونظام الحكم، والتعامل بالأموال، والعقود مهما تنوعت، وشؤون الحرب والسلم، والتحكيم وغيرها، فكل ما يتنازع الناس فيه من شؤون الدنيا داخل في قضاء الإسلام.

٧- وحدة القضاء

ومما تقدم يتبين لنا مزية هامة لها أثرها الخطير في النفوس والأفكار، وهي: وحدة القضاء الإسلامي، فالإنسان في ظل قضاء الإسلام ليس هو أمام قضاء متعدد النزعات، مختلف الجهات، متباين المصادر، تتضارب مصالح الناس عنده، وتذهب حقوقهم بسبب اختلاف قواعده وحلوله للمشكلات والوقائع والخلافات، بل ليس أمام ذلك الإنسان إلا قضاء واحد شامل متكامل متجانس بفروعه المتعددة واختصاصاته المتنوعة.

٨- اقتصاره على مصالح الدنيا دون تدخله في الأمور العبادية، والمسائل الاجتهادية الخلافية، والوقائع الأخروية، فإن الشمول الذي تميز به إنما هو من

الأمور المتنازع فيها من مصالح الدنيا، أما ما عداها من الأمور التي ذكرناها فإنها لا تدخل في نطاق القضاء وحكم الحاكم أصلا، كما لا تدخل فيه خوالج النفوس ونيات الناس ما لم تتمثل في أعمال.

قال الإمام القرافي في كتابه «الإحكام في تمييز الفتاوى والأحكام وتصرفات القاضي والامام» ص٣٢: والحكم إنما يكون فيما يقع فيه التنازع لمصالح الدنيا، أما مسائل الاجتهادات في العبادات ونحوها فلا يدخلها حكم أصلا.

فليس لحاكم أن يحكم بأن هذه الصلاة صحيحة أو باطلة، ولا أن هذا الماء دون القلتين فيكون نجسا، فيحرم بعد ذلك استعماله، بل ما يقال في ذلك إنما هو فتيا، إن كانت مذهب السامع عمل بها، وإلا فله تركها والعمل بمذهبه، ولا يلزم شيء من أحكام العبادات ونحوها من لا يعتقده، بل يتبع مذهبه في نفسه، ولا يلزمه قول ذلك القائل بحكم الحاكم به.

٩- اعتماده على الوازع الإيماني القلبي

ولئن كان من حكمة القضاء في الإسلام ومزاياه أن يتولى الفصل في القضايا المتعلقة بمعاملات الناس ومصالحهم الدنيوية، ودون قضايا العبادات والأخرويات كما ذكرنا، فإن من مزاياه أيضا اعتماده على الوازع الإيماني القلبي في نفوس المتخاصمين حتى لو ضلل القضاء، فإنه يبقى الحرام حراما ولو حكم القاضي بحله اعتمادا منه على البينة الواضحة.

وهذا الوازع الإيماني المتولد عن عقيدة الإسلام، يعتلج في قلب الخصم حتى يجعله يتورع عن أكل أموال الناس بالباطل، ولو سانده القضاء في الظاهر، عن أم سلمة رضي الله عنها قلت: قال سيدنا رسول الله ﷺ لرجلين من الأنصار، اختصما إليه في مواريث بينهما قد درست معالمها، ليس عندهما بينة إلا دعواهما، قال لهما: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولم ينزل علي فيه شيء، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ظلما بقوله فلا يأخذه، فإنما

أقطع له قطعة من النار، يطوق بها من سبع أرضين يأتي بها سطاما في عنقه يوم القيامة، فليأخذها أو ليدعها». فبكى الرجلان جميعا لما سمعا ذلك، وقال كل واحد منهما: يا رسول الله حقي هذا الذي أطلب لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما هذا فاذهبا واقتسما، ثم توخيا الحق، فاجتهدا في قسم الأرض شطرين، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» رواه احمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وجمع بين رواياتهم.

١٠- استقلاله ونزاهته

القضاء في الإسلام سلطة عليا ذات كيان رفيع، مستقلة في ذاتها، بمعنى أنه لا سلطان عليها لأمير أو خطير في أن يتدخل في أحكامها، ذلك أن القاضي نائب عن الله ﷻ، وهو مسؤول بين يديه، فهو - وإن قامت الحكومة بتوليته منصب القضاء - هو بواقع الأمر نائب عن الله، لا يحكم إلا بما أنزل الله، وأرشد إليه رسوله ﷺ ولا يكون أحد من رجال الدولة حتى أكبر كبير فيها في منجاة من أن يقضي عليه إذا اقتضى العدل ذلك، شأنه كشأن عامة الرعية أمام القضاء.

قال الإمام الكاساني الفقيه الحنفي في كتابه العظيم «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» ٧: ٦١ «إن القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقه، بل بولاية المسلمين وفي حقوقهم، وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم» فلذا إذا مات الخليفة أو خلع لا تنعزل قضاته، وقد صح أن نصرانيا ادعى على هارون الرشيد دعوى، فسمعها القاضي أبو يوسف، مع أنه مولى من قبل الرشيد، فالقاضي يقبل الدعوى على السلطان أو له لإحقاق الحق.

وسنرى فيما بعد كيف قضى شريح على أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه، وكان خصمه يهوديا، كما قضى أبو يوسف على الخليفة هارون الرشيد، وكان خصمه نصرانيا، وكما قضى محمد بن عمران الطلحي قاضي أبي جعفر المنصور عليه في خصومته مع الحمالين الجمالين.. إنه الإسلام.

ومن أدل الوقائع التي تعبر عن هذا المعنى العظيم، الذي تميز به قضاء الإسلام: ما وقع للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، فقد جاء إليه

رجل من أصحابه وأهل الدالة عليه، يستعديه على رجل غشه، فقال له صلاح الدين: ما عسى أن أصنع لك؟ وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته فالحق يقضي لك أو عليك[1].

ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذا لحكم الشرع وتابعا له، كالشحنة وهو صاحب الشرطة، أي رئيسها وأن القضاة مستقلون بالحكم، لا سلطان لأحد عليهم.

فهذه الواقعة، والوقائع التي أشرنا إليها، وغيرها كثير، كلها تمثل لنا استقلال القضاء ونزاهته في هذا الدين الحنيف، وذلك هو الطابع العام لقضاء الإسلام.

١١- عمومه وعالميته

مما هو معلوم أن رسول الله ﷺ أرسل للناس كافة، وأن هذه الشريعة مخاطب بها كل بني آدم، وأن كل إنسان منهم مدعو للدخول فيها والانضواء تحت ظلها، وقد قرر الإسلام الحنيف أن الناس جميعا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وديارهم.. نوع واحد، ومن أصل واحد: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ، (الحجرات: ١٣) «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح».

ولدى استقراء أحكام هذه الشريعة الإسلامية الغراء - التي هي مرجع القضاء- نجدها لا تفرق بين مشرقي ومغربي، وصيني وعربي، وأبيض وزنجي، وهذا كله يدلنا على عالمية هذا القضاء الإسلامي، وعلى عمومه للبشر قاطبة، فهو القضاء الوحيد الذي يمكن أن يحتكم إليه كل فرد من ألوان البشر، لاطمئنانه أنه أمام قاض عالمي النظرة والتصور، أمام قضاء سنّ أحكامه الباري سبحانه وتعالى لعباده كافة، وهو القائل في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١)، والقائل سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا

(١) ذكره الشيخ رشيد رضا في «الوحي المحمدي» من طبعته الثالثة ص ٢٤٢.

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)، ولنقايس بين هذا في الإسلام، وبين ما عليه الكثير من الأمم التي تدعي الحضارة والرقي اليوم، مثل أميركا وجنوب إفريقيا، وما يقوم بهما من المآسي المرة من جراء التفرقة بين لون ولون، وعنصر وعنصر، مما تتجدد أنباؤه على أسماع العالم كل يوم.

١٢- كماله وخلوده

لقد تبدى لنا من كل ما سبق أن هذا القضاء متكامل الوجود، مستجمع لشرائط إحقاق الحق مستوف - على الوجه الأمثل - لكل ما يتعلق بالحاكم والمحكوم وشريعة التحاكم وأصول التقاضي وسائر ما يتصل بالقضاء.

وجدير بمثل هذا القضاء الكامل أن يكون بلسما للناس في كل عصر وجيل، يصلح بينهم، ويقوِّم أودهم، ويرد شاردهم إلى جادة الحق والصراط المستقيم، فهو خالد خلود شريعة الإسلام، باق ما بقيت السماوات والأرض.

هذا ما رأيت تعداده من الخصائص والمزايا للقضاء الإسلامي، وهناك أمام الباحث الدارس أمور يمكن أن تضاف إليها أيضا، فتكون من مزاياه مثل كونه مجانيا، لا يتوقف على رسوم وأجور تقدم من أحد الخصمين، ليقبل النظر في الدعوى، وواضح أن هذه المزية تمكن الفقير وغيره من الوصول إلى إنصافه وإقامة العدل بينه وبين ظالمه، وحري بالقضاء العادل ألا يكون بينه وبين الضعفاء من أصحاب الحقوق معوق ولا حجاب.

ومما يذكر أيضا في هذا المجال ثراء الفقه الإسلامي الذي هو المرجع العام للقضاء، ذلك الفقه الذي لا نظير له عند أمة من الأمم، كيف لا وقد نما واتسع على مر العصور خلال أربعة عشر قرنا، وامتد على آفاق واسعة من الكرة الأرضية، وقد بذلت فيه قرائح العقول وكرائم الجهود من شتى الأجناس والشعوب وواجه بالحلول الواقعية الحاسمة مشكلات بني الإنسان على اختلافها وتنوعها وتجددها، ومن تلك المزايا أن لهذا الفقه المتجدد قواعد وأصولا منهجية، تسعف القاضي وتسدده في التطبيق والاستنباط.

تلك هي أهم خصائص قضاء الإسلام ومزاياه، فلا عجب أن نشهد في تاريخه

النماذج الرائعة الكثيرة تتجدد وتتكرر على مر العصور، وخاصة إذا قابلنا بينه وبين قضاء الأمم الأخرى في القديم والحديث، وذلك الفضل كله ناتج عن الأصل الأول لهذا القضاء، وهو صدوره عن الشريعة المنزلة من عند الله تعالى، على نبيه وأكمل خلقه سيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين بهذا الإسلام الحنيف.

والآن نسير مع هذا القضاء العظيم لنشهد في لمحات نشأته وأطواره.

القضاء في عهد رسول الله ﷺ

● **تمهيد**

في هذا العهد النبوي الكريم نشهد مولد القضاء الإسلامي، ورفع قواعده وإقامة أركانه: من شرع حكيم يحكم به، وتصور سليم للكون والإنسان والحياة يدعم هذا القضاء، وتحديد للمسؤولية، وجعلها فردية وإقامة لرقابة الله في قلوب الناس حاكمين ومحكومين، مدعين أو مدعى عليهم، إلى غير ذلك مما يحقق العدل والنصفة والإخاء بين العباد.

● **مبعث الرسول ﷺ**

لما بعث رسول الله ﷺ في مكة، قام يدعو الناس إلى دين الله تعالى والإيمان به سبحانه، وتوحيده بالعبادة والطاعة، ونبذ الشرك والأصنام، وتنزيه العقل عن لوثات الوثنية والضلالات، ثم أذن له بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها، وكثر الداخلون في دين الله، وانتشرت دعوة الإسلام، وتزايد نموها وقبولها.

● **رسول الله ﷺ قاضيا**

وكما كان رسول الله ﷺ مأمورا بالدعوة إلى الله وتبليغ الأحكام كان مأمورا أيضا بالحكم والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من اختلاف وتنازع، وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ذلك، منها قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقوله سبحانه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء: ٦٥).

فقام رسول الله ﷺ بأمر ربه، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويبين لهم ما يحل وما يحرم، ويفصل في خصوماتهم إلى جانب قيامه بتبليغ الشرائع والأحكام، فكان ﷺ الإمام والقاضي والمفتي والرسول المبلغ عن الله تعالى، ورفع إليه كثير من الأمور المتنازع فيها، فقضى فيها بما أنزل الله إليه في كتابه، وبما هداه إليه من الحكمة، وبما وهبه من رأي ونظر سديد حكيم، كما أفتى فيما استفتي فيه.

والحكمة في تولي النبي ﷺ القضاء بنفسه ظاهرة، وهي أن العدل أساس العمران، ولا ارتقاء ولا رجاء لتأليف أمة وتعاضدها وتكوين وحدتها إلا بالعدل والأمن على الحقوق، لهذا كان عليه الصلاة والسلام يتولى القضاء بنفسه تأليفا لهم، وتدريبا على إقامة العدل، وتنبيها لهم أن يكونوا قوامين بالقسط، وأن يلي قضاءهم من يكون أفضلهم وأنزههم وأعلمهم.

● **نهج رسول الله ﷺ في القضاء**

ونجمل فيما يلي أهم ما عمل به رسول الله ﷺ، أو اقره من طرق الإثبات في القضاء، وهي: الإقرار، البينة، اليمين، القسامة، القيافة، القرينة، القرعة، ونحوها، وكان يقول: «البينة على المدعي واليمين على من أنكر».

وكان يترافع إليه المتخاصمان فيسمع كلام كل منهما، ثم يقضي على نحو ما يسمع، اعتمادا على ظاهر البينة، ودلائل الإثبات أو النفي، فكان يحكم بالظاهر وكان قضاؤه ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه شيء اجتهادا منه، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء: ١٠٥)، كما يشهد له من السنة المطهرة حديث أم سلمة رضي الله عنها الذي تقدم بتمامه، وفيه قوله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له، فمن قضيت له من

حق أخيه شيئا ظلما بقوله فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار».

● **أقضية النبي ﷺ**

وخلال السنوات العشر الكريمة التي عاشها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، صدرت عنه أقضية غير قليلة في الوقائع التي ترافع الناس فيها إليه، وقد أفردت تلك الأقضية النبوية بالتأليف من كثير من العلماء جزاهم الله خيرا، ونكتفي بذكر نموذج واحد منها لضيق المقام.

● **نموذج من أقضية الرسول ﷺ :**

روى مسلم في صحيحه في كتاب الحدود ١١ : ١٨٧ عن عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها: أن قريشا أهمهم شأن المخزومية، التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: «من يكلم بها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله، فأتي بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي - وقت اجتماع الناس بعد العصر - قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها».

قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله ﷺ.

وإن ما تضمنه هذا الحديث الشريف من القضاء النبوي الكريم، ومن بيان المبدأ الإسلامي العادل السامي العظيم، وهو المساواة بين الناس ضعيفهم وقويهم، وشريفهم ومشروفهم لتعجز البشرية أن تأتي في قضائها بمثله في غير ظل الإسلام، وليس هو حادثة فريدة في بابها بل إن له أمثالا وأمثالا في أقضية الرسول الكريم وأقضية أصحابه وأقضيه قضاة العدل من علماء الإسلام.

• أشهر القضاة في عهد الرسول ﷺ

وقد استقضى رسول الله في حياته الشريفة طائفة من أصحابه سادة هذه الأمة وعلمائها، فقاموا بالقضاء في حضرته، وقاموا به بعيدين عنه حيث وجههم إليه من بلدان الإسلام الجديد.

ومن الذين قضوا بحضرته، عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهني، وحذيفة بن اليمان، وعمر بن الخطاب، ومعقل بن يسار رضي الله عنهم، ويضيق المقام عن ذكر أخبارهم الدالة على ذلك.

وقد كان هذا الاستقضاء من رسول الله ﷺ لهم في حضرته الشريفة بمنزلة التمرين العملي على النهوض بأداء القضاء على وجهه، وليشهدهم عليه الصلاة والسلام وهم يفصلون في الخصومات بين الناس - بعد أن شهدوه ﷺ يفصل فيها مرات ومرات - فيسددهم إن أخطأوا، ويقرهم إذا أصابوا، فكان ذلك تمرينا واختبارا لهم في آن واحد.

ومن الذين قضوا بعيدين عن حضرته الشريفة عليه الصلاة والسلام: علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وعتاب بن أسيد، وعمرو بن حزم الأنصاري وأبوموسى الأشعري رضي الله عنه، ولا يتسع المجال لذكر نماذج من أقضيتهم.

ويجب علينا ونحن نتحدث عن تاريخ القضاء في العهد النبوي، أن ننافح بالحق عن هذا الصحابي الجليل قاضي النبي ﷺ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، واسمه عبدالله بن قيس، ونعرف به بعض الشيء، فقد أشاع بعض الضعفة من أهل التاريخ والأدب والأخبار، ما يصوره كأنه من المغفلين البله، حتى أضاع الخلافة والحق من أهله، وجر على المسلمين ببلاهته - في زعمهم وحاشاه - الويلات والمآسي.

فنقول وبالله التوفيق:

إن رجلا اختاره رسول الله ﷺ سيد البشر والأنبياء والرسل، ليكون قاضيا وأميرا على قطر واسع عريض وهو اليمن، لا يمكن أن يكون كما زعمه أولئك الضعفة الغالطون، فإن هذا الذي زعموه ينقضه من أساسه - ولا أساس له - تولية

رسول الله ﷺ لأبي موسى على ذلك القطر السعيد بالإسلام الجديد، ورسول الله سيد الرجال وأعرفهم بأفضل الرجال فطانة وزكانة وحزما وعلما، وهو ﷺ محفوظ أن يضع الولاية والأمانة في غير موضعها، أو يكلها إلى غير أهلها، وهو الذي يقول كما روى البخاري في صحيحه: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

٢٥ مقالات

الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

الأحاديث الضعيفة والقوية.

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديمسبر (١٩٧٠م).

ترجمة الشيخ

محمد ناصر الدين الألباني

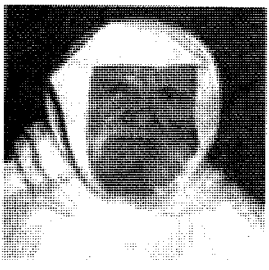

● **مولده ونشأته**

ولد الشيخ محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني عام ١٣٣٣ هـ الموافق ١٩١٤ م في مدينة أشقودرة عاصمة دولة ألبانيا - حينئذ - عن أسرة فقيرة متدينة يغلب عليها الطابع العلمي، فكان والده مرجعاً للناس يعلمهم ويرشدهم، ثم هاجر بصحبة والده إلى دمشق الشام للإقامة الدائمة فيها.

أتم العلامة الألباني دراسته الابتدائية في مدرسة الإسعاف الخيري في دمشق بتفوق، ثم وضع له والده منهجاً علمياً مركزاً قام من خلاله بتعليمه القرآن الكريم، والتجويد، والنحو والصرف، وفقه المذهب الحنفي، وقد ختم الألباني على يد والده حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، كما درس على الشيخ سعيد البرهاني مراقي الفلاح في الفقه الحنفي وبعض كتب اللغة والبلاغة، هذا في الوقت الذي حرص فيه على حضور دروس وندوات العلامه بهجة البيطار.

أخذ عن أبيه مهنة إصلاح الساعات فأجادها حتى صار من أصحاب الشهرة فيها، وأخذ يتكسب رزقه منها، وقد وفرت له هذه المهنه وقتاً جيداً للمطالعة والدراسة.

أخذ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالتوجه نحو علم الحديث وعلومه، فتعلمه في نحو العشرين من عمره متأثراً بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ و كان أول عمل حديثي قام به هو نسخ كتاب «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ مع التعليق عليه.

وأصبح معروفاً بذلك في الأوساط العلمية بدمشق، حتى إن إدارة المكتبة الظاهرية بدمشق خصصت غرفة خاصة له ليقوم فيها بأبحاثه العلمية المفيدة، بالإضافة إلى منحه نسخة من مفتاح المكتبة حيث يدخلها وقت ما شاء، وقد بدأ الشيخ في التأليف وهو في العقد الثاني من عمره، وكان أول مؤلفاته الفقهية: كتاب «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» وفي الحديث أيضاً كتاب «الروض النضير في ترتيب وتخريج معجم الطبراني الصغير».

التقى الشيخ بعلماء دمشق وجرت بينه وبينهم مناقشات حول مسائل التوحيد والاتباع والتعصب المذهبي والبدع، فلقي الشيخ لذلك المعارضة الشديدة من بعضهم.

كان للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من الدروس العلمية التي كان يعقدها مرتين كل أسبوع، وكان يزور المحافظات السورية المختلفة، بالإضافة إلى بعض المناطق في المملكة الأردنية قبل استقراره فيها مؤخراً، مما أدى إلى سجنه غير مرة حقق خلالها مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري واجتمع مع شخصيات كبيرة في المعتقل.

- **أعماله وإنجازاته:**

لقد كان للشيخ جهود علمية وخدمات عديدة منها:

١. اختارته كلية الشريعة في جامعة دمشق ليقوم بتخريج أحاديث البيوع الخاصة بموسوعة الفقه الإسلامي.
٢. اختير عضواً في لجنة الحديث، التي شكلت في عهد الوحدة بين مصر وسوريا.
٣. اختير عضواً للمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من عام ١٣٩٥هـ إلى ١٣٩٨هـ. حيث كان مدرساً فيها، وأوصى بمكتبته لطلابها.
٤. انتُدِب من الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ للدعوة في مصر والمغرب وبريطانيا إلى التوحيد والاعتصام بالكتاب والسنة والمنهج الإسلامي الحق.

للشيخ مؤلفات عظيمة وتحقيقات قيمة، ربت على المئة، منها: «إرواء الغليل

في تخريج أحاديث منار السبيل، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وصفة صلاة النبي» وغيرها.

كما حصل على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، تقديراً لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي تخريجاً وتحقيقاً ودراسة.

قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيت تحت أديم السماء عالما بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني... هو مجدد هذا العصر في ظني والله أعلم».

● **وفاته**

توفي العلامة الألباني في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ، الموافق الثاني من أكتوبر ١٩٩٩م، وشيعه الآلاف ودفن بعد صلاة العشاء، رحمه الله وغفر له وللمسلمين.

الأحاديث الضعيفة والقوية

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٠م).

ومن المشاهد حقاً أن مثل هذا التعاون قائم إلى حد كبير بين المتخصصين، وإذا كان الأمر كذلك، فمن الواجب حينئذ أن يستعين كل متخصص بعلم ما، بعلوم غيره من ذوي التخصصات الأخرى حينما يكون هناك ارتباط وثيق بين علمه وعلومهم، وذلك ليكون على ثقة فيما يذهب إليه من فهم أو يصدره من حكم.

لا يخفى على أهل العلم أن من الواجب اليوم على كل من يريد أن يستقل في الفهم عن الله ورسوله، أن يكون على علم بقسم كبير من العلوم التي تساعده على ذلك، مثل أصول التفسير، والفقه، ومصطلح الحديث وما يتفرع منه من المعرفة بما صح من الحديث عن رسول الله ﷺ وما لم يصح، وأن يكون على جانب كبير من الثقافة والمعرفة باللغة العربية وآدابها.

بيد أن الواقع يشهد أن من النادر جداً، أن يكون الفرد متمكناً في كل علم من هذه العلوم وغيرها، متقناً إياها، كما لو كان متخصصاً في علم واحد منها، ولذلك فإن من البديهي أن نرى أهل العلم والعقل يتخصصون في علم واحد أو اثنين، مع المشاركة طبعاً في العلوم الأخرى الضرورية منها، فكان فيهم المفسر والمحدث، والفقيه والمؤرخ، واللغوي والأديب وغيرهم، مما هو معروف في العلوم الشرعية، فالمفسر مثلاً يستعين بالمحدث واللغوي، وهذا يستعين بالمفسر والمحدث، وهذا يستعين باللغوي والفقيه، وهذا يستعين بأولئك وغيرهم وهكذا، فكل قد أخذ حظه من الأجر والفضل باستعانة غيره به، والاستفادة من علمه وتخصصه.

غير أن أهل العلم بالحديث والتخصص منهم بالجرح والتعديل والمعرفة

بصحيح الحديث وسقيمه، من القدامى منهم والمحدثين، كانوا أقل العلماء حظاً في الاستعانة بهم والاستفادة من علمهم، لاسيما في القرون المتأخرة كهذا الذي نحن فيه وما قبله من القرون الثلاثة بصورة خاصة، فقد انصرف العلماء فضلاً عن غيرهم عن العناية بهذا العلم وتدريسه دراسة تليق بجلاله وعظمته، حتى في المدارس الشرعية، بل إن بعض المدارس التي كانت مخصصة لتدريس الحديث فيها فيما قبل ذلك من القرون صارت اليوم خراباً يبابا، وبعضها تدرس فيها العلوم الشرعية، وأما الحديث فدراسته رمزية! ليس في أساتذتها متخصص في علم الحديث كدار الحديث بدمشق وغيرها!.

ومن المعلوم أن علم الحديث النبوي هو أوسع العلوم الشرعية قاطبة وأغزرها فائدة، وأكثرها اتصالاً وارتباطاً بالعلوم الأخرى، فما من مفسر أو فقيه أو مؤرخ أو لغوي إلا وهو بحاجة إليه، وإلى الاستعانة بالمتخصص فيه، والاعتماد عليه. ومع ذلك فالواقع أن القليل من المتخصصين في العلوم الأخرى من استفاد من علمهم وتحقيقهم، فكان من آثار ذلك انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتي لا أصل لها بين المسلمين الخاصة منهم والعامة لا أستثني منهم خطيباً ولا مدرساً، ولا واعظاً ولا مرشداً، ولا كاتباً ولا محاضراً، إلا من شاء الله، وقليل ما هم. ذلك لأن ثقافتهم مستقاة من كتب - هي على اختلاف بحوثها ومواضيعها- جلها مشحونة بمثل تلك الأحاديث، لم يلتزم من ألفها هذا النهج العلمي من الاستعانة بأهل التخصص والمعرفة بها.

فكم من عارف بعلم الكلام - ولا أقول التوحيد - أودع في كتابه من الأحاديث هي عند أهل العلم موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ لا تستحق أن تذكر في كتب الوعاظ والتصوف والرقائق، بله كتب العقائد والتوحيد والحقائق مثل حديث : «إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك آخذ، وبك أعطي»[1].

(١) انظر المقاصد الحسنة (رقم ٢٣٣) و(كاشف الخفا) (رقم ٧٢٣).

وكم من ماهر في علم أصول الفقه أقام أصلاً، أو قعد قاعدة على أساس حديث منكر أو موضوع عند المحققين كحديث معاذ: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي...» الحديث[١] و«اختلاف أمتي رحمة»[٢].

بل وكم من محدث مكثر حافظ، يحتج بأحاديث في الأحكام وغيرها من أبواب الشريعة هي - عند ذوي التخصص منهم بالجرح والتعديل والمعرفة بصحيح الحديث وسقيمه - إما ضعيفه أو موضوعة، كالأحاديث التي يصححها الحاكم وغيره من المتساهلين.

وكم من مفسر بارع تأول آية، أو ذكر سبب نزولها أو ساق قصة متعلقة بها، أو لمناسبة ما، اعتماداً على حديث لم يتثبت من صحته، هو عند أهله العارفين به ضعيف وموضوع، مثل حديث قصة الملكين هاروت وماروت، وارتكابهما عدة فواحش![٣]، وحديث قصة الغرانيق وأن الشيطان تكلم على لسان النبي ﷺ بآية مدح بها آلهة المشركين: «تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى»! ولنا في بيان ضعفه وبطلانه رسالة بعنوان: «نصب المجانيق، لنسف قصة الغرانيق» وهي معروفة[٤].

وكم من فقيه جامع أوجب على الناس ما ليس بواجب. أو أسقط عنهم ما هو واجب، أو حرم عليهم، ما ليس بحرام، وأحل لهم ما ليس بحلال أو أبطل عليهم عبادة صحيحة، أو صحح لهم عبادة باطلة، أو سفك دماً محرماً، وحرم دماً مهدوراً، أو شرع لهم عبادة ليست مشروعة. كل ذلك لم يكن منهم عن هوى أو غرض حاشاهم، وإنما كان اعتمادا منهم على أحاديث توهموها ثابتة وليست

(١) تكلمت عليه في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» ولما ينشر بعد ومحله منها قبيل المائة التاسعة.

(٢) انظر في السلسلة المذكورة برقم (٥٧).

(٣) قد بينت بطلانها وأنها من الإسرائيليات في السلسلة المتقدمة، فمن شاء الاطلاع فليرجع إليها رقم ١٧٠.

(٤) قام بطبعها المكتب الإسلامي بدمشق لصاحبه الأخ زهير شاويش.

كذلك، ولو أنهم رجعوا إلى أهل التخصص والمعرفة بالحديث لعلموا أنها ضعيفة أو موضوعة، لا يجوز تشريع شيء ما بها، ولو في حدود الندب والاستحباب، فكيف في التحريم والتحليل، والإبطال والإيجاب؟! والأمثلة على ما ذكرت كثيرة جداً تبلغ المئات بل الألوف.

وأما الصوفية وأمثالهم ممن ألف في علوم الدين، والأخلاق، والآداب والمواعظ، فحدث عن أحاديثهم، وما وقع فيها من الأباطيل ولا حرج وحسبك أن تطلع على كتاب «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ زين الدين العراقي، إنك إن فعلت ذلك فسترى ما هو أعجب وأعجب!!.

ولما كنا على أبواب حركة علمية واسعة النطاق، في شتى أنواع العلوم ومنها الفقه والتشريع الإسلامي، كان طبيعياً جداً أن يكتب كثير من العلماء والكتاب في مواضيع معينة من أبواب الفقه، وخصوصاً ما كان منها متعلقاً بالحقوق والقانون والاجتماع والاقتصاد.. وتلقى محاضرات كثيرة في مثل هذه المواضيع، وبعضهم شرع في تأليف كتب خاصة في الفقه الإسلامي أو فقه السنة جامعاً لجميع أو أكثر الأبواب الفقهية التي يحتاجها المسلم مبتدئين بـ«كتاب الطهارة»، ثم «الصلاة»، ثم «الزكاة» وهكذا إلى آخر الكتب التي جرى الفقهاء قديماً على نسقها.

ولكني رأيت أكثر هؤلاء العلماء والكتاب والمحاضرين، قد سرت إليهم عدوى من قبلهم من الفقهاء من ترك الاستعانة بأهل التخصص والمعرفة بالحديث، فلا تكاد تجد حديثاً واحداً في كل ما يكتبون من البحوث الخطيرة مخرجاً مصححاً أو مضعفاً على طريقة أهل الحديث، اللهم إلا قليلا منهم، وخيرهم صنعاً من يقول: «رواه فلان» ثم يسكت، ولا يبين درجته من الصحة أو الضعف، وهو قد يكون موضوعاً مكذوباً عند أهل الحديث! وقد أقام عليه من أشرنا إليهم علالي وقصوراً.

وإليك بعض الأمثلة:

١- قال بعض الأفاضل ممن ألف في فقه السنة:

«يحرم على الجنب أن يمكث في المسجد لحديث عائشة قالت: «جاء رسول الله ﷺ، ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد فقال: وجهوا هذه البيوت عن المسجد... فإني لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب». رواه أبو داود. وعن أم سلمة قالت: «دخل رسول الله ﷺ صرحة هذا المسجد فنادى بأعلى صوته: إن المسجد لا يحل لحائض ولا لجنب» رواه ابن ماجه والطبراني.

أقول: فقد حرم المكث في المسجد بناء على هذا الحديث، وأنا أعلم أنه ليس هو أول من فعل ذلك بل هو مقلد لبعض من سبق من الفقهاء، وما أوقعه في ذلك إلا عدم رجوعه إلى أهل التخصص في الحديث. ولو صنع لوجد قول البيهقي: «ليس بقوي». وقول عبد الحق الإشبيلي: «لا يثبت» وقول الخطابي: «ضعفه جماعة». ذكر هذا الإمام النووي في المجموع (شرح المهذب) (٢/ ١٦٠).

ثم إنه لو رجع إلى مصدر الحديث مباشرة ألا وهو أبو داود وابن ماجه، وكان من أهل العلم بتراجم الرواة وأحوالهم، لوجد أن مدار الحديث على جسرة بنت دجاجة، وقد قال البخاري فيها: «عندها عجائب»! وَلَمَا وقع في هذا الإيهام الفاحش وهو أن للحديث طريقين: أحدهما عن عائشة، والآخر عن أم سلمة، وحقيقة الأمر أن الطريق واحدة مدارها على جسرة هذه كما أشرت إليه آنفاً، غاية ما في الأمر، أن بعض الرواة اختلفوا في إسناده عن جسرة. فقال أحدهم: عنها عن عائشة. وقال آخر: عنها عن أم سلمة. فيتوهم من لم يرجع في الحديث إلى الأصول والأمهات أن للحديث طريقين، زد على ذلك أن هذا الاختلاف يعتبر عند أهل الحديث اضطراباً يزيد الحديث ضعفاً على ضعف، فكيف يجوز لعالم أن يحرم بمثله شيئاً؟!

وليس غرضي الآن تحقيق القول والإفاضة في بيان ضعف الحديث وما قيل فيه.

٢- وقال آخر من الأفاضل المشهورين والعلماء البارزين في رسالة له في «الحقوق العامة لأهل الذمة»:

«دم الذمي كدم المسلم، فإن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة اقتص منه له، كما لو قتل مسلما»[١].

ثم استدل على ذلك بحديث ابن عمر عند الدارقطني أن رسول الله ﷺ قتل مسلماً بمعاهد وقال: أنا أكرم «وفي رواية: أحق» من وفى بذمته[٢].

مع أن هذا الحديث عند أهل المعرفة به ضعيف دون أي اختلاف بينهم، فقد ضعفه الطحاوي والدارقطني والبيهقي ونقل عن الإمام صالح بن محمد الحافظ أنه قال: «هو مرسل منكر».

ولو أن الفاضل المشار إليه استخرج الحديث بنفسه من «سنن الدارقطني» لوجود كلام الدارقطني عقبه صريحاً في تضعيفه إياه، وذلك قوله (ص٣٤٥): «لم يسنده غير إبراهيم بن أبي يحيى، وهو متروك الحديث، والصواب عن ربيعة عن ابن البيلماني مرسل عن النبي ﷺ، وابن البيلماني ضعيف لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث، فكيف بما يرسله؟!».

وقد فصلت القول على هذا الحديث وذكرت طرقه وعللها ونصوص أهل العلم في تضعيفه في الجزء الخامس من «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» رقم (٤٦٠).

٣- وقال ثالث في «بحث الدور الفقهي الأول: عصر النبوة»، وقد ذكر طائفة من الأحاديث كأمثلة لجملة من الأصول والقواعد الكلية التي تركها ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، منها حديث: «الشفعة كحل العقال» ثم قال الفاضل المشار إليه: «فهذا الحديث مثلاً يصلح أساساً لفكرة مرور الزمن، وتحديد المدد للمطالبة ببعض الحقوق، ولاستعمال بعض الخيارات كخيار الرؤية والعيب، و...»[٣].

فلو أن المذكور رجع إلى بعض المتخصصين في الحديث والعارفين بصحيحه

---

(١) انظر «فقه السنة» للسيد سابق (ص ١١٧- ١١٨) الطبعة الأولى.

(٢) انظر كتاب «نظرية الإسلام وهديه» ص ٣٤١ للأستاذ المودودي.

(٣) انظر كتاب «المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية في البلاد السورية» (١/ ٦٧ و٦٨) الأستاذ الفاضل مصطفى الزرقا.

وضعيفه، لما جزم بنسبته إلى النبي ﷺ ولما اتخذه مثلاً للفكرة التي ذكرها، فقد قال أبو زرعة: «حديث منكر» وقال ابن حبان: «لا أصل له».

وأورده البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٠٨) في جملة أحاديث ساقها بأسانيدها في: «باب رواية ألفاظ منكرة يذكرها بعض الفقهاء في مسائل الشفعة»!.

٤- حديث «أن النبي ﷺ قال في أهل الذمة: لهم مالنا وعليهم ما علينا».

لقد اعتدنا أن نسمع هذا الحديث من كثير من خطبائنا ومرشدينا ومحاضرينا، وهم يتكلمون عن حقوق أهل الذمة في الإسلام، جازمين بنسبته إلى النبي عليه الصلاة والسلام، حتى أصبح ذلك عقيدة راسخة في قلوب كثير من الدعاة المعروفين بالإصلاح والتجديد، فضلاً عن غيرهم من المسلمين الصالحين، فهذا أحد دعاتهم يصرح بمعنى ذلك في بيان أذاعه على الناس بمناسبة الجدل الذي قام حول محاولة بعض إخواننا الإسلاميين لإدخال دين الدولة الإسلام، في دستور سنة ١٩٥٠ فقال: «المواطنون متساوون في الحقوق، لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة» يشير بهذا الكلام إلى هذا الحديث، والحديث المتقدم برقم (٢).

والواقع أن هذا الحديث لا أصل له عن النبي ﷺ بهذا السياق الذي اعتادوا ذكره، وإنما أورده هكذا بعض الفقهاء الذين لا علم عندهم بالسنن، فقلده من أشرنا إليهم، ثم أذاعوا الحديث على الناس ونشروه بينهم كتابةً ووعظا، دون أن يحاولوا الرجوع به إلى ذوي التخصص في الحديث ليكونوا على بينة من أمره، ولا ينسبوا إلى النبي ﷺ ما ليس من حديثه، بل هو معارض له أشد المعارضة، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال هذه الجملة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» في الذين يسلمون من المشركين، ورد ذلك عنه ﷺ من حديث بريدة بن الحصيب وسلمان الفارسي وغيرهما.

٥- حديث «إذا صعد الخطيب المنبر، فلا صلاة ولا كلام».

وهو حديث متداول على ألسنة بعض الفقهاء ومسطور في غير ما كتاب فقهي، واشتهر على ألسنة الناس حتى توجت به بعض المنابر في بلادنا الشامية، ولا

أصل له عن رسول الله ﷺ بهذا اللفظ، بل إن معناه مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما» أخرجه الإمام مسلم وغيره.

وقد بينت حال هذا الحديث، وما قاله أهل العلم فيه في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) (رقم ٨٧) فليراجعه من شاء التحقيق.

ومن الأمثلة المتقدمة - وهي غيض من فيض - يتبين لكل عاقل أن الأحاديث الضعيفة مع الجهل بها هي من أكبر العوامل - إن لم أقل: هي أكبرها إطلاقاً - على حمل بعض المسلمين على الانحراف عن دينهم، انحرافاً أعتقد أنه أخطر ما أصيب به المسلمون من الانحرافات الكثيرة، ذلك لأنهم في اتباعهم إياها، وتمسكهم بها، يظنون أنهم إنما يتبعون كلام من أوجب الله عليهم اتباعه، والتسليم لكلامه، ووصفه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤)، وصدق الله، وأخطأ أولئك حين استسلموا لكل ما ينسب إليه ﷺ، من الأحاديث، ولم يتحروا ما صح منها مما لم يصح، مع علمهم ويقينهم بأنه ليس كل ما يعزى إليه ﷺ من الحديث صحيح ثابت عنه، فكان المفروض أن يكون هذا وحده كافياً ليحملهم على البحث والتنقيب وتطلب الحديث الصحيح، فكيف ورسول الله ﷺ قد أخبرهم فيما صح عنه أن بعض الناس سيكذبون عليه، في مثل قوله ﷺ: «إن كذبا علي، ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه مسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه، ثم حذرهم ﷺ من الاغترار بهؤلاء الكذابين والاعتماد على حديثهم فقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم». رواه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإن من حرصه ﷺ على حديثه، وسلامته من أن يلوث بأحاديث الكذابين عليه أنه اعتبر الذين يروجون الأحاديث دون أن يتثبتوا من صحة نسبتها إليه ﷺ في حكم الكاذبين عليه، فقال ﷺ: «من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو

أحد الكاذبين».

وقال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» رواهما مسلم. وروي عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال لابن وهب: «اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع».

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: «لا يكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع».

ولذلك اتفق العلماء على أنه لا يجوز الاحتجاج بالحديث الضعيف في الأحكام[١] فضلاً عن العقائد، ذلك لأن الحديث الضعيف لا يفيد إلا الظن المرجوح والأخذ به مذموم بنص الكتاب والسنة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨) وقال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» متفق عليه. وفي حديث آخر: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فكان الواجب على الفقهاء الذين هم المرجع لعامة الناس في التعرف على أحكام الشريعة مفصلاً أن يكونوا أبعد الناس عن مخالفة هذه النصوص، ومناقضة ذلك الاتفاق الذي انعقد بأمثالهم من العلماء الذين قالوا به ذلك ما يقتضيه حسن الظن بهم وجلالة قدرهم.

ولكن الواقع يشهد - والأسف يملأ قلبي - أن جمهورهم على اختلاف مذاهبهم، قد امتلأت كتبهم بمئات الأحاديث الضعيفة والموضوعة، التي رتبوا عليها أحكاماً شرعية كثيرة على اختلاف أنواعها وخطورتها، مما سبق تفصيل القول في بعضها والتمثيل لها بأحاديث هم مصدرها والمستدلون بها، تبعهم على ذلك بعض المعاصرين!.

وهذا أمر يشهد به كل من له معرفة بعلم الحديث، وله اطلاع لا بأس به على

---

(١) انظر «المجموع شرح المهذب» للإمام النووي (١/ ٥٩) و«الأجوبة الفاضلة» لأبي الحسنات للكنوي ص(٥٦).

(٢) انظر مقدمة (صفة الصلاة ص ٧ الطبعة الثالثة).

الكتب الفقهية المبسوطة في المذاهب الأربعة، ومن أجل ذلك وضع جماعة من أئمة الحديث على بعض الأمهات منها كتب التجريحات المعروفة[١]. وألف ابن الجوزي الحنبلي كتابه «التحقيق في مسائل التعليق» وذكر في مقدمته الحامل له على تأليفه فقال: «كان السبب في إثارة العزم لتصنيف هذا الكتاب أن جماعة من إخواني ومشايخي في الفقه، كانوا يسألوني في زمن الصبا جمع أحاديث التعليق، وبيان ما صح منها، وما طعن فيه، وكنت أتوانى عن هذا لسببين:

أحدهما: اشتغالي بالطلب.

والثاني: ظني أن ما في التعاليق من ذلك يكفي، فلما نظرت في التعاليق رأيت بضاعة أكثر الفقهاء في الحديث مزجاة، يعول أكثرهم على أحاديث لا تصح، ويعرض عن الصحاح ويقلد بعضهم بعضا فيما ينقل. ثم قد انقسم المتأخرون ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قوم غلب عليهم الكسل، ورأوا أن في البحث تعباً، وكلفة، فتعجلوا الراحة، واقتنعوا بما سطره غيرهم.

والقسم الثاني: قوم لم يهتدوا إلى أمكنة الأحاديث، وعلموا أن لا بد من سؤال من يعلم هذا، فاستنكفوا عن ذلك!.

والقسم الثالث: قوم مقصودهم التوسع في الكلام طلباً للتقدم والرياسة، واشتغالهم بالجدل والقياس، ولا التفات لهم إلى الحديث لا إلى تصحيحه، ولا إلى الطعن فيه.

وليس هذا شأن من استظهر لدينه، وطلب الوثيقة في أمره.

ولقد رأيت بعض الأكابر من الفقهاء يقول في تصنيفه عن ألفاظ قد أخرجت في الصحاح: «لا يجوز أن يكون رسول الله ﷺ قال هذه الألفاظ»! ويرد الحديث الصحيح، ويقول: «هذا لا يعرف»! وإنما هو لا يعرفه، ثم رأيته قد استدل بحديث زعم أن البخاري أخرجه: وليس كذلك ثم نقله عن مصنف آخر كما قال

---

(١) انظر مقدمة «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص٤-٥) و«الرسالة المستطرفة» للكناني (ص١٤١-١٤٢).

تقليداً له، ثم استدل في مسألة فقال: «دليلنا ما روى بعضهم أن النبي ﷺ قال كذا»! ورأيت مشايخنا يقولون في تصانيفهم: «دليلنا ما روى أبو بكر الخلال بإسناده عن رسول الله ﷺ»، و«دليلنا ما روى أبو بكر عبد العزيز بإسناده».

و«دليلنا ما روى ابن بطة بإسناده»، وجمهور تلك الأحاديث في «الصحاح»، وفي «المسند» وفي «السنن» غير أن السبب في اقتناعهم بهذا، التكاسل عن البحث. والعجب ممن ليس له شغل سوى مسائل الخلاف، ثم قد اقتصر منها في المناظرة على خمسين مسألة، وجمهور هذه الخمسين لا يستدل فيها بحديث! فما قدر الباقي حتى يتكاسل عن المبالغة في معرفته؟!.

وألوم عندي ممن قدمته من الفقهاء، جماعة من كبار المحدثين عرفوا صحيح النقل وسقيمه، وصنفوا في ذلك، فإذا جاء حديث ضعيف يخالف مذهبهم بينوا وجه الطعن فيه، وإن كان موافقاً لمذهبهم سكتوا عن الطعن فيه.

وهذا ينبئ عن قلة دين، وغلبة هوى «ثم روى بسنده عن الدارقطني وهذا بسنده عن وكيع أنه قال: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم»[1].

قلت: ومن المؤسف أن الوصف الذي ذكره ابن الجوزي ينطبق تماماً على رجلين كبيرين، أحدهما شافعي المذهب وهو الإمام البيهقي، والآخر حنفيه وهو علاء الدين ابن التركماني، وذلك ظاهر في كتاب الأول منهما «السنن الكبرى»، وفي كتاب الآخر «الجوهر النقي في الرد على البيهقي»، بل إن ابن الجوزي نفسه لم ينج من هذا البلاء.

وأعتقد أن السبب في ذلك، إنما هو التعصب لمذهب معين، فذلك هو الذي يحمل البعض على السكوت عن الحديث الضعيف إذا كان له، ويسارع إلى الكشف عن علته إذا كان عليه، بل إن بعضهم، قد يصحح الضعيف، ويضعف

---

(١) رواه الدارقطني في سننه ص١٠، وفيه إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن سالم السلولي أبو سالم عن أبيه عن وكيع، ولم أر من ترجمه هو وأبوه. وقع في «التحقيق» «السكوني» بدل «السلولي»، ولم يورده السمعاني فيهما.

الصحيح حمية لمذهبه، فلو لم يكن للتعصب من شؤم إلا هذا لكفى. . فالحمد لله الذي عافانا من العصبية المذهبية، ورزقنا التمسك بالسنة المحمدية فقط دون غيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (ج٤ ص١٠):

«قاعدة: المنقولات فيها كثير من الصدق، وكثير من الكذب، والمرجع في التمييز بين هذا وهذا، إلى علم الحديث، كما نرجع إلى النحاة في الفرق بين نحو العرب، ونحو غير العرب، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة، وما ليس من اللغة، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك، فلكل علم رجال يعرفون به، والعلماء بالحديث أجل قدراً من هؤلاء، وأعظمهم صدقاً، وأعلاهم منزلة، وأكثر دينا، وهم من أعظم الناس صدقاً وأمانة وعلما وخبرة فيما يذكرونه من الجرح والتعديل، مثل مالك وشعبة وسفيان ويحيى بن سعيد والشافعي وأحمد. . .و. . . البخاري ومسلم وأبي داود. . . وابن عدي وأبي حاتم البستي والدارقطني وأمثال هؤلاء خلق كثير لا يحصى عددهم من أهل العلم بالرجال والجرح والتعديل، وإن كان بعضهم أعلم بذلك من بعض، وبعضهم أعدل من بعض في وزن كلامه كما أن الناس في سائر العلوم كذلك. «قال: وهذا علم عظيم من أعظم علوم الإسلام (ص ١١): «والإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة» ثم قال (ص١٢):

«فالأصل في النقل أن يرجع فيه إلى أئمة النقل وعلمائه، ومن يشركهم في علمهم، وأن يستدل على الصحة والضعف بدليل مفصل عن الرواية فلا بد من هذا وهذا، وإلا فمجرد قول القائل: (رواه فلان) «لا يحتج به لا أهل السنة؟ ولا الشيعة، وليس في المسلمين من يحتج بكل حديث رواه كل مصنف» ثم قال في فصل آخر (٤/ ١١٥):

«وقد يكون الرجل صادقاً كثير الحديث، كثير الرواية فيه، لكن ليس من

أهل العناية بصحيحه وسقيمه، فهذا يستفاد منه نقله، فإنه صادق ضابط، وأما المعرفة بصحيحه وسقيمه، فهذا علم آخر، وقد يكون مع ذلك فقيها مجتهداً، وقد يكون صالحاً من خيار المسلمين، وليس له كثير معرفة، لكن هؤلاء وإن تفاضلوا في العلم، فلا يروج عليهم من الكذب ما يروج على من لم يكن له علم، فكل من كان بالرسول أعرف، كان تمييزه بين الصدق والكذب أتم. فقد يروج على أهل التفسير والفقه والزهد والنظر أحاديث كثيرة، إما يصدقون بها، وإما يجوزون صدقها، وتكون معلومة الكذب عند علماء الحديث، وقد يصدق بعض هؤلاء بما يكون كذباً عند أهل المعرفة مثل ما يروي طائفة من الفقهاء، حديث: «لا تفعلي يا حميراء فإنه يورث البرص» وحديث «زكاة الأرض يبسها»، وحديث... وحديث... إلى أمثال ذلك من الأحاديث التي يصدق بعضها طائفة من الفقهاء، ويبنون عليها الحلال والحرام، وأهل العلم بالحديث متفقون على أنها كذب على رسول الله ﷺ موضوعة، وكذلك أهل العلم من الفقهاء يعلمون ذلك».

وقال العلامة محمد بن عبد الهادي بعد أن نقل قول ابن تيمية: (فقد يروج..):

«وهذه الأحاديث التي ذكرها، منها ما لا يعرف له إسناد ولا أصل كحديث: «زكاة الأرض يبسها» ومنها ما هو موضوع، وما هو ضعيف الإسناد كحديث «لا تفعلي يا حميراء» رواه الدارقطني وابن عدي وغيرهما وهو موضوع، وحديث «نهى عن بيع وشرط» رواه البيهقي بإسناد ضعيف... ثم قال ابن عبد الهادي: «ويشبه ما ذكره شيخنا من هذه الأحاديث ما يذكره بعض الفقهاء والأصوليين، أو المحدثين محتجاً به أو غير محتج به، مما ليس له إسناد، أو إسناد، ولا يحتج بمثله النقاد من أهل العلم كحديث «النهي عن بيع الكالئ بالكالئ» وحديث.. وحديث..». ثم ختم ذلك بقوله:

«واعلم أن غالب هذه الأحاديث مروية بالأسانيد، ومنها ما لا يعرف له إسناد أصلاً، وهي على أقسام: فمنها ما هو موضوع على رسول الله ﷺ بيقين، ومنها

ما يشك في وضعه، ومنها ما إسناده ضعيف، ومنها ما قد يحسنه بعض الأئمة، والله الموفق للصواب»[١].

وقال العلامة ابن الحسنات اللكنوي في «الأجوبة الفاضلة» (ص٢٩-٣٠) بعد أن ذكر أصنافاً من الوضاعين، منهم من وضعوا أحاديث في الأحكام، وتقولوا بالحلال والحرام:

«ومن هنا نصوا على أنه لا عبرة للأحاديث المنقولة في الكتب المبسوطة ما لم يظهر سندها، أو يعلم اعتماد أرباب الحديث عليها، وإن كان مصنفها فقيها جليلاً، يعتمد عليه في نقل الأحكام، وحكم الحلال والحرام، ألا ترى إلى صاحب «الهداية» من أجلة الحنفية، والرافعي شارح الوجيز من أجلة الشافعية - مع كونهما ممن يشار إليه بالأنامل، ويعتمد عليه الأماجد والأماثل- قد ذكرا في تصانيفهما ما لا يوجد له أثر عند خبير بالحديث يستفسر، كما لا يخفى على من طالع «تخريج أحاديث الهداية» للزيلعي، و«تخريج أحاديث شرح الرافعي» لابن حجر العسقلاني. وإذا كان حال هؤلاء الأجلة هذا، فما بالك بغيرهم من الفقهاء الذين يتساهلون في إيراد الأخبار، ولا يتعمقون في سند الآثار؟

ولذا قال علي القاري في «رسالة الموضوعات»: حديث «من قضى صلاة من الفرائض في آخر حجته في رمضان كان ذلك جابراً لكل صلاة فاتته في عمره إلى سبعين سنة» باطل قطعاً، ولا عبرة بنقل صاحب «النهاية»، وغيره من بقية شراح «الهداية» فإنهم ليسوا من المحدثين، ولا أسندوا الحديث إلى أحد من المخرجين. انتهى.

وقال السيوطي في «مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود» تحت حديث «نهى رسول الله ﷺ أن يتمشط أحدنا كل يوم» فإن قلت: نقل أنه ﷺ «كان يسرح لحيته كل يوم مرتين» قلت: لم أقف على هذا بإسناد، ولم أر من ذكره إلا الغزالي في

---

(١) نقلته من مجموع بخط محمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زريق، فيه عدة كتب منها فصل قال: رأيته بخط الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الهادي رحمه الله تعالى في أثناء كلام له وهو محفوظ في المكتبة الظاهرية برقم (٤٠٥ حديث).

«الإحياء» ولا يخفى ما فيه من الأحاديث التي لا أصل لها انتهى.

وقال اللكنوي في كتابه الآخر «النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير» (ص١٢٢- ١٢٣) بعد أن ذكر مراتب كتب الفقه الحنفي، وما يعتمد عليه منها وما لا يعتمد:

«كل ما ذكرنا من ترتيب المصنفات، إنما هو بحسب المسائل الفقهية وأما بحسب ما فيه من الأحاديث النبوية فلا، فكم من كتاب معتمد، اعتمد عليه أجلة الفقهاء مملوء من الأحاديث الموضوعة، ولا سيما الفتاوى، فقد وضح لنا بتوسيع النظر، أن أصحابها وإن كانوا من الكاملين، لكنهم في نقل الأخبار من المتساهلين».

ثم قال اللكنوي في الكتاب الأول (ص ٣٥): «فإن قلت: فما بالهم أوردوا في تصانيفهم الأحاديث الموضوعة مع جلالتهم ونباهتهم؟ ولم لم ينقدوا الأسانيد مع سعة علمهم؟ قلت: لم يوردوا ما أوردوا مع العلم بكونه موضوعاً، بل ظنوه مروياً، وأحالوا نقد الأسانيد على نقاد الحديث، لكونهم أغنوهم عن الكشف الحثيث، إذ ليس من وظيفتهم البحث عن كيفية رواية الأخبار، إنما هو من وظيفة حملة الآثار، فلكل مقام مقال، ولكل فن رجال».

قلت: وفي جوابه رَحِمَهُ اللَّهُ نظر كبير وتسامح ظاهر، فإن كون نقد الأحاديث ليس من وظيفة الفقهاء، فذلك لا يسوغ لهم مطلقاً أن يوردوها محتجين بها، ومؤيدين بها مئات الفروع المذهبية، وهذا معناه أحد شيئين:

إما أنهم يرون صحتها، فلذلك احتجوا بها، وهذا بعيد لأن شهادة الأئمة المتخصصين ترد ذلك.

وإما أنهم لا يعلمون صحتها ومع ذلك استدلوا بها، وهذا هو الذي نعتقده، وهم على هذا متساهلون كما صرح اللكنوي فيما تقدم، فلعل الله عَزَّوَجَلَّ يغفر ذلك لهم لخدمتهم للشرع بعلم الفقه، وإن كان تساهلهم هذا له آثاره السيئة من نشر الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين طلاب الفقه، حتى صار من الصعب إقناعهم بضعفها وصرفهم عنها إلى الأحاديث الصحيحة لثقتهم العمياء بمن أوردها من

الفقهاء، وتوهمهم أنهم كانوا على معرفة تامة بالأحاديث صحيحها وسقيمها وأنهم لم يوردوا إلا ما صح منها!، ويصرح بعض غلاتهم بقولهم: «كل فقيه محدث، وليس كل محدث فقيها» وجهلوا أو تجاهلوا قول الرجل الحكيم: «ولكل فن رجال»[1].

ونحن بعد هذا، لا نريد من فقهائنا اليوم، أن يصير كل واحد منهم محدثاً، إلى جانب كونه فقيهاً، يستطيع حين يتطلب الأمر أن يستخرج الحديث من مصادره وأصوله القريبة منها والبعيدة، وأن يحكم عليه بالصحة أو الضعف، ليس ذلك تقليداً منه لغيره، بل بدراسته بنفسه لإسناده، وبمعرفته لرواته، وتتبعه لعلله، كلا.. لا نريد منهم هذا، فإنه شيء صعب حقاً، ولم لا؟ وأكثرهم لم يدرسوا من علم الحديث إلا ما يعرف اليوم بـ«مصطلح الحديث» دراسة سطحية نظرية لم يقترن منها تطبيق عملي، على نحو دراستهم سائر العلوم الأخرى مثل «الفيزياء» و«الكمياء» وغيرها من العلوم التي إذا لم ينضم إليها دراسة تطبيقية، فسرعان ما ستتبخر من أذهانهم بعد انتهائهم من الدراسة وحصولهم على الشهادة!

وإنما نريد من فقهائنا اليوم شيئاً وهو سهل على من سهل الله له: أن يعتبروا بصنيع من قبلهم، فلا يحتجوا بالأحاديث الضعيفة لإثبات أي حكم شرعي وأن يتعرفوا عليها بالرجوع إلى أهل التخصص والمعرفة بها من المحدثين، وهؤلاء لهم كتب كثيرة معروفة في تخريج بعض الكتب الفقهية، ولهم كتب أخرى متنوعة تساعد الفقهاء على تمييز الحديث الصحيح من الضعيف وبذلك يصح اعتبارهم ويكون فقههم نافعاً صالحاً مشكوراً.

* * *

(١) للشيخ الفاضل عبدالوهاب عبد اللطيف المدرس بكلية الشريعة في الأزهر مقدمة على «المقاصد الحسنة» وأخرى على «تنزيه الشريعة» كاد أن يحيط فيها بالكتب المؤلفة في الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والمشتهرة على الألسنة، مع التنبيه على المطبوع منها، فليرجع إليهما.

٢٦ مقالات

الشيخ محمد سليمان الأشقر

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- منزلة العبادة.

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٠م).

٢- رحلة الفهرسة عبر تاريخنا.

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ) - إبريل (١٩٧١م).

ترجمة الشيخ

الشيخ محمد سليمان الأشقر

● **مولده ونشأته:**

هو محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد (وهو الأشقر) بن سليمان، من أهالي قرية برقة من قرى نابلس بفلسطين، ولد في ١٦ من أيلول سنة ١٩٣٠ م، ونشأ في كنف والده الأمي الذي حرص على تعليمه وحمله على مكارم الأخلاق.

التحق بالمدرسة الابتدائية في قريته، وتخرج منها عام ١٩٤٤م ثم التحق بالدراسة الثانوية بنابلس، ثم ذهب بعدها إلى المملكة العربية السعودية فعمل في التدريس، ثم في التجارة بالرياض وفي سنة ١٣٧١ أسند إليه أمانة مكتبة دار الإفتاء في معهد الرياض الديني الثانوي.

ثم التحق بالكلية الشرعية في الرياض إلى أن تخرج منها سنة ١٣٧٦هـ في الفوج الأول من خريجيها.

وقد أخذ فيها العلم عن مشايخ أجلاء منهم: «الشيخ محمد أمين الشنقيطي، الشيخ عبد العزيز بن باز، الشيخ عبد العزيز بن رشيد، الشيخ عبدالرحمن الإفريقي، الشيخ عبد اللطيف سرحان».

درَّس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وبقي فيها سنتين، وسافر بعدها إلى الكويت، وأسندت إليه أمانة مكتبة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على

مدى اثني عشر عاماً، حصل في أثناء ذلك عل درجتي الماجستير والدكتوراه من كلية الشريعة بجامعة الأزهر.

وعمل باحثاً في الموسوعة الفقهية، وشارك في لجنة الفتوى الشرعية كعضو من أعضائها.

● **مؤلفاته**

له العديد من المؤلفات منها: «الواضح في أصول الفقه للمبتدئين، زبدة التفسير من فتح القدير، نفحة العبير من زبدة التفسير، الفتيا ومناهج الإفتاء، كيف تدخل في الإسلام، معجم علوم اللغة العربية، المجلّى في الفقه الحنبلي، أبحاث فقهية في قضايا الزكاة المعاصرة، تحقيق كتاب نيل المآرب شرح دليل الطالب». وغيرها كثير.

● **وفاته**

توفي يوم الأحد ٢٨ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ - ١٥-١١-٢٠٠٩م رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

منزلة العبادة في المسجد الحَرام والمسجد النبوي

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٠م).

تتبين منزلة المسجد الحرام بين المساجد المبنية لله، لمن يعلم:

(١) أنه أول مسجد في الأرض بني لعبادة الله.

(٢) وأنه قبلة الصلاة والدعاء والدفن للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مع اقتران ذلك بأن الإسلام ناسخ لما قبله من الشرائع.

(٣) وأنه مخصوص بمزيد من العناية الإلهية ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (الحج: ٢٥).

(٤) وأن الحج إليه ركن من أركان الإسلام.

(٥) وأن الصلاة فيه مأجورة بمائة ألف صلاة فيما سواه.

(٦) وأن من دخله كان آمناً رعاية لحرمة الله وتعظيماً لجنابه.

(٧) وأن الوحش والطير يأمن فيه مما يؤذيه، بأمر الله الشرعي فيسرح ويمرح في جواره آمناً. وكذلك النبات.

(٨) وأن إشراع السلاح فيه للقتال ممنوع ولو على الكافر إلا دفاعاً عن النفس.

(٩) أنه يحرم السماح للكافر بدخوله لأن الكافر نجس، والبيت مطهر.

(١٠) وأن حرمه يستوي فيه العاكف والبادي من المسلمين. أي المقيم والغريب يستويان في حقوق الإقامة فيه.

(١١) وأنه لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو مكان من الأمكنة بقصد زيارته والعبادة فيه، ما عدا هذا المسجد والمسجد النبوي والمسجد الأقصى.

(١٢) وأن تأسيسه كان على يد إبراهيم خليل الله وإسماعيل الذبيح وفيه مقام

إبراهيم والحجر الأسود.

(١٣) وأن فيه عبادة لا تصلح في مكان آخر وهي الطواف والسعي. **وبعض هذه الميزات ناشئ من بعض.**

١- أما الميزة الأولى، فقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (آل عمران: ٩٦). وقال أبو ذر للنبي ﷺ: أي مسجد في الأرض وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» رواه البخاري ومسلم (ابن كثير، التفسير، سورة آل عمران/ ٩٦) وأوضح ما قيل في تفسير ذلك أن إبراهيم بنى البيت الحرام، ويعقوب بنى المسجد الأقصى، ويعقوب حفيد إبراهيم فالمدة بينهما قريبة.

٢- وأما القبلة فيقول الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ﴾ (البقرة: ١٤٤).

٤- وأما الحج فبقول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ (آل عمران: ٩٧) مع قول النبي ﷺ «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصوم رمضان» (رواه البخاري ومسلم).

٥- وأما مضاعفة الصلاة فيه فتأتي في أواخر هذا البحث.

٦، ٧، ٨- وأما الأمن فيه للبشر والحيوان والنبات فلقول الله تعالى ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ﴾ (آل عمران: ٩٧) وقوله ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ﴾ (البقرة: ١٩١). وقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ﴾ (العنكبوت: ٦٧). مع قول النبي ﷺ: «مكة حرمها الله تعالى ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة «وفي لفظة» «ولا يصاد صيدها».

٩- ومنع المشركين من دخوله لقول الله ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا

﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ (التوبة: ٢٨).

١٠- وأما استواء المواطن والغريب في حقوق الإقامة فيه، فلقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ (الحج: ٢٥).

١١- وأما جواز شد الرحال إليه وإلى المسجدين النبوي والأقصى للعبادة دون المساجد الأخرى فلقول النبي ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» (رواه البخاري ومسلم).

١٢، ١٣- وأما تأسيسه على يدي إبراهيم خليل الله وإسماعيل الذبيح بأمر الله، والطواف فيه والسعي فلقول الله ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة: ١٢٧).

هذا وإنما ذكرت من الأدلة أصرحها ولم أقصد الحصر.

● **تحديد معنى «المسجد الحرام»:**

باستقراء مواضع ورود هذا اللفظ في الكتاب والسنة نجده:

(١) أحياناً يعني به «الكعبة» فقط دون ما حولها.

(٢) وأحياناً يعني به «الكعبة وما حولها مما هو مهيأ ومعد للصلاة فيه» فقط دون ما حول ذلك من أرض مكة وحرمها.

(٣) وأحياناً يعني به «مكة كلها وما حولها من حرمها».

(٤) وأحياناً أخرى يدور اللفظ بين هذه المعاني الثلاثة.

مثال الأول: قول الله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤)، مع قول ابن عباس عن الكعبة «البيت كله قبلة».

٢- ومما عني به مسجد الصلاة المحيط بالكعبة قوله تعالى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (التوبة: ١٩) وقوله تعالى ﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ (البقرة: ١٩١) فليس المقصود به كل الحرم المكي. وإلا لقال: «ولا تقاتلوهم في المسجد الحرام».

٣- ومما عني به «الحرم المكي كله» قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١). على رواية من روى أن النبي ﷺ كان ليلة الإسراء يبيت في بيت ابنة عمه أم هانئ بنت أبي طالب. وهو طبعاً خارج مكان الصلاة.

وغالب ما ورد من ذكر «المسجد الحرام» دائر بين هذه المعاني الثلاثة دون تحديد ومثال ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (الحج: ٢٥) وكل مكة وعمرانها ومساكنها إنما أنشئت وتوسعت وتتوسع لأجل الكعبة والصلاة فيها وخدمتها وخدمة ضيوفها. وهي حريم «البيت الحرام» أي فناؤه الملحق به الآخذ حكمه كما أن لكل بيت «حريما». ولذلك لولا «الكعبة» لم تكن «مكة» فما أحراها إذن بهذه التسمية «المسجد الحرام».

● **انطباق أحكام المسجد الحرام على المعاني الثلاثة:**

(١) هناك أحكام تتعلق بالمسجد الحرام من ناحية كونه مسجداً، فهي تنطبق على المكان المعد للصلاة حول الكعبة ولا تنطبق على باقي أجزاء مكة وما حولها. وذلك كتحريم البيع والشراء في المسجد. وتحريم قضاء الحاجة في المسجد. وتحريم إنشاد الضالة في المسجد. ووجود المصلين المقتدين بإمام صلاة الجماعة في المسجد. ونحو ذلك.

(٢) وهناك أحكام تتعلق بالمسجد الحرام من ناحية كونه محرماً بأمر الله، وأن تعظيمه يبتغى به وجه الله، فهذه تنطبق على مكة وما حولها. وذلك كأمن الداخل في الحرم وأمن حيوانه ونباته، وتحريم أخذ اللقطة فيه. ومضاعفة العقوبة لمن ألحد فيه واتخذه مكاناً للمعصية، أو صد الناس عن القدوم إليه وأعاقهم عن ذلك. وحرمان المشركين من دخول المسجد الحرام واستواء الغريب والمواطن في حقوق الإقامة فيه.

(٣) وهنالك أحكام تدور بين الناحيتين السابقتين وذلك كما ورد في الحديث «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» رواه البخاري/ ك. ٢ب ١ ومسلم. وفي لفظ في غير الصحيحين «وصلاة في المسجد

الحرام خير من مائة صلاة في هذا» فهل الصلاة في بيوت مكة وسائر بقاع الحرم مأجورة بمائة ألف صلاة في المواضع الأخرى؟

فقيل[١] إن ذلك الفضل في الصلاة هو لكل مكة وحرمها. وممن قال بذلك عطاء بن أبي رباح رواه عنه الطيالسي كما ذكره في فتح الباري. وقدمه ابن حجر في الفتح وصححه النووي (فتح الباري ك. ٢ ب ١).

وقيل إن ذلك الفضل خاص بالموضع الذي يصلى فيه دون البيوت وغيرها من أجزاء الحرم. وقد قرره المحب الطبري، واحتج له بقول النبي ﷺ «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه» فجعل الفضل لنفس المسجد لا لكل المدينة، فينبغي أن يكون الأمر بمكة كذلك.

والذي جنح إليه ابن حجر مذهب حسن، وخلاصته:

١- أن صلاة الفرض بالمسجد في مكة أفضل من صلاة الفرض في بيوتها وفي غير حرمها.

٢- وأن صلاة النافلة في بيوت مكة أفضل من صلاتها في المسجد الحرام.

٣- وأن صلاة النافلة في بيوت مكة أفضل من النافلة في البيوت في غير مكة.

وكان ذلك جمعاً منه بين الحديث المشار إليه «صلاة في مسجدي هذا... الخ» والحديث الآخر «خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة».

● حكم الزيادات في المسجد النبوي

أما الزيادات في المسجد النبوي فهل تعتبر من المسجد النبوي في حكم المضاعفة فيه.

---

(١) هذا بخلاف لفظ «الكعبة» «والبيت الحرام» فهما لفظان خاصان بالبنية التي يطاف حولها. وبخلاف لفظ «الحرم» فإن المقصود به مكة كلها وما حولها إلى «الأميال» المعروفة.

ومما يجدر التنبه له أن بعض الناس إذا كان بمكة يقول دخلت «الحرم» يعني به دخوله «المسجد». وهذا استعمال غير سديد. كما أن بعض الناس يطلق لفظ «الحرم» على مساجد أخرى فيقول «حرم الأقصى»، أو «الحرم الزينبي» أو غير ذلك، وهذا أيضاً خطأ، فإن إبراهيم حرم مكة، ومحمداً ﷺ حرم المدينة، فهما الحرمان الوحيدان في الإسلام يحرم صيدهما ونباتهما.

نقل ابن حجر عن النووي أنه قال: ينبغي أن يحرص المصلي على الصلاة في الموضع الذي كان في زمانه ﷺ دون ما زيد فيه بعده، لأن التضعيف إنما ورد في مسجده، وقد أكده بقوله «هذا». هذا قول النووي. ونقل مثله عن أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي. والذي يظهر لي غير هذا - والله أعلم - لما يلي:

إن ميزة المسجد النبوي إنما جاءت، والله أعلم، من كونه أسس على التقوى على يدي نبي كريم كما أن مسجد مكة أسس على يدي إبراهيم وإسماعيل كما ذكر الله عنهما أنهما بوآ لهما مكان البيت، وأمرهما برفع بنيانه، وتطهيره من الشرك، ليعبد الله فيه. فلما كانت الإضافات في مسجد مكة تابعة في الحكم للمسجد الأصلي لأنها تؤدي نفس الغرض، فكذلك ينبغي أن يكون الأمر بالمدينة.

وأما قول النبي ﷺ «صلاة في مسجدي هذا» وتأكيده بقوله «هذا» فيظهر والله أعلم أن كلمة «هذا» لم يقصد بها نفي مضاعفة الأجر في الإضافات الحادثة، ولكن لئلا يظن أن المقصود كل مسجد بناه النبي ﷺ كمسجد قباء ومسجد الفتح وغير ذلك. فأما الإضافات فهي من المسجد قطعاً، بدليل أنه لو صلى رجل فيها ثم أقسم بالله أنه صلى في المسجد النبوي لكان قسمه صادقاً. وبهذا يتضح ما في قول النووي من التناقض لتفرقته بين المسجدين النبوي والحرام في أمر واحد، شمله حديث واحد.

ومهما قيل في الإضافات في المسجد النبوي فلا ينبغي أن يغفل عن أن الإضافة التي في جهة القبلة- أعني أمام المحراب النبوي إلى جدار القبلة الآن، إنما زادها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والصحابة متوافرون، واتفقوا على ذلك، وكان قيام عمر رضي الله عنه في الصلوات الخمس إماماً بالصحابة، في تلك الزيادة. وكانت الصفوف الأول التي هي أفضل الصفوف تقوم في تلك الزيادة. فهل يظن بهم أنهم كانوا يعتقدون أن الصلاة في غير موضعهم أفضل؟

هذا، وإذا علم أن النبي ﷺ أشار في حياته بالزيادة في المسجد علمنا أن تلك الزيادة التي في القبلة لها حكم المسجد من كل وجه. وذلك ما رواه الإمام أحمد أن عمر قال: لولا أن سمعت النبي ﷺ يقول «ينبغي أن نزيد في مسجدنا». ما

زدت. ورواه غير الإمام أحمد أيضاً.

إذن فالقول بأن الزيادة في المسجد لها حكم المسجد الأصلي تصح نسبته إلى الصحابة، الذين صلوا في المقدمة. ولم ينقل أن أحدا منهم أنكر ذلك فيما نعلم، وذلك ينبغي أن يكون إجماعاً. ولذلك قال ابن فرحون: لم يخالف في هذه المسألة غير النووي. ونقل المحب الطبري أن النووي رجع عن هذا القول. (انظر: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٣٥٧ وما بعدها).

ومن هذا يتبين خطأ قوم يتركون الصلاة في الصفوف الأولى في المسجد النبوي ويتأخرون إلى الصفوف المتأخرة، وكثيرا ما تنطقع الصفوف فيما بين ذلك، مع قول النبي ﷺ: «من وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله» (الحاكم والنسائي عن ابن عمر، الجامع الصغير) وكأن هؤلاء يستنكرون ما فعله عمر رضي الله عنه وصحابة رسول الله معه، الذين هم أعلام الدين ونجوم الهداية. وقد قال الله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ (النساء: ١١٥).

وما هي الحجة التي بأيدي هؤلاء الذين يتركون الصفوف المتقدمة رغبة عنها؟ ليس لهم دليل منير ولا حجة قائمة. وهم لا شك قد حملهم حبهم للنبي ﷺ ومسجده على ذلك، ولكنهم فعلوه على غير هدى، وبغير دليل. فهي محبة غير مستبصرة. وأكمل العمل ما كان على طريق واضحة، وأصدق المحبة ما حمل المحب على أن يتبع طريق المحبوب. وقد قال الله تعالى ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ (آل عمران: ٣١) والله أعلم.

رحلة الفهرسة الهجائية والمعَاجم عبر تاريخنا

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ) - إبريل (١٩٧١م).

جانب مشرق من جوانب تاريخنا الإسلامي وحضارتنا العتيدة يبرز عند الكشف عما صنعه الأجداد في مجال التعجيم والفهرسة. لقد استخدمت الفهارس والمعاجم على نطاق واسع في شتى أنواع المعرفة. واستغلت كوسائل فعالة في تسهيل الوصول إلى المعلومات المطلوبة. استغلالاً أدى إلى نشر الثقافة وتنميتها.

أولًا: المعاجم الهجائية

● المعاجم

أما المعاجم فنستطيع أن نفخر بأنه كان لدينا في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) معجم هجائي على درجة عالية من الجودة، هو معجم «العين»، في متن اللغة للخليل بن أحمد (١٧٥هـ).

وأما في القرن الثالث الهجري فلدينا معجم في أسماء رجال الحديث للإمام محمد إسماعيل البخاري مرتب ترتيباً جيداً، ولا يزال مستعملاً واسمه «التاريخ الكبير».

أما في القرن الرابع الهجري وما بعده فقد وجدت معاجم هجائية لمتن اللغة والأعلام وغيرها لا تزال تؤدي دورها كمراجع في موضوعها سهلة الاستعمال بالإضافة إلى احتوائها على معلومات ذات قيمة فائقة. كما أنها غطت نواحي مختلفة من المعرفة فمنها في اللغة وفي التراجم بصفة عامة، أو في أعلام فن معين كالأطباء، والفلاسفة، والنحويين، واللغويين، والمحدثين، والسياسيين، أو في موضوعات معينة كالصيدلة والأدوية أو الحيوان أو البلدان أو غير ذلك.

وسوف نستعرض الجهود المبذولة في ذلك بشيء من التفصيل.

إن المعاجم إما أن تكون مختصة في حدود موضوع معين كمتن اللغة أو التراجم، أو البلدان، مثلاً، وإما أن تكون عامة شاملة لكل نواحي المعرفة.

دوائر المعارف العامة

أما المعاجم العامة فلها اسم خاص هو «دوائر المعارف العامة»، أو «الموضوعات العامة» ولا أعرف في الحضارة الإسلامية قبل العصر الحاضر كتاباً يصح أن يوصف بأنه «دائرة معارف عامة» ومرتباً على الحروف ما عدا كتابين أولهما هو المسمى بـ«كشاف اصطلاحات الفنون» لمؤلفه محمد بن علي التهانوي الهندي، ذكر في مقدمته أنه فرغ من تسويده سنة ١١٥٨هـ استعرض فيه المصطلحات في جميع العلوم التي كانت في عصره وذكر معنى كل مصطلح وشيئاً قليلاً من المعلومات عنه. إلا أن جل غايته كانت منصرفة إلى تعريف المصطلح وقد نشر كتابه بعنوان «كشاف اصطلاحات العلوم الإسلامية».

والثاني «الكليات» تأليف أبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (١٠٩٥هـ) وقد جمع فيه معلومات كثيرة متنوعة تحت عناوين، ثم رتب المعلومات بحسب الترتيب الهجائي لتلك العناوين إلا أن ترتيبه جاء قاصراً ومعلوماته مبتسرة.

أما في العصر الحاضر فقد جرت محاولات لتأليف دوائر معارف عامة منها ما عمله محمد فريد وجدي وسماه «دائرة معارف القرن الرابع عشر- العشرين» في عشرة مجلدات.

ومنها دائرة معارف البستاني، باشر إعدادها المعلم بطرس البستاني وأصدر منها ستة مجلدات من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢م ثم تابع أبناؤه نشرها إلى أن صدر الجزء الحادي عشر منها منتهياً بلفظ «عثمانية» ويعاد الآن نشرها بإدارة فؤاد أقرام البستاني بصورة متقنة وممتازة وصدر منها المجلد السابع منتهياً بلفظ «أخيليا» من حرف الهمزة.

المعاجم المتخصصة

أما المعاجم المتخصصة فهي التي تختص بنوع معين من المعرفة كالتراجم

مثلاً. ثم إن بعضها قد يكون أكثر تخصصاً من الآخر فبينما تجد معاجم للتراجم بصفة عامة إذ بنا نجد معاجم لتراجم اللغويين، أو لتراجم النحويين من اللغويين، أو لتراجم البصريين من النحويين من اللغويين. فتتفاوت درجات التخصص بحسب هدف واضع المعجم.

ولا يمكننا أن نحصر عدد المعاجم المختصة المؤلفة بالعربية، ولكن نذكر أمثلة مما اطلعنا عليه منها على سبيل الإيجاز مع محاولة حصر اتجاهاتها العامة ضمن البنود التالية:

(١) معاجم أسماء الكتب والمؤلفات والفنون منها

١- «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لمؤلفه الحاج خليفة مصطفى ابن عبد الله كاتب جلبي، المتوفى ١٠٦٧هـ استعرض فيه أسماء الفنون في الحضارة الإسلامية وأسماء الكتب المؤلفة في ذلك بتسلسل هجائي واحد شامل للفنون والكتب جميعاً. وهو كتاب واف في موضوعه وترتيبه جيد. وذيل عليه إسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادي (-١٣٣٩هـ) بمجلد ضخم وقد تم طبعهما سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م في ثلاثة مجلدات.

٢- المعاجم الإسلامية العامة

لم يؤلف في هذا الموضوع قديماً فيما أعلم، وقد قام لفيف من المستشرقين في هذا القرن بتأليف «دائرة المعارف الإسلامية» شاملة لموجزات عن المعلومات التي كانت متوفرة لهم عن كل نواحي الحضارة الإسلامية. ونشرت باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية. وصدر من ترجمتها العربية بمصر إلى حرف «الطاء» بتعليقات من المختصين بالشؤون الإسلامية كشفت عن مدى جهل بعض كتابها أو تجنبهم لذكر الحقائق قصداً مع أنه لا يسعنا إلا الاعتراف بعظمة العمل في ذاته.

والآن يعاد إصدار الطبعات الأوروبية بمزيد من التوسع.

وصدر بمصر من «القاموس الإسلامي»، للأستاذ أحمد عطية، مجلدان. وهو مختصر يقتصر على التعريف بمصطلحات الفكر الإسلامي ومعالم الحضارة

الإسلامية وتراجم المشهورين، انتهى فيهما إلى حرف الراء.

٣- معاجم القرآن وعلومه

لم تؤلف معاجم لفظية أو معنوية للقرآن فيما أعلم قبل العصر الحديث أما في هذا العصر فقد صدر «تفصيل آيات القرآن» للمستشرق جول لا بوم وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو جمع حسن غير أنه قاصر في التفاصيل. ولسنا بحاجة إلى أن نشير إلى بعض الأعمال الجامعة في هذا الميدان التي أخرجت مرتبة على الأبواب لأن بحثنا منصب على المعاجم «المرتبة على حروف المعجم».

فعلى هذا يكون هذا الميدان بكراً. ولعل الله يوفق إحدى المؤسسات أو الأفراد للقيام بعمل «معجم قرآني» شامل لكل المعلومات القرآنية.

٤- معاجم الحديث النبوي

لقد كان نشاط المحدثين في دراسة الحديث وتدوينه وترتيبه نشاطاً قوياً وواسعاً فبالإضافة إلى منجزاتهم في ترتيب الأعلام سلكوا في ترتيب الأحاديث سبلاً كثيرة إذ رتبوا الأحاديث على أنواع مختلفة من الترتيب، فمنهم من رتبها على أبواب الفقه، ومنهم من رتبها على أسماء الرواة ورتب أسماء الرواة حسب الأفضلية أو حسب حروف الهجاء، ومنهم من رتبها على أوائل حروفها، أو على مواضيعها، وجعل المواضيع بترتيب معجمي.

والذي يعنينا من ذلك هو الأنواع الثلاثة الأخيرة:

أ) فمما رتبت فيه الأحاديث بترتيب «ألفبائي» باعتبار أسماء الرواة «المعجم الكبير» للطبراني سليمان بن أحمد (٣٦٠هـ).

ب) ومما رتبت فيه الأحاديث بحسب أوائل حروفها «جمع الجوامع» للسيوطي قصد فيه جمع الأحاديث النبوية القولية بأسرها على حروف المعجم. وله أيضاً «الجامع الصغير» وهو مطبوع متداول ويحسن أن لا تخلو منه مكتبة أي دارس للإسلام.

ج) ومما رتبت فيه الأحاديث بحسب أحرف الهجاء لموضوعاتها. كتاب «كنز

العمال في سنن الأقوال والأفعال» للشيخ علاء الدين علي المتقي (٨٨٨- ٩٧٥هـ) ثم عاد فاختصر كتابه مع المحافظة على ترتيبه وسماه «منقب كنز العمال».

وهو أكثر تفصيلاً وأحسن ترتيباً من سابقه «جامع الأصول من أحاديث الرسول» لابن الأثير الجزري. إلا أن الميدان لا يزال مفتوحاً ولا يزال الحديث النبوي بحاجة إلى معجم تفصيلي. فإلى المهتمين بتيسير السنة النبوية للمؤمنين والدارسين أسوق هذه الرغبة راجياً أن يوفق منهم من ينهض لأداء هذه المهمة.

٥- المعاجم الفقهية

لا أعرف أن معجماً للفقه الإسلامي برز إلى عالم الوجود قبل صدور «معجم فقه ابن حزم الظاهري» الذي أصدرته سنة ١٣٨٥هـ لجنة موسوعة الفقه الإسلامي بجامعة دمشق. فكان بداية حسنة يرجى أن تتلوها خطوات أكثر تقدماً في هذا الميدان الفسيح.

وقد صدرت أيضاً بمصر مؤخراً ستة أجزاء من «موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي» من حرف الألف، مرتبة للموضوعات الفقهية على حروف الهجاء. وترتيبها حسن إلا أنه يظهر أنه سيكون فيها تكرار كثير يضخم محتوياتها نظراً لتكرار الموضوع الواحد في مواضع مختلفة بحسب أوجهه المختلفة (انظر موضوعي ابن، وأب، لترى كيف تكررت بعض الأحكام كعصمة الابن بإسلام أبيه ج٢ ص ١٤٩، ٢٣١، وكذلك وجوب إنفاق الأب على أبنائه) ويظهر أنه ينبغي للقائمين عليها إعادة النظر في منهج الترتيب فيها. ولديهم إمكانية استخدام نظام الإحالات.

وتقوم لجنة «الموسوعة الفقهية» بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت بالتحضير لإصدار موسوعة فقهية وقد أصدرت «موضوعين» في طبعة تمهيدية يراد بها تلقي ملاحظات القراء المختصين وتوجيهاتهم للخروج بموسوعة مستكملة من حيث الشكل والمضمون. وليت القائمين على الموسوعتين يوفقون لتنسيق العمل بينهما بطريقة تؤدي إلى تيسير الفقه الإسلامي تيسيراً كاملاً باستخدام الأساليب العلمية المتطورة في هذا المجال.

وقد قامت لجنة موسوعة الفقه الإسلامي بتهيئة معجم للفقه الحنبلي كان لي مشاركة في مراجعة مادته وترتيبه ويرجى أن يصدر قريباً إن شاء الله.

٦- معاجم الأدب واللغة

أما المعاجم الأدبية المتخصصة فلا أعرف منها شيئاً يستحق الذكر وأما معاجم اللغة فإنها من مفاخرنا. والبحث فيها له مكان آخر.

٧- المعاجم العلمية

في تراثنا من معاجم العلوم بأنواعها الشيء الكثير، فمنها:

أ) في علم الحيوان كتاب «حياة الحيوان» لكمال الدين الدميري محمد بن موسى (-٨٠٨هـ) يذكر فيه كل حيوان باسمه الخاص ثم يبحث في الاسم بحثاً لغوياً ثم يذكر أوصاف الحيوان وطباعه وخواصه وهو مطبوع متداول.

ب) في الأغذية والأدوية والعقاقير ونحوها ألف ابن البيطار عبد الله بن أحمد الأندلسي كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» بأمر الملك الصالح نجم الدين أيوب استوعب فيه ذكر الأدوية والأغذية المفردة التي كانت مستعملة لزمانه. وذكر أقوال الأطباء فيها ورتبه على لحروف المعجم مراعياً الحرفين الأول والثاني فقط.

٨- معاجم البلدان والأمكنة والبقاع

ألف في هذا النوع أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (-٥٨٧هـ) كتابه «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» ومعجمه مرتب على حروف الهجاء على طريقة المغاربة، وراعى في الترتيب الحرف الأول والثاني فقط، ولذلك أعاد ناشره «مصطفى السقا» ترتيبه. وليته تركه على وضعه الأول ليكون نموذجاً لذلك النوع من الترتيب. والذي أفضله لكل كتاب من الكتب القديمة التي تنشر أن لا يخل ناشره بترتيبه الذي وضعه عليه مؤلفه وأن يكتفي بالفهرسة المتقنة ما لم يقصد أن يضع الكتاب وضعاً جديداً بتهذيبه أو ضم معلومات أخرى إليه.

وألف في هذا النوع أيضاً ياقوت الحموي الرومي كتابه «معجم البلدان» وهو كتاب قيم في بابه. لم يؤلف بعده ما يوازيه.

٩- معاجم الأعلام

لقد كان نشاط العلماء المسلمين في مجال معاجم الأعلام نشاطاً واسعًا ومنوعاً، فمن معاجم الأعلام طائفة معينة كالصحابة، أو المحدثين أو الأطباء أو الأدباء أو الشعراء أو اللغويين، أو النحاة، أو المؤلفين، أو النساء إلى معاجم لأعلام مدينة معينة كأعلام بغداد، أو دمشق، إلى معاجم لأعلام قرن معين، أو عهد معين، إلى معاجم عامة شاملة لكل نوع، وكثير من ذلك مشهور ونكتفي بذكر معجم عام للأعلام هو «الوافي بالوفيات» لخليل بن أيبك الصفدي (-٧٦٤هـ) ويشتمل على (١٤٠٠٠) ترجمة. وآخر حديث هو كتاب «الأعلام» لخير الدين الزركلي وهو من خير ما ألف في موضوعه.

إن حاجتنا إلى متابعة خطى أسلافنا في هذا المجال حاجة حقيقية وعلينا أن نهيئ لكل صنف من أصناف العلوم معجماً ينبع من القديم ويستمد من الحديث ويواكب التطور الفني والعلمي.

وإن من المؤسف أن تعتمد جامعاتنا الإسلامية في معلوماتها الإسلامية على دائرة معارف «إسلامية» وضعها غير المسلمين ممن لم يفقه الإسلام حق فقهه. وإن لذلك تأثيره الذي تبين في النتاج الفكري لناشئتنا الإسلامية، فليت إحدى وزارات الشؤون الدينية التربوية أو الجامعات الإسلامية في أقطارنا الكثيرة تتولى وضع دائرة معارف إسلامية لتكون روحها إسلامية.

وإننا بحاجة إلى دائرة معارف متخصصة في كل فن، في اللغة، وفي الأدب، وفي التاريخ، وفي الطب والكيمياء والطبيعة والحيوان والنبات والجيولوجيا. وإن دوائر المعارف المتخصصة هذه تخدم دائرة معارف عامة، بلادنا بأشد الحاجة إليها لتسهيل الطريق على المشتغلين بصناعة المعرفة للوصول إلى المعلومات عن «كل شيء».

ثانياً: الفهارس الهجائية

أما في مجال الفهرسة الهجائية فإننا نجد في تراثنا نماذج قليلة من ذلك. ولعل السبب في قلتها أن الشأن في الفهرسة أن تعزى المسألة المعينة إلى صفحة ذات

رقم معين من الكتاب. ولا يكون لهذا فائدة ذات قيمة للجمهور ما لم تكن نسخ الكتاب موحدة في أرقام صفحاتها. ولذلك كانت نهضة صناعة الفهرسة لاحقة لنهوض الطباعة إذ إن الطباعة تخرج مجموعة كبيرة من نسخ الكتاب موحدة الصفحات بخلاف الكتابة اليدوية.

ولكن مع ذلك فقد ذكر الشيخ أحمد محمد شاكر (مفتاح كنوز السنة - المقدمة) أنه يمكن اعتبار كتب أطراف الحديث فهارس. وأطراف الحروف ثم الحديث كتب تجمع أحاديث كل صحابي وحده وترتب أسماء الصحابة على الحروف ثم تبين موضع كل حديث بـ (عزوه) إلى أبواب كل كتاب من كتب الحديث. وفي المكتبة الإسلامية عدد لا بأس به من كتب هذا الفن. وقد طبع منها مؤخراً كتاب «الأطراف» للمزي يوسف بن عبد الرحمن (- ٧٤٢هـ).

كما أن هناك فهارس «مصنفة» أي على الأبواب، نجدها لعلمائنا في كثير من كتبهم.

أما بعد انتشار الطباعة في البلاد الإسلامية فقد زودت كثير من الكتب والمجلات بفهارس إلا أن هذا الفن عندنا لا يزال قاصراً عن بلوغ المستوى الكافي ليكون مفاتيح لكنوز الثقافة الإسلامية.

وأشير هنا إلى فهارس ذات قيمة للباحثين لا أقصد بذكرها الحصر ولكن أقصد ذكرها كنماذج.

١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله وهو أفضل ما ألف من فهارس القرآن اللفظية.

وما زلنا بحاجة إلى فهرس هجائي مستوف «لموضوعات» القرآن.

وإني لأنظر أيضاً إلى الوقت الذي يلحق فيه بكل نسخة من نسخ الكتاب الكريم فهرس موضوعي هجائي موجز يعين القارئين لكتاب الله.

٢- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: وهو فهرس هجائي لفظي من مستوى رفيع ذو قيمة لا تحد لكل من له صلة بالحديث النبوي. وهو ذو قيمة للمعتنين بتاريخ دلالة الألفاظ. وقد فهرست فيه الكتب التسعة الرئيسية من كتب

السنة، رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين بإشراف المستشرق «فنسنك» بجامعة ليدن. وقد تم إصداره حديثاً في سبعة مجلدات ضخمة.

وقد وضع المستشرق فنسنك نفسه فهرساً «موضوعياً» مختصراً لكتب الحديث ترجمه محمد فؤاد عبد الباقي بعنوان «مفتاح كنوز السنة» وهو مطبوع متداول.

٣- في مجال فهرسة كتب الفقه الإسلامي صدر حديثا فهرس هجائي لحاشية ابن عابدين لأحمد مهدي الخضر.

وصدر حديثاً أيضاً فهرس لكتاب المغني في فقه الحنابلة قمت بتحضيره وأعانني الله على إكماله ونشرته دار البحوث العلمية بالكويت.

٤- فهرس كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني صنعه أحد المستشرقين وترجمه محمد مسعود وطبعه الحاج محمد الساسي بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

٥- في مجال فهرسة المجلات والصحافة دأبت بعض المجلات العربية على إلحاق فهارس هجائية موضوعية بآخر مجلداتها السنوية كما صنعت ذلك مجلة «المنار» ومجلة «الأزهر» غير أني لا أعلم مجلة عربية أصدرت فهرساً هجائياً يغطي أكثر من سنة واحدة، في حين أنه مما ييسر على الباحثين أن تصدر المجلة فهرساً لها كل خمس سنوات أو عشر سنوات وأيسر منه أن تصدر المجلة فهرساً لعدد أكبر من السنوات. بل إن بالإمكان إصدار فهرس عام موحد لمجموعة من المجلات التي تشترك في اتجاه معين.

وهنا أثني عنان القلم وكلي رجاء إلى الله سبحانه أن يأخذ بأيدي العاملين لنفع الأمة الإسلامية وسائر البشرية فيما يوسع ميدان المعرفة وينير آفاقها إنه العليم الحكيم.

* * *

٢٧ مقالات

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- الإسلام أولا.

العدد (٧٢) ذو الحجة (١٣٩٠هـ) - يناير (١٩٧١م).

٢- ما أحلى الغدا.

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ)- إبريل (١٩٧١م).

٣- الإسلام في العصر الحديث.

العدد (٧٨) جمادى الآخرة (١٣٩١هـ) - يوليو(١٩٧١م).

٤- ابن عمك عزه عزك.

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م).

٥- اليمينيون واليساريون في القرآن.

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١م).

٦- انتقال الحضارات.

العدد (٣٥٠) شوال (١٤١٥هـ) - مارس (١٩٩٥م).

٧- أيها التاريخ .

العدد (٤٠١) محرم (١٤٢٠هـ) - إبريل (١٩٩٩م).

مقالات

٨- الحق والواجب في الشريعة.

العدد (٤٣٨) صفر (١٤٢٣هـ) - مايو (٢٠٠٢م).

٩- اختلاف الفقهاء في أحكام الشريعة.

العدد (٤٨١) رمضان (١٤٢٦هـ) - نوفمبر (٢٠٠٥م).

ترجمة الشيخ

الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي

هو الشيخ محمد بن عبد المنعم بن خفاجي بن سليمان بن حسن بن مصطفى ابن أحمد الخفاجي.

ولد في المنصورة في ٢٢ يوليو عام ١٩١٥ م - رمضان ١٩٣٣هـ.

حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر عام ١٩٤٦ برسالته عن الشاعر العباسي عبد الله بن المعتز.

- **حياته العملية**

عُين رئيساً لقسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية عام ١٩٧٣م، ثم عُين عميداً لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فرع أسيوط عام ١٩٧٤م.

ثم تولى رئاسة رابطة الأدب الحديث منذ مايو ١٩٨٣م، ونال وسام العلوم والفنون والآداب في ذات العام، ثم عين عضواً في المجلس الأعلى للأزهر، وخبيراً في مجمع اللغة العربية منذ عام ١٩٨٤م.

- **مؤلفاته الأدبية كثيرة منها**

١- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، (بالاشتراك)، صدرت طبعته الأولى في بيروت.

٢- قصص من الحياة، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٠م.

٣- دراسات في الأدب الإسلامي من عصر النبوة إلى العصر الحديث، عدة أجزاء (مخطوط).

٥- الحياة الأدبية في ظلال الإسلام.

يمثل الخفاجي نهاية للجيل الموسوعيّ حيث ألف ما يزيد على خمسمائة كتاب في فنون مختلفة فقد كتب في الأدب والنقد.. وأنشد الشعر، وكتب في

التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية بل وحتى في علم الحديث من خلال تحقيقه لصحيح البخاري. . وفي التفسير القرآني حيث فسر القرآن الكريم في أربعة عشر جزءا.

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في عام ٢٠٠٦م غفر الله له وأسكنه فسيح جناته

* * *

الإسلام أولاً

العدد (٧٢) ذو الحجة (١٣٩٠هـ) - يناير (١٩٧١م).

نزل الإسلام شريعة عامة خالدة، تجدد الحياة، وتصحح العقيدة، وتعيد الأمن والسلام للإنسانية، وتؤثل للحضارة مجداً باذخاً، وللتطور البشري منزلة سامقة.

وذاع الإسلام في كل مكان، وانتشر في كل صقع، واعتنقته الملايين المحرومة المضطهدة المعذبة في الأرض، وآمنت به الشعوب من كل قارات الدنيا المعروفة آنذاك، وانتصر في مواجهته الكبرى للإمبراطوريتين العالميتين الكبيرتين: الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الرومانية الشرقية، وكان انتصاره حينئذ كاملاً، وعملاً رائعاً، لم يشهد التاريخ البشري له مثيلاً.. وخرج هرقل الإمبراطور الروماني العظيم من الشام باكياً حزيناً بعد هزيمة جيوشه الكثيفة في معركتها الكبيرة مع جيوش المسلمين حول دمشق في العام الرابع عشر من الهجرة (٦٣٦م)، وهو يودع أرض سورية ويقول: سلام عليك يا سورية، سلاماً لا لقاء بعده، وزالت سيادة بيزنطة على الشام إلى الأبد.

وامتد الإسلام فبلغ حدود الصين شرقاً، وشواطئ المحيط الأطلسي غرباً، وجنوب أوروبا شمالاً، وأواسط أفريقيا جنوباً في زمن يسير.. مما يعد معجزة في تاريخ الأمم والانتصارات.

وفتح العرب أسبانيا عام ٩٢هـ (٧١١م)، وبسط خلفاء بني أمية نفوذهم وسلطانهم عليها.. وتوغلوا فيها شمالاً حتى غزا فرنسا الحر بن عبد الرحمن عام ٩٩هـ (٧١٧م)، واستولى بعد ذلك السمح بن مالك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها، وقام عبد الرحمن الغافقي عام ١١٤هـ - ٧٣٢م بهجوم كبير عليها،

ووصل بجيشه الكبير إلى «بواتييه» بالقرب من باريس، فقابله شارل مارتل بجيش كبير، وحالفه الحظ فتمكن من هزيمة الغافقي وجيشه في يوم الجمعة الثاني من أكتوبر ٧٣٢م- السابع من شعبان عام ١١٤هـ، وقتل الغافقي، وانسحب المسلمون، وفي هذه الهزيمة يقول أديب ومفكر فرنسي كبير هو مسيو كلود فارير:

«في سنة ٧٣٢م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التي نكبت بها الإنسانية في القرون الوسطى، وكان من آثارها أن غمرت العالم الغربي طبقة عميقة من التوحش، لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة هذه هي الفاجعة التي أريد أن أمقت ذكراها، وأعني بها ذلك الانتصار البغيض الذي ظفر به أولئك المحاربون من الإفرينج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقي. ففي ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء، ويكفي المرء أن يطوف بفكره في الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي المتسامح السلمي.

وامتد الإسلام إلى سواحل إيطاليا حتى وصل إلى قرب روما، وخفقت رايته على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ومصر، وشمل الشام والجزيرة العربية، والعراق وفارس، وخراسان وداغستان وأفغانستان.

وأغار الأمويون في الشام على القسطنطينية عدة مرات، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول، وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط، صقلية، وسردانية، ومالطة، وفتحوها، وفتحوا كذلك قبرص، وكريت، ورودس، ودخلت بلاد ما وراء القوقاز في حكمهم، فدانت كلها لهم بالطاعة في عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ) (٧١٥- ٧١٧م) ودخلت كذلك بلاد النوبة في حكم المسلمين، وأجزاء كثيرة من سواحل أفريقيا الشرقية.

وفي عام ٨٧هـ- ٧٠٦م غزا قتيبة بن مسلم بلاد ما وراء النهر، ففتحت بخارى، وسمرقند، والصفد وغيرها، وتعمق في بلاد الهند حتى وصل إلى

كاشغر، وهي أدنى مدن الصين، وأرسل عام ٩٦هـ - ٧١٥م رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام، وبذلك امتد الإسلام وانتشر في أجزاء كثيرة من الصين، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣هـ- ٧١٣م فأصبحت ولاية إسلامية.

وسار الإسلام مع التجار المسلمين إلى سومطره، وجاوه، والملايو، وسيلان والفلبين، ومدغشقر، وأنحاء كثيرة من قلب أفريقيا في مدى يسير.

ولك أن تتصور عظمة الدولة الإسلامية التي كانت لا تغيب عنها الشمس، حينما كان الرشيد يجلس في قصر الخلافة ببغداد، ويتطلع إلى غمامة بين السحاب، فيقول لها: أمطري أين شئت فسوف يأتيني خراجك.

وانتشرت في العالم الإسلامي الثقافات الرفيعة، وقامت في المدن الإسلامية الكبرى الجامعات والمدارس والمكتبات، واستظلت هذه المدن بظلال وارفة من حضارة الإسلام، وحسبنا ما بلغته من حضارة ومجد: قرطبة، وطليطلة، وأشبيلية، وغرناطة، وفاس، والقيروان، وتونس وطرابلس، والفسطاط ودمشق، ومكة المكرمة والمدينة، والبصرة والكوفة وبغداد، والري وجرجان، وغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى في إبان ذلك العهد البعيد.

وبينما كان العلماء المسلمون في قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع عشرة، ويعودون إلى بيوتهم فيتنعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافة والأناقة، كان الأساتذة في إكسفورد يستنكرون الاستحمام، ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التي يجب الترفع عنها. وحينما كان فلاسفة المسلمين مكبين على تأليف أرسطو في دار الحكمة في بغداد، يقرأونها ويترجمونها أيام الرشيد، كان شارلمان ورجال بطانته يحاولون جاهدين إتقان كتابة أسمائهم، وتصوروا أن في جوف الساعة الدقاقة التي أهداها إليه الرشيد شيطاناً يتحرك.

وبينما كانت أوروبا لا تعرف الطب ولا الأطباء كان في بغداد في عهد المقتدر بالله العباسي عام (٣١٩هـ- ٩٣١م) ٨٦٠ طبيباً، وكان يفرض على

الصيادلة والأطباء فيها منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص، وقد أجرى لهم سنان بن ثابت بن قرة امتحاناً بأمر الخليفة العباسي.

أي مجد هذا المجد الذي بلغه المسلمون الأولون في زمن يسير؟ وأية حضارة تلك الحضارة الوارفة التي عاشوا في ظلالها بعد ظهور الإسلام بقليل؟!

ذلك كله وغيره، مما لا نستطيع أن نذكره في هذه الصفحات إنما ناله المسلمون بالإسلام أولاً، بالإسلام وحده، بالإسلام العظيم، فهو الذي أثل لهم الملك، ومنحهم السيادة، وفجر لهم كنوز الأرض، ووهبهم السلطان على أمم كثيرة، كانت لها السيادة في العالم كله قبل الإسلام، وفي بدء ظهور الإسلام.

لقد تذكرت حينئذ كلمة رسول الله ﷺ لقومه في مكة بعد نزول الوحي عليه بسنوات معدودات:

«ما جئت بما جئتكم به، أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم. ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً نذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم.. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

وذكرت كيف بدأ الإسلام، وأنا أقرأ حديث عفيف بن قيس الكندي قال:

«كنت في الجاهلية عطاراً، فقدمت مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، فبينما أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء، أقبل شاب كأن في وجهه القمر، حتى رمى ببصره إلى السماء، فنظر إلى الشمس ساعة، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة، فصف قدميه يصلي، فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية، فقام عن يمينه، فجاءت امرأة متلففة في ثيابها فقامت خلفهما، فأهوى الشاب راكعاً فركعا معه، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً فسجدا معه، فقلت للعباس: يا أبا الفضل، أمر عظيم، فقال: أمر- والله عظيم- أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا، قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله. أتدري: من هذا الفتى؟ قلت: لا، قال: هذا ابن

أخي، هذا علي بن أبي طالب، أتدري: من المرأة؟ قلت لا، قال: هذه ابنة خويلد، هذه خديجة زوج محمد هذا. وإن محمداً يذكر أن إلهه - إله السماء والأرض أمره بهذا الدين، فهو عليه، كما ترى، ويزعم أنه نبي، وقد صدقه على قوله علي ابن عمه، هذا الفتى، وزوجه خديجة هذه المرأة.

نعم صدقه علي، ثم صدقته خديجة.

ثم صدقه العرب، ثم صدقته المشارق والمغارب، واهتزت الدنيا كلها إيماناً به وتصديقاً له، ولرسالة الإسلام التي نزلت عليه.

ولقد بكيت وأنا أتابع امتداد الفكر الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب، وما شرعه للناس من شرائع الإسلام العظيمة في العدل والحرية والمساواة وفي مراقبة الخليفة عمر لله في شعبه وأمته، وهو يقول في آخر سنة من خلافته:

«إن عشت لأسيرن حولاً، فأقيم في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني، أما هم فلا يصلون إلي، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلي».

رعاك الله يا عمر، لقد كانت رعيتك عندك آثر عليك من أهلك وولدك، وأحب إليك من مالك ونفسك، وكنت بها براً رحيماً، تقيم العدالة بين الناس، الضعيف عندك قوي إذا كان الحق معه، والقوي عندك ضعيف إذا خذله الحق، فارتكب جوراً على أحد من الضعفاء المساكين من عامة الشعب.

-٢-

● امتد الإسلام وامتد

ومع ما تألب عليه من قوى الوثنية والعدوان فقد ظل يمتد ويمتد، لأنه شريعة الله ودينه ورسالته إلى نبيه محمد صلوات الله عليه وسلامه.

وقف في وجه الإسلام الإمبراطورية الرومانية الشرقية بجيوشها وأساطيلها وقوتها وحضارتها ومن حولها أوروبا كلها، فلم تستطع أن تطفئ نوره.

وجندت أوروبا لحربه حملاتها الصليبية المشهورة، فما استطاعت أن توقف

بها سيره وامتداده.

ودمر التتار حضارة الإسلام وعواصمه وجامعاته ومدارسه ومع ذلك ذهب التتار وبقي الإسلام.

وصب الاستعمار الأوروبي جام غضبه على الإسلام والمسلمين في العصر الحديث، ومع ذلك انحسر مد الاستعمار وبقي الإسلام يدوي صوته في كل مكان.

ومع ما دمر الاستعمار وعصره من تراث الإسلام وحضارته وكنوزه، وما بدد من ثقافاته وخيرات بلاده وما نهب من ثروات المسلمين، وما نشر بينهم من كل ألوان الكفر والفساد والإلحاد والعداء للإسلام والحرب لمبادئه، ونقل الكثير من الأمم الإسلامية من حياتهم الإسلامية الوارفة إلى الحياة الغربية بكل مظاهرها وألوان العيش والحضارة والفكر فيها.. مع ذلك كله فقد بقي الإسلام.

ويجند الأوروبيون أنفسهم لحرب الإسلام في كل مكان عن طريق النفوذ والسيادة والتجارة والثقافة والحضارة الأوروبية، ويتعاونون مع دعاة المادية وحماتها لخلع مبادئ الإسلام من النفوس، ولغزوهم غزوا فكرياً إلحادياً سافراً، بل يتعاونون مع الشيطان ومع غير الشيطان من أجل القضاء على الإسلام في بلاده، ومع ذلك يفشلون وينتصر الإسلام.

-٣-

إن حاضر العالم الإسلامي اليوم ليتمثل في حرب العالم الغربي للإسلام حرباً سافرة في بلاده وفي خارج بلاده: البعثات التبشيرية في كل مكان، المساعدات تنهال على كل من يقف في وجه الإسلام، المذاهب اللادينية في غزوها المستمر للشرق العربي وللعالم الإسلامي، دعاة العنصرية يحاربون الإسلام ويطردون المسلمين من بلادهم أو يقتلونهم ويشردونهم باسم القومية.. إسرائيل تقام في قلب العالم الإسلامي وتشن ثلاث حروب ضروس على قوة صاعدة فيه، وتعمل من قريب ومن بعيد على الدس لكل حركة إسلامية يمكن أن تقف في وجهها في

يوم من الأيام.

ومع ذلك كله فلسوف يبقى الإسلام ولسوف ينتصر الإسلام.

إن علاج جميع مشكلات العالم الإسلامي والعربي المعاصرة، لا يمكن حلها إلا بالإسلام أولاً وأخيراً، وبازدياد الوعي الإسلامي في جميع ربوعه وأرجائه، وبالإقبال على التراث الإسلامي في كل جوانب الفكر والثقافة والمعرفة والعلم إقبال المتفهم المستزيد المستضيء بما فيه من طاقات خلاقة، وحياة متجددة وروح حضارية أصيلة.

ولقد كان طاغور شاعر الهند الكبير يرى أنه لحل الأزمة الهندية يجب أن يدرس الهندوس الكتب العربية لفهم الروح الإسلامية بطموحها وتساميها فهما حسناً . . فلماذا لا ينادي المسلمون بما نادى به طاغور البوذي من نصف قرن؟!

مشكلات العالمين الإسلامي والعربي لا يمكن أن تحل إلا عن طريق الالتقاء الإسلامي بالإسلام وأفكاره ومثله وقيمه ومبادئه وحضارته.

بل إن مشكلات العالم كله لا يمكن أن تحل في يوم من الأيام إلا بالإسلام الذي سوف تهرع البشرية إلى الإيمان به والدخول فيه في يوم من الأيام، قصر أمد الوصول إليه أم طال.

وما ذلك على الله بعزيز، ولسوف تردد الدنيا والحياة والبشرية قاطبة ما نردده اليوم في وجه الأحداث الزاحفة علينا من الشرق والغرب: الإسلام أولاً.

ومَا أحلى الغدا

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ) - إبريل (١٩٧١م).

فـي حـاضِـري أَبْـنِـي الْـغَـدَا ... وَتَخِـذْتُـهُ لِي مَـوْعِـدًا
وَذَكَـرتُ أيـامِـي وأَحْـ ... ـلَامِـي الَّـتِي ذَهَـبَـتْ سُـدَى
ونـفـضـتُ آلامـي تُـؤَرِّ ... قـنِي، وَضِـقْـتُ بِهَـا يـدَا
ومـلـلْـتُـهـا، ومـلـلـتُ كُـلَّ ... حَـدِيـثَـهـا لِي وَالـصـدَى
وغـدِي ولـيـس الْأَمْـسُ كَـا ... ن - كَـمَـا أَرَى- لِي مَـوْلِـدَا
وَاهًـا لِأَمِـسِ مُـشَـرَّدًا ... وَاهًـا لِأُمْـسِ مُـبَـدَّدَا
مَـا أمـس مِـنْ عُـمْـر الـزَّمَـا ... ن، وَلم يَـدَعْ عـنْـدِي يَـدَا
لِـمَ لَـمْ أعِـشْ فِـي عَـصْـر أَجْـ ... ـدَادِي الْـقُـدَامَـى سَرْمَـدَا؟
لِـمَ لَـمْ أعِـشْ فِـي دَارِ آ ... بَـائِي، لِأُمْـطـرَهَـا نَـدَى؟
جـئْـتُ الـزَّمَـانَ مـوَلِّـيـا ... هَـرِمًـا، وَقَـدْ بَـلَـغَ الْمَـدَى
جـئْـتُ الْـحَـيَـاةَ وَوَجْـهُـهَـا ... أَمْـسَى كَـئِـيبًـا أَرْبَـدَا
وكَـأَمْـسِ يَـوْمِـي عِـشْـتُـهُ ... عِـشْـتُ الـزمَـانَ الْأَنْـكَـدَا
فَـالـيَـوْمُ كَـالْأَمْـسِ الْـغَـرِيـ ... ـبِ، وَعِـشْـتُ فِـيه مُـفَـرَّدَا
أنَـا عِـشْـتُ الْاثْـنَـيْـنِ الَـحـزيـ ... ـنَ، الـسـاهـم، الْـمُـتَـمَـرِّدَا
لَـوْلَا الْـغـدُ الـمَـرْمـوقُ سر ... تُ كَـمَـنْ يَـسيرُ إلى الـرَّدَى
لَـوْلَاهُ عِـشْـتُ عَـلَـى الْأَسَـى ... أسِـفَ الْـفُـؤَادِ مـسَـهَّـدَا
جُـمِـعَ الـزمـانُ، فَـكَـانَ، كَـا ... نَ غَـدًا، ومَـا أَحْـلَى غَـدَا
لِـلـدِّيـن، لِـلْإِسْـلَام، سَـوْ ... فَ يَجِـيءُ، يَـقْـبـل، لِـلْـهُـدَى

لِلْمَجْدِ، لِلْحِلْمِ الْكَبِيرِ ... وَمَا أجَلَ وَأَحْمَدَا
لِلنَّصْرِ، لِلْآمَالِ أَحْـ ... ـيَا فِيه، أَحْيَا مُسْعِدَا
لِحَيَاتِنَا الْمُثْلَى يجيءُ ... غَدٌ، وَيَخْطر سُؤْدَدَا
وَتَكَادُ تَنْدَى أرْضُنَا ... مِنْه، وَتُنْبِتُ عَسْجَدَا
وَتَكَادُ تُورِقُ مِنْهُ أز ... هَارُ الرَّبِيعِ زَبَرْجَدَا
أعْلَامنَا تَخِذَتْ بِهِ ... فَوْقَ الْكَوَاكِبِ مَقْعَدَا
يَعنو له وَجه الْجَلا ... لِ، وَهَامُ دَهْري، سُجَّدَا
وَنصُوغُ فِيه لِدِينِنَا ... عِقْدَ الْفَخَارِ، مُنَضَّدَا
وَيعُودُ فيه الْمَجْدُ، بالـ ... ـهمم الْكبَار مُخَلَّدَا
كَرُمَ الْغدُ الْمَأْمُول نَحْـ ... ـيَاهُ ومَا أَحْلَى الْغَدَا
الْمُسلمُون بِهِ يَطُو ... لون السُّهَا، والْفَرْقَدَا
وَبِهِ يَنَالُونَ الْفَخَا ... رَ، طَرِيفه، وَالْمتلدَا
فِيه وَفِي أَبْرادِه ... نسمُو ونكرَمُ مُحْتِدَا
نَخْتَالُ فِيه وَفِي ضُحَا ... ه عَلَى الخطُوبِ، عَلَى الْعِدَا
لَا نَحْذَرُ الْمَوتَ الرهِيـ ... ـبَ، ولَا نَخَافُ بِهِ الرَّدَى
وَنَمُدُّ فِيهِ، نَمُدُّ أَيـ ... ـدِينَا، تُصَافِحُ «أَحْمَدَا»
وَتَقُولُ: عَادَ لَنَا الزما ... ن، ومَا أَعَزَّ وأَمْجَدَا

* * *

سَيَجيءُ، لِلْبَعْثِ الْعَظِيـ ... ـمِ غَدٌ، ويوقِظُ رُقَّدَا
يَمْشِي سَعِيدًا بيْنَنا ... وَيَطِيبُ فِينَا مَوْرِدَا
ويَروح، يغدو فِي رَوا ... بِينَا جَلِيلًا، سَيِّدَا
ويَجيءُ لِلْأَمَلِ الْنَّبِيـ ... ـلِ، وللرجَاء مُؤَكِّدَا
ويَجيءُ لِلزَّحْفِ الكَبِيـ ... ـر، وللبنَاء مُوَطِّدَا
ويَجيء لِلْعِزِّ التَّلِيـ ... ـدِ، وللسلامِ مُؤَيِّدَا

لِفَضَائِل الإسلام، لل ـخُلق الزَّكِيِّ مُمَجِّدَا
وَثَنِيَّة العصر الذي نحيَاه يَصْرَعُها الرَّدَى
ولكل بهتَان وَمَسْ ـوأةٍ يَجْيءُ مُشَرِّدَا
يَبْنِي لهُ القُرآن مَجـ ـدًا بالقديم مُشَيَّدَا
ولَهُ، له، عَزَمَاتُنَا تَبْنِي وتَرْفَعُ أَعْمُدَا
هَذَا سَنَاه وذَاكَ مشـ ـرقه يَجيء مُجَدِّدَا
هَذِي رُؤَاه وذَاكَ مَو كِبُه يَسِيرُ، لَقَدْ بَدَا
كَرُم الْغد المنْشُود نحـ ـيَاه ومَا أَحْلَى الغَدَا
ونَمُدُّ فِيه، نَمدُّ أيـ ـدِينَا، تُصَافِح «أَحْمَدَا»
إن قيل: من لمآثر الـ إسلام؟ قَال: «محمدَا»

الإسلام في العصر الحديث

العدد (٧٦) جمادى الآخرة (١٣٩١هـ) - يوليو (١٩٧١م).

حركة الإسلام في العصر الحديث حتى اليوم، من الضروري أن يتنبه لها كل مسلم غيور على دينه وأمته، ليعرف خطاه وخطى بني قومه، وإلى أية غاية أداه إليها مسيرة التاريخ الإسلامي حتى اليوم، وإلى أي هدف يسير، أو يجب أن يسير اليوم، ليصل إلى نقطة ارتكاز جديدة، وإلى منطلق قومي إسلامي جديد.

ولا نستطيع فهم مسيرة التاريخ الحديث للإسلام إلا إذا صورنا في إيجاز حركة الإسلام قبل العصر الحديث لتكون مقدمة لحديثنا اليوم.

غيَّرَ الإسلام، بعد انبعاثه بقليل وفي حوالي ست سنوات لا غير في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، مجرى التاريخ العالمي، بل غير وجه العالم تغييراً لم يحدث مثله من قبل ولا من بعد، وحطم انبعاث الإسلام على هذه الصورة المذهلة كل الأقيسة التاريخية، إذ لم يسبقه في هذا سابق، ولم يلحقه لاحق، كما يؤكد المؤرخ الإنجليزي المشهور «توينبي» وورثت الأمة العربية المسلمة الإمبراطورية الساسانية، كما ورثت ملك الإمبراطورية الرومانية الشرقية في الشام ومصر والمغرب وجزر البحر الأبيض المتوسط.

وامتدت بعد ذلك الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً إلى أماكن كثيرة حتى أصبحت امبراطورية الإسلام تمتد من الصين حتى شواطئ المحيط الأطلسي، وتشمل كثيراً من سهول آسيا الصغرى وجزر البحر الأبيض المتوسط وأسبانيا وأماكن كثيرة متعددة في جنوب أوروبا.

وكان من الطبيعي أن تقف أوروبا المسيحية بقواتها العسكرية ممثلة في الإمبراطورية البيزنطية في وجه الإسلام، لتعوق هي وأحلافها في أوروبا امتداده

إليها وإلى غيرها من معاقل العالم المسيحي.

وظلت الإمبراطورية البيزنطية تقاوم الإسلام، على امتداد الأيام، بكل ما تستطيع من جهد عسكري وسياسي معاً.. نحو ثمانية قرون من الزمان.

وظهرت القوميات الإسلامية في العالم الإسلامي في القرن الثالث والرابع والخامس الهجري، لتضعف من قوته ووحدته وتعاونه في صد هجوم البيزنطيين على معاقل الإسلام.

وفي نهاية القرن الخامس الهجري انتقلت أوروبا الصليبية إلى الهجوم على الإسلام في وطنه وبلاده، وأشعلت نيران الحروب الصليبية الحاقدة المتعطشة إلى الدماء والتي استمرت نحو قرن ونصف من الزمان وشجعت أوروبا كذلك فرسان أسبانيا. على مقاومة المسلمين فيها والعمل على طردهم منها نهائياً.

وخلال موجات الحروب الصليبية التي أنهكت العالم الإسلامي إنهاكاً شديداً، والتي لم تضعف من عزيمته في مقاومة الغزو الصليبي، والعدوان المدمر الزاحف من أوروبا زحف الخطر المغولي على العالم الإسلامي ودمره تدميراً شديدا واستولى على بغداد عاصمة الخلافة العباسية وزحف إلى الشام وهدد مصر تهديداً كبيراً.

ويظن أن المغول كانوا في زحفهم هذا يقفون وحدهم، ولكن هذا خطأ كبير، فلقد كانت المسيحية أو على الأصلح الصليبية، هي المحرض الأول للتتار على هذا الزحف، وهي التي رسمت لهم الخطط، وأمدتهم بالتقارير الوافية عن حالة الخلافة العباسية في بغداد، وحالة العالم الإسلامي عامة، وحسبنا على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هيبتون ملك أرمينية المسيحي كان العامل الرئيسي في إقناع ما نجو خان (٦٤٦- ٦٦٥هـ - ١٢٤٨- ١٢٥٧م) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)[١]، وأن هولاكو التتري زوج ابنه من ابنة الإمبراطور البيزنطي[٢].

(١) الدعوة إلى الإسلام (٢٥٢)، أرنولدوتوماس، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين.

(٢) المرجع نفسه ٢٦٠ .

ولما قامت الإمبراطورية المغولية الكبرى، داعب المسيحية الغربية، أمل مهاجمة الإسلام في مؤخرته، وذلك بتحويل حكام هذه الدولة الجديدة الكبرى إلى القالب الغربي من الديانة المسيحية، وفي سبيل إدراك هذه الغاية قطع رسل البابا من المبشرين الرحلة الطويلة إلى «قرة قوروم» عاصمة الإمبراطورية المغولية آنذاك، وتلاهم ماركو بولو بعد ذلك بقليل وهو في طريقه إلى بلاط قويلاي خان إمبراطور الصين، لكن خاب أمل المسيحية الغربية في ذلك كله[١]، ومع أن الغزو المغولي قد دمر العالم الإسلامي ومراكز حضارته تدميراً كاملاً، إلا أن هزيمة المغول أمام الجيش المصري في عين جالوت، التي أشبهت هزيمة الصليبيين أمام صلاح الدين الأيوبي في حطين، كانت عاملاً كبيراً في عودة الطمأنينة إلى العالم الإسلامي من جديد، وأصبحت مصر بعد معركة عين جالوت (الجمعة الخامس والعشرون من رمضان عام ٦٥٩هـ- ١٢٦٠م) قلعة العالم الإسلامي العسكرية وحصنه السياسي والاقتصادي، ومنارته الثقافية والدينية[٢]، وكانت قدرة العالم الإسلامي على أن يسحق في القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي قوة العدوان الصليبي، وشوكة الغزو التتري، ثم قدرته خلال القرن التاسع الهجري- الخامس عشر الميلادي على أن يجتاح أخيراً الإمبراطورية الرومانية الشرقية ويزيلها من الوجود، عاملاً كبيراً في طأطأة أوروبا رأسها للتيار الإسلامي العظيم، حتى أصبحت تعتقد في قرارة نفسها «استعصاء المسلمين على الهزيمة»[٣].

وأرادت أوروبا القيام بضغط عسكري ضخم على المسلمين في الأندلس لرد الثقة في النفوس، فاحتلت غرناطة وأزالت آخر معقل إسلامي في الأندلس، بأيدي فرسان أسبانيا وحلفائهم وذلك عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م.

---

(١) حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ (٤٧) فؤاد شبل.

(٢) المرجع نفسه ٨٩ .

(٣) المرجع نفسه ٦٢ .

ولم تستطع أوروبا مقاومة القوة الإسلامية ممثلة في مصر آنذاك، فأخذ البرتغاليون طريقهم إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح، وأخذوا السيادة البحرية - من أيدي العرب- على المحيط الهندي في القرن السادس عشر الميلادي، وأخذت روسيا تجتاح مناطق الشمال الآسيوية وتطوق العالم الإسلامي الممتد إلى أطراف الصين، وذلك خلال القرن السابع عشر، ثم كان ارتداد العثمانيين عن فينا خلال عام ١٦٨٢م نقطة تحول كبير في المعارك بين أوروبا والعالم الإسلامي في جبهة وسط أوروبا على امتداد جبهة الدانوب، كما هزم العثمانيون أمام روسيا هزيمة كبيرة ساحقة أيضاً عام ١٧٧٤م، ثم كانت هزيمة المماليك أمام الجيش الفرنسي في الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، وأنزلت أداة الحرب الأوروبية الحديثة عدة هزائم بالعالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

وكما استولى الهولنديون خلال القرن السابع عشر على جاوة وبقية جزر الهند الشرقية، استولى البريطانيون على البنغال خلال أعوام ١٧٥٧- ١٧٦٤م، واستولت في القرن التاسع عشر فرنسا على الجزائر ثم تونس ثم المغرب، واستولت إنجلترا على مصر، وبدأ ضغط الاستعمار الأوروبي للشرق العربي الإسلامي يتفاقم ويزداد خطره على مقومات المسلمين الروحية والحضارية والسياسية.

وفي ظلال الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي قامت المدارس التبشيرية في كل مكان من أنحاء الوطن الإسلامي، وحدثت حركة طغيان شديد للحضارة الغربية التي اشتدت موجتها العاصفة الزاحفة على بلاد الإسلام، والتي أخذت تطبع حياة المسلمين بطابع غربي محض في كل جانب من جوانب حياتهم: السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

وزاد مد الاستعمار الغربي بعد ذلك فاحتلت إيطاليا ليبيا، وصحب ذلك زيادة نفوذ التبشير المسيحي، وكلب الغزو الحضاري الأوروبي للعالم الإسلامي، وقضت أوروبا على الخلافة العثمانية التي كانت تمثل الفكرة الإسلامية قومياً

وسياسياً وعقائدياً تمثيلاً كبيراً.

ثم ظهر الخطر الصهيوني، وتفاقم خطره بقيام إسرائيل عام ١٩٤٨ في فلسطين، وعلى رقعة من أهم بلاد الإسلام وأكثرها عروبة، وقامت إسرائيل خلال عشرين عاماً بثلاث حروب على العالم العربي، هي حرب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧م.

كل ذلك يعد تنفيذا لمخططات أوروبا المسيحية في مقاومتها للإسلام، وفي معركتها مع المسلمين.

وتعتبر أوروبا أن الخطر الأكبر عليها هو الإسلام نفسه، وأن كل عمل ضد الإسلام في بلاده هو خط أمان جديد لأوروبا في الحاضر والمستقبل.

وعداوة أوروبا للإسلام، ومقاومتها له، ووضعها الخطط لحصاره، وتبديد قوته، لا تنتهي عند حد، وكل حدث كبير أو صغير في بلاد الإسلام إنما هو إثر تخطيط غربي موضوع لمقاومة الإسلام والقضاء عليه. . ويشارك أوروبا في هذا الشعور أمريكا وغيرها من بلدان العالم المسيحي .

وللقضاء على الإسلام في عرف أوروبا أساليب كثيرة، تبدأ من المدرسة ومنهجها التربوي، والثقافة وحركتها في ثلب الإسلام والمسلمين والعرب والعروبة، وتشويه تاريخهم وأعلامهم وثقافاتهم وحضارتهم، وتسير في امتداد التبشير من داخل العالم الإسلامي وخارجه، على أيدي المبشرين الظاهرين، والمبشرين المختفين من المستشرقين، وممن ينتمون كلهم أو جلهم إلى الأديرة المسيحية، وممن تخرجوا من صوامع الرهبنة في الغرب وامتلأت نفوسهم بالبغضاء للإسلام وتراثه وثقافاته ولغته وعقائده.

وقد ساعدت البيئات الصليبية المسيحية على قيام دعوات إسلامية متطرفة في العالم الإسلامي من مثل البهائية والقاديانية وغيرهما.

كما ساعدت أمريكا بنفوذها ومالها الشيوعية على التغلغل في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية مما ذكره بوضوح أيدن في مذكراته. كل ذلك في محاولة قوية لتحطيم العقيدة الإسلامية، وتحطيم الكيان الإسلامي القوي في

نفوس المسلمين.

وقد أسهمت أوروبا في الدعوة إلى العلمانية ونشر فكرتها بين أبناء المسلمين، وبخاصة المثقفين منهم في معاهد الغرب وجامعاته، لعزل الإسلام، عن المجتمع وجعله دين رهبنة فحسب، كما حدث للدين المسيحي نفسه، وهذا منطق يأباه الإسلام وطبيعته إباء شديداً، لأنه دين يجمع بين العقيدة والحياة، وبين الفكر والعمل، وبين الآخرة والدنيا، وبين المادة والروح، ويربط بين الفكرة والواقع برباط وثيق.

ولا أدري لماذا تقوم معاهد الدراسات الإسلامية في الغرب وفي كندا وأمريكا، وهي ملحقة بالجامعات الغربية والكندية والأمريكية، على فكرة واحدة، هي أن تكون مراكز استماع على العالم الإسلامي وحركاته، وعلى تشويه حقائق الإسلام وتاريخه، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية تنتدب هذه المعاهد من أنحا العالم الإسلامي لفيفا من الأساتذة المتتلمذين على الثقافة الغربية، والمتشبعين بها، والذين لا يرون الإسلام إلا بمنظارها وحده، حيث يجلسون مع أساتذة صهيونيين متخصصين في محاربة الإسلام وشعوبه، وفي تشويه كل فكرة إسلامية، وفي دراسة كل حركة نابتة أو قائمة في الشعوب الإسلامية، وكل حركة يمكن أن تؤدي إلى خطر جديد على الغرب وأمنه وسلامه في المستقبل[1].

إن إيمان المسلمين المعاصرين، أو كثير منهم، بالحضارة الغربية، إيماناً مطلقاً، واعتناقنا للأفكار الهدامة الشيوعية والصليبية والتبشيرية اعتناقاً كاملاً، وطبع ثقافاتنا وكل حركات التعليم في بلادنا بطابع غربي محض، وانتشار الأفكار السخيفة الوافدة إلينا من الغرب، والتي تروجها الصليبية الغربية في صفوفنا، من أمثال أن الدين الإسلامي دين رجعي، وأن تشريعاته وحدوده ونظمه قديمة بالية لا تتفق وروح العصر الحاضر.

---

(١) من مثل ذلك قيام ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال بدراسة مجلة الأزهر والفكرة الإسلامية التي تنطوي عليها في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث».

كل ذلك، وغيره، إنما هو من مظاهر العمل الخفي، الذي جهد الغرب الصليبي وأذنابه في العمل من أجله قروناً وأجيالاً، في بلاد الإسلام وبين شباب المسلمين.

ومن العجيب أن نتلقى من الغرب كل الأحكام التي يصدرها علينا - بدافع من العصبية والحقد والعداوة الموروثة - بالقبول والتسليم، وأن نحاول في تفريط ظاهر، الانسلاخ من مقوماتنا الأصيلة، لنحقق أمل الغرب وأمانيه بأيدينا نحن، ولنؤكد له ولاءنا الروحي والفكري والثقافي ولنظهر أمام الناس بمظهر المتطفلين على موائده، والمتتلمذين على أفكاره، ما جل منها وما هان، وما صلح وما فسد.

وما رأيت رجلاً مصمماً على قتل إنسان، ثم يصبح هذا الإنسان عوناً له في تنفيذ جريمته باختياره، إلا نحن المسلمين.

أذلك لغباء وَعَتَهٍ وغفلة؟

أو لجنون وفقدان تمييز؟

أو لجهل بحقائق الصراع العالمي والتاريخي بين الإسلام والغرب؟

لا أدري.

ولكن الذي أقرره، ويقرره كل دارس لتاريخ الإسلام: القديم، والحديث، والمعاصر، هو أن عداوة أوروبا وأحلافها للإسلام لا تقف عند حد، وأن تخطيطهم للقضاء عليه وتحطيم شعوبه لا ينتهي عند غاية، وأن جميع الأحداث السياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي خلال القرن العشرين وما سبقه من قرون، إنما هي أثر لمخططات الغرب في حرب الإسلام والقضاء عليه.

ومن البديهي أن الخطر الإسرائيلي الصهيوني، وتهديده المستمر للعالم العربي الإسلامي، إنما هو أثر لمخطط صليبي قصد به الإسلام ذاته، ولا يعوزنا في ذلك الدليل.

فبلفور هو صاحب الوعد المشؤوم.

وأمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا هي أوائل الدول التي اعترفت بإسرائيل.

والغاية من كل ذلك هي تحطيم العالم العربي، وإشعال الحروب والفتن الدائمة في ربوعه، ومنعه من أية حركة إسلامية أو حربية في الحاضر والمستقبل،

وإبقاؤه دائماً عاجزاً عن أي تهديد لأوروبا.

وليس أمامنا مجال لليأس.

بل يجب علينا الوعي والتدبر والرفض الكامل لكل مخططات الصليبيين والإلحاديين التي يريدونها ويريدون أن ننفذها نحن بأيدينا.

يجب علينا أن نتمسك بإصرار بالإسلام.

أن نستمد منه القوة والمنعة والرجاء في إنقاذ جديد شامل من هذه المحنة وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

ابن عمك
عزّه عزّك ، وشرفه شرفك، وملكه ملكك

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م).

-١-

«أي صفوان.. فداك أبي وأمي
هو أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس.
ابن عمك عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.».

قالها عمير بن وهب ابن خلف القرشي الجمحي المكي لابن عمه صفوان بن أمية بن خلف، في تأثر شديد، وضراعة ظاهرة، واستعطاف كبير.

ويرد عليه صفوان في غضب واستكبار، وعزم وتصميم: دعني وطريقي، لن أعود أبداً.

وكان صفوان قد هم بركوب السفينة من جدة، لتقله إلى اليمن، يعيش فيها، بعيداً عن مكة، وعما آل إليه أمر مكة يومئذ.

وكان ذلك في مطلع شوال من العام الثامن من الهجرة، بعد فتح مكة بقليل.

ويعود عمير ليقول من جديد: «أي صفوان.. أي ابن عم.
لن أدعك وطريقك أبداً.
انزل من السفينة، وعد معي إلى مكة، وطنك، ووطن آبائك وأجدادك، وأنت أنت ابن مكة، وشريف العشيرة وسيد القوم، وفيها صاحبتك وأولادك وأموالك».

وكان صفوان سيد بني جمح، بعد أبيه أمية بن خلف، كما كان من كبراء قريش في حياة أبيه.

وكان أَمْرُ الأزلام في الجاهلية موكولا إلى صفوان، ونشأ في جاه أبيه ومجده وشرفه وماله، وعمل في التجارة، وربح وأثرى، وجمع الذهب، حتى صار له قنطار من الذهب، كما كان لأبيه قنطار من الذهب، وبذلك جمع السؤدد من أطرافه، ونال المجد بكلتا يديه.

وتزوج صفوان في حياة أبيه من أكرم بيوت العرب، تزوج برزة بنت أبي مسعود الثقفي، وفاختة بنت الوليد بن المغيرة.

وكان أبوه «أمية» من أشراف قريش وسادتها وإليه الرأي في الكثير من الأمور والمشكلات.

وجاء الإسلام، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى الإيمان به، وصدت قريش عند ذلك صدوداً عجيباً، وقاومت رسول الله والمؤمنين به مقاومة ليس لها مثيل في التاريخ: وكان عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام. والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، وسواهم يمثلون جبهة المعارضة للإسلام ولرسول الله ﷺ حتى ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب وهو عبد الله ابن أبي أمية المخزومي، وحتى ابن عمه أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وكان أخاً للرسول من الرضاعة، أرضعتهما معا حليمة، حتى هذان مع قرابتهما لرسول الله كانا من أشد الناس عداوة لرسول الله، ولما جاء به من الحق والدين والشريعة، فقال له ابن عمته عبد الله بن أبي أمية: والله لا أومن بك أبداً، حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.. وكذلك كان الأخنس الثقفي، وأبي بن خلف الجمحي، والعاص بن وائل السهمي، وغيرهم.. وكان أمية بن خلف هو الذي تولى تعذيب المسلمين من مثل بلال. وأمية ومعه الوليد بن المغيرة، وبعض أشراف قريش هم الذين قالوا لرسول الله: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد. وقد حضر أمية بدراً هو وابنه صفوان، فقتل أمية وقتل معه أبو جهل

وأشراف قريش وسادتها وورث صفوان بعد أبيه أمية مجده وحسبه وشرفه، وصار إليه ما كان لأبيه من قبله.

واستمر صفوان في حربه للإسلام ولرسول الله، كما كان يصنع، وكما كان يصنع أبوه قبله.

-٢-

وبعد بدر أخذ صفوان بن أمية يكيد لرسول الله كل الكيد، ويتآمر عليه بكل ما في وسعه وطاقته من حيلة، وهو الشقي الموتور، قتل أبوه وأخوه ي بدر، وقتل أشراف قومه وسادتهم.

وجلس صفوان في الحجر في يوم من الأيام وحوله ابن عمه عمير بن وهب الجمحي، وكان شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه عناء شديداً وهم بمكة، وكان ابنه وهب قد أسر في بدر.

وأخذ عمير يذكر مصاب قريش في بدر، ويذرف الدموع على قتلاهم، فقال له صفوان: والله ما في العيش بعدهم من خير، فرد عليه عمير. صدقت والله، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضياع والهوان بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، وأشمت بالمسلمين فيه، فإن لي قبلهم علة، ابني وهب أسير في أيديهم.

فقام صفوان واقفاً، فرحاً جذلان لما سمع، وما أكرم ما سمع على نفسه، وقال يغتنم الفرصة حتى لا تفلت من يديه: يا أبا وهب، يا أخي، دينك علي أنا، أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما داموا على ظهر الأرض. فقال أبو وهب عمير: اكتم عني شأني وشأنك هذا، لا تحدث به أحداً حتى لا يعرف أحد ما أنتويه ورد صفوان في حماس شديد: أفعل ذلك.

وذهب عمير إلى منزله، فأخذ سيفه، فشحذه وسممه، وركب راحلته، وخرج من مكة يريد المدينة، والناس يسألونه إلى أين تريد يا أبا وهب؟ فيقول: أريد المدينة لفداء ابني الأسير.

وقدم عمير المدينة فبينما عمر في جماعة من المسلمين يذكرون ما أكرمهم الله به، إذ نظر فرأى عميراً قد أناخ راحلته على باب مسجد رسول الله، متوشحاً بالسيف، فقال لمن حوله: هذا الشيطان عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وكان عيناً علينا لقريش في بدر، ثم دخل عمر على رسول الله وهو يقول: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه.

قال: فأدخله علي، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه، فلببه بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا فاجلسوا عند رسول الله، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ودخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه الرسول وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، أدن يا عمير.

فدنا عمير من رسول الله، وجلس فقال له رسول الله: فما جاء بك يا عمير؟ قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال الرسول: اصدقني ما الذي جئت له؟

قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: بل قعدت أنت وصفوان في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي، وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ما تريد، وصعق عمير لما يسمع، ليس من أحد يعرف الأمر غير صفوان، وقد أوصى صفوان بكتمانه عن كل الناس، إن هذا إلا الوحي نزل على محمد من السماء، واهتزت أعماق عمير ومشاعره اهتزازاً شديداً، وقال أشهد أنك رسول الله. . قد كنا يا محمد نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، وشهد عمير شهادة التوحيد، والحق، فقال رسول الله: فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

فصنع المسلمون كل ما أمرهم به رسول الله ﷺ، وقال عمير يا رسول الله إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي حتى أقدم مكة، فأدعوهم إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، وأذن له رسول الله.

كل ذلك وصفوان بن أمية في مكة يصبح ويمسي وهو يقول لمن يلقاه من قومه: أبشروا بحادثة تأتيكم قريباً في أيام تنسيكم وقعة بدر ويخرج صفوان إلى خارج مكة كل يوم، يسأل الركبان عن عمير بن وهب وفي أحد الأيام لقيه قادمٌ من المدينة، فسأله عن عمير، فأخبره أنه أسلم، فرجع صفوان مهموماً مغموماً، وهو يحلف لا يكلم عميراً أبداً ولا يؤدي له منفعة أبداً.

وقدم عمير إلى مكة، فأقام يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، حتى أسلم على يديه أناس كثيرون، وعمير زوج عمة النبي ﷺ، وهي أروى بنت عبد المطلب.

-٣-

وجاءت معركة أحد، وقتل فيها عم صفوان، وهو أبي بن خلف، قتله رسول الله ﷺ، فازداد حنق صفوان على رسول الله وحربه وعداوته لله ولرسوله. وكان صفوان في قلب المعركة، وقال رسول الله ﷺ في أثناء المعركة.

اللهم العن أبا سفيان

اللهم العن الحارث بن هشام.

اللهم العن صفوان بن أمية.

- ٤ -

وفتح رسول الله ﷺ مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة، وأذل الله الشرك والمشركين، ونكس راية الوثنية والبهتان، وهدم الرسول ﷺ الأصنام،

وترددت في جنبات البيت الحرام شهادة التوحيد ولكن الفتح لم يمض دون مقاومة من قريش، لقد أسلم أبو سفيان قبل دخول رسول الله مكة بيوم، بعد أن رأى بعينيه ما رأى، وشاهد جيش محمد الذي لا قبل لقريش ومشركي مكة به، ولا يستطيع أن يقاومه إنسان، وأسلم كذلك سهيل بن عمرو خطيب قريش وأحد أشرافهم وسادتهم يوم الفتح.

ولكن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وجموعاً معهم، قاوموا جيش خالد بن الوليد، وهو يدخل مكة من أسفلها، فقتل من المشركين اثنا عشر رجلاً ومن المسلمين رجلان.

وبدأ السلام والأمان يعودان إلى بلد الله الحرام، وتردد النداء عالياً:

ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

ومن دخل المسجد فهو آمن.

وخطب رسول الله الناس، فأعلن العفو العام حتى عن رؤوس الشرك والضلالة، وقال لهم: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا: خيراً.. أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

وأرسل رسول الله إلى صفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وأبي سفيان: فقال عمر: لئن أمكنني الله منهم لأعرفنهم، قال رسول الله: مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم».

وأسلمت زوجة صفوان، وهي فاختة بنت الوليد بن المغيرة، وذلك يوم الفتح، وهرب صفوان إلى حيث لا يعرف مكانه إنسان إلا ابن عمه عمير بن وهب.

وجاء عمير إلى رسول الله يقول له: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً منك ليركب البحر إلى اليمن فراراً وذعراً، فهلا أمنته؟!

وفي رواية أخرى أنه قال لرسول الله: أسألك أماناً لصفوان، قد هرب، وأخشى أن يهلك، وإنك قد أمنت الأحمر والأسود، فأمنه يا رسول الله.

فقال ﷺ: «هو آمن» وفي رواية: «أدرك ابن عمك فهو آمن».

قال عمير. يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله عمامته التي دخل فيها مكة كما يروي ابن هشام: ويروي الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أن رسول الله بعث إليه ابن عمه عمير بن وهب بردائه أماناً لصفوان ودعاه إلى الإسلام وأن يقدم عليه مكة.

وخرج عمير يريد جدة حيث صفوان قد هرب إليها ينتظر فيها سفينة يركبها ليذهب إلى اليمن، ويعيش هناك بعد أن هزمه الله، وهزم الشرك والمشركين وفتح مكة على الإسلام والمسلمين.

وأدرك عمير صفوان وهو يريد أن يركب السفينة ودار بينهما هذا الحوار الغريب: يقول عمير لصفوان:

يا صفوان.

فداك أبي وأمي.

الله، الله، في نفسك أن تهلكها.

فهذا أمان من رسول الله قد جئتك به ويرد عليه صفوان:

ويحك، أغرب عني، فلا تكلمني قال عمير:

أي صفوان.

فداك أبي وأمي.

أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.. ويقول صفوان: دعني وطريقي لن أعود أبداً. ويقول عمير:

عد معي إلى مكة، وطنك، ووطن آبائك وأجدادك، وأنت أنت، ابن مكة وشريف العشيرة، وسيد القوم، ويقول صفوان: إني أخافه على نفسي. ويرد عمير: هو أحلم من ذاك وأكرم، وينتهي الموقف بنزول صفوان من السفينة، ثم عودته مع عمير ابن عمه إلى بلده مكة.

فلما قدم صفوان على النبي ﷺ ناداه على رؤوس الناس: يا محمد إن هذا

جاءني بردائك يزعم أنك أمنتني، ودعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أقمت ودخلت في دينك، وإلا خرجت في مدة شهرين لا أتجاوزهما.

فيرد عليه رسول الله ﷺ في وقار وجلال وأناة وحلم:

صدق، انزل أبا وهب. فيقول صفوان:

لا والله حتى تبين لي . . فيقول رسول الله: لك أربعة أشهر.

-٥-

وبعد قليل يخرج رسول الله ﷺ إلى حنين في شوال من العام الثامن للهجرة. وقبل خروجه يذكر له بعض أصحابه أن لدى صفوان أدرعاً وسلاحاً كثيراً، فيبعث إليه، ويقول له، وصفوان يومئذ على شركه:

يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟

قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك. قال صفوان: ليس بهذا بأس. فأعطى رسول الله مائة درع بما يكفيها من السلاح.

وخرج صفوان وهو على شركه مع رسول الله إلى حنين وانتصر الإسلام في حنين انتصاراً مؤزراً، وعاد رسول الله صلوات الله عليه بالغنائم والأموال، ومعه صفوان، فجعل صفوان ينظر إلى شعب ملأى نعماً وشاء، وأدام النظر، ورسول الله يرمقه، فقال له الرسول:

أبا وهب، يعجبك هذا؟

قال: نعم.

قال صلوات الله عليه: هو لك.

فقال صفوان: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وكان ذلك في آخر ذي القعدة من ثمان.

ويروى عن صفوان: أتيت النبي ﷺ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي، واستقرض رسول الله من صفوان في مكة خمسين ألفاً، فأقرضه إياها.

وعاش صفوان في الإسلام يشهد انتصاراته ويحضر أيامه، ويلقى حروبه فكان في اليرموك أميراً على كتيبة من كتائب جيش المسلمين.

وكان في غير اليرموك كذلك مجاهداً بطلاً، وعاش حتى توفاه الله إلى رحمته عام ٤١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

اليمينيون واليسَاريون في القرآن الكريم

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١هـ)

-١-

اليمين واليسار في اللغة أمرهما ذائع معروف، وقد أصبحت الكلمتان تطلقان على المعتدل والمتطرف، وعلى السهل والصعب، وعلى المعقول وغير المعقول من العقائد والمذاهب والآراء.

والفضل في استعمال هاتين الكلمتين بهذه المعاني، وفي ذيوعهما يرجع للقرآن الكريم وحده، فهو الذي كان له السبق الأول في ذلك كله، وعن القرآن الكريم أخذ القدماء والمحدثون يستعملونهما ويرددونهما كثيرا في أحاديثهم ومحاور كلامهم.

وليس هناك اليوم كلمات ذائعة مشهورة، تتردد على الألسنة كهاتين الكلمتين.

وفضل القرآن الكريم، على اللغة، وعلى التجديد والتطور اللغوي، في القديم والحديث، لا يحتاج إلى بيان، فألفاظه وأساليبه هي التي أمدت أدبنا بكثير من كنوز اللغة وطرائفها وأماثيلها، وصقله للألفاظ، وتهذيبه للأساليب وتخليده لصور البيان الرائعة والأساليب البديعة، والبلاغة النادرة، مما لا يحتاج إلى بيان، ولسنا في حاجة للدلالة عليه إلى برهان.

-٢-

ولأول مرة في اللغة العربية يرد استعمال اليمين واليسار بالمعاني السابقة في كتاب الله الحكيم، فليست هناك نصوص أدبية أقدم من القرآن الكريم، يتردد فيها ذكر هاتين الكلمتين للدلالة على المعتدل والمتطرف من العقائد والمذاهب

والأفكار، أو على الجزاء الإلهي العادل في الآخرة لأهل اليمين وأهل اليسار.

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم يستعمل اليمين في كل قصد واضح وجليل ونبيل وإنساني من العقائد، وليس هناك لفظ أخف استعمالاً، ولا أدق معنى، ولا أبلغ دلالة من هاته الكلمة فيما استعملت فيه من مقاصد واليمين ترمز إلى اليمين، والحظ الطيب، والتفاؤل الكريم، والطريق اللاحب وإلى سلوك السبيل السوي، وإلى مرضاة الله وثوابه لسالكيها.

وقد استعمل الشمال في الدلالة على عكس ذلك كله، وفي لفظة الشمال رمز إلى تنكب الفطرة، وإلى البعد عن المحجة الواضحة، وإلى ما في سلوك مثل ذلك من غاية أليمة، وفي الشمال ما في الشؤم من تطير، وهي توحي بأن طريق الشمال من وسوسة الشيطان، كما أن طريق اليمين من هداية الله، ولذلك استعمل القرآن الكريم كلمة الشمال لتدل على أعمق معاني كلمة اليسار، والتي نستعملها نحن اليوم مخطئين متنكبين عن الاستعمال الدقيق، كما تنكبنا طريقنا في فهم معنى اليمين واليسار، فعكسنا معنى الكلمتين في استعمالاتنا عكسا بينا، حتى أصبحنا ندل بكلمة اليمين على الجمود والتأخر والرجعية، وبكلمة اليسار على التحرر ونبذ القديم والدين والعقيدة، نظن أن ذلك هو سبيل التقدم والنهوض وحاشا لله أن يكون اطراح العقيدة ونبذ الدين تقدم أو نهوض أو تحرر.

ومن ثم كان استعمال القرآن الكريم لكلمة «الشمال»، وإيثاره لها على كلمة «اليسار»، أعمق فهما، وأدق مسلكاً، وأدل على المقصود منها.

-٣-

وفي القرآن الكريم من سورة الحاقة يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحاقة: ١٩-٣٧).

والصورتان هنا متقابلتان، وعلى غاية ما تكون البلاغة والروعة والبيان والسحر والإعجاز، وفيهما من تطويع الأسلوب وموسيقاه وجماله ما لا نجد له نظيرا ولا شبيها من كلام أبلغ البلغاء أو أعظم الشعراء.

والبلاغة القرآنية هنا تسير في طريقها الجليل النبيل، من خدمة الإنسانية، وهداية البشرية إلى الحق وإلى الله وإلى مثل الحياة وقيمها الرفيعة، واللفظ هنا بقدر المعنى، والأسلوب والبيان يسيران مع العقل والمنطق والحكمة.. ولا يمكن لواصف أن يصف شتى عناصر البلاغة والنظم في هذا النص القرآني العظيم، لأن القرآن استعصت بلاغته على فهم البلغاء، وعلى فلسفة النقاد، فلم يعودوا يعرفون من أمر هذه البلاغة شيئاً إلا أنها من كلام الخالق العظيم والإله القادر الحكيم.

-٤-

وفي سورة الواقعة يذكر الله ﷻ أهل الميمنة، وأهل المشأمة، وطبقة ثالثة هي طبقة السابقين المقربين، ويبدأ بذكر الطبقتين الأوليين لوضوحهما وكثرتهما، وأنهما الغالبية العظمى من بني البشر، ويؤخر الكلام على الطبقة الثالثة، لقلتها وندرتها ودقة أمرها.

والسورة كلها في الحديث عن هذه الطبقات الثلاث، من بدئها لختامها.. ولننظر في آياتها الكريمة، نقف عندها، نتأمل جلالها وروعتها، وسحرها وحكمتها، لنتفهم دلالتها في حياة الإنسانية كلها، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

يبدأ الله ﷻ سورة الواقعة بذكر وقوع الواقعة، أي قيام القيامة وأثرها العظيم على الإنسان والكون..﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾..

نعم إنها حق وصدق.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

ثم يذكر الله ﷻ أقسام البشر يومئذ، بحسب أعمالهم ومنازلهم من الله ﷻ.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾.

ثم يذكر نصيب السابقين في الآخرة من رضاء الله ونعيمه، وحظهم فيها من الخير والجزاء الجميل.. وبدأ بهذا القسم الثالث تنويها وتعظيما وتشريفا وتبجيلا لمقامهم عند الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ (١) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ (٢) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

وهكذا تمضي هذه السورة الرفيعة، جليلة كريمة، ساحرة باهرة، تتحدث عن السابقين ومنزلتهم في الآخرة عند الله ﷻ.. وليس غرضنا هنا أن نفسر السورة، ولكننا نقصد إلى بيان مضمونها وحده، وصلة هذا المضمون بماضي وحاضر ومستقبل الإنسانية، ومن ثم فلم نعرض لتفسير الآيات، ولا لتوضيح الصور، ولا لبيان بلاغة الأساليب، فهي ماثلة أمام كل ذي ذوق، واضحة عند كل ذي طبع وموهبة من البيان.

ثم يذكر الله ﷻ أهل اليمين، وما أعده الله لهم في الآخرة من نعيم..

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ

(١) أي هم عدد ضئيل من الأمم السابقة.

(٢) وعدد قليل من أتباع رسالة محمد آخر الرسالات.

مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ (١) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (٢) (الواقعة: ٢٧ - ٤٠).

وتنتقل السورة الكريمة المكية، وهي سورة الواقعة، إلى ذكر أصحاب الشمال، وما أعد لهم في الآخرة، من وبال، وما يلقونه فيها من نكال..

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٣) ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وتستمر السورة في خطاب هؤلاء الشماليين، وبيان جزائهم في الآخرة، وفي الحجاج معهم رغبة إقناعهم بالبعث وصدق الأمر فيه وإمكان حدوثه عند العقل، لأن قدرة الله لا يستعصي عليها شيء. ولا يعجزها أمر في الأرض ولا في السماء.

ثم تتحدث السورة إلى الرسول الكريم عن القرآن العظيم، وأنه تنزيل من رب العالمين.. وتعود إلى جدال هؤلاء المشركين المكذبين الضالين وإلى مصيرهم عند الموت. (٥٠- ٨٧ من السورة).

وتلخص السورة ما تتلقى الملائكة به عند الموت كلا من هؤلاء الطبقات الثلاث:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٤) ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (٥).

(١) أي هم عدد قليل من الديانات السابقة.

(٢) وعدد قليل من اتباع رسالة الإسلام آخر الرسالات.

(٣) أي أو يبعث كذلك معنا آباؤنا الأولون؟ ممن مضت عليهم آلاف السنين وهم في أجداثهم راقدون.

(٤) وهم أهل المشأمة.

(٥) الخطاب هنا لرسول الله ﷺ.

وهكذا مضت هذه السورة سورة الواقعة، في ذكر اليمينيين واليساريين، وفي ذكر طبقة رفيعة من خيار الإنسانية وأصفيائها، وهي طبقة السابقين المقربين.

على ما رأينا من الجلال والحكمة والروعة والبلاغة والبيان والسحر، سارت إلى هدفها المقصود من تبصير الإنسانية وهدايتها وإضاءة الطريق أمامها، ورسم النهايات المحتومة للبشر واضحة أمام عقلها ومخيلتها وعينيها، ليهتدي من اهتدى عن بينة، وليضل من ضل عن بينة.

- ٥ -

وجملة ذلك كله أن الله ﷻ تحدث في كتابه الحكيم عن اليمينيين واليساريين، ووصف كلا بأوصافه، وأبان ما ينال كل منهما من جزاء في الآخرة عند الله.

فإذا كان الأمر عند المسلمين المعاصرين قد انقلب إلى النقيض، فصار اليمينيون عندهم كأنهم المنبوذون أصحاب الشمال، وصار اليساريون عندهم هم المختارون وكأنهم أصحاب اليمين، فإن ذلك من وسوسة الشيطان، ومن انقلاب الميزان، ومن فساد المنطق بتأثير سموم الصهيونية، التي تنفث في عقول ضعفاء الدين شرورها، لتضلهم عن الطريق، وتبعدهم عن الهدف، وتقصيهم عن رضاء الله، وعن سبيل العزة والقوة والكرامة، ولتنقلهم من حالة الذاتية والشخصية الواضحة إلى حالة أخرى من التبعية الذليلة والتقليد الأعمى لكل ضال وضار من المذاهب والعقائد والآراء. وفي ذلك للمسلمين المعاصرين الهوان والذل والشقاء الأبدي المقيم.

اللهم اجعلنا من أهل اليمين، وأبعدنا عن ضلالات أهل الشمال، وأنزل علينا من رحمتك، ما يهدينا إلى سواء السبيل.

* * *

انتقال الحضارات

العدد (٣٥٠) شوال (١٤١٥هـ) - مارس (١٩٩٥م).

الحضارات العالمية القديمة، كالحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية والمصرية والصينية وسواها من مختلف الحضارات العالمية البائدة، قد مثلت دورها على مسرح الحياة في فترة من فترات عصور التاريخ، ثم انتهت كأن لم تكن الأمس.

وورثتها الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة والقيروان وأصفهان وجرجان وبخارى وسمرقند وغيرها من عواصم العالم الإسلامي الممتد من الصين شرقاً إلى بحر الظلمات غرباً (أو المحيط الأطلسي)، ومن أوروبا شمالاً إلى أواسط قارة أفريقية جنوباً، وكانت هذه العواصم الإسلامية تسبح في نور العلم والمعرفة والتقدم والمدنية، وفي ظلال الأمن والرخاء والرفاهية والسلام.

● **حضارة متميزة**

حضارة شريفة نجمت من أصول شريفة، وقام عليها دولة جمعت كل أصول التقدم في السياسة والفكر والاجتماع والاقتصاد وكل جوانب الحياة الرفيعة، وشهد لها العلماء والمفكرون والمشرعون في كل عصر وكل جيل، حضارة أعزت الدنيا، ودوت بذكرها الآفاق، وعاش فيها الناس أحراراً مكرمين، ينعمون بشتى ألوان السعادة والثراء والرخاء والتقدم. وكانت أوروبا تنظر إليها، وتذهل لهذا التفوق الحضاري الفريد، ويصيح شاعر كبير مثل «بترارك» الشاعر الإيطالي في العصور الوسطى في مدينة روما قائلاً: «يالله، لقد تفوقنا على كل الأمم إلا العرب الذين أذلونا بحضارتهم، فيا للخزي ويا للألم».

وجاء دور أوروبا الجاهلة الظامئة المجردة من كل شيء، فنهلت من حضارة العرب وعلومهم وثقافتهم حتى استطاعت أن تقوم على أقدامها، ثم استطاعت أن تملك زمام المبادرة، وتأخذ العنان بيدين من العرب، وأن تنشئ لها حضارة جديدة تخالف الحضارات الأخرى، ولا تتفوق على حضارة الإسلام في الروحانيات، بل في الماديات وحدها.

تقول «هونكة» المستشرقة الألمانية في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»: «كل موجة علم أو معرفة قدمت لأوروبا كان مصدرها البلدان الإسلامية» «شمس العرب ٤١».

ورثت الحضارة الإسلامية كل الحضارات السابقة وزادت عليها بعداً رسالياً لم تعرفه الحضارات الوثنية كالفارسية واليونانية.

ويقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» «حضارة أوروبا مدينة للعرب بحضارتهم، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية، فكانوا دائنين للغرب وأئمة له في ستة قرون. وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق، وكشف ماضيه فأخذوا يبحثون عنه».

إن الأصول العلمية والفكرية لحضارة الإسلام وللفكر الإسلامي قد أخذها الغرب وصاغ منها حضارته التي هي صدى كبير للحضارة الإسلامية فقد سرقت أوروبا على غفلة منا، كنوزنا ومواريثنا الثقافية والحضارية، مثلما سرقت كذلك إمبراطورية المسلمين الممتدة في كل مكان، وأقامت على كل هذه الأسس حضارتها الماثلة اليوم.

● **غروب الحضارة الغربية**

ولكن حضارة الغرب اليوم قد نال منها الهرم، ودبت فيها الشيخوخة، وأخذت تقترب من حافة الفناء، يقول «بول فاليري» شاعر فرنسا الكبير: «فرنسا وإنجلترا وروسيا، وألمانيا، ويا لها من أسماء كانت جميلة كما كانت أسماء نينوى وبابل وعيلام جِدّ جميلة، ولحاق هذه الأسماء الراهنة بأسماء الأمس الغابر لم يعد شيئاً مستعصياً على الإدراك».

يقول «فولتي» من كبار رجال الفكر الأوروبي: «ماذا أصاب تلك البدائع الراهنة التي حققتها يد الإنسان».

أين هي حصون نينوى وجدران بابل؟ ومن يدري؟ لعل مسافراً في المستقبل يجد نفسه عند شواطئ السين والتايمز يجلس باكياً على بقايا الفتات الذي تحولت إليه معالم الحضارة حول هذه الأنهار».

ويعجب: «دنيس دورجمون» من العدد الذي يتضاعف بصورة مستمرة من الأوروبيين الذاهبين إلى انهيار الحضارة الغربية، ومن المتنبئين الذين يفضلون الحديث عن كشوفها.

ويقول إقبال شاعر الإسلام: «مثلت حضارة الغرب دورها، وقد شاخت وهرمت أينعت كالفاكهة وحان قطافها، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وَوَرّثَ محمداً وإبراهيم قيادة العالم».

ورأي إقبال يكاد يكون تفسيراً للآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ (يونس: ٢٤).

فالمعنى على هذا هو فناء حضارة عجيبة من حضارات الحياة الدنيا، كانت قد بلغت غاية نمائها وازدهارها، بأمر الله وقدرته، وفي لحظة من ليل أو نهار زالت وانتهت.

وما يقوله إقبال يقوله مفكرو العالم وفلاسفته في كل لحظة. ونحن نعلم أن ميزان القوة في العالم متغير أبداً، وعلى امتداد التاريخ.

ولكني أقول كما قال بعض المفكرين: إنه لن تجد الإنسانية يوم تتهاوى حضارة الغرب عقيدة تؤمن بها، وتؤمّن بها مصيرها، إلا الإسلام.

فالإسلام وحده والإيمان به، سوف يكونان ضرورة بشرية، لأن ذلك هو مسيرة الحياة والتاريخ، وحتمية انتصار الحضارة، وهو العلاج الوحيد لكل مشكلات العالم، وهو النتيجة الأخيرة لقدرة الإنسان على مواجهة:

التحديات التي يتحداه بها عصره وقدره

ويومئذ سيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق الإسلامي عوداً على بدء: من المنطقة التي قامت فيها الحضارة الإسلامية، وستثبت يومئذ هذه المنطقة وجودها، وستقلب موازين القوى، لأن قوة الإسلام وحضارته قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية. وقد أدرك مفكر إنجليزي ذلك حيث كتب يقول: «لا يساورني شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً، وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب، بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه» (باول شمتز في كتابه الإسلام قوة الغد العالمية). كما يقول: «إن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن».

إن سفينة العالم التي قد أصابها الخور اليوم سوف تجد في الإسلام المرفأ الأمين الذي يتقدم بالفعل سفينة الحضارة العالمية، وهذا ما كان يقوله مستشرق مثل عبد الكريم جرمانوس، وما يقوله اليوم «روجيه جارودي» الذي نادى بحتمية الرجوع إلى الإسلام لإنقاذ الإنسانية من المصير المهلك. إن حضارة الإسلام هي ولا ريب حضارة المستقبل.

شعـر

أيُّها التاريخ!!

العدد (٤٠١) محرم (١٤٢٠هـ) - إبريل (١٩٩٩م).

-١-

هـجـرةٌ مـثَّـلـتْ جـهـادَ نـبـيٍّ ... وأمـيـن عـلـى الهـدى مـهـدي
هـجـرةٌ فـيـهـا عـبـقـريـة إلـهـا ... مٍ، ووحـيٌ لـمـرسـل نـبـوي
وبـهـا كـل عـزة وجـلال ... لـلـرسـول المـكـرَّم اليعـربيِّ
صار للمسلمين فيها وللإسـ ... لام فـخـرٌ عـلى الـزمـان الـقـصيِّ
ولـهـا فـي الـتـاريـخ أشـرف ذكـر ... ولهـا فـيـه كـلُّ مجـد عـلـيٍّ

- ٢ -

هـجـرةٌ كـانـت لـلـرسـالـة فـتـحاً ... ولـديـن الـلـه الـعـظـيـم الـسـني
أحـمـد والـصـديـق وحـدهـمـا فـي ... مـوكـب فـذٍّ خـالـد عُـلْـوِيٍّ
وقـريـشٌ مـن خـلـفـهـم، أمـة تـ ... ـتـبـع آثـار مـوكـب عـبـقـريٍّ
مـوكـب سـار، سـار فـيـه نـبـيّ ... مـرسـل، أكـرِمْ بـالـرسـولِ الـنـبيِّ
بـالـبـشـيـر الـنـذيـر طـه وأعـظـم ... بخـطـى ذيـاك الأمـيـن الـوفي

-٣-

هـجـرةٌ مـزّقـت قـنـاع الـديـاجـي ... وأعـزَّت نـفـس الـفـقـيـر الـشـقـيّ
إنـهـا الـنـور هـجـرة المـصـطـفـى كـلُّ ... جـلال مـن مجـدهـا الـقـدسيِّ
إنـهـا الـصـفـحـة المـضـيـئـة فـي الـتـا ... ريـخ تـهـدي إلـى الهـدى كـل حـيِّ
«غـار ثـور» شـهـدت أعـظـم مجـد ... وشـهـدت الـتـاريـخ جـدَّ غـنـيِّ

فالعلا والفخار لابن لؤيٍّ ... والمنى والجلال لابن قصيٍّ
قد أضاء الزمانَ حقٌّ وعدل ... بهما جاءت شرعةُ الهاشميِّ
فبها تنعم الشعوب وتحيا ... أمة الإسلام العظيم الأبيِّ
قد أتى النورُ من حراء جليلاً ... ونبيلاً في صبح يوم زكيِّ
في ضحى مشرق وضيءٍ سريٍّ ... قد أتى بالدين الوضيء السري
وأتى العالمين عصرٌ جديدٌ ... فيه بالدين عزَّ كلُّ شقي
إنه الوحي، إنه الحق والقر ... آن يُوحى لأحمد العربيِّ
المنى فيه والسنا والهدى، والـ ... خير منه وكلُّ عبق رضيِّ
ولجبريل في حراء دويٌّ ... ظل يصغي الورى لهذا الدويِّ
أيها التاريخ اروِ عن أحمد النو ... رِ وجبريل والنداءِ العليِّ
إنه الإسلام العظيم، فلا فخـ ... ـر ولا عزةٌ لغير التقيِّ
كان من قبله الإخاء خيالاً ... ليس أعرابي أخا الأعجمي
قبله كانت المساواةُ وهما ... ذاك بكريٌّ ليس بالتغلبيِّ
قبلها كانت الشعوب حيارى ... خيرها للدخيل والأجنبيِّ
إنه الدين إنها هجرةٌ الها ... دي الرسول المشفَّع المهديِّ
لا ورب الجلال إني عييٌّ ... وبياني يا قوم جدُّ عييِّ
لا تلمني أنا الذي لمتُ شعري ... ولقد كان قبلُ جدَّ ثريِّ

الحق والواجب في الشريعة الإسلامية

العدد (٤٣٨) صفر (١٤٢٣هـ) - مايو (٢٠٠٢م).

- ١ -

الواجب والحق متلازمان في كل تشريع سماوي أو وضعي، فالواجبات تقابلها الحقوق، والحقوق تقابلها الواجبات.

العامل عمله التزام واجب، فإذا عمل صار له حق، وهو الأجر أو المكافأة، والطالب دراسته واجبة، فإذا أدى واجبه صار من حقه أن ينال النجاح.

والتاجر من الواجب عليه الأمانة في المعاملة، فإذا أدى ما عليه صار من حقه أن يأخذ الثمن والإنسان أداؤه ما عليه من التزام ألزمه به الله جل جلاله كان ممن أدى الواجب، وكان حقاً له أن ينال الجزاء الأوفى من مولاه ﷻ.

والإسلام يفرض على المسلم الإيمان الكامل بالله وبكتبه ورسالاته وبرسله وباليوم الآخر. كما يفرض عليه أن يلتزم بشريعة التوحيد المطلق، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له، وباحترام حق الإنسان في المال والعرض والنفس والدين والعدل والمساواة والإخاء والحرية، ويلتزم بكل ما أمر به الخالق الأعظم من عبادات وطاعات ويترك كل ما نهاه عنه من معاص وذنوب وآثام. . فإذا التزم الإنسان بذلك نال رضا الله ومثوبته ورحمته.

شريعة السماء وقوانين الأرض كلها تلزم الإنسان بالواجب، وتجعل له الحق في الجزاء الأوفى.

فالواجب أولاً، والحق ثانياً، والإنسان لا يطالب مسؤولاً بحق من حقوقه إلا

إذا أدى ما عليه من واجبات، ومن ثمَّ نجد جميع الشرائع والتشريعات تطالب الإنسان بما يجب عليه من واجبات وتعده بأن ينال حقوقه كاملة غير منقوصة، القيام بالواجب هو الأساس لأخذ الحقوق.

والقرآن الكريم حين يتحدث يربط بين الحق والواجب، ويجعل الواجب هو الأساس للفوز بالحقوق.

يقول الله ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ (محمد: ٧)، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ (الرعد: ١١). ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ (فصلت: ٣٠). ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ (الحديد: ٢٨).

وحين يرفع الإنسان يديه بالدعاء إلى الله ﷻ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ (غافر: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ (البقرة: ١٨٦)، يجب عليه لينال إجابة الدعاء أن يكون مطيعاً لله مؤمناً به حق الإيمان مستجيباً لأوامره، تاركاً لنواهيه، ويقول الله ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ (الحج: ٤٠-٤١).

- ٢ -

الله ﷻ يلزم المسلم بالواجب أولاً، ويؤيده بنصره ونعمته وتمكينه وبسعادة الدارين عندئذ وبعدما يؤدي ما عليه لمولاه من واجبات.

والحديث الشريف الجامع قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الرجل راع في بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في مال الزوج ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، والإمام راع ومسؤول عن

رعيته، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

وفي حديث رسول الله ﷺ عن أنس رضي الله عنه: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه[٢]، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» رواه مسلم، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه» رواه مسلم.

-٣-

والواجبات على الإنسان في الإسلام كثيرة، فعليه واجبات نحو نفسه ونحو أسرته، ونحو مجتمعه الصغير، ونحو مجتمعه الكبير، ونحو وطنه، ونحو الإنسانية كلها، وقبل كل شيء عليه واجبات نحو ربه ودينه، وتلك كلها واجبات مفصَّلة في الشريعة الإسلامية ويطول بنا الحديث لو ألممنا بأطرافها.

والإسلام لم يدع صغيرة ولا كبيرة من هذه الواجبات إلا وفصَّلها، وجعلها ملزمة للمسلم يحاسبه عليها ربه ودينه وضميره النقي الطاهر، ويحاسبه عليها ملائكة الله وجنده، ويحاسبه عليها مجتمعه وقوانين المجتمع المستمدة من شريعة الإسلام، وقد أمر الله ﷻ الإنسان المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وحين تولى أبو بكر خلافة المسلمين كان أول خطبة له قوله: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

---

(١) رواية مسلم: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

(٢) أي لا يلقيه في الهلكة أو يحميه من عدوه.

والعبادات في الإسلام طاعة واجبة على المسلم نحو ربه ودينه، وفي أولها التوحيد الخالص، والإيمان المطلق، والعقيدة الثابتة القوية، والاعتقاد بأن كل الأمور بيد الخالق الأعظم، والمهيمن القادر، وأنه مع المسلم في سلمه وحربه، ويسره وعسره، ويقظته ونومه، وأنه لا يحرم أحداً من فضله، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، فطاعة الله واجبة وعبادته حتم لازم. . ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات: ٥٦)، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ (طه: ١٤).

الأساس الأول في الإسلام أن يسلم المرء وجهه لله ﷻ، وأن يخلص له في عبادته، وأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما جاء في الحديث الشريف، ويقول الله ﷻ في سورة البينة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ (البينة: ٥).

ويقول ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢-٣).

-٤-

وحقوق الإنسان حقوق شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو أدبية أو فكرية.

والإسلام أقر حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة، وألزم بها الناس جميعاً، وفي مقدمها حق الحياة، وحق الحرية وحق الملكية وحق التعليم، وحق التصويت الانتخابي لتكوين المجالس العامة والخاصة، وحق تكوين الأسرة، وحق العمل، وحق التعبير عن الرأي في حدود الدين وغيرها.

والإسلام يقر حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة أقرها منذ ألف وأربعمائة عام أو يزيد قبل أن تقرها الثورة الفرنسية، وقبل أن تقرها هيئة الأمم المتحدة، لأزمنة متطاولة، وسند الحق في الإسلام هو الله ﷻ، وهو القرآن الكريم، وهو دين الله المنزل وشريعته السماوية، وهو قوانين السماء، قبل قوانين الأرض.

و«روسو» يجعل سند الحق هو العقد الاجتماعي وهو كلام لا يؤدي إلى

غاية، والدين هو السند الأعظم لكل حق للإنسان، أما الذين ينادون بالعقل ويقولون إن العقل هو السند الأكبر للحق فهم يدورون في حلقة مفرغة، فمن الذي يلزم الإنسان بحكم العقل، لقد احترم الإسلام الإنسان، وسمى سورة من سور القرآن الكريم بسورة الإنسان، وهي سورة مدنية، وآياتها إحدى وثلاثون آية، وفاتحتها: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

جلَّت قدرة الله، وعظمت آلأؤه على الإنسان، وكرمت في ظل رسالاته قيمة هذا الإنسان، خليفة الله في الأرض، وسليل آدم أبي البشر الذي استخلفه الله ﷻ في الأرض.

والله ﷻ أعلم بأمر خلقه، وأعظم حام لحقوق هذا الإنسان الذي خلقه، حقه في الحياة والحرية وحقه في الإخاء والمساواة، وحقه في إدارة شؤونه الخاصة كما يهديه عقله القويم، الملتزم بتعاليم السماء، وصدق القائلون: «لا حرية من دون التزام، ولاحق من دون واجب، ولا حياة من دون دين».

اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية

(العدد ٤٨١) رمضان (١٤٢٦هـ) - نوفمبر (٢٠٠٥م).

(١)

الفقهاء يختلفون أحياناً كثيرة في الحكم الشرعي لأن لكل فقيه مصادره ولكل فقيه اجتهاداته وما أكثر ما اختلف الفقهاء في الأحكام الشرعية وهو اختلاف ينم عن سعة أفق، وغزارة مادة وتعدد مصادر ومحاولة جادة للوصول إلى هدف الشارع الحكيم ونحن أمام كتاب قيم للإمام الشيخ محمد عبد الحميد الأسمندي (المتوفى في العام ٥٥٢هـ- ١١٥٧م) وهو صادر عن مكتبة دار التراث في القاهرة في ٥٣٤ صفحة بتحقيق وتعليق العلامة الأستاذ الدكتور المرحوم محمد زكي عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ على عمله الجليل النافع، وعنوان الكتاب «طريقة الخلاف في الفقه بين الأئمة الأسلاف».

أما المؤلف فهو الإمام الأسمندي (٤٨٨- ٥٥٢هـ) الحنفي. وقد ولد بسمرقند وتوفي ببخارى عن أربعة وستين عاماً ويعرف بالعلاء وكان عالم علماء الشرق، وله كتاب آخر عنوانه «أصول الفقه». وهو منسوب إلى قرية من قرى سمرقند اسمها أسمند. وهو من فحول الفقهاء أتباع أبي حنيفة وكان إماماً بارعاً من فرسان الكلام وقدم بغداد وجالس فقهاءها وناظر علماءها وكان بارعاً في العلوم كلها أصولها وفروعها مفرط الذكاء قليل النظير.

وأما المحقق فقد كان علماً من أعلام القانون والفقه وأصوله، وقد شغل مناصب قضائية عديدة كنائب رئيس محكمة النقض سابقاً وأستاذ للشريعة الإسلامية والقانون المدني في كليات الشريعة والقانون بالأزهر والجامعات

العربية، وتوفي في ٢٥/ ١/ ١٩٩٨ ومن مؤلفاته:

١- نظرية تحمل التبعة في الفقه الإسلامي- القاهرة ١٩٥٠.
٢- الحكم الشرعي والقاعدة القانونية- الكويت - ١٩٨٢.
٣- التصرفات والوقائع الشرعية- الكويت ١٩٨٢.
٤- الربا وأكل المال بالباطل- الكويت ١٩٨٢.
٥- تقنين الفقه الإسلامي - قطر ١٩٨٢.
٦- أحكام العقود الناقلة للملك - قطر ١٩٨٢م.
٧- أحكام المعاملات المالية في الفقه الحنفي- قطر ١٩٨٦.
٨- تحفة الفقهاء للسمرقندي (٥٣٩هـ) طبع دمشق ١٩٥٩م.
٩- ميزان الأصول في نتائج العقول - قطر ١٩٨٤م.

وغيرها العديد من البحوث والدراسات الجادة.

(٢)

والكتاب (طريقة الخلاف) محقق عن مخطوطة في مكتبة قولة بدار الكتب المصرية نسخت عام ٦٧٢هـ ومؤلفه يعرض العديد من المسائل في الفقه التي كانت محل خلاف بين الفقهاء في مختلف أبواب الفقه الإسلامي، وفي كل مسألة يعرض المسألة كما هو رأي الأحناف ثم يذكر رأي الشافعية فيها، وقد يعرض للخلاف بين الحنفية أنفسهم معللاً ومرجحاً مع بيان أدلة كل رأي وما يوجه إليه من اعتراض، والمحقق يجتهد في تحقيق النص مشيراً إلى المصادر ومخرجاً للأحاديث ومترجماً للأعلام.

ولقد بذل غاية الجهد في إخراج الكتاب إخراجاً علمياً رفيعاً في صبر وأناة، وصدر الكتاب بكلمة للمرحوم الشيخ علي الخفيف أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة كتبها مقدمةً لكتاب «تحفة الفقهاء» بتحقيق الدكتور الأستاذ محمد زكي عبد البر، والمقدمات التي مهد بها المحقق للكتاب مهمة ومفيدة وتقع في نحو ستين صفحة والكتاب في مجمله مقارنة بين فقه أبي حنيفة

وفقه الشافعي وقد تكون المقارنة بين أبي حنيفة وصاحبيه كما ذكرناه رحمهم الله جميعاً وأجزل لهم حسن الجزاء والثواب.

واختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية اجتهاد منهم في الحكم الشرعي وفي تفسير الدليل الشرعي من الكتاب والسنة ومراعاة المصالح ورفع الضرر، وعمل بالاستحسان عند من يجيزه.. وكل ذلك حرص على إيضاح الحكم الشرعي وتحليل له وتدليل عليه.

(٣)

ونعرض هنا بعض صور من الكتاب لتدل على منهج المؤلف فيه وطريقة المحقق في تحقيقه:

١- الزكاة واجبة في الحلي عند أبي حنيفة ولا تجب فيها عند الشافعي - يقول المحقق هنا: إن عدم وجوب الزكاة فيها عند الشافعي إذا كانت حلياً يحل لبسها كحلي النساء وخواتيم الفضة للرجال ونحوها فلا زكاة فيها في أحد القولين، وقال الشيرازي في «المهذب» فيه قولان أحدهما لا تجب فيه الزكاة والثاني تجب. واستخار الله فيه الشافعي واختاره، وفي «رؤوس المسائل للزمخشري» الزكاة تجب في الحلي عندنا (أي عند الحنفية) سواء كانت للرجال أم للنساء وعند الشافعي لا تجب إذا كانت للنساء، والمؤلف الأسمندي يعلل لوجوب الزكاة في الحلي بإفاضة، ويذكر أن وجوب الزكاة فيها معارض بقوله ﷺ: «لا زكاة في الحلي»، وبقول ابن عمر: «زكاة الحلي إعارتها». وعن الحديث يقول المؤلف: إنه غير ثابت ولئن ثبت فيحمل على اللآلئ والجواهر، والمحقق لا يترك كلمة بدون تعليق وفائدة وإشارة إلى المصادر (راجع ١٢- ١٤ من الكتاب).

٢- النية في الصوم عند الأحناف إذا صام رمضان بمطلق النية أو بنية النفل أجزأه. وعند الشافعية لا يجزئه لأن صوم الفرض والواجب لا يصح بدون نية الفرض والواجب، وأما التطوع فيصح بمطلق النية، والمؤلف يعرض لأدلة

الأحناف في هذه المسألة ويقول: حكم الأحناف فيها معارض بقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى»، والمحقق يجلي الموضوع في تعليقه مشيراً إلى المصادر المختلفة.

٣- الأب لا يملك إجبار البكر البالغة على الزواج ويملك إجبار الصغيرة سواء كانت بكراً أم ثيباً، وغير الأب والجد مثل الأخ والعم يملك تزويج الصغير والصغيرة ولهما الخيار إذا بلغا فيرفعان الأمر إلى القاضي حتى يفسخ القاضي عقد الزواج، وعند أبي يوسف يقع العقد لازماً. والمؤلف يفيض في شرح المسألة إفاضة بالغة، ويتابعه المحقق في الشرح والتدليل وذكر المصادر. ويستوفي المؤلف في هذا الموضوع كل الآراء والأدلة باستيعاب.

٤- قضاء القاضي في العقود بشهادة الزور ينفذ ظاهراً وباطناً عند الأحناف وعند غيرهم ينفذ ظاهراً لا باطناً والوجه فيه عند الحنفية أن القاضي قضى بأمر الشرع فينفذ قضاؤه ظاهراً وباطناً قياساً على الشهود الصادقين. ويقول المؤلف: لا نسلم بأن القاضي قضى بأمر الشرع فإن ذلك إذا كانت الشهادة صدقاً، أما إذا كانت الشهادة صدقاً عند القاضي وهي كذب في نفسها فهو غير مأمور بالقضاء، بل منهي عنه، لما فيه من تحليل الحرام وتحريم الحلال وإلحاق الضرر بالمسلمين..

وقد يقول معترض، إن صدق الشهود أمر باطن لا يمكن للقاضي الوقوف عليه فلو علقنا الأمر بالقضاء به لا يمكنه، فيؤدي إلى تعطيل المصالح، والجواب عن ذلك بأمرين: الأول: إنه إنما يؤدي إلى تعطيل القضاء إن لم يكن القاضي بنى قضاءه على العلم وإنه يمكنه أن يقول إذا كان الشهود صادقين قضيت بكذا.

والثاني إن لم يمكنه العلم بصدق الشهود يمكنه تحصيل الظن به.. الخ.

(٤)

والكتاب رائع حقاً، والحجاج حول الأحكام مفيد كل الفائدة. وهذا لون طريف من ألوان الحجاج الفقهي حول الأحكام الشرعية، ويدل على عقل فقهي

واسع الأفق عميق المادة غزير العلم.

وبعد: فإني لا أملك إلا أن أشيد بالكتاب وبمؤلفه إشادتي بالمحقق الجليل رَحِمَهُ اللَّهُ الذي أثرى الكتاب بما أضاف إليه من تعليقات ذات مادة غزيرة وعلم واسع وعقل قانوني بعيد الغور.. رَحِمَهُ اللَّهُ.

* * *

٢٨ مقالات

الشيخ د. محمد حسين الذهبي

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- الاتجاهات المنحرفة في التفسير للصوفية.

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م).

٢- القرآن والعلم (١).

العدد (٨٨) ربيع الآخر (١٣٩٢م) - مايو (١٩٧٢م).

٣- القرآن والعلم (٢).

العدد (٨٩) جمادى الأولى (١٣٩٢هـ) - يونيو (١٩٧٢م)

٤- القرآن والعلم (٣).

العدد (٩٠) جمادى الآخرة (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م)

٥- إعجاز القرآن الكريم.

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

٦- التعريف بالقرآن.

العدد (١٠١) جمادى الأولى (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م)

٧- جوانب الهداية والإرشاد في القرآن الكريم.

العدد(١٠٢)جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

٨- منهج القرآن في بيان الأحكام.

العدد (١٠٤) شعبان (١٣٩٣هـ) - أغسطس (١٩٧٣م).

مقالات

٩- الجانب الأخلاقي في القرآن الكريم.

العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٣هـ) - سبتمبر (١٩٧٣م).

١٠ - مشكلة الدعوة والدعاة (١).

العدد (١٥٨) صفر (١٣٩٨هـ) - يناير (١٩٧٨م).

١١- مشكلة الدعوة والدعاة (٢).

العدد (١٥٩) ربيع الأول (١٣٩٨هـ) - فبراير (١٩٧٨م).

ترجمة الشيخ الدكتور

محمد حسين الذهبي

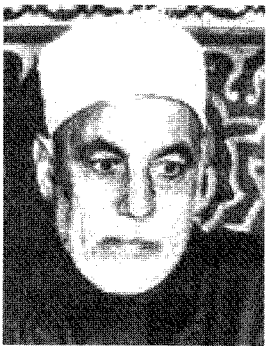

● **مولده ونشأته**

ولد الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي في قرية مطوبس في محافظة كفر الشيخ عام ١٩١٥م. والتحق بكلية الشريعة جامعة الأزهر وتخرج منها عام ١٩٣٩م.

حصل الذهبي على الماجستير ثم الدرجة العالمية (الدكتوراه)، بدرجة أستاذ في علوم القرآن عام ١٩٤٦ من كلية أصول الدين في جامعة الأزهر وذلك عن رسالته «التفسير والمفسرون» التي أصبحت بعد نشرها أحد المراجع الرئيسة في علم التفسير.

عمل الدكتور الذهبي أستاذاً في كلية الشريعة جامعة الأزهر وأُعير عام ١٩٦٨ إلى جامعة الكويت. بعد عودته عام ١٩٧١م عين أستاذاً في كلية أصول الدين ثم عميداً لها ثم أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية في الخامس عشر من أبريل عام ١٩٧٥م.

أصبح وزيرا للأوقاف وشؤون الأزهر وذلك حتى نوفمبر عام ١٩٧٦م.

● **من أهم مؤلفاته**

«التفسير والمفسرون، الوحي والقرآن الكريم، الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، تفسير ابن عربي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع، عناية المسلمين بالسنة، مدخل لعلوم الحديث والإسلام والديانات».

● **وفاته**

اغتيل الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي عام ١٩٧٧ من قبل جماعة التكفير والهجرة بعد اختطافهم له.

الاتجاه المنحرف في التفسير للصوفية

العدد: (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م)

وجد التصوف - بمعنى الزهد والتقشف والمبالغة في العبادة - منذ الصدر الأول للإسلام، ولم يعرف لفظ التصوف، ولم تطلق كلمة الصوفية على هؤلاء الزهاد إلا في منتصف القرن الثاني الهجري، وفي هذا القرن تولدت بعض الأبحاث الصوفية وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث والتعاليم تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها، وبمقدار ما يستفيده القوم ممن يتصلون بهم من الفلاسفة وغيرهم.

ولقد كان لبعض المتصوفة صلات قوية بالفلاسفة، واهتمام ظاهر بالنظريات الفلسفية، حتى وجدنا من بينهم رجالا أشبه بالفلاسفة منهم بالصوفية، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بنظريات فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، ومن هنا كان للمتصوفة في تصوفهم اتجاهان: اتجاه نظري يقوم على البحث والدراسة، واتجاه عملي يقوم على التقشف والزهد والتفاني في طاعة الله.

وكان للمتصوفة - كغيرهم من طوائف المسلمين- دراسات في القرآن الكريم، وكان لهم في تفسيره مؤلفات حوتها المكتبة الإسلامية، بعضها قديم وبعضها حديث، وكانت دراسات المتصوفة للقرآن وشروحهم له عليها طابع التصوف، فظهر فيها بوضوح أثر التصوف النظري الذي ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولا، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك.

كما ظهر بوضوح- أيضا- أثر التصوف العملي الذي يرتكز على رياضة روحية، يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تتكشف له فيها من سجوف العبارات إشارات قدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب معارف سبحانية،

يشرح بها كتاب الله ﷻ .

وإذا ما ذهبنا نستعرض ما للقوم من تفسير صوفي نظري، وما لهم من تفسير إشاري فيضي، وجدنا في هذا وذاك اتجاها منحرفا عن النهج القويم لتفسير القرآن الحكيم، فالتفسير الصوفي النظري تفسير يخرج بالقرآن في الغالب عن هدفه الذي يرمي إليه . . يقصد القرآن هدفا معينا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفي هدفا معينا بأبحاثه ونظرياته، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده إلى ما يقصده هو ويرمي إليه، وغرضه بهذا كله أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وآراءه على أساس من كتاب الله وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته ونظرياته الصوفية، ولم يقدم للقرآن شيئا إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله.

رأينا ابن عربي يميل ببعض الآيات إلى ما يذهب إليه من القول بوحدة الوجود، ورأينا غيره كأبي يزيد البسطامي والحلاج ومن على شاكلتهما يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبا منه، ووحدة الوجود عندهم معناها: أنه ليس هناك إلا وجود واحد، كل العالم مظاهر ومجال له، فالله سبحانه هو الموجود بحق وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز.

هذا المذهب خول لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله، ولمثل ابن عربي أن يقول: إن عجل بني إسرائيل أحد المظاهر التي اتخذها الله وحل فيها، والذي جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان، وأنه لا فرق بين سماوي وغير سماوي، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات.

ولقد وجدنا لابن عربي في الفتوحات المكية، وفي فصوص الحكم، وفي كتاب التفسير المنسوب له أقوالا في التفسير بناها على نظرياته في وحدة الوجود، فمن ذلك أنه فسر قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣)، فقال ما نصه: «فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر، ونحن نحمله على الحكم كشفا وهو الصحيح، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة

بصورة من استنابهم، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم، ولهذا يقضي الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم، وإن أخطأوا في النسبة فما أخطأوا في المقام..» من الفتوحات جـ٣ ص ١١٧ .

ولما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ...(البقرة: ١٦٣)، قال ما نصه: «...إن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين.. والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة، فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذي يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذي أشرك به واحد، كأنكم ما اختلفتم في أحديته...» في الفتوحات جـ ٤ص ١٦٠ وما بعدها.

ولما فسر قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ (المزمل: ٨-٩) قال ما نصه: «واذكر اسم ربك الذي هو أنت، أي اعرف نفسك واذكرها ولا تنسها فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها، بعد معرفة حقيقتها ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي الذي ظهر عليك نوره فطلع من أفق وجودك بإيجادك، والمغرب: الذي اختفى بوجودك وغرب نوره فيك واحتجب بك» من تفسير ابن عربي جـ٢ ص٣٥٢.

ومن التفسير الذي تأثر فيه ابن عربي بنظريات الفلاسفة، ولكنه لا يبلغ في انحرافه مبلغ ما سبق، تفسيره لقوله تعالى في سورة مريم، في شأن إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم: ٥٧) وذلك حيث يقول: «وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس، وتحته سبعة أفلاك وفوقه سبعة أفلاك، وهو الخامس عشر...» ثم ذكر الأفلاك التي تحت فلك الشمس والتي فوقه، ثم قال: «وأما علو المكانة فهو لنا أعني المحمديين كما قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ (محمد: ٣٥)، من الفصوص جـ١ص ٢٦ .

ومن ذلك أيضا تفسيره لقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ (الرحمن: ١٩-٢٠)، حيث يقول: مرج البحرين، بحر

الهيولي الجسمانية الذي هو الملح الأجاج، وبحر الروح الذي هو العذب الفرات «يلتقيان» في الوجود الإنساني «بينهما برزخ» هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها، ولا في كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها «لا يبغيان» لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله في جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديا.

سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء. من تفسير ابن عربي جـ٢ ص ٢٨٠.

وليس من شك في أن التفسير الذي أقامه ابن عربي على نظرية وحدة الوجود لا يقبل بحال من الأحوال، لأنه هدم الدين من أساسه كما أن التفسير الذي أقامه على نظريات الفلسفة في الطبيعة وما وراء الطبيعة لا يقبل على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذي جاء القرآن من أجله.

هذه كلمة الحق أقولها في الاتجاه النظري للتفسير الصوفي.

أما الاتجاه الإشاري أو الفيضي، فللقوم فيه جولات وشطحات، وإذا ما بحثنا عن مستند لهذا الاتجاه في التفسير، وجدنا مستندهم الأول والأهم ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من أن القرآن له ظهر وبطن.

وعلماء الرسوم- في زعم القوم- يفهمون الظاهر فقط، أما الباطن فلا يدركه إلا من صفت نفسه، وتعلق بالله قلبه، حتى أصبح يدرك بعين اليقين ما لا يدركه أهل الرسوم بعلم اليقين.

ولا نريد أن نناقش القوم في صحة ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من أن القرآن له ظهر وبطن، ولكن نناقشهم في معنى الظهر والبطن، فهل الظهر ما يظهر من معنى النص القرآني بادي الرأي، والبطن ألغاز وأحاجي ومعميات لا يفهمها إلا هم؟ لا فالقرآن فوق هذا، لأن الله يقول في شأنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ (القمر: ١٧)، ويقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، ويقول: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾... (البقرة: ٩٩).

والذي أدين الله عليه أن ظاهر القرآن- وهو المنزل بلسان عربي مبين- هو المفهوم العربي المجرد، وباطنه هو مراد الله تعالى، وغرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، وعلى ذلك نقول: إن كل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر، وإذن لا يشترط في ظاهر القرآن الكريم زيادة على الجريان على اللسان العربي، وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي ليس من تفسير القرآن في شيء لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعى غير ذلك فهو مبطل في دعواه، أما المعنى الباطن، فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآني.. ولهذا اشترط العلماء لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين:

أولهما أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية.

وثانيهما أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الشرط الأول، فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب، لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك، فلا يصح أن ينسب إليه أصلا، إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه، ولا مرجح يدل على أحدهما، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم .

وأما الشرط الثاني، فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان وله معارض، صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، والدعوة المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء. الموافقات للشاطبي جـ ٣ ص ٣٩٤ .

إذا عرفنا هذا كله، ثم ذهبنا نستعرض على ضوئه أقوال القوم في معاني القرآن

الباطنة، وجدنا كثيرا منها من قبيل الباطن الصحيح، ووجدنا كثيرا منها أيضا من قبيل الباطن الفاسد المرفوض.

فمن الأفهام الباطنية المنقولة عنهم في التفسير، ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول ما قاله سهل التستري في تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢)، قال رَحِمَهُ اللَّهُ «فلا تجعلوا لله أندادا» أي أضدادا، فأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله» (من تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٤).

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة بالسوء داخلة تحت عموم الأنداد، حتى لو فصل لكان المعنى فلا تجعلوا لله أندادا، لا صنما، ولا شيطانا، ولا النفس، ولا كذا، ولا كذا... وهذا مشكل من حيث الظاهر، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن، يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان صنما أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، ولم يعرف أنهم اتخذوها أربابا من دون الله، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وبيان ذلك أن الناظر في القرآن الكريم قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية، لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه، وسهل التستري-رحمه الله- حين قال في الآية ما قال لم يرد أنه تفسير للآية، بل أتى بما هو ند في الاعتبار الشرعي، وذلك لأن حقيقة الند أنه المضاد لنده، الجاري على مناقضته، والنفس الأمارة هذا شأنها، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذي يعني به الند بالنسبة لنده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه، وعلى هذا فلا غبار على قول سهل في الآية، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين، جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمارة اعتبارا، وجهة كون الخطاب- وإن كان موجها للمشركين- فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار.

أما ما يشهد له من الجهة الأولى فقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله،

ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حرموا عليهم حرموه، وما أباحوا لهم حللوه، وفاتهم أن المحلل والمحرم هو الله، فقال الله سبحانه: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوى نفسه.

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية فهو أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية؟ ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ (الأحقاف: ٢٠) وكان هو يعتبر نفسه بها، مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، فعمر ﷺ له في الآية نظر واعتبار، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه، حذرا منه وخوفا أن يكون التوسع في المباحات سببا في الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها، فإذا صح لعمر ﷺ أن ينزل الآية على المتوسعين في المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم، صح لسهل أيضا أن ينزل الآية على النفس الامارة وإن لم تنزل فيها. كذلك مثل هذا التفسير الذي قاله سهل التستري- وهو كثير في تفاسير الصوفية- لا نعدم له وجها نحمله عليه حتى يكون تفسيرا صحيحا مقبولا، ولكن هناك أقوال لبعض الصوفية في التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائرا وعاجزا عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة.

فمن ذلك -وهو كثير- ما ذكره أبو عبدالرحمن السلمي في تفسيره ﴿الٓمٓ ۝١﴾ فاتحة البقرة، قال: «﴿الٓمٓ﴾: قيل إن الألف ألف الوحدانية، واللام لام اللطف، والميم ميم الملك، معناه من وجدني على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له، فأخرجته من رق العبودية إلى الملأ الأعلى، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشيء من الملك، وقيل: ﴿الٓمٓ﴾: معنى الألف أي أفرد سرك، واللام ليت جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك أزينك بصفات الأنس بي والمشاهدة إياي والقرب مني..» من حقائق التفسير للسلمي ص ٩.

ولاشك أن مثل هذا التفسير الذي ذكره أبوعبدالرحمن السلمي، تفسير مشكل، وأعظم منه إشكالا ما زعمه بعض القوم من أن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور ترمز إلى أسرار غيبية مكنية، بل ويدعون أحيانا أن هذه الحروف هي أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى في خطابه العرب الأمية التي لا تعرف شيئا عن ذلك، وهذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل مقنع، وكل ما أقوله فيها أنها دعاوى محالة على الكشف والاطلاع على ما وراء حجب الغيب، ودعوى الكشف والاطلاع لا تصلح أن تكون دليلا شرعيا بحال من الأحوال.

وأعجب العجب أن رجالا دخلوا في التصوف وهم من غير أهله، وتظاهروا بالورع والطاعة، وتحلوا بالزهد الكاذب والورع المصطنع، وكان لهؤلاء- على فرط جهلهم- محاولات في التفسير لا يقبلها عقل ولا يقرها شرع، ولا يمكن بأية حال أن يتحملها النص القرآني الكريم.

فمن ذلك الهراء ما نقله السيوطي في الإتقان ج٢ ص١٨٤عن بعض جهلة المتصوفة أنه فسر قوله تعالى في سورة البقرة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فقال: معناه «من ذل» من الذل «ذي» إشارة إلى النفس، «يشف» من الشفاء «ع» من الوعي.

ومن ذلك أيضا ما نقل عن بعضهم أنه فسر قوله تعالى في الآية (٦٩) من سورة العنكبوت ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فجعل «لمع» فعلا ماضيا بمعنى أضاء، و«المحسنين» مفعوله. (مبادئ التفسير للخضري).

ولا شك أن هذا التفسير وأمثاله إلحاد في آيات الله، وقائلوه محرفون للكلم عن مواضعه، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

القرآن والعلم (١)

العدد (٨٨) ربيع الآخر (١٣٩٢هـ) - مايو (١٩٧٢م).

فضل العلم قضية لا تحتاج إلى برهان يؤيدها، وأقدار العلماء ومكانتهم العالية حقيقة لا ينكرها إلا من أنكر عقله وسفه نفسه!!!.

والقرآن الكريم - في كثير من آياته - يشيد بفضل العلم، ويرفع من أقدار العلماء، وهو إذ يفعل ذلك لا يقصد إثبات حقيقة تحتاج إلى إثبات، ولكنه يهدف إلى أن ينبه القلوب الغافلة والعقول اللاهية إلى قدسية العلم وسمو العلماء، لعلها تتحرر من جهلها، فتنخرط في موكب العلم، وتمضي في ركاب العلماء لا تلوي على جهالة.

ولقد تكون أبلغ قارعة تقرع قلوب الغافلين وعقول اللاهين، تلك الآيات البينات التي تقرر: أن العلم صفة من صفات الكمال التي يتصف بها الله سبحانه، ويجب أن نقدسه عن الاتصاف بضدها:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ (الرعد: ٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣٨).

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ (طه: ٩٨).

ولقد يكون أبلغ شاهد بعد هذه الآيات على فضل العلم، ومكانة العلماء، تلك الآيات القرآنية التي وردت في حق الأنبياء عليهم السلام.

تثبت لهم صفة العلم، وتقرر- في صراحة ووضوح- أنها من نعم الله التي أنعم بها عليهم:

يقول سبحانه في أول ما نزل من القرآن على نبيه محمد ﷺ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ

بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥).

ويقول ممتنا عليه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣).

ويقول مخاطباً عيسى عليه السلام وممتنا عليه ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ﴾ (المائدة: ١١٠).

ويقول في شأن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ (النمل: ١٥).

ويقول عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ (يوسف: ٢٢).

ويقول في شأن لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٤).

ويقول عن آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١).

ثم نجد القرآن الكريم- بعد ذلك - ينكر على من يسوي بين العلماء وغير العلماء فيقول في أسلوب تهكمي ساخر: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ (الزمر: ٩).

ثم هو بعد يقرر هذه الحقيقة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ (المجادلة: ١١)، ولعل الله جمع بين الإيمان والعلم هنا، وجعلهما السبب في علو المكانة والمنزلة عنده، لأن الإيمان لا يقوم ولا يقوى إلا على أساس العلم بالله، والعلم بكل ما جاء منه، وصدر عنه:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

نعم، في كل شيء له آية تدل على وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته.. وكل صفات الكمال له، ولكنها آيات لا يعقلها إلا العالمون. أما الجاهلون: ففي غفلة وإعراض عن هذا كله، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يوسف: ١٠٥).

● القرآن يدعو إلى العلم والمعرفة

ولأن الله - سبحانه- يعلم أن من الناس ناساً قلوبهم غافلة عما في الكون من حقائق، وعقولهم لاهية عما تنطوي عليه هذه الحقائق من علوم ومعارف، وأنهم بتعطيلهم لقلوبهم وعقولهم عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، واستنباط ما أودع الله فيها من علوم وأسرار، قد أهدروا إنسانيتهم وانحطوا بها إلى مستوى الحيوان الأعجم الذي لا عقل له ولا إدراك.. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

لأن الله يعلم أن من الناس ناساً هذا شأنهم، ساق في محكم كتابه آيات تهيب بأصحاب هذه القلوب اللاهية: أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم على الكون وما فيه من آيات، ليستخلصوا من أسرارها وعلومها التي تأخذ بيدهم إلى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة، فقال لهم في صرامة الآمر واستنكار اللائم:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأنعام: ٩٩).

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات: ٢٠-٢١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨).

انظر إلى هذه الآيات ونحوها مما ورد في القرآن الكريم، فسوف ترى أنها تدعو بإصرار وإلحاح إلى إعمال العقل والفكر في آيات الله التي بثها في الآفاق والأنفس، لنأخذ منها الدليل على وجود الله وقدرته، ثم لنستخلص منها- بعد ذلك- ما تحويه وتشير إليه من علوم ومعارف، تنفع البشرية وتسعدها في حياتها الدنيا التي لا تقوم إلا على العلم والمعرفة.

وتأمل قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ تجد أنه يقرر- في صراحة ووضوح - أن للعلم دخلاً كبيراً في معرفة عظمة الخالق عن طريق ما يهدي إليه من المعرفة بعظمة المخلوق الذي أودع الله فيه من الأسرار ما يجعل العالم الباحث المنقب يؤمن- عن مشاهدة ويقين- بأن الله هو الخلاق ذو القوة المتين، فيتصاغر علمه أمام علم الله، وتتضاءل معرفته أمام معرفة الله، ويتبدد كبرياؤه وغروره أمام عظمة رب الكون.. رب العالمين!!.

ومن هنا كانت قلوب الجاهلين مغلقة لا تنفتح على حق، ولا تتقبل حقيقة: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الروم: ٥٩).

وكانت قلوب العالمين مفتوحة على الحق، تهتدي إليه، وتؤمن به على طمأنينة ويقين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (العنكبوت: ٤٣).

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ (آل عمران: ٧).

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ١٨).

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج: ٥٤).

والقرآن الكريم - حين يدعونا إلى العلم والمعرفة التي أودعها الله في الإنسان، يقول عز من قائل:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (الإسراء: ٣٦) وتأمل قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ تجد أن الله سبحانه- ينبه إلى

أن أدوات المعرفة ووسائلها عند الإنسان هي: سمعه، وبصره، وفؤاده، فمن تلقف الوقائع، وتقبل الأخبار، وانتهى إلى النتائج بدون أن يتحراها ويتأكد صدقها وصحتها بكل وسائل المعرفة التي أودع الله فيه فقد عطل ما ميزه الله به عن غيره من الحيوان، وسوف يسأله الله يوم القيامة عما ضيع من نعمة الله التي فضله بها، وأوجب عليه شكرها بقوله:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل: ٧٨).

وتأمل بعد ذلك- قوله سبحانه في شأن من ضلوا طريق الحق وأعرضوا عن سواء السبيل:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨)

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ (النجم: ٢٣).

تأمل هاتين الآيتين تجد أن الله ما نعى على هؤلاء الضالين ضلالهم إلا لأنهم ساروا وراء ظنونهم وأهوائهم.. والظن سراب. والهوى مهلكة!!

والقرآن الكريم يكره لنا -كل الكراهية- أن نكون مقلدين لا مبتكرين متعقلين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة: ١٧٠).

ولا يرضى القرآن للباحث عن الحقيقة - أيا كانت - أن يبحث عنها في جو من الفوضى التي تحول دون رؤيتها، وتعوق عن الوصول إليها. وإنما يرضى لنا ويطلب منا: أن نوفر للبحث العلمي الموصل للمعرفة بها جوا هادئاً يبعث على التأمل والتدبر في روية وحكمة، يقول سبحانه مخاطباً نبيه ليوجه المكابرين المعاندين من أمته:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ (سبأ: ٤٦).

يقول العلامة الزمخشري في تفسيره لهذه الآية:

«والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً، متفرقين. اثنين اثنين، وواحداً واحداً، ثم تتفكروا

في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان: فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه. وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء وجاري أحوالهم. والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الرؤية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب»[1].

ويقرر القرآن الكريم- في وضوح تام- أن الهداة والدعاة والقادة من أصحاب الرسالات الدينية، أو المذاهب السياسية، أو غيرها، لابد أن يكونوا على جانب كبير من العلم والمعرفة، حتى تتأكد زعامتهم وتلزم طاعتهم، ولا يرضى القرآن لإنسان يحترم إنسانيته أن ينقاد لمن لا علم عنده، ولا أن يكون منه بمنزلة التابع من المتبوع، فإن من حرم العلم حرم الخير كله، ومن لم يتحل بالمعرفة لا يصح أن يكون قدوة، يقول الله سبحانه - على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ (مريم: ٤٣).

ويقول مخاطباً موسى وهرون عليهما السلام: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٩)، ويقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الجاثية: ١٨).

والقرآن الكريم لا يرى للعلم حدا يقف الإنسان عنده، وإنما يرى العلم بحراً لا ساحل له، ويطلب منا أن نتزود منه ونزداد يوماً بعد يوم دون أن نقف عند غاية، ولهذا يقول الله - سبحانه- لرسوله محمد ﷺ وهو الأسوة والقدوة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

ولا يرى القرآن غضاضة في أن يتلقى الفاضل عمن دونه في الفضل ما لديه من

(١) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٥٦٥ - ٥٦٦- ط: الحلبي سنة ١٩٤٨م.

علم يجهله ولو كان ذلك لا يتم إلا إذا كان منه بمنزلة التابع من المتبوع. يحل حيثما حل، ويرتحل حيثما ارتحل، وفي ذلك يقص علينا القرآن الكريم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام:

﴿فَٱرْتَدَّا﴾ (يعني موسى وفتاه) ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ إلى آخر القصة[1] (الكهف: ٦٤- ٨٢) وتأمل قوله سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

تجد أن القرآن الكريم لا يرضى بالتسرع في طلب العلم، ولا بعدم التريث في تحمله وتلقيه، لأن ذلك قد يفوت الكثير على طالب العلم والمعرفة، ومن أجل هذا يقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه: ١١٤).

ويقول له أيضاً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة: ١٦- ١٩).

(١) انظر ما كتبه المفسرون على هذه الآيات، وانظر صحيح البخاري وشروحه في كتاب العلم. قال القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ ما نصه:

«في هذه الآية دليل على أن المتعلم متبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه لأنه نبي، والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة» جـ ١١ ص ١٧ ط: دار الكتب المصرية.

القرآن والعلم (٢)

آراء الغلاة والمتطرفين

(العدد ٨٩) جمادى الأولى (١٣٩٢هـ) - يونيو (١٩٧٢م).

● **آراء الغلات والمتطرفين**

تتبع العلامة المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري آيات القرآن الكريم فلاحظ: أن الآيات التي تتعلق بالعلوم الكونية سبعمائة وخمسون آية صريحة، وأن الآيات التي تتعلق بالفقه الإسلامي لا تزيد عن مائة وخمسين آية صريحة.. وانطلق من خلال هذه النتيجة يبدي الأسف والعجب لكثرة ما ألفه علماء المسلمين في الفقه، وقلة ما ألفوه في علوم الكائنات، وكان الأولى بهم أن يبرعوا أكثر وأكثر في علوم الكائنات التي أعطاها الله حظاً أوفر من كتابه[1] ولسنا ننكر على الشيخ طنطاوي - إذا تغاضينا عن منحاه في التفسير العلمي للقرآن - ما أبداه من أسف وعجب، فمبلغ علمنا وتعليلنا لزيادة الآيات المتعلقة بالعلوم الكونية على الآيات المتعلقة بالعلوم الفقهية، تجعله على حق فيما ذهب إليه، ذلك لأن العلوم الكونية لها تعلق قوي بالعقيدة الإسلامية، فالنظر فيها طريق إلى معرفة الله، وكلما ازداد الإنسان علماً بأسرار الكون ازداد علماً بخالقه ومكونه، هذا علاوة على ما يترتب على العلم بالكون وأسراره من تقدم، ورقي، وازدهار مادي، لا يقل في نظر الدين عن الجانب الديني أو الروحي، أما العلوم الفقهية أو علوم التشريع. فهي- على أهميتها- تأتي في المرتبة الثانية بعد العقيدة، فالعقيدة أساس تقوم عليه الشريعة، ولا يمكن أن يكون لها كيان بدونه.

والحقيقة التي لا يماري فيها أحد: أن القرآن الكريم حوى من علوم الدين

(١) انظر الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري ص ٢٥ ص ٥٣ - ط: الحلبي سنة ١٣٤٠- ١٣٥٠هـ.

والدنيا ما فيه خير البشرية وسعادتها في الدنيا والآخرة.

ولكن هذه الحقيقة تنازعها فريقان من المسلمين على مدى تاريخ القرآن الطويل: فريق غالى وبالغ، فقال: إن القرآن حوى كل علوم الدنيا والدين، ما كان منها وما يكون إلى يوم القيامة.

وفريق اعتدل والتزم أمراً وسطاً فقال: إن القرآن حوى الكثير من علوم الدنيا والدين، بعضها صريح، وبعضها بتلميح، ونبه إلى أن الكون مليء بعلوم كثيرة حث على استنباطها من خلال كتاب الكون المفتوح أمام أبصارنا وبصائرنا، لتفتح لنا الطريق إلى الله، ثم إلى حياة زاهرة، آمنة، مستقرة.

ولقد كان من أبرز العلماء القدامى الذين تبنوا القول الأول وجهروا به وروجوا له في الأوساط العلمية حجة الإسلام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ، فقد نقل في كتابه «إحياء علوم الدين»[1] عن بعض العلماء: «أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظهر، وبطن، وحد، ومطلع».

ثم يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن». ثم يقول بعد ذلك كله: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها»... ثم يزيد على ذلك فيقول: «بل كل ما أشكل فهمه على النظر، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، في القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها».

ثم يمضي الغزالي- في كتابه «جواهر القرآن» الذي ألفه فيما يبدو بعد كتابه الإحياء- فيقرر هذا الرأي الذي قرره في الإحياء، ويزيده بياناً وتفصيلاً، وذلك حيث يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، يذكر علم الطب، والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر وعلم الطلسمات.. وغير ذلك ثم يقول: «ووراء ما عددته علوم أخرى

(١) جـ ٣ ص ١٣٥- ط لجنة نشر الثقافة الإسلامية.

يعلم تراجمها، ولا يخلو العالم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها، بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها: أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن.. وعلوم أخرى ليس في قوة البشر إدراكها والإحاطة بها، ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعددها - ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا: أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد:

فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال - مثلاً - الشفاء والمرض كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ (الشعراء: ٨٠)، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه.

ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾(الرحمن: ٥) وقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥) وقال: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾(القيامة: ٨-٩) وقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ وقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ (يس: ٣٨) ولا يعرف حقيقة سير الشمس بحسبان، وخسوفها، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه.

ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ (الانفطار: ٦- ٨) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها، وأنواعها، وحكمتها، ومنافعها، وقد أشار في القرآن - في مواضع - إليها، وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين.

وكذلك لا يعرف معنى قوله: ﴿سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (الحجر: ٢٩) ما لم يعلم التسوية، والنفخ، والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها.. فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين»[١].

ثم يأتي جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ، ويقرر في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» وفي كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل» ما قرره الغزالي: من أن القرآن قد حوى كل علوم الأولين والآخرين، ويسوق من الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وقوله ﷺ في شأن القرآن - كما في سنن الترمذي - «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»، وقول ابن مسعود رضي الله عنه - كما أخرجه ابن أبي حاتم- «أنزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شيء، لكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن»[٢].

ثم يذكر السيوطي عن أبي الفضل المرسي: أنه قال في تفسيره «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ - خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى - ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه».

ثم تكلم عن العلوم التي تفرعت عن القرآن، فذكر: علم القراءات، وعلم النحو، وعلم التفسير، وعلم الأصول، وعلم الفقه، وعلم القصص والتاريخ،

---

(١) جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤ ط: كروستان العلمية سنة ١٢٢٩ .

(٢) الإكليل ص٢، والإتقان جـ ٢ ص ١٢٦.

وعلم تأويل الرأي، وعلم الفرائض، وعلم البلاغة... ثم قال: «هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه (يعني القرآن) وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل، مثل الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك من العلوم».

«أما الطب: فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

«وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾(النحل: ٦٩)..، ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٧).

«وأما الهيئة: ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات».

«وأما الهندسة. ففي قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ (المرسلات: ٣٠-٣١) فإن فيه قاعدة هندسية وهي: أن الشكل المثلث لا ظل له».

«وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم».

«وأما الجبر والمقابلة: فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد، وأعوام، وأيام التواريخ لأمم سالفة، وأن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى، وما بقي، مضروب بعضها في بعض».

«وأما النجامة: ففي قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فقد فسره بذلك ابن عباس».

«وفيه أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة، في قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ (الأعراف: ٢٢) والحدادة: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾

(الكهف: ٨٦) والبناء: في آيات، والنجارة: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (هود: ٣٧) والغزل: ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ (النحل: ٩٢) - والنسيج: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ (العنكبوت: ٤١). والفلاحة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الواقعة: ٦٣) الآيات. والصيد. في آيات. والغوص. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ (ص: ٣٧) ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ (النحل: ١٤).

والصياغة: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ (الأعراف: ١٤٨) والزجاجة: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَا۠﴾ (النمل: ٤٤) ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ (النور: ٣٥). والفخارة: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ (القصص: ٣٨) والملاحة: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ (الكهف: ٧٩) الآية والكتابة ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤) وفي آيات أخر والخبز: ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ (يوسف: ٣٦) والطبخ: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود: ٦٩) والقصارة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ (المدثر: ٤) ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ (ال عمران: ٥٢) وهم القصارون والجزارة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣) والبيع والشراء: في آيات. والصبغ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٨) ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ (فاطر: ٢٧) والحجارة: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (الشعراء: ١٤٩) والكيالة والوزن: في آيات كثيرة. والرمي: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ (الأنفال: ١٧)، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

«وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾. قال السيوطي- انتهى كلام المرسي ملخصاً مع زيادات»[1] .. وأخيراً عقب السيوطي على هذا بقوله: «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء: أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى و و.. إلى غير ذلك مما يحتاج إلى مجلدات».

(١) الإكليل ص ٢- ٥، والاتقان جـ ٢ ص ١٢٦- ١٢٨ .

ثم يأتي من المُحْدَثِين من يقول بما قال به الغزالي والسيوطي، وأبو الفضل المرسي، مع مزيد من المبالغة والتكلف وعلى رأس هؤلاء المحدثين المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري، فقد حمل كتاب الله كل علوم الدنيا والدين في كتابه «الجواهر في تفسير القرآن الكريم».

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم في هذا العصر الحديث وفي وقتنا الحاضر بالذات لوجدنا لأصحاب هذا المنزع العلمي في فهم القرآن الكريم وتفسيره بحوثاً كلها تعسف وتكلف، ولوجدنا لهم في ذلك مؤلفات كثيرة تحمل بعض النصوص القرآنية ما لا تحتمل من نظريات علمية مستحدثة!!

ونستعرض بعض هذه الكتب فنرى فيها عجباً:

في كتاب «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» للمرحوم الشيخ طنطاوي جوهري، عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآيات ٦٧ وما بعدها إلى آخر القصة نراه يقول ما نصه:

«وأما علم تحضير الأرواح، فإن من هذه الآيات استخراجه. إن هذه الآيات تتلى، والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بأوروبا ثانياً» ثم يذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيفية انتشاره، ومدى فائدته، ثم يقول:

«ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره ومسألة الطير، وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم. وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، فجعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموت في هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»[1].

وفي كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» للمرحوم السيد عبد الرحمن

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

الكواكبي، نراه يقول في ص ٢٣- ٢٥ ما نصه:

«إن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن من ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهور معجزة القرآن، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه».

ثم يذكر بعض المكتشفات العلمية التي يقول إن القرآن سبق إليها فيقول:

«وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيميائي، بل والمعنوي ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، والقرآن يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

«وكشفوا طريقة إمساك الظل، أي التصوير الشمسي، والقرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ (الفرقان: ٤٥).

وفي كتاب «الإسلام والطب الحديث» للمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، نراه يعرض لقوله تعالى في الآية[1] من سورة البقرة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢) تحت عنوان «الحياة تحت ضوء القرآن» فيقول في ص ١٣- ١٥ ما نصه:

«هذه الآية الكريمة معناها- والله أعلم- أن اللحوم والأسماك والألبان... إلخ. أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة».

ثم يعقد مقارنة بين الأغذية الحيوانية والأغذية النباتية، ويخرج بنتيجة تقرر هذه الأفضلية ثم يقول: «إن هذه النتيجة التي لخصها القرآن الشريف، ولم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة».

وها نحن - أخيرا نقرأ لبعض الكاتبين، ونسمع من بعض المحاضرين نماذج من هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم، وفي كثير منها تكلف ظاهر!!.

يقول بعضهم: إن الصعود إلى القمر والنزول على سطحه- وهو أحدث ما

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ص ٧١- ٧٢.

وصل إليه العلم في عصرنا قد ورد في آيات من القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ (الرحمن: ٣٣) يعني سلطان العلم.

وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾﴾ (الشورى: ٢٩) وها هو ذا سائل يسأل المرحوم الأستاذ العقاد فيقول:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (الأحقاف: ٢٤-٢٥). أليس من الممكن أن تعتبر هذه الآية «يريد الآيتين؟» إشارة مبكرة من القرآن الكريم إلى القذيفة الذرية ودليلاً قاطعاً على سبق القرآن العلمي الذي أمكن إثباته في مواضع كثيرة؟.

.. هذه بعض الأقوال والآراء لجماعة من الغلاة المتطرفين!!

* * *

القرآن والعلم (٣)

آراء المعتدلين

العدد (٩٠) جمادى الآخرة (١٣٩٢هـ) - يوليو (١٩٧٢م).

أما الفريق المعتدل الذي لم يشأ أن يحمل القرآن كل علوم الأولين والآخرين، ولا أن يخضعه للنظريات العلمية، فأبرز علمائه الأقدمين: الفقيه الأصولي أبو إسحق الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠هـ، فقد حمل لواء المعارضة، وتوجه باللوم إلى من حملوا القرآن كل علوم الدنيا والدين، وبين أنهم قد تجاوزوا الحد في دعواهم على القرآن فقال:

«ما تقرر من أمية الشريعة، وأنها جارية على مذاهب أهلها- وهم العرب- ينبني عليه قواعد: منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم: كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح»[(١)].

ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا، ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن، فيقول: «إن السلف الصالح- من الصحابة والتابعين ومن يليهم- كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في هذا المدعى سوى ما تقدم[(٢)]، وما ثبت من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل

(١) الموافقات للشاطبي جـ٢ ص ٧٩ ط: التجارية. ويقصد الشاطبي بقوله «ما تقدم» ما قرره من أن الشريعة أمية وأهلها كذلك. وتنزيلها كان على مقتضى حال المنزل عليهم، وحالهم الاعتناء ببعض علوم ذكرها لا بكل العلوم.

(٢) يرى أن العرب لم يتكلموا إلا في العلوم التي كانت لهم بها معرفة.

المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا»[١].

ويمضي الشاطبي فينقض أدلة الغلاة التي استندوا إليها من نحو قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ بحملها على ما يتعلق بحال التكليف والتعبد. ثم ينهي الشاطبي كلامه بقوله:

«فليس من الجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه»[٢].

وفي العصر الحديث تجد من بين علمائنا الأفاضل من يتصدى للغلاة الذين حملوا القرآن كل علوم الأولين والآخرين، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي، فقد قال في تقريظه لكتاب «الإسلام والطب الحديث» الذي تحدثنا عنه من قبل:

«لست أريد من هذا (يعني ثناءه على الكتاب ومؤلفه)، أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول: إنه أتى بأصول، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه»[٣].

وهكذا نجد لكل من فكرتي الغلو والاعتدال في قضية القرآن وما حوى من العلوم مؤيدين ومعارضين من بين علمائنا القدامى والمحدثين.

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص٧٩/ ٨٠.

(٢) الموافقات جـ ٢ ص ٨٠-٨٢.

(٣) الإسلام والطب الحديث ص (د). وانظر ما كتبه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار جـ١ ص ٧، وما كتبه المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت في العدد ٤٠٧، ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجلة الرسالة (أبريل سنة ١٩٤١م)، وما كتبه المرحوم الشيخ أمين الخولي في كتابه «التفسير. معالم حياته، منهجه اليوم» عند الكلام عن التفسير العلمي.

والذي نرتضيه في هذا الشأن هو ما يلي:

١- إن القرآن حوى كثيراً من علوم الدنيا والدين تصريحاً أو تلميحاً.

٢- إن اهتمام القرآن بعلوم الدنيا لا يقل عن اهتمامه بعلوم الدين، لأن علوم الدنيا تؤيد الدين، وتحميه، وتفتح الطريق أمامه، وإلا فما السر في امتنان الله سبحانه على داود عليه السلام وقومه بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء: ٨٠).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (سبأ: ١١) وعلى أي أساس غير علوم الدنيا يمكن أن نستجيب لأمر الله سبحانه ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

٣- إن العلم لا يقف عند غاية، وإن الكون مليء بأسرار لا تحصى، ومهما كشف الإنسان من حجب عن أسرار هذا الكون فلن يستوعب كل مكنونه من علوم ومعارف، ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في نحو قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (يس: ٣٦).

وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

ولن يحيط بكل شيء علماً إلا الله خالق الكون مبدعه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك: ١٤).

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٩).

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠).

٤- إن الله سبحانه- لا يرضى للإنسان الذي استخلفه في الأرض واستعمره فيها أن يقنع بالقليل من العلم، أو ينام عن استجلاء ما احتواه الكون من كنوز

العلم والمعرفة، بالنظر والتأمل ما وسعه ذلك ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١) وبالرجوع إلى العلماء المختصين فيما وقفت قدرته دونه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(الأنبياء: ٧).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الظواهر الكونية، ثم تختم هذه الآيات.

بنحو قوله تعالى:

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: ٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ٦٧).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

ولسنا نفهم من هذه العبارات وأمثالها إلا أن الله يهيب بأولي الألباب والعقول أن يفتحوا أبصارهم وبصائرهم على آياته التي بثها في الأنفس والآفاق ليتكشف لهم بعض ما حواه الكون من علوم وأسرار، تشهد أولاً على قدرة الله وعلو سلطانه، ثم لتكون لهم هذه الثروة العلمية- فيما بعد- مصدر قوة وعزة ومنعة في حياة سلاحها العلم والمعرفة.

٥- لا شك أن القرآن الكريم «يتحدث إلى عقول الناس جميعاً من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذي جعله الله خاتم الأديان السماوية لأهل الأرض»[(١)].

ولاشك أن في القرآن الكريم نصوصاً يفهمها العربي وقت نزول القرآن على نحو ما وصل إليه العلم في زمانه، ولا يكاد يخرج فهمه عن حدود دلالة النص، ويفهمها العربي في العصر الحديث على ضوء ما وصل إليه العلم في زمانه فهما آخر لا يخرج هو أيضاً عن دلالة النص، ومثال ذلك:

قوله تعالى في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) التفسير والمفسرون جـ ٣ ص ١٥٨.

﴿وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ فقد فسرها ابن عباس- رضي الله عنهما- على ضوء ما وصل إليه العلم في زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال: «كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات»(١).

وفسرها بعض علماء العصر الحديث على ضوء ما انتهى إليه العلم في زمانه فقال:

«قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السماوات وانفصلت عنها. وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم، وقد قال العلماء: إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً، كل قطعة منها سارت سياراً من السيارات، وهذه السيارات طافت حول الشمس، وبقيت في قبضة جذبتها، والأرض واحدة من هذه السيارات، فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات»(٢).

ولا نكاد نجد تعارضاً بين الفهمين، والآية- على فرض صحة الرأي الثاني- تتسع لهما، وذلك من وجوه الإعجاز القرآني.

غير أن الذين فتنوا بنظرية أن القرآن حوى كل ما كان وما يكون من العلوم بالغوا فحملوا بعض النصوص القرآنية حملاً فيه تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول على بعض العلوم ومصطلحاتها التي جدت ولم يكن للعرب عهد بها من قبل، بل وعلى بعض النظريات العلمية التي لم تستقر بعد، ومن لم تستخفهم هذه النزوة العلمية قرروا: أن هذا تأول للقرآن على غير تأويله يقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي رَحِمَهُ اللَّهُ في تقريظه لكتاب «الإسلام والطب الحديث»:

«يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها بها، ولا العلوم إلى الآية ولكن إن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٧ ط: الحلبي.

(٢) تفسير سورة لقمان للأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ص ١٢ مطبعة الأزهر.

اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»[١].

ويقول في أحد دروسه التي كان يلقيها في تفسير القرآن الكريم:

«وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد عندهم مرض آخر، وهو. الغرور بالفلسفة، وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله وفقاً لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها. وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد عن هذيان المصاب بالحمى.

والنظريات التي لم تستقر بعد لا يصح أن يرد إليها كتاب الله»[٢].

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله تعالى: «كل ما يجب على المسلم أن يؤمن به: أن كتابه الإلهي يأمر بالبحث والتفكير، ولا ينهاه عنه، ولا يصده عن النظر والتأمل في مباحث الوجود وأسرار الطبيعة، وخفايا المجهول كيفما كان، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة وهي عرضة بعد قليل للنقص والتبديل»[٣].

ويقول في موضع آخر:

«فمن الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث، والنظر، والتعلم، والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول، ولكن ليس من الحق أن نزعم: أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب، مندرج في ألفاظه ومعانيه، فإن كثيراً من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح، ويبطل منها ما يبطل، ولا تستغني على الدوام عن التعديل وإعادة النظر من حين إلى حين»[٤].

---

(١) الإسلام والطب الحديث ص ٣ ولبعض قدامى المفسرين أقوال قريبة من هذا فلتراجع في كتب التفسير.

(٢) الدروس الدينية للشيخ محمد مصطفى المراغي لسنة ١٣٥٦ هـ ص ٤٢٠. مطبعة الأزهر..

(٣) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠٦- ط: دار الكتاب العربي- بيروت..

(٤) التفكير فريضة إسلامية، للعقاد ص ٧٨ ط: دار الكتاب العربي- بيروت.

ويبدو لنا أن هؤلاء الغلاة الذين حملوا القرآن الكريم ما لا يحتمل من علوم ونظريات، حتى جعلوه مصدراً لجوامع الطب، وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة، وقوانين الكيمياء، ومعادلات الرياضة. . . الخ، حسبوا أن ذلك يخدم القرآن ويبرز جانباً هاماً من جوانب إعجازه، وهذا وهم منهم، فإن مثل هذا التكلف لا يبرز الإعجاز، وإنما يذهب بالإعجاز!!

وليعلم هؤلاء الغلاة أن القرآن الكريم غني عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في إصلاح الحياة، ورياضة النفس، والرجوع بها إلى الله. !!

وليعلموا - أيضاً - أن من الخير لهم ولكتابهم ألا يسلكوا هذا المسلك في فهم القرآن وتفسيره، رغبة منهم في إظهار إعجازه، وصلاحيته للتمشي مع التطور العلمي في مراحله الزمنية المتتابعة، وحسبهم وحسب القرآن إعجازا ألا يكون فيه نص يصادم حقيقة علمية ثابتة، وأنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين تقوم على أساس من الحق، وتستند إلى أصل صحيح. .

* * *

إعجاز القرآن الكريم

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

• معنى الإعجاز

تطلق كلمة الإعجاز في اللغة، ويراد بها إثبات العجز وإظهاره.

وإعجاز القرآن الكريم معناه: إثبات عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله، فيظهر بذلك صدق النبي عليه الصلاة والسلام في دعواه الرسالة، وأن القرآن ليس من كلامه، ولا هو في مقدور أحد، وإنما هو كلام الله ﷻ.

• القرآن معجزة النبي الكبرى

والقرآن معجزة النبي الكبرى وهو يتميز عن سائر معجزات الأنبياء بأمور:

١) أنه يحتوي على أصول الدعوة المحمدية، وما يكتنفها من هداية وإرشاد، وذلك أبلغ في الأدلة على النبوة، لأن ما احتواه من ذلك لا يمكن أن يكتسب بالتعلم، وإنما هو بوحي من الله، ومن هنا كان القرآن كافياً، ومغنياً عن كل ما طلبه المتعنتون من معجزات تحدياً له عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت: ٥١)

٢) أن القرآن معجزة العقل: لأنه يخاطب العقل دائماً ولا يجمد عند الحس كمعجزات الأنبياء السابقين، ولقد نوه رسول الله ﷺ بذلك في حديث له فقال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

٣) أن القرآن الكريم معجزة خالدة باقية على مدى الدهر، ضرورة أنه معجزة الدين الخالد، فهو شاهد أبداً بصدق محمد عليه الصلاة والسلام، أما معجزات الأنبياء السابقين فقد كانت تنتهي بانتهاء وقت وقوعها ثم لا يبقى لها أثر بعد ذلك

إلا في نفس من شهدها.

القرآن بين تكذيب العرب له وتحديهم به

ولقد أيد الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بمعجزة القرآن من أول يوم بعثه رسولاً للعالمين، ولكن قومه كذبوه وزعموا أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس من عند الله، وقالوا عنه:

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥) فأوحى الله إلى نبيه بقوله: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الفرقان: ٦) وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨).

وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ﴾ (النحل: ١٠٣) فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل: ١٠٣)

وقالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠) فرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ (يس: ٦٩).

قالوا عنه هذا وأكثر، ورد الله عليهم بما ذكرنا وأكثر مما يبطل زعمهم، ولكنهم تمادوا في غيهم واستمروا في تكذيبهم وعنادهم فلم يكن بعد ذلك إلا أن يلقمهم حجراً يسد أفواههم حتى لا ينبسوا بفرية، ويدمغ عنادهم حتى لا يقوى على أن يتصدى للحق أو يعترض طريقه.

لم يبق إلا أن يتحداهم الله ويتحدى الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثل القرآن ما دام القرآن في زعمهم من صنع البشر- محمد أو غيره- وليس من عند الله ﷻ.

ولقد جرى ذلك التحدي على تدرج ملحوظ:

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن فقال:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨). فما كان منهم إلا العجز التام.

ثم تنزل معهم في التحدي، فقال آمراً لنبيه ﷺ وقد رموه بالافتراء على الله في

نسبة القرآن إليه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣) فعجزوا كل العجز عن ذلك أيضاً.

ثم نزل إلى أدنى من ذلك فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(يونس: ٣٨). وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾(البقرة: ٢٣ - ٢٤) فما استطاعوا معارضة ذلك القدر القليل.

ثم نزل إلى أدنى درجات التحدي فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور: ٣٤) فعجزوا عن أن يأتوا بحديث مماثل له.. أي حديث كان، طال أم قصر، ولزمهم العجز عن معارضته هم ومن وراءهم إلى يوم القيامة.

ولم يكن عجزهم هذا ناشئاً عن كون القرآن غريباً عليهم في لغته، بل كان من جنس كلامهم وبلغتهم التي يتكلمون بها، ولم يكن عدم معارضتهم له ناتجاً عن عدم اهتمامهم بالمعارضة أو عدم اكتراثهم بالتحدي، فقد أثار القرآن اهتمامهم بالمعارضة، وبعث فيهم الرغبة الملحة في قبول التحدي، والعمل على حطمه، والخروج من المأزق الذي وضعهم فيه، بما كان منه من تسفيه أحلامهم بنحو قوله عنهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الفرقان: ٤٤) وتحقير آلهتهم بنحو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(الحج: ٧٣) ومع ذلك الاستفزاز فقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدي، ولم نجد لهم معارضة يمكن أن تجاري أو تداني القرآن في أسلوبه ونظمه، أو في أي جانب من جوانب إعجازه التي سنذكرها، وما ترويه لنا بعض كتب الأدب أو غيرها من محاولات لمعارضة القرآن لم تخرج - في الواقع- عن كونها محاولات سخيفة، وليس فيها من براعة النظم، ولا من دقة المعنى شيء مطلقاً، وإنما هي هذيان كهذيان المحموم، عار من كل شيء إلا من ركاكة النظم وفساد المعنى.

• جوانب الإعجاز في القرآن الكريم

وجوانب الإعجاز في القرآن الكريم متعددة وهي:

١) فصاحة كلماته.

٢) براعة نظمه وجزالة أسلوبه.

٣) بلاغته في الدلالة على معانيه.

وهذه الثلاثة يمكن أن نجمعها تحت عنوان واحد هو «الإعجاز البياني».

ولا شك أن القرآن الكريم قد تميز عن كل ما عداه من كلام إلهي وغير إلهي بأسلوب فريد، بلغ الغاية في جزالته وبلاغته، ولو جئنا بأبلغ عبارة نطق بها العرب ووضعناها بجانب عبارة في موضوعها جاء بها القرآن الكريم، لوجدنا بين العبارتين فرقاً بلاغياً كبيراً، فأبلغ عباراتهم في القصاص «القتل أنفى للقتل» وعبارة القرآن الكريم في هذا الباب ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (البقرة: ١٧٩) وقد تناول علماء البلاغة كلتا العبارتين بالتحليل البلاغي وبينوا- بما لا يقبل الشك- أن عبارة القرآن فوق العبارة المأثورة عن العرب بمراتب كثيرة.

وبلغاء العرب- بسليقتهم- يدركون هذا التفوق البياني للقرآن الكريم حتى إن أحدهم - وهو الوليد بن المغيرة - يسمع القرآن من محمد ﷺ، فيبهره أسلوبه وبلاغته، ويعجب به أيما إعجاب ويشيع ذلك عنه، فيأتي إليه أبو جهل ويطلب منه أن يقول في القرآن قولاً يبلغ قومه أنه منكر له، فيجيب الوليد بقولته المشهورة: «وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر: لا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

ولا نطيل بالكلام عن بلاغة القرآن فذلك موضوع واسع تولاه بالبحث والبيان كثير من العلماء، ولهم في ذلك مؤلفات كثيرة ومشهورة.

٤) اشتماله على حوادث وقعت في الأزمان الغابرة ولم يكن للنبي ﷺ علم بها:

لا عن معلم، ولا عن كتاب، ولا عن أي طريق أخرى غير القرآن، كقصة موسى وغيره من الأنبياء وفي هذا يقول الله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ بعدما قص عليه من خبر موسى وقومه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (القصص: ٤٤-٤٦).

٥) اشتماله على أمور غيبية وحوادث مستقبلة أخبر بها وتحقق وقوعها فيما بعد كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الروم: ١-٥).

٦) اشتماله على التشريعات الروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية والمالية التي كان - ولا زال - لها أكبر الأثر في إصلاح المجتمع الإنساني واستقراره، لبلوغها مرتبة الكمال التشريعي، ولخلوها من كل الثغرات التي تشتمل عليها القوانين الوضعية، وقد ذكرنا عند الكلام عن جوانب الهداية القرآنية كثيراً من التشريعات التي جاء بها القرآن، والتي نظمت علاقة الإنسان بربه وبأخيه الإنسان.

٧) اشتماله على كثير من العلوم والمعارف التي كشف عنها العلم فيما بعد، ولا زال يكشف عنها إلى اليوم، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر وإلى الأبد.

ولا نريد أن نستقصي كل ما حواه القرآن تصريحاً أو تلميحاً من علوم كونية، وإنما نكتفي بثلاثة أمثلة نذكرها كشواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

المثال الأول:

قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ﴾ فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل إليه العلم في زمانه تفسيرا تحتمله الآية فقال:

«كانت السماء رتقاء لا تمطر، والأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالنبات، وتلك بالمطر».

وفسرها علماء العصر الحديث على ضوء ما توصلوا إليه من العلم فقالوا: «قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من الشمس، وأن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة- بعد أن مرت عليها أطوار- تكسرت وصارت قطعاً، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبتها، والأرض واحدة من هذه السيارات فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات»(١).

ولا نكاد نجد تعارضاً بين الفهمين، والآية تحتملهما وتتسع لهما وذلك- بلا شك- وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم.

المثال الثاني:

قوله تعالى في الآية (٥) من سورة يونس ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ وقوله في الآية (٦١) من سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ أليس في هاتين الآيتين دلالة صريحة على ما توصل إليه العلم الحديث من أن الشمس كوكب مضيء وأنها كالسراج نوره من ذاته وأن القمر كوكب معتم نوره مستمد من غيره؟ وهل يستطيع محمد عليه الصلاة والسلام وهو النبي الأمي، -والعلم بالأكوان والأفلاك ما زال في مدرج الطفولة- أن يقرر هذه الحقيقة من تلقاء نفسه؟ كلا إنه من علم الله العليم الخبير. . أودعه في القرآن فكان من وجوه إعجازه.

المثال الثالث:

قوله تعالى في الآيتين (٣) و(٤) من سورة القيامة ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ يقرأ العربي هذه الآية في عصر نزول القرآن فيفهم منها أنها تدل على أن الله قادر على أن يعيد الإنسان عند البعث بشراً سوياً بكل أعضاء جسمه وعلى صورتها الأولى حتى ما دق خلقه من هذه الأعضاء وهو البنان.

(١) انظر التفسير والمفسرون جـ٣ ص ٢٧٠.

ونقرأها اليوم على ضوء العلم فنراها تنطوي على ما توصل إليه العلماء من أن «بصمات» أنامل اليد لا تتشابه عند بني الإنسان فكل فرد له بصمات يتميز بها عن غيره وممكن أن تكشف عن شخصيته، وإعادة هذه البصمات المختلفة المتمايزة عند الحياة الثانية على ما كانت عليه لكل فرد عند الحياة الأولى شيء لا يعظم على الله سبحانه، ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية التي لم يكشف عنها العلم إلا حديثًا ضرب من ضروب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

٨) سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض ولا شك أن هذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم فالكتاب حافل بالقضايا العقلية والتشريعات الفقهية والحقائق العلمية والتاريخ والقصص، والأمثال، والأخبار عن وقائع ماضية وحاضرة ومستقبلة، وهو في ذلك كله صادق لا يرقى إليه كذب، مصيب لا يعتريه خطأ، واضح لا يشوبه لبس، متناسق لا يعترض نسقه تناقض أو تعارض، مؤتلف غير مختلف.

ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال لكتاب جمع الكثير من ألوان المعرفة وضروب الهداية والإرشاد، وضم الكثير من القصص والأخبار ووزعها وكررها في مواضع شتى على نحو من الإيجاز تارة ومن الإطناب أخرى، مع تفاوت وتغاير وتفنن في التعبير يجعل القارئ مشدوداً دائماً إلى قراءته وسماعه دون سآمة أو ملل أو إحساس بنبوة ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال إلا للقرآن الكريم: لأنه كلام الله الذي لا يضل ولا ينسى، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

هذه هي جوانب الإعجاز للقرآن الكريم، أو هي أهم جوانبه.

ولقد نرى بعض العلماء يذهبون إلى أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى أي من هذه الوجوه المذكورة وإنما يرجع إلى الصرفة، ومعنى ذلك- على حد قولهم- أن القرآن الكريم كان في متناول العرب أن يأتوا بمثله ولكن الله صرفهم عن معارضته فصاروا بذلك عاجزين عنها، وهذا قول باطل، لأنه يلزم عليه:

١) أن يكون القرآن في مستوى كلام البشر، وهذا مخالف للواقع، وأرباب

البلاغة من المشركين أنفسهم قد اعترفوا بأنه في أعلى درجات البلاغة التي لا يتطاول إليها أحد منهم، وفي وصف الوليد بن المغيرة للقرآن - وقد ذكرناه آنفاً- ما يشهد بذلك والفضل ما شهدت به الأعداء.

٢- أن يكون المعجز في الحقيقة هو الله وليس القرآن، مع أن آيات التحدي تكاد تكون صريحة في أن الإعجاز راجع إلى القرآن ذاته، وعلى ذلك انعقد الإجماع.

٣) أن الإنس والجن- بصرفهم عن المعارضة بحيث أصبحوا عاجزين عنها- صاروا بمنزلة الموتى، وحينئذ لا يكون للتحدي معنى ولا فائدة.

ولقد نرى - أيضاً- بعض العلماء يقصرون إعجاز القرآن على جانب واحد من جوانب الإعجاز المذكورة، وهذا- إذا أخذ على ظاهره- خطأ بين إذ إن كل ما ذكرناه من جوانب الإعجاز متحقق في القرآن الكريم.

والظن بهؤلاء الذين قصروا إعجاز القرآن على جانب من الجوانب التي ذكرناها: أنهم لم يقصدوا بذلك أن القرآن ليس فيه من جوانب الإعجاز إلا هذا الجانب فقط، وإنما قصدهم: أن هذا الجانب الذي اقتصروا عليه يحقق الإعجاز للقرآن الكريم، وهذا لا يمنع من وجود جوانب أخرى تحقق نفس الشيء وبانضمام بعضها إلى بعض يكون الإعجاز أتم وأقوى.

بقيت حقيقة يجب أن نعلمها، وهي:

إن إعجاز القرآن من ناحية فصاحة كلماته، وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه، وبلاغته في الدلالة على معانيه أمر متحقق في كل سورة بل وفي كل آية تفيد فائدة تامة، أما ما وراء ذلك من جوانب الإعجاز كاشتماله على أمور غيبية مستقبلة وقعت بعد كما أخبر عنها، واشتماله على التشريعات الحكيمة، وانطوائه على حقائق علمية لا يزال العلم الحديث يكشف عنها، فهذا لا يتحقق في كل آية ولا في كل سورة وإنما يتحقق في القرآن جملة، ومن هنا حقق العلماء أن التحدي بأقصر سورة منه أو ما يعادلها أو بأي حديث مثله مهما قصر كان للعرب أولاً، لأنهم أرباب اللسان، وفرسان البيان، فإن عجزوا هم عن معارضته فغيرهم

أعجز، والتحدي بهذا القدر من القرآن راجع إلى فصاحة كلماته وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه وبلاغته، وهو ما عبرنا عنه بالجانب البياني، وهذا كله متحقق- كما قلنا- في القدر المتحدى به أيا كان.

أما غير ذلك من جوانب الإعجاز التي تتحقق في القرآن ككل ولا تتحقق في كل أبعاضه، فذلك يدركه كل إنسان عربياً كان أم غير عربي، وهم جميعاً متحدون بالقرآن جملة ومن كل هذه الجوانب بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨).

* * *

التعريف بالقرآن الكريم

العدد (١٠١) جمادى الأولى (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

المشهور بين علماء اللغة: أن لفظ القرآن- في الأصل- مصدر مشتق من قرأ. يقال: قرأ قراءة وقرآنا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾(القيامة: ١٧ -١٨)[١]- أي قراءته.

ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علماً شخصياً[٢] على الكتاب المنزل على محمد ﷺ.

وعلماء الشريعة يعرفون القرآن، بأنه كلام الله المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه، والمنقول إلينا بالتواتر.

وبعضهم يزيد على هذا التعريف قيوداً أخرى مثل: المعجز، أو المتحدى بأقصر سورة منه، أو المتعبد بتلاوته، أو المكتوب بين دفتي المصحف، أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

والواقع أن التعريف الذي ذكرناه آنفاً تعريف جامع مانع، لا يحتاج إلى زيادة قيد آخر، وكل من زاد عليه قيداً أو قيوداً مما ذكرناه، لا يقصد بذلك إلا زيادة الإيضاح بذكر بعض خصائص القرآن التي يتميز بها عما عداه.

ومعلوم أن للقرآن الكريم خصائص كثيرة يتميز بها عن كل ما عداه من كلام إلهي أو غير إلهي ككونه معجزاً أو متعبداً بتلاوته.

---

(١) وهناك آراء أخرى في أصل الكلمة واشتقاقها. راجع الإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

(٢) يرى بعض العلماء أنه علم جنس يصدق على القرآن كله وعلى أبعاضه. وكونه علماً شخصياً هو الراجح.. انظر مناهل العرفان.

ومعلوم - أيضاً - أن للقرآن صفات يشاركه فيها غيره من كلام الله أو كلام البشر ولكنها صفات لازمة لا تنفك عنه لأنها من عناصر قرآنيته، ولو أنها انفكت عنه لخرج عن كونه قرآنا، وذلك كوصف كونه عربياً الذي يشاركه فيه الحديث النبوي والحديث القدسي، وكوصف كونه متواتراً الذي يشاركه فيه بعض الأحاديث النبوية.

ونرى لزاماً علينا أن نذكر بعض هذه الخصائص والصفات بشيء من التفصيل والإيضاح حتى لا يقع لبس أو خلط بين ما هو قرآن وما خرج أو هو خارج من الأصل عن كونه قرآناً:

١- فمن خصائص القرآن كونه معجزاً، وإعجاز القرآن خصوصية خصه الله بها من بين كتبه المنزلة على سائر الأنبياء عليهم السلام، وميزة تميز بها عن كل كلام آخر منسوب لله سبحانه أو لأي إنسان وبأي لسان.

٢- ومن خصائص القرآن الكريم كونه متعبداً بتلاوته، فقراءة ما تيسر منه ركن من أركان الصلاة لا تتم بدونه وأيما صلاة وقعت خالية من القراءة مع القدرة عليها فهي باطلة، وقراءة القرآن خارج الصلاة عبادة أيضاً، ولم نعرف مثل هذه الخصوصية ثابتة لشيء آخر من الكتب السماوية أو غيرها.

وعلى هذا فالحديث القدسي ليس قرآنا على الصحيح بالرغم من كونه منزلاً من عند الله تعالى على محمد ﷺ بلفظه ومعناه، وذلك لأنه فقد عنصرين من عناصر القرآنية وهما: الإعجاز والتعبد بتلاوته، كما فقد عنصرا آخر يأتي بعد، وهو التواتر.

ولو ادعى مدع ثبوت بعض الأحاديث القدسية بالتواتر- وما أظن ذلك- فإنها لا تكون قرآنا أيضاً لفقدها العنصرين السابقين معاً، مع أن فقد واحد منهما كاف في تخلف وصف القرآنية عنها.

٣- ومن صفات القرآن التي لا تنفك عنه، كونه عربياً، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ناطقة بأنه نزل من عند الله كذلك:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ (إبراهيم: ٤).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧).

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾(فصلت: ٣).

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥) وعلى هذا فأي خروج بالقرآن الكريم عن لفظه العربي المنزل من عند الله يزيل عنه حقيقة القرآنية.

وإذن فتفسير القرآن الكريم، وترجمته إلى غير العربية- مهما روعي فيهما المحافظة على معانيه ومراميه- لا يعدان قرآنا، ولا يكون لأي منهما ما للقرآن من حرمة وقداسة[1]، ولا ما فيه من خاصية التعبد به وروعة الإعجاز، لأنه خرج بذلك عن كونه كلام الله إلى كونه كلام البشر، والبشر يخطئ ويصيب ومحال أن تقوم عبارة إنسان- عربية كانت أم غير عربية- مقام عبارة الله تعالى في جودة معانيها، ودقة مراميها، وخصائص أسلوبها، وبراعة نظمها، وسر فصاحتها، وروعة بيانها.

وهنا نستطرد إلى مسألتين لهما تعلق بهذا الموضوع:

المسألة الأولى: هل معنى أن القرآن عربي أنه لا يحتوي على شيء من لغات غير عربية؟ والجواب عن هذا: أن القرآن الكريم ليس فيه- قطعا- جملة مركبة بلسان غير عربي. إنما يوجد فيه- باتفاق - أسماء غير عربية هي أعلام على أشخاص بأعيانهم، كإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسرائيل، وموسى، وعيسى.. ووجودها في القرآن لا يخرج به عن كونه عربياً، لأن الأسماء التي وضعت أعلاماً لأشخاص تبقى كما هي ولا يتصرف فيها عند نقلها إلى لغات غير لغاتها الأصلية، وإلا لكان معنى ذلك: إزالة الاسم عن مسماه وإطلاق اسم آخر عليه لا يعرف به ولا يعنيه.

وفي القرآن الكريم أسماء ليست أعلاماً لأشخاص مثل: استبرق، وقسطاس،

---

(١) ولحرمة القرآن وقداسته لا يجوز لغير المتوضئ مس المصحف كما لا يجوز للجنب ولا للحائض مس المصحف ولا قراءة القرآن أما تفسير القرآن وترجمته فجائز مسهما وقراءتهما للمحدث حدثاً أصغر أو أكبر، لزوال حقيقة القرآنية عنهما.

وسجيل، ومشكاة. . . وغيرها.

وقد اختلف العلماء في أصل هذه الأسماء:

فمنهم من قال: إن هذه الكلمات مما اتفقت فيه اللغات، فهي موجودة في اللغة العربية، وموجودة في غيرها ولا يخرج بالقرآن عن كونه عربياً أن تكون بعض كلماته موجودة في لغة أخرى، لأن اتفاق بعض اللغات في استعمال لفظ ما للدلالة على معنى معين لا يخرجه عن كونه أصيلاً في كل منها، وإنما يخرجه فقط عن نطاق الاختصاص والانتساب إلى لغة بعينها.

ومن العلماء من قال: إن هذه الألفاظ أعجمية الأصل ولا زالت أعجمية، ووجودها في القرآن لا يخرجه عن كونه عربيا، لأنها قليلة جداً، واقتباسها وإدماجها في هذه الكثرة الساحقة من الكلمات العربية التي احتواها القرآن مما يجعلها تميع وتتلاشى حتى لا تكاد تحس منها نبوة العجمة.

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى أن هذه الألفاظ أعجمية الأصل، ولكنها- تبعاً لنظرية تداخل اللغات في فقه اللغة - استعملت من قديم وقبل نزول القرآن الكريم في اللسان العربي، ولانت بها ألسنة العرب حتى أصبحت عربية بالاستعمال، ولا يخرج القرآن عن كونه عربياً باحتوائه على بعض هذه الألفاظ المعربة، وهذا الرأي الأخير هو أشهر الأقوال الثلاثة وأرجحها.

المسألة الثانية: نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة، وزعم زاعم- بناء على ذلك- أن أبا حنيفة يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط، وهذا يناقض ما قلناه من أن القرآن اسم للفظ والمعنى معاً.

وتوضيح المسألة: أن ما نقل عن أبي حنيفة - مخالفاً به سائر الفقهاء حتى أصحابه - من جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة محمول على أن الصلاة مناجاة لله تعالى، وما يقوله المصلي من معاني القرآن باللسان الأعجمي في صلاته لا يقوله على أنه قرآن، وإنما يقوله على أنه مناجاة منه لله ﷻ، والمناجاة بأي لسان جائزة باتفاق.

ولكن بعض الفقهاء من أتباع أبي حنيفة رضي الله عنه يرى - والحق معه - أن هذا التوجيه لما نقل عن أبي حنيفة من جواز القراءة بالفارسية في الصلاة غير مستقيم ولا مقبول ويقرر أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا إلى القول بعدم الجواز[١].

٤- ومن صفات القرآن التي لا تنفك عنه كونه متواترا: أي رواه جمع كثير عن جمع كثير يحيل العقل اتفاقهم على الكذب من لدن سماعه من رسول الله ﷺ إلى أن وصل إلينا، وروايته على هذا النحو تفيد اليقين بقرآنيته.

وعلى هذا فما روى جماعة لا يحيل العقل اتفاقهم على الكذب- على أنه من القرآن لا يعتبر قرآناً، لأن رواية الأحاديث تفيد الظن ولا تفيد اليقين والقرآن لا يثبت بالظن أبداً.

وإذن، فما يروى بطريق الآحاد عن ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهما من الصحابة من بعض ألفاظ على أنها من القرآن: كقراءة أبيّ وابن مسعود في كفارة اليمين... «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات»[٢] بزيادة لفظ متتابعات.

وقراءة ابن مسعود في آية الإيلاء: «فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم»[٣]. بزيادة لفظ «فيهن».

وقراءة ابن عباس آية الحج «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»[٤] بزيادة جملة (في مواسم الحج).

وقراءة سعد بن أبي وقاص في آية الكلالة: «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس»[٥] بزيادة جملة «من أم».

.. ما يروى من ذلك ليس قرآنا لفقده عنصر التواتر الذي لا بد منه في تحقق القرآنية وثبوتها، وتسمية بعض المتأخرين من العلماء له قرآنا تساهل منهم لا أراه مقبولاً ولا سائغاً في مثل هذا المقام الذي يتحتم فيه الدقة وعدم التسامح في

(١) انظر الإسلام عقيدة وشريعة (ص ٤٨٣- ٤٨٤).
(٢) أصل الآية في سورة المائدة رقم (٨٩).
(٣) أصل الآية في سورة البقرة رقم (٢٢٦).
(٤) أصل الآية في سورة البقرة رقم (١٩٨).
(٥) أصل الآية في سورة النساء رقم (١٢).

التعبير. والظن بالعلماء الذين تسامحوا فعبروا عن هذه الكلمات بالقرآنية، أنهم لا يقصدون أنها قراءات مروية عمن تنسب إليه من الصحابة، وإنما قصدهم، أنها تفسيرات لهم.

أو لعل بعض الصحابة كانوا يفسرون القرآن ويرون جواز إثبات التفسير بجانب القرآن على هامش مصاحفهم التي كانوا يكتبونها لأنفسهم فظنها بعض الناس- لتطاول الزمن عليها- من أوجه القراءات التي صحت عن رسول الله ﷺ رواها عنه هؤلاء الأصحاب.

ومهما يكن من شيء يقال في توجيه تسميتها قرآنا، فهي ليست من القرآن في شيء، ومن يحتج بها من الفقهاء لا يحتج بها على أنها قرآن وإنما يحتج بها على أنها من قبيل أخبار الآحاد التي تروى عن رسول الله ﷺ، وأخبار الآحاد مما يجب العمل به وتقوم به الحجة إلا في باب العقيدة.

٥- ومن صفات القرآن اللازمة له: كونه منزلاً على محمد ﷺ، ومعنى هذا: أن ما أنزل على غيره من الأنبياء لا يكون قرآنا حتى ولو حكاه القرآن، على معنى أن ما جاء في التوراة- مثلاً- من قصص أو أحكام ثم جاء القرآن بعد يحكيها، لا تكون قرآنا حين نزلت على موسى، ولا حين دونت في ألواح التوراة، أما ما حكاه القرآن من ذلك بعد فهو قرآن من عند الله تعالى، نزل به جبريل على قلب النبي محمد ﷺ. ولا يخرجه عن القرآنية أن يكون مضمونه موجوداً في التوراة من قبل.

ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول: إن القصة لها مضمون تناولته التوراة، وتناوله القرآن، والذي حكى القصة في الموضعين هو الله سبحانه.. حكاها في التوراة بأسلوب خاص، وأنزلها على موسى عليه السلام بلسان قومه فكانت من التوراة، وحكاها في القرآن بأسلوب خاص وأنزلها على محمد ﷺ بلسان قومه، فكانت من القرآن.

والآيات القرآنية التي تضمنت أحكاماً كانت شرعاً لغيرنا وكانت مدونة بلغتهم في كتبهم المنزلة كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ[1] أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ

(١) أي فرضنا على اليهود في التوراة هذا الحكم وهو القصاص.

بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة: ٤٥) لا تخرج بذلك عن كونها قرآناً، لأن الآيات التي من هذا القبيل نزلت على قلب النبي محمد ﷺ بلسان عربي، ولا يقدح في قرآنيتها كونها حكاية لما في التوراة أو غيرها من الكتب.

أما الأحكام التي تضمنتها هذه الآيات فالقول الفصل فيها ما يلي:

١- إن اقترنت بما يفيد نسخها بالنسبة لنا فلا تكون شرعاً لنا.

٢- وإن اقترنت بما يفيد بقاء العمل بها في حقنا فهي شرع لنا، ولا نكون في هذا متبعين لشريعة غيرنا، بل نكون متبعين لشريعتنا التي جاء بها نبينا عليه الصلاة والسلام.

٣- أما إن تجردت عن القرينة الدالة على شرعيتها أو عدم شرعيتها في حقنا، فهذه محل خلاف بين الفقهاء: ففريق يقول: هي شرع لنا.

وفريق آخر يقول: ليست شرعاً لنا.

ولكل من الفريقين دليله الذي يستند إليه في توجيه مذهب وتصويبه.. وفي كتب أصول الفقه ما يغني طالب المزيد من المعرفة.

● الغرض من إنزال القرآن الكريم

والغرض من إنزال القرآن الكريم أمران:

الأمر الأول: أن يكون معجزة لنبينا محمد ﷺ، تشهد بصدق دعوته وحقيقة رسالته.

الأمر الثاني: أن يكون دستوراً للأمة الإسلامية تستمد منه الهداية والرشاد، وتستلهم منه الصواب والسداد، وتقتبس من نور تشريعه ما يأخذ بيدها إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

وصدق الرسول الكريم حين يصف القرآن فيقول:

«فيه نبأ ما قبلكم. وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله

المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[1].

صدق الله ورسوله: فلا عز إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفي آياته دليل عليه. ولقد عرف سلفنا الصالح هذا كله فتمسكوا بالقرآن فعزوا وسادوا، ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون: سيغفر لنا، رضوا بأن يكونوا من الخوالف فطبع على قلوبهم، وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ (طه: ١٢٤ ١٢٦).

(١) رواه الترمذي في كتاب السنن (ج٢-ص١٤٩- ط: الأميرية).

جوانب الهداية والإرشاد في القرآن الكريم

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

للقرآن الكريم في هدايته وإرشاده جوانب أربعة:
١) جانب العقيدة ٢) جانب الشريعة ٣) جانب الأخلاق
٤) جانب الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض.

● الجانب العقدي في القرآن الكريم

أما جانب العقيدة: فقد وجهنا القرآن الكريم إلى العقيدة الحقَّة في الله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء.

دعانا إلى معرفة الله- تعالى- وما له من صفات الكمال والجلال، وأنه واحد لا شريك له في ملكه، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته، وأنه الخالق المستحق للعبادة دون غيره.

فقال في بيان ما لله من صفات الكمال والجلال:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (سورة الإخلاص).

وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ (الملك: ١-٢).

وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ (الحشر: ٢٢ -٢٤).

وقال في بيان أن الله واحد لا شريك له في ملكه ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته:

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ (طه: ١٤).

وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون: ٩١).

وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

وقال في بيان أنه المستحق للعبادة دون غيره:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج: ٧٣ -٧٤).

وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ (الأعراف: ١٩١- ١٩٥).

وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۚ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾(الأحقاف: ٤-٦).

وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ النحل: ١٧)

ووجهنا القرآن الكريم إلى الإيمان بالملائكة والرسل وما أنزل الله من كتاب فقال:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة: ١٣٦).

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ (النساء: ١٣٦).

ويقرر القرآن الكريم عقيدة البعث والحساب والجزاء.

فيقول مقرراً عقيدة البعث:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (التغابن: ٧).

ويقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ (الواقعة: ٤٩ -٥٠).

ويرد على المستبعدين للبعث لبني الإنسان بعد ما تمزقت أوصالهم، ورمت عظامهم، وتلاشت ذراتهم حتى إنهم ليقولون مستنكرين للبعث بعد هذا التمزق والتلاشي:

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الواقعة: ٤٧ -٤٨).

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٧).

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾(ق: ٣).

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ (السجدة: ١٠).

ويرد القرآن الكريم على هؤلاء المنكرين للبعث والمستبعدين له بآيات كلها براهين قاطعة وحجج دامغة فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧).

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ (ق: ١٥).

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ (القيامة: ٣-٤).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾(يس: ٧٨ -٧٩).

ثم هو يقرر بعد ذلك أن البعث لا بد أن يستتبع حسابا، وأن الحساب لا بد أن يستتبع ثوابا أو عقابا، وإلا لكان الله عابثاً بخلقه غير عادل في ملكه، فيقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ (المؤمنون: ١١٥ - ١١٦).

ويقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾(ص: ٢٧).

ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴿٣٦﴾﴾ (القلم: ٣٥ -٣٦).

ويقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾(غافر: ٥٨).

ويقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الجاثية: ٢١).

● الجانب التشريعي في القرآن الكريم

وأما جانب الشريعة: فقد سن لنا القرآن الكريم كثيراً من التشريعات والنظم التي نحتاج إليها في عباداتنا، ومعاملاتنا، وصلاتنا في مجتمعنا الإسلامي، وعلاقاتنا بغيرنا من الدول في السلم والحرب.

ففي العبادات شرع الصلاة والزكاة والصوم والحج... وغير ذلك من الطاعات والقرب التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه ومولاه.

وفي المعاملات بين الحلال والحرام فأحل البيع وحرم الربا، وحرم أكل أموال الناس بالباطل فقال:

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ (البقرة: ٢٧٥).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ (آل عمران: ١٣٠).

وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (البقرة: ١٨٨).

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(الأنعام: ١٥٢).

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾(النساء: ١٠).

ووضع لنا القرآن الكريم أسس الاستيثاق فيما يجري بيننا من معاملات مالية فقال في الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وقال في البيع: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۖ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وقال في الاستيثاق بالرهن: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ﴾ (البقرة: ٢٨٣)

وقال في الوصية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ (المائدة: ١٠٦)

ولا لأوصياء اليتامى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦).

ووضع القرآن أحكام الزواج والطلاق، وما يتعلق بهذا وذلك من مهر ونفقة وعدة وحضانة ورضاع.

وأرسى القرآن قواعد الأمن والطمأنينة في المجتمع الإسلامي بما شرعه من

الحدود والعقوبات على بعض الجرائم التي لا تخلو منها المجتمعات البشرية.

فقرر عقوبة القصاص في القتل العمد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وقرر عقوبة القتل الخطأ بقوله:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢﴾ (النساء: ٩٢).

ووضع عقوبة لقطاع الطرق بقوله:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (المائدة: ٣٣).

ووضع عقوبة للسارق بقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ (المائدة: ٣٨).

وشرع من العقوبات ما يصون حرمة الأعراض ويزجر عن استباحتها وانتهاكها فقال في عقوبة الزاني غير المحصن من الرجال والنساء:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ (النور: ٢).

وقال في عقوبة قذف العفيفات بالزنى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ (النور: ٤).

وفي محيط المجتمع الإسلامي يعمل القرآن الكريم على تقوية ما بين المسلمين من وحدة وترابط وإزالة ما عساه يقع بينهم من عوامل التفكك والتصدع فيشرع لهم من الأحكام ما يجتث جذور التنازع والتناحر فيما بينهم، فيقول في

جمع الكلمة ووحدة الصف:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ويقول في القضاء على الفتن والشقاق الذي يمزق هذه الوحدة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات: ٩-١٠).

وفي علاج المشاكل الأسرية يشرع القرآن الكريم كثيراً من الأحكام التي تزيل أسباب الخلاف وتجعل الحياة الأسرية تمشي في طريقها الصحيح الذي يجنبها العثرات والمكدرات، وأبرز مثال نسوقه من هذه التشريعات الحكيمة قوله تعالى:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ (النساء: ٣٤-٣٥)

وفي علاقة المسلمين بغيرهم من الدول يضع القرآن الكريم قواعد المعاملة في السلم والحرب:

ففي السلم: يدعو إلى مسالمة من يسالمنا بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ (الأنفال: ٦١).

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠).

وفي الحرب: يدعو إلى محاربة من يحاربنا بقوله:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة: ١٩٠).

ودعانا إلى الإعداد للحرب ما دامت متوقعة بقوله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وحضَّنا على الثبات عند لقاء الأعداء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنفال: ٤٥).

وحرضنا على البلاء في القتال بقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (ألانفال: ١٢).

وقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ (محمد: ٤).

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ (الأنفال: ٥٧).

ونهانا عن التولي يوم الزحف بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ (الأنفال: ١٥-١٦).

ونهانا عن الخور والوهن في طلب الأعداء بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾(النساء: ١٠٤).

والقرآن يعطي الكافر المستأمن حق الأمان غير مروع على نفسه أو ماله فيقول:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: ٦)

ويقرر القرآن مصير أسرى الحرب بقوله:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٤).

ويضع القرآن أسس المعاهدات ويحتم وجوب الوفاء بها والوقوف عند بنودها ما دام العدو محافظا على ذلك من جانبه ولم يجد من الظروف ما يقتضي نقضها فيقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ (النحل: ٩١)

ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾(التوبة: ٤).

ويقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (الأنفال: ٥٨).

منهج القرآن الكريم في بيان الأحكام

العدد (١٠٤) شعبان (١٣٩٣هـ) - أغسطس (١٩٧٣م).

للقرآن الكريم في بيان الأحكام منهج فريد اقتضته ضرورة كونه عالمياً خالداً. ويتلخص هذا المنهج في النقاط التالية:

١- أن بعض أحكامه جاءت بصيغة قاطعة في الأدلة على الحكم، فلم يكن محل اجتهاد ولا خلاف بين الفقهاء، وهذا - عادة - يكون في أصول الأحكام كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة القتل والزنى، وهذه الأحكام يجب اعتقادها، ويلزم العمل بها، ومن جحدها كان بجحودها خارجاً عن الإسلام.

٢- أن بعضاً آخر من أحكامه جاء بصيغة غير قاطعة في الدلالة على الحكم، لاحتمالها أكثر من وجه فكانت محلاً لاجتهاد المجتهدين، ونتج عن ذلك اختلافهم في الرأي، وذلك يكون- عادة- في فروع الأحكام كمقدار ما يجب مسحه من الرأس في الوضوء وعدد الرضعات التي يتحقق بها كون المرضع إما من الرضاع. وهذه الأحكام الاجتهادية التي قال بها الفقهاء لا يجب اعتقاد واحد منها بعينه، كما لا يجب العمل به إلا على المجتهد الذي توصل إليه باجتهاده، أما المقلد فله أن يختار من بين آراء المجتهدين ما شاء.

٣- أن القرآن لم يتناول كل الأحكام التي يحتاجها الإنسان في حياته جملة وتفصيلاً، لأنه ليس من المعقول ولا من الحكمة أن ينص القرآن على أحكام كل ما يعرض للناس من أقضية في ماضيهم وحاضرهم، ومستقبل حياتهم الممتدة إلى يوم القيامة.

أما أنه ليس من المعقول: فذلك أمر بدهي، إذ لا يتصور عقل أن يتسع كتاب لهذا كله.

وأما أنه ليس من الحكمة: فذلك لأن الحكمة تقضي أن تكون الشريعة التي جعلها الله خاتمة الشرائع وجعلها للناس كافة، شريعة يكون فيها جانب المرونة محققاً حتى تتسع لأنماط من الحكم مختلفة، يقتضيها اختلاف طبائع المكلفين وما يحيط بهم من ملابسات وظروف على مدى تاريخ الإسلام الطويل.

وحسب القرآن الكريم أن يقرر الأصول العامة ويتناول بعض الجزئيات الهامة ويقرن كل هذا بعلة التشريع وما يهدف إليه من مصلحة، ثم يترك للمجتهدين بعد ذلك أن يستنبطوا من الأحكام ما يلائمهم بشرط ألا يخرج عن نطاق ما قرره من الأصول العامة، وما نبه إليه من علة التشريع التي هي مناط الحكم.

٤- أن القرآن لم يلتزم وحدة الموضوع في بيان أحكامه لأنه ليس كتاب قانون يبوب لكل موضوع باباً ثم يسرد كل مسائله، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد: يسوق الآيات تلو الآيات في جانب من جوانب الموعظة، ويتوخى المناسبة الملائمة فيسوق في ثنايا موعظته حكماً شرعياً ويضفي عليه جواً من الترغيب أو الترهيب يوحي بوجوب الأخذ به، ويحذر من مخالفته.

وفي جانب آخر من جوانب الموعظة يلقي بحكم آخر يضفي عليه من جو الترغيب أو الترهيب ما يحتم الأخذ به ويحذر من مخالفته.

وهكذا يلقي القرآن بأحكامه كلها في أجواء مختلفة من الوعظ والهداية والإرشاد، وفي كل مرة يحس السامع بأنه يسمع شيئاً جديداً، فيقبل عليه بشوق ولهفة دون أن يحس بسآمة أو ملل.

ثم إن القرآن الكريم نزل مفرقاً وأحكامه نزلت مفرقة على حسب الحوادث وأسئلة السائلين وحاجات الناس، ومن الأحكام ما هو منسوخ بأحكام أخرى، فلو جمعت كل الأحكام ناسخها ومنسوخها في مكان واحد وتحت عنوان واحد، لظهر القرآن بمظهر المتناقض في بعض أحكامه.

أما أن توضع آية متضمنة حكماً في موضع ما ولمناسبة ما، ثم توضع آية أخرى

ناسخة لها في موضع آخر ولمناسبة أخرى ويعرف بطريق ما أن هذه ناسخة وتلك منسوخة، فذلك يوحي بتدرج التشريع، ويعطي القارئ المتأمل فكرة واضحة عن مراحله من غير أن يستشعر تناقضاً بين أحكامه.

بقي سؤال يثار حول التشريع القرآني وهو:

هل كل ما في القرآن من تشريع يعد جديداً غير مسبوق؟

وللجواب عن هذا السؤال نقول: إن القرآن الكريم نزل للناس جميعاً ونزوله - كما قلنا - كان لغرض الإعجاز أولاً ثم ليكون مصدر هداية وإرشاد بما احتواه من تشريع وتوجيهات مختلفة وبدهي أن أي تشريع يراد له أن يكون صالحاً لتنظيم حياة أمة وعلاج مشاكلها في حاضرها ومستقبل أمرها، لا بد أن تتوفر فيه عناصر أربعة:

١- أن يكون ملائماً للفطرة البشرية ملائمة تامة حتى لا يصادمها ولا يعاندها في أمر جبلت عليه، ومن هنا حرم نكاح الأمهات والبنات في كل الشرائع المعتبرة تحريماً باتاً، ولو عرف أن تشريعاً أباح ذلك لعد شذوذاً وخروجاً عن الإنسانية إلى الحيوانية.

٢- أن يكون ملائماً للقدرة الإنسانية غير خارج عن طاقتها، وإلا كان تعنتاً وتعجيزاً ينافي مفهوم التكليف الذي يهدف إلى الامتثال والطاعة ومن هنا شرع التيسير في كثير من الأحكام عند تحقق المشقة أو مظنتها كإباحة الفطر في السفر والصلاة قاعداً لمن عجز عن أدائها من قيام.

٣- أن يكون ملائماً للسنن الاجتماعية فلا ينافرها ولا يعطلها وإلا كان ذلك خروجاً عما تقتضيه طبيعة الجماعات في ترابطها وتعاونها وتكاملها، ومن هنا شرعت قوانين الولاء لولي الأمر، وقوامة الزوج على زوجته، وولاية الوالد على ولده القاصر.

٤- أن يكون مراعياً للعرف وما اصطلح عليه الناس في معاملاتهم، ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة، لفساده في ذاته، أو فساد ما يترتب عليه، ومن هنا حرم التبني، وحرم الجمع بين الأختين في الزواج، وكلاهما كان متعارفاً بين العرب قبل الإسلام فجاء الإسلام وحرم الأول لفساده في ذاته، لأن الدعي

لا يكون ابنا، وحرم الثاني، لفساد ما يترتب عليه من قطيعة الرحم التي تنشأ- عادة- بين الأختين إن كانتا تحت زوج واحد.

والقرآن الكريم راعى كل العناصر المتقدمة في تشريعه، ونظر إليها جميعاً بعين الاعتبار فيما تضمنه من أحكام كلية كانت أم جزئية، وعلى هذا الأساس جاء تشريع القرآن الكريم على نمط يتمشى مع عمومه وعالميته... نمط يأخذ من كل دين وعرف ما يلائم طبيعة الإنسانية ويدخل في نطاق قدرته، ويساير تطوره الاجتماعي، وما لا يلائم طبيعته، ولا يدخل في نطاق قدرته، ولا يساير تطوره الاجتماعي يبطله ولا يقره، ثم هو بعد ذلك يشرع ما يراه متمشياً مع هذا كله.

وليس من شك في أن القرآن الكريم جاء وهناك تشريعات قائمة، بعضها منبثق عن شرائع سماوية، وبعضها الآخر منبثق عن أعراف خاصة لجماعات مختلفة.

وليس من شك- أيضاً- في أن القرآن الكريم وقف من كل هذه التشريعات موقف الناقد البصير: يقر منها ما يراه صالحاً، ويعدل منها ما يحتاج إلى تعديل، ويبطل منها ما يراه غير صالح، ويشرع أحكاماً أخرى لم تكن معروفة من قبل، وهو في كل هذا مشرع مستقل بنفسه، وليس عالة على غيره من التشريعات أو الأعراف والعادات، لأنه حين أقر ما أقر منها لم يقره على أنه مقلد لا رأي له، وإنما أقره لأنه جرى ويجري على مقتضى الطبيعة الإنسانية والسنن الاجتماعية، وما كان لمشرع أبداً أن يحيد عما تقتضيه طبيعة الإنسانية وسنن الاجتماع وإلا كان أحمق لا يعرف الحكمة ولا يدرك المصلحة.

وخلاصة المقال:

١- إن ما في القرآن من تشريع ليس كله جديداً مبتكراً.

٢- وأن موقف التشريع القرآني من الشرائع السابقة كان على النحو التالي:

أ) أنه أقر بعض الأحكام وأبقاها معمولاً بها في الشريعة الإسلامية لملاءمتها وصلاحيتها، كالقصاص، والديات في القتل وغيره من الجنايات على النفس.

ب) أنه هذب وعدل بعضاً آخر منها، كالظهار الذي كان معروفاً عند العرب، يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، فتصبح في عرفهم محرمة عليه أبداً،

فجاء القرآن وهم على ذلك، فعدل حكم الظهار: فمن ظاهر من زوجته لا يعتبره القرآن مطلقاً ولا محرماً لها على التأبيد، بل اعتبره عابثاً بالحياة الزوجية، وجزاؤه على ذلك: أنه لا يحل له قربانها والاستمتاع بها حتى يكفر عن خطيئته بعتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، وفي ذلك يقول الله تعالى معاتباً ومعاقباً:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (المجادلة: ٢-٤).

جـ) أنه ألغى بعضاً ثالثاً منها: كالتبني الذي كان معروفاً في الجاهلية وصدر الإسلام.

كان الرجل يتبنى ولد غيره وهو يعرف ذلك، فينسبه إلى نفسه، وتجري عليه أحكام الابن الصلبي من التوارث بينهما، وعدم جواز نكاح أحدهما زوجة الآخر إذا طلقها أو مات عنها، فجاء القرآن فأبطل التبني وما كان يترتب عليه.

فقال في بيان انتساب الأدعياء المتبنين:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾ (الأحزاب: ٤-٥).

وقال في إبطال التوارث بالتبني: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۖ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦).

وقال في إباحة زواج المتبني بزوجة من تبناه بعد فراقه لها:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ

أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب: ٣٧). . يريد زينب بنت جحش، وكان قد تزوجها زيد بن حارثة ثم طلقها، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تبنى زيداً حتى كان يدعى زيد بن محمد، فأمره الله بزواجها من بعده، فكان ذلك هدماً لعرف جرى عليه العرب في الجاهلية.

د) وقد يقر القرآن بعض ما كان شائعاً من أحكام لنوع المصلحة فيه، ولكنه يحيط هذا الحكم الذي أقره بكثير من الضمانات حتى لا ينحرف به أحد عن حكمة التشريع.

ثم هو لا يكتفي بهذه الضمانات، فينشئ من التشريعات ما يكاد يلغي هذا الحكم أو يوحي بعدم الرغبة فيه، وذلك كالرق فقد كان شائعاً بين العرب فجاء القرآن وأقر الاسترقاق في الحرب، لا على أنه إهدار لآدمية المسترق وحطم لمعاني الإنسانية فيه، وإنما أعطاه كل حقوقه كإنسان، واعتبر الاسترقاق إدخالاً له في مدرسة الإسلام، لعل قلبه يتفتح على ما فيه من الحق والهدى فينضوي تحت لوائه، وفتح له مع ذلك أبواباً كثيرة يخرج منها إلى الحرية التامة.

فمن ذلك: أنه جعل تحرير الرقاب المسترقة من أفضل القرب وأحبها إلى الله.

ومن تخلى عن أنانيته وطوعت له نفسه عتق عبده عن سماحة نفس تخطى العقبة وسلك طريقه إلى الجنة[١].

ومن كان مسترقاً يسعى للحصول على حريته، فله في مال الزكاة نصيب يأخذه ليشتري له حريته من سيده إن كان قد شح عليه بها.

ومن حلف يميناً ثم حنث فيها فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة[٢].

ومن قتل مؤمنا خطأ فكفارته تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله[٣].

---

(١) انظر الآيات ١١، ١٢، ١٣، من سورة البلد.

(٢) انظر الآية ٨٩ من سورة المائدة.

(٣) انظر الآية ٩٢ من سورة النساء.

ومن ظاهر من زوجته ثم أراد أن يعود لها فكفارته عتق رقبة[١].

ومن أفطر متعمداً في نهار رمضان فكفارته عتق رقبة أيضاً[٢].

ومن لطم مخدومه أو ضربه فكفارته أن يعتقه[٣].

ومن يتأمل الآيات القرآنية التي وردت في الكفارات يخرج بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أن العتق هو الأصل في الكفارة، وأنه لا تخيير بين العتق وغيره من المكفرات إلا في كفارة اليمين.

الحقيقة الثانية: أن العتق لا يعدل عنه إلى البديل وهو الصوم إلا إذا لم يجد المكفر رقبة يعتقها.

ومعنى هذا: أن الإسلام يتشوف إلى الحرية ويراها أحب إلى الله وأرضى من الصوم وغيره من العبادات والقرب.

ثم إن الإسلام يملك الرقيق نفسه ويعطيه حريته لأدنى مناسبة، فإذا ما لاح للمسترق شعاع أمل في الحرية من خلال نافذة ضيقة، فتح الله له الباب على مصراعيه لينطلق منه إلى الحرية الكاملة، كالأمة يستولدها سيدها فلا يحل له أن يخرجها عن ملكه ببيع أو هبة أو نحوهما، فإذا مات فهي حرة.

والعبد يكون بين شريكين فيعتق أحدهما نصيبه فيعتق العبد كله، ويضمن المعتق الأول نصيب شريكه إن كان له مال، فإن لم يكن له مال قوم نصيب من لم يعتق، وسعى العبد في تحصيله له من غير عنت ولا مشقة.

وهكذا يقر الإسلام أمراً كان شائعاً بين الناس، ولكنه يحيطه بكل الضمانات التي تجعله لا يخرج عن نطاق الحكمة والمصلحة... ثم هو بعد يلغيه بضروب من الجزاءات والعبادات والقرب إلى الله.

---

(١) انظر الآية ٣ من سورة المجادلة.

(٢) على خلاف بين الفقهاء في ذلك.

(٣) هذا نص حديث رواه الإمام أحمد والإمام مسلم وغيرهما وفي معناه عدة أحاديث مروية في الصحيح.

الجانب الأخلاقي في القرآن الكريم

العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٣هـ) - سبتمبر (١٩٧٣م).

لقد وجهنا القرآن الكريم إلى نواح أخلاقية متعددة، ودعانا إلى الأخذ بها حتى نسعد في حياتنا الدنيا وفي الآخرة، وحذرنا بأساليب شتى من الخروج عنها حتى لا نضلّ ولا نشقى، ونبهنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة.. نبهنا إلى رسول الله ﷺ وما هو عليه من حسن الخلق وكريم الخصال حتى نقتدي به فقال مثنياً عليه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (ن: ٤).

وبين سر التفاف المسلمين من حوله واجتماع قلوبهم على محبته فقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وإذا نحن تتبعنا القرآن الكريم وتقصينا ما فيه من توجيهات أخلاقية لخرجنا بعديد من الآيات التي تحوي جماع الفضائل كلها، والتي لو تمسك بها المسلم لكان في القمة، من سمو الروح، وصفاء النفس، وحسن السريرة، وطيب المعشر، والتي لو سادت في مجتمع لكان مجتمعنا مجتمعاً مثالياً فاضلاً، يقوم على الخير والحب والمودة والرحمة والطهر والنقاء.

ولا نريد أن نستعرض كل ما في القرآن الكريم من الآيات الأخلاقية الموجهة فذلك أمر يطول... ولكن نكتفي ببعضها:

ففي الدعوة إلى الإحسان في معاملة الأقربين وغيرهم يقول:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ (النساء: ٣٦).

ويقول: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ (القصص: ٧٧).

وفي مقابلة السيئة بالحسنة يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت: ٣٤).

وفي العفو عن المسيء يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠).

ويقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ (يعني اليهود) ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣).

ويقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (البقرة: ١٣٣- ١٣٤).

وفي الحث على الصدق يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ (المجادلة: ٩).

ويقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ (النساء: ١١٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

ويمدح المؤمنين الأمناء ويسجل لهم الفوز والفلاح بقوله:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ ... إلى أن يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون: ١-١١).

ويحذر من الخيانة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنفال: ٢٧).

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء: ١٠٧).

وفي الحث على العدل يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠).

ويحذر من أن تكون القرابة أو العداوة سببا لعدم العدل في القول أو الحكم فيقول:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء: ١٣٥).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة: ٨).

ويدعو إلى التواضع وعدم الكبر والتعالي على الغير فيقول:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٥).

ويقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

ويقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٨-١٩).

وينهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ (الحجرات: ١١).

وينهى عن الظن السوء، والتجسس والغيبة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (الحجرات: ١٢).

ويحذر من إشاعة الفاحشة في المؤمنين فيقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (النور: ١٩).

ويرشدنا إلى حرمة البيوت وآدابها فيقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (النور: ٢٧- ٢٩).

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ (النور: ٥٨-٥٩).

ويدعو الرجال إلى غض أبصارهم وحفظ فروجهم عما حرم الله فيقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (النور: ٣٠).

ويدعو النساء إلى غض أبصارهن وحفظ فروجهن وعدم إبداء زينتهن للأجانب حتى لا يكن مثار فتنة فيقول: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ (النور: ٣١).

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ (الأحزاب: ٥٩).

ويقول: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٢- ٣٣).. وغير أمهات المؤمنين بذلك أولى.

ويقول في أدب الضيف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

● جانب الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض

وأما جانب الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض: فقد وجهنا القرآن الكريم إلى ما بثه الله في الكون من آثار قدرته ودلائل ألوهيته فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: ١٦٤).

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢).

وقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات: ٢٠- ٢١).

وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية: ١٧- ٢٠).

وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ (الفرقان: ٦١- ٦٢).

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ (الفرقان: ٤٥- ٥٠).

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ (النور: ٤٣- ٤٥).

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الشورى: ٣٢-٣٣).

وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس: ٣٧- ٤٠).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يوسف: ١٠٥).

وأخيراً يشير القرآن الكريم إلى آيات أخرى لا يزال يكشف عنها العلم، كانت وستكون الحجة البالغة لله على الناس فيقول:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ (فصلت: ٥٣).

● **هدف القرآن من توجيهنا إلى آثار قدرة الله**

والقرآن إذ يوجهنا إلى هذه الآثار ويلفت أنظارنا إليها، لا يريد منا أن ننظر إليها نظرة عابرة قاصرة. وإنما يريد منا النظرة الفاحصة المتأملة، وهو يهدف من وراء ذلك إلى أمرين هامين:

أولهما: أن نأخذ منها الدليل على وجود الله وقدرته. وعلى أنه الإله الحق الذي يستحق العبادة دون غيره.

وثانيهما: أن ننقب عما حواه الكون من خيرات وكنوز وأن نكشف أسراره وكوامنه حتى ننتفع بكل ما فيه من خيرات مادية ونستفيد بكل ما نهتدي إليه من معارف وعلوم بعد الدراسة لظواهره ومشاهده دراسة البارع المدقق والعالم المحقق.

ولقد أدرك العلماء من غير المسلمين ما في الكون من مصادر الثروة وموارد القوة وينابيع المعرفة، وأخذوا جادين في استنباط كنوز الأرض واستغلال خيراتها. وبحثوا محققين عن خواص بعض ظواهر الكون وعوالمه، فإذا بهم بعد الجهد والعرق يصلون إلى ما كانوا يرجون. ويحققون لأممهم غنى لا يطاول، ومجداً لا يسامى، وقوة لا تقهر.

وغفل المسلمون عن آيات الله البينات، وأغمضوا عيونهم وعقولهم عن التأمل والتدبر فيما تحويه من ذخائر وتوحي به من معارف، فكان حالهم ما نرى: تخلف عن ركب الحضارة، وتسول في موكب العلم.

● **القرآن يخاطب العقل والوجدان والعاطفة**

والقرآن الكريم حين يدعو إلى العقيدة الحقة في الله وفي كل ما جاء عنه، وحين يدعو إلى التزام تشريع معين في عباداتنا أو معاملاتنا أو نظمنا الاجتماعية، وحين يدعو إلى الخلق الكريم والأدب الحميد واتخاذ ذلك منهجاً لنا في سلوكنا الشخصي وسلوكنا مع الله ومع الناس.. حين يدعو القرآن إلى هذا كله، لا يدعو إليه دعوة جافة خشنة ليس فيها إلا مجرد الأمر الصارم أو النهي العنيف وإنما يدعو إليه دعوة الحكمة العاقلة فيورده بأسلوب الأمر أو النهي مقروناً بوسائل الإقناع

بصدقه وصلاحيته وحسن عاقبته.

● **ووسائل الإقناع متعددة**

فتارة يكون الإقناع عن طريق العقل، وتارة يكون عن طريق الوجدان، وتارة ثالثة عن طريق العاطفة.

ولقد سلك القرآن الكريم في دعوته هذه الطرق الثلاث:

خاطب العقل: لأن من الناس من لا يؤمن إلا بالدليل العقلي ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ (المؤمنون: ٩١).

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وكلتا الآيتين دليل منطقي واضح يدركه من له إلمام بأساليب المناطقة في استدلالهم، ويدركه كل من له عقل يعي ولو لم يكن على علم بأسلوب المناطقة.

ثم هناك آيات الله في السماوات والأرض وفي أنفسنا، وكلها براهين عقلية تشهد بوجود الله وربوبيته، والقرآن الكريم- في أكثر من آية- يلفت أنظارنا إلى هذه الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة لله على الناس.

وخاطب القرآن الوجدان: لأن من الناس من لا يحفزه إلى الانقياد والطاعة إلا ما يحرك وجدانه، ويثير فيه جانب الرغبة أو الرهبة، فإذا ما أمر بمعروف وقرن الأمر بالترغيب، رغبت نفسه في الامتثال أملاً في الثواب، وإذا ما نهي عن منكر وقرن النهي بالترهيب، كفت نفسه عنه رهبة من الوقوع تحت طائلة العقاب.

وكثيراً ما نجد في القرآن الكريم آيات تحرك في الوجدان نوازع الخير بما تضمنته من وعيد بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، وآيات أخرى تنيم في الوجدان نوازع الشر بما تضمنته من وعيد بشقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

فمن الآيات التي تحرك في الوجدان نوازع الخير وتبعث على امتثال الأوامر الإلهية:

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥).

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧).

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣).

ومن الآيات التي تنيم في الوجدان نوازع الشر وتبعث في النفس الخوف من الوقوع فيما نهى الله عنه:

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (النحل: ١١٢).

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (السجدة: ٢٠-٢١).

وخاطب القرآن العاطفة: لأن من الناس من لا يستجيب لدعوة الخير إلا إذا خوطب بما يهز عاطفته ويوقظ في نفسه كوامن الحب والشفقة والرحمة.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى عمل البر والخير، وأخرى تنهى عن ارتكاب بعض ما لا يليق بالإنسان، وهذه وتلك تأتي مقرونة بما ينبه العواطف الإنسانية ويثيرها حتى تكون المحرك الدافع لفعل الخيرات والمبرات، والمثبط المعوق عن ارتكاب الحماقات والموبقات.

فمن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف الدافعة إلى فعل الخيرات والمبرات قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

وقوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠) ومن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف المعوقة عن ارتكاب الحماقات والموبقات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ (النساء: ٢٠-٢١).

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ (النساء: ٩).

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (الحجرات: ٩).

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء: ٢٩).

يريد أن المؤمن وأخاه كنفس واحدة، فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه، ومن قتل أخاه فكأنما قتل نفسه.

وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل والوجدان والعاطفة حتى يصل إلى القلوب بتعاليمه ومفاهيمه من كل هذه النوافذ، وتلك رحمة من الله بعباده الذين شرحوا صدورهم للقرآن ولم يوصدوا دونه هذه المنافذ ويضعوا عليها أقفالاً من المكابرة والعناد.

* * *

من بحوث مؤتمر الدعوَة

مشكلات الدعوة والدعاة في العصر الحديث وكيفية التغلب عليها (١)

العدد (١٥٨) صفر (١٣٩٨هـ)- يناير (١٩٧٨م).

الدعوة إلى الله وإلى دينه الحق، هي وظيفة الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم هي واجب العلماء من أتباعهم، ومسؤولية المؤمنين جميعاً من أممهم.

يقول الحق تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨).

وهكذا حددت الآية السبيل لرسول الله ﷺ ولكل من اتبعه، وجعلت غايتها، الدعوة إلى الله على بصيرة ومعرفة، وأصبحت الدعوة بنص هذه الآية، فريضة مستمرة، ينهض بها العلماء، ويضطلع بأعبائها المسلمون في تكافل وتعاون، يجعل من عملهم المشترك استمراراً لجهاد رسول الله ﷺ لإعلاء كلمة الله.

الدعوة إلى الله واجب عام، مسؤولية الوفاء به في أعناق المسلمين جميعاً، وهي مسؤولية يجب للوفاء بها توفير أمرين لا بد منهما:

وأول الأمرين: ما يلزم للدعوة ومتطلباتها الشاملة، من مال ينفق منه على ما تقتضيه مجالاتها المتعددة- من إعداد للدعاة، وتهيئة للوسائل الضرورية، من كل ما هو لازم لتوصيل دعوة الحق إلى الناس، داخل بلاد المسلمين وخارجها على السواء، فالدعوة إلى الإسلام، لا يجوز الوقوف بها عند حدود عالمنا الإسلامي، بل يجب أن تصل هذه الدعوة وتبلغ كل ما طلعت عليه الشمس، وكل ما دخل عليه الليل.

إن كتاب الله تعالى أنزل ليكون نذيراً للناس كافة، وما بدأه رسول الله ﷺ على طريق هذا الإنذار العام، من دعوة لملوك الأرض وشعوبها الذي أتيح له أن

يدعوهم.. ما بدأه رسول الله ﷺ علينا أن نكمله، فنصل بالدعوة إلى كل مكان نستطيع الوصول بها إليه، تحقيقاً لقول الحق تبارك وتعالى لنبيه وعلى لسانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨). وهو معنى التعميم في آية البلاغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧)، بحذف المفعول، فمعناه - والله أعلم- بلغ كل من يمكن تبليغه.

وإذا كان مجال الدعوة بهذه السعة، وبخاصة في عصرنا الذي يسرت وسائل الاتصال فيه الوصول إلى كل شبر في أرض الله.. تبين لنا حجم الذي لابد منه للوفاء بمطالب دعوة جادة، تخرج الأمة من دائرة التقصير والتفريط في جنب الله في عالم ضاقت فيه المسافات، وألغيت الحواجز بين الدول والشعوب.

وثاني الأمرين: ما يلزم للدعوة من جهاز متكامل ينهض بها في داخل بلاد المسلمين وخارجها. جهاز تتوافر فيه المقومات والخصائص التي تناسب طبيعة الإسلام من ناحية، وتلائم طابع العصر من ناحية أخرى.

إن الله ﷻ يقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤).

لا بد للدعوة من لسان مشترك بين الداعي والمدعو، واللسان المشترك أوسع دلالة من مجرد معرفة بلغة مشتركة، بل لابد من معرفة بما تحويه هذه اللغة من ثقافة المدعو وخصائص بيئته، وما يشكل موقفه من أفكار ومعتقدات، وما يحكم تفكيره من عادات وتقاليد، لا بد للداعية من إلمام بها حتى يستطيع إحكام خطته في غزو الحصن من حيث يتمكن من فتحه بإذن الله.

ولابد في خطاب البشر خطاباً ناجحاً من مراعاة طبيعة البشر العامة فيهم أولاً، ومراعاة الخصائص الجنسية والعرقية ثانياً، ثم مراعاة الفروق الفردية في النهاية.

إن عقلية الإنسان هي نتاج تشكله عوامل كثيرة تختلف من شعب لآخر، ومن بيئة لأخرى ومن فرد لفرد.

هذه الفروق الجنسية والفردية على مستوى الشعوب والأفراد أصبحت أساساً

مقرراً وحقيقة مسلمة لدى علماء النفس والاجتماع وخبراء التربية، وقد اعتمدت عليها نظم التعليم في كل الدنيا، وآن لنا أن نستفيد منها في مجال الدعوة الذي رأينا كيف أسسه القرآن الكريم على أساس الفهم المشترك العميق بين الداعي والمدعو ليتم الاتصال الذي يحقق الغاية كاملة.

لابد للدعوة من توافر هذين الأمرين:

- التمويل الكافي.
- والجهاز المقتدر.

ويبقى بعد توافر هذين العاملين شرط إذا لم يتوافر هذا الآخر ضاعت الآمال المعلقة بالدعوة، وتبخرت الأهداف المنوط بها تحقيقها.

وهذا الشرط يتمثل في توفير مناخ صالح تنطلق فيه الدعوة إلى الله خالصة من كل قيد، متجردة من كل غاية، إلا غاية وحيدة هي هداية الخلق إلى صراط الله المستقيم، ومعناه:

أن ترفع عن أجهزة الدعوة في كل بلاد المسلمين أثقال أجهزة السلطة التي تمنعها حرية الكلمة، وتوجهها في كثير من الأحيان للتحول من دعوة إلى الله، إلى بوق من أبواق الدعاية، أو وسيلة من وسائل الإعلام، أو تجمد حركتها بحيث تصبح مجرد وظيفة اجتماعية تتيح لصاحبها مورداً للرزق يصبح الحصول عليه هو الغاية الأخيرة.

تمويل الدعوة، جهازها، مناخها- هذه الثلاثة هي الميادين التي يجب البحث فيها عن مشكلاتها، والتي يمكن معالجة هذه المشكلات في نطاقها أيضاً.

ولنتناول بإيجاز مشكلات كل ميدان من الثلاثة مقترحين ما نراه من علاج ملائم.

أولاً:

تمويل الدعوة - وقد آثرنا البدء به لأنه يمثل عنق الزجاجة، ويعتبر الصخرة التي تؤسس للبناء أو تصطدم بها وتتحطم عليها الجهود.

نحن في عصر تحول فيه صراع الأمم والشعوب من صراع عسكري إلى صراع

اقتصادي في جوهره، يتخفى وراء صراع فكري عقدي أو مذهبي، وأصبح من المصطلحات الشائعة في عالم اليوم ما يتردد عن «الغزو الفكري» الذي اشتدت ضراوته، واصطنعت له الأساليب والمناهج التي خدمها العلم في جانبيها، النظري والعملي، على السواء.

هذا الغزو الفكري المتبادل بين الشرق والغرب، وبين مختلف النظم والمذاهب المعاصرة بعضها وبعض، يركز ويكثف جهوده على بلاد العالم الإسلامي بخاصة، وعلى بلاد العالم النامي بوجه عام، فهي- من جهة- مطمح نظره، يرى فيها طلبته التي تحقق مطامعه الاقتصادية، ومن جهة ثانية، يراها متخلفة، وتخلفها يجعلها أكثر طواعية وتقبلاً لما يقدمه إليها من فكر، يراد منه أن يكون رباطاً وثيقاً يشد إليه عقول أبنائها على نحو يجعل منهم تابعين مخلصين، ينفذون له مخططاته في بلادهم دون أن يضطر إلى الكشف عن وجهه القبيح، كما يوفر عليهم الكثير من الجهود والمال لو أنهم اصطنعوا للسيطرة طريقاً آخر.

هذا الغزو الفكري ترصد له ميزانيات ضخمة، وتقام له مؤسسات وأجهزة تخطط له، وترسم له المناهج والأساليب، وتعد له من الوسائل والأدوات ما يجعله قادراً على تحقيق غاياته.

إن المراكز الثقافية وما إليها، والإذاعات الموجهة، مسموعة ومرئية، «والسينما» ودور النشر، وفروع الجامعات الأجنبية، والمكتبات العامة الأجنبية التي لها إمكانات تجعلها مقصد طلاب البحث العلمي في جامعات كثيرة في بلادنا الإسلامية والعربية وبلاد العالم النامي- فضلاً عن الصحافة التي تتخذ منبراً يصل صوته إلى كل مكان- هذه كلها من أدوات «الغزو الفكري» المباشرة، ولعل غير المباشر من هذه الأدوات أشد خطورة وأخفى آثاراً.

لعل هذا يصور لنا حجم التمويل والمال المرصود لهذا النشاط الزاحف الشرس المصر الدءوب.

هذا النشاط الضخم بإمكاناته الهائلة يلقي بنتائجه في طريق «الدعوة إلى الإسلام» داخل بلاده وخارجها على السواء، نتائج هي عقبات وحواجز وسدود

تعترض طريقها من ناحية، وهي معاول تخلخل وتهدم من ناحية أخرى.

فإذا رجعنا إلى «الدعوة الإسلامية» وقارنا ما هو مخصص لتمويلها في ميزانيات الدول الإسلامية بما تملكه أجهزة «الغزو الفكري» وما يرصد لها في ميزانيات الدول التي تمارسه، بدا لنا العجز الكبير في إمكانات «الدعوة» على المستويين الداخلي والخارجي من حيث القدرة المادية اللازمة، والتي بدون توافرها تصبح هذه الدعوة بين موجات الغزو الفكري المضاد قزماً بين عمالقة شداد!!

إن قصور التمويل عن الوفاء بمتطلبات «الدعوة» وأجهزتها، وفاء يمكنها من أن تصمد في معركة الصراع، وتطور من أسلحتها ووسائلها، وتكيف نفسها بالأساليب الملائمة في حرب المواجهة الفكرية والمذهبية، جعلها كالحمائم بين النسور.

وإذا كان «الغزو الفكري» ينطلق من مرتكز سياسي في الأساس، فهناك حركة أخرى تنطلق من مرتكز مختلف، ونعني بها حركة التبشير الجديد، والتي تلبس في عصرنا ثياباً وأزياء تمعن في التخفي وتعمية ما وراءها، وتجد من مصادر التمويل الرسمية- من ميزانيات الدول، والمساهمات الشعبية - من تبرعات الأفراد، والمؤسسات، والجمعيات، ما يجعلها وافرة القدرة، بالغة النشاط، تصل بنشاطها إلى كل ركن معلوم أو مجهول في عالمنا.

إنه لولا المناعة الذاتية التي يتمتع بها الإسلام كدين، ولولا جوانب ضعف موضوعية في تلك الدعوات المضادة، لا تفلح كل وسائل التمويه في سترها... لكانت نتائج عدم التكافؤ الخطير بين ممكنات الدعوة الإسلامية وإمكانات أعدائها أضعاف أضعاف ما هو واقع فعلاً، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ (الأنفال: ٣٦).

إن مقارنة بين «الفاتيكان» وحده، بإمكاناته وطاقاته، وسلطاته على الشعوب والحكومات المسيحية في العالم الغربي.. وبين «أجهزة الدعوة» مجتمعة في

عالمنا الإسلامي تكشف لنا وتجسد ما تعانيه الأخيرة، وتهيب بنا جميعاً أن نبحث عن مخرج لانتشالها من مأزقها.

وهنا نقترح: أن تخصص نسبة مئوية من ميزانية كل دولة إسلامية لتمويل الدعوة في الداخل والخارج، نسبة مئوية يتحقق بها العدل والتضامن في تحمل أعباء هذا الواجب الخطير، وتفي بمتطلبات المهمة الخطيرة التي تنتظر المسلمين اليوم، وفاء بحق دينهم، وبحق الإنسانية التي ضلت طريقها، ولا سبيل لهدايتها إلا عن طريق تعريفها بالدين الذي جاء لهداية البشر جميعاً.

إن (١٪) واحد في المائة، بل نصفاً من مائة من ميزانيات كل الدول الإسلامية الغنية والفقيرة، يحقق حصيلة ضخمة، تمول منها حركة الدعوة الإسلامية داخل بلاد المسلمين وخارجها تمويلاً جماعياً، يتحدد نصيب كل منها بحسب ما تحتاجه لا بحسب ما أسهمت به.

إن بلداً إسلامياً كبيراً هو «أندونيسيا» التي تعتبر أكبر دولة مسلمة في عصرنا عدداً، يتعرض الآن لحركة تبشير ضخمة وشرسة، استطاعت أن تقتطع من أبنائه المسلمين نسبة مئوية عالية، حددها بعض المشغولين فيهم بهذه المشكلة بنحو ٤٠٪ من جملة السكان، وهو رقم مهما كان فيه من مبالغة، فإن ما يتبقى بعد حذف كل ما فيه من مبالغة أو تهويل، يكفي لأن يوقظنا من غفلتنا، ويقتضينا أن نسارع بتنفيذ هذا الاقتراح على الفور، وتعبئة جيش من الدعاة القادرين لمواجهة هذه المأساة المروعة.

وما يتعرض له المسلمون في الفلبين، ألا يدخل في نطاق ما تطالبنا به الآية الكريمة تجاه المستضعفين من المسلمين حيثما كانوا: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ (الأنفال: ٧٢).

إن الواجب نصرهم، كيفما كانت تبعاته أو أهواله، فكيف بنا إذا لم نقدم لهم حتى مجرد الدعم الروحي والمعنوي؟.

تمويل الدعوة تمويلاً يمكنها من الانطلاق دون معوقات، هو أول ما يجب التركيز عليه واتخاذ قرار بشأنه حتى لا يتحول الحديث والحوار إلى مجرد أفكار

ونظريات لا تجد لها طريقاً لأن توضع موضع التطبيق.

● **ثانياً: جهاز الدعوة**

وبناء هذا الجهاز بوجهيه البشري والمادي، رهن بما يتوافر للدعوة من مال تسهم فيه الحكومات بنسبة مئوية كما اقترحنا، ويضم إليه ما يمكن تقديمه من قبل الأفراد والمؤسسات والجمعيات الإسلامية في كل بلاد المسلمين، ومن خلال دعوة جادة ومؤثرة، تدعو للإسهام والتبرع لهذا العمل الجليل.

وجهاز الدعوة على دعامتين:

- دعامة بشرية هي الأساس، وهي القوة الضاربة في الميدان، ودعامة مادية تتمثل في مؤسسات الدعوة ومقارها، وأدوات توصيلها ونشرها، وكل ما يعتبر وسيلة معينة على تحقيق الاتصال الناجح المؤثر بين الدعاة والمدعوين.

ومشكلة جهاز الدعوة الإسلامية اليوم بوجهيه البشري والمادي، تتمثل في عجزه عن الوفاء بمتطلبات الدعوة تحت ظروف العصر عجزاً مزدوجاً يشمل الكم والكيف معاً.. فمن حيث الكم:

نجد قصوراً واضحاً في إعداد الدعاة، والمشتغلين في مجال الدعوة على وجه العموم، فالمساجد - مثلاً - لا تجد من الأئمة والخطباء من يقومون بهذه الوظائف، بأعداد تكفي لتغطية حاجتها جميعاً، والواقع - حتى في أحسن المجتمعات الإسلامية ظروفاً من هذه الناحية - ينطق بهذا النقص.

ومثل ذلك يقال عن عدد الوعاظ، فالمؤهلون منهم قلة محدودة جداً، ويجانبهم أعداد هائلة ممن يمارسون الوعظ هواية أو من خلال جمعيات تعد لهم مستويات من الدراسة تتيح لهم حدا أدنى من المعرفة الدينية الضرورية، التي قد تكفي لمواجهة حاجات البيئات المحدودة الفكرة والثقافة، ولكنها لا تفي بحاجة الإنسان الذي نال قسطاً كبيراً من ثقافة العصر، وتعرض لمؤثراته الفكرية والحضارية.

إن ساحة الدعوة الإسلامية داخل البلاد الإسلامية نفسها خالية - إلا نسبة محدودة منها - من دعاة حقيقيين، قادرين على حمل أمانتها والوفاء بتبعاتها.

فإذا ألقينا ببصرنا على ساحة الدعوة خارج بلاد المسلمين، وحيث يوجد ملايين البشر ما زالوا على فطرتهم، أو شابتهم وثنية انتقلت إليهم بالعدوى، وحيث يوجد ملايين من أصحاب الديانات الأخرى يعانون القلق، ويبحثون عن معتقد تطمئن إليه نفوسهم، التي يرهقها الآن أن تتقبل عقائد ومذاهب، يصعب على عقل أضاءه العلم، وصقلته الحضارة، أن يتقبلها.

هؤلاء حيارى يتلمسون الضوء في ظلمات بعضها فوق بعض، ولو أن دعوة الإسلام بلغتهم في خطاب يفهمونه، وأسلوب حكيم يفتح لها الطريق الصحيح إلى عقولهم وضمائرهم، لكان لهم من الإسلام موقف آخر، ولغدوا جنوداً مخلصين يستطيعون ويملكون من وسائل نشر الإسلام بين أقوامهم، ما لا نملكه نحن في بلاد المسلمين.

إن الإسلام ليس ملكاً لنا، وإنما هو أمانة الله في أعناقنا، ومن الوفاء بالأمانة أن تؤدي إلى من هو أقدر على القيام بها، والحفاظ عليها، وهو مغزى قول رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ليبلغ الشاهد الغائب» (رواه البخاري) وقوله: «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» (رواه الترمذي وحسنه).

لقد انتشر الإسلام في إفريقيا وآسيا على أيدي التجار المسلمين أكثر مما انتشر على أيدي الدعاة الرسميين، ذلك أن «الاحتساب» غير «الاحتراف» وليس من قبيل المصادفة أن يكون هذا القول الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الشورى: ٢٣). شعاراً مشتركاً بين رسل الله أجمعين.

نحن بحاجة إلى تأمل المغزى العميق وراء هذا الشعار لنصل إلى معادلة صحيحة نحل بها مشكلة الدعوة العويصة في عالمنا وهي: كيف نوفق بين كون الدعوة غاية يجب التجرد لها والتضحية في سبيلها، وبين كونها مصدراً ضرورياً لرزق من تناط بهم وظائفها في عالم أصبح توزيع العمل والتخصص في المعرفة سمة من سماته؟

كم من «الدعاة» اليوم يبشرون بالإسلام على سطح هذا الكوكب الذي نعيش فيه؟. لو تصورنا أن كل مليون من البشر يكفيهم داعية واحد- وهو فرض أقرب إلى

الخيال- لكان العدد المطلوب من «الدعاة» بضعة آلاف داعية، فهل نستطيع أن نحصي على مستوى العالم غير الإسلامي كله أكثر من بضع عشرات؟ تلك حقيقة يجب أن نذكرها ونذكر بها.

هذه المشكلة: الدعوة وجهازها من حيث عدد «الدعاة» وهم العنصر الأساسي فيها. فإذا انتقلنا إلى مشكلة الدعوة من حيث نوعية «الدعاة»، صدمنا الواقع صدمة قاسية - إن مستوى «الداعية» في أحسن حالاته اليوم لا يفي على الإطلاق بحاجة من يدعوهم.

إن إنسان العصر يريد أن يجد في «الدين» حلولاً لكل مشكلات الحياة التي تعترضه، سواء في سلوكه الشخصي، أو في علاقاته الأسرية، أو في معاملاته الاقتصادية ويريد أن يجد للدين كلمة تضيء له طريقه في قضايا الحكم، ومسائل السياسة، ومشكلات الاقتصاد.

والشباب - بخاصة - في حاجة إلى أن يقدم لهم من خلال الدين نظرة متكاملة للحياة، تستطيع إشباع حاجتهم للمعرفة، وتتيح لهم ما يبحثون عنه من سكينة النفس. واطمئنان الضمير.

هذه المطالب المعقدة المتشابكة يقدم «الدين» حلولاً جذرية عميقة لها، ولكن السؤال هو- ما مدى إدراك «الداعية» لهذه المشكلات؟ ثم ما مدى قدرته على استنباط حلولها، والإجابات الصحيحة عنها من المصدر الأصيل للدين ممثلاً في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يعتمد عليهما أساساً ويستعين بعد ذلك بما يراه ملائماً من الأدوات؟

هل يملك «داعية» العصر القدرة على الاقتراب المباشر من هذا المصدر، وأخذ الأحكام والحلول لقضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها من خلال نصوصه مباشرة؟

هنا يبرز لنا قصور الإعداد ونقصه، حتى على مستوى حمله الشهادات العلمية التي تجيزهم بأهلية العمل في مجال الدعوة، وتقرر صلاحيتهم لها.

هذا القصور إذا أردنا تحديد أسبابه، وجب أن نتجه على الفور إلى الجهات

التي تتولى إعداد هؤلاء الدعاة، ونتفحص مناهج إعدادهم ووسائل تكوينهم.

وأول ما يلاحظ على هذه المناهج والأساليب:

١- أنها بدلاً من وصل الطالب وصلاً مباشراً بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أحلت بديلاً منهما، يتمثل في كتب ومذكرات، مهما كانت قيمتها، فلن تصلح بديلاً في يد داعية لابد أن يكون على بصيرة في دين الله، يستمدها من مصادره الموثقة، وليس من آراء البشر، واجتهاداتهم، وشروحهم، وتفسيراتهم، مهما بدت قيمتها في نظر من يضعون المناهج.

٢- وهذا يقودنا إلى أصل الداء في الدراسات الدينية المعاصرة ويتمثل في قصور الأدوات التي لابد من توافرها للتمكن في هذه الدراسات، وفي مقدمة هذه الأدوات إجادة «العربية»، وفقه لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة.

إن مجتهدي الفقهاء، لم يتمكنوا من الاجتهاد الفقهي، إلا بعد امتلاك ناصية اللغة امتلاكاً تاماً، وعلم «أصول الفقه»- في جملته وتفصيله- هو علم لغوي في أساسه.

وهل استطاع أو يستطيع مفسر جاد أن يجلس إلى كتاب الله- وهو آية بيانية معجزة- وأداته اللغوية لم تكتمل، وذوقه اللغوي لم يصل إلى القمة؟.

إن فهم مراد الله من كتابه مرهون بالقدرة على النفاذ إليه من خلال أسلوب عربي، شاء الله له أن يكون معجزة بلاغية في صياغته.

وقصارى أمر من يحاول التفسير دون استكمال عدته اللغوية أساساً، أن يكون راوياً لأقوال الآخرين، أو جامعاً منظماً لها، أما أن يكون مفسراً منظماً لها، فهذا ما لا سبيل له إليه.

وقل مثل ذلك بالنسبة لمن يفسر أحاديث رسول الله ﷺ.

إن كل خلاف في آراء المفسرين، مرده إلى أساس لغوي بالدرجة الأولى، وكل ترجيح بين رأيين فمستنده أساس لغوي كذلك، فكيف يسوغ الترخص في هذا التكوين اللغوي للدعاة، وهو أداة الأدوات في يد كل باحث، ومفكر، ودارس، ومعلم يبلغ عن الله ما جاء على لسان رسوله ﷺ ؟!

إن إعداد الدعاة- مهما تضخمت المناهج وتشعبت- يظل عاجزاً عن ربطهم ربطاً وثيقاً بمصدر الدين الأساسي، طالما بقيت هذه الثغرة.. أعني هبوط المستوى اللغوي في هذا الإعداد.

٣- إذا كانت ثقافة العصر تفرض نفسها على عقول الناس، وتخلق فيها من المشكلات ما لم يكن في عقول السابقين، فالضرورة قاضية بأن يلم الداعية بتيارات هذه الثقافة، ووزنها، وتمييز ما هو حق فيها، وما هو باطل، ثم يسلح بأسلحة ملائمة للهجوم وللدفاع في معارك الفكر التي لا بد له أن يخوضها، إذا كان يريد أو يراد له - حقاً- أن يؤدي رسالته على وجهها.

أصالة الثقافة بربطها بالمصدر الأول للإسلام، ومعاصرتها بالتفتح على ثقافات العصر، وميادين المعرفة اليوم، كلاهما ضروري لداعية العصر، وإلا كان سطحياً غير عميق الجذور إذا فقد شرط الأصالة، أو منغلقاً، ضيق الأفق، إذا فقد شرط المعاصرة.

لقد حفل تاريخ الدعوة الإسلامية وتطورها بنماذج فريدة من «الدعاة» المدافعين عن الإسلام، تمكنوا من قديمهم، وتسلحوا بأسلحة عصورهم فلم يتهيبوا ميدان النزال، بل اقتحموا، وصالوا وجالوا، وغلبوا ورفعوا راية الحق عالية، يقذفون الباطل من تحتها، بقذائف لم تكن لتخطئ مقاتله.

إن هذا التاريخ ليذكر بالفخر والاعتزاز أمثال أبي حنيفة، ومالك والشافعي وابن حنبل رضوان الله عليهم.

ويذكر أمثال الحسن البصري، وابن سيرين، وأبي الحسن الأشعري.

ويذكر الباقلاني، والغزالي، وابن رشد، ومن إليهم ممن كانوا حصوناً ومعاقل، تقف لترد عن الإسلام هجمات الطاعنين، والمفترين.

ويذكر ابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي... وابن كثير.

ويذكر في عصرنا الحديث محمد بن عبد الوهاب، والأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي، ممن كانوا شهباً راصدة، تنقض على كل من يحاول النيل من الإسلام، بالطعن والتشكيك.

إن العودة لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، واستمداد مناهج إعداد الدعاة منهما مباشرة، وتمكين الأساس اللغوي للدعاة، هو نقطة بدء لابد من التفكير فيها تفكيراً عميقاً، ومخلصاً، وواثقاً من أن ذلك هو الطريق لنهضة الدعوة والدعاة، والذي لا طريق سواه، ثم يكون بعد ذلك الانفتاح على ثقافات العصر.

٤- كل ما مضى، يتصل بالتكوين العلمي، أو المعرفي والثقافي للدعاة ويحدد جوانب النقص فيه.

* * *

من بحوث مؤتمر الدعوة

مشكلات الدعوة والدعاة في العصر الحديث وكيفية التغلب عليها (٢)

العدد (١٥٩) ربيع الأول (١٣٨٩هـ) - فبراير (١٩٧٨م).

تناولنا في كلمة سابقة، كل ما يتصل بالتكوين العلمي، أو المعرفي، والثقافي للدعاة وتحديد جوانب النقص فيه.

وبقي جانب هو أخطر الجوانب كلها في نظرنا، لأن نقصه يذهب بكل النتائج التي نرجيها من وراء تصحيح المسار في التكوين العلمي النظري لمن يوكل إليهم أمر الدعوة ومهامها.

إن فلسفة إعداد الدعاة، تبدو لنا ناقصة نقصاً خطيراً، ذلك أنها تُعنى بالجانب التعليمي التلقيني، أو بالجانب النظري من الإعداد، بينما هي تهمل إهمالاً شبه كامل، الجانب التربوي الذي هو الوجه المكمل للوجه النظري.

إن العلم وحده لا يكفي لتكوين داعية، والمعرفة وحدها لا تصنع داعية كذلك، لقد قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» (رواه ابن عدي عن عمر).

إن العلم إذا لم يستند إلى خُلُق يحميه من نزوات النفس، وطغيان الشهوات ويصونه عن الدنايا وسفاسف الأمور، يصبح كارثة حين يوجه لغايات آثمة، أو يستغل في مآرب خبيثة.

إن تنمية الإحساس بأن «الداعية» «صاحب رسالة»: رسالة هي امتداد لوظيفة النبوة. . ، ومسؤوليتها- لذلك- مسؤولية ضخمة، والتبعة فيها على قدر سموها وجلالها.

تنمية الإحساس بهذه المعاني شرط أوليّ، يجب أن تحرص على التمكين له فلسفة إعداد «الدعاة» ولا تغفل عنه في خطوة من خطوات هذا الإعداد.

يجب أن يختار «الدعاة» اختياراً مدققاً، بحيث تتوافر فيهم مقومات، إذا تخلفت كانت البداية خاطئة وغير موصلة إلى الغاية المرجوة.

إن المستوى العقلي الجيد، والذكاء بدرجة واضحة ضروري هنا، ومن المقرر: أن الفطانة من صفات الأنبياء عليهم السلام. فلنتعلم جيداً من قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

والمستوى الخلقي الممتاز ضرورة فوق كل الضرورات، فالدعوة أمانة لا رقيب على صاحبها سوى ربه وضميره، ومن المقرر كذلك: أن الأمانة من صفات الأنبياء صلوات الله عليهم.

والالتزام الديني بالإسلام، فكرا وسلوكاً، في كل صغيرة وكبيرة، مما يجب تمكينه تمكيناً متأصلاً في أنفس الدعاة. ومن الخطورة أن نقدم للناس دعاة يقولون ما لا يفعلون، أو يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، أو ينهون عن المنكر ولا يتناهون هم عن فعله.

إن الداعية قدوة، وشرط القدوة تطابق القول والعمل بعد استقامتهما على نهج صحيح.

تربية الداعية دينياً، وتدريبه على تطبيق الإسلام في حياته عملياً وتزكية نفسه بما يجعلها متأبية على الدنايا، وأخذه أخذا بما يحصنه ضد فتنة المال، وإغراءات الحياة ثم الترقي به ليعيش في مستوى «التجرد» لرسالته، مطمئنا ومستعداً للتضحية في سبيلها بكل ما يستطيع. . هذه التربية ضرورية، ولازمة، وبدونها لا يكون هناك معنى للحديث عن دعوة ودعاة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام: ١٦٢) هذا ما ينبغي أن يكون شعار الدعاة.

هذا الجانب التربوي من الإعداد، غائب تماماً الآن في بيئات إعداد الدعاة.

وكيف تنتظر «داعية حقيقياً ألف أن تمر عليه مواقيت الصلاة وهو في قاعات الدرس مثلاً مع أساتذته العلماء دون أن يكون من حوله ما يوحي بأن هناك التزاماً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣) ويكفينا هذا المثال.

هذه التربية العملية للدعاة على قيم الإسلام ومثله، وعلى شرائعه وشعائره، وعلى مفاهيمه وعقيدته، لا يغني فيها التلقين ولا المعرفة النظرية، بل لابد لاستكمال هذا الجانب الخطير من تغير جذري يمس فلسفة الإعداد. ويعدل من المناهج والأساليب، ولن يتم ذلك إلا بأن يتم الإعداد والدراسة والتربية، من خلال حياة متكاملة، يتخلق كل العاملين في إطارها بخلق القرآن، ويلتزمون التزاماً كاملاً، بتطبيق الإسلام شعائر وآداباً وقيماً وضوابط للسلوك، بحيث يترجم ما يدرسه الطالب نظرياً إلى حياة وممارسة.

هل تصلح معاهد إعداد الدعاة الحالية لهذا اللون من التربية؟

بالقطع هي لا تفي بهذا، ولم تصمم مبانيها ولا مناهجها ولا فلسفاتها على هذا الأساس.

وهنا نقترح:

إنشاء كلية: «الدعوة الإسلامية» بتمويل إسلامي عام، ويختار لها الدارسون اختياراً دقيقاً، من كل أنحاء العالم الإسلامي، من خلال نظام محكم للقبول لا يمر منه إلا من تتوافر فيه مقومات خاصة، تؤهله لأن يكون «داعية» بمفهوم الداعية الصحيح.

هذه الكلية يجب أن تختلف كلية عن المألوف في النظم الجامعية أو المدرسية العادية. فالدراسة والتربية فيها متكاملتان، وتبدآن من سن باكرة «١٢ سنة مثلاً».

والمراحل فيها مترابطة تسلم كل منها إلى ما يليها. والحياة فيها تصمم بحيث تتيح لأصحابها معايشة الإسلام، معايشة حية تحوله إلى نسيج نفسي وعقلي، داخل الدارسين، وإلى ظواهر صادقة في سلوكهم.

ونظم التقويم فيها، يجب أن تشمل الجانبين: العلمي والتربوي، أو المعرفي والسلوكي.

وهيئة التدريس وجهاز التربية فيها، يجب أن يكون كله من رجال لهم- إلى جانب علمهم وخبرتهم- اهتمام بالدعوة إلى الله، بدرجة تجعل منهم مجاهدين محتسبين، وليس مجرد موظفين يتقاضون أجوراً يتنافسون عليها.

أما المناهج: فيجب أن يتوافر فيها ما يغطي جوانب النقص التي فصلناها هنا وفي مقدمتها:

١- ثغرة الضعف في التكوين اللغوي.

٢- ثغرة الانفصام عن المصدر الأصلي للإسلام ممثلاً في الكتاب والسنة.

٣- ثغرة الانغلاق وعدم الاقتحام لثقافات العصر وتحديد مواقفنا منها.

وليس ثمة ما يمنع أن يكون في خطة الدراسة مجال واسع لتدريب عملي على البحث العلمي من ناحية، وعلى ممارسة فنون الدعوة العملية: من خطابة ومحاضرة، ودرس، وحوار، ومناظرة، وإذاعة... الخ.

٤- إن تركيز جهود الإعداد في «كلية إسلامية» كبرى يمكن تطويرها لتصبح جامعة للدعوة خير بكثير من تفتت الجهود في وحدات صغيرة الإمكانات، عاجزة عن تطبيق مثل هذه الفلسفة.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى ضرورة العناية بتدريس اللغات الأساسية المنتشرة في بلاد العالم الإسلامي، غير الناطقة بالعربية، وبلغات العالم المعاصر الحية والواسعة الانتشار.

٥) بقي جانب مهم لا ينال - في واقعنا - ما يستحق من عناية في مناهج إعداد الدعاة ونعني به الجانب الفني العملي للدعوة في مجال الممارسة والتطبيق.

إن «الدعوة» حين يمارسها الداعية خطابة، ووعظاً، وفتيا، ودرساً، ومحاضرة، وحديثاً إذاعياً، وحواراً، ومناظرة، وهجوماً، ودفاعاً.. هي في كل ذلك ذات وجه فني يتمثل في أساليبها وطرقها!

وإذا كان الفن في ذاته استعداداً بالدرجة الأولى، فإن ذلك لا يغني عن دراسة الأصول العامة التي تكشف عن حقائقه، وتصقل مواهبه، وتعين على الإبداع والتطوير الناجح خلال الممارسة.

وإذا كانت مناهج الدراسة تزود الداعية بالمضمون الفكري الذي يستمد منه، وإذا كانت التربية المتكاملة التي اقترحناها، تكون شخصيته تكويناً متوازناً يؤهله لرسالته، فإن استكمال هذا الجانب الفني المتصل بالأساليب والأدوات لابد منه!

الخطابة - مثلاً - فن، أساسه استعداد فطري لاشك، لكن فهم الخطيب لطبيعة موقف الخطابة، وتكيفه بظروف الحاضرين، وأنها لون من السياسة النفسية للجماهير، وتصلح لتناول موضوعات دون غيرها، وتحتاج لاصطناع أسلوب غير ما يحتاج إليه في محاضرة مثلاً، إلى ما يكون للأداء الصوتي من تأثير، بتلوين نبرات الصوت، ودرجته، والوقفات والسكتات التي تتخللها، والسرعة والبطء، وطول الجمل وقصرها، وكونها مرسلة أو مسجوعة أو متوازنة.. وكيف يكون تفجير طاقات الناس واستنفارهم، أو استهواؤهم، وتهيئة قابليتهم لما يلقى إليهم، كل أولئك مما يفيد «الداعية» معرفته، ويزيد من بصيرته بفنه الذي يمارسه!.

إن القرآن الكريم، حافل بالمناهج، والأساليب، والطرائق التي يمكن الاستنباط منها والاستهداء بها، في كل موقف نوعي يقفه الداعية أو يتعرض له: خطابة، وحوارًا، وقصصاً، وموعظة، وتقريراً في تنوع يقدم لكل مقام ما يلائمه، ولكل موضوع ما يناسبه.

وفي سنة النبي ﷺ ومواقفه العملية ذخيرة ثمينة وثرية لو تناولها باحث بالدرس والاستقراء، واستنبط منها الأصول النفسية والاجتماعية والدينية التي تفسر نفاذ النبي ﷺ إلى قلوب الناس وعقولهم.. في سنة النبي هذه ما لو تناوله باحث حصيف لقدم لنا ما يمكن أن نسميه: علم نفس الدعوة، على غرار ما يعرف من علم النفس التعليمي أو التربوي! وبعمق أكثر فيما يتصل بطبيعة النفس، إذ كان منهج النبوة في دعوة الناس منهجاً ربانياً ألهمه إياه ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

وفي وصايا النبي ﷺ لمبعوثيه الذين أرسلهم معلمين هنا وهناك من أمثال معاذ ابن جبل، وفي إجاباته عن أسئلة محددة من أشخاص ذوي سمات خاصة مجال واسع لتأمل رشيد، يعود على صاحبه بما يفتح بصيرته على رؤيا ومدارك لم يكن يراها من قبل.

إن العصر الذي نعيشه ابتكر من وسائل الاتصال والتوصيل، ما لم تعرفه الدنيا

ولا سمعت به قبل قرن واحد. وكلها مما يتوسل به لتوصيل الكلمة نافذة مؤثرة بأقصى ما تحتمل من هذا التأثير.

و«الدعوة الإسلامية» - وأداتها الكلمة - لا بد لها من تفكير جاد في دراسة وسائلها التقليدية لتطورها من جهة، ولتكملها بما استحدثه العصر من وسائل تلائمها وتجعلها أكثر قدرة على النفاذ إلى القلوب والعقول.

إن نقاء أجهزة الدعوة الإسلامية في عالمنا مقيدة بهذه الحدود والوسائل الضيقة التي دفعت إلى مضايقها دفعاً خلال فترات متخلفة من تاريخ المسلمين، يجعلها متخلفة عن الوفاء بحاجة العصر. والمسلمون طوروا كل أساليب حياتهم تقريباً، واستحدثوا كل جديد رأوه نافعاً في مجالات الحياة، ومن واجبهم أن يعطوا «الدعوة» إلى الله جانباً من هذه العناية.

ثالثاً: مناخ الدعوة

وهو الميدان الثالث الذي تنبثق منه مشكلات كثيرة تتصل بالدعوة والدعاة بل لعله أخطر الميادين كلها على الدعوة سلباً وإيجاباً.

إن مناخ «الدعوة» حينما يكون ملائماً، يتيح لها من الحرية والانطلاق ما هو شرط ضروري لازدهارها وإيجابيتها، وحين يكون هذا المناخ غير موات بما يسوده من كبت وتقييد، تفقد الدعوة أول شرط لحياتها، وتصبح مختنقة محبوسة الأنفاس.

حينما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن: ١٨) فقد قرر حق الدعوة في حرية مطلقة لا قيود عليها، وأوجب على الدعاة ألا يذعنوا لأي نوع من أنواع الضغط أو التوجيه، الذي ينال من تجردهم للغاية التي جندوا أنفسهم لها.

وإذا كان من واجب حكام المسلمين أن يوفروا للدعوة هذه الحرية الكاملة، فمن واجب الدعاة كذلك ألا يسيئوا استخدام هذه الحرية بما يسيء إلى أممهم ودولهم، دون غاية من دين أو دنيا تبرر هذه الإساءة.

وإذا كان لابد هنا من ضابط لهذه الحرية، فهذا الضابط يتمثل في أمرين:

١- تجريد الغاية كلية لله، فلا هوى ولا غرض، ولا مرض ولا عرض من أعراض الدنيا.

٢- سمو الأسلوب، واستقامة المنهاج، بالالتزام بما أرسته الآية المباركة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

إن حرية الدعوة، يقابلها الالتزام بهذا الأدب الإلهي، الذي سنه الله تعالى لإمام الدعاة صلوات الله وسلامه عليه.

حرية الدعوة والتزامها على هذا النحو هي الصيغة الوحيدة، التي يمكن على أساسها حل المشكلة الأساسية، التي تعاني منها الدعوة الإسلامية في كثير من البلدان، وهي مشكلة كونها تابعة للحكومات والسلطات.

والمشكلة هنا ذات أبعاد يجب تأملها ليمكن تصورها على نحو صحيح.

ماذا تعني تبعية أجهزة الدعوة في بلد ما للحكومة المسؤولة فيه؟

تعني أولاً: أن ينسحب منطق الوظيفة على هذا الجهاز.. فالعاملون فيه موظفون تحدد عليهم واجبات، وتقرر لهم حقوق، ويخضعون لنظم من التوجيه والرقابة، تشبه إلى حد كبير ما يسود مجالات الحياة الأخرى، كما يتعرضون لنظم العقاب والثواب أسوة بغيرهم من موظفي الدولة هنا أو هناك...

هذا الإطار الوظيفي، إن صلح لأي مجال آخر في الحياة، فهو في مجال الدعوة غير صالح على الإطلاق، فالدعوة إنما تقوم أساسًا على الالتزام أمام الله، وليس على الإلزام من جانب السلطات كائنة ما كانت.

ونظام الرقابة في هذا المجال لا يمكن أن يأتي من خارج الإنسان، وإنما يجب أن يتولد من داخله خلال عملية الإعداد والتربية والتكوين.

إن ضمير الداعية يجب أن يكون الفيصل في مسألة الرقابة وما يتصل بها، وحاجة الدعاة إلى رقابة خارجية معناه: فشل إعدادهم وتربيتهم من ناحية، وعدم صلاحيتهم لمهمتهم من ناحية أخرى، وخير للدعوة - ألف مرة- أن ينحى عن مجالها كل من يحتاج لرقابة خارجية من بقائه في ساحتها.

وتعني ثانياً: إحساس جهاز الدعوة التابع بأن مصيره وقدره مرتبط بطاعته لأولي الأمر، وأن مخالفته إياهم- ولو كان فيها إرضاء لله- يعرض حياته وحياة من يعولهم لخطر يتصل بمصدر رزقهم.

هذا الإحساس يهدهد من شجاعة الدعاة في الجهر بكلمة الحق، وينمي -بالتدريج - روح الهوينى ويبرر الخمول والكسل، حتى ينتهي الأمر إلى أداء شكلي هزيل..

وتعني ثالثاً: أن يدخل «الدعاة» في معركة المطالبة بتحسين الأوضاع، فهم جزء من جهاز الدولة يتأثر بما حوله، ودخول الدعاة في هذا الجو مشغلة من جهة تصرفهم عن وجهتهم، وتبدد الكثير من طاقتهم، ومن جهة أخرى ينال من صورتهم- كمثل وقدوة- في أنظار الناس، وعلى هذه الصورة، يتوقف الكثير من استجابة الناس لهم، ورفضهم إياهم.

وتعني رابعاً: أن على جهاز الدعوة أن يختار أحد طريقين:

إما أن يساير ما يجري في مجتمعه ما دامت السلطة القائمة تقره، وإما أن يقول كلمة الحق معلنا أن السلطات خالفت حكم الله في هذا الذي أقرته، هذا الصراع النفسي داخل نفس الداعية موجود ومستمر طالما ظل هناك انفصال بين مواقف الحكام في التشريع والتطبيق وتنظيم الحياة، وبين توجيه الإسلام.

والحق أن هذه المشكلة من أعقد مشكلات الدعوة.

فتبعية الدعوة للحكومات تضمن لها وللقائمين عليها مورداً يصعب تدبيره عن طريق آخر ومعناه: أن قطع هذه التبعية يقتلها قتلاً!

واستمرار هذه التبعية، يعرض الدعوة في كثير من الأحيان، لضغوط تشل فاعليتها وتفرغها من مضمونها! والحل في نظرنا يمكن تحقيقه على النحو التالي:

١- توفير ضمانات كافية تؤمن «الدعاة» تأمينا كاملاً فيما يتصل بأرزاقهم، بمعنى أنهم لا يصادرون في أرزاقهم، مهما كانت المآخذ، أو حتى التهم التي توجه إليهم!

٢- أن تتولى محاسبة من يرى أنه ارتكب ما يوجب المحاسبة، هيئة علمية،

تحاكمه على أساس واضح من مقررات الإسلام، التي لا يجوز للداعية أن يذعن لغيرها، ولا يجوز لغيره أن يحاكمه إلا على أساسها.

٣- التفكير في نظام يكفل تمويل الدعوة، على مستوى العالم الإسلامي - كما اقترحنا في صدر البحث- وبحيث لا يكون هناك سلطان مباشر للحكومات على الدعاة.

هذه هي المجالات الثلاثة الكبرى، التي تتركز فيها مشكلات الدعوة والدعاة.

وبقيت أمور تمثل عقبات وتحديات تعترض طريقها وسوف نشير إلى أهمها فيما يلي:

أولاً: عقبات داخل مجال الدعوة نفسها

(١) ومن ذلك تعدد أجهزة الدعوة، كياناً، وتوجيهاً، وإشرافاً، وهو أمر له خطره المتمثل في تضارب الاتجاهات، وما يترتب على ذلك من شقاق، وبلبلة تهز ثقة الناس، وتجعلهم يتساءلون: ترى من المحق من كل هذه الطوائف؟ ولماذا يكون بعضها أولى بالحق من الآخرين.

(٢) ومن ذلك ترك ساحة الدعوة فوضى، يتجول فيها هواة، ومشعوذون، ودجالون، ومرتزقة كاذبون، ولعل ما يجري تحت اسم الطرق الصوفية في أنحاء العالم الإسلامي أسوأ ما يعترض طريق الدعوة الحقة!

(٣) ومن ذلك مناهضة أجهزة الإعلام والثقافة العامة، بوعي وبدونه، لأجهزة الدعوة، مناهضة تملك من الوسائل والطاقات، ما يكاد يذهب بأثر الأخيرة ذهاباً كلياً، ومن أخطر ما يجري في هذا القطاع التعريض بالدعوة ورجالها، والنيل من مكانتهم، ومحاولة التأثير على صورتهم عند الجماهير بما يضعف استجابتهم لهم.

(٤) ومن ذلك ميل كثير من العاملين في مجال الدعوة، إلى الهروب من الميدان، والاتجاه إلى مجالات أخرى، يرونها أكثر سخاء في العطاء الدنيوي، وهذا أكبر دليل على أن فكرة «الرسالة» والإحساس بها، لم تنشأ في نفوسهم، ولم يعن بتنميتها فيهم خلال مراحل الإعداد!..

ثانياً: تحديات من خارج المجال:

وفي مقدمة هذه التحديات، ما يتستر ويتخفى تحت شعار العلم، متخذا منه قناعاً من جهة، ومعبراً يعبر منه إلى عقول الشباب المعاصر من جهة أخرى!

من هذه التحديات:

(١) تلك النزعات والمذاهب والفلسفات المادية، التي تفد من الشرق ومن الغرب على السواء، والتي تلتقي على غاية واحدة، هي قلع جذور الدين والتدين من العقول والقلوب، وأصحاب هذه الاتجاهات يحاولون إضفاء صفة العلم عليها، لما للعلم اليوم من سلطان على العقلية المعاصرة، وخاصة في بلاد العالم الصناعي، حيث قدم العلم إنجازات جعلت تلك المجتمعات تقيم منه إلها تعبده، وتتعبد في محرابه.

إن فتنة العلم في عصرنا هي أخطر ما يجب مواجهته، وكشف ما ينطوي عليه من مغالطات وتجن على الحقيقة، وافتعال الادعاء بأن الدين عدو للعلم.

(٢) ومن فروع هذه الشجرة الآثمة، ذلك الاتجاه «العلماني» الذي يدعو إلى فصل الدين عن الدولة، وهو اتجاه قد يكون له ما يبرره في بلاد نبذت الدين كلية، أو فشلت في محاولة التوفيق بين نظرة العلم، ونظرة الدين الذي تدين به للحياة، لكن هذا إذا ساغ في أي مجتمع يستظل بأي دين، فإنه في مجتمع يستظل بالإسلام لا يزيد عن تقليد جاهل، أو محاولة مغرضة، تريد حرمان المجتمع الإسلامي من أعظم مقوماته، ومن أعمق دوافعه، ومن أقوى حصونه في الصمود والدفاع عن نفسه، في مواجهة أعدائه.

في مجتمع الإسلام، لا مكان لهذه المشكلة، بالمرة، فالدين الحق، والعلم الصحيح، أخوان، وفي تعاونهما معاً، ازدهار الحياة وتقدمها، والداعون للعلمانية في مجتمعات الإسلام هم - بحق- الرجعيون الذين ينطلقون من منطلقات جاهلة أو حاقدة.

(٣) ومن فروع هذه الشجرة الآثمة أيضاً، ما نراه من انفصام بين الجامعات والمراكز التي تتولى شؤون البحث العلمي، في بلاد إسلامية متعددة، وبين روح

الإسلام ونظرته للعلم والعلماء، وهي ثمرة مرة جاءت نتاجاً غير صالح لما كان من فصل متعمد بين التعليم الديني، والتعليم المدني، أرسى الاستعمار قواعده، ورسخ أصوله، وأخذت ثغرة هائلة في بنية المجتمع الإسلامي المعاصر، يجسدها هذا الانفصام، بين مراكز التوجيه والقيادة الفكرية فيه، وبين الإسلام على درجات متفاوتة.

(٤) ومن التحديات التي تواجه الأديان بوجه عام، ما يبدو من ميل عام كذلك إلى التحلل من الدين، والتخفف من تبعات التدين، وهي ظاهرة عامة في كل المجتمعات تعكس روح العصر، ومن الغريب أنها بدأت تنحسر في المجتمعات المتقدمة وظهرت فيها نزعات تطالب بالعودة إلى الدين، هذا بينما في المجتمعات النامية، ما زالت تأخذ صورة المد، ولا تنحسر بعد.

(٥) وهناك تحد خطير، لأنه يمثل خميرة الشيطان في مجتمعات المسلمين، لقد تمكن الملاحدة من الماركسيين وغيرهم في كثير من بلاد العالم الإسلامي، من أن يكون لهم وجود منظم ومعترف به، في شكل أحزاب، أو تجمعات تمارس نشاطها علانية أو تحت الأرض.

هذه التجمعات الإلحادية، تركز نشاطها على الشباب، وتستثمر الظروف الصعبة، التي تعانيها بعض تلك المجتمعات، لحساب مبادئها الهدامة، وأغراضها المشبوهة وقد مكنها ما أضفى عليها من شرعية في بعض تلك البلدان من أن تستعلن، وتفصح عن مبادئها، وتدعو إليها جهاراً نهارا.

وبعد فلعلنا نكون - بهذا البحث الموجز - قد ألقينا ضوءاً كافياً على ما يعترض الدعوة الإسلامية من مشكلات، وما يعترض «الدعاة» من عقبات، حرصنا على أن نضعها في أطرها العامة، ليسهل التعرف عليها، والنفاذ إلى جذورها وأسبابها، بما يهيئ السبل الصحيحة لعلاجها والخلاص منها.

إننا لو استطعنا تحقيق وتطبيق معطيات هذه الآيات الكريمة، في محيط الدعوة الإسلامية ومجالاتها، لكان لها من هذا التطبيق، ما يخلصها من مشكلاتها، ويمنحها قوة دافعة تسرع بها نحو غايتها.

لنرفع قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤) دليلاً هادياً في اختيار الدعاة.

ولنرفع قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن: ١٨) شعاراً لتجرد الدعوة والدعاة.

ولنرفع قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢) عهداً بالتضحية والفداء.

ولنرفع قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الشورى: ٢٣) تذكرة بالاحتساب.

ولنتخذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨) معياراً لما يجب أن يكون عليه الداعية تفقهاً في دين الله، ومعرفة بالطريق إليه.

ثم لنتخذ من قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) منهاجاً ودستوراً وأدباً يتخلق به الدعاة.

وأخيراً لنتخذ من قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ (الأنعام: ١٩) مناراً نطل منه على آفاق الدعوة التي يجب أن نبلغ بها إليها.

والله من وراء القصد موفق ومعين، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

* * *

٢٩ مقالات

الشيخ د. بدر المتولي عبدالباسط

- ترجمة الشيخ
- المقالات:

١- إلى الأبناء والأحفاد.

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) - يونيو (١٩٧١م).

٢- لماذا الهجرة دون سواها.

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣م) - فبراير (١٩٧٣م).

٣- معادلة صعبة.

العدد (١٢٨) شعبان (١٣٩٥هـ) - أغسطس (١٩٧٥م).

٤- خصومة مفتعلة.

العدد (١٣٢) ذو الحجة (١٣٩٥هـ) - ديسمبر (١٩٧٥م).

٥- التشريع بين التعقل والتعبد (١).

العدد (١٣٤) صفر (١٣٩٦هـ) - فبراير (١٩٧٦م).

٦- التشريع بين التعقل والتعبد (٢).

العدد (١٣٧) جمادى الأولى (١٣٩٦هـ) - مايو (١٩٧٦م).

٧- طفل الأنابيب.

العدد (٢٣٨) شوال (١٤٠٤هـ) - يوليو (١٩٨٤م).

ترجمة الشيخ

الدكتور بدر المتولي عبدالباسط

● **مولده ونشأته:**

هو فضيلة الشيخ الدكتور بدر المتولي عبدالباسط.

ولد بجمهورية مصر العربية، وأتم فيها دراسته الأولية ثم حصل على الشهادة الجامعية وأخذ العلم عن مجموعة من العلماء منهم:

شيخ الجامع الأزهر الإمام محمود شلتوت وفضيلة الشيخ مأمون الشناوي، والشيخ محمد متولي الشعراوي.

ثم أكمل تعليمه الجامعي فحصل على الدكتوراه في الفقه الحنفي عام ١٩٣٥م.

عُين عام ١٩٣١م مدرساً بالمعاهد الأزهرية حتى عام ١٩٤٨م، وعمل أستاذاً في كلية الحقوق والشريعة في بغداد، ثم وكيلاً لكلية الشريعة جامعة الأزهر عام ١٩٦٦م.

للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من الأعمال العلمية والمؤلفات والكتب منها: «رسالة في الوقف، رسالة الفقه المقارن والقياس، تيسير أصول الفقه، فقه العبادات»، وغيرها.

درّس الشيخ في العديد من الجامعات منها: جامعة الأزهر بمصر، وجامعة بغداد، وجامعة الكويت.

كما تولى الإمامة والخطابة والتدريس في الحلقات العلمية في الأزهر،

والعراق، والكويت.

تقلد الشيخ العديد من الوظائف الدينية منها:

- عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر (١٩٦٧)
- عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
- الأمين العام للموسوعة الفقهية بوزارة الأوقاف الكويتية وامتدت عضويته فيها ١٦ عاما (١٩٧٥- ١٩٩١)،
- المستشار الشرعي لبيت التمويل الكويتي .
- العضوية في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، والرئاسة العامة لهيئة الفتوى.

وقد نال الشيخ مكافأة الملك فؤاد الأول في شهادة العالمية ونال وسام الفنون والأدب من الدرجة الأولى في الذكرى الألفية للأزهر، ونال وسام وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت.

وللشيخ نشاط علمي بارز في مجال التدريس والمحاضرات والخطابة والإفتاء والكتابة والتأليف، وشارك في الكثير من اللجان الشرعية التخصصية والمؤتمرات العلمية.

● **وفاته**

توفي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في سنة: (١٤٢٤هـ)، الموافق: (٢٠٠٣م) رحمه الله رحمة واسعة.

توجيهات للشباب

إلى الأبناء والأحفاد

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) - يونيو (١٩٧١م).

يوجه فضيلة الشيخ بدر المتولي عبد الباسط أستاذ الشريعة بجامعة الكويت هذا النداء فيقول:

أنتم الرجاء والأمل، وأنتم الغد والمستقبل، والرجاء والأمل إن بقيا رجاء وأملاً كانا خيالاً، والغد والمستقبل إن لم تعدوا له عدته، ولم تأخذوا له أهبته كان- والعياذ بالله- وبالا، فاجعلوا من الأمل حقيقة، وأعدوا أنفسكم لغد مشرق وتسلحوا بالقوة، القوة في كل شيء، القوة في العقيدة والقوة في الأخلاق والقوة بالعلم، والقوة في البدن، فإن قوة العقيدة تذلل لكم كل صعب، وتيسر لكم كل عسير، وتعطيكم طاقة من الاحتمال تصنع العجائب، وخذوا عقيدتكم من هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تستجلبوا عقائد من الشرق أو الغرب فإنه لم يأت عن هؤلاء أو أولئك - من العقائد - إلا كل ما يبلبل الأفكار، ويحطم النفوس، وقارنوا بين الشاب المؤمن حينما تنزل به شدة، وبين أخيه المتشكك المتردد لتعلموا أي الفريقين أحسن حالاً وأثبت - عند الشدائد - جناناً.

وأما قوة الأخلاق فهي عماد الأمم وعزة الشعوب.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ودينكم - والحمد لله - جاء بجماع الفضائل ومحاسن الأخلاق، فليس - هناك - خلق كريم إلا دعا إليه ولا خصلة ذميمة إلا نهى عنها وحاربها.

وأما قوة العلم فهي - في عصرنا هذا - ميدان التسابق بين الأمم، فخذوا من

العلم أنصعه، ولا يكن حظكم من العلم التحصيل فحسب بل التطبيق لمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وإن الخطر كل الخطر تلك الأمية الضاربة أطنابها في الوطن العربي والإسلامي، وإنه لمن المؤسف - حقاً - أن تلك الشعوب التي بدأت تسلك سبيل العلم لا تعنى بالثقافة الدنية قدر عنايتها بأي علم أو فن، وأن حظ علوم الدين - في كثير من مدارسنا ومعاهدنا - أقل من حظ كثير من العلوم والفنون الترفيهية ولا بد أن يتمشى تيار الثقافة الإسلامية - في الوطن الإسلامي كله- مع تيار العلوم الكونية لتكون علوم الدنيا عدة للقوة، وعلوم الشريعة سياجاً من الانحراف.

ولا تأخذوا دينكم عن مضلل أو مخرف، ولكن خذوه من الخبير الثقة غير المتهم في علمه وخلقه.

وأما قوة البدن فالسبيل إليها الابتعاد عن أسباب الأمراض بما في ذلك تعاطي ما يضر الأجسام، ويورث العلل، ولتستمتعوا في أوقات فراغكم- بالرياضة البدنية النافعة التي تكسبكم نشاطاً وقوة. والرياضة وسيلة لا غاية، فليكن حظها من العناية حظ الوسائل لا الغايات، وهي للأبدان كالملح، فلا تجعلوا الملح طعاماً والطعام ملحاً.

هذه كلمة أب جرب الحياة وجربته الحياة يقدمها لأبنائه ليوفر عليهم مؤونة التجربة، وليأخذوا من الحياة حيث انتهينا لتكون الحياة - دائماً - في تقدم وتطور، ولكنه تقدم وتطور إلى الخير لا إلى التخبط والتقليد الأعمى.

والله أسأل أن يكون غدكم خيراً من أمسكم وما يستقبلكم خيراً مما فاتكم.

* * *

لماذا الهجرة دون سواها

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣هـ) - فبراير (١٩٧٣م).

عندما استقر رأي عمر ﷺ على إنجاز تاريخ للأمة لابد أنه- وأهل الشورى- استعرضوا الأحداث الجسام في تاريخ الإسلام ونبي الإسلام ليتخذوا من أعظمها قدراً وأبعدها أثراً مبدأ للتاريخ الإسلامي.

وها نحن معهم نستعرض هذه الأحداث الجسام لنعرف المغزى الصحيح لاختيار الهجرة دون سواها: ميلاد الرسول الأكرم، بدء الوحي، عام الحزن، الهجرة، غزوة بدر الكبرى غزوة الفتح، حجة الوداع، وفاة الرسول ﷺ.

هذه أحداث جسام كل منها يصلح أن يكون مبدأ لتاريخ الأمة ولكن المغزى الذي توحي به الهجرة أعظم وأجل من المغزى الذي يوحي به أي حدث من هذه الأحداث. ولنستعرضها حدثاً حدثاً.

● مولد الرسول الأكرم

لا شك أنه حدث له خطره، فكل ما جاء بعده أثر منه ولو أن عمر اختار مولد الرسول ﷺ ما كان مخطئاً، وله في اختيار المسيحيين مولد المسيح عليه السلام، مبدأ للتاريخ المسيحي سابقة يعتمد عليها فإنه لا بأس أن نأخذ عن غيرنا في المسائل التنظيمية ما يوافق المصلحة ولا يعارض الشريعة نصاً أو روحاً، ولكن مولد الرسول الأكرم حدث إلهي لا يد للبشر فيه ولا يوحي بهدف يرمى إليه، نعم هو ذكرى تثير فينا الشجون لكن هل نستطيع أن نكرر هذا الحدث الفريد، لا إنه حدث لا يتكرر في أية صورة من الصور.

● بدء الوحي

هو كذلك حدث إلهي كان بدءاً لكل الأحداث بعده، وهو في الحقيقة بدء

تاريخ الإسلام كدين لأمة محمد ﷺ [١] ولكنه كالميلاد حدث لا يتكرر، وليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثله فالنبوة ليست مكتسبة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام: ١٢٤) والنبوات ختمت بمحمد ﷺ، فجعل مبدأ الوحي مبدأ للتاريخ ليس إلا تسجيلا لحدث له خطره، ولكنه لا يثير فينا عزيمة على تحقيق غرض.

● **عام الحزن**

أما عام الحزن وهو العام الذي ماتت فيه السيدة خديجة الكبرى أم المؤمنين، كما مات فيه أبو طالب عم النبي ﷺ وحاضنه وكافله فهو - وإن أرخ به في وقت ما - فإنه أبعد الأحداث عن أن يتخذ كمبدأ للتاريخ الإسلامي الذي يحارب الاستسلام للأحزان أو إثارتها بعد خمودها، ومثل هذا يقال عن وفاة الرسول ﷺ، فإنه لا تذكر حتى تثير الشجون والأحزان فكل مصيبة بعد مصيبتنا في رسول الله هينة، ولكنها سنة الله في خلقه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾(الزمر: ٣٠).

ولو أرخ بهذا الحدث لكان لنا في كل عام مناحة، والرسول نفسه نهى عن العزاء بعد ثلاث، كما نهى عن الجلوس لتلقي العزاء واعتبر ذلك من النياحة المنهي عنها.

● **غزوة بدر والفتح**

أما غزوة بدر وغزوة الفتح فمع أنهما من الأحداث الجسام التي توحي بالشجاعة والتضحية والإقدام فإنهما ثمرة من ثمرات الهجرة كما سأوضح فيما بعد.

● **حجة الوداع**

أما حجة الوداع وفيها أكمل الله دينه وأتم نعمته وهي خليقة أن تكون حدثا

---

(١) أما الإسلام كدين سماوي فقد كان دين الأنبياء جميعهم فنوح عليه السلام أخبر الله عنه أنه قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (يونس: ٧٢)، وإبراهيم أبو الأنبياء حدث عنه أنه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ (آل عمران: ٦٧)، وقد ورد مثل ذلك عن غيرهما من المرسلين.

تؤرخ به الأحداث بعده، ولكنه مع هذا ربما أثار الأحزان لأن الله تعالى نعى فيها محمداً ﷺ إلى نفسه حينما نزل عليه قوله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وقد فهم ذلك الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فبكى واستعبر فقد جرت سنة الله تعالى أنه إذا تم شيء بدأ نقصه، ومهمة الرسول تمت يومئذ، فكان هذا إيذاناً برحيله عن هذه الدنيا.

● **الهجرة دون سواها**

هذا الحدث دون سواه فيه من المعاني ما ليس في غيره فالهجرة دون سواها كانت مبدأ لدولة الإسلام، نعم كان هناك إسلام قبل الهجرة ولكن بلا دولة، والهجرة دون سواها كانت فاصلاً بين عهدين- عهد الصبر الذي لا يستطاع معه دفع الأذى والبغي والعدوان، وعهد الصبر الذي يستطاع معه الانتصار ورد العدوان.

والهجرة دون سواها توحي بإيثار الغربة مع العزة على الإقامة مع الضيم مهما كان الوطن حبيباً إلى النفس حبيباً إلى الله، فليس هناك بلد أكرم على الله من مكة، ولكن الرسول الأكرم آثر الهجرة منها وهي ما هي! لتكون درساً لنا أن نضرب في الأرض طلباً للعزة والكرامة، والهجرة دون سواها هي الباب الذي ما زال مفتوحاً ولن يزال كذلك إلى يوم القيامة ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ (النساء: ١٠٠) فترك المألوف من الأهل والوطن والرحلة إلى المجهول في سبيل الخير والعزة - وهو سبيل الله - هجرة يستحق معها ما وعده الله للمهاجرين بهذه الآية.

وإذا كان لا هجرة بعد الفتح كما وردت في بعض الأحاديث، فالمراد استحقاق صفة المهاجرين الأولين مع الرسول الأمين وما يترتب على ذلك من أحكام كالعودة إلى مكة بقصد الإقامة فيها وتساويهم في الرتبة مع مسلمة الفتح وإن هاجروا بعد الإسلام ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ

دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ١٠).

* * *

وبعد فالهجرة درس في التضحية والإيثار والمحبة والصبر الجميل العزيز، ثم هي ثمرة الأحداث التي سبقتها وأصل للأحداث التي تلتها فلا غرو أن اختارها الفاروق مبدأ للتاريخ الإسلامي دون سواها، فلنجعل من الهجرة درساً وعبرة ولا يكن حظنا إقامة حفل أو إلقاء خطبة فقد سئم المسلمون من كثرة الكلام وثرثرة الخطباء، وهم الآن أحوج إلى القدوة الصالحة أكثر من حاجتهم إلى مقال منمق أو خطبة مرنمة.

والله المسؤول أن يهب لنا قلوباً واعيه، وعزائم قوية، وصدقاً في القول وإخلاصاً في العمل بمنه وكرمه.

معادلة صعبة

العدد (١٢٨) شعبان (١٣٩٥هـ) - أغسطس (١٩٧٥م).

كم في الحياة من معادلات يظنها الناس صعبة الحل ولو عرفوا قانون حلها لتغير رأيهم ولكن الكثيرين يعزفون عن معرفة هذا القانون، بل منهم من يعرف القانون ويأبى أن يطبقه إما بحكم ما ألف من قوانين وإما خوفاً على رزق أو جاه.

وهذه المعادلات كثيرة في حياتنا في الحساب والجبر وفي تشريعاتنا وفي حياتنا الاجتماعية.

والمعادلة التي أعنيها- هي- المقارنة بين تشريع الله- تعالى- المنزه عن الأهواء والأغراض وبين التشريعات الوضعية المستجلبة من هنا ومن هناك، هي معادلة واضحة الفساد، فشتان بين تشريع العليم الخبير الذي لا يحابي أحداً ولا يخشى أحداً وبين تشريع- مهما أحسنا الظن في واضعه- فهو لا يسلم من هوى أو خوف أو رغبة أو رهبة.

ووجه الصعوبة في هذه المعادلة أن دعاة الأخذ بالتشريع الإلهي ودعاة الاعتماد على التشريع الوضعي على طرفي نقيض، كل منهما يتهم الآخر بأشنع التهم.

فدعاة الأخذ بالتشريع الإلهي يتهمون الآخرين بالمروق والإلحاد وبأنهم أتباع الأجانب من الشرق أو الغرب في أفكارهم.

ودعاة الاعتماد على التشريع الوضعي يتهمون الآخرين بالجمود وبأنهم يريدون أن يبسطوا سلطانهم ونفوذهم على الأمة باسم الدين وأن يقيموا من أنفسهم أوصياء على الشعوب، وأن يمنعوا مسيرتها نحو الرقي والمدنية، إلى غير ذلك من التهم التي تكال من هؤلاء وأولئك.

ومن أعجب العجب أن الجميع يتفقون على مبدأ واحد، هو أن الأصل في التشريع أيا كان مصدره أن يراعى فيه جلب المصلحة ودفع المفسدة، ولو أنصف القائمون بالأمر في تطبيق هذه القاعدة ما كان هناك معادلة صعبة أو شبه صعبة، فإن الأمر أهون مما يظنوه.

ومما ييسر على المجتمع التمييز بين المنافع الحقة والمنافع المتوهمة وبين المفاسد الراجحة والمفاسد المرجوحة أن تراعى هذه المبادئ.

أولاً: أنه قد جرت سنة الله - تعالى- أن يختلط الخير بالشر في هذه الدنيا.. فالخير المحض والشر المحض إن لم يكونا مستحيلين في هذه الحياة فلا أقل من أن يكونا نادرين ندرة تصل إلى الاستحالة وإن طبيعة الإنسان أنه إن أحب أمراً لا يرى إلا جانب الحسن فيه، وإن كرهه لا يرى إلا جانب الشر فيه.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

والإنسان في كل عصر وفي كل مجتمع هو الإنسان والتقدم الحضاري المادي لم يستطع أن يحد من طبيعة الإنسان أو يهذب من غريزته، فهاهي أمم بلغت من هذه الحضارة الذروة قد أباحت الشذوذ الجنسي والإجهاض لغير حاجة إليه في إنقاذ حياة الأم وأباحت نظام الحليلة بينما حرمت تعدد الزوجات إلى غير ذلك مما يصعب عده من المفارقات العجيبة مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الاعتماد على مقاييسنا خطأ أي خطأ فإن العقل البشري قادر على أن يلتمس المسوغات لكل ما يتفق مع أهوائنا.

إذا عرف هذا فإن السلامة أن يكون ميزان المقارنة بين المنفعة والمفسدة هو ما شرعه الله تعالى المنزه عن الأهواء والأغراض فهناك منافع اعتبرها الشارع الحكيم وأجرى عليها أحكامه وألغى ما قد تضمنه من مفاسده المرجوحة كتشريع الزكاة والحج والصوم والزواج بشروطه والقصاص والحدود.

وهناك منافع ألغاها الشارع ولم يقم وزناً لما قد تضمنه من منافع كتحريم الخمر والميسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩).

وكتحريم الربا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٣٩).

وهناك مصالح سكت عنها الشارع فلم يعتبرها ولم يلغها وذلك كتنظيم الدواوين ووضع قواعد للمرور، ووضع معايير لمن يتولى وظيفة أو عملاً عاماً أو خاصاً.

فأما النوع الأول من المصالح فلنا أن نعتمد عليه بل يجب علينا أن نراعيه في تشريعاتنا.

وأما النوع الثاني فلا يجوز أن نقيم عليه نظاماً ولا أن يكون له حظ من تشريعاتنا اللهم إلا أن نؤكد خطره، ومهما لاح لنا من بريق منافعه فلا يخدعنا هذا البريق فإن ضرره أكثر من نفعه والله أعلم بمصالح عباده من أنفسهم.

وأما النوع الثالث فهو في مجال الاختيار على أن يكون الاختيار من أهل الاختصاص في كل شأن من شؤون الحياة، وأن نحمي هؤلاء من عوامل الرغبة والرهبة قدر الاستطاعة، فإذا ظهر خطأ في التطبيق بادرنا إلى الإصلاح من غير تردد فإن مثل هذه التشريعات ليست تنزيلاً من التنزيل.

ثانياً: أن يعلم الجميع أن الإسلام لا يعرف فكرة رجل الدين الذي يملك حق التشريع فيقول هذا حلال وهذا حرام: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (النحل: ١١٦).

بل الإسلام يعرف مبدأ الاختصاص في كل شيء: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

وشتان بين رجل الدين وعالم الدين.

فرجل الدين- عند من يقول به- يملك سلطة التشريع فإن قال هذا حلال كان حلالاً وإن قال حرام كان حراماً، ورجال الدين- في نظر هؤلاء- أرباب أو شبه أرباب ولا يملك أحد التعقيب على آرائهم.

أما عالم الدين- في نظر الإسلام- فهو متخصص في معرفة الحلال من الحرام

من أدلة الشرع.

ولكل مسلم أن يناقشه الحساب مهما كان مركزه على شريطة أن يكون الحساب بين هؤلاء وأولئك معتمداً على أدلة الشرع لا تحكيماً للأهواء.

ثالثاً: أن يتسع صدرنا للخلافات المبنية على أدلة شرعية معتبرة فاختلاف أنظار العلماء في الأدلة الشرعية الظنية رحمة بهذه الأمة.

هذه حلول للمعادلة الصعبة بين علماء الشريعة ورجال القانون، والتي صورها البعض أو شاءوا أن يصوروها بالصعوبة بل بالاستحالة حتى رأينا البعض يصور المجتمع الذي يعيش في ظل تشريع إسلامي صحيح مجتمع متأخر يقطع الأيدي ويرجم الزناة الخاطئين ويجعل من الجلد وسيلة واحدة للتأديب.

كلا يا قوم: عودوا إلى تشريع ربكم فهو أولى بالاتباع من تشريعات مستوردة من الشرق أو الغرب.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

خصومة مفتعلة

العدد (١٣٢) ذو الحجة (١٣٩٥هـ) - ديسمبر (١٩٧٥م).

في مطلع هذا القرن أثير في وطننا العربي والإسلامي خصام بين الرجل والمرأة يشتد حينا ويهدأ حينا وهذا الخصام، إن صح أن يثار في غير الوطن الإسلامي فلا ينبغي أن يثار في ظل التشريع الإسلامي، فليس هناك تشريع حفظ للمرأة حقوقها، وراعى في كل أصوله وفروعه كرامتها مثل الإسلام. فالمرأة- أولاً- هي الأم، وهل هناك تكريم للأم أعظم من تكريم القرآن لها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (الأحقاف: ١٥)، وهذا نبي الإسلام يجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ويوصي من سأله عمن هو أحق ببره؟ بأن الأم هي الأحق بالبر ويكرر ذلك ثلاثاً ثم يجعل الأب في المرتبة الرابعة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك» (رواه الشيخان).

والمرأة - ثانياً- هي الأخت. وهي أقرب الأرحام إلى الرجل بعد والديه، والرحم قد اشتق الله لها اسماً من أسمائه فهو الرحمن وهي الرحم فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله.

ثم إنها - ثالثاً- الزوجة، والزوجية أقدس عقد عرفه الإسلام، وشدد فيه، ووضع له قيوداً وشروطاً لم يضعها في أي عقد مهما كان خطره، وجعل الله سبحانه ما بين الزوجين من ألفة وسكينة آيات على قدرته وبديع حكمته، ولم يعتبر

ذلك آية واحدة بل آيات متعددات. استمع إلى قول الله- تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١).

واستمع إلى تصوير الله تعالى لما بين الزوجين من صلة وثيقة:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

ورسول الإسلام ما زال يوصي بالمرأة في كل الأحايين في حجة الوداع، بل وهوﷺ في النزع الأخير.

والمرأة - أخيراً- هي البنت التي جاء الإسلام فأنقذها من الوأد وقبح تلك العادة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل: ٥٨- ٥٩)، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير: ٨- ٩).

هذه هي المرأة وتلك هي منزلتها من الرجل- في نظر الإسلام- في كل طور من أطوار حياتها، فكيف نتصور خصومة بين الرجل والمرأة.

اللهم إلا في نظر أولئك الذين يفتعلون الخصومات بين الأفراد والجماعات بل بين من لا نتصور الخصومة بينهما. ليفرقوا الأمة أحزاباً ويصوروا الأب والأخ والزوج ظالمين وطغاة مستبدين، ويبلبلوا الأفكار ويشيعوا التمرد في الأسرة التي هي اللبنة الأولى في بناء الأمة.

وإذا كان بعض الأفراد لا يرعون حق المرأة فليس ذلك قصوراً في التشريع الإسلامي الذي نعيش في ظله، وإنما هو تقصير في التربية الإسلامية التي أهملنا العناية بها منذ أمد ليس بالقصير.

نسمع أحياناً أصواتاً تردد أفكاراً أملاها الحقد على الإسلام وعجزت أن تسمعها للمسلمين فجندوا أسماء إسلامية لتكون أبواقاً لآرائهم، وخرجوا على الناس يلبسون مسوح الرحماء على المرأة، ويصورونها أنها في بلاد الإسلام أمة مسترقة وذليلة مستعبدة لا حول لها ولا قوة، ولا حقوق لها. لا في نفسها ولا في مالها ويتباكون بكاء التماسيح، لا هم لهم إلا أن يجعلوا من المرأة المسلمة

مخلوقة ساخطة على والديها وعلى زوجها بل على ربها الذي شرع لها ما يصون كرامتها، ويحفظ عرضها ويرفع قدرها ومكانتها، فإنها وعاء الولد وشرف الأسرة وشريكة الرجل في حياته يتقاسمان الحقوق والواجبات: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨). وليست الدرجة التي للرجال على النساء درجة الاستبداد والغطرسة، بل هي درجة القوامة والمسؤولية، إذ لا بد في كل مجتمع كبير أو صغير من مسؤولية أخيراً يرجع إليه وإلا عمت الفوضى في كل التصرفات.

ولمناسبة عام المرأة أثار بعض الحاقدين على الإسلام قضايا الإرث وتعدد الزوجات والطلاق ظنا منهم أن ذلك مما يضعف روح التدين عند المرأة المسلمة، ومتى ضعف الدين في قلب المرأة سهل إضعافه في نفس الرجل، أليست هي الأم والأخت والزوجة والبنت؟! وقد نجح هؤلاء الدعاة فاجتذبوا إلى صفهم بعض ربات الصالونات اللواتي لاحظ لهن في الحياة إلا الظهور في المجتمعات والندوات، وهؤلاء - والحمد لله- لا زلن في مجتمعنا قليلات نادرات إذ لا زال أكثر النسا في المجتمع الإسلامي قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله كما وصفهن الله تعالى بعد أن بين أن الرجال قوامون على النساء بقوله جل شأنه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ (النساء: ٣٤).

هذا: وسأعرض لبيان حكمة الله تعالى في تشريع الإرث وتعدد الزوجات وتشريع الطلاق- بصفة مجملة- حتى تطمئن النفوس إلى أن الخير كل الخير فيما شرع الله وأن الشر كل الشر فيما يدعو إليه أدعياء الحفاظ على حقوق المرأة.

الإرث: إذا كان الإسلام قد جعل للمرأة في أكثر صور الميراث نصف ما للرجال فإنه بجانب هذا أوجب على الرجل واجبات أعفى منها المرأة، فنفقتها- كزوجة- على الزوج مهما كانت موسرة ومهما كان معسراً ونفقة الأولاد على الأب وليس على الوالدة شيء إلا أن تتفضل وتتبرع.

وإن أوجبت الظروف عليها الإسهام في النفقة فتكون دينا على الرجل،

فالإسلام لم يجعل للرجل حق تقييد المرأة في تصرفاتها المالية كما هو الشأن في قوانين بعض الدول التي تعد في نظر هؤلاء الدعاة متقدمة ومتمدينة، ولا تنسوا أن المرأة- قبل الإسلام- لم يكن لها حق في الميراث، بل كانت تورث كالمتاع، فجاء الإسلام فأنصفها: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ (النساء: ٧). فليتأمل المنصف إلى تعقيب الحكم التشريعي: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

ولعل في هذا البيان المجمل غنية لمن أراد أن يعرف حكمة الله في تشريع الميراث.

أما تعدد الزوجات: - وقد كثر فيه الجدل وأثيرت حوله الشبهات - فإنا نقول لهؤلاء المشككين ولهؤلاء المتشككات: إن الله لم يفرض التعدد فرضا، ولم يطلقه إطلاقاً بل أباحه مقيداً بقيود، فإن الله الحكيم يعلم من عباده ما قد يجهلونه من أنفسهم وواقع الحياة يشهد لما نقول. فهذه الأمم التي حرمت تعدد الزوجات أباحت نظام الخليلات. فهل الأكرم للمرأة أن تكون نسبتها إلى الرجل كنسبة امرأة أخرى مساوية لها في الحقوق ولأبنائها من الحقوق ما لأبناء الأخرى..؟ أم ترضى أن تكون علاقتها به علاقة جسدية بحتة؟

ثم إن الشرائع السابقة كما تنطق كتب أصحابها التي بين أيدينا لم تضع قيوداً ولا حدوداً للتعدد كما في سفر الملوك من العهد القديم ولاسيما ما ذكر عن داود وسليمان عليهما السلام.

هناك دواع وملابسات تحمل على التعدد منها الإعفاف وطلب الولد ودوافع أخرى، ليس منها مجرد الإشباع والجري وراء الملذات.

أما الطلاق فقد جعله الإسلام أقبح الحلال، ولكن شرعه الله حينما تصبح الحياة الزوجية ضرباً من البلاء والشقاء بدلاً من أن تكون مودة ورحمة. ونظرة إلى البلاد التي كانت تحرم الطلاق ثم أباحته تجعلنا نحمد الله على أن جنبنا هذه المزالق.

وإذا كان بعض الناس يسيئون استعمال حقوقهم فليس ذلك نقصاً في التشريع

وإنما هو تقصير في التأديب والتهذيب.

إن الإسلام لم يفرق بين الرجل والمرأة في التشريع إلا بقدر ما يحفظ للمرأة كرامتها، ويجنبها أطماع الطامعين فلا يرضى لها أن تتبذل ولا تستغل كدعاية للسلع، ولا يرضى لها أن تكون أمينة سر لرجل أجنبي (سكرتيرة) ولا أن تكون عارضة أزياء إلى غير ذلك مما يجعلها سلعة تستغل للإثراء، ولكن يرضى أن تتعلم من العلوم ما ينفعها وينفع أسرتها وأمتها فلتكن معلمة لبنات جنسها وطبيبة، ولتتول من الأعمال ما يتفق مع طبيعتها على أن لا تنسى أنها الأم والأخت والزوجة والبنت، وأنها العرض والشرف ولا تلقي بالاً لهؤلاء المتباكين على حقوقها، فإنهم لا يهدفون إلا إلى إبعادها عن دينها وعن المنهج الذي رسمه الله لها: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٦- ٢٨).

وبعد فليس هناك خصومة بين الرجل والمرأة في ظل الإسلام وإنما هي خصومات مفتعلة يراد أن يشغل بها الناس عما يجب أن يشغلوا به أنفسهم من بناء الأسرة الإسلامية على أسس متينة من التوجيه الإلهي.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * * *

التشريع بين التعقل والتعبد (١)

العدد (١٣٤) صفر (١٣٩٦هـ) - فبراير (١٩٧٦م).

الشريعة الإسلامية جاءت بثلاثة تشريعات أساسية:

أولاها تتصل بالعقائد.

وثانيها تتصل بالأخلاق.

وثالثها تتعلق بأعمال الجوارح.

العقيدة الإسلامية وهي شريعة الله التي أرسل بها المرسلين وأنزل بها الكتب ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (النساء: ١٦٣) ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى في كثير منها تقرير عالمية الشريعة الإسلامية في أصولها. وأن الدين عند الله الإسلام، سواء كان ذلك قبل محمد ﷺ أم بعده، فالمرسلون قبله ﷺ يقررون أنهم مسلمون فنوح عليه السلام يقرر أنه من المسلمين فيقول لقومه ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾(يونس: ٧٢)، وإبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء يدعو ربه هو وابنه إسماعيل- عليهما السلام- وهما يبنيان الكعبة ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٨).

وأخبر الله عنه في أنه حنيف «مائل عن الشرك» مسلم ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران: ٦٧)، وكذلك

موسى عليه السلام يقول لقومه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤) وعيسى ابن مريم عليهما السلام حينما أحس من قومه الكفر قال ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢).

ومن هنا يتضح بما لا مجال فيه للشك عالمية الإسلام قديما وحديثاً إذ لا يعني الإسلام إلا أن يسلم المرء قلبه لله فلا عبودية لغيره ولا ربانية لسواه ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (لقمان: ٢٢).

والقدر المشترك بين الشرائع السماوية هو وحدة العقيدة فيما يتصل منها بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإذا كان قد وجد خلاف بين الشرائع التي تنتسب إلى السماء فذلك من تحريف القائمين على تلك الشرائع فحرفوا الكلام عن مواضعه واحتكروا سلطة الحديث عن الله وتفسير كتبه، وحرموا على الشعوب النظر فيما أنزل الله من كتاب وما شرع من شرائع، واعتبروا ذلك جريمة تستحق العقوبة في الدنيا والآخرة، وويل للدين إذا احتكره قوم وتاجروا به، وجعلوه وسيلة للتسلط والاستعلاء، ولذلك حارب الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ فكرة الاحتكار العلمي بكل ضروبه وأشكاله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ (البقرة: ١٥٩- ١٦٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ (البقرة: ١٧٤- ١٧٦).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (آل عمران: ١٨٧).

فالإسلام لا يعرف فكرة رجل الدين الذي يحتكر علوم الدين ويملك التحليل والتحريم ولكنه يعرف فكرة عالم الدين الذي يرجع إليه لمعرفة حكم الله فيما اشتبه على الناس من أمور دينهم، والحجة في قوله بما يستبدل به من دليل معتبر شرعاً، ولا يملك أن يلزم الناس برأيه إلا بحجة قاطعة من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع معتبر مسلم.

والعقيدة تدور حول أمور الإيمان بالله ورسله وكتبه والإيمان بالغيب، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة والجن وما بعد الموت واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وميزان وحساب إلى غير ذلك مما سنعرض له - إن شاء الله تعالى- بشيء من التفصيل.

● **العقل والإيمان بالله تعالى**

لست أعلم - ولا أظن أن أحدا يعلم - أن دعوة قامت على منطق العقل السليم كدعوة القرآن الكريم إلى وجوب النظر العقلي في آفاق الكون للاستدلال على وجود الله - تعالى - واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ولست أعلم- ولا أظن أن أحداً يعلم- أن كتاباً سفه التقليد في العقيدة كما سفه القرآن الكريم تقليد الآباء والأجداد، ولو ذهبت أعدد الآي التي تشهد لما قلت لطال البحث وطال، وقد كتبت في ذلك رسائل، ولا زال المجال واسعاً للكاتبين والباحثين، ولكني سأعرض لنماذج فيها غنية لمن أراد أن يستغني، وإقناع لمن أراد الاقتناع. وإليكم بعض الآيات: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: ١٦٣- ١٦٤).

فأنت ترى أن القرآن الكريم لفت الأنظار إلى ما في السماوات والأرض من دلائل على وحدانية الله - تعالى- وألوهيته وعلى رحمته الواسعة الشاملة ورحمته الظاهرة والباطنة، وعقب ذلك بأن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا هؤلاء الذين يمعنون

النظر ولا يعطلون عقولهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة: ١٧٠).

أليس في هذه الآية- وغيرها في القرآن كثير- ما يدل على رفض فكرة التقليد الأعمى والانقياد لأفكار الغير حتى ولو كانوا آباء أو أجداداً.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران: ١٩٠).

وأنها غير صالحة للألوهية التي يجب أن لا يعتريها تغيير ولا تبديل ومن يقرأ قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام- مع أبيه وقومه وكيف ألزمهم بمنطق العقل السليم بفساد عقيدتهم في عبادة الكواكب في سورة الأنعام من الآية ٧٤ إلى الآية ٨٣، ولولا الإطالة لعرضتها وفسرتها، وهذه الآيات تصور لنا طريقة من الإلزام العقلي الغريب في نوعه، فقد جارى إبراهيم- عليه السلام- قومه- ظاهراً- في اعتقادهم وبين لهم بالمنطق السليم فساد عقيدتهم في عبادة الكواكب لما يعتريها من تغير لا يليق بمقام الربوبية، وحاشا أن يعبد نبي غير الله قبل البعثة أو بعدها بله إبراهيم فقد كان - كما وصفه الله - حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، فقد نفى الله عنه صفة الإشراك.

ثم استمعوا معي إلى من ذرأهم الله لجهنم. أليسوا الذين عطلوا نعمة الله العظمى وهي النظر في ملكوت السماوات والأرض: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف: ١٧٩).

فالقلوب المراد بها العقول، ولكنهم عطلوها فلم يشغلوا أنفسهم بالنظر والمقارنة والانتقال من المقدمات إلى النتائج. بل اكتفوا بتقليد الآباء والنزول على حكم البيئة. ولم يكلفوا أنفسهم أدنى مشقة لمعرفة الحق من الباطل. وعيونهم لم يبصروا بها نظرة المتبصر. ولم يتفقهوا بما يسمعون فيقارنوا بين ما يجب وما لا يجب ثم وصفهم بأنهم كالأنعام من الإبل والبقر والغنم، بل هم أضل فإن الأنعام- وليس لها عقل تفكر به- قد تنتفع بما تبصر فتتحاشى ما يضرها، وقد تنتفع بما تسمع وتفرق بين بعض الأصوات فتستجيب لصوت صاحبها، وتفر من صوت أعدائها.

وها هو القرآن الكريم يصرح بأبلغ عبارة أن الذين لا ينتفعون بنعمة العقل هم المتردون في حمأة ورجس الشرك والضلال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس: ١٠٠-١٠١).

ثم إن دعوة القرآن إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض للاستدلال به على الله أمر لا يماري فيه إلا من أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.

والكون كتاب الله المنظور الذي يستدل به عليه:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وإن مماراة المتدين في هذا الأمر صرف للعقول عن واجبها الأول. وتشتيت للأفكار. وبلبلة للخواطر، فإن وضوح الآيات الدالة على الله جعلت كثيراً من المفكرين يقررون: أنه لا عذر لأحد بالجهل لخالقه. والفطرة الإنسانية منساقة إلى التسليم بوجود إله لهذا الكون. وإن آيات الكون تشهد أن هذا الإله يجب أن يكون منزها عن أية شائبة من شوائب النقص من حلول وتحول واحتياج. بل إنه يجير ولا يجار عليه، وإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وإنه الأول فلا بداية لوجوده وإنه الآخر فلا نهاية لوجوده، والوصف الجامع لكل صفاته أن له الأسماء الحسنى وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فأساس العقيدة الإسلامية الأولى- وهي الإيمان بالله- مبنية على العقل في جملتها وتفصيلها، ونحن المسلمين لا نخشى أن نحتكم إلى العقل في صلب عقيدتنا، ولا نقول: آمن ثم فكر، بل نقول فكر ثم آمن، ولكن يجب أن يكون تفكيرنا متمشياً مع قوانين العقول السليمة التي لا تحكم أولاً ثم تبحث عن المسوغات ثانياً.

هذا ومتى انتهى بك التفكير إلى الله بهداية الله لك على لسان رسله حتى لا تتشعب عليك الطرق آمنت به عن قناعة واطمئنان سهل عليك الإيمان بما وراء ذلك.

ولعل لنا- بحول الله وتوفيقه- عودة إلى هذا الموضوع.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

التشريع بين التعقل والتعبد (٢)

العدد (١٣٧) جمادى الأولى (١٣٩٦هـ) - مايو (١٩٧٦م).

في مقال سابق بينا أن الفطرة الإنسانية السليمة والعقل البشري غير الخاضع للأهواء وغير المستعبد للتقليد، يسهل عليه- لكثرة الآيات الكونية- أن يدرك أن لهذا العالم خالقاً، وهذا القدر من الإدراك كان ينبغي ألا يكون محل شك أو تشكيك، لولا حب المغالطة التي تستحوذ على كثير من الناس، فلوضوح هذه الآيات والأدلة قال الإمام أبو حنيفة ﷺ «ليس لأحد عذر بالجهل لخالقه».

نعم: إن بعض العقول في رحلة التفكير في الخالق قد يجانبها الصواب فتقف أمام بعض المظاهر الكونية التي تشدها بعظمتها فتعتقد أنها الإله، فقد عبد المصريون النيل لأنه مصدر الخصب والحياة لواديهم، وعبد البابليون الكواكب لأنها مصدر الإشعاع، والإشعاع مصدر الحياة، وعبد الأغريق البحر، رامزين إليه بصنم من أصنامهم.

ولما تعددت مظاهر العظمة في الكون جعلوا لكل ظاهرة من مظاهره إلها يقدمون إليه القرابين، فهناك إله الجمال، وإله الخصب، وإله الخير، وإله الشر، وإله الحرب، وإله الحكمة، إلى آخر ما تورطت فيه الأمم من وثنية وتعدد آلهة، واختلفت الأمم في تصور آلهتها، فالإغريق تصوروا آلهتهم فجرة غدارين أقوياء، جبناء ضعفاء حيناً مرتشين حينا، عطاشى إلى الدم حينا، والمصريون - مثلاً - تصوروا آلهتهم حكماء - حينا- عادلين، قادرين حينا عاجزين حينا، والمجوس تصوروا إله الخير نوراً وإله الشر ظلمة وقدموا القرابين من كل نوع إلى النار التي هي مبعث النور.

هذه صورة البشرية التي توصلت - بالنظرة الأولى- إلى اعتقاد أن لهذا العالم

خالقاً، ولكنها تعثرت في معرفة هذا الخالق، وحتى لا يكون للناس على الله حجة أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ليبينوا لهم فساد تلك العقائد التي وقفت عند بعض المظاهر الكونية فضلت عن سواء السبيل.

وسأعرض لنماذج من الحوار القرآني الذي يبين فساد وقوف العقل البشري - في قضية الإلوهية - عند المظاهر المحسوسة، ويطالب الإنسان أن ينتقل من المحسوس إلى المعقول.

استمعوا إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة: ٢٥٨).

هذه الآية تعطينا صورة لحوار بين التعصب والغرور من جانب، وبين العقل من جانب آخر، وفيها إلزام عقلي، إذ أن أبسط ما يجب أن يتصف به الإله أن يكون قادراً لا يضعف أمام التحدي. مهما كان مصدر التحدي.

وهذا الذي كفر ادعى أنه يحيي ويميت بالعفو عن بعض المحكوم عليهم بالإعدام، أو إعدام من يشاء، وصور له وهمه وغروره أن هذا يجعله مستحقاً للألوهية، فألزمه إبراهيم عليه السلام بأن قال له متحدياً - ربي الذي يحيي ويميت هو الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. وهنا استبان عجزه فبهت ولم يحر جواباً.

ولهذه المناسبة يقول قوم: كان هذا الإنسان يستطيع أن يقول لإبراهيم فأت بها أنت فيكون ذلك إلزاماً لإبراهيم عليه السلام أيضاً. والجواب عن ذلك في منتهى البساطة والوضوح، ذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يدع أنه إله حتى يوجه إليه هذا التحدي.

ورب مشكك يقول: كان في إمكانه أن يقول لإبراهيم عليه السلام ادع ربك أن يأتي بها من المغرب إلى المشرق، وهذا- أيضاً- قول مرفوض لأن الإله يجب أن يفعل ما يريد هو، لا ما يريده غيره حسبما تقتضيه حكمته، وربما لو فعل هذا الكافر ذلك ودعا

إبراهيم ربه أن يفعل ذلك لفعل، فكم من خارقة للعادة أظهرها الله على أيدي أنبيائه تأييداً لهم، وثم صورة أخرى من صور الإلزام العقلي لبيان فساد عبادة جرم من الأجرام السماوية، وهذه الصورة تتمثل فيما قصه الله تعالى علينا من حوار إبراهيم لقومه في شأن عبادة الكواكب ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ (الأنعام: ٧٥- ٧٩). وليست هذه الآيات تدرجاً بعقيدة إبراهيم من الوثنية إلى التوحيد حاشا، فإن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- معصومون قبل النبوة وبعدها من ارتكاب كبائر الذنوب بله الشرك بالله، فما بالك بإبراهيم أبي الأنبياء، والذي حدث الله عنه بأنه كان حنيفاً، والحنيف هو المجانب للشرك المائل عن الباطل إلى الحق وسياق الآيات ولحاقها يبين هذا بوضوح والآيات تصور إلزام المخالف بفساد رأيه- بعد مجاراته ظاهراً- ثم إظهار جانب الخطأ في التفكير القاصر.

وقد يركن كثير من الناس إلى ما وجدوا عليه آباءهم، فتحرر الإنسان من إلف العادة عسير، وهذا ما كان يحتج به الكافرون على أنبيائهم، هؤلاء آل فرعون قالوا لموسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالمعجزات الباهرة: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ (يونس: ٧٨) وهؤلاء عاد قوم هود عليه السلام قالوا له فيما قالوا: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ (الأعراف: ٧٠).

وقد بين الله - سبحانه وتعالى - أن الاحتجاج بما كان عليه الآباء والأجداد هو حجة الأمم الضالة قديماً وحديثاً استمع إلى قوله جل شأنه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ (الزخرف: ٢٣).

لهذا وذاك ولحب التعالي والسيطرة عند الإنسان، وحتى لا يكون للناس على الله حجة لم يتركهم لعقولهم، فإنها- كثيراً- ما تكون محكومة بالأهواء فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين حتى يقيموا الحجة على فساد الوقوف عند المحسوس دون التعمق فيما وراءه وحتى يبين لهم أن اتباع الآباء فيما ترفضه العقول السليمة لا يليق بالعقلاء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة: ١٧٠).

فحاجة البشرية إلى الرسل كحاجة المسافر في صحراء إلى دليل، مهما كان سليم الحواس حاد الذكاء.

هذا: وليس كل من ادعى الرسالة عن الله مصدقاً فيما يبلغه عن ربه، بل يجب أن يكون معه من الله برهان بين يشهد بصدقه، وهذا ما يعرف - عند العلماء- بالمعجزة، وهي أمر خارق للعادة والناموس الطبيعي الذي عرفه الناس، ولا سيما المرسل إليهم، فإن العقل يدرك بداهة أن تغيير الناموس الكوني لا يملكه بشر، وإنما يملكه من خلق هذا الناموس، فإدراك صدق الرسول المؤيد بالمعجزة خاضع للعقل، فإن المعجزة ينطق لسان حالها أن هذا العبد صادق في كل ما يبلغه عن الله، فهي تشبه كتاب اعتماد السفراء لدى الدول التي يمثلون فيها دولتهم، وقد جرت سنة الله- تعالى- أن تكون المعجزة- صورها- من جنس ما امتاز به القوم المرسل إليهم.

ولست بصدد تعداد معجزات الأنبياء وبيان أن كل معجزة من معجزاتهم كانت مناسبة لعصرهم، والذي يهمنا في هذا المقام أن نبين أن تصديق الرسل المؤيدين بالمعجزات حكم يفرضه العقل السليم المتحرر من تبعة التقليد وعبوديته، ومن الغرور وجهالته، وإذا أقام الله الحجة على عباده بإرسال الرسل فلن تكون لهم حجة عليه لأنه أكرمهم بالعقل، وهداهم بالرسالات.

نعم. إن هؤلاء الرسل قد يأتون بما لا تدركه العقول كالحديث عن الغيبيات. وما يعرف عند بعض الفلاسفة بما وراء الطبيعة. وقد يأتون بشرائع تقف العقول أمامها عاجزة عن إدراك حكمتها. فإذا تفلسف إنسان وقال: لا أؤمن بهذه

الغيبيات. ولا أمتثل تلك الأحكام التي لم أدرك حكمتها بعد أن أشهد على نفسه أنه مؤمن بالله الحكيم العليم، وأنه مصدق لرسوله المؤيد بالمعجزة. فإنه يكون مناقضاً لنفسه كاذباً في إشهاده. ملغياً حكم عقله الأول.

وليعلم الناس جميعاً أن الرسل أجمعين لم يأتوا بما ترفضه العقول السليمة. وتأباه الفطر القويمة.

ولكنهم قد يأتون بما لا تدركه العقول. لأنهم إنما يحدثون عن الله الحكيم العليم الذي يعلم سر الكون، وعواقب الأمور كلها. المنزه عن الأهواء والأغراض.

والعقل- كما قيل- كالدابة، توصلك إلى قصر السلطان. ولكن: لا تدخل بك عليه.

ومثل من يرفض الإيمان بالغيب، ويتشكك فيما شرعه الله من أحكام لا تعرف حكمتها- الآن- كمريض ذهب إلى طبيب يثق بعلمه وأمانته. فوصف له الطبيب قدراً محدداً من الدواء. بعضه قبل الأكل، وبعضه في أثناء الأكل، وبعضه بعد الأكل، وبعضه قليل، وبعضه كثير. فقال هذا المريض لطبيبه: لا أتعاطى دواءك حتى تقنعني- عقليا- لماذا كان هذا الدواء قبل الأكل وهذا بعده وهذا أثناءه، ولماذا كان هذا قليلاً، وهذا كثيراً.

أليس هذا المريض مناقضاً لنفسه حينما اختار هذا الطبيب ووثق به.

مع أن الطبيب قد يخطئ لأنه غير معصوم، أما الرسول الذي اقتنع - عقلياً- بصدقه، فإنه معصوم. والله الذي اقتنع- عقلياً- بعلمه وحكمته، لا يغفل عنه شيء، ولا يأمر بشر ولا ينهى عن خير، وكل ما نهى عنه الشارع - إن بدا للناس أن فيه خيراً - فشره أعظم، وكل ما أمر به العباد- وإن بدا فيه بعض الضر- فإن خيره أعم وأشمل. ولعل في هذا التصوير ما يجعل بعض النفوس القلقة أمام بعض التشريعات تطمئن وترضى عن تشريع ربها. ولنا عودة إلى تفصيل ما أجملنا. والله ولي التوفيق.

طفل الأنابيب

العدد (٢٣٨) شوال (١٤٠٤هـ) - يوليو (١٩٨٤م).

الحمد لله الذي يقول الحق وهو يهدي السبيل والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الرسول الأمين جاء بالحق والصراط المستقيم وعلى آله وصحبه ومن تمسك بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

● **أما بعد**

فقد أثيرت في هذه الأيام مسألة أطفال الأنابيب بعد أن أصبحت حقيقة واقعة بعد أن كانت من قبل يظن أنها مسألة افتراضية وقد اختلفت آراء علمائنا المعاصرين في بعض الصور واتفقت في بعضها فاستعنت بالله على بيان هذه الواقعة من جميع نواحيها، من ناحية الحكم الشرعي التكليفي من حيث الحل والحرمة وكذلك من حيث الأحكام أي الآثار المترتبة على هذا العمل من ناحية ثبوت النسب وما يتصل به من ميراث وغيره كحل الزواج أو حرمته وما إلى ذلك من الأحكام المترتبة على هذا التصرف.

وباستطلاع آراء أهل الذكر في هذه المسألة (وهم الأطباء) تبين أن هذه المسألة تقع على الصور الآتية:

الصورة الأولى: امرأة سليمة المبايض ولكن هناك خلل ما في قناة فالوب يمنع وصول البيضة (البويضة) من المبيض إلى الرحم فتؤخذ البييضة وتلقح بماء زوجها وتحفظ فترة ما في أنبوب خاص ثم ترد هذه البييضة الملقحة إلى رحم هذه المرأة.

وهذه لا مانع منها شرعاً على أن لا يتجاوز إطلاع الطبيب المعالج على أكثر مما تقتضيه الضرورة.. والطفل الذي يولد من هذه العملية ينسب قطعاً إلى الزوج

وإلى أمه صاحبة البييضة وهي كذلك الحاضنة.

وعلى أني أتحفظ في هذه المسألة أيضاً وأرى وجوب الاحتياط الشديد جداً في حفظ هذه البييضة من أن تختلط بغيرها من البييضات الملقحة فكلنا يعلم ما يجري في معامل التحليل (دم وبول إلى آخره) من أخطاء شنيعة مهما بلغت شناعتها فإنها لا تبلغ شناعة اختلاط البييضات الملقحة بعضها ببعض فإن الخطأ في اختلاط عينات الدم أو البول لا تتجاوز صاحب العينة التي وقع فيها الخطأ بينما أدنى خطأ في اختلاط بييضة ملقحة بأخرى تمتد آثاره إلى أجيال وأجيال.

فإذا فتح هذا الباب فلابد أن يكون هناك رقابة شديدة جداً على من يقوم بهذه العمليات وإلا فالأولى سد هذا الباب أخذا بمبدأ سد الذريعة على أنه يجب أن يكون مع الطبيب المباشر زوج أو محرم أو مع التسامح الشديد أن لا يختلي الطبيب بالمرأة بما يسمح للشيطان أن يدخل بينهما، هذا ما أدين الله عليه.

الصورة الثانية: رجل تزوج أكثر من امرأة وكانت إحداهن عقيماً مع سلامة مبيضها فتؤخذ بييضتها وتلقح بماء زوجها وترد البييضة الملقحة إلى رحم إحدى ضراتها السليمة الرحم فيتربى في رحمها حتى يولد.

ولا بد من بيان حكم هذه المسألة من ناحية الحل والحرمة ومن ناحية الآثار المترتبة على هذه العملية.

وأرى البدء ببيان الآثار المترتبة على هذه العملية أولاً ليتضح الحكم التكليفي ثانياً.

مما لا شك فيه أن هذا الطفل ينسب إلى زوج صاحبة البييضة وضرتها التي حملت هذه البيضة الملقحة وهذا أمر واضح لقيام الفراش وهو الزوجية. أما إلى من ينسب هذا الطفل من ناحية الأم، ألصاحبة البيضة أم التي حملته؟

إن الذي أدين الله عليه أن هذا الطفل ابن أو بنت التي حملته لا صاحبة البييضة لقوله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢) وهذا نص قطعي الثبوت والدلالة ولا سيما أنه جاء على صيغة الحصر، فليست صاحبة البييضة إلا كالدجاجة تبيض بيضتها ولكن لا ينسب فرخها إليها بل إلى الدجاجة التي حضنته.

فالفرخ المتخلق من هذه البيضة لا يعرف إلا أمه التي حضنته، ويقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ فهل صاحبة البييضة حملته وهنا على وهن؟ وكذلك يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فهل صاحبة البييضة كذلك؟!

هذا من ناحية النص ومن ناحية المعنى أن البييضة الملقحة إنما نمت وتغذت بدم التي حملتها وتحملت الأم الحمل وآلام المخاض.. فهل يعقل أن ينسب الولد لغيرها؟

بقي الكلام على علاقة صاحبة البييضة كالأم المرضعة وذلك لأن الحنفية اعتبروا علة التحريم في الرضاع هي الجزئية أو شبهتها فأقل ما يقال إن هذا الطفل فيه جزئية من صاحبة البييضة توجب حرمة الرضاعة.

على أني لا أستريح إلى هذا التخريج وأرى أن عملها هدر لا تترتب عليه أحكام.

ألا ترى أن امرأة ما لو غذت طفلاً رضيعاً بدمها بالطرق المعروفة الآن هل يثبت بين صاحبة الدم وبين هذا الطفل حرمة الرضاع؟ والذي يبدو لي من قوله تعالى ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ أن الإرضاع فيه معنى الجزئية.

والذي أقطع به أن هذه المرأة لا تتجاوز أن تكون زوجة أب هذا الطفل أما ما وراء ذلك من تعلق حرمة الرضاع بها بأصولها وفروعها وحواشيها فأمر موهوم أكثر مما هو مظنون.

وإن القول الذي يهب إليه بعض الباحثين في هذه المسألة بأن الأم هي صاحبة البييضة قول مردود للأدلة النقلية والعقلية السابقة ولما يترتب عليه من آثار خطيرة من أن امرأة تبيض وأخريات يحملن ويتألمن ويعانين آلام الحمل والمخاض ثم لا يتمتعن حتى ولا بصفة الأمومة.. ويمكن لمثل هذه المرأة أن يكون لها في كل شهر جنين أو أجنة ومن هنا يتبين أن الآثار المترتبة على هذا التصرف خطيرة وهذا يرجح القول بحظر هذه العملية لما يترتب عليها من مشاكل أو على أقل تقدير الاشتباه بعلاقة هذا الطفل بصاحبة البييضة. والله أعلم.

الصورة الثالثة: أن تلقح بييضة امرأة ما بماء غير ماء زوجها ثم ترد إلى رحمها.

فهذه الصورة محرمة قطعاً لما فيها من اختلاط الأنساب... ولكن هل يقام حد الزنا في هذه الصورة؟ الجواب.. لا، ولكن يعزر كل من اشترك في هذه العملية تعزيراً شديداً.

ثم إلى من ينسب هذا الولد؟ والجواب أن هذه المرأة إن لم تكن زوجة فالولد ينسب إليها كولد الزنا ولا ينسب إلى صاحب الماء لأن ماءه هدر أما إذا كانت زوجة فقد حسم رسول الله ﷺ هذه القضية بقوله «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فينسب الولد إلى الزوج فإن كان الزوج يقطع بأنه ليس منه فالمخلص له أن ينفي النسب ويلاعن هذه الزوجة ويفسخ النكاح بينهما ويقطع نسب الولد من الزوج ويلحق بأمه فقط.

وإن علم أنه ليس منه ورضي به ثبت نسبه منه ولكن يكون آثماً وعلى بنات هذا الرجل وأخواته أن يحتجبن من هذا الولد إن كان ذكراً وإن كانت أنثى فللاحتياط لا يتزوج أبناء هذا الرجل منها والأصل في ذلك أن رسول الله بالرغم من أنه ألحق ابن وليدة زمعة بزمعة إلا أنه قال لزوجته أم المؤمنين سودة رضي الله عنها احتجبي عنه يا سودة بالرغم من أنه ألحقه بزمعة أبيها.

ولعلي أكون قد بينت ما في هذه المسألة من صور وإشكالات فإن كنت قد وفقت في ذلك فذلك من الله وإلا فمني ومن الشيطان.. والله أعلم.

* * *

٣٠ مقالات

الشيخ د. عبد الله كنون

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- آية الإسراء والمعراج.

العدد (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

٢- مدرسة الإحسان.

العدد (٨١) رمضان (١٣٩١هـ) - أكتوبر (١٩٧١م).

٣- المعراج رحلة إلى السماء.

العدد (٩١) رجب (١٣٩٢م) - أغسطس (١٩٧٢م).

ترجمة الشيخ

د. عبد الله كنون

● **مولده ونشأته:**

ولد الشيخ عبد الله كنون بفاس سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م رحل إلى طنجة مع عائلته بسبب الحرب، فحفظ القرآن على يد أبيه عبدالصمد كنون وعلى يد الشيخ أحمد بن محمد الوسيني وحفظ الأحاديث النبوية فأصبح عالماً بالشريعة وباللغة العربية في وقت قصير، ونال درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة مدريد المركزية.

كان الأستاذ عبد الله كنون من ألمع جيل الرواد الذين بنوا النهضة وناضلوا من أجل الاستقلال بالفكر والعلم والقلم، تميز منذ وقت مبكر من حياته، بالنبوغ والتفتح والقدرة على مسايرة الركب الحضاري والثقافي الذي قدر أن تبدأ انطلاقته من المشرق العربي.

عُين وزيراً للعدل، ووكيلاً لمجلس الدستور، وأميناً عاماً لرابطة علماء المغرب، ومديراً للمعهد الإسلامي بطنجة ومنشئ أول مدرسة حرة بها، وعين رئيسا للمجلس العلمي الإقليمي بطنجة.

● **مؤلفاته وانتاجه الفكري**

خلَّف كنون أثراً واضحاً في الدراسات الأدبية، وفي كتابة التراجم، وفي تحقيق المخطوطات، وفي إصدار الصحف والمجلات وإدارتها والإشراف عليها وتزويدها بالمادة المتنوعة الغنية، وفي العمل الأكاديمي والمجمعي، ومن أهم مؤلفاته:

«النبوغ المغربي، مدخل في تاريخ المغرب، معارك، الجيش المجلب على

المدهش المغرب، أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر، التعاشيب، أدب الفقهاء».

● **وفاته**

توفي رحمه الله تعالى في التاسع من يوليو عام ١٩٨٩م.

* * *

آية الإسراء والمعراج

العدد: (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

إن الإسراء والمعراج من معجزات سيدنا محمد العظمى وخصائصه الكبرى، وهما ثابتتان ثبوتا قطعيا لا مجال للشك فيه، بنص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، وهذا مما اتفقت عليه الأمة ولم يخالج صدور المؤمنين ريب في حقيقته.

وقد كانا معا في عام واحد، وشهر واحد، وليلة واحدة، هي على المختار ليلة السابع والعشرين من رجب عام اثني عشر من البعثة النبوية وهو ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر.

واختلف السلف والعلماء، هل كان ذلك بروحه وجسده على ثلاث مقالات، فمعظمهم على أنه بالجسد وفي اليقظة، وهذا هو الحق، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدري وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وكثير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وذهبت طائفة إلى أنه بالروح فقط، وأنه رؤيا منام، مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء وحي وحق، مستدلين بقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠)، ولكن استدلالهم بهذه الآية على ما ذهبوا إليه لا يصح، لأن الآية لم يثبت نزولها في الإسراء، بل قيل إن المراد بها رؤيا النبي ﷺ المبشرة بفتح مكة.

ولما كانت الرؤيا في الآية غير نص في الإسراء، أصبحت الآية غير صالحة أن تكون لهم دليلا، فلا تقوم لهم بها حجة على ما ذهبوا إليه، ولو كان الإسراء رؤيا

منام، ما دهش المشركون وملكهم العجب لما سمعوا النبي ﷺ يخبر بذلك، وما سارعوا إلى تكذيبه، وما ارتد ضعفاء الإيمان عند سماع ذلك ورجعوا بعد إيمانهم كفارا.

على أن الرؤيا المنامية لا تستبعد من أي إنسان كائنا من كان، فإذا حدث الناس شخص بأنه رأى في منامه أنه انتقل إلى البلاد الشاسعة والأقطار البعيدة، أو صعد إلى السماء ودخل الجنة، ورأى من العجائب ما لا يخطر ببال، لا يجد من بين سامعيه إنكارا ولا جحودا ولا تسفيها له، ولا تكذيبا، إذ كل ذلك ممكن ومقبول عقلا من غير استبعاد ولا استحالة، فإنكار المنكرين لقول النبي ﷺ لما أخبرهم بما عاين دليل صريح وبرهان واضح على أن الإسراء كان بجسمه وروحه الطاهرين.

وقالت جماعة أخرى كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (الأسراء: ١)، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجيب منه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبي ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه.

وقال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح، وكأن هذا جمع بين القولين، ولكن الاعتماد على القول الأول كما علمنا، والآية لم تشر أصلا إلى زائد على الإسراء إلى المسجد الأقصى لا بجسد ولا بغيره، فكيف يكون ذكر الإسراء إلى السماء دليلا على وقوعه بالروح فقط، وهو إنما استفيد من آية أخرى في سورة النجم، ومن الأحاديث لا غير.

وفوق هذا فإن الرؤيا تكون بمعنى الرؤية في اليقظة، ولا تختص بالنوم كما في قول الشاعر يصف صائدا:

وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلبا كان جما بلابله

وقد أصبحت الآن أكثر ما تستعمل في عبارات الأدباء والنقاد بالألف لا

بالتاء، وهم يريدون بها الرؤيا البصرية.

إن الاختلاف في هذا الأمر بين علماء المسلمين، هو في نظرنا دليل على تحكيمهم العقل، حتى في أخص أمور الدين، وإلا فإننا اليوم لا نكاد نشك في أن الإسراء والمعراج معا كانا بذاته الشريفة، وفي حالة اليقظة، وقد رأينا من قدرة الإنسان وتدرعه بما أوتي من علم قليل أنه استطاع أن يخرق الأجواء، ويصل إلى القمر، أفتعجز قدرة الله غير المحدودة وعلمه المحيط أن يعرج بنبيه إلى السماء، ويسري به إلى بيت المقدس في بعض ليلة؟

لقد حكى لنا القرآن من قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس، وقول عفريت من الجن له: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مقامك، وقول الذي عنده علم: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، حكى لنا القرآن ما فيه مقنع وبلاغ، لأن تكون قضية الإسراء والمعراج، قبل صعود الإنسان إلى القمر بعشرات القرون، قضية لا غرابة فيها بالنسبة إلى قدرة العزيز الحكيم، ولكن النزعة العقلية عند علماء المسلمين، التي كان القرآن نفسه أعظم مذك لها في نفوسهم، جعلتهم يطرقون جميع الاحتمالات فيها مع إيمانهم الراسخ بالمعجزة وصدق المبلغ عن الله عز وجل، حتى الذين قالوا إنها رؤيا منام محض، قد حكموا بأن رؤيا الأنبياء وحي وحق، وذلك هو الخيط الرفيع الذي يفرق بين رؤياه ﷺ ورؤيا غيره من الناس.

وإذا كنا قد ألمعنا إلى الصعود للقمر، على سبيل المثال والتقريب، فلا بد أن ننبه على الفرق العظيم بين المعراج وهذا الصعود، فالأمر هنا لم يخرج عن المدار الفضائي لمجموعتنا الشمسية التي نعيش على ظهر كوكب من كواكبها، أما المعراج فكان إلى السماء الحقيقية، السماء التي ورد ذكرها في كتب الأنبياء جميعا لا السماء اللغوية التي هي ما علا الإنسان، بل السماء التي هي مقر الملائكة والأرواح، وعالم الملكوت المحفوظ من كل إنس وجان، إلا من أكرمه الله بدخوله، فأين الثرى من الثريا؟

ولهذا قال تعالى منبها ذوي العقول لما في هذه الآية العجيبة من الدلالة على عظيم قدرته وبليغ حكمته ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ (الإسراء: ١)، وسبحان

علم للتسبيح، والحكمة في التعبير به هنا كما قال ابن الجوزي: أن العرب تسبح عند الأمر العجيب، فكأنه تعالى يعجب خلقه مما أسدى إلى نبيه بالإسراء به من الأيادي والنعم، وأسرى مأخوذ من السرى، وهو سير الليل خاصة، وبعبده، المراد به النبي محمد ﷺ، فهو المتحقق بكمال العبودية لله ﷻ، وبذلك يكون وصف تشريف كما قال القائل:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

و«ليلا» ظرف وهو للتوكيد، إذ الإسراء لا يكون إلا بالليل، وفائدته رفع توهم المجاز، لأنه قد يطلق على سير النهار، مع الإشارة بتنوينه إلى أن ذلك وقع في بعض الليل لا في جميعه، وإنما كان الإسراء ليلا لأنه وقت الخلوة والاختصاص والتقريب على ما قيل، ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١)، وهو مسجد مكة ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ (الإسراء: ١)، وهو بيت المقدس، ووصف بالأقصى لبعده عن المسجد الحرام، وذلك محط العجب ومناط الإعجاز﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (الإسراء: ١)، صفة أخرى للمسجد الأقصى، وبركته بما خصه الله به من كونه مقر الأنبياء ومتعبدهم ومهبط الوحي والملائكة، وإنما قال حوله لتكون بركته أعم وأشمل، فإنه إذا بارك فيما حوله من البقاع لأجله، فهو مبارك بطريق الأولى.

والمسجد الأقصى بمدينة القدس من أرض فلسطين، هو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهو أولى القبلتين، ومسرى النبي ﷺ ومكان عروجه، والصلاة فيه بألف صلاة، كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجة، وفيه: «ائتوه وصلوا فيه، فإن صلاة فيه بألف صلاة»، وفي رواية لأحمد عن بعض نسائه ﷺ أنها قالت يا رسول الله: «فإن لم تستطع إحدانا أن تأتيه، قال: فلتبعث إليه زيتا يسرج فيه، فإن من بعث إليه بزيت يسرج فيه كان كمن صلى فيه».

ومهما يكن من درجة هذه الرواية وصحة اعتبارها فإن المسلمين اليوم قد أضاعوا القدس بتهاونهم وتخاذلهم، وقد مرت على سقوطه في أيدي الصهاينة

سنوات أربع، وهي في نظر الغُيَّر من أهل الإسلام بمثابة أربعين سنة، وبضياع القدس بطلت زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه على سبعمائة مليون مسلم، فأقل ما يجب على المسلمين لاسترداده أن يبذلوا المال للفدائيين والفئة المؤمنة القائمة بالجهاد لرفع السيطرة الصهيونية عنه، فلو بعث كل من كان يزور القدس من المسلمين وخصوصا الحجاج، بما كان يصرفه في سبيل زيارته من مال إلى من ذكرنا لحصل له ثواب الزيارة والصلاة على حسب ما جاء في هذا الحديث، ولأسهم في إنقاذه بحسب وسعه، وما أصدق ما قال المشركون لسلمان: لقد علمكم نبيكم كل شيء، فياحسرتا على المسلمين! كيف فرطوا في دينهم وتعاليمه التي بها نجاتهم، وتمسكوا بالأوهام والأضاليل، ثم قال تعالى ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)، أي لنظهره على عجائب قدرتنا، وبدائع حكمتنا، أو يكون المعنى لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من آياتنا الباهرة، فتكون في الآية إشارة إلى عروجه ﷺ وخصوصا إذا جعل معاد الضمير في قوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)، عليه ﷺ، كما قيل به والمعنى أنه هو السميع لكلامنا البصير لآياتنا.

ومن هنا ينصرف بنا القول إلى المعراج، وقد ألمت به سورة النجم في الآيات الكريمة القائلة: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ (النجم: ١-٩).

ونأتي بالحديث المفسر لها، ولقضية الإسراء معا، ففيه غنى، وهو ما أخرجه مسلم من طريق ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه وقال فيه القاضي عياض: جود ثابت رحمه الله هذا الحديث عن أنس ما شاء، ولم يأت أحد بأصوب من هذا، قال أنس: قال رسول الله ﷺ: أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض، طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته في الحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال

جبريل اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال جبريل، قيل من معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك. قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة، عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام واذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير، قال تعالى ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم، مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال.. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي، تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلى ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك، قلت: خمسين صلاة، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي، فقلت يارب خفف عن أمتي، فحط عني خمسا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد إنها خمس صلوات في كل يوم وليلة، فكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال:

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ رجعت إلى ربي حتى استحييت منه.

فهذا الحديث قد جمع قصتي الإسراء والمعراج معا، واستوفاهما أحسن استيفاء، واستوعبهما بيانا، وإن كان قد خلا من بعض الزيادات التي ثبتت في غيره مما هو أقصر منه، ولا تخلو من فائدة.

ومنها شق صدره الشريف قبل الإسراء، وقد ثبت في الصحيح، فلا عبرة بمن أنكره، قائلا إن ذلك كان في صباه ﷺ فذاك كان لإخراج حظ الشيطان منه، وهذا للتهيؤ لدخول الملأ الأعلى، ومنها صلاته بالأنبياء في بيت المقدس، قبل أو بعد العروج على اختلاف الروايات في ذلك، مثلوا له، وصلى بهم ركعتين، ولعلهم الأنبياء الذين لم يلقهم في السماء، وإن كان لفظ الحديث يدل على العموم، وقد تكرر ذكر هذه الكرامة في شعر المديح كقول العلامة اليوسي:

وتقدمت للصلاة فصلوا كلهم مقتد وأنت الإمام

ومنها أنه لما أتاه الملك بالخمر واللبن، اختار اللبن وقال له: اخترت الفطرة، زاد: ولو شربت الخمر لغوت أمتك ولم يتبعك منهم إلا القليل، وكفى بهذا ذما للخمر وردعا لشاربيها.

ومنها أنه لما لقي إبراهيم في السماء السابعة، قال له: مرحبا بالابن الصالح، وقال له: مر أمتك أن يكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة، قال: وما غراس الجنة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها في وصف سدرة المنتهى: إنها في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها.

ومنها أنه قال: ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، أي صوت حركتها، جارية بما تكتب من القضاء والقدر.

وقوله فيه: وقد بعث إليه؟ أي للعروج إلى السماء، وأما بعثته أي رسالته إلى أهل الارض فإنها لا تخفى على أهل السماء.

والحكمة في تردده للتخفيف من عدد الصلاة بين موسى والحق سبحانه

وتعالى، تقدير ذلك الفضل العظيم والعطاء الجسيم الذي أتحفه به ﷻ، وهو كون الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بواحدة فقط، بصورة عملية محسوسة، ليكون ذلك أدعى لتقديره، والاعتراف بواسع كرمه تعالى، وجزيل ثوابه لعباده المؤمنين.

ثم إنه ﷺ رجع من ليلته، فلما أصبح غدا إلى نادي قريش، فحدثهم بأمره، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا، وارتد أناس ممن كان آمن به من ضعاف النفوس، وسعى بعضهم إلى أبي بكر فقال له: أرأيت إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس ورجع في ليلته! فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وكيف؟ قال إني لأصدقه على أبعد من ذلك، على خبر السماء في غدوة وروحة، فسمي من ذلك اليوم الصديق.

وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ (الإسراء: ١)، وفي سورة النجم ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ (النجم: ١٨)، هو مما يصدق بما تقدم من معجزة الإسراء نفسها، ومعجزة المعراج، وما رآه فيهما من الآيات والعجائب، وناهيك بمقام القرب والدنو، وما غشي سدرة المنتهى مما عبر عنه بقوله: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد يستطيع أن ينعتها من حسنها.. وما كان بعد ذلك من الوحي كفاحا دونما زيغ من البصر ولا طغيان، كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (النجم: ١٧).

وإلى ذلك فقد وردت في بعض روايات الحديث أشياء ومشاهد أخرى، مما رآه في ليلته تلك، ومجرد وصفها يدل على صدقها، إذ إنها من عالم الغيب الذي سكتت عنه جميع الكتب والصحف، وخرست ألسنة الحكماء والفلاسفة.

ومن ذلك أنه أتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال يا جبريل، ما هذا؟ قال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه.

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت، قال يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح

الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم، ورضف جهنم، قال ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقة أموالهم.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج طيب، ولحم آخر نيء خبيث، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث، ويدعون النضيج الطيب، قال ما هؤلاء؟ قال: الزناة.

ثم أتى على خشبة في الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء الا خرقته، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الأعراف: ٦٨).

إلى آخر ما في هذا الحديث، وهو مما رواه البيهقي عن أبي هريرة. ونقدم ما فيه من وعد وجزاء حسن، هدية إلى إخواننا المجاهدين من أهل فلسطين، وما فيه من وعيد ومثال سيء إلى عملاء العدو وحلفاء الصهاينة، الذين يعملون على تصفية الثورة الفلسطينية بالقول أو الفعل، فإن الصد في الآية الكريمة حسي ومعنوي.

وبعض هذه الأحاديث، وإن لم يرتق إلى درجة الصحة، فإنه عامل في الترغيب والترهيب، كما تقرر عند العلماء، وقد كانت أحاديث المعراج نبعا ثرا، استقى منه حتى الأدب الأجنبي، ومن أعظم الأمثلة على ذلك ما تضمنته قصة الكوميديا الإلهية لشاعر إيطاليا دانتي الليجيري من أوصاف ومناظر تكاد تنطق بأنها مقتبسة من المصادر الإسلامية، والأحاديث النبوية، بالخصوص، الواردة في هذه المعجزة، فما أعظم الإسلام، وأوسع رسالته التي لم يبق أحد لم ينل من خيرها، حتى من يكفرون بها!.

ونسأله تعالى أن ينفحنا بروح من عنده، تعمر من هممنا ما خرب، وتجدد من مآثرنا ما دثر، وتحيي من قلوبنا ما مات، وتبعث من عزائمنا ما خمد، حتى تنتبه لعمل ما فيه صلاحنا وفلاحنا، معاشا ومعادا، دينا ودنيا، والله ولي التوفيق.

* * *

مدرسة الإحسان

العدد (٨١) رمضان (١٣٩١هـ) - أكتوبر (١٩٧١م).

قيل إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر، فسمي بذلك.

وسواء صح هذا أم لم يصح، فمعنى المادة التي اشتق منها ذلك الاسم يصححه، فإن الإسلام قد جعل لهذا الشهر رمض حر معنوي لا يفارقه مدى السنين، ولو جاء في أشد الأوقات بردا وقرًّا، وذلك هو الصيام الذي افترضه الله على المؤمنين وجعلهم يرتمضون فيه بحر الجوع ليذوقوا مما يذوقه الفقراء والمساكين في كل شهر، لا في شهر رمضان فقط فيواسوهم ويحسنوا إليهم في شهر رمضان وفي كل شهر آخر، لأن الإحساس بالجوع غير وصفه، والشعور بالخصاصة غير الخبر عنها.

وقد يكتب الكتاب ويعظ الواعظون في الحض على المواساة والإحسان إلى الفقراء والمساكين، ولكنهم لن يبلغوا من النفس البشرية ما يبلغ منها صيام يوم واحد، وتجويعها على النحو الذي أمر به الشارع في شهر رمضان للرياضة والتربية، لا للتطبيب والاستجمام.

والصيام وإن كانت له فوائد صحية لا تنكر، ويصح أن يكون الشارع قصدها فيما قصد إليه من فرض هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، ولكن مسألة الإحسان هي منه في الطليعة، وربما كانت هي المرادة منه بالقصد وبالذات، ألا ترى إلى ما روي في الصحيح من أنه ﷺ كان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل فيذاكره بالقرآن، فالرسول ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكيف لا يكون الرسول ﷺ أجود الناس وهو الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق؟ وكيف لا يكون أفضل أكوانه بالنسبة إلى الجود في رمضان، وقد اجتمعت فيه ثلاثة دواع كل واحد منها كاف لمضاعفة أثر ذلك الخلق الكريم، وهي الصيام، ولقاء جبريل، ومذاكرة القرآن؟

فالصيام عامل طبيعي لإثارة عاطفة الإحسان بسبب ما يشعر به الصائم من الحرمان الذي يعيش فيه الفقراء دائمًا، ويستوي فيه الرسول ﷺ وغيره، إلا أن أثره فيه ﷺ أعظم من غيره، ولقاء جبريل هو صلة مباشرة بالملأ الأعلى يصفو معها جوهر النفس وتسمو معنوياتها إلى أبعد حد ممكن لبشر. ومذاكرة القرآن، وهو معدن الأسرار والأنوار، لا تأتي إلا بأعظم النتائج في باب التخلق لعموم الناس، فأحرى بالرسول الكريم ﷺ.

وعلى كل حال فالغاية من الجميع هي الجود، وذلك ما يجعل من رمضان مدرسة إحسان، يتخرج فيها ملايين المحسنين كل عام، من الصائمين الذين يكونون على قدم الرسول ﷺ في الاتصاف بالجود أيام السنة كلها وفي أيام رمضان أكثر.

ومما يدل على أن فرض الصيام حكمته معالجة آلام الحرمان بالفعل، لتربية عاطفة الإحسان في الإنسان، ما روي في الصحيح أنه ﷺ قال «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له».

فهذا الحديث يرشد إلى أن الحرمان يولد العطف، والعطف يبعث على الإحسان، فما شعر بما يجده المحروم من ألم نفسي وبدني إلا من حرم مثله من لذاته ومشتهياته، وإذ ذاك ترق عاطفته ويسخو بما لم يكن يسخو به من قبل هذا التمرين.

ولو لم يوخذ هذا الرجل بتجربة العطش الشديد الذي حمله على النزول في البئر، لما رق قلبه لذلك الكلب ولو رآه مندلع اللسان من العطش، فكذلك يكون

الذي عانى الصيام شهرًا في كل عام، إذا رأى جائعا أو عطشان أو محرومًا من ضرورية من ضروريات العيش على العموم، ولعل هذا هو ما يفسر قوة عاطفة الإحسان الفردي عند المسلمين برغم تخلفهم في ميادين الإحسان العام لضعف تربيتهم الاجتماعية والسياسية.

على أن هذا المعنى الذي ذكرنا أنه المقصود الأهم من الصيام وهو تنمية عاطفة الإحسان، وقد وقع التصريح به في حديث سلمان ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال «يأيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، فيه ليله خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، وهو شهر الصبر وشهر المواساة، من فطَّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار» (رواه ابن خزيمة في صحيحه).

ولا معنى لكونه شهر المواساة إلا هذا بدليل ما بعده من الحض على تفطير الصائم الذي لا يجد ما يفطر عليه، وناهيك أن كتاب الله العزيز لما عذر العاجز مطلقا عن الصيام لم يجعل له مندوحة من إطعام المساكين.

وتختم هذه الدروس التي تدوم شهراً كاملاً بامتحان جعله الشارع علامة النجاح في هذه المدرسة الإحسانية العظيمة، وهو زكاة الفطر التي ورد في الصحيح أنها طهرة للصائم من اللغو والرفث، وروي أنه ﷺ قال «صوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر».

فختمت دروس الإحسان بامتحان عملي في الإحسان، مما لا يبقى معه شك في أن رمضان ما هو إلا مدرسة للإحسان.

إن الصيام مواساة وإحسان ... قضى بذلك قرآن وبرهان
نِعمَ الصيام مع المعروف تبذله ... وليس فيه مع الحرمان حرمان

* * *

المعراج
رحلة إلى السماء

العدد (٩١) رجب (١٣٩٢هـ) - أغسطس (١٩٦٧م).

كان الكلام في المعراج، مع المؤمنين طبعاً، يقتضينا البحث في أدلته، وإمكانيته، وصفته، والآيات الكبرى التي شاهدها النبي ﷺ في عروجه، والمغزى العظيم الذي ينكشف عنه هذا الحدث العجيب، من حيث ثبوت المعجزة، وصدق الرسالة، وأثر القدرة الباهرة التي لا يمتنع عليها شيء.

والآن بعد ريادة الفضاء، والرحلة إلى القمر، أصبحنا في كلامنا على المعراج، بحاجة إلى رفع الالتباس عند بعض المؤمنين الذين ظنوا أن الصعود إلى القمر، صعود إلى السماء، ومن ثم فإن منهم من وقع في شبهة عقائدية، ومنهم من أحالوا وقوعه، وجزموا بأن كل ما يقال عن الرحلات الفضائية، إنما هو دعاية كاذبة وزعم باطل.

وقد كنت أدليت بحديث إلى وكالة المغرب العربي للأنباء، بمناسبة نزول مركبة أبوللو ١١ فوق سطح القمر سنة ١٩٦٩ حول نظر الإسلام في هذه القضية جاء فيه: ليس في الإسلام ما يعارض صعود الإنسان إلى القمر، وليس في وصول الإنسان الى القمر ما يناقض أي تعليم من تعاليم الإسلام.

ذلك أن القمر ما هو إلا كوكب من كواكب مجموعتنا الشمسية السابحة في الفضاء، والوصول إليه كالوصول إلى أميركا ذلك الجزء من كوكبنا الأرضي الذي بقي مجهولا للإنسان آلافا من السنين.

والالتباس الذي يقع في أذهان بعض الناس إنما يجيء من الاشتراك في لفظ السماء بين مدلولها اللغوي ومدلولها الغيبي أي الديني، فالسماء في اللغة هي كل ما علاك، ومنها الكواكب السيارة مثل الشمس والقمر، وفي الدين هي عالم

الملكوت المحفوظ المحروس مقر الملائكة والعرش، والذي لا يصل إليه ولا يدخله إلا من أكرمه الله بذلك، وهو الذي عرج إليه نبينا محمد ﷺ وعاد منه، ليلة السابع والعشرين من رجب السنة الثانية عشرة بعد النبوة، فأين هذا من السماء اللغوية التي معناها المكان العالي لا غير؟

ومع هذا فإن صعود الإنسان إلى القمر، مأثرة علمية جليلة، وهي مما يستدل به على صحة وقوع المعراج، وهكذا نرى العلم دائما يسير في ركاب الدين.

ومن المعلوم أن السموات في النصوص الدينية سبع، مثل الأرضين، وهي من خلق الله وصنعه، ويجب الإيمان بها كما نؤمن بعالم الغيب وإن لم نره، ولا يصح تنزيلها على هذه الكواكب المشاهدة من عالمنا الأرضي المعروف، فالكون غير محصور في هذا العالم، والعلم لم يحط بهذه الكواكب، فكيف بالكون كله؟ وفي عالم المجرة وحده ما حير عقول العلماء، علماء هذا العصر، والمختصين منهم بالدراسات الفلكية قبل غيرهم.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ١٢) أنه قال لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها، ولعله أشفق عليهم من أجل أن عقولهم لم تكن لتتصور عظمة هذا الكون وسعته، بالنسبة إلى ما كان عندهم إذ ذاك من علم قليل بهذه الشؤون.

وإذا كان هذا العصر على ما بلغ إليه من رقي في العلوم الكونية ما يزال يتعثر في الاتصال بأحد الكواكب السابحة في الفضاء، فضائنا الأرضي المعدود والمحدود بغاية الدقة، فما بالنا بآلاف، بل ملايين النجوم والكواكب، بل المجموعات الشمسية والأفلاك التي لا يحصي عددها إلا خالقها؟ فما بالنا بالسموات السبع والأرضين السبع التي لا نعلمها إلا غيبا، ولا نعرفها إلا وحيا؟

ولئن قال بعض علمائنا إن المراد بالسموات السبع طرائق السيارات ومداراتها، وقالوا في الأرضين السبع إنها السبعة الأقاليم، فإن مما ينقض هذا القول أنه ثبت علميا وجود سيارات أخرى، غير السيارات السبع المعروفة

كأورانوس ونبتون، وأن الأقاليم السبعة لا يصح أن يقال في كل واحد منها أنه أرض إلا على ضرب بعيد من المجاز.

على أن النصوص المتواترة تفيد أن خلق السموات هو من قبيل البناء والتشييد ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ (الذريات: ٤٧)، ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ (النبأ: ١٢)، حتى إن العلماء يتطرقون إلى إمكانية الخرق والالتئام، عند الكلام على المعراج، فأين هذا من اعتبار طرائق السيارات ومداراتها هي السموات، بل جعلها هي هذه الكواكب، مع أن الكواكب إنما هي زينة للسماء الأولى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾ (الصافات: ٦).

وعلى كل حال فإن المعراج كان رحلة إلى السماء، السماء الحقيقية بالمعنى الشرعي، أي باعتبار الحقيقة الشرعية، لا السماء اللغوية التي هي كل ما علاك، وهي رحلة فريدة في تاريخ الإنسانية لم تقع لبشر حي من غير خلاف، إلا لنبينا محمد ﷺ، ولن تقع لأحد بعده على الإطلاق.

والريادة القمرية إنما هي استكشاف فضائي، وفي عالمنا الأرضي، لا يعدو أن يكون مثل استكشاف أميركا واستراليا على ظهر البسيطة، بعدما بقيتا مجهولتين لنا آلاف السنين كما قلنا في الاستجواب المشار إليه من قبل.

ومن الغرور أن يعتقد أحد رواد الفضاء، وهو الرائد السوفياتي الأول يوري جاجارين، أنه صعد إلى السماء وأنه لم ير الله هناك، فإن مجرد الزمان الذي يقضيه الرواد في الرحلة إلى القمر، وقياسه بالزمان الذي قضاه الرسول ﷺ في معراجه، مما يبين الفرق العظيم بين الرحلتين، وهذا بقطع النظر عن نهايتي الرحلة: القمر والسماء، السماء التي قدر القرآن بعدها من الأرض بخمسين ألف سنة ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ (المعارج: ٤)، فهذه المسافة التي تكاد لا تتصور، قد قطعها الرسول الكريم في سويعات من ليلة، مع ما صحبها من الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

فتبارك الله ما أعظم قدرته، وأجل حكمته!

وأختم هذه الكلمة بقصيدة رجزية كنت قلتها لما قال جاجارين كلمته النكراء

آنفة الذكر:

وقال رائد الفضا من جهله ... ما إن رأيت الله في السماء
أي سماء رادها وهل درى ... أن السما ليست من الفضاء
وهل درى بأنه سبحانه ... ما إن يرى بهيكل الفناء
قال لموسى الطهر لن ترانى ... فكيف بالحصاد والبناء
وهل درى أن السماء لم تكن ... قط مكان الله ذي السناء
فالله فوق عرشه قد استوى ... وأين عرشه من الأجواء
وقد نهى نبينا محمد ... فيما روى عنه ذوو الأنباء
عن المفاضلة بين من رقى ... إلى السما ومن هوى في الماء[1]
فإن ربنا تعالى معنا ... بعلمه المحيط بالأشياء
في كل ما أينٍ نكون فيه ... وكل ماء آنٍ من الآناء
يا زلة ما إن لها إقالة ... وهل لداء الهذر من دواء؟
فقسما لو أن «لايكا» نطقت ... لما أتت بهذه العوراء[2]

* * *

(١) إشارة إلى الحديث: لا تفضلوني على يونس بن متى.

(٢) العوراء: الكلمة الشنيعة، ولايكا هي الكلبة التي كانت أول مخلوق أرضي حي نزل على القمر.

٣١ مقالات

الشيخ أبي الحسن الندوي

- ترجمة الشيخ
- المقالات:

١- القرآن بين الإيمان والتطبيق.

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ)- كانون الثاني (١٩٧٢م).

٢ - محطم الأقفال.

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م).

٣- كيف يستعيد المسلمون مجدهم القديم.

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - أكتوبر (١٩٧٢م).

٤- دور الإسلام في العصر الحديث.

العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٩هـ) - سبتمبر (١٩٧٨م).

٥- الدعوة إلى الله وبعض سماتها.

العدد (١٦٩) محرم (١٣٩٦هـ) - ديسمبر (١٩٧٨م).

ترجمة الشيخ
أبو الحسن الندوي

● **مولده ونشأته**

هو عليٌّ أبو الحسنِ بنُ عبد الحي بن فخر الدين الحسني المعروف بأبي الحسن الندوي.

ولد بقرية تكية، مديرية رائي بريلي، الهند عام ١٣٣٢هـ - ١٩١٣م.

أبوه علامة الهند ومؤرِّخُها السيد عبدالحي بن فخر الدين الحسني صاحب المصنَّفات المشهورة.

بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ تعلُّمَه للقرآن الكريم في البيتِ تُعاوِنُه أمُّه، ثم بدأ في تعلُّم اللغتَينِ الأرديةَ والفارسيةَ، وتعلَّم العربية على الشيخ خليل بن محمد الأنصاري اليماني وتخرَّج عليه، ثم تعلم وأتقن اللغة الإنجليزية.

تَعيَّن مُدَرِّساً في دار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٣٤م، وقام بتأسيس مركزا للتعليمات الإسلامية عام ١٩٤٣م، ونظَّم فيها حلقاتِ درسٍ للقرآن الكريم والسنَّة النَّبوِيَّةِ، اختير عضواً في المجلس الانتظامي أو الإداري لندوة العلماء عام ١٩٤٨م، وعُيِّن وكيلا لندوة العلماء للشؤون التعليمية.

دُعِي أستاذاً زائِراً في جامعة دمشق عام ١٩٥٦م

ألقى محاضرات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وفي غيرها.

● **أهم مؤلفاته**

«سيد أحمد شهيد، القراءة الراشدة، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وضع منهاج لطلبة الليسانس في التعليم الديني أسماه إسلاميات، رجال الفكر والدعوة، - فيما بعد- إلى كتابه الكبير رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وغيرها،

وشارك في تحرير العديد من المجلات كالضياء، والندوة.

تم اختياره كعضو ورئيس في العديد من الجامعات والهيئات العالمية كجامعة أكسفورد وجامعة كشمير ومنح درجة الدكتوراه الفخرية منها، ومنح جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٩٩٨م.

● **وفاته**

يوم الجمعة ٢٣ رمضان ١٤٢٠ هـ الموافق ٣١ ديسمبر ١٩٩٩م، ودفن بالهند.

* * *

القرآن بين الإيمان والتطبيق

العدد (٨٤) ذي الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢م)

إن الله ﷻ لما أنزل كتابه على آخر أنبيائه ﷺ أنزله معلنا بأنه أكمل دينه، ولن يبعث بعد ذلك نبيا جديدا ولن ينزل كتابا جديدا من عنده، وهذا الإعلان نفسه يتضمن حقيقة ناصعة هي أن القرآن هداية ثابتة خالدة لكافة النوع البشري في جميع الأزمنة والأمكنة، إذ لو ثبت أن هدايته غير كافية أو أصبحت مفتقرة إلى الإكمال والتنمية في عصر من العصور أو في قطر من الأقطار أو في وضع من أوضاع المجتمع الإنساني لكان يعني ذلك عدم صحة ما أعلنه الله، ومعاذ الله سبحانه وتعالى عن أن يكون في كلامه شائبة من الخطأ، ولأجل ذلك يجب علينا، كمسلمين، أن نقرر في كل شأن من شؤون حياتنا، كنقطة الانطلاق، أن هذا الكتاب هو المصدر الحقيقي للهداية نستمد منه كل ما نحتاج إليه من التوجيه.

والسؤال عن «نقطة الانطلاق» هذا هو الموضوع الوحيد الذي له أهمية بالغة اليوم بالنسبة لجميع أهل العلم والرأي من المسلمين في أنحاء العالم، وإن كانت مهمتنا الرئيسية تتركز على أن ندعو الدنيا إلى هداية الله، إلا أنه من سوء حظنا أن السيطرة الشاملة للحضارة المادية في العصر الحاضر أثارت فينا معشر المسلمين تساؤلا: هل حقا نعتبر القرآن مصدرا حقيقيا للهداية في جميع شؤوننا للحياة؟

وإذا اعتبرناه كذلك، فهل نعتبر جادين مخلصين؟ وإننا مادمنا لا نجيب على هذا السؤال في حد أنفسنا لا نستطيع أن نحقق مهمتنا العالمية التي كلفنا بها كأمة أخرجت للناس.

إن هناك عناصر في الطبقات التي بيدها أزمة التوجيه والقيادة لا تعتبر القرآن مصدرا للهداية في الحقيقة، أو تشك فيه على الأقل.

فهؤلاء يفتقرون إلى دلائل تقنعهم على أن الإنسان كائن لا مندوحة له من هداية الله تعالى، وأن القرآن كتاب منزل منه سبحانه، وهو كتاب شامل مأمون يحتوي على توجيه خالد أبدي.

وهناك أناس آخرون سولت لهم أنفسهم الفكرة القائلة بفصل الدين عن الدنيا، وكل فرد منهم يجعل هداية الله مقصورة في إطار تصوره المحدود للدين. ولن تزول شبهات هؤلاء القوم مادامت لا تواجه ضربة قاضية على فكرة فصل الدين عن الدنيا، ومادام لا يثبت بدلائل ناصعة قوية كون الإنسان في حاجة إلى هداية الله، في جميع شؤون حياته، وكون القرآن كتابا يهدي إلى سواء السبيل في جميع شؤون الحياة من أصغرها إلى أكبرها.

وهناك نوع ثالث من الناس يقرون بشمول هداية القرآن وكماله وخلوده إلا أنه لما ينشأ السؤال حول استمداد الهداية منه، رأينا بعضهم يلتفت إلى مصادر غير القرآن يستورد منها الأفكار والمبادئ، ثم يكرس جهوده في جعل القرآن يؤيدها ويصادق عليها، ورأينا بعضهم يحاول أن يستخرج من القرآن التعاليم التي تصل إليها عقليته هو من خلال ألفاظ القرآن، لا بقطع صلة القرآن بسنة الرسول ﷺ فحسب، بل بصرف النظر عما حققه علماء هذه الأمة وفقهاؤها ومفسروها من أعمال جسيمة في شرح معاني القرآن واستنباط الأصول والفروع من تعاليمه، وهذه الاتجاهات في باب الارتشاف من النبع الإلهي لا تجد أي رجل عنده حظ من العقل أن يراها صورة صحيحة سليمة من الاستنارة بنور الهدى الإلهي، كما لا يمكن أن ينشأ على أساسها نظام موحد من الفكر والعمل للأمة الإسلامية، لأنه من المستبعد أن يقبل ضمير الأمة هذا النوع من التفسير في جانب، وفي الجانب الآخر لا يمكن أن يجمع هذا النمط من المفسرين على تفسيراتهم، ولن يتولد من ازدهار هذه الاتجاهات إلا المزيد من الخلافات في الأمة المسلمة وإثارة شبهات وعقد جديدة في أذهان المسلمين نحو دينهم وكتابهم، وبدل أن يلعبوا دورهم العظيم في دعوة الناس إلى هداية الله يصبحون هم أنفسهم ضحية الحيرة والتخبط في حقيقة هداية الله نفسها، وليس من العلاج لما يعاني هؤلاء القوم في باب

القرآن، أن يوجه إليهم الطعن أو التقريع أو التأنيب، بل إنهم- في الحقيقة- يحتاجون إلى من يرشدهم إلى الطريق القويم للاستفادة من هداية القرآن بوسائل وبراهين معقولة، ويكشف لهم خطأ الطريق الذي يسلكونه في هذا الشأن.

والذين قد ضنت بهم رحمة الله من أن يقعوا في هذه الزلات ينشأ السؤال في شأنهم أيضا، وهو: إلى أي مدى هم جادون في اعتبار القرآن مصدرا حقيقيا للهداية؟ ولا يقتصر معنى «الجدية» في هذا الصدد أن نكون مخلصين في إيماننا بالقرآن ككتاب للهداية فقط، أو أن نكتفي بإعلان هذا الإيمان والبوح به، بل الذي يقتضيه كوننا جادين كل الجدية في هذا الباب أن نرجع إلى هذا المصدر في كل ما يتعلق بحياتنا الفردية والجماعية في واقع الأمر، وأن نفرغ فعلا أخلاقنا وسلوكنا في الحياة، وقوانيننا وحضارتنا، ونظمنا للتعليم والتربية، ونظمنا للاقتصاد والسياسة في قوالب الهداية التي يأخذ بنا القرآن إليها. والذي أشعر به وأشاهده: أنه ينعدم هذا المستوى من الجدية في طبقات تتولى أمر هذه الأمة مع كونهم على اعتقاد صحيح بالقرآن، أو لا تصل هذه الجدية المستوى المطلوب إن لم ينعدم فيهم كليا، وعلينا أن نستنفد جهدنا، قبل كل شيء في خلق الجدية هذه فيهم، لأنه مادامت لا تولد فلا تعدو جميع بحوثنا العملية، في تطبيق تعاليم القرآن في مسائل الحياة، حبرا على الورق حيث لا تجدي بشيء في دنيا الواقع. وأن الدنيا لن تقتنع أبدا بحقيقة الإسلام من خلال البحوث التجريدية الفارغة بل لابد من إقناعها بذلك من أن يتمثل الإسلام في حياتنا القومية الواقعية، وبدون ذلك مهما بذلنا جهودنا في تبليغ الإسلام لا تجد الدنيا أمام أعينها إلا علامة الاستفهام التي تنم عن تساؤل: هل إن هذه الأمة التي لا يتجاوز دينها حدود المساجد، والتي تتبع مبادئ الأجانب وأفكارهم، وتنتهج نهجهم في الحضارة والتشريع والتصورات للحياة هل إن هذه الأمة تؤمن بحقيقة الإسلام في واقع الأمر؟

هذه بضعة أمور أريد أن ألفت إليها الأنظار آملا أن تنال من عناية المفكرين المسلمين ما تستحق من الاهتمام.

محطم الأقفال

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م)

وقف الأستاذ الكبير أبوالحسن الندوي وقفة تأمل عند غار حراء بمكة المكرمة، وتحدث إلى نفسه بهذه الكلمات المضيئة:

كانت الحياة كلها أقفالا معقدة، وأبوابا مقفلة، كان العقل مقفلا أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مقفلا أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين، كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث والأيام، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمارة مقفلا أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء. لقد حاول المصلحون الكبار والمتشرعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا، فإن القفل لا يفتح بغير مفتاحه، وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة، وجربوا مفاتيحه من صناعتهم ومعادنهم فإذا هي لا توافق الأقفال، وإذا هي لا تغني عنهم شيئا، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلتهم.

ففي هذا المكان المتواضع المنقطع عن العالم المتمدن على جبل ليس بمخصب ولا بشامخ، تم ما لم يتم في عواصم العالم الكبير ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة. هنا مَنّ الله على العالم برسالة محمد ﷺ وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلا قفلا، وفتح به هذه الأبواب المقفلة بابًا

بابًا، وضع هذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتوصل مع العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام.

وكان قبل ذلك محاميا مأجورا يدافع عن كل قضية حقا وباطلا.

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه، وعلى الشعور الميت فانتعش وعاش، وتحولت النفس الأمارة بالسوء مطمئنة لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الإثم، حتى يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته، ويلح على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية، حيث لا رقابة عليها، ثم تحضر المدينة وتعرّض نفسها للعقوبة التي هي أشد من القتل، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى، ويخفيه في لباسه، ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير، لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه.

كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين، فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم وتحنو على الضعيف.

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة، فأشعلت كاللهيب وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح فكان راعي الإبل راعي الأمم، وخليفة يحكم العالم.

وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد.

وضع المفتاح على المدرسة المقفلة، وقد هجرها المعلمون، وزهد فيها المتعلمون، وسقطت قيمة العلم فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم وقرن الدين بالعلم، حتى كانت له دولة وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلما لنفسه معلما لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين. وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيا عادلا، وكل حاكم مسلم حكما مقسطا، وأصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط ووجد الإيمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور.

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده والأخ وإخوته والرجل وزوجته، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤوس والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطففين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الإيمان وحذرها من عقاب الله، وقرأ عليها قول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء: ١)، وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله فقال ﷺ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (صحيح البخاري). وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة، ومجتمعا عادلا، وأوجد في أعضائه شعورا عميقا بالأمانة وخوفا شديدا من الآخرة، حتى تورع الأمراء وولاة الأمور وتقشفوا وأصبح سيد القوم خادمهم، ووالي الأمة كولي اليتيم، فزهّدهم في الدنيا ورغبّهم في الآخرة، وأضاف الأموال لله، وقرأ عليهم ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ (الحديد: ٧)، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ (النور: ٣٣).

وحذرهم من اكتناز وادخار الأموال وعدم الإنفاق في سبيل الله، فقرأ عليهم ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ التوبة: ٣٤-٣٥)، أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح، المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع، الأمين، المؤثر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجرا فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيا فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضيا فهو القاضي

العادل الفهم، وإذا كان واليا فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيدا رئيسا فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادما أو أجيرا فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أمينا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع صالحا أمينا مؤثرا للآخرة على الدنيا، متغلبا على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم وحراسة المخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة، مؤثرة للمبادئ على المنافع، والهداية على الجباية. وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها إيمان وعمل صالح وصدق وإخلاص وجد واجتهاد وعدل في الأخذ والعطاء وإنصاف النفس مع الغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي وتمثلت إلي الجماعات الإسلامية الأولى بجملها وتفاصيلها، كأني أشاهدها وأتنفس في جوها، وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

وحانت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، فقلت إني لأرى أقفالا جديدة على أبواب الحياة الإنسانية، وقد قطعت الحياة مراحل طويلة، وخطت خطوات واسعة، وتعقدت الحياة والتوت، وتطورت المسائل وتنوعت، وتساءلت: هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح الضيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء.. هل أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح؟ ولمست هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدت أن هذا الفرد قد أصبح لا يؤمن إلا بالمادة والقوة، ولا يعنى إلا بذاته وشهواته، وأنه يبالغ في تقدير هذه الحياة، ويسرف في عبادة

الذات وإرضاء الشهوات وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية، فإذا كان تاجرا فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها ويبرزها عند غلائها ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيرا فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملا فهو العامل المطفف الذي يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وإذا كان غنيا فهو الغني الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان واليا فهو الوالي الغاش الناهب للأموال، وإذا كان سيدا فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا ينظر إلا إلى فائدته وراحته، وإذا كان خادما فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازنا فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان أكبر من ذلك فهو المادي المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وحزبه، ولا يعرف غيره، وإذا كان زعيما أو قائدا فهو الوطني أو الجندي الذي يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى، والشعوب الأخرى وإذا كان مشرِّعا فهو الذي يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعا اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفا اكتشف الغازات المبيدة للشعوب والمخربة للبلاد والقنبلة الذرية التي تهلك الحرث والنسل، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأسا بإلقاء هذه القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوّن المجتمع وتأسست الحكومة فكان مجتمعا ماديا اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطفيف العامل وشح الغني وغش الوالي واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية الزعماء وإجحاف المشرع وإسراف المخترع وقسوة المنفذ. وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي، وأصبح المفكرون والمشرعون لا يجدون حلا لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى، بل إن حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقتة هي التي تسبب أزمات جديدة، وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديموقراطية إلى دكتاتورية ثم إلى

ديموقراطية، ومن نظام رأسمالي إلى نظام اشتراكي إلى شيوعي، وإذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغير، ويجهلون أو يتجاهلون في كل ذلك أن الفرد هو الفاسد المعوج ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس وأنه فاسد معوج لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه، لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر لا يملكون ما يصلحون به الفرد ويقومون اعوجاجه ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء، لأنهم أفلسوا في الروح وتخلوا عن الإيمان وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الإيمان ويعيد الصلة بين العبد وربه وبين هذه الحياة والحياة الأخرى وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق، وفي الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحي وماديتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير التي تبيد شعبا بأسره وتخرب قطرا بطوله حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات للنهاية الأليمة.

* * *

كيف يستعيد المسلمون مجدهم القديم؟

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - اكتوبر (١٩٧٢م).

إن الإيمان بالله وحده هو الذي يجمع عشرات الألوف من المسلمين، على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم وألوانهم؛ لأداء فريضة الحج، وزيارة المصطفى ﷺ كل عام، وهو الذي وحد بينهم، وجعلهم إخوة في الإيمان إرضاءً لله، وجمعهم في المسجد الحرام.

إن المسلمين الأول كانوا يؤمنون بالله إيمانًا قويًّا، ويثقون بالله ثقة لا نهاية لها، ولا يخافون إلا الله، ولا يخشون في الحق لومة لائم، وكانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، ولذلك كان النصر حليفهم، وقد نصرهم الله على أعدائهم، وفتحوا العالم، ونشروا الإسلام في مدة قصيرة لا تذكر.

لقد كان المسلمون في علمهم وأخلاقهم وإنسانيتهم ووحدتهم، وتضامنهم وتعاونهم، وإيمانهم بالقدرة الإلهية، والعظمة الربانية-خير أمة أخرجت للناس.

كان المسلمون في العصور الأولى متحدين اتحادًا قويًّا، يفكرون في إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها، ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم، ويستهينون بالموت، ويطلبون الاستشهاد، ويقولون: احرص على الموت توهب لك الحياة. ويعملون بقوله ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، فانتصروا، وهابهم العالم كله، وقادوا العالم في العدالة والحرية، والإخاء والمساواة، والحضارة والمدنية.

ولكن أين المسلمون اليوم؟ وأين الأمة الإسلامية العظيمة؟ وأين الأخوة المحمدية؟ وأين الوحدة الإسلامية؟ وأين الرابطة القوية التي كانت تربط

المسلمين بعضهم ببعض في عصور العظمة الإسلامية؟

إن المسلمين اليوم مع الأسف الشديد في عزلة وتخاذل، وتنازع واختلاف، وعداء أحيانا، لأنهم الآن محبون لأنفسهم، ولا يفكرون إلا في أنفسهم، ولا يعيشون إلا لأنفسهم، ولا يحيون إلا لأنفسهم، ولا يفكرون في غيرهم من المسلمين، ولا يعبدون إلا المال والمركز والجاه والسلطان، وأصحاب المال والمركز والجاه والسلطان.

فهل نعجب إذا صاروا ضعفاء بعد أن كانوا أقوياء، وأذلاء بعد أن كانوا أعزاء، ومتأخرين بعد أن كانوا يقودون العالم فيما مضى من الزمان؟.

ولن يستعيد المسلمون مجدهم القديم، وعصرهم الذهبي إلا إذا آمنوا بالله إيمانًا صادقًا، واتحدت كلمتهم، وتعاونت قلوبهم وأرواحهم، وقضوا على الفساد الخلقي، وأعطوا السائلين والمحرومين حقوقهم، وأحب كل مسلم أخاه كما يحب نفسه، وكوَّنوا وحدة إسلامية قوية شاملة للعالم الإسلامي كله، بعيدة عن الاستعمار كل البعد، ونبذوا الأهواء والأغراض، والمنافع الخاصة التي يجرون وراءها، ويفكرون فيها.

إذا استطعنا أن نصل إلى تحقيق الروح الإسلامي الحق، وآمنا بالعظمة الإلهية، ونظمنا حياتنا الإسلامية، وكونا وحدتنا القوية، أمكننا أن نستعيد مجدنا التليد، وقوتنا السالفة. ولن تستطيع أي أمة أن تقف أمام الأمة الإسلامية المتحدة، المؤمنة بالله وعظمته وحده لا شريك له. لن تستطيع أي قوة في العالم أن تستهين بالمسلمين، أو تتحكم فيهم، أو تسيطر عليهم إذا اتحدوا وفكروا في الموت أكثر من تفكيرهم في الحياة كأجدادهم السابقين.

لكي يستعيد المسلمون مجدهم في صدر الإسلام يجب أن ينشروا التعليم في بلادهم، حتى لا يبقى فيها أمي واحد، ويعملوا على رفع مستوى معيشة الفقراء بإعطائهم حقوقهم التي فرضها الله لهم، حتى لا يكون هناك سائل أو محروم بين المسلمين، ويتخلصوا من الفقر، ويعنوا بالتربية الدينية الخلقية المثالية، حتى تقضي على الأثرة، وحب النفس، والفساد الخلقي، ويهتموا بالناحية الصحية

حتى يجد كل مريض وسائل العلاج ميسرة أمامه، ويعنوا بالتربية الجسمية عنايتهم بالتربية العقلية والروحية والوجدانية والعملية.

وبهذا كله نقضي على الجهل والفقر والمرض وفساد الخلق، وهي المشكلات الاجتماعية التي خلفها الاستعمار وراءه قبل أن يرحل من البلاد الإسلامية التي احتلها عشرات السنين، وامتص خيراتها، وخلف لها الجهل والفقر والمرض والفساد.

إن الإسلام قد منح الإنسان حقوقًا، مثل الحرية الشخصية، وحرية العقيدة، وحق المساواة، وحق التعليم، وحق الحياة، وحق الأخوة. وكما منحه كثيرًا من الحقوق فرض علية كثيرًا من الواجبات الدينية التي تتعلق بالدين، والواجبات الإنسانية التي تتصل بالحياة، وأمر بالعدل والإحسان وبر ذوي القربى، والصدق والأمانة والوفاء، ونهى عن الظلم والغدر وحرمان الفقير، والعقوق والكذب والخيانة والسرقة والقتل والزنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل: ٩٠).

ومن العيوب المنتشرة بيننا أننا نفكر فيما لنا من حقوق، ونسعى لأخذ هذه الحقوق، ولكننا لا نؤدي ما علينا من واجبات، فنحن نأخذ ولا نعطي، ولا نشعر بالواجب، ولا نفكر في أدائه، ولا نحاسب أنفسنا على ما قمنا به من عمل، ويجب أن نرضي الله في السر والعلانية. وقد خاطب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (التوبة: ١٠٥). يجب أن نعمل الخير ونفكر في الخير دائما، ونقوم بما علينا من واجبات لله ثم للوطن وللأسرة والجيران، والإنسانية.

فلكي يستعيد المسلمون مجدهم الماضي، وعظمتهم السالفة، يجب أن يتمسكوا بروح الإسلام، ومبادئه المثالية، وأخلاقه الكريمة، ويعودوا إلى إيمانهم القوي بالله، ويكونوا يدا واحدة ووحدة قوية متماسكة متعاونة، ضد المستعمرين والمحتلين، ويتركوا المظاهر الكاذبة، ويدافعوا عن بلادهم، متحدين بقلوبهم وأعمالهم، ويبتعدوا عن الخلاف والنزاع والشقاق، والرياء

والتملق والنفاق، والجري وراء الحكم والجاه والسلطان. عندئذ سينتصرون على الأعداء المغتصبين، ولن يستطيع الاستعمار أن يقف في سبيلهم مهما تكن عدده وأسلحته، وسيكون النصر حليفهم، كما كان حليفًا لأجدادهم من المؤمنين السابقين الأولين.

الاستعمار هو السبب في إضعاف المسلمين

إن الاستعمار قد مزق البلاد الإسلامية، حتى يسهل عليه احتلالها، ويتخذها مناطق نفوذ له، وأسواقًا تجارية لمصنوعاته، ويتحكم في أهلها بما نال من سيطرة وامتيازات، ويسلب ما فيها من خيرات، بجشع وشراهة، وينهب ما فيها من الآثار.

ولهذا كان الاستعمار السبب الأول في إضعاف المسلمين، والتفرقة بينهم، بعد أن كانوا أمة واحدة تتمتع بالحرية، وتسود العالم.

والحمد لله قد تخلص المسلمون في معظم البلاد الإسلامية من القراصنة، وعصابة اللصوص المستعمرين، ومظالمهم واعتداءاتهم، وطغيانهم، وصاروا أحرارا في بلادهم، مستقلين في حياتهم، يعملون لإعادة مجدهم السالف، وقوتهم السابقة، ليكونوا خير أمة، كما كان آباؤهم وأجدادهم في صدر الإسلام.

الشيخ محمد عبده والإسلام

قال المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده: «ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان، ولقي من أعدائه أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل، أوذي الداعي ﷺ بضروب الإيذاء، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من عقبات، لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له، وحرموا الرزق، وطردوا من الدار، وسفكت منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر، يثبت الله بمشهدها المستيقنين، ويقذف بها الرعب في نفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب، وهي ذوب ما فسد من طباعهم، فتجري في مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الأطباء الحاذقين ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ

أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ (الأنفال: ٧٣).

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام، ليحصدوا نبتته، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء، والفقير للأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل، والرشد في ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة.

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم، ولم يعهد لها نظير في ماضيهم، وكان النبي ﷺ قد أبلغ رسالته بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان، فهزأوا وامتنعوا، وناصبوه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على ا لمتاجر، فغزاهم بنفسه، وبعث إليهم البعوث في حياته، وجرى على سنته الأئمة من صحابته، طلبًا للأمن وإبلاغًا للدعوة، فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم، وانهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها، وكثرة عددها، واستكمال أهبتها وعددها، فظفروا منها بما هو معلوم، وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم، وإقامة شعائرهم آمنين مطمئنين، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم بما يمنعون منه أهلهم وأموالهم، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة.

ولم يعهد في تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على أنفسهم العمل على نشره، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم، ومحاسنتهم في المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانًا عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفا.

رفع الإسلام ما ثقل من الإتاوات، ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم. بلغ أمر المسلمين فيما بعد ألا يقبل إسلام من دخل فيه إلا بين يدي قاض شرعي بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا.

ووصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية، وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة، ولذلك أمر عمر بن عبدالعزيز بتعزير مثل أولئك العمال، وأجاب عامله بمصر حينما شكا إليه ذلك «إن محمدًا ﷺ بعث هاديًا، ولم يبعث جابيًا».

ونحن نقول: هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم، لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم، وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئًا من القوة، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه، فما الذي أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام، وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا، وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم؟

لقد دخل أهل الأديان المختلفة في دين الله أفواجًا لأنهم أحسوا أنه دين الطبيعة والفطرة، دين العقل والمنطق، دين الرأي الحر، والتفكير السليم، دين الرحمة والشفقة، دين الإنسانية والنبل، دين الفضيلة والكمال، دين قضى على الرذائل الخلقية، والنقائص البشرية، دين الحرية «والديموقراطية»، دين الدنيا والآخرة، دين يدرك معنى الحياة، ويعنى بالجسم كما يعنى بالروح، دين يدعو إلي الإخلاص في السر والعلانية، وصفاء النية والسريرة، دين ألغى الامتيازات بين الطبقات، ورفع العبيد إلى منزلة الأشراف، وسوى بين الأغنياء والفقراء، ونادى باحترام الشرف والعرض وحقوق الجار، دين يسهل على كل إنسان فهم أحكامه وأسراره، ومعرفة الحكمة في كل تشريع من تشريعاته، دين العدالة المطلقة، وقف بجانب المظلوم ليأخذ له حقه من الظالم، مهما يكن مركز ذلك الظالم وسلطته، دين أخذ للفقراء حقوقهم من الأثرياء.

دين أجاز لامرأة مصرية فقيرة غير مسلمة أن ترفض بيع بيتها الصغير بأي ثمن لحاكم مصر وهو عمرو بن العاص، مع أنه لم يفكر في شرائه لنفسه، بل أراد أن

يشتريه ليوسع به ناحية من المسجد، فرفضت بيعه مع أن ابن العاص عرض عليها أضعاف ثمنه، وشكته إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فأمر ابن العاص برد البيت إلى صاحبته، ولامه على ما فعل، دين سمح ليهودي بالوقوف ضد علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أمام القاضي المسلم، فكان حكمه بينهما مثلا عاليا للعدالة والنزاهة والمساواة.

لهذه المثل السامية دخل الناس في دين الله أفواجًا، وصاروا من أكبر أنصاره، وأنار الله قلوبهم، فاعتنقوا الإسلام برغبة قوية، وعقيدة روحية، ووازع نفسي، لا سيف من ورائهم يخيفهم، ولا مبشر أمامهم يكرههم على اعتناقه.

* * *

دور الإسلام في العصر الحديث

العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٣هـ) - سبتمبر (١٩٧٣م).

بلغ العصر الحديث ذروة العلوم الطبيعية، والكيماوية، والكهربائية، والبيولوجية، فهو عصر الذرة والصاروخ وغزو الكواكب، إلا أن الذرة يقابلها الحضيض، فالعصر ينحط إلى الحضيض في الفوضى الفكرية والخلقية. تتجلى الفوضى الفكرية في المادية، والروحية، والاشتراكية، والرأسمالية، والرجعية، والتقدمية، واليمين، واليسار، والأثرة والإيثار، والحرية، والعبودية، والفرد والأمة، والنسبية، والإطلاق، والناس في ذلك بين إفراط وتفريط، وكل يدعي أنه صاحب الحق، وكل حزب بما لديهم فرحون.

وتتجلى الفوضى الخلقية في المظالم الفردية والجماعية والأنانية المزرية التي تتضاءل أمامها غرائز الوحوش، والإباحية المطلقة التي فتحت أبواب الزنا، والربا، والخمر، والميسر، والسرقة، فنتج عن المظالم الفردية فساد ذات البين، واكتظاظ المحاكم بملايين الدعاوى حتى مل الناس القوانين والقضاء، ونتج عن المظالم الجماعية حروب أحرقت الأخضر واليابس، فمن الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية إلى حرب كوريا، إلى حرب فيتنام، إلى حرب فلسطين، إلى ثورات متوالية في جميع أنحاء المعمورة، وهذه نذر حرب عالمية ثالثة حتى لكأن الأرض قدر يغلي على النار، أو بركان دائم الانفجار يأبى الهدوء والاستقرار، ونجم عن الأنانية عدوان أمة على أمة، واستعباد شعب لشعب، واستغلال القوي للضعيف حتى لكأن البشر أصبحوا وحوشا كاسرة لا هم لها إلا السطو والافتراس، ونتج عن الإباحية ترجل المرأة، وتخنث الرجل، وضياع العفاف، وهدم الأسرة، وأمراض الزهري، وأمراض الكحول والانتحار،

واللصوصية المنظمة، والدجل الهادف، والكفر بجميع المثل.

وإنك لتجد هذه الصورة القبيحة التي تشكل فاجعة القرن العشرين تلف الأكثرية الساحقة من البشر ولم يبق إلا القليل القليل ممن يؤمن بالعدل والإيثار، والعفاف، والأمانة، والصدق، والوفاء حتى لكأن هذه المثل ألفاظ تحتاج إلى ترجمة لكي تستسيغها عقول أبناء الجيل وضمائرهم.

هذه حال العصر اليوم فما هو الدواء؟

إننا حين نقدم الإسلام علاجا لهذا السقم الفكري والخلقي لسنا بمغالين ولا متعصبين، وإنما هي الحقيقة المشفوعة بالحجة والبرهان.

امتاز الإسلام على سائر المبادئ والأديان بدعائم راسخة جعلته الدواء الناجع، والبلسم الشافي، والنظام الصالح لكل زمان ومكان.

مجال الإسلام في العقيدة والفكر

١- الإيمان بالله

إن تعلق المخلوق بعقيدة راسخة معناه الاستقرار الفكري، ومنع الاضطراب والتقلب والتردد، حتى إن حياة بعض الأفراد غير المؤمنين تنقضي، ولما يصلوا إلى اطمئنان أو استقرار، ولم يقدموا خيرا لأنفسهم أو لأمتهم إلا نزاعا أو نقمة، أو ما تمليه عليهم الريبة والضياع، هذا هو الفرق بين حال المؤمن وبين حال الملحد، فكيف إن كان مؤمنا بإله واحد منزه عن الشبيه والشريك، ليس كمثله شيء، محيط بكل شيء، قادر على كل شيء، يحاسب على الصغيرة والكبيرة، ولا بد من لقائه والوقوف بين يديه.

وقد خلت عقيدة الإسلام من أوهام وخيالات الشعوذة وسيطرة رجال الدين، وأقامت في داخل النفس وازعا لا يفارقها، فهو توحيد نقي يؤيده العقل، ويستسلم له المنطق فلا يصطدم بتعقيد التعدد، وتناقضات الآلهة، وما ينشأ عن ذلك من اضطراب فكري وفساد خلقي، ولا يتسع مجال المقال للاستطراد في

إشباع هذه الفقرة أكثر من ذلك، قال تعالى ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الملك: ٢٢) وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ (يوسف: ٣٩) وقال عز من قائل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء: ٢٢).

٢- بين المادية والروحية

ما من دين ولا مبدأ استطاع أن يجمع بين الروح والمادة كما جمع بينهما الإسلام، والمادة والروح كلاهما حقيقة واقعة، ولذلك وجدنا المبادئ المتعلقة بالمادة وحدها اتصفت بالقسوة، والبلادة، والظلم، وجفاف الحياة من البهجة، وخلوها من الرحمة والتعاون والتسامح حتى يمسي الإنسان فيها آلة صماء لا حس لها ولا شعور، ولا راحة لها ولا هناء ولا امتياز، ولا كيان يتحرك بغير إرادته، ويسكن بغير اختياره. ويا له من قتل بشع لذاتية الإنسان التي امتاز بها على الحيوان فهو مسخ تدريجي، وموت لا شعوري، وكيف لا يكون موتًا وقد خلا من الروح، وهل الموت إلا نزع الروح؟

كما نجد المبادئ التي تعلقت بالروح وحدها على غير هدى، وأهملت شأن المادة كل الإهمال عزفت بأتباعها عن الحياة بما فيها من العلوم والصناعة، والزراعة والعمران، وما يتصل بذلك من الاكتشافات والاختراعات التي تتفجر فيها الطاقات الفكرية الكامنة، وقدرة الإنسان العجيبة التي تخرج على العالم كل يوم بأصناف الفنون وأنواع الصنائع، وتبارك الذي دفع الإنسان إلى ذلك دفعًا حينما أنزل عليه قوله تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥).

إذن تجد أن هذه النزعة الروحية المتطرفة هي فرار من الحياة، فلا الأولى أصابت، ولا الأخرى أجابت، ولكن الإسلام وحده هو الذي أصاب الهدف، وأجاب مطالب البشر، فجمع بين المادة والروح، وألح على كل منها بنصوص

صريحة، وخطوط عملية، وحدود واضحة، يتجلى ذلك في الصلاة، جسم يتحرك وروح خاشعة، وفي الصيام، ترويض للبدن وتزكية للأخلاق، وفى الحج سعي وهرولة، ودعاء وتلبية، وفي الزكاة نظام اقتصادي، وعمل أخلاقي، وفي قوله تعالى﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة:٢٤٧) وفي قوله تعالى﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦) وفي قوله تعالى ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ (القصص:٧٧) وفي قوله تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ (التوبة: ١٠٥) وفي قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك: ١٥).

٣- سبيل الاعتدال

يتجلى اعتدال الإسلام بتوسطه بين الإفراط والتفريط، ويبدو ذلك واضحًا بتوسطه بين الاشتراكية العلمية والرأسمالية، وبين الرجعية والتقدمية، وبين الفرد والأمة.

أ- بين الاشتراكية والرأسمالية

قد يطول البحث إذا أردنا التفصيل فيه، فلا بد من الإجمال. فمعايب الاشتراكية العلمية تظهر في نزع الملكية، والقضاء على عنصر المبادرة الشخصية، الأمر الذي يصادم أعمق غريزة بشرية، وهي حب البقاء المرتبطة كل الارتباط بحب التملك، فالإنسان الذي لا يملك لا يعمل، والذي لا يعمل لا ينتج ولا يحسن الإنتاج، مما أدى إلى تراجع في بعض البلاد الشيوعية بإباحة الملكيات الصغيرة ورسم علاوات لمن يزيد في الإنتاج، وهذا التراجع وحده طعنة في صميم هذا النظام ينذر بالقضاء عليه في المستقبل إن لم يفرض على الإنسان بالحديد والنار، فالإنسان ليس مجرد آلة يعمل ولا يملك أو يندفع لتحسين الإنتاج باضطراب، ولو كان الإنتاج لغيره وهو فوق ذلك محروم الحرية مكبوت الأنفاس، إن مثل هذا الاندفاع ضرب من المستحيل، ولذلك وجدنا أن كل نظام

يصادم فطرة الإنسان وغريزته صائر حتمًا إلى زوال طال الزمن أو قصر.

وأما معايب الرأسمالية فتتمثل في تضخم المال، وما ينشأ عنه من فروق طبقية مخيفة، وباستغلال الغني للفقير، وما ينشأ عنه من الربا الفاحش والظلم الفادح والاحتكار والتلاعب بالأسواق لحساب طبقة خاصة على حساب سواد الناس، والربح غير المشروع كالربح الفاحش، والقمار، والغش، تلك المعايب التي أحدثت ردود فعل عنيفة كانت من جملتها النظم الاشتراكية، ولا بد لكل رد فعل ألا يتصف بالاتزان، لذلك اشتملت الاشتراكية على عيوب أخرى هي نقائض عيوب الرأسمالية، وفي كلتا الوجهتين غلو وتطرف، كما بين الإفراط والتفريط.

ولكن الإسلام- على ضوء هذا المخطط المجمل- هو الذي خلا من عيوب الوجهتين، والتزم طريق الاعتدال، فلم يحرم الملكية فيصادم فطرة البشر، ويقضي على طاقاتهم وفعالياتهم، وتسابقهم الشريف، وتنافسهم المضطرد، ذلك العنصر الأساسي في المبادرة الشخصية التي هي أساس كثرة وتحسين الإنتاج وهذا أساس لا بد منه لصلاحية كل نظام اقتصادي، ولكنه لم يدع الباب مفتوحًا على مصراعيه شأن الرأسمالية حتى احتاط دون تضخم المال، وما يجر إليه من سيئات فعالج الأمر بشرطين على رأس المال، وشرطين على الربح، إجمالا دون تفصيل.

أما الشرط الأول المضروب على رأس المال فهو الزكاة التي تبلغ في النقد ٢,٥٪ بحيث يتحول أصل أي ثروة كانت، مهما عظمت، إلى الأمة خلال أربعين سنة، ومعنى هذا أن الفرد يهب أصل ماله كله للمجتمع خلال دورة زمنية لا تمتد أكثر من أربعين سنة فتأمل، ومثل هذا لا يوجد في الرأسمالية.

أما الشرط الثاني المضروب على رأس المال فهو الإرث، وهو كفيل بتفتيت الثروات وتحويلها من فرد واحد إلى عدة أفراد حسب عدد الورثة، ومثل هذا غير متوفر في النظام الرأسمالي في أكثر البلاد.

وأما الشرط الأول المضروب على الربح فهو تحريم الربا الذي يكدس ثروات طائلة بأيدي الأشخاص بغير جهد ولا نصب إلا استغلال الفقراء والضعفاء، ولو

أحصينا عدد الأثرياء في البلاد الرأسمالية لوجدنا أكثرهم مرابين، أساس ثرواتهم الفاحشة مبني على الربا.

وأما الشرط الثاني المضروب على الربح فهو تحريم القمار و كل ما يشبهه من الأرباح الفاحشة غير المشروعة التي كثيرًا ما تؤدي إلى الثراء الفاحش والتضخم المالي بيد طبقة على حساب طبقة أخرى بغير حق.

واحتاط الإسلام أيضًا وراء هذه الشروط الأربعة بقواعد عامة خلت منها النظم الرأسمالية، وهي تحريم الاحتكار، وتواطؤ التجار والاستغلال والربح الفاحش، والغش، والتلاعب بالأسعار، إلى آخر ما هنالك من سيئات النظام الرأسمالي، الذي لم يكن له أساس من العقيدة يرجع إليه في تهذيب اقتصاده، وفرض نظام على هدى ومنطق سليم.

إذن يجد المنصف أن الإسلام جاء العالم بخير الحلول الاقتصادية عدلا واتزانًا وإنتاجًا وخلوًا من الأحقاد، وبعدًا عن ردود الفعل المتوالية المتمثلة في الإفراط والتفريط.

ب- بين الرجعية والتقدمية

تلك النغمة التي قسمت العالم فريقين، واستغلتها السياسة أبشع استغلال حتى كاد يضيع مفهومها ومدلولها، فكل أمة مالت إلى اليسار فتجلى ذلك لديها بالإلحاد، والإباحية، والعنف، والقسوة والتحلل من القيود والريبة فهي تقدمية، وكل أمة مالت إلى الجمود والثبات على بعض المفاهيم، والاصطباغ بصبغة الدين والتغني بنوع من الأخلاق، والارتباط بالقديم فهي رجعية، ولكن السياسة كما قلنا مسخت حتى هذا التمييز على ما فيه من باطل في دوامتها السريعة، واستغلالها المغرض، فإن إنجلترا مثلا رجعية بالنسبة لروسيا، وإن روسيا مثلا رجعية بالنسبة للصين، وهكذا يجري التسابق الرخيص دون معايير منطقية، حتى أمسى سبابًا وشتائم قبل أن يكون تقويمًا حقيقيًّا مبنيًّا على معايير صحيحة ومنطق سليم.

والحق في هذه المسألة أن كل إنسان عاقل يجب أن ينشد التقدم، والذي لا

يتقدم يتأخر حتمًا، ولكنه يجب أن يتقدم إلى القمة لا إلى الهاوية، إذن فثمة تقدم محمود، وهو الصعود المتمثل في رقي العلوم والزراعة والعمران وما يتصل بذلك من اكتشافات واختراعات لا تقف عند حد، حتى أوصلت الإنسان إلى القمر، فمهما تقدم الإنسان في هذا المضمار فهو تقدم محمود وسير غير محدود﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦)، وثمة تقدم مذموم وهو الانحدار المتمثل في القضاء على المثل العليا، والفضائل المجمع عليها، والانغماس في الرذائل المجمع على قبحها وإيذائها، كالكذب، والخيانة، والمكر، والغش، ونقض العهد والسرقة، تلك السيئات التي وجدت لها مرتعًا خصبًا في أوساط أدعياء التقدمية العصرية، لأنهم كفروا بنقائضها من المثل العليا خشية أن يوصموا بالرجعية.

وكما أن للتقدم نوعين، محمودًا ومذمومًا، كذلك الأمر في الرجعية، فثمة رجوع محمود يتمثل في الرجوع إلى الحق مهما كان قديمًا، ورجوع مذموم يتمثل بالرجوع إلى القديم ولو كان خطأ أو نقصًا.

أما الأول فإنه الرجوع إلى الصدق، والوفاء، والأمانة، والعدل مهما تقادم الزمن، والرجوع إلى ما ثبت من الحقائق الرياضية، والهندسية، والجغرافية، وما شاكلها مهما تقادم عليها الزمن، ذلك أن ثمة أمورًا لا يمسها التطور إلى أن تقوم الساعة، ومن الغباوة المخجلة تركها والجنوح إلى نقائضها بداعي التقدمية والخلاص من الرجعية، والظاهر أن التعبير بالرجعية كان قديمًا يتعرض له أصحاب الدعوات في كل عصر، حتى وجدنا بعض مناوئي الإسلام يرمون الدعوة الإسلامية بالرجعية إبان ظهورها وتقدمها، فيقولون، كما حكى القرآن عنهم، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٨٣)، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ (الشعراء: ١٣٧) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ (الفرقان: ٥) ولم يحل هذا التعبير بالرجعية دون تقدم الإسلام وظهوره.

وأما الرجوع المذموم فهو التمسك بكل قديم مهما كان، ولو تبين خطؤه، أو ظهر خير منه، وأجدى على الفرد والمجتمع، كمن يصر على وسائل الزراعة

والصناعة والعمران التي كانت تستعمل قديمًا، ويحول دون العلوم العصرية التي قطعت شوطًا عظيمًا في التقدم، فهل لمثل هذا مبرر من عقل أو شرح؟

لا يمكن أن يوصف مثل هذا بغير الغباوة والجريمة، ولمثل هذا يقال بحق: إن دولاب الزمن لا يرجع إلى الوراء.

وعلى ضوء هذا التقسيم الواضح المنطقي في التقدمية والرجعية نجد أن الإسلام كان وسطًا بين النظرتين الجائرتين بعيدًا عن أكاذيب السياسة، محفوظًا من التسابق غير الشريف، لا يوزع الألفاظ جزافًا، ولا يتغنى بالألحان الفارغة، فهو ينشد التقدم المحمود، ويحض عليه، ويرجع إلى الحق مهما كان قديمًا، ويصر عليه، وبذلك تضمن أسباب البقاء والخلود، واشتمل على عناصر الحياة الباقية للفرد والمجتمع، وإن شئت فاقرأ قوله تعالى ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ (النمل: ٦١) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: ١٦٤) ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ (يس: ٣٨) ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥) والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الدالة على ذلك من أمور الزراعة، والصناعة، والفلك وما إليها تكاد لا تحصر، ولا يتسع المجال للتفصيل في ذلك أكثر.

ج- بين الفرد والأمة

غالت بعض النظم في قيمة الفرد حتى جعلته إلها يعبد من دون الله، فنشأ من ذلك الحكم الدكتاتوري والفاشي والنازي، وكانت الأمة فريسة لطغيان الفرد، فكم ديست كرامات، وانتهكت حرمات، وكبتت حريات بسبب ذلك الحكم الفردي الجائر الذي هدر حقوق الأمة وسلبها كرامتها وحريتها، وادعت بعض النظم أن الحكم للأمة، ولا قيمة للفرد، فهو مسمار في عجلة الجماعة، فلا رأي له ولا قدسية، ولا حرية، ولا كرامة، فاقتيد الناس كالبهائم، وحشروا حشر

السوائم، وسجنت جحافل فوق جحافل، كتل بشرية تزجر كما تزجر الآلات الصماء، وتسخر كما يسخر الأرقاء، ويتمنون لو استطاعوا الصراخ.. الصراخ فقط للتعبير عن الألم فلا يستطيعون.

أما الإسلام، وهنا تتجلى العظمة والإعجاز البالغ، فهو الذي ألف بين حقوق الفرد والجماعة دون أن يهدر كيان الفرد، أو يعتدي على الجماعة، الخليفة يحكم وله على الناس الطاعة، ولكن إن اعتدى وظلم فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإن زل وأخطأ قامت إليه امرأة تصحح له فيقول «أصابت امرأة وأخطأ عمر» وإن أراد أن يستبد فالأمة له بالمرصاد، وإن أراد أن يستأثر برأيه، ويضرب بآراء الناس عرض الحائط خوطب بالآيات الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، وإن أراد أن يستهين بفرد واحد باعتداء أو حرمان حق أو هدر دم زجرته الآية الكريمة التي تشير إلى قدسية النفس الإنسانية وحمايتها ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)، للفرد حقوقه وحدوده، وللأمة حقوقها وحدودها، والجميع يعملون يدًا واحدة في وحدة متماسكة كالجسد الواحد﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ (الصف: ٤) وكما أخبر- عليه الصلاة والسلام- «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

مجال الإسلام في الأخلاق

لا أحد يستطيع أن ينكر الواقع البشري المنحط من الناحية الأخلاقية.

فالظلم والإباحية والأنانية وكل رزية من هذه الرزايا لعبت دورها الكبير في المجتمعات الحاضرة، وانحط فيها الخط البياني إلى الحضيض.

تعال معي إلى دور القضاء، ومكاتب المحامين، وسجلات الجرائم في كل

العالم لترى إلى أي حد بلغت المظالم الفردية، وأي رقم بلغت الجريمة، فالفرد اعتاد الظلم، ودرج عليه، والقضاء فاسد ليست فيه عقوبة رادعة في الأغلب، والمحامون كثير منهم تجار مادة على حساب ضمائرهم، أضرموا نيران الجرائم لكي تمتلئ جيوبهم، والحكام كثير منهم زور عن الحق، ولو ظهر جليًّا لأعينهم، كل أطراف القضية متواطئون على الجريمة، وكل أسوار الحمى منتقضة حتى ضجت الأرض من ظلم أهلها، فأين يجد العدل مأمنه ويحظى الحق بحماه؟

هنا يبرز دور الإسلام العظيم في تهذيب الفرد، وإقامة وازعه الداخلي الذي يرافقه حتى الممات، مبنيًّا على مراقبة الله، وخشية الوقوف بين يديه، واليقين بزوال الدنيا، وبقاء الآخرة، وفي صلاحية مادة القضاء التي تضع الأمور في نصابها ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وفي تقويم الضمائر حتى تحكم بالعدل، وتقول الحق، ولو كان على النفس أو الوالدين والأقربين ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، فالمحامي، والحاكم، والشاهد إنما هم موازين حق يحاسبون على الذرة والقطمير ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ (الزلزلة: ٧-٨)، ذلك أن الحاكم يتمثل قول الرسول- عليه الصلاة والسلام - «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن»، وقوله- عليه الصلاة والسلام- «قاض في الجنة وقاضيان في النار»، والشاهد يتمثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، ووعيد رسول الله ﷺ حينما جعل شهادة الزور من أكبر الكبائر، وأصبح المحامي يخشى إن دافع عن ظلم وباطل أن يكون رزقه سحتا «وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به» فما أحوج العصر لنور الإسلام.

ثم تعال معي نحص حصاد الإباحية إن كان يمكن الإحصاء.

كم فتكت الإباحية في كيان البشرية بالزنا والربا والخمر والميسر بداعي الحرية الزائف وسرابها الخادع، تعال معي إلى عيادات الأطباء وسجلات المستشفيات في شرق الأرض وغربها لترى ما يذهل العقول من أرقام ضحايا

الزنا، والربا، والخمر، والميسر، إن أنواع الأمراض الزهرية من الإفرنجي والسيلان والقرحة اللينة، وأنواع التسمم الغولي من تشمع الكبد، وقرحة المعدة وتصلب الشرايين، وعدد ضحايا الانتحار من جراء الربا، والقمار انتشرت في جميع أنحاء المعمورة، وتزايدت أرقامها باضطراب حتى عجز الطب عن المعالجة، وسرى المرض من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجداد إلى الأحفاد، ويكفي أن تعلم أن أكثر أسباب السكتة القلبية (الجلطة) والسكتة الدماغية عائد إلى الخمر والإفرنجي حتى تعلم ما تجره هاتان الغائلتان على العالم من شرور، وهنا تذكر دور الإسلام العظيم الذي ينادي بأعلى صوته ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، (المائدة: ٩٠)، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء: ٣٢).

وشرع العقوبة الرادعة حتى لا يبقى الحكم نظريًّا لا فائدة منه فقال ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (النور: ٢).

ثم شرع عقوبة التعزير لشارب الخمر، كما ثبت في السنة الصحيحة، بل ورد وجوب قتله إن أصر على المعصية جهارًا ولم يرتدع.

والأثرة (وهي الأنانية) ذلك الداء الوبيل الذي أصبح يتحكم بتصرفات الأفراد والجماعات حتى كاد يكون أس جميع المفاسد، وطابع جميع الأعمال، بل تأصل في النفوس، وطغى عليها حتى نسيت عاره، وانسجمت معه، فاحتكمت إليه، فأصبح مقياسًا للاندفاع في العمل، أو الإحجام عنه، فالعمل بمقدار ما يؤمّن لك مصلحتك الخاصة يكون عملاً صالحًا يجب الإقدام عليه، وبمقدار ما ينافي مصلحتك الخاصة يجب الإحجام عنه ولو كان فيه نفع غيرك أو نفع الأمة قاطبة، يا سبحان الله! كيف انقلبت المفاهيم ومسخت الأخلاق؟

ولك أن تتصور بعد ذلك هول الانحدار الذي تتردى فيه الإنسانية إلى هوة سحيقة عرفت أولها، ولا يمكن أن تعرف آخرها، لأن قعر جهنم لا يعرف له مدى إلا في علم الله تعالى، هنا تبدو عظمة الإسلام أيضا الذي يأبى إلا أن يبني

الأخلاق على أساس متين، وإلا أن يحل المشكلات حلولا جذرية ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة: ١٠٩).

فإذا كانت حضارة العصر تبنى أخلاق بنيها على الإنسانية الممقوتة فإن أخلاق الإسلام مبنية على الإيثار والغيرة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وبهذا الدستور الخالد تحسم أكثر الجرائم التي إن بحثنا عن أسبابها العميقة وجدناها ترجع إلى أنانية ممقوتة تخفي تحتها أقبح صور الحقد على الناس، ولا يتسع المجال لضرب كثير من الأمثلة العملية التي تفضح سوآت الأنانية، وتفصح عن مجال الغيرة، فذلك يستقل وحده بموضوع، وإنما كان البحث على مستوى الأصول لا الفروع.

بهذا العرض السريع المجمل يتبين ما للإسلام من دور عظيم في إصلاح حياة الأفراد والجماعات، لا سيما العصر الذي نعيش فيه، فإنه بقدر ما تكون الأرض عطشى تحتاج إلى الماء، وبقدر ما تحتبس الأنفاس تحتاج إلى الهواء، وإن نظرة فاحصة مجردة تتمتع بالنزاهة كافية للاقتناع بصلاحية هذا الدستور الإلهي العظيم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وإن غدًا لناظره قريب، وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

الدعوة إلى الله

بعض سماتها المطلوبة في هذا العصر

العدد (١٦٩) محرم (١٣٩٩هـ) - ديسمبر (١٩٧٨م).

سأتناول في هذه الكلمة، بعض السمات البارزة التي يجب أن تتسم بها الدعوة والدعاة في هذا العصر، حتى يستطيعوا أن يقوموا بدور الدعوة في أتم وجه، ويبلغوا رسالة الرسل عليهم السلام، ويؤثروا التأثير المطلوب.

أما الدعوة الإسلامية، فيجب أن تكون هذه الدعوة، جامعة بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامي، وإثارة الشعور الديني، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته، فإن المتتبع لأحوال العالم الإسلامي اليوم، وواقع الأقطار الإسلامية وحكوماتها وشعوبها، يعرف أن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام، وحبها له، هو الحاجز السميك، والسد المنيع، لكثير من القيادات التي خضعت للحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها، وفلسفاتها ونظمها، وآمنت بها إيماناً كإيمان المتدينين بالديانات، والمؤمنين بالشرائع السماوية، وفقدت الثقة بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث وتطوراته وأحداثه، وكرسالة خالدة عالمية، فإسلام هذه الشعوب والمجتمعات، وكونها لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن، ولا تندفع إلا لما يجيء عن طريقهما، ولما يمس قلبها ويخاطب ضميرها، يعوق كثير من هذه القيادات عن نبذ الإسلام نبذاً كلياً وإعلان الحرب عليه.

وقد لجأ بعض هذه القيادات في ساعات عصيبة، إلى إثارة هذا الإيمان والحماس الديني، واستخدامهما لكسب المعركة أو الانتصار على العدو حين رأت أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وإلى إيمان هذه الشعوب السليمة المؤمنة، فرفعت هتاف التكبير «الجهاد» و«الشهادة» في سبيل الله، ومحاربة العدو الكافر

المهاجم كما فعلت الجزائر في حربها مع الفرنسيين وباكستان في حرب ١٩٦٥م، وجربت فائدة هذا الإيمان وقوة هذه العاطفة.

فأصبح إيمان هذه الشعوب وتمسكها بالإسلام وتحمسها له، هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد، وكثير من القيادات والحكومات الإسلامية في حظيرة الإسلام، فإذا تهدم هذا السور- لا سمح الله بذلك- أو تسوره دعاة الكفر واللادينية، أو تيار الردة الفكرية والحضارية، فالخطر كل الخطر على الإسلام في هذه البلاد، ولا يمنع هؤلاء القادة المحاربين للإسلام، والمضمرين له العداء والحقد شيء من أن يخلعوا العذار ويطرحوا الحشمة والتكلف، ويجردوا هذه الأقطار والشعوب العريقة في الإسلام من كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، فإن الشيء الوحيد الذي يخافون معرته، ويحسبون له حساباً، هو ثورة هذه الشعوب على هذه القيادات بدافع الإيمان والحماس الإسلامي، فيفقدهم ذلك ما يتمتعون به من كراسي الحكم ومركز القيادة، فإذا زال الحاجز لم يقف في وجههم شيء!

إذن فيجب على دعاة الإسلام والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية، الاحتفاظ بهذه البقية الباقية من الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير، والمحافظة على الجمرة الإيمانية من أن لا تنطفئ.

ولا يصح الاقتصار على تحريك الإيمان، وإثارة العاطفة الدينية في نفوس الشعوب والجماهير، بل يجب أن تضم إليه تنمية الوعي الصحيح وتربيته، والفهم للحقائق والقضايا، والتمييز بين الصديق والعدو، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر، فقد رأينا أن الشعوب التي يضعف فيها هذا الوعي أو تحرمه، يتسلط عليها- رغم تمسكها بالإسلام وحبها له- قائد منافق، أو زعيم ماكر أو عدو جبار، فيصفق له الشعب بكل حرارة ويسير في ركابه، فيسوقها بالعصا سوق الراعي لقطعان من الغنم، لا تعقل ولا تملك من أمرها شيئاً، ولا يمنعها تمسكها بالإسلام وحبها له، من أن تكون فريسة سهلة، أو لقمة سائغة للقيادات اللادينية، أو المؤامرات ضد الإسلام.

وقد كان ما يمتاز به المجتمع الإسلامي الأول، الصحابة رضي الله عنهم بفضل التربية النبوية الدقيقة الشاملة وبالجمع بين الدين المتين الذي لا مغمز فيه، والإيمان القوي الذي لا يعتريه وهن، وبين الوعي الناضج الكامل، فكانوا لا يخدعون ولا ينخدعون، ولا يسيغون شيئاً ينافي الإسلام وينافي العقل، والذي يضرهم ويجني عليهم، أو يوقعهم في خطر أو تهلكة، أنهم قد بلغوا من الرشد، واستكملوا الحصافة والنضج، فلا يؤخذون على غرة، ولا يقعون في شرك ينصبه العدو الماكر، يخطئون ولكن لا يصرون، ولا تتكرر منهم غلطات وتورطات، وقد جاء في حديث صحيح «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» رواه البخاري، بخلاف الشعوب الفاقدة الوعي فهي تلدغ مرة بعد مرة، وذلك لأن رسول الله ﷺ أخذ صحابته الكرام بتربية وتعاليم آمنوا بها عن الوقوع في الشباك، وامتنعوا بها عن قبول ما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وآدابه والفطر السليمة والعقول المستقيمة، فكان مجتمعاً نموذجياً مثالياً في كل شيء.

وأعرض - على سبيل المثال - مثالين من هذا العقل الحصيف والوعي الكامل الأول:

أن النبي ﷺ قال مرة «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» وهو مثل جاهلي قديم، وعرف من أعراف العرب الأولين، تمسك به العرب في جاهليتهم كما قال العلامة الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث في كتابه الجليل فتح الباري، فكان المتوقع المعقول أن يتلقاه الصحابة - وقد نشأوا في الجاهلية وعاشوا في الجزيرة - إما بالقبول، وإما بالسكوت. وقد صدر هذا الكلام من النبي المعصوم الذي زكى الله قوله فقال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤) وقد عرف حبهم لنبيهم ﷺ وفداؤه له بالنفس، والنفيس، وكان حباً لا نظير له في تاريخ الديانات والرسالات، وفي تاريخ الحب والطاعة العالمي، وكان تفسيراً للحديث المشهور «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (متفق عليه) وجاء في بعض الروايات «من نفسه» ولكن كل ذلك لم يمنعهم عن التساؤل أو الاستيضاح، فإن ظاهر الكلام

كان ينفي ما فهموه من تعاليم الإسلام، وما شاهدوه من تربية الرسول وأخلاقه، وما آمنوا به من مبدأ الإنصاف والمساواة وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، قيل يا رسول الله، كيف أنصره ظالماً؟

هنالك فسره رسول الله ﷺ تفسيراً يتفق مع تعاليمه السابقة الدائمة فقال «تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره» والحديث رواه أحمد والبخاري والترمذي. هنالك اقتنع الصحابة رضي الله عنهم، وشفيت صدورهم، فازدادوا إيماناً على إيمان، وهو مثال بليغ رائع من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول.

والمثال الثاني:

أن رسول الله ﷺ أرسل سرية، وأمر الصحابة بطاعة الأمير، وقد كان في هذه السرية ما لم يرض الأمير، وقد كان في هذه السرية ما لم يرض الأمير، وشك في انقيادهم له، فأمر بالحطب، فجمع، وأمر بالنار فأشعلت، ثم قال: خوضوها، فامتنع الصحابة رضي الله عنهم عن طاعته في ذلك لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (حديث رواه أحمد والحاكم وإسناده صحيح) وقالوا: إنما فررنا من النار، ولما رجع إلى المدينة شكا على رسول الله ﷺ فصوب فعلهم، وقال: «لو دخلوا فيها، لم يزالوا فيها، وقال: لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف (ذكرت القصة بطولها في سنن أبي داود، كتاب الجهاد).

وكانت نتيجة ضعف بعض الشعوب المسلمة القوية في إيمانها، الغنية في مظاهرها الإيمانية، ومراكزها الدينية، وثروتها العلمية أنها كانت فريسة سهلة للهتافات الجاهلية، اللغوية والثقافية، ولعبة القيادات المداهنة والمؤامرات الأجنبية، وذهبت ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني، والعقل الإيماني، كما وقع في باكستان الشرقية في (١٩٧٠م)، فقد قامت فيها مجزرة إنسانية هائلة

وما ذلك إلا بسحر دعوات العصبية اللغوية والعصبية الوطنية على هذا الشعب المسلم المؤمن الذي كان له تاريخ مجيد في البطولات الإسلامية وخدمة الإسلام والعلم ونهض فيه علماء كبار ودعاة إلى الله، وغصت بلادها بالمساجد والمدارس وكانت عاصفة هوجاء، هبت ثم ركدت، ونار حامية التهبت ثم انطفأت، ولكنها زلزلت أركان الإسلام في هذه المنطقة، وأضعفت الكيان الإسلامي، وكانت حجة لأعداء الإسلام الذين يقولون إن الإسلام لا يستطيع أن يقاوم العصبيات القومية ولا يقتلع جذورها من نفوس أتباعه.

وواجب ثالث مقدس من واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية، هو صيانة الحقائق الدينية، والمفاهيم الإسلامية من التحريف، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية، التي نشأت في أجواء خاصة، وبيئات مختلفة، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير، فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات، بل أكثر منها وأشد، لأنها حصون الإسلام المنيعة، وحماه وشعائره، وإخضاعها للتصورات الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية، إساءة إليها لا إحسان، وإضعاف لها لا تقوية، وتعريض للخطر لا حصانة، ونزول بها إلى المستوى الهابط لا رفع لشأنها كما يتصور كثير من الناس، فإذا قلنا الحج مؤتمر إسلامي عالمي، لم ننصف للحج، ولم ننصف لمن نخاطبه، ونريد أن نفهمه حقيقة الحج وروحه ولما شرع له ولم ننصح لكليهما، وإن روح الحج وسر تشريعه، غير ما تعقد له المؤتمرات صباح مساء، ولو كان الحج مؤتمراً إسلامياً عالمياً لكان له شأن ونظام غير هذا النظام، وجو غير هذا الجو، ولكان النداء له مقصوراً على طبقات مثقفة واعية فقط وعلى قادة الرأي وزعماء المسلمين.

كذلك حقيقة العبادة وحقيقة الصلاة، وحقيقة الزكاة والصوم، فلا يجوز العبث بهذه المصطلحات والتجني عليها، وإخضاعها للفلسفات الجديدة، وتفسيرها بالشيء الذي لا ثقة به ولا قرار له، وقد استخدمت هذه «الإستراتيجية

الدعائية» الباطنية في القرن الخامس الهجري فما بعده ففسروا المصطلحات الدينية بما شاءوا وشاءت أهواؤهم ومصالحهم وتفننوا فيه، وأتوا بالعجب العجاب، وحققوا به غرضهم من إزالة الثقة بهذه الكلمات المتواترة التي هي أسوار الشريعة الإسلامية وحصونها، وشعائرها، ونشر الفوضى في المجتمع الإسلامي، والجماهير المسلمة، وإذا فقدت هذه الكلمات التي توارثت فهمها الأجيال المسلمة وتواتر في المسلمين، وأصبح فيها مساغ لكل داع إلى نحلة جديدة، ورأي شاذ، وقول طريف، فقد أصبحت قلعة الإسلام مفتوحة لكل مهاجم ولكل منافق، وزالت الثقة بالقرآن والحديث واللغة العربية، وجاز لكل قائل أن يقول ما شاء ويدعو إلى ما شاء، وهذه فتنة لا تساويها فتنة وخطر لا يكافئه خطر.

إن مفاهيم هذه الكلمات معينة - على اتساعها وبلاغتها وعمقها وكثرة معانيها- وإن الأمة توارثت هذه المفاهيم المعينة كما توارثت أشكال الصلاة والصوم والحج ونظمها الظاهرة، وتناقلتها وحافظة عليها من غير أقل انقطاع أو أقصر فترة، وإنه معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩) و﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) وهو معنى الحديث المشهور الذي صح معناه «لا تجتمع أمتي على الضلالة» وقد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية أن سنة واحة من السنن الكثيرة لم ترتفع من هذه الأمة بشكل كلي، وإنها لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق.

والكلمات هي الوسيلة الوحيدة لنقل المعاني والحقائق من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر، ومن إنسان إلى إنسان، فإذا وقع الشك في مدلول هذه الكلمات ومصداقها، أو صار التلاعب بها هيناً اضطربت دعائم الدين وتزلزلت أركانه، وهذا يعم التاريخ والشعر والأدب، لذلك كانت الفوضى اللغوية Linguistic Anarchy ومن أمثلة هذا التلاعب بالمصطلحات الدينية، أن أستاذاً في إحدى جامعات الهند الكبرى، وهو يدرس اللغة العربية وآدابها، ألقى محاضرة في دورة مؤتمر الدراسات الإسلامية الأخيرة قال فيها أن المراد بكلمة

«الصلاة» حيثما وردت في القرآن مطلقة «الحكومة المحلية» أو «الإقليمية» والمراد «بالصلاة الوسطى» الحكومة المركزية أو «الخلافة العامة» وكان المقال باللغة العربية، وقد رددت عليه في حينه وقلت في تعليقي عليه أنه تلاعب بالقرآن وبالعقل وتمهيد لفوضى لغوية فكرية، وفتح الباب للإلحاد على مصراعيه.

وليست قضية الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذي يتصوره كثير من الناس، فإنها تؤثر في النفس تأثيراً خاصاً وتثير معاني وأحاسيس ذات الصلة بالماضي، وذات الصلة بالعقائد والأعراف أحياناً ولذلك كره رسول الله ﷺ أن يقال «العتمة» مكان العشاء «ويوم العروبة» بدل الجمعة، واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة، وله أمثلة أخرى في الشريعة الإسلامية.

وكذلك أحذر المسلمين مما لوحظ من بعض الكتاب من الضغط على أن هذه الأركان الدينية، وفرائض الإسلام، كالصلاة والزكاة والصيام، والحج، وسائل لا غايات، إنما شرعت لإقامة الحكم الإسلامي وتنظيم المجتمع المسلم، وتقويته، وأحذر من كل ما يحط من شأن روح العبادة والصلة بين العبد وربه وامتثال الأمر، ومن التوسع في بيان فوائدها الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أحياناً توسعاً يخيل للمخاطب أو القارئ أنها أساليب تربوية أو عسكرية أو تنظيمية، قيمتها ما يعود منها على المجتمع من قوم ونظام، أو صحة بدنية وفوائد طبية، فإن أول إضرار هذا الأسلوب من التفكير أو التفسير، أنه يفقد هذه العبادات قيمتها وقوتها وهو امتثال أمر الله وطلب رضاه بذلك، والإيمان والاحتساب والقرب عند الله تعالى وهي خسارة عظيمة لا تعوض بآية فائدة، وفراغ لا يملأ بأي شيء في الدنيا.

والضرر الثاني أنه لو توصل أحد المشرعين أو الحكماء المربين إلى أساليب أخرى قد تكون أنفع، أو يخيل أنها أنفع، لتحقيق هذه الأغراض الاجتماعية أو التنظيمية أو الطبية لاستغنى كثير من الذين آمنوا بهذه الفوائد عن الأركان والعبادات الشرعية، وتمسكوا بهذه الأساليب أو التجارب الجديدة، وبذلك يكون الدين دائماً معرضاً للخطر ولعبة للعابثين والمحرفين.

وهذا لا ينافي الغوص في أعماق هذه الأركان والأحكام والحقائق الدينية، والكشف عن أسرارها وفوائدها الاجتماعية، وقد أفاض علماء الإسلام قديماً وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية، وقد أفاض علماء الإسلام قديماً وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية، وأسرار العبادات والفرائض والأحكام الشرعية، وألفوا كتباً مستقلة وكتبوا بحوثاً جليلة، كالغزالي والخطابي، وعز الدين بن عبد السلام وابن القيم الجوزية، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، ولكن كل ذلك من غير تحريف لحقيقة هذه العبادات والأحكام، والغاية الأولى التي شرعت لها، وهي امتثال الأمر الإلهي، والتقرب إليه بذلك، والإيمان والاحتساب فيها ومن غير إخضاع لها للفلسفات العجمية أو الأجنبية في عصرهم، ومن غير خضوع بسحرها وبريقها.

وأحذركم ثانية أيها الشباب من كل ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية والشرك الجلي من عبادة غير الله والسجود له وتقديم النذور والقرابين وإشراكه في صفات الله من قدرة وعلم، وتصرف، وإماتة وإحياء، وإسعاد وأشقاء، وأحذركم من الاكتفاء بالتركيز على شناعة الخضوع للحكومات والنظم الإنسانية والتشريعات البشرية، وتحويل حق التشريع للإنسان، وإن ذلك هو وحده عبادة الطاغوت والشرك، وإن الوثنية الأولى وعبادة غير الله، قد فقدت أهميتها، وإنما كانت لها الأهمية في العصر القديم، العصر البدائي، وإنه لا يقبل عليها الآن إلا الرجل الجاهل، الذي لا ثقافة له، ففضلاً عن أن هذه الوثنية والشرك الجلي، لا يزال له شيوع وانتشار ودولة وصولة يجربه كل إنسان في كل زمان ومكان، فإنها الغاية الأولى التي بعث لها الأنبياء وأنزلت لها الكتب السماوية، وقامت لها سوق الجنة والنار. وكانت دعوة جميع الأنبياء تنطلق من هذه النقطة، وكانت جهودهم مركزة على محاربة هذه الجاهلية، والقرآن مملوء بذلك بحيث لا يقبل تأويلاً ويكفي أن تقرأ على سبيل المثال، سورة «الأعراف» وسورة «هود» وسورة «الشعراء» والحديث عن كل نبي ودعوته.

أما ما يتصل بصفات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية وجنود الدعوة إلى

الله فإنني أركز في هذا الحديث الموجز على نقطة واحدة، وهو أنه يجب أن يكون الدعاة يمتازون عن الدهماء والجماهير، ودعاة النظم الجديدة والفلسفات السياسية والاقتصادية بقوة إيمانهم وحرارة قلوبهم، وزهدهم في زخارف الدنيا، وفضول العيش ونهامة للمادة، ومرض التكاثر، فإنهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم، ويحملوهم على إيثار الدين على الدنيا والآجلة على العاجلة، وتلبية نداء الضمير والإيمان على نداء المعدة والنفس والشهوات، وإشعال مجامر قلوبهم التي انطفأت أو كادت تنطفئ، إلا إذا شعر الناس فيهم بشيء لا يجدونه في قلوبهم وحياتهم فإن الناس ما زالوا ولا يزالون مفطورين على الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم، فالضعيف مفطور على احترام القوي، والفقير مفطور على احترام الغني، والأمي مفطور على احترام العالم، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم، أما إذا رأى الناس علماء ودعاة لا يقلون عنهم في حب المادة والجري وراءها والتنافس في الوظائف والمناصب والإكثار من الثراء والتوسع في المطاعم والمشارب، وخفض العيش ولين الحياة، فإنهم لا يرون لهم فضلاً عليهم، وحقاً في الدعوة إلى الله وإيثار الآخرة على الدنيا، والتمرد على الشهوات، والتماسك أمام المغريات، وقد قيل: «إن فاقد الشيء لا يعطيه» وكذلك القلب الخاوي لا يملأ قلباً آخر بالإيمان والحنان، وإن الموت لا ينشئ الحياة. وإن البرودة لا تعطي الحرارة وإن الرماد الذي لا تكمن فيه جمرة لا يلهب القلوب الخامدة، ولا يحيي النفوس الميتة، والكشاف لا ينير الطريق إذا كانت قد نفدت شحنته، فلا بد أن تشحن القلوب لشحنة جديدة، وإذا كانت «بطارية» من غير شحنة كانت أقل عناء وقيمة من عصا يحملها الإنسان، فقيمة «البطارية» الشحنة وقيمة الشحنة النور، فإذا لم تكن شحنة أو كانت شحنة ولا نور فالعصا خير منه.

ثم إني أتساءل:

أليس هذا العصر هو العصر الذي انتشر فيه العلم وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية، وازدهرت فيه الخطابة والكتابة، وبلغت حد الشعر والسحر، وعمت الجامعات في كل مكان، وتدفق السيل من المطبوعات والمنشورات من المطابع

ودور النشر، ونبغ فيها علماء وباحثون ووعاظ ومرشدون. فلماذا فقد العلماء والموجهون التأثير في النفوس والقلوب في صد تيار المادية والاستغلال والجشع والنهامة للمال؟ هذه البلاد العربية بما فيها البلاد المقدسة- أصبحت مصداقاً لما أخبر به الرسول ﷺ في إحدى خطبه قبل وفاته «ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

وأخوف ما نخاف أن تكتسح هذه البلاد الموجة العارية من التكاثر في الأموال، واستغلال حاجة الناس وضعفهم والانتهازية، وهي الموجة التي لا تعرف الرحمة والهوادة، ومكارم الأخلاق التي عرف بها العرب في العصر الجاهلي، وربما يعود ذلك خطراً كبيراً على الحج ومركزه، ويمكن أن يشكل محنة للوافدين إليهن فيضطر الدعاة في صد هذه الموجة إلى مكافحة خلقية، وحملة دعوية تربوية تنظم لإصلاح الحال، وإيقاظ الضمير، وإثارة الغيرة الإسلامية والشعور النبيل، وتنطلق من المنابر والصحف والإذاعة ووسائل الإعلام، وتجند لها الطاقات والألسن والأقلام.

وسمة الدعوات الحية المخلصة التي تقتبس النور من مشكاة النبوة، وتسير على نهجها، أنها تجس نبض المجتمع جساً صحيحاً أميناً، وتهتدي إلى الداء الحقيقي ومواضع الضعف في جسم هذا المجتمع، وتضع أصبعها عليها، وتضرب على الوتر الحساس، من غير محاباة أو مداهنة، ولا تكترث بألم هذا المجتمع أو ملامه، كما فعل شعيب في دعوته، فوجه دعوته- بعد الدعوة إلى التوحيد- إلى إيفاء الكيل، والوزن بالقسطاس المستقيم، وشنع على التطفيف، إذ كان ذلك عيب المجتمع الذي بعث فيهن وسمته البارزة، وكذلك فعل غيره من الأنبياء.

وهذه كانت سنة الدعاة إلى الله من المخلصين الربانيين في تاريخ الإسلام، فكانوا ينتقدون المجتمع في الصميم، ويصيبون المحز، ولذلك كان وقع كلامهم في النفوس عظيماً وعميقاً، وما كان يسع المجتمع أن يتغافل عنهم، أو يمر بهم

مراً سريعاً، أو يسلي نفسه بأنهم إنما يعنون غيره من المجتمعات التي سبقت، أو المجتمعات التي لم تخلق بعد، وهذا كان شأن الحسن البصري في مواعظة إذ كان دائماً يشير إلى النفاق الذي كان داء المجتمع الإسلامي، وهو في أوج مجده ورخائه، ويذم حب الدنيا وطول الأمل، وهذا كان شأن الشيخ عبد القادر الكيلاني، فيدعو إلى التوحيد الخالص وقطع الرجاء، والخوف من غير الله وأنه لا يضر ولا ينفع سواه.

لأن الناس كانوا قد ربطوا مصيرهم بالخلفاء والأمراء وأصحاب الحول والطول والأمر والنهي في العاصمة، وهذا كان شأن ابن الجوزي في مواعظه الساحرة، ومجالسه المزحومة، فإنه كان يشنع على الحياة اللاهية الماجنة التي كان يحياها كثير من الناس في بغداد، وعلى الذنوب والمعاصي التي كانت تقترف جهاراً، والمنكرات التي شاعت، فكان مئات وآلاف من الناس يتوبون ويقلعون عن الذنوب، وكان نشيج يعلو وقلوب ترق، وعيون تدمع، وموجة من الإنابة والرقة تكتسح الجموح الحاشدة لأنه كان يمس القلوب ويصور الواقع، ولا يكتفي بالكلام العام والوعظ التقليدي. ولك أن تقرأ تفاصيل مجالس ابن الجوزي وتأثيرها في كتاب «صيد الخاطر» و«رحلة ابن جبير».

وهنا أنقل إليكم قطعة من كتابنا «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والمؤلف يتحدث عن الإمام أحمد بن حنبل وزهده.

«وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار وغير مجرى التاريخ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو فتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب، إلا وله نزعة في الزهد، وتغلب على الشهوات، وسيطرة على المادة ورجالها، ولعل السر في ذلك، أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة، والاعتداد بالشخصية والعقيدة، والاستهانة برجال المادة، وبصرعى الشهوات، وأسرى المعدة. ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم، كانوا زهاداً في الحياة، متمردين على

الشهوات، وبعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة، يشعل المواهب، ويلهب الروح، وبالعكس إن الدعة والرخاوة تبلد الحس وتنيم النفس وتميت القلب .

وهناك تعليلات أخرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخلاق، ولا أطيل بذكرها، وأقتصر على هذه الملاحظة التاريخية، والح على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلب لا محالة زهداً وترفعاً عن المطامع وسفساف الأمور ويأبى الاندفاع إلى التيارات، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية والعيشة الباذخة الثرية، إنما هو خلافة للرسول الأعظم ﷺ ، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه: ١٣١) .

وأمر بأن يقول لأزواجه ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٨) وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

ومن أبرز سمات الدعوة التي يقوم بها الأنبياء وخلفاؤهم، أنها تقوم على الإيمان بالآخرة، والتحذير من عقابها، والترغيب في نعمائها وثوابها ويكون مناط العمل فيها الإيمان والاحتساب والأجر والثواب، لا على الإغراء بالفوائد الدنيوية والجاه والمنصب والمال والملك، فإنه أساس ضعيف منهار، ولا يتفق مع طبيعة دعوات الأنبياء، والمساومة فيه سهلة، وقد يملك أعداؤهم وخصومهم والقادة السياسيون مثله أو أكثر منه، ومن ضع بلبان هذه المطامع لم يمكن فطامه عنها، ولا يصح الاعتماد عليه، وإنما يبنون دعوتهم على رضى الله وثوابه، وما أعده الله لعباده المؤمنين، وما وعدهم به على لسان أنبيائه، من نعيم لا يزول ولا يحول، والصحف السماوية- غير صحف العهد القديم التوراة- مملوءة بالحديث عن الآخرة والاهتمام بها والبناء عليها وقد جعل لإسلام الإيمان بها عقيدة أساسية وشرطاً لصحة الإيمان والنجاة، وقد جاء في القرآن صريحاً: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص: ٨٣).

وهنا أستعير لنفسي من نفسي ما قلته في إحدى محاضراتي تحت عنوان «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» وأختم به هذا الحديث مؤملا في أن تكون هذه السمات التي تحدثت عنها شعار الدعوة التي يقوم بها الدعاة المتخرجون في كل مكان، أو القائمون بأعباء الدعوة في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، قلت وأنا أتحدث عن الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية.

«ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة، أو الإشادة بها كضرورة خلقية أو كحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة فضلاً عن المجتمع الإسلامي. وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً. والفرق بينهما أن الأول منهج الأنبياء إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره، وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقدير وقانون مرسوم وإن الأولين يتكلمون عن الآخرة باندفاع والتذاذ ويدعون إليها بحماسة وقوة وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية.

* * *

٣٢

مقالات

الشيخ أبي الأعلى المودودي

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- نكاح نساء أهل الكتاب.

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م).

ترجمة الشيخ
أبو الأعلى المودودي

● **مولده ونشأته**

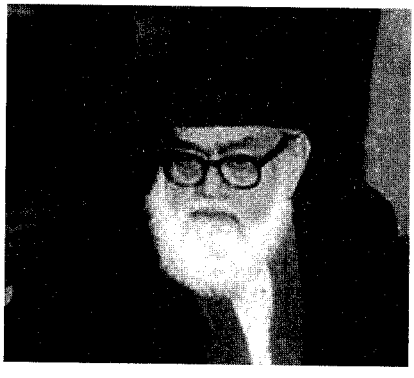

وُلِدَ أبو الأعلى المودودي سنة (١٢٦٦هـ، ١٨٥٠م) في أسرة تمتد جذورها إلى شبه الجزيرة العربية، وقد هاجرت أسرته إلى الهند في أواخر القرن التاسع الهجري.

أوقف الشيخ حياته على الدعوة إلى الإسلام، وجعل رسالته في الحياة إعلاءَ كلمة الحق، والتمكين للإسلام في قلوب أتباعه قبل ربوعه وأوطانه، فالتفَّ الكثير حوله.

تعلم الشيخ في طفولته على يد أبيه الذي حرص على تنشئته تنشئة دينية شاملة حيث كان يصحبه إلى مجالس أصدقائه من العلماء؛ فتفتحت ملكاته وظهر نبوغه وذكاؤه منذ حداثة سنه، ثم اجتاز امتحان مولوي، أي ما يعادل الليسانس.

عمل الشيخ مديرًا محرراً للعديد من الجرائد والمجلات، وسعى المودودي إلى تعلم اللغة الإنجليزية حتى أتقنها.

أسس المودودي الجماعة الإسلامية في لاهور، وتم انتخابه أميرًا لها في (٣ من شعبان ١٣٦٠ هـ - ٢٦ من أغسطس ١٩٤١م). ثم انتقلت الجماعة إلى دار السلام وكان المودودي طوال هذه الفترة لا يكف عن الكتابة والتأليف، فأصدر عدة إصدارات بلغت الـ (٧٠) منها:

«الجهاد في الإسلام، والإسلام والجاهلية، ودين الحق، نظرية الإسلام السياسية، وغيرها».

اعتُقِلَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عدة مرات وحُكِمَ عليه بالإعدام ثم أطلق سراحه، واستقال الشيخ من إمارة الجماعة الإسلامية عام ١٩٧٢م.

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م)، تاركاً العديد من الأفكار والتعليمات والمؤلفات الجليلة لتظل نبعًا صافيًا من منابع الإسلام الصافي والعقيدة الخالصة.

حول نكاح نساء أهل الكتاب

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م)

لقد طلب منا أحد إخواننا المخلصين، بإلحاح شديد، أن ننشر كلمة مفصلة عن زواج المسلمين بنساء أهل الكتاب، مستندين في ذلك إلى أحكام الكتاب والسنة، لأن فتنة «الإفرنجيات» كما يقول هذا الأخ الكريم، في تفاقم وانتشار هذه الأيام. وقد اتخذ المسلمون من الإذن الشرعي في هذا الباب حيلة للاستمتاع بهن، واستيرادهن بكثرة لا يوجد لها مثيل في تاريخهم الماضي.

ومما لا مجال فيه للريب أن هذه فتنة كبيرة في واقع الأمر، ظهر من تأثيرها الكثير في الهند ومصر وسوريا والكويت وغيرها من بلاد المسلمين.

إن «السيدات الغربيات» ولجن في حياة المسلمين الاجتماعية، ثم عملن ما في وسعهن لاستئصال الحضارة الإسلامية، وأخطر من ذلك ما ظهر من النتائج السياسية مما لا يستطيع مسلم- إن كان في قلبه حب للإسلام والمسلمين- أن يسكت عليه.

وعلى هذا، إن كان المخلصون من أفراد المسلمين اليوم يشعرون بحاجة إلى أن يقوموا في وجه هذه الفتنة، ويضعوا لها حدا معلوما، فلا شك أن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على حبهم للإسلام، ونصحهم للمسلمين.

ولكن كيف يكون عندنا التغيير والتعديل في قضية شرعية ثابتة؟

إن الذي قد أنزل القرآن حكيم عليم على الإطلاق، لا ينظر إلى كل المصالح والضرورات والحاجات إلا بغاية من التوازن والتناسب، فلا بد لإدراك أحكامه وتطبيقها على الظروف الراهنة تطبيقا سليما من أن نوسع دائرة نظرنا بقدر الإمكان، ثم نستعرض المصالح كلها- ما جل منها وما دق- استعراضا تفصيليا

شاملا، حتى لا ننزل كل واحدة منها إلا بدرجة من الرعاية والأهمية قد أنزلها بها الشارع نفسه.

فالآية التي تبيح للمسلمين أن يتزوجوا بنساء أهل الكتابين من اليهود والنصارى هي ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ (المائدة: ٥)

● اختلاف السلف حول تفسير هذه الآية

لا شك أن السلف - رحمهم الله - قد اختلفوا كثيرا حول تفسير هذه الآية، إلا أن جمهور العلماء في كل زمان إنما حملوا حكمها على ظاهر ألفاظها وعموم إطلاقها، إذ لا بد من أن يكون أكثر حكمة في تشريعه وتقنينه لأنه مِن الذي أنزل على عبده الفرقان ليكون للعالمين نذيرا، ولو كانت هناك حاجة إلى استثناء أو تخصيص في حكمه ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥)، لقيده به بنفسه، إذ مما لا يجتمع مع حكمته في التشريع ألا يستعمل في بيان الأحكام القانونية ولا مثل اللغة الرصينة المتقنة التي يستعملها واضعو القوانين في الدنيا، فكيف يجوز أن نعتقد إذن أن كل مقصوده بهذا الحكم أن يحل للمسلمين التزوج بنساء طائفة خاصة من أهل الكتاب، وقد اختار لبيان هذا الحكم ألفاظا عامة شاملة لأهل الكتاب كلهم لا إشارة فيها قطعا إلى استثناء أو تخصيص، لأجل هذا فإن جمهور الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين من السلف قد حملوا هذه الآية على الإذن العام في التزوج بنساء أهل الكتاب بدون قيد ولا شرط، بل قد تزوجهن جماعة منهم ولم يروا بذلك بأسا لعموم هذا الإذن، فقد تزوج عثمان بن عفان بنائلة بنت الفرافصة الكلبية وهي نصرانية، وتزوج طلحة بن عبيدالله يهودية من أهل الشام، وتزوج حذيفة بن اليمان وكعب بن مالك والمغيرة بن شعبة بنساء من أهل الكتاب أو خطبوهن للزواج.

رأي عبدالله بن عمر

ولكن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- من الصحابة وحده هو الذي كان لا يرى التزوج بنساء أهل الكتاب مطلقا، وكان يقول: إن الله حرم على المؤمنين النساء المشركات في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١)، وكان يقول «لا أعلم شركا أشد من أن تقول - أي المرأة - إن ربها عيسى أو عبد من عبيدالله»، ولذا فإنه يحرم التزوج بنساء كل من يوجد الكفر والشرك في اعتقادهم من أهل الكتاب، وقد فسر كلمة «والمحصنات» بالمسلمات، فمعنى الآية بموجب رأيه: إن لكم أيها المسلمون أن تتزوجوا أيضا باللاتي يدخلن في الإسلام من نساء أهل الكتاب.

رأي غير صحيح

ولكن لا يصح من هذا الباب رأي ابن عمر-رضي الله عنهما- وذلك لأسباب نذكرها بالاختصار فيما يلي: إن الله سبحانه وتعالى بنفسه قد بين في كتابه من معتقدات أهل الكتاب ما هو مبني على صريح الشرك كقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ١٧)، وكقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣)، وكقول اليهود «عزير ابن الله» وقول النصارى ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، بل قد نسب إليهم كلمتي الشرك والكفر، ولكنه على ذلك لم يذكرهم في أي موضع من كتابه بكلمة «المشركين» كاصطلاح لهم، وإنما ذكرهم في كتابه كله بكلمة «أهل الكتاب»، أو بكلمات أخرى لها نفس هذا المعنى. اقرأ القرآن من أوله إلى آخره تجد فيه ثلاث طوائف مستقلة بعضها عن بعض: طائفة المشركين والكفار، أي الذين ليس عندهم كتاب سماوي على وجه محرف أو غير محرف. وطائفة أهل الكتاب، أي الذين يؤمنون بنبي من الأنبياء وبكتاب من الكتب السماوية، على كل ما هم فيه من الضلالات الاعتقادية أو العملية. وطائفة أهل الإيمان، وهم المؤمنون برسالة محمد ﷺ بصرف النظر عما إن كانوا ولدوا في الإسلام أو دخلوا فيه من طائفة أهل الكتاب، أو طائفة المشركين والكفار.

والقرآن في ذكره هذه الطوائف الثلاثة يميز بعضها عن بعض بما لا مجال فيه

للاشتباه والاختلاط مطلقا، فلا يقول: «أهل الكتاب» ويريد بهم المشركين، أو يقول: «المشركين أو الكفار» ويريد بهم اليهود والنصارى، أو يقول «الذين أوتوا الكتاب» ويريد بهم المسلمين، فلما قال تعالى في موضع من كتابه﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١)، ثم قال في موضع آخر ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، إلى أن قال ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥)، فلا بد من القول بأنه ليس المراد بالمشركات في الآية الأولى نساء أهل الكتاب، وإنما المراد بهن نساء الوثنيين وغيرهم من الأمم غير الكتابية.

ونحن إذا لم نفسر كلمة ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بهذا المعنى فإن ذلك يستلزم تعارضا صريحا بين آيتين في القرآن، لا يمكن رفعه بمجرد أن يقال إن المراد بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم أولئك اللاتي كن قد دخلن في الإسلام من نساء اليهود والنصارى، أو أن المراد بهن نساء الفرق الكتابية المتنزهة عن الشرك والكفر، وذلك:

١- لأن الله ﷻ قد قال ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قبل أن يقول ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وليس المراد «بالمؤمنات» اللاتي قد ولدن في الإسلام فحسب، بل المراد بهن كذلك اللاتي قد دخلن في الإسلام تاركات أديانهن السابقة، فلما كان قد أحل الزواج بالمؤمنات عموما وفيهن من كن يهوديات أو نصرانيات قبل الإسلام، فأية حاجة اقتضت إذن ذكر المسلمات من الذين أوتوا الكتاب بالذات بعدهن؟ إذ لو كان الأمر هكذا لما كان لهذه الجملة أي معنى أبدا.

٢- وقد قيل قبل هذه الآية كذلك ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، فهل المراد بهم هنا أيضا أولئك المسلمون الذين قد دخلوا في الإسلام من اليهودية أو النصرانية؟ فإن قيل: لا، فعلى أي أساس جاز أن يفسر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في جزء من آية بمعنى غير المعنى الذي يفسر به في جزء آخر من الآية نفسها؟

٣- أية فرقة من فرق أهل الكتاب هي بريئة من الشرك أو الكفر؟ ومتى وجدنا فيهم الاعتقاد السليم عن الله؟ ومن أين كان لهم أن يهتدوا إليه؟ لقد كانوا حرفوا أصل تعاليم موسى وعيسى عليهما السلام، فأنى كان لهم أن يجدوا سبيلا إلى

صحة الاعتقاد حتى تكون فرقة منهم على الصراط المستقيم؟ إذن لا يصح القول أبدا بأن المراد «بالذين أوتوا الكتاب» في قوله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فرقة من اليهود أو النصارى سليمة في اعتقادها.

أما الآيات التي قد يخيل إلى الإنسان عند قراءتها أنه كان في أهل الكتاب فرق سليمة في اعتقادها، فإنها تشير في حقيقة الأمر إلى أناس من أهل الكتاب كانوا قد آمنوا بالقرآن واتبعوا النبي ﷺ، أو كادوا بناء على طهارة قلوبهم وسلامة فطرتهم.

٤- وإذا فرضنا أن اليهود والنصارى فيهم طائفة مثل هذه، فإن الله تعالى ما قيد ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بشيء يجوز الاستدلال به على أن هذا الحكم خاص بتلك الطائفة وحدها، وليس بشامل لسائر أهل الكتاب، فما لنا إذن نشغل أنفسنا بفحص معتقدات أهل الكتاب، ونقضي بقياسنا أنه يجوز للمسلمين أن يتزوجوا بنساء الفرقة أو الفرق «الفلانية» من أهل الكتاب، ولا يجوز لهم أن يتزوجوا بنساء سائر فرقهم؟

دليل آخر غير سليم

والذين قد أيدوا ابن عمر- رضي الله عنهما- في رأيه يستدلون كذلك بقوله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠)، مع أن هذه الآية إنما نزلت خاصة في أولئك الرجال والنساء الذين قد هاجروا من دار الحرب إلى دار الإسلام، والذين بقيت زوجاتهم أو أزواجهن على الكفر في دار الحرب. والمقصود من الآية بيان أن نكاح الجاهلية ينفصم مع مجرد دخولهم في دار الإسلام، ويكون من حق الرجل المهاجر أن ينكح غير زوجته السابقة، ومن حق المرأة المهاجرة أن تنكح غير زوجها السابق، هذا المعنى يتحقق باعتبار شأن نزولها، أما إذا اقتصر أحد على نفس ألفاظها، فنقول: إن الله ﷻ أنزل في موضع حكما عاما بقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، وبين في موضع آخر أن جماعة من الكفار وهم من أهل الكتاب، مستثنون من هذه الحرمة العامة وذلك بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وإنكم إذا كنتم لا تقولون بأن هذا الحكم الثاني قد خصص الحكم العام الأول، فلا بد أن تقولوا بأن هناك تناقضا

في أقوال الله ﷻ، يحل شيئا في موضع، ويحرمه في موضع آخر والعياذ بالله.

رأي ابن عباس

والصحابي الثاني الذي حاول أن يضع حدا لإباحة الزواج بنساء أهل الكتاب هو عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما- إذ يقول: إن هذا الحكم خاص بالذميات دون الحربيات، فلا يجوز الزواج إلا بنساء اليهود والنصارى الذين هم من رعايا دار الإسلام، مهما كانت عقائدهم فاسدة. وأما أهل الحرب منهم- أي الساكنون خارج حدود دار الإسلام- فلا يجوز الزواج بنسائهم، ودليله على ذلك أن الله قد أمر المسلمين بقتال هذه الطائفة من أهل الكتاب، وذلك حين قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (التوبة: ٢٩)، وأيضا قد حرم على أهل الايمان أن يُوَادُّوا مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، هذا من جانب. ومن جانب آخر فالعلاقة الزوجية لا تقوم إلا على المودة والرحمة: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١). فعلى هذا كانت علاقة الزواج توجب المودة والمحبة، وإذا كانت مودة الحربيين من المشركين وأهل الكتاب محرمة على المسلمين، وكان قتالهم واجبا عليهم، فإنه ينبغي أن يكون زواج الحربيات، سواء أكن من المشركين أم من أهل الكتاب، محظورا.

هذا ما يحتج به سيدنا عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- إلا أن جمهور الصحابة والتابعين والأئمة الفقهاء لم يوافقوه على رأيه، كما لم يوافقوا سيدنا عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- على رأيه، وهم وإن كانوا كلهم يكرهون الزواج بامرأة من أهل الكتاب، إذا كانت من دار الحرب أو دار الكفر، ولكن ما قال بحرمته أحد منهم، لأن إباحته المذكورة في قوله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ عامة شاملة لأهل الكتاب جميعا، سواء أكانوا من أهل الحرب أم من غيرهم، والله تعالى ما قيدها بشيء.

هذا بالنسبة للجواز القانوني والمقصود مما قلنا إن هذا الجواز القانوني يجب

أن يبقى على عمومه وشموله الموجودين في آية القرآن، أما عدم تناسب الزواج وكراهيته على اعتبار المصالح القومية أو الظروف الشخصية، فهذا أمر آخر، لا يجوِّز لنا أن نحرم الحلال، غير أنه من حقنا، ولا ريب، أن نتجنب فعلا حلالا إذا كان لا يناسبنا في وضع خاص، إذ ليس معنى الحل والإباحة الأمر واللزوم

رأي جمهور الصحابة والأئمة واختلافهم

والذين لا يوافقون عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس- رضي الله عنهم جميعا- على رأيهما، ويقولون بأن حكم الآية شامل لأهل الكتاب كلهم، يدور الخلاف بينهم في معظمه حول تفسير كلمتين وهما: المحصنات﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

فالمحصنات عند جماعة منهم «العفائف»، وعند جماعة أخرى «الحرائر» دون الإماء، فلا يجوز الزواج عند الجماعة الأولى إلا بالعفائف من نساء أهل الكتاب دون الفاحشات والمومسات منهن، ولا يجوز الزواج عند الجماعة الأخرى بالإماء من نساء أهل الكتاب ولو كن عفائف، ويجوز بالحرائر منهن ولو كن فاحشات.

رأي الشافعي

أما أهل الكتاب فيقول الإمام الشافعي رحمه الله: إنهم اليهود والنصارى من بني إسرائيل، وأما الأمم الأخرى التي قد انتحلت اليهودية أو النصرانية، فلا تطلق عليها كلمة «أهل الكتاب»، لأنه ما أرسل موسى ولا عيسى عليهما السلام إلا إلى بني إسرائيل، وما كانت دعوتهما لغيرهم من أمم الأرض.

رأي الأحناف والجمهور

ويقول الأحناف وجمهور الفقهاء: إن كل أمة إذا كانت مؤمنة بنبي من الأنبياء وبكتاب من الكتب الإلهية تعد من أهل الكتاب، وليس كونها من اليهود أو النصارى شرطا في ذلك، فلو كانت في الدنيا طائفة مؤمنة بصحف إبراهيم وحدها، أو الزبور وحده لكانت طائفة كتابية.

رأي جماعة آخرين

وقد ذهبت جماعة قليلة من السلف إلى أن كل أمة عندها كتاب يجوز الظن بأنه سماوي هي من أهل الكتاب كالمجوس مثلا، وهذه الفكرة قد وسّعها في هذا الزمان جماعة من المجتهدين الجدد، حتى قالوا إن الهندك والبوذيين أيضا من أهل الكتاب، فيجوز الزواج بنسائهم لأنه لا بد أن يكون قد جاءهم نبي من الأنبياء، ولابد أن يكونوا قد أوتوا كتابا من الكتب السماوية.

● الرأي الصحيح

وأصح رأي في كل هذه الاختلافات عندنا الرأي القائل بأن المراد من أهل الكتاب اليهود والنصارى، سواء أكانوا من بني إسرائيل أم من غيرهم، فإن كلمة «أهل الكتاب» ما وردت بالقرآن إلا لهاتين الطائفتين، وقد صرح في موضع آخر بأنهما هما أهل الكتاب، وذلك حيث يقول عز من قائل: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ (الأنعام: ١٥٥- ١٥٦). أما الأمم الأخرى التي أنزلت إليها الكتب، فهي لما قد أضاعت كتبها ولم يبق شيء من معتقداتها وأعمالها يتفق مع تعاليم الأنبياء فلا يجوز أن تطلق على إحداها كلمة أهل الكتاب، ولذا فإن الرسول ﷺ ما جعل المجوس من أهل الكتاب على اعتقادهم بزرداشت، فلما أخذ الجزية من مجوس هجر قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»، ولم يقل إنهم من أهل الكتاب.

ولما كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام قال بكل صراحة «فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ومن أبى فعليه الجزية غير أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم». فلا مجال للشبهة بعد ذلك بأنه يجوز أن تعد أمة غير اليهود والنصارى من أهل الكتاب، فتؤكل ذبائحها وتنكح نساؤها.

● الرد على مخالفي هذا الرأي

أما رأي الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أي اشتراطه بالإسرائيلية، فلا يصح كذلك، لأنه وإن كان الخطاب في دعوة موسى وعيسى عليهما السلام لبني إسرائيل

وحدهم إلا أن الله ورسوله قد عدا من أهل الكتاب حتى الأمم غير الإسرائيلية التي انتحلت النصرانية، ويدل على ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما كتب إلى قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام ضَمّن في رسالته هذه الآية ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ (آل عمران: ٦٤) مع، أنه لم يكن الروم من بني إسرائيل.

أما الذين فسروا المحصنة بالعفيفة أو الحرة وجعلوا العفة أو الحرية شرطا لتزوج الكتابية، فلا يصح رأيهم أيضا عندنا، إذ لا شكّ أن الإحصان يشمل مفهومه كلا من العفة والشرف، وما المحصنة إلا عفيفة وشريفة معا، ولكن ليس من مقصود الشارع بقوله ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أن يجعل العفة أو الشرف شرطا لجواز الزواج بنساء أهل الكتاب، وإنما مقصوده به إظهار الأفضلية والأولية، ويقصد في حقيقة الأمر بيان أنه وإن كان لكم أيها المسلمون أن تتزوجوا أية امرأة من المؤمنات أو من أهل الكتاب، ولكن الأولى والأفضل أن تكون تلك المرأة محصنة، أي عفيفة وشريفة.

وقد قيدت كثير من أحكام القرآن بأمور ليست بشروط لثبوت الحكم، وإنما هي كقيود زائدة لإظهار أفضل ناحية في فعل من الأفعال المباحة، أو لإظهار أرذل ناحية في فعل من الأفعال المحرمة، حتى يبذل أهل الإيمان اهتمامهم لاختيار الأفضل واجتناب الأرذل، وهذا عين ما رآه سيدنا عمر بن الخطاب -]- في هذا الباب حين تزوج حذيفة بن اليمان بيهودية، فكتب إليه عمر «أن خل سبيلها»، فكتب إليه حذيفة: «أحرام هي؟» فكتب إليه: «لا، ولكني أخاف أن تواقعوا المومسات منهن».

فأصح رأي عندنا أن نجعل السماح الشرعي بتزوج نساء أهل الكتاب عاما، من الحربيات كن أو من الذميات، ومن العفائف كن أو من غير العفائف، ومن الإماء كن أو من الحرائر.

* * *

٣٣ مقالات

الشيخ عبد الله عبد الرحمن السند

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- العلم والتعلم.

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م).

٢- اعرفوا أعداءكم.

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

ترجمة الشيخ
عبد الله عبد الرحمن السند

● **مولده ونشأته**

هو الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن علي ابن سليمان بن محمد بن أحمد بن راشد بن سند العنزي.

ولد في الزبير من عائلةِ علمٍ، وذلك عام ١٣١٨هـ.

تلقى مبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب، ثم رافقَ أخاه في تلقي العلم على العديد من العلماء أمثال: الشيخ محمد بن عوجان، والشيخ عبدالله بن حمود، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وغيرهم.

ولما حفظ أطرافا من الفقه وفنونا من العربية قام بالاهتمام بدراسة التفسير.

عمل الشيخ مدرساً بمدرسة «النجاة» أيامَ الشيخ الشنقيطي، فدرَّسَ الفِقه والقرآن كما أسندت إليه إمامة أحد المساجد، سافر إلى الكويت فالتقى بعلمائها، وفتحت له المجلات الدينية في الكويت والعراق رحابها لنشر المقالات، وكان له نشاط واهتمام بعلم الحديث.

وحرص المترجَم له على تنشئة أبنائه تنشئة إسلامية فوفق إلى ذلك، وبارك الله له في الذرية.

● **مؤلفاته:**

للشيخ العديد من المؤلفات منها: «الأحكام المفيدة، الخطب المنبرية، منسك الحج والعمرة، مجالس رمضان، المرأة المسلمة والحجاب، من مائدة النبوَّة» وغيرها.

● **وفاته**

توفي الشيخ عبد الله السند في الكويت، وذلك في ١١ ذي القعدة من عام

١٣٩٧هـ، فحزن الناس لفقدهم شيخاً جليلاً نذر نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين، لا سيَّما وقد كان محبوباً من الخاص والعام وذلك لطلاقة وجهه ودماثة خلقه وحسن تأدبه.

* * *

العلم والتعلم

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) مارس (١٩٧٢م).

يتساوى الناس عند ولادتهم في خروجهم من بطون أمهاتهم عرايا لا يستر أجسامهم شيء، كذلك يستوون عندما يفدون على هذه الحياة في تجردهم من العلم وخلوهم من المعرفة، لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعلمون شيئا، ولكن الله الرازق الكريم الذي كساهم من عري، وأطعمهم من جوع، هو العليم الحكيم الذي تفضل على خلقه فأمدهم بالاستعداد والقوى التي تمكنهم من التعلم، وزودهم بالأدوات والرسائل التي تساعدهم على العلم والمعرفة، وأنزل لهم الكتب وتعهدهم بالوحي، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأرسل لهم الرسل هادين ومرشدين ومعلمين، قال الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة: ٢)، والوسائل التي زود الله بها الإنسان هي السمع والبصر والعقل، هذه هي المنافذ المفتوحة التي يطل منها على هذا الكون الفسيح ليعرف أسراره، وهي الأدوات التي يكتسب بواسطتها العلم والمعرفة، لا نعرف دينا كرم العلم ودعا إليه وأشاد بالعلماء ورفع من قدرهم، مثلما فعل الإسلام وكتابه الكريم، فالقرآن يلفت أنظارنا، ويوجه عقولنا إلى أن نسلك كل طريق للعلم، لأنه الأساس في بناء العز والمجد وحياة الأمم.

العلم وحده هو الذي يميز به الإنسان بين الكفر والإيمان، بين التوحيد والإلحاد، بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ، والهدى والضلال، والحسن والقبيح، والضار والنافع.

العلم ضروري لسعادة الإنسان وهناءته ضرورة الهواء لحياته، والضياء لعينيه،

العلم ضروري لعزة الأمة وسيادتها، وعلى قدر نصيبها من العلم يكون نهوضها الحضاري، ورقيها الصناعي، وازدهارها التجاري، واتساعها العمراني.

العلم هو الذي يرقى بالحياة ويجعلها وارفة الظلال، قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة: ١١) أول خطوة للتعلم هي معرفة القراءة والكتابة، ولذلك رفع الإسلام من شأن الكتابة وأعلى قدرها، وهذه أول آيات نزلت من كتاب الله تعالى، قال الله جل شأنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (العلق: ١-٥)، وهذه سورة «ن» يقسم العلي الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون، وهذا محمد رسول الله ﷺ يعلم أصحابه ويدفعهم إلى أن يتقنوا الخط، ويحذقوا الكتابة، ويهيئ لهم سبيلها بكل ما يستطيع، ففي مكة المكرمة اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مدرسة للمسلمين، ومركزا ثقافيا يلتقي فيه بأصحابه، ويعلمهم مبادئ الإسلام، ويأمرهم بكتابة ما نزل عليه من القرآن، وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة يقيم مسجده مكانا للعبادة، ودارا للقضاء، وساحة للجنود ومركزا للتعليم، تدرس فيه أسس الإسلام وأحكامه وأهدافه، وفي غزوة بدر أسر المسلمون ستين مشركا فطلب رسول الله ﷺ أن يفتدوا أنفسهم بتعليم أصحابه القراءة والكتابة، وجعل فداء الأسير تعليم عشرة من أصحابه.

وكان له ﷺ كتاب يكتبون الوحي، منهم الأربعة الخلفاء ومعاوية، وخالد بن الوليد، وزيد بن ثابت وغيرهم، وعلى يد هذه الصفوة المختارة من صحابته عليه الصلاة والسلام تتلمذ المسلمون الذين جاءوا من بعدهم، فدرسوا كل علم، واقتنوا كل فن، وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها يعلمون ويؤلفون ويبتكرون، وكانوا رسل الحضارة وأساتذة الدنيا.

إن العلم خير من المال، خير من كل الثروات، خير من كل ما في الأرض، وطالب العلم إذا حسنت نيته، وظهرت استقامته مجاهد في سبيل الله تعالى.

روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ أمر زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية، قال زيد: فتعلمت له كتابة يهودية بالسريانية، وقال. «إني والله ما آمن

يهود على كتابي» قال زيد: فوالله ما مر بي نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه فكتبت له إليهم وقرأت له كتبهم إليه.

إن التعلم والتعليم روح الإسلام، وسر بنائه، وسياج وجوده ومناط عزته وكرامته، وإن أسلافنا الأماجد سبقوا في مضمار العلوم والمعارف بدافع من دينهم، وحافز من كتابهم، فمن الكتابة على الرق وهو جلد رقيق، والكتابة في اللخاف وهي حجارة بيض رقاق، والكتابة في سعف النخل وهي الجريد الذي لا خوص عليه، ومن المسجد والكتاب ملأوا الدنيا علما وفنا واختراعا، وبرهن طالب العلم المسلم على حماسة منقطعة النظير في طلب العلم، فذلل العقبات التي قامت في طريقه، وتغلب على الصعوبات التي اعترضته، ولم يكن الطريق إلى طلب العلم في هذه العصور ممهدا، ولا كانت الحياة ميسرة، ولكن الطالب المؤمن لا يكترث بالشوك، ولا يبالي بالمخاطر، هذا أبوالدرداء ﷺ يقول «لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفسرها لي إلا رجل ببرك الغماد - أقصى مكان في اليمن - لرحلت اليه»، وهذا الامام الشافعي رحمه الله يتحدث عن حياته في طلب العلم فيقول: كنت يتيما في حجر أمي، ولم يكن لي مال، وكان المعلم يرضى من أمي أن أخلفه اذا قام فلما جمعت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث، وكنت أكتب في العظم فإذا كثر طرحته في الجرة.

بهذه الروح الجادة، وبهذه الرغبة القوية، طلب أسلافنا العلم، وأقبلوا عليه لا طلبا للمال ولا رغبة في الجاه، ولكن إرضاء لله واعلاء لدينه.

* * *

اعرفوا أعداءكم

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يوليو (١٩٧٣م)

قال اللّـه عـز وجـل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الصف: ٨)، يريدون ليطفئوا نور الله، هذه إرادة أعداء الله في كل عصر وهذا دورهم في كل زمان وهذا مدار تفكيرهم وتدبيرهم في زمن الرسول ﷺ وبعد زمن الرسول وفي أيامنا هذه كل همهم أن يطفئوا نور الله لأنهم لا يطيقون أن يروا هذا النور يشع في كل أفق، ولا يطيقون أن يسمعوا لا إله إلا الله تدوي في كل أذن، ولا يطيقون للإسلام ظلا يمتد، ولا لأهله قوة تحميهم، ولا لكتابه سلطانا عليهم ولا لدولتهم علما مرفوعا، وصوتا مسموعـا، وكلمة نافذة، لا يطيقون أن يروا ذلك لأنهم أعداء الله وأعداء الحق وأعداء الإسلام وأعداء الإنسانية، ولأنهم كما يقول الله تبارك وتعالى ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران: ١١٨)، ولأنهم يعلمون أن قوتنا تنبع من ديننا وهو أبغض شيء إليهم، فهم يحاولون أن يشككونا فيه، وأن يبغضوه إلينا، وأن يوهنوا ما بيننا وبينه من العروة الوثقى التي لا انفصام لها، والله سميع عليم، ويعلمون أن كتابنا فيه سر سعادتنا وعزنا إذا اهتدينا بنوره فلا نضل، وإذا اعتصمنا بحبله فلا نذل، وإذا تزودنا منه كفانا وأغنانا وهدانا إلى الصراط المستقيم فهم يحاولون أن يزهدونا فيه، وأن يعزلونا عنه لأنه في قلوبنا نور وفي صدورهم لظى.

ويعلمون أن أرضنا خير بقاع الأرض وأجمل بلاد الدنيا، وأشرف مكان في الأرض، فيها الكعبة التي تتجه إليها القلوب، وفيها المسجد الأقصى الذي تشد إليه الرحال، إنها الأرض التي كلم الله فيها موسى، وأيد فيها عيسى، وأسرى

إليها بمحمد صلاة الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، ولكن من الأسف والحزن أن المسجد الأقصى قد اغتصبه أعداء الإسلام والإنسانية اليهود بمساعدة الصليبيين والملحدين، إن أعداءنا يريدون أن يمزقوا التاريخ المكتوب، يريدون أن يدنسوا الأرض الطاهرة، يريدون أن يجعلوا من أرضنا دولة يسكنها القتلة السفاحون بجوار الأنبياء الذين قتلوهم بغير حق.

نعم يريدون ذلك وأكثر من ذلك، يريدونك أنت إلا تقوم لك قائمة، يريدون لك حياة أشبه بالموت، يريدون أن تعيش محروما من نعمتك، مطرودا من أرضك، منبوذا حتى من نفسك، يريدون أن تعيش بلا دين، ولا وطن، ولا أهل، ولا مال، ولا أمل، ولا تاريخ، ولا حضارة، يريدون أن يحرموك من نعمة الإيمان بالله تعالى ونعمة الإسلام التي هي أجل النعم، تستند على العقيدة والدين، لا على التراب والطين.

إن من ضيق النظر وسذاجة التفكير أن نعتقد أن دولة العصابات وحدها هي التي هاجمتنا، فهي أهون من ذلك بكثير، فليست إلا ذنب العقرب الذي أودعوا فيه السم، وليست إلا القناع البشع الذي واجهنا به الشيطان، وليست إلا الدخان الأسود الذي دفعته نار الحقد علينا، وليست إلا الزبد القذر الذي دفعه تيار العداوة والبغضاء على سواحلنا.

وسيأتي إن شاء الله اليوم الذي يختاره الله لنبتر فيه الذنب ويسقط فيه القناع ويتبدد فيه الدخان ويذهب فيه الزبد.

إن العدو الأكبر هو الذي أمد دولة العصيان بالمال وأعانها بالرجال، وأعد لها الخطط، وجعل منها ترسانة مملوءة بأحدث الأسلحة.. العدو الأكبر هو الذي أعطاهم الغطاء الجوي وقنابل النابالم وصواريخ الجو وأسرارنا العسكرية.

العدو الأكبر هو الذي خدعنا بالحيلة وأمدهم بالمخابرات.. العدو الأكبر هو الذي وقف إلى جانبهم بكل قواه بالعتاد الحربي وأجهزة الإعلام، يجب أن تعرف أعداءك الذين أخرجوك من ديارك وظاهروا على إخراجك.. أعداؤك هم أعداء الله الذين حذرنا الله منهم ونهانا عنهم، أعداؤكم هم أعداء الإسلام وتجار

الحروب وسماسرة الشر وزارعو هذه الفتنة في بلادنا، أعداؤكم هم أعداء الحق وقراصنة العالم الذين سرقوا أوطانكم لتسكن فيها الخنازير واغتصبوا دياركم لتسرح فيها القردة وأخذوا أموالكم ليزيدوا غنى ونزيد فقرا، ليزيدوا عتوا ونزيد ذلا، ليزيدوا رخاء وقوة ونزحف على الركب من الهزال.

فما ترون بعد ذلك يا مسلمون يا عرب.. المسجد الأقصى اغتصبوه وإخوانكم في الأرض المحتلة يحكمهم الشياطين، يذيقونهم سوء العذاب، ومآذن مساجدنا يطل منها البوم من شذاذ الأفاق الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وماذا بعد العزة إلا الهوان؟.

هل ستسلمون بذلك يا أتباع محمد؟ هل ستصبرون على ذلك يا أحفاد خالد؟ هل ستقفون عند هذا الحد يا خلفاء الله ويا حفظة كتاب الله ويا حملة لا إله إلا الله أم ماذا تنتظرون؟ لقد جرت سنة الله تعالى في الكون من قبل رسول الله ومن بعده أن يمنح النصر لمن يتخذ أسبابه من الاستعداد والإعداد ويعمل له حسابه من جميع الوجوه والاحتمالات ولا يترك فرصة لعدوه يعض بعدها بنان الندم.

ومهما كانت أسباب الهزيمة فقد انكشفت لنا حقائق كانت غائبة عنا وأمور كانت لا تخطر لنا ببال ومنافقون مردوا على النفاق لا نعلمهم وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠).

* * *

٣٤

مقالات

الشيخ د. محمد أبو زهرة

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- زكاة الأسهم.

العدد (٦٤) ربيع الثاني (١٣٩٠هـ) - يونيو (١٩٧٠م).

٢- الطلاق .

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م).

ترجمة الشيخ

د. محمد أبو زهرة

● **مولده ونشأته**

هو محمد أحمد مصطفى أحمد المعروف بأبى زهرة، ولد في المحلة الكبرى عام ١٣١٥هـ - ١٨٩٨م.

درس القرآن في إحدى كتاتيب حفظ القرآن. ثم انتقل إلى المسجد الأحمدي بطنطا لاستكمال تعليمه وبعد ثلاث سنوات في المسجد الأحمدي انتقل إلى مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٦م حيث درس فيها ثمان سنوات ثم تخرج سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤م وحصل على عالمية القضاء الشرعى ثم اتجه إلى دار العلوم ليتمكن من معادلتها سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧م

تدرج في الوظائف من مدرس للعربية في المدارس الثانوية إلى التدريس فن الخطابة في كلية أصول الدين ثم كلية الحقوق. بعدها بدأ بتدريس الشريعة الإسلامية وتدرج في كلية الحقوق من رئاسة قسم الشريعة الإسلامية ثم منصب الوكالة حتى أحيل للتقاعد سنة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

اختير عضوا في مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م بعد صدور قانون الازهر.

له آثار علمية عديدة تربو على ٣٠ كتاباً، منها:

«تاريخ المذاهب الإسلامية، العقوبه في الفقه الإسلامي، الجريمة في الفقه الإسلامي، علم أصول الفقه، محاضرات في النصرانية، زهرة التفاسير، مقارنة الأديان».

● **وفاته**

توفي رحمه الله عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م. رحمه الله رحمة واسعة.

الفتاوى

زكاة الأسهم

العدد (٦٤) ربيع الثاني (١٣٩٠هـ) - يونيو (١٩٧٠م).

● **السؤال:**

بعض الناس يشتري أسهماً (مدخرات) وينتفع بعائدها، وبعضهم يشتري أسهماً للتجارة، فكيف يزكي كل منهما الأسهم التي يمتلكها؟

وقد تفضل بالإجابة على هذا فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة:

إن أسهم الشركات لم تكن في الماضي معروفة بالصورة التي عليها في الحاضر، وإن كان معناها له أصل فقهي.

ولذلك ما نبديه من رأي ليس مأخوذاً من آراء الفقهاء بالنص، ولكنه مستنبط من تطبيق القواعد الفقهية، أو ما يسمى في عرف علماء الأصول بتحقيق المناط.

لقد قرر الفقهاء أن الزكاة تجب في المال النامي، ويقولون سببها مال نام بالقوة، وبتطبيق هذه القاعدة على الشركات نجد أن الزكاة واجبة فيها لأنها أموال نامية بالفعل.. ولكن كيف تجب الزكاة: أتجب بنسبة من رأس المال، إذا حال عليه الحول، أم تجب بنسبة من الغلات التي تخرج كل عام؟

نجد أن النبي ﷺ، أخذ الزكاة من الأموال المنقولة بربع العشر من رأس المال، فعشرون مثقالاً يجب فيها ربع العشر وهو نصف دينار.

والأموال الثابتة وهي الأرض الزراعية والأشجار، تجب الزكاة في غلاتها، وهي الزروع والثمار، يجب العشر إن سقيت بغير آلة، ونصف العشر إن سقيت بآلة، ولما كانت الشركات أشبه بالمال الثابت.. رأينا أن تكون الزكاة في غلاتها بعشر الصافي بعد كل النفقات، فمن يقتني أسهماً، ليأخذ غلاتها عليه عشر ما يؤول إليه بعد الضرائب المستحقة.

وإذا كان يتجر فيها بالبيع والشراء، فإن الأسهم ذاتها تكون سلعة تباع وتشترى، وتجري فيها زكاة عروض التجارة، فتكون زكاتها بربع العشر في قيمتها بعد حولان الحول، وهذا هو حكم الحال الثانية.

هذا ما انتهى إليه رأيي، فإن كان حقاً فمن توفيق الله، وإن كان خطأ فالله تعالى أعلم بالصواب.

* * *

الطـلاق

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م).

١ - ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران: ٨).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ (إبراهيم: ٣٨).

ربنا اجعلنا من الذين قلت فيهم: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ (الحج: ٢٤)

ربنا اجعلنا من الذين يستمعون إلى كتابك الخالد من غير تحريف للقول عن مواضعه، واجعلنا من الذين يدعون إليك سبحانك، وممن ينطبق عليه قولك الحكيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فصلت: ٣٣- ٣٥).

أما بعد، فقد قرأت في العدد الخامس بعد الثمانين من مجلة «الوعي الإسلامي» التي أعرف أنها لا تنشر إلا ما يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه، قرأت في هذا العدد مقالا مسهبا لأستاذنا علي الخفيف، قد كتب بعبارات إنسانية واضحة، تنتهي إلى ضرورة أن يكون الطلاق بعد التحاكم أمام القاضي، وأن من يطلق من غير تحكيم للقضاء يعاقب بالسجن والغرامة، وقد ساق المبررات لذلك في نظره.

وكنت أود مع إخواني أن يبدي هذه المقدمات التي ساقها أمام لجنة الأحوال

الشخصية التي قدمت مشروعها سنة ١٩٦٢، وكان من أبرز أعضائها، لكي يجنبها الخطأ الذي وقعت فيه وهو منع أن تقع عقوبة على المطلق، ولقد قررت ذلك بالإجماع، ولم يعترض الأستاذ على منع عرض أمر الطلاق على القضاء إلا أن يكون بطلب المرأة مما نص عليه القانون، فهو قد وافق مع الموافقين ولم يخالف.

وكنت أود أن يقدم ذلك البيان البليغ لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية ليهدي المجتمعين إلى ما يراه الحق المبين، ولكنه لم يقدم، ووافق على ما رآه أعضاء المؤتمر بالإجماع، وهو منع وجود عقوبة على المطلق وعدم الحاجة إلى أن يكون تحكيم في مجلس القضاء.

ولا ندري لماذا لم يقدم ذلك البيان البليغ في الحالين، ولماذا وافق مع المجتمعين، لما كان معهم، ولما انفرد عنهم رأى ما رأى، والرجوع إلى الحق في زعمه خير من التمادي في الباطل، وسبحان مقلب القلوب.

٢- وإذا كان أستاذنا لم يقدم ذلك البحث المزين بأحسن الألفاظ في وقت الحاجة إليه، ووافق على ما اجتمع عليه إخوانه، فكان معهم فإنا لا نسأل لماذا غير ما أجمع عليه مع إخوانه، ولكن ندرس البحث في ذاته من غير نظر إلى ما أحاط به ولا إلى وقت تقديمه، وإن كان مؤخرا عن وجوب تقديم، ولا نلتفت إلى ما سبق، فسبحان الذي لا يتغير ولا يتبدل، ولا يجرى عليه البداء بأن يبدو له ما لم يكن في اعتباره. ونلاحظ ابتداء على بحثه أنه أحيانا يقتطع الآيات عما سبقها، وأحيانا يقتطعها عما وليها، فمثلا يقول: قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

والإشارة في تلك إلى حدود الله السابقة، فلم لا يذكرها؟ أليوهم أنها ما يراه هو حدا من حدود الله؟.

ولنتم له الآيات بذكر ما قطعه مما قبلها، حتى صرنا لا نفهم لفظ الإشارة في ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، يقول تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ (البقرة: ٢٢٨- ٢٢٩).

انظر، قد قطع لفظ الإشارة عن المشار إليه، فلم تكن الحدود أن تكون ثمة رقابة من القضاء، ولكن كانت الحدود لمدة الطلاق، وحق المطلق في الرجعة وجوازها عند إرادة الإصلاح والفدية في التفريق إن خيف ألا يقيما حدود الله، هذه هي الحدود وليس منها وضع الطلاق تحت رقابة القضاء.

وقد ذكر بعض هذه الآيات في مقام آخر ليوهم فيه شيخنا مساواة الرجل بالمرأة إلا في حق القوامة عليها، وهي: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ والآية لو تأملها شيخنا لوجد أنها لا تتعرض لمساواة المرأة بالرجل، بل هي تدل على تساوي حقوقها مع الواجبات عليها، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ أي لهن من الحقوق مثل الذي عليهن من واجبات بدليل التعدية في الأول باللام، التي تفيد الملك، والثاني بعلى التي تفيد الإلزام، ولا نحسب أن ذلك كان يخفى على شيخنا صاحب ذلك البحث البليغ لو تأمله، ولكنه نظر إليه نظرة عابرة، وظنه يفيد مساواة الرجل بالمرأة، وأن ذلك مبدأ خلقي وشرعي فلا واجب إلا وفي مقابله حق، فإذا كانت المرأة عليها تربية ولدها فإنه يقابله حق الحضانة.

والحقوق الشرعية، كما يعلم الشيخ، هي للتمكن من أداء الواجبات الشرعية، والشيخ، حفظه الله تعالى، يقتطع الآية عما يليها، ومن ذلك أنه يستشهد في الإصلاح، وقد نقل قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ (النساء: ١٢٨) وأكتفي بهذا القدر، وما بعده يوضح المعنى أكثر، ولكنه يريد الوقوف عند ذلك، وفيما بعده بيان أن شح النفوس محضر، وأن العدل النفسي غير ممكن، وأنه إذا حضر شح النفس بدل السماحة، والظلم بدل العدل فالتفرق واجب، ولنقرأ الآية

كاملة، لا كما اقتطعها شيخنا، حفظه الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ (النساء: ١٢٨- ١٣٠)، ترك الشيخ حفظه الله تعالى ذلك الجزء الأخير من الآية، ولا أدري لماذا أهمله ولم يذكره، لعله لا يريد أن يغضب أحدًا بذكره، ولعله لا يريد أن يذكر أن في القرآن استحسانا للطلاق ولو في بعض الأحوال.

٣- **ولقد استشهد الشيخ، حفظه الله، بأن عمر** ﷺ لما رأى الناس يكثرون من الطلاق بلفظ الثلاث أو يكررونه في العدة جعله ثلاثًا، فقال: روى ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الناس تتابعوا في الطلاق، وتعجلوا، فتجاوزوا حدود الله تعالى فيه، وطلق بعضهم مرتين وثلاثا في عدة واحدة أو بلفظ واحد، وكثر ذلك منهم، ظنا منهم فيما أن الطلاق تصرف وُكِّل لهم أن يستعملوه كما أرادوا، فيكون طلاقا معتبرا في وقوعه، وفي عدده، فلما رأى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عده خروجا عن حدود الله، وعصيانا لما شرع الله، فاستشار الصحابة، وقال إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فلما وافقوا أمضاه عليهم.

ولنا تعليق على هذا الخبر عن عمر ﷺ من وجوه:

أولها: أن الذي استكثره عمر ﷺ أنهم طلقوا أكثر من مرة في العدة، ولم يذكر أنهم طلقوا ثلاثا بلفظ الثلاث (راجع كتاب الطلاق للمرحوم الشيخ شاكر، وإعلام الموقعين).

ثانيا: أنه زاد في الخبر انه استشار الصحابة ووافقوه، وظاهره أن الموافقة كانت بالقول، والخبر، كما جاء في صحيح مسلم، ليس فيه استشارة ولا موافقة صريحة وإنما الأمر كما جاء في فتح القدير أنهم سكتوا، ولم يعترضوا فعد ذلك

إجماعا، لأن السكوت في موضع الحاجة إلى البيان بيان، وفي الإجماع السكوتي كلام، وأنكره الشافعي وفيه كلام طويل (راجع الإحكام في أصول الأحكام للآمدي).

ثالثا: أن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه لم يقل مع كثرة الطلاق أن يكون بتحكيم بين يدي القاضي، فيكون طلب الشيخ أن يكون بتحكيم القاضي بدعة، وهو تقليد للنصارى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رابعا: أنه ادعى أن عمر فعل ما فعل للمصلحة.

وإذا كان الثلاث مصلحة في نظر الشيخ فهو يأتي على أصل دعواه بالنقض، لأنه إذا كان الطلاق لا مصلحة فيه عند التهور، فإن توكيده يجعل الثلاث تمضي إيغالا في البعد عن المصلحة، فكيف يسمي ذلك مصلحة، ولكنه سماه مصلحة لغاية في نفسه، والله عليم بذات الصدور.

خامسا: أن عمر رضي الله عنه لم يجد نصا قاطعا في منع قوله، ولو كان هناك نص قاطع في رد قوله ما وافق عليه أحد من الصحابة، ولا التابعين، ولا الفقهاء أصحاب المذاهب.

٤- وإن الشيخ ينتهي من بحثه الذي سماه علاجا لحال الطلاق الذي ادعى الإسراف فيه إلى أن الطلاق يكون بعد التحكيم أمام القاضي، وأحسب أن ذلك داء لا علاج، وهو اتباع للكنيسة لا للقرآن، وللأهواء والشهوات، وليس محاربة للأهواء والشهوات.

يقول الشيخ: «يكون العلاج بوضع تشريع يوجب على الزوجين إذا ما أريد الطلاق الرجوع إلى القاضي، ليقوم بينهما بما أمر الله في كتابه من محاولة الصلح بينهما، وإزالة أسباب الخلاف بالحكمة والموعظة الحسنة، حرصا على بقاء الأسرة، ومحافظة على ما ترتبط به المودة... وإذا أقدم الزوج على التطليق قبل أن يتمكن القاضي من الصلح عوقب لمخالفته ولي الأمر فيما أصدره من قانون ملزم وليس في عقاب من خالف ولي الأمر مخالفة لشرع الله، فإن أمره واجب الطاعة...».

هذا ما قاله فضيلة الأستاذ، وهو متناقض مع ما سبق من قوله من أن الطلاق بيد الزوج، وأن الله تعالى أعطاه ذلك الحق، إذ هو يوجب في قانونه المحترم، أن يذهب الزوجان، ومقتضى كلامه إذا ذهب الزوج وحده لا يلتفت إليه، قد يقول إذا ذهب الزوج وحده دعيت الأخرى، ويحاول القاضي الصلح بينهما. وبقي أمر آخر لم يذكره، إن عجز القاضي عن الصلح، وإعادة المودة، ورأى الزوج أن يطلق، أيمنع من الطلاق ويجبر على الصلح إجبارا؟

وإذا امتنعت هي عن الصلح، وطلق الزوج، أيعاقب أيضا؟ إن قوله هذا تفكير غريب، وإذا كان قانونًا مقترحًا، فهو أغرب.

وإذا كان لدى الزوج أسباب مبررة للطلاق كريبة ارتابها، أو خروج عن جادة الزوجية الصالحة، أو كانت النفرة المستحكمة التي لا يستطيع القضاء أن يجعل منها الصفاء محل الخصام وطلق الرجل في هذه الحال، أيعاقب، والله يقول: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (النساء: ١٣٠).

الله يقول ذلك، وقانون الشيخ يقول: بل تبقى الزوجة على دخن، ويكون الكفر في الإسلام، ثم ألا يفصل القاضي إذا تقدم الزوج بأسباب يراها مبررة للطلاق، وألا يكون ذلك عدلا، لئن قال الشيخ ذلك فإنه يكون متناقضا مع نفسه لأنه يمنع أن يكون الطلاق بحكم من القاضي فيقول قبل ذلك لأنه منع التعزير على الطلاق بقوله: بل قد يرى بحق أنها (أي الطلاق) معصية تستوجب تعزير من يقدم عليها، غير أن ذلك قد يكون من الناحية العملية مؤديا إلى ضرر، من المصلحة تجنبه، وهو إشاعة أسرار الأسر، وخفايا البيوت وما قد يتصل بذلك من اختلاق الأسباب وافتراء الكذب، وإشاعة الفحشاء، والعيوب، وغير ذلك مما ينبني عليه طلب الطلاق، وذلك ما يدعو إلى تفاقم النزاع واشتداد البغضاء.. وهكذا نرى أن الشيخ يهدم بيد ما يبنيه باليد الأخرى.

إنه يوجب رفع الأمر إلى القاضي، والقاضي يفصل في الخصومات، ولكن، أيريد مشروعه أن يقتصر على محاولة الإصلاح فقط، ولا ينظر ما لدى الرجل من أسباب للطلاق؟ وقد جاء الأمر إليه، وإلا لا يكون قاضيا جالسا في مجلس

القضاء، وإن نظر ألا يكون في ذلك ما حاول الشيخ أن يتوقاه، أم أنه يجعل مهمته فقط محاولة الصلح؟ وهل يستطيع أن يمنع الزوج مما يراه مبررا للطلاق، وألا يكون أولى من القاضي حينئذ محكمون، أو الموثق الشرعي، اللهم إن هذا لفكر لا جدوى فيه، إلا أن يكون استدراجًا للشيخ ومن معه إلى ألا يكون الطلاق إلا بحكم القاضي كالنصارى.

وكان غريبا أن يقول شيخنا إن العقوبة بالغرامة أو الحبس ليست لأجل الطلاق، إنما هي لمخالفة ولي الأمر.

وقد وجدنا ذلك الكلام يجري على ألسنة كل من لف لفه من أعضاء لجنة وزارة الشؤون الاجتماعية، وإنا نسأله هو ومن معه: لم وضع ولي الأمر هذه العقوبة؟ أليست على الطلاق من غير عرض الأمر على القضاء؟ وحينئذ يكون وضع العقوبة على الطلاق ابتداء، وإن العقوبة على الطلاق تكون مصادمة للنصوص القرآنية، وما أقر الصحابة أنه حلال عند الحاجة النفسية إليه، وتقدير الحاجة نفسي للمطلق لا ينظر أمام القاضي، وخفايا النفوس لا يمكن القضاء أن يتعرفها.

الله تعالى يقول: ﴿تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا﴾ (البقرة: ٢٣٦)، ويقول تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطلاق: ١)، يقول الله تعالى ذلك، ويقول ولي الأمر باقتراح الشيخ من طلق من غير محاولة صلح عندي أغرمه أو أسجنه، ألا يكون ذلك معصية، ولو كانت باقتراح الشيخ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؟

إن من الإنصاف أن نقول: إن الشيخ قال في بعض الصحف السيارة: إنه يجوز لولي الأمر أن يقيد المباحات، وأنه يبني على هذا القول أنه يجوز له أن يقيد الطلاق بأن يكون بعد محاولة الصلح أمام القضاء، ونقول الحق في هذا القول: إن المباحات قسمان، مباحات بالنص، كالطلاق وتعدد الزوجات وغير ذلك من المباحات التي جاءت بها النصوص المحللة، وهذه لا يصح منعها، ولا تقييدها، وإن من يحاول منعها ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

﴿ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ . . (النحل: ١١٦) وينطبق عليها قول الله تعالى ناهيا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (المائدة: ٨٧)، وقد عاتب الله تعالى نبيه عندما حرم زوجاته على نفسه، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ (التحريم: ١).

هذا هو القسم الأول، ومن حرمه، إنما يحرم ما أحل الله، فلا يجوز لشيخ ولا ولي أمر أن يحرمه.

والقسم الثاني ما كان مباحا بأصل الإباحة، وبمقتضى أن الله تعالى خلق لنا كل شيء كالمرور في الطرقات فإن ولي الأمر ينظمه بقيود يقيدها، بحيث لا يصل الأمر إلى درجة التحريم، فليس لأحد أن يحل أو يحرم.

٥- هل كثر الطلاق المفرق للأسرة؟

أكثر الشيخ حفظه الله من ذكر أن الناس يتسرعون في الطلاق، فيطلقون تحت تأثير غضب جامح، أو فكرة عارضة من غير تدبر ولا تفكير ولا مراجعة للنفس، وأن علاج ذلك يكون بأن يكون بين القاضي مصالحا، أو حاكما، والأولى ستجر إلى الثانية لا محالة.

وذلك تقليد مسيحي، فهل الشرع الإسلامي لم يعالج ذلك، وهل المشروعات التي وافق على بعضها الشيخ موافقة تامة لم تعالج ذلك.

إن الشرع الإسلامي بنصوص القرآن وسنة النبي ﷺ عالج ذلك فجعل الطلاق كله يكون رجعيا، وأزواجهن أحق بردهن في العدة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، فإن كانت الطلقة الرجعية جاءت تحت تأثير حال عارضة، فهي إنذار، والفرصة قائمة وإن عرض ما جعله يطلق مرة أخرى فهي أيضا رجعية، وهي نذير شديد الإنذار إذ يستمع فيه إلى قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

فإن لم تجد النذر كانت عقوبة الله تعالى لا عقوبة ولي الأمر التي لا يملكها ويريد الشيخ أن يملكها ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣٠)،

وهي تجربة نفسية عنيفة لخطأ نفس متكرر، فعيوب النفس تعالج بالنفس لا بالقضاء، والقضاء لا يعالج النفوس.

والقرآن أشار إلى أن الطلاق لا يكون في الحيض، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ (الطلاق: ١)، أي مستقبلات عدتهن وهن الحيض.

والفقهاء قرروا أن الطلاق إذا كان في الحيض، أو طهر دخل بها فيه يكون بدعيا، فالقرآن والسنة، والفقهاء بهديهما عالجوا خطأ النفس بالنفس، لا بالقضاء، لأنه يؤرث العداوات على أني سائل قضاة الأحوال الشخصية - وقد شغل فضيلة الشيخ ذلك المنصب أمدا - هل كانوا يعملون على الصلح في قضايا النفقات والحضانة وغيرها مما يعرض أمام المحاكم الشرعية ونص القانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١، ولائحة المحاكم الشرعية، قبل أن يدخلها التعديل بهذا القانون كان يدعو إلى الصلح قبل أن يسير في القضية، إبقاء على المودة بين الزوجين، حتى لا تمزقها الخصومات، فهل حاول القضاء ذلك؟ وهل دون في محاضره هذا؟ فلماذا تحمل الآن القضاء ذلك الأمر؟ وهو لم يفعل ذلك من قبل إذ طلب، لأنه حسب نفسه للفصل لا للصلح.

وأنا سائل الشيخ عن أنواع الطلاق الآتية، أتكون العقوبة مقررة فيها؟

أ - وقوع الفرقة بالإيلاء بمقتضى قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ (البقرة: ٢٢٦-٢٢٧)، ماذا تقول؟ أيعاقب الحالف الذي تربص أربعة أشهر ولم يأت امرأته فيها ووقع الطلاق نتيجة لذلك؟ فإن كان يعاقب، فإنه يعاقب على حكم الله بالطلاق، إذ لم يطلق، وفوق ذلك فالعقاب مصادمة لحكم الله تعالى، وإجبار على أمر لا يستطيعه، وهو الدخول.

وإن كنتم لا تعاقبون فقد هدمتم ما بنيتم، إذ يلجأ الناس عند المباغضة إلى الإيلاء.

ب - إذا فوض الرجل إلى المرأة أمر طلاقها، فطلقت نفسها، أيعاقب الزوج

أم تعاقب الزوجة أم يعاقبان، هو على تفويضه، وهي على إيقاع الطلاق؟ ولا أحسب أن السيدة الدكتورة وزيرة الشؤون الاجتماعية تعاقب الزوجة لأنها لا تلقي تبعته على امرأة، بل تلقيها على الرجل.

جـ- إذا افتدت المرأة نفسها من عشرة لا تطيقها، ودفعت مالا أو أبرأت عملا بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩) إذا كان ذلك كذلك، وكان الطلاق بالخلع أتكون عقوبة؟ وعلى أيهما أعلى الزوج أم على الزوجة؟ لأنها التي حملته على ذلك حملا، أم عليهما؟ ولا أحسب أن السيدة وزيرة الشؤون الاجتماعية ترضى بتحميل المرأة تبعة.

إني أحسب أن الذين وضعوا المشروع الذي يدافع عنه الشيخ أو يحاول تبريره لم يفكروا في الأمر من كل نواحيه، ولو تدبروا فيه من كل وجوهه لرجونا أن يعدلوا، ولاهتدوا إلى سواء السبيل.

إن الأمر لا يقف عند تحكيم القاضي، بل سيكون منع الطلاق إلا بإذن القاضي، وإنهم يستدرجون الشيوخ إلى ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إنهم يريدون أن تكون الأسرة الإسلامية محكومة بحكم الكنيسة لا بحكم الإسلام، تقليدا وليس حماية للمرأة، بل المرأة في حماية الله، وهو الرؤوف الرحيم.

ولكن لماذا يتهجمون بهذه البدع التي لم يكن لها نظير في الإسلام، ويتحملون تبعة ذلك الابتداع في شرعنا، بل في ديننا؟

قالوا: إن الطلاق المفرق للأسرة قد كثر، وإن تشتيت الأولاد قد عم، وإن الطلاق هو الذي يسبب ذلك، وإن المصلحة تقتضي وضع قيود مانعة من الاندفاع فيه، ذلك قولهم بأفواههم والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

ولنناقش هذا الذي ادعوه:

إن وقائع الطلاق في مصر أقل من وقائع الطلاق في أمريكا، فقد بلغت نسبة وقائع الطلاق في أمريكا، وهو بيد القاضي نحو ٤٨ في المائة من وقائع الزواج، وقريب من ذلك في البلاد التي أباحت توثيق الزواج غير الكنسي، إنه يكفي عندهم

أن تقول المرأة إنه لم يقبلها في الصباح كعادته في ابتداء الزواج حتى يطلق القاضي، هذا ما ترويه الصحف.

ونسبة وقائع الطلاق في مصر إلى الزواج، كما يدل على ذلك إحصاء ١٩٦٠ هي ٢٣ في المائة.

ونريد أن نقول إن الإحصائية تذكر عدد الطلاق بالنسبة للزواج، سواء أكان قبل الدخول أم بعده، وسواء كان الطلاق رجعيا أم كان بائنا، وسواء أكان بتراضي الزوجين أم بمجرد إرادة الرجل، إن الإحصائية لا تتعرض لذلك، إنما تحصي الوقائع إحصاء، ويجيء فلاسفة العصر المحاربون للشرع والموالون لغيره بتفكيرهم، فيقولون كل طلاق يخرب أسرة، ويفرق بين الأبوين، وهو قول من لم يمحص الحقائق، ولم يدرس الإحصاء.

ونحن، شهد الله، لا نتعصب لفكرة لم نفحص أدلتها، ولا نحارب فكرة من غير بينة من البرهان القاطع في بطلانها، ولكنا نفحص ما يعرض فحصا يليق بمن يدرس أمرا اجتماعيا خطيرا في مبناه ومغزاه.

٦- الإحصاء يدل على أن الطلاق لا يخرب أسرًا.

لقد قمنا بإحصاء سهله لنا بعض أبنائنا من موظفي المحكمة الشرعية بمصر القديمة سنة ١٩٥٦، ولقد دلنا الإحصاء على أن نسبة الطلاق بالنسبة للزواج تزيد على ٣٦ في المائة، وهي تزيد على النسبة العامة في مصر، إذا إنها حول ٢٣ في المائة في عمومها.

وذلك لأسباب اجتماعية اقتصادية، خاصة بمصر القديمة، لأنها مرسى السفن التي تجيء من الوجه القبلي، وفي بولاق، لأنها مرسى السفن التي تجيء من الوجه البحري، والملاحون والحملة في السفن يتزوجون، وعند الرحيل يطلقون.

ومهما يكن السبب، فقد درسنا حال الطلاق الكبير في نسبته في مصر القديمة سنة ١٩٥٦ أيخرب الأسر أم لا يمسها بسوء؟

لقد وجدنا عدد الزواج يصل بالإحصاء إلى ١٦٨٦ (ستة وثمانين وستمائة وألف) عدا.

ووقائع الطلاق عددها ٦٠٥ (خمس وستمائة).

ولاشك أن الطلاق الذي يخرب الأسرة، ويفرق بين الأولاد يجب أن يكون بعد الدخول وألا تكون رجعة بين الزوجين، كما شرع الله تعالى، وألا تستأنف الحياة الزوجية بعقد بين اثنين وقع الطلاق بينهما ولم يتراجعا في العدة، وألا يكون بالتراضي بين الزوجين.

ولنحكم الإحصاء في ذلك، بأن نتعرف عدد الطلاق قبل الدخول ونسقطه من وقائع الطلاق، لأنه طلاق في موضعه، إذ هو منع لحياة زوجية غير صالحة للبقاء، فهو وقاية من حياة زوجية فاسدة.

ولنتعرف عدد الرجعات، فإنه عند الرجعة لا تنفصم العلاقة الزوجية، ولا تفرق في الأسرة، ولا يحتار الأولاد بين أبوين منفصلين.

وكذلك الأمر بالنسبة لتجديد الزواج بين زوج ومطلقته، فإن الأسرة إذا كانت قد تقطعت ابتداء، فقد وصلت انتهاء، ولا تخريب ولا تشتيت في هذا الحال.

ويجب أن نسقط من العدد الطلاق برضا الزوجين، لأن الزواج بتراضيهما، فالطلاق بتراضيهما، وفي أكثر أحواله يكون بطلب المرأة إذا كرهت زوجها، كما كان في أمر النبي بالنسبة للمرأة التي قالت للرسول ﷺ : إني لا أشكو من زوجي خلقا ولا دينا، إني أكره الكفر في الإسلام، إني لا أطيقه بغضا، فأمره النبي أن يطلقها على أن ترد إليه حديقته التي كانت مهرها.

ولأن التراضي بين الزوجين يكون إذا خافا ألا يقيما حدود الله، فكان الافتداء، ولذلك ننزل من عدد الطلاق، الطلاق قبل الدخول، وعدده في سنة ١٩٥٦ بمحكمة مصر القديمة «٣٩»، وعدد الرجعات كان «٣٨» وعدد الزواج بعد الطلاق وانتهاء العدة «١٥٠» وعدد الطلاق بالإبراء أي برضا الزوجة وتقديمها مالا في سبيله «٤٠٤».

وبجمع هذه الأحوال يكون مجموعها (٣٩ + ٣٨+ ١٥٠+ ٤٠٤=٦٣١).

وإذا كان عدد الطلاق ٦٠٥، فإنه يزيد الذي يسقط عن أصل العدد بست وعشرين واقعة، وهي تكون من عدد الطلاق في السنة التي قبلها، ولم تدخل في

حساب سنة ١٩٥٦م.

وإن نتيجة هذا الإحصاء أنه بعد إسقاط الأعداد التي لا يمكن أن تكون تخريب أسرة، إذ يكون الطلاق الذي يخرب أو يظلم المرأة لا وجود له، وإن وجد فبنسبة لا تذكر في حساب يترتب عليه محاربة نظام مستمد من الإسلام، ولا مصلحة في هذه المحاربة، بل هي عبث في عبث، لا خير وراءه.

وإنه يجب أن يعرف أنه كان إحصاء قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، قام به الأستاذ الدكتور عويس أثبت فيه أن الأولاد الذين لا يتربون في ظل أبويهم أكثر مما هم عندنا، ولكن حكوماتهم تقوم بالرعاية والتتبع.

لقد ثبت من إحصاء الدكتور عويس أن أسباب تخريب الأسرة في إنجلترا متعددة منها:

أ- الفراق الجسدي، وهو أكثر من عدد الطلاق عندنا.

ب- اتخاذ الخلائل، وهو أكثر من تعدد الزوجات.

جـ- الهجر الشديد، وهو عندنا يعالج، وإن كان أقل عددا.

د- إدمان الخمر، وهو عندنا لم يبلغ من الفحش درجة تقارب ما عندهم.

هـ- القمار المخرب، وهو عندنا محرم أولا، ولا يقارب ما عندهم، ولذلك كان الأولاد الذين لا يتربون في رعاية أبويهم مجتمعين أكثر مما عندنا، ولكن هناك رعاية للأحداث ليست عندنا كما قلنا، فالعيب في حكوماتنا لا في شعبنا، ولا في شرعنا وديننا.

٧- ومن الغريب أن تكون هذه الحملة الباطلة في الوقت الذي تحاول فيه الحكومات الكاثوليكية أن تتحلل من منع الطلاق، وقد صدر في إيطاليا موطن البطريق الأكبر للكاثوليك قانون يبيح الطلاق.

ولكن لا غرابة فإن عندنا نوعين من الناس يحاربون المبادئ الإسلامية في الأسرة:

أولهما نوع لا حريجة للدين في قلوبهم ولا يجدون حرجا في أنفسهم في تقليد الكنيسة فيما تقضي به، ولذلك يدعون إلى تقييد الطلاق وتقييد تعدد الزوجات،

ويدعون باطلا من القول وزورا وبهتانا أن الطلاق يخرب الأسر، وليس شيء من ذلك إلا قليلا وما عند الأوروبيين أشد وبالا وأقبح مآلا.

ثانيهما طائفة من الناس يظنون أنفسهم أنصارا للمرأة وهم أعداؤها، يظنون أن جعل الطلاق بيد الزوج إهدار للمرأة.

ألا فليعلم هؤلاء أن الطلاق إذا شحت النفوس بالمودة يكون خيرا للمرأة، لأنه إذا لم يكن كان الاعتداء المتكرر عليها، وربما أدى إلى موتها، وأي سعادة مع رجل يبغضها وليعلموا أن كل تضييق في الأسرة يقلل الإقبال على الزواج فتعنس المرأة وتفسد أعصابها، أو تضع نفسها في موضع الافتراش المحرم، وأي مهانة للمرأة أكثر من هذا. فاتقوا الله بهؤلاء الذين رضوا بأن يكونوا إمعات طائعة لهولاء وأولئك، وليعودوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إنهما الوقاية من كل شر، اللهم اهدنا فيمن هديت، وبارك لنا فيما أعطيت، ويسر لنا من أمرنا عسرا، واهدنا إلى الرشاد.

* * *

٣٥ مقالات

د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

- ترجمة الدكتورة.
- المقالات:

١- رد وتعقيب: القرآن الكريم وحرية الإرادة

٢-عيدنا وعيدهم.

ترجمة

د. عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطئ)

● **مولدها ونشأتها**

وُلِدَت الكاتبة والباحثة والمفكرة والأستاذة الجامعية عائشة محمد عبد الرحمن، المكناة بـ«بنت الشاطئ» بتاريخ ٦/ ١١/ ١٩١٣م، في مدينة دمياط بشمال دلتا مصر، ببيت علم وأدب، فوالدها أحد علماء الأزهر، وقد تربت على يديه تربية إسلامية، فنهلت من جلسات الفقه والأدب.

● **تعليمها**

التحقت رحمها الله بالكتَّاب فحفظت القرآن الكريم، ثم التحقت بمدرسة اللوزي الأميرية للبنات، ثم حصلت على شهادة الكفاءة للمعلمات بترتيب الأولى، ثم حصلت على الشهادة الثانوية عام ١٩٣١م. ثم تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة عين شمس، ثم نالت شهادة الماجستير بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤١، وتزوجت خلال فترة دراستها الجامعية من الأستاذ الجامعي أمين الخولي، وأنجبت منة ثلاثة أبناء، ثم حصلت على شهادة الدكتوراه في النصوص بتقدير ممتاز عام ١٩٥٠م، حيث ناقش رسالتها الأديب طه حسين.

● **حياتها العملية**

عملت رحمها الله في عدة وظائف وتبوأت عدة مناصب مهمة، فعملت أستاذة للتفسير والدراسات العليا في كلية الشريعة بجامعة القرويين في المغرب، وأستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها في جامعة عين شمس، كما عملت أستاذة زائرة لعدة جامعات كجامعة أم درمان، والخرطوم، والجزائر، وبيروت، وغيرها.

ودرَّست ما يقارب العشرين عاماً بكلية الشريعة في جامعة القرويين بالمغرب في وظيفة أستاذة للتفسير والدراسات العليا، وشغلت عضوية المجلس الأعلى

للشؤون الإسلامية بمصر، والمجالس القومية المتخصصة، والمجلس الأعلى للثقافة، كما كانت أيضاً أحد أعضاء هيئة الترشيح لجوائز الدولة التقديرية بمصر.

● **إنتاجها الأدبي**

أنتجت رحمها الله إنتاجا أدبياً غزيراً ومتنوعاً مثل:

«التفسير البياني للقرآن الكريم، الإعجاز البياني للقرآن، وتراجم سيدات آل البيت النبوي، الإسرائيليات في الغزو الفكري، رسالة الغفران للمعري، والخنساء الشاعرة العربية الأولى، ومقدمة في المنهج، وقيم جديدة للأدب العربي، المرأة المسلمة، ورابعة العدوية، والقرآن وقضية الحرية».

كما كانت تكتب للصحف والمجلات وخصت مجلة «الوعي الإسلامي» بالعديد منها، وقد تبنت الدكتورة عائشة عدة قضايا في حياتها، آخذة على عاتقها الدفاع عن الإسلام بقلمها فوقفت ضد التفسير العصري للقرآن الكريم ذوداً عن التراث.

حصلت رحمها الله على كثير من الجوائز منها جائزة الدولة التقديرية للأدب في مصر، كما حصلت أيضا على جائزة الحكومة المصرية في الدراسات الاجتماعية، ووسام الكفاءة الفكرية من المملكة المغربية، وجائزة الأدب من الكويت عام ١٩٨٨م، وجائزة الملك فيصل للأدب العربي مناصفة مع الدكتورة وداد القاضي عام ١٩٩٤م.

● **وفاتها**

توفيت رحمها الله في ١/ ١٢/ ١٩٩٨م بعد إصابتها بأزمة قلبية حادة، وقد تركت خلفها ثروة هائلة من الكتب والمؤلفات الأدبية التي تعبر عن جهاد هذه المرأة المسلمة.

القرآن الكريم وحرية الإرادة

«رد وتعقيب»

قرأت بعناية بالغة وتقدير صادق، ما كتبه الأستاذ الجليل «الدكتور مصطفى الزرقا» في مجلة الوعي الإسلامي الغراء، تعليقاً على المحاضرة التي ألقيتها في الكويت بدعوة من جمعية الإصلاح الاجتماعي من «القرآن الكريم وحرية الإرادة».

ولقد اغتبطت حقاً، لما بدا من اهتمام الأستاذ الجليل بحاضرتي، وهو الذي نعرف له أصالته في فقه الإسلام، وجهوده السخية في خدمة الفكر الإسلامي.

ولولا يقيني من حسن تقبله لردي عليه عن رحابة صدر وسعة أفق، لتحرجت من مناقشته خشية أن يظن بي الغرور. لكني تعلمت من أدب الإسلام أن مثل هذه المناقشة إن رفعت قدري فليست بحيث تمس قدر الأستاذ الفقيه أو تجور على مكانته فينا. وقد جادلت امرأة مسلمة مثلي رسول الله عليه الصلاة والسلام واشتكت إلى الله فسمع الله قولها ونزلت فيها آيات «المجادلة» وجادلته أخرى حين هاجرت إليه بدينها وأراد ﷺ أن يرجعها إلى قومها بمقتضى شرط من صلح الحديبية، فنزلت فيها آيتي الممتحنة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠)

وكذلك جادلت امرأة مسلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على مسمع المسلمين بالمسجد فأصغى ﷺ إليها ورجع إلى المنبر فقال كلمته المشهور التي بقيت ملء سمع الزمان، شاهدة على احترام الخليفة الصالح الفقيه لما كفل الإسلام للإنسان من حرية الفكر والرأي وحق الجدل والمناقشة.

«أصابت امرأة وأخطأ عمر»

* * *

وأحتاج هنا إلى أن أمهر للمناقشة بتلخيص موجز لفكرتي في المحاضرة ومنهجي في تناول مشكلة الجبر والاختيار التي حيرت علماء الإسلام قرونا ذات عدد.

الفكرة تقوم على أساس ما هدى إليه البيان القرآني من التفرقة بين مفهوم إرادة الخالق ومفهوم إرادة البشر.

إرادتنا كسبية مصحوبة بعزم وتصميم عن نية ورغبة.

وليست كذلك إرادة الخالق الذي لا يجوز عليه أي فعل أو صفة كسبية، على ما هو مقرر في علم التوحيد وإنما إرادته تعالى أمر نافذ وقضاء مبرم، سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ومن هذا الفهم المدرك للفرق بين فعل الإرادة مسنداً إلى الخالق، وفعلها مسنداً إلى المخلوقين كان منطلقي في تدبير الآيات التي حكمت الإرادة الإلهية في مصائر الأمم والأفراد، فنراها لم تعفهم من مسئولية ما صاروا أو يصيرون إليه بمشاهد من صريح سياقها:

من هذه الآيات، آية هود (١٠٧) قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ جاء حكما نافذاً على أمة وثنية ضلت وعتت عن أمر ربها فأخذها الله بظلمها:

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ (هود: ١٠١- ١٠٧).

وآية يس (٢٣) قد أبطلت شفاعة آلهة تتخذ من دون الله أرباباً وهيهات أن تنقذ من حكم الرحمن على من ضل باتخاذها ضلالا مبينا: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

﴿ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

وآية الرعد (١١) التي جعلت إرادة الله بقوم سوءا حكما نافذا لا مرد له:

وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال الإرادة الإلهية فيها مسبوقة بقوله تعالى في صدر الآية نفسها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

ومثلها آية الأنفال (٥٢-٥٣) فيمن أصروا على الكفر فحق عليها العقاب:

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وعلى هذا النحو تابعت تخريج آيات الإرادة في القرآن الكريم، فبدا لي- والله أعلم- أن الله تعالى يحكم علينا بما نريد لأنفسنا تقريراً حاسماً للتبعة، وإلزاماً بمسئولية إرادتنا الكسبية الحرة في عملنا ومسعانا، فالجبرية في حتمية المصير لما أرادنا، تتم بها إرادة الله حكا عادلاً وقضاء نافذا. وبغير هذه الحرية في إرادة البشر فتنتفي حكمة إرسال الرسل وتتعطل أهلية الإنسان للتكليف.

وقد وقف الأستاذ الدكتور الزرقا، عند تخريجي لآيتي هود ويس، فقال إن هذه الآيات بقيت محل تساؤل لدى قارئ محاضرتي إذا من الواضح أن مناط الجبرية في آية هود، إنما هو في تسليط الإرادة الإلهية على الإغواء وتعلقها به، فلو كان متعلقها غير الإغواء من عذاب أو سوء عاقبة، لصح التأويل «بأنها حكم الله على الناس بما أرادوا لأنفسهم».

وكذلك آية يسن السياق فيها هو موازنة بين قدرة قادر وإرادته المطلق، وعجز العاجزين.. فيبقى في ظاهر الآية ممسك للجبرية في أن ما يقع للناس من خير وشر ونفع وضر، إنما هو بإرادة الله تعالى التي لا محيص لهم منها.

ولا وجه يما أرى لمثل هذه الوقفة، فلم أقل أن الإرادة الإلهية حين تأتي حكما نافذاً وقضاء مبرماً وفق ما أردنا لأنفسنا، تقتصر على العذاب وسوء العاقبة- أو على الثواب وحسن العقبي- وإنما يصدق حكم الإرادة الإلهية

النافذة، على كل ما أراد الإنسان لنفسه من هدي أو ضلال ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ (الليل: ٥-١٠) والله سبحانه قد هيأ للإنسان وسائل البصر والتمييز والهداية ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ (الإنسان: ٢-٣).

ولا أريد أتردد في قبول ما رآه الأستاذ الجيل من أن تلك الآيات جاءت في مقام التعبير عن قدرة الله تعالى المطلقة في ذاتها، وليست تعبيراً عن واقع، ولذا جاءت في صورة الشرط.

فهو تعالى قادر على العدل والظلم ولكنه لا يغوي ولا يظلم ولا يرضى لعباده الكفر ولا يسوقهم إليه، وكذلك كما تقول إن فلاناً يستطيع أن يفعل كذا وكذا من خير أو شر، ولو أراد أن يقتل فلانا لفعل. ولا يفهم أحد من ذلك أنه فعل أو يفعل ما يستطيعه.

وأضيف إلى هذا الملحظ ما يقرره القرآن الكريم من ثبات السنن الكونية، مع قدرته تعالى على نقضها. فقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣).

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ (يس: ٤٠) لا يناقض الآيات المثبت قدرته تعالى على نقض سنن الكون، وقد جاء بها البيان القرآني معلقة على شرط المشيئة الإلهية بحرف «لو» أو «إن».

وكذلك تقرير لحرية الإرادة الكسبية، لا ينفي بحال ما قدرته تعالى على إغواء خلقه لو شاء وإضلالهم إن أراد لكنه سبحانه «لا يريد ظلما بالعباد».

* * *

وعرض الأستاذ الجليل بعد ذلك لآيات: (الأنعام ١٠٨) ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

(الأنعام: ١١١) ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الرعد: ٢٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

ورآها مشكلة على ما عرضت من تخريج «وقد أسند فيها أصل السلوك الصالح أو الخاطئ من هداية أو ضلال، إلى فعل الله تعالى ومشيئته».

ولا أراها مشكلة: فآيتا الأنعام في سياق من أصروا على الضلال عمداً وصحت إرادتهم على الشرك والعمى وانعقد عزمهم على العناد.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ (الأنعام: ١٠٤) إلى قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنعام: ١٠٧ -١٠٨).

والآية كما نرى تقرر حرية العقيدة، وهي متلوة مباشرة بآية عنادهم وإصرارهم على الضلال ولو نزل الله إليهم الملائكة وكلمهم الموتى.

وآية الرعد ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

واضح من سياقها أنها تربط الضلال بعباد الكفار ومماراتهم الفاحشة، كما تتعلق هداية الله فيها بمن أناب.

وبعدها في السياق نفسه، تقرر مسئولية الكسب، ويتعلق إضلال الله بمن حق عليهم العذاب. بمكرهم وصدهم عن سبيل الله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌۢ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۚ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الرعد: ٣٢ - ٣٣).

ولا بأس مع ذلك بما ذهب إليه الأستاذ الجليل من «أن تزيين الأعمال يمكنه فهمه بمعنى تحويطها بما يجذب إليها ويغري بها من متع وملذات ومنافع عاجلة وانفلات من القيود الملجمة في مقابل وضع الله في الإنسان من قوة العقل

والتمييز والتبصير في العواقب وأن مشيئة الله تتعلق بعدم الحيلولة بين مخلوقاته وبين اتباع طريق الهدى أو الضلال وتتحقق مشيئته بألا يريد الله تعالى استعمال قدرته في صرفهم وإن كان قادراً على ذلك. . فهذا القدر من التخلية بين المكلف والمنطلقات التي أمامه في الخير أو الشر يدخل في حدود المشيئة متى كان صاحب هذه المشيئة قادراً على الحيلولة.

أضيف أن تزيين الله للناس أعمالهم وحب الشهوات ومغريات الدنيا، هو أيضاً من قبل الابتلاء الذي يجلو إرادة الإنسان ويؤكد حريتها في الاختيار، تقريراً لتبعة الكسب والسعي وإلزاماً بما يتعلق بهما من هداية أو ضلال.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النجم: ٣٩ - ٤١).

وللسيد الأستاذ الجليل تحية التقدير الصادق والشكر الجميل.

من تاريخنا الديني

عيدنا وعيدهم

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة: ١٥٨).

أعني بالعيد هنا: عيد الأمومة.. ذلك الذي استوردناه من الغربيين، ونقلنا عنهم يومه المختار للاحتفال به وبعض طقوس هذا الاحتفال به.

ثم أضفنا إليه من عندنا:

ضجة إعلانية في الصحف والمجلات، حيث تنتهز المتاجر هذه الفرصة، فتتفنن في الإعلان عن هدايا للأمهات ترويجاً للبضاعة.

وتهلل الصحف لهذه المناسبة، لأنها تتيح لها الكسب المادي بالثمن الذي تقبضه من المعلنين.. وهو ثمن غال تضيفه المتاجر إلى سعر البضاعة، ثم تزيد عليه مبالغ أخرى، نظير ما تتكلفه في تنسيق الهدايا في واجهات المتاجر، وتغليفها تغليفاً أنيقاً، وربطها بشريط من الحرير الزاهي البراق..

وإلى جانب هذه الضجة الإعلانية، ضجة أخرى عن أخبار احتفال بالعيد يقام هنا أو هناك، تدق له الطبول والأجراس، وتؤخذ صور منه للنشر، نرى فيها السيدة فلانة أو السيد علان، أثناء التفضل بتقديم أكياس من الحلوى إلى نزلاء الملاجئ ممن فقدوا أمهاتهم، أو للأمهات المسكينات في الأحياء الشعبية المنبوذة..

ولا يخلو الأمر من نشر صورة «تلفزيونية» للسيد الكريم وهو يتنازل فيصافح غلاماً مسكيناً، أو للسيدة صاحبة المقام العالي وهي تتواضع فتربت على كتف أم فقيرة، أمام عدسات التصوير «التلفزيونية»!..

على هذا النحو نحتفل بعيد الأمومة:

صور..

وإعلان..

وانتهاز للفرصة..

وترويج للتجارة..

أو هكذا مسخنا عيد الأمومة عندنا، في احتفالنا به على هذا النحو في اليوم الحادي والعشرين من مارس كل عام نقلا حرفياً من الغرب، وليتنا مع ذلك ندرك مغزى اختيار الغرب لهذا اليوم في مستهل الربيع حيث يتفتح الكون، وتدب الحياة في الكائنات إيذاناً ببعث جديد من الأكفان الثلجية التي تكفنها في الشتاء..

ومن ثم يذكرون في هذا البعث الأمومة، واهبة الحياة وصانعة البشر!

أجل نقلنا العيد من الغرب بيومه وطقوسه..

دون أن ندري أن لنا عيدنا الأصيل، يأتي كل عام في موعده الذي لا يتخلف ونحتفل فيه بالأمومة على مدار السنين، منذ ما لا يحصى من دهور وأحقاب.

الزمان: قديم موغل في أعماق الماضي السحيق.

والمكان: «مكة» عندما كانت قفرا يبابا في الوادي الأجرد، لا يعمرها أنس، وإنما تلم بها بين حين وآخر جماعات من الرعاة، يحطون رحالهم عند أطلال البيت العتيق، التماساً للراحة والبركة، ثم لا يلبثون أن يشدوا الرحال ويضربوا في تيه الصحراء بحثاً عن مساقط الغيث ومنازل المطر...

في تلك البقعة المهجورة، وفي ذلك الزمن الغابر وراء التاريخ، جاء «إبراهيم» عليه السلام يسعى من الشمال ومن ورائه «هاجر» تحمل في حضنها وليدها «إسماعيل»..

وفيم كان المسعى؟

كان «إبراهيم» قد بلغ الشيخوخة، وامرأته السيدة «سارة» عاقر لا تلد، وبدا لها يوماً أن تهبه جاريتها المصرية «هاجر» لعلها تعطيه الولد الذي يشتاق إليه، أو لعلها هي أيضاً تعقم فلا تلد، فيسكن «إبراهيم» إلى راحة اليأس ويكف عن التعلق بالسراب.

وحملت «هاجر» فما كادت السيدة تراها أمامها في حملها، حتى خيل إليها أنها مزهوة بهذا العطاء وأحست سيدتها بلواذع الغيرة، لكنها كتمت قهرها، وأقامت تنتظر وهي تعلل النفس بأن التجربة لم تتم بعد، ومن يدري.. لعل الجنين يسقط بإجهاض!

لكن «هاجر» وضعت وليدها إسماعيل، فكأنما أصابت سيدتها العاقر بسهم قاتل، أفقدها تماسكها فحدثت «إبراهيم» عن هذه الأمة التي تتعمد جرح كبرياء الأنوثة في سيدتها، بما تبدي من زهو بالغلام. قال إبراهيم:

- هي أمتك تصنعين بها ما شئت! وشاءت السيدة أن تطرد هاجر وولدها، وآلت على زوجها «ألا يضمها وهذه الجارية سقف واحد».

وخرج إبراهيم من أرض كنعان، ضارباً في طريق الجنوب إلى البلد العتيق ومن ورائه الأم «هاجر» مهزولة في أعقاب نفاسها، منصرفة عن التفكير فيما كان ويكون بهذا الصغير الرضيع الذي يسكن إلى حضنها فينسيها كل الدنيا.

وعند أطلال البيت العتيق حط إبراهيم رحله، ثم تهيأ للعودة من حيث جاء، تاركاً «هاجر» وولدها، مع جراب فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

وأدارت هاجر عينيها في هذا التيه القفر فسألت مرتاعة:

- أتتركنا هنا بهذا القفر الموحش؟

قال:

- بلى

فأمسكت هاجر عن الكلام برهة، ثم سألت سيدها إبراهيم:

- آلله أمرك بهذا؟

أجاب:

- بلى.

قالت:

- إذن فالله لن يضيعنا!

ولم تزد.

وسار إبراهيم منصرفاً، حتى إذا بلغ ثنية الوادي رفع رأسه إلى السماء وقال في ضراعة وابتهال:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧).

ومضى.

وظلت «هاجر» تتبعه عيناها حتى غيبه منعطف الوادي، فأقبلت على وليدها تستمد منه الأنس في وحشتها والقوة على احتمال محنتها!

حتى نفد الزاد الضئيل الذي تركه لها سيدها «إبراهيم» ونفد الماء.

وجف ثديها فلم يعد يبض بقطرة.

إذ ذاك بدا لها أن تبحث هنا وهناك عن شيء يمسك الحياة على طفلها، فراحت تضرب فيما حول الأطلال.. دون أن تهتدي إلى شيء..

وسعت إلى جبل «الصفا» فعرجت إلى قمته لتشرف من عل على الوادي، لعلها تلمح من بعيد أثراً لحياة، ولا أثر..

وهبطت من «الصفا» وسعت مهرولة إلى المروة فصعدت وحدقت فيما حولها لعل أحداً غيرها يضرب في التيه.. ولا أحد.

وأعادت الكرة..

ظلت تسعى مهرولة بين الصفا والمروة مرتين وثلاثاً وسبعاً، حتى وهنت قواها وهدها اليأس، فارتمت إلى جانب طفلها، لكنها لم تقو على احتمال رؤيته وهو يلهث ظمأ، والحياة تتسرب من كيانه اللطيف.

«وغطت وجهها بلفاعها، وقالت لا أنظر موت الولد».

ثم استسلمت لما يقضي به الله.

وتفتحت السماء لمشهد «الأم» بما تكابد من هموم أمومتها.

وتجلت رحمة الله في طائر حط قريباً من هاجر وراح يحفر في الأرض المجدبة بمنقاره، فتفجر «نبع» زمزم وهرولت الأم إلى النبع، فارتوت وسقت وليدها وردت الروح إلى الطفل وأمه.

وبعثت الحياة في الوادي الأجرد، وقد استجاب الله لدعاء «إبراهيم»!..

أقبل قوم من الرعاة من جرهم، يضربون في التيه قريباً من موضع هاجر وإسماعيل، فما لمحو الطير محوماً على المكان حتى أيقنوا أنه لا يحوم إلا على ماء.

ونزلوا حيث نزلت الأم «هاجر» واستقروا حول نبع زمزم، فعمر بهم المكان الموحش، وشب «إسماعيل» فأصهر إلى «جرهم» من العرب العاربة الأصيلة، وبدأ تاريخ جديد لمكة والعرب منذ تلقى إسماعيل وأبوه إبراهيم العهد الإلهي بإعداد البيت العتيق لعبادة الله:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٥ -١٢٨).

من ذلك العهد السحيق، دخلت «هاجر» تاريخنا الديني، فكان مسعاها (مهرولة بين الصفا والمروة) شعيرة من شعائر حج العرب في الجاهلية والإسلام.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة: ١٥٨).

و«هاجر» لم تدخل هذا التاريخ بشيء ما سوى هموم أمومتها، فما كانت سوى أمة منبوذة غريبة عن الأهل والوطن.

وتمضي الدهور والأحقاب، والأم «هاجر» ملء الحياة، فكلما دار عام القمر دورته وأهل عيدنا الأكبر، سعى الألوف من الحجيج بين الصفا والمروة مهرولين سبعة أشواط، كما سعت «هاجر» من قبل التاريخ!.

وهاجر هي أم العرب العدنانية، من بني ولدها إسماعيل، ومنهم بعث محمد ابن عبد الله الهاشمي القرشي العدناني «المصطفى خاتماً للأنبياء».

ونحن المسلمين لا يكمل لنا ديننا حتى نحج بيت الله، وهناك يتكرر المشهد الحي لذكرى الأم الخالدة.

في مكان بعينه بين الصفا والمروة.

وبالحركة نفسها: هرولة بينهما سبعة أشواط.

وفي موعده الذي لا يتخلف، من عام القمر.. على مدار السنين من قديم بعيد وإلى الأبد!.

ذلك هو عيد الأمومة عندنا.

شعيرة من شعائر الله.

فكيف جاز لنا أن نغفل عنه ونستبدل به هذا العيد الطارئ المجلوب، قد مسخت فيه حقيقة عيدنا فصار إلى ضجة إعلان وبريق صور وسوقاً للبضاعة.

وإنه لفي تاريخنا: دين وشعيرة مقدسة!.

ألا هل بلغت.

اللهم فاشهد.

* * *

فهرس الأعلام

أبو الأعلى المودودي ج٢/ ٥٦٩
أبو الحسن الندوي ج٢/ ٥٢٣
أحمد الخميس ج١/ ٦٥
أحمد حسن الزيات ج١/ ٨٣
بدر المتولي عبدالباسط ج٢/ ٤٦٩
تقي الدين الهلالي ج٢/ ٦١
حسن خالد ج٢/ ٥
حمد الجاسر ج٢/ ١١١
السيد سابق ج١/ ٤٧١
صبحي الصالح ج٢/ ٤٥
عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ج٢/ ٦١٣
عبد الحليم محمود ج١/ ٩٣
عبد العزيز العلي المطوع ج١/ ٢٣
عبد الفتاح أبو غدة ج٢/ ٢٤٥
عبد الله النوري ج١/ ٦٢٥
عبد الله خياط ج١/ ٤٤٥
عبد الله عبد الرحمن السند ج٢/ ٥٨٣
عبد الله كنون ج٢/ ٥٠٣

عبد الله مشاري الروضان وزير الأوقاف الأسبق ج٢/ ١٦٩
عطية محمد صقر ج١/ ٤٢٩
علي الطنطاوي ج١/ ٢٨٥
مالك بن نبي ج١/ ٤٥٣
محب الدين الخطيب ج٢/ ١٣١
محمد أبو زهرة ج٢/ ٥٩٣
محمد حسين الذهبي ج٢/ ٣٦٧
محمد سليمان الأشقر ج٢/ ٢٩٣
محمد عبد اللطيف السبكي ج١/ ١٦٥
محمد عبد المنعم خفاجي ج٢/ ٣١٣
محمد محمد أبو شهبة ج١/ ١٨٣
محمد محيي الدين عبد الحميد ج١/ ٧
محمد ناصر الدين الألباني ج٢/ ٢٧١
محمود مهدي استانبولي ج١/ ٥٢٧
مصطفى أحمد الزرقا ج١/ ٥٠٥
مناع القطان ج٢/ ١٧٩
نديم الجسر ج١/ ٣٥٧

فهرس المقالات

للمجلد الثاني

مرتبة حسب الآتي: اسم صاحب المقالات ثم ترجمته، ثم عناوين مقالاته

١٧- مقالات الشيخ حسن خالد ٥
- ترجمة الشيخ حسن خالد ٧
- الحج ٩
- حكم الإسلام في كتاب نقد الفكر الديني ٢٠
- الشخصية المسلمة ضمان للسلام ٢٢
- خواطر في ذكرى الإسراء والمعراج ٢٨
- حديث عن لبنان عبر لقاء مع سماحة مفتيه الشيخ حسن خالد ... ٣٢

١٨- مقالات الشيخ د.صبحي الصالح ٤٥
- ترجمة الشيخ د.صبحي الصالح ٤٧
- ملحمة الهجرة خطة وتصميم ٤٩
- البلاغة النبوية ٥٥

١٩- مقالات د. تقي الدين الهلالي ٦١
- ترجمة الشيخ د. تقي الدين الهلالي ٦٣
- أهل الحديث (١) ٦٥
- أهل الحديث (٢) ٧٢
- أهل الحديث (٣) أبو بكر الصديق رضي الله عنه ٨٥
- أهل الحديث (٤) عمر بن الخطاب ٩٤

٢٠- مقالات الشيخ حمد الجاسر ١١١
● ترجمة الشيخ حمد الجاسر ١١٣
- رحلة إلى طيبة (١) ١١٥
- رحلة إلى طيبة (٢) ١٢٤
٢١- مقالات محب الدين الخطيب ١٣١
● ترجمة الشيخ محب الدين الخطيب ١٣٣
- ذو النورين عثمان رضي الله عنه (١) ١٣٥
- ذو النورين عثمان رضي الله عنه (٢) ١٤٥
- عثمان المفترى عليه (٣) ١٥٢
- الوليد بن عقبة وولايته الكوفة لأمير المؤمنين عثمان (٤) ... ١٦٠
٢٢- مقالات عبد الله مشاري الروضان وزير الأوقاف الأسبق ١٦٩
● ترجمة الشيخ عبدالله مشاري الروضان ١٧١
- رسول الله هو قدوتنا في الصبر والجهاد ١٧٣
- في سبيل جيل مؤمن ١٧٦
٢٣- مقالات الشيخ مناع القطان ١٧٩
● ترجمة الشيخ مناع القطان ١٨١
- رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (١) ١٨٣
- رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٢) ١٩٢
- رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٣) ٢٠٠
- الطريق إلى الله ٢٠٦
- نشأة الفقه الإسلامي (١) وأصول مذاهبه ٢١٢
- نشأة الفقه الإسلامي وأصول مَذاهبه (٢) ٢٢٤
- أسماء والهجرة ٢٣٧

٢٤ - مقالات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ٢٤٥
● ترجمة الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّه ٢٤٧
- قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام (١) ٢٤٩
- قبسَات من تاريخ القضاء في الإسلام (٢) ٢٥٨
٢٥- مقالات الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٢٧١
● ترجمة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٢٧٣
- الأحاديث الضعيفة والقوية ٢٧٦
٢٦ - مقالات الشيخ محمد سليمان الأشقر ٢٩٣
● ترجمة الشيخ الشيخ محمد سليمان الأشقر ٢٩٥
- منزلة العبادة في المسجد الحَرام والمسجد النبوي ٢٩٧
- رحلة الفهرسة الهجائية والمعَاجم عبر تاريخنا ٣٠٤
٢٧- الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ٣١٣
● ترجمة الشيخ الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ٣١٥
- الإسلام أولاً ٣١٧
- ومَا أحلى الغدا ٣٢٤
- الإسلام في العصر الحديث ٣٢٧
- ابن عمك عزّه عزّك ، وشرفه شرفك، وملكه ملكك ٣٣٥
- اليمينيون واليسَاريون في القرآن الكريم ٣٤٤
- انتقال الحضارات ٣٥٠
- شعر : أيُّها التاريخ!! ٣٥٤
- الحق والواجب في الشريعة الإسلامية ٣٥٦
- اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية ٣٦١

٢٨- الشيخ د. محمد حسين الذهبي ٣٦٧
● ترجمة الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي ٣٦٩
- الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم.. دوافعها ودفعها . ٣٧١
- مع القرآن (١)، القرآن والعلم ٣٧٩
- مع القرآن (٢)، القرآن والعلم (٢) ٣٨٦
- القرآن والعلم (٣) ٣٩٥
- إعجاز القرآن الكريم ٤٠٢
- مباحث قرآنية (١)، التعريف بالقرآن الكريم ٤١١
- مباحث قرآنية ٢، جوانب الهداية والإرشاد في القرآن الكريم ... ٤١٩
- مباحث قرآنية (٣)، منهج القرآن الكريم في بيان الأحكام ٤٢٨
- مباحث قرآنية (٤)، الجانب الأخلاقي في القرآن الكريم ٤٣٥
- مشكلات الدعوة والدعاة في العصر الحديث وكيفية التغلب عليها(١) ٤٤٥
- مشكلات الدعوة والدعاة في العصر الحديث وكيفية التغلب عليها(٢) ٤٥٧
٢٩- الشيخ د. بدر المتولي عبدالباسط ٤٦٩
● ترجمة الشيخ الدكتور بدر المتولي عبدالباسط ٤٧١
- إلى الأبناء والأحفاد ٤٧٣
- لماذا الهجرة دون سواها ٤٧٥
- معادلة صعبة ٤٧٩
- خصومة مفتعلة ٤٨٣
- التشريع بين التعقل والتعبد (١) ٤٨٨
- التشريع بين التعقل والتعبد (٢) ٤٩٣
- طفل الأنابيب ٤٩٨

٣٠- الشيخ د.عبد الله كنون ٥٠٣
● ترجمة الشيخ د. عبد الله كنون ٥٠٥
- آية الإسراء والمعراج ٥٠٧
- مدرسة الإحسان ٥١٦
- المعراج رحلة إلى السماء ٥١٩
٣١- الشيخ أبي الحسن الندوي ٥٢٣
● ترجمة الشيخ أبو الحسن الندوي ٥٢٥
- القرآن بين الإيمان والتطبيق ٥٢٧
- محطم الأقفال ٥٣٠
- كيف يستعيد المسلمون مجدهم القديم؟ ٥٣٦
- دور الإسلام في العصر الحديث ٥٤٣
- الدعوة إلى الله: بعض سماتها المطلوبة في هذا العصر ٥٥٥
٣٢- الشيخ أبي الأعلى المودودي ٥٦٩
● ترجمة الشيخ أبو الأعلى المودودي ٥٧١
- حول نكاح نساء أهل الكتاب ٥٧٣
٣٣ - الشيخ عبد الله عبد الرحمن السند ٥٨٣
● ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن السند ٥٨٥
- العلم والتعلم ٥٨٧
- اعرفوا أعداءكم ٥٩٠
٣٤ - الشيخ د. محمد أبو زهرة ٥٩٣
● ترجمة الشيخ د.محمد أبو زهرة ٥٩٥
- زكاة الأسهم ٥٩٧
- الطلاق ٥٩٩

٣٥- د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ٦١٣

● ترجمة د.عائشة عبد الرحمن ٦١٥

- القرآن الكريم وحرية الإرادة: رد وتعقيب ٦١٧

- عيدنا وعيدهم ٦٢٣

فهرس الأعلام ٦٢٩

فهرس موضوعات المجلد الثاني ٦٣١

* * *

2011

تم الصف والإخراج بشركة غراس للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف ٢٤٨١٩٠٣٧ - فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥ - الكويت

إصدارات مجلة الوعي الإسلامي

- القدس في القلب والذاكرة.
- حقوق الإنسان في الإسلام.
- المجموعة القصصية الأولى للأطفال.
- الحوار مع الآخر. . .المنطلقات والضوابط.
- النقد الذاتي. . . رؤية نقدية إسلامية لواقع الصحوة الإسلامية الراهن ورؤيتها للحاضر والمستقبل.
- المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح.
- الحج. . . ولادة جديدة.
- الفنون الإسلامية تنوع حضاري فريد.
- لا إنكار في مسائل الاجتهاد.
- المجموعة الشعرية الأولى للأطفال.
- التجديد في التفسير، نظرة في المفهوم والضوابط.
- مقالات الشيخ محمد الغزالي.
- مقالات الشيخ عبد العزيز بن باز.
- رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام.
- موسوعة الأعمال الكاملة. . . للإمام الخضر حسين.
- علماء وأعلام كتبوا في مجلة الوعي الإسلامية الكويتية.
- براعم الإيمان. . . نموذج رائد لصحافة الأطفال الإسلامية.
- الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.
- الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام .

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية

مقالات حصرية نشرت في المجلة

لـ ٣٥ عالماً من علماء الأمة الإسلامية وأعلامها

ما بين عامي ١٣٨٥ هـ - ١٤٢٦ هـ

الجزء الأول

الإصدار الرابع عشر

الوعي الإسلامي

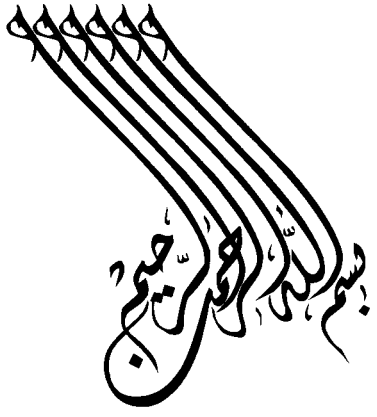
بسم الله الرحمن الرحيم

علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة الكويت
في مطلع كل شهر عربي
جميع الحقوق محفوظة

الإصدار الرابع عشر

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

الموقع على الإنترنت www.alwaei.com
البريد الإلكتروني info@alwaei.com

العنوان
ص.ب ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت
هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤ - فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

تصـــدير

بقلم رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأنزل القرآن تبصرة للعقول والأذهان، أحمده حمداً يملأ الميزان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ كل يوم هو في شأن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان، اللهم صلّ على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى، قد أعزّ العلم والعلماء، وشرّفهم في الأرض والسماء، وهم في الناس كالنجوم، يهتدون بها في البر والبحر، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وهم قدوة الأتقياء، بل هم صفوة الأولياء، وهم حجة بين الله تعالى وبين بريته، فإن العلماء هم سراج الأمة وضياؤها بلا مراء، يبينون لهم الأحكام، ويفرقون لهم الحلال من الحرام، ويخرجوهم بفتواه من الآثام، ويوضحون لهم شرائع الإسلام، فيا له من شرف ما أعلاه، ومن عز ومنصب ما أسماه، وما أخطره على من لم يتحر في فتواه، ولم يراقب في علمه وعمله مولاه، فالعلماء سُرُج الأرض، وكل عالم مصباح زمانه، يستضيء به أهل زمانه وعصره،

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرفُ

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن نأى عاد في أكنافها التلف

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ (الرعد: ٤١) أي موت

علمائها وفقهائها، فإن بهم صلاح الدين، وقمع المعتدين، ومعرفة رب العالمين، وقد نفع الله بعلمهم، وانتشرت كتبهم في أصقاع المعمورة، منها المحفوظ في الصدور ومنها المسطور في الأوراق، وهذا الأخير بحاجة إلى العناية والرعاية حتى ينتفع به طلاب العلم، ومن هذه العلوم والكتب كتابنا هذا الذي هو عبارة عن مقالات متعددة جمعناها مما نُشر على مدار سنوات في مجلة الوعي الإسلامي، فهو حلقة في سلسلة التراث العلمي لمواصلة العمل الجاد لتحقيق وتوثيق ثروة العلماء لينتفع بها بعد موتهم وتُخلد ذكراهم.

وهذه المقالات العلمية المتنوعة نموذج رائع على قيمة العلم المنشور في المجلات المُعْتنية بتراث العلماء والفقهاء وسائر المصلحين.

وفي هذا الديوان عددٌ من المناظرات وفوائد المساجلات، وما كان عليه أولئك الجلة العلماء من كريم الأخلاق وجميل الصفات.

والله نسأل في الختام أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين النفع العميم، كما أسأله تعالى أن يجعله في موازين العلماء الراحلين الذين أَثْرَوْا مجلة الوعي الإسلامي منذ عقود.

فرحمة الله عليهم جميعاً، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

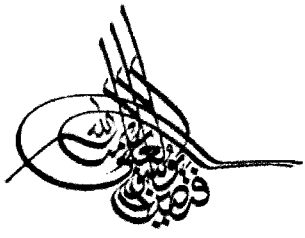

١ مقالات

الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

- ترجمة الشيخ
- المقالات

١- الإسلام والمجتمع المثالي (١).

العدد (١) محرم (١٣٨٥هـ) - مايو (١٩٦٥م).

٢- الإسلام والمجتمع المثالي (٢).

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) - أكتوبر (١٩٦٥م).

ترجمة الشيخ
محمد محيي الدين عبد الحميد

● **مولده:**

ولد الشيخ/ محمد محيي الدين عبد الحميد في قرية كفر الحمام بمحافظة الشرقية سنة (١٣١٨ هـ- ١٩٠٠م)، ونشأ في كنف والده العالم الأزهري الشيخ/ عبد الحميد إبراهيم الذي كان من رجال القضاء والفتيا.

حصل على شهادة العالمية النظامية مع أول فرقة دراسية تنال هذه الدرجة وفق طريقة دراسية منتظمة، وذلك في سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م).

عمل مدرسا بكلية اللغة العربية بالأزهر، ثم مدرسا في قسم الدراسات العليا، ثم وكيلا فيها، ثم مديرا لتفتيش العلوم الدينية والعربية، ثم تقلد عمادة كلية اللغة العربية.

اختير في لجنة الفتوى بالأزهر، ثم تولى رئاستها، ثم عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم رئيسا للجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وكان عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر.

حقق وشرح الآجرومية، وقطر الندى، وشذور الذهب، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب، وغيرها من كتب الفقه والأصول والحديث وعلم الكلام والتاريخ الإسلامي.

● **وفاته:**

توفي الشيخ في ٢٥ ذو القعدة ١٣٩٢هـ الموافق ٣٠ ديسمبر ١٩٧٢م، تاركًا خلفه إنتاجا خصبا لا تزال الأجيال تنتفع بما فيه.

الإسلام والمجتمع المثالي (١)

العدد (١) محرم (١٣٨٥هـ) - مايو (١٩٦٥م).

أثارني إلى الكتابة في هذا الموضوع عاملان، لكل واحد منهما وزنه وقيمته، ولكل واحد منهما دوافعه وآثاره.

أما أحدهما فإنه قد استقر في ذهني مما أسمعه من رجالات الغرب، الذين قدر لي أن ألقاهم، ومن إخواننا العرب الذين يذهبون إلى هناك ويتصلون برجالاتهم، ويعيشون في مجتمعاتهم، ثم يعودون إلينا، فينقلون لنا صورة عنهم تمثل أفكارهم وحياتهم، ثم ما أقرأه فيما يترجم لنا من مؤلفاتهم في الأدب والاجتماع.

أن بلاد الغرب تعيش اليوم في حيرة وفي اضطراب وفي قلق ذهني، وأن معنوياتهم وروحانياتهم ومقدساتهم التي عظموها الأحقاب الطويلة ليس لها اليوم استقرار في نفوسهم ولا ثبات، وأن عوامل كثيرة تتجاذبهم فتميل بهم ذات اليمين مرة، ثم تميل بهم ذات اليسار مرة أخرى، وقد بلغ بهم الحال أن تزلزلت عقائدهم التي استمسكوا بها فترة طويلة من الزمن، والتي غزوا من أجلها بلاد الشرق غزوا مسعورا، وقد تدفعهم هذه الاضطرابات النفسية وهذا القلق وهذا التأرجح إلى البحث عن عقيدة أخرى أدنى إلى أحكام العقل، وأقرب إلى مسايرة الحياة التي ينشدونها، كما قد يدفعهم كل ذلك إلى اطراح العقائد ونبذها جملة، والارتماء في أحضان الإلحاد والفوضى والإباحية، فيصعب العلاج وتنتكس الإنسانية، ويعود الناس في العالم أشبه ما يكونون بقطعان من وحوش الغاب.

وأما العامل الثاني فإني شعرت بأن الناس في الشرق، مهبط الرسالات السماوية، قد شرعوا ينفضون عنهم غبار الرقدة الطويلة التي فرضها عليهم

الاستعمار، وأخذوا يبصرون أحوال أنفسهم وأحوال الناس من حولهم، وأن دين الإسلام الذي يدين به أكثرهم، هو في جملته وتفصيله دين الفطرة السليمة والعقل المستقيم، فلو صح وعيهم ثم استقام تفكيرهم، وأحسنوا الدعوة إليه، وقاموا بما أوجبه الله عليهم من التفقه فيه والبشارة به، وتكاتف ذوو البصر من أمرائهم وعلمائهم على الدعاية له بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال المبني على الأساليب الحديثة، رجونا من وراء ذلك كله خيرا عظيما.

● **حاجة البشرية إلى الإسلام**

رأينا أهل الفكر في العالم اليوم على أحد حالين: أولهما: تردد وشك وحيرة وتفكير طويل ورغبة ملحة في طلب الخلاص من هذا التردد وهذا الشك وهذه الحيرة.

وثانيهما: انتفاض ووعي وشعور بالمسؤولية، وإحساس خفي بواجب طال إهماله، فما هو إلا أن يتفق أصحاب هذا الانتفاض وهذا الوعي وهذا الشعور وهذا الإحساس على أن يؤدوا ما فرض الله عليهم من فهم دينهم فهما صحيحا، وعرضه على الفريق الأول ميسرا مجلوا مدعوما ببيان ما تحمله تعاليمه من أسباب العزة والقوة والمساواة والمحبة إلى درجة الإيثار، فإذا هم مقبلون عليه راغبون فيه، لأنهم سيتحققون من أنه الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لراحة نفوسهم، وثلج صدورهم، وتخليصهم من أرباق الحيرة والتردد والشك، والوصول بهم إلى حياة وادعة ومعيشة طيبة مستقرة.

ورأينا مع ذلك تهافت أصحاب المبادئ المتطرفة على غزو بلاد الإسلام والشرق عامة في عقر ديارهم طورا باسم الاقتصاد، وطورا باسم العلم، لأنهم أيقنوا أن الغزو السياسي قد أصبح مما لا مجال له اليوم، وهم فيما بين هذا وذاك يدسون ويكيدون كيدا مستورا، وقد يستطيعون بدسهم وكيدهم وخداعهم أن يزلزلوا أفكار كثير من أهل الشرق، وأن يميلوا بأفكار قوم آخرين منهم إلى حالة من الفوضى والاضطراب والاختلاط، ليست بأقل خطرا من حالة الأولين، فلو أن ذوي البصيرة من المسلمين وأهل الشرق عامة أخلدوا إلى الدعة والراحة

ورضوا من الغنيمة بسلامتهم في أنفسهم، لأوشك الخطب أن يتفاقم، واستحال بعد ذلك رأب الصدع، ولم يبق في مقدور أحد أن يتلافى الشر الجارف أو يجنبه نفسه وأهله ومواطنيه.

نحن في بلادنا نتعرض كل يوم لخطر لا نحسه، لأنه يدب فينا دبيبا خفيا، ونحن أحرياء أن نبحث وندقق في البحث ونطيل التدقيق، لئلا يدهمنا الخطر. ونحن بما فرض علينا من الدعوة للإسلام، وبما انبعث فينا- أو في جماعة منا- من الوعي الصحيح ومن الطموح إلى اجتذاب النفوس الحائرة، أو التي على مفترق الطرق، أحرياء أن نهب هبّة عاقلة حكيمة نقيم بها العذر لأنفسنا، ونعلن بها أننا لم نهن ولم نضعف، وأن الهبة الكبرى التي هبها أسلافنا الأمجاد فملأوا بها العالم نورا وهدى وقوة، كانت من طبيعة ديننا الحنيف، وأن الركود والاستكانة والجمود التي حلت بنا في أيام سالفة كانت مجلوبة طارئة يسَّر لها نسياننا أو تناسينا لتعاليم هذا الدين، وأن الجالب لها المدبر لأسبابها الساعي لبلوغها غايتها هم أعداء هذا الدين من ذوي القوى المادية بقصد أن يموهوا على الناس ويفهموهم أن ديننا هو سبب ذلك الركود وهذه الاستكانة وهذا الجمود، وفاتهم أن العلة الواحدة لا تكون علة للشيء ولنقيضه، وأنه قد ثبت ثبوتا لا يحتمل الجدال أن هذا الدين بتعاليمه الصحيحة قد أخرج أمة من ظلمة الشرك والتقليد ومن تيه الفوضى والضلالة ومن عماية الانحلال والتفكك إلى نور التوحيد، وتمجيد العقل، وإلى جادة النظام والهداية، وإلى بصيرة الوحدة والقوة والتدافع لاحتلال أسمى مكانة وفرض سلطانها على رقعة الكون المعروفة يومئذ، فمحال أن تكون هذه التعاليم هي السبب في الرجوع إلى ما يزعمون من الفرقة والعجز والفوضى والاستغلال.

● الإسلام دين الفطرة

إن الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل الصحيح، وهو الدين الذي يتفق وما تقتضيه بدائه العقول البعيدة عن الهوى وما تشتهيه الأنفس، ولن يجد باحث يتخذ العقل معيار أحكامه دينا مجد العقل وجعل له منزلة فوق كل منزلة، وندد بمن يميل مع الهوى ومع مألوف العادات والمتوارث عن الآباء والأسلاف، لن يجد

الباحث دينا كدين الإسلام جعل من شرط صحة الإيمان بالله تعالى أن يعرف المؤمن الدليل العقلي على وجوده سبحانه، وعلى اتصافه بصفاته التي يجب أن يتصف بها كالقدرة الشاملة والإرادة النافذة، وقضى أن من لم يعرف هذا الدليل بعقله ويجزم به جزما لا يقبل التردد لا يكون مؤمنا ناجيا. وأعداء هذا الدين لا ينكرون هذا، وهم يعرفونه في قرارة أنفسهم، ويؤمنون أن أهل هذا الدين إن رجعوا إليه صافيا نقيا واتبعوا تعاليمه من أعماق قلوبهم حتى خالطت حلاوته شغافها عاد لهم مجدهم وارتفعت كلمتهم ودان سلطان أعدائهم، هم يعلمون ذلك كله، وهم يخشون أن تذهب ريحهم، فهم لذلك حريصون على أن يفرقوا كلمة أهل هذا الدين وأن يحولوا بينهم وبين الرجوع إلى ما كان عليه سلفهم.

لذلك كان من أول الواجبات على أولي العلم من أتباع هذا الدين، وعلى ذوي السلطان منهم من الرؤساء والأمراء والقادة والزعماء، أن يبصروا قومهم، وأن يبينوا لهم دينهم على ما كان عليه رسول الله وأصحابه المهتدون بهديه، ولذلك رأينا أن نستهل هذه الأبحاث بالبحث عن صفات المجتمع المثالي الذي يحبه الله تعالى ورسوله صلوات الله عليه.

ويقتضينا هذا البحث أن نتعرف الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها في ذات نفسه، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه فردا من أفراد أسرة، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه واحدا من آحاد حي يسكنه جماعة من مواطنيه، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه واحدا من آحاد قرية أو مدينة من مدن وطنه، وعن الصفات التي يجب على المسلم أن يتصف بها بوصفه فردا من الأمة كلها. فهذه خمس حالات نرانا مضطرين إلى الوقوف عند كل حالة منها وقفة قصيرة لنتدبرها ونبين تعاليم الإسلام فيها. وسنذكر النصوص الواردة عن الله تعالى وعن رسوله صلوات الله عليه في كل حالة من هذه الحالات.

ونبادر فنعلن قبل الإفاضة في البحث أننا لن نستوعب استيعابا نستطيع معه أن

نقول إن هذه الصفات هي كل ما يريده الإسلام من المسلمين، ولكنا ذكرنا في كل حال أوضح الصفات وأظهرها، وما يعد نموذجا صالحا منها، وما لعله يعتبر أساسا لما لم نذكره أو باعثا حثيثا على التخلق بغيره من صفات الكمال الإنساني.

● **الهدف من التكاليف**

وقبل أن نأخذ في بيان ما تيسر لنا بيانه نقرر أن المقصود الأهم من التكاليف الشرعية في دين الإسلام، هو تربية الضمير الإنساني بصقل النفس وتنقيتها من الأثرة والأنانية والجحود والاستغلال والجبرية والميل إلى الهوى، وتعويدها حب الحق وإيثاره، وإعلانه ما كان في إعلانه مصلحة، وذلك يفضي بها إلى أن تعلم أن ما خفي على الناس لا يخفى على الله، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأن الإفلات من العقوبة الدنيوية العاجلة قد يكون سببا في شدة العقوبة في آجل الحياة أو فيما عند الله، وما لم يجد المسلم عباداته موصلة إلى خشية ربه وإخباته له وإقباله عليه، وأنها حاملة له على ترك النقائص والابتعاد عن الآثام فليعلم أنها عبادات صورية لم تنفعل بها نفسه فلم تؤت ثمرتها التي أراد الله تعالى أن تؤتيها، وانظر إلى قوله سبحانه ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبوت: ٤٥). ثم انظر إلى قوله جلت كلمته: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (التوبة: ١٠٣). ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ (البقرة: ١٨٣). فإذا أنت نظرت في هذه الآيات ونحوها من كتاب الله تعالى وجدت كل عبادة من العبادات التي كلف الله بها عباده قد أراد أن تنفعل بها نفس المكلف حتى يكون لها تأثيرها، وهي وسيلة من أعظم الوسائل لتهذيبها وتطهيرها، والله أجل من أن ينظر إلى صور العبادات، وقد أراد أن تكون مما تقرب منه وتدل على خلوص قلب المكلف له، ولتفصيل هذا الكلام موضع غير هذا، لعل الله جلت قدرته يهيئ لنا ما نوفيه حقه من

البحث في وقت قريب.

وموعدنا لتفصيل الكلام في الحالات الخمس التي أشرنا إليها في عدد قادم إن شاء الله.

الإسلام والمجتمع المثالي (٢)

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) أكتوبر (١٩٦٥م)

ونأخذ اليوم بيان الصفات التي أراد الله ورسوله للمؤمن أن يتصف بها في نفسه، ونود- قبل أن نفيض في بيانها- أن نلفت الذهن إلى بعض ما قدمنا الإشارة إليه، وهو أن المقصد الأسمى من التكاليف الشرعية هو وصل ما بين المؤمن وربه، وتوثيق هذه الصلة حتى يصير مراقبا له في كل ما يأتي وما يذر، وحتى يعلم أنه سبحانه هو وحده النافع الضار، وأن يثق بأن الناس جميعا لو اتفقوا على أن ينفعوه بشيء لم يرده الله لم يستطيعوا السبيل إلى ذلك، وأن الناس كلهم لو أجمعوا على أن يضروه بشيء لم يرده الله ما استطاعوه، ولذلك تجد التكاليف الشرعية كلها قد اشترط لصحتها أن تسبق بالنية وأن تتصل هذه النية بها، ومن أجزاء هذه النية أنه يفعل هذا الفعل خالصا لوجه الله تعالى، وهو يبدأ صلاته بقوله «الله أكبر» ويأخذ في نية صومه «إيمانا واحتسابا لوجه الله تعالى» ويبتدئ أعمال حجه بعد النية بقوله «لبيك اللهم لبيك» وهكذا كل عمل من أعمال البر، فإذا لاحظ العبد ذلك ظل مراقبا لربه عالما أنه مطلع عليه، فإذا استمر على هذه الحال طهر قلبه فصار نقيا صافيا خالصا من أدران المادية وما يجره التعلق بالمادية من الحقد والحسد والتباغض وإضمار الشحناء والكيد والوقيعة، وطهرت نفسه فأصبحت قريبة من الكمالات الإنسانية، من نحو المودة وحب الخير للناس إلى حد الإيثار والتضحية في سبيلهم، وما لم يؤد فعل التكاليف الشرعية إلى ما ذكرنا من طهارة القلب وزكاة النفس فإنها تكون قليلة الحظ من القبول، فلينظر المؤمن إلى نفسه، فما لم يجد قلبه مشرقا، وما لم يحس بأن حظوظ الشيطان قد فارقته، وما لم يجد نفسه أنه لا يضمر غير ما يظهر، وما لم

يجد أنه لا يأتي من أعمال البر شيئا إلا رغبة في عمل البر ومرضاة لربه وطلبا لنفع الناس في غير امتنان على أحد منهم ولا حبا في مثوبتهم، ما لم يجد ذلك كله من نفسه فليعلم أنه لا يؤدي ما يؤديه من التكاليف على الوجه الذي أراده الله، وأن أداءه هذه التكاليف قليل الجدوى وقليل القبول، وهذا سر من أسرار قوله ﷺ: «رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» أو كما قال.

ثم نقول:

في القرآن الكريم آيات كثيرة تعرضت لصفات المؤمن التي يجب عليه أن يتصف بها نفسه، ونحن لو تتبعنا هذه الآيات كلها وبينا ما في كل آية منها طال بنا القول طولا نخشى أن يمله القارئ فلنجتزئ من ذلك بموضعين من القرآن الكريم ذكر الله تعالى فيهما جماع ما ينبغي للمؤمن أن يتصف به.

● الموضع الأول

الآيات الكريمة التي في آخر سورة الفرقان، وذلك قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٥).

● الموضع الثاني

قوله تعالى في مفتتح سورة «المؤمنون» ﴿۞ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى

صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون: ١-١١).

تضمنت هذه الآيات الكريمة ثماني عشرة خصلة من خصال المؤمنين، من ذلك في آيات سورة الفرقان اثنتا عشرة خصلة، والخصال الباقية في آيات سورة «المؤمنون»، ولكن مجموع المذكور فيهما من الخصال عند التحقيق خمس عشرة خصلة، وذلك لأن خصلتين منها قد تكررتا في الموضعين وخصلة أخرى ذكرت في آيات سورة «المؤمنون» مرتين ذكرت في كل مرة منهما بناحية من نواحيها والموضوع العام في الموضعين واحد.

ومما يحسن التنبيه له أن في القرآن الكريم مواضع كثيرة نص في بعضها على خلال من هذه الخلال، ونص في بعضها على خلال أخرى غير هذه الخلال، ولكنا نعتبر هذه الخلال الخمس عشرة نموذجا عاليا لما يجمل بالمؤمن أن يتخلق به، ولما لو تخلق به إنسان لجره إلى جميع خلال البر والتقوى، والخير يدفع إلى الخير، فإذا اكتفينا ببيان هذه الخصال وبيان ما تجلبه لمن يتصف بها من كمال نفسي وإشراق روحي يستتبعان الاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها كنا كمن أخذ من الأمر بلبابه وكمن وضع يده على مفاتيح الخيرات كلها فهو يطرقها من أي الأبواب أراد.

● الصفة الأولى

التواضع، وقد كنى الله تعالى عن هذه الصفة بقوله سبحانه في آيات سورة الفرقان ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) كما كنى عن ضدها- وهو التعالي على الناس والاستكبار والجبرية- بقوله جلت كلمته في سورة لقمان ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ (لقمان: ١٨) وكنى عن ذلك مرة أخرى في سورة الإسراء بقوله ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ

وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

والتواضع أسمى معايير الكمال النفسي، وهو من صفات الأنبياء والمرسلين، وهو صفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بما عنده من علم لأنه يعلم أن كل ما أوتيه من علم فهو قليل بالنظر إلى ما لا يزال مطويا عنه، وعسى أن يكون عند غيره ممن هو أقل منه ما لا عِلْمَ له به، فإذا تيقن ذلك كله اندفع يطلب علم ما لم يعلم، ولم ير غيره ممن لم يذع له صيت في العلم أقل من أن يأخذ عنه.

وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك في قصة موسى والعبد الصالح حيث دفعه إلى أن يقول للعبد الصالح ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ (الكهف: ٦٦)، واحتمل في سبيل هذا- وهو نبي يكلمه الله- أن يقول له العبد الصالح ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ (الكهف: ٦٧-٦٨)، كما أن هذه الصفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بما عنده من مال وفير وجاه خطير، لأنه يعلم أن الله لو شاء لجعل ما في يده في يد غيره ممن هم في حاجة إليه وجعله هو صاحب الحاجة إلى هؤلاء، كما أنه يعلم أن المال غاد ورائح، ورب حادثة لا يلقي لها بالا اجتاحت هذا المال كله في طرفة عين، فإذا علم مع ذلك أن الذكر بالخير باق على الدنيا ما بقي فيها ناس، وأن ثواب الإنفاق في الخير أعظم ربحا وأكثر فائدة من اكتناز الأموال، واستيقنت نفسه ذلك اندفع ينفق في سبيل الله تعالى فنال خير المثوبة، وقد ضرب الله لنا مثل من اغتر بماله وزعم أن حذقه وخبرته بضروب تثمير المال سبب ما عنده فلم يرع فيه حق الضعفاء والمعوزين، ثم كانت عاقبته ما ختم الله به قصته في سورة القصص، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١).

بالجملة فإن هذه الصفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بشيء عنده مما يتميز به بعض الناس من جاه أو مال أو رفعة نسب أو صحة أو قوة جسم أو بسطة علم أو نحو ذلك، وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في هذه الصفة، فقد كان يكون في مهنة أهله، وقد كان يحمل حاجته بنفسه ويقول: صاحب الحاجة أحق

بحملها، وقد كان يأكل على الأرض، وقد كان يقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد، ويقول: أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد، كل ذلك وهو رسول الله وصفوته من خلقه أجمعين وهو من أشرف العرب نسبا وأرفعهم بيتا، وقد كان يجالس المستضعفين والموالي، حتى إن صناديد قريش رغبوا له أن ينحي عن مجلسه هؤلاء الموالي ووعدوه إن نحاهم أن يدخلوا في دينه - وكان ذلك أحب شيء إليه - فكان أن أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف: ٢٨)، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الانعام: ٥٢-٥٣)، وقد رغب رسول الله ﷺ في التواضع في غير حديث، وحذر من الكبر والتعالي والجبروت والزهو والخيلاء في غير حديث، فمما ورد عنه من الحث على التواضع وبيان ما أعد الله للمتواضعين في الدنيا والآخرة ما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٢٨٥) ط بولاق، كتاب البر) من قوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه» ومنه ما رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٨٤ ط بولاق - ١٠/ ٤٠٨ بهامش فتح الباري ط بولاق) ورواه مسلم في صحيحه (٢/ ٣٥٤ ط بولاق) من قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»، العتل - بضم العين والتاء وتشديد اللام - الأكول المنوع. والجواظ - بفتح الجيم وتشديد الواو - فسروه بالجموع المنوع، وفسروه بالقصير البطين، وفسروه بالكثير اللحم المختال في مشيته، وفسروه بالغليظ الفظ، والمستكبر - ومثله المتكبر - الذي يتشبع بما ليس عنده أو الذي يستعلي على الناس يرى أن ما عنده خير مما عندهم وهو الذي يقول الله تعالى في شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ

جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر: ٣٥)، ومنه ما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٣٥٣ ط بولاق - كتاب الجنة) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون، والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها» وصدق رسول الله ﷺ، فإن الجبار ما يزال يعنف بالناس، ويشتط في معاملتهم، ويأخذهم بالقسر والإعنات حتى يسلبهم حقوقهم، ويدفعهم عنها، وقد يسلبهم أموالهم وأرواحهم بغير حق فيتفاقم الشر، وتغدو الحياة إلى جواره جحيما لا يطاق، فكان جزاؤه أن جعله الله في العذاب الأليم، وإن المتكبر ما يزال يتيه بنفسه، ويزهي على الناس، ويحتقرهم حتى يهون أمرهم عليه، وحتى يرى أنه لا يدانيه أحد فلا يبالي - بعد أن تتأصل في طباعه هذه الخلال - أن يعتدي على من يعاشرونه، وما أبدع ما وصف الله به المتكبرين في الآية التي تلوناها أول الكلام على هذه الصفة من سورة لقمان وفي الآية الأخرى من سورة الإسراء، ثم ما أروع هذه السخرية بالمتكبر التي ختمت بها آية سورة الإسراء ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

نعم إنه - مهما يشمخ بأنفه ومهما يتعال برأسه، ومهما يتطاول ببدنه - لن يبلغ الجبال طولا، وإنه مهما يدب بقدميه، ومهما يثقل ببدنه لن يخرق الأرض، فليكفكف من غلوائه، وليترك تيهه وتعاليه، وليكن مع الناس يفيدهم ويفيدونه، ويتعاون معهم ويتعاونون معه، فالإنسان قليل بنفسه مهما يعظم قدره، كثير بإخوانه، وقد تقتل الفيل نملة، وقد تموت الأفاعي من سموم العقارب.

نسأل الله تعالى أن يبصرنا بقدر أنفسنا، وأن يباعد بيننا وبين البأو والصلف والكبرياء.. إنه أكبر مسؤول، وإلى عدد مقبل نأخذ فيه في بعض ما بدأناه، إن شاء الله.

٢ مقالات

الأستاذ عبد العزيز العلي المطوع

❑ ترجمة الشيخ

❑ المقالات

١- الإيمان.

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

٢- بين الفقه والولاية.

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) - يوليو (١٩٦٥م).

٣- أعمال تذكر فتشكر.

العدد (٤) ربيع الآخر (١٣٨٥هـ) - أغسطس (١٩٦٥م).

٤- لا تحتقر الطين.

العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥م).

٥- في رحاب القرآن (١).

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢م).

٦- في رحاب القرآن (٢).

العدد (٨٥) محرم (١٣٩٢هـ) - فبراير (١٩٧٢م).

٧- في رحاب القرآن (٣).

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م).

٨- نظرات في سورة الإخلاص.

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - (مارس ١٩٧٣م).

ترجمة الأستاذ
عبد العزيز العلي المطوع

● **مولده:**

ولد «عبدالعزيز علي عبدالوهاب المطوع» عام ١٣٢٨هـ في أكتوبر ١٩١٠م، وهو من قبيلة السهول.

وتعلم في المدرسة الأحمدية، واشتهر بذكائه الحاد وفطنته، وقد تخرج من المدرسة وعمره أحد عشر عاما وكان ترتيبه الأول على المدرسة، وهو ما جعله محط إعجاب أساتذته في ذلك الوقت.

نشأ نشأة دينية وأدبية في بيت كريم، ورافق عددا كبيرا من رجالات الكويت الذين ساهموا في بناء نهضة البلاد بمختلف أشكالها، خاصة الجانب التعليمي منها.

وكان عضوا بمجلس المعارف في عهد الشيخ عبدالله الجابر الصباح، وعضوا في المجلس البلدي سنة ١٩٥١-١٩٥٤م.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ سباقا لفعل الخيرات في السر والعلن، أنفق الكثير في الأعمال الخيرية داخل الكويت وخارجها، وكان بحق سفيرا لبلاده بين بلدان العالم، كما كان رمزا لعطاء الكويت، وكرم أهلها.

أسس المحسن عبدالعزيز علي المطوع بالتعاون مع المحسن عبدالعزيز يوسف المزيني جمعية الإرشاد الإسلامية التي تم افتتاحها في عهد الشيخ عبدالله السالم، وقد حققت الجمعية نجاحا عظيما في مجالات الدعوة والإرشاد والتعليم، برئاسة الشيخ يوسف بن عيسى القناعي.

أنشأ رحمه الله "جمعية مصطفى محمود الخيرية" على أرض مصر ومن مهامها تقديم العون للفقراء والمساكين وكذلك تقديم العلاج المجاني للمرضى المسلمين.

وأسس دارا للمسنين بالتعاون مع جمعية دار المسلم التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية المصرية.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ طالبا للعلم حتى أواخر أيام حياته، وتم اختياره كعضو في مجلس الأمناء بمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية.

وأنشأ لجنة تتولى الإنفاق على الطلبة الأفارقة الراغبين في التعليم وابتعاثهم إلى مدارس وجامعات مصر وذلك على نفقته الخاصة، كما أنشأ وساهم في العديد من الجمعيات الخيرية في كثير من دول العالم منها: الهند وباكستان وأفغانستان ولبنان، ومعظم البلاد الإسلامية.

- **مؤلفاته:**

قام رَحِمَهُ اللَّهُ بتأليف العديد من الكتب العلمية منها: «الرأس والبنكرياس»، و«خواطر باحث».

- **وفاته:**

توفي المحسن عبدالعزيز المطوع في السابع عشر من ذي القعدة ١٤١٦هـ الموافق للسابع من أبريل ١٩٩٦م.

رحمه الله رحمة واسعة، وجعل أعماله في ميزان حسناته وأسكنه فسيح جناته.

الإيمان

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

الإيمان هو منة الله العظمى على عباده المستعدين لاستقباله، إذ هو قوة نورانية فعالة، تستمدها وتشعها أجهزة صالحة قابلة، كما تستمد المشاكي الصالحة النور من الكهرباء لتقضي على الظلام، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (النور: ٣٥).

والإنسان الصالح جهاز صالح ملزم بالاتصال والتفاعل مع النور والخير عن أهلية واستحقاق ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ (الفتح: ٢٦)، وعلى العكس من ذلك الخفافيش العمياء عن النور، والأجهزة الفاسدة التي لا تستقبل النور ولا تشعه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (هود: ٢٨) ومن المعلوم أن الأرمد لا يبصر نور الشمس، ولا يشعر المريض بطعم الماء ولا المزكوم بشذى الورد.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم
وما ضرر الورود وما عليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

والإيمان ضروري للإنسان، بل إنه لفي مقدمة ضرورات الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان في حال من الأحوال، إذ هو الحب الصادق، والإخلاص الكامل، والاطمئنان بكل معانيه، وهو الجاذبية التي تُكَوِّن من الأفراد مجموعة

صامدة تؤدي رسالتها في الحياة. والإنسان مهما حاول المكابرة فهو مفطور على الإيمان بالقوة المبدعة لهذا الوجود والقدرة الأزلية اللانهائية التي يقرها العقل، ويؤمن بها العلم، ويخر لها العلماء سجدا، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٨) ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب ليتم نعمة الله على الناس ظاهرة وباطنه، ليهلك من هلك عن بينه ويحيي من حيَّ عن بينة، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولله سنن كونية في خلقه كسنن النور والظلام فالنور يمحق الظلام، وعلى قدر ما يخبو من النور يحل الظلام ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ (غافر: ٥١).

وتنازع البقاء بين الأمم وتنافسها ضروريان لإصلاح الأرض وعمارتها، ولا بد للعالم من توحيد كلمته على كلمة التوحيد يوما ما، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٤-٥).

● **قصة واقعية تؤيد التقاء الناس على كلمة التوحيد**

لقد جمعتني إحدى المصادفات مع ملحد يدافع عن الشيوعية ويجادل منكرا الألوهية، ويحاول تحكيم المنطق في جدله، ومما قلت له في أثناء الحديث: هل تعلم أنك تؤمن بالله شئت أم أبيت؟

قال: وكيف ذلك؟

فكان جوابي، إذا كنت تنكر الألوهية الحقة فبم تؤمن؟

قال: أؤمن بالإنسان وبالعلم، فقلت له: إنك ترى هذه الأرض وما بها من خيرات وترى هذا الفضاء وما فيه من ذرات ومجموعات وأسرار، هل كان لهذا الإنسان يد في إبداع ذلك ونصيب في تنظيمه؟ بل وفي خلق نفسه وتكوين دقائق جسمه؟

فقال: لا، قلت: إذن هناك قوة وراء ذلك أبدعت هذا الوجود ونظمته، وهذه القوة هي الله الذي نؤمن به ونعبده، إذ إننا لا نعبد جرما محدودا في زاوية من زوايا الكون الواسع، بل نؤمن بالقوة اللانهائية التي لم يكن هذا الكون بالرغم من سعته، إلا جزءًا من أجزاء مخلوقاتها، وحلقة في قبضتها، فقال: الطبيعة هي

التي أوجدت الكون، فقلت: إننا نعبد القوة الخفية التي أوجدت هذا الكون، فان سميتها الطبيعة، فنحن نسميها اللّه، ولا خلاف بيننا إلا بالتسمية، ولاشك أنك تشاركني أن المبدع المنظم خالق العقل والسمع والبصر وسائر الطاقات لابد أن يكون سميعا بصيرا قادرا عالما موصوفا بجميع صفات الكمال التي تنبغي لهذا المبدع الجبار العظيم، أما إذا قلت كما يقول الآخرون: أن الطبيعة صماء عمياء عاجزة فاعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه!

واغتنمت فرصة سكوته مبهوتا، فعرجت على موضوع الشيوعية وبادرته بقولي: إن الشيوعية في نظري متأخرة كثيرا عما جاء به محمد ﷺ، بل هي في طريقها إلى ذلك وسوف تلتقي معنا إذا كانت المصلحة رائدها كما يدعي مؤسسوها وذلك بعدما يمر عليها من تضحيات مريرة وتجارب قاسية، بدليل أن الشيوعية تتضمن أمرين كما يقولون، **الأول**: نفي الألوهيات، **والثاني**: التطور مع المصلحة.

والإسلام سبقها إلى ذلك، حيث إن مفتاح الإيمان عندنا هو لا إله إلا الله، إذ بنصف الجملة الأولى (لا إله) نفي الألوهيات في كل ما اتخذه الإنسان من عبادة أخيه الإنسان حيا في صومعته أو قصره أو ميتا في تمثاله أو قبره، وغير ذلك من عبادات النور والنار والكواكب والبحار والأحجار والأشجار، وبنصف الجملة الثاني (إلا الله)، استثناء للقوة الأزلية القادرة العالمة المبدعة.

وكل ما قاله لي محدثي بعد ذلك: إن كان هذا هو الإسلام، فالعقل يقبله وهو ضالة العلماء والحيارى، ولكني أرى أعمال المسلمين تخالف ذلك ولا تظهر الإسلام بهذا المظهر المقبول لأن كثيرين ينظرون إلى العقيدة من خلال أعمال أتباعها الذين هم ثمراتها.

قلت له: معك حق في ذلك، ولكن أرجو ألا يغيب عن بالك أنه قد اندست على هذا الدين فئة من ألد أعدائه بقصد تشويه الحقائق فيه فكان لهم نصيب مما أرادوا، فكنا كما ترى نهبا بين الأمم ولكن السر في صمودنا رغم ذلك، أن كل منتصر علينا إذا لم يذب فينا فلا نذوب فيه والمغول والأتراك قد اعتنقوا ديننا رغم انتصاراتهم علينا، ولم تستطع فرنسا إذابة الشعب الجزائري فيها رغم اعتبارها

الجزائر جزءا من فرنسا طيلة مائة وثلاثين سنة وجعلها اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية ولغة المدارس فيها، ولابد لنا بعد هذه الفترة المريرة والبلاء العظيم من عودة إلى النهج القويم والصراط المستقيم لتستهدي الدنيا برسالتنا الحقة المثلى، وإني أعتقد بأنك تشاركني الرأي بأن اتحاد المسلمين سيكون هو القوة الفاصلة بين معسكري الشرق والغرب، المرجحة للجانب الذي ترضى عنه، وعقيدتنا الوسطى بين الرأسمالية والاشتراكية ومركزنا الوسط وثرواتنا الطبيعية، كل ذلك يؤهلنا لنكون الأمة الوسط ويخاطبنا قرآننا العظيم موجها إيانا لهذا المركز المهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

قال محدثي: فليكن ذلك وليلتق العالم شرقه وغربه في النقطة الوسط، وبذلك، الخير للعالم لو تم، ولكن متى؟ فقلت له: أرجو أن يكون ذلك قريبا، وليس بيننا وبين ذلك إلا أن يصلح الفرد فيصلح المجموع، لأن الميدان الأول لكفاح الإنسان نفسه.

ومن خلال هذه المحاورة يظهر أن أبعد أهل العالم عن الإيمان بالله يلتقون مع كلمة «لا إله إلا الله» فكيف بأهل الكتاب الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لاسيما وأن الفاتيكان منذ عهد البابا «بيوس الثاني عشر» وهو يمهد للاعتراف بالإسلام كدين سماوي جدير بالحياة، والآية القرآنية الآتية تؤيد ذلك ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج: ٤٠).

والآية الثانية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة: ٦٢). وقوله جل شأنه ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟

بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة: ١١١).

وهذا ما حدا بي إلى التنبيه لمقاييس الإيمان الخالي من شوائب الردة التي هي الرجعية والجاهلية، ليعرض كل فرد منا نفسه على هذه المعايير كي يضمن لنفسه الفوز ولأمته النصر ويكون جديرا بهذا الوعد العظيم ممن لا يخلف الميعاد، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥) ولو صدقنا الله لصدقنا فتلك سنة كونية ولن تجد لسنة الله تبديلا.

● مقاييس الإيمان

يقول المولى ﷻ مخاطبا الذين آمنوا من الرعيل الأول في المدينة المنورة وكل مؤمن بعد ذلك إلى آخر الأزمنة مبينا مقادير الإيمان ومعايير الرجحان والخسران بهذه الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (المائدة: ٥٤) نعم.. هذه صفات المؤمن الموعود بالاستخلاف في الأرض وهي صفات خمس.

الأولى: الحب من الله ولله وفي الله، ومن حب الله اتباع رسله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾(آل عمران: ٣١).

الثانية: ذل المؤمن على أخيه المؤمن عن حب وتكافؤ لا عن ضعف أو خوف والمقصود به هو التواضع وخفض الجناح لأخيه المؤمن، يقول المولى سبحانه مخاطبا الرسول ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ (الشعراء: ٢١٥). ويأمر سبحانه المؤمن بخفض جناحه للوالدين بقوله ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: ٢٤). أي لا من الضعف ولا من الخوف.

الثالثة: عزة المؤمن على الكافر، والكافر هو الجاحد لله ورسوله وكتبه واليوم الآخر عن عمد ومكابرة، وهو لغة الذي يواري الحق بالباطل عن قصد، ولهذا قيل

في الزراع أنهم كفار لأنهم يغطون الحب بالتراب والكفر (بفتح الكاف) هو المزرعة وتستعمل هذه الكلمة حتى يومنا هذا في بعض البلدان العربية، والعزة المطلوبة هي العزة الرشيدة الحكيمة التي لا يخالطها بغي أو كبرياء.

الرابعة: الجهاد في سبيل الله وهو شرط من شروط الإيمان، حيث لا عزة لأمة بدون جهاد ولا كيان لها بدون منعة ودفاع.

الخامسة: المؤمن الكامل الإيمان لا يخاف في الحق لومة لائم.

هذه هي المقاييس الخمسة التي يجب على المؤمن عرض نفسه عليها لمعرفة مقدار حقيقة إيمانه والشوائب التي تشوب ذلك من ردة أو رجعية نتيجة لما ينقصه من هذه الصفات، ولقد عرض الرعيل الأول نفسه عليها فنجح وسادت رسالته جزءًا كبيرا من العالم وشع نورها على الدنيا بأسرها، أما نحن فدرجاتنا دون النجاح، ولاشك، وإذا كان هناك تفاوت بيننا فهو بمقدار درجات السقوط، إذ علامة النجاح العزة الكاملة التامة، والجهاد الكامل، وميراث الأرض وخلافتها باتحادنا، وسيادة فكرتنا، وقد آن الأوان أن يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ليتبدد الظلام بانبثاق النور من مشاك صالحة، ويزهق الباطل بظهور الحق على أيد عاملة، ويعم العالم الخير والسلام.

وما من شك أن واجب العرب في هذا المضمار كبير ومسؤوليتهم عظيمة وباتحادهم وعزتهم عزة للإسلام مصداقا لمأثور القول: «لا يعز آخر هذه الأمة إلا بما عز أولها»، فقد جعل الله ختام الرسالات الربانية والكتب السماوية فينا، وفي لغتنا، واصطفانا لذلك بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر: ٣٢).

اللهم إيت بهم واجعلنا منهم- والسلام على من استنار بالحق فاستهداه وعرف واجبه فأداه ورحمة الله وبركاته.

* * *

بين الفقه والولاية

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) - أغسطس (١٩٦٥م).

● الفقه والفهم

في الأثر عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ما معناه - اختتم الله وحي النبوات برسالة سيدنا محمد ﷺ ولم يبق بعد القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم إلا فهم منهما يؤتيه الله عبدا من عباده مصداقا لقول الرسول الكريم ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع»، وقوله ﷺ «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، وقوله ﷺ «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، وآيات القرآن العظيم تحثنا على التبصر والتفكير والنظر في آيات الله والوعي لأحكامه، وقد رأى بعض المسلمين المتقدمين إغلاق باب الاجتهاد خشية أن يُدخل أصحاب الأغراض والأمراض على الدين من هذا الباب ما ليس منه، وفريق آخر رأى إطلاق الرأي واستعمال الفكر، أما القسم الثالث فقد حث على الاجتهاد بشروط خاصة، وعلى التفكير والنظر والاعتبار والغوص على المعاني والمفاهيم القيمة في حدود الكتاب والسنة، وهذا هو القسم الوسط الذي نؤمن به وندعو له، وإننا نجد مع ذلك كثيرا من الفقهاء يحفظون فقه المتقدمين ويتورعون عن التفكير فيما عدا ذلك من التزود في الفقه والفهم والتفكير في كتاب الله وسنة رسوله، والغوص على المعاني المفيدة المتجددة مع الزمن. . والحقيقة أن مثل هؤلاء العلماء المتقيدين بأقوال المتقدمين والحافظين لها غيبا لا فرق بينهم وبين من يملك نسخا من الكتب التي يحفظونها للرجوع إليها كلما اقتضت الحاجة. ومن البديهي أن الذي يحفظ كتاب الله غيبا أجدر منهم باسم العالمية (إذا صح أن نسمي الحفظة للعلم المتقدم بالعلماء) مع أن الذي لا يحفظ كتاب الله غيبا يستطيع قراءته بين دفتي

المصحف، فطالب العلم الجدير بهذا الاسم هو الذي يكون مع الاستفادة والاستنارة بما حفظه مما كتبه المتقدمون من علوم ودونوه من معارف عامة يغوص على المعاني القيمة والمفاهيم المفيدة بفهم سليم وفقه مستقيم يرجو به الدرجات العلى عند الله في الكتاب والسنة.

ولقد جاء في مستهل العدد الأول من مجلة «الوعي الإسلامي» في كلمة رئيس التحرير تحت عنوان «أخي القارئ» عبارات تؤيد هذا المعنى وهي «. . . والعقلية الجديدة لم تعد تقتنع بأن باب الاجتهاد قد أغلق للأبد أو أن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئا كما يقال، وأصبح الباحثون الإسلاميون يؤمنون بضرورة الاجتهاد ولو بشكل جماعي لمواجهة أساليب الحياة الحديثة، وتكييفها من الوجهة الدينية، فأين الاجتهاد إذن وأين محاولات العلماء المتخصصين لوضع حلول لمشاكل جديدة، ذلك هو ما أريد أن يحاوله كتابنا وما أريد أن أفتح صدر المجلة له وأعرضه للمناقشة، لعلنا نصل بذلك إلى خطوة تتبعها خطوات فيما نأمل ونرجو. . .».

● الولاية

الولاء ضد العداء والموالي ضد المعادي والله هو ولينا والمؤمن المتقي هو ولي الله ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، ويقول سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس: ٦٢-٦٤).

فقد بين المولى سبحانه وتعالى أن كل مؤمن تقي ولي لله، نسأله سبحانه أن يوفق جميع المسلمين إلى الإيمان والتقوى ليفوزوا بالولاء والمحبة، فالولي قد لا يعرف نفسه و قد لا يعرفه الناس، والولاء هو الحب لله ومن الله وفيه، وقد بينت في كلمة لي بالعدد الثاني من هذه المجلة الغراء صفات المؤمن المحب والمحبوب والعزيز المجاهد الذي لا يخاف، في الله لومة لائم وعلامته

الاستخلاف في الأرض وإصلاحها ونشر العدالة فيها.

أما اقتصار أولياء الله على عدد من الأموات شيدت لهم قبور وزخرفت، وقالوا هؤلاء هم أولياء الله، فليس من الدين في شيء على ما أعتقد، وقد راجعت القاموس (المنجد) لأنظر المعنى اللغوي للولي فكان مما قاله «إن الولي عند المسلمين بمثابة القديس عند المسيحيين» فجزمت أن المعنى هذا مأخوذ من عقائد أهل الكتاب المتقدمين ودخيل على الإسلام، والتماثيل عند المتقدمين والمتأخرين ترمز إلى رجال خدموا بلادهم وأمتهم ودينهم فاتخذت لتخليد ذكراهم والتقرب بها إلى الله، ومعاذ الله أن يتخذ مسلم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر الأضرحة قربة إلى الله، أو يحلها محل التماثيل عند المتقدمين، لا سيما وأن ميزة الإسلام على الأديان الأخرى انه لم يجعل واسطة بين العبد وربه يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (البقرة: ١٨٦). ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣). ويقول سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ (العنكبوت: ٤١). ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ (الأعراف: ١٩٦).

والكويت منذ عرفت ليس فيها أضرحة خاصة، والكويتي يعمل بالسنة وهي إعادة تراب القبر عليه ورشه بالماء لقوله ﷺ: «خير القبور الدوارس» والآن وقد وفد على الكويت الكثير من أبناء البلاد الإسلامية أخذنا نرى تفاوتا بين القبور وأبنية بعضها، وإني مع وضوح رأيي كذلك أستفتي لجنة الفتوى الموقرة في وزارة الأوقاف، فإن قالت بالتحريم أرجو أن يمنع التمادي في زخرفة القبور منعا باتا لتبقى الكويت على ما كانت عليه سدا للذرائع وبعدا عن المزالق واتقاء للشرك الذي هو أخفى من دبيب النمل، وقد جاء في الملتقطات «لسيدي العم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي» في الجزء السادس قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ

﴿ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس : ٦٢ - ٦٤).

فالولي بينه الله وهو المؤمن المتقي بقلبه، إن كل مؤمن اتقى محارم الله فهو ولي، وليس بعد تعريف الله شيء. فالأرض مملوءة بأولياء الله ولا تنخدع بقول المخرفين الذين يقولون: إن الولي هو الذي يمشي على البحر وتطوى له الأرض ويؤدي صلاته في الحرم الشريف. أما البشرى لهم في الحياة الدنيا فهي كما جاء بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ (الأحزاب: ٤٧)، وأما في الآخرة فهي بشرى الملائكة بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت: ٣٠).

* * *

أعمال تذكر فتشكر

في سبيل الدعوة الإسلامية

العدد (٤) ربيع الآخر (١٣٨٥هـ) - يوليو ١٩٦٥م)

أولا: اقترح السيدان الفاضلان حمد المشاري وراشد الفرحان، عضوا مجلس الأمة الكويتي، أن يصدر المجلس إلى الحكومة رغبة يوصيها فيها بالإسهام في نشر الدعوة الإسلامية في الخارج، وفي خدمة الدين الحنيف في مختلف المجالات. ولذلك يستحق هذا الاقتراح أن يسجل بالشكر الجزيل والثناء الكبير وفيما يلي نص الاقتراح المذكور.

سعادة رئيس مجلس الأمة الموقر:

نظرا لكون الكويت دولة إسلامية في واقعها وبصريح دستورها، ونظرا كذلك لأن شعوبا كثيرة في القارتين الأفريقية والآسيوية لا تزال على الفطرة دون اعتناق لدين معين، وقد تفتحت قلوب هذه الشعوب لتقبل الدعوة الدينية، فقد أصبح واجبا علينا وعلى سائر البلاد الإسلامية حمل رسالة الدين الإسلامي إلى تلك البلاد وهذه الشعوب.

لذلك أرجو أن يتفضل المجلس الموقر بالموافقة على هذا الاقتراح برغبة إلى الحكومة، بأن تمد إدارة الدعوة والإرشاد بوزارة الأوقاف نشاطها إلى الدول والشعوب المشار إليها، مستعينة على ذلك فيما يرصد في ميزانيتها السنوية لهذا الغرض، وبما يقدمه المواطنون من زكوات وتبرعات، على أن تخصص الوزارة لهذه المهمة الجليلة صندوقا خاصا، وأن تنشئ هيئة من موظفيها المختصين وبعض أهل الرأي من المواطنين المهتمين بمثل هذه الرسالة.

وأعتقد أنه لا يخفى على أحد مقدار ما يبذل من جهود لحساب التبشير بالديانات والملل الأخرى بل والمبادئ الهدامة، وليس بخاف على حضرات

الأعضاء الكرام ما تبذله الدعاية الصهيونية ضد العرب في البلاد الإسلامية والعقيدة الإسلامية التي يدينون بها، متخذة من هذه البلاد مراكز للمؤتمرات اليهودية العالمية ضد القومية العربية والإسلام، فنشر الإسلام في تلك البلاد الأفريقية فريضة على كل مسلم، وهو هداية دينية لعشرات الملايين من البشر، وعصمة لها من الانزلاق وراء الدعايات والمبادئ الهدامة.

ثانيا: يذكر بالشكر لحضرة صاحب السمو الأمير المحبوب ولحكومته الاهتمام الواضح بالشؤون الدينية، مما عبر عنه الخطاب الأميري الذي افتتحت به الدورة النيابية الثالثة لمجلس الأمة حيث جاء بالخطاب المذكور ما يلي:

إن حكومتي إيمانا منها برسالة الدين في إصلاح المجتمع، تواصل إنشاء المساجد داخل المدينة وفي المناطق السكنية الجديدة والقرى مع مراعاة البساطة والاقتصاد في النفقات والحفاظ على المظهر اللائق بها، والسهر في الوقت نفسه على راحة الأئمة والمؤذنين. كما قررت إنشاء معهد للإمامة في أحد المساجد واستقدام بعض الوعاظ المتخصصين لرفع مستوى الأئمة والوعاظ وتمكينهم من أداء رسالتهم الروحية في المجتمع وتثقيف الجمهور بالثقافة الإسلامية المفيدة وتعاليم الدين الحنيف.

وتولي الحكومة «الوقف» عنايتها باستثمار أمواله تحقيقا لقصد الواقفين، كما أنها معنية بدراسة إحياء التراث الإسلامي الذي يبرز معالم الثقافة الإسلامية والسبق العلمي الذي عرف به مفكرو الإسلام قديما وحديثا، وأنشأت قسما للترجمة والبحوث الإسلامية.

ثالثا: يذكر ويشكر كذلك ما جاء في رد مجلس الأمة على الخطاب الأميري من دعوة صريحة للحكومة للعمل على نشر الدين الحنيف في الخارج وتمكين جذور العقيدة الصحيحة بين المسلمين كافة، فقد جاء هذا الرد الذي رفع إلى حضرة صاحب السمو أمير البلاد كما يلي:

«يود المجلس أن تلحق مكتبة دينية ثقافية بكل مسجد لكي يتسنى للجمهور الاطلاع على الكتب الثقافية الدينية، ولهذا تكون المساجد قد أدت جانبا هاما

من رسالتها الدينية والثقافية، وتكون الكويت بذلك قد عممت مراكز التثقيف في جميع أنحاء البلاد.

وإن المجلس ليبارك عناية الحكومة بالوقف واستثمار أمواله تحقيقا لقصد الواقفين، كما أنه يشجع الحكومة على إحياء التراث الإسلامي الذي يبرز معالم الثقافة الإسلامية قديما وحديثا، ويدعو المجلس وزارة الأوقاف للقيام بواجبها الديني، وهو واجب المسلمين كافة نحو بث الدعوة الإسلامية السمحاء في البلاد الأفريقية الحديثة الاستقلال التي حال المستعمر عهدا طويلا دون دخول الإسلام إليها أو انتشاره فيها، وأن تسهم في نشر الدين الإسلامي في هذه البلاد وتزويدها بالمصاحف والكتب الدينية المبسطة باللغة العربية واللغات المحلية قدر المستطاع، وأن تعنى الوزارة بنشر موسوعة للفقه الإسلامي على المذاهب الإسلامية المختلفة، لكي تكون مرجعا باقيا لهذا الفقه الأصيل الذي يخشى ضياعه بتناقص العلماء والمختصين في التشريع الإسلامي.

والآن، ما واجب وزارة الأوقاف بعد هذه التوجيهات وإزاء تلك الرغبات؟

إنه مما يستحق الذكر بالشكر ما تبذله وزارة الأوقاف - في صمت وإيمان - لتمكين الدين القيم في النفوس، ولتمسك المجتمع بالقيم الدينية التي ساد بها المسلمون العالم قديما، والتي هي سبيلهم الكفيل بإعادة مجدهم الغابر. ولسنا بصدد تعداد مظاهر اهتمامها ببيوت الله، إنشاء وتعميرا وصيانة، وبغير ذلك من الأمور الإسلامية التي تقوم هذه الوزارة عليها، ولكنا بصدد المطالبة ببرنامج للعمل مستقبلا بالإضافة إلى مهامها الحالية المشكورة، إن الآمال معقودة على أن تتحقق تلك الرغبات والتوجيهات السامية التي سبق ذكر جانب منها، وبخاصة فيما يتعلق بالأمور الآتية:

١- تنظيم هيئة بالوزارة تضم إلى جانب كبار موظفيها عددا كافيا من ذوي الرأي المعنيين بالشؤون الدينية من أبناء الكويت لمعاونة الوزارة في رسالتها المتزايدة يوما بعد يوم، وبخاصة في شأن الدعوة الإسلامية في الخارج.

٢- مضاعفة الاهتمام بالوعي والإرشاد الديني في الكويت عن طريق

المساجد والمحاضرات ومختلف وسائل النشر، من إذاعة وتلفزيون وصحافة، بحيث تكون هذه الوسائل أداة لتمكين العقيدة والخلق الإسلامي ومحاربة كل مظاهر التحلل الخلقي التي تهدد الأجيال الصاعدة والنشء الذي عليه مستقبل الأمة.

٣- بذل كل عون مستطاع لشد أزر الداعين للإسلام في الدول الأفريقية والآسيوية التي لم تبلغها الدعوة الإسلامية بعد، وإنشاء المراكز الإسلامية التي تقوم على هذه المهمة السامية، والاستعانة بالوفود الموثوق بها إلى تلك البلاد تحقيقا لهذه الغاية وتوطيدا لروابط الأخوة بين البلاد الإسلامية عامة.

٤- زيادة العناية بمجلة «الوعي الإسلامي» التي أحسن المسلمون استقبالها بزيادة حجمها ومضاعفة الكميات المطبوعة منها، وترجمة بعض موضوعاتها إلى اللغات الحية وغيرها من اللغات كالأوردية والسواحلية وغيرها وإرسالها إلى جميع الأقطار، وطبع النافع المفيد من كتب التراث الإسلامي: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (التوبة: ٣٣).

صرح مصدر كبير مسؤول في الوزارة بأن رسالتها الأصلية هي نشر الدعوة الإسلامية وهي لا تألو جهدا في سبيل تحقيق هذه الغاية السامية بمختلف الوسائل والأساليب، وقد أنشأت حديثا إدارة الدعوة والإرشاد وإدارة الشؤون الإسلامية.

لا تحتقر الطين

العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥م)

لقد اقتضت حكمت البارئ جلت عظمته أن جعل ملائكته الكرام من نور، يملأ كل حيز مفتوح للنور، وينفذ من كل نافذة مفتوحة لاستقباله، وخلق الشيطان من مارج من نار، يمثل الظلام الذي يحل تلقائيا في كل مكان مغلق عن استمداد النور، ثم خلق الإنسان من سلالة من طين: أي جهاز طيني قابل لاستمداد النور وإشعاعه إن ذَكَرَ وصلح، والعكس إن غفل وفسد، ومعلوم ما هو حاصل من التخالف بين النور والظلام كسنة كونية.

والملائكة الكرام يغارون ألا يقدر الله حق قدره، ويسبح حق تسبيحه، ويقدس حق تقديسه بغفلة مثل هذا الإنسان الحيادي الوسط ذي القابليتين والمجال الأول للطاقتين المتضادتين، فيغلق نوافذه عن النور، فيهوي إلى الفساد والإفساد في الأرض، ويسفك الدماء، وقد ظهر ذلك من الحوار بين الله وملائكته في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

● التقدم العلمي ميزة الإنسان

كما ظهر من الامتحان العلمي الذي نجح به آدم في الملأ الأعلى بعد ذلك أن لدى هذا المخلوق الآدمي ناحية ليست موجودة لدى الملائكة الكرام، وهي التقدم العلمي والتطور الفكري، وأن للإنسان تصرفا وطموحا، وأنه ينشد الكمال، ويحارب الحرمان، فإذا لم يخرج به ذلك عن إنسانيته الجزئية في هذا الكون فإنه يسمو على الملائكة فضلا عن المخلوقات الأخرى، فأمر الله ملائكته

الكرام بالسجود لآدم تقديرا للخير الذي نجح به، فسجد الملائكة كلهم أجمعون واستنكف إبليس مع سقوطه في الامتحان العلمي اعتزازا بناريته واحتقارا للطينة الآدمية ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢) ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ (ص: ٧٦) فطرده الله من رحمته.

ومن الغريب أن أرى البعض يحتقرون الطينة الآدمية باسمها أحيانا وباسم المادة أحيانا أخرى اعتقادا منهم أن في ذلك تقربا إلى الله، والذي يظهر مما تقدم أن الذي يحتقر الطينة الآدمية يحاكي الشيطان في فعلته ويستحق البعد والعقاب أو التنبيه والعتاب وفي قصة آدم عليه السلام ما يوضح ذلك:

بينما كان أبونا آدم عليه السلام غارقا في طموحه وتفكيره متجاوزا إنسانيته المحدودة، متسائلا عن أمور ثلاثة حرم منها كإنسان مخلوق طيني له ملكية محدودة، وله عمر محدود، ويجب أن تكون له أنظمة وقوانين يلتزم بتطبيقها وهذه الأمور الثلاثة:

١- لماذا لم يكن كالملائكة في نورانيتهم وانطلاقهم؟

٢- لماذا ينقص عمره في كل يوم يمر عليه؟

٣- لماذا حرمت عليه هذه الشجرة الواحدة؟

فكانت نظريته أنانية بحتة متجهة نحو الحرمان ناشدة الكمال، إذ لو ارتفع بتفكيره لما احتقر الآدمية التي أمر الله من الملأ الأعلى بالسجود لها، كما أن الخلود لا يكون إلا لله وحده، وأن كامل الملك لا يكون إلا لله كذلك، فكانت لآدم فترة غفلة عن استقبال النور ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ (طه: ١١٥) استغلها الظلام كسنة كونية ليحقر الطينة عنده ويخلصه منها ويغريه أيضا بتحقيق الحرمانين الآخرين وهما إدخال الشجرة الواحدة في ضمن ملكه الواسع وإباحة الأكل منها، ومعرفة فلسفة تحريمها والأمر الثاني أو الثالث هو الخلود، وقد أخبرنا القرآن عن ذلك ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأعراف: ٢٠).

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ (طه: ١٢).

● في معترك الحياة

ونرى أن الله جلت حكمته انتصر للآدمية الصالحة في جميع المواقف إذ أمر الملائكة الكرام بالسجود لآدم، وعاقب الشيطان بالطرد من رحمته عندما احتقرها وامتنع من السجود، وعاتب آدم نفسه عندما فكر في التخلص من الطينة بالهبوط إلى الأرض ليؤدي هو وذريته الامتحانات العلمية المتواصلة المقرونة بالإيمان والتقوى، فالناجح في تسخير الأرض واكتشاف كنوزها وخباياها وفي سبر أغوار الفضاء ومعرفة أسراره الكونية يفوز بجنة الخلد والنعيم المقيم والراسب في مختلف شؤون الحياة من علمية وعبادية أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

وإن من يتأمل في المخلوقات الثلاثة، الإيجابي والسلبي والحيادي قد يخطر له ما خطر لي من المقارنة بينها وبين عناصر الذرة التي تتكون منها المخلوقات في الأرض وفي السماء وهي: البروتون إيجابي، والإلكترون سلبي، والنترون حيادي، ولولا اختصام الملأ الأعلى لأصبح الجميع إيجابيين وتعطلت التقدمية العلمية التي فضلها اللّه، وانتصر لها في جميع المواقف، وتعطل بقاء الإنسان في الوسط الطبيعي بين السلب والإيجاب ليؤدي رسالته.

والنفس هي مناط الخير والشر في مصيرها ومصير الجهاز الآدمي ما وجدت فيه وتفاعلت معه، وحكمها فيما يظهر لي كحكم سائق السيارة إن أحسن إمساك المقود، ولزم الطريق السوي وتحاشى الاصطدام بحدود استطاعته قد ينجو وتنجو السيارة والعكس بالعكس.

وبانفصال النفس عن الجسم ينقطع عمل الإنسان إلا مما قدمه من خير أو ما خلفه من آثر طيب كصدقة جارية وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له، وكل من مات ندم على عمل الشر وعدم الاستزادة من الخير. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر : ٥٦).

ولذلك يجب ألا نسقط دور الجهاز الطيني في مقبل حياتنا الأخروية أو أن نقلل من أهمية المرحلة الأرضية التي تجتازها نفوسنا من خلال أجهزتنا الفانية

التي تترتب عليها، كما يجب علينا بمقتضى انتصارنا العلمي عند اختصام الملأ الأعلى أن نستغل كياننا الآدمي بكل إمكاياناته لنحقق من الخير ما ميز الله به آدم على سائر المخلوقات وفي الحديث الشريف «إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض وحتى الحيتان في البحر ليصلون على معلم الناس الخير» وفي الأثر عنه ﷺ «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها». «ومن تساوى يوماه فهو مغبون».

وعلى ضوء ما تقدم أهيب برجال العلم والمعرفة ألا يحتقروا الآدمية التي نصرها الله في الملأ الأعلى وفي جميع المواقف بالعلم والخير، والعلماء مهما مالو أو انحرفوا في البداية فلا بد من الاستقرار للعلم الصحيح على الإيمان لقوله جلت حكمته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ وقوله سبحانه ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ وقوله جل شأنه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ نعم سيقول العلماء بعد ما يتبين لهم الحق لقد درست يا محمد بمدرستك الربانية.

* * *

في رحاب القرآن الكريم (١)

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩٣هـ) - يناير (١٩٧٢م).

هذه نظرات في كتاب الله تعالى بدأها الأستاذ عبدالعزيز العلي المطوع القناعي بهذا المقال، ووعد مشكورا بمتابعتها، وسنوالي القراء بها إن شاء الله.

● مقدمة في إعجاز القرآن وبيانه:

القرآن العظيم، آخر الكتب السماوية، نزل على خاتم رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، وهو المعجزة الكبرى، والنعمة العظمى، التي أنعم الله بها على عباده إلى يوم الدين، وهو المرجع الأكبر لهم في شؤون دينهم ودنياهم، الصالح لكل زمان ومكان، ولكل عصر ومصر، وحسبنا فيه ما وصفه الرسول الكريم به حيث قال: «كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» (الترمذي).

جاء القرآن الكريم مصدقا لجميع الكتب السماوية من قبله ومهيمنا عليها، فقد قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (المائدة: ٤٨).

والقرآن العظيم أنزله الله محكما ثم فصلت آياته ثم ازدادت تفصيلا وبيانا بتقدم العلم وتطور الزمن لأنه منزل بعلم الله الذي له ما في السموات والأرض: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١).

ولقد قال جل شأنه في الآية الأولى من سورة هود: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ وقد جاء في الآية «١٧» من سورة هود ما يضيف إلى هذه الآية بيانا جديدا وذلك فيما يظهر من قوله سبحانه ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ﴾.

والبينة هي النور المبين والقرآن العظيم، ويتلوه أي يتبعه شاهد مما يظهر من تفصيل ما أحكم من آيات كتاب الله، ويكشف عنه العلم كلما تقدم، أما الشاهد قبله فهو كتاب موسى إماما ورحمة، وفي الآيات ١٧، ١٨، ١٩ من سورة القيامة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

وفي الآية ٣٨ من سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

كما جاء في الآية ٥٩ من سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ وفي الآية ٨٩ من سورة النحل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

وجاء في الآية ٣٧ من سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وفي الآية ٧٥ من سورة النمل: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ وفي مستهل سورة يوسف: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾. وفي الآية ٥٢ من سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وفي الآية ٥٣ منها: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

وفي الآية الثالثة من سورة فصلت يقول سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾. وفي الآية ١١١ من سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

يتضح لنا من الآيات المتقدمة أن القرآن العظيم منزل بعلم الله، وأن فيه تفصيلا لكل شيء، وتبيانا لكل أمر، وهذا التفصيل يأتي تأويله تباعا في أوقاته كما تتفتح البراعم في مواسمها بحدائق البصائر النيرة، وبفعل النظرات المخلصة، والتفكير الموفق في النفوس المؤمنة، والأفئدة المستعدة للنور، والأجهزة المستقبلة للخير في مختلف الأزمنة والأمكنة، وآيات الله تحث الإنسان على التفكير والتبصر والنظر مع البعد عن التكلف في الرأي أو التعجل به قبل أوان الفتح وتفصيل الآيات لقوم يعلمون.

ولقد جاء في سورة فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: ٥٣).

وجاء في سورة الواقعة:

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٨٠).

ولعل الذي يظهر من جواب القسم أن بين دفتي هذا القرآن العظيم المنزل من رب العالمين مكنونات من العلم كثيرة تتجدد مع تقدم المعرفة في مسيرة الزمن وأنه لا يتماس معه لاستخراج هذه الكنوز المكنونة إلا المطهرون، ولعل بيان هذا

الطهر جاء في جواب المصطفى ﷺ عندما سئل عن الراسخين في العلم وهو: «من طهرت سريرته وحسنت سيرته وعف بطنه وفرجه» وأن المقصود من هذا الحديث فيما يظهر أن يكون الإنسان وعاء طاهرا نظيفا لاستقبال الفيض، وحمل أمانة العلم في الوقت المناسب: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

والقرآن العظيم هو كتاب الزمن ومأدبة الله الخالدة، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقول المصطفى ﷺ «أنا رحمة مهداة» وقوله ﷺ «القرآن مأدبة الله في الأرض فخذوا من مأدبة الله ما استطعتم».

وفي الأثر أن الرسول ﷺ لما نزلت الآيات ٦٥، ٦٦، ٦٧ من سورة الأنعام وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قال: إنها، آتية ولم يأت تأويلها بعد، ولعل هذه الحروب من تأويلها: فالطائرات من فوق، والألغام من تحت، والحروب المذهبية والحزبية قائمة بين الأخ وأخيه في جميع أنحاء العالم، وما تلك الأنباء إلا من إعجاز القرآن العظيم وإخباره عن المستقبل، وقد كان السلف الصالح يتورع عن التكلف خشية استعجال المعنى قبل الأوان وقد وعد الله سبحانه ببيانه بعد الوعد بحفظه في بضع آيات من سورة القيامة وقد تقدم ذكرها.

ومما يؤثر عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن حرف من القرآن فقال رضي الله عنه: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني وأين أذهب وكيف أصنع إذا قلت بحرف من كتاب الله في غير ما أراد الله».

وسئل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: هل خصكم الله بشيء من القرآن أهل البيت؟ قال «لا، إلا فهما أوتيه رجل في كتاب الله».

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ تكرر ذلك في سورة القمر ويقول سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (الدخان: ٥٨) وجاء

في سورة الأنعام: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (١٠٤، ١٠٥) ولعل مما يظهر من هاتين الآيتين وما قبلهما من السورة نفسها أن المتقدمين من العلماء في العالم سيقولون بعدما يستبين لهم الأمر: حقا لقد درست يا محمد بمدرستك الربانية فسبقت مدرستك جميع المدارس بل فاقتها: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: ٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ (النساء: ١٧٤).

إن كتاب الله العظيم هو دستور الزمن ونوره ومرجع الناس إلى يوم القيامة وهو معين العلم تنهل منه النفوس العطشى إلى المعارف والعلوم وتتطلب المزيد من معينه الصافي الذي لا ينضب.

إن طالب العلم نهم لا يشبع من سلسبيله، وخضم العلم أمام طالبيه واسع الجنبات مترامي الشطآن، متزاحم الموج، عذب المورد والله سبحانه يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥) ولا يخفى ما في ذلك من التشجيع للازدياد من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وقد كان رسول الله لا يستعجل بيان القرآن ولا يتكلف ليه وهو الذي نزل عليه القرآن وهو الطاهر الأمين الذي هو أولى الناس بالازدياد من العلم، ومما يدل على عدم تكلفه ﷺ في معاني كتاب الله وتركه الأمر للزمن وللأذهان المتفتحة أمر الله سبحانه وتعالى لخاتم رسله في ختام سورة «ص» ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ وقوله ﷺ: «من سمع مني مقالة فليبلغها كما سمعها رب مبلغ أوعى من سامع» والسامع صحابي والمبلغ من بلغه بعد ذلك إلى يوم القيامة.

على أن جانبا من المتأخرين قد أطلقوا أقلامهم بتفاسير مطولة لا تخلو من تكلف متعاقب ونقل مكرر، وجاء بعضها كموسوعات كبيرة ومفيدة في أمور كثيرة

غير التفسير، وإذا كانت بعض آيات كتاب الله تشتمل على ما جاء في بعض هذه التفاسير فإنها لا تتقيد بها وحتى أسباب التنزيل تشتمل عليها الآيات دون التقيد بها وقد قيل: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وغالبا ما يقيد المفسر نفسه بما سبقه من تفاسير محملا المسؤولية في ذلك لغيره وربما كان ذلك خشية الرد عليه وفقدان مكانته بين الكثرة الغالبة في المجتمع وربما أدى ذلك إلى قطع رزقه، ومعروف أن الأقوال القديمة لها استقرارها في الأذهان على ما قد يكون فيها من غريب ودخيل، وقد يذهب البعض إلى ما يظنونه تمكينا للمعنى فيؤيدون ما يفسرونه ببيت من الشعر قد يرصونه رصا يحشرون معنى الآية فيه حشرا أو بأحدوثة من الإسرائيليات أو غير ذلك مما قد يشغل أغلبية القراء عن التفكير في سمو المعاني القرآنية وأهدافها الكريمة وأسلوبها الرصين، راضين بهذا الحشو الغريب عن مفهوم السلف الصالح وورعه.

ثم إننا في عصر العلم وعصر العلم مدعاة لاستخراج الجديد من كتاب الله لتعلم الدنيا أن كل جديد في العلم إنما هو كشف عن بعض مكنونات هذا الكنز العظيم والكتاب الخالد الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه علم الله المبدع العظيم الذي يسعى الإنسان لاكتشافه ما وسعه جهده في هذا السبيل مصداقا لقوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء: ١٦٦).

ومادام القرآن العظيم هو المنزل بعلم الله والأسرار العلمية التي يحاول اكتشافها العلماء هي من علم الله فلابد من يوم يعلم فيه الذين آمنوا بالعلم أن القرآن الكريم قد سبقهم إلى الإنباء بهذا الكشف فيعودون إلى فطرة الإيمان بإله واحد مالئ للكون ومهيمن عليه، وتصحو روح الخير فيهم ويستيقظ بيقظتهم الحيارى والمتشككون وكل منحرف عن الطريق الأقوم، فيطلون على الحقيقة من النافذة التي أطل منها من آمنوا قبلهم فتتبلور الأفكار الشاردة والآراء المتأثرة بالعصبية الموروثة والمعتقدات المتشعبة حول هذا الكتاب الخالد المنزل بعلم

الله الذي يعلم الخبء في السمٰوات والأرض والذي سجل فضل العلماء بقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩) وإن آيات كتاب الله في فضل العلم كثيرة، كما ورد عن المصطفى ﷺ في فضل العلماء على النساك، أذكر من ذلك قوله ﷺ: «لغدوة أو روحة في سبيل العلم تعدل عبادة أربعين خريفا» وفي الآثر عنه ﷺ: «من تساوى يوماه فهو مغبون» ويفسر هذا الحديث حديث آخر عنه ﷺ: «إذا طلع علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم».

وحبذا لو نقح ما لدينا من تفاسير واستخرج منها ما هو دخيل وغريب ثم ركز على ما يظهر من مفاهيم كتاب الله دون تكلف أو تزمت، سيما ما ظهر حتى اليوم من علوم تؤيد ما ورد في كتاب الله، وشرحت في إطار العلوم الثابتة دون الجنوح إلى التشكيك في أثر القديم وفضله، ولا إلى التشبث بالجديد وروائه، واتخذ كتاب الله وسنة رسوله حكما وفيصلا في ذلك.

وكما أن في الكتاب العظيم منبعا لكل علم فإن فيه حلا لكل الخلافات المذهبية في المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وغير ذلك، قديما وحديثا وإنه الوسط بين اليمين واليسار وكذلك كانت الأمة التي نزل عليها هذا الكتاب وفي موقعها الجغرافي أيضا لتكون في الذروة المرموقة وفي موضع الحكم بين الناس، قال جل شأنه في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

فإذا ما أمرت الأمة بالمعروف ونهت عن كل ما ينكره العرف عن إيمان بالله وتصديق بكلماته، كانت خير أمة أخرجت للناس مصداقا لقوله سبحانه، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). وفي الآية ٦٤ من سورة النحل قال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وفي الآية ٢١٣ من سورة البقرة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ

فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ .

والقرآن العظيم كثيرا ما يطلب إلى الجميع التفكر والتبصر والتدبر في الآيات وفتح القلوب، وعندها تفيض المعاني العظيمة منها على الألسنة والأقلام المؤمنة فتنطلق رسلا وكتبا إلى العالم أجمع في مختلف أحواله وعصوره، وفي هذا نشر لرسالة الحق والسلام، وبعث لنور الهداية المحمدية إلى الدنيا بأسرها، لتخرجها من الظلمات إلى النور، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ (يونس: ٩)، والإيمان هو الهدف الأول وهو وسيلة الهداية التي هي المرحلة التالية بعد الإيمان والعمل الصالح مصداقا لقوله سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ (طه: ٨٢) وقوله سبحانه: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٦): ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (العنكبوت: ٦٩). ولقد جاء في الآية ١١ من سورة التغابن: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

كذلك يوجب القرآن الكريم أن يقوم كل بدوره دون تقصير أو كتمان، حيث حرم الله الكتمان في كتابه، وإني لأكتفي في هذا المجال بذكر ما ورد في سورة البقرة في الآيتين ١٥٩، ١٦٠: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ .

وإن من يوفق للإيمان والهدى كمثل المشكاة الصالحة المتصلة بالتيار تستمد النور وتشعه لذوي الأبصار فتبدل ظلامهم نورا.

ومرة أخرى أقول: إن القرآن العظيم حلقات متماسكة يفسر بعضه بعضا ويمكن أن تكون الفاتحة عنوانا له وواسطة لعقده، بحيث يمكن أن يلتقي طرفا القرآن العظيم عند سورة الفاتحة «والطرفان هما سورة البقرة وسورة الناس»، على أني قبل أن أتابع الترتيب القرآني أود أن أبدأ بسورة الناس وهي الخاتمة

لأنها ترتبط مع الفاتحة برباط وثيق كما ترتبط السورتان «الناس والفاتحة» بسورتي «الفلق والإخلاص» وهذا ما أرجو أن أوفق إلى تقديمه كأنموذج وجهد محدود راجيا أن يحقق الله على أيدي من هم أوسع مني علما وأنسب ظروفا وإمكانات إتمام ما سأبدأ به بإذن الله.

وإنه على الرغم مما يحيط بي من مشاغل تستنفذ جل وقتي، ومن قلة معلومات وضيق اطلاعاتي فيما عدا تلاوة القرآن الكريم، ككل مسلم يتلو كتاب الله أو يسمعه، فإني أرى أن علي واجبا لا مناص من أدائه إزاء مسؤوليتي أمام الله حول عرض ما ظهر لي من معان خلال تفكيري عند تلاوة كلام الله مع اعترافي بالتقصير، وإني لأعترف أيضا بأن ما أقدمه قد يحتوي جديدا على القارئ والسامع ومعروف أن الاستجابة السريعة للجديد ليست بالأمر السهل حتى ذلك الذي جاء على أيدي رسل كرام يوحى إليهم من رب العالمين، مؤيدين بالمعجزات فكيف إذا كان الجديد من إنسان مثلي يعترف بتقصيره وعدم سعة اطلاعه ولكن الذي يشفع لي ويطمئنني أني أحرص استطاعتي على ألا أتكلف ولا أخرج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا أجانب العلوم الراسخة ولا أجافي المنطق السليم ولا أعرض معاني كتاب الله للنظريات القابلة للتغيير والتبديل، إلى جانب ذلك فإني كلي إصغاء لمن يرشدني إلى أخطائي وجل من لا يخطئ، «والحكمة ضالة المؤمن» ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

وإذا كنت أقدم للقارئ اللبيب ما وسعني من جهد المقل فذلك للعرض لا للفرض، وإن هذا العرض ليس تفسيرا ولكنها خواطر تلوح لي عند تلاوة كتاب الله والتأمل في رحابه.

فرأيت لزاما علي أن أدونها عسى أن يكون بها من النفع ما أرجو معه عفو الله ورضوانه، والله سبحانه هو العلام الحكيم والهادي إلى سواء السبيل.

في رحاب القرآن الكريم (٢)

العدد (٨٥) محرم (١٣٩٢هـ) - فبراير (١٩٧٢م).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ (سورة الناس).

قل أعوذ: الاستعاذة في بدء السورة من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، هي تخلية، وطلب الهداية من رب العالمين الرحمن الرحيم إلى الصراط المستقيم والطريق القويم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين - كما جاء في ختام سورة الفاتحة - هي تخلية وجب الحمد عليها فكان ذلك الحمد في الافتتاح لفاتحة كتاب الله، ومن المعلوم أن الضلال والهدى لا يجتمعان في قلب إنسان في وقت واحد كما لا يجتمع النور والظلام في مكان وزمان واحد.

صحيح أن قوة إشعاع النور تختلف وتبدأ من الشمعة الواحدة وأن الإنسان غالبا ما يتردد ويتشكك ويحتار ولكن الحيرة والتردد والتشكيك لا تلبث أن تزول ويحل محلها إيمان سلمي يهدي إلى صراط مستقيم، كما يحل النور محل الظلمات ويذهب الباطل أمام قوة الحق وهذه سنن كونية لا تبديل لها ولا تحول عنها، قال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ (الإسراء: ٨١) وقال

سبحانه أيضا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ (الفرقان: ٦٢).

برب الناس: رب الناس هو رب العالمين الرحمن الرحيم كما جاء في سورة الفاتحة.

ملك الناس هو مالك يوم الدين كما ورد في سورة الفاتحة أيضا وكلمة ملك بالنسبة لله غالبا ما تأتي في كتاب الله مقرونة بيوم الدين، اليوم الذي لا ملك ولا مالك فيه غيره سبحانه مصداقا لقوله جل شأنه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ (الانفطار: ١٧-١٩) وقوله سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ (الحج: ٥٦) وقوله سبحانه: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ (الأنعام: ٧٣) وقوله سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ (الفرقان: ٢٦) وقوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ (غافر: ١٦) وفي الأثر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن قال ابن العلاء، وهو محمد أبو كريب: بيده الأخرى: (وكلتا يديه يمين) ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟».

ولعل في تكرار ذكر الناس ما يفيد أنهم مركز الثقل، وبيت القصيد ومصداق قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٥-١٠٧).

الوسواس الخناس والجنة والناس: الظاهر أن كل ضار سواء أكان من الناس أم من الجِنَّة فهو شيطان يستعاذ من شره وكل ما جن عن العين فهو من الجنة والخناس هو الذي يخنس أي: ينكمش ويتضاءل ويقصر عند ذكر الرحمن وهم مردة الجنة كما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ (الأعراف: ٢٠١) إن

شياطين الجن تمثل الظلام الذي لا يجدي في إزالته مهانة، أو تجهم عليه، أو لعنة توجه إليه ولكن شمعة تزيل جانبا من الظلام بقدر قوة إشعاعها وعلى قدر امتداد الإشعاع يكون انحسار الظلام.

إن شيطان الجن يخنس ويقصر ويتلاشى، عند ذكر الرحمن، ثم ينبعث ويكبر كلما غفل الإنسان عن ذكر الله مصداقا لقوله سبحانه ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ (الزخرف: ٣٦).

وقد ورد عن المصطفى ﷺ أنه قال لرديفه حينما عثرت ناقته وقال الرديف: «تعس الشيطان» فقال له الرسول ﷺ: «لا تقل ذلك فإنك إذا قلتها تكابر وقال بقوتي صرعته، ولكن قل بسم الله فإنك إذا قلتها تصاغر حتى يكون كالذبابة».

وقد جاء في الحديث الشريف ما يدل على اعتبار الميكروبات الضارة شياطين أيضا لقوله صلوات الله عليه: «قصوا الأظافر كي لا تتظلل تحتها الشياطين» ولعل المقصود من ذلك ألا تكون وكرا لهذه الشياطين أي الميكروبات الضارة، ومن الفطرة حف الشارب وهو في طريق مجرى الغذاء والتنفس، وقد ورد في الأثر عنه ﷺ: «الفطرة خمس: حف الشارب، وإعفاء اللحية، ونتف الإبط، وقص الأظافر، وحلق العانة».

وكذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه «غلقوا الأبواب إذا وقدتم، وأطفئوا المصابيح وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب» وقال أيضا: «تنكبوا الغبار فإنه من النسمة» ومن الندب تغطية الفم عند التثاؤب، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

أما شياطين الإنس فقد لا يتأثرون بكلمة الحق، ولا يحفلون بإشعاع النور، وقد وصفهم الله سبحانه بقوله ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ (الأعراف: ٢٠٢) وإنما تردعهم العدالة الحقة بالقصاص عند إقامة الحدود، وقد جاء عن الرسول ﷺ أنه أقام الحدود، وقد جاء عن الرسول ﷺ أنه قال «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

في رحاب القرآن الكريم (٣)

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م)

(سورة الفلق مكية وآياتها ٥ نزلت بعد الفيل)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

الاستعاذة: بدئت سورة الفلق بالاستعاذة كما بدئت سورة الناس، غير أن الاستعاذة في هذه السورة استعاذة برب الفلق، والفلق يشمل الكائنات جميعا وهذا أشمل معنى مما جاء في سورة الناس وأعم.

من شر ما خلق: إن الاستعاذة في سورة الناس قد جاءت من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، أما في سورة الفلق فقد جاءت الاستعاذة من كل مخلوق يمكنه أن يبعث الشر أو يلحق الضرر بعباد الرحمن بالذات أو بالواسطة.

ومن شر غاسق إذا وقب: تكررت الاستعاذة في هذه السورة وركزت الآية بصفة خاصة على الغاسق إذا وقب، ويظهر أن الغاسق: اسم فاعل مشتق من الغسق الذي هو الظلمة في الثلث الأول من الليل، لأن الوسوسة في الصدر تحدث أرقا وقلقا يذهب بالنوم ويسلب لذة الراحة والطمأنينة وقد يدفع ذلك إلى مغادرة المرء فراشه غاسقا خارج منزله، فهذا الغاسق إذا استبدت به شهواته غسقا فقد وقب وكبا وهوى في حمأة الذنوب، فالرجل الميقاب لغة: كثير شرب الخمر

والوقباء: سبة معروفة عند العرب ومداخل السوء وقبات، ومن ولجها يعتبر واقبا والسير الميقاب: المتواصل ليلا ونهارا، والأوقاب الحمقى، وقد ورد في معنى الوقبة أنها: كل نقرة في الجسم كالنقرتين الموجودتين بالقرب من كتفى الإنسان، كما أن ضمور البطن من أثر الجوع يسمى في اللغة وقبة، وكذلك أوقاب الناس ملابسهم وحوائجهم فلو سرق لص في الغسق أوقاب الناس بدافع الجوع شمله معنى الوقب.

ومن معاني الوقب غور العين وعفونة شماريخ النخلة وبالجملة فإن كل ما يطرأ على الغاسق من عمل سيئ يدخل في شموله كلمة الوقب.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾:

النفث لغة: خروج شيء من داخل الجوف كنفاثة المصدور، ونفث الحية للسم وقد جاء النفث بصيغة جمع المؤنث مما قد يشير الى أنه إذا كان الرجل المؤرق يزايل منزله عادة للتنفيس والترفيه عن نفسه، فليس ذلك من عادة المرأة بمفردها كما هو النظام الغالب في المجتمع فتنفث المرأة المنعزلة المعقدة الناقمة على المجتمع نفثا يخشى معه على تفكيك عرى الخير وعقد النكاح وغير ذلك. والله سبحانه هو أعلم بما يريد.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾: الحاسد كالغاسق وزنا ومغزى فالغسق مشتق من ظلمة الليل والحسد من ظلمة الصدر، والنفوس لا تكاد تخلو في الغالب من رذيلة الحسد وإن تفاوتت درجاتها.

والحسد غير الطموح المشروع، وغير الغبطة والتنافس في الخير، وفي الحكمة المعروفة: «قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله» فالحاسد يستعاذ منه إذا رام الأذى بمحسوده، ومن سهام الحسد نظرة العين، وهي إحدى نوافذ الشر خارج الصدر.

هذه الأمور الثلاثة التي تأكدت وتكررت الاستعاذة منها وهي: الوقب، والنفث والحسد، إنما تخرج من الصدر وليدة القلق والأرق، المتأتيين من وسوسة شياطين الجن والإنس في الصدور، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ما روي من

أن خالد بن الوليد اشتكى إلى رسول الله ﷺ الأرق - فقال له صلوات الله عليه: «ألا أعلمك كلمات اذا قلتهن نمت؟ «قل: اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب الشياطين وما أضلت، كن لي جارا من شر خلقك أجمعين، أن يفرط علي أحد منهم أو أن يطغى، عز جارك وتبارك اسمك».

ولعل المتأمل في هذا الحديث الشريف، يرى أن الرسول صلوات الله عليه، قد استنبط ذلك من السور الثلاث . سورة الفاتحة، والناس، والفلق.

نبدأ الحديث بربوبية الله للخلق كلهم التي بدئت بها السور الثلاث، وقد طلب منه الرسول أن يستعيذ بالله بعبارة «كن لي جارا من شر الخلق أجمعين».

والاستجارة هي الاستعاذة، وهكذا ورد في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ ولعل في قول الرسول صلوات الله عليه: «أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى» استجارة بالله من الشياطين، حتى لا يفرط عليه منهم الوقب أو النفث أو الحسد أو غير ذلك.

وفي هذا الحديث ما يطمئننا على سلامة ما ذهبنا إليه من ترابط بين السور الثلاث المذكورة : سورة الفاتحة، وسورة الناس، وسورة الفلق.

نظرات في سورة الإخلاص

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - مارس (١٩٧٣م).

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: من البداهة والفطرة في الإنسان وما يصل إليه من تعاليم الرسل الكرام: وحدانية الله الأزلية اللانهائية المنفردة بذاته وصفاته سبحانه، لا رب للعالمين غيره، ولا إله يعبد بحق سواه.

ولعله أصبح من المألوف لدى الكاتب والمتحدث والسامع والقارئ جميعا، ان معنى كلمة أحد هو «واحد» ولكن في معناها ما هو أعمق من ذلك، حيث لم يأت في اللغة أن معنى لفظ «أحد» هو «واحد» إلا إذا كان اللفظ مضافا كما في أحد الناس أو إحدى النساء وكذلك في الأعداد المركبة كأحد عشر أو إحدى وعشرين.

وتأتي كلمة «أحد» للذوات العقلاء في ثلاثة مواطن: الإثبات، والنفي، والتحدي، أما الإثبات فإنه لم يرد بالنسبة لمخلوق إلا في القليل النادر، كأن يقول قائل: ليس في البيت أحد (في حالة النفي) فاذا سمعه فرد أو أكثر في الدار قال: نحن هنا: ردا على هذا النفي غير الصحيح، وبغير ذلك لا أعتقد أن لها في باب الإثبات مجالا آخر.

وقد افتتحت سورة الإخلاص بالإثبات وهذا أمر خاص بالله سبحانه، ومن هذه الآية يتبين أن الله ذات واجبة الوجود ولا يصح إثبات الوجود المطلق إلا لله وحده، كما لا يصح النفي على الاطلاق إلا مع الاستشعار بإثبات وجود الله سبحانه في كل مكان يليق بجلال قدسه وإحاطة علمه إذ لا يستطيع إنسان ما أو أكثر أن يقول ليس معي أحد (في حالة النفي) أو يقول لا يقدر علي أحد (في حالة التحدي) لأنه سبحانه مطلع على خلقه وهو معهم أينما كانوا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ

عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (الأنعام : ١٨) وفى الآية السابعة من سورة المجادلة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

وقد جاء في سورة البلد آيات أربع ابتداء من الآية الرابعة حتى السابعة وردت فيها كلمة «أحد» وهي: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ ولا يخفى ما في ذلك من الاستفهام الاستنكاري، فكلمة «أحد»: للذوات العقلاء ككلمة: من: وذلك كقولنا: من في البيت ؟ بمعنى أفي البيت أحد؟ وعليه فمعنى الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ أنه سبحانه ذات واجبة الوجود مهيمنة عليه، متسنمة على عرش كل ذرة من ذراته، أو خلية من خلاياه، كما جاء في ختام سورة يس: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وبيده سبحانه ناصية كل دابة، مصداقا لقوله جل شأنه في سورة هود ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ (هود: ٥٦) وقوله سبحانه في سورة المؤمنين: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المؤمنون :٨٨).

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾: والصمد من يصمد لجميع ما يحتاج إليه الخلائق ويحفظها ويهيمن عليها، وتطلق لغة أيضا على من لا جوف له فلا يأكل ولا يشرب ولا يحدث له ما يترتب على الأكل والشرب، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ومن معاني الصمد أنه صامد للوجود كله وتصمد إليه جميع الخلائق، وقد أورد بعض المفسرين في تفسير كلمة الصمد، أنها تشمل صفات الكمال لله جلت عظمته، فإذا ما وجب علينا في حالة النفي الاستشعار بوجود العلي القدير وجود هيمنة وعلم، وجب علينا أيضا الاعتقاد بأن هذا الوجود لا يعتريه نقصان ولا زوال ولا تأخذه سنة ولا نوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ

وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦١﴾ (يونس: ٦١).

فإذا قال فرد أو أكثر مثلا وهو يتناول طعامه: «أنه لا يأكل معي أحد» فالجواب على ذلك هو: الله أحد معك ولكنه صمد منزه عن الأكل والشرب، وعن كل ما لا يليق بجلال عظمته سبحانه وتعالى، وفي باقي هذه السورة، ما يؤيد المعنى المتقدم فكما أنه جل شأنه لا يأكل ولا يشرب فإنه لم يلد ولم يكن له كفوا أحد.

ولعلنا نستطيع أن نقول خلاصة لما تقدم أنه سبحانه منفرد بالعلو اللانهائي في غير بعد وبوحدانية صمدانية خلاقة وسعت كل شيء رحمة وعلما، غنية عن الكفء قادرة على الإبداع والحفظ والإعادة، صامدة للوجود كله، لا محل فيه لثان كند أو كفو، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم: ٩٣- ٩٥).

وحدانية كمال مطلق غير محدود، وليست وحدانية عدد لأن الواحد في الحساب قد يفيد القلة كما يفيد الرقم الأول فقط، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (الحديد: ٣).

وكما جاء في ختام سورة (الإخلاص) ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ ومن آية الكرسي في سورة البقرة: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقوله أيضا ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) على أن الوحدانية القهارة موجودة في كل آية من آيات كتاب الله ولاسيما السور الثلاث: الفاتحة، والناس، والفلق. ففي البسملة توحيد، وفي قراءة الحمد لله رب العالمين توحيد، وكذا الشأن في كل آية بعد ذلك.

وقد جاء في الأثر أن في سورة الإخلاص صفة هذه الوحدانية وأنها أنزلت عندما قال العرب لخاتم رسل الله: صف لنا ربك.

على أن هذه الوحدانية موجودة بالفطرة في كل إنسان عاقل يؤديها العلم كلما تقدم، فالإنسان هو وعاء العلم وبالعلم فُضِّل آدم على الملائكة الكرام في الملأ الأعلى.

ومعنى ازدياد العلم في الإنسان محاولة اكتشاف علم ما وراءه وهنا نتساءل: إذا كان ولابد من الاعتقاد بأن وراء علم هذا الإنسان علوما واسعة لم يصل الإنسان إلَّا إلى النزر اليسير منها ـ فإن ذلك يوحي للعالم أن وراء هذا الكون مكونا ووراء هذا الإبداع مبدعا يحاول الإنسان جهده أن يكتشف ما يستطيع أن يستكشفه من أسرار ومكونات، ومن أبسط الأمثلة سؤال يطرح نفسه، فهل لك أيها الإنسان رأي أو مشاركة في خلق أو في نظام ذرة واحدة من ذرات الكون اليابسة أو خلية واحدة من خلاياه الرطبة؟ فإذا كان الجواب لا: فمن هو ذا يا ترى؟ وإنه لتغلب الحيرة والبلبلة والظنة على الكثيرين، فيسمون ما يعتقدون وجوده قوة خارقة، وعلم ما وراء الإنسان ـ بالطبيعة تارة، واللانهاية تارة أخرى، والدهر ثالثة، مع أنهم لم يأتونا بوصف أو كنه لهذه الطبيعة أو الدهر أو اللانهاية.

والسؤال الذي يفرض نفسه: إذا كانت هذه الطبيعة أو اللانهاية أو الدهر أو غير ذلك من المسميات عاقلة قادرة سميعة بصيرة عالمة موصوفة بصفات الكمال كلها، تنشئ وتطور وتكون وتبدع وتنظم وتحفظ، فماذا نسميها إذا لم نسمها الله؟ والفرق بيننا وبينهم إذن هو مجرد التسمية، والمعبود بحق عندنا هو القوة المبدعة لهذا الوجود والمهيمنة عليه والمنظمة الحافظة له التي نسميها: الله - فإذا سماها الآخرون بلغاتهم باسم آخر فلا يضير ذلك عقيدة التوحيد بشيء وقد قال الأقدمون من قبل ما قاله الطبيعيون ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وذلك كما جاء في الآية ٢٤ من سورة الجاثية: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد جاء في الأثر عن الرسول ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله» أما إذا كانت الطبيعة كما يعتقدون صماء عمياء جاهلة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وكيف خلقت لنا الطبيعة سمعا وبصرا وهي لا تعرف السمع والبصر؟ على أن العلم والفطرة كفيلان بتوكيد وجود الخلاق العليم في تصور كل إنسان شاء أم أبى، والعلم يهدي للإيمان مصداق قوله سبحانه في (الآيه ٢٢ من سورة الروم): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (وفى الآيه السادسة من سورة سبأ): ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ وفي (الآيه ٢٨ من سورة فاطر): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ (الإسراء: ١٠٧) وقال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج: ٥٤).

٣ مقالات

الشيخ أحمد الخميس

- ترجمة الشيخ
- المقالات

١- الكويت تمنع الخمر

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

٢- العلاقة بين الزوجين

العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥م)

٣- الزواج وآثاره

العدد(٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ

أحمد الخميس

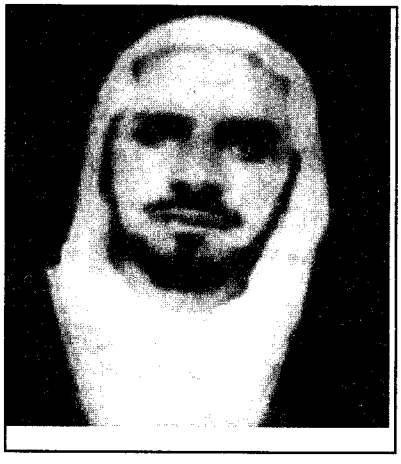

هو الشيخ أحمد الخميس الجبران، وقد سمي بـ «الخلف» نسبة إلى عائلة خاله الشيخ عبدالله الخلف الدحيَّان، ولد في مدينة الكويت سنة ١٣١١هـ الموافق ١٨٩٣م.

● **نشأته وتعليمه:**

لما استكمل الشيخ تعليمه الأولي من قراءة وكتابة، وقراءة لكتاب الله، سافر إلى بلدة الزبير حاضرة العلم في زمنه لما فيها من العلماء والمدارس الشرعية، فأخذ العلم فيها من الشيخ العلامة عبدالمحسن البابطين الذي كان مدرسا في مدرسة دويحس الشرعية، كما درس العلوم العربية والشرعية على يد الشيخ محمد العوجان، وتلقى الفقه الحنبلي والحديث على يد الشيخ عبدالله الحمود، ثم عاد الشيخ إلى الكويت فلازم الشيخ عبدالله الخلف الدحيان طالبا لمزيد من العلم الشرعي، ويعتبر خاله الشيخ عبدالله الخلف المربي الأول له.

عمل الشيخ مدرسا في مدرسة النجاة الأهلية في الزبير، ثم درَّس في المدرسة المباركية في الكويت، ثم استأجر ديوانا وفتحه مدرسة لتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، ولما افتتح شملان بن علي مدرسة السعادة سنة ١٣٤٣هـ ١٩٢٤م تم تعيين الشيخ أحمد مدرسا ومديرا لها وبقي فيها ما يقارب الخمس سنوات حتى أغلقت أبوابها.

كما قام الشيخ بالتدريس في كشك الصقر، وشاركه في التدريس الشيخ

عبدالوهاب بن عبدالله الفارس، ثم تولى الشيخ إمامة مسجد البدر خلفا للشيخ عبدالله الخلف، واشتهر الشيخ رحمه الله بأسلوبه الأدبي، وكتب في العديد من المجلات، منها مجلة «الوعي الإسلامي» التي خصَّها بعدد من المقالات.

في سنة ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م، تم تعيين الشيخ قاضيا في المحكمة الشرعية، ثم وكيلا للمحكمة الكلية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف العليا في ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م، بموجب مرسوم أميري.

● **وفاته:**

توفي الشيخ أحمد في ٢٤ جمادى الثانية ١٣٩٤هـ الموافق ١٤/ ٧/ ١٩٧٤م، رحمه الله رحمة واسعة.

الكويت تمنع الخمر

العدد (٢) صفر (١٣٥٨هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

«أصدرت حكومة الكويت قانونا يعاقب كل من باع أو اشترى أو تناول أو قبل التناول أو حاز بأي صورة كانت بقصد الاتجار أو الترويج خمرا أو شرابا أو مسكرا، ويعاقب كل من تعاطى في مكان عام، أو في مكان يمكن رؤيته فيه، أو في ناد خاص خمرا، أو شرابا مسكرا، وكل من جلب إلى المكان المذكور الخمر أو الشراب المسكر لشخص بقصد تناوله فيه، ويعاقب كل من وجد في حالة سكر بين، وكل من أقلق الراحة بسب تناوله الخمر» .

و«الوعي الإسلامي» تحيي الكويت الدولة العربية المسلمة وتأمل أن يحذو حذوها سائر الدول العربية الإسلامية.

فى كل عصر نجد الإسلام آية كبرى، ومعجزة تدل أنها فوق مستويات القدرات البشرية، فجميع أحكامه ومناهجه وتعاليمه قائمة على أصول راسخة رسوخ الجبال الشامخات، فمنذ ألف وثلاثمائة سنة ونيف ارتفع صوت الإسلام على لسان المصطفى ﷺ يعلن للإنسانية أن الخمر عدوة العقل والجسم والإخاء، وأنها أم الخبائث ومصدر الجرائم ومستنقع السموم، ولقد نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة: ٩٠-٩١) وبعد هبوط الوحي بالتحريم القاطع بنص الآية الكريمة أرسل رسول الله ﷺ مناديا ينادي: يعلن تحريمها على المسلمين فاستجاب المسلمون لذلك وعكفوا على دنان الخمر يكسرونها

ويهرقون ما فيها، وبهذا حفظ الله أمة الإسلام من هذا الشر الخطير والوباء العظيم.

واليوم نحن نستبشر خيرا بما قرره مجلس الأمة مستجيبا لنداء الأمة ومشاعر الشعب. واليوم ونحن نجد مجلس الوزراء يجتمع متضامنا مع مجلس الأمة على منع دخولها إلى هذا البلد المسلم لا يسعنا إلا أن نرفع آسمى آيات التقدير لمجلس وزرائنا، ونسأله تعالى أن يجعلهم أبدا ودائما مثالا للخير وسبيلا لإسعاد هذا الشعب الكريم والمحافظه على دينه ومثله وأخلاقه، وليس بعجب أن تنتصر إرادة الخير على إرادة الشر، إرادة العقل على إرادة الجنون والطيش، وإرادة الحياة على إرادة الانتحار.

أيها المسلمون قد أجمع أساطين الطب، وأجمع علماء النفس، وأجمع علماء الاجتماع، وأجمعت طبقات الناس على أن الخمر طريق الشر، بل هي الشر والفتنة، فلا غرابة أن ترتفع أصوات الألوف من الناس فى الكويت المسلمة المؤمنة برسالة القرآن مطالبة بمنع الخمر، ومن حقها الآن أن تشكر أولي الأمر على تلبية النداء، وإجابة طلباتها.

والآن نستطيع أن نقول لكم عودوا إلى إسلامكم، عودوا إلى إيمانكم، عودوا إلى ساحات الجهاد الإسلامي والنضال الأخلاقي تعد لكم الكرامة والعزة والألفة والمودة، واستمعوا الى صوت محمد ﷺ «تركتكم على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك» وذلك مصداق قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأنعام: ١٥٣) أيها الآباء إنكم تتحملون متاعب الحياة، وتتعبون، وتجاهدون ليلا ونهارا، فإذا مرض أطفالكم ذهب النوم عن أجفانكم، وإذا تأخروا عن موعد الحضور عم قلوبكم الخوف والقلق والذعر، هؤلاء الأبناء الأعزاء حشاشة النفس وأكباد المجتمع، لا يصح أن ندعهم فريسة الإلحاد وفريسة للخمر، هؤلاء زهرات حياتنا لا يصح أن نتركهم تفسد عقولَهم وأرواحَهم وضمائرهم أقدامُ الكفر والمجون والاستهتار بالأخلاق والقيم، هؤلاء الأطهار

الفطريون لا يجوز أن نتركهم عزلا بدون سلاح، يعتدي عليهم دعاة الفساد، ويجرهم زحف الإباحية، هؤلاء أعز ما نملك أمل أمتنا الباسم، أمل ديننا وفرقاننا وإسلامنا يجب أن نفتح آفاق الثقافة الإسلامية لنقيهم من أضاليل وأكاذيب ما يسمعون.

أيها الوزراء أيها القادة يا من بيدهم مقاليد الأمة المسلمة، أنتم تحكمون شعبا مسلما وأمة مسلمة، والمسلم وفي لمن يحسن إليه، والخمر أم الكبائر والآثام وقد عقدتم العزم متضامنين مع مجلس الأمة بمنع استيرادها فشكرناكم. شكرتكم النخوة والمروءة ومكارم الأخلاق يا أصحاب المعالي، إن من الصفات المميزة للحاكم المسلم أن يكون الإسلام أقرب إليه من الحياة وما فيها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ (التوبة: ٢٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر».

وفق الله المسلمين للعمل بكتاب الله وسنة رسوله آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

العلاقة بين الزوجين

العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥هـ)

• الزواج طمأنينة

عني الإسلام بإظهار الأهداف الروحية من الزواج، وقد جعلها الركائز التي يقوم عليها بناء الحياة الزوجية والدعائم التي تحقق الألفة والمودة، وتتمثل في سكون النفس مع اضطرابها الجنسي الفطري بالحب بين الزوجين وتوسيع دوائر المودة والألفة بين العشيرتين بالمصاهرة واكتمال عواطف الحنان والرحمة الإنسانية وانتشارها بين الزوجين لتنتقل إلى البنين والبنات، وإلى هذه المعاني الروحية يرشدنا تعالى بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١).

• الصلة الجسدية

ومع هذا لم يغفل الإسلام الجانب الجنسي والعلاقة الجسدية بين الزوجين، فقد هدى بها إلى أقوم سبيل، وأرشد طريق، لتحقيق أهداف حق الفطرة الغريزية، وبذلك تجنب الانحراف والاعوجاج، فقد كان اليهود والمجوس يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، والنصارى كانوا يجامعونها في الحيض ولا يبالون، وعرب الجاهلية تأثروا باليهود في هذه الناحية، فكانوا إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها، ولا يشاربونها، ولا يجالسونها على فراش، ولا يساكنونها في بيت، لذلك توجه بعض المسلمين إلى النبي ﷺ للسؤال عما يحل لهم وما يحرم عليهم في معاملة الحائض فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ

مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ (البقرة: ٢٢٢) وفهم بعض الأعراب أن الاعتزال ألا يساكنوهن، فبين النبي ﷺ لهم المراد من الآية وقال: إنما أمركم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم، فلما سمع اليهود ذلك قالوا: هذا الرجل يريد ألا يدع شيئا من أمرنا إلا خالفنا فيه.

وإذا رجعنا إلى الطب الحديث نجده قد كشف النقاب عما يوجد في إفرازات الحيض من مواد سامة تضر بالجسم إذا بقيت فيه، فالأعصاب التناسلية تكون في وضع احتقان والأعصاب مضطربة بسبب إفرازات الغدد الداخلية فالاختلاط الجنسي يضرها ضررا بليغا وربما كان سببا في منع نزول الحيض، وقد يكون سببا في التهاب الأعضاء التناسلية.

وفي الآية تشبيه للقاح الجنسي بالإنبات وأن الغاية من الحرث والزرع هو الإنتاج، وكذلك الغاية من اللقاح الجنسي هو التوالد والتناسل، ومكان ذلك معلوم، وما عداه محظور ممنوع منهي عنه، ولذلك نجد الرسول ﷺ ينهى الرجال عن إتيان المرأة في غير المكان الطبيعي الذي أعد لذلك، «وقال لا تأتوا النساء في أدبارهن»، وقال «لعن الله من أتى امرأة في دبرها»، وقال في الذي يأتي امرأة في دبرها اللوطية الصغرى.

● **حفظ أسرار الزوجية**

وقد أثنى القرآن على المرأة أن تحفظ السر بالغيب فقال سبحانه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ٣٤) وفي جملة الغيب الذي يجب أن تحفظه المرأة بل هو في طليعة ذلك ما كان من أسرار الزوجية، فلا يصح أن تذكره في المجالس وتجعله مادة لسمرها مع صويحباتها، وكذلك يجب على الرجل ما يجب على المرأة في هذا المضمار من كتمان للسر وحفظ للحاجات والمتع الزوجية، فقد ورد عن الرسول ﷺ عن أبي هريرة قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ فلما سلم أقبل علينا بوجهه، فقال: مجالسكم. هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق بابه، وأرخى ستره، ثم يخرج، فيحدث، فيقول: فعلت بأهلي كذا، وفعلت

كذا؟» فسكتوا، فأقبل على النساء، فقال: منكن من تحدث؟ فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ، ويسمع كلامها فقالت: أي والله إنهم يتحدثون، وإنهن يتحدثن، فقال عليه السلام: «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة، فقضى حاجته منها، والناس ينظرون إليه»

وفي هذا التشبيه ما فيه من تحقير وازدراء لهذه العادة الخسيسة والحماقة الوضيعة.

● **المعاشرة الزوجية**

عقد الزواج عهد وثيق ربط بين قلب الرجل وقلب المرأة، وبذلك أصبح كل فرد منهما أليفا للآخر، ويسمى زوجا بعدما كان فردا، لأن كل واحد من الرجل والمرأة يمثل أليفه وخليله، ويحمل بين ضلوعه وحناياه آماله وآلامه.

وقد صور القرآن الكريم قوة هذا الرباط بين الزوجين وعظمته فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) وهو تعبير بليغ معجز يكشف عن مقدار الاندماج والستر والحماية والطهر والجمال الذي يحقق كل منهما لصاحبه، ومن أجل ذلك كان على كل من الزوجين حقوق وواجبات للآخر ينبغي تحقيقها والنزول عند رغباتها وأهدافها كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨) وقد سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: ما حق زوجة أحدنا عليه قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا كسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر في المبيت». فلا يجوز للزوج المسلم أن يترك زوجته بلا نفقة وبلا كسوة ولا مسكن، وفي الحديث: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»، ولا يجوز أن يضرب وجه زوجته لما فيه من إهانة واحتقار ومذلة للإنسان مع ما في ذلك من خطر جسيم على أجمل عضو في الإنسان، فالوجه هو جماع محاسن الجسم البشري وفيه حواس الذوق والشم والبصر.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية أجازت للمسلم عند الضرورة أن يؤدب زوجته

الناشزة المتمردة الخارجة على بيت الزوجية وعش الحياة فهي لم تبح له مع هذه الضرورات ضربها ضربا مبرحا مؤلما يصيب وجهها أو مقاتلها، وكذلك لا يجوز للمسلم أن يهين زوجته بأن يؤذيها بلسانه، ويسمعها مر الكلام كأن يقول لها قبحك الله، وما شابه ذلك أو شاكله من الكلمات الجارحات المؤذيات.

وللزوج كذلك على المرأة حقوق، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن لأحد في الدخول إلى بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج منه وهو كاره، ولا تطيع فيه أحدا، ولا تعتزل فراشه، ولا تضربه إذا كانت أقوى منه جسدا، وبذلك تسعد في حياتها، ويرضى عنها ربها، وتكون لها الدرجات العلى.

● **سياسة البيت**

وعلى المسلم أن يصبر على زوجته إذا رأى منها ما يكره من تصرفاتها العاطفية، فالمرأة سريعة الغضب سريعة الانفعال سريعة الرضى، ويجب أن يذكر حسناتها وما تقوم فيه من الخدمة المنزلية وتربية الأبناء وإدخال السرور على الجميع في حالات الرضى، وفي الحديث «لا يفرك (لا يبغض) مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقا رضي منها غيره».

وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء: ١٩) وكذلك أوجب الإسلام على المرأة أن تسترضي زوجها، وتدخل عليه السرور والسعادة، وتكون معه في أزمات الحياة، وحذرها من أن تدع زوجها يبيت وهو غاضب عليها، وفي الحديث: ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا رجل أم قوما وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصادمان (متخاصمان).

وطالما أن الرجل سيد البيت وقطب الرحى وهو محور لسعادة الأسرة ونقطة ارتكازها فعلى المرأة أن تطيعه أولا، فإن تمردت، وعصت، وخرجت عن طاعته فسدت الشراكة، واضطربت سفينة المنزل وقد تغرق طالما تسير بدون ربان وبدون قيادة.

وإذا لاحظ الزوج على زوجته آثار النشوز ومظاهر العصيان والتعالي، فعليه

أن يحاول إصلاحها بما يقدر وبما يستطيع من صبر وأناة وكلمات طيبات ومعاملة رقيقة فإن لم تنجح هذه المعاملة في إصلاحها هجرها في المضجع فإن لم تفد هذه التجربة القاسية عمد إلى تأديبها بالضرب غير المبرح، وهو علاج قد يجدي أحيانا في بعض النساء ضعيفات المعرفة والعقل، ومع هذا الذي أباحه الإسلام فنجد أن الضرب غير مرغوب فيه فهو الضرورة القاسية والعلاج الأخير الذي لا يعمد إليه إلا بعد أن تعجزه الحيلة، وينفد الصبر ولات مناص، فقد نفر الرسول من الضرب فقال: يضرب أحدكم امرأته ضرب العبد ولعله أن يجامعها آخر اليوم فإن لم تنفع جميع هذه الوسائل فعلى المجتمع الإسلامي أن يتدخل وعلى أهل الرأي والخير الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أن يتدخلوا للإصلاح فيبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها لعل الله يوفق بينهما.

وفي هذا كله قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ (النساء: ٣٤ -٣٥).

* * *

الزواج وآثاره في حياة الفرد والجماعة

العدد (٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير ١٩٦٨م)

إذا ألقينا نظرة فاحصة على واقعنا الاجتماعي، وجدنا أن الفتنة قد ذرت قرونها في كل ناحية من نواحي حياتنا الاجتماعية، منذرة بأفدح الأخطار وأوخم العواقب، ووجدنا أن مظاهر الفساد والانحلال آخذة بالازدياد والانتشار بترويج المروجين من دعاة الفتنة والضلال الذين لا يتقون الله ولا يبالون بغير شهواتهم وغرائزهم وأنانيتهم الدنيئة، غير عابئين ولا مكترثين بما يجرونه على مجتمعهم من مفاسد وشرور وفضائح وخراب.

ومن الصعب أن نتلمس في هذا المقال جميع مظاهر الفساد وأسبابه في حياتنا الاجتماعية، ولذا سأقصر الحديث على أهم جانب من جوانب حياتنا الاجتماعية، والذي تكمن فيه أسباب كثيرة من المشاكل والمفاسد، كما تكمن بنفس الوقت طريقة العلاج والحلول السليمة. . هذا الجانب هو الجانب الذي يتعلق بالحياة الزوجية وبناء الأسر، وما ينتج عنه من آثار في حياة الفرد والجماعة.

فالزواج من الناحية الاجتماعية واجب تدفع إليه غريزة حب الاجتماع وغريزة البقاء والحفاظ على الجنس البشري، وهو السبيل الطبيعي المشروع لقيام الصلة بين الرجل والمرأة، هذه الصلة التي تعتبر من أقوى الدعائم الاجتماعية، والتي تنشأ بسببها أمتن الروابط والصلاة بين أفراد المجتمع.

والزواج من الناحية الشخصية سبيل للسكن النفسي والاطمئنان الروحي والعاطفي وطهارة للقلب والنفس، وحماية للمروءات ووقاية من الانحراف والانزلاق إلى المحرمات، كما هو سبيل لتنمية المودة والألفة والرحمة وجميع معاني الخير بين الجنسين.

ولما كان للزواج كل هذه الأهمية من الناحيتين الاجتماعية والفردية، فقد رسم الله سبحانه وتعالى له منهجا واضحا مفصلا، وحدَّ له حدودا ووضع له قواعد وأصولا وأوجب فيه التزامات على الطرفين وحذر من التهاون فيها، وأنذر العابثين بقواعده، وحدوده أشد العقاب للحفاظ على قدسيته وضمان أداء وظيفته على خير وجه، فالزواج عهد ميثاق قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ (النساء: ٢١) وفي ذلك إشارة إلى أن النساء أخذن من الرجال ميثاقا عظيما وهو ميثاق الزواج، وعهد الإخلاص والوفاء يلتزم كل من الطرفين، ويؤدي كل طرف منهما ما يجب عليه نحو الآخر من المعاشرة بالمعروف على أساس المشاركة الفعلية بينهما، فلا غنى لأحدهما عن الآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وأي ميثاق وأي عهد أعظم من العهد الذي أخذه الله على الرجال للنساء عندما يوثق هذا الميثاق بقول «والله على ما نقول وكيل».. وقد جعل الله تعالى الزواج من آياته العظيمة فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء: ١) فلا غرابة بعد ذلك أن نعرف حرص الإسلام على سلامة الحياة الزوجية وترغيبه بالزواج والحض عليه، إن الزواج سبيل لإعفاف وصيانة الرجال والنساء من حياة الفوضى والعبث والرذيلة، وخلاص من القلق والاضطراب وسبيل للاستقرار النفسي والاجتماعي.

ولكن الزواج قد يكون أو قد يصبح من أهم أسباب الفساد والفوضى الاجتماعية وعدم الاستقرار وخلق كثير من المشاكل الاجتماعية والخلقية والمفاسد الخطيرة، وذلك عندما يساء استعماله، إما عن جهل أو عن سوء نية.. فالرجل الذي يرى الزواج وسيلة لمتعة الجسد وقضاء الشهوة فقط دون اعتبار للمعاني الروحية والعاطفية والنفسية والاجتماعية والخلقية الكريمة يسيء إلى هذا النظام الكريم بإساءة استعماله، فالذي يتخذ الزواج ستارا لمآرب شيطانية فيقدم

على الزواج ممن يشتهيها قلبه، وهو يضمر في نفسه نية التوقيت والعزم على الطلاق بعد أن ينال غايته الدنيئة، فحكمه حكم الزاني بل إن عمله هذا لهو أشد من الزنا فظاعة وخبثا وسوء عاقبة لأنه يكون قد غرر بفتاة بريئة خدعها بعقد الزواج ثم رمى بها بعد أن ملت نفسه منها، وتاقت لأخرى دون حساب لمصير هذه الفتاة ومستقبلها وسمعتها، وسواء كان المقدم على الزواج قد أسر في نفسه العزم على الطلاق بعد مدة معينة أم لم ينو ذلك، فإن التسرع بالطلاق واللجوء إليه لأتفه الأسباب يعتبر إخلالا بالميثاق الذي قطعه على نفسه بالوفاء والصدق والإخلاص وعبثا بنظام الزواج فالطلاق أبغض الحلال إلى الله ولا يجوز اللجوء اليه إلا عند الضرورة القصوى، وعند تعذر أو عدم جدوى وسائل التفاهم وطرق التوفيق وإزالة الخلاف. . فكم من أسرة تهدمت بتسرع الرجل بإيقاع الطلاق على زوجته لأتفه الأسباب دون تقوى من الله أو حساب للنتائج الخطيرة التي تترتب على الطلاق في حال الفرد والأسرة والمجتمع والأخلاق. . فالطلاق إنما شرعه الله للناس ليكون الحل المناسب عندما لا يوجد حل سواه، ولكن بعض الناس يسيئون استعمال هذا الحق فيستعملونه بغير حق إضرارا بالآخرين أو تحقيقا لشهوات حيوانية لا تعرف القناعة ولا المروءة، فالرجل الشهواني الذي لا هم له إلا التنقل من امرأة إلى أخرى يسيء إلى نفسه بتحطيم قواه وماله، ويسيء إلى المجتمع الذي يعيش فيه ويفسد على كثير من الأسر نظام حياتهم، وأي إنسان هذا المزواج المطلاق الذي لا تصفو عشيرته ولا يأمنه صاحب ولا يحفظ عهدا ولا ميثاقا.

وإن الإسلام الذي أباح الطلاق للضرورة أباح التعدد للضرورة كذلك، وكم من الرجال وخاصة ممن أعطاهم الله بسطة في الجسم والمال يسيئون استعمال التعدد، فيتخذونه وسيلة لأهوائهم دون مراعاة لنظام التعدد من شرط العدل وحسن المعاملة، فالظلم والطغيان والاعتداء على حقوق الغير حرام، وغير جائز وقوعه على أبعد الناس، فكيف يصح أن تعامل به الزوجة وهي أقرب الناس إلى الرجل وفي الحديث الشريف «من كان له زوجتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة

وشقه ساقط» فتعدد الزوجات إنما أباحه الله لغايات اجتماعية وأخلاقية سامية وقيده بقيود كفيلة بتحقيق المنافع الشخصية والاجتماعية الذي أبيح لأجلها، فالتعدد مثلا هو الحل الوحيد المناسب عند وقوع الحروب الطاحنة والكوارث التي تقضي على كثير من الرجال، بحيث لو كان التعدد ممنوعا لأدى إلى حرمان كثير من النساء من الزواج والمعيل لعدم كفاية الرجال في مثل هذه الحالات، كما أن هناك حالات عديدة تستوجب التعدد وتجعل اللجوء إليه أفضل الحلول، وسبيلا للحيلولة دون حدوث كثير من المآسي والجرائم والحوادث الأخلاقية المؤسفة، وهذه أوروبا بعد الحربين العالميتين خير شاهد على ما حصل من فجور وفوضى أخلاقية لنقص الرجال وبقاء كثير من النساء بلا أزواج عرضة للرذائل وحبائل الشيطان . . وإذا ظهرت بعض النتائج السيئة لنظام التعدد في مجتمعنا، فهذه النتائج ليست من مساوئ النظام بل هي مساوئ الذين انحرفوا عن النظام، والذين أساءوا فهم واستعمال هذا الحق، فظلموه وقد أمروا بالعدل وجاروا وقد أمروا بالإنصاف وحسن المعاملة، وفي مثل هذه الحالات يكون العيب من الناس المنحرفين لا من نظام التعدد نفسه. . فقد ورد أنه يأتي على الناس زمان يكون للخمسين القيم الواحد من الرجال، فما هو الحل غير التعدد في مثل هذه الحالة؟

وبعد هذا الاستعراض نخلص إلى القول إن إساءة استعمال حق الزواج والطلاق والتعدد والانحراف عن المنهج الذي رسمه الله تعالى للناس في أمور الزواج والطلاق والتعدد، هو السبب في حدوث كثير من المفاسد الأخلاقية والاجتماعية وإن الدواء الوحيد هو العودة إلى الدين الحق إلى المنهج الرباني الذي شرعه لعباده، فيا أيها المسلمون رجوعا إلى كتاب الله وسنة نبيه الكريم ﷺ، ورجوعا إلى دين الإسلام، دين الرحمة والخير والبر، دين العدالة والحرية والكرامة دين العقل والسلامة للبشرية دين المدنية الفاضلة الكريمة، فالإسلام مصباح الحياة وكوكب السعادة ومبعث الاطمئنان والاستقرار للبشرية، فبالإسلام نسعد ونبني حياتنا على أمتن القواعد وأفضل الأسس، وبالإسلام تستقر حياتنا وتستقيم أمورنا، ونحفظ أسرنا وأعراضنا وكرامتنا ومروءتنا، وبالإسلام نزدهر

ونتقدم ونحقق الخير لأنفسنا ولمجتمعنا وللبشرية جمعاء، فالإسلام - والإسلام وحده - دستور للحياة الكريمة المستقرة السعيدة.

فاللهم ردنا والمسلمين جميعا إلى دينك ردا جميلا حميدا والحمد لله رب العالمين.

* * *

٤ مقالات

الأستاذ
أحمد حسن الزيات

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- الإسلام والمبادئ المثالية.

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

٢- من تراثنا الأدبي.

العدد (١٤٤) ذو الحجة (١٣٩٦هـ) - ديسمبر (١٩٧٦م)

ترجمة الكاتب

أحمد حسن الزيات

ولد الشيخ أحمد حسن الزيات بقرية كفر دميرة القديم، في طلخا بجمهورية مصر العربية سنة ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٥م، وهو: صاحب «الرسالة» أديب من كبار الكتّاب.

دخل الأزهر قبل الثالثة عشرة من عمره، وفصل قبل إتمام دراسته. وعمل في التدريس الأهلي، فعلَّم العربية في مدرسة (الفرير) نحو سبع سنوات، وتعلم مدة في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة.

دَرس الأدب العربي في المدرسة الأميركية بالقاهرة (١٩٢٢) ثم في دار المعلمين ببغداد (١٩٢٩) وأقام ثلاث سنوات صنف فيها كتابه «العراق كما عرفته» واحترق الكتاب قبل نشره.

عاد إلى القاهرة، فأصدر مجلة «الرسالة» سنة (١٩٣٣م -١٣٥٣هـ) ثم إلى جانبها «الرواية» وأغلقهما. وانتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وعين في المجلس الأعلى للآداب والفنون. وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

نال جائزة الدولة التقديرية (سنة٦٢) ثم أعاد الرسالة سنة (٦٣) فلم تكن لها مكانتها الأولى، فاحتجبت وانقطع إلى تحرير «مجلة الأزهر» سنة ١٣٧٢- ٧٤ هـ،

وله عدة مؤلفات منها: (كتاب تاريخ الأدب العربي، ثم كتاب دفاع عن البلاغة، أصول الأدب، في ضوء الرسالة)

وكان من أرق الناس طبعا، ومن أنصع كتّاب العربية ديباجة وأسلوباً. وللسيد جمال الدين الألوسي كتاب «أدب الزيات في العراق».

وفاته: وتوفي بالقاهرة. وحمل إلى قريته فدفن فيها سنة ١٣٨٨هـ الموافق ١٩٦٨م، رحمه الله رحمة واسعة.

المبادىء المثالية التي تضمنتها دعوة الإسلام

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

عبقرية الإسلام هي ذلك الإشراق الذي انبثق من غار حراء، فكشف للرسول صلوات الله وسلامه عليه - عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب، فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان، وتنظيم العمران، وتعميم الخير، وتحقيق السعادة من طريق التوحيد والمؤاخاة، والمساواة والحرية والسلام.

فالتوحيد سبيل القوة، والمؤاخاه سبيل التعاون، والحرية سبيل الكرامة، والسلام سبيل الرخاء، وتلك هي الغايات التي ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية، فلا تنكشف أمانيها بعد طول السرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خلب، وسراب خادع.

هذه المبادىء المثالية التي تضمنتها دعوة الإسلام، معلومة من القرآن بالنصوص الصريحه، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف.

فالتوحيد ركن من أركان الدين وعنوان من عناوينه، وهو من الكلم الجوامع التي وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة، وهو توحيد الله، وتوحيد العقيدة، وتوحيد الغاية، وتوحيد اللغة، وتوحيد الحكم، وتوحيد التشريع، وتوحيد الدين والدنيا، وشواهد التوحيد مذكورة فى كتاب الله لا يختلف فى مدلولها أحد.

وفكرة الوحدة الإنسانية هي مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة، وفي سبيلها صدق الإسلام بكل دين أنزل، وبكل نبي أرسل ودعا الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعا إلى خطة واحدة وكلمة سواء، ثم وصل الدين بالدنيا، وكانت اليهودية والنصرانية تفصلان بينهما، فالأولى كان همها الصفق والاجتراح،

والأخرى كان سبيلها الرهبانيه والتنسك، ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد، فلا تعمل إلا بوحيه، ولا تسير إلا بهديه، ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لأواء العيش، فلا يبغي قوي، ولا يبخل غني، ولا يظلم متسلط.

بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، ثم توثقت عرى الإخاء بين المجاهدين في سبيل الله حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وأصبح هؤلاء القلال الضعاف في بضع سنين أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر.

كذلك فى سبيل الوحدة الإسلاميه والأخوة الإسلامية، فرض الإسلام الزكاة وشرع الحج، وأمر بالإحسان والبر، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات بمحو العصبية الوطنية، وقتل النعرة الجنسية، وجعل التقديم والتكريم للتقوى، فقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لادم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح، لأنهم أتباع محمد، ومحمد وحده هو الذي أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله، والله وحده هو الذي ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة.. أرسله رحمة للذين استضعفوا في الأرض لقلة المال كالمساكين، أو لفقد العشير كالموالي، أو لضعف النصير كالأرقاء، أو لطبيعة الخلقه كالنساء، فكفل الرزق للفقير بالزكاة، وضمن العز للذليل بالعدل، ويسر الحرية للرقيق بالعتق، وأعطى الحق للمرأه بالمساواة.

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالته ممن لم يكونوا من جنس مبين، ولا من وطن معين، إنما كانوا أمة من أشتات الخلق، وأنحاء الأرض، اجتمع فيها العربي والفارسي، والرومي والتركي، والهندي والصيني، والبربري والحبشي - على شرع واحد هو الإسلام، وتحت تاج واحد هو الخلافة، والإسلام الذي

يقول شارعه العظيم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠) لم يخص بالتكريم لون دون لوناً، ولا طبقة دون طبقة، إنما ربا ببني آدم جميعا أن يسجدوا لحجر أوشجر أو حيوان، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان.

وفي هذه الأصول الإسلاميه - كما ترى - أفضل ما بالديمقراطية، وأجمل ما بالمدنية، فهي حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا. ولقد كانت كذلك يوم كان لحملتها دولة، ولدعاتها صوت، ولمعتنقيها يقين، فلما دالت الدولة وخضع الصوت، وأراب اليقين، تمزق المسلمون قطعانا في فدافد الأرض، لا مرعى يجود، ولا حظيرة تؤوي، ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام في رأي السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل، فصموا عن دعائه، وعموا عن ضيائه، فليت شعري متى يتاح لدعوة محمد من يجدد حبلها وينشر فضلها، ويقول لأولئك الذين يحاولون أن يرفعوا قواعد العالم على أساس جديد ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦).

من تراثنا الأدبي

العدد (١٤٤) ذو الحجة (١٣٩٦هـ) ديسمبر (١٩٧٦م).

على رأس الكتاب المبرزين في عالم الأدب والبيان، الكاتب الكبير المرحوم أحمد حسن الزيات. صاحب مجلة «الرسالة» التي كانت تصدر في القاهرة أسبوعيا، وكان لها أكبر الأثر في نشر الوعي الأدبي والثقافي في العالم العربي والإسلامي.

وقد جمعت مقالات الأستاذ الزيات في كتاب مستقل (من وحي الرسالة) وقد جاء فيه المقال التالي:

وعدتك يا خالد أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيه ما يبرد غيظك ويبرد حلمك ويقر بالك وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحادث على سرده:

دخل علي هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز فلم يسعني حين رأيت ما عليه من سمت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما في يدي وأتفرغ له.

نعم يا سيدي-!

أنا رجل من أهل.. قرأت ما كتب في «الرسالة» عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية في الإنسان فساءني -وأيم الله- أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادي، وأن تعترك الظنون حتى يشك المؤمن وأليس لي قلم أضعه بين هذه الأقلام فيدلها على موضع الحق أو يعينها على مقطع الحكم فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالا حيا يقرر ودليلا ناطقا يؤيد.

وفي الحق أن الرجل كان في بزته العربية المهندمة ولهجته الطبيعية المتزنة كأنما ينطق عن وحي الفضيلة العليا فقلت له: أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله في هذا العصر الآلي الأصم؟

فقال: لا أظن وإنما أعتقد، لا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق وأن الخير صعب المرتقى وفي قول الرسول الكريم: «حفت الجنة بالمكاره».

و«القابض على دينه كالقابض على الجمر» ما يصدق ذلك ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة فإذا أوقف غرسها في النشء وضعف أثرها في المجتمع دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة.

وقد جمعت مالي الوفر من ذلك الطريق السوي الذي ألزمني إياه أبي منذ الصغر فليس في نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب. ورثت عن أبي الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا والخلق الصريح على أنه جوهر الدين ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت واقتنيت العمائر والضياع فأثريت وأديت الصلاة فوصلت ما بيني وبين الله وآتيت الزكاة فأصلحت ما بيني وبين الناس ثم أحصنت نفسي بالزواج الباكر فوهبت البنين وعصمت شهوتي من المتع الحرام فرزقت العافية وطهرت قلبي من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيت السكينة ثم جهلت البنك فجعلت الربا والدين وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ووضعت فضل مالي في أيدي ذوي الخلق من التجار يحفظونه لي ويستثمرونه لهم وجعلت أرضي في ذوي الدين من الزراع يريعونها علي ويستغلونها عليهم وسست بالمؤاساة والرحمة قلوب البائسين حولي فسللت منهم الضغينة ثم كان لي في كل مبرة سهم وفي كل مستشفى سرير وفي كل مشروع وطني يد. فأنا أمشي في الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب لا تمتد يد إلى مالي لأنه مبذول للسائل والمحروم، ولا ينبسط لسان في عرضي لأن جاهي موقوف على المتعطل والمظلوم، ولا يأتمر أحد بحياتي لأن وجودي أمان للشقي من البؤس والجريمة، أما سعادتي في نفسي وولدي فهي أعظم وأتم من سعادتي في عملي ومالي، أجدني كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة ومصدر العزاء لطائفة من القلوب

الكسيرة وأرى في كل نظرة وفي كل بسمة وكل كلمة معاني لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر فتعظم سعادتي في نفسي وتجمل دنياي في عيني ويغمرني شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع لأن حياتي لها هذا الخطر في حياة بعض الناس. ثم أنظر إلى بني الثمانية فأرى في وجودهم صورتي وفي صدورهم محبتي وفي شعورهم عاطفتي وفي ميولهم رضاي وفي آمالهم مناي فأقبل يدي ظاهرا وباطنا وأقول لنفسي: احمدي الله يا نفسي واشكريه فإن عليا لن يموت، وإن ثراءه لن يبيد، وإن بناءه لن يتقوض!

ذلك كله يا سيدي بفضل الخالق فإذا كان قد تهيأ لمثلي على جهلة بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض من رزق حكومة وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق في أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة في بنيه بالتربية وفي أهله بالقدوة وفي مواطنيه بالتقليد فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا في كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم!

فقلت له وقد أعجبني عقله وأمتعني حديثه: يا سيدي إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم وأنك رجل عزيمة لا رجل رأي فلو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظلت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع في المطابع حينا ثم تموت في الكتب.

لايزال المربون يا سيدي يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة في حقولهم الخاصة، فليت شعري وشعرك أيتاح لهؤلاء في دهر من الدهور أن يفيضوا على أعته الأمم ويتولوا القيادة في ركب الحياة؟ ادع الله للناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك؟

قال صاحبي الثائر خالد وقد شبا وجهه بشيء من الإيمان والاطمئنان: وهل نستطيع أن نعد كثيرا من الناس على غرار هذا الرجل؟ فقلت له يا صاحبي ليست المسألة مسألة إحصاء وعد، وإنما هي مسألة إمكان وواقع. ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال، فلم لا تستطيع أن تصنع على غراره ملايين الرجال؟

* * *

٥ مقالات

د. عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الأزهر سابقا

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١-الإسلام ومقومات الحضارة.

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) يونيو (١٩٦٥م).

٢- الرسول ﷺ وسنته الشريفة.

العدد (٢٣) ذو القعدة (١٣٨٦هـ)، فبراير (١٩٦٧م).

٣- الإسراء والمعراج.

العدد (٦٧) رجب (١٣٩٠ هـ) سبتمبر (١٩٧٠م).

٤- اقرأ باسم ربك.

العدد (٦٩) رمضان ١٣٩٠هـ - نوفمبر ١٩٧٠م).

٥- الوحدة الإسلامية.

العدد: (١٠٨) ذوالحجة (١٣٩٣هـ) ديسمبر (١٩٧٣م).

ترجمة الدكتور
عبد الحليم محمود

● **مولده:**

ولد في ٢ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ الموافق ١٢ مايو ١٩١٠م، بقرية أبوأحمد مركز بلبيس بمحافظة الشرقية. نشأ في أسرة كريمة مشهورة بالصلاح والتقوى.

التحق بالأزهر سنة ١٩٢٣م حصل على العالمية سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م ثم سافر إلى فرنسا حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، ثم عمل مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية بكليات الأزهر ثم عميدا لكلية أصول الدين، وعضوا ثم أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فنهض به وأعاد تنظيمه، عُين وكيلا للأزهر سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م فوزيرا للأوقاف وشيخا للأزهر.

له أكثر من ٦٠ مؤلفا في شتى المجالات، بعضها بالفرنسية، من أشهر كتبه: أوروبا والإسلام، والتوحيد الخالص أو الإسلام والعقل، وأسرار العبادات في الإسلام، والتفكير الفلسفي في الإسلام، والقرآن والنبي.

● **وفاته:**

توفي الشيخ في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (١٥ ذو القعدة ١٣٩٧هـ - ١٧أكتوبر ١٩٧٨م) تاركا ذكرى طيبة ونموذجا لما يجب أن يكون عليه شيخ الأزهر.

الإسلام ومقومات الحضارة

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) يونيو (١٩٦٥م)

إن الحضارة السليمة هي الحضارة التي استكملت جميع مقوماتها، ولا خلاف بين ذوي الآراء المستنيرة في أن مقومات الحضارة الأساسية إنما ترجع إلى أربعة: العلم، ومما لا شك فيه أنه لا يتأتى أن تقوم حضارة من دون علم. والعلم إذن هو الأساس الأول الذي تبنى عليه الحضارات، بل إنه قد تقوم حضارة ما على العلم وحده، فيكون العلم هو المقوم الوحيد لهذه الحضارة، ولكنها تكون حضارة ناقصة، بل تكون حضارة بتراء.

والمقوم الثاني للحضارة الذي لا تقل أهميته عن أهمية العلم، والذي إذا وزنا الأمور بمقاييس الروح وقسناها بموازين إسعاد الإنسانية، يفضل العلم المادي، هو الجانب العقدي.

والعقيدة إذن هي المقوم الثاني للحضارة، فإذا ما انتفت العقيدة، وزالت فقامت الحضارة على العلم وحده، فإن الإنسانية تشقى بها شقاء لا يعوضه ما تجد من ترف مادي يكفله لها العلم المادي.

بيد أن العقيدة إذا ما أصبحت شكلا ورسمًا، أو صورة وهيكلا، فإنها لا تفيد كثيرا في أن تسم الحضارة بسمة الروح الحقة، أو تطبعها بطابع الإنسانية الكريمة.

ولابد إذن من الجانب الثالث وهو الأخلاق، وما من شك في أن الأخلاق من دون عقيدة، لا تقوم لها قائمة، وإنما تكون سفسطة، لا غناء فيها، أو فلسفة جدلية، لا تنبع من القلب، ولا تثبت أمام تيارات الأهواء.

إن الرحمة والإخاء، وإن المودة والتعاون، وإن الشجاعة والكرم، وإن

الفضيلة على وجه العموم، وإن الخير في صوره المتعددة، إن كل ذلك لا يكون وليد دراسات فلسفية ولا نتاج جدل كلامي.

والأخلاق التي تكون مقومة للحضارة إذن، مؤثرة على القلب، غامرة للكيان الإنساني، إنما هي الأخلاق الدينية، فإذا ما انفصلت الأخلاق عن الدين، فإنها لا تساوي، في موازين الرحمة والأخوة، أو بتعبير أدق في عالم القلوب والأرواح، قلامة ظفر.

إن الإنسان لا يخضع في سلوكه الأخلاقي للفلسفة، وهي متعارضة مختلفة، وهي تذهب في الشرح والتعليل والتوجيه كل مذهب، وهي تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس، وتنقض غدًا ما أبرمته اليوم.

إن الفلسفة - هكذا وجدت، ونمت وتطورت، واستمرت - متأرجحة، لا دوام لها على رأي، ولا استقرار لها على حال.

وإذا كانت العقيدة التي نعنيها ويعنيها المصلحون، كمقوم للحضارة، إنما هي عقيدة من وحي السماء، فإن الأخلاق التي نعنيها والتي يعنيها المصلحون المخلصون إنما هي من وحي السماء.

أما المقوم الرابع، فإنه التشريع العادل، والتشريع العادل، هو التشريع الذي يلم واضعه بظروف الإنسان وطبيعته وفطرته إلمامًا كاملا، فيصدر التشريع على علم تام، ولا يتأتى ذلك لبني البشر، وتشريع بني البشر- حسبما شاهد المشاهدون- لا يقود الناس للخضوع له عن طواعية واختيار، بل يقودها للطاعة رهبة القانون، وهي كلما آنست من نفسها استطاعة الفرار من طائلة القانون أخلت به، وكلما آنست من نفسها المقدرة على هدم أسوار القانون هدمته.

ولابد إذن من تشريع تنقاد له الإنسانية طواعية واختيارًا وهو التشريع الإلهي.

العلم، والعقيدة، والأخلاق، والتشريع.. تلك هي مقومات الحضارة السليمة، وكل حضارة لا تتوفر فيها هذه المقومات، فإنما هي حضارة ناقصة بمقدار نقص مقوماتها.

فلننظر الآن في الإسلام في ذاته، وفي الإسلام من خلال التاريخ حتى نتبين

مدى تضمنه لهذه المقومات، ومدى تحقيقه لها على مر الزمن، مقارنين كل ذلك بالحضارة الحديثة.

ونبدأ بالعلم، ولا ريب في أن الحضارة الحديثة، بدأت في قوة جارفة بمنهجين في العلم يختلفان ويتعارضان ويتنازعان، أحدهما المنهج الحسي التجريبي، أو المنهج البيكوني، والثاني المنهج العقلي البدهي، أو المنهج الديكارتي أو المنهج الحدسي حينما نفسر الحدس كما فسره المناطقة بأنه انتقال الذهن إلى المطلوب بسرعة.

وكل من المنهجين نشأ معارضا لمنهج القياس الأرسطي، وكل منهما يرى أن القياس الأرسطي إنما يعنى بالصورة والشكل، ولا شأن له بالحقيقة والجوهر، بل ولا شأن له بالواقع والتطبيق، ومن أجل ذلك سمي بالمنطق الصوري: أي منطق الصورة لا الجوهر.

والمنهج البيكوني هو منهج علمي، أما المنهج الديكارتي فإنه منهج فلسفي.

وسنتحدث عن منهج ديكارت، إن شاء الله، حينما نتحدث في مقال تالٍ عن العقيدة. أما الآن فسنقصر الحديث على المنهج التجريبي.

إنه منهج الاستقراء أي تتبع الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن أن يخضع للتجربة، وعن طريق الملاحظة فيما لا يتأتى أن يخضع للتجربة للوصول إلى الحكم عليه في صورة من صورها حكما كليا أو - بعبارة أخرى - للوصول إلى اكتشاف القوانين العامة، أو للوصول إلى معرفة نواميس الكون.

ومجال الاستقراء إنما هو الطبيعة، لأنه ملاحظة جزئيات في عالم الطبيعة، وأداته الحس، فهو ملاحظة محسوسات.

وعلى أساس من هذا المنهج قامت الحضارة الأوروبية الحديثة بكل ما فيها من صناعة في الطبيعة ومن اكتشافات في الكيمياء، ومن قوانين فلكية، ومن اختراعات في جميع المجالات المادية والحسية.

وعلى أساس من هذا المنهج أيضا ستتطور هذه الحضارة وترقى وتتسع كمًّا وكيفًا إلى ما شاء الله.

وهذا المنهج في المشهور المتعارف يدين في وجوده إلى فرنسيس بيكون، ولكنه عند الدارسين لتاريخ الفكر الأوروبي يدين لروجر بيكون، أكثر مما يدين لغيره، والملاحظون الدارسون للعلوم يرون أن روجر بيكون كان أدق وأعمق في بيان المنهج وفي تطبيقه.

بيد أن روجر بيكون - على خلاف مواطنيه - يعترف في صراحة لا لبس فيها، وفي وضوح لا شائبة فيه، أنه مدين في منهجه للعرب وللحضارة العربية.

وهذه الحقيقة التي حاول الغربيون جاهدين أن ينكروها ويخفوها فيما مضى، يعلنها الآن بعض المنصفين منهم، فها هو ذا الأستاذ بريفولت يتحدث في كتابه: «بناء الإنسانية» عن أصول الحضارة الغربية فيقول: إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العربي، والعلوم العربية، في مدرسة أكسفورد، على خلفاء معلميه العرب في الأندلس.

وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يملّ قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة.

والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية.

وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوروبا.

ويقول بريفولت أيضا: «لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج».

إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام.

ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، بل إن مؤثرات

أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية[١].

أخذت أوروبا المنهج العلمي المادي عن الإسلام باعتراف واضع هذا المنهج نفسه، وباعتراف المنصفين من المؤرخين، وليس بعد اعتراف واضع المنهج نفسه مقالا لقائل.

ومع ذلك، فإن المنهج الإسلامي أكمل وأتم وأشمل، وقد أخذته أوروبا ناقصا. وفي المقال التالي، إن شاء الله، سنتحدث عن موقف الإسلام من العلم وعن المنهج العلمي في الحضارة الإسلامية في عمومه وشموله.

وبالله التوفيق

(١) انظر كتاب «التجديد الديني في الإسلام» للدكتور إقبال، ترجمة الاستاذ عباس محمود .

الرسول ﷺ وسنته الشريفة

العدد (٢٣) ذوالقعدة (١٣٨٦هـ) فبراير (١٩٦٧م)

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ: ٢٨).

وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله، فموسى عليه السلام أرسل لبني إسرائيل خاصة، فاقتصرت دعوته عليهم لدرجة أنه حينما ذهب هو وهارون، عليهما السلام، إلى فرعون قال له ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ (طه: ٤٧)، فموسى ذهب إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل، ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب، أو الأمم في سبيل دعوته.

وعيسى عليه السلام إنما أرسل إلى «خراف بني إسرائيل الضالة» على حد تعبيرهم القديم، ولم يحاول سيدنا عسيى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين، ويجاهد من أجلها.

أما رسول الله ﷺ فإنه أرسل إلى الناس جميعا.

أرسل إلى الناس جميعا من حيث المكان، وأرسل إليهم جميعا من حيث الزمان، فهو الرسول الدائم، زمانا ومكانا، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأعراف: ١٥٨) ولقد امتزج رسول الله ﷺ برسالته الخالدة، فكان هو هي، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «لقد كان خلقه القرآن».

وهذه الكلمة من السيدة عائشة، رضوان الله عليها، تحتاج إلى تحديد وبيان، ذلك أن الأخلاق القرآنية تحدد الخلق الكريم في حده الأدنى، ثم لا تقتصر على ذلك وإنما ترسم القمم من مكارم الأخلاق، وتوجه إلى السنام منها، وتقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين.

والقرآن يحدد الدرجة التي وصل إليها الرسول من الخلق القرآني، فيقول سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم: ٤).

وهذه الآية القرآنية تحدد درجة الأخلاق القرآنية التي وصل إليها الرسول ﷺ، إنها ذروتها وسنامها، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

إنه ﷺ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية، ليتممها بذاته، بسلوكه، وليتممها بقوله، برسالته، إنه لم يبعث ليبشر بالأخلاق وحسب، وإنما ليتمم مكارمها. ومكارم الأخلاق لا يحدها- من حيث التبشير بها - مكان، ولا يحدها زمان، بل ولا يحدها عالم من عوالم الله في الأرض أو السماء، ومن أجل ذلك كانت رسالته صلوات الله عليه وسلامه رحمة للعالمين، كما يقول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ورسول الله ﷺ، لأنه يمثل الأخلاق القرآنية في ذروتها وسنامها، جعل الله، سبحانه وتعالى، له مكانة خاصة بين المسلمين، فهو صلوات الله وسلامه - لأنه تمثل القرآن وحققه- أصبح بذلك يمثل الحق بقوله، ويمثل الحق بعمله، فلا ينطق عن الهوى ولا يعمل بالهوى.

ويقول الله تعالى له معبرا عن هذه الحقيقة أروع تعبير:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (الشورى: ٥٢-٥٣)، ويقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ (الأنعام: ١٦١) بل إن طريق الدعوة نفسه كان صلوات

الله وسلامه عليه يسير فيه معصوما. ودعوته وطريق دعوته يسير فيهما على هدى وعلى نور من ربه. ولذلك فإن ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ (النساء: ٨٠).

ويعمم الله سبحانه الحكم تعميما، ويطلقه إطلاقا فيقول سبحانه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ (الحشر: ٧) ويقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ (النور: ٥٤).

واتباع الرسول ﷺ سبب في محبة الله تعالى لمن يتبعه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١) إن حب العبد لله لا يفيد ما لم يتخذ العبد الوسيلة الناجحة لذلك، وهذه الوسيلة هي اتباع رسول الله ﷺ.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي رواه الإمام البخاري: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه».

وهذه النوافل التي ذكرت في الحديث القدسي الشريف، والتي إذا أكثر الإنسان منها بعد أداء الفرائض أحبه الله، إنما هي سلوك رسول الله ﷺ، إنها طريق رسمه - صلوات الله عليه وسلامه- بقوله وبعمله، إنها سنته - صلوات الله وسلامه عليه- التي سنها، لينال الإنسان بها محبة الله سبحانه.

ولقد أحب الله سبحانه رسوله، وكان هذا الرسول ﷺ بعبوديته لله سبحانه حبيب الله. وبلغ الرسول - صلوات الله عليه وسلامه- بعبوديته التامة درجة أول المسلمين، وكان حبيب الله ونبيه ورسوله، ميزه الله سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم، وهذا التمييز لا يخرجه - صلوات الله وسلامه عليه - عن البشرية فهو

بشر، وهو خير البشر، ومن أجل أنه خير البشر، يقول الله تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣).

إن الإنسان الذي خصه الله بالوحي، واجتباه لرسالته، واصطفاه ليكون - باسمه سبحانه - بشيرا ونذيرا، إن هذا الإنسان الذي فضله الله على العالمين يجب أن نعرف له مكانته وننزله في الشرف الذي أنزله الله فيه.

إن هذا السراج المنير والرؤوف الرحيم ينبغي ألا يُدعى كما يُدعى زيد وعمر (بمعنى: لا تنادوه باسمه فتقولوا: يا محمد، ولا بكنيته فتقولوا: يا أبا القاسم، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم، بأن تقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، يا إمام المرسلين، يا رسول رب العالمين، يا خاتم النبيين، وغير ذلك) واستفيد من هذه الآية - كما يقول الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين، أنه لا يجوز نداء النبي بغير ما يفيد التعظيم، لا في حياته، ولا بعد وفاته.

فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ﷺ، فهو كافر ملعون في الدنيا والآخرة. ويقول الله سبحانه في أوائل سورة الحجرات: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحجرات: ١) أي لا تتقدموا بأمر من الأمور، قولا كان أو فعلا، إلا إذا أذن الله ورسوله، وكل أمر، قولا كان أو فعلا، أتاه الإنسان من دون إذن الله ورسوله، فإنه لا يقع على السنن المستقيم، يقول الضحاك: «هو عام في القتال وشرائع الدين، أي لا تقطعوا أمرا من دون الله ورسوله» ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحجرات: ١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الحجرات: ٢) فإنكم إذا فعلتم ذلك يخشى عليكم ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الحجرات: ٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (الحجرات: ٣).

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب، فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة

الأعراب الأجلاف، في غلظة وفي جفاء فإنهم ناقصو العقول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (الحجرات: ٤-٥) على أن مجرد الرغبة في الحديث إلى رسول الله ﷺ يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة. يقول الله تعالى في سورة المجادلة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (المجادلة: ١٢) وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة فيه شيء، لأن من لم يجد الصدقة فإن موقف الله سبحانه منه- لعدم قدرته - المغفرة والرحمة، ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم أتاه الإنسان، وكان عدم توفر الاستطاعة سببا في مغفرة الله سبحانه.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (المجادلة: ١٣).

وإذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا، وإذا قادكم الضعف الإنساني على ألا تنفذوا ذلك، ثم ندمتم واستغفرتم، فتداركوه حتى يتوب الله عليكم، وأثبتوا حسن نيتكم، وصفاء سريرتكم، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم، وتطيعوا الله ورسوله في الصغير والكبير، وما من ريب في أن الله سبحانه خبير بكل ما تعملون. يقول الله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (المجادلة: ١٣).

وبعد، فيقول رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

ويقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ (الاحزاب: ٤٥-٤٧) تلك هي مكانة الرسول ﷺ عند الله، فهل هي كذلك عند البشر؟

* * *

الإسراء والمعراج

منهج الإيمان والحكمة في رحلة الحياة

العدد (٦٧) رجب (١٣٩٠ هـ) سبتمبر (١٩٧٠م).

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أنس عن مالك بن صعصعة أن النبي ﷺ، حدثهم عن ليلة أسري به، وكان مما قال في هذا الحديث الصحيح: أن جبريل عليه السلام شق عن صدره، واستخرج قلبه الشريف، ثم «أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا وحكمة، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد».

وأخرج الشيخان من طريق يونس عن الزهري عن أنس قال:

كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا في مكة فنزل جبرائيل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست ملئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه».

- **ثم بدأت الرحلة**
- **وكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ**، هو مشهد قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبي ﷺ: «يا جبرائيل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه».

وأول مشهد إذن بعد امتلاء القلب حكمة وإيمانا، هو مشهد الجهاد، وما من شك، في أن القلب إذا امتلأ إيمانا وحكمة، فإن الجهاد يصبح في أوائل ما يحافظ عليه من شعارات

١- جهاد النفس لتتزكى، وتزكية النفس لا حد لها، والصفاء لا نهاية تحده. وكلما سما الإنسان في الصفاء درجة استشرف إلى أسمى منها.

وكلما سما قرب من الله أكثر، والقرب من الله لا نهاية له، وهذا القرب هو

غاية المؤمنين، ومن وقف منه عند حد معتقدا أن هذا هو نهاية المطاف فإن هذا يكون دليلا على أن همته ليست بهمة السابقين السباقين.

٢- وجهاد الأسرة حتى تستقيم، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم: ٦).

ووقاية الأهل من النار، هو جهادهم حتى يستقيموا ويمتنعوا عن الوقوع في المعصية، فذلك هو وقايتهم من النار.

٣- وجهاد المجتمع ليكون مجتمعا مؤمنا، وهذا الجهاد عنصر هام من عناصر خيرية الأمة الإسلامية، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ (آل عمران: ١١٠)

ويقول سبحانه ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾(المائدة: ٧٨-٧٩) ورسول الله ﷺ يقول، فيما رواه الترمذي وأبوداود: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

ويقول صلوات الله وسلامه عليه في جهاد المجتمع: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

٤- ومن أسمى أنواع الجهاد جهاد العدو بالسلاح واللسان والمال، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ (الحجرات: ١٥).

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات

ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق».

ولقد أخرج الشيخان عن الصحابي الجليل، أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟

قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

ولقد اهتم الإسلام بأمر الجهاد بحيث جعله شعار كل مسلم، وأحاطه بعناية بالغة.

لقد بين الله سبحانه أن الاستئذان في التخلف عن الجهاد يتنافى مع الإيمان، بل يتعارض معه، بل ينتفي الإيمان عند التخلف مع القدرة.

يقول تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (التوبة: ٤٤-٤٥).

وموالاة الأعداء كفر، يقول سبحانه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (المجادلة: ٢٢).

ولقد وصل الأمر في عقاب التاركين للجهاد أن ينذرهم رسول الله ﷺ إنذارا شديدا، فعن أبي بكر ﷺ، فيما رواه الطبراني بإسناد حسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب».

وإذا انتهى الجهاد إلى الاستشهاد، فالمصير الجنة والقرب من الله، وفي القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة أروع وأجمل تصوير لمكانة الشهيد في الآخرة.

يحدث ابن كثير أن رسول الله ﷺ، لما رأى جابر بن عبدالله مهتما لاستشهاد أبيه في غزوة أحد قال له مطمئنا ومبشرا: «ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟، فقال جابر: قلت بلى، قال: ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك

كفاحا (والكفاح المواجهة).

قال: سلني أعطك. قال: أسالك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب ﷻ: إنه قد سبق مني القول بأنهم إليها لا يرجعون، قال: «أي رب فأبلغ من ورائي». (أي أبلغهم بهذه النعمة الكبرى التي يتقلب فيها الشهيد في الجنة)، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧١).

فالشهيد سعيد باستشهاده، ويتمنى أن لو أعيد إلى الدنيا مرة أخرى، ليكون شهيدا من جديد. ومن الأحاديث أيضا أن حارثة بن سراقة قد استشهد في غزوة بدر فأتت أمه - وهى بنت البراء - رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك، أجتهد عليه في البكاء؟ فقال ﷺ: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

هذا هو الجهاد الذي رأى رسول الله ﷺ، مشهده أول ما رأى من مشاهد بعد أن ملئ قلبه الشريف حكمة وإيمانا.

أما الآية الكريمة التي يقول عنها صاحب الكشاف: «ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية»، فهي ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة: ١١١).

يقول صاحب الكشاف: ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية، لأنه أبرزه في صورة عقد عاقده رب العزة، وثمنُه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء

كلمته، ونصر دينه.

وجعله مسجلا في الكتب السماوية وناهيك به من صك، وجعل وعده حقا ولا أحد أوفى من وعده فنسيئه أقوى من نقد غيره.

وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم، وهو استعارة تمثيلية، صور جهاد المؤمنين، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء.

وأتى بقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ بيانا لمكان التسليم وهو المعركة وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»[١].

ثم أمضاه بقوله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس: ٦٤)

وبعد.. فإن منهج الإيمان والحكمة في حياة المؤمنين وفي رحلة الحياة يبدأ بالجهاد.

● **وأما المشهد الثاني الذي رآه ﷺ**، بعد مشهد المجاهدين فهو مشهد تاركي الصلاة يقول الحديث الشريف: «ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين تثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة».

وهذا المشهد يتناسق وينسجم مع مشهد آخر رآه رسول الله ﷺ فيما يراه النائم، يقول رسول الله ﷺ: «... فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمي، وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمي، فيقع دماغه جانبا، وتقع الصخرة جانبا».

ولما سأل ﷺ عن ذلك، قيل له «أولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة، ويصلون الصلوات لغير مواقيتها، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار».

والصلاة في الإسلام لها أهميتها الكبرى.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، وفي باب: «الجنة تحت بارقة السيوف» عن عبد الله بن أبي أوفى.

ولأهمية الصلاة في الجو الإسلامي كانت لها مقدمات منها الطهور، أي الوضوء، وقد قال عنه رسول الله ﷺ إنه شطر الإيمان، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

ومن مقدمات الصلاة الأذان، ولقد كان للأذان مشهد في رحلة الإيمان والحكمة.

فقد روى زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرجه ابن مردويه وأبو نعيم من طريق محمد ابن الحنفية «أن رسول الله ﷺ، شاهد فيما شاهده ملكا يخرج من وراء حجاب ويقول: الله أكبر، الله أكبر، فنودي من وراء حجاب: صدق عبدي أنا أكبر، فقال الملك أشهد أن لا إله إلا الله، فنودي من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا الله لا إله إلا أنا، فقال الملك: أشهد أن محمدًا رسول الله، فنودي من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أرسلت محمدًا رسولا، فقال الملك: حي على الصلاة، حي على الفلاح، فنودي من وراء الحجاب: صدق عبدي، ودعا إليَّ عبادي، فقال رسول الله ﷺ: فيومئذ أكمل الله لي الشرف على النبيين والمرسلين والأولين والآخرين». وما من شك في أن كتب السنة، وكتب السيرة استفاضت في كيفية ابتداء المسلمين في التفكير في الإعلام بالصلاة، وأنهم تداولوا الأمر فيما بينهم واستقر الرأي على الأذان في صورته الراهنة، وذلك عن طريق رؤيا رآها صحابي جليل، وأيده فيها برؤيا أخرى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن بقية الصحابة أجمعين، ويكون الأذان إذن قد بشر به في الملأ الأعلى قبل إلهامه عن طريق الرؤى، في عالم المُلك .

هذا بعض مقدمات الصلاة إعلانا عن أهميتها.

وأهمية الصلاة آتية من أنها تذكر بالله، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يقول

سبحانه ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به، عن عبدالله بن قرط رضي الله عنه «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله». وروى الأئمة مالك وأبوداود، والنسائي وابن حبان في صحيحه، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة»، وفي رواية لأبي داود، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات افترضهن الله، من أحسن وضوءهن وصلّاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد إن شاء غفر له وإن شاء عذبه».

ومما لاشك فيه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأنها بذلك تقرب من الله سبحانه وتعالى حتى لقد أطلق عليها الصالحون أنها معراج المؤمنين إلى الله، ومثل بعضهم القيام فيها بين يدي الله بالإسراء إلى بيت المقدس والركوع فيها بالعروج إلى السماء، والسجود فيها بالقرب من الله سبحانه وهو القائل ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ (العلق: ١٩)، ورسول الله ﷺ يقول: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وينصح صلوات الله وسلامه عليه بالدعاء في السجود لمكانة القرب من الله سبحانه وتعالى، بيد أن الصلاة التي ثمرتها ذلك إنما هي الصلاة التي استكملت الشروط، وشروطها ذكرها القرآن في ثلاثة جوانب:

أ - إقامتها.

ب - المحافظة عليها.

جـ- الدوام عليها.

ومما قاله القرآن في وصفه المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (الأنفال: ٢-٤) ويقول سبحانه (البقرة: ٢٣٨)، ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ (البقرة: ٢٣٨)، ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (المعارج: ١٩-٢٣) وإقامة الصلاة، أداؤها على الوجه الكامل بقدر الاستطاعة، وذلك أنه حينما ينطق بتكبيرة الإحرام ويكون بذلك قد دخل في الصلاة فإنه يجب عليه أن ينفصل عن كل ما سوى الله سبحانه، أي ينفصل عن الأهل والمال والجاه والوظيفة، ينفصل عن كل ما يشغل كيانه عن الله سبحانه، وذلك تحقيق لقوله، الله أكبر، فمادام هو الأكبر - وقد نطق بذلك المصلي - فعليه أن ينصرف إليه وحده لا يشغله عنه دنيا ولا هوى، لا يشغله عنه المال والبنون.

والصلاة المقامة هي الصلاة التي استكملت الخشوع، يقول سبحانه ﴿۞ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ (المؤمنون: ١-٢)، الصلاة المقامة هي الصلاة التي يشعر فيها المصلي أنه بين يدي الله، ويشعر فيها بمعاني أم الكتاب التي لا تنفد معانيها، والتي تذكر الإنسان بحمد الله على نعمه، وبرحمة الله العامة الشاملة، وتذكره بيوم الحساب، وتعلمه أنه سبحانه مختص بالعبادة ومختص بالاستعانة ثم الدعاء بالهداية الذي يقول الله سبحانه وتعالى عند طلبه: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

ثم يركع متواضعا، والسجود منتهى التواضع، ومن أجل ذلك كان منتهى القرب من الله سبحانه وتعالى، أما المحافظة على الصلاة فإنها أداء الصلاة في أول الوقت، وأول الوقت رضوان الله، ووسطه رحمة الله، وآخره مغفرة الله.

أما الدوام على الصلاة، فإنه معنى من أجمل المعاني، إنه الاستمرار في جو الصلاة، في جو الصلة بالله، فالصلاة صلة بين العبد وربه، وهذه الصلة يجب أن تدوم سواء أكان الإنسان في الصلاة بالفعل أم لم يكن فيها واقعيا.

فإذا أقام الإنسان الصلاة وحافظ عليها، وداوم على الشعور بجوها فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر وتقربه من الله سبحانه وتعالى. يقول الإمام القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: إن نبينا، عليه الصلاة والسلام، أتى للأمة بالمعراج على التحقيق، فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج، وقد كان المعراج له، عليه الصلاة والسلام، ثلاثة منازل من الحرم إلى المسجد الأقصى ثم إلى سدرة المنتهى ثم منها إلى قاب قوسين، فكذلك لنا الصلاة ثلاثة منازل، القيام، ثم الركوع، ثم السجود، وهي نهاية القرب قال الله تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ (العلق: ١٩).

وبعد، فإن الصلاة قد فرضت والرسول ﷺ أقرب ما يكون من ربه، إنها فرضت وهو في مقام قاب قوسين أو أدنى.

وهذا المقام ينتهي في فضل الله وفي كرمه بـ «أدنى» أي أدنى من «قاب قوسين» في هذا المقام أوحى الله إلى عبده ما أوحى، وكان فيما أوحاه سبحانه الصلاة التي جعلها صلة بين العبد وربه والتي جعلها مفزعا للعبد في كل ما أهمه، وقد كان رسول الله ﷺ كلما حزبه أمر يفزع إلى الصلاة.

● **أما المشهد الثالث الذي رآه ﷺ** في رحلة الإيمان والحكمة أو في منهج الإيمان والحكمة أو في حياة الحكمة والإيمان فهو مشهد يتعلق بالزكاة.

«ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضريع والزقوم، ورضف جهنم وحجارتها، قال: ما هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئا».

ولقد أخذت الزكاة، فيما بعد، الحظ الكافي من الاهتمام، ولكن موضوع المال على وجه العموم أخذ منذ ابتداء الإسلام وطيلة نزول الوحي حظا يتناسب مع مكانته في المجتمع، ومع صلته بالنفس صلة وثيقة من حيث توفيره لكل ما تطلبه الحياة من رغبات ضرورية كانت أو كمالية.

وقبل أن نتحدث عن نظرة الإسلام للمال على وجه العموم نتعجل فنذكر

مشاهد أخرى خاصة بالمال حتى نستكمل المشاهد الخاصة بالمال:

● **الربـــا**

أ- جاء في رواية أبي سعيد الخدري عن البيهقي وفي رواية أبي هريرة عن ابن أبي حاتم «... فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر، فيقول: اللهم لا تقم الساعة، وهم على سابلة آل فرعون، قال: فتجيء السابلة فتطؤهم، قال: فسمعتهم يضجون إلى الله، قال: قلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء من أمتك ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

ب- أخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت ليلة أسري بى رجلا يسبح في نهر يلقم الحجارة، فسألت من هذا؟ فقيل لي: هذا آكل الربا».

جـ- «... قال ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط، يعرضون على النار لا يستطيعون أن يتحولوا من مكانهم ذلك، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء أكلة الربا».

د- ولقد مثل آكل الربا له ﷺ، في رؤية منامية على الوجه الآتي يقول: «فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يفور كفوران المرجل، وعلى حافتي النهر ملائكة بأيديهم نار، كلما طلع طالع قذفوه بها، فيقع في فيه، فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر».

فلما سأل ﷺ عن تفسير ذلك قيل له «أما النهر الذي رأيت يفور كفوران المرجل، فيه قوم عراة على حافة النهر فأولئك الذين أكلوا الربا فهم يعذبون به حتى يصيروا إلى النار»[1].

● **آكل مال اليتيم**

١- «... ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، فتفتح أفواههم ويلقمون حجرا ثم يخرج من أسافلهم، فسمعتهم يضجون إلى الله قلت يا

(١) المعراج للقشيري ص ١٤.

جبرائيل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء: ١٠) (١).

ب - قال: «ورأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل في أيديهم قطع من النار كالأنهار يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء ياجبرائيل؟ فقال هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما».

والآن نبدأ بإلقاء الضوء على موقف الإسلام بالنسبة للمال:

إنه أولا: ملك لله يمنحه سبحانه لمن يشاء في سعة أو في قلة حسبما تقتضيه حكمته، إنه ملك لله يستخلف عليه من يشاء من عباده، فالمالك في الإسلام مستخلف فيما يملك إذا كان يسمى المستخلف مالكا.

يقول سبحانه ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (الحديد: ٧)

ويقول تعالى ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ (النور: ٣٣)

إن المال مال الله، والعبد مستخلف فيه، والمالك لم يترك الأمر بدون قواعد، وإنما وضع القواعد الكثيرة، ونتحدث عن هذه القواعد دون ترتيب معين.

من هذه القواعد، أن هذا المال وإن كان لله، فإنه ليس حقا مشاعا لكل الناس، وإنما المالك يمنح من شاء ما شاء. ويحرم حرمة تامة أن يعتدي إنسان على آخر فيأخذ من المال بغير وجه حق.

وحرمة المال كحرمة النفس وحرمة العرض، ورسول الله ﷺ، يقول في خطبة الوداع «. . . إنما أموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، اللهم هل بلغت اللهم فاشهد».

ومن مات دون ماله فهو شهيد.

وآخذ المال بغير وجه حق يصل به الأمر إلى قطع يده.

وفي الصحيحين عن عروة عن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ، في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

(١) الخصائص ج١ ص ٩١٤ .

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ، فأتي بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله ﷻ» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ومن القواعد الهامة، أن في المال حقوقا.. إن فيه الزكاة، والزكاة حارب عليها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، يروي الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»؟

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه.

فقال عمر رضي الله عنه: فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق» (متفق عليه).

ولكن الزكاة ليست هي الحق الوحيد في المال، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ (الذاريات: ١٩).

ويقول سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ (المعارج: ٢٤-٢٥).

وهذه الآيات عامة هدفها إشعار المؤمنين بأن في المال- من أي نوع كان- حقا يجب أن يؤدى.

● **وفي المال حق أداء الصدقة**

يقول تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ (البقرة: ٢٦٥).

ويقول سبحانه ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ (البقرة: ٢٧١)

ويقول تعالى ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ (ابراهيم: ٣١).

ويقول سبحانه ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (الحديد: ٧).

ومن القواعد قاعدة مزدوجة تتمثل في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل: ٥-٢١).

والجانب الأول من هذه القاعدة المزدوجة، أو الوجه المشرق منها هو أن من استجاب لله ورسوله في المال، فإن الله سبحانه وتعالى ييسره لليسرى، واليسرى هنا معنى من المعاني التي تتضمن الكثير من الخير، إنها تتضمن ما يعبر الله عنه بقوله ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (سبأ: ٣٩)

وتتضمن ما يعبر الله عنه بقوله ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ (البقرة: ٢٦١-٢٦٢).

أما الجانب الثاني من هذه القاعدة المزدوجة فإنه إنذار للبخيل بأن عاقبة بخله ستعود عليه وهو أن الله سيجعل خطواته كلها «عسرى» قلق نفساني وشح مادي، وقد عبر الله سبحانه عن بعض ذلك بقوله ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ (محمد: ٣٨).

وبعد، فإن من أجمل المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ في رحلة الحكمة والإيمان، هذا المشهد الذي نختتم به هذا المقال.

أخرج ابن ماجه والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق يزيد ابن أبي مالك عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت ليلة أسري بي مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر، فقلت لجبريل: ما بال القرض أفضل من الصدقة؟

قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة».

اقرأ باسم ربك..

العدد (٦٩) رمضان ١٣٩٠هـ - نوفمبر ١٩٧٠م)

محاضرة ارتجلها الدكتور عبد الحليم محمود وكيل الأزهر في الموسم الثقافي الذي أقامته وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في شهر رمضان الماضي نقلها وأعدها: عبد المعطي بيومي

آية من كتاب الله حددت موقف الإسلام من قضايا الفكر العالمية في صراحة وحزم وسمو. . وتضمنت رسالة الإسلام الشاملة عقائد وأخلاق وعبادات (قدمها في زهاء ساعة ونصف في عشية ليلة من ليالي الإشراق الروحي فضيلة الدكتور المحاضر في أسلوب سهل، راق رائق).

قال فضيلته: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا.

وبعد:

فإن موضوع هذا الحديث أول آية نزلت من القرآن الكريم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق : ١) والآية لها ألفاظ ولها جو وسنتحدث عن ألفاظها وعن جوها بقدر الطاقة البشرية مستعينين بالله متوكلين عليه.

● **القرآن والعلم:**

وأول ما يلاحظ أن تبتدئ الآية الكريمة بـ﴿اقْرَأْ﴾ فهي من أول الأمر ولأول لحظة موجهة إلى الجانب العلمي، والواقع أن الأمة الإسلامية الآن في هذه

النهضة لابد لها من العلم أساسا تقوم عليه فإذا انحرفت عن هذا الأساس فانها لا تقوم على أساس سليم ولا على أساس صحيح.

ومنذ البدء كان للإسلام حملة قوية في سبيل حث المسلمين على العلم، وان الآيات لتتوالى بعد ذلك حاثة على العلم، محبذة له، آمرة به: حتى ليصل الأمر فيما يتعلق بموقف الإسلام من العلم أن يتلمسه الرسول عليه الصلاة والسلام من ربه ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) و﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ شعار العالم المسلم الحق: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ في كل لحظة في كل ساعة.. في كل يوم، والشعار الإسلامي هو أن من استوى يوماه في الجانب العلمي فهو مغبون ومن لم يصل إلى زيادة في الجانب العلمي فهو إلى نقصان.

بل إن الأمر ليصل إلى أن الله سبحانه وتعالى يرفع العلماء إلى أسمى مرتبة إيمانية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨) فقد شهد أولو العلم في هذه الآية الكريمة مع الله وملائكته التوحيد: شهدوا أن لا إله إلا هو، وشهادة التوحيد أسمى مراتب الإيمان، والواقع أن العلماء يصلون إلى هذه المرتبة لأنهم يرون من حكمة الله ما لا يراه غيرهم.. فعلماء التشريح يرون الإبداع المبدع لإتقان المتقن.. يرون هذه الحكمة الحكيمة في صنع الله سبحانه وتعالى فيخرون للأذقان سجدا له وحده، كذلك فإن علماء الفلك يرون هذه السعة الشاسعة في الكون كما يرون تنظيمه وتنسيقه ودقة جريان أفلاكه ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس: ٤٠) يرون هذه الدقة فيخرون له موحدين في أسمى شعور أيماني.

نعم.. إنها قمة الإيمان: شهادة التوحيد تلك التي يشهدها العلماء مع الله والملائكة. وللإيمان منها مراتب منها أقول: لا اله إلا الله. أو أنطق: لا اله إلا الله. أو اقتنع: بأن لا إله إلا الله. أو أومن بأن لا إله إلا الله. أو أعتقد أن لا إله إلا الله وكل هذه المراتب هي دون المرتبة الأخيرة وهي أشهد أن لا إله إلا الله.

ولقد أعلن الله سبحانه وتعالى أن هذه المرتبة الأخيرة - شهادة التوحيد ينالها

العلماء المقتدون بالله وملائكته في هذه الشهادة، ولن تجد في مجالات الآداب العالمية شرقية ولا غربية إشادة بالعلم أكبر من هذه الإشادة أو أسمى من هذه الإشادة.

وإذا قصرت الأمة الإسلامية في تحصيل العلم فهي مقصرة في تحصيل أسمى مراتب الإيمان وإذا قصرت في الجانب العملي فهي مقصرة في المنهج الذي دعا إليه سبحانه وتعالى وحثت عليه أول كلمة من القرآن «اقرأ».

● **أي علم؟**

ولكن ما هو العلم المقصود الذي دعا إليه سبحانه وأشاد به رسوله؟ إنه العلم على وجه العموم. العلم بالكون. العلم بالطبيعة. العلم بالفلك. العلم بالكيمياء. كما إنه العلم بالتفسير والفقه وبغير ذلك من علوم الدين.. إنه العلم على إطلاقه المطلق!

هذه الدعوة إلى العلم بين فيها رسول الله ﷺ قيمة العلماء أيضا، يقول عليه الصلاة والسلام: «من سلك طريقا يبتغي به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وان العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء.. وفضل العالم على العابد (وانظروا هنا التشبيه والقياس. فضل العالم على العابد لا يشبه رسول الله ﷺ ولا يقرن في التمثيل العالم وصاحب المنصب أو العالم والثري وإنما العالم والعابد) وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر..» هذه هي الدعوة الإسلامية إلى العلم.

● **بدعة تعارض الدين مع العلم:**

وهنا يأتي سؤال من أين هذه البدعة الشائعة التي يروجها كثير من الملاحدة عن تعارض الدين والعلم، هل يتأتى حقيقة - والأمر كذلك - أن يكون هناك تعارض بين الإسلام والعلم؟ ولنتبصر الأمر قليلا ما هو العلم الذي يقولون إنه متعارض مع الدين؟ إنه العلم بمعناه الحديث، وكلمة العلم بالمعنى الحديث

تعني: القواعد والقوانين التي اتخذت أساسا لها التجربة والملاحظة. إذن العلم الذي يعنونه ميدان الكون.. الطبيعة.. العالم المحسوس.. عالم المادة.. ومادام الأمر كذلك فلا يتأتى مطلقا أن يكون هناك تعارض بين عالم الألوهية عالم الإيمان.. عالم الأخلاق.. عالم التوحيد.. عالم العقائد.. وبين العالم الذي مجاله محدود بالمادة والحس، فان دائرة الدين ودائرة المادة والحس مختلفتان، فلا يتأتى أن يكون هناك تعارض.. فكيف نشأت إذن فكرة التعارض بين الدين والعلم؟.

الواقع أنها لم تنشأ في ربوع الإسلام بل ولم تنشأ في الشرق وانما نشأت في أوروبا، والسبب بسيط ومعروف عند كل من درس تاريخ الفكر في أوروبا.

في يوم من الأيام في العصور الوسطى تبنت الكنيسة أراء أرسطو في الطبيعة وما وراء الطبيعة واتخذت هذه الآراء قاعدة ومقياسا ومقدسا من المقدسات وأرسطو شخصية بشرية تخطئ وتصيب فلما بدأت النهضة وقامت على أساس الملاحظة والتجربة بدأت ترى أن طبيعة أرسطو.. كيمياء أرسطو.. أخلاق أرسطو كل ذلك منهار، وبدأ العلماء يبرهنون على انهيار نظريات أرسطو في الطبيعة وغيرها وكان كل عالم يحاول الخروج على فكر أرسطو كانت الكنيسة تنكل به، تبعث به إلى السجن، تعذبه على أي وضع من الأوضاع، وكانت هناك محاكم التفتيش تنكل بكل من خرج على آراء أرسطو، و آراء ارسطو التي يمكن بسهولة هدمها والتي تنهار في يسر إنما هي الآراء في الطبيعة والكيمياء والفلك، ولم يكن عند أرسطو الوسائل التي تمكنه من الإجادة فيما يتعلق بعالم الكون، عالم المادة، عالم المحسوس، فأخفق في كل خطواته وكان انهياره في عصر النهضة تاما شاملا، ولكن العلماء لم يكفوا: كانوا يبرهنون على أخطاء أرسطو في عالم المادة. وشاعت فكرة التعارض بين الكنيسة والعلماء، وانتهت هذه الفكرة بأن صارت - بعد تحريفها- تعارضا بين الدين والعلم، وتناقلها الأوربيون، وأسبابها معروفة في أوروبا ثم كان هناك هؤلاء البيغاوات في الشرق الذين يريدون أن ينقلوا كل ما في الغرب إلى الشرق، والذين يعتقدون أن البيئة

الشرقية هي البيئة الغربية تماما بتمام في جوها الفكري وفي جوها الروحي والإيماني. . وأخطأوا فليس هناك تعارض بين الدين والعلم وليس هناك تعارض بين العلم والإسلام على وجه الخصوص.

● **هدف القراءة في الإسلام :**

وننتهي بذلك من كلمة «أقرأ» ويأتي بعد ذلك ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، إنه لم يقل اقرأ وينهي الأمر وإنما قيدها، قيدها لا في مجالها ولا في موضوعها ولم يقيدها في السماء ولا في الأرض ولا فيما بينهما وإنما قيدها في النوايا. . في الأهداف والغايات، قيدها بأن تكون باسم ربك وقد يقرأ الإنسان ويقول: أقرا باسم المصلحة العامة وأكثر الناس يقرأون باسم المصلحة العامة، وقد يقرأ الإنسان باسم ملك أو باسم الوطن وهؤلاء جميعا يختلفون ويتعارضون وهم وإن اختلفوا وتعارضوا فانهم يقرأون جميعا باسم الوطن أو الملك أو المصلحة العامة أو إلى غير ذلك من الأمور، وليست هذه هي القراءة الإسلامية إن القراءة في الإسلام لا تكون باسم المصلحة شخصية أو عامة، وإنما يجب أن تكون القراءة باسم ربك.

● **«اقرأ» رمز لكل عمل:**

وكلمة القراءة هنا رمز فلا يعني القرآن أبدا في «اقرأ باسم ربك» القراءة وحسب، وإنما يعني بـ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ رمزا لكل ما يمكن عمله في الحياة، اعمل باسم ربك، قم باسم ربك، تحرك باسم ربك، نم باسم ربك، لتكن حياتك حركة وسكونا قولا وعملا فعلا وتركا ليكن كل ذلك باسم ربك والآية التي نفسر ذلك بعض التفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام: ١٦٢- ١٦٣) فالصلاة والنسك والحياة بأكملها بل والممات أيضا لله رب العالمين، يجب أن يكون كل ذلك لله رب العالمين وفي سبيل الله رب العالمين أو يجب أن يكون كل ذلك «باسم ربك».

ومهما تعددت أنواع الأعمال في الحياة ومهما تعددت أصناف الأقوال فالمسلم مادام قد دخل في الإسلام ومادام قد عقد مع الله بيعة الإيمان فإن حياته

كلها يجب أن تكون باسمه تعالى. فـ«اقرأ» رمز إذن . . تعلم أو اعمل أو امتنع عن العمل، وإذا عملت فيجب أن يكون عملك باسم ربك وإذا امتنعت عن العمل فلا بد أن يكون الامتناع أيضا باسم ربك.

وإذا كانت اقرأ في جانب الإيجاب وإذا كانت ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ في جانب الإيجاب أيضا فإن هناك آيات في جانب السلب مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١) وكل ما لم يذكر اسم الله عليه فإنه فسق.

الإيجاب والسلب الحركة والسكون والأقوال والأعمال والصمت كل ذلك يجب أن يكون باسم ربك. . ونأتي بعد ذلك إلى ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾

● التربية الآلهية في إطار الإسلام:

كنا نعتقد أن تأتي أول كلمة في القرآن قائلة باسم ربك «الله» لأن كلمة الله هي الكلمة التي تنطوي على كل الأسماء والصفات الإلهية إنها الكلمة التي تتضمن جميع المعاني، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يقل اقرأ باسم الله وإنما قال: اقرأ باسم ربك، ولم يعبر الله سبحانه وتعالى بـ«ربك» مصادفة أو اعتباطا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأعمال الله سبحانه وتعالى أعمال حكيمة والمعنى هنا: اقرأ باسم المربي أو اقرأ باسم التربية الإلهية: إذا دخَلتَ في هذا النظام الذي يسمى الإسلام فوطن نفسك منذ البدء على أن تكون قراءتك وحياتك في إطار التربية الإلهية فإذا خرجت عن إطار التربية الإلهية فقد خرجت عن هذا النظام، اقرأ في إطار التربية الإلهية إيجابا أو سلبا، اقرأ في إطار التربية الإلهية قولا وعملا وحركة وسكونا، فإذا لم تفعل ذلك فلست داخلا أبدا في نطاق هذا النظام. . الإسلام.

● كيف تكون الثقافة باسم ربك؟

ونحن الآن في خضم من الثقافات الوافدة من الغزو الفكري كيف تكون القراءة باسم ربك؟ والواقع أن الإسلام فرق منذ البدء بين أمرين وأوجب أن تكون هذه التفرقة ظاهرة بين أعين المصلحين في الأمة الإسلامية: فرق بين مجال المادة

الكيمياء والطبيعة والفلك إلى آخر هذه النواحي، وبين مجال الثقافة النظرية البحتة، الثقافة التي تتصل بما وراء الطبيعة والأخلاق.

أما فيما يتعلق بالمادة: بناحية الحس، بغزو الفضاء، بالصواريخ، بالذهاب إلى القمر، بكل ما يتعلق بهذا الكون المادي بأرضه في أعماقها، ببحاره في أغوارها، بسمائه في فضائها الشاسع، بسمواته بالكواكب: فإن القرآن والإسلام أوجب علينا وجوبا أن نسخر كل ذلك. والله سبحانه وتعالى قد امتن علينا أن سخر لنا الأرض والكواكب والقمر فذكر كل ذلك صراحة وسخر لنا ما بين السموات والأرض فإذا أردنا الاستجابة لله سبحانه وتعالى فيجب أن نكون أول المسخرين للأرض والسماء وما بينهما من الشمس والقمر، يجب أن نكون من أوائل أو من أئمة الذين يكتشفون كل ذلك ويسيطرون على كل ذلك وإن نحن تأخرنا في جانب من هذه الجوانب فنحن آثمون دينيا ووطنية وعروبة وإسلاما وآثمون في حق أنفسنا باعتبارنا أمة من الأمم أو جنسا من الأجناس. هذا الجانب أوجبه الله سبحانه وتعالى وسماه المسلمون تسمية جميلة سموه «اكتشاف نواميس الله في الكون» وبينما الإسلام يوجب هذا الجانب فإنه يقف موقفا حاسما من الثقافة النظرية الدخيلة وفي هذا المجال يمكننا أن نذكر بعض القصص.

رأى رسول الله ﷺ سيدنا عمر رضي الله عنه يقرأ في صحيفة من التوراة فقال له ما هذا يا عمر؟ قال إنها صحيفة من التوراة، وإذا برسول الله ﷺ ينفعل ويخاطب سيدنا عمر بلهجة ليست هي لهجة الود المألوفة بين الرسول وعمر بل يقول له منتهرا: «أتتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ (يعني أتتشكون فيها في ملتكم ودينكم في شريعتكم؟)، والله لو كان موسى حيا لما حل له إلا اتباعي» مالكم تذهبون إلى التوراة أو إلى غير التوراة من الكتب وعندكم كتاب الله ويطيع سيدنا عمر مستجيبا لما حثه عليه رسول الله قائلا: «رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا».

وينتهي الأمر فيما يتعلق بالتوراة. وهناك صورة أخرى: حدث أن بعض الصحابة كانوا مع اليهود وهم يقرأون التوراة فتخشع الصحابة.. تقول الرواية

تخشع الصحابة أي خشعوا معتقدين أن التوراة - في أساسها- كتاب منزل من الله وإن كان قد حدث له تغيير أو تبديل فلم يحدث له ذلك في جملته.

وعلم الرسول ﷺ بذلك بمجرد تخشع صحابته لسماع التوراة فقرأ على الصحابة معاتبا ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت: ٥١) ما بالهم يتخشعون للتوراة وعندهم كتاب الله سبحانه وتعالى؟ وينتهي الأمر بالصحابة إلى أن لا يفعلوا مرة أخرى مثل ذلك فإن الرسالة الإسلامية لها ذاتية معينة فإذا فقدت هذه الذاتية وانماعت في الثقافة والأمم الأخرى فان الأمة الإسلامية لا يصبح لها مبرر لوجودها لأن مبرر الوجود للأمة الإسلامية هي رسالتها وذاتية هذه الرسالة.

هذا هو الرسول ﷺ يبرهن للصحابة أن هدايتهم في رسالتهم وإن بقاءهم ووجودهم مرتهن ببقاء الرسالة فيجب ألا يكون هناك ما يلوث هذه الرسالة من قريب أو من بعيد حتى ولو كان توراة أو كان إنجيلا. يجب علينا أن نكون في إطار هذه التعاليم: اقرأ باسم ربك.. لا باسم أفلاطون ولا أرسطو ولا ديكارت ولا داروين ولا كارل ماركس وإنما باسم ربك.

● **تقييم الثقافة البشرية العقلية:**

هذه الثقافة البشرية الغازية ما وضعها في حقيقة الأمر؟! وحين نحاول أن نحدد وضعها في حقيقة لن نلجأ إلى رأينا الشخصي بل إلى حقائق التاريخ والواقع.

أما وضعها الحقيقي فهي متغيرة لا ثبات لها وفي كل يوم هناك «مُودة من المُودات» وكأي «مُوْدَة» تنشأ وتتطور وتعم ثم تأخذ في التقلص وتنتهي ليحل محلها «مودة» أخرى وتيار آخر وموجة أخرى، وكل شخصية من الشخصيات التي أثرت في التاريخ لها دور يبدأ وينتهي ولنأخذ مثلا شخصية من الشخصيات، لا نأخذها هي بالذات وإنما نأخذها كمثال، هناك مثلا (أوجست كونت) مؤسس علم الاجتماع أو الفيلسوف الأكبر في عهده فيما يتعلق بعلم الاجتماع، كادت فرنسا أن تؤلهه وكادت أوروبا جميعها أن تقدسه ثم لم يمض إلا قليل حتى انتهى

أوجست كونت وأصبحت آراؤه مجموعة من خرافات العهد الماضي لا قيمة لها في العهد الحاضر وكل شخصية على هذا المثل تنشأ وتتطور وتعم وينتهي الأمر بأن تندثر وتنهار وتزول وإذا أردنا أن نقول الحقيقة الخالصة فإنا نقولها، وعلى أرض صلبة: هذه الثقافة البشرية الغربية هي مجرد سوفسطائية.

حقيقة، إنهم يفرقون بين شخصيات كالسوفسطائية وبين شخصيات كديكارت مثلا لكن في حقيقة الأمر فإن هذه التفرقة ليست على أساس سليم. لماذا؟ لأنه - وهذه نقطة من أهم النقاط - في مجال الثقافة النظرية ليس هناك مقياس للحقيقة والخطأ، للصواب والوهم، للباطل والصدق، لقد حاول العلماء منذ العصر اليوناني إلى الآن أيجاد هذا المقياس فلم يمكنهم إيجاد المقياس العقلي للثقافة العقلية، المقياس الذي يفرق بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ لم يوجد للآن، حاول أرسطو إيجاده فيما سموه بالمنطق فلم يفلح وأخفق المنطق إخفاقا كاملا وقد حاول ديكارت إيجاده فأخفق.

ولقد أعلن ديكارت يوما أنه وجد المقياس وأشادت أوروبا بديكارت لأنه عثر على مقياس الحقيقة وأعلن ديكارت أيضا أنه سيؤلف مذهبا في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة وسيؤلفه على هذا المقياس الذي وجده، وألف ديكارت مذهبه في الطبيعة وقبل أن تنتهي حياة ديكارت أعلن العلماء أن مذهب ديكارت في الطبيعة باطل.

وهكذا بقيت هذه الثقافة العقلية للآن في جميع أدوارها وعصورها ثقافة ظنية وكلما جاءت أمة لعنت أختها ولو كان في هذه الثقافة العقلية يقين لظهر ولو في موضوع واحد وتصوروا أن جميع قضايا الثقافة العقلية منذ أن نشأت في العصر اليوناني حتى الآن ليس فيها قضية واحدة اتفق عليها، وهذا شيء بديهي معروف ولكن هذا التعميم الذي أعممه قد لا يكون واضحا عند بعض العقول ولكنه شيء بديهي معروف عند مؤرخي الفكر.

● **الفلسفة لا رأي لها:**

ويمكن أن نقول ونحن من الصدق بمكان أن الفلسفة - والفلسفة هي قضايا عقلية بحتة - لا رأي لها في أي موضوع من الموضوعات ولا في أي قضية من

القضايا لأن كل موضوع من الموضوعات فيه رأيان أو عدة آراء فهناك في كل موضوع المنكر له والمثبت، فليس هناك موضوع واحد في قضايا الفلسفة أو فيما وراء الطبيعة والأخلاق إلا وفيه الرأي المثبت والرأي المنكر فالفلسفة في حقيقة أمرها لا رأي لها.

ومن أجل ذلك لا تطور فيها ولا تقدم بخلاف العلم المادي القائم على الأسس المادية لأن هناك التجربة التي تفرق بين الخطأ والصواب ومن أجل ذلك فإن كل عالم يأتي يبني على ما سبق إليه من سبقه، أما الفلاسفة فكل فيلسوف يأتي يهدم ما قبله من آراء ويبني آراء جديدة وهي من أجل ذلك لا تتطور، والفلاسفة أنفسهم هؤلاء الذين يبحثون فيما وراء الطبيعة والأخلاق يؤمنون بأن آراءهم ظنية لا ثبات لها.

وكل هذا يهدينا ويرشدنا إلى أنه يجب أن نقرأ باسم ربك، يجب أن تكون أخلاقنا وتشريعنا في إطار التربية الإلهية ومن هنا كانت الحكمة في عدم التعبير بـ «اقرأ باسم الله» والتعبير بـ«اقرأ باسم ربك» ونأتي الآن إلى قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

● **لماذا نقرأ باسم ربك:**

ويمكن أن يتساءل الإنسان.. ما هي الضرورة التي توجب أن أقرأ باسم ربي لا أقرأ باسم أفلاطون أو أرسطو وتأتي كلمة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كبرهان طويل عريض على ضرورة القراءة باسم ربك.. باسم الذي خلق والذي سوَّى والذي نسق كل خلية فيك ورتب كل ذرة في جسمك، اقرأ باسم الأعرف بك والأعرف بما يتناسب معك وهو الذي وضع لك هذه التربية، وهذا الذي خلق، تربية ليست تربية من لا يعرفك وإنما هي تربية الذي رتب وسوى ونسق فهو أعرف بك منك وأعرف بما يتناسب معك.

وهكذا فان ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ هي البرهان الذي يحسم الأمر في أن لا يقرأ باسم أفلاطون وأرسطو لأنهم بعيدون عنك بل هم بشر من البشر يخطئون ويصيبون ولكن ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لا يتأتى أن يخطئ سبحانه وتعالى.. هذا هو الجو الذي نأخذه

من الألفاظ..

● **الصدق هو الجو العام:**

ونأتي بعد ذلك إلي الجو العام للآية أي أننا لن نتجه هنا إلي الألفاظ لفظا لفظا وانما نتجه إلي الآية بشكل عام لنتعرف على جوها العام.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إنها بدهيا تحمل الصدق في نفسها لا تحتاج مطلقا إلي مناقشة ولا مماراة فيما يتعلق بالصدق، يدعوك إلى أن تقرأ باسم ربك وإلى أن تتجرد لربك، لا يدعوك باسمه ولا باسم مصلحة وإنما يدعوك وقد تجرد من كل هذه النوازع المادية والنفسية وهو يدعوك أن تتجرد لله سبحانه وتعالى هذه الدعوة لا يمكن أن تكون خطأ لأنه ما الصواب حينئذ؟ إنها مجرد دعوة إلى أن تتجرد لله سبحانه وتعالى في حياتك ومن أجل ذلك فحين سمعها لأول وهلة وَرَقَةُ بن نوفل قال: هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى وآمن بها من غير دليل لأن الجو العام يفضي إلى الصدق ويهدي إلى الحق ولا يمكن أن يتخلله باطل أو يغشاه كذب.

فالصدق إذن هو جو الآية الكريمة، الصدق أينما كانت وكنا؛ شرقا أو غربا قديما أو حديثا لا يتغير جو الآية بحسب الزمان أو بحسب المكان لا يمكن لمؤمن أيا كان أن يقول إن هذه الآية فيها كذب أو شبهة كذب وهي حين تحمل الصدق في نفسها تعتبر مرادفة لكلمة أخرى لا تحتمل إلا الصدق أيضا تلك الكلمة هي: «الإسلام»، الكلمة التي هي عنوان لهذا الدين فهي تحمل الصدق في نفسها لأنها تعبير موجز لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وهذه تعبير موجز لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام: ١٦٣).

ذلك أن معنى الإسلام أن تستسلم لله سبحانه وتعالى، أن توطد نفسك على أن تكون في إطار التربية الإلهية.

إسلام.. اقرأ باسم ربك.. وتوحيد أيضا.. يتفق كل ذلك ويتطابق مع كلمة الدين، الخضوع لله، الاستسلام له، فالإسلام تسليم مطلق، سئل رسول الله ﷺ

ما هو؟ فقال: أن يسلم لله قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك، فإن يسلم لله قلبك، هذا هو معنى اقرأ باسم ربك وهذا هو الدين وهذا هو: قل أن صلاتي ونسكي. الخ.

والواقع أننا منذ المبدأ مباشرة في جو من الصدق إذا تدبره الإنسان فلا يتأتى الشك فيه أو المماراة.

● **مسألة وجود الله في الإسلام:**

وإذا كان الصدق جوا من أجواء الآية فهناك جو آخر ذلك أننا كنا ننتظر أيضا أن تبدأ الرسالة بالاستدلال على وجود الله ولكن الرسالة الإسلامية لم تبدأ بالاستدلال على وجود الله وإنما بدأت بأن افترضت سبحانه وتعالى موجودا لاشك في ذلك، وأما المشكلة الكبرى أو المهمة الأساسية للدين فهي أن تقرأ باسم ربك؛ أي أن تكون حياتك في إطار التربية الإلهية.

ومسألة وجود الله سبحانه وتعالى مسألة لم توجد قط قبل العهد اليوناني وقد كانت البشرية قبل العهد اليوناني لا تنكر وجود الله ولا تلحد فيه بل كانت بالعكس تعتقد في أكثر من إله. نزل آدم عليه السلام بالتوحيد الخالص وانحرفت الإنسانية لا إلى الإنكار بل إلى التعدد فلما عم الإنكار وأوشك أن يعم نزل رسول مبشر بالتوحيد، وكل رسول كان مبشرا بالتوحيد وحينما تنتهي الحياة بالرسول يبدأ الانحراف في الإنسانية لا بإنكار وجود الله بل بالاعتقاد في أكثر من إله فينزل رسول ثالث وحكمة إرسال الرسل كانت في أساسها التبشير بالتوحيد وحينما تتصفح التوراة لا نجد فيها - حتى على وضعها الراهن - إثبات وجود الله كهدف من الأهداف فلم يكن وجود الله مشكلة حتى يكون إثبات له ثم جاءت قبل المسيحية الفلسفة اليونانية وحينما جاءت الفلسفة اليونانية كان الدين الذي عليه اليونان دينا خرافيا أسطوريا وذلك معروف ونشأ في هذه الفترة اليونانية القديمة كثير من الناس لم يرضوا بهذا الدين دينا فحاولوا أن يكونوا لأنفسهم دينا فبدأوا عقليا بإثبات وجود الله وجاءت المسيحية محررة منظمة للأمر ذاهبة إلى وضعها الصحيح وتركت خرافة أو أسطورة أو بدعة إثبات وجود الله وليس في الإنجيل محاولة من قرب

ولا من بعد فيما يتعلق بإثبات وجود الله، ولكن العقلية اليونانية التي أضرت بالبشرية كلها والتي سارت مع أديانها دائما منحرفة بها إلى الوضع البشري بدل أن تتبع هذا السمو الذي أحبه الله للإنسانية بقوانينه وقواعده كانت العقلية اليونانية تنحرف بالإنسانية إلى أن تتلوث أفكارها بالبشرية بالعقلية البشرية الغير معصومة والتي تخطئ وتصيب وقد انحرفت المسيحية إلى الوضع الذي أصبحت فيها مسألة وجود الله مشكلة يجب الاستدلال عليها.

وجاء القرآن وذهب بالإنسانية إلى الوضع الصحيح مسألة وجود الله فهي مسألة فطرية وليست من مسائل المناقشة أو الجدل أو الاستدلال بل إن وجود الله في القرآن من القداسة بحيث لا يوضع موضع الجدل ولا موضع المناقشة ولا موضع الاستدلال، ليس هناك هدف في القرآن هو إثبات وجود الله، هناك مثلا هدف في القرآن هو إثبات رسالة الرسول ﷺ، إثبات صدق الرسول ﷺ، وهناك آيات كثيرة بهذا الصدد وآيات كثيرة في إثبات التوحيد صراحة أو ضمنا وبكل وسيلة من وسائل الإثبات تلك أهداف من أهداف القرآن لكن تجرَّد القرآن تماما من هدف إثبات وجود الله إذ لا يتأتى مطلقا أن يضع الله نفسه مسألة وجوده موضع استدلال لأن الاتجاه إلى الاستدلال ينطوي في ثناياه على أن الأمر الآخر - وهو الإنكار - محتمل، ولا يتأتى أن يضع الله مجرد وجوده لا صفة من صفاته موضع مناقشة واستدلال للأخذ والرد ومن أجل ذلك لم يكن هناك في أول آية نزلت من القرآن محاولة لهذا الإثبات.

ثم حينما بدأ الرسول ﷺ يعلن الإسلام ويجهر به لم يبدأ بإثبات وجود الله وإنما بدأ بالأسلوب الصحيح القويم. . التحدي بصدقه. . إثبات أنه صادق، هل عهدتم علي كذبا؟ أعلنوا جميعا أنهم لم يعهدوا عليه من كذب قط، وأنه كان صادقا طول حياته. وكان من المنطق حين أعلنوا عن صدقه أن يؤمنوا بما جاء به لكنهم لم يؤمنوا لأسباب كثيرة تحدث عنها القرآن منها مثلا : التنافس القبلي. الرسول ﷺ لم يحاول إثبات وجود الله، ولكن من الغريب أيضا أنك إذا تصفحت العهد المكي لا تجد سؤالا وُجِّه لرسول الله ﷺ عن إثبات وجود الله ولا تجد

الرسول ﷺ يتحدث عن هذا الإثبات وإذا انتقلنا إلى عهد سيدنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي لا نجد المسألة تطرح على بساط البحث وإذا سرنا إلى عهد الأمويين حتى عند نشوء المعتزلة في آخر عهد الأمويين والمعتزلة سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، عدل الله وتوحيد الله لم يدر في خلدهم مسألة إثبات وجود الله وهكذا الأمر إلى عهد المأمون، في هذه الفترة - من بدء الإسلام حتى عهد المأمون - لم يدر أبدا نقاش ولا جدل ولا حديث عن مسألة وجود الله إثباتا ولا إنكارا وإنما القضية مسلمة في كل هذه الأجواء وفي كل هذه العهود.

في عهد المأمون ترجمت الفلسفة اليونانية ولمَّا ترجمت الفلسفة اليونانية ترجمت بكل ما فيها من أضاليل وبكل ما فيها من أوهام وانحرافات وقد انحرفت الأمة اليونانية في الفن وانحرفت في الأدب والفلسفة والفكر وانحرفت في كل المجالات التي تحدثت عنها وخاضت فيها وهذا الانحراف هو الذي أثر على الأمم في مجال التاريخ الواسع لأنها انحرفت إلى البشرية، والإنسان ميال بطبيعته إلى أن يحقق بشريته التي تخطئ وتصيب وتهتدي وتضل، وليس ذلك بالأمر الصعب على الإنسان بل إن الإنسان يندفع بغريزته إلى أن يحقق بشريته، وما أتت الأديان إلا لترتفع بالإنسان إلى درجة من الدرجات الإيمانية التي يحبها الله ويحبها رسوله.

ترجمت الفلسفة اليونانية في عهد المأمون كما قلنا وكان المسلمون قبل ذلك يرون أن هذا الذي يترجم إن كان في مجال العقائد حقا فعندنا ما هو أحق منه وهو عقيدتنا بالأسلوب القرآني، فقرآننا بأسلوب عربي مبين، هو الأسلوب الإلهي الدقيق في نضرته في صفائه في قوته في دقته مالنا وللبشر الآخرين في البيئات والأديان الأخرى نترجم ثقافتهم في العقائد وهل عندنا نقص في هذا المجال؟ كان ذلك شعور المسلمين وكان الأمر كذلك في مجال الأخلاق فعندنا مصدران. . الكتاب والسنة وإن كانت الأخلاق الواردة حقا فعندنا ما هو أحق منها وإن كانت باطلا فنحن في غنى عن هذا الباطل.

وتحدى المأمون شعور المسلمين الأتقياء تحداهم في صراحة، وأمر بترجمة

الثقافة اليونانية في غثها وسمينها في خطئها وفائدتها في انحرافها وعدم انحرافها وأتت مع هذه الثقافة فكرة إثبات وجود الله. . هذه الثقافة كان من الممكن أن تكون محدودة لولا أن الأمراء في عهد المأمون حاولوا التقرب إليه، ومن وسائل التقرب أن يكونوا مع هوى المأمون، وهواه في ترجمة هذه الثقافة وبذلوا هم الآخرون الأموال في ترجمتها. الأثرياء حاولوا كذلك التقرب إليه بهذه الترجمة فبذلوا هم الآخرون أموالهم في هذا السبيل كما حاول المثقفون نفس الشيء فأقبلوا على تعلم الثقافة اليونانية وتعليمها وشاعت الثقافة اليونانية. وبدأت ينفر منها المسلمون الأتقياء وبدأت كأنها ليست لها شرعية الإقامة ولكنها أخذت تتخذ مظهر الشرعية في الإقامة وأقامت واحتلت أرض المسلمين وأذهانهم وعقولهم وبدأت مسألة وجود الله معها تتخذ مظهر المشكلة بل انتهى بها الأمر إلى أن أصبحت المسألة الأولى في علم الكلام الإسلامي مع أنها بدعة يجب أن تزول من الجو.

● **علاج الملحدين :**

هناك من يتساءل عن الملحدين كيف نناقشهم والواقع أن الملحد لا يؤمن بالمناقشة بل هو الذي يحاول أن يجرك إليه. أن يجعلك من الملحدين ما استطاع إلى ذلك فإن الملحدين في أغلبهم الأعم طائفة مأجورة تنطق باسم الأجر الذي تأخذه وإذا لم يمكن أن يتخلى عن أجره إذن لا يتخلى عن فكرته ولو ظهر له الحق.

ولكن ما هو الحل الإسلامي لموضوع الملحد؟ الواقع أن هناك مقدسات في كل دولة، مثلا أمريكا من مقدساتها الرأسمالية وكل دعوة إلى الشيوعية في عرف أمريكا تذهب بصاحبها إلى السجن والتنكيل، وروسيا من مقدساتها الشيوعية وكل دعوة إلى الرأسمالية في روسيا تذهب بصاحبها إلى التنكيل والتعذيب والسجن. للدول مقدسات وأقدس مقدسات الدولة الإسلامية هو الإيمان بالله ويجب على الأقل أن يكون لنا في القانون ما يشبه ما في قوانين أمريكا وروسيا فيما يتعلق بمقدساتها، أما الحل الإسلامي في نفسه فهو أن الملحد مرتد يستتاب وإلا قتل ولتنفذ هذه الفكرة في شخص واحد في قطر فسوف لا تجد في هذا القطر ملحدا

واحدا وإذا نفذ نظام الإسلام كان ذلك هو الحل الوحيد لأزمة - إن كان هناك أزمة - الانحراف الإلحادي في الأمة الإسلامية.

● **موقفنا من الثقافة الغربية:**

والسؤال الأخير الذي أسأله وأجيب عليه لننتهي من هذه المحاضرة هو ما قد يقوله قائل: **ماذا نفعل بهذه الثقافة الغربية، أنتركها تركا باتا لا نتفهمها ولا نعقلها ولا نبحث فيها، أننعزل عن هذا العالم؟**

وهذا ما لا أدعو إليه ولا أقول به إنما الذي أريده من المسلمين أن يأخذوا هذه الثقافة بمأخذها الواقعي الصحيح أي أنها ثقافة بشرية ثقافة معارضة بالثقافات الأخرى البشرية في البيئات الغربية أيضا، إنها ثقافة لا نسبة لها إلى الصدق إلا كنسبة الرأي المعارض، ومن أجل ذلك كانت كلها منذ أن وجدت إلى الآن ظنية وليس فيها مسألة عقلية واحدة يمكن إثباتها في يقين، **ولقد كان منهج الإمام الغزالي في تحدي الفلاسفة منهجا من أقوى المناهج: إنكم تقولون بالعقل، وتثبتون بالعقل وها أنذا أجعل جميع آرائكم منهارة بالعقل نفسه وليس منطقي بأقل من منطقكم بل ربما يكون أقوى.** وهدم الإمام الغزالي جميع آراء الفلاسفة بالعقل نفسه الذي برهن به الفلاسفة على جميع آرائهم .. إذا أخذناها على هذا الوضع فليس هناك من بأس من أن نعبث فيها إذا شئنا أن نعبث في يوم من الأيام.

والوضع الصحيح أن يكون المنبع الوحيد لثقافتنا لأخلاقنا لتشريعنا لعقائدنا هو ما أحبه الله ورسوله: القرآن والسنة ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١).

نشر السنة

واجب ديني وإصلاح خلقي واجتماعي

العدد (٨٨) ربيع الآخر (١٣٩٢هـ) - مايو (١٩٧٢م).

في لقاء لمجلة منبر الإسلام القاهرية مع الدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف وشؤون الأزهر دار الحديث فيه حول السنة النبوية ومكانتها ودورها التشريعي والإصلاحي قال فضيلته: إن السنة دعوة بالحسنى إلى الرقي الأخلاقي الذي تجري وراءه الإنسانية المهذبة.

إنها دعوة إلى التاجر أن يكون صدوقا فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء.. وإلى العامل أن يتقن عمله «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وإلى الصانع أن يؤدي العمل كما يجب حيث أخذ الأجر، ومن أخذ الأجر حاسبه الله على العمل.

وهي دعوة إلى الأب باعتباره أبا، وإلى الأم في وضع أمومتها، وإلى الأخ في مهمة أخوته، وإلى غيرهم من أفراد المجتمع، أن يرعى كل منهم ما وكل إليه من أمر رعيته، لأنه مسؤول عن رعيته يقول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهى مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وككم مسؤول عن رعيته».

وهي دعوة للناس إلى الأمانة حيث إنه لا إيمان لمن لا أمانة له، وإلى الصدق، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ويقول ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن

الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا». وهي دعوة الى الرحمة العامة الشاملة.. وصلوات الله وسلامه على من قال: «إنما أنا رحمة مهداة» ومن قال: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» ومن قال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله». وخذ أي خلق كريم تتمنى أن يسير عليه المجتمع فسترى في السُّنة دعوة إليه بوسيلة وبأخرى وبثالثة.. خذ مثلا ترابط المجتمع وتضامنه فستجد قوله ﷺ: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا ما استقوا من الماء مروا على من فوقهم: فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».

وقوله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وهى في هذه الدعوة تنبه دائما إلى دور الأمة الإسلامية في الأخلاق العالمية.. إن دورها إنما هو دور الرائدة الراعية، وعلى الرائد دائما ان يكون المثل الأعلى، والأسوة الكريمة، والقدوة الصالحة.. ورسول الله ﷺ يقول: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وفى رواية أخرى: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق». ومن قوله المعبر صلوات الله وسلامه عليه: «إن من أحبكم إلي وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا».

ولقد كان رسول الله ﷺ الصورة الحية الناطقة التي طبقت ـ كمبادئ إنسانية ممكنة ـ الخلق الذي رسمه الله وأحبه للإنسانية جمعاء والذي عبرت عنه السُّنة

أجمل تعبير وأبلغه.

قد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟.. قالت، كان خلق رسول الله ﷺ القرآن.. ثم قالت : أتقرأ سورة المؤمنون اقرأ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ (المؤمنون: ١-١١). قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

ومن أجل هذا التقدير الكريم للسُّنة الشريفة، كان العلماء المستنيرون في كل عصر يجاهدون من أجلها ومن أجل مكارم الأخلاق التي تعبر عنها. وكان هؤلاء العلماء علماء السُّنة يعرفون بسيماهم. فقد كانوا من الزهد في حطام الدنيا بحيث لا ينازعون الناس في دنياهم.

لقد كانوا مشغولين عن جمع المال بخدمة الدين، وكانوا مشغولين عن الجاه بغرس الخلق الصالح الكريم، وكانوا مشغولين عن السلطان بمن بيده السلطان يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ (آل عمران: ٢٦ - ٢٧).

وكانوا صادقين، وقد كان الصدق دينهم.. فطرتهم مهما نالهم في سبيله من أذى وكانوا صابرين على الحياة، وصابرين على العمل.

لقد أقاموا نهارهم وأسهروا ليلهم عملا على مرضاة الله ورسوله ﷺ.

والمثل الذي نحب أن نسوقه ـ كصورة لهؤلاء القوم ـ هو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، إنه المحدث الذي حاول أن يكون صورة صادقة لما كان عليه رسول الله ﷺ في الزاوية الأخلاقية.

وسيرة الإمام ـ رضوان الله عليه ـ مثل أعلى في التمسك بما يراه حقا، وفي الصبر على ما يناله في سبيل التمسك بالحق.

على أن كل من تشبع بالسنة حقا إنما هو صورة ـ قريبة بقدر المستطاع ـ من الإمام أحمد.

ولقد كان الإمام البخاري وغيره ممن أشربت نفوسهم حب السنة أمثلة كريمة للخلق الكريم.

ومن الأمثلة التي يجهلها الناس عادة وهي مثال لخلق المحدثين مثال الإمام سفيان الثوري.

يقول صاحب كتاب «نتائج الأفكار القدسية» عنه: كان عالم هذه الأمة وعابدها وزاهدها، وكان لا يُعلِّم أحدا العلم حتى يتعلم الأدب، ولو في عشرين سنة، وكان يقول: إذا فسد العلماء فمن بقى في الدنيا يصلحهم؟ .. ثم ينشد:

يا معشر العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وكان سفيان المذكور كما حكي عنه في الطبقات الصغرى، إذا جلس للعلم وأعجبه منطقه، يقطع الكلام ويقوم ويقول: «أخذنا ونحن لا نشعر» وكان يملي الحديث ويقول: «والله لو رآني عمر بن الخطاب لضربني بالدرة وأقامني وقال: مثلك لا يصلح للحديث»، وكان يقول للناس إذا طلبوا منه الحديث: «والله ما أرى نفسي أهلا لإملاء الحديث، ولا أنتم أهلا أن تسمعوه، وما مثلي ومثلكم إلا كما قال القائل: «افتضحوا فاصطلحوا». وكان قد امتنع من الجلوس للعلم، فقيل له في ذلك فقال: «والله لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه الله لأتيتهم في بيوتهم وعلمتهم، ولكن إنما يريدون به المباهاة وقولهم حدثنا سفيان».

لقد وقفت طويلا عند قوله: (إذا جلس للعلم وأعجبه منطقه يقطع الكلام ويقوم ويقول: «أخذنا ونحن لا نشعر».

لقد أخذت أتأمل في هذه الحادثة التي تعتبر عن محاولة مخلصة للابتعاد عن الفخر والعجب، وذلك من أجل إخلاص النفس في حركاتها وأفعالها وأقوالها لله وحده.

إن الناس عادة يباهون بمنطقهم القوي، وبأقوالهم الحسنة، وبتعلق الناس بهم، ويحبون المدح والثناء. أما سفيان فإنه حينما كان يجلس للدرس فتتعلق الآذان بمنطقه الرائع، وتتعلق القلوب بمعانيه النقية، وتمتد إليه الأعين لا تريد أن تفوتها حركة من حركاته، ويسكت الناس وكأن على رؤوسهم الطير، فيجد سفيان أحيانا لكل ذلك أثرا من الارتياح في نفسه، يعتريه مباشرة الخوف من أن يكون ذلك إعجابا أو فخرا أو كبرياء، فيستغفر الله: ويطوي أوراقه، ويقول كلمته: «أخذنا ونحن لا نشعر».

والأمثلة للخلق الكريم هدف ـ دائما ـ لسهام العصابات الأثيمة التي استهواها الشيطان في قليل أو في كثير، إنه النزاع الدائم بين الفضيلة وأصحابها وبين الممثلين لنزعات الهوى والضلال.. ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الأخلاق في كل عصر، لفقدت الإنسانية الثقة بنفسها، وما اطمأن إنسان لإنسان، وما وثق شخص بآخر.

لقد ربت السنة رجالا، وخصائصها التي ربت بها الرجال موجودة فيها لأنها من طبيعتها ومن ذاتها، لقد شهدت الإنسانية واعترفت بسمو هؤلاء الرجال، وأولتهم ثقتها وتقديرها.

إن الإمام أحمد بن حنبل، وإن الإمام البخاري، وإن أمير المؤمنين في الحديث الإمام سفيان الثوري وأمثال هؤلاء. رضي الله عنهم. منارات يهتدي بها عشاق المثل العليا الأخلاقية.

لابد ـ إذن ـ من العمل على نشر السنة وإذاعتها، ومحاولة الإكثار من النفوس التي تتشربها وتحققها وتتمثلها وتجعلها كيان حياتها.

ولابد من نشرها للثروة اللغوية. ومن أجل ذلك كله شرعنا بتوفيق الله تعالى في إنشاء كلية للسُنَّة، مبتدئين في ذلك بالنواة الأولى لها وهى (القسم العالي للسُّنة) الذي يتبع مؤقتا كلية أصول الدين.

* * *

وإن أول هذه الكتب وأجدرها بالعناية وبتكرار القراءة هو صحيح البخاري،

ورضي الله عن مؤلفه. . وصحيح البخاري يفيد في:

١ـ اللغة، فهو ثروة لغوية هائلة، والإمام البخاري يفسر في كثير من الأحيان بعض الألفاظ، ومنها ألفاظ القرآن الكريم.

٢ـ الأسلوب، إنه أعلى أسلوب بشري فهو أسلوب رسول الله ﷺ الذي أوتي الفصاحة والبلاغة وجوامع الكلم.

٣ـ أحكام الدين: إن الإمام البخاري رضي الله عنه رتبه على أبواب الفقه، وفي كل حديث منه توجيه أو شرح لزاوية من زوايا الدين.

٤ـ الأخلاق في ذروتها وقمتها، والله سبحانه وتعالى يقول عن صاحبها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم: ٤).

٥-وقراءته تفيد كثيرا في فهم القرآن، بل يمكنك أن تقول إنها كلها فوائد في فهم القرآن. إنها تفيد في ناحية اللغة. وتفيد من ناحية العمق في فهم الأسلوب، وتفيد كثيرا من ناحية ما تذكره عن أسباب نزول الآيات، وتفيد في فهم القرآن حينما تتحدث بطريقة مباشرة عن تفسير القرآن الكريم.

٦ ـ ولقد سئلت مرة عن أحسن سيرة لرسول الله ﷺ، فقلت: صحيح البخاري وصحيح مسلم وكل الأحاديث الصحيحة. . وذلك أن سيرة رسول الله ﷺ تبدو أوضح ما تكون وأدق ما تكون في الأحاديث الصحيحة، وكل حديث منها هو سيرة، سواء تعلق بالأخلاق أو بالغزوات أو بالعبادات أو بالتشريع، وهي تفيد في تصوير البيئة والجو الذي كان يعيش فيه رسول الله ﷺ، وتفيد في بيان مدى التغيير والتبديل الذي أحدثه رسول الله ﷺ في بيئته عن طريق الوحي.

٧ـ وقراءته عبادة، وذلك أنه تعلم لسيرة الرسول ﷺ، وتفقه في أحكام الدين: ووسيلة للتخلق بأخلاق من قال فيه الإمام البوصيري:

ومنتهى القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

والأمر كذلك فيما يتعلق بصحيح الإمام مسلم.

وإذا كان صحيح الإمام البخاري أصح كتاب بعد القرآن الكريم، فإن صحيح الإمام مسلم لا يكاد يقل عن هذه المرتبة، وكلاهما من الكتب المباركة. .

والفوائد التي تترتب على القراءة في كتاب البخاري هي الفوائد التي تترتب على القراءة في صحيح الإمام مسلم، وهي الفوائد التي تترتب على قراءة الموطأ للإمام مالك رضي الله عنه.

وإذا كان موطأ الإمام هو أولا وبالذات كتاب فقه، فإنه يستند في آرائه إلى الأحاديث الشريفة، ويرتبها بحسب الباب الذي يتحدث فيه وبحسب فصول الباب.. إنه كتاب (فقه) في الصورة المثالية، وهو كتاب «حديث» من أوثق كتب الحديث، وهو يشترك مع الصحيحين في أنه يصور السيرة النبوية بالمعنى العام للسيرة.

وإن من الكتب المباركة التي يجب أن تكون عند كل مسلم، كتاب رياض الصالحين.. ولقد تحرى الإمام النووي أن لا يدخل فيه إلا الصحيح والحسن من الأحاديث، وهو كتاب يصف الأخلاق الإسلامية في مكارمها وفي سموها.

وبعد: فإن السُّنة النبوية الشريفة هي تصوير لأكرم الخلق على الله، إنها صورة من جعله الله أسوة حسنة، فقراءتها وتدارسها وتدريسها إنما هو وسيلة لاتباعه ﷺ، وفي ذلك اتباع للخير ونشره. وصلوات الله وسلامه على من كان خلقه القرآن.

الوحدة الإسلامية

العدد: (١٠٨) ذوالحجة (١٣٩٣هـ) ديسمبر (١٩٧٣م)

بعث الله رسوله محمدا ﷺ برسالة الإسلام، وهي هدي الله للإنسانية جمعاء، فكان من صحابته الأوائل الذين استجابوا للدعوة في بكورها، بلال الحبشي وصهيب الرومي، وكون الرسول من صحابته هؤلاء، على اختلاف أجناسهم، جماعة واحدة قامت على أكتافها أعباء الرسالة الإسلامية.

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة وحد بين أهلها من الأوس والخزرج، كما وحد بين المهاجرين والأنصار. فنشأت الدولة الإسلامية بالمدينة، على أكتاف هذه الجماعة الإسلامية الموحدة، فكانت الوحدة منهج هذه الدولة، وقوامها، ولم يكن يعكر صفو هذه الوحدة أو يهدد كيانها غير مؤامرات اليهود ودسائسهم، فكان إجلاء الرسول لهم عن المدينة درسا خالداً لأمته يتعلمون منه أن اليهود مصدر خطر دائم على وحدتهم، وأن التخلص منهم وإجلاءهم عن الأرض العربية ضرورة لقيام هذه الوحدة واستمرارها مع ضرورة مفروضة عليهم يسعون إليها بالجهاد وبكل وسائل الكفاح.

لم يرحل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، إلا وقد توافدت عليه قبائل الجزيرة العربية من الشمال والجنوب والشرق والغرب تبايعه على التوحيد وتتوحد تحت راياته.

ولم تنقض خلافة الراشدين الأربعة - رضي الله عنهم - إلا بعد أن وحدت بين مختلف الأجناس في شرق الدولة الإسلامية وغربها.

فالوحدة أساس قيام الدولة الإسلامية، وسر قوتها، واستمرارها.

وكما أن الوحدة قوة للمؤمنين، فهي سند إيمانهم وركيزتهم يدعون إليها حين يدعون إلى عبادة الله الواحد.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء: ٩٢).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون: ٥١-٥٢).

وقال رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وعندما دعا الله - سبحانه - المسلمين إلى الجهاد دعاهم إليه باعتبارهم وحدة جامعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ (الصف: ٤).

وترتبط وحدة الأمة الإسلامية بأسس الإسلام في العقيدة والشريعة والأخلاق جميعا.

في مجال العقيدة ترتبط هذه الوحدة باتجاه المسلمين إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فقلوب المسلمين تتجه بكليتها إلى وجهة واحدة، وهي عبادة الله الأحد الذي لا ولد له ولا صاحبة ولا حاشية، الذي له الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، الذي لا فضل عنده لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

هذه القلوب المخلصة للوجهة الواحدة، يربيها الإسلام على الوحدة تربية لا نظير لها في عقيدة أخرى.

وفي مجال الشريعة ترتبط هذه الوحدة بالتزام المسلمين بنظام تشريعي واحد مصدره الله الواحد الأحد ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

هنا تقوم معيشة المسلمين، ويقوم نظام حياتهم على أسس ومبادئ موحدة في جميع المجالات التي لا يشملها التشريع، في نظام الدولة، ونظام الأسرة، في نظم الحياة الاقتصادية، وفي نظم العلاقات الاجتماعية وغيرها.

وفي مجال الأخلاق ترتبط هذه الوحدة بتربية المسلمين وفقا لمبادئ وأسس أخلاقية ثابتة موحدة، في الأخوة، والرحمة، والعدل، والشجاعة، والكرم وغيرها من أمهات الفضائل والقيم الإسلامية التي وضحها الكتاب، ووضحتها السنة، وصارت دستورا لأخلاق المسلم، في أي بقعة من بقاع الأرض وفي أي فترة من فترات التاريخ.

وإن المنهج الذي يرشد إليه الإسلام لتحقيق هذه الوحدة بسيط بساطة الأسس التي تقام عليها.

يتمثل هذا المنهج في قوله تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (آل عمران: ١٠٣).

إذا فزع المسلمون إلى حبل الله وشريعته، إذا اعتصم المسلمون بهذا الرباط الموصول بينهم وجدوا أنفسهم على طريق واحد وعلى مسيرة واحدة، وعلى مقصد واحد، ولا يبقى بعد إلا شكل يختار لها، شكل يدعو إليه الواقع أو يفرضه، فهو سهل التطبيق.

ان منطلق هذه الوحدة ومسلكها يقوم على الالتحام الصادق بالعقيدة الإسلامية التحاما لا يتيح فرصة أو يترك ثغرة لتطفل التيارات الغازية التي تصدر إلى المجتمعات الإسلامية هادفة تنحية الإسلام من قلوب المسلمين وأفكارهم.

والالتحام بالعقيدة مظهره تحكيم شريعة الله في كل شؤوننا فنطبق حدوده، ونلتزم بما أمر به، وننتهي عما نهى عنه، بحيث يبدو المجتمع المسلم تجسيدا حيًّا للإسلام في عقيدته وشريعته.

ونحب أن نوجه نظر أولئك الذين يظهرون التخوف أو غير صادقين إلى أن تطبيق الحدود الإسلامية التي شرعها الله محوط بأقوى ضمانات التطبيق في شريعة الإسلام.

ثم إن تطبيق هذه الحدود من شأنه أن يجفف منابع الإثم، والتجارب في بعض الدول الإسلامية التي التزمت بتطبيق حد السرقة خير شهيد.

وإننا نرى اليوم وفي الثلث الأخير من القرن العشرين في بعض البلاد صاحبة النفوذ حكومات جعلت الإعدام عقوبة تطبق على السارق.

على أن الأمر، من قبل ومن بعد، هو تحتم الاستجابة الطيعة لتطبيق تعاليم الإسلام ومقرراته، دون هوادة أو تراخ، لأن ذلك مظهر الانتماء الصادق لهذا الدين.

وإذا كان لا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، فإنه يجب أن تغطي تعاليم الإسلام كل جانب من جوانب حياتنا: تربويًّا، وقانونيًّا، وثقافيًّا، وإعلاميًّا، واقتصاديًّا، وسلوكيًّا، فلا يكون في أي جانب من حياتنا ما يجافي الإسلام أو يخرج عليه، لا نفرط في ذلك ولا نقصر دون بلوغ الغاية.

هذه هي ضرورة الوحدة في الإسلام.

وهذا هو منهج الإسلام إلى الوحدة، وفضلا عن ذلك فلقد أصبحت اليوم ضرورة حياة للمسلمين في مشرق الأرض ومغربها.

إننا في عصر تفرقنا فيه فتداعت إلينا الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وتوزعنا الأقوياء شيعا وأتباعا، وصرنا نتلمس الرضا من كل جانب، وأنه لا نجاة لنا ولا عصمة ولا نصر إلا بوحدة تجمعنا على حبل الله.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

كانت الوحدة سر قيام هذه الأمة، وسر قوتها، والآن تصبح هذه الوحدة سر استمرارها ونجاتها، وإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

فقيه مصر الليث بن سعد (١)

نشأته وحبه للعلم

العدد (١٤٥) محرم (١٣٩٧هـ) - يناير (١٩٧٧م).

الليث بن سعد بن عبدالرحمن، ويكني أبا الحارث، والمشهور ـ كما يقول الخطيب البغدادي ـ أنه «فهمي»، أما كونه «فهمي» فإن مما يؤيده ما ذكره القلقشندي قال: (وقال القضاعي في خططه في الكلام على دار الليث بالفسطاط: وكان له دار بقرقشندة بالريف بناها فهدمها ابن رفاعة أمير مصر عنادا له، وكان ابن عمه فبناها الليث ثانيا: فهدمها، فلما كانت الثالثة أتاه آت في منامه فقال له: يا ليث:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ (القصص: ٥).

فأصبح وقد فلج ابن رفاعة، فأوصى إليه ومات بعد ثلاث).

ويبدو أنه ندم على ما كان منه بالنسبة لليث، يقول يحيى بن بكير: « كتب الوليد بن رفاعة ـ وهو أمير مصر ـ في وصيته: قد أسندت وصيتي لعبدالرحمن بن خالد بن مسافر إلى الليث بن سعد، وليس لعبد الرحمن أن يفتات على الليث فإن له نصحا ورأيا.. وكان الليث يومئذ ابن أربع وعشرين سنة).

ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق:

«وابن رفاعة المقصود هنا هو الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت ابن ظاعن الفهمي الذي ولي مصر سنة ١٠٩، وتوفي وهو وال عليها سنة ١١٧، والوليد بن رفاعة عربي صراح، ومن فهم، ليس في نسبته خلاف، فإذا كان الليث ابن عمه فهو أيضا عربي فهمي».

ونقل البغدادي رواية عن أبي مسلم صالح بن أحمد بن عبدالله العجلي عن أبيه

قال: «ليث بن سعد يكنى أبا الحارث، مصري فهمي ثقة» أهـ.

ونحن لا نرى إلا أن الإمام الليث مصري عربي من فهم.. وفهم بطن من قيس علان، ومرجعهم إلى العدنانية.

ونحن إذا كنا نرى أن الإمام الليث مصري عربي من فهم فإننا نوافق في ذلك بعض من كتبوا عنه.. بيد أن كثيرا من المؤرخين يرون رأيا آخر.. ويكفينا المشهور من أنه: «عربي من فهم»، وما روي من أنه ابن عم أمير مصر، ابن رفاعة العربي الأصيل.

أما عن تاريخ ميلاده فإن أرجح الأقوال أنه ولد سنة أربع وتسعين. وروي ذلك عن الليث نفسه، يقول ابن بكير: سمعت الليث يقول: «ولد في شعبان سنة أربع وتسعين». ويحدد ابن بكير أكثر فيقول: «لأربع عشر خلت من شعبان..» ويزيد ابن حبان الأمر تحديدا فيقول: «يوم الجمعة». أما مكان ميلاده فـ:«قلقشندة»، وهي بلدة أبي العباس القلقشندي. وحينما يتحدث القلقشندي عن محافظة القليوبية فإنه يقول: «ومن بلادها بلدتنا قلقشندة»، ثم يصفها بقوله: «وهي بلدة حسنة المنظر، غزيرة الفواكه»، ثم يقول: «وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير»، وذكر ابن يونس في تاريخه أن الليث ولد بها..

وقد كان الليث يحبها حبا كثيرا، يدل عليه أنه حينما بنى بها بيتا وهدمه ابن عمه الحاكم أعاد بناءه، ثم أعاد البناء للمرة الثالثة بعد أن هدمه الحاكم في المرة الثانية، وليس حبه بغريب، فهي مهد ميلاده، ومكان نشأته وصباه، وكانت: «حسنة المنظر، غزيرة الفواكه» وبعض الناس يقول عنها: قرقشندة...

ولقد أبدل ياقوت في معجم البلدان اللام وراء، يقول صاحب «صبح الأعشى»: «وهو الجاري على ألسنة العامة، وعليه جرى القضاعي فيما رأيته مكتوبا عنه في خططه».. ولكن ذلك خطأ يعلنه القلقشندي وهو العالم الكبير الذي يوثق بكلامه عن بلدته، ويوافقه في ذلك ابن خلكان الذي يذكر ضبطها فيقول: «بفتح القاف وسكون اللام. وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة». وهكذا هي مكتوبة في دواوين الديار

المصرية، وهذا الضبط في الشكل هو نفس الضبط فيما جرى على ألسنة العامة: أعني قرقشندة.. وهذه البلد تقع الآن في مركز طوخ.

ولد الإمام بهذه البلدة، وأخذ يتعلم على الصورة المألوفة حينئذ: كانوا يبدأون بحفظ القرآن، ويتعلمون عن طريق ذلك الكتابة والقراءة، وكانوا يتعلمون علوم القرآن، ويتعلمون الحديث والفقه وعلوم الإسلام والعربية على وجه العموم.

وبدت نجابة الليث في سن مبكرة، بل كان إماما يفتي وهو في بواكير شبابه. روى ابن حجر العسقلاني عن يحيى بن بكير أنه قال: سمعت شرحبيل بن يزيد يقول: أدركت الناس في زمن هشام بن عبدالملك وهم متوافرون، مثل يزيد بن حبيب، وعبيد الله بن أبي جعفر، وجعفر ابن أبي ربيعة، والحارث بن يزيد، وابن هبيرة، ومن يقدم مصر من علماء أهل المدينة ومن علماء أهل الشام، للرباط، والليث بن سعد يومئذ حدث شاب، وإنهم ليعرفون فضله، ويقدمونه ويشار إليه.

وقال يعقوب بن سفيان: «سمعت يحيى بن بكير يقول: سمعت الليث يقول: رآني يحيى بن سعيد الأنصاري وقد فعلت شيئا من المباحات، فقال: لا تفعل فإنك إمام منظور إليك.. قلت: ويحيى بن سعيد تابعي من شيوخ الليث».

لقد كان إماما منظورا إليه وهو يومئذ حدث شاب.. وإذا كان هذا الحدث الشاب بلغ هذا المبلغ فإنه قد بلغه بجده واجتهاده، وبلغه بذكائه المتوقد، وذاكرته القوية.

ولم ينم الفتى الإمام على شهرته هذه التي بلغها، ولا على تقديره هذا الذي كان له وسط العلماء، وإنما واصل الليل بالنهار في الدراسة والأخذ عن العلماء.. وكان أستاذا يدرس للجمهور والعلماء، وتلميذا يتلقى عن العلماء، واستمر كذلك إلى نهاية حياته.. ونروي عن ذلك بعض القصص: لقد حج أول حجة سنة ثلاث عشرة ومائة، وكما يقول الله تعالى في الحجاج: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٨) فإن الليث كانت منافعه التي شهدها في هذه الحجة هي أن يأخذ عن العلماء: قال البخاري: «قال يحيى بن بكير عن الليث قال: سمعت من ابن شهاب الزهري بمكة سنة ثلاث عشرة، وهي أول سنة حج».

وكان الليث يجل ابن شهاب ويحبه ويحترمه لعلمه وفضله، روى ابن حجر عن عمرو بن خالد قال: «قلت لليث: بلغني أنك أخذت بركاب ابن شهاب الزهري.. قال: نعم، للعلم، فأما لغير ذلك فلا، والله ما فعلته بأحد قط» ويقول ابن حجر عن الليث: «وقد سمع من ابن شهاب الزهري كثيرا، ويدخل بينه وبين الزهري الواسطة بواحد، وباثنين، وبثلاثة».

وكان من منافع الليث التي شهدها بمكة في حجته تلك أن أخذ عن نافع مولى ابن عمر، ونافع هذا من أوثق الرواة عن ابن عمر: لم يختلف في ذلك أحد من المحدثين، والسلسلة الذهبية عند كثير من المحدثين: مالك عن نافع عن ابن عمر.. يقول الليث فيما رواه غير واحد:

«دخلت على نافع مولى ابن عمر فقال: من أين؟

قلت: من أهل مصر.

قال: ممن؟

قلت: من قيس.

قال: ابن كم؟

قلت: ابن عشرين.

قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين».

كان نافع أسمر اللون، ومن طريف ما يروى عن الليث في حجته تلك أنه لم يحج وحده وإنما رافقه ابن لهيعة.. ويقول الليث: «حججت أنا وابن لهيعة فرأيت نافعا مولى ابن عمر فدخلت معه إلى دكان علاف فحدثني، فمر بنا ابن لهيعة فقال: من هذا؟ قلت: مولى لنا. فلما رجعنا إلى مصر جعلت أحدث عن نافع، فأنكر ذلك ابن لهيعة وقال: أين لقيته؟ قلت: أما رأيت العبد الذي كان في دكان العلاف؟ هو ذاك.

ويقول ابن حجر:

«وقعت لي نسخة الليث بن سعد عن نافع، فيها من الأحاديث المرفوعة والموقوفة نحو المائة، ومع ذلك فكان الليث يروي عنه ما ليس عنده منه مشافهة،

ـ بالواسطة ـ وربما روى عنه بأكثر من واسطة واحد» وإذا كان ذلك وهو في سن العشرين فإن السنين تمضي وهو في نفس الأسلوب من الدراسة والتدريس وها هو ذا قد نيف على الستين، وقد سافر إلى العراق.

ويقول أبو صلاح: «خرجت مع الليث في سنة إحدى وستين بعد المائة فشهدنا الأضحى ببغداد، فقال لي الليث: سل عن منزل هشيم الواسطي فقل له: أخوك الليث المصري يقرأ عليك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئا من كتبك.

فذهبت إليه، ففعل، فكتبت لليث منها، وسمعتها من هشيم مع الليث».

والمتتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيرا مما يتعلق بحسن السلوك وكمال الخلق إلى جانب ما يتعلق بأحكام الحدود والمعاملات كما يقول المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق.

وفي بغداد ـ في هذه الرحلة ـ جرى حديث بين الإمام الليث وهارون الرشيد، فيه حكمة وفيه من سداد الرأي ما فيه..

روى ابن حجر عن الليث بن سعد قال: «ولما قدمت على هارون الرشيد قال لي: يا ليث، ما صلاح بلدكم؟ قلت، يا أمير المؤمنين، صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتي الكدر فإذا صفا رأس العين صفت العين، قال: صدقت يا أبا الحارث».

استفاد الليث من رحلاته صغيرا، واستفاد من رحلاته كبيرا، وكانت حياته كلها استفادة وإفادة.. يقول أبو نعيم في الحلية:

«أدرك الليث نيفا وخمسين رجلا من التابعين».

ويقول ابن حجر عمن تلقى عنهم الليث:

«سمع ببلده من يزيد بن أبي حبيب، وجعفر بن ربيعه، والحارث ابن يعقوب، وعبيد الله بن أبي جعفر.. وبالحجاز من عطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وأبي الزبير محمد بن مسلم المكي، وأيوب بن موسى الأموي، وعبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة، وعمرو بن شعيب، وعمرو بن دينار، وقتادة» وسمع في رحلته إلى العراق ـ وهو كبير ـ من

هشيم وهو أصغر منه.

ويقول ابن حجر أيضا: «وسمع من أبي الزبير، وحديثه عنه من أصح الحديث، فإنه لم يسمع منه شيئا دلس فيه» ويستفيض صاحب كتاب الرحمة الغيثية في ذكر من سمع منهم الليث.

وسار الليث في حياته متبعا للشعار الإسلامي: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤). وإذا كان من سمات الليث حب العلم: استفادة وإفادة، فإن له سمات أخرى والحديث موصول.

فقيه مصر الليث بن سعد (٢)

كرَمه واتزانه

العدد (١٤٦) صفر ١٣٩٧هـ) - فبراير (١٩٧٧م).

من جميل تجليات الله تعالى على أئمة الفقه أنهم كرماء، ولقد كان الكرم صفة ظاهرة من صفات الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه. لقد كان ورعا يضرب بورعه الأمثال، وكان كريما يكسب حياته من التجارة. وكان الإمام مالك سخيا، كريم النفس، كريم اليد، وكان تاجرا يقبل عليه الناس لصدقه وأمانته. وكان الإمام الشافعي كريما لا يبقي ولا يذر رغم فقره.. وكذلك كان الإمام محمد بن الحسن الشيباني ومن أكثر الناس ثراء وكرما الإمام الرباني الزاهد عبد الله بن المبارك.. وكان كريما بالسنة لكل محتاج ولكنه كان يؤثر على الخصوص أهل العلم: طلبة وأساتذة، ويرى أن الإنفاق على أهل العلم من أنفس وجوه الإنفاق، ولا نجد شبيها لعبد الله بن المبارك في ثرائه العريض، وكرمه الواسع، إلا الليث بن سعد.

وقد اختلفت الروايات فيما يتعلق بدخله السنوي، وتراوحت الروايات فيما بين عشرين ألف دينار ومائة ألف دينار. ونرى أن هذا الاختلاف مرده إلى فترات من حياته، فهي تعبر مثلا عن دخله في مقتبل عمره، وعن دخله عندما كان في دور الرجولة الناضجة، وعن دخله بعد لقائه بهارون الرشيد وهكذا.

ولكن هذه الروايات الكثيرة التي تتحدث عن دخله الواسع تذكر كلها تقريبا أنه لم يكن يدخر من دخله شيئا، بل يذكر الكثير منها أنه في آخر العام يكون مدينا، ولهذا تذكر هذه الروايات أنه لم تجب عليه الزكاة قط في ماله، فما كان يحول الحول على شيء منه باق مخزون.

يقول شعيب بن الليث: «قال أبي: ما وجبت علي زكاة قط منذ بلغت»، ونذكر هنا بعض هذه الروايات التي تتحدث عن كرمه.

ونبدأ بما كان بينه وبين مالك: لقد كان مالك كريما واسع الكرم كما ذكرنا، ولكرمه هذا كان أحيانا يكون في حاجة للمال لينفق منه، ويكرم منه، فكان يكتب إلى الليث، وكان الليث يلبي حاجة مالك سواء أكتب مالك إليه أم لم يكتب!

يقول ابن وهب:

كان الليث بن سعد يصل مالك ابن أنس بمائة دينار في كل سنة، فكتب مالك إليه: إن علي دينا، فبعث إليه بخمسمائة دينار.

ويقول أبوصالح كاتب الليث:

(كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا - أي احتجب - فقلنا: ليس يشبه هذا صاحبنا.. قال: فسمع مالك كلامنا، فأمر بإدخالنا عليه، فقال لنا: من صاحبكم؟ قلنا: الليث بن سعد. قال: تشبهوني برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا، وبعنا الفضل بألف دينار؟)

ويقول قتيبة بن سعيد: سمعت ابن الليث يقول:

خرجت مع أبي حاجا، فقدم المدينة، فبعث إليه مالك بن أنس بطبق رطب، قال: فجعل على الطبق ألف دينار ورجعه إليه.

ويروي ابن حجر ما يلي:

وقال أبو حاتم بن حبان: كان الليث لا يتردد إليه أحد إلا أدخله في جملة عياله مادام يتردد إليه، ثم إن أراد الخروج زوده بالبلغة إلى وطنه.

وقال عباس بن محمد الدوري: «سمعت يحيى بن معين يقول: كان الليث يصلي في المسجد كل صلاة، يجيء على فرسه، فكان له مجلس يجلس فيه قربه يحيى بن أيوب، فغمزه، فقام معه، فسأله عن مسألة فأجابه، فبعث إليه بمائة دينار.

وقال الترمذي: سمعت قتيبة يقول: كان الليث في كل صلاة يتصدق على ثلاثمائة مسكين.

وقال أشهب: «كان الليث لا يرد سائلا، وكان يطعم الناس الهرائس بعسل

النحل وسمن البقر في الشتاء، وفي الصيف بشيء من اللوز والسكر.

وحدث إسحاق بن إسماعيل قال: «سمعت محمد بن رمح يقول: كان دخل الليث في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه درهما قط بزكاة».

ويروي منصور بن عمار الواعظ المشهور القصة الطريفة الآتية:

كان الليث إذا تكلم رجل في المسجد الجامع أخرجه، قال فلما دخلت مصر تكلمت في الجامع فإذا رجلان قد دخلا فأخذا بي فقالا:

أجب أبا الحارث.

قال: فذهبت وأنا أقول: واسوأتاه، أخرج من البلد هكذا، قال: فلما دخلت على الليث سلمت فقال: أنت المتكلم في المسجد؟

قلت: نعم.

قال: أعد علي ما قلت:

قال: فأعدته فرق الشيخ وبكى.

فقال: ما اسمك؟

قلت: منصور بن عمار.

قال: أبو السري؟

قلت: نعم.

فدفع إلي كيسا وقال: صن هذا الكلام عن أبواب السلاطين، ولا تمدحن أحدا من المخلوقين بعد مدحك لرب العالمين، ولك علي في كل سنة مثلها.

وكان الليث يواسي الغرباء والمحتاجين حتى وإن لم يكونوا محتاجين، يقول أسد بن موسى: «كان عبد الله بن علي يطلب بني أمية فيقتلهم، فرحلت إلى مصر فدخلتها في هيئة رثة، فدخلت على الليث، فلما فرغ المجلس خرجت، فتبعني خادم فقال: اجلس حتى أخرج إليك، فجلست حتى خرج وأنا وحدي، فدفع لي صرة فيها مائة دينار، وقال: يقول لك الليث: أصلح بهذه النفقة أمرك، ولم شعثك، وكان معي في حجزتي ألف دينار فأخرجتها له وقلت: استأذن لي على الشيخ، فدخلت فأخبرته بنسبي، فقال: إنها صلة وليست صدقة، واعتذرت إليه

عن قبول صلته، وقلت: أكره أن أعود نفسي عادة وأنا عنها غني. قال: فادفعها إلى بعض أصحاب الحديث ممن تراه مستحقا لها، فلم يزل بي حتى أخذتها ففرقتها في جماعة».

وكان يعين على نوائب الحق، يقول قتيبة بن سعيد:

«لما احترقت كتب ابن لهيعة بعث إليه الليث بن سعد من الغد بألف دينار» وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث، إن ابنا لي عليلا واشتهى عسلا، فقال: يا غلام، أعطها مرطا من عسل، والمرط عشرون ومائة رطل، وكان مع المرأة إناء صغير الحجم، فلما رآه كاتب الليث راجع الليث قائلا: إنها تطلب قليلا من العسل. فقال الليث: إنها طلبت على قدرها، ونحن نعطيها على قدرنا، وأمره أن يعطيها المرط.

ومن أجمل أنواع الكرم الليثي ما تعبر عنه القصة التالية التي يرويها الحارث بن مسكين، يقول: «اشترى قوم من الليث بن سعد ثمرة فاستغلوها، فاستقالوه فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس، فأمر لهم بخمسين دينارا، فقال له الحارث: ابنه، في ذلك. فقال: اللهم غفرا، إنهم قد كانوا أملوا فيه أملا، فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا».

أما أسفار الليث في نهر النيل من القاهرة إلى الإسكندرية وبالعكس، فإنها تصور عادات جميلة، وندع لأبي رجاء قتيبة، الحديث عنها، قال: «قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية، وكان معه ثلاث سفائن سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه، وكان إذا حضرته الصلاة يخرج إلى الشط فيصلي.. وكان ابنه شعيب إمامه فخرجنا لصلاة المغرب، فقال: أين شعيب؟ فقالوا: حمَّ، فقام الليث فأذن وأقام ثم تقدم فقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ويجهر بسم الله الرحمن الرحيم، ويسلم تسليمه تلقاء وجهه.

وكان الليث يعيش عيشة متزنة سوية، وكان بعيدا عن الانفعالات، ومن أجل ذلك تمتع بشباب طويل.

قال أبو رجاء: (وكان الليث أكبر من ابن لهيعة، ولكن إذا نظرت إليهما تقول:

ذا ابن، وذا أب، يعني ابن لهيعة الأب».

قال ابن بكير: سمعت الليث بن سعد كثيرا ما يقول: أنا أكبر من «ابن لهيعة» فالحمد لله الذي متعنا بعقلنا».

وكان لهذه الحياة السوية نظام رتيب لا يكاد يتخلف يصفه أشهب ابن عبد العزيز يقول:

«كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها، أما أولها فيجلس لنائبة السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمرا أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل.. ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم. ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه. ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده كبرت حاجته أو صغرت. قال: وكان يطعم الناس في الشتاء الهرايس بعسل النحل، وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز بالسكر».

وينعكس هذا الاتزان على حياته الفكرية، ومن أمثلة ذلك ما يقوله عثمان بن صالح قال: «كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث بن سعد فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا عن ذلك. وكان أهل حمص ينتقصون عليا حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش فحدثهم بفضائل علي فكفوا عن ذلك.

وبعد: فيقول شعيب بن الليث عن أبيه قال:

«لما ودعت أبا جعفر ببيت المقدس قال: أعجبني ما رأيت من شدة عقلك، والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك. قال شعيب: وكان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حيا».

هذا هو الليث!! تثقف كأحسن ما تكون الثقافة، واستمر يدرس ويبحث إلى آخر حياته، وسارت به الحياة في اتزان تام فطالت به فترة الشباب وفترة الصحة، وكان شهما كريما بالنسبة للقريب وللبعيد، وآثر مكارم الأخلاق طيلة حياته. ولكنه كان من قبل ذلك ومن بعده: محدثا وفقيها. والحديث موصول.

فقيه مصر الليث بن سعد (٣)

محدثًا وفقيهًا

العدد (١٤٧) ربيع الأول (١٣٩٧هـ) - مارس (١٩٧٧م)

إذا كان الليث يروي أحاديث في الأخلاق جعلت الشيخ مصطفى عبد الرازق، وجعلت أبا نعيم يضعانه في مصاف الصوفية الأوائل، فإن الليث كان محدثا بأوسع ما تتضمنه كلمة «محدث»، لقد كانت دائرته في الحديث أوسع من الجانب الأخلاقي.. إنه كان محدثا من طراز المحدثين المتخصصين في الحديث، الذين لا يقتصرون على جانب دون آخر.

وكان فقيها من الطراز الأول.. لقد كان فقيها مجتهدا مثله في ذلك كمثل الإمام مالك، والإمام الثوري، والإمام الأوزاعي، والإمام أحمد بن حنبل.. وغيرهم من الفقهاء الذين كانوا يلتصقون بالنص، وكانوا يوصفون بأنهم أهل الأثر.

يروي صاحب تاريخ بغداد أن الليث سمع علماء المصريين والحجازيين. وروى عن عطاء بن أبي رباح وابن أبي مليكة وابن شهاب الزهري وسعيد المقبري وأبي الزبير المكي ونافع مولى ابن عمر وعمرو ابن الحارث ويزيد بن أبي حبيب وعقيل بن خالد ويونس بن يزيد وعبد الرحمن بن خالد الفهمي وسعيد ابن أبي هلال.

أما من حدثوا عنه فيذكر الخطيب البغدادي ما يلي:

حدث عنه هشيم بن بشير وعطاف بن خالد وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن وهب وأبو عبد الرحمن المقرئ وعبد الله بن عبد الحكم وسعيد بن أبي مريم ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح الجهني وعمرو بن خالد وعبد الله بن يوسف التنيس.

ويقول أيضا: وقدم بغداد وحدث بها، فروى عنه من أهلها: حجين بن المثنى، ومنصور بن سلمة، ويونس بن محمد، وهاشم بن القاسم، ويحيى ابن إسحاق البلخي، وشبابة بن سوار، وموسى بن داود، وجماعة من البصريين سمعوا منه ببغداد»

ويقول صاحب النجوم الزاهرة: قال الذهبي:

وحج سنة ثلاث عشرة ومائة فلقي عطاء ونافعا وابن أبي مليكة وأبا سعيد المقبري وأبا الزبير وابن شهاب فأكثر عنهم، ثم ذكر جماعة كثيرة ممن روى عنه.

إنه محدث، فهل هو ثقة؟ ما درجته كمحدث؟

ونبدأ بذكر رأي الإمام أحمد بن حنبل فيه: يقول أحمد بن سعد الزهري: «سمعت أحمد بن حنبل وسئل عن الليث بن سعد فقال: ثقة ثبت.. ويقول: «الليث كثير العلم، صحيح الحديث. ويقول الحسين بن إدريس الأنصاري: حدثنا أبو داود قال: سمعت أحمد يقول:

«ليس فيهم - يعني أهل مصر - أصح حديثا من الليث بن سعد، وعمرو بن الحارث يقاربه. ويروي صاحب تاريخ بغداد ما يلي: «قال الفضل - وهو ابن زياد - قال أحمد: «ليث بن سعد كثير العلم، صحيح الحديث».

ونذكر رأي يحيى بن معين:

عن عثمان بن سعيد الدارمي قال: قلت ليحيى: فالليث أحب إليك، ويحيى ثقة.. قلت: فالليث كيف حديثه عن نافع؟ فقال: صالح ثقة.

ويروي النسائي كثيرا من الأحاديث التي رواها الليث ويقول: «أبو الحارث الليث بن سعد المصري، ثقة».

ويقول صاحب كتاب الرحمة الغيثية: قال ابن أبي حاتم: سألت أبا زرعة: الليث يحتج بحديثه؟ قال: إي، لعمري.

وقال يحيى بن معين: ثبت.

وقال يعقوب بن شيبة ومحمد بن سعد وآخرون: ثقة.

ويقول صاحب ميزان الاعتدال: «الليث بن سعد الفهمي أبو الحارث: أحد

الأعلام والأئمة الأثبات، ثقة، حجة بلا نزاع».

لقد كان الليث محدثا ثقة، وكان واسع الأفق، رحب الصدر يتصرف بذكاء وحكمة، ومما روي عنه في ذلك ما ذكره صاحب الحلية قال: عن عمر بن سلمة قال: «تكلم الليث بن سعد في مسألة، فقال له رجل: يا أبا الحارث، في كتابك غير هذا؟.. قال: في كتابي أو في كتبنا ما إذا مر بنا هذبناه بعقولنا وألسنتنا».

وقال شعيب بن الليث: قيل لأبي: «إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك.. قال: لو كتبت ما في صدري في كتبي ما وسعه هذا المركب».

ولم يكن الليث في فقهه من أهل الرأي بل كان من أهل الأثر، وكان في الذروة من أهل الأثر، ومن المشهور أن الإمام مالكا هو إمام أهل الأثر، ومع ذلك فإن الآراء تختلف في ذلك،يقول الشافعي رضي الله عنه: «الليث بن سعد أتبع للأثر من مالك بن أنس».

وقال في العبر: كان أتبع للإثر من مالك.

أما عن فقه الإمام الليث فيرى ابن حجر ما يلي:

عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال: سمعت الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.. وفي رواية عن الشافعي: «ضيعه قومه». وفي أخرى:«ضيعه أصحابه» وقال أبو محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: سمعت يحيى بن بكير يقول:

الليث أفقه من مالك، ولكن كانت الحظوة لمالك. ويروي صاحب شذرات الذهب عن يحيى بن بكير نحوه أما عن تقدير الليث تقديرا عاما شاملا، فإننا نذكر ما يلي: قال أبو يعلى الخليلي.

كان إمام وقته بلا مدافعة.

وقال ابن حبان:

كان من سادات أهل زمانه فقها وعلما، وحفظا وفضلا وكرما.

ويقول ابن سعد :«وكان ثقة، كثير الحديث، صحيحه، وكان قد استقل بالفتوى في زمانه بمصر، وكان سريا من الرجال، نبيلا سخيا له ضيافة».

وقال النووي في تهذيبه: «أجمعوا على جلالته وأمانته وعلو مرتبته في الفقه والحديث».

ويقول يحيى بن بكير فيما رواه صاحب الشذرات: ما رأيت أحدا أكمل من الليث: كان فقيه النفس، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة، ونتساءل: هل هذه السعة في الأفق، والرحابة في الصدر، والغزارة في العلم، جعلت في بعض آراء الليث شذوذا؟ وهذا تساؤل نراه ضروريا.. أما الإجابة عنه فقد سبق بها ابن حجر حيث يقول:

«ولقد تتبعت كتب الخلاف كثيرا فلم أقف فيها على مسألة واحدة، انفرد بها الليث عن الأئمة من الصحابة والتابعين، إلا في مسألة واحدة، وهي أنه كان يرى تحريم أكل الجراد الميت، وقد نقل ذلك أيضا عن بعض المالكية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ونبدأ في بيان آراء الليث ببعض ما كان بينه وبين الإمام مالك:

● **مالك والليث:**

كان بين الإمام مالك والإمام الليث رضي الله عنهما، مودة واحترام، يجل كل منهما الآخر، ويقدره تقديرا عظيما، على الرغم من اختلافهما في بعض الأمور، ولقد تبادل مالك والليث رسالتين حفظهما التاريخ، من أمتع الرسائل التي تبودلت بين كبار العلماء، فيهما تقدير متبادل وحسن بيان للرأي مع الأدب في التعبير، وحرص على وضوح الفكرة في أسلوب موجز.

بدأ مالك التراسل فأرسل إلى الليث هذه الرسالة التي تبدأ بتحية الإسلام، وحمد الله تعالى والدعاء للمرسل والمرسل إليه إنه يقول في ذلك:

من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد: سلام عليكم، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد. عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياكم من كل مكروه.

ثم يبدأ الإمام مالك بذكر مقدمة للأساس الذي يراه مقياسا لصحيح الآراء، ولكنه في هذه المقدمة لا ينسى الثناء على الليث والاعتراف بمنزلته ولا ينسى

الموعظة والتخويف من الله تعالى فيقول:

واعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة مَنْ قِبَلَكَ واعتمادهم على ما جاءهم منك.. حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه فإن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة: ١٠٠). وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ (الزمر: ١٨). ثم يبدأ الإمام مالك في شرح وجهة نظره، ووجهة نظر الإمام مالك معروفة منذ عهده، وقد تحدث الأئمة عنها قديما وحديثا، ولا نجد خيرا من شرح الإمام مالك لها في رسالته هذه: إنه يقول بعد المقدمة التي ذكرناها:

فإنما الناس تبع لأهل المدينة:

أ- إليها كانت الهجرة.

ب- وبها تنزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام.

ج- وبها كان الصحابة إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه.. حتى توفاه الله، واختار له ما عنده، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته.

د- ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده، بما نزل بهم: فما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم، وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف، أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى، ترك قوله، وعمل بغيره.

هـ- ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل، ويتبعون تلك السنن.

أما النتيجة التي يصل إليها الإمام مالك من كل ما تقدم فهي:

«فإذا كان الأمر بالمدنية ظاهرا معمولا به، لم أر لأحد خلافه: للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك الذي جاز لهم».

والفكرة التي يدعو إليها الإمام مالك، والتي يجعلها إحدى أسس مذهبه هي أن عمل أهل المدينة حجة، وذلك للأسباب التي ذكرها ولها شأنها الكبير ووجاهتها التي لا تنكر.

ومع ذلك فإن العلماء أخذوا يفصلونها تفصيلا يستغرق الاحتمالات العقلية وأخذوا يقلبونها على مختلف وجوهها.

فيقولون مثلا: إن الإجماع الكامل لأهل المدينة حدث بالفعل في أمور منها مثلا:

أوقات الصلاة وعدد الركعات في الفروض.

ولكن هل شمل الإجماع بقية المسائل؟

ألم يختلف أهل المدينة أنفسهم في كثير من الأمور الفرعية التي تكون موضوع الفقه؟

ثم أمر آخر: هل يستوي إجماع أهل المدينة-إذا حدث - المستند إلى نقل مع إجماع أهل المدينة المستند إلى استنباط؟ ثم هل حدث إجماع حقيقي لأهل المدينة فيما عدا المسائل التي لم يختلف فيها أحد من المسلمين؟

لقد دار حول ذلك وغيره مما يتعلق بعمل أهل المدينة وحجيته أبحاث مستفيضة في كتب أصول الفقه.

وسنرى فيما بعد نظرة الإمام الليث للموضوع فإن فيها بيانا ومنطقا لا يتأتى أن يفعله باحث، اللهم إلا نادرا ولكننا قبل أن نذكر رد الليث على هذه الرسالة نذكر الختام الذي ختم به الإمام مالك رسالته وهو في غاية النفاسة، إنه يقول:

«فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك، واعلم أني أرجو ألا يكون قد دعاني إلى ما كتبت إليك إلا النصيحة لله وحده، والنظر لك، والضن بك، فأنزل

كتابي منزلته: فإنك إن فعلت تعلم أني لم آلك نصحا، وفقنا الله وإياك لطاعته، وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال والسلام عليك ورحمة الله. أهـ.

إنها رسالة تتسم بالأدب الرفيع النفيس .

٦ مقالات

الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- إشراقة الإسلام.

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) يوليو (١٩٦٥م)

٢- أحمد بن حنبل (١).

العدد (١١) ذو القعدة (١٣٨٥هـ) فبراير (١٩٦٦م).

٣- أحمد بن حنبل (٢).

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) مايو (١٩٦٦م).

٤- من ملامح النبوة والرسالة.

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م).

ترجمة الكاتب

محمد عبد اللطيف السبكي

ولد الشيخ في١٨ سبتمبر عام ١٨٩٦ ، بقرية سبك الضحاك بمحافظة المنوفية ومن هنا جاء لقبه السبكى نسبة إلى اسم القرية.

بعد تخرجه من الأزهر شغل الشيخ رحمه الله مدير عام التفتيش على التعليم الأزهري، ثم عميد كلية الشريعة لمدة خمس سنوات.

تولى الشيخ موقع رئاسة تحرير «مجلة الأزهر» قرابة العشرين عاما، وله عدد كبير من المؤلفات كان أشهرها «فى رياض القرآن، والهجرة، والسيرة النبوية، والجهاد»، وكتاب «الحلال والحرام» و«المنتخب من السنة» و«الموسوعة الدينية» و«المنتخب من السنة». فضلا عن مئات المقالات التى نُشرت في العديد من الصحف والمجلات.

تدرج الشيخ في المناصب إلى أن حصل على عضوية هيئة كبار العلماء، وكان قاب قوسين من وصوله إلى مشيخة الأزهر لولا رأيه الصادم والمفارق للسائد حول فوائد البنوك والتأمين على الحياة الذي حال دون ذلك وتم العدول عن قرار تعيينه شيخا للأزهر قبل دقائق من وصوله إلى المنصب. اختاره الشيخ المراغي شيخ الأزهر رئيسا للجنة الفتوى لخمس سنوات أو يزيد.

كما كان رئيسا للجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ولجنة التعريف بالإسلام.

وفاته: توفي الشيخ السبكي فى٣١ مارس سنة ١٩٦٩م رحمه الله رحمة واسعة.

إشراقة الإسلام كانت بالدعوة إلى العلم

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) يوليو (١٩٦٥م).

في غضون ليلة من ليالي رمضان، وفي ظلمة غار موحش برأس الجبل كانت إشراقة الوحي على النبي الأمي بدعوته إلى القراءة.

وفي هذه الدعوة المفاجئة إيذان بأن القراءة وسيلة المعرفة، وإيحاء بأن الثقافة عماد الإنسانية، وتوجيه علوي إلى أن الحياة الجديدة التي هبط جبريل يحمل مصباحها إلى محمد بن عبدالله ﷺ، هي حياة العقل الراشد، والمعرفة الفياضة، والاهتداء بالعلم في آفاق هذه الدنيا.

أو هي حياة الوعي الإنساني في أكمل أطواره، أو هي حياة الإسلام وكفى.

ثم يكون هذا الأمر فوريًّا، ليس معلقًا على شيء ولا مرجأ عن تلك الساعة الراهنة.

وكيف ومحمد بن عبدالله أمي، لا يعرف كيف يقرأ، ولا يدري وسيلة لتعلم القراءة في ليلته الرهيبة؟

وهنا يتلهف محمد ويعتذر: ما أنا بقارئ.. ما أنا بقارئ (ثلاث مرات).

ثم يتكفل الله برفع الحرج عن مصطفاه، ويلقنه جبريل الأمين بقية وحيه الأول.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ (العلق: ١- ٢)، وبهذا يعلمه: أن بدء القراءة يكون بذكر التسمية لله ذي القدرة على خلق الإنسان من علقة هينة الشأن.

ثم ينتقل به نقلة ثانية إلى التوجيه نحو العلم، والعلم، لاشك، ثمرة القراءة للإنسان.

ويشيد بالقلم، لأنه الأداة الحتمية لقيد العلم، وتدوين بنوده، وضبط شوارده، ليكون عماد الإنسانية، وثروة الدنيا، ووسيلة الحضارة على تعاقب الأزمان والأجيال، كما ينشد الإسلام في دعوته إلى العالم كله.

ولم يكن القلم كذلك بالنسبة للنبي المبعوث بهذه الرسالة، لأن الله كرمه عن الحاجة إلى القلم، وتعهده بالوحي من عنده، ورفعه عن بهتان الأفاكين، واتهامهم له بأنه ينقل عن إنسان سواه ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، فالأمية في شأنه تمام الكمال له ﷺ.

ثم لتنظر بعد ذلك: هل العلم المطلوب نوع واحد؟ أو كله مستمد من جانب خاص؟

الذي نعهده - أولا - أن العلم يكون فيضًا محضًا من جانب الله، وهذه رسالة الله إلى خلقه من طريق الوحي إلى رسله، وذلك علم الدين.

أو هو علم كسبي يهدي الله إليه من يشاء، ممن توافرت لهم المواهب ونبهت فيهم القرائح، ونشطت منهم العزائم، فطرقوا أبواب العلم من جهاته المتعددة، والتمسوه بالحواس، وبالعقول، والتجارب، وأغراهم النجاح بمواصلة السير في آفاقه فأسلمت لهم المعرفة قيادها، ولا تزال في طريقها الفسيح الممدود. وذلك في علوم الدنيا.

وعلى جوانب العلم الصحيح نبتت معلومات أخرى لا تعتبر من علم الدين، ولا من علوم الدنيا، وإنما هي في الحقيقة كالطفيليات، تنجم في مجاري الماء، وعلى متن الحقول، فيحسبها البسطاء فصائل من النبات، وليست بنبات مفيد.

ومنها كهانة الكهان، وهي تراث قديم مزيف، ولا تزال شائعة بين الناس.

فإن يكن العلم - على إطلاقه - مستمدا من الوحي، أو كسبا بالمواهب الرشيدة، فالكهانة غير ذلك كله.

والذي نعهده: أن الكهانة في قديمها وحديثها تخمين مصطنع وتظاهر جريء بمعرفة الغيب الذي لا يعرفه الناس.

وبيانها في ضوء القرآن والسنة: أن الله - سبحانه - يعلم الغيب وحده، وأنه

لا يبدي غيبه إلا إذا شاء، ولمن شاء من ملائكته ورسله.

فعندما يبرز شيئا من غيبه لملائكته، ليتهيأ كل ملك منهم لتنفيذ ما يتعلق به من شؤون الدنيا وأهلها، يتحدث الملائكة بهذا فيما بينهم.

وقد جعل الله للشياطين من الجن قدرة على محاولات لا يطيقها الإنسان، فكان من دأب الجن أن يصعدوا إلى السماء فيقتربوا منها ليتسمعوا أحاديث الملائكة، ثم ينزلوا على خبثاء الناس الذين يلابسونهم في الأرض ويلقوا إليهم بما سمعوا، ويخلطوه بالكذب الكثير من عندهم.

ثم يتحدث هؤلاء الكهان إلى الناس بما عرفوا أو يزيدون فيه أو ينقصون منه ويبدلون.

فإذا أصاب الكهان صدفة في بعض ما يقولون، حسب الأغرارُ من السامعين أن الكهان يعرفون الغيب المكنون عند الله.

وعلى هذا راجت الكهانة، ولا تزال مقبولة عند أناس، وهي فتن شيطانية تفسد عقائد مصدقيها، وتزعزع ثقتهم في علم الغيب.

وكان هذا فاشيا قبل الإسلام، ولكن الله أعجز الشياطين عن الكثير من هذا، أو عن أكثره، فلم يعد لهم كبير تأثير في هذا منذ نزل القرآن، وبعث به محمد بن عبدالله ﷺ.

وإن يكن هناك قليل من هذا فإنه لاختبار الناس في تدينهم، وفي تصديقهم للأكاذيب على ربهم.

والله يقول ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٣).

ويحكي عن الجن قولهم ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن: ٨-٩)، وذلك أن الملائكة تحرس السماء من محاولات الجن.

فإذا حاولوا، كعادتهم، تبعتهم بالشهب النارية فتحرقهم أو تطاردهم فيعودوا فاشلين.

وبهذا نعلم أن الله كفانا شرًّا كبيرًا من محاولات الجن، وعلّمنا أن لهم ضلالات، لنتحفظ من الكهان، ولا نطيع الأباطيل التي يستخدمون فيها الفنجان والودع، وضرب الرمل، واستحضار الشياطين.

* * *

أحمد بن حنبل (١)

العدد (١١) ذوالقعدة (١٣٨٥هـ) فبراير (١٩٦٦م).

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، ويمتد نسبه إلى نزار بن معد، ثم يصعد في هذا الأصل الشامخ إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

في سنة أربع وستين ومائة من الهجرة خرج محمد بن حنبل من بلده مرو إلى بغداد مقر الخلافة العباسية، وكانت زوجه صفية بنت عبدالملك الشيباني رفيقة سفره، وهي حامل حينذاك، وفي ربيع الأول من السنة عينها وضعت الزوجة في بغداد طفلها أحمد بن حنبل وهو إمامنا الذي نتحدث عنه.

كان جده حنبل واليا على سرخس في ظل العباسيين، وكان أبوه محمد قائدا في الجيش بعد، ولعل عمله في الجيش سبب انتقاله إلى بغداد قاعدة الحكم، وملتقى القواد.

غير أن أحمد نشأ يتيما لوفاة والده أيام طفولته، فلم ير أبا، ولا جدا، ولم يكن أبوه حين الوفاة قد جاوز الثلاثين من عمره، فلم يدرك أن يدخر مالا أو عقارا إلا دارا ببغداد كان يسكنها، وبعد وفاته أقامت الزوجة مع طفلها أحمد في جانب من الدار، وأجرت الجانب الآخر بدريهمات، كانت تستعين بها على العيش، حاضنة لولدها الصغير، وعلى هذا الحال تعهدت الأم صفية ابنها أحمد حتى بلغ مبلغ الفتيان، وانتهى من تعلم القرآن، مبرزا فيه تبريزا لفت إليه الأنظار، وأثار حوله العجب.

في السادسة عشرة من عمره نهض إلى طلب الحديث وجمعه في نشاط غريب من مثله، وكثير على سواه، حتى قال هو عن نفسه بعد: «كنت ربما أردت البكور في الحديث، فتأخذ أمي بثيابي وتقول: حتى يصبح الناس، توفر على الرواية،

وأكبَّ على التحصيل». فلم يشغله عن هذا طلب عيش ولا رقة حال، ولا تعرف إلى ذي سلطان، ولم يقعد به خلو يده عن الأسفار والسعي وراء العلماء في كل واد.

رحل من بغداد إلى الكوفة، ونزل البصرة ومكة، وطاف بالمدينة واليمن وقصد الشام والجزيرة، وهبط على خراسان وفارس، ويمم بلادا أخرى كثيرة يتتبع شيوخها، ويلقى علماءها، ويأخذ عن كلٍّ ما لديه من الحديث، مما يصح عنده، ويطمئن إليه، فلم يفته عالم سمع به، ولا بعدت عليه جهة يستقي منها العلم بسنة الرسول ﷺ، وما أثر عن أصحاب الرسول، ولقد أعيته النفقة يوما عن الوصول إلى بلاد الري ليأخذ عن عالمها جرير بن عبدالحميد، فكان يتأسف لعجزه ويقول: لو كانت عندي خمسون درهما كنت خرجت إلى الري إلى جرير بن عبدالحميد، ولكن خرج بعض أصحابنا، ولم يمكني الخروج، ولم يزل حريصا على لقاء جرير هذا حتى لقيه ببغداد في رحلة جاء فيها جرير، والتمس أحمد من علمه ما تهيأ له. ويحدثنا عنه أحمد بن سنان من سراة القوم في واسط فيقول: «قدم علينا أحمد بن حنبل في جماعة من البغداديين إلى الشيخ يزيد بن هارون واستقرضوني كلهم مالا وردوا إلا أحمد بن حنبل، لم يستقرضني بل أعطاني فروة له فبعتها له بسبعة دراهم».

وقد هوّن على أحمد هذه المشاق وسهّل عنده تلك المصاعب حفظ نادر، وفهم ممتاز، ورغبة لا يلحقها ملل، وتوفيق لم يعهد مثله إلا في رجال اختصهم الله تعالى بفضله، وقيضهم لحفظ السنة، وضبط الشريعة وصيانة الأحكام. قال أبوزرعة: كُتب أحمد بن حنبل ليس في أوائل أجزائها أسماء المحدثين الذين سمع عنهم، فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه. وقال كذلك: حرزت كتب أحمد في اليوم الذي مات فبلغت اثني عشر حملا وعدلا ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، وكل ذلك كان يحفظه من ظهر قلبه، والروايات عنه في تقدير مواهبه تملأ الصفحات، وقد دأب أحمد على رواية الحديث، والتردد من بلد إلى بلد، ومن شيخ إلى شيخ، حتى بلغ الأربعين من

عمره فاستوى له أن يجلس للتحديث، وكان قبلُ يمتنع أن يجلس لذلك، ويمتنع أن يجلس للفتوى، إلا ما كان يسأل عنه من علم عنده.

وكثيرا ما كان يحيل السائلين على معاصريه من العلماء، بعدا عن التورط في الفتوى، وهي سنة الصحابة والتابعين.

● **مكانته في الحديث**

استطاع أحمد أن يجمع من الحديث خمسين ألفا وسبعمائة ألف حديث، ثم نقدها نقد الصيرفي الخبير، حتى صفاها من الدخيل، واستقر به الأمر على نحو من أربعين ألفًا، دَوَّنَ أحمد هذه الأحاديث في كتابه المشهور بالمسند، وحرص عليه حرص البخيل على ماله، وكان يقول لابنه عبدالله «احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إماما». ويقول إسحق بن حنبل قريبه وتلميذه: جمعنا أحمد، أنا وصالح وعبدالله ابنا الإمام، وقرأ علينا المسند، وما سمعه منه غيرنا، وقال لنا «هذا كتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألف حديث، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه فإن وجدتموه فيه وإلا فليس بحجة»، وكانت هذه هي مكانته في الحديث.

● **محنة الإمام أحمد**

على عهد الرشيد توقدت جمرات الخلاف المذهبي بين المعتزلة وغيرها من الطوائف، ونبتت الفكرة بأن القرآن مخلوق- يعني ليس بقديم- ثم اندلع لهيب الفتنة أيام المأمون، والمعتصم من بعده، وأخذت بدعة القرآن في مد وجزر بين الداعين إليها من أمثال بشر المريسي وأحمد بن أبي دؤاد قاضي بغداد، وبين المعارضين لها من أمثال أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وغيرهما من وجوه العلماء. وكان المأمون يشد أزر المبتدعين لهذه الأحدوثة، ويعمل على كسب أنصار لها من أمثال أحمد بن حنبل ممن هم في مكان القدوة بين الناس، وبعد محاولات عدة ومناظرات حادة يئس المأمون من أحمد ومن معه من المعارضين، فأعمل سيفه في رقاب نفر منهم، وزج في السجن بآخرين، منهم ابن حنبل.

فلبث في السجن ثمانية وعشرين شهرًا- بين أخريات عهد المأمون وأول عهد

المعتصم- لقي فيها من ضروب الهوان والإيذاء، ما لا يطيقه إنسان ولا يصفه قلم، تقلبت عليه أحداث وحيكت له الدسائس من رجال المعتصم، وهو لا يلقى ذلك إلا بيقين راسخ، وصبر لا يهين، وجلادة تزيد الخصوم بأسا منه وحيرة في أمره.

● **تمسكه برأيه**

كان يؤتى به من السجن مقيدًا مهانا إلى مجالس المناظرة، ويواجه فيها بأحمد ابن أبي دؤاد، وأحمد بن رباح، وأبي شعيب الحجام، وأمثال هؤلاء من بطانة الخلفاء، فيقيم عليهم الحجة، ويلزمهم الخزي، فيضاعفون القيد في رجليه، ويعاد إلى السجن مخلوع النعلين مسحوبا في مذلة، ثم تتجدد المأساة من ساعة إلى ساعة ويضرب بالسياط المبرحة مرة بعد مرة، ويقطع عنه الزاد يوما وأيامًا، فما يكون منه إلا ثبات على حقه وازدراء لباطلهم واستهانة بكل ما يصنعون. ومما أثر عنه في إبان هذه المحنة أن الخليفة المعتصم أمر به يوما فجيء به من السجن وأوقفه بين يديه، وقال له: وقرابتي من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط حتى تقول كما أقول بخلق القرآن، ثم التفت إلى الجلاد، وقال له: خذه إليك، فأخذه ناحيته وبدأ يضربه، وحينما ضربه السوط الأول قال أحمد: باسم الله، وفي الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وفي الرابع قال: لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، ثم ما زال الجلاد يضربه إلى تسعة وعشرين سوطا، ويقول ميمون بن الأصبغ حينما بلغ الضرب إلى السوط التاسع والعشرين انقطعت التكة من سروال أحمد (رباط اللباس)، فقلت الساعة ينهتك، فرمى أحمد بطرفه إلى السماء، وحرك شفتيه، فثبت السروال ولم ينزل.

ويقول ابن الاصبغ هذا: فدخلت إلى أحمد في سجنه بعد سبعة أيام، وقلت له يا أبا عبدالله، أرأيتك يوم ضربوك قد انحل رباط سروالك فرفعت طرفك نحو السماء، وحركت شفتيك، فأي شيء قلت؟ قال أحمد: قلت اللهم إني على الصواب فلا تهتك لي سترًا. ولما تضاعفت المأساة بعد هذا تأذت نفس المروزي وهو صاحب أحمد وتلميذه، فدخل عليه السجن يومًا، وقال له: يا أستاذ، قال

الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ (النساء: ٢٩)، يريد منه أن يوافق الخليفة على قوله- ولو ظاهرًا- لينجو من الهلاك، فقال أحمد: يا مروزي، اخرج فانظر أي شيء ترى، فخرج المروزي إلى رحبة دار الخليفة، فوجد جمهرة من الناس لا يحصيها العدد، وبأيديهم الأقلام والمحابر، فسألهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه، فدخل المروزي على أحمد وأخبره بذلك، فقال له أحمد: يا مروزي، هل أضل هؤلاء كلهم؟ أنا أقتل نفسي ولا أضلهم.

وفي هذه المحنة وأحاديثها فصول طوال، وقصص عجيب، كلها تدل على كمال الإيمان، ورسوخ العلم، وقوة الحجة، كما تدل على أن بطانة السوء شر ما يبتلى به الأمراء والرؤساء.

● **تراجع المعتصم**

وأخيرًا يئس المعتصم من إخضاع أحمد، فأشار عليه بعض بطانة السوء أن يقتله، ولكن آخرين منهم تخوفوا أن يكون قتله سببًا في فتنة شديدة، وهياج عام لتعلق الناس به، وتخوفوا كذلك أن يكون القتل سببا في فتنة أخرى لزيادة حب الناس لأحمد، وتعلقهم به أكثر إذا رأوه صبر حتى قتل.

هم يحسدوني على موتي فواعجبًا حتى على الموت لا أخلو من الحسد

وقد جنح المعتصم لهذا الرأي، وحضر عم الإمام أحمد، وبعض أهله، وأشهدهم على أن أحمد صحيح البدن، وقال قد سلمته إليكم صحيح البدن.

● **في عهد الواثق**

وبهذا سكت الناس وهدأوا، ولم يكد يخرج أحمد من سجنه ويعود إلى مجالس العلم أياما حتى توفي المعتصم، وخلفه الواثق بالله، فاستدعى أحمد، وأفهمه أنه سوف لا يتعرض له، وإنما يطلب منه ألا يظهر في بلد يسكنه الخليفة، فاعتكف أحمد بعد ذلك نحو أربع سنوات من سنة ٢٢٨- ٢٣٢هـ، وكان اعتكافه في دار إبراهيم بن هانئ النيسابوري.

ويروي عنه إبراهيم هذا أنه طلب منه يوما أن ينقله من مكانه إلى مكان سواه،

فقال إبراهيم إني أخشى عليك يا أبا عبدالله أن تراك العيون، فقال له أحمد إن فعلت أفدتك، فنقله إلى دار أخرى، فقال له يا إبراهيم اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحول، وليس ينبغي أن يتبع رسول الله ﷺ في الرخاء وفي الشدة.

• تحوّل في صالح الإمام

وظل أحمد على اختفائه هذه المدة حتى توفي الواثق، وولي من بعده المتوكل. جاء المتوكل بسياسة جديدة، فأنكر ما كان يدعو إليه المأمون والمعتصم، وقاوم المفسدين بشجاعة لم تتهيأ للواثق، وآزر أهل السنة وشجعهم بماله وسلطانه، حتى خبت نار الفتنة، وعاد الحق إلى نصابه، واستطاع الإمام أحمد وتلاميذه أن يستردوا حريتهم المغصوبة ويعودوا إلى مجالس العلم آمنين وإلى إعلان كلمة الحق مطمئنين.

• مذهبه في الفقه وما يقال عنه

غلبت على الإمام أحمد نزعته إلى روايات الحديث وتدوينه عن رسول الله ﷺ فلم يكن يعنى بالتأليف في الفقه، ولا يدعو الناس إلى التدوين عنه، بل كان ينهى أن يكتب كلامَه سائله، ويود لو أن الناس سلكوا مسلكه، وتتبعوا حديث الرسول ﷺ والمأثور عن أصحابه، وكان يقول: عليكم بالحديث، ويقول: إنما أُمرنا أن نأخذ العلم من فوق. ومن أجل ذلك لم تكن له مؤلفات بعد المسند، إلا رسائل محدودة في الورع، وفي الصلاة، وفي الناسخ والمنسوخ، وفي المتقدم والمؤخر في القرآن، وفي جوابات القرآن، وفي المناسك.

وهذا التمنع عن التأليف لئلا يضيق وقته عن خدمة السنة، والسنة عنده بعد القرآن هي كل شيء، وأعز من كل شيء، والله سبحانه وتعالى يعلم حسن قصده، فحفظ علمه ونفع به عباده، إذ وفق تلاميذه أن يدونوا مسائله، ويثبتوا كل ما عرفوا عنه من أحكام، فكتبوا في هذا أكثر من ثلاثين سفرا، وظلت هذه الثروة العلمية تراثا خالدا للإسلام، وشاء الله أن يمتد فضل هذا الإمام فلم يبق مذهبه في

العراق، بل امتد إلى الشام ومصر، بل صار المذهب السائد المعتمد به في المملكة العربية السعودية. وإن مذهبًا يقوم على السنة ويستظل بلوائها، لجدير به أن تخفق رايته في بلد ترعرعت فيه السنة، وأشرقت فيه شمس الإسلام.

● **مكانته في الفقه إلى جانب مكانته في الحديث**

لم يكن أحمد معنيا بجمع الحديث لمجرد الحفظ والشهرة، بل جمعه وعنى نفسه في تحصيله ليصل إلى كل ما شرع الله، وليعرف ما يتجه إلينا في خطاب الله. وقد تسنى له ذلك فى ضوء علمه الغزير بالسنة ومعرفته الواسعة بكتاب الله، وقدرته الممتازة على تأويل الآيات أو تفسيرها، وأخذ ما يؤخذ من ألفاظها ومعانيها فكان له في الفقه مجال فسيح، وفهم صحيح، وكانت لمذهبه أصول وقواعد كلها موضع القبول عند الآخذين عنه، كما كانت موضع الإجلال عند معاصريه من عظماء زمانه.

وأي الناس أعرف بالإمام أحمد من أقرانه وشيوخه وتلاميذه، وهذا هو الشافعي رضي الله عنه يقول: «خرجت من بغداد، وما تركت فيها أحدا أورع ولا أتقى ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل». وهذه شهادة من شيخ لتلميذه، وتلميذ لشيخه، فقد أخذ كل منهما عن الآخر، وكل يعرف صاحبه حقا. وكذلك يقول قتيبة بن سعيد «لو أدرك أحمد عصر الثوري ومالك والأوزاعي والليث بن سعد، لكان هو المقدم» وكان أبو القاسم ابن الخليلي يقول: كان أحمد بن حنبل إذا سئل عن المسألة كأن علم الدنيا بين عينيه. ويقول إسحق بن راهويه: كان أحمد إمامًا للدنيا. فنحن إزاء هذه الشهادات وأمثالها، وإزاء ما نعرف عن مذهبه بمزاولتنا له، لا يسعنا أن نضعه في الفقه إلا في الصف الأول من الأئمة، كما اعتبروه في الحديث إمام الأئمة.

أحمد بن حنبل (٢)

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) مايو (١٩٦٦م)

● **تهمتان كاذبتان**

ومع ما لهذا الإمام من فضل واسع فقد علقت بأذهان الناس نحوه فكرتان كاذبتان ليس لهما حظ من صواب.

الأولى: أن فقه الإمام أحمد لا يتسع لحاجات الناس، وهذا لوقوفه عند النصوص، وتحرجه عن طرق باب القياس والاستنباط. والشريعة كما تؤخذ من النص تؤخذ بالقياس على المنصوص، وإلا ضاقت وكانت حرجًا، وذلك ما وقع فيه أحمد بن حنبل.

هذه تهمة من اثنتين يتحدث بها بعض المتعلمين. وهؤلاء في حاجة إلى الإرشاد والتوجيه، ذلك أن أحمد كثير الثروة من الأحاديث ومن المأثور عن الصحابة، كما قلنا وعرفنا، ومن كانت لديه ثروة كهذه فقلما يحتاج إلى القياس، كما يحتاج من لم تتوفر له هذه الكثرة، حتى إنك لتجد للإمام أحمد في المسألة الواحدة روايتين أو أكثر، وقد تجد لعلماء مذهبه بجانب ما نقلوا عنه توجيهات أخرى في المسألة الواحدة، وذلك كله لتعدد الأدلة واستوائها في القوة، وهذا يشهد بأن مذهب أحمد واسع الجوانب، كثير الموارد والمصادر، وهو أمر يعلمه الباحثون فيه من أولي العلم. وقد يحدثك به جمهرة من العلماء ومن رجال القضاء الشرعي والأهلي وممن لهم إقبال على الفقه الإسلامي.

على أن أحمد لم يغلق باب الاجتهاد، بل دعا إليه في قوله: إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق. يعني من الأدلة لا بالتقليد، وكذلك لم يحظر القياس، بل

أقره وعمل به، وقال فيه: لا يستغني أحد عن القياس. وللقياس باب واسع في مذهبه، فكيف يقال: فقه أحمد قليل، والاجتهاد عنده محدود؟

نعم، لم يكن مذهب أحمد مذهب السلطان في مصر يوما ما، ولا كان مذهب القضاء إلا في فترات قصيرة، وفي جهات محدودة، فلم يتسع له الأفق كما اتسع لغيره، ولم يكثر فيه التخريج والتفريع كما كثر في مذاهب أخرى، لكن ليس معنى هذا أن فقه أحمد يضيق بما يحتاج إليه الناس، بل فيه فسحة لكل ما يجد ويقع من أحداث وشؤون، وإن لم تتسع لذلك نصوص يدخرها المذهب، فليتسع باب القياس، وباب الاستحسان عند أحمد وعلماء مذهبه، وليس في ذلك من حرج، متى وجد الداعي وتوافرت المسوغات.

والتهمة الثانية: وهذه تهمة أخرى ليست بضيق مذهبه وقلة أحكامه-كما زعموا- وإنما هي أشنع ذكرًا وأسوأ أثرا، هي تهمة التزُّمت والجمود والجنوح إلى الشدة والجفاف والبعد عن الرفق، سواء أكان في أحكام الدين أم في معاملات الناس، لم تبق هذه التهمة لدى بعض من أهل العلم فحسب كما كانت الأولى، بل جرت على ألسنة العوام وأصبحت فكاهة يتندرون بذكرها، حتى ليتصورون الحنابلة بعيدين عن سماحة الإسلام في المعاملات ومقتضيات الحياة.

وما كنا لنأبه لهذه الأراجيف لولا أنها تجر إلى سوء الفكرة عن الإمام أحمد وعن فقهه، ونحن من هذه التهمة في موقف العجب!

ولكن على أي حال:

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبًا فما اعتذارك من قول إذا قيلا

وإني لأقف رويدًا أمام هذه الفرية المكذوبة علّنا نرى الأصل الذي نجمت عنه والركن الذي هبت منه، والأمر في تعليلها لا يتعدى فروضا ثلاثة:

الأول: أن الناس في بلادنا يرون كثرة الأتباع للمذاهب الأخرى وقلة أتباع أحمد بالنسبة للآخرين فيعتبرون ذلك أمارة على الشدة والصلابة.

إن كل هذا رجم بالغيب، وعماية في الرأي، فما كانت الكثرة ولا القلة ميزانا بين مذهب ومذهب، وإنما الناس في طلب العلم، وخاصة في مصر وراء الآمال،

وقد كان مذهب أبي حنيفة يوما ما قليل الأتباع، فلما آزره سلطان الحكم العثماني واتخذوه مذهب الدولة رغب الناس فيه وأقبلوا عليه، فبان فضله وكثر أتباعه.

ومذهب أحمد غريب عن مصر، فلم تكن له مواطنة تعززه كما للشافعي رضي الله عنه، ولم يصادف حظوة من تأييد الحكام كما لمذهب أبي حنيفة أحسن الله إليه، فليس صوابا أن تكون القلة أمارة على الصعوبة.

السبب الثاني: وهو أشبه بالصواب، أن الحنابلة في القرن الرابع الهجري بعد وفاة الإمام أحمد بفترة طويلة كانوا ذوي كثرة وغلبة في بغداد، وكانوا في مأمن من مقاومة الخلفاء فاستغلوا كثرتهم في مناصرة مذهبهم، وتعرضوا بالعنف لمن يخالفهم، وأساءوا إلى كثير من الخاصة ووجوه القوم، وابتدعوا أقوالا متطرفة تنسب إلى المذهب حتى اليوم، وليست منه في شيء، وأحدثوا في ترويجها شغبا آلم الناس، وأوغر صدور الحكام فنهض الخلفاء لمقاومتهم وهددوهم بالإيذاء والتنكيل حتى أقلعوا عن هذه المشادة، فإن صح هذا الموقف تعليلا لما ينسب إلى المذهب من شدة فهو تعليل وقتي في زمانه، وهو محلي لم يتعد حنابلة بغداد يومذاك، فليس من الإنصاف أن تلصق هذه القالة بصاحب المذهب، أو تساير أتباعه حتى في مصر وبعد هذه السنين الطوال، إنها فئة قليلة تشذ عن المذهب يوما ما، فيرمى بدائها الأبرياء في آخر الأيام؟

غيري جَنَىٰ وأنا المعذب فيكمو ... فكأنني سيابة المتندم

السبب الثالث: وهو أغرب من سابقيه وأصدق عندي، أن الإمام أحمد لقي من دسائس حساده وعنت الخلفاء ما ذكرت، ونزل به من الإيذاء والتعذيب ما لا يطيقه إلا المخلصون لدين الله الصابرون على ما أصابهم في سبيل الله، حتى هانت عليه حياته ورخصت عنده نفسه، ورضي بالموت عذبًا سائغًا دون أن يقول كلمة يرضي بها الخليفة، وينقذ بها نفسه مخافة أن يكون في لفظته مساس بالقرآن، أو أن يتأول الناس كلامه فيضلوا بسببه وهو يرى الموت أهون من الضلال والإضلال، فيبتعد عن الضلال ولو من أبعد الطرق، ويقدم على الهلاك ولو بأبشع الطرق، ما دام في هلاكه صيانة لكلام الله.

فيا ترى أيكون تحفظ الإمام لدينه وحرصه على الناس أن يضلوا بسببه أمرًا معيبًا عند البعض، وتهمة بالجمود والعصبية العمياء، ويُعيّر من أجله كل ثابت على مبدئه أو محتفظ بكرامته، أو معتز بشخيصته أو معتصم بدينه بأنه حنبلي؟

إن كانت العزيمة والتمسك بهذه الفضيلة معابة، فأنعم بالحنبلية شعارًا فوق رأسي، ووشاحا في صدري، وراية في يميني، وغرة في جبيني، وليقل الناس ما شاءوا «إن المحب عن العذال في صمم».

نعم، إن موقف أحمد إزاء الخلفاء لموقف التضحية، وهو المثار لهذه القالة، وكان العهد أن يشاد بهذا في الذكريات الطيبات، وأن يجري على ألسنة الناس مجرى الباقيات الصالحات، ولكن لما اعتل ذوق الناس للفضيلة، وفسد الرأي في تقديرها واضطرب في فهم ميزان الأخلاق، وانتكس الحق بينهم، وظهر الباطل فيهم، قلبوا الأوضاع على سمت غير سمتها، وسموا الأشياء بغير أسمائها، فكان الذياد عن الحق، أو عن العقيدة، رذيلة، وكانت مكرمة أحمد عندهم نقيصة.

ومن يك ذا فم مرٍ مريض يجد مُرًا به العذب الزلالا

● **سيداتي، وسادتي القراء**

وإني إذ وقفت بكم أمام هذه التهمة ووصلت بكم إلى أن قائلها إنما يشهد على نفسه بالغباء، ويعلن جهالته بالفضيلة أين تكون، فإني لأرى من الحق علي، ومن سداد القول أن أنبه إلى أمرين، أحدهما: أن الإصلاح الاجتماعي في مصر قد لفت الأنظار إلى تطعيم القانون بالمذاهب الأربعة بعد أن تبين الحرج في البقاء على مذهب واحد، وبذلك أصبح قانون الأحوال الشخصية الذي يعمل به في المحاكم مزيجًا من المذاهب المذكورة، ولمذهب الحنابلة فيه قسط ذو بال، وفي هذا قضاء على سوء الظن بمذهب أحمد. كما أن الناس أصبحوا يعرضون مشاكلهم على لجنة الفتوى بالأزهر، ويسألون الحكم على المذاهب الأربعة، أو على المذهب الأرفق بحالتهم، وهذا يبشر بالتحلل من النزعات القديمة.

الأمر الثاني: الذي أنبه إليه هو أن أضرب لكم أمثلة من مذهب أحمد لم ترد عند غيره من المشهورين ليزداد الحق وضوحا لديكم، وتعلموا أن مذهبه يسر ولا

عسر فيه.

رقم (١) تجيز المذاهب للمتوضئ أن يمسح على خفه بدلا من غسل رجليه مع ملاحظة الشروط المعلومة، وأحمد بن حنبل يجيز المسح على الخف من الجلد وعلى الشراب الذي تلبسونه متى كان ساترا للقدم غير مخروق، وكان لبسه بعد وضوء كامل، ولم يزد لبسه للمقيم عن يوم وليلة.

رقم (٢) يجيز مذهب الحنابلة - على رواية فيه - أن يصلي الإنسان وهو لابس حذاءه بعد أن يمسح نعليه جيدا بالأرض ليزيل ما يمكن إزالته وما بقي من نجاسة النعلين معفو عنه.

رقم (٣) يجيز الحنابلة الجمع بين الظهر والعصر ثم بين المغرب والعشاء جمع تقديم في وقت الأولى أو جمع تأخير في وقت الثانية، وذلك لأصحاب الأعذار الذين لا يستطيعون تأدية كل صلاة في وقتها كعساكر البوليس في غير وقت الراحة، وكسائق القطار والترام والمريض والحامل والمرضعة، والعمال في المتاجر والمصانع، إذا كان عملهم لا يسمح أو يلحقهم ضرر في معايشهم إذا اشتغلوا بالصلاة في كل وقت.

رقم (٤) البهائم والطيور التي يؤكل لحمها وما يخرج من برازها لا يكون نجسا ولا يحتاج لتطهير ما تلوث بها من الثياب إذا كان علفها طاهرًا. وفي هذا فسحة وسهولة على الفلاح، وبائع الطيور، أما الدم فنجس كله.

رقم (٥) خروج الدم من جسم المتوضئ لا ينقض الوضوء إذا كان قليلا في نظر الإنسان حسب تقديره.

رقم (٦) إذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد وصليت العيد لم يجب عليك أن تحضر للجمعة، وكفاك أن تصلي الظهر ولا إثم، فإن حضرت إلى مكان الجمعة وجبت.

رقم (٧) صلاة الجمعة عند الحنابلة تصح في وقت الضحى قبل دخول الظهر.

رقم (٨) إذا لم تجد المرأة زوجًا أو محرمًا من أهلها يخرج معها للحج فإنه لا يجب عليها مهما كانت غنية، بل لا يحل أن تسافر لأجله وحدها.

رقم (٩) إذا دفع المشتري عربونًا وشرط على نفسه أن يتركه للبائع إذا لم يتم شراؤه ثم لم يتم الشراء فالعربون ملك حلال للبائع مهما بلغت قيمته.

رقم (١٠) إذا كان أحد الأقارب غنيا وكان له أقارب فقراء لا يرثون وجب عليه أن يوصي لهم بشيء من ماله يأخذونه بعد وفاته.

رقم (١١) ذبح الحيوان والطيور حلال ولو كانت قصبة الرقبة غير مستديرة وسواء أكان الذبح من أعلاها أم من أسفلها أو من سطحها، ولكن بشرط تسميته عند الذبح.

رقم (١٢) مذهب الحنابلة يوجب العدل بين الأولاد في التركة والعطايا فلا يجوز عندهم إعطاء الذكور وحرمان الإناث، ولا تفضيل واحد منهم بأكثر من حقه الشرعي، إلا إذا سمح الآخرون عن طيب نفس منهم، وذلك لعدم الضغينة بين الأولاد، وهي حكمة معقولة يؤيدها الدليل والواقع.

رقم (١٣) الحيل التي يتوصل بها إلى تحليل محرم ممنوعة عند الحنابلة، وإن كان ظاهرها الصحة، فزواج المحلل باطل كما هو باطل عند بعض الأئمة، حتى ولو لم يصرحوا في العقد بشرط التحليل، بل متى نواه المحلل فلا يجعله حلالا، لأن العبرة في العقود بالمقاصد لا بمجرد الألفاظ وعدمها.

وإذا أعطى والد شيئا من ماله لأحد أولاده، وجعل ذلك بيعا صوريا له ثمن اسمي، فهو حرام وباطل في مشهور المذهب، لأنه احتيال على تفضيل بعضهم على بعض من غير تراضيهم.

بقيت مسألة مشهورة يقولها الناس هي أن ظل خيال الكلب ينجس من وقعت عليه في مذهب الإمام أحمد، وهي مسألة محرفة عن أصلها الصحيح، فخيال الكلب لا أثر له عندنا، ونجاسة الكلب عندنا كما هي عند غيرنا، فإن كان جافا لا بلل فيه فمسه لا ينجس، وريقه وعرقه والبلل منه نجس، ومسه ينجس. أما أصل المسألة الشائعة فإن الحديث النبوي صح عند الحنابلة على أن الكلب الأسود الذي ليس فيه أي لون آخر إذا مر بين المصلي وبين سترة صلاته بطلت الصلاة، وهذا هو المذهب والحديث عندهم قوي غير معارض، وعندما يصح الحديث

فالحنابلة لا ينصرفون عن الأخذ به، وإن غابت الحكمة العقلية. وقد صرح في الحديث بعلة ذلك، ونصه: «الكلب الأسود شيطان، إذا مر بين يدي المصلي بطلت صلاته». فالعلة في البطلان هي شبه الكلب بالشيطان، وهل الشيطان نفسه يبطل الصلاة بمروره، وهو دائما يحضرنا في الصلاة وفي غيرها؟ ذلك سؤال وارد، ولكن أدبهم مع الحديث لا يجعل للاعتراض أثرًا في الحكم.

وعندي أن الكلب الأسود البهيم لا يكاد يوجد، وقد تنقضي حياة الإنسان ولا يصادفه كلب أسود كالزيتونة.

وفي الحق أن الكلب بهذا الوصف بشع المنظر كريه إلى النفس، كما تكره رؤية الشيطان، والنبي صلوات الله عليه أكرم الناس شعورًا، وأرجحهم ذوقا وأسلمهم نظرة، ولعله بهذا ينفر الناس من قنية الكلب الأسود، ويحملهم على التباعد عنه، لأن الشيطان يتمثل به أكثر مما يتمثل بشيء آخر.

فإذا أدركنا قبح الكلب الأسود أكثر من غيره، وأدركنا تمثل الشيطان به أكثر من سواه، قرب إلى أذهاننا تنفير النبي ﷺ منه، حتى لا نحرص على اقتنائه، ذلك ما أحاوله. وعلى أي حال، فمادام في كل مذهب بعض أحكام نحس فيها غرابة ليست في غيرها، فمذهب أحمد لم يكن بدعا، وما دامت الشريعة بوجه عام مستقاة من القرآن والسنة وعمل الصحابة، فما ينبغي أن يعاب على فقيه شيء يقول به في مذهبه عن دليل صحيح.

هذه طائفة من القول عن أحمد ومذهبه، ومنها يظهر للقارئ أن هذا الإمام وقد ضرب في الورع أصدق الذكريات جدير عند الله - فيما نرجو له- بمكانته بين الصديقين والشهداء والصالحين. ويظهر كذلك أنه كان في الأولين شخصية مشرفة من كل ناحية، وأن سيرته في الآخرين ستظل عطرة فياحة يتضوع أريجها كلما ذكره الذاكرون، كما يتضوع أريج الأزهار في الرياض الناضرات كلما داعبها النسيم.

فإذا سمعتم بعد اليوم من يتفكه بكلمة حنبلي فقولوا له:

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة

ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

من ملامح النبوة والرسالة

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م)

● الإرهاص قبل الوحي

لم تكن نبوة الأنبياء، ولا رسالات الرسل - عليهم جميعا صلاة الله وسلامه - من قبيل الوحي المفاجئ كما يتوهم البعض، بل كانت بعد مقدمات من جانب الله تعالى تتعلق بالإنسان الذي سيختاره الله لنبوته، أو لرسالته.

فتكون هذه المقدمات أمارات سابقة، تدل الناس في حينها على ما سيكون لهذا الإنسان من شأن خاص، ثم يحقق الله تلك الأمارات بالوحي من عنده، إلى عبده الذي اختاره وأرهص له.

وليكن حديثنا - أولا - عن الإرهاص حتى نفرغ، ثم يكون الحديث عن الوحي.

● (أ) الإرهاص

١- قال في القاموس المحيط: أرهص الله عبده: جعله معدنا للخير. وقد اصطلح العلماء قديما على تسمية الملامح التي تبدو في جانب هذا العبد إرهاصات.

والمعنى المقصود: أنها أمارات من الله على أن هذا الإنسان معدن الخير، كما هو المدلول اللغوي.

وقد حدثنا القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ عن جملة من الإرهاصات بالنسبة لفريق من الأنبياء والرسل، من غير استيعاب للجميع.

ولم يتوسع القرآن الكريم، ولا السنة، في هذا الشأن عن الجميع، لأنه شيء يطول، والله- تعالى- يريد أن يبين لنا في تخفيف عنا، دون أن يشق علينا ما لا

نطيقه﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٨). ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ (النساء: ١٦٤)، وأما التاريخ فلم نجعله عمدتنا في هذا، لما عسى أن يقال فيه.

هذا، وقد ذكر الإمام القرطبي - في تفسيره - ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: «قلت يا رسول الله، كم كانت الأنبياء، وكم كان المرسلون؟ قال ﷺ كانت الأنبياء مائة ألف، وأربعة وعشرين ألف نبي، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا».

ثم قال القرطبي: هذا أصح ما روي في ذلك. وهذا كلام بين، وفيه الكفاية، لأن ما روي في ذلك كثير، وليس كله راجحا، كما صرح الإمام القرطبي.

والقرآن الكريم لم يتعرض لهذا العدد كله، كما نوهنا، تخفيفا، وتيسيرا.

وحينما نستعرض ما ورد موجزا في القرآن الكريم والسنة من تلك الإرهاصات أو الملامح، سنراها تأخذ في القلب نصيبها من الروعة، وتثير في النفس مباهج الإعجاب، وتنبه الإنسان رويدا رويدا من غفلة إلى يقظة، ومن جهالة إلى معرفة، ومن إنكار إلى إيمان، يوم كانت تلك الإرهاصات في عصرها، أو بعد عصرها، لمن لا يزالون في شقاق عن بعض الأنبياء والرسل.

وحينما يفقه الإنسان ويصيب الحق، يتأكد أن تلك الإرهاصات كانت وسيلة رحيمة بالإنسان الذي تعلقت به، إذ جعله الله معدنا للخير، لأنها تمهيد له، وتوجيه للأنظار نحوه. فلا يكون ظهوره بالوحي فيهم بعد ذلك بعيدا كل البعد عن مألوفهم، وما عهدوا فيه من الخير، ولا يستوحشون منه كما يستوحشون من غريب دخيل عليهم، فيتجهمون له جميعا، أو يتهجمون عليه.

وكذلك يتأكد من يفقه، ويصيب الحق، أن تلك الإرهاصات كانت وسيلة رحيمة بالقوم، لأنها تخلق فيهم وعيًا سابقًا، وتثير بينهم تفكيرا في شأنه، ومناجاة فيما عهدوا من ملامحه التي لم تكن لغيره من جمهرة الناس في محيطهم.

وذلك التمهيد يقرب الساعة العقلية بينهم وبينه، ويدنيهم أو يدني فريقا منهم إلى الاستئناس به. ويكون هذا التمهيد سبيل التجاوب بين الداعي والمدعوين،

وأيسر على الجانبين كثيرا مما لو فاجأهم بالوحي من الله، دون إرهاصات تتقدمه، توقظهم من غفلاتهم.

ويوضح قولنا هذا أن الله - تعالى- جرت سنته على أن يختار نبيه أو رسوله من بين قومه، ليكونوا على معرفة بشخصيته، وعلى علم بسيرته، وعلى خبرة بأصوله، وبكل ما يدور حوله فيهم.

فلا يكون مريبا، ولا مسترابا فيه، ولا يكون مغمورا في نفسه، ولا مغموزا فيه.

وإذا سفهوا في شأنه كان مردودا عليهم بالواقع الذي يعلمونه حقا دون أن ينزل قدره عن مكانته التي هيأها له ربه، ولا عن كرامته التي أقامه الله عليها.

وإن تناولوه من ناحية تمسه من هذا القبيل أو من قبيل دعوته، فالله كفيل بحمايته، ويظل بتكريم الله من المصطفين الأخيار، لم يمسسه سوء القالة.

وإن أزهقوا روحه وسفكوا دمه، فإنما هو الاستشهاد في سبيل الله، يذهب ضحيته الأخيار من عباد الرحمن، ويبوء بإثمهم الأشرار من جنود الشيطان.

وكان المفروض بعد أن تحصل الإرهاصات لمن جعلهم الله معدن الخير أن يكون للعقول رشاد، وللقلوب تَبصُّر، فلا تتخلف الاستجابة المرموقة عن المقدمات المشهودة بما أرهص الله به لعبده.

ولكن الناس يختلفون في فطرتهم، وفي ميولهم، فمن حسنت فطرتهم واستقامت ميولهم كانوا مهتدين، وقليل ما هم، ومن عميت بصائرهم وانحرفت ميولهم ضلوا عن الرشد، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ (هود: ١١٨-١١٩).

● **الإرهاص لآدم عليه السلام**

١- كان الإرهاص من فجر الحياة الدنيا، فحينما أراد الله أن يلقي الأضواء حول عبده آدم قبل أن يكون له شأن معروف أخبر الملائكة بقوله - سبحانه - ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فأدرك الملائكة من هذا، أو من أمارات بجانب هذا النبأ: أن ذلك تنويه بما سيكون لآدم في هذا العالم من قدر خطير، لأن آدم هو الوافد عليهم، فليس لديهم من مخلوق يتجه إليه الفكر سوى

هذا الإنسان الأرضي الذي كرمه ربه، فذلك إرهاص مبكر، تنبه له الملائكة، وعلقوا عليه بالاستفهامات، والتعاجب، وسبق إلى ذهنهم أنهم خير وأولى بالخلافة في الأرض من هذا الإنسان الذي لم يكن مستخلصا مثلهم من عالم النور، ولا مطبوعا مثلهم على تسبيح الله، والتقديس، ولكن الله رجع بهم إلى حكمته، وعلمه الرباني فقال لهم ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

٢- ثم كان إرهاص آخر بما أفاض الله على آدم من علم لم تتهيأ له طبيعة الملائكة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) أسماء المخلوقات من بحار، وأشجار، وجبال، ونجوم، وكائنات أخرى. مما له ارتباط بحياة آدم في الأرض، التي سيكون خليفة فيها، هو وذريته إلى يوم القيامة، يعبدون الله فيها، ويستثمرونها بجهودهم.

٣- وكان إرهاص ثالث بتلك المناظرة التي امتحن الله فيها الملائكة، إذ عرض عليهم أن يجيبوا عن تلك المسميات، فلم يكن لهم الإمداد الذي ظفر به آدم. وهذا لعدم الأهلية لذلك العلم، ولكن آدم كان بطبيعته متأهلا، وكان بإمداد الله لهُ عالما، ومجيبا عما سئل.

٤- ثم كان إرهاص رابع: بتكليف الله للملائكة أن يعظموا آدم تعظيما يناسب مقامه بعد أن تبين لهم ما كان خافيا عليهم من حكمة الله في صنعه، واختياره للإنسان دون الملائكة.

٥- ويكون الإرهاص الخامس بتوبيخ الله لإبليس على امتناعه من تعظيم آدم تعظيما أشاد الله به، حتى سماه سجودا، وإن لم يكن سجودا على الجبهة كما نعهد، فإن هذا النوع لم يشرع لغير الله.

٦- وينتهي ذلك الإرهاص في هذه القضية بطرد إبليس من الجنة، رجيما مسخوطا بلعنة الله إلى يوم الدين، بسبب عصيانه لله في ما أمره من تعظيم آدم، ويلعنه الناس على وجه الأرض دائما.

لم يكن آدم أثناء هذا نبيا، ولا رسولا، وإنما هي تمهيدات لما يصادفه بعد ذلك من الوحي، فأي إرهاص يكون أبلغ من هذا في مطلع التاريخ البشري؟

ثم يقال: هل كان هذا الإرهاص تمهيدا لنبوة آدم، أو لرسالته كذلك؟

ويختلف العلماء في تحقيق هذا، ففريق يقرر أنه نبي فقط، لعدم وجود قوم يحتاجون إلى رسول فيهم. وآخرون يعتبرونه رسولا إلى ذريته الذين عاش فيهم أزمانا وعلمهم مما أوحى إليه ربه. وكيفما كان الرأي الأرجح، فآدم نبي على أقرب الوجوه، ورسول على قول راجح.

وتلك إرهاصات له- عليه السلام- وهذا ما أثبتناه من نصوص القرآن الكريم وكفى.

● **الإرهاص لإسماعيل عليه السلام**

١- قدم إبراهيم عليه السلام على مكة وهي خلاء من السكان، ومعه زوجته هاجر المصرية وولده إسماعيل، ثم تركها في رعاية الله حيث لا أنيس، ولا جليس، ولا زرع، ولا ضرع، وإنما هو تنفيذه لأمر الله، واستئناس منه برعاية الله، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧).

فهذه الدعوات التي جرت على لسان إبراهيم حين مبارحته لتلك البقعة الجرداء التي اختارها الله مقاما لزوجته، ولولده الوحيد الذي رزق به على كبر من السن، وبعد تشوق ورجاء - تعتبر إرهاصة لإسماعيل، وفي طيها أسرار علوية ستبدو على الأيام.

ثم يخلق الله الماء - بعد ذلك - بجانب إسماعيل، ويجمع حوله السكان، ويعمر الوادي بأهله الذين استوطنوه من العرب، ويشب إسماعيل فيهم، ويترعرع جسمه على خير ما كان يرجو أبوه، وعلى خير ما كان يطمع إبراهيم في تأهيل المكان بأفئدة من الناس تهوي اليه.

٢- وبعد ذلك أذن الله بإرهاصة ثانية لإسماعيل، وهي موقفه من أبيه حينما أخبره إبراهيم بما أوحي إليه من ذبحه قربانا إلى الله لما بلغ معه السعي (يعني شب، وتهيأت قدرته لمزاولة الاعمال) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي

ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وكان إبراهيم لابد منفذا لرؤياه، لأنها وحي، كما هو الشأن في منامات الأنبياء.

وهذا موقف ليس هينا على والد مع ولده، وخاصة إبراهيم في شيخوخته مع وحيده إسماعيل الفتى، ولكنها عزيمة الرسالة، وصدق العهد مع الله من أنبيائه فوق عاطفة الأبوة والرفق بالبنوة، بل كانت عاطفة إبراهيم برؤياه إلى ولده، حتى لا يكون التنفيذ على غرة من إسماعيل. مع التصميم على التنفيذ فإن الغرة ليست من صنائع المؤمنين، فضلا عن النبيين، ثم كان بالاستفهام، ولم يكن بالأسلوب الخبري، لأن إبراهيم كما يشهد الله له رقيق القلب، كثير الضراعة والاسترحام، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ (هود: ٧٥). فهو يترفق بولده فيما يسوق إليه من تنفيذ ذبحه، طاعة لربه، ويكل الأمر ظاهرا إلى رأيه بهذه الاستشارة.

وكان إسماعيل يدرك أن أباه فاعل ولا محالة، فماذا أجاب في طاعة أبيه؟ قال: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) وكان هذا وعدا صادقا حقا، واستسلاما طيعا.

ثم ما كاد إبراهيم يتناول سكينه، ويلقي ولده على وجهه ليذبحه من الخلف، ويتفادى النظر إلى وجهه، لتخفيف الهول عن نفسه، حتى كانت رعاية الله أرفق من أبوة إبراهيم، وأسرع من وضع السكين على مقتل إسماعيل، إذ هتف هاتف السماء برحمة الله: ﴿... يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (الصافات: ١٠٤-١٠٧)- أي كبش كان ضحية إسماعيل - فهذه إرهاصة ثانية غير هينة الشأن، وقعت لإسماعيل وكانت مقرونة بالثناء من الله على إبراهيم وولده بما أثنى من الخير حتى كرر وصفهما بالمحسنين في القصة بسورة الصافات (١٠٢ -١١٠). كما تحدث القرآن بعد ذلك عن صدق إسماعيل في قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ (مريم: ٥٤).

٣- ثم كانت إرهاصة ثالثة مذكورة في قوله تعالى ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ

أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥).

فتطهير مكان الكعبة داخل المسجد الحرام مما يكون به من أقذار وآثار تراكمت على طول الزمن، وإعداده لما تهيأ له من طواف الطائفين، وعبادة العاكفين والقائمين والركع السجود، لا يعتبر هذا كله شأنا عاديا يعهد الله به إلى مطلق إنسان، وإنما هو قضاء رباني يعهد الله به إلى رسوله إبراهيم ليقوم بتنفيذه مع ولده إسماعيل.

وقد كان ذلك التعاون، وتَحَقَّقَ العهد، وأقيم بناء البيت في البقعة المطهرة على يد رسول الله إبراهيم، وولده إسماعيل، وهما يجأران إلى الله بأطيب الدعوات ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٨).

وعلى ذلك تم البناء، وتحقق الدعاء، وشرع الحج، وصار البيت ملتقى جامعا للمسلمين من كل فج، ومناطا لهديهم، وجمعا بين قلوبهم على توحيد الله، وعصمة لهم بدين الله وتنظيما لصفوفهم حول من يصطفيه الله لدعوته ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ - تقويما لهم - (المائدة: ٩٧).

فإن يكن تطهير مكان البيت الحرام، وإقامة بنائه عهدا من الله تعالى إلى إبراهيم، وهو نبي مبعوث، فإن هذا بالنسبة لإسماعيل إرهاص واضح من جانب الله بما سيكون له من شأن بعد ذلك. وقد كان وتحققت رسالته بعد تلك الملامح السالفة.

وهي باكورة الرسالات في العرب، من نسل إسماعيل بصفة أخص، ثم لم تعقبها رسالة فيهم إلا أخيرا برسالة خاتم الأنبياء محمد- عليه الصلاة والسلام.

وإنما تحولت الرسالة من بعد إسماعيل إلى إسحاق أخيه لأبيه ثم استرسلت في يعقوب وبنيه من أنبياء بني إسرائيل - يعقوب - وعلى أي حال فقد ظلت في ذرية إبراهيم: مبدأ، ونهاية ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ (العنكبوت: ٢٧).

٧ مقالات

د. محمد محمد أبو شهبة

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

(١) اعرف عدوك: أعداء الإنسانية.

العدد (٤) ربيع الثاني (١٣٨٥هـ) أغسطس (١٩٦٥م)

(٢) نحو ثقافة إسلامية.

العدد (١٦) ربيع الثاني (١٣٨٦هـ) - يوليو (١٩٦٦م).

(٣) تحويل القبلة إلى الكعبة.

العدد (٢٠) شعبان (١٣٨٦هـ) - نوفمبر (١٩٦٦م).

(٤) الجهاد في الإسلام (١).

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

(٥) الجهاد في الإسلام (٢).

العدد (١٣٥) ربيع الأول (١٣٩٦هـ) - نوفمبر (١٩٧٠م).

(٦) أبو حنيفة النعمان (١).

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠هـ) - مارس (١٩٧٠م).

(٧) أبو حنيفة النعمان (٢).

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١م).

(٨) اللغة العربية في القرآن.

العدد (١٧٤) جمادى الآخرة (١٣٩٩هـ) - إبريل (١٩٧٩م).

(٩) **القرآن والسنة معا.**

العدد (١٧٦) شعبان (١٣٩٩)هـ - يونيو (١٩٧٩م).

(١٠) **الموعظة البليغة .**

العدد (١٧٨) شوال (١٣٩٩هـ) - أغسطس (١٩٧٩م).

(١١) **مساهمة المسلمين في العلوم.**

العدد (١٨٢) صفر (١٤٠٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٩م).

(١٢) **المساجد الثلاثة.**

العدد (١٨٧) رجب (١٤٠٠هـ) مايو (١٩٨٠م).

(١٣) **ترغيب الشباب في الزواج.**

العدد (١٩٨) رمضان (١٤٠٠هـ) - يوليو (١٩٨٠م).

تعريف بالكاتب

الدكتور/ محمد محمد أبو شهبة

ولد رَحِمَهُ اللَّهُ بقرية «منية جناج» الواقعة على ضفاف نهر النيل فرع رشيد التابعة لمركز ومدينة دسوق - محافظة كفر الشيخ - في ٢٥ شوال ١٣٣٢هـ - ١٥/ ٩/ ١٩١٤م.

بعد حصوله على الشهادة العالية في العام ١٩٣٩م، التحق بقسم الدراسات العليا «شعبة التفسير والحديث»، ثم نال شهادة الدكتوراه في عام١٩٤٦م بدرجة الامتياز، ثم عُين مدرسا بكلية أصول الدين ثم رقي إلى أستاذ مساعد، ثم أستاذ.

وفي عام ١٩٦٩م عين عميدا لكلية أصول الدين بأسيوط، أول كلية بأول فرع أنشئ لجامعة الأزهر في مصر.

في مطلع حياته العلمية أعير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بالمعهد العالي السعودي الذي صار كلية للشريعة، ثم أُعير إلى كلية الشريعة بجامعة بغداد فمكث بها عاما واظب فيه على درس الجمعة في مسجد الإمام أبي حنيفة النعمان، ثم أعير للجامعة الإسلامية بأم درمان بالسودان فمكث فيها نحو ثلاث سنوات، كانت توفده الجامعة كل رمضان إلى غرب السودان.

اهتم رَحِمَهُ اللَّهُ بالتأليف في القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية المشرفة وعلومها والفقه والتشريع والسيرة النبوية والرد على المستشرقين، والمبشرين والملحدين، فمن مؤلفاته: «توفيق الباري في شرح صحيح البخاري، المدخل لدراسة القرآن الكريم، علوم الحديث» وغيرها.

وفاته: توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في أيام عيد الفطر، بعد فريضة الصيام في صباح يوم الجمعة الموافق ٥ شوال ١٤٠٣هـ - ١٥/ ٧/ ١٩٨٣م عن عمر يناهز تسعة وسبعين عاما قضاها عالما عاملا وداعية مجاهدا.

اعرف عدوك

أعداء الإنسانية

العدد (٤) ربيع الثاني (١٣٨٥هـ) أغسطس (١٩٦٥م)

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ (الأعراف: ١٦٧).

هذا إعلام من الله سبحانه صادق بأنه سيسلط على اليهود إلى يوم القيامة من ينزل بهم أشنع العذاب وأسوأه إذا ما ضلوا، وفجروا، وعاثوا في الأرض فسادا، وذلك لأن الله جلت حكمته سريع العقاب لمن عصاه، وغفور رحيم لمن أطاعه، وأناب إليه.

وكما كتب الله على اليهود تسليط الغير عليهم بسبب عصيانهم وإفسادهم في الأرض، كتب عليهم أن يفرقهم في الأرض بددا، وأن منهم الصالحون، وكثير منهم الطالحون المفسدون، وأن الله سيبتليهم بالخصب والجدب، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والغنى والفقر، لعلهم يرجعون عن غيهم وإفسادهم، وتطاولهم على الأنبياء، وإسرافهم في قتلهم والنيل منهم، قال عز شأنه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الأعراف: ١٦٨).

وما ذكره القرآن الكريم على لسان نبينا الصادق الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يعرف عنه أنه أخذ عن أحد من أهل الكتاب والعلم بالتواريخ شيئا، هو الحق الذي أيده التاريخ الصحيح، وشهدت به الوقائع الجارية، فهم من قبل موسى عليه الصلاة والسلام والله يسلط عليهم بين الحين والحين من يقتص منهم ويسومهم سوء العذاب، وقد نجاهم الله على يد موسى مما أصابهم من فرعون

وقومه، ولكنهم لم يشكروا هذه النعمة الجلى، وغيرها، وكفروا بالله، وبما جاء به الأنبياء والمرسلون، وما كان ربك لليهود ظالما، فسبحانه ثم سبحانه من أن يكون ذلك ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ (فصلت: ٤٦) ولكنهم قوم مرنوا على سفك الدماء وانتهاك الأعراض، واغتصاب الأموال، والسعي في الأرض بشتى أنواع المفاسد، وهم إن قدروا، أو ملكوا لا يراعون إلًّا ولا ذمة، ولا يلتزمون بشريعة، ولا يحترمون حقا، ولا عرفا، ولا خلقا كريما، ويضربون بالمقررات والحقوق الإنسانية عرض الحائط، وإن ضعفوا وذلوا كانوا أداة غدر وخيانة، ودسائس ومؤامرات، وعوامل تخريب وإفساد وشر.

● **عصابة متمردة**

وقد وصفهم نبي الله موسى عليه السلام في التوراة بأنهم متمردون، ورقابهم صلبة، وقلوبهم قاسية، وأخبر أنهم بعد موته سيكونون أشد تمردا وعصيانا، ففي سفر التثنية الإصحاح ٣١ فقرة ٢٤-٣٠ «(24) فعندما كمل موسى كتابة هذه التوراة في كتاب إلى تمامها (25) أمر موسى اللاويين حاملي التابوت عهد الرب قائلا (26) خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب عهد الرب إليكم ليكون هناك شاهدا عليكم (27) لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حي معكم، اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي (28) اجمعوا إلي كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض (29) لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم (30) فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه».

وقد جاء القرآن الصادق المهيمن على الكتب السماوية السابقة بتصديق ذلك وأفاض في ذكر مثالبهم، وتعداد مساوئهم وتجرئهم وسفاههم على ربهم، وعلى أنبيائه، وعلى الناس قاطبة، فالله سبحانه حينما يسلط عليهم من يخزيهم ويذلهم

إنما يجازيهم بأفعالهم، ويؤاخذهم بجرائمهم، وصدق الله حيث يقول: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة: ٢٥١).

لقد سلط عليهم لما طغوا وتجبروا «بختنصر» البابلي فقتلهم، وخرب ديارهم، وأسر الكثيرين منهم، وأذلهم حينا من الزمان، ثم لما قووا، وعلوا في الأرض، وأكثروا من الإفساد وقتل الأنبياء سلط الله عليهم أيضا من ملوك فارس والروم «كطيطوس» النصراني فأذل كبرياءهم، وأسام وجوههم وتبر ديارهم، وعاشوا مستذلين حقبا من الزمان.

وإليك قول الحق تبارك وتعالى في هذا ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإسراء: ٤ - ٨).

فتأمل معي في قوله سبحانه ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ﴾ (الاسراء: ٨) يعني إن عدتم إلى المعاصي والإفساد عدنا إلى تسليطنا عليكم من يذلكم في الدنيا، هذا عدا ما ندخره لكم من عذاب أليم في الآخرة.

● **الأعداء الألداء**

هذه بعض جرائمهم[1]، وهذه بعض عقوبات الله لهم على يد عباد من عباده قبل مجيء خاتم الأنبياء، فلما جاء الإسلام، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة أحسن

(١) ومن أعظم جرائمهم قتل أحد ملوكهم يحيى عليه السلام من أجل امرأة بغي ومحاولتهم قتل عيسى عليه السلام ومكرهم به لولا أن أنجاه الله منهم ورفعه إليه، ورميهم السيدة العذراء مريم بالزنا، فهل نسيت دول الاستعمار اليوم وهي مسيحية هذه الجرائم؟

إليهم، وأقرهم على دينهم ودنياهم، ولكنهم قابلوا الإحسان بالإساءة، والتسامح بالخديعة، والعفو بمحاولة القتل، وألبوا عليه الأعداء، ونقضوا العهود وأرادوا غير مرة طعنه وأصحابه من الظهر، وأسفوا إسفافا لا يرتضيه إنسان فيه بقية من حياء أو خلق، فما كان من الرسول والصحابة إلا أن أذلوهم وهزموهم شر هزيمة وأجلوهم عن الأرض الطيبة - أرض المدينة - إلى خيبر وغيرها، ثم لم يلبث يهود خيبر وما جاورها أن غدروا وأفسدوا، فحاصرهم المسلمون وأذلوهم، فلم يجدوا بدًّا من النزول على حكم الله ورسوله، وبذلك أدال الله دولتهم، وأذهب عزهم، وقضى على سلطانهم في الجزيرة العربية، وعاشوا في خيبر وما جاورها أذلاء صاغرين، ثم تولى الفاروق عمر بن الخطاب الخلافة، فأجلاهم عن أرض خيبر وما جاورها، وبهذا طهر أرض الحجاز من رجسهم، وغدرهم وخيانتهم، وشرهم المستطير، وكما ابتلي اليهود في القديم بمن أذلهم، وشردهم، ابتلوا في العصر الحديث بحكام ألمانيا النازية فساموهم سوء العذاب، وطردوهم من بلادهم شر طردة، وشردوهم في الآفاق.

● إن موعدهم الصبح

وقد لاحت لهم بارقة أمل في هذا العصر لما احتضنهم المستعمرون، أعداء الإسلام، وأعداء العرب، وأعداء الإنسانية، ووعدوهم بالوطن القومي، وجمعوهم من الآفاق، وأسكنوهم في الأرض المباركة أرض فلسطين الشهيدة، وأمدوهم بأسلحة الهلاك والدمار، والغدر والخيانة، فذبحوا وقتلوا العرب الآمنين، أهل البلاد الأصليين، وانتهكوا الأعراض، واغتصبوا الأموال، ثم كان ما كان من إجلاء العرب أبناء البلاد، وتمتع المغتصبين بخيرات البلاد وبركاتها، وبقي أهل البلاد مشردين في الصحراء والعراء، يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء، وهد من كيانهم الجوع والعري والبرد والحر، كل ذلك على مرأى ومسمع من العالم الحر، عالم القرن العشرين، ولئن عز عليهم عدل أهل الأرض، فلن ييأسوا من عدل السماء وصدق الله العظيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ (إبراهيم: ٤٢).

إن الباطل مهما علا وتجبر فلابد أن يكون مآله إلى العفاء والفناء، والحق مهما ضعف وتوارى وراء حجب الباطل فلابد له يوما من الظهور والاستعلاء، وما يتراءى لإسرائيل اليوم من قوة ومنعة فإنما هي فورة قدر، سرعان ما تزول، وسحابة صيف عن قريب تقشع، ودولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة وهذه سنة الله في الكون، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وصدق الله العظيم﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ (الرعد: ١٧)، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ (الإسراء: ٨١)، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾(الأنبياء: ١٨).

أيها المسلمون: لقد سمعتم في القرآن الكريم- الذي هو ذكركم وشرفكم - كيف قرن الله سبحانه بين علوهم علوا كبيرا، وإفسادهم في الأرض إفسادا كبيرا، وسمعتم أن اليهود لما علوا واستكبروا في الأرض، سلط الله عليهم في كل مرة من أذلهم وتبر ديارهم، وسمعتم ما أوعد الله به من تسليط من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، وسمعتم قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ (الاسراء: ٨) فهل بعد ذلك يشك مؤمن معتز بدينه وعروبته في أن الله القوي القاهر سيديل - على أيديكم - دولتهم، ويكسر شوكتهم، ويصيرهم مثلا وعبرة في الآخرين؟ لقد وعدنا الله سبحانه، ووعدهم بلفور وأعوانه، فأين وعد بلفور المتجني الآثم من وعد الله الحق الصادق؟ لقد سمعتم أن الله سبحانه جرت سنته مع اليهود أن يدعهم حتى يبلغ إفسادهم وظلمهم المدى، وحينئذ يأخذهم بأيدي عباد له أشداء أخذ عزيز مقتدر، وإن هذا اليوم لقريب إن شاء الله إذا ما سار المسلمون في الطريق اللاحب، طريق الوحدة، وجمع الكلمة، ولم الشمل، وأخذوا أنفسهم بهدى القرآن من إعداد العدة، وأخذ الأهبة للأعداء، وعقد العزم على إرجاع الحق المغتصب وصدق الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا

مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ (الأنفال: ٦٠).

لقد لاحت أضواء الفجر، وبدت بواكير النصر، وذلك بعقد المؤتمرات والمشاورات بين ملوك العرب ورؤسائهم وقادتهم، وستؤتي أكلها قريبا بإذن الله سبحانه، وإن غدا لناظره قريب، إن أملنا ورجاءنا كبير أن ينصر الله الفئة المؤمنة على الفئة الكافرة الغادرة، وأن ينصر أهل الحق على أهل الباطل، وأهل الصلاح على أهل الفساد، ولكن لذلك ثمنا غاليا، أن نعتز بإسلامنا كأقوى ما يكون الاعتزاز، ونهتدي بهدى شريعتنا التي صيرت من العرب خير أمة أخرجت للناس، وإذا تآزر الإسلام والعروبة فقل على المستعمرين والباغين العفاء.

ولا يسعني إلا أن أختم مقالي بهذا الحديث النبوي الشريف، روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن ابن عمر وأبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»..

● **الهجرة الصهيونية**

فتحت السلطات اليهودية أبواب فلسطين لليهود بعد عام ١٩٤٨، وفيما يلي صورة عن هذه الهجرة بين عامي ١٩٤٨ -١٩٦٠م حسب البلاد التي قدم منها المهاجرون.

القارة	الدولة	عدد المهاجرين
أوروبا	- رومانيا	١٤٥,٠٠٠
	- بولندا	١٣٠,٠٠٠
	- بلغاريا	٣٩,٠٠٠
	- هنغاريا	٢٧,٠٠٠
	- تشيكوسلوفاكيا	١٨,٠٠٠
	- يوغوسلافيا	٧,٥٠٠
	- الاتحاد السوفياتي	٥,٠٠٠
	- أقطار أوروبية أخرى	٤٥,٠٠٠
المجموع =		٤١٦,٥٠٠

تابع الجدول بأعداد المهاجرين اليهود

أميركا	- الولايات المتحدة	٥,٠٠٠
	- أقطار أميركية أخرى	١٠,٠٠٠
المجموع =		١٥,٠٠٠
آسيا	العراق	١٢٠,٠٠٠
	اليمن	٥٠,٠٠٠
	تركيا	٣٦,٠٠٠
	إيران	٣٣,٠٠٠
	الهند	٥,٥٠٠
المجموع=		٢٤٤,٥٠٠
إفريقيا	الجزائر، تونس، مراكش	١٥٠,٠٠٠
	ليبيا	٣٢,٠٠٠
	ج. ع. م	٢٥,٠٠٠
المجموع =		٢٠٧,٠٠٠
أقطار لم تحدد		٢٢,٠٠٠
المجموع العام =		٩٠٥,٠٠٠

نقلا عن نشرة فلسطين التي تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت.

* * *

نحو ثقافة إسلامية

العدد (١٦) ربيع الثاني (١٣٨٦هـ) يوليو (١٩٦٦م)

لقد استقلت معظم البلاد الإسلامية والعربية سياسيًّا، وأصبح لها كيان دولي قوي، ورأي له قيمته وخطره في المشاكل الدولية والعالمية بعد أن كان يصدق عليها قول الشاعر العربي:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستشهدون وهم حضور

وجرت في مضمار الاستقلال الاقتصادي أشواطا بعيدة ولم تعد تابعة لأحد في اقتصادها كما كانت من قبل، وبقي عليها أن تتم استقلالها الثقافي، وأن تحيي ما أماته الاستعمار من ثقافتنا الإسلامية العربية الأصيلة، هذه الثقافة التي هي بسبب وثيق من ديننا وأخلاقنا وعروبتنا وبيئتنا، والتي تتسم بالروحانية والخلقية الكريمة والمعاني الإنسانية النبيلة، والتي أظلت العالم بظلالها الوارفة أحقابًا من الزمان، والاستعماريون الدخلاء لما اغتصبوا بلاد الإسلام والعروبة في القرن الأخير لم يكتفوا بالغزو السياسي والاقتصادي، بل جعلوا جل اهتمامهم مسخ معالم الثقافة الإسلامية والعربية من نفوس الشعوب وإحلال الثقافة الغربية محلها، واتبعوا في ذلك وسائل الإرهاب حينا، والترغيب حينا آخر حتى تم لهم الكثير مما أرادوا، وغدا من المؤسف حقا أن نجد بعض اللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية هي السائدة في بلاد جل أهلها عرب مسلمون وأصبحت اللغة العربية لغة القرآن غريبة في هذه الأقطار، لا تستقيم بها ألسنة أهلها، وإنما ينطقونها برطانة أعجمية، ولسان غير عربي، وإذا كان هذا حال اللغة العربية فما بالك بغيرها من ألوان الثقافة الإسلامية والعربية، وما أكثرها وأجلها.

وليس أدل على نجاح المستعمرين في إضعاف الثقافة الإسلامية والعربية في

البلاد التي منيت بهم من أن علوم القرآن الكريم وعلوم السنة النبوية، وهما الأصلان الأصيلان للإسلام، لا يكاد يعرف منهما طلاب المدارس والمعاهد والجامعات المدنية شيئا ذا غناء، وإذا استثنينا جامعة الأزهر، وبعض الجامعات الإسلامية الأخرى، وبعض الكليات التي تعنى بالدراسات الإسلامية فإننا نجد الثقافة القرآنية والحديثية تكاد تنحصر في جملة من الآيات، والأحاديث النبوية تدرس دراسة سطحية خاطفة على أنها نماذج أدبية، أو أمثلة لآداب وأخلاق إسلامية، من غير أن يكون لها أثر واضح في الاعتقاد والسلوك والآداب.

وكم من المثقفين وطلاب المدارس والجامعات من يعرف ما هو القرآن؟ وكيف نزل؟ ومتى نزل؟ وعلى أي حال كان يتلقاه النبي ﷺ؟ وأسباب نزوله؟ ومكيه ومدنيه؟ ومميزات وخصائص كل من القسمين، وكيف جمع القرآن الكريم ودون بين يدي النبي ﷺ؟ وما هي الأطوار التي مر بها جمع القرآن وكتابته وعناية الأمة الإسلامية بكتابها من لدن الصحابة حتى وصل إلينا كما أنزله الله من غير تحريف ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، وما هو إعجاز القرآن؟ وما هي وجوه الإعجاز؟ وإقامة الأدلة والبراهين على هذا الإعجاز إلى غير ذلك من الثقافة القرآنية التي لا يستغني عنها مسلم فضلا عن طالب علم كأمثال القرآن، وأقسامه، وقصصه ومجازه، ومحكمه ومتشابهه، وجدله ومناظراته، وأنواع حججه وبراهينه وطريقته الفذة الغضة في إقامة براهينه العقلية والكونية والوجدانية، وهذا قل من كثر، وغيض من فيض من الثقافة القرآنية ولعلك تعجب معي من هذه القصة. قال الأصمعي سمعت بنتا من الأعراب خماسية أو سداسية[1] تنشد:

أستغفر الله لذنبي كله ... قتلت إنسانا بغير حله
مثل غزال ناعم في دله ... وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك!

فقالت: ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ

(١) يعني بنت خمس أو ست سنين.

مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ (القصص: ٧) فجمع في آية واحدة بين خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين[١] فإذا كانت ثقافة هذه البنت الصغيرة على هذه الحال، فما بالك بالكبار من الرجال، والكبيرات من النساء؟ وكم من المثقفين وطلاب العلم اليوم من يساوي هذه البنت أو يدانيها في ثقافتها؟

وليست الثقافة الحديثة بأوفر حظا من الثقافة القرآنية لدى الكثرة الكاثرة من طلاب العلم والمثقفين، وكم من هؤلاء من يعلم ما هي السنة وما هو الحديث؟ وما هو الخبر وما هو الأثر؟ ومنزلة السنة من القرآن؟ والأدلة المتكاثرة على حجية السنة واعتبارها مصدرا من مصادر التشريع، ومتى دونت الأحاديث؟ وعناية المسلمين بها من لدن النبي ﷺ إلى أن دونت وكتبت في الصحاح، والمسانيد، والسنن، والجوامع، ثم استمرت هذه العناية إلى وقتنا هذا شرحا وفقها واستنباطا، وتنقية لها من كل شوائب الاختلاق والدس بحسب الجهد البشري، وذلك بفضل القواعد والأصول التي وضعها علماء أصول الرواية في الإسلام والتي تعتبر بحق أوفى القواعد وأرقاها، وأدقها في علم النقد بقسميه نقد السند والمتن، أو بالتعبير الحديث النقد الخارجي والنقد الداخلي، وللمحدثين في تاريخ نقد الرجال وميزانهم الميزان الدقيق ثروة لا تكاد تعرف في أمة من الأمم، فكم من المثقفين وطلاب العلم من يثقفون هذه المعارف ويعرفونها؟

فمتى نرى هذه الثقافة الإسلامية الأصيلة أمرا مشاعا بين طلابنا وطالباتنا، ومثقفينا ومثقفاتنا، حتى نعود بالمجتمع الإسلامي إلى ما كان عليه من نضج علمي، وثقافة واسعة بالقرآن والسنة.

وإذا تركنا الثقافة القرآنية والحديثية إلى غيرهما من ألوان الثقافة والمعارف الإسلامية وجدنا معرفة الطلاب والمثقفين لها ضحلة، فالدراسات الفقهية والتشريعية لم تلق العناية بها، ونحن الأمة الإسلامية لنا تاريخ حافل مجيد في الفقه والاجتهاد، وعندنا ثروة ضخمة من كتب الفقه والأصول والشروح والأقضية

(١) الخبران أوحينا وخفت، الأمران أرضعيه وألقيه، النهيان ولا تخافي ولا تحزني، البشارتان إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

والفتاوى تعدو عن الحصر، وتملأ خزانة وحدها، وهذه الثروة الطائلة لا تحتاج إلا إلى ترتيب وتهذيب وتقنين فتبدو في ثوب قشيب جذاب يجذب الأبصار ويشبع العقول، وكان من أثر ضعف الثقافة الفقهية أن الكثرة من طلاب العلم العرب يعرفون عن رجال القانون، وأصحاب الشروح على هذه القوانين ما لا يعرفونه عن الأئمة أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، والبويطي، والمزني، والربيع الجيزي، وابن القاسم، وأشهب، والخلال، والسرخسي، والطحاوي وغيرهم من أساطين الفقه والشريعة. والدراسات اللغوية والأدبية ضعيفة وقَلَّ الاعتناء بها، ولذا نجد الطلاب يعرفون من أدباء الغرب وأعلامه أكثر مما يعرفون عن أعلام اللغة والأدب من المسلمين العرب أمثال الأصمعي، والجاحظ وابن عبدربه، وأبي علي القالي، وأبي الفرج الأصبهاني، والقلقشندي، والنويري والجوهري، والفيروزآبادي وابن منظور وغيرهم وما أكثرهم.

وكذلك الدراسات العقلية والفلسفية الإسلامية لا تجد عند طلاب الجامعات ومعاهد العلم قبولا ورواجا كدراسة الفلسفة الأوروبية ورجالها، لذلك لا تعجب إذا كان الطالب يعرف عن أعلام الفلسفة الغربية ما لا يعرفه عن الغزالي والكندي وابن سينا والفارابي وابن رشد والرازي الذين لم يكونوا مجرد نقلة للفلسفة الإغريقية كما زعم المتجنون على العرب، وأنكروا أن يكون لهم فضل وابتكار في علم أو فلسفة وإنما فهموا وناقشوا، وهضموا ما وعوه، وصيروا منه عصارة شهية مستساغة، وضموا إلى ذلك ما ابتكروه وابتدعوه من نظريات، وبذلك خطوا بالمعارف الفلسفية والإنسانية خطوات مشكورة.

ويعرف عن علماء الغرب وأعلام الفكر الذين ساهموا في التراث الإنساني، ما لا يعرفه عن البخاري ومسلم والطبري والقاضي عياض وابن حزم وابن عبدالبر والزمخشري وابن القيم والذهبي والسبكي وإمام الحرمين وابن حجر والسخاوي والسيوطي والألوسي وغيرهم وما أكثرهم.

ويعرف عن رواد الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي ما لا يعرفه عن ابن

تيمية وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم.

وكان من آثار الاستعمار السيئة في الثقافة أنه حاول طمس معالم الحقيقة فنسب إلى الغرب كل علم وحضارة وجرد الشرق ولاسيما العرب من كل فضل مع أن فضل العلماء العرب على الحضارة الإنسانية معروف غير منكور، إن طلابنا في المدارس والمعاهد والجامعات يدرسون الكثير من النظريات في الطبيعة والكيمياء والرياضة والفلك وغيرها، ويعرفون الكثير عن أصحاب هذه النظريات قدامى ومحدثين ولكنهم يجهلون فضل العلماء المسلمين والعرب على العالم في ابتداع أصول هذه العلوم والوصول إلى بعض نظرياته، هذا الفضل الذي شهد به المنصفون من علماء الغرب مثل «كاجوري» الذي قال: «إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر» ومثل «سيديو» العالم الفرنسي الذي قال: «إن إنتاج أفكارهم - أي العرب- الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء».

لقد آن الأوان للقضاء على ما تركه الاستعمار من مسخ ثقافي، وافتراءات على الثقافة الإسلامية العربية الأصيلة، وأن نعيد هذه الثقافة قوية كما كانت، وأن نجعل لها السيادة على الثقافات الأخرى، وأن نلقن الطلاب والناشئة فضل آبائهم وأجدادهم على العلم والحضارة، حتى يشبوا وهم معتزون بثقافتهم وبأنفسهم.

أليس من المؤسف أن يغيب عن علم طلابنا ومثقفينا أن «الخوارزمي» العالم العربي يعتبر من كبار رياضيي العالم وأنه أول من وضع علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب، فقد رتبه وبوبه ووضع أصوله التي تعد أساسا لكثير من بحوثه، و«جابر بن حيان» العالم العربي من ألمع علماء الكيمياء العالميين الذين أضافوا مباحث مهمة، ونظريات دقيقة إلى الثروة الإنسانية العلمية جعلته في عداد الخالدين في تاريخ التقدم الفكري، و«البيروني» العالم العربي كان له كعب عال وقدم راسخة في كثير من العلوم والمعارف الإنسانية وكانت له ابتكارات قيمة وبحوث نادرة في الرياضيات والفلك، والتاريخ والجغرافيا، وقد قال «سخاو»

بعد أن اطلع على مؤلفاته وبحوثه المبتكرة: إن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ.

و«ابن الهيثم» من مفاخر الأمة العربية ومن علماء العرب العالميين برع في الرياضيات ولاسيما في بحوث البصريات ولولاه لما تقدمت تقدمها المعروف، والعلماء المسلمون والعرب هم الذين هذبوا الأرقام الهندية التي نستعملها الآن والتي وصلت إلى الغرب بوساطة الكتب العربية، وهم الذين استعملوا الصفر للغاية التي نستعملها الآن ووضع علامة الفاصلة للكسر العشري، وقد أثبتت التحريات الحديثة أن العرب هم الذين اخترعوا «الرقاص» و«الاسطرلاب» وأنهم من الذين مهدوا لإيجاد التكامل والتفاضل واللوغورتمات إلى غير ذلك من المعارف الإنسانية والاختراعات العلمية التي ساهمت في تقدم الفكر وتكوين الحضارة البشرية[1].

إنني حينما أدعو إلى إحياء الثقافة الإسلامية العربية لا أريد الانعزال عن الثقافات الأخرى من غربية أو شرقية، وعدم الاستفادة منها، لأن الثقافات يلقح بعضها بعضا، ويستفيد بعضها من بعض، ولكني أريد ألا تطغى الثقافات الأخرى على ثقافتنا الإسلامية العربية الأصيلة، وأن يكون علمنا بها علما شاملا لكل مسلم وعربي لا يختص بفئة دون فئة، ولا بجامعة دون جامعة، ولا بكلية دون كلية، وماذا على طالب الطب وطالب الهندسة وطالب الرياضة وطالب التجارة وطالب الزراعة وطالب الفلسفة و. . . و. . . لو حظي بقسط من الثقافة الإسلامية والعربية يجعله على علم بها؟ وبذلك تزول الأمية الدينية عن كثير من المتعلمين، ثم ليكن بعد هذا التخصص والتعمق في الدراسات الإسلامية للجامعات والكليات التي عنيت عناية خاصة بهذا اللون من الثقافة، فمبدأ التخصص هذا أمر معروف ومعمول به في كل جامعات العالم.

ومن العجيب أن الجامعات الإسلامية أو معظمها قد حظي طلابها بقسط غير قليل من العلوم الأخرى كالرياضة والطبيعة والكيمياء والأحياء وتقويم البلدان

(١) انظر كتاب «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك» للأستاذ الجليل قدري حافظ طوقان.

(الجغرافيا) ونحوها بينما طلاب الكليات المدنية لم يخطوا أي خطوات تذكر نحو الثقافة الإسلامية الأصيلة.

إن هذه الانفصالية بين علوم الدين وعلوم الدنيا لم تكن معروفة في عصور الإسلام الذهبية أيام أن كانت الحضارة الإسلامية العربية هي السائدة في أركان الدنيا المعروفة، فكان الأطباء والفلاسفة وأمثالهم على علم أصيل بعلوم الشريعة واللغة العربية، وأوضح مثل لذلك أبو الوليد ابن رشد فيلسوف قرطبة بالأندلس، فله بجانب كتبه الفلسفية كتب قيمة في الفقه والتشريع أجلها كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وهو يعتبر من كتب الفقه المقارن، عرض فيه مؤلفه الآراء الفقهية عرض عالم بالشريعة خبير بآراء الفقهاء وأدلتهم وأصولهم.

واقرأ ما كتبه المؤرخ الكبير وفيلسوف العرب الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته عن العلوم الإسلامية والعربية فإنك سترى عالما خبيرا بكل هذه العلوم والمعارف الإسلامية والعربية، بل اقرأ ما كتبه حجة الإسلام الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» لتجد نفسك أمام عالم كبير بالشريعة والأصولين أصول الدين وأصول الفقه مع إحاطته بالفلسفة ودقائقها وأصولها.

وأحب أن أنبه إلى أن الثقافة شيء والعلوم ولاسيما التجريبية شيء آخر، فالثقافة تتلون بألوان الشعوب أي بالمقومات التي تكون هذه الثقافة، أما العلم فكلأ مباح للبشرية جمعاء فلنأخذ منه ما نشاء، ولنجر فيه أشواطا لنلحق فيه من سبقنا، أو نسبقهم إن استطعنا.

وقد قال معلم البشرية ومنقذ الإنسانية نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها» (رواه ابن ماجه)، ورواه العسكري بلفظ «العلم ضالة المؤمن حيث وجده أخذه».

فهل تعود للثقافة الإسلامية العربية مكانتها؟ وهل يعيد أبناء الجيل الحاضر أمجاد الماضي؟ ذلك ما نرجو وما ذلك على الله بعزيز.

تحويل القبلة إلى الكعبة

العدد (٢٠) شعبان (١٣٨٦هـ) - نوفمبر (١٩٦٦م).

لقد فرضت الصلوات الخمس بالإجماع ليلة الإسراء والمعراج قبيل الهجرة من مكة إلى المدينة وفي صبيحتها نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ من عند الله معلما له كيفيتها، ومبينا له أوقاتها، فما أن زالت الشمس حتى أمر رسول الله ﷺ فنودي بأصحابه، فاجتمعوا وصلى به جبريل عند البيت. النبي يقتدي بجبريل، والمسلمون يقتدون بالنبي من ظهر هذا اليوم إلى ظهر اليوم الثاني.

ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد البدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل جبريل فأمني فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابعه خمس صلوات».

وقيل إن جبريل صلى بالنبي يومين متتاليين ليبين له أول الوقت وآخره لكل صلاة. روي عن ابن عباس وجابر أن النبي ﷺ قال: «أمنى جبريل عند البيت مرتين»، وقد كان النبي والمسلمون يتوجهون في صلاتهم إلى قبلة قطعا وهذا أمر مجمع عليه، لأن استقبال القبلة شرط مَن شروط الصلاة، ولكن الخلاف فيما وراء ذلك، وهو: أكان النبي ﷺ وهو بمكة يتوجه إلى الكعبة أم إلى بيت المقدس؟

● قبلة الرسول في مكة

ذهب طائفة من العلماء إلى أن قبلته ﷺ بمكة كانت إلى بيت المقدس إلا أنه لا يستدبر الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس، وهذا لن يتأتى إلا إذا وقف بين الركنين الأسعد (الأسود) واليماني لأن وجه من يقف هكذا يكون نحو الشمال، فيستقبل الكعبة، وبيت المقدس في آن واحد.

روي هذا عن ابن عباس، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة استمر على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ثم نسخ ذلك بالتوجه إلى الكعبة، وعلى هذا يكون حصل في القبلة نسخ واحد.

وذهب الكثيرون من العلماء إلى أن قبلته ﷺ بمكة كانت الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس المدة السالفة، ثم ولاه الله سبحانه إلى الكعبة قبلة أبيه الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقبلة آبائه وأجداده العرب، لما رأى من استشراف نفسه ﷺ إلى ذلك، وعلى هذا يكون حصل في القبلة نسخان، قال الشيخ الإمام أبوعمر بن عبدالبر حافظ الأندلس: «وهذا أصح القولين عندي»[1] ويؤيد هذا حديث إمامة جبريل بالنبي ﷺ عند البيت، وهو ما ذكرناه آنفا ففي بعض طرقه أن ذلك كان عند باب البيت (الكعبة) ومحال لمن يكون عند باب الكعبة أن يجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس في وقت واحد، وهذا يضعف الرأي الأول.

ويتفرع عن هذا البحث بحث آخر وهو استقبال بيت المقدس أكان بوحي أو باجتهاد؟

الذي عليه جمهور العلماء أن استقبال رسول الله ﷺ بيت المقدس إنما كان بأمر الله ووحيه، وأن ذلك بالقرآن ويستدلون لذلك بقول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣) ويكون معنى ﴿كنت عليها﴾ أي التي أنت عليها الآن وهي بيت المقدس، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (آل عمران: ١١٠) أي أنتم في قول بعض المفسرين، وهذا على ما هو الظاهر من أن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٢) الآيات نزلت قبل قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية وقبل توجهه للكعبة وهو بالمدينة، وهو أحد وجهين في تفسير الآية[2] أو المراد التي كنت عليها وأنت بمكة. وهذا إنما يتأتي على أحد الرأيين في الجهة

(١) تفسير القرطبي ج١ ص ١٥٠.

(٢) تفسير الآلوسي ج٢ ص٢.

التي كان يتوجه إليها النبي ﷺ بمكة!! وعلى هذا يكون نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالأمر بالتوجه إلى الكعبة ثانيا نسخا للقرآن بالقرآن(!!).

وذهب بعض العلماء إلى أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاد من النبي ﷺ يعني بالسنة، ثم نسخ بالقرآن فعلى هذا يكون نسخا للسنة بالقرآن. وهو أمر مختلف فيه بين العلماء[1]، ومحل بسط ذلك كتب الأصول، وليس هذا من قصدنا في هذا البحث.

● **الحكمة في استقبال بيت المقدس**

وسواء أكان استقبال النبي ﷺ بيت المقدس في صلاته بالمدينة بأمر من الله ووحي، أم باجتهاد من النبي، فقد كان ذلك تأليفا لليهود، وتحبيبا لهم في الدخول في الإسلام، فلما لم تثمر هذه السياسة فيهم أحب النبي ﷺ أن يرجع إلى قبلة أبيه وأبي العرب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وكان كثيرا ما يدعو ويقلب وجهه في السماء حتى استجاب الله الدعاء، فأمره بالتوجه إلى الكعبة.

روى الطبري وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، واليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت، أي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (البقرة: ١٤٤).

وكان مما جعل النبي يدعو ربه ويطيل الدعاء أن اليهود ـ لعنهم الله ـ اتخذوا من توجهه إلى بيت المقدس ذريعة للطعن فيه فصاروا يقولون يخالفنا ويتبع قبلتنا.. بل طمع بعضهم فيما هو من قبيل المستحيل فقالوا: اتبع قبلتنا، عما قليل سيتبع ديننا، فحسم الله سبحانه كل هذه الأراجيف بأن أمره بالتوجه إلى الكعبة، قبلته وقبلة المسلمين إلى يوم القيامة، وبتوجه النبي ﷺ وأصحابه إلى بيت

(١) شرح مسلم ج٥ ص٩ تفسير القرطبي ج٢ ص١٥٠، ١٥١.

المقدس أولا ثم أمرهم بالتوجه إلى الكعبة ثانيا جمع الله له وللمسلمين التوجه إلى القبلتين، وحازوا الشرفين.

• كم شهرا توجه فيها النبي والمسلمون إلى بيت المقدس

وقد اختلفت الروايات الصحيحة في هذا، ففي بعض الروايات بالجزم بستة عشر شهرا، وفي بعضها بالجزم بسبعة عشر شهرا، وفي بعضها بالشك والتردد بينهما، وإليك هذه الروايات وتمحيصها وتحقيق الحق فيها.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب «أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده. أو قال أخواله من الأنصار[1]، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل البيت، فداروا كما هم قبل البيت، وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك». وكذلك رواها مسلم على الشك أيضا، وفي رواية لمسلم بلفظ «ستة عشر شهرا» بالجزم وفي رواية للبزار والطبراني بلفظ «سبعة عشر شهرا» بالجزم.

والجمع بين هذه الروايات سهل، وذلك بأن يكون من جزم بستة عشر شهرا لفق من شهر القدوم والتحويل شهرا وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر شهرا عدهما معا، ومن شك تردد فيهما. أيجعلهما شهرا واحدا أم شهرين.

• في أي شهر وقع التحويل

الثابت أن قدوم النبي ﷺ المدينة كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف بين العلماء، وإن اختلفوا في يوم القدوم، والصحيح الذي جزم به جمهور العلماء أن التحويل للكعبة كان في منتصف رجب من السنة الثانية للهجرة، وقد روى ذلك الحاكم عن ابن عباس بسند صحيح، فتكون المدة إما ستة عشر شهرا أو سبعة

(١) شك من وهم أجداده لأن جدة أبيه سلمى بنت عمرو النجارية منهم وهم أخواله لأنهم أخوال جده عبدالمطلب فأي التعبيرين صحيح.

عشر على التسامح، وإذا راعينا التدقيق في الحساب، وأن القدوم كان في الثاني من شهر ربيع الأول ـ كما قال ابن اسحق ـ تكون المدة ستة عشر شهرا وثلاثة أيام، وهذا التدقيق ليس من شأن الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب. وذهب بعض العلماء إلى أن التحويل كان في منتصف شهر شعبان، وقد ذكره النووي في الروضة وأقره مع أنه رجح في شرحه لمسلم رواية ستة عشر شهرا لكونها مجزوما بها عند مسلم، ولا يستقيم أن يكون ذلك في شعبان إلا إذا ألغى شهري القدوم والتحويل، وهناك روايات أخرى شاذة لا ينبغي الالتفات إليها كروايات ثمانية عشر شهرا أو ثلاثة عشر شهرا، أو تسعة أشهر،[١] وذكر موسى بن عقبة أن التحويل كان في جمادى الآخرة من السنة الثانية والحق ما ذكرناه أولا.

● **في أي مسجد وقع التحويل وفي أي صلاة؟**

وقد اختلفت الروايات في الصلاة التي وقع فيها تحويل القبلة إلى الكعبة، وكذا في المسجد الذي وقع فيه التحويل، فقيل الظهر، وقيل العصر، وقيل في مسجد بني سلمة، وقيل في المسجد النبوي. وذكر ابن سعد في الطبقات أن النبي ﷺ زار أم بشر بن البراء معرور في بني سلمة فصنعت لهم طعاما وحانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين من الظهر، ثم أمر بالتوجه إلى البيت، فاستدار نحو الكعبة، فسمي هذا المسجد مسجد القبلتين، وقد زرت هذا المسجد وتشرفت بالصلاة فيه، ولا يزال معروفا إلى يومنا هذا، والتحقيق ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ أن المسجد الذي وقع فيه التحويل مسجد بني سلمة لما زار أم بشر بن البراء، وأن الصلاة كانت صلاة الظهر، وأن أول صلاة صلاها بالمسجد النبوي متوجها فيها إلى الكعبة هي صلاة العصر، فخرج رجل ممن صلى مع النبي بالمسجد النبوي، فمر على بني حارثة وهم يصلون في مسجدهم بالمدينة العصر، فأخبرهم بتحويل القبلة، فاستداروا في صلاتهم إلى الكعبة[٢] ثم ذهب هذا الرجل أو غيره إلى «قباء» فأدركهم في صلاة الفجر وهم يصلون إلى بيت

(١) فتح الباري ج١ ص٧٩ - ٨١.
(٢) المرجع السابق ص٨٠.

المقدس، فأخبرهم بنزول آية التحويل فتوجهوا في صلاتهم إلى الكعبة، وبذلك يظهر التوافق جليا بين الروايات، وأنها يكمل بعضها بعضا، ولا تعارض بينها في الحقيقة ونفس الأمر.

وقد كانت الكعبة ولا تزال إلى يوم القيامة، قبلة المسلمين في كل قطر ومصر، وفي السفر والحضر، ومثابة للناس وأمنا، ورمزا لوحدة المسلمين فإلههم واحد، وقبلتهم واحدة، وغايتهم واحدة، وبذلك يتحد المظهر والمخبر، وتتوحد الغايات والمقاصد.

* * * *

الجهاد في الإسْلام (١)

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

● تشريع الجهاد في الاسلام

لقد مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاما بمكة، وهو يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حارب أهل مكة الدعوة الإسلامية حربا لا هوادة فيها، وآذوا النبي وأصحابه إيذاء تجاوز كل معاني الإنسانية ومع هذا كان المسلمون يزدادون عددا وقوة، وصلابة في التمسك بدينهم، وكان الله سبحانه ينزل على نبيه من الآيات ما يقوي عزيمته وعزائم أصحابه، ويثبتهم على الصبر والتحمل، وذلك مثل قوله سبحانه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ (المدثر: ١٠) وقوله ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ (الشورى: ٤٣) وقوله ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(الاحقاف ٣٥) وقوله ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (النحل: ١٢٧).

وكان المسلمون كثيرا ما يأتون إلى النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج ومعذب، شاكين إليه، فيثبتهم ويضرب لهم الأمثال والعظات، ويقول لهم «اصبروا فاني لم أومر بقتال» ويقول «لقد كان الرجل من قبلكم يضرب بالسيف من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر - يعني الإسلام - حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه» (رواه البخاري وأحمد).

وقد تحمل المسلمون بفضل التربية المحمدية ولا سيما الفقراء والأعبد ومن لا عصبية له منهم من صنوف العذاب والبلاء ألوانا، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزعت عقائدهم، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقر الكثير منهم وما

سمعنا أن أحدا منهم ارتد سخطة عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز، لا تزيده النار إلا صفاء ونقاوة، وكالحديد لا يزيده الصهر إلا قوة وصلابة، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا في العذاب عذوبة، وفي المرارة حلاوة، وفي الآلام آمالا.

ثم كان أن هاجر بعضهم إلى بلاد الحبشة هجرتين، ثم هاجروا جميعا إلى المدينة تاركين الأهل والولد، والمال والوطن، متحملين آلام الاغتراب، ومرارة الفاقة والحرمان، وإن كانوا قد وجدوا في أهل المدينة أهلا بأهل، وجيرانا بجيران، ووطنا بوطن، ولاسيما بعد أن عقد النبي بينهم وبين إخوانهم الأنصار عقد التآخي والتحاب في الله، هذا العمل البارع الذي أقام الأخوة في الله مقام الأخوة النسبية، بل وأفضل منها، وقد أصبح للمسلمين بعد الهجرة كيان وسلطان، وأضحوا ذوي عدد وقوة، واستمر المشركون في التضييق عليهم، ومحاولة فتنتهم عن دينهم ووقفوا للدعوة الإسلامية بالمرصاد، فلم يكن بد من أن يأذن الله لهم في القتال.

● متى شرع الجهاد؟

والذي يترجح عندي بعد البحث والنظر أن تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وذلك لأن المسلمين كانوا مشتغلين بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية كبنائهم المسجد النبوي، وأمور معايشهم وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السياسية كعقد التآخي بينهم، وموادعة اليهود المساكنين لهم في المدينة كي يأمنوا شرورهم، ولا يقال أن النبي ﷺ أرسل سرايا في السنة الأولى، لأنها كانت للاستطلاع والمناوشات، والتضييق عليهم اقتصاديا، وإرغامهم على أن يفكروا جديا في تغيير خطتهم تجاه المسلمين، وتركهم يبلغون دين الله، وهم آمنون إلى الناس كافة.

● أول ما نزل في الجهاد

وكانت أول آية نزلت في تشريع الجهاد في الإسلام هي قوله سبحانه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم

بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج ٣٩ . ٤١).

والإذن لا يكون إلا بعد منع، فأسلوب الآيات يشعر بأنها أول ما نزل، وأيضا فقد روى الحاكم في المستدرك عن حبر القرآن عبد الله بن العباس - رضي الله عنهما - أنها أول ما نزل في القتال، ورواه عبد الرزاق وابن المنذر عن الإمام الزهري عالم الحجاز والشام.

وروى ابن جرير عن أبي العالية وهو من التابعين أن أول آية نزلت فيه قوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة ١٩٠).

ويرى بعض العلماء ان أول ما نزل هو قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة: ١١١).

والذي نرجحه هو الأول وهو الذي يؤيده العقل والنقل، وأما الآية الثانية فهي إلى تنظيم شؤون القتال، وتحديد حدوده أقرب، والتنظيم إنما يكون بعد الإذن، وأما الآية الثالثة، فهي إلى الحث والترغيب في الجهاد أقرب.

● لم شرع الجهاد في الاسلام؟

لقد تضمنت آيات سورة الحج المذكورة آنفا الأسباب والأغراض والحكم التي لأجلها شرع الجهاد، ولن أخرج في بيان ذلك عن منطوق الآيات وفحواها، حتى يكون في هذا المقام الحجر لمن يتقول على الإسلام، ومن هذه الآيات نستخلص الأسباب والحكم الآتية:

١- تأمين دعوة الإسلام، الدين العام الخالد، الذي ارتضاه الله سبحانه للبشرية جمعاء، ومساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى التي لم يشهد لها العالم

مثيلا من قبل، ولن يشهد لها مثيلا من بعد، حتى يتمكن النبي صلوات الله وسلامه عليه من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحي في قوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ (المائدة ٦٧).

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩).

وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضى واختيار واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين ومنحهم حقهم في الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون، وليس من الحق والعدل أن يدافع أصحاب المذاهب الباطلة عن باطلهم بالقوة، وأن يترك أصحاب العقائد الصحيحة، والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم في الدفاع عن عقيدتهم وشريعتهم، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ﴾ وأي ظلم أظلم من أن لا يجد الهداة والمصلحون متنفسا لدعواتهم الخيرة في أرض الله الواسعة؟ ومن أن يحجر عليهم فلا يستطيعون الإعلان عن عقيدتهم، ولا إظهار شعائرهم؟ والمظلوم إن لم يجد النصر من أهل الأرض، فسيجده لا محالة من السماء وصدق الله ﴿... وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾.

٢- الانتصار للنفس، والانتصاف للمظلوم من الظالم فها هم المشركون قد آذوا المسلمين وحاولوا ما وسعهم الجهد أن يفتنوهم عن دينهم، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم، والانتصار للنفس أمر فطرى وحق من حقوق الإنسان، قررته الشرائع السماوية، والقوانين الأرضية، وقد قرر الله سبحانه هذا الحق الإنساني في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ (الشورى: ٤١- ٤٢) وقد أمر الله المسلمين بالصبر والعفو والتسامح طوال العهد المكي مع المشركين أملًا أن يرعووا، ولكنهم لم

يزدادوا إلا بطرا وأشرا، وظلما واستعلاء في الأرض، فأما إذا لم تفلح معهم سياسة المهادنة والتسامح، فلتقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، وإلا صار السكوت والإغضاء عند القدرة على الانتصار عجزًا وضعفًا ومهانة.

وليس من العدل والحق والإنصاف أن يترك المشركون يمرحون في الأرض، ويجوبون الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، ولا يؤذن للمسلمين أن يحاربوهم من جنس ما حاربوهم به وأن يقطعوا عليهم تجارتهم، ويأخذوا منها ما تصل إليه أيديهم نظير ما اغتصبوا من أموالهم، وأن يضيقوا عليهم مثل ما ضيق المشركون عليهم وصدق الله حيث قرر هذا المبدأ الحق فقال ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الشورى ٣٩ . ٤٠).

٣- إن في تشريع الجهاد نشر السلام والأمان في الأرض وتأمين كل ذي دين على دينه، واحترام مقدسات الأديان بين الناس، والإسلام هو الدين الذي ألزم معتنقيه بالإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله، وكتابه - وهو القرآن - هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية كلها لأنه هو الكتاب الذي سلم من التحريف والتبديل، فقد نقل بأقوى طرق النقل والإثبات وهو التواتر المفيد للقطع واليقين، والمسلمون حينما تكون لهم السلطة والغلبة في الأرض، لا خشية على أهل الأديان الأخرى منهم، لأن لهم من وصايا دينهم ما يعصمهم من الظلم والجور والتعنت، وطالما أوصى النبي بالمعاهدين وأهل الذمة خيرا، وهذا ما صدقه الواقع التاريخي فحينما كان السلطان للمسلمين في الأرض لم يضار أحد من أهل الذمة في دينه، ولا في دنياه، ولا في نفس أو عرض أو مال، فلما ذهبت ريحهم، وغلبوا على أمرهم ذاقوا من أعدائهم ألوان العذاب من تقتيل، وتخريب، وانتهاك للحرمات.

وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قبل من أهل الكتاب، إما أن يسلموا، وإما أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية، وهي ليست للإكراه على الدخول في الإسلام، أو المضايقة، ولكنها نظير ما تقوم به الدولة الإسلامية من رعاية،

وحماية لغير المسلمين، وما تؤديه لهم من خدمات اجتماعية، واقتصادية وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا الغرض النبيل في قوله سبحانه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)[١].

٤- إن الإسلام بما خصه الله به من عموم الدعوة للناس أجمعين، وبما جاء به من عقائد وتشريعات وآداب أكسبته الصلاحية لكل زمان ومكان، وهو الحقيق بأن يسود في الأرض، والمسلمون المتمسكون به عقيدة، وعلما وعملا، وأخلاقا وسلوكا، هم الأحق بالسيادة والاستخلاف في الأرض، لأنهم هم الذين ينشرون فيها الهدى والرحمة، والحق والعدل والبر والخير، وهم الذين يتآمرون بالمعروف، ويتناهون عن المنكر، وهما أساس كل خير وإصلاح، وليس من شك في أن هذا يتطلب الجهاد والكفاح، وبذل النفس والمال في سبيل هذا الغرض في قوله ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج: ٤١) وقد أشار الله سبحانه بهذه الأصول التي ذكرها في هذه الآية إلى ما عداها ويجري في فلكها، فالصلاة رأس العبادات البدنية التي تزكي النفس، وتحسن علاقة المخلوق بالخالق، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، والزكاة رأس العبادات المالية التي تقيم المجتمع على أساس من التعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما أساس كل خير ديني أو دنيوي، وهما دعامتا كل إصلاح والقضاء على كل شر، وبهما يصلح المجتمع ويتطهر من الفساد.

(١) الصوامع: متعبدات الرهبان، البيع: متعبدات اليهود والنصارى، وهي الكنائس، والصلوات: متبعدات للنصارى أيضا، والمساجد: متعبدات المسلمين.

الجهاد في الإسْلام (٢)

العدد (١٣٥) ربيع الأول (١٣٩٦هـ) - نوفمبر (١٩٧٠م).

● حكم الجهاد في الإسلام

الجهاد من الفروض الكفائية عند جمهور أهل العلم من السلف والخلف، ومعنى هذا أنه إذا قام به من يكفي في دفع غائلة الأعداء، ونصر الإسلام، وتأمين الطريق لدعوته سقط عن الباقين، ولا يكونون آثمين، وإن لم يقم به من يكفي في هذا أثمت الأمة كلها، ولا يرتفع هذا الإثم إلا بخروج من فيهم الكفاية، ولو أدى ذلك إلى تجنيد جميع القادرين عليه، والدليل على أنه فرض كفائي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة: ١٢٢)، وقد استفاض في السنة أن الصحابة ما كانوا يخرجون إلى الغزو جميعا بل كان يبقى بعضهم، ويتخلف عن النبي أو معه من تقتضي المصلحة بقاءه، ولو خرج المسلمون جميعا لتعطلت المصالح، ووقف دولاب الأعمال، وهذا شيء يأباه الإسلام.

● متى يكون الجهاد فرض عين؟

ويصير الجهاد فرض عين في أحوال ثلاثة:

الأول: إذا التقى الجيشان، وتقابل الصفان تعين على الجيش الإسلامي الجهاد والثبات، وحرم عليه الفرار، إلا أن يكون ذلك لمكيدة أو خدعة حربية أو لأخذ مكان أحسن وأفضل أو للانحياز إلى فئة أخرى من المسلمين المجاهدين، قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنفال: ٤٥)، وقال أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ (لأنفال: ١٥-١٦).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم أن رسول اللهﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل ما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم. والتولي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

ويرى بعض العلماء أن الفرار كبيرة ولا يجوز مهما كان عدد الأعداء، ويرى البعض الآخر أن الفرار كبيرة إذا لم يزد عدد الأعداء عن ضعف المسلمين، فإن زاد فلا، لقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (لأنفال: ٦٦)، ويرون أن هذه الآية مقيدة لآيات الثبات وعدم الفرار، ويؤيد الرأي الأول ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والرعيل الأول من المسلمين من الثبات والصبر، وعدم الفرار مهما بلغت كثرة الأعداء فقد صمد المسلمون في غزوة «مؤتة» وهم ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف من الروم والعرب المستعربة من لخم وجذام، وفي اليرموك التقى المسلمون أضعاف أضعافهم من الأعداء فثبتوا وصمدوا وكانت العاقبة لهم، والنصر المبين. وليس من الفرار ما يراه قائد الجيش من الانسحاب حتى لا يحاط بجيشه أو يفنى عن آخره، وإنما ذلك داخل تحت قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ (لأنفال: من الآية١٦) وذلك كما حدث في «مؤتة» من انسحاب سيف الله المسلول خالد بن الوليد بعد أن كبد العدو خسائر فادحة ولذلك اعتبر النبي ﷺ ذلك فتحا حيث قال وهو ينعي الأمراء في مؤتة «ثم أخذها ـ الراية ـ سيف من سيوف الله ففتح الله عليه» (رواه البخاري)، ولما عير أهل المدينة الجيش وقد عاد إليها بقولهم: يا فرار، قال النبي ﷺ: «بل هم الكرار».. !!

الثاني: إذا هاجم الأعداء بلدا من بلاد الإسلام أو نزلوا فيه تعين على أهله

جميعا قتالهم، ودفعهم بما استطاعوا، ووجب على إخوانهم المسلمين في كل قطر وبلد أن يخفوا إليهم بالعون والمساعدة أداء لحق الأخوة الإسلامية التي نص عليها القرآن في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية١٠) ودعا إليها النبي ﷺ ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله» وفي رواية «ولا يسلمه» أي لا يخذله إذا استنصر به، ولا يسلمه أو يتركه لأعدائه ينالون منه، ولو أن المسلمين في كل قطر وبلد نفذوا هذا المبدأ السامي لما طمع فيهم طامع، ولبقوا ـ كما كانوا ـ أعزة أقوياء مرهوبي الجانب.

الثالث: إذا استنفر ولي الأمر ـ خليفة أو ملكا أو رئيسا أو أميرا ـ قوما أو أقواما لزمهم الخروج وتعين عليهم الجهاد وذلك لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (التوبة: ٣٨-٣٩).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» وفي معنى الاستنفار العام إعلان التعبئة العامة في العرف الحديث فعلى كل قادر أن يجند نفسه لنصرة الحق والوطن والتضحية في سبيلهما بالنفس والمال.

● من يرى أن الجهاد فرض عين

وبعض السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كان يرى أن الجهاد فرض عين على كل حال، وفي جميع الأزمان، ويستدلون بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (التوبة: ٤١)، يعني شبابا وشيبا، ورجالا وركبانا، وأغنياء وفقراء، وأقوياء وضعفاء. ويرى ابن عباس وغيره من السلف أن حكم هذه الآية قد نسخ بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾.

• مثل عليا للحرص على الجهاد

وممن كان يرى هذا الرأي من الصحابة الأمجاد أبوأيوب الأنصاري صاحب المأثرة الباقية، وهي إنزال النبي ﷺ بداره على الرحب والسعة بعد الهجرة إلى المدينة، وقد كان ﷺ يستدل بالآية السابقة على فرضية الجهاد على كل حال كما كان يرى الرغبة عن الجهاد، والاشتغال بالأهل والمال إلقاء بالنفس إلى التهلكة مستدلا بقوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥). ففي حصار القسطنطينية حمل رجل من المهاجرين على صف العدو حتى خرقه فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري ـ وكان حاضرا ـ نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر قلنا قد أكرمنا الله بصحبة النبي ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيها فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، رواه أبو داود والترمذي، وقد لزم أبوأيوب الجهاد في حياة الرسول وبعده، ولم يتخلف عن غزوة قط، ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لغزو القسطنطينية تحرج في أول الأمر ولكن نفسه نازعته إلى الجهاد فقال: «ما ضرني من استعمل على الجيش» ثم لحق بهم وأبلى بلاء حسنا، ثم مرض أثناء الحصار فعاده يزيد، فقال له: ما حاجتك..؟ قال: حاجتي إذا أنا مت فاركب بي ما وجدت مساغا في أرض العدو. فإذا لم تجد فادفني ثم ارجع، فلما توفي صلى عليه يزيد والمسلمون، وفعلوا ما أوصى به، ودفن بجوار أسوار القسطنطينية شاهدا على لون رائع من ألوان البطولة الإسلامية الفذة.

• أبو طلحة الأنصاري

ومن هؤلاء أبوطلحة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وأحد الذين أحاطوا بالنبي يوم أحد ونافحوا عنه، قرأ سورة التوبة وهو شيخ كبير فأتى على هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة: ٤١) فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبابا،

جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر غازيا فمات، فلم يجدوا جزيرة يدفنوه بها إلا بعد تسعة أيام، ولم يتغير، فدفنوه بها.

● **المقداد بن الأسود**

ومن هؤلاء السادة الأبطال المقداد بن عمرو المشهور بابن الأسود، روى ابن جرير الطبري عن أبي راشد أنه رأى المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو ـ وكان شيخا كبيرا قد سقط حاجباه على عينيه ـ فقال له: لقد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البحوث يريد هذه الآية من سورة التوبة: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

ومن التابعين سعيد بن المسيب قال الإمام الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضر فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد، وحفظت المتاع، وغير هؤلاء السادة الأخيار كثير.

وبحسب هؤلاء السادة الأمجاد أنهم مجتهدون في فهم الآية فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر، وبحسبهم فضلا ومثوبة هذه النية الصادقة، وبهؤلاء الأبطال المغاوير وأمثالهم، وما أكثرهم، مكن الله للمسلمين في الأرض، وانتشر الإسلام حتى بلغ المشرق والمغرب، فهل يعيد المسلمون هذه المفاخر والأمجاد..؟ ذلك ما نرجو وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

إمام الفقهاء أبوحنيفة النعمان (١)

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠ هـ) - نوفمبر (١٩٧٠م)

لمّا انتشر الإسلام واتسعت رقعته، وامتد سلطانه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار، دخلت فيه الكثرة الكاثرة من أبناء هذه البلاد التي استظلت بلواء الإسلام عن طواعية واختيار، وأخلصوا لهذا الدين وللغته العربية لغة القرآن غاية الإخلاص، فلا تعجب إذا وجد من هؤلاء أئمة أعلام، في التفسير والحديث، والفقه والاجتهاد، واللغة العربية وعلومها وآدابها، والعلوم العقلية ولاسيما الكلام، والعلوم العملية كالطب والهندسة، والرياضيات كالحساب والجبر والمقابلة، والعلوم الكونية كالكيمياء والطبيعة والفلك.

من هؤلاء الأئمة الأعلام إمام الفقهاء أبوحنيفة النعمان، الذي يعتبر مفخرة للفقه الإسلامي، ولاسيما في عصوره الأولى. وسأتناول في هذا المقال شيئا من جوانبه الفقهية والاجتهادية، وعلمه بالقرآن والسنة، وأنه ذو باع طويل فيهما، وعصره ونسبه، وحياته الخصبة المشرفة التي تجعله في عداد الخالدين من رجالات العلم في العالم.

● **نسبه ونشأته**

الإمام أبوحنيفة: هو النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي ولاء، ذلك أن زوطي جد الإمام كان فارسًا من أهل كابل، وكان مملوكا لبني تيم الله ابن ثعلبة، فأسلم فأعتق، فصار ولاؤه لهم. أما والده ثابت فقد ولد على الإسلام، وهذا هو المعتمد في نسبه، وإن زعم بعضهم أنه لم يجر على أحد من أجداده رق، بل بالغ البعض، فجعله يتصل إلى العرب بنسب.

ولا يضير الإمام، قط، أن يكون أصله فارسيا، ولا أن يكون أحد أجداده

استُرِق ثم أُعتق، لأن الإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي، ولا بين مولى وسيد في التقدير الديني والعلمي، وفي الموالي من رفعه دينه وعلمه إلى مقاعد الشرف والسيادة، وفي العرب من أوبقه كفره، ورمى به في زوايا الإهمال جهله. وكانت ولادة الإمام بالكوفة سنة ثمانين للهجرة، وقد عاش بها معظم حياته، ولم يفارقها إلا إلى مكة فترة وجيزة، وإلى بغداد قبل وفاته، وكانت وفاته سنة مائة وخمسين، فهو إذن عاصر معظم الدولة الأموية، وأوائل دولة بني العباس.

● **عصره وكونه تابعيا**

إن العصر الذي عاش فيه الإمام يعتبر من عصور الإسلام الذهبية. والإمام ولد ونشأ في قرن يعتبر من القرون الخيرة الفاضلة، وهو عصر التابعين، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وقد صح كما قال الإمام الذهبي أنه رأى أنس بن مالك رضي الله عنه وهو صغير، وروى ابن سعد في كتابه «الطبقات» عن الإمام أنه قال: «قدم أنس بن مالك الكوفة ونزل النخع، وكان يخطب بالحمرة قد رأيته مرارا». كما أنه رأى عبدالله بن أبي أوفى، وغيره من الصحابة، ورؤيته بعض الصحابة ليس فيها خلاف بين العلماء، وإنما الخلاف في سماعه منهم، والثقات من حفاظ الحديث ونقاده على أن الإمام لم يسمع من أحد منهم، ومذهب جمهور المحدثين أن السماع من الصحابي ليس شرطا لتحقق كونه تابعيا، وهي خصوصية امتاز بها الإمام عن بقية الأئمة الأربعة.

● **أساتذته وشيوخه**

وللإمام شيوخ كثيرون من أعيانهم: محمد بن السائب الكلبي النسابة المفسر، وجعفر الصادق، وابن شهاب الزهري عالم الشام والحجاز، وشعبة بن الحجاج، وربيعة الرأي شيخ الإمام مالك، وسليمان بن مهران من كبار المحدثين، وحماد ابن أبي سليمان وهو الأستاذ الأكبر للإمام أبي حنيفة، وقد لازمه ملازمة طويلة وتخرج على يديه، ونهل وعل من معينه الثر، وحتى أثر عن حماد أنه قال: «لقد أنزفتني».

● **تلاميذه**

وقد روى عن الإمام وأخذ منه العلم والفقه الكثيرون من الأئمة، من مشاهيرهم: محمد بن إسحاق بن يسار إمام أهل المغازي، ومحمد بن عمر الواقدي، وإبراهيم بن أدهم، والحسن البصري، وأبويوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، وزفر بن الهذيل، وغيرهم، وهؤلاء الثلاثة هم أخص تلاميذه المتفقهين عليه، ويدل على جلالته أن بعض شيوخه قد أخذ عنه كربيعة الرأي ومالك وحماد بن أبي سليمان، ووصل بعض المؤلفين في مناقبه بتلاميذه والآخذين عنه إلى نحو الثمانمائة وسرد أسماء الكثيرين منهم.

● **فقه الإمام**

والإمام أبوحنيفة أحد أذكياء الدنيا المعدودين، ورائد الأئمة المجتهدين المشهورين، وأحد الفقهاء الأربعة المتبوعين، الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وسادت مذاهبهم في أقطار العروبة والإسلام، وقد أقر للإمام بالفقاهة وتملك ناصية الاجتهاد، وبلوغه الغاية في ذلك، جمهرة من فقهاء الشريعة الكبار، وأئمة الحديث المشهورين، روي عن الإمام اللوذعي محمد بن إدريس الشافعي أنه قال: «الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة»، وهذا عبدالله بن المبارك يقول: «كان أبوحنيفة أفقه الناس، ما رأيت أفقه منه».

ويقول في حقه سفيان الثوري: «وهو أفقه أهل الأرض»، وأثنى عليه وعلى قوة حجته إمام دار الهجرة مالك بن أنس فقال: «لقد رأيت فتى لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته».

● **علمه بالقرآن والسنة**

وقد كان الإمام حافظا للقرآن، مديما للقراءة له، وقد روي أنه كان يختم القرآن في رمضان ستين ختمة، ختمة بالليل وختمة بالنهار. كما كان عالما بعلومه وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، إلى غير ذلك من علوم القرآن التي لا بد منها لمن يبلغ الاجتهاد في الأحكام، وبيان الحلال والحرام. كما كان رضي الله عنه حافظًا للأحاديث والسنن، شديد العناية بها، ثقة

في الرواية، بصيرا بالعلل والرجال، مقبول الجرح والتعديل. روى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن سفيان بن عيينة قال: «أول من أقعدني للحديث أبوحنيفة، قدمت الكوفة، فقال أبوحنيفة: هذا أعلم الناس بحديث عمرو بن دينار، فاجتمعوا علي فحدثتهم»، وناهيك برجل يزكي سفيان بن عيينة في الحديث، والإمام أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، وهو أحد الأئمة الستة في الحديث يعتمد على الإمام في التعديل والتجريح، فيروي في كتاب العلل من «جامعه» عن الحماني قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «ما رأيت أكذب من جابر الجعفي ولا أفضل من عطاء بن أبي رباح»، كما أثنى عليه جهابذة الحديث ونقاده، سئل يحيى بن معين وهو الإمام الحجة في الجرح والتعديل: هل حدث سفيان عن أبي حنيفة؟ قال: «نعم كان أبوحنيفة ثقة صدوقا في الفقه والحديث، مأمونًا على دين الله». وروي عنه أنه قال: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: «لا نكذب الله تعالى، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة».

وكان يحيى بن سعيد القطان يذهب في الفتوى مذهب الكوفيين فيختار قول أبي حنيفة من أقوالهم، ويقول في حق الإمام تلميذه أبو يوسف وهو من حفاظ الحديث كما قال ابن جرير الطبري «كان أبوحنيفة أبصر بالحديث مني»، ويقول: «ما رأيت أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة». ولا عجب أن يكون الإمام أبوحنيفة بهذه المنزلة، وقد أخذ الحديث عن رجاله كسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، والأعمش، وغيرهم من أئمة الرواية، وكانت الكوفة آنئذ منزلا لكثير من الأئمة الذين جمعوا بين الرواية والدراية. وأما ما ذكر في تاريخ بغداد من الطعن في الإمام، فذلك من آثار التحامل والتعصب، قال الإمام السيوطي في كتابه «مناقب أبي حنيفة»: «لا تغتر بكلام الخطيب فإن عنده العصبية الزائدة على جماعة من العلماء كأبي حنيفة وأحمد، وبعض أصحابه، وتحامل عليهم بكل وجه»، ولم يسلم - في الغالب - أحد من مشاهير العلماء من الطعن والتجريح بغير حق، ولعن الله الحاسدين والحاقدين.

● **التجني على الإمام**

وقد غمط الإمام حقه في العناية بالأحاديث والسنة وثقته في الرواية بعض حاسديه، ورموه بما ليس فيه، فزعموا أنه قليل البضاعة في الحديث، وأنه قلت روايته تبعًا لذلك قلة لا نصدقها في حق طالب من طلاب الحديث، فضلا عن إمام مجتهد تزعّم مدرسة في الفقه والاجتهاد، يعتبر رجالها مفخرة من مفاخر الإسلام قديمًا وحديثًا، وإليك ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته، وحكايته هذا القول الضعيف عن هذا البعض، ورده عليهم، قال: «واعلم أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة والإقلال، فأبوحنيفة رضي الله عنه يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثًا أو نحوها، ومالك رحمه الله إنما صح عنده في كتاب الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها، وأحمد بن حنبل في مسنده خمسون ألف حديث، ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك، وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث، فلذا قلت روايته، ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة، لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، ومن كان قليل البضاعة في الحديث فيتعين عليه طلبه، إلى أن قال: والإمام أبوحنيفة إنما قلت روايته لمّا شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعّف رواية الحديث اليقين إذا عارضها الفعل النفسي، وقلت من أجلها روايته فقل حديثه، لا أنه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك، ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه».

فها نحن نرى أن ابن خلدون ذكر هذه المقالة المتجنية على الإمام بلفظ «يقال»، وهي من صيغ التضعيف في عُرف علماء الرواية، وإذا كان ابن خلدون بيّن السبب في قلة رواية الإمام، فمراده بذلك القلة النسبية لا ما حكاه في صدر كلامه بصيغة التضعيف، ومما ذكرنا من نص المقدمة يتبين للباحث المنصف والقارئ المتثبت أن عزو هذا القول الضعيف إلى ابن خلدون تجنٍ كذلك على العلامة ابن خلدون، وخيانة للأمانة في البحث، وقد انزلق إلى هذا الرأي الضعيف الذي لا سند له بعض الكاتبين المحدثين في الحياة العقلية في صدر

الإسلام وجعله من قول الثقات، ويعلم الله أن القائل به ليس من الثقة في شيء، وأنا لا أنكر تفاوت الأئمة في الحفظ والرواية، فذلك أمر معلوم مفروغ منه، ولكن الذي لا أكاد أصدقه أن تنزل مرويات الإمام الأعظم إلى هذه القلة الضئيلة، وكيف يتهيأ لمجتهد أن يبني مذهبا على سبعة عشر حديثا صحت عنده، وأقل ما يقال في مسائله التي تكلم فيها أنها تبلغ ثلاثا وثمانين ألف مسألة في العبادات والمعاملات، وكيف يجوز قبول هذا القول وشاهد العيان يرده، فكثرة أحاديث الإمام تظهر من حججه المسرودة في أبواب الفقه التي نقلها عنه أصحابه، والمدونة في تلك المسانيد السبعة عشر لكبار الأئمة من أصحابه وسائر الحفاظ، وكان مع الخطيب البغدادي عندما حل في دمشق مسند أبي حنيفة للدارقطني، ومسند أبي حنيفة لابن شاهين، وهما زائدان على السبعة عشر المذكورة.

والظاهر أن الخطأ دخل على القائل بأن الإمام لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا من أنه سمع أن للإمام سبعة عشر مسندا، أي كتابا مرتبة أحاديثه على حسب الصحابة، فظن أن المراد بالمسند الحديث الذي ذكر له إسناد، فوهم هذا الوهم الفاحش. وكيف نصدق مثل هذا الرأي العاري عن الحجة، وهذا هو الحسن بن زياد أحد تلاميذ الإمام كان يقول: «كان أبوحنيفة يروي أربعة آلاف حديث: ألفين لحماد، وألفين لسائر المشيخة». وإليك ما ذكره الحافظ الناقد الذهبي في حق الإمام: «ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه، فإنه أول من استنبطه من الأدلة، وعدم ظهوره في الخارج لا يدل على عدم اعتنائه بالحديث كما زعمه بعض من يحسده، وليس كما زعم، وإنما قلت الرواية عن الإمام وإن كان متسع الحفظ لأمرين، أحدهما: اشتغاله باستنباط المسائل من الأدلة كما كان أجلاء الصحابة، كأبي بكر وعمر وغيرهما، يشتغلون بالعمل عن الرواية حتى قلت روايتهم بالنسبة لكثرة حديثهم، وكثرة رواية من دونهم بالنسبة إليهم، وهذان الإمامان مالك والشافعي لم يرويا إلا القليل بالنسبة لما سمعاه لاشتغالهما باستخراج المسائل، ثانيهما: أن الإمام أبا حنيفة كان من المتشددين في الرواية وفي تصحيح الأحاديث، وقد ذكر العلامة ابن الصلاح أن من مذاهب التشديد

- يعني في الرواية- مذهب من قال: لا حجة إلا فيما رواه الراوي من حفظه وذلك مروي عن مالك وأبي حنيفة رضي الله عنهما.

وكان للإمام شفوف نظر في الأحاديث، والترجيح بينها، ومن لا يعرف ذلك يلصق به ما هو براء منه. سئل الأعمش وهو من كبار المحدثين عن مسائل، فقال لأبي حنيفة: ما تقول فيها؟ قال كذا وكذا، فقال الأعمش من أين لك كذا؟! فقال الإمام: أنت حدثتنا عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ بكذا وحدثتنا عن فلان الصحابي عن رسول الله ﷺ بكذا، وسرد عدة أحاديث على هذا النمط وصار يتكلم فيها، ويستنبط منها على حسب اجتهاده.

* * *

الإمام أبوحنيفة النعمان (٢)

العدد: (٨٣) ذوالقعدة (١٣٩١هـ) ديسمبر (١٩٧١م).

في مقال سابق تحدثت عن بعض جوانب حياة إمام الفقهاء، وهو الإمام أبوحنيفة النعمان، أحد الأئمة المتبوعين والمشهورين، وقد ركزت عنايتي في ذاك المقال على نفي تهمة ألصقت بالإمام زورا من قديم الزمان، وهي قلة بضاعته في الحديث. واليوم أعرض لجوانب أخرى من حياة هذا الإمام الكبير، ولاسيما اجتهاده الفقهي، ومنحاه في هذا الاجتهاد، فأقول وبالله التوفيق.

● تحول في حياة الإمام

لم يشتغل الإمام في صغره ومبدأ حياته بطلب العلم والاختلاف إلى مجالس العلماء، وإنما كان يختلف إلى الأسواق، فقد كان يحترف التجارة في البز[1]، وفي غدوة من غدواته إلى السوق، مر على الإمام الشعبي وهو جالس، فدعاه، فقال له: إلى من تختلف؟ فقال أبوحنيفة: أختلف إلى فلان - يريد رجلا معروفا بالتجارة - فقال الشعبي: لم أعن السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقال له أبوحنيفة: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال له الشعبي: لا تفعل، وعليك النظر في العلم ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظة وفطنة، فقال أبوحنيفة: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني الله به.

● اشتغاله في أول طلبه بالجدل والكلام

وقد رأى أبوحنيفة في أول طلبه للعلم الإسلام يتعرض للطعن من بعض الطوائف كالزنادقة وأضرابهم ممن دخلوا في الإسلام وهم يضمرون الكيد

(١) في القاموس المحيط: البز: الثياب، أو متاع البيت من الثياب ونحوها، وبائعه البزاز، وحرفته البزازة.

والعداء، كما رأى ظهور كثير من الطوائف المبتدعة الذين ابتدعوا في الإسلام ما ليس منه كالروافض، والخوارج، والمرجئة، والقدرية الذين يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف[١]. فاشتغل في أول أمره بعلم الجدل، والكلام، والرد على الروافض والخوارج والزنادقة وأضرابهم. وقد أكسبه هذا اللون من المعرفة قوة في الحجاج والجدل وإفحام الخصوم، والمرونة العقلية الفائقة، والقدرة على حل المشكلات والمعضلات، وسرعة البديهة في المجادلة والمناظرة، مما سنعرض لشيء منه فيما بعد.

ثم خطر له خاطر فقال: إن المتقدمين من أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين من بعدهم، لم يكن فيهم شيء مما نذكره نحن، وكانوا عليه أقدر، وبه أعرف، وأعلم منا بحقائق الأمور، ولم يروا منازعين، ولا مجادلين، ورأيت خوضهم في الشرائع، وأبواب الفقه، فبدا له في الأمر بداء[٢].

● **اشتغاله بالفقه**

وبينما هو على هذا الحال، وكان يجلس بالقرب من حلقة الإمام حماد بن أبي سليمان، الذي صار فيما بعد أجل أساتذة أبي حنيفة، وأعظمهم تكوينا له، وتأثيرا فيه، إذ جاءته امرأة فقالت له: رجل له امرأة أراد أن يطلقها للسنة، كيف يصنع؟ قال أبو حنيفة: «فلم أدر ما أقول، وسقط في يدي، فأمرتها أن تسأل حمادا، ثم ترجع إليّ فتخبرني، فذهبت فسألت حمادا، فأجابها ثم رجعت فأخبرتني. وكان لهذه الحادثة تأثيرها في نفسه فقال: لا حاجة لي في الكلام فأخذت نعلي وصرت أجلس إلى حماد أسمع مسائله وأحفظ قوله حتى قال: «لا يجلس أحد في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة، فصحبته عشر سنين»، فقال أبوحنيفة فنازعتني نفسي الطلب للرياسة، يعني أن يتصدى للتدريس، فأحببت أن أعتزله، وأجلس في حلقة نفسي، فخرجت ليلة، وعزمي أن أفعل، فلما دخل المسجد ورأيته لم

---

(١) أي مستأنف: أي أن الله لا يعلم بالأشياء قبل وقوعها، وقد تطورت كلمة القدرية فأضحت وصفا لمن يقولون، إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية وهم المعتزلة.

(٢) أي ظهر له رأي.

تطب نفسي أن أعتزله، فجلست معه، ولأمر ما، تخلف حماد عن الدرس، فأمر أبا حنيفة أن يجلس مكانه، فوردت عليه مسائل، فكان يجيب عنها ويكتب الجواب، وبعد شهرين قدم أستاذه حماد، فعرض عليه أبو حنيفة المسائل التي أفتى فيها فوافقه في أربعين مسألة وخالفه في عشرين، فآلى الإمام أبوحنيفة على نفسه ألا يفارق شيخه حمادا أبدا حتى يموت، فلم يفارقه حتى مات بعدما أخذ عليه كل ما كان عنده من علم، وكان كثيرا ما يناقش شيخه حمادا ويسأله ويناظره، حتى كان ربما يتبرم منه، لذلك روي عن الإمام أنه قال: «لزمت حمادا لزوما ما أعلم أحدا لزم أحدا مثلما لزمته، وكنت أكثر السؤال فربما يتبرم مني، ويقول: يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي، وضاق صدري».

ولعلك أيها القارئ الكريم على ذكر من الكلمة الصادقة المعبرة عن غاية الاستقصاء التي قالها له شيخه حماد: «لقد أنزفتني».

● **تأهل أبي حنيفة للأستاذية**

ولما مات شيخ الإمام حماد فكر طلاب العلم والمعرفة فيمن يقوم مقامه فأجلسوا كثيرين من أهل العلم فلم يجدوا عندهم كبير غناء[1]، ثم أجلسوا الإمام أبا حنيفة، فوجدوا عنده من العلم والفقه ما لم يجدوه عند غيره، ووجدوا عنده في سائر المعارف والثقافات السائدة آنئذ نفاذا وسعة أفق وعلما غزيرا، فلزموه وتركوا غيره، وعظم شأنه حتى صارت حلقته أعظم حلقة في المسجد، فتخرج به أقوام صاروا أئمة في العلم، من أشهرهم الفقهاء: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزفر بن الهذيل العنبري، وواعظ زمانه الحسن البصري، وإمام أهل المغازي محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة المشهورة، ومتصوف زمانه إبراهيم بن أدهم وغيرهم.

وكذلك كان مرجع الناس في الفتوى وحل المشكلات المستعصية والمسائل العلمية العويصة، بل كانوا يرجعون إليه فيما يعتريهم في حياتهم الدنيوية، فيجدون عنده المعونة الصادقة والحل الموفق، لا يدخل بلدا إلا اجتمع عليه

(١) غناء - بفتح الغين- أي نفع واستغناء بهم عنه.

الناس، وسألوه، قال الإمام الليث بن سعد محدث مصر، وعالمها وفقيهها: كنت أتمنى رؤية أبي حنيفة حتى رأيت الناس متقصفين[1] على شيخ، فقال له رجل يا أبا حنيفة وسأله عن مسألة، فوالله ما أعجبني صوابه، كما أعجبني سرعة جوابه.

● **منحاه في الاجتهاد**

الإمام أبوحنيفة كغيره من الكثيرين من أئمة الفقه والاجتهاد يأخذ بالأصول الأربعة، التي تستنبط منها الأحكام، ويعرف الحلال والحرام:

١- الكتاب ٢- والسنة

٣- والإجماع ٤- والقياس.

والثلاثة الأولى قدر متفق عليه بين جميع الفقهاء، وأما القياس فهو محط خلاف الفقهاء في الأخذ به أو عدم الأخذ به، والآخذون به يختلفون في الأخذ به قلة وكثرة، فمنهم المكثر ومنهم المقل لأصول أصلوها وقواعد وضعوها.

وقد كان الإمام أبو حنيفة ﷺ عالما بالأصلين الشريفين اللذين إليهما عند التحقق مرجع جميع الأحكام، وهما القرآن الكريم والسنة المطهرة، علما أهّله لأن يكون إماما كبيرا بين أئمة الاجتهاد في الإسلام، أما علمه بالقرآن الكريم، وأسباب نزوله، وأول ما نزل، وآخر ما نزل، وتدرجه في التشريع، ومكيه ومدنيه، وعامه، وخاصه، ومطلقه، ومقيده، ومحكمه، ومتشابهه، وناسخه، ومنسوخه فهذا ما أقر به الموافق والمخالف، وأما علمه بالمصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام، فقد بينت في المقال السابق بما لا يدع مجالا للشك علم الإمام أبي حنيفة بالسنن والأحاديث، ونفيت عنه تهمة قلة بضاعته في الحديث، وندرة ما صح عنه من أحاديث.

وقد بين لنا الإمام أبوحنيفة منهجه في الاجتهاد، فقد روي عنه أنه قال: «آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد في كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في سنة رسول الله ﷺ أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع من شئت، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم، - يعني النخعي-

(١) مجتمعين في التزاحم عليه.

والشعبي وابن سيرين والحسن- يعني البصري- وعطاء- أي التابعين - فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا». وروي عنه أيضا أنه قال: «إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ «فعلى الرأس والعين»، وإذا جاء عن الصحابة اخترنا ولم نخرج عن رأيهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم»[١]. وقد قدمت في المقال السابق أن الإمام أبا حنيفة يعتبر من التابعين لأنه لقي بعض الصحابة، بل قيل إنه روى عن بعضهم فهو حينما يزاحمهم ويجتهد مثلهم فلأنه من طبقتهم، وهو منهج لا غبار عليه.

ولكن بعض الحاسدين له، والحاقدين عليه رموه بأنه لا يأخذ بالأحاديث والآثار ويغلّب الرأي والقياس عليها، وهاهو الإمام يدافع عن نفسه فيقول: «عجبا للناس يقولون أفتي بالرأي. وما أفتي إلا بالأثر».

وقال لما سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام: هذه مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإن كل محدثة بدعة[٢]، فهل بعد هذه المقالات الواضحة البينة يدعي مدعٍ أن الإمام كان لا يأخذ بالأحاديث والآثار[٣].

نعم، إذا لم يجد في القرآن والسنة والأحاديث وضاق عليه الاستدلال بها ولم يكن في المسألة إجماع فليس إلا إعمال الرأي والاجتهاد، وهذا هو ما دل عليه الحديث المشهور أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام حين بعثه إلى اليمن في السنة العاشرة للهجرة أميرا وقاضيا ومفتيا. «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال بما في كتاب الله، قال «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟» قال: أجتهد، وإني لا آلو - أي لا أقصر - قال:

---

(١) عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان، مخطوط بمكتبة الحرم المكي.

(٢) عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان، مخطوط بمكتبة الحرم المكي.

(٣) الحديث: هو قول النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخلقية. والأثر: هو ما روي عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم من غير أن يرفع وينسب إلى النبي ﷺ.

فضرب رسول الله ﷺ صدري[١]، ثم قال «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» (رواه أحمد وأبوداود والترمذي وابن ماجه)، وهذا تقرير قولي من النبي ﷺ لطريقة معاذ، ومنهجه في الحكم والاجتهاد، وقد شاع على ألسنة بعض أهل العلم، ولاسيما المتحاملين منهم على الإمام أبي حنيفة، أنه لا يأخذ بكثير من الأحاديث، وأنه يرجح الرأي والقياس عليها، وهي مقالة فيها تجنٍ على الإمام، ومجافاة للحق والواقع. وإليك ما قاله إمام اشتهر بحدة اللسان، وصراحة النقد، وعدم المداهنة في الحق، وهو الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي، قال: وجميع أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة، أن ضعيف الحديث أولى عندهم من القياس والرأي، فهو لا يقيس إلا إذا انسدت عليه مسالك الاستدلال بالأحاديث التي يحتج بها.

وقد بينت أن الإمام له شروط شديدة في الحكم على الأحاديث بالصحة والحسن، ومعاذ الله أن يترك حديثا صحيحا، ثم يحتج بالقياس والرأي، وما عسى أن يبدو في نظر بعض العلماء والباحثين أنه كذلك بادي الرأي، فعند التحقيق والتدقيق يظهر أنه ليس كذلك. وأرجو أن تتاح لي الفرصة للحديث عن ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

على أني أحب في هذا المقام أن أقول: إن المجتهد مهما جلت منزلته واتسع علمه بالأحاديث والآثار لا يلزم أن يبلغه كل حديث مروي، ولو بلغه فليس بلازم أن يصح عنده، ولو صح عنده فليس بلازم أن يأخذ به، لأنه قد يكون - ولو في نظره هو - مرجوحا، أو منسوخا، أو مخصصا بدليل آخر أو مقيدا، أو غير ذلك مما يعرفه أهل العلم بأصول الفقه، ومسالك الاجتهاد في الإسلام. ومن ثم كان اختلاف الأئمة في الفروع الفقهية مع أنهم جميعا كان معولهم في استنباط الأحكام الفقهية على القرآن والسنة، وكانوا ينشدون الحق والصواب لا يبغون بهما بديلا، ولم يكن للهوى النفسي، والتعصب للرأي بغير حق أي أثر في استنباطاتهم، واجتهاداتهم، وإذا حدث في بعض العصور تعصب مذهبي فقد كان

(١) يعني بيده تثبيتا لما في قلبه من هذا العلم المكنوز، والفقه الأصيل، وزيادة شرح لصدره.

ذلك في العصور المتأخرة، ومن أتباع الفقهاء المتأخرين حينما كسدت سوق الاجتهاد وغلبت ملكة التقليد.

وقد نقل الإمام الشاطبي في الموافقات أنه ما من إمام من الأئمة الأربعة إلا صح عنه أنه قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط». وهذا هو اللائق بمقام أئمتنا الكبار وأخلاقهم، وجلال أقدارهم.

اللغة العربية هي لغة القرآن والإسلام

العدد (١٧٤) جمادى الآخرة ١٣٩٩هـ - إبريل (١٩٧٩م).

● شبه جزيرة العرب

هي عبارة عن هذا الجزء الذي يقع في الجنوب الغربي من قارة «آسيا» وهي أكبر شبه جزيرة في العالم، ويبلغ متوسط عرضها سبعمائة ميل، ومنتهى طولها ألف ومائة ميل، ومساحتها حوالي ألف ألف ميل مربع (مليون ميل بلغة اليوم).

ويحدها من الجنوب البحر العربي (المحيط الهندي) ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق الخليج العربي، ونهر الفرات، ومن الغرب البحر الأحمر، وبرزخ السويس قديما، وتسمى قناة السويس الآن، ومن ثم نرى أنها تحيط بها البحار والأنهار من جميع الجهات إلا جزءا قليلا منها، ولهذا يطلق عليها البعض تجوزا «جزيرة العرب».

وهذا التحديد الذي يقول به الهمداني يدخل بلاد الشام كلها، والبادية التي بين العراق والشام، وبادية سيناء في جزيرة العرب.

وهو يتفق، وما ذكره «هيرودوت» المؤرخ القديم غير أنه اعتبر «نهر النيل» الحد الغربي للقارة، وجعل صحراء مصر الشرقية كما هي معروفة الآن من الجزيرة العربية.

● موقع شبه الجزيرة العربية

وتحتل شبه جزيرة العرب موقعا هاما، إذ أنها تربط بين قارات ثلاث: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، وأما من الناحية الخريطية الحضارية قبل الإسلام فهي تربط بين الحضارتين السائدتين حينذاك في العالم: الحضارة الرومانية، والحضارة الفارسية.

● **الجنس العربي**

والجنس الذي يسكن شبه الجزيرة العربية يسمى: الجنس العربي، وهو أحد الأجناس السامية نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام ولكنه أكثرها محافظة على خصائص الساميين، وهذا الجنس يتكلم اللغة العربية.

● **اللغة العربية**

اللغة: هي الألفاظ التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والإفصاح عما في نفوسهم، واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، ومن هذه اللغات السامية: السريانية والعبرانية والحبشية، ولكنها أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامي، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة في شبه الجزيرة، وهي طبيعة الانعزالية والمحافظة على الأنساب، والأحساب، وعدم التزوج من غيرهم، أو تزويجه منهم مهما كان من الجاه والسلطان فقد عصمت هذه الحياة الجنس العربي، واللغة العربية من الهجمات التي تعرض لها غير العرب من الجنس السامي، وغير اللغة العربية من فروع اللسان السامي كالسريانية والعبرانية والحبشية، وإذا كانت الأمة العربية من الجنس الأبيض أرقى الأجناس البشرية، بل قد عدها بعض علماء التشريح أنموذجا للتقويم البشري الكامل، «اثنولوجيا» - فإن لغتها أرقى اللغات الحية على الإطلاق، وأثراها، وأخفها على اللسان، وأحبها إلى الآذان، وأشملها لمقومات الآداب والعلوم من الألفاظ والتراكيب.

● **الأمة العربية في التاريخ**

والأمة العربية من أقدم الأمم وأشهرها، كان لها في التاريخ القديم، والحديث آثار لا تزال باقية إلى الآن.

وقد كرم الله تبارك وتعالى وجودها، بأن اختار منها خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمدا ﷺ، وعلى آله، وأصحابه فكان شاهد صدق على أنها الأمة الجديرة بقيادة العالم إلى تحقيق السعادتين: الدنيوية، والأخروية، إذا عضت بالنواجذ على هذا الدين الإسلامي، الذي هو خاتم الأديان، وأكملها، وأوفاها بحاجات البشر جميعا كما خلد الله تبارك وتعالى اللغة العربية حينما جعل آية النبي ﷺ العظمى،

ومعجزته الكبرى وحيا يتلى، وقرآنا عربيا مبينا ما بقي مسلم على وجه الأرض.

وما من أمة إسلامية إلا وتاريخها ممتزج بتاريخ الأمة العربية المسلمة، وما من أمة إسلامية إلا لهذه الأمة العربية التي حملت لواء الإسلام، ونشرته في الخافقين فضل عليها، فالأمم الإسلامية في الشرق والغرب مدينة لأمة العرب المسلمة التي حملت مشعل الرسالة المحمدية بعد الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار!!.

● **القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر**

والقرآن الكريم هو كتاب العربية الأكبر، ورمز وحدة العرب الكبرى، وجامعتهم العظمى، وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها وحيويتها، وبه صار العرب أمة مؤمنة موحدة، متآلفة القلوب ومتجانسة المزاج، متحدة اللسان، متشابهة البيان.

وبه صار المسلمون في صدر الإسلام أمة واحدة، لا يفرق بينها جنس، ولا لون، ولا لغة وقد انصهرت كل هذه الفوارق، وذابت في نور الإسلام، ولم يبق الاعتزاز إلا بشيء واحد، وهو الإسلام، ولغة القرآن، وصار لسان الواحد منهم يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ومن القرآن استمد العرب والمسلمون علومهم، ومعارفهم، وتلونت به ثقافتهم، فما من علم من علومهم، إلا وله بالقرآن سبب، وله منه ورد، ومدد.

ولولا هذا الكتاب العربي المبين لاستعجمت لغة العرب، وأصبحت في عداد اللغات الميتة، فهو الذي يجدد شبابها كلما اعتراها الهرم، والضعف، ويأخذ بيدها إذا ألم بها التخلف والركود ولولا هذا الكتاب العربي المبين لما كانت هذه الثروة الطائلة من العلوم التي تدور حول القرآن ولغة القرآن وتجول وتصول في رحابه الواسعة.

وما من عربي ـ أيا كان دينه ـ إلا وله بهذا الكتاب مفخرة، واعتزاز، ومزاولة له، وحب لأنه يشبع فطرته العربية، ووجدانه البياني، ويوائم روحه العربية

الصافية الشفافة ويرى في أسلوبه، وتفننه في القول والخطاب المثل الأعلى للبيان العربي الفصيح البليغ.

● **انتشار اللغة العربية بين المسلمين من غير العرب**

لما جاور الرسول ﷺ الرفيق الأعلى، وحمل الصحابة رضوان الله عليهم، ومن جاء بعدهم من التابعين فمن بعدهم ـ تبليغ الرسالة من بعده إلى الناس كافة كانوا يحملون القرآن الكريم بيد والسيف باليد الأخرى، لا لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وقبول شريعته. . كلا وحاشا!! وإنما لحماية الدعوة إلى الإسلام، وإلى شريعته، والحق ما لم تكن له قوة تؤيده وتحميه ضاع بين سطوة الباطل، وسلطان البغى.

ولو أن قياصرة الرومان، وأكاسرة الفرس، وغيرهم من ملوك أمم الأرض ورؤسائها تركوا للمسلمين الدعوة إلى دينهم الحق بالحجة والبرهان، والحكمة، والموعظة الحسنة، وفي ظل الأمان والسلام لما وقعت حروب، ولانتشر الإسلام بقوة حجته، ومواءمته للفطرة البشرية، والعقول السليمة، والنفوس التي تجردت من أهوائها وشهواتها، والأرواح الصافية الشفافة التي لم تدنسها الظلمات الأرضية، والعوائق المادية.

وكان الإسلام ولغة القرآن يسيران جنبا إلى جنب، في البلاد المفتوحة، فما إن يدخل الرجل أو المرأة في الإسلام حتى كان أول ما يفكران فيه حفظ القرآن أو شيء من القرآن، حفظ السنة أو شيء منها، فمن ثم انتشرت اللغة العربية في البلاد المفتوحة، بسرعة انتشار الإسلام.

القرآن والسنة معا

العدد (١٧٦) شعبان (١٣٩٩هـ) - يونيو (١٩٧٩م).

روى الإمام أبوداود في «سننه» بسنده عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنني أوتيت الكتاب، ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه»

● تخريج الحديث

رواه أبوداود في سننه - كتاب السنة - باب لزوم السنة، وسنده صحيح، وقد سكت عنه المنذري فهو صالح للاحتجاج به ورواه الترمذي في جامعه بسنده عن المقدام بن معد يكرب ولفظه! قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني، هو متكئ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله، كما حرم الله» (قال الترمذي: هذا حديث حسن).

● الشرح والبيان

قوله ﷺ: «ألا إنني أوتيت الكتاب، ومثله معه» ألا: أداة استفتاح، وهي تفيد التنبيه إلى ما يجيء بعدها فيأتي وقد تشوقت إليه النفس، فيتمكن فيها فضل تمكن، و «أوتيت» بمعنى أعطيت من «آتى» بمعنى أعطى، والمراد بالكتاب:

القرآن الكريم، وقد صار علما على القرآن الكريم بالغلبة، وإذا أطلق لفظ الكتاب في لسان الشرعيين انصرف إلى القرآن، وهو في الأصل مصدر كتب، ثم استعمل الكتاب في المكتوب، استعمال المصدر في اسم المفعول، ثم صار علما بالغلبة كما ذكرت، وقد كرر هذا الاسم «الكتاب» أو «كتاب» في القرآن الكريم في مواضع كثيرة يطول الكلام لو تتبعناها.

ومثله معه: المراد به السنن والأحاديث النبوية، ومن القرآن الكريم والسنة النبوية يكون خير الهدي وهو هدي نبينا محمد ﷺ وفي الكتاب الكريم قول الله تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥) وفيه أيضا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه «إن خير الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ»، (انظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب الخطبة) وهذا الكلام النبوي، الموجز، البديع، يحتمل وجهين!.

- أنه ﷺ أوتي من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما أعطي من الوحي الظاهر الجلي المتلو.

- أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى بلفظه كما أنزله الله، من غير تبديل، ولا تحريف، ولا قراءة بالمعنى، وأعطي من البيان مثله أي أُذن له ﷺ أن يبين ما في الكتاب الكريم: القرآن فيعم، ويخص، ويقيد، ويشرح الغامض، ويفصل المجمل، ويزيد عليه، ويشرع ما ليس في الكتاب، فيكون في لزوم قبوله ووجوب العمل به كالظاهر المتلو من القرآن، والوجهان متلازمان وفي الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤). قوله ﷺ: «ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه».

يوشك مضارع أوشك بمعنى قرب، والمراد بقوله: شبعان أنه ممن يعيش لبطنه لا لعقله وروحه، وبقوله ﷺ «متكئ على أريكته» أنه من أهل الترفه والدعة الذين لزموا البيوت، ولم يطلبوا العلم من مظانه، ويرتحلوا في سبيل الحصول عليه كما هو الشأن في المحدثين والعلماء، و«الأريكة» هي السرير في الحجلة - بفتح الحاء المهملة والجيم، واللام -وتجمع على حجال، والمراد بالحجلة: الخيمة التي تزين بالستائر، والبسط، وفي معنى الحجلة الحجرة المزينة بذلك، وقيل: هي كل ما اتكئ عليه من سرير أو وسادة، أو حشية ونحوها.

والمراد بقول هذا الرجل المتنعم الذي ليس من أهل العلم والفقه: «عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه» الاستغناء بالقرآن العظيم عن السنة النبوية، وهو جهل وحماقة، وإلحاد في الدين، فالسنة هي الأصل الثاني من أصول التشريع، والقرآن والسنة كلاهما بوحي إلا أن القرآن وحي متلو، والسنة وحي غير متلو، والأول بوحي جلي عن طريق جبريل عليه السلام، والسنة بوحي ولكنه أعم من أن يكون بطريق جبريل أو من غير طريق جبريل كالإلهام، والمنام، والقذف في القلب وغيرها من أنواع الوحي.

قوله ﷺ في رواية الترمذي: «وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله» هو رد على هؤلاء الهدامين الجهلاء، الذين افتجروا هذا الإفك المبين، وكذلك نقول: وإن ما أحل رسول الله مثل ما أحل له، وكلتا القضيتين لازمة للأخرى، ولكنه الإيجاز الممدوح المطلوب في كلام النبي ﷺ.

ثم بين رسول الله ﷺ بعض ما حرم بالسنة ولم يحرم بالقرآن فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها».

أما الحمار الأهلي فهو الإنسي بخلاف حمار الوحش فإن أكله حلال، كما في الأحاديث الصحاح، والحسان، وفي صحيح البخاري عن أبي قتادة رضي الله عنه أنه صاد حمارا وحشيا، وأفضل منه فأكل منه النبي ﷺ، ويحرم كل ذي ناب من السباع

كالأسد، والنمر والدب وأمثالها التي تعتمد على أنيابها، وفي بعض الروايات الأخرى «ولا كل ذي مخلب من الطير» وذلك كالنسر، والصقر ونحوهما من جوارح الطيور، وكواسرها «ولا لقطة معاهد» لقطة -بضم اللام، وفتح القاف أو سكونها، وفتح الطاء- وهي كل ما يلتقط من الطريق، ولا يعرف صاحبه والمعاهد هو من كان له عهد وذمة عند المسلمين، ولقطة المسلم كذلك لابد من تعريفها حتى ييأس من وجود صاحبها، ولكنه ﷺ خص لئلا يظن بعض من لا يعلم أن لقطة الذمي حلال، ولا تعرف كلقطة المسلم وهو يدل على حرمة أموال أهل الذمة كحرمة أموال المسلمين، فانظر أيها القارئ المتبصر الفطن، الفرق ما بين تشريع الإسلام، وبين مزاعم اليهود الكاذبة في قولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥) ومرادهم ليس علينا حرج ولا إثم في أكل مال الأميين وهم العرب، وذلك لأنهم يستحلون ظلم من خالف دينهم، وزادوا في التبجح فزعموا أن هذا التشريع من الله بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآية السابقة.

قوله ﷺ: «إلا أن يستغني عنها صاحبها» لتفاهتها أو لعدم حاجته إليها، وعدم طلبها فله أخذها والانتفاع بها أما قوله ﷺ «ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه».

القرى ما يقدم للضيف من نزل وطعام، وهل هذا القرى على الوجوب أم هو على الندب لأنه من محاسن الأخلاق؟ خلاف بين العلماء فمنهم من قال بالوجوب، ومنهم من قال بالندب، ومنهم من فصل إن كان في بلاد ليس فيها بيع طعام، ولا فنادق فقراه واجب، وإلا فهو مندوب وكلمة «على» تشعر بالوجوب لما فيها من الإلزام، والتحتيم «فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه».

روي لفظ «يعقبهم» بروايتين: الأولى بالتخفيف يعني يُعْقِبهم -بضم الياء، وسكون العين، وكسر القاف من أعقب، «وروي بالتشديد يعني «يُعَقِّبهم» بضم الياء وفتح العين وكسر القاف المشددة» من المعاقبة يعني يأخذ من أموالهم بقدر قراه، وما يحفظ عليه حياته ويبلغه مقصده.

وقد حمل بعض العلماء الحكم على حالة الضرورة الملجئة، لأنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه، وبعضهم عمم، فحمله على حالة الضرورة وغيرها، لأنه من الارتفاقات التي تكون بين المسلمين ومن محاسن الأخلاق التي ينبغي أن تكون.

● **ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب**

لقد دل هذا الحديث على معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث أخبر بمغيب، فوقع كما قال، فقد ظهرت فئة في القديم، والحديث تدعو إلى هذه الدعوة الماكرة الخبيثة، وهي الاكتفاء بالقرآن العظيم عن الأحاديث والسنن، وغرضهم هدم نصف الدين، أو إن شئت فقل هدم الدين كله، لأنه إذا أهملت السنة فسيؤدي ذلك ولا ريب إلى استعجام معظم القرآن على الأمة وعدم معرفة المراد منه، وإذا اندرست السنن والأحاديث، واستعجم على الأمة فهم القرآن وتدبره فقل على الإسلام العفاء!!

وهذا لن يكون أبدا مادام في الأمة الإسلامية فئة قائمة على الحق يعيشون له، ويصدون الغارات عنه، ولا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وصدق الله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (التوبة: ٣٢).

التمسك بالقرآن الكريم، والسنة النبوية عقيدة، وعبادة، وشريعة وعلما، وعملا وسلوكا، ومنهجا فإن في التمسك بهما خير الدنيا والآخرة وفي الحديث الشريف «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي» رواه الحاكم في المستدرك وإسناده حسن، ورواه الإمام الجليل مالك في «الموطأ» بلاغا، والبلاغات من قبيل المنقطع والمرسل ولكن الحديث الأول يعتبر شاهدا له.

منزلة التكافل الاجتماعي في الإسلام، وأن الإسلام العظيم بلغ في التكافل الاجتماعي ما لم يبلغه دين من الأديان لأنه الدين العام الباقي، الكامل، الخالد، وما لم يبلغه قانون من القوانين الوضعية قديما وحديثا، وذلك من قوله ﷺ: «**ومن**

نزل على قوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه».

إن القرآن والسنة كليهما بوحي من الله إلا أن الأول أوحي بلفظه ومعناه والثانية أوحيت بالمعنى، فمن ثم جاز رواية الأحاديث والسنن بالمعنى لعالم خبير بالألفاظ، ومدلولاتها، واللغة العربية وعلومها، والشريعة، ومقاصدها، وهذا من رحمة الله بالأمة، حيث لم يجعل الموحى به من القبيل الأول حتى لا يشق على الأمة ولا من القبيل الثاني حتى لا يدعو ذلك إلى التهاون في حفظ القرآن الكريم، وهو الكتاب الوحيد الذي أوجب الله على الأمة حفظه، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت بهم التواتر، فإن فرطت الأمة في حفظ كتاب ربها فهي آثمة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

موعظة بليغة

العدد (١٧٨) شوال (١٣٩٩هـ) - أغسطس (١٩٧٩م).

روى الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني بسنده عن عبدالرحمن بن عمرو السلمي. وحجر بن حجر قالا: أتينا العرباض بن سارية رضي الله عنه. وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فسلمنا وقلنا: أتيناك زائرين، وعائدين، ومقتبسين.

فقال العرباض: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه. فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون. ووجلت منها القلوب فقال رجل يا رسول الله. كأن هذه موعظة مودع. فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا. فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي. وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي. تمسكوا بها. وعضوا عيها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة».

• تخريج الحديث

أخرج الحديث أبو داود وأخرجه أيضا الترمذي في جامعه، ولم يذكر الصلاة وفي آخر تقديم، وتأخير: وإسناده صحيح انظر (جامع الترمذي، كتاب العلم، حديث رقم ٢٢٦٨).

وأخرجه أيضا الإمام أحمد في المسند (المسند جـ٤ ص١٣٠، ١٣١) وأخرجه

ابن ماجه في مقدمة السنن، باب اتباع رسول الله ﷺ (سنن ابن ماجه حديث رقم ٤٢).

● الشرح والبيان

قالا: أتينا العرباض بن سارية رضي الله عنه وهو ممن نزل فيه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (التوبة: ٩٢).

العرباض بن سارية صاحبي جليل، صحب النبي ﷺ، وغزا معه، وجاهد في سبيل الله، وقد أراد بقولهما: وهو ممن نزل فيه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ بيان منقبة من مناقبه، وقد كان هذا في غزوة تبوك، وكانت في السنة التاسعة للهجرة، وكان النبي ﷺ بلغه أن الروم يجمعون الجموع لغزو المدينة، فأراد أن يغزوهم قبل أن يغزوه، وكانت هذه من سياسة رسول الله في الحروب، وهي حكمة عالية بالغة الغاية في الصواب حتى لا يتجرأ الأعداء - وما أكثرهم - على غزو بلاد الإسلام، وليبين لهم أن سلطان الله في الأرض لا يخاف أحدا.

وكان مما حدث أن جماعة من المسلمين لم يكن عندهم ظهر يركبون عليه، ولا نفقة ينفقون منها على الجهاد، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فاعتذر لهم بعدم وجود الظهر الذي يركبون عليه، فرجعوا وهم يبكون حزنا على ما فاتهم من شرف الخروج في الجهاد في سبيل الله فَلْيَعِ المسلمون والعرب اليوم ذلك، وليعلموا أنه لا يمكن استرجاع عزتنا المفقودة، وقوتنا المرهوبة إلا بأن نتخلق بأخلاق هؤلاء السادة الأبرار، حبا في الجهاد، ورغبة في الاستشهاد وهذا المذكور في الحديث جزء من الآية الثانية والتسعين من سورة التوبة.

«قلنا أتيناك زائرين، وعائدين ومقتبسين».

والزيارة من حق المسلم على المسلم، وكذلك العيادة من حق المسلم على المسلم كما في الأحاديث الصحاح في الصحيحين وغيرهما، والظاهر أنه كان مريضا، وإلا تكون العيادة بمعنى الزيارة، ويكون الكلام من قبيل عطف التفسير، ومعنى «ومقتبسين» يعني من علمك ومروياتك عن رسول الله ﷺ، فالعلم نور،

وما سيأخذانه منه من العلم قبس من هذا النور، وهو تعبير بليغ وقد كان الرجلان بليغين حقا حيث قدما الزيارة، والعيادة، على الاقتباس، فهو من قبيل تقديم الوسيلة بين يدي المطلوب وهو يدل على ما كان يتمتع به الصحابة من البلاغة، والذكاء، والكياسة «فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب».

وكان من سنة رسول الله ﷺ إذا ما صلى بالناس صلاة جماعة استدار إليهم.. وواجههم، ليعظهم ويذكرهم، أو ليسأله سائل فيجيبه، والموعظة البليغة هي المطابقة لمقتضى الحال، وللظروف والملابسات التي كانت تدعو إليها آنذاك، وكلام رسول الله ﷺ كله فصيح بليغ، فوصف «الموعظة» بالبليغة من قبيل التوضيح، لا التخصيص لأنه لم يكن لرسول الله ﷺ مواعظ غير بليغة، نعم فيها البليغ والأبلغ.

ومعنى «ذرفت» أي سالت وجرت من تأثيرها الدموع من العيون، «ووجلت» يقال وجل القلب بكسر الجيم في الماضي - يوجل - بفتح الجيم في المضارع - من باب سمع يسمع إذا خاف وفزع، والوجل: خوف ممزوج بخشية الله، والإشفاق على النفس من عقابه، ومثل هذا تظهر آثاره بذرف الدمع من العين.

فقال رجل: «يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع!! فماذا تعهد إلينا».

الظاهر أن هذه الموعظة كانت في أخريات حياة النبي ﷺ ومعنى «مودع» أي للدنيا ولنا، وقد كان الصحابي القائل لهذه المقالة على غاية من الدقة في التعبير، فلم يقل: إنها موعظة مودع مثلا، وإنما قال: «كأن هذه..» لأن اليقين في مثل هذا غير ممكن، لأن الأعمار بيد الله، والآجال لا يعلم حقيقتها إلا الله تبارك وتعالى وصدق الله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤).

وقد فهموا كونها موعظة مودع، من الموعظة، ومن القرائن والأحوال التي كانت حينئذ.

«فماذا تعهد إلينا» يعني توصينا: يقال: عهد إليه بكذا يعهد، إذا أوصى إليه.

فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا».

وقد كانت الوصاة بتقوى الله لازمة من لوازم خطب رسول الله ﷺ، ومواعظه، والتقوى لها معنيان: معنى قلبي نفسي، وهو الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله «التقوى ههنا - ثلاثا - وأشار إلى صدره الشريف» ومعنى يتعلق بالجوارح والسلوك وأحسن ما تعرف به: امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وهي بهذا المعنى شاملة لكل هدى، وحق، وخير، فمن ثم ظهر السر في توصية رسول الله ﷺ بها دائما في خطبه، ومواعظه، والتقوى ما لم تكن نابعة من القلب فإنها لا تدوم، وسرعان ما تزول.

وقد كان رسول الله ﷺ على حق حينما أتبع التوصية بالتقوى بالتوصية بالسمع والطاعة للخليفة والأمير وإن كان عبدا حبشيا وعبدا منصوبة على أنها خبر كان المحذوفة مع اسمها ولذلك نظائر في الأحاديث الصحيحة، ففي حديث بدء الوحي المروي في الصحيحين عن السيدة عائشة - رضي الله عنها- قول ورقة بن نوفل: «يا ليتني فيها جذعا» أي أكون جذعا.

وذلك لأن رسول الله ﷺ يعلم أنه سيكون هناك خلاف على الخلافة والإمارة، فكانت الوصية بالسمع والطاعة أمرا لا بد منه وليس أدل على ذلك من أن رسول الله ﷺ لم يجاور الرفيق إلا وقد بدأ الخلاف على الخلافة، ولولا فضل الله على هذه الأمة وتوفيقه لقادتها فبايعوا الخليفة الأول الصديق أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه، ثم صار إجماعا فيما بعد، لكانت فتنة في الأرض، وفساد كبير، ثم كان بعد ذلك من الخلاف على الخلافة، بعد سيدنا عثمان رضي الله عنه، ما أحدث صدعا في وحدة الأمة الإسلامية حينذاك ووقعت وقائع عظيمة سالت فيها الدماء بلا حساب، ولسنا نخوض فيما وقع، فتلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا -والله تبارك وتعالى- يغفر لنا، ولهم، والله المستعان، وعليه التكلان. قول رسول الله ﷺ: «فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عيها، بالنواجذ» السنة المراد بها هنا الطريقة

المشروعة في الدين، فتشمل الاعتقاديات، والعبادات، واجبة كانت أم مندوبة، والمعاملات والأخلاقيات، والجنائيات، والسياسات، والمعاهدات وغيرها «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين».

السنة: هي الطريقة أيضا والخفاء الراشدون: هم السادة الأخيار أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضوان الله عليهم أجمعين.

الراشد: اسم فاعل من رشد، يرشد، من باب: فرح يفرح، ورشد - بفتح الشين- يرشد - بضم الشين- من باب: نصر ينصر، رشدا، ورشدا، ورشادا، والرشد ضد الغي، والرشد: الاستقامة على الدين، والالتزام بتكاليفه.

و«المهديين» جمع مهدي، يقال: هداه، يهديه فهو مهدي، والله هاديه، والمهدي: هو الذي هداه الله، وأوصله إلى الحق، ووفقه إلى الدوام عليه.

«والنواجذ» جمع ناجذ، وهي الأضراس التي بعد الأنياب، وهذا مثل لشدة الاستمساك بالأمر، والحرص عليه، لأن العض بالنواجذ يلزم منه العض بجميع الأسنان، أو بمعظمها على الأقل.

«**وإياكم ومحدثات الأمور**» هذا تحذير من الوقوع في البدع المضلة. والمحدثات: جمع محدثة، وهي البدعة، والبدعة: هي كل ما استحدث وليس لها أصل ودليل في الشرع من كتاب، أو سنة، أو إجماع، أو قياس أما ما يكون لها أصل في الشرع فلا يعتبر بدعة فكتابة القرآن في صحف مجموعة في عهد الصديق رضي الله عنه، والمصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه لا يعتبران بدعة لأن لهما أصل في الدين، وهو وجوب المحافظة على القرآن الكريم، وما أدى إلى الواجب فهو واجب، وكذلك نقط المصاحف، وشكلها لصيانة القرآن من اللحن، والتحريف لا يعتبران بدعة أيضا بل هما من الأمور الواجبة.

«**وكل محدثة بدعة**» وما دمنا عرفنا البدعة بأنها ما ليس لها دليل، ولا أصل فلزم أن تكون كل محدثة بدعة، وأما ما له أصل في الدين فهو بمعزل عن البدعة والعلماء المحققون على هذا، وعليه فلا يقسمون البدعة إلى الأحكام الخمسة، وأما الذين قسموا البدعة إلى الأحكام الخمسة فهم يريدون بالبدعة كل ما

استحدث سواء أكان لها أصل في الدين أم ليس لها وعند التحقيق نجد أن الخلاف لفظي، وليس حقيقيا، وأنه اختلفت العبارات لاختلاف الاعتبارات.

«وكل بدعة ضلالة»

وحق للبدعة أن تكون ضلالة، لأن ما ليس مشروعا، ولا دليل له في الشرع يعتبر ضلالة، إذ ليس بعد الحق المشروع إلا الضلالة، ونعوذ بالله من الضلالة، والعمل بها، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية للإمام مسلم «من عمل عملا ليس عيه أمرنا فهو رد» يعني مردود عيه، وغير مقبول لمخالفته لسنة رسول الله ﷺ وشرعه.

ويؤخذ من الحديث الأحكام والآداب الآتية:

وجوب الاستمساك بسنة رسول الله ﷺ، وطريقته، وهديه وهي شاملة لما ثبت بالقرآن الكريم الذي هو أصل الدين، ومنبع الصراط المستقيم، ولما ثبت بالسنة والأحاديث، التي تعتبر الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام، والاعتصام بها في كل شأن من شؤون ديننا ودنيانا.

وجوب السمع والطاعة لمن تولى أمور المسلمين وإن كان عبدا حبشيا كأن رأسه زبيبة كما في الأحاديث الأخرى، مادام مطيعا لله، قائما بحقوقه، وحقوق الرعية التي شرعها الإسلام، فإن عصى الله أو أمر بشيء فيه معصية الله فلا طاعة له، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه قول رسول الله ﷺ «إنما الطاعة في المعروف».

وقد كان الشارع الحكيم حكيما غاية الحكمة حينما أمر بالسمع والطاعة للأمراء لأن لو فتحنا باب المخالفة والمحادة، والمحاربة لأية مخالفة تبدر من الولاة لأصبحت حياة المسلمين، حروبا متواصلة، وفي ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير وأي وال لا يمكن أن يرضي جميع الرعية!! لأن الكثرة الكاثرة من المسلمين تتحكم فيهم الأهواء والشهوات النفسية، وصدق الله: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨).

إن سنة الخلفاء الراشدين الأربعة كسنة رسول الله ﷺ وهذه شهادة لهم، وتزكية بأنهم على الحق، ولا يتطرق لأعمالهم الابتداع وأنهم متبعون، وليسوا بمبتدعين، ونعوذ بالله أن يطعن فيهم طاعن أو يحكم عليهم بالعصيان، أو الكفر زنديق ملحد، بعد شهادة الله تبارك وتعالى لهم في غير ما آية، وشهادة رسول الله ﷺ لهم كما سمعت. إن الخير كل الخير في الاتباع: اتباع ما كان عليه رسول الله ﷺ، وما كان عليه الصحابة الكرام، ولاسيما الخلفاء الراشدون الأربعة والشر كل الشر في الابتداع، والبدعة أحب إلى الشيطان من كذا وكذا معصية لأن المبتدع يفعل البدعة وهو يعتقد حسنها، والتقرب إلى الله بها، أما العاصي فهو يفعل المعصية، وهو يعلم أنها معصية، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من المتبعين، ونعوذ بالله من أن نكون من المبتدعين.

مساهمة المسلمين في العلوم الإسلامية والعربية

العدد (١٨٢) رجب (١٤٠٠هـ) - ديسمبر ١٩٧٩م).

انتشر الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ وذلك بفضل الله ثم بفضل الصحابة الأبطال، ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم.. حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار من المحيط الأطلسي غربا أو كما كانوا يسمونه آنذاك «بحر الظلمات» إلى المحيط الهادي شرقا، وأصبحت أصداء كلمة التوحيد والإقرار برسالة سيدنا محمد تتلاقى من فوق المآذن في اليوم، والليلة خمس مرات، وفي هذه الرقعة الفسيحة من العالم المعروف حينئذ، بعد قرنين من الرسالة، أو يزيد، حتى لقد مرت سحابة ببعض خلفاء بني العباس، فنظر إليها قائلا: «أمطري حيث تمطرين، فحيث تمطرين فسيأتيني خراجك»!! وقد كان هذا الانتشار السريع آية على إعجاز القرآن الكريم، وعلى أن هذا الاسلام دين إلهي حقا.

ولم يكن هذا الانتشار السريع الذي أذهل الكثيرين ممن كتبوا في التاريخ من غير المسلمين عن إكراه، أو قسر وإجبار، وإنما كان عن طواعية واختيار، فقد وجدت الشعوب التي رزحت تحت نير حكام الفرس، والرومان، ومن على شاكلتهم في الإسلام أفضل دين يَعْرِفُ لبني الإنسان حرياتهم، ويَرعى حرماتهم: حرمة الدم، والعرض، والمال، ويعرف لهم حقوقهم قبل أن يعرف العالم المعاصر «حقوق الإنسان» بأربعة عشر قرنا.

كما وجدوا فيه الدين الذي أراحهم مما كانوا فيه من ظلم، وعسف، وكفر، وضلالات، وخرافات، وأوهام وجهالات، وأشعرهم بكرامتهم الإنسانية التي كانت مهددة وحقوقهم التي كانت مضيعة، كما وجدوا في ظله الوارف الرحمة بأوسع معانيها والعدل بأوسع معانيه، والأمان، والاستقرار، والسلام، حتى في

الحروب التي خاضوها كانوا أرحم الناس، وأعدل الناس، مع أن الحروب مبناها على الغلظة، والقسوة، والظلم والسفه، والجهل، وصدق غوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي المشهور حيث قال: «لم نجد أرحم، ولا أعدل من العرب في فتوحاتهم» ومراده العرب المسلمون، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وقد انتشرت اللغة العربية الشريفة: لغة القرآن والسنة بسرعة كانتشار الإسلام، بل قد تعلم هذه اللغة الشريفة بعض أبناء هذه البلاد الذين لم يتشرفوا بالدخول في الإسلام كاليهود والنصارى، والمجوس ممن سنوا بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية نظير ما تقوم به الدولة الإسلامية نحوهم من حماية ورعاية، وخدمات اجتماعية كثيرة من شق الترع، وتعبيد الطرق، وإقامة الكباري والجسور، وسكر الأنهار ونحوها من الخدمات الكثيرة.

● **مشاركة المسلمين من غير العرب في العلوم العربية والاسلامية**

وقد بلغ الكثيرون من هؤلاء المسلمين من غير العرب مبلغ المسلمين العرب في حذق اللغة العربية والعلم بدقائقها، وخصائصها، حتى صاروا من كبار علمائها، إجادة، ونطقا، وعلما بقواعدها وكذلك بلغ المسلمون المستعربون مبلغ المسلمين العرب في العلوم العربية من لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وفي العلوم الإسلامية الأصيلة من التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعلوم العقلية كالمنطق الذي يعتبر معيار المعقول، وعلم الكلام، والجدل، والفلسفة بأقسامها، والعلوم الاجتماعية كعلم الأخلاق، والمواعظ، والتاريخ ونحوها، والعلوم الكونية كعلم سنن الله الكونية، والكيمياء، وعلم البصريات وعلم الفلك وغيرها من العلوم التي ضرب فيها المسلمون بسهوم راجحة، في العصور الذهبية للحضارة الإسلامية الزاهية التي قامت على الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وعلى الإيمان بالروح، والجسد، وأن لكل منهما مطالبهما، وأن الإنسان ليس جسما من لحم، وعظم، وعصب فحسب، وإنما هو مركب من روح وجسد، وقد جاء الإسلام الدين العام الخالد بالوفاء بكل ما تحتاج إليه الروح، والوفاء بكل ما يحتاج إليه الجسد، فمن ثم

كانت الحضارة الإسلامية فريدة في بابها، فهي ليست حضارة تقوم على إنكار الله تبارك وتعالى، وعلى إنكار الأديان والطعن فيها، ومحاربتها كما هو الشأن في الحضارة الشيوعية المعاصرة، وما يدور في فلكها وليس حضارة مادية تؤمن بالله، وتقر بالدين، ولكنها فصلت الدين عن الدنيا، وحصرته بين جدران الكنائس كما هو الشأن في الحضارة الغربية المعاصرة، ولا هي حضارة قائمة على إنكار مطالب الجسد بل وتعذيب الجسد، والانعزال عن الدنيا، وزخارفها، وذلك كما كان الشأن في بعض الحضارات القديمة في الهند، وما على شاكلتها، وإنما هي حضارة متميزة بتميز الإسلام عن غيره من الأديان، تميز العقيدة الإسلامية عن غيرها من العقائد، وتميز الشريعة عن غيرها من الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية الأرضية، وتميز الأخلاقيات الإسلامية عن غيرها من الأخلاقيات قديما وحديثا.

وهذه المشاركة العلمية الجادة تدل على أن هؤلاء الذين تعلموا لغة القرآن والسنة قد تعلموها عن صدق، وإيمان بأنها لغة الإسلام، وأن ذلك لم يكن لنفع دنيوي، ولا لنفاق ومداهنة لأن الحريات كانت مكفولة لكل من كان يعيش في دولة الإسلام، والحرمات كانت مصونة في هذه الدولة سواء في ذلك المسلمون، وأهل العهد والذمة من اليهود والنصارى.

وعلى أن هؤلاء الذين دخلوا في هذا الدين العام الخالد: دين الإسلام دخلوا فيه عن اعتقاد، ويقين، بأنه أمثل الأديان، وأوفاها بحاجات البشر، وأصلحها لإيجاد حياة كريمة، وتكوين مجتمع فاضل ولولا هذا لما جاهدوا في تحصيل العلم هذه المجاهدة الصادقة، ولما أتعبوا أنفسهم هذا التعب المضني في سبيل تدوين العلوم الإسلامية، وجمعها، وتبويبها، وقد كان لهم في الخلود إلى الراحة مندوحة عن كل هذا إن أرادوا، ولكنه الإخلاص لهذا الدين، والحب لهذه اللغة الشريفة: لغة القرآن والإسلام.

● **مثال عجيب في تعليم بعض العلوم الإسلامية من غير المسلمين**

لقد ذكر الإمام السيوطي في «تدريبه» أثناء تعلمه عن الإجازة وأقسامها،

وأحكامها، والرواية بها كلاما عن «الإجازة» للكافر، قال: «وأما الإجازة للكافر فلم أجد فيه نقلا - يعني عمن سبقه-، وقد تقدم أن سماعه صحيح، قال: ولم أجد عن أحد من المتقدمين، والمتأخرين الإجازة للكافر، إلا أن شخصا من الأطباء يقال له: محمد بن عبد السميع، سمع الحديث في حال يهوديته على أبي عبد الله الصوري، وكتب اسمه في الطبقة مع السامعين، وأجاز الصوري لهم، وهو من جملتهم، وكان ذلك بحضور المزي، فلولا أنه يرى جواز ذلك ما أقر عليه، ثم هدى الله هذا اليهودي إلى الإسلام، وحدث - يعني بما أجازه به شيخه الصوري - وسمع منه أصحابنا.

وقد وقفت متعجبا عند هذا المثال العجيب: وهو حرص هذا الطبيب اليهودي على حضور مجالس هذا الإمام المحدث الصوري، والعلم بالحديث النبوي يعتبر من خصائص الثقافة الإسلامية الأصيلة، ولو أن هذا الطبيب اليهودي عني بعلوم اللغة، والأدب، أو بتلقي علوم الطب والكيمياء، والفلك ونحوها التي تعتبر أمرا مشتركا بين المسلمين وغيرهم، لما كنت أعجب، وهذا يدل على أن الثقافة الإسلامية في هذا العصر كان لها سلطانها على النفوس حتى غير المسلمة، وأنها كانت تستهوي غير المسلمين، وإذا كانت هذه الحال بالنسبة لغير المسلمين من يهود، ونصارى، فما بالكم بالنسبة للمسلمين المؤمنين بالقرآن، وبلغة القرآن، وبرسول الله، وبحديث رسول الله ﷺ ؟!! إنه - والله- لأمر عجيب حقا، أن تفرض الثقافة الإسلامية الأصيلة نفسها على غير المسلمين!!

أمثلة للعلماء المسلمين من غير العرب الذين شاركوا في الحياة العلمية

- **علوم اللغة العربية**

(١) فمن هؤلاء الذين برعوا في علوم اللغة، والنحو، والصرف الإمام اللغوي النحوي عمرو بن عثمان الشيرازي الملقب: بسيبويه، وإليه يرجع الفضل في تقييد علم النحو، وألف في علم النحو «الكتاب» وإذا أطلق لفظ الكتاب عند النحاة، لا ينصرف إلا إلى كتاب سيبويه. ومنهم الإمام في اللغة وفقهها أبوعلي الفارسي.

(٢) وألف في علم متن اللغة، وبيان معاني المفردات، الإمام أبو نصر إسماعيل بن نصر بن حماد **الجوهري** الفارابي المتوفى في حدود سنة أربعمائة من الهجرة على اختلاف في التعيين كتابه «الصحاح» جمع فيه أربعين ألف مادة.

(٣) وألف أيضا الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي **الفيروزآبادى**، وهي بلدة من بلاد فارس كما ذكر ذلك في مادة «فرز» من قاموسه وبها ولد أبوه وجده وأما هو فولد «بكارزين» كما صرح بذلك في كتابه، في مادة «كرز» وهي من بلاد فارس أيضا وكان ميلاده عام **٧٢٩**هـ، وتوفي في ليلة الثلاثاء العشرين من شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة بمدينة زبيد من بلاد اليمن السعيد.

وقد اعتنى بالحديث، وله مشاركة في التأليف فيه، ولكنه جد واجتهد في علم اللغة حتى صار إماما فيها، وليس أدل على ذلك من كتابه القيم «القاموس المحيط» الذي جمع فيه ستين ألف مادة، والقاموس: ماء البحر الواسع.

لم يفقه في هذا إلا الكتاب المعروف «بلسان العرب» لمؤلفه الإمام القاضي **جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المصري** المولود سنة ثلاثين وستمائة، والمتوفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة من الهجرة يعني قبل ميلاد مجد الدين صاحب القاموس بثمانية عشر عاما فقد جمع في كتابه «ثمانين ألف مادة» والظاهر أن صاحب القاموس لم يطلع على هذا الديوان اللغوي العربي العظيم، وإلا لزاد عليه أو على الأقل لنوه به.

● **التفسير وعلومه**

(١) وألف منهم في التفسير الإمام الحافظ، المفسر، المؤرخ **محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبوجعفر الطبري** المولود سنة أربع وعشرين ومائتين، والمتوفى سنة عشر وثلاثمائة، ومن أجل مؤلفاته التفسير الكبير المسمى «جامع البيان في تفسير القرآن» قال فيه الإمام الجليل النووي في «تهذيبه»: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله، وقال أبوحامد الإسفراييني لو رحل رجل إلى الصين حتى ينظر تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا عليه: وهو من أجل كتب

التفاسير بالمأثور وأصحها يذكر فيه ما ثبت عن النبي ﷺ، وما ورد عن الصحابة والتابعين، وقد زاد فيه على من سبقه ممن ألفوا في التفسير بالمأثور، أنه عرض فيه لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما ذكر فيه الكثير من وجوه الاستنباط والأعاريب واللغات، والاستشهاد بالشعر على بعض معاني الألفاظ.

ولولا ما شابه من رواية الإسرائيليات، وبعض الموضوعات، من غير تنبيه إليها لكان جديرا بكل ما قيل فيه.

وللإمام ابن جرير مؤلفات كثيرة جليلة منها:

(أ) كتاب «تهذيب الآثار» (ب) وكتاب «تاريخ الأمم والملوك»

(جـ) وكتاب «القراءات» (د) وكتاب «تاريخ الرجال» في الفقه.

(٢) ومنهم الإمام جارالله محمود بن عمر **الزمخشري**، صاحب التفسير المشهور «الكشاف» وهو من أجل كتب التفسير بالرأي والاجتهاد، ومن أحسن التفاسير - إن لم يكن أعظمها - في إظهار إعجاز القرآن الكريم، لولا ما شابه من ذكر بعض الموضوعات والإسرائيليات، ومن ذكر بعض الآراء الاعتزالية، التي قد تخفى على الكثيرين، ولا يتنبه إليها إلا القليلون، وقد ركب الصعب في توجيه بعض الآيات القرآنية كي يتخذ منها دليلا للانتصار لمذهب أهل الاعتزال، وقد قيض الله له الإمام العالم الكبير أحمد بن المنير عالم الاسكندرية وخطيبها، فألف كتابه الجليل «الانتصاف» وقد طبع مع الكشاف، و«الانتصاف» يؤمن على قارئ «الكشاف» من أن تجوز عليه بعض الآراء الاعتزالية، وكانت وفاة صاحب الكشاف سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

(٣) ومنهم الإمام القاضي المفتي **أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي** ولد سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بقرية قرب القسطنطينية ونشأ في بيت علم، وفضل، ودين، وقد تتلمذ على والده وغيره من العلماء حتى صار علما من الأعلام، ولي التدريس مدة، ثم ولي القضاء، وصار يتنقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى الإفتاء، وكان متمكنا من اللغات الثلاث: العربية، والفارسية، والتركية ولم يَدَع له التدريس، وولاية القضاء، والتنقل بين البلاد مجالا للتأليف

فلم يترك لنا إلا تفسيره المسمى «إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم»، وبعض حواشي أخرى على تفسير الكشاف، وعلى شرح «العناية على الهداية» وكانت وفاته سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ودفن بجوار الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه.

● **الحديث الشريف وعلومه**

وألف في الحديث وعلومه من هؤلاء المسلمين الأعاجم الذين صاروا عربا بالمربى أئمة أجلاء، كثيرون ولعل أجل خدمة أداها هؤلاء للإسلام هي ما قاموا به نحو الحديث وعلومه من جمع في الصدور، وتقييده في الكتب والسطور، وتأليف الدواوين الكبيرة التي تعتبر المرجع لأحاديث رسول الله ﷺ، وحفظها من الضياع، والتي تعتبر الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام وإليكم بعض هؤلاء الأئمة، **ونبدأ بأمير المؤمنين في الحديث الإمام الكبير البخارى:**

١- هو الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، بن إبراهيم، بن المغيرة بن بردزبه، كان جده بردزبه مجوسيا على دين قومه، أما والده المغيرة فقد أسلم على يد اليمان الجعفي، والي بخارى في هذا الوقت، فنسب إليه ولاء إسلام لا ولاء عتاقه فمن ثم قيل في نسب البخاري الجعفي، وأما جده إبراهيم فلم أقف على شيء من أخباره، وأما والده إسماعيل فكان عالما جليلا سمع من حماد بن زيد، والإمام مالك، وترجم له ابنه ابو عبد الله الإمام في كتابه «التاريخ الكبير» وذكر له ابن حبان ترجمة في كتاب «الثقات»، وقد جمع والده إسماعيل إلى العلم الورع والتقوى، وروي عنه أنه قال عند وفاته «لا أعلم في مالي درهما من حرام، ولا من شبهة» فالبخاري من بيت دين وعلم، وورع، فلا عجب أن ورث هذه الخلال الكريمة فيما ورث عن أبيه.

ولد البخارى يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة من الهجرة، ببلدة بخارى وتوفي «بخرتنك» قرية على فرسخين من سمرقند، ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين عن اثنين وستين عاما إلا ثلاثة عشر يوما، فرضي الله عنه وأرضاه. وليس من قصدي في هذا، الكتابة عن

البخاري فذلك يحتاج إلى مجلد كبير، وقد وفيته حقه في كتابي «أعلام المحدثين» وإنما أريد أن حياته المباركة التي قضاها في التطواف، والترحال ما بين بخارى وسمرقند إلى العراق، إلى مكة، والمدينة من بلاد الحجاز، إلى بلاد اليمن، إلى بلاد مصر تمخضت عن أعظم كتاب من كتب الأحاديث والسنن، وأصح كتاب في الإسلام بعد كتاب الله تبارك وتعالى: القرآن الكريم وهو «الجامع المسند الصحيح» الذي لا يجهله في العالم الإسلامي عالم، ولا جاهل، ولا رجل، ولا امرأة، ولا صغير ولا كبير ولو أن حياة الامام البخارى لم تتمخض إلا عن هذا الجامع الصحيح لكفى، فما بالكم وقد ترك ثروة ضخمة من الكتب الحديثية التي أثرت المكتبة الحديثية في الإسلام منها:

(١) التاريخ الكبير
(٢) التاريخ الصغير
(٣) الأدب المفرد
(٤) القراءة خلف الإمام
(٥) بر الوالدين
(٦) رفع اليدين في الصلاة
(٧) التاريخ الأوسط
(٨) كتاب الضعفاء
(٩) كتاب المبسوط
(١٠) الجامع الكبير
(١١) المسند الكبير
(١٢) التفسير الكبير
(١٣) كتاب العلل
(١٤) كتاب الهبة
(١٥) كتاب الفوائد
(١٦) كتاب الكنى
(١٧) كتاب الوحدان
(١٨) كتاب أسامي الصحابة.

ومن هذه الكتب ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط، ومنها ما لم يعلم إلا عن طريق ذكر بعض الأئمة له.

٢- الإمام الحافظ أبوداود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، بن سداد ابن عمرو السجستاني صاحب كتاب «السنن» ولد سنة اثنتين ومائتين، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائتين.

وقد طوف في الأقاليم، وارتحل، ولقي الكثيرين من التلاميذ، وكان شديد الاعتزاز بكرامة العلم والعلماء، ومما يدل على هذا الاعتزاز ما رواه الإمام

الخطابي بسنده عن أبي بكر بن جابر بن خادم أبي داود قال: كنت مع أبي داود ببغداد، فصلينا المغرب، إذ قرع الباب ففتحه، فإذا خادم يقول: هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن، فدخلت على أبي داود فأخبرته بمكان الأمير، فأذن له فدخل، فقعد، ثم أقبل عليه أبو داود وقال: ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت؟ فقال: خلال ثلاث، فقال: هي..؟ قال: تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنا، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض، فتعمر بك، فإنها قد خربت، وانقطع عنها الناس لما جرى من مجيء الزنج فقال: هذه واحدة، هات الثانية، قال: وتروي لأولادي كتاب «السنن» فقال: نعم، هات الثالثة، فقال: وتفرد لهم مجلسا للرواية، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة، فقال أبو داود: أما هذه فلا سبيل إليها، لأن الناس: شريفهم، ووضيعهم في العلم سواء!! قال ابن جابر: فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون، ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة.

أقول: وهكذا فليكن العلماء، لا يسعون إلى الملوك والأمراء، وإنما يسعى إليهم الملوك والأمراء.

٣- **الامام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي** أحد الأجلاء الذي يقتدى بهم ويرحل إليهم ولد سنة تسع ومائتين، وتوفي بترمذ في شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وهو صاحب التصانيف المفيدة التي من أجلها:

(١) جامع الترمذي (٢) وكتاب العلل الملحق بالجامع في آخره (٣) وكتاب «الشمائل النبوية» وهو أحسن الكتب في هذا الباب وأشملها.

٤- **الإمام الحافظ شيخ الاسلام أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب الخراساني القاضي** كان إمام أهل عصره في الحديث والمقدم على أضرابه، وفضلاء عصره، ولد بنساء سنة خمس عشرة ومائتين وتوفي سنة ثلاث وثلاثمائة بالرملة على الصحيح وهي بلد من بلاد فلسطين ومن أجل مؤلفاته: «السنن الكبرى» و«السنن الصغرى» المعروفة «بالمجتبى» و«الخصائص».

٥- **الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني الربعي** صاحب السنن

وغيرها من الكتب المعتبرة، ولد سنة تسع ومائتين، وتوفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين ومن مؤلفاته (١) كتاب السنن (٢) كتاب تفسير القرآن الكريم وهو تفسير حافل كما قال ابن كثير.

٦- **الإمام الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري الملقب بالحاكم والمعروف بابن البيع** ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وأربعمائة وله مؤلفات كثيرة من أجلها:

(١) كتاب المستدرك (٢) علوم الحديث

(٣) كتاب الإكليل (٤) المدخل.

٧- **الإمام أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي**، المتوفى حوالي سنة ٣٦٠هـ ويقال: إنه أول من ألف في علوم الحديث على الإطلاق في كتابه «المحدث الفاصل، بين الراوي والواعي».

٨- **الإمام أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٢هـ** ومن أجل مؤلفاته كتاب «علوم الحديث» الذي جمع فيه شتات هذا العلم في كتب المتقدمين .

● **الفقه وأصوله:**

وألف في علم الفقه وأصوله كثيرون منهم:

(١) الإمام الكبير أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي الفارسي الأصل والمولود «بكابل» سنة ثمانين للهجرة، والمتوفى سنة مائة وخمسين للهجرة، ويكفي الإمام أبا حنيفة جلالة قول الإمام الشافعي فيه «الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة» وليس له إلا «الفقه الأكبر» في الاعتقاد لا في الفروع والفقه كما يُظن ولكن تلاميذه، ولاسيما الإمام محمد بن الحسن دونوا فقهه وأقواله في كتبهم وهو مؤسس المذهب الحنفي أحد المذاهب الأربعة المعروفة المتبوعة في العالم الإسلامي.

وجاء بعد الإمام كثيرون من الأحناف الذين ساروا على منهج الإمام في أصوله من الذين صاروا عربا بالمربى كالإمام السرخسي، والإمام محمد بن علي المرغيناني

صاحب كتاب «الهداية» وغيرهما وفي كل مذهب من المذاهب الثلاثة الأخرى المالكي، والشافعي، والحنبلي علماء كثيرون ممن كانوا في الأصل أعاجم ثم صاروا عربا بالمربى لا يحصيهم العد، ويطول الكلام جدا لو ذكرتهم.

● **تذكير وتنبيه**

وما ينبغي أن يعلم أن المؤلفين في اللغة وعلومها، والتفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله والسير والتواريخ وسائر الفنون والعلوم من العرب الأصلاء كثيرون جدا مثل هؤلاء أو أكثر منهم، وليس أدل على ذلك من أن الأئمة الأربعة المتبوعين ثلاثة منهم عرب خلص، والرابع وهو أبو حنيفة هو فارسي الأصل ولكني أردت أن أبين أن الكثرة الكاثرة من الشعوب التي دخلت في الإسلام عن طواعية واختيار أخلصوا لهذا الدين غاية الإخلاص وللغة العربية الشريفة: لغة القرآن والإسلام فسرعان ما تعلموا اللغة العربية حتى صاروا كأهلها، وسرعان ما حذقوا العلوم الشرعية والعربية كحذق أهلها لها بل أشد، وبذلك ألقم الذين زعموا أن «الإسلام قام على السيف والإكراه» حجرا، وألقي إليهم بحجة لا يستطيعون لها ردا؟

المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال

العدد (١٨٧) رجب ١٤٠٠هـ - مايو ١٩٨٠م

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» ورواه أيضا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ بلفظ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي» (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب التطوع، باب الصلاة في مسجد مكة والمدينة).

• تخريج الحديث

رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﷺ يبلغ به عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى».

ورواه من طريق أخرى بلفظ «تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد...» بدون ذكر «لا» و«إلا».

ورواه من طريق ثالثة عن سليمان الأغر أنه سمع أبا هريرة ﷺ يخبر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلياء» (صحيح الإمام مسلم ـ كتاب الحج ـ باب فضل

المساجد الثلاثة).

وأخرج الحديث أيضا الإمام أبو داود في سننه، في كتاب الحج.

والإمام النسائي في كتاب الصلاة، فالحديث رواه أربعة من أصحاب الكتب الستة.

● الشرح والبيان

بالنظر في روايات الحديث الواردة في الصحيحين نجد أن الترتيب جاء في رواية الإمام البخاري الأولى، ورواية الإمام مسلم الأولى، والثالثة على حسب الفضل والمنزلة، وذلك بذكر المسجد الحرام أولا، ثم المسجد النبوي ثانيا، ثم المسجد الأقصى ثالثا، وجاءت الرواية الثانية في صحيح مسلم بتقديم المشاهد الحاضر وهو المسجد النبوي على المسجدين الآخرين، وإن كانت «الواو» في اللغة العربية لا تفيد ترتيبا، وإنما هي لمطلق الجمع والتشريك في الحكم، وقد جاء الترتيب في رواية البخاري الثانية على حسب التقديم الزمني.

ومن هذه الروايات أيضا يتبين لنا أن معظم الروايات جاءت بطريق الحصر، إما «بلا» و«إلا» كما في رواية البخاري ورواية مسلم الأولى، وإما بطريق الحصر «بإنما» كما في رواية الإمام مسلم الثالثة، وبعضها جاء بغير حصر كما في رواية الإمام مسلم الثانية فيكون المعول عليه ما جاءت به معظم الروايات وهو الحصر حملا للمطلق على المقيد.

فإن كان النبي ﷺ قال الحديث غير مرة فيكون من التفنن في العبارة، وإلا فيكون الاختلاف في الحصر وعدمه، وفي الترتيب من تصرف الرواة لدخوله تحت جواز الرواية بالمعنى، ومن هذا العرض للروايات، ومع ملاحظة أن الواو لا تفيد ترتيبا، نرى أنه لا اختلاف في الحقيقة بين الروايات، وأنها على سواء، وكفاها الله شر الاختلاف والتناقض.

وهذا من الأمور المهمة التي أحرص عليها غاية الحرص في دراسة السنة، وهو التوفيق بين الروايات والأحاديث توفيقا قريبا مقبولا.

و«الرحال» جمع رحل، وهو للبعير كالسرج للفرس، و هو دون القتب - بفتح

القاف والتاء ـ و «لا» نافية.

وشد الرحال كناية عن السفر وذلك كما في رواية مسلم الثالثة «إنما يسافر..» وخير ما يفسر به الحديث ما جاء في رواية أخرى، لأن الروايات يفسر بعضها بعضا.

والحديث في هذا التعبير العربي الأصيل خرج مخرج الغالب، والكثير في العصر الأول من أن أغلب الأسفار، ولاسيما البعيدة، كانت على الجمال والنياق، وإلا فيستوي في شد الرحال السفر على الدابة، أو السفر على قاطرة أو سيارة، أو السفر على طائرة، أو السفر على فلك أو باخرة، أو المشي على الأقدام، وذلك بدليل رواية «إنما يسافر..» وجملة «لا تشد الرحال...» خبرية لفظا إنشائية معنى، يعني أنها سيقت مساق النفي، والمراد النهي، فكأن النبي ﷺ قال: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» واستعمال النفي وإرادة النهي أسلوب بلاغي استفاض به القرآن المعجز المبين، واستفاضت به الأحاديث النبوية التي جاءت من قول النبي ﷺ ومن أسرار البلاغة في هذا، الإشارة إلى أن النهي امتثل، فأصبح أمرا واقعا مخبرا عنه وأيضا فالنفس البشرية من طبعها التأني عن الأوامر والنواهي فيكون في ذكره بصيغة النفي حمل على الامتثال فلله در كلام رسول الله ﷺ والمعنى لا تشدوا الرحال، ولا تسافروا إلى مسجد من المساجد للصلاة فيه، والعبادة إلا إلى هذه المساجد الثلاثة المشرفة في الأرض، والدليل على أن متعلق النهي عن شد الرحال هي الصلاة، ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي للمطي أن تشد رحالها إلى مسجد تبتغى الصلاة فيه غير المسجد الحرام، والأقصى، ومسجدي هذا» وإسناده حسن وأيضا فشد الرحال إلى هذه المساجد لن يكون إلا للصلاة، والتعبد، والأصل في المستثنى أن يكون من جنس المستثنى منه.

وبهذا التقدير المأخوذ من كلام النبوة لا يكون الحديث منافيا، ولا محرما لشد الرحال لطلب العلم، وللجهاد، وللسعي في الأرض بالتجارة، ونحو ذلك فهذه أمور أجمع العلماء على مشروعيتها، بل قد تكون مستحبة، بل قد تكون

واجبة، ودلائل ذلك من القرآن والسنة أكثر من أن تحصى.

والمساجد: جمع مسجد، وهو في اللغة مكان السجود، ويطلق ويراد به المكان المعد للعبادة، وهو المراد هنا وكسر الجيم في المسجد أمر سماعي وإلا فالقياس في مثل هذا فتح الجيم، قال الفراء: «كل ما كان على فعل يفعل مثل دخل يدخل ـ يعني بفتح العين في الماضي وضمها في المضارع ـ فالفعل منه بالفتح اسما كان أو مصدرا إلا أحرفا ـ يعني كلمات ـ ألزموها كسر العين من ذلك: المسجد، والمطلع، والمشرق، والمغرب، والمسقط، والمفرق، فجعلوا الكسر علامة الاسم... قال: والفتح في كلها جائز وإن لم نسمعه» (لسان العرب، مادة سجد).

ثم بين رسول الله ﷺ المساجد الثلاثة بقوله: «المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» و«المسجد الحرام» إما مجرور على البدلية، وإما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، يعني: هي المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد الأقصى.

وهذا الأسلوب أسلوب الإجمال، ثم التفصيل والبيان، من الأساليب العربية الأصيلة في التربية والتعليم، والتثقيف، لأن ذكر الشيء مجملا مما يجعل النفس تتشوف إلى معرفته، فإذا جاء البيان تمكن في النفس غاية التمكن، وإليكم ـ يا قارئي الكرام ـ تعريفا بهذه المساجد الثلاثة:

المسجد الحرام: والمراد به مسجد مكة بلد الله الحرام، وسمي «حراما» لأن الله سبحانه وتعالى عظمه، وشرفه، وحرمه وما حوله من يوم أن خلق السموات والأرض، وجعله مثابة للناس، وأمنا فلا يقتل به عائذ، ولا يهاج فيه حيوان، ولا يصاد فيه طير، ولا تقطع شجرة، ولا يختلى خلاه ـ أي لا يجز ولا يقطع عشبه الذي ينبت من غير استنبات الناس ـ فالحرام أمان للإنسان، والحيوان، والطير، بل والجماد وصدق الله تبارك وتعالى حيث قال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) آمنا على نفسه، وآمنا على عرضه، وآمنا على ماله، هذا هو المكان الوحيد في الأرض الذي جعله الله حرما آمنا من يوم الخليل إبراهيم عليه السلام إلى أن

يقوم الناس لرب العالمين، وأحر بالمسجد الحرام أن يكون حرما آمنا، وهو وما حوله من مكة، وما حواليها إلى حدود الحرم المعروفة من لدن أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والتي وضعت عليه النصب من جهاته الأربع، والنصب هي حجارة نصبت لتكون علامات على حدود الحرم يراها من يقدر الله تبارك وتعالى أن يزور هذه البقاع المقدسة حاجا، أو معتمرا.

«ومسجد الرسول ﷺ» وفي رواية للإمام مسلم «ومسجدي» فإن كان الحديث قاله النبي ﷺ غير مرة فيكون من التفنن في العبارة وهكذا شأن الفصحاء البلغاء، وإن كان الحديث قاله النبي ﷺ مرة واحدة فيكون المرجح عندي أن يكون لفظ الرسول ﷺ هي رواية «ومسجدي هذا» لما فيه من الإشارة المفيدة للتأكيد من أن ذلك من قول الرسول ويكون ما عداها من قبيل التصرف من الرواة لدخوله تحت جواز الرواية بالمعنى، ومثل هذا لا يترتب عليه أي ضرر ما من جهة استنباط الحكم أو المعنى، وأيا كان التعبير «مسجدي هذا» أو «مسجدي» أو «مسجد الرسول ﷺ» فالحكم لا يختلف.

وفي قوله ﷺ: «ومسجد الرسول ﷺ» من التفخيم، والتكريم لشأن المسجد النبوي ما فيه، فكأنه قال: والمسجد المنتسب إلى الرسول الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين والذي أخرجكم من الظلمات إلى النور: من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الجاهلية وخرافاتها وضيقها، إلى نور الإسلام، وسماحته، ويسره «ومسجد الأقصى» وفي الرواية الأخرى «ومسجد إيلياء».

المراد بالمسجد الأقصى هو مسجد بيت المقدس، و«إيلياء» هي القدس فلا خلاف بين التعبيرين، ووصف بالأقصى، لبعد المسافة بينه وبين البيت الحرام الذي هو أول بيت وضع مشرفا في الأرض، وقيل: لبعده عن الأقذار والخبائث الحسية والمعنوية وليس هذا بالوجه المقبول في تعليل الوصف بالأقصى، لأن الكعبة البيت الحرام كذلك منزهة عن الأقذار والخبائث، وصدق الله تبارك وتعالى حيث قال: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ

وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥).

والإضافة في قوله: «ومسجد الأقصى من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، ومثل ذلك في الكتاب المعجز المبين، قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (القصص: ٤٤).

● ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب

هذا الحديث ظاهر الدلالة على فضيلة المساجد الثلاثة على غيرها من المساجد، وفضيلة شد الرحال إليها، وتحمل الأسفار، والمشاق، والمتاعب في سبيل زيارتها والصلاة فيها، والتعبد بها، والمساجد بعامة وإن كانت أشرف البقاع في الأرض إلا أن هذه الثلاثة لها من الخصائص والمميزات ما ليس لغيرها من المساجد الأخرى، وإليكم بيان هذه الخصائص:

أن كل مسجد من هذه المساجد الثلاثة قد بناه نبي من الأنبياء والمرسلين.

فالكعبة المشرفة قد بناها أبو الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعاونه ابنه الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال عز شأنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٧-١٢٩).

وقد استجاب الله الدعاء، فقد تقبل عملهما وبارك فيه غاية البركة، فكان ما بناه مثابة للناس وأمنا، يثوبون إليه من كل أطراف الدنيا، فيجد فيه الخائف أمنته والمستجير ملاذه، والمتعبد ما يقضي حاجات نفسه، والداعي استجابة دعائه وتقبل الله دعاءهما فكانت هذه الأمة المسلمة التي هي من ذريتهما هي الأمة الإسلامية، وكان النبي المبعوث فيها هو نبي آخر الزمان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فتلا عليهم القرآن، وعلمهم الكتاب والحكمة، وزكاهم بأن أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وأما المسجد الأقصى فالذي بناه هو الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ويكون الخليل بعد أن بنى الكعبة البيت الحرام أمره الله تعالى ببناء بيت المقدس، وقيل بناه حفيده يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والسلام.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان بسندهما عن أبي ذر ﷺ قال «قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولا؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد».

فجائز جدا أن يكون الخليل بعد أن بنى الكعبة بمعونة ابنه إسماعيل أمره الله بعد أربعين سنة من بناء الكعبة ببناء بيت المقدس، أو يكون ابنه إسحاق، أو حفيده يعقوب قد قام ببناء بيت المقدس بعد بناء الكعبة بأربعين عاما.

ولا يشكلن على القراء الكرام ما اشتهر من أن باني بيت المقدس هو سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام، لأن سليمان لم يكن بانيا له من الأصل وإنما كان مجددا فمثله كمثل من جددوا بناء الكعبة بعد بناء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأما المسجد النبوي بالمدينة فبانيه هو خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وأصحابه الغر الميامين، وهذا أمر ثابت في الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما من كتب الأحاديث، والسنن، والمسانيد، وهذا أمر نقله الخلف عن السلف حتى بلغ حد التواتر المفيد للقطع واليقين، وللمسجد النبوي في قلب ونفس وشعور كل مسلم ذكريات، وذكريات لا يكفي في بيانها مقال، ولا بضعة مقالات، وإنما هو أمر يحتاج إلى كتاب برأسه.

وإذا كانت المساجد الثلاثة المشرفة بهذه المثابة، وبهذه المنزلة الكريمة، ولها ذكريات حبيبة إلى قلب كل مسلم ومسلمة فهي جديرة بأن تشد إليها الرحال، وأن يعكف على العبادة فيها من يشاء، ففي ساحاتها تسكب العبرات، وتستجاب الدعوات، وتتنزل الرحمات، وتنفح الأعطيات، وإن لله تبارك وتعالى في أيام دهركم لنفحات، فتعرضوا لها.

ترغيب الشباب في الزواج

العدد (١٩٨) جمادى الآخرة (١٤٠١هـ) - أبريل (١٩٨١م)

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا فقال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».
(صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فعليه بالصوم).

● تخريج الحديث

هذا الحديث رواه الإمام مسلم أيضا في صحيحه، فهو متفق عليه (كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنة..)

وفي بعض روايات الإمام مسلم بزيادة في آخره، وهي: «فلم ألبث أن تزوجت».

● الشرح والبيان

راوي هذا الحديث هو عبد الله بن مسعود، فمن يا ترى يكون ابن مسعود؟

هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل ينتهي نسبه إلى هذيل، وأمه هي أم عبد بنت سواء، وهي هذلية أيضا.

وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكذلك أسلمت أمه قديما وكانا كثيرا ما يغشيان بيوت أزواج النبي ﷺ للخدمة وقضاء الحاجات حتى كان يظن من

يراهما أنهما من آل بيت الرسول ﷺ .

وابن مسعود - على ضآلة جسمه، وضعف عصبيته - هو أول من جهر بالقرآن في مجامع صناديد أهل الشرك، وقد آذوه غاية الأذى، ولكنه لم يعبأ بالإيذاء، وقال للنبي وأصحابه: لئن شئتم لأغادينهم بها - يعني لأقرأن عليهم سورة الرحمن في الغد ولكنهم قالوا له: حسبك ما فعلت، وهذا يدل على أنه كان يحمل قلبا مؤمنا حقا، لا يَرْهَب أحدا من زعماء الشرك، ويستعذب الأذى والهوان في سبيل الله وفي سبيل رسوله، صاحب الدعوة ﷺ ، وهذا الضعيف في جسمه، القوي في إيمانه هو الذي أجهز على فرعون هذه الأمة، أبي جهل - لعنه الله - وعلاه وهو في سكرات الموت، واحتز رأسه وهو يقول له : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم!!وهكذا لم يتخل عن فرعونيته حتى وهو مجندل على الأرض خاسئ ذليل حقير .

وكان كثير الملازمة لرسول الله ﷺ وهو صاحب السواك، والمطهرة والوساد والنعلين يحملهما في ساعديه إذا خلعهما النبي ﷺ، ويلبسهما إياه إذا أراد السير. وهو يدل على مبلغ حب الصحابة للرسول وتكريمهم له.

وكان من أحفظ الناس للقرآن وقد عده النبي ﷺ أحد أربعة ممن يؤخذ منهم القرآن، كما كان من أعلم الناس بعلوم القرآن ولا سيما المكي، والمدني، وأسباب النزول، روي ذلك في الأحاديث الصحاح كما كان من أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ، له في الصحيحين وغيرهما أحاديث كثيرة. وبعد هذه الحياة الحافلة بالصحبة والجهاد والعلم ونشره كانت وفاته سنة اثنتين وثلاثين للهجرة فرضي الله عنه وأرضاه.

قول ابن مسعود: «كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا» .

المراد بالمعية هنا المصاحبة على الهدى والخير، والحق، والبر، والتعاون على نشر الدعوة إلى الله وإلى الإسلام و «شبابا» جمع شاب، وغرضه : هو ومن كان معه ممن هم على شاكلته من شباب الإسلام «لا نجد شيئا» يعني نتزوج به، فقال لهم النبي : «يا معشر الشباب. . .».

المعشر هم الجماعة الذين يشملهم وصف ما، يقال للشباب معشر، وللأنبياء معشر وللعلماء معشر، وهكذا.. والشباب: جمع شاب، ويجمع أيضا على شببة - بفتح الشين والباءين الموحدتين - وشبان - بضم الشين وفتح الباء المشددة.

والشاب: هو من حين البلوغ إلى سن الثلاثين، وقيل: إلى الثانية والثلاثين، ومن الثلاثين إلى الأربعين يقال له: كهل وما زاد على الأربعين يقال له شيخ، وهذا في عرف اللغة العربية الشريفة وأما في غير اللغة فللناس فيه أعراف أخرى، فقد يطلق على الشاب أو الكهل إذا كان من أهل الدين والعلم والمنزلة في قومه وخص الشباب بالخطاب، لأن الغالب وجود القوة الدافعة لهم إلى النكاح فيهم بخلاف الكهول والشيوخ. وإن كان هذا المعنى معتبرا إذا وجد الداعي إلى الزواج في الكهول والشيوخ أيضا. «من استطاع منكم الباءة فليتزوج».

الباءة - بالباء الموحدة بعدها همزة، آخره تاء تأنيث - ويقال أيضا: الباه - بالمد بلا همز - ويقال أيضا: الباء - بمد الباء وبهمزة بدون هاء - ورابع اللغات «الباهة» بإبدال الهمزة هاء، والباءة مأخوذة في اللغة من الباءة وهي المنزل ومنه مباءة الإبل، وهي مواطنها، وقيل لعقد النكاح باءة لأن عادة العرب أن من تزوج امرأة بنى لها منزلا.

وقد اختلف العلماء في المراد بالباءة على قولين:

الأول: أن المراد بالباءة مؤن النكاح من مهر، ونفقة وإسكان ونحوها وعلى هذا يكون المعنى من استطاع منكم يا معشر الشباب مؤن النكاح فليتزوج، ومن لم يستطع مؤن النكاح ومستلزماته فلا يتزوج وعليه بالصوم فإن الصوم يضعف الشهوة ويحد من سلطانها ويكفكف من غلوائها.

الثاني: ومنهم من قال، المراد بالباءة القدرة على المباشرة .. والقيام بحقوق الزوجة بعد الزواج، وقد نوقش هذا القول بأنه غير مستقيم في المعنى، لأن من ليست له قدرة على المباشرة الزوجية ليس في حاجة إلى الصوم ليحول بينه وبين الاستجابة للشهوة، والعمل بمقتضاها وإلا كان الصوم غير مفيد ولا ناجع لأنه وعدمه سيان بالنسبة لمن ليست له قدرة.

والذي عليه المحققون : أن المراد بالباءة مجموع الأمرين معا : القدرة على المباشرة، والقدرة على مؤن النكاح ومتطلباته، وبذلك يستقيم معنى الحديث ويكون المعنى ومن لم يستطع فعليه بالصوم لكسر الشهوة وإضعاف سلطانها على النفس وليس من شك في أن الصوم يفيد الشباب الذين لم تتوافر لهم وسائل النكاح، وفي الوقت ذاته هو عبادة مشروعة وبذلك يستفيد من الصوم فائدتين: الأولى تهذيب النفس وتأديبها والحيلولة بينها وبين الوقوع في المعصية بسبب عدم الزواج، والثانية : كونها عبادة تقرب صاحبها إلى الله وتغلب الجانب الروحي في الإنسان على الجانب المادي فانظروا - يا رعاكم الله - إلى تشريعات الإسلام الحكيمة !!وقد علل الرسول الكريم أمر الشباب بالتزوج بقوله «فانه أغض للبصر وأحصن للفرج».

وأغض وأحصن فعلا تفضيل والمعنى أن التزوج أشد غضا للبصر عن الامتداد إلى الحرمات وأشد إحصانا للمرء من الوقوع في الفاحشة، وليس من شك في أن المتزوج عندما يحمله على الغض وهي زوجته، فإذا كان ولا بد فلينظر إليها وإن تاقت نفسه إلى النساء فعنده زوجته يقضي معها حاجته، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا حينما قال : «إذا رأى أحدكم امرأة حسناء، فأعجبته فليأت أهله - فإن البضع واحد، ومعها مثل ما معها» (رواه الخطيب بلفظه ومسلم بمعناه).

ولن تجدوا - وأيم الحق - أنجع من هذا الدواء النبوي الكريم لمثل هذه الحالة، وقد بلغ الفصيح البليغ ﷺ الغاية في الأدب القولي والأدب النفسي بهذا الحديث الموجز البليغ الذي تنطق به العذراء في خدرها فلا يخدش حياءها، ولا تجد حرجا فيما تفوه به وهي قدرة في التعبير انفرد به النبي المعلم المربي المؤدب ﷺ.

قوله ﷺ: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» وفي رواية الطبراني «ومن لم يقدر على ذلك فعليه بالصوم» وهما بمعنى واحد وقد قال العلماء إن في هذا الأسلوب النبوي البليغ «فعليه بالصوم»، إغراء للغائب وهو مما اختلف فيه علماء اللغة، وعلماء النحو، لأن الإغراء إنما يكون للحاضر لا للغائب.

والحق أن هذا الأسلوب الفصيح البليغ ليس من إغراء الغائب، وإنما هو من إغراء المخاطبين الحاضرين الذين خاطبهم ﷺ بقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» فالهاء في قوله: «فعليه» ليست للغائب وإنما هي لحاضر ولكنه مبهم، إذ لا يصح خطابه بالكاف فيقال: فعليك بالصوم فإن من يختار الصوم منهم مبهم غير معروف، فلذلك حسن الإتيان به على صورة الغائب ومثل ذلك من الكلام المعجز المبين قوله تعالى ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ بعد قوله عز شأنه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ (البقرة: ١٧٨) فلله در كلام الله، وكلام رسوله ﷺ !!!

«فإنه له وجاء» هذا الكلام من التشبيه البليغ يعني فإنه له كالوجاء والوجاء - بكسر الواو - هو في الأصل بمعنى الطعن، يقال: وجأه بالسيف إذا طعنه، والمراد به هنا: رض الأنثيين حتى تنقطع العروق التي توصل المادة المنوية وبذلك يفقد الحيوان شهوته فيسمن جسده ويطيب لحمه، وأما الخصاء فهو شل الأنثيين وإخراجهما فالوجاء ليس هو الخصاء، ومن فسره به فقد تساهل، ويزيد من روعة هذا التشبيه البليغ أن المخاطبين كانوا يعرفون الوجاء والخصاء غاية المعرفة، ومراعاة أحوال المخاطبين عماد البلاغة في اللغة العربية الشريفة لغة القرآن والسنة.

● ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب والتوجيهات

(١) أن الزواج سنة من سنن الفطرة، وأنه في حق الشاب أو الرجل القادرين الموسرين اللذين ليست عندهما موانع شرعية، ويتيقن كل منهما أو يغلب على ظنه غلبة الوقوع في الفاحشة فرض أو واجب، وعلى الشاب الذي يسافر إلى البلاد التي تعم فيها الفاحشة ويتسهل له الوقوع فيها، أن يتزوج قبل أن يسافر ليحصن نفسه من الوقوع في الفاحشة.

وفي حق من يخشى على نفسه التعرض للفتنة ولا يتحقق ذلك ولا يغلب على ظنه، مسنون مستحب لقوله ﷺ: «فليتزوج» وأدنى ما يحمل عليه الاستحباب والسنية، وفي حق من يعلم من نفسه عدم القدرة على المباشرة

أو عدم القدرة على مؤن النكاح والنفقة حرام، وفي حق من يترجح عنده عدم القدرة أو عدم القيام بحقوق الزوجية مكروه وفي حق من يستوي في حقه الزواج وعدمه إن كان تقيا أو مشتغلا بعلم أو تأليف شغله عن الوقوع في الحرام، بل وعن التفكير فيه - هو مباح، ومن ثم نرى أنه تعتريه الأحكام الخمسة.

(٢) الوجاء، والخصاء لا يجوز بالنسبة للإنسان، لما يترتب عليه من قطع النسل الذي يترتب عليه خراب الأرض، وعدم عمارتها، وكذلك كل ما كان في معناهما كالعمليات التي يجرونها الآن لتعقيم الرجال، أو لتعقيم النساء، فكل هذا حرام في الإسلام وفي حكم الله وشرعه، وقد يسألني سائل فيقول : وما رأيك في تناول الدواء لهذا الغرض؟

والجواب : إن الدواء قسمان: دواء يقطع الشهوة ويقضي عليها وهذا لا يجوز، ودواء يسكن الشهوة ويضعفها ولا يقطعها، وهذا يجوز لأنه في معنى الصوم الذي يضعف الشهوة ويكسرها ولا يقطعها.

(٣) وأما الخصاء أو الوجاء للحيوان فالحيوان إما أن يكون غير مأكول اللحم، أو مأكول اللحم أما الأول فلا يجوز حتى لا ينقرض النوع والله تبارك وتعالى لم يخلق شيئا في هذه الدنيا إلا لحكمة ومصلحة، وأما مأكول اللحم فيجوز اخصاؤه في صغره رغبة في السمن وطيب اللحم، ولا يجوز في كبره لما فيه من تعذيب الحيوان، والإسلام رحيم بالحيوان، كما هو رحيم بالإنسان، وفي الحديث الصحيح: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» والقتلة - بكسر القاف اسم هيئة والمراد الذبح المشروع ومما ينبغي أن يعلم أن الخصاء لا يكون على سبيل التعميم وإلا لانقطع نسل الحيوان وحينئذ فلا يجوز.

(٤) استدل بعض العلماء بهذا الحديث على تحريم الاستمناء لأنه ﷺ أرشد عند العجز عن التزوج إلى الصوم فلو كان الاستمناء مباحا لكان الإرشاد إليه أسهل وهو استدلال حسن وقد أباحه بعض العلماء لأجل تسكين الشهوة

وعدم الوقوع في الفاحشة، والحق هو عدم الإباحة وقد ذكر بعض الأطباء الحذاق أن الاستمناء له أضرار كثيرة وقد يفضي إلى أمراض خبيثة كالأمراض الصدرية وكثيرًا ما يؤدي إلى أن يفقد الشباب القدرة على المباشرة بعد الزواج، ومن قواعد الشريعة المؤكدة أنه «لا ضرر ولا ضرار» ولم أستدل بالحديث المشهور «ناكح يده ملعون» لأنه حديث ضعيف لا يقوم به الاحتجاج.

(٥) أن الرهبانية في الإسلام غير مشروعة والرهبنة هي ترك التزوج واعتزال الدنيا وملازمة الصوامع والشريعة الإسلامية هي الشريعة السمحة الموائمة للفطر، وطبائع البشر، ولو ترهب الناس جميعا فمن الذي سيعمر الأرض؟! وفي الحديث الذي رواه الطبراني بسنده من حديث سعد بن أبي وقاص قول رسول الله ﷺ: «إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة» وأما الحديث المشهور على الألسنة «لا رهبانية في الإسلام» فلا أصل له ولم يثبت وإنما الثابت هو حديث الطبراني فليعلم ذلك من يزعمون أنه حديث.

(٦) التزوج لأجل إكثار النسل أمر مشروع ومرغوب فيه في الإسلام وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها حديث: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم يوم القيامة» وهو حديث أخرجه ابن حبان، وقال الحافظ ابن حجر: إنه حديث صحيح ومنها ما رواه البيهقي من حديث أبي أمامة: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى».

والدعوة إلى تحديد النسل وتقليله بين المسلمين دعوة في أصلها استعمارية يقصد بها الحد من هذه الكثرة الكاثرة في الأمة الإسلامية ثم تطورت فلبست ثوب الاقتصاد وحماية العالم من المجاعة وحصل بها تلبيس على كثير من المسلمين وليسأل هؤلاء الذين يدعون إلى هذه الدعوة الفاشلة أنفسهم: هل استنفذوا المنافع والوسائل التي أودعها الله في الأرض - وما أكثرها - وهي تكفي لكل من في الأرض وأكثر منهم؟ إن كثيرا مما استودع في أرض الله لا يزال بكرا لم تمسسه يد مستثمر وما استفيد به منها لم

يحسن استغلاله وما استغل أصبح نهبا مقسما بين المشتغلين والمنتفعين بل الكثير من موارد البلاد الفقيرة المتخلفة اقتصاديا إنما ينتفع بها غير أهلها!! أليس كذلك؟! بلى والله!!

(٧) أن على البلاد الإسلامية والعربية الغنية في الثروات والموارد أن تعمل ما استطاعت على تكثير النسل بين أهلها حتى يوجد من أبنائها من يدافعون عنها في هذا العالم الذي لا يخضع إلا للقوة، إن الموارد الكثيرة من الرجال خير من الموارد من المال والرجال هم الذين يأتون بالمال، والمال عاجز عن توفير الرجال وصدق الله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت: ٩-١٠).

٨ مقالات

الشيخ علي الطنطاوي

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- نحن والحضارة الغربية.

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) اكتوبر (١٩٦٥م).

٢- سبحان مقسم الأرزاق.

العدد (٩) رمضان (١٣٨٥هـ) يناير (١٩٦٦م).

٣- دليل الحاج.

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

٤- عام جديد.

العدد (١٣) محرم (١٣٨٦هـ) - إبريل (١٩٦٦م).

٥- عبرة من تاريخنا.

العدد: (١٨) جمادى الثانية (١٣٨٦هـ) سبتمبر (١٩٦٦م)

٦- زورق الأحلام.

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) - يناير (١٩٦٧م).

٧ - ما هي السماء.

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) - إبريل (١٩٦٧م).

٨- أربع قواعد للإيمان.

العدد (٣٥) ذو القعدة (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ علي الطنطاوي

● **مولده:**

ولد الشيخ علي مصطفى محمد الطنطاوي في مدينة دمشق في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٢٧هـ - ١٢ يونيو ١٩٠٩م من أسرة علم ودين، فأبوه الشيخ مصطفى الطنطاوي من أهل العلم، وجده الشيخ محمد الطنطاوي عالم كبير، وخاله الأستاذ محب الدين الخطيب الكاتب الإسلامي الكبير والصحافي الشهير.

التحق بكلية دار العلوم في مصر، إلا أنه لم يكمل دراسته، وعاد إلى دمشق ليلتحق بكلية الحقوق التي تخرج منها عام ١٩٣٣م، ثم عمل مدرساً في العراق، ولما عاد إلى دمشق عمل قاضياً شرعياً، وتدرج في الوظائف التعليمية والقضائية حتى بلغ فيها مكانة عالية.

هاجر رحمه الله إلى المملكة العربية السعودية ١٩٦٣م فعمل مدرساً في كليتي اللغة العربية والشريعة في الرياض ومكة المكرمة، وقدَّم العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، وحقق العديد من كتب التراث، وله العديد من المؤلفات منها:

«ذكريات، فتاوى، تعريف عام بدين الإسلام، أبو بكر الصديق، الجامع الأموي في دمشق، من نفحات الإسلام، أعلام التاريخ، القضاء في الإسلام، قصص من الحياة»

● **وفاته:**

توفي رحمه الله يوم الجمعة، الثالث من ربيع الأول ١٤٢٠هـ، الموافق للثامن عشر من حزيران، عام ١٩٩٩م بجدَّة، دفن في مقبرة العدل بمكة المكرمة في اليوم التالي بعد ما صُلِّي عليه في الحرم المكي الشريف.

نحن والحضارة الغربية

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) أكتوبر (١٩٦٥م)

زرت الرياض من سنتين، بعد غيبة عنها امتدت ثلاثين سنة، فتفضل جماعة من طلبة العلم فاستقبلوني في المطار، وصحبوني إلى البلد، وسلكت السيارة شارع الوزارات، تمر بتلك المغاني (الفيلات) الجميلات، وتلك الأبنية الكبيرات المشرفات، وأنا أنظر إليها نظر المندهش الذي يفاجأ بما لم يكن يتوقع، فقد كان عهدي بتلك البقاع أنها صحراء جرداء، ما فيها نبت ولا ماء، وليس فيها من بناء، وأراها الآن شارعا ضخماً في وسط حديقة ممتدة فيها الورد والزهر، وفيها أنواع الشجر، والماء يجري فيها متدفقاً من الأنابيب، والعمارات على جانبيها، والسيارات تجري على طرقها.

وكان أصحابي كلما رأوني أزداد دهشة ازدادوا اندفاعاً في الوصف ومبالغة في البيان.

ثم قال لي واحد منهم وقد أخذته نشوة كل دليل يطلع الغريب على جمال بلده:

أهذه أول مرة ترى فيها الرياض؟

قلت: إني أعرفها من قبل أن تولد، ولكن ليست هذه هي الرياض التي أعرفها، وكانت السيارة قد بلغت بنا «الديرة» وصرنا في جوار المسجد الكبير، فتهلل وجهي وأحسست مثل ما يحسه الغريب الضال، اذا أبصر في زحمة الناس وجه حبيب يعرفه ويألفه، وصحت:

هذه هي الرياض التي أعرفها، هذه الأسواق الضيقة وهذه المنازل المبنية من اللبن والطين، إن لي هنا ذكريات، والذكريات هي الحياة، أما تلك الشوارع التي

مررنا بها بعد المطار، فليس لي فيها ذكرى، فهي على جمالها غريبة عني، وهذه على ما هي عليه أحس كأني منها أو كأنها مني.

وأعجب هذا الكلام أحد الجماعة وأثار كمائن نفسه فقال:

- أي والله، هذه هي بلدنا وهذه حياتنا، فيا ليت هذه المدنية الغربية لم تصل إلينا ولم نرها، إن هذه البيوت المبنية من الطين التي لا تنيرها الكهرباء، ولا تصل إليها السيارات، وليس فيها البرادات ولا الغسالات، خير من تلك العمارات وما فيها، لقد أفسدت هذه المدنية أخلاقنا، وأضاعت علينا ديننا وما جاءنا منها إلا الشر، وانبرى له آخر، فقال له:

- أتريد منا أن نعود إلى عهد البداوة، في عصر الذرة والصاروخ، وأن ندع ثمرات الحضارة، ونعيش محرومين منها، على حين يستمتع الناس من حولنا بها؟

إنها مدنية العصر، ليست لأمة دون أمة، ولا لبلد دون بلد.

وكثر المتكلمون وتداخلت الأصوات، ولكن الأقوال كلها كانت تتردد بين رأيين:

هل علينا أن نأخذ بهذه المدنية بكل ما فيها، ونقبلها بخيرها وشرها، لأنه لابد منها، ولا انفكاك عنها، أم إن علينا أن نتركها ونبتعد عنها، لأنها لا توافق أحكام ديننا، ولا تمشي مع خلائقنا، ولأن الإسلام ينكر الإقبال عليها والأخذ بها.

أنا رجل من المخضرمين، عرفت هذه البلاد قبل أن تتصل بها الحضارة الغربية، وعرفتها بعدها.

لقد زرت «جدة» أيام كانت جدة محاطة بسور له أبواب تغلق كل عشية، وتفتح في النهار، ولا يدخل إليها ولا يخرج منها إلا من هذه الأبواب، وعرفتها وقد أوشكت أن تصير مثل الإسكندرية أو بيروت.

وعرفت دمشق وما فيها سيارة واحدة وما فيها إلا عشرون داراً فيها الكهرباء وليس فيها إلا شارع واحد شقه جمال باشا سنة ١٩١٦، أما الراد (الراديو)

والرائي (التلفزيون) وأمثالهما، فلم يكن قد اخترع من ذلك شيء.

وعرفت الرياض سنة ١٩٣٥، والرياض التي ترونها الآن، وإني لأفكر وأوازن بين الحالين وأسأل نفسي: هل ربحنا أم خسرنا؟

أي الفريقين أهدى وأصوب رأيا: من يريد منا أن نأخذ بهذه الحضارة أخذا كاملا، أمن يريد أن نتركها وننصرف عنها؟

الحق. الحق بين الفريقين فلا هؤلاء على حق ولا هؤلاء، لقد ربحنا باقتباسنا من هذه الحضارة وخسرنا، وكل شيء في الدنيا فيه ربح وفيه خسارة.

إن هذه الحضارة ليست شرا محضاً، وليست كذلك خيرا محضا، فالقول بأن نتركها كلها مردود، والقول بأن نأخذها كلها مردود.

وهل نستطيع أن نتركها بعدما انغمسنا فيها، وصارت هي عماد حياتنا؟ إن من يطلب ذلك يطلب ما لا يكون، ولو نحن استطعنا تركها فهل من المصلحة أن نتركها؟

أيريد هؤلاء أن نغلق المستشفيات، ونطرد الأطباء وأن نلغي شركة الخطوط الجوية ونبيع طياراتها، وأن نذهب إلى الحج من الرياض إلى مكة على الإبل فنمضي على الطريق عشرين يوماً بدلا من أن نذهب في ساعة وبعض الساعة في طيارة البوينغ، وأن نحل شركة الكهرباء ونرفع أسلاكها من الشوارع، ونرجع إلى الشمع وسرج الزيت، وأن نحارب اليهود بالسيف والرمح بدلا من المدفع والصاروخ؟

ولماذا نفعل ذلك؟

أما الإسلام فلا يوجب علينا أن نترك هذه الحضارة بكل ما فيها، فلا تحتجوا بالإسلام.

الإسلام قد حرم محرمات وفرض فرائض، وترك أموراً على الإباحة الأصلية، فما حرمه الإسلام نتركه، ولو أجمع أهل الأرض على قبوله والعمل به، وما أوجبه نأتيه، ولو اتفق سكان المعمورة على استنكاره والإعراض عنه، وما كان من المباحات مما لم يدع الإسلام إلى الأخذ به ولا إلى تركه، ننظر فإن

كان فيه نفع لنا أخذناه لأن الحكمة ضالة المؤمن، ولأن المصلحة العامة هنا مقصد من مقاصد الشارع، وفي مثل هذا لا فيما ورد فيه النص[١] يقول ابن القيم[٢]: إن الحكم الشرعي يدور مع المصلحة فحيثما تحققت فثم شرع الله، ولأن علينا أن نعمل لدنيانا كما نعمل لآخرتنا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ثم إننا لسنا غرباء عن هذه الحضارة، ولا واغلين عليها بل نحن شركاء فيها، نحن من أصحابها.

إن الحضارات نوعان كما قسمها «شينكلر» في كتابه المشهور: حضارات محلية كحضارات الهند والصين، وحضارة عالمية، والحضارة العالمية بناء من ثلاثة أدوار اشترك فيه ثلاثة بانين.

أما الدور الأول فقد بناه المصريون والفينيقيون واليونان، ومن شاركهم فيه وأعانهم عليه.

والثاني بناه المسلمون.

والثالث بناه الغربيون.

وكل دور منها يقوم على ما تحته فلولاه ما قام.. فنحن شركاء في هذه العمارة لنا فيها دور من ثلاثة ولسنا مستأجرين ولا مستجدين ولا معتدين، نحن من أصحاب الدار.

ولكن ليس معنى هذا أن نقبلها بكل ما فيها.. إن فيها شروراً كثيرة ومفاسد مردها جميعا إلى أصلين:

أحدهما ما تحمله من أفكار ومبادئ، فيها ما يزيغ المؤمن عن شرعة الحق وما يضله عن سبيل الهدى.

---

(١) كما ظن - خطأ -الأستاذ الجليل عبد الوهاب خلاف في كتابه «السياسة الشرعية».

(٢) وهو ابن قيم الجوزية، وكثير من الناس يخلطون بينه وبين ابن الجوزي مع أن ابن الجوزي بغدادي، وهذا شامي، والجوزية مدرسة بناها ابن الجوزي.

والثاني وهو أشد وأنكى ما يغلب على هذه الحضارة من تهاون بمسائل الجنس وإطلاق للشهوات، وهو أشد، لأن الأول وإن كان فيه الكفر أحياناً، لا يجد عند كل شاب استعدادا لقبوله، أما الثاني فإنه يجد القبول في كل نفس لأن الله ركب في نفس كل شاب الميل إلى المرأة، فمن عمد إلى إثارة الشهوات وأيقظ الغريزة، استهوى بذلك الشباب جميعاً، إلا من عصم الله بعصمته، وقليل ما هم، بل أقل من القليل.

فإذا أردنا أن نصحح موقفنا من هذه الحضارة، فلنصنع مثل الذي صنع أجدادنا لما اتصلوا بالفرس وغيرهم من الشعوب ذوات الحضارات الأولى.

وإنهم أخذوا من حضاراتهم وعيونهم مفتحة، وعقولهم حاضرة، وميزان الشرع في أيديهم، لم يأخذوها عمى ولا تقليداً، ولم يقلدوا أهلها تقليد القردة بلا نظر ولا علم.

هذا هو الحق وهذا هو طريق الاعتدال لا إفراط ولا تفريط، فما كان فيها من مخترعات نافعة وما كان من تقدم علمي، وما كان من رفاهية وراحة ليس فيها محرم نأخذه كله.

وما كان فيها من تهاون بالفضائل والعفاف، وإطلاق للغرائز والشهوات، وتسهيل للزنا، وتصعيب للزواج وهذه القصص التي فيها الأدب المكشوف، والأفلام التي تعلم الناشئة فنون الغرام، وطرق الإجرام نتركه كله، كما نترك كل فلسفة وكل علم وكل مذهب اجتماعي ينافي أحكام ديننا.

ولابد من تفصيل لهذا الإجمال يأتي - إن شاء الله - فيما سيجيء من المقال.

سبحان مقسم الأرزاق

العدد (٩) رمضان (١٣٨٥هـ) - يناير (١٩٦٦م).

فكرت اليوم في أمر الرزق، فوجدت أمر الرزق عجيباً، كل امرئ يأكل رغيفه، لا يبيت أحد جائعاً ولكن كلا يجد رغيفه في مكان.

الموظف جعل الله رغيفه على مكتبه، يقعد على كرسيه يدخن دخينته ويترشف قهوته، ويمد يده فيأخذه. ومنهم من يكون ساكناً في مكة (مثلاً)، ورغيفه في جدة، فهو يذهب كل يوم، يقطع أكثر من سبعين كيلا[1] ليأتي به ويرجع، فإذا لم يذهب إليه لم يأخذه.

ومنهم من يكون من أهل الشام أو مصر، ولكن الله يضع له رغيفه، في بعض السنين في الكويت أو في الرياض... والطيار وضع رغيفه فوق السحاب وقيل له: اصعد لتأخذه، والغواص وضع رغيفه في أعماق البحار وقيل له: انزل لتأخذه، وعامل المنجم رغيفه في بطن الأرض، أو في وسط الصخر الصلد، لا يصل إليه حتى يفجره بالديناميت.

والعطار يتناوله بيد مضمخة بالعطر، والزبال يتناوله بيد ملطخة بالزبل.

ومن يأكله هنيئاً مريئًا، ومن يأكله ليحاسب عليه من بعد حساباً عسيراً، وقد يصلى به سعيراً.

ومن الناس من يكون مثل **أمين الصندوق** في المصرف، تحت يده مئات الآلاف، وماله منها آخر الشهر إلا خمسون ديناراً، وهو الغني البخيل، تكون عنده الأموال الطائلة، ويعيش هو وأهله على القليل فهو «أمين صندوق» يحفظها

(١) الكيل وجمعه أكيال، مثل الميل والأميال، تعريب كيلو متر.

ليستمتع الورثة من بعده بها، ويكون عليه حسابها.

ومن يكون مثل «المعتمد المالي» أعني الموظف الذي يوكله إخوانه في الدائرة باستلام الرواتب من الخزانة وتوزيعها، وهذا هو الغني الذي يلهمه الله الإنفاق على الفقراء، إنه يعطي كلا رزقه لا يعطيه من رزق نفسه، فهو كالمعتمد، ولكن الموظف المعتمد يكون جزاؤه كلمة شكر، وربما حرموه من كلمة الشكر وهذا المحسن يوصل إلى الفقراء أرزاقهم، ويكون له عن كل مائة دينار يوزعها سبعون ألف دينار: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ (البقرة: ٢٦١).

* * *

ومن يكون حافظاً لمال والمال مقسوم لغيره

حدثني مرة الشيخ صادق المجددي سفير الأفغان سابقاً في مصر، أنه كلف مرة بمهمة سياسية عاجلة في روسيا، وخاف أن يمر ببلد لا تؤكل ذبيحة أهله شرعاً، وكان عنده دجاجتان فأمر بذبحهما، واتخذت له زوجته سفرة[1] منهما، حملها معه، فلما وصل إلى طاشقند[2] دعاه شيخ مسلم. فكره أن يأخذ الدجاجتين معه إلى دار الشيخ، ورأى في طريقه امرأة مسلمة فقيرة معها أولادها، ورأى الجوع بادياً عليهم وعليها، فدفع إليها الدجاجتين.

فلم تمض ساعة حتى جاءته برقية أن ارجع فقد صرف النظر عن «المهمة» فكانت هذه الرحلة لأمر واحد هو أن الدجاجتين كانتا في داره ولكنهما ليستا له ولا لأهله، إنهما لهذه المرأة وأولادها، فطبختهما زوجته وحملهما بنفسه أربعة آلاف كيل ليوصلهما إليها.

وقرأت مرة ولست أذكر الآن أين قرأت، خبر رجل تاجر كان في بغداد على عهد الموفق وابن طولون فأضاق وافتقر حتى نقض داره وباع أنقاضها، ولم يبق

(١) السفرة زاد المسافر.

(٢) وكانت تسمى الشاش ومنها الشاشي الكبير والشاشي الصغير الفقيهان الشافعيان.

له شيء، فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له: اذهب إلى مصر، إلى حارة كذا، في جهة كذا، يأتك الرزق، فلم يلق لذلك بالا، فعاودته الرؤيا، مرات، كل مرة يجد هذا القائل، ويسمع منه هذا القول، فاستدان من المال ما استطاع السفر به إلى مصر، فلما وصلها سأل عن الجهة والحارة والدار، فإذا هي دار صاحب شرطة أحمد بن طولون، فقبض عليه، وقال له أنت جاسوس للموفق، وضربه عشرة مقارع ليقر، وهو يتنصل، ويقول: ما أنا بجاسوس.

قال له: فما الذي جاء بك إلى داري.

فقص عليه القصة، فضحك منه وقال له: أنت مجنون، أنا من شهور أجد في المنام من يقول لي أن في دار فلان التاجر في بغداد تحت الشجرة جرة فيها خمسة آلاف دينار، فلا أبالي، وأنت تسمع كلمة في المنام، ولعل رؤياك من أضغاث الأحلام، فتصدق؟

وكانت الدار التي ذكرها صاحب الشرطة داره هو فعاد إلى بغداد، واستخرج الجرة من تحت الشجرة...

* * *

والرزق ليس المال وحده، وقد يُعطَىٰ الرجل المال الوفير، ويحرم ما هو أحب إليه، وأعز عليه من المال.

أما سمعتم قصة السيد الغني الذي كان له القصر الفخم، ومن حوله الخدم والحشم، وكان في صندوقه الذهب والجوهر، ولكنه كان مريضاً قد اصطلحت عليه أضداد الأمراض، اجتمعت عليه على حين لا يجتمع الضدان وربطته بسريره سنوات، فاشتهى يوماً أن يرى بستان قصره فنحوا سريره حتى واجه النافذة، فنظر فرأى الفلاح وزوجته وولده، قد افترشوا التراب، ووضعوا أمامهم صحن الفول المدمس[1] وعصروا عليه الليمون، ونقطوا عليه زيت الزيتون، وهرسوا بصلات، فجعلوا منها في الخبز الحار الخارج لتوه من التنور، ثم غمسوها في

(١) الديماس معربة بمعنى الحمام، فكلمة «المدمس» إذن لها أصل فصيح.

صحن الفول فأكلوا، ثم أخذوا من الساقية فشربوا ثم شبعوا فمسحوا أفواههم، وقالوا من أعماق قلوبهم، ربنا لك الحمد والشكر.

فقال الرجل: آه ليتني آكل مثل هذه الأكلة وأبقى بلا مال.

وإذا كانت هذه القصة مثلاً مضروباً لا يدرى أهي من الواقع أم من الخيال، فإني أعرف في دمشق رجلاً (توفي من سنين طوال) كانت له أعلى العمارات وأكبرها، وكان له أوسع الضياع وأجلها، وكانت له آلاف الأسهم في أشهر الشركات وله الحسابات الجارية في أعظم المصارف، وكانت في معدته قرحة خبيثة فهو لا يستطيع أن يدخل إليها شيئاً إلا الحليب وكان لا يبصر إلا بنظارتين يركب إحداهما على الأخرى، ثم لا يفرق من بعد عشرة أمتار بين الإنسان والحمار، أعني الحمار الحقيقي لأن الحمار المجازي في ظاهره كالإنسان.. وهو بعد هذا لا يقدر أن يقارب النسوان، ولا أن يستمتع بلذة السمر مع الإخوان.

فماذا بقي له من لذائذ العيش؟ ألا يتمنى لو ذهب نصف ماله، لو ذهب ثلاثة أرباعه، وكان كامل الصحة، متين البناء، حاد البصر، قادراً على... على «الأشياء الأخر»؟.

وهاتوا أفقر فقير لأسأله هل يرضى أن نقطع قطعة من أنفه بمقدار رأس الإصبع، ونعطيه ألف دينار؟

والفقير الذي عنده عشرة أولاد يشتكي من كثرتهم، والإنفاق عليهم، أينزل عن واحد منهم لأكلة لحوم البشر. فيعملوا من لحمه «كفتة» ويأكلوه أمامه، ويأخذ خمسين ألف دينار؟

أفليست هذه كلها نعماً أكبر من نعمة المال؟

البصر يا إخوان نعمة، والمعدة الصحيحة نعمة، والولد نعمة، وكلها يدخل في حساب الأرزاق، فلا تحسبوا الرزق «المرتب» وحده، فهذه النعم كلها من الرزق.

فاسعوا لطلب الرزق، وجدوا فيه ولا تدخروا وسعاً ولا جهداً، ثم ارضوا

بعد ذلك بما جاءكم، ولا تغضبوا ولا تسخطوا، هل يغضب الموظفون على زميلهم الذي يعتمدونه لتوزيع الرواتب آخر الشهر، ويقولون: لماذا أعطيت الرئيس أكثر مما أعطيت الفراش؟

أم يعلمون أن الرواتب حددتها الحكومة من قبل ولم يحددها هو، ولا يملك زيادة فيها ولا نقصاً، ولا تبديلاً ولا تحويراً؟

إن الأرزاق مثلها، إنها محددة من قبل، إنها مقدرة من الأزل، والذي قدرها هو الله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ (الزخرف: ٣٢).

فنحن نعمل ونجد ونكافح ونتخذ الأسباب كلها، لأن الله أمرنا بالعمل والجد والكفاح واتخاذ الأسباب، ثم نرضى بعد هذا بما جاءنا من الله، فلا نعيش خاملين، ولا نحيا ساخطين، وهذا هو شأن المسلمين.

دليل الحاج

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

يا عازمين على الحج، يا من يشد الرحال، ويعد الأحمال، ليصل إلى فناء الحرم، ويقوم عند الملتزم، ويشرب من ماء زمزم...

قفوا قليلاً، فاستمعوا مني كلمة، ثم امضوا على بركة الله.. إنكم ما حملتم مشاق السفر، ولا رضيتم بفراق الأهل، ولا أنفقتم هذا المال، إلا ابتغاء ثواب الله، وادخاراً من الحسنات ليوم الحساب. فهل علمتم قبل أن تمشوا أن الحج حجان: حج مبرور وردت الأحاديث الصحاح بأنه ليس له ثواب إلا الجنة، وأن صاحبه يرجع منه كيوم ولدته أمه.

وحج ما فيه إلا إنفاق المال وإرهاق الجسد، وفراق العيال. فماذا تعملون ليرفع الله حجكم إليه، ولا يرده عليكم، فيضرب به وجوهكم. أنا أقول لكم: هل ترتفع الطيارة إذا أثقلتها بالحديد، وحملتها أضعاف ما تطيق، ثم ربطتها بحبال الفولاذ إلى صخور الجبل؟.

إنها لا ترتفع إلا إذا خففت أحمالها، وقطعت عنها حبالها وكذلك الأعمال. فإذا أردتم أن يصعد حجكم فخففوا عن عواتقكم أثقال الذنوب، واقطعوا الحبال التي توثقكم بأرض الشهوات، أو حلوها.

فاقعد يا أخي الحاج وحدك، واحصر فكرك قبل أن تخطو أول خطوة في طريق الحج، وحاسب نفسك، وانظر في حياتك في بيتك، وصلاتك بأهلك، وروابطك بأصحابك، وسلوكك في «وظيفتك»[1] أو تجارتك وفي مصادر ثروتك. وطرق إنفاقك، فكر فيها كلها، وقسها بمقياس الشرع، فما وجدته منها

(١) الوظيفة في اللغة الراتب ولكني استعملتها بالمعنى الذي يفهمه الناس.

محرماً فتب منه، واستسمح أصحابه قبل أن تمضي إلى الحج.

انظر هل أنت تارك لفريضة من الفرائض؟ هل أنت مرتكب لمحرم من المحرمات؟ هل أسأت رعاية من استرعاك الله أمره من أهلك وولدك؟ هل أنت ظالم لزوجتك قد كرَّهت إليها بسوء معاملتك عيشها، أو أنت منقاد إليها تتبع رغباتها التي تغضب ربها؟ هل رضيت بترك أولادك الصلاة؟ هل وضعتهم في مدارس غير المسلمين؟ هل أكلت مال أحد، أو تعديت عليه؟ هل لأحد في ذمتك دين لم تقضه، أو حق لم تسدده؟ هل تقصر في عمل الوظيفة إن كنت موظفاً؟ هل تأخذ الرشوة؟ هل تعامل الناس بالربا إن كنت تاجراً؟ هل تعقد عقوداً مخالفة للشرع؟ انظر في هذا كله وأمثاله، فتب منه، وليس يكفي أن تعزم على ترك الذنب بقلبك، أو أن تعلنه بلسانك، بل أن تتخذ الأسباب لذلك.

فإن كنت تتعامل بالربا، وأردت أن تتوب منه، وألا تعود إليه. فصف حساب عملائه، واقطع صلاتك بهم. وخذ رأس مالك ودع موارد الربا، ولا يغررك أن الربا سمي بـ «الفائدة» فلقد ورد أن الناس في آخر الزمان يسمون المحرمات بغير أسمائها ليستحلوها.

وإن كنت تتكسب من عمل محرم، كأن تكون عاملاً في ناد يسقي الخمر، ويجمع الجنسين. أو في مصرف يرابي وأنت تشتغل فيه كاتبا للربا. أو كنت في مؤسسة أو مصلحة تنشر الإلحاد، أو تؤذي المسلمين وأردت أن تتوب، ففتش لنفسك عن عمل آخر، وإلا لم تنفعك توبتك عنه وأنت ملازم له.

واعلم أن الله هو الرزاق، وأن من يتق الله لا من يعصه يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب. وكذلك الحال في كل محرم.

ثم تدبر أمورك وأمور عيالك في غيبتك، لتريح بالك منها، فلا تفكر فيها وأنت في الحج. فتعطي أهلك من النفقة ما يكفيهم في غيابك، وتوكل بهم من يقوم بأمرهم إلى حين عودتك، وتعهد بعملك إلى من تثق به، وتعتمد بعد الله عليه.

واعلم يا أخي الحاج، أن الحج غسل للقلب من أوضار الذنوب، فهل يغسل

أحد جسده من الأوساخ بالماء الوسخ؟ فكيف إذن تبغي أن تتخلص بالحج من تبعات الحرام. إذا كان حجك بمال حرام؟ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. فليكن أول ما تصنعه أن تعد لنفقات حجك مالاً حلالاً.

لا أريد بالمال الحلال أن يكون خالياً من كل شبهة فلقد ذكر العلماء من قرون طوال أن ذلك كان كالمتعذر في أزمانهم، فكيف بزماننا؟ ولكن أريد ألا يكون المال الذي أعددته للحج، مالاً ظاهر الحرمة، كأن يكون مغصوباً أو متحصلاً من الربا، أو من مهنة يحرمها الشرع كالاتجار بالخمر، أو زراعة الحشيش، أو نشر الكتب والمجلات المفسدة للدين وللأخلاق.

المال الحرام ردوه إلى أصحابه الذين أخذ منهم ظلماً. فهذا أفضل من الحج، ثم إن وجدتم بعد ذلك ما تحجون به من المال الحلال. وإلا فانتظروا حتى يبعثه الله إليكم فتحجوا.

ومن كان منكم موسرا فليحمل معه ما يزيد عن نفقات حجه، ونفقات أهله في غيابه، ولينو بذلك مساعدة المحتاج وإسعاف المنقطع، لا يوزعه على الشحاذين الذين اتخذوا السؤال حرفة، ولعل فيهم من هو غني، بل يعطي من يثق بحاجته، ومن يكون عفيفاً، فيظنه الناس من عفته وإبائه غنياً وهو في أشد الفقر.

أمثال هؤلاء فأعطوهم، وإذا لم تعرفوهم فاسألوا عنهم من تثقون به من أفاضل أهل الحرمين.

● **الرفيق قبل الطريق**

واعلموا أن على ألسنة الناس أقوالا سائرة يلقونها، لا يفكرون بمعناها، وكأنها من كثرة الترداد قد صارت ألفاظاً بلا معان، وهي ثمرة تجارب بشرية طويلة، منها قولهم «الرفيق قبل الطريق».

وأولى سفرة باختيار الرفيق الصالح سفرة الحج، ورب رفيق حججت معه فاستفدت من علمه، واسترحت إلى حلمه، واطمأننت إلى أمانته، ورب رفيق نغص عليك حجتك، وأضاع عليك ثوابك.

رفيق يجعل الحج مردوداً مرفوضاً، ورفيق يجعله مبروراً مقبولاً. فاختر لك

رفيقاً عالماً بالمناسك، فإن لم تجد فخذ كتاباً من كتب المناسك لعالم موثوق به، ولا تركن إلى هذه الكتب التي يؤلفها من ليسوا بعلماء ولو رأيت الإعلان عنها، والدعوة إليها، فإن فيها خطأ كثيراً، ولا تأخذ كلام المطوفين قضية مسلمة فإن أكثرهم من غير العلماء، ولا تقبل من كل من يتكلم في العلم. فربما تكلم في العلم في زماننا، وتصدر للإفتاء من ليس بعالم ولا بطالب علم.

فإذا أعددتم المال الحلال، وانتقيتم الرفيق الصالح، وتبتم من ذنوبكم، وأديتم الحقوق التي عليكم، فأخلوا أذهانكم من هموم العيش وخلفوها وراءكم، وفرغوا قلوبكم ما استطعتم لربكم، فإنكم تفكرون في الدنيا العمر كله، ففكروا في الآخرة هذه الأيام فقط، وتعملون طول حياتكم لما لا ينفعكم بعد موتكم، فاعلموا هذه الأيام فقط لما يبقى لكم، ويفيدكم يوم العرض على ربكم.

* * *

● يا إخوتي الحجاج

إنكم تقومون للصلاة، تنظرون إلى مسير الشمس في النهار، وتبحثون عن نجم القطب في الليل، وتضعون «البوصلة» أمامكم وتستحضرون موقع البلد في أذهانكم لتعرفوا أين تقع الكعبة، فتجعلوها قبلتكم في صلاتكم. وبينكم وبينها الأبعاد والآماد وبينكم وبينها الصحارى والبحار، والجبال والأنهار، لا يمنعكم بعدها ولا تصدكم العوائق دونها، عن أن تتجهوا إليها بأجسادكم وقلوبكم، وأن تتصوروها على الغيبة، وتحنوا إليها على البعد، فها أنتم هؤلاء تمشون إليها كما يمشي المحب إلى لقاء المحبوب، ودونه الحجب والأستار، فكلما جزتم إليها بادية، أو ركبتم بحراً، رفع لكم من دونها حجاب، وكلما دنوتم منها شبراً، رفع لكم ستر، حتى وصلتم إلى «المواقيت».

● لباسه الرسمي

هذي مواقيت الحرم يا حجاج فقفوا، هذه أعتاب ديار المحبوب، هذه مشارف بيت المليك، إن من يدخل حضرة ملك من ملوك الدنيا، يلبس للمقابلة

لباسها الرسمي، وهذه أبواب حضرة ملك الملوك، رب العالمين، فاخلعوا عن أجسادكم ثياب الدنيا، والبسوا للنسك لباسه الرسمي.

البسوا ثياب الإحرام، التي لا يمتاز فيها غني عن فقير، ولا أمير من أجير، وانزعوا معها حب الدنيا وانزعوا مشاغلها ومشاكلها عن قلوبكم، واغسلوا بالماء أجسادكم، واغسلوا بتجديد التوبة نفوسكم، وانووا إما الحج وحده، وإما العمرة والحج مقرونين، تدخلون بالعمرة فتطوفون وتسعون وتبقون محرمين إلى انتهاء أعمال الحج، وأما العمرة وحدها فإذا أكملتم مناسكها «أي طفتم وسعيتم» حلقتم ولبستم ثيابكم وحللتم، ثم أحرمتم بالحج يوم الحج، والأول هو الإفراد، والثاني القرآن، والثالث التمتع، وكل ما تنوون حسن، وكل من الثلاثة هو الأفضل في أحد المذاهب، وإن كان التمتع هو آخر ما أمر رسول الله ﷺ والعمل به أولى.

* * *

أجيبوا داعي الله

ثم اصغوا تسمعوا صوت الشرع في قلوبكم يأمركم بالتوحيد وإخلاص العبادة لله، واتباع سبل الخير، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، اسمعوا أوامر الله في آيات كتابه وأقوال نبيه، فإذا تمثلت لأذهانكم، فأجيبوا بألسنتكم وبقلوبكم:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

لبيك أمرتنا فأطعنا، ونهيتنا فاجتنبنا، فأعنا اللهم على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فإنا لا نستطيع أن نقوم بها بغير معونتك، لا شريك لك فنطلب منه، ولا إله سواك، فنفر إليه، لقد فررنا إليك، وجئنا قاصدين بيتك، فهل تردنا عن بابك خائبين، وأنت أكرم الأكرمين؟

هذه حدود منزل الوحي، لقد جزتموها الآن محرمين، فجدوا السير، واحدوا المطي أو استحثوا سائق السيارة.

لقد دنوتم الآن من الحرم، أتعرفون يا إخوان ما الحرم؟

هنا دار السلام إن عمت الأرض الحروب. هنا دار الأمن إن شمل الناس الخوف.

كل حي ها هنا آمن، الناس والحيوان والنبات، ليس ها هنا حرب ولا قتال، الحيوان ها هنا لا يصاد، والأشجار لا تقطع. لا عدوان على أحد، ولا تجاوز على شيء.

هذه حدود الحرم، ألا ترون أعلامها؟

لقد أقام هذه العلامات أبو الأنبياء إبراهيم، وبقيت حيث أقامها. لقد دخلتم الآن الحرم، فجددوا التلبية واجهروا بها، وقولوا بقلوبكم مع ألسنتكم:

لبيك اللهم، قد دعوتنا فأجبنا، سمعنا المؤذن يؤذن بالحج فجئنا رجالاً وعلى كل ضامر، أتينا من مكان بعيد، نجزع الأرض، نطوي البيد، نركب الريح، ونمتطي اللجج، امتثالاً لأمرك، وابتغاء رضاك.

لبوا يا حجاج، واجهروا بالتلبية، لبوا عند كل رابية وجبل، تلب معكم الروابي والجبال، لبوا كلما صعدتم نشزا، لبوا كلما هطبتم وادياً، لبوا فهذه جبال مكة، بدت لكم.

لقد وصلتم، لم يبق إلا قليل، فجدوا المسير.

هذه مكة فادخلوها من أعلاها، من جهة ذي طوى (حي الزاهر) ثم اهبطوا من الحجون، من عند المقبرة، فمن هناك دخلها رسول الله ﷺ، ثم امشوا من عند المسعى حتى تدخلوا من باب السلام (باب بني شيبة).

لقد زالت الحجب حجاباً بعد حجاب، وتقاربت الأبعاد ساعة بعد ساعة، حتى بلغتم الأرب فنسيتم التعب، فهنيئاً لكم، نلتم المرام، هذا باب السلام وهذه زمزم، وهذا المقام، وهذه الكعبة البيت الحرام.

فلبوا وهللوا، وادعوا فإن دعاء المسلم أول ما يرى الكعبة مستجاب، هذا هو

المشهد الذي قطعتم من أجل رؤيته الآفاق، وحملتم المشاق، إني لن أنسى يوم وقفت هذا الموقف أول مرة، من إحدى وثلاثين سنة، لقد سلكنا الصحارى من دمشق، فكنا كلما دنونا يوماً زاد الشوق بنا شهراً. حتى تمنيت أن تطوى لي الأرض، وأن يتصرم الزمن.

وأكثر ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيام من الخيام

حتى إذا وقفت على باب السلام صفق من الفرحة القلب، وبكت من السرور العين، فما رأيت الكعبة إلا من خلال الدموع.

هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآماق!

إني لا أتمنى إلا أمنية واحدة، هي أن أنسى هذا المشهد لأستمتع برؤيته من جديد. هذه مكافأة الحاج.. إنها لذة من لذائذ الروح لا مثيل لها، فأشبهه بها لأدل عليها من لم يعرفها.

لذة لا يدرك مداها إلا من ذاقها، لذة لا توصف ولا تعرف
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

أسأل الله أن يمن بذلك على كل راغب فيه، مشتاق إليه.

* * *

عام جديد

العدد (١٣) المحرم (١٣٨٦هـ) - أبريل (١٩٦٦م).

لما قعدت أكتب هذا الفصل، لم يكن في ذهني شيء عن الموضوع الذي أكتب فيه، ولكني نظرت في التقويم المعلق بالجدار فوجدت الموضوع. الموضوع «أول المحرم».

أفيمر بكم أول المحرم، كما يمر غيره من الأيام، وفي صبيحته ولد عام، وفي ليلته قضى عام؟.

يجتاز المسافر مرحلة من الطريق فيحط الرحال، ويقف ليستريح، فيتلفت وراءه ليرى كم قطع وينظر أمامه ليبصر كم بقي.

والتاجر تنتهي سنته، فيقيم موازينه ويحسب غلته، ليعلم ماذا ربح وماذا خسر.

وهذه «محطة» جديدة، نقف فيها ونحن نسير على طريق الحياة، وسنة أخرى تمضي من العمر، أفلا نقف عليها ساعة نفكر وندكر ونحسب ونعتبر؟

نحن اليوم في أول المحرم من سنة ست وثمانين وثلاثمائة وألف ننظر إليه في الفجر، فنراه يوماً طويلاً يمتد أمامنا، نستطيع أن نعمل فيه ما نشاء، نستمتع فيه (إن أردنا) بدنيانا، ونحمله ما نريد حمله من الزاد إلى أخرانا، فإذا أمسى المساء وذهب اليوم- لم نعد نستطيع أن نستفيد منه ولا أن نستمتع فيه.

نظنه باقياً لنا، فـ «نُبذر» في دقائقه، كما يبذر المسرف في ماله ونضيع ساعاته، ولكنا لا نجده حتى نفقده. إنه لا يكاد يبدأ حتى ينتهي ثم يمضي، فلا يعود أبداً.

اذكروا الآن أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين.

لقد كنا نراه (أيضاً) ونحن نستقبله طويلاً، وكنا نقدر أن نصنع فيه خيراً كثيرا، فأين هو منا اليوم؟. وأين الأول من المحرم سنة أربع وثمانين؟.

وأين أوائل المحرمات التي مرت بنا، أو مررنا نحن بها من قبل؟ ماذا بقي منها في أيدينا؟.

تمضي السنة وتجيء أخرى بعدها، فمن لم يعمل خيراً فيها، عمله في التي تليها.

إن فاتك عمل الخير في النهار، فعندك الليل (خلفة) منه، فاعمل الخير فيه. مواسم متتابعة إن أضعت الموسم فلم تزرع فيه، فازرع في الذي يليه.

وإن رسبت في الامتحان في دورة حزيران، فعندك دورة أيلول.

هي خلفة لك ما بقيت حيا، ولكن هل تعلم كم تبقى حيا؟.

* * *

ينقضي العام - فتظن أنك عشته، وأنت في الحقيقة قد مته، لا تعجبوا من هذا **المقال ودعوني أوضح الفكرة بالمثال.**

أنت كالموظف الذي منح إجازته السنوية، شهراً كاملاً، إذا قضى فيها عشرة أيام يكون قد خسر منها **عشرة أيام فصار الشهر عشرين، فإذا مر عشرون صار الشهر عشراً، فإذا تم الشهر انقضت الإجازة فكأنها لم تكن.**

أتظنون أني «أتفلسف»؟ لا والله بل أصف الواقع.

نحن كلما ازداد عمر الواحد منا سنة في العد، نقصت من عمره سنة في الحقيقة، حتى ينفد العمر، ويأتي الأجل، ونستقبل حياة أخرى تبدأ بالموت.

فتحت كتابي «من حديث النفس» فقرأت فيه فصلاً نشرته في العدد الممتاز من مجلة «الرسالة» في مطلع سنة ١٩٣٨، عنوانه «على أبواب الثلاثين» لو تصورت يومئذ أني ساقرأه في مطلع سنة ١٩٦٦، لتراءى لعيني دهر طويل ثمان وعشرون سنة، أنظر إليها الآن، بعد ما مرت، فأراها كأنها يوم وليلة.

ولو نظرت الآن على ما بعد ثمان وعشرين سنة على سنة (١٩٩٤) لرأيتها بعيدة جداً، ولكن من يقرأ هذا الفصل يومئذ سيرى سنتنا هذه كأنما كانت بالأمس.

فنحن نوسع المستقبل بالأمل.

* * *

وما هذا المستقبل الذي نسعى إليه، ونكد من أجله؟.

لما كنت طالباً كان مستقبلي في نيل الشهادة. فلما نلتها صار المستقبل في الوصول إلى الوظيفة. فلما وصلت إليها صار المستقبل في بناء الأسرة وإنشاء الدار، وإنسال الولد، فلما صارت لي الزوجة والدار والأولاد والحفدة، صار المستقبل في الترقيات والعلاوات والمال المدخر، وفي الشهرة والمجد والكتب والمقالات، فلما تم لي بفضل الله ذلك كله، لم يبق لي مستقبل أفكر فيه، إلا أن ينور الله بصيرتي، ويريني طريقي، فأعمل للمستقبل الباقي للآخرة وإني لفي غفلة منها.

فالمستقبل في الدنيا شيء لا وجود له. إنه يوم لن يأتي أبداً، لأنه إن جاء صار «حاضراً» وطفق صاحبه يفتش عن «مستقبل» آخر. يركض وراءه.

إنه (كما قلت مرة) مثل حزمة الحشيش المعلقة بخشبة مربوطة بسرج الفرس تلوح أمام عينيه فهو يعدو ليصل إليها، وهي تعدو معه فلا يدركها أبداً.

إن المستقبل الحق في الآخرة، فأين منا من يعمل له؟ بل أين من يفكر فيه؟.

* * *

وقد يكون هذا الذي أقوله «فلسفة»، ولكنها فلسفة واقعية، إنها حقائق لا يفكر فيها أحد منا.

نحن كالمسافر في الباخرة أو في الطيارة، همه الغرفة الجميلة، أو المقعد المريح، يركب في الدرجة الأولى ويأكل أطيب الطعام، ويتصفح الجرائد والمجلات ينقل بصره فيما حوله أو تحته من المشاهد ولكن هذا كله لأيام السفر، وأيام السفر معدودة، أفما كان خيراً له لو فكر فيما يريحه في إقامته في البلد الذي يمضي إليه؟.

أما كان أنفع له لو تحمل بعض المتاعب في ليالي السفر القليلة، ووفر ماله ليشتري به الراحة في سنوات الإقامة الطويلة؟.

أم قد شغلته متعة السفر عن التفكير في سبب السفر، وجمال الطريق عن غاية الطريق؟.

الحياة سفر، فكم من الناس يسأل نفسه لم السفر؟ وإلى أين الرحيل؟ كم منا من يسأل ما الحياة؟ ولماذا خلقنا؟ وإلام المصير؟

* * *

إننا نقطع الوقت من الصباح إلى المساء، في مشاغل نخترعها لننسي بها أنفسنا، ونبدد بها أعمارنا، من أحاديث تافهة، ومجالس فارغة، ومطالعات في كتب لا تنفع، أو نظرات في مجلات لا تفيد، فإن خلا أحدنا بنفسه، ثقلت عليه صحبة نفسه، وحاول الهرب منها، كأن نفسه عدو له لا يطيق مجالسته فهو يضيق بها، ويفتش عما يشغله عنها، وكأن عمره عبء عليه، فهو يحاول أن يلقيه عن عاتقه، وأن يتخلص منه.

* * *

نفر من نفوسنا ونبدد أعمارنا، في لذائذ نتوهمها، ونسعى وراءها ولكنا لا ننالها .

ولما كنت أشرف على طبع كتاب ابن الجوزي «صيد الخاطر» الذي قدمت له وعلقت عليه، وجدت فيه كلمة عظيمة، يقول فيها «إن لذائذ الدنيا نماذج تعرض ولا تقبض».

نماذج (ريكلامات)[1] **للعرض والإعلان، لا للبيع والاقتناء، فأنت تسر برؤيتها، ولكن لا تقدر على امتلاكها .**

خذوا أكبر لذات الدنيا، (اللذة المعروفة. . .) تروا أنها ليست في الحقيقة إلا لحظة دقيقة أو دقيقتين، لا تكاد تحس بأنك قد وصلت إليها، حتى تجد أنك قد فقدتها.

إنها ليست إلا «نموذجا» للذة الآخرة، فما يستمر هنا دقيقة فقط، يدوم هناك إلى الأبد.

(١) صرنا نفسر العربي بالإفرنجي، هذا والله العجب!

إنك فيها كمن يعطى ملعقة من الطعام ليذوقه ويجد طعمه في حَلْقِه، فإذا ارتضاه اشترى منه فأكل حتى شبع.

فالذواق في الدنيا والشبع في الآخرة.

لذلك ترى الرجل الفاسق، يشكو «الجوع الجنسي» مهما «ذاق» من الحرام. يعرف مائة من النساء، ثم يرى الواحدة بعد المائة فتطلبها نفسه، كأنه ما عرف امرأة قط، ولا يزال كذلك حتى يعجز جسده، ولا تكل رغبته، فهو كالعطشان الذي يشرب من ماء البحر، وكلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً.

وما عهد «فاروق» ببعيد.

ومثلها لذة المال.

إن الفقير الذي ينام في كوخ الطين، ويأكل خبز الشعير، ويمشي بالحذاء البالي، أو يركب عربة النقل، التي يجرها الحمار، يتصور أنه لو نام يوماً على فراش الغني، أو أكل على مائدته، أو ركب في سيارته، لنال اللذائذ كلها ولكن الغني الذي ألف ذلك لم يعد يجد فيه لذة، بل يجد الألم إن فقد منه شيئاً.

والشاب المغمور، يتمنى أن يكون علماً مشهوراً، تردد الإذاعات اسمه وتنشر الصحف رسمه، ويتحدث الناس عنه، ولكن العالم المشهور الذي ألف ذلك لم يعد يهتم به ولا يباليه.

إن لذات الدنيا مثل السراب، ألا تعرفون السراب؟. تراه من بعيد غديرا، فإذا جئته لم تجد إلا الصحراء. فهو ماء ولكن من بعيد!.

عفواً يا سادتي القراء، إن جئت أعظكم وأزهدكم، فما أردت وعظاً ولا تزهيداً، وما أنا من الوعاظ الزهاد، ولكنها خواطر أثارها في نفسي أننا في اليوم الأول من المحرم، وإني وقفت كما يقف المسافر، وقعدت أحسب كما يحسب التاجر.

إني أنظر إلى حياتنا هذه التي نعيشها، فأرانا فيها كموكب من السيارات، تمضي مجنونة مسرعة، متسابقة، هم كل واحدة أن تسبق الأخرى، وتخلفها وراءها، ولكن لو سألت سواقها إلى أين يسيرون ولماذا يسرعون؟ لما وجدت عندهم جواباً.

سباق إلى المال، سباق إلى اللذات، سباق إلى الوظائف، سباق في كل طريق من طرق الحياة.

ثم ينتهي العمر، فنترك كل ما استبقنا إليه، ونمضي. فلنقف لحظات في مطلع كل عام، لنسائل أنفسنا ما الذي نربحه من هذا السباق؟ أو ليس «الربح» الحق في جهة أخرى، غير الجهة التي يتجه الناس كلهم إليها، ويحسبون أن الربح المقصود فيها؟.

إن هذا اليوم نذير لنا. بأن السنة المقبلة ستمضي كما مضت السنة المودعة، وإن كل واحدة منها تحمل معها جزءاً من أعمارنا، حتى تنفد أعمارنا، فلنتدارك ما بقي، ولنكن يوماً واحداً في السنة من المتناصحين ومن المتواصين بالحق، والمتواصين بالصبر.

إنكم تقرأون في المجلات كلاماً كثيراً، كلاماً جليلاً يزيد ثقافة عقولكم، وكلاماً جميلاً يدخل البهجة على قلوبكم وكل هذا خير، ولكن خيراً منه أن تسمعوا كلمة تذكركم أخراكم، وتنفعكم يوم العرض على ربكم.

وما أصلح - والله - لأن أقول أنا هذه الكلمة، وأنا إلى أن أوعظ فأتعظ، أحوج مني إلى أن أعظ، ولكن «على مدير الكاس أن ينهى الجلوس».

لما أردت أن أسافر إلى جدة، من بيروت، قعدت في مطعم المطار، أفطر وأنتظر، وكان المطعم ممتلئاً، وكل من فيه يأكل ويشرب ويتحدث، مثلما كنت آكل وأشرب وأتحدث، تراهم فتحسبهم أصدقاء متلازمين لا يفترقون. وأن شملهم جميع لا يتشتت، ولكن مطار بيروت الذي تحط فيه كل ربع ساعة طيارة، وتقوم منه طيارة، لا يلبث الصوت أن يخرج منه ينادي من «المكبر».

ركاب طائرة boac المسافرة إلى لندن، يتوجهون إلى أرض المطار.

فتترك أكلها وشربها جماعة من الحاضرين، وتقوم.

ثم ينادي:

- ركاب طائرة klm المسافرة إلى جاكرتا.

فيترك ناس أكلهم وشربهم ويقومون.

وطائرة إلى أميركا، وأخرى على الكونغو، وثالثة إلى إيران، ورابعة إلى موسكو.

فنظرت في الناس وقلت لأخي، وكان معي. هذه هي حياتنا.

نعكف على طعامنا وشرابنا، ومشاغل عيشنا، وإذا بالنداء يدعو من «جاء دوره» ليذهب على حيث يحمل، إما إلى غابات أفريقية، وإما إلى ثلج سيبيريا، وأما إلى ملاهي باريز ومشاهد نيويورك.

فمن كان مستعداً للسفر حاجاته مقضية، وحقائبه معدة، وحمله خفيف، مضى مستريح البال، ومن «جاء دوره»، وهو لم يعد متاعه، ولم يقض حاجته ذهب بلا زاد، ومضى على غير استعداد.

أفلا نستعد للسفرة التي لا بد منها، ونتزود لها الزاد الذي لا ينفع غيره فيها؟

أم نحن نتناسى الموت وهو أمامنا نظنه أبعد شيء عنا، وهو أقرب الأشياء منا، نصلي على الأموات ونشيع الجنائز، ونحن نفكر في أمور الدنيا، كأنا مخلدون فيها، وكأن الموت كتب على الناس كلهم إلا علينا؟

● **يا إخوتي القراء:**

إننا نعيش الأيام كلها في غفلة، فلننتبه اليوم، ولنقف كما يقف المسافر على المحطة، ينظر كم قطع من الطريق وكم بقي عليه منه؟ ولنفتح دفاترنا كما يفتح دفاتره التاجر، لنرى ماذا ربحنا في سنتنا التي مضت وماذا خسرنا، ولنمد أيدينا، فنقول: يا ربنا، اغفر لنا ما سلف، ووفقنا فيما بقي.

اللهم إذا كتبت لنا، أن نعيش إلى مثل هذا اليوم من قابل، فاجعل ما يأتي خيرا لنا، وللمسلمين مما ذهب، . . . وإلا، فاكتب لنا بفضلك وكرمك حسن الخاتمة، واغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

* * *

عبرة من تاريخنا

العدد (١٨) جمادى الثانية (١٣٨٦هـ) - سبتمبر (١٩٦٦م)

كنت أتمنى ألا أحدثكم إلا أحاديث المكارم والمفاخر، ولا أقص عليكم إلا أخبار النصر والظفر ولكني رجل مؤرخ، وحياة الأمم كحيوات الأفراد، فيها الصفاء وفيها الكدر، وفيها الأعراس وفيها المآتم، ولا أكون أمينا على التاريخ، ولا صادقاً في الرواية، ولا ناصحاً للقارئين، إذا أريتكم صفاء الماضي دون كدره، وسردت عليكم مباهجه دون مآسيه، ولعل العبرة في الهزيمة أكبر من العبرة بالنصر.

وأنا أستجديكم اليوم الدمع، وأدعوكم إلى البكاء، لا بكاء أبي عبدالله الصغير الذي سأحدثكم حديثه فهذا بكاء الأنذال، إنما أريد بكاء الرجال، والرجل قد تجيش عاطفته، ويسيل قلبه دمعا من عينيه، ثم يمسح الدمعة وينسى العاطفة، ويحكم العقل، ويمضي إلى العمل فلئن ضاعت منا الأندلس (وسترون لم ضاعت) فقد أبقت لنا عبرة، ولقنتنا درسا.

حديث اليوم عن الفردوس الإسلامي الذي فقدناه، عن المأساة التي لم ير تاريخنا مثلها، اللهم إلا مأساة فلسطين، التي ستغدو لنا إن بقينا على غفلتنا وانقسامنا أندلسا جديدة، ولن يكون ذلك إن شاء الله مادام في السماء رب عادل، وعلى الأرض شعب مسلم.

الحديث عن أبي عبدالله الصغير، وعن سقوط الأندلس، وما هو (مع الأسف) إلا إشارات عابرة لتلكم الأحداث الجسام، وكلمات قليلة عن هاتيكم الفواجع الكثيرة التي ملأت صحف التاريخ أسى وحزنا.

نحن الآن في أواخر العهد بالأندلس، فلقد تقلص ذلك المجد المنبسط،

وانزوت تلك الراية التي كانت ترفرف على أسوار طليطلة وقصور قرطبة، وعلى سيف البحر من المرية إلى برشلونة، والتي جازت جبال البرانس (البيرنة) حتى بلغت قلب فرنسا، لقد مضى ذلك كله وانقضى، فلا أمية باقية تلوح أعلام قوادها وهي على عرش الخضراء في دمشق، أو على عرش الزهراء في قرطبة، ولا الموحدون تموج «الزلاقة» بفرسانهم الذين ينتزعون النصر من بين فكي الدهر، لقد ذهبت الدول الحاكمة القوية، فَنَادِ اليوم لا يُلَبِّكَ القائد عبدالرحمن الغافقي ولا الأمير عبدالرحمن الداخل، ولا الخليفة عبدالرحمن الناصر، ولا يُجِبْكَ الملك المظفر أسد الصحراء ابن تاشفين.

وقد ذهبت الإمارات القوية، فما في البلاد اليوم مثل الحاجب المنصور، ولا مثل ابن عباد، ما فيها إلا إمارة صغيرة حقيرة فيها عرش صغير حقير، نخر سوس الخلاف باطنه، وهدت فؤوس الإسبان جوانبه، ولا يزال أهله يتنازعون عليه، ويتقاتلون من حوله، عرش بني الأحمر في غرناطة.. أتعرفون من أين جاءت هذه الإمارة التي كتب الله أن يكون ضياع الأندلس على أيديها؟

كانت دولة الموحدين تحكم البلاد كلها، والموحدون صحراويون أشداء، لم تكن الحضارة بترفها قد أفسدتهم يوم أقبلوا، ولا المدن بنعيمها، فكانوا ينامون بمثل عين الذئب، ويكشرون عن مثل أنياب الأسد، كانوا أسود قفر، فانجحرت منهم الذئاب، وفرت من أمامهم، فلما ذاقوا متع الحضارة، واستراحوا إلى النعيم صاروا طواويس، فاستأسدت من ضعفهم الثعالب.

وخرج عليهم ابن هود، فاقتطع لنفسه ما استطاع من بلادهم، وخرج على ابن هود ابن الأحمر، فانتزع منه ما قدر عليه من بلاده، وكان الموحدون في الأصل خارجين على الإمامة العظمى فكانت مملكة بني الأحمر هذه، مملكة خوارج على خوارج على خوارج.

ولم ينج ابن الأحمر من أمراء كانوا أصغر منه، فخرجوا عليه، يشترون منه ملكه برأس ماله، وكان يحميهم الإسبان الذين كانوا يمدون أيديهم أبداً من وراء ستار، فيضرمون هذه النار، فلم يجد وسيلة لاستبقاء لذة الحكم، إلا أن يبيع

نفسه للشيطان، ويخضع للإسبان، ويجعل من نفسه ملكاً على المسلمين، وتابعا لأعدائهم وكذلك يصنع حب السلطان، وهذه مصيبتنا دائماً، الانقسام وشهوة الحكم.

ثم تتنبه في نفسه حمية المسلم، وتستيقظ عزة المؤمن، فيقطع حبل مودة الإسبانيين، وتقوم الحرب بينه وبينهم، ويعينه ملوك المغرب بجامع الأخوة الإسلامية التي لا تنفصم قط عراها، فينتصر عليهم.

ويتسلسل الملك في أولاده إلى العهد الذي أحدثكم حديثه، حين يقوم النزاع على هذا العرش الصغير الذي لا يستحق أن يتنازع عليه غريبان، فضلاً عن أن يتقاتل من أجله أخوان، أبوعبدالله الكبير المعروف بالزغل، وأبوالحسن والد أبي عبدالله الصغير، وغلب الأول على الملك، وإن كان الثاني أقوى وأحزم وأبرع وأحكم، واستهوته حلاوة هذا العسل، فأنسته السم الكامن في قرارته، وحمات النحل التي تحوم من حوله، وغرق في لذائذه، وكانت له زوجة شريفة عفيفة من بنات عمه اسمها عائشة، هي أم ولديه محمد وهو أبوعبدالله الصغير ويوسف، فتركها وعشق فتاة إسبانية بارعة الجمال فاتنة الحسن وارتكب جريمة مثلثة اللعنات:

١- حكمها في نفسه وقصره، وأطلعها على دخيلته وسره هي وقومها الإسبان اعداؤه وأعداء بلاده ودينه.

٢- وظلم من أجلها زوجته الشرعية وجافاها وأذلها.

٣- ثم عمل ما لا يعمد رجل شريف، فحبسها هي وولديها في البرج وبقيت الحمراء كلها لهذه الإسبانية تمرح فيها هي وأعوانها وتكيد للعرش وصاحبه، وتخدم قومها الإسبان وهي محمية بعرش الملك المسلم.

وكانت هذه السيدة عائشة امرأة قادرة داهية أريبة فلم ترض لنفسها هذا المصير، وأعدت العدة للفرار من البرج العالي وكاتبت أنصارها، وهيأتهم للثورة على زوجها، ثم شققت الستائر والملاحف واتخذت منها حبالا تعلقت بها وولداها وهبطت من البرج.

وبينما كان أبوعبدالله الكبير يقاتل الإسبان، ينازل جيشا لهم جرارا جاء ليقضي على هذه البقية الباقية من دولة العرب في الأندلس، كانت عائشة وابنها أبو عبدالله الصغير يقاتلان الملك العربي، الأب يؤثر لذته على مروءته ويسيء لولده إرضاء لزوجته، والابن يحارب أباه، وكل ذلك والعدو على الأبواب.

هذا العدو الذي لم يكفه ما اقتطع من بلاد العرب، ولم يكفه ما أراق من دمائهم فهو لا يزال لما يرى من تخاذلهم وانقسامهم وغفلتهم يطمع في القضاء عليهم.

وانتزع أبوعبدالله الصغير هذا العرش المنحوس من أبيه، وغلبه عليه ولكن الإسبان جاءوا فأسروا أبا عبدالله الصغير، وحرموه بر الوالد، ولذة الحكم.

وراحت عائشة تعمل عملها، تستبيح كل شيء لتنقذ ولدها، لقد غلبتها عاطفتها فنسيت حقوق الأمة وواجبات الدين وأحكام الشرف، فعرضت على الإسبان معاهدة تخضع البلاد كلها لحكم ملك قشتالة، ويؤدي أهلها الجزية إليه بعد أن كانوا هم الذين يأخذونها منه، معاهدة الذل والخزي والعار، ومع ذلك فقد تدلل الإسبان وأعرضوا، وشمخوا بأنوفهم لأنه لم يعد يرضيهم (وقد رأوا العرب يفقدون سلائق آبائهم، وبطولات ما ضيهم) إلا أخذ كل شيء ولم يطلقوا أبا عبدالله الصغير من الأسر إلا بعد ثلاث سنين، ودفعت البلاد حريتها ثمن حريته، وبذلت كرامتها وحياتها ليتربع على عرشه، وعاد.. وعاد معه الانقسام، وانشطرت البلاد الإسلامية شطرين، شطر تبع هذا الملك الذي باع نفسه للشيطان كما فعل جده من قبل، فكان ملكا على المسلمين وعبدا للإسبان، وشطر بقي على الولاء لعمه أبي عبدالله الكبير.

ووقعت الحرب الأهلية، وأعان الإسبان صنيعتهم وتابعهم، فطرد عمه وانفرد على هذا العرش الملطخ بالأوضار.

ورحل أبوعبدالله الكبير إلى المغرب وكان بطلا مجرباً وقائدا حازماً أريباً، ورأى الإسبان أنه لم يبق في الميدان إلا هذا الشاب الضعيف، أبوعبدالله الصغير، فقرعوا طبول الحرب، وأعلنوا أن قد أزفت ساعة طرد العرب من إسبانيا.

وكانت عائشة قد أغضبت الله لترضي الإسبان، وألبست قومها الذل والعار، ليستمتع ابنها بهذه اللعبة الحلوة التي أسمتها «العرش» فلم تستبق العرش، ولا رضا الإسبان.

وكانت المعركة الأخيرة، وبدأ الهجوم الغادر على القرى المسلمة في الضواحي فكان منها أمثال «دير ياسين» وورد اللاجئون بالآلاف المؤلفة على غرناطة، وهاج الناس وماجوا يفتشون عن القائد، والمسلمون مهما قل عددهم، ونضب موردهم وساءت حالهم، وانقطع مددهم، لا يفقدون بطولتهم ماداموا يجدون القائد الذي يقودهم في المعركة الحمراء، فلما ظهر هذا القائد وكان البطل الفارس المغوار موسى بن أبي الغزان، ورفع لهم لواء الجهاد، وسل سيف القتال، عصفت في رؤوسهم نخوة العروبة، وغلت في دمائهم عزة الإيمان وأقدموا يدافعون، ولولا ضعف أبي عبدالله الصغير، ولولا هذه الحاشية، حاشية السوء، ولولا الانقسام وتدخل النساء في شؤون الملك، لبدأت هذه الفئة المجاهدة عهداً جديداً في تاريخ الأندلس قد يمتد قرونا أخر، وما كان طارقا يوم هبط هذه الجزيرة، أقوى عدة ولا كان أكثر عدداً، ولكن كان جنده أشد اتفاقاً وطاعة، وأكثر إيماناً.

لقد أبدى موسى وهؤلاء الأبطال المجاهدون من ضروب البطولة، وألوان التضحيات، ما لم يعرف التاريخ أعظم منه روعة، وأكثر جلالا، لكن كانت لله إرادة في العرب والإسبان، فلم يكن لهذه التضحيات وهذه البطولات ثمرة تقطف من رياض النصر، لقد قر رأي هذا الملك الضعيف العاجز وحاشيته على التسليم وكانت الهدنة.

وعقدوا معاهدة جديدة مع الإسبان ونسوا أنهم كلما عاهدوا عهداً نقضوه.

معاهدة ظنوا أنهم سيحفظون بها للعرب أملاكهم وحريتهم في دينهم ودنياهم، فلم يكن منها إلا ما حدثكم التاريخ، وقص عليكم الرواة.

وتلفتوا يفتشون عن نصير فلم يجدوا نصيراً، واستجاروا بإخوانهم المسلمين فلم يلقوا مجيراً، وكان آل عثمان في أوج سلطانهم، يحكمون ما بين خراسان

وأسوار فينا، ولكن لم يلتفت إليهم السلطان سليمان عاهل آل عثمان، رغم الصرخة القوية التي أطلقها الشاعر الأندلسي، فدوت في أرجاء الأرض ولا تزال تدوي في أجواء الزمان.

وخرج الملك المسلم، سليل الأبطال، ليضع بين يدي عدوه أمانة القرون التي انتهت إليه، ليلقي على قدميه بكرامة المسلمين وأمجادهم، ليفتح له عاصمة ملكه، ويبيحه أبهاء الحمراء ومقاصرها.

فلما تلاقيا هم بأن ينزل عن فرسه، مترجلا أمام فرديننند، فمنعه من الترجل وتقبل خضوعه واستخذاءه، ثم حوله إلى زوجته إيزابيلا فقدم إليها طاعته وولاءه، وسلمها مفاتيح غرناطة.

وختم هذا السفر الضخم الذي ملأناه مجداً وفضيلة وعلما، فكانت خاتمته الخزي والعار، وهكذا تقوض هذا الصرح الذي أقمناه على جماجم أبطالنا، ونضحنا عليه دماء شهدائنا، ثم هدمناه بمعاول التفرق والانقسام، وشهوة الحكم وانتهاب اللذات، وهكذا انتهت في لحظة، حياة ثمانمائة سنة عاشها العرب في الأندلس جعلوها فيها شعلة نور، وروضة زهر وثمر، على حين كانت أوروبا صحراء موحشة، تائهة تحت سجف الظلام.

وبكى أبوعبدالله بكاء الجبان الذليل فصرخت أمه عائشة: ابك مثل النساء ملكا لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ومشى أبوعبدالله حتى إذا بلغ تل غرناطة، وقف وتلفت ينظر من بعيد إلى شرفات القصر الذي كان منزل آبائه وملعب صباه وعرش ملكه فصار لعدوه، فهو لن يدخل أبهاءه مرة ثانية ولن يمرح في جناته، ولن تكتحل عينه برؤية الماء يفور من نوافيره ولن يصافح أنفه ريا عبيره.

وأدار رأسه، ومشى إلى الأمام يستقبل الآتي المجهول، وغابت عن عينيه أبراج الحمراء إلى الأبد.

زورق الأحلام

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) - يناير (١٩٦٧م).

"الإنسان مخير لا مسير، ولكنه لا يستطيع أن يسير إلا في الطريق الذي رسمه القدر".

زرت صديقاً لي، من رفاق الصغر، فرأيت ولده منكباً على أوراق له، يفكر ويكتب، ثم يمزق ما كتب، ثم يعود على التفكر. فقلت لأبيه: ما له؟

قال: إنه مستغرق في «الإنشاء».

قلت: فيم يكتب؟

قال: في الموضوع الأزلي الذي لا يمل منه مدرسو الإنشاء، ولا يسأمون من ترديده.

قلت: ما هو؟

فضحك وقال: السؤال الذي يلقى في كل بلد، وفي كل وقت، لا يتبدل بتبدل الأمكنة ولا الأزمان. وهو: «ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟».. وسكت لحظة. كأنه يتذكر. ثم قال لي:

- تذكر كم مرة سئلنا هذا السؤال في المدرسة؟

قلت أذكر، لقد كتبت فيه مرات لست أحصيها. عشرين مرة؟ ثلاثين، أكثر من ذلك! وكنت في كل مرة أنطلق مع أحلامي أتخيل دروب الحياة وقد فرشت لي بالسجاد الذي تغوص فيه من لينه الأقدام. ثم رشت عليها العطور، ونثرت فوقها الأوراد والزهور.

لقد طالما تخيلت نفسي هائماً في رياض هذا المستقبل، أنشق ريا عطره،

وأجتلي جمال زهره، وأرتع في خيره المرجى وبره.

تصورت نفسي طبيباً له العيادة الكبيرة، والزبائن الكثر، وعشت في هذا الحلم حتى تخيلت نفسي أرى «اللوحة» على بابي، وأمد يدي لألمس «السماعة» في عنقي.

وتصورت نفسي ضابطاً كبيراً، قد هبطت النجوم من سمائها حتى استقرت على كتفيه، ونزل البرق حتى صار يخرج من قرع مهمازيه.

وتصورت نفسي صاحب المزارع الواسعة الشاسعة. والحقول الممرعة المزهرة، أفيق فيها مع العصافير لأتطلع إليها، أكحل العين في الإصباح بمرآها.

وتصورت وتصورت، فأين مني الآن تلك التصورات؟

لقد أردت لنفسي، وأراد الله لي، فكان ما أراد الله لي، لا ما أردت لنفسي.

كنت من شهور أقلب أوراقاً لي قديمة، أفتش بها عن وثيقة أطلبها، فوجدت «إيصالا» هذا نص ما فيه:

المملكة المصرية
دار العلوم العليا
نادي التمثيل والموسيقى **نمرة متسلسلة (٧٠)**

وصل من حضرة العضو محمد علي الطنطاوي الطالب في دار العلوم العليا مبلغ ١٠ فقط (عشرة قروش صاغ) قيمة اشتراكه عن شهر اكتوبر سنة ١٩٢٩ .
تحريراً في
اكتوبر ١٩٢٩

الخاتم الرسمي
أمين الصندوق
الإمضاء
(محمد علي الضبع)

علي الطنطاوي عضو نادي التمثيل والموسيقى؟!

وتصورت ماذا تكون خاتمة القصة التي بدأت بهذا الإيصال لو قدر لها أن تكتمل فصولاً.

إلى أين كان يصل بي ذلك الطريق الذي وضعت قدمي عليه، يوم صرت عضواً في هذا النادي لو أني تابعت السير فيه حتى بلغت آخره؟

كنت أبدأ ممثلاً في الكلية، ثم أعتلي خشبة المسرح، ثم أدخل فرقة من الفرق ثم يسجل اسمي في القائمة التي تبدأ باسم «يوسف وهبي» وتنتهي باسم «إسماعيل ياسين».

فيكون «علي الطنطاوي» اليوم ممثلاً عجوزاً[١] متقاعداً، يتسكع على أبواب الحانات، ويعاشر القينات، ويسهر الليالي، وينام الأيام[٢]، ويعود بلا صحة ولا مال، وربما عاد بلا دنيا ولا دين.

ولم يكن يحول بيني وبين هذه الغاية شيء. فالاستعداد لذلك في نفسي كبير والرغبة فيه شديدة، وكان يزين لي فأراه يومئذ حسناً، ولكن الله صرفني عنه.

وما كان ذلك بعمل مني. ولكن بصنع الله لي.

وفي أوراقي التي وجدت فيها هذا «الإيصال» شهادة مكتوبة بالخط الديواني ولها إطار مذهب الحواشي، وفي رأسها اسم وزارة الأوقاف، فيها قرار تعييني إماماً في جامع رستم في حي العقيبة في دمشق.

إي والله، وتاريخها سنة ١٩٢٤. أي من ثنتين وأربعين سنة شمسية.

إني لأنظر إلى هذه الشهادة، وأرجع البصر إلى ذلك «الإيصال» الذي اصفر لونه، وبلي ورقه، وتمزقت طياته، فأرى عجباً. دونه والله ما يشطح إليه خيال القصاص.

من إمام جامع، إلى ممثل في «التياترو»

ولكن كيف دخلت نادي التمثيل والموسيقى؟

إني لأتأمل هذا «الإيصال»، فأعود إلى أيامي الماضيات إلى سنة ١٣٤٧هـ، وقد نلت شهادة البكالوريا كما كنا نسميها يومئذ، أو التوجيهية كما تسمى اليوم وكان الفرنسيون قد أنشأوها تلك السنة فحملتها وسافرت إلى مصر، فدخلت دار

(١) كلمة عجوز في الأصل للمرأة ولكنها عمت في الاستعمال.

(٢) اليوم في الأصل النهار.

العلوم العليا، وانتسبت إلى الجامعة المصرية وكنت أول سوري يؤم مصر للدراسة العالية في غير الأزهر، وكنت أحرر في مجلتي خالي وأستاذي محب الدين الخطيب: المجلة الأدبية الأولى في العالم العربي- وهي (الزهراء) والمجلة الدينية الأولى في العالم الإسلامي. وهي (الفتح).

وأعلنت عمادة الكلية (أو مديرية المدرسة كما كانت تسمى) عن تأليف ناد للتمثيل والموسيقى، ودعوا من يريد الاشتراك فيه إلى طلب الانتساب، فكنت فيمن أراد.

وجاءونا برجل (ممثل) يعلمنا التمثيل قصير متحذلق لا أدري ما صنع الله به، بعد هذه السنين، التي قاربت الأربعين ولا أزال أذكر اسمه، حفظته لغرابته، وإن كان مكان الأسماء من ذاكرتي قد كثرت فيه الخروق التي لا ترقع.

واختبرنا بجمل نلقيها إلقاء مسرحياً على أن نعبر عن معانيها بخلجات وجوهنا، ولهجات حروفنا وإشارات أيدينا - فلما جاءت النوبة إلي - وألقيت تلك الجمل دهش هو ومن كان معنا من الطلاب ورأوا شيئاً ما كانوا يتوقعونه وشهدوا بأن هذا الشامي.. «ممثل جامد» أي ماهر، ونعوذ بالله من الجمود..

ما كانوا يتوقعونه مني، أما أنا فكنت أتوقعه من نفسي، لأني كنت قد ألفت من تلاميذي في المدرسة الابتدائية التي كنت أعلم في دمشق فرقة للتمثيل، وكنت أكتب لهم القصة، وأعلمهم تمثيلها، وكنت بارعاً في التمثيل.

وما أريد أن أفيض في سرد القصة، فلذلك كتاب عنوانه «ذكريات نصف قرن» كتبت منه كثيراً. وبقي علي منه كثير.

ولكن أريد بيان العبرة من هذه القصة.

لقد اشتغلت بالتمثيل، واحترفت الصحافة، وغصت في السياسة، ولكن اللّه كان يوجه طريق سيري، فلم يختر لي من ذلك كله شيئاً.

لا، لا أقول «إن الإنسان مسير»، فإنها أضل مقالة قالها الإنسان والإنسان مخير، أعطاه الله اليدين، فهو يستطيع أن يحركهما ليتصدق على السائل، وأن يحركهما ليضرب البريء، ومنحه الرجلين فهو يقدر أن يمشي بهما إلى المسجد

ليصلي وإلى الماخور ليفسق .

«جول سيمون» يرد على من يدعي أنه مسير. فيقول له: سأرفع يدي بعد ثلاث دقائق. فهل تراهنني على أنني لا أستطيع أن أرفع يدي؟.

ولكن ليس معنى هذا أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في الكون، ولا أن يقرر لنفسه المصير.

الصخرة لا تتحرك، والسيارة تتحرك، فنحن لا ننكر حركة السيارة، ولا «حرية» سائقها في التوجه بها، ولكن ليس معنى هذا أن يخترق بها الجبل، ولا أن يمشي بها على وجه الماء، إن السيارة تمشي «بحرية» سائقها واختياره ولكنها لا تمشي إلا على الطريق.

وكذلك الإنسان، إن له حرية واختياراً، ولكنه لا يستطيع أن يسلك إلا الطريق التي تشقها له الأقدار.

إنه كراكب الزورق في البحر، يوجهه حيث شاء، ولكن قد تضربه موجة عاتية فتحول وجهته من اليمين إلى الشمال، وكذلك تصنع الأيام، بزوارق الأحلام، كنت في مصر، وقد رسمت طريقي، وحددت وجهتي: أن أكمل الدراسة في دار العلوم، وأعمل في الصحافة، وإذا بموجة تلطم صدر زورقي، فتعيدني إلى دمشق، فأدخل فيها كلية الحقوق وأغامر في السياسة، وأقود الطلاب جميعاً في ساح النضال، وأحترف الصحافة، فأكتب في «فتى العرب» عند مؤلف «سيد قريش» وفي «ألف باء» عند باقعة الصحافة في الشام. ثم أتولى التحرير الداخلي في الجريدة الوطنية الكبرى، التي أصدرتها الكتلة الوطنية رافعة لواء النضال للاستقلال.

وكان آخر ما أفكر أن أكون موظفاً.

أنا أكون موظفاً في ظل الانتداب؟ وإذا فرض ما لا يكون وقبلت التوظيف[1] فلن أكون معلما، أنا أصير معلم صبيان.

ولكن هذا الذي كان:

---

(١) الوظيفة في الأصل بمعنى الراتب.

فقد كانت في سنة ١٩٣١ نكسة وطنية، بعد انتخابات «٢٠ كانون» أي ديسمبر، التي قاطعناها، وسيطر الفرنسيون. وعطلوا الجريدة التي كنت أعمل فيها. فقبلت أن أكون معلماً، لئلا أدع إخوتي بلا طعام.

وضربت موجة أخرى زورقي، حين آذاني الحاكمون فنقلوني في أقل من ثلاث سنوات، بين خمس من القرى، وآذيتهم بقلمي ولساني، فتركت الشام وسافرت إلى العراق.

وكان لي في العراق إخوان، وكان لي تلاميذ، منهم من صار رئيس جمهورية (رحمه الله وأبقى في الرئاسة أخاه) ومنهم من لست أحصي ممن صاروا وزراء، وصار منهم كبار القضاة، والقادة والضباط، ما كان أحلى أيامي في العراق، وسلام مني لا ينقضي على إخواني وتلاميذي في العراق.

وصرفتني موجة إلى لبنان، فعملت في بيروت سنة ١٩٣٧م وصار من تلاميذي فيها أساتذة في الجامعة، وناس من كبار الناشرين وأصحاب المجلات، وصار منهم رئيس القضاء الشرعي، ومنهم الشاب العالم الصالح الذي سرني وفرح قلبي، أن سمعت من أيام نبأ انتخابه بالإجماع مفتياً للبنان.

وموجة أخرى، حولتني إلى القضاء، وما كنت أظن يوماً أن سألي القضاء، ثم عدت بعد أكثر من ربع قرن في القضاء، أمضيت نصفها في «محكمة النقض»، عدت بعد التقاعد، مدرساً في مكة المكرمة بجوار حرم الله.

جرني إلى هذا الكلام كله، موضوع الإنشاء.

فليفكر إخواننا المعلمون، حين يلقون هذا السؤال، فيما كانوا يجيبون عليه وهم طلاب.

هل كانوا يريدون أن يكونوا معلمين، أم كانت لهم غايات، طالما تطلعوا إليها، وحاولوا بلوغها؟

وأحلام كبار طالما كانوا يناجونها في خلواتهم، ويسامرونها في لياليهم ويحلمون بها في يقظاتهم.

وجهوا إليها زوارق حياتهم، وكل همهم أن يصلوا إليها، فجاءت موجة

فضربت الزورق فحولت طريقه؟

أما أنا فقد رث زورقي وبلي من طول ما توجه يمينا وتوجه شمالاً، فمر بي على كل بلد فرأيته، وأطال بي الرحلة واللذاذات، والمتاعب والآلام، عرفت لذة المال، ومتعة الشهرة وحلاوة المنصب، وإعجاب الجماهير، ولو عدت تلميذاً الآن وسئلت هذا السؤال، لقلت: إنه لم يبق لي من الآمال إلا أمل واحد، هو أن يرزقني الله حسن الخاتمة. وأن يخلفني في أهلي وبناتي، وأن يريني قبل موتي بياض النصر للإسلام وأهله، بعد هذا الليل الذي امتد سواده وعم، اللهم آمين.

● رأي للمناقشة

ما هي السماء؟

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م)

«الوعي الإسلامي» يكتب فيها بحمد الله فريق من جلة العلماء، ويقرأها جمهرة من خيرة القراء، لذلك رأيت أن أعرض فيها رأيا في السماء، لتقيم من أوده تعليقات العلماء. ولقد ذكرته في بعض ما كتبت استطرادا أو تلميحا، وأذكره اليوم تفصيلا وتصريحا بعد أن كثر الكلام عن وصول الإنسان إلى القمر، وكثر السؤال عن القمر، وكيف يمكن الوصول إليه وهو في السماء؟

● وموضوع المقال «ما هي السماء؟»

عندنا نصوص ثابتة في الدين، وعندنا أقوال مقررة في العلم.

أما الثابت في الدين فهو أن السماء ليست حدودا وهمية، ولا مدارات كواكب، كما ذهب إلى ذلك بعض العصريين من المفسرين، ولكن السماء «جرم» حقيقي، لأن الله سماها بناء، وقال ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ (النبأ: ١٢)، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ (الشمس: ٥) ووصفها بأنها سقف لهذا العالم، فقال ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ (الأنبياء: ٣٢)، وقال ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ (الطور: ٥)، وجعل لها أبوابا تفتح وتغلق، فقال ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (القمر: ١١)، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأعراف: ٤٠)، ونفى أن يكون فيها منافذ غير هذه الأبواب، فقال ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦)، وأن السماء تفتح يوم القيامة ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ (النبأ: ١٩)، وأنها ﴿تَشَقَّقُ﴾ (الفرقان: ٢٥) ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ (الرحمن: ٣٧)، وتنفطر وتكشط، ولها بروج ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ (البروج: ١)، ﴿جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ

﴿بُرُوجًا﴾ (الفرقان: ٦١).

وأما المقرر في العلم فهو أن الشمس والقمر، يسبحان في الفضاء وهذا شيء صرح به القرآن فقال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠)، وأن الشمس على بعدها عنا، وكبرها بالنسبة إلى أرضنا يصل نورها إلينا في نحو ثمان دقائق، لأن النور يقطع في مسيره ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، أي أنها تبعد عنا بالزمن الضوئي ٨ دقائق.

وأن من هذه الكواكب التي تظهر لنا نقطة في الفضاء، في الليلة السوداء، وقد لا تظهر لنا أبدا، منها ما يبعد عنا ألف ألف (أي مليونا) من السنين بالزمن الضوئي، ومنها ما يبعد عنا ألف مليون سنة وأكثر.

فاحسبوا كم (ثمان دقائق) في هذه المدة التي تبلغ (ألف مليون سنة) لتتصوروا كم هي أبعد من الشمس!

أما كبرها، فنحن نعلم أن القمر أصغر من أرضنا، والأرض لا تعد شيئا إلى جنب الشمس، والشمس وما يتبعها من سيارات، لو ألقيت هي وسياراتها في كوكب من هذه الكواكب، لكانت بالنسبة إليه كحبة رمل ألقيت في وادي نجد، أو كقطرة ماء قطرت في البحر المحيط.

وهذه الكواكب، على ضخامتها، كثيرة لا تحصى، يزيد عددها على ملايين الملايين، وتسير بسرعة مهولة، ومع ذلك لا تصطدم إلا إذا اصطدمت ست نحلات تطير وحدها حول الأرض، لأن هذا الفضاء واسع واسع كسعة جو الأرض بالنسبة إلى النحلات.

هذا ما يقوله علماء الفلك.

فأين مكان السماء من هذا الفضاء؟

إن الله ﷻ بعد أن وصف السماء بأنها بناء، وأنها سقف مرفوع، أكمل الصورة فجعل لهذا السقف مصابيح، فقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ (فصلت: ١٢)، وصرح بأن هذه المصابيح هي الكواكب، فقال ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ (الصافات: ٦)، فدل ذلك على أن الكواكب تحت السماء الدنيا، لأن المصابيح

لا تكون إلا تحت السقف.

أما آية ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح: ١٦) أي في السماوات، فلا يدل على غير ما قلت، لأن القمر إذا كان في السماء الدنيا، فهو في السموات كما لو كانت جوهرة في علبة، وهذه العلبة في علبة أخرى، والثانية في ثالثة، فقلت إن في هذه العلب جوهرة، والآيتان الأوليان أصرح، ولا يترك الدليل القطعي لدليل محتمل[1].

والذي تبين لي من هذا كله، من نصوص الدين، ومن مقررات علماء الفلك.

أن الشمس وتوابعها (وهن الأرض وأخواتها) وهذه الكواكب التي لا يحصى عددها تسبح في فضاء عظيم، وهذا الفضاء تحيط به كله «كرة» هائلة.

وهذه الكرة هي «السماء الدنيا» وهذا العالم بأرضه وشمسه وكواكبه في وسطها.

ولهذه الكرة سمك الله أعلم بمقداره، قال تعالى ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ وهي في فضاء لعله مثل هذا الفضاء، أو أصغر أو أكبر، وحوله كرة أخرى - لها سمك - هي السماء الثانية، ثم فضاء ثم كرة، وهكذا إلى السماء السابعة.

وبغير هذه الصورة لا تكون السموات طباقا.

وخارج الكرة الكبرى التي هي السماء السابعة، أجرام أكبر، أجرام لا يستطيع العقل مهما جهد وكد، أن يتصور مدى كبرها، هي «الكرسي والعرش» و«سدرة المنتهى».

هذه كلها عظمة المخلوق، فما بالك بعظمة الخالق!

وإذا نحن وصلنا إلى القمر والمريخ بل والشمس فأين القمر والمشتري والشمس من السماء؟

إذا كان بعد الشمس عنا، كبعد إبهامك عن خنصرك، تكون السماء أبعد عنك

---

(١) كل عقلاء الناس على دين واحد.

- قد يصح للإنسان أن يغير رأيه ولكن لا يصح له أن يغير مبدأه.

- انما يعتذر عما لا يمكن تغييره.

من أميركا، بملايين الملايين من المرات.

وإذا كان علماء الفلك يقولون بأن من الكواكب ما يسير ضوؤه في الفضاء من أول الزمان ولم يصل إلينا إلى الآن، فمعنى ذلك، أننا لو اخترعنا مركبة فضائية، تسير بسرعة الضوء، أي أنها تقطع ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، وأننا لو ركبنا فيها يوم ولد نوح، وسرنا من ذلك الوقت إلى اليوم لا نكون قد قطعنا من طريق السماء (الدنيا..) إلا كما تقطع النملة التي تمشي دقيقة واحدة، من طريق «الكويت - أميركا»!

وأنا حين أنتهى إلى هذه الصورة، وأرى أن عالمنا كله، بكواكبه وفضائه محبوس في وسط الكرة الصغرى التي هي «السماء الدنيا»، أجد ذهني ينتقل إلى الجنين «المحبوس» في بطن أمه.

هذا الجنين، لو استطعت أن تسأله، واستطاع أن يجيبك، وقلت له، ما هي الدنيا؟

لقال لك: الدنيا هي هذا البطن، وهذه الأغشية.

فلو خَبَّرته، أن هاهنا «دنيا» أكبر، عالما فيه بر وبحر، وسهل وجبل، ومدن كبار، وأن دارا واحدا من دور هذه المدن، أكبر من دنياه هو بملايين المرات، لم يستطع أن يفهم ما تقول أو أن يتصوره، وكذلك نحن حين نسمع أن الجنة عرضها السموات والأرض، وأن قصراً واحداً من قصورها، أكبر من هذه الأرض كلها.

إن نسبة ملك الله، إلى هذا الفضاء الذي فيه الكواكب والنجوم، كنسبة هذا الفضاء إلى بطن الأم.

وهذا العالم البالغ الضخامة، موجود مثله على صورة بالغة الصغر، موجود في «الذرة»، الذرة التي لا تراها عين الإنسان ولا بالمجهر «الإلكتروني» فيها فضاء كهذا الفضاء، وكواكب مثل هذه الكواكب، تسبح فيه، ويدور بعضها على بعض، بنظام مقرر وقدر معلوم. فسبحان الله، لا إله إلا هو.

وما أحمق من لا يؤمن بالله!

أربع قواعد للإيمان

العدد (٣٥) ذو القعدة (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨م).

● **مقدمة**

إذا كنت في مكة، وسألك سائل: هل في الطائف الآن مطر؟ تقول: لا أدري، لا تستطيع أن تجيب بـ «نعم»، لأنه ليس عندك دليل الوجود، ولا تقدر أن تجيب بـ «لا» لأنك لا تملك دليل العدم.

وهذا ما يسمى «الشك»: خمسون في المئة «إيجاب» وخمسون «نفي» فإن أبصرت في جهة الشرق غيوماً، تلوح على حواشي الأفق من بعيد، رجح عندك رجحاناً خفيفاً، أن في الطائف مطراً.

وهذا هو «الظن»: ستون في المئة «نعم»، وأربعون «لا».

فإن ازداد الغمام وتراكم، واسود وتراكب، وخرج البرق من خلاله، ازداد ظنك بنزول المطر.

وهذا ما يقال له «غلبة الظن»: سبعون أو خمس وسبعون في المئة نعم، فإن كنت ماشياً في طريق الطائف، وبلغتها، فرأيت المطر بعينك، وأحسست به على وجهك، «أيقنت» أنه نازل، و«علمت» بنزوله علم اليقين.

العلم «اليقين»: فالعلم[1] منشؤه الأول الحس: ما أدركه بحواسي أوقن بأنه موجود[2].

---

(١) عندنا العلم بالمعنى المطلق، وهو الذي يقابل الجهل، والعلم الذي يقابل الفن والفلسفة، والعلم الذي يقابل الشك والظن، وهو الذي يراد في هذا البحث.

(٢) وهذا هو العلم الضروري. ومنشؤه الثاني الخبر المتواتر، ثم العلم النظري ومنشؤه الدليل العقلي.

ولكني أمشي في الصحراء، ساعة الظهيرة، فأرى بركة ماء، تبدو ظاهرة للعين، فإذا جئتها لم أجد إلا التراب، لأن ما رأيته «سراب».

وأضع القلم المستقيم، في كأس الماء، فأراه منكسراً، وهو لم ينكسر. فهل أشك فيما أدركه بالحواس؟ إذا شككت في المحسات لم يصح في الذهن شيء، واستوى العاقل والمجنون الذي ينكر ما هو كائن، ويتوهم ما لا يكون، لا، ولذلك أزيد شرطا آخر لحصول العلم بالحس، وهو ألا يحكم العقل بالتجربة السابقة، إن هذا وهم أو خداع حواس.

الحواس: ما الحواس، وما مداها؟

النفس سجينة في هذا الجسد، ولكن لها نوافذ تطل منها على العالم، وهذه النوافذ هي «الحواس» فهل ترى منها كل ما في العالم؟

«الحواس» أولاً ليست كاملة، لأن الكامل لا يقبل الزيادة، ولقد «كنا» نعرف، أن الحواس خمس، ثم أدركنا بالملاحظة والنظر في أنفسنا أنها في الواقع تزيد على خمس، فنحن نحس (مثلاً) التعب عقب المشي الطويل، أو الجهد المبذول، ونحس الجوع والعطش والغثيان - فكيف أحسسنا به، وما رأيناه ولا سمعناه، ولا لمسناه ولا شممناه؟

أحسسنا بحاسة سادسة يصح أن نسميها «الحاسة المشتركة»[1].

وتغمض عيوننا، فنحس بأن أيدينا مبسوطة أو مقبوضة، وأنها ممدودة أو

(١) لهذه القواعد قصة، أرويها كما وقعت، وهي أني كنت سنة ١٩٣٧ (أو ١٩٣٨- نسيت) مدرساً للأدب العربي في بغداد (بعد الزيات وقبل زكي مبارك) فكان الطلاب في الفصل على غاية من الهدوء والإصغاء، فكُلِّفْتُ مع الأدب بدرس الدين، وإذا بالفصل يضطرب، والفوضى تعم، فأدركت أن للدين في نفوسهم صورة مشوهة، فشرعت بمقدمة ألقيها بلا إعداد لها، ولا عزم سابق على إلقائها، فألهمني الله هذا البحث إلهاما، وما رأيته في كتاب، ولا قرأته لأحد، ونشرته ملخصاً في «الرسالة» من تلك الأيام (من ثلاثين سنة). ولما كانت الوحدة بين مصر والشام وكلفت إعداد مناهج المدارس الشرعية، أعددتها وحدي، وأدخلت هذا البحث في درس العقائد وأحلت على ما كتبت فيه فصار تدريسه مقرراً في مدارس سوريا الشرعية ودخل في كتبها الرسمية وإن كان من مؤلفيها من انتحله وأوهم أنه من نتاج فكره.

مرفوعة، وهذه حاسة سابعة «هي الحاسة العضلية».

وحاسة الحرارة والبرودة، وحاسة التوازن - حتى أن العلماء قد كشفوا «المركز» الذي فيه حاسة التوازن، وهو «سائل» أوجده الله في الأذن الداخلية، جربوا أن يستخرجوه من حيوانات المختبر (الأرانب والفيران)، فصارت تمشي بعد فقده مترنحة مثل مشية السكارى.

فلو كانت الحواس الخمس كاملة لما قبلت الزيادة عليها.

ثم إن البصر ندرك به «عالم الألوان»، والسمع ندرك به «عالم الأصوات»، أفليس من الممكن أن يكون بينهما عالم، لا أدركه، لأني لا أملك حاسة أدركه بها؟ ولم تعط النفس نافذة تطل منها عليه؟ عالم موجود ولكني لا أحس وجوده فهو مني كعالم الألون للأكمه! (الأكمه الذي ولد أعمى) قد يعرف بالسماع أن السهل أخضر، والبحر أزرق، والورد أحمر، ولكنه لا يعرف ما الخضرة وما الزرقة، وما الحمرة، لأن النافذة التي تطل منها نفسه على عالم الألوان مغلقة.

والأصم الذي لم يسمع أبدا، قد يعلم أن في الدنيا أنغاما، لها أسماء، وقد يحفظ أسماءها، ولكنه لا يعرف ما البياتي وما الرصد وما الصبا، بل إن لدينا دليلًا أظهر، هو الغرفة الساكنة التي نكون فيها، فلا نسمع فيها همسة، ولا نأمة ولا نحس فيها إلا السكون الكامل، في جوها جميع الأصوات (الخطب والمحاضرات والأغاني) التي تذيعها إذاعات الأرض، كلها موجودة، ولكنا لا نحسها، لأنا لا نملك حاسة ندركها بها، فإذا جئت بالراد «الراديو الذي يردها عليك» سمعتها واضحة.

ولا تعجبوا - فالجماد يدرك أحياناً ما لا يدركه الإنسان: ميزان الحرارة (الترمومتر)، يدرك زيادة الحرارة درجة واحدة، وأنت لا تدركها، وميزان الضغط (البارومتر)، والرادار، والبوصلة، كلها تحس ما لا تحسه، وتدرك من أوضاع الكون ما لا تدركه.

والعوالم التي سلطنا عليها، وأعطينا الحواس لإدراكها، هل ندركها كلها؟ إن البصر، يدرك عالم الألوان، ولكن هل يطلع على كل ما فيه، أهل يرى بعينه

النملة وهي تمشي على بعد ألف ذراع؟

إن لهذه النملة صوتاً. فهل يسمع بأذنه صوتها؟ إن في كأس الماء الذي يبدو للعين عذباً صافياً، آلاف الآلاف من الحيوانات الصغيرة. فهل يراها؟ لا، وهل يحق له أن ينكر وجودها لأنه لا يراها؟

هل يحق له أن يجحد الموجات الصوتية، لأنه لم يسمعها؟

● **فالقاعدة الأولى:**

هي أنه: **لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا.**

وهذا ما عبر عنه علماؤنا بقولهم: لا يشترط من عدم الوجدان عدم الوجود[1].

وهذه القاعدة، نرد بها اعتراض الماديين، على الإيمان بالمغيبات، يقول أحدهم: أنا لا أصدق بوجود الملائكة ولا الجن، لأني لا أراهم ولا أحس بهم، فنقول له:

كيف صدقت بوجود الموجات الصوتية في جو الغرفة، ولم تكن (قبل الراد) تسمعها، ولا تدرك وجودها، ونفيت إمكان وجود الملائكة، لمجرد أنك لا تراهم ولا تحس بهم؟

● **القاعدة الثانية:**

إن الله أعطانا قوة نصل بها إلى حيث لا تصل الحواس. وهي قوة «الخيال».

إن غابت عني داري في دمشق وأنا في مكة، تخيلتها فإذا هي أمامي، أرى بيوتها ومرافقها، وإن نأى عني صديقي تخيلته فرأيته..

أفلا يتمم الخيال نقص الحواس، وما مدى الخيال البشرى؟

الخيال بنوعيه، هذا «الخيال المرجع» الذي أشرت إليه، و«الخيال المبدع» خيال الشعراء والأدباء وإخوانهم من أهل الفنون، كله مقيد بالحس.

إن أقصى ما يعمله رجل الفن، مهما كان عبقرياً، أن يؤلف صورة جديدة من الأجزاء القديمة... فالذي نحت تمثال «فينوس» لم يأت به من العدم، ولا مما وراء المادة، بل نظر إلى أجمل عين، وأجمل وجه، وأجمل جسم، فألف بينها،

(١) فعل «وجد» يتبدل معناه بتبدل مصدره، فالوجود وجود الشيء بذاته، والوجدان شعورك بوجوده، والوجد العشق والموجدة الغضب، وكلها يقال فيه «وجد» «يجد».

فجعل منها تمثال امرأة، لم يجدها كاملة، ولكن وجد أوصالها فجمعها.

والقزويني في «عجائب المخلوقات»[١]، تصور أو زعم بأنه رأى حيواناً جسمه كفسطاط الأمير، وفمه كباب الدار، وأسنانه كأسنة الرماح.

وهو يطير في الجو، ويخطف برجليه الفيل، وهذه الصورة على غرابتها، لم يزد فيها على أن أخذ جسد الفيل، وفم الحوت، وأسنان النمر، وجناحي النسر. فكبرها وركبها.

والمذهب الخيالي في القصة.. انظروا أغرب ما جاء به أهله من قصص «ولز» إلى قصص الحياة على القمر، وفي المريخ.. وما جاء به المعري في رسالة الغفران، و«دانت الإيطالي» وابن شهيد الأندلسي تروه كله منتزعاً من الحياة الأرضية، حتى الذين كتبوا عن المريخ، بل الذين تصوروا الحياة الآخرة لم يستطيعوا أن يخرجوا عن حياة الأرض التي عرفوها.

فالقاعدة الثالثة هي أن الخيال لا يقدر أن يجاوز هذه الحياة المادية.

فنحن لا نستطيع أن نتخيل نغمة عطرة، ولا رائحة حمراء، ولا نتصور إلا الأبعاد الثابتة «الطول والعرض والارتفاع» لا نستطيع أن نتصور بعداً رابعاً[٢]، ولا دائرة ليس لها محيط، ولا مثلثاً ليس له زوايا.

فكيف «إذن» نتخيل الآخرة، وما فيها؟

إن ابن عباس يقول: «ما في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء»، وهذا حق، فلا خمر الآخرة كخمرة الدنيا، ولا حورها كنسائها، ولا نار جهنم كنارها، ولا الصراط الممدود على جهنم كالجسور الممدودة على الأودية والأنهار.

ولكنها شيء آخر، شيء لا يمكن أن نتصوره ولا أن نتخيله، كما أن الجنين في بطن أمه لو أعطي العقل والفهم، وقيل له، إن ها هنا شمساً وقمراً، وبراً وبحراً، وسهلاً وجبلاً، لا يستطيع أن تصور ذلك أو يتخيله.. ونسبة الآخرة إلى الدنيا، كنسبة الدنيا إلى بطن الأم الذي فيه الجنين.

---

(١) أو غيره، فقد شككت، وضعفت الذاكرة، وضاع مني المرجع.

(٢) أعني بعداً حقيقياً، لا بالمعنى الاعتباري الذي جاء به آينشتاين.

● **العقل**

لما أبصرت العين العود المستقيم، منكسراً، وهو في كأس الماء، لم ينخدع العقل بما رأت العين، وعرف أنه لم يزل مستقيماً، ولما رأت التراب ماء، في الصحراء، عرف أنه سراب، وأنه ليس ماء ولكنه تراب...

فالعقل أصح حكماً، وحكمه أبعد مدى، ولكن هل يحكم على كل شيء، ويمتد مداه إلى غير ما نهاية؟

إن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء، حتى يحصره بين اثنين: الزمان والمكان، فيقول: متى؟ وأين؟ فما لم ينحصر بينهما، لم يكن للعقل عليه سلطان.

فلو قال لك مدرس التاريخ، إن حرباً وقعت بين العرب والفرس، ولكنها لم تقع قبل الإسلام ولا بعده، ولم تقع في زمن من الأزمان، ولكنها وقعت فعلاً. لم تدرك ذلك، ولم تصدقه، ولم تقبله.

ولو قال لك مدرس الجغرافية إن مدينة ليست في سهل ولا جبل، ولا في شرق ولا في غرب، ولا في أرض ولا في سماء، ليست في مكان، ولكنها موجودة فعلاً، لم تدرك ذلك، ولم تصدقه ولم تقبله.

ومعلوم بالضرورة أن الله ﷻ، وصفاته وآلاءه، لا تخضع للزمان ولا للمكان، والله لا أول له ولا آخر، ولا يشتمل عليه مكان، فالعقل لا يستطيع أن يحكم على الله ولا على صفاته، ولا على قضائه وقدره، كل عمله فيها فهم نصوص الوحي، الذي جاء من خارج العقل.

والعقل محدود، لا يستطيع أن يتصور غير المحدود، ولا يحكم على غير المتناهي، جرب أن تتصور حقيقة معنى الخلود في الجنة، أو في النار تجد العقل يحكم بالبقاء فيها مليون سنة، وعشرة ملايين، وأضعاف ذلك، ثم يقف، ويقول: وبعد؟ إنه يريد أن يصل إلى النهاية، إنه لا يتصور الخلود.

والله ﷻ، غير محدود، فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه.

وإذا بحث العقل فيما ندعوه «اللانهاية» انتهى بحثه إلى الوقوع في التناقض

الذي يحكم العقل ببطلانه. أي أن العقل عند بحثه في غير المحدود يحكم على نفسه بالبطلان.

الفيلسوف الألماني «كانت» له كتاب اسمه «نقد العقل» جاء فيه بأربع عشرة مسألة تثبت هذا، وقد عجب منها الفلاسفة والعلماء، ثم وجدت أن علماء الكلام في أدلتهم على إبطال الدور والتسلسل قد سبقوه إليها.

ومن أدلة علمائنا، أن تخرج من نقطة «م» مثلاً خطين مستقيمين متباعدين، وتفترض امتدادها إلى «اللانهاية». وتصل بينهما خطوطاً معترضة هي (ب جـ)، (ب١ جـ١)، (ب٢ جـ٢)، (ب٣ جـ٣)، وهكذا حتى تصل إلى اللانهايتين، وتسأل هل الخط الأخير وليكن (ب٨ جـ٨).

محدود أم هو غير محدود؟

إذا قلت إنه محدود، رد عليك أنه بين لا نهايتين فكيف يكون محدوداً؟

وإن قلت إنه غير محدود، رد عليك بأنه بين نقطتين، فكيف يكون غير محدود؟ فهو محدود وغير محدود، وهذا تناقض.

فثبت أن العقل يختل ميزانه، إن حاول الحكم على غير المحدود، ويقع في التناقض المستحيل.

فالعقل إذن لا يستطيع أن يحكم، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية، أما «ما وراء المادة» أي عالم الغيب «المتافيزيك» فلا حكم للعقل عليه.

وهذا الذي أثبته «كانت» في كتابه، قال به علماؤنا من قبل. انظر كتاب شرح المواقف للسيد ورسالة المقصد الأسنى للغزالي[1].

● **القاعدة الرابعة: هي أن الإيمان بإله عقيدة بديهية، لا تخلو منها نفس.**

ولكن الإنسان قد يكون صحيح الجسد، مستوفي الأمن، رخي العيش، فيمر

---

(١) بقيت هذه الرسالة (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) في مكتبتي أكثر من ثلاثين سنة، لم أجد دافعاً إلى قراءتها، ثم أخذتها يوماً فوجدت فيها شيئاً نجيباً، من عبقرية الغزالي، فهو يتكلم عن الاسم والمسمى والصلة بينهما، ويربط بين أسماء الله وسلوك المسلم في الحياة، ويأتي بما لم يأت بمثله أحد.

به وقت لا يحس بها، وربما أنكرها، فهو «كافر» بها، أي مغطٍّ لها، لأن الكافر في اللغة هو الساتر، فإذا هزته المصائب، أو زلزلته الخطوب، أو شارف اليأس، ألقي عنها غطاؤها، فظهرت. وقد شرحت ذلك في مقالتي في عدد الشهر الماضي، من مجلة «رابطة العالم الإسلامي» فلا أكرره هنا.

وهذه القواعد الأربع، أساس للعقائد فيها الرد على جميع الشبه التي تعرض لعقول الملحدين وتظهر على ألسنة الخصوم.

فكروا لماذا؟

العدد (١٠٠) ربيع الآخر (١٣٩٣هـ) - مايو (١٩٧٣م)

أخذت القلم، وقعدت لأكتب المقالة التي شرفني الأستاذ رضوان حين كلفني كتابتها للجزء الممتاز من المجلة، فورد علي وارد صرف ذهني عنها، وجعلني أسائل نفسي: لماذ أكتب؟ وما الفائدة من الكتابة؟

هل نفعتنا الأحاديث والخطب والمقالات؟

لقد خطبت أول خطبة عامة سنة ١٣٤٥هـ (من نحو نصف قرن) ومازلت أخطب، وكتبت من تلك الأيام ومازلت أكتب، وحدثت في الإذاعة من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى في «يافا» قبل الحرب، ومازلت أحدث.

ويخطب ويكتب ويحدث عشرات وعشرات ممن هم أصفى مني جنانا، وأكثر إيمانا، وأفصح لسانا، وأجلى بيانا، وأقدم زمانا، خطبوا على كل منبر، وكتبوا في كل جريدة ومجلة، وحدثوا من كل إذاعة، فماذا كانت ثمرة هذا الجهد كله؟

هل نحن اليوم في مجتمعاتنا، في بيوتنا، في مدارسنا، في محاكمنا، في أسواقنا، في أزياء نسائنا، وسلوك شبابنا، هل نحن اليوم أقرب إلى الإسلام أم قبل خمسين سنة؟

من كان يقدر أن يتصور يومئذ أننا سنصير إلى ما صرنا إليه اليوم؟

وما لي أفرض الفروض، وأقدر الوقائع وعندي رسالة لي مطبوعة سنة ١٣٤٧هـ عنوانها «دمشق بعد تسعين سنة»، صورت فيها بخيال شبابي الجامح أغرب ما وصل إليه خيالي، فإذا الذي حدث فعلاً في خمس وأربعين سنة يسبق ما تخيلت وقوعه في تسعين سنة!

نعم، والرسالة مطبوعة موجودة، وحالنا قائم ملموس، بل لو تخيل رجل في

الكويت قبل ربع قرن حال الكويت اليوم، لحسبوه قد جن وفقد العقل، فلماذا انتهت جهودنا إلى الهزيمة والفشل؟

فكروا لماذا؟

لو استقريتم أفراد المسلمين لوجدتم الكثرة الكاثرة لا تزال تؤمن بالله واليوم الآخر، أو تريد أن تعد من المؤمنين، وتكره أن توصف بالإلحاد أو بالفساد، ولوجدتم فيهم علماء كثيرين، وخطباء وواعظين، ومحاضرين ومدرسين، كلهم يدعو إلى الله، أو يحب أن يعد مع الدعاة إليه.

ووجدتم المساجد لا تزال عامرة بالمصلين، وخطب الجمعة تعلن بالمكبرات والإذاعات، والمدارس لا تزال تدرس فيها علوم الدين، وإن مسخت مناهجها، ونقصت ساعاتها، والإذاعات لا تزال تبدأ برامجها بالقرآن وتختمها بالقرآن، وإن وضعت بعد القرآن في الافتتاح عزفا على العود، وقبل القرآن في الختام مسرحية تكشف فيها العورات، وتظهر فيها المحرمات.

فكيف استطاع الدعاة من أعداء الإسلام (مع هذا) أن ينجحوا من حيث فشلنا نحن دعاة الإسلام؟

ألا ترون أن هذه المسألة تستحق أن تعرض في العدد الممتاز، وأن نجد لها الجواب؟

أكان ذلك لأن الذي ندعو إليه باطل؟ هذا محال، لأن الإسلام صيغ من جوهر الحق، لا من أعراض الأوهام، أم كان لأن الإسلام بليت حقائقه، فلم تعد تقوى على مواجهة الخطوب في عصر تفجير الذرة، واقتحام الفضاء؟

كلا، فالإسلام كان جديدا لما جاء، وبقي جديداً، لا يبلى ولا يقدم إلا في الأذهان التي تعجز أو تكسل أو تزهد في كشف أسرار القرآن، وهي لا تنفد على مر الزمان، ولا تزال أبداً يفيض نبعها لمن يعرف طريق الاستقاء منها، ولا يزال الذهن البشري يكشف في كل عصر من هذه الأسرار ما لم يكشفه السابقون.

لقد أظهر تقدم العلوم في أيامنا معاني آيات كانت في خفاء، وكان المفسرون يحاولون إدراكها، فيحومون ولا يصلون، ولا تزال في القرآن آيات فيها إشارات

وتلميحات لأسرار سنن الله في الوجود، وقوانينه في الطبيعة، لم يصعد العلم بعد إلى الذروة التي يكشفها منها، وهذا من الأدلة على أن القرآن كتاب لم يخرج من فكر بشري، لأنه يستحيل على إنسان مهما كان عبقرياً، أن يشير إلى علوم لم يكن في أيامه ولا بعد أيامه بألف سنة من عرفها أو سمع بها، أو قدر وجودها.

كلا، أقولها مرة ثانية، فالإسلام كان صالحاً لعصر محمد وصحبه، وبقي صالحاً في عصر الذرة والصاروخ ومركبات القمر، وسيبقى صالحا، وسيبقى دستور الحق والخير والجمال، وطريق سعادة الجسم والعقل والروح في كل عصر.

وهذه دعوى ضخمة، ولكن معنا دليلها، وهو دليل أضخم من الدعوى، فلم يكن هذا الفشل إذن لـ «قصور» في الإسلام، فهل كان لـ «تقصير» منا في الدعوة إلى الإسلام؟ لأننا لم نستطع أن نستخرج من أصول الإسلام (من الكتاب وصحيح السنة) الأقضية والأحكام الملائمة لهذا الزمان، ولأننا (أو لأن مشايخنا) وقفوا عند كتب الفقه، يقرأونها ويعيدونها، لا يستطيعون الكلام عما ليس فيها، وعما جد من الأوضاع والمعاملات بعد موت مؤلفيها، فلما لم يجد الحكام عندهم حلا لمشكلات العصر من شرع الله، عمدوا إلى قوانين الأجانب فأخذوها، وتركوا دينهم لها، فكان علينا قسط كبير من تبعة هذا الذنب الكبير، كما قال ابن القيم في «الطرق الحكمية».

أم لأننا ندعو الناس، وندعو الشبان والشابات إلى الدين بغير الأسلوب الذي يصلح لدعوتهم، وأننا نخاطب أهل هذا العصر بلغة العصور المواضي، نفتح الكتاب المؤلف من قرون ونقرأ عليهم منه، فلا يسمعون منا، ولا يفهمون عنا؟

أم لطبيعة الوعظ، وأنه ثقيل على النفس؟ لأن النفوس تهوى الانطلاق والشرع يقيدها، وتميل مع اللذة حيث مالت والشرع يعدلها.

هذا واقع، ولكن العقل أيضاً (كاسمه) قيد، والحكمة قيد، واسمها مشتق من حكمة الدابة، والقوانين قيد، والحضارة قيد، والذي يريد أن يفلت من كل قيد يصير مجنوناً، فالمجنون هو الحر الحرية المطلقة، يعمل كل ما يشاء، يمشي

عاريا، يعري امرأته ونساء المسلمين، يركب على كتفي سائق السيارة ويدلي ساقيه، يمنع لصوص الأموال ويسمح للصوص الأعراض، يحارب من يأتي ليفسد صحة الناس، أو يزهدهم بالولاء لوطنهم، ويدعوهم للولاء لإسرائيل، ويسالم المبشرين الذين يريدون إخراج أولاد المسلمين من دينهم، وإدخالهم في دين غيره، هذا الذي له الحرية المطلقة التي يفعل بها ما يشاء، وهذا هو المجنون.

أم لأن فيها من يجمل في الدعوة ولا يفصل؟ فيكون كراكب الطيارة تعلو جداً حتى لا ترى الكويت إلا نقطة سوداء، على سيف البحر، فيصفها فلا يفيد وصفه إياها، ومن يفصل قبل الإجمال، كمن تريد منه وصفا عاما للكويت، فيصور لك داره فيها، ويذكر كل ما في الدار، من أثاث ورياش وأزهار وأشجار، فلا تفهم من ذلك شيئا عن وضع الكويت.

أو يزيد على ذلك فيدعي أن داره هي الكويت، ويرد عليه جاره فيصف دار نفسه ويظن أنه وصف الكويت.

نعم، منا من ينادي بالرجوع إلى الإسلام، ويكرر ذلك ويعيده، ولكن لا يبين كيف يكون الرجوع إلى الإسلام، كخطباء الجمعة، يأمرون بتقوى الله، وهذا حق، ولكن لا يوضحون للناس كيف يتقون الله، فلا يستفيدون من قولهم «اتقوا الله»، ومنا من يأخذ بعض الفروع فيجعلها هي الدين، ويلقنها الشبان الناشئين، يبدأهم بها قبل تصحيح العقيدة، وقبل معرفة الكبائر لاجتنابها، والفرائض للقيام بها.

ثم نختلف على هذه الفروع، ونتجادل ونختصم، ونضيع بأسنا بيننا، ومعول الإلحاد، و«ديناميته» يعمل في أساس بناء الإسلام، فإذا تصدعت العمارة ومالت إلى السقوط، فهل يهتم أحد بكسر قفل الباب، أو زجاج النافذة؟

إذا كان المريض المصاب بسرطان القلب تحت أيدي الجراحين، في غرفة العمليات وهم يعدون الثواني يخافون أن يعاجله الموت قبل إتمام العملية، فهل يهتم أحد بشوكة دخلت تحت ظفره؟

فما لنا نهتم بالفروع والأغصان، وجذع شجرة الإسلام مهدد بالكسر، لا سمح الله، ولن يسمح إن شاء الله، لأن الله تعهد بحفظ هذا الدين، فالدين محفوظ ولكن الامتحان لنا، فإما أن ننصر الله فينصرنا، وإما أن نخذل شرعه، فيستبدل بنا قوما غيرنا، يدخل في الإسلام شعب من الشعوب الحية، فيحمل لواءه، ويعلي مناره، ونكون نحن (لا قدر الله) كفقراء اليهود، لا دنيا ولا دين.

أم لأن فينا من يعظ الناس ولا يتعظ، ويأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويقع فيه؟ يكذب بلسان حاله، ما جاء بلسان مقاله، يخالف فعله قوله، وتناقض سيرته وعظه، فينفر ضعاف القلوب من الدين، ويكون حجة لهم على الصادقين من الداعين.

أم لأن منا من آثر دنياه على آخرته، ورضا الحكام على رضا الله؟ فوقف على أبوابهم، ومشى في ركابهم، فلما رأى ذلك العامة، ظنوا بأن جميع الداعين مثل هؤلاء المنحرفين، مع أن الله لا يخلي هذه الأمة من علماء يريدون وجهه وحده، يصدعون بالحق، لا يقولون إلا ما يرضي الله، فإذا عمت الفتنة، وعلت الضجة، ولم يعد يسمع صوت الحق، كان أقصى أمرهم أن يسكتوا ويعتزلوا، وينكروا بقلوبهم، لا يسايرون أحدا قط على حساب دينهم.

أم لأن الهجوم علينا كان أقوى من دفاعنا؟ لأننا لم نعد للمعركة (معركة الإلحاد والفساد)، خططا محكمة كخطط عدونا، بل نحن لم نعرف ماذا يخطط لنا العدو الذي يدخل علينا من كل باب، من مناهج المدرسة، وأزياء الثياب، ووسائل الإعلام، وقوانين الدولة وما تخرج المطابع من كتب، وما يشتمل عليه الفن من أشكال وألوان، من كل ذلك يدخل علينا العدو ونحن لا ندري، ولا أظن أن الله سيعذرنا لأننا لم نكن ندري.

فكنا نقعد حتى ينال عدو الإسلام منا منالا، فنثب وثبا قبل أن نحدد سبيلنا وندخل المعركة قبل أن نجمع جندنا، ونسوي صفوفنا، ونؤلف بين قلوبنا، فننهزم، ننهزم لأن الله جعل لكل شيء سبباً، فمن أخل باستيفاء أسباب النصر، فر منه النصر، وصحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم كانوا أكرم على الله منا، وهم مع ذلك

قد هزموا في «أحد» لما تركوا بعض أسباب النصر التي قدرها الله له، كما قدر الأسباب كلها والمسببات، فخالف الرماة أمر قائدهم، وتركوا مواقعهم، أفنطمع أن ينصرنا الله، وقد قطعنا أسباب النصر كلها، ما اتصل منها بالأرض وما ارتبط بالسماء؟ لقد فقدنا إرثنا من الحماسة والنشاط، وتسللت إلى عروقنا جراثيم الخمول والكسل، فآثرنا الراحة على العمل، ولبستنا حقيقة، يوجعني الاعتراف بها، ويشد على صدري حتى أحس بالاختناق، ولكنها تبقى حقيقة.

حقيقة أعترف بها، وذقني من الخجل تضرب صدري، وبصري من الحياء إلى الأرض، هي أن أهل الباطل لهم من إيمانهم بباطلهم، وحماستهم له، ودفاعهم عنه، وبذلهم في سبيله المال والنفس، أكثر مما لنا (نحن أهل الحق) من الإيمان بحقنا، والجهاد في سبيله، وحمل الأذى في الذود عنه.

إنهم يمشون إلى مجاهل الأرض، يسكنون الأكواخ كأنها قبور، ويصبرون على معاشرة أصحابها، ليدعوهم إلى ما يؤمنون هم به، ومنهم من يقاتل في سبيل معتقده الأرضي، أقوى دول الأرض، التي ألهبت بطياراتها بلده بالنار، وأشاعت في أقطاره الدمار، وهو ماض لا ينثني، ونحن .. نحن المؤمنين بأن الجهاد أصل من أصول ديننا، نحن الذين نؤمن بأن شهيدنا حي في ضيافة ربنا، نحن أبناء من مشوا على أرجلهم، من المدينة إلى قلب فرنسا من هنا، وقلب الهند من هناك، ففتحوها كلها، لا ليأكلوا خيراتها، بل ليهدوا إلى الحق أهلها، ويحملوا إليهم من هذا الخير الذي أنزله الله من السماء، على غار حراء، نحن.. ننتهي إلى هذه النهاية؟!

يحتل اليهود قبلتنا الأولى، ومسرى نبينا، وتتحدانا امرأة عجوز ونحن سبعمائة مليون، وامرأة أخرى تمسك بخناق تسعين الف أسير منا، تسعون ألفا كآساد الشرى... يا أسفى!

ما أشد السقطة على رفيع القدر، عالي المقام!

ولكن هذا ذنبنا، نحن الذين أبعدنا الإسلام عن معركتنا، فأبعدنا بذلك النصر عنا.

إننا ما هزمنا لنقص العدد، فنحن سبعمائه مليون، ولا لنقص المال، فعند المسلمين من الأموال أكثر مما عند اليهود، ولا لقلة السلاح، فعند المسلمين من السلاح أكثر مما عند اليهود، ولا لقلة العلماء، فعند المسلمين من العلماء (بعلوم الكون) أكثر مما عند اليهود، ولكن لقلة الدين.

لقد ضعنا بذلك وأضعنا الشباب، على أن في الشباب بحمد الله.. في الشباب والشابات في الشام ومصر والأردن وغيرها رجعة قوية إلى الإسلام، رجعة من الله ليست بعملنا ولا بجهودنا، رجعة وإن تكن في نطاق ضيق، وفي عدد قليل، لكنها قوية راسخة، وإن كان من المؤسف أن عيوبنا انتقلت إليهم، خلافاتنا، تمسكنا بالفروع قبل الأصول، تفرقنا فرقا، فيا ليت أبنائي وبناتي من الشباب والشابات يعتبرون بنا، ويجتنبون نقائصنا ومعايبنا.

إن هذه المعايب جعلتنا يا أولادي نصير إلى الضياع.

كلمة حق أقولها لكم، والحق يقال ويسمع، ولو كان مراً، نحن يا أولادي لم يبق فينا أمل، نحن الشيوخ (أعني بالسن)، نحن جيل الضياع، جيل الهزيمة، نحن أضعنا فلسطين ونحن سبعمائة مليون، فالأمانة الآن في أعناقكم أنتم، والحمل على عواتقكم، فلا تكونوا مثلنا.

لو أن سبعمائة مليون فأرة، (والعفو من قبح المثال) هجمت على لندن أو نيويورك لهرب منها أهل نيويورك أو لندن، فلماذا لا نصنع شيئاً؟

ما السبب؟

لا أناقش ولا أتفلسف، بل أقرر حقيقة، لو أن ولدك مرض فأخذته إلى طبيب فأعطاه دواء زاده مرضاً، فأخذته إلى آخر فأعطاه الدواء الذي كان فيه الشفاء، أفبعد هذه التجربة مجال لمقال؟

التجربة أصدق برهان، ونحن قد جربنا يوماً إدخال الإسلام إلى المعركة فاستنقذنا به القدس من أيدي جيوش أوروبة كلها بعدما ملكوها أكثر من تسعين سنة.

وجربنا إبعاد الإسلام عن المعركة فأضعنا القدس بعدما كانت في أيدينا ومع

ذلك نجد صعوبة بالغة في إفهام المسلمين هذه الحقيقة الظاهرة أفليس هذا عجيباً؟

قلت في مطلع هذه المقالة أني بدأت أكتب وأخطب من أكثر من خمس وأربعين سنة، فما الذي أثمرته هذه الكتابات وهذه الخطب، وما كتب الكتاب الإسلاميون قبلي كالسيد رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، وخالي محب الدين الخطيب، والأساتذة فريد وجدي وعبدالعزيز شاويش والغمراوي وغيرهم، ومن جاء معي أو بعدي ممن لا يحصيهم عدد ولا يجهلهم أحد فماذا كان حصاد هذا الجهد كله؟

لقد شهدنا في هذه السنين الخمسين عرى الإسلام تنقض عروة عروة، وصرح الإسلام يهدم حجراً حجراً، وأهل الخير والحق كل يوم إلى ضعف وقلة، وأهل الشر والباطل كل يوم إلى قوة وكثرة.

وكنت أبحث عن السبب، وذكرت ما خطر على بالي من الأسباب، وفي كلها قدرت النقص فينا، والذنب علينا، نحن الدعاة، أو الكتاب والخطباء الإسلاميين، فلم لا يكون النقص فيكم أنتم أيها القراء، والذنب عليكم؟ أو فينا وفيكم معا؟ ونكون مسؤولين جميعاً؟

أضرب لكم مثلا، اسكتوا كلكم قليلاً، هل تسمعون في الغرفة صوتاً؟

إن جو الغرفة التي ترونها ساكنة، كل الأصوات التي تخرج الآن من إذاعات الأرض كلها، إنكم لا تسمعونها، ولكن هاتوا رادا (راديو) فإنه يرد هذه الأصوات عليكم فتسمعونها، فإن كان الراد بلا ذخيرة (بطارية) لم يفدكم- وإن وجد- وكذلك المواعظ، المواعظ موجودة ولكنها تحتاج إلى قلوب، والقلوب لا تفيد إن كانت تحتاج إلى بطاريات فاستحضروا قلوبكم وضعوا لها بطاريات، تستفيدوا من كل ما تقرأون وما تسمعون، ولو كانت الموعظة من مقصر مثلي.

هاهنا السر، وهذا هو السبب في الفشل الذي انتهت إليه دعوتنا خلال هذا الأمد الطويل.

ليس النقص في المواعظ وفي الواعظين، وإن لم تبلغ ولم تبلغوا حد الكمال

ولكن النقص في القلوب الواعية.

اللهم يا من قلوب العباد في يديه، أحي قلوب المسلمين، ولينها وارزقها الانتفاع بالموعظة، اللهم آمين.

خواطر في القرآن

العدد (١١٢) ربيع الآخر (١٣٩٤هـ) - إبريل (١٩٧٤م)

تحت أيدي الناس اليوم أكثر من عشرين مليون كتاب، بجميع الألسن والخطوط، ولو سئلت: أي هذه الكتب أفضل وأكمل، وأجمل وأشمل، لقلت: القرآن.

وكل واحد من قراء هذه المجلة، يجيب بمثل هذا الجواب، لو سئل ذلك السؤال، ما عندي في ذلك شك، ولا عند أحد منهم في الجواب تردد.

ولكني فكرت، هل أقول هذا لأني مسلم آمن به ونشأ عليه، وتعوده حتى صار عنده من البديهيات[١]، أم هو حق في ذاته يقول به كل باحث منصف..؟

وذكرت كيف كان العربي يسمع الآيات من القرآن، فتملك قلبه، وتمسك لبه، حتى تقوده إلى الإسلام كما فعلت بعمر، أو تحمله على الإقرار أنه سحر، وأصل السحر في لسان العرب ما بان أثره، وخفيت علته.

فأخرجت مصحفاً كان معي، (وكنت لما خطرت لي هذه الخواطر في سفر بالطيارة) وجعلت أقرأ، أحاول أن أجد مثل ذلك الشعور الذي وجده عمر المسلم، والوليد الكافر، والذي كان يحس به كل عربي يقرأ القرآن، أو يسمعه.

فماذا كان؟ أقول لكم أم أكتم الأمر عنكم، خجلاً منكم...؟

إني لم أجد ذلك الشعور! حقيقة أقولها بأسف وخجل.

وفكرت مرة ثانية: لم لم أجده؟

ألأني أعرف القرآن وليس جديداً علي، فصار إحساسي به، كإحساسي عندما

(١) القياس الصرفي: بدهي، ولكن كلمة بديهي وطبيعي مستعملة من أكثر من ألف سنة، وصقلتها الألسنة والأقلام.

أنظر إلى الكعبة الآن، بعد إقامة أحد عشر عاماً في مكة؟

لقد فقدت تلك الهزة الرائعة التي شعرت بها لما رأيتها أول مرة، وأذهب الإلف روعة المناجاة، أم لأني تعودت أن أقرأ القرآن مسرعاً، أصل الآية بالآية لأبلغ نهاية «الختمة» فلا أتذوقها ولا أتدبرها ولا ألمح إشاراتها ومراميها؟ نعم، هذا هو السبب، إن قراءتي القرآن مثل سفري من مكة إلى جدة، همي وهم السائق أن أصل في خمسين دقيقة. لا أرى من الطريق شيئاً، إلا بيوتاً متناثرة في «بحرة» أو «حداء». وفضاء يرحب أو يضيق، وجبالاً تعلو أو تنخفض، وتدنو أو تبعد.

ولو سئلت ما شكل هذه البيوت؟ وماذا فيها من أناس ومن فرش؟ وما في هذا الفضاء من تراب ورمل؟ ما تركيبه؟ وما في هذه الجبال من صخور؟ ما نوعها؟ لما عرفت؛ لأني لم أتنبه لها، ولم أسأل عنها.

ولكن البعثة الجيولوجية[1] التي تجيء للكشف والتحري، وتمضى على الطريق خمسين يوماً بدلاً من خمسين دقيقة، تعرف هذا كله، وتقدم تقريراً عنه.

هذا هو مثال تلاوتنا وتلاوة الصحابة. نحن نكمل الختمة في يوم أو يومين ولا نفهم شيئا، ومن الصحابة من كان يمضي في دراسة السورة الواحدة سنين، ولكنه يتدبر ويعي، ويعمل بما تدبره ووعاه.

فهذه السرعة، وما يقابلها من انصراف الأذهان عند سماع القرآن، للصوت والألحان، وظن كثير ممن يسمون بالقراء، أن القرآن ليس إلا كلاماً معداً للتلحين ككلمات الأغاني، وتنافسهم على إجادة تلحينه والتصرف في أنغامه واتخاذنا القرآن مجرد شعار تفتتح به الحفلات، هذا كله وأمثاله هو الذي حجز بيني وبين التنبه إلى أسرار القرآن، وحرمني من الشعور بروعته، وقد كان يشعر بها كل عربي يسمعه ولو كان كافراً.

ما تبدل القرآن، بل تبدلت الألسنة التي تقرأ، والآذان التي تسمع، والقلوب التي تعي.

---

(١) جي: أرض، ولوجي: علم باليونانية القديمة والواو للتركيب كما يقولون مثلاً (فرانكو آراب).

إننا نقرأ القرآن بلا فهم، أو نطرب له بلا خشوع، أو نتخذه وسيلة لـ «الشحادة» على أبواب المساجد فلا يحق لنا (لا لي ولا لغيري) أن يتخذ من الشعور الذي يشعر به ميزاناً لتقويم[1] القرآن، فلندع الشعور إلى العقل.

ولنتصور لو أن رجلاً مثلي يقرأ (كما أقرأ) ما معدله أكثر من مئة صفحة في اليوم، من أكثر من خمسين سنة. حتى اطلع على جانب كبير من المعارف البشرية، وكان منصفاً ولو كان غير مسلم، وسئل السؤال الذي استهللت به المقال، فبماذا يجيب؟.

إنه ينظر فيرى أن البشرية شهدت كتباً عالمية، كان لها الأثر البالغ في الناس. أو في جمهور كبير من الناس.

منها ما نزل من السماء فحرفه البشر، كالكتاب الذي يدعى اليوم بـ «الكتاب المقدس» ومنها ما هو أرضي قدسه أتباعه، كالفيدا «vedas» الهندية، والأفستا «avesta» الفارسية المنسوبة إلى زراداشت، ومكتوبات كونفوشيوس (وأصل اسمه بالصينية: كونغ فوتس).

ومنها كتب أدبية كإلياذة هوميروس، ومسرحيات شكسبير وموليير ولافونتين وخطب فيخته «fichto» الألماني.

ومنها كتب فلسفية أو علمية كجمهورية أفلاطون ومحاورات سقراط وكتب أرسطو وخطبة المنهج لديكارت ونقد العقل لكانت، والتطور المبدع لهنري بركسون، والإنسان ذلك المجهول لكاريل، ونسبية آنشتاين.

وما كتب دارون، وفرويد، ودوركايم، ومكيافيلي، ثم هيجل وماركس وغيرها من أمثالها، فأنا إنما أُجْمِل وأمَثِّل، لا أستقصي وأفصل - ولم أذكر كتب المسلمين لسببين:

الأول: أني أحاول أن أفكر بعقل باحث منصف غير مسلم وغير متعصب لدين أو مذهب يمنعه من الإنصاف.

والثاني: أن كتب المسلمين كلها، متأثرة (من قريب أو بعيد) بالقرآن، فهي

(١) تقويم بالواو، أما تقييم فلا صحة لها، وإذا ظنوا أنها من «القيمة» فإن قيمة أصلها «قومة».

كالفرع عنه وأنا أتكلم هنا عن القرآن، فكيف أحتج بالفرع للأصل، وأقبل شهادة الولد للوالد؟

أقول: لو جاء هذا الباحث النزيه يوازن بين هذه الكتب وبين القرآن فماذا يجد؟

يجد أن المثل العليا للبشرية، والغايات القصوى للمعارف وللمشاعر الإنسانية، هي الحق والخير والجمال.

وهذه الكتب منها ما يبحث عن الحق، بوساطة الفكر، ولكنه لا يعنى بالجمال ولا يفتش عن الخير، ومنها ما يفتش عن الجمال من طريق الذوق، بوساطة العاطفة، ولكنه لا يهتم بالخير ولا بالحق.

أي أن منها كتباً في العلم وحده وكتباً في الأدب فقط وكتباً في الأخلاق وفلسفتها، ويجد أن منها ما هو مخالف لفطرة البشر، وطبيعة تكوينهم، والفطرة تأبى ما يخالفها، كالكتاب الذي يقبح الغنى لأهله، ويقول «لا يدخل الغني ملكوت السموات» والإنسان مفطور على حب المال ويزين لهم التبتل والرهبانية، والإنسان مغروز فيه «غريزة» الميل إلى الزواج. ويقول: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» والإنسان مجبول على دفع الأذى والرغبة في الانتقام.

والكتاب الذي يحاول أن يمحو الفرد ليثبت بزعمه المجموع، ويحرمه الربح ويكلفه الجد في العمل. ويريد أن يطمس عقله فلا يفكر به، بل بعقل طبقته. ويجعل الناس طبقات يجمعها الحرب والخصام لا الصلح والوئام. ويقول: بخرافة «حتمية التاريخ» مع أن التاريخ ليس إلا الرواية والتعليل لما كان، لا التحكم فيما سيكون، كما يهذي به الماركسيون.

ويجدُ كُتبَ الفكر والعلم - تبلى على الأيام جدتها- وتنقص قيمتها، فلا يبقى لها إلا مزية السبق الزمني حتى أن طالب الجامعة يعرف اليوم من الطب أكثر مما كان يعرف بقراط (أبيوقراط)، ومن الهندسة أكثر من إقليدس، ومن الفلك أكثر من كوبرنيك، ومن الكيمياء أكثر من لافوازيه.

وكتب الأدب يتبدل نظر الناس إليها، وتقديرهم إياها، بتبدل الأذواق، وتباين

العصور، وإن كانت أثبت (في الجملة) وأبقى من كتب العلم.

وكتب الأخلاق، تختلف أسسها، وتتعدد نظرياتها.

ويجد أن منها ما يظهر خطؤه فتخبو ناره، وتنطفئ أنواره، كآراء فرويد، ونظرية دارون، ومنها ما ينكشف لأتباعه، «عند التطبيق» ما فيه من ضرر بالغ، ونتائج مدمرة، فضلاً عن تعذر تطبيقه كاملاً، ككتاب «رأس المال» و«الميثاق» لماركس.

فإذا تركها ونظر إلى القرآن، فماذا يجد؟

يجد القرآن (أولاً) قد أحاط وحده بالمثل العليا كلها: الحق والخير والجمال، فكان كتاب علم ولكنه لا يفرض نظريات، ولا يسرد قوانين، بل يوجه الناس إلى إعمال عقولهم في فهم أسرار الحياة الدنيا ويؤكد لهم أن لهذه الحياة سنناً محكمة، وقوانين ثابتة، ويشير (بمقدار ما يفهم المجتمع الذي سمع القرآن أول مرة) إلى بعض هذه القوانين والسنن، ويدعوهم إلى اكتشافها في أنفسهم: في أجسادهم وعواطفهم، وفي الحيوانات من حولهم: الإبل والأنعام، وفي النباتات كيف تتجرد وتكسى وتموت في الشتاء ثم تحيا، وفي الأرض وما فيها، والسموات وما يرى منها. ويخبرهم أن كل شيء في الكون محدد المقادير. قائم على نسب مضبوطة، وعلاقات ثابتة. وأن الذي أوتوه من العلم بها قليل وأنه سيخلق ما لا يعلمون، ويعطي من يأتي من البشر من المعرفة بالكون ما لا يعرفون.

والقرآن يشير دائماً إلى قوانين الطبيعة التي طبعها الله، وينبه أتباعه إلى استثمار كل ما فيها وإلى أنه سخره لنا لننتفع به، إذا أعملنا عقولنا وأفكارنا، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) وليس هذا التسخير لمجرد الانتفاع بها في هذه الحياة المؤقتة بل لتكون علامات وآيات نستدل بها على طريق الانتفاع الحقيقي، في الحياة الأخرى الدائمة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية: ١٣).

فمن أهمل عقله من المسلمين قَصَّر، ولم يدرك هذه الآيات، ومن انتفع بها ونسي خالقها وموجدها، كان جاحداً للمعروف- أتستفيد من الهدية وتنكر حق

مهديها؟ هذا ما يفعله أتباع هذه الوثنية الجديدة. وثنية العلم، الذين يكتشفون بعقولهم التي هي عطية الله القوانين الطبيعية التي وضعها الله، ثم لا يشكرون الله، بل ربما أنكروه وجحدوه!!

ومن انتفع منها النفع الذي وضعه الله فيها، وشكره عليها، كان مؤمنا عاقلاً، ومن عظمها لذاتها، وترك النفع الذي وضع فيها، كان أحمق جاهلاً، كمن يحفظ الثوب، ينظفه ويمسحه ولا يلبسه لدفع برد ولا حر، ولا لستر ولا لتجمل، ومن يجمع المال ويعده ويحبسه، ولا ينفق منه على نفسه ولا على أهله، ولا يشتري به أخرى، لذلك ورد «تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة» أي الثوب.

* * *

وهو كتاب عقائد ولكنها ليست فصولاً متسلسلة تشغل القلب بالعقيدة، وتصرفه عن إعمال العقل، وتذوق الجمال، بل هي آيات تقرر العقيدة من خلال التفكر في المخلوق وتأمل جماله للاستدلال به على خالقه.

وهو كتاب تشريع ولكنه ليس كمجموعة جوستينيان مثلاً نصوصاً وأحكاما تبين الأحكام فقط بل هو يصلها بالعقيدة، ويربطها بالخالق، حتى عندما يحدد حصص الورثة في التركة، أو أسلوب التوثيق عند الكاتب العدل.

وهو كتاب تاريخ ولكنه لا يجمع أطراف القصة من قصص الأنبياء ويسردها سرداً متصل الحلقات بل يأخذ منها في كل موطن جانباً يعرضه، للاعتبار به، فهو يحرص على الاستفادة من الخبر، لا على الإحاطة بالخبر.

ولعل حكمة هذا المزج بين القصص والعبرة، وتكرير القصة على صور مختلفة، وفي مواضع متعددة، هي (والله أعلم) أن مستقر العقيدة هو العقل الباطن[1]. وهذا الأسلوب في التلقين والإيحاء، غير المباشر، يوصل إليه رأساً لاسيما إذا اقترن بالتكرار، وقد تنبه لهذا المربون من الأجانب وأطالوا البحث فيه، واستعملوه في تلقين المبادئ التي يريدون الشباب عليها.

ولو كانت القصة معروضة عرضاً مدرسياً، يخاطب العقل الواعي لحفظتها

(١) راجع كتابي «تعريف عام بدين الإسلام».

«الذاكرة» لتقدمها إلى العقل عند الطلب فيعمل فيها، مناقشة وبحثاً وتشكيكاً، ثم تنساها على مر الأيام، كما ينسى التلميذ إذا كبر دروس المدرسة التي وعاها وامتحن فيها، ولكنه لا ينسى توجيهات المدرس، التي تجيء عفواً، وإني لأذكر الآن، والله، من هذه التوجيهات العارضة، أشياء سمعتها في المدرسة خلال أيام الحرب العالمية الأولى.

وقد ظن قوم ضلوا وزلوا، أن قصص الأنبياء في القرآن، كقصص الأدباء من أمثال إسكندر دوماس وشارلز دكنز، يراد بها العبرة ولا يحرص فيها على الحق[1] وهذا كلام باطل وجميع تلكم الكتب (إلا ما كان سماوياً وبقي كما نزل)، مهما سما فيها الفكر، ومهما رقت فيها العاطفة، كتب أرضية منبثقة من حياة الإنسان على هذه الأرض، محدود ما فيها بحدود هذه الحياة لا تعرف ما قبلها، ولا ما بعدها، لا تعرض له ولا تشير إليه، إلا بأصابع الخيال الذي لا تدعمه حقيقة، أو التوهم الذي لا يسنده دليل، والقرآن يشمل موضوعه ما قبل هذه الدنيا، وما بعدها، ويخبرنا معشر البشر (ولم نكن لنعلم لولا أن علمنا): من أين جئنا، ما أصلنا وإلى أين نمضي، وما مصيرنا.

فإن نظرنا إلى الموضوع، وجدنا القرآن وحده من بين تلك الكتب جميعاً هو الذي يحوي الدستور الكامل، للحياة الفردية والجماعية، الجسدية والروحية، ولحياة المجتمع المالية والاجتماعية والأخلاقية، والحكومية، حياته هذه القصيرة على الأرض، وحياته المقبلة في الآخرة.

بل إن من عجائب القرآن، أن هذا الدستور قد أجمل في أربع عشرة كلمة فقط، نعم أربع عشرة كلمة هي: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) منهم خلف الله في أطروحته التي طلب بها شهادة الدكتورية، وكنت تلك السنة (١٩٤٧م) مقيما في مصر موفدا من وزارة العدل في الشام إلى إدارة التشريع في مصر، وكنت أشرف على مجلة «الرسالة» لمرض صاحبها الأستاذ الزيات رحمه الله، فأثرتها عليه حربا تطاير شررها وانتشر خبرها، ووصلت إلى القضاء في دعوى أقامها علي الشيخ أمين الخولي، وكانت النتيجة أن رفضت الأطروحة تلك السنة، ومن رجع إلى مجلة «الرسالة» لسنة ١٩٤٧ وجد تفصيل الخبر.

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ .

يبدأ بالتذكير بحقيقة نعرفها ونوقن بها، ولكننا قد ننساها، هي أن رأس المال للإنسان، عمره، فكلما مر عليه يوم خسر منه يوماً، حتى تجيء ساعة الموت فيكون الخسر الكامل، لهذا أقسم بالعصر (أي الزمان) لا تعظيماً له كما يقسم البشر، بل للتنبيه إليه.

نخسر بالموت لأننا نترك كل شيء ونمضي. ولكن منا من لا يشمله هذا الخسر، هو الذي يحمل معه من خيرات هذه الدنيا ما ينتفع به في الآخرة، أولئك هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم يضع لنا المنهج العام للمبدأ وللتطبيق، للفرد في نفسه وللجماعة فيما بينها، فالمبادئ منها ما هو حق وما هو باطل، فالمؤمن يتمسك بـ «الحق»، والمتمسكون بالمبدأ الحق منهم من لا يصبر على مشاق التطبيق، فالمؤمن يحرص على «الصبر» عليها، حتى يطبقه تطبيقاً كاملاً.

ثم لا يكتفي كل واحد بنفسه، بل يتعاونون عليها و«يتواصون بها»[1] فيصلح الأفراد ويصلح بهم المجتمع.

هذا من حيث مجموعه، ومن حيث موضوعه.

أما أسلوبه فأسلوب مفرد، ليس في كل ما عرف البشر من كتب كتاب آخر له مثل هذا الأسلوب الذي جاء جديداً، وبقي جديداً، لأنه لم يقلد ولم يحتذ، ولم ينسج أحد على نوله، والقرآن يدور كله على وصل الإنسان الفاني بالله الباقي، بتوحيده وتذكره، وتجنب إشراك غيره في الألوهية معه، أو توجيه العبادة إلى سواه وعلى وصل هذه الحياة الفانية بالحياة «الآخرة» الباقية بالإيمان بها، والاستعداد لها، والعمل على ما ينفع فيها.

ولكنه لا يفصل بين الدين والدنيا، كما يفعل أتباع الديانات الأخرى[2] إذ يجعلون من الناس «رجال دين» يسلكون طريق الدين، ورجال دنيا أي رجال علم وسياسة ومال، فكل مسلم بنظر القرآن رجل دين مادام متمسكاً به، قائماً بواجباته

---

(١) لي تفسير مفصل لهذه السورة هذه خلاصته. أذعته في رمضان من عام ١٩٦٠ من إذاعة دمشق.

(٢) ودين الحق واحد: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

ومبتعداً عن محرماته، ورجل دنيا ما دام يبتغي فيها (من الحلال وحده)، العز والقوة والمال، ويقوم فيها بجلائل الأعمال.

وإذا كان طريق الدنيا وطريق الآخرة عندهم، كطريق قطر وطريق العراق للساكن في الكويت مثلاً، فمثالهما في القرآن كطريق العراق وطريق اسطنبول[١]، لا يختلفان بالاتجاه بل بالامتداد، فطالب الدنيا يقف عندها، ولا يجاوزها، وطالب الآخرة يتخذ الدنيا محطة في طريقه إليها يتزود منها لها.

هذه مقاصد القرآن، ولكنه خلال ذلك، يلم بكل ما يحتاج إليه الإنسان من أدوات توصله، إلى الكمال «الممكن» في الفكر والجسد والعاطفة والخلق الكريم، يمزجها مزجاً مفرداً، بأسلوب هو الغاية في الجمال فتصل به إلى منطقة اللاشعور (inconseience) أي العقل الباطن، حتى إذا استقرت فيها، ظهر أثرها في فكر الإنسان وعاطفته وسلوكه، ومجموع أعماله، لذلك «وبذلك» بدل الإسلام العرب، حتى ولدوا به في التاريخ ولادة أخرى، وخذوا مثالاً على ذلك عمر، وتصوروا ماذا بلغ لما أسلم، وماذا كان لو لم يسلم[٢].

ما فرط القرآن في شيء، ولكن ليس معنى هذا أن فيه حل تمرينات الحساب في دفتر التلميذ، وإعراب أبيات الاختبار في كتاب القواعد، وبيان عدد جبال البرازيل وطول أنهار فرنسا، القرآن لا يقدم إليك صندوق التفاح، بل يعطيك الأرض والخبرة التي تملك بها شجرة التفاح، لا يذكر لك قوانين الفيزياء بل يمنحك العقل ويرشدك إلى استعماله في معرفة قوانين الفيزياء، والفرنسيون يقولون في أمثالهم: «من أهديت إليه سمكة أشبعته يوماً، ومن تعلمه صيد السمك تشبعه كل يوم».

القرآن يدعو للتدبر والتفكر وإعمال العقل، في فهم آيات القرآن، وفي معرفة أسرار الأكوان، خبرنا بأنه وضع لكل شيء قانوناً، وأعطانا أبصاراً وعقولاً،

---

(١) أصلها «إسلام بول» أي «بلد الإسلام» سماها بذلك السلطان محمد الفاتح رحمه الله.

(٢) لي كتاب كبير عن عمر جمعت فيه أخباره كلها مع ذكر مصادره بالجزء والصفحة طبع سنة ١٩٣٥ ثم عدلته وسميته أخبار عمر طبع سنة ١٩٥٩ ولا يزال يطبع.

وقال لنا: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١). أنزل لكل داء دواء وقال، ابحثوا عن الدواء للداء، اكشفوا سنن الله وقوانينه في هذه الدنيا، واعرفوا «الطبيعة» التي طبعها عليها.

علم المسلم قبول التحدي والمناظرة العقلية والخضوع للبرهان القاطع، وأن نكلف الخصوم إبراز دليلهم إن كان لهم دليل ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١) لأن الدعوى بلا برهان حقها الرفض.

وأن نقول الحق ولو على أنفسنا، أي أن نخضع رغباتنا وشهواتنا، وآلامنا ولذاتنا لحكم الحق.

والقرآن يعلل أحكامه وأوامره، في العقائد الأساسية التي هي من البديهيات[1] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) وفي الشرائع ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣).

ويشير إلى القوانين الاجتماعية، إشارته إلى القوانين الطبيعية، وإلى أنها من سنن الله الثابتة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ (آل عمران: ١٣٧).

هذا قانون إلهي اجتماعي: الذين يكذبون الحق، ويرفضونه، ويسلكون غير سبيله تكون عاقبتهم الهلاك ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة: ٢٠٥) وهذا أيضاً قانون.

ويمنع الاعتقاد بالخرافات، أي النتائج المتوهمة، لمقدمات غير مسلمة، أي ما ينافي التفكير العلمي من الاعتماد على المصادفات، كالاستقسام بالأزلام، والأوهام كالبحيرة والسائبة، وتصديق الدجالين من المشعوذين، واتخاذ أسباب لا تؤدي بطبيعتها إلى المسببات، كالحجب والتمائم، فهو بذلك يحرر الإنسان من عبودية الخرافات.

ويجعل المؤمن لا يصدق إلا بأحد اثنين: بما ثبت لديه ثبوتاً عقلياً مستنداً إلى الحس الصحيح، أو التجربة المضطردة. وبما جاء به الخبر اليقيني.

---

(١) انظر كتابي «تعريف عام بدين الإسلام».

فهو دستور، ودستور الدولة في المادة يحدد الحدود العامة، ويبين الأهداف الكبرى ولكن لا يدخل في التفصيلات إلا في حالات خاصة لها ما يدعو إلى إدخالها في الدستور، فالدستور ينص على أن اللغة الرسمية للدولة هي العربية مثلاً، وعلى وجوب الاعتناء بها، لكن لا يشرح عمل اسم الفاعل والصفة المشبهة. وعلى أن القضاء مستقل، ولكن لا يحدد مدد التبليغ وطريقة التنفيذ وكذلك القرآن قال لنا: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء: ٣٨) وترك لنا اختيار الطرق والأساليب للوصول إلى تحقيق العدل.

* * *

٩ مقالات

الشيخ نديم الجسر

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين.

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ)، نوفمبر (١٩٦٥م).

٢- الإيمان ضرورة إنسانية.

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ)، مايو (١٩٦٦م).

٣- نحن والشباب المثقف.

العدد (٢١) رمضان (١٣٨٦هـ)، ديسمبر (١٩٦٦م).

٤- وتحسبونه هيناً.

العدد (٢٩) جمادى الأولى(١٣٨٧هـ)، أغسطس (١٩٦٧م).

٥- ركائز التفكير الإسلامي (١).

العدد (٣٢) شعبان (١٣٨٧هـ)، نوفمبر (١٩٦٧م).

٦- ركائز التفكير الإسلامي (٢).

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ)، يناير (١٩٦٨م).

٧- حول مؤتمر القمة.

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ)، مارس (١٩٦٨م).

٨- بشائر عن معركة المصير (١).

العدد (٤٨) ذو الحجة (١٣٨٨هـ)، فبراير (١٩٦٩م).

٩ مقالات

الشيخ نديم الجسر

٩- بشائر عن معركة المصير (٢).

العدد (٥٠) صفر (١٣٨٩هـ)، إبريل (١٩٦٩م).

١٠- ما وجدت لتبقى.

العدد (٨٩) جمادى الأولى (١٣٩٢هـ)، يونيو (١٩٧٢م).

ترجمة الكاتب

الشيخ نديم الجسر
رحمه الله

(١٨٩٧ـ ١٩٨٠م)

● **حياته**

هو نديم بن حسين بن محمد بن مصطفى الجسر. ولد بطرابلس عام ١٨٩٧م، لأسرة مصرية الأصل، تلقى علومه الأولى على يد والده الشيخ **حسين الجسر** الذي كان عالماً مؤسساً للمدرسة الوطنية، ومحرراً في جريدة طرابلس، ثم كفله شقيقه الشيخ محمد الجسر الذي كان نائباً عن المدينة ويعتبر من أبرز رجال السياسة في طرابلس.

أنهى الشيخ نديم دراسته في حمص بسوريا، ثم أكملها في بيروت وبعدها التحق بالعمل في سلك القضاء. استُدعي إلى الخدمة العسكرية الإجبارية، في الجيش العثماني عام ١٩١٦م وخدم في الحجاز والسويس حيث وقع أسيراً بيد القوات الإنجليزية التي سجنته في القاهرة ولم يخرج إلا بعد وساطة من الشريف حسين، ثم عاد إلى طرابلس وعمل كاتباً في سراي المدينة عام ١٩٢٢م ثم عينه المفوض السامي كاتباً في المحكمة، ثم رقي إلى رئيس قلم، إلى أن عين قاضياً ثم مدعياً عاماً.

وبعد وفاة أخيه الشيخ محمد الذي ترشح لرئاسة الجمهورية اللبنانية، استقال الشيخ نديم وتعمم جرياً على التقليد العائلي وحفاظاً على مركز العائلة الديني وتمسكها بدورها القيادي في المدينة. انصرف إلى التدريس في جامع طينال.

ثم ترشح للانتخابات وفاز بمقعد في البرلمان عام ١٩٥٧م، وعلى إثر وفاة مفتي طرابلس الشيخ كاظم ميقاتي، تم انتخاب الشيخ نديم مفتياً للمدينة.

● **عمله**

تولى الشيخ رحمه الله عدة مناصب منها:

مستشار بمحكمة الاستئناف.

عضو بمجلس العدل والقضاء الشرعي.

عضو بمجلس النواب اللبناني عام ١٩٥٧م.

مفتي شمال لبنان وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

● **مؤلفاته**

للشيخ رحمه الله العديد من المؤلفات منها:

شرح قانون الجزاء.

الموجز في الفلسفة العربية.

قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن.

فلسفة الحرية في الإسلام.

أرجوزة في علم المواريث.

الإسلام في العالم المعاصر.

القرآن والسنة في التربية الإسلامية.

شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين.

ركائز التفكير الإسلامي.

قانون السببية عند الغزالي.

ألفية الجسر في علم أصول الفقه.

● **وفاته**

توفي الشيخ نديم الجسر عام ١٩٨٠م وصلي عليه في طرابلس ودفن فيها بعد حياة حافلة بالأنشطة الدينية والسياسية.

شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين[1]

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ)، نوفمبر (١٩٦٥م).

نحن أمام ظاهرة اجتماعية خطيرة يشكو منها العالم الإسلامي بأسره، هي أن أكثر شبابنا المثقف بالثقافة العلمية العالية هم أقرب إلى الإلحاد، وأن القلة المؤمنين منهم أميل إلى إهمال العبادات والشعائر. هذه الظاهرة بدأت مع عصر النهضة العلمية في بلاد العرب والإسلام، وأخذت تزداد خطراً كلما ازدادت النهضة انتشاراً وازدهاراً، وقد منيت بالفشل كل المحاولات التي قام بها المصلحون في سبيل معالجتها.

ولكي نتوصل إلى دراسة صحيحة لأسباب هذه الظاهرة المزدوجة المتجلية بالإلحاد وإهمال الشعائر، علينا أن ندرس شخصية شبابنا، والمحيط الذي يعيشون فيه، والأفكار التي تغزو عقولهم، فشبابنا في عقله وجسده وميوله وأخلاقه يقف حائراً مرتبكاً بين عدة تيارات: سلطان العقل. أوهام العقل، سلطان العلم. أوهام العلم.

سلطان الجهل بحقيقة الإسلام، عدوى الملحدين. كيد المستعمرين. أخطاء المستشرقين والمؤرخين. العقد النفسية. فساد المحيط.

هذه أسباب ظاهرتنا الغريبة، نراها كثيرة معقدة ومتشابكة، منها الخارجي، ومنها الداخلي المحلي، ومنها العقلي، ومنها النفساني، ومنها الذي يستشري في قطر أكثر من قطر آخر، ومن كل هذا التعقيد والتشابك والتنوع والظهور والخفاء - كان الفشل في العلاج، فما لم نقنع شبابنا بأن الإيمان بالله هو من أصدق وأوجب

(١) ملخص البحث الذي ألقاه فضيلته في المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية الذي انعقد بالقاهرة في شهر المحرم الماضي، وقام بالتلخيص مندوب المجلة في القاهرة.

أحكام العقل، وما لم نقنعهم بأن قضايا الدين لا تتناقض مع العقل ولا مع العلم لن يكونوا مؤمنين، وما لم نيسر لهم التربية الصالحة، والمعرفة الميسرة والقدوة الكريمة لن يكونوا عاملين .

● **سلطان العقل في الإسلام**

إن مزية الإسلام هو أنه قد جعل للعقل السلطان الأعلى في فهم النصوص المنزلة. .

هذا العقل الذي أمرنا الله في آيات كثيرة من القرآن أمراً قاطعاً أن نحتكم إليه عند جدلنا مع أنفسنا في معركة الشك - واليقين، وعند جدلنا مع غيرنا من الملحدين والمشركين، يشمل بسلطانه كل معنى في الوجود، ابتداء من أبسط الأمور، كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم معنى في الوجود وهو الألوهية والوحدانية، وليس في الإسلام إيمان يتناقض مع العقل ولا نص يتناقض مع العقل، فكل نص يوجب ظاهره تناقضاً عقلياً في الذهن يتحتم علينا تأويله تأويلاً يرتفع به التناقض العقلي.

● **أوهام التعقل**

لابد لي قبل أن أضرب الأمثلة على سلطان العقل في قضايا الإيمان والدين أن أكشف النقاب عن أوهام التعقل مبيناً الفرق:

١ - بين المستحيل العقلي والمستحيل العادي.

٢- استحالة التعقل وصعوبة التصور.

٣- بين حكم عقلي عام تتفق عليه كل العقول السليمة، وبين نظرة فردية خالصة تختلف بشأنها العقول السليمة.

٤- بين الحقائق العلمية والمقطوع نهائياً بصحتها، والآراء العلمية غير المقطوع نهائياً بصحتها، والتي تبزغ وتظهر على مسرح التفكير حقبة من الزمن ثم تخبو إلى الأبد.

إن الخلط بين هذه الحقائق والفوارق هو من أوهام التعقل التي يقع في أغاليطها كثير من الناس، حتى المثقفون بأعلى الثقافات، فمن الواجب على

الشاب الذي يدخل في جدل مع نفسه، أو غيره، حول أية قضية دينية أن يقف تمام الوقوف على هذه الفوارق كي لا يقع في أوهام التعقل.

فالمستحيل العقلي هو الذي يوجب تصور وجوده أو تصور عدمه تناقضاً عقلياً في الذهن كقولنا: الواحد نصف الثلاثة أو الجزء أكبر من الكل. أما المستحيل العادي: فلا يوجب تصور حصوله أو عدم حصوله تناقضاً عقلياً في الذهن ولكن جرت العادة أن نعده مستحيلاً في العادة: كخرق النواميس الكونية بالمعجزات الإلهية. كذلك نقول عن الفرق بين استحالة تعقل الشيء وبين صعوبة تصوره: كم من حقيقة يمكن تعقلها ولكن يصعب على الذهن تصورها: كعدد ذبذبات الصوت التي أثبت العلم أنها قد تبلغ بالحساب الدقيق القاطع إلى نصف مليون ذبذبة في الثانية فيمكن تعقل هذه الحقيقة ولكن لا يمكن تصورها مطلقاً في الذهن لأننا مهما جمعنا خيالنا وركزنا لا نستطيع أن نتصور أن ثانية من الزمن تتسع لنصف مليون ذبذبة ولكن يجب ألا تحملنا صعوبة التصور على القول باستحالة التعقل، فما كل شيء يصعب تصوره يكون مستحيلاً عقلاً ولا كل معقول يسهل تصوره.

كذلك نقول عن الفرق بين النظر العقلي العام الذي تتفق على صحته كل العقول السليمة بلا خلاف وبين النظرة الخاصة التي تختلف فيها العقول. فلا يقولن الشاب أثناء الجدل العقلي على قضية من قضايا الدين: هذا رأيي وهذا عقلي لأننا نقول له: عقلك وحدك ليس حجة على الحكم الصحيح، ولكن اتفاق كل العقول هو الحجة.

كذلك نقول عن الفرق بين الحقائق العلمية المقطوع عقلياً ونهائياً بصحتها، وبين الآراء والنظريات العلمية الظنية المرجحة التي لم يقم دليل قاطع على صحتها ويحتمل أن تظهر أدلة جديدة تنفي صحتها وتوجب بطلانها، والأمثلة كثيرة: كروية الأرض، حركة الشمس، الجاذبية الكهربائية، أوهام التاريخ التي تلبس ثوب الحقيقة القاطعة، فعلى الشباب ألا يبنوا آراءهم النهائية وجدلهم في إنكار القضايا والأخبار الدينية على أساس آراء علمية خاطئة أو ناقصة، يظنونها حقائق علمية ثم يظهر لهم بعد ذلك أن هذا الأساس الذي بنوا عليه جدلهم

وجحودهم وإلحادهم، هو أساس باطل، تعبوا في البناء عليه، ثم لما ظهر الحق خر البناء من القواعد.

● أمثلة على سلطان العقل في الإسلام

١- قضية وجود الله الخالق لهذا الكون: هي حقيقة ذكرتها الكتب المنزلة، وعند عرضها على العاقل، نجد أن إقرارها لا يشكل تناقضاً عقلياً، بل إنكارها هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً، لأنه يجعل العالم الممكن الحادث المعلول موجوداً، بغير علة ولا فاعل، وهذا مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً، أو يجعل المعلول عين العلة، هذا أيضاً مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً، وعن هذين المستحيلين عبر القرآن بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الطور: ٣٥).

٢- والوحدانية حقيقة ذكرتها كل الكتب السماوية: وعند عرضها على العقل نجد أن إقرارها لا يوجد تناقضاً عقلياً بل القول بتعدد الآلهة هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً.

٣- قضية المعجزات التي ذكرتها الكتب السماوية: وعند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصولها يوجب تناقضاً عقلياً، بل ادعاء استحالتها استحالة عقلية لا عادية، هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً عند من يؤمن بأن الله هو خالق الكون وخالق النواميس، لأن المعجزات هي خرق النواميس الكونية، وهذا الخرق مستحيل في العادة ولكنه غير مستحيل عقلاً لأن الذي خلق النواميس قادر على خرقها، ونحن نستنكر تفسير المعجزات الإلهية تفسيراً علمياً لأن هذا التفسير يفقد المعجزة معناها ويرد الشباب المثقف الذي نريد حمله على تصديق المعجزة إلى نكسة عقلية في معجزات يستحيل تفسيرها على أساس علمي.

٤- قضية البعث التي ذكرها وأكدها القرآن: عند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصول البعث يوجب تناقضاً عقلياً، بل القول باستحالة حصول البعث هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً، لأن البعث هو خلق جديد، والذي خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادة خلقه بل هو أهون عليه.

● **تيسير الفهم والتفهم**

إن تيسير فهم النصوص، وفهم حكمة أحكام الدين، له أثر كبير في جذب الشباب المثقف نحو القيام بالعبادات والشعائر، وشبابنا مسدودة في وجوههم أسباب هذا التيسير للفهم من كل النواحي: في البيت، في المدرسة، بالكتب الضخمة التي يجفل الشباب من مجرد رؤيتها بل يعسر فهمها حتى على بعض علماء الدين، ومسدودة بجمود كثير من المسلمين المرشدين الذي يقابلون كل سؤال بغضبة، وكل استفهام بلعنة، وكل بحث عن المعقول بالتكفير، وأضرب على عدم تيسير الفهم مثلاً بسيطاً: فهذا القرآن الذي يخاطب العرب بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ (يوسف: ٢).

فيه أكثر من ألف كلمة عربية لا يعرف شبابنا المثقف معناها اللغوي، وهو يسمعها في كل يوم وليلة من الإذاعات فكيف الحال مع غير العرب؟

يجب أن نضع بين أيدي الشباب كتباً دينية واضحة سهلة جذابة وأن نقيم على تعليمهم في المعاهد أساتذة يحسنون الفهم والتفهيم، ويدركون أساليب التربية الفنية، ولهم صدور واسعة، وعقول نيرة، وثقافات تتناسب مع ثقافة الشباب المعاصر.

● **المثقفون والخرافات**

ومن أعظم ما ينفر الشباب المثقف من الدين تلك البدع والشوائب والخرافات التي ألصقت بالإسلام وهو براء منها، وليس أدل على بعد الإسلام وترفعه عنها من هدي القرآن والسنة الصحيحة، وهما المنبعان الأصيلان للتشريع فإذا تصفح الشباب القرآن وجدوا أنه في كل سورة بل في كل صفحة يعلي كلمة الحق، ويجعل العقل إليه هادياً والعمل عليه دليلاً، والعلماء عليه شهداء، ويحذر من الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويستهزئ بالخرافات والأساطير، ويفصل فصلاً صارماً بين الألوهية والبشرية، ويخوف أشد التخوف من الشرك الخفي، ويجعل صلة العبد بالله من غير وسيط.

وإذا تصفح الشباب السنة الصحيحة وهي هدي الرسول قولاً وعملاً، وجدوا

أنه ﷺ كان أبعد الناس عن أوهام الخرافات، وأشدهم إنكاراً للتنجيم والعرافة والشعوذة والاستجارة بغير الله، كان أعظم الناس تبرّأً من كل ما يرفعه عن مستوى البشرية والعبودية لله، كان ﷺ أكثر الناس ذكراً لله ولكنه لم يخرج عن سمت الوقار والإخبات إلى هرج الطقوس والحركات والرقص، وكان أعظم الناس زهداً وتقشفاً، لكنه لم يخرج في زهده وتقشفه وتصوفه- إذا جاز هذا التعبير -، عن بساطة الإخلاص إلى تعقيد الرياء الذي سرت طقوسه إلى المسلمين من الأمم التي اختلطوا بها بعد الفتح.

● **عقدتا الكبت والتقنيط**

من أسباب انصراف الشباب عن ممارسة الشعائر عقدتا الكبت والتقنيط، فالطريقة التي بها ساق الأب ابنه في صغره أو المعلم في المدرسة، إلى إقامة الشعائر، سببت له كبتاً نفسياً جعله ينفر من الشعائر، هذا الكبت النفسي، يجب أن يحل محله التشويق والترغيب والإيحاء والاستهواء بالنسبة للصغار، أما الشباب البالغون، فمن أهم أساليب الإيحاء لهم أن تعمل الجماعات الرياضية والكشفية وأمثالها على إدخال إقامة الصلاة وصيام رمضان في نظامها، وأخيراً يجدر بنا ونحن ندرس عقدة الكبت أن نيسر لهم أمر التطهر بالماء وبغير الماء عند المانع كي يستسهلوا الصلاة، ويتعودوا عليها[1]، وأن نيسر لهم أيضاً الجمع بين الصلاتين عند العذر أخذاً لمذهب الحنابلة، في هذا العصر عصر الكدح السريع المرير .

والشبان بحكم مرح الشباب وفورته وجموحه ولهوه، لابد أن تكون لهم مزالق في حياتهم، فإذا سمعوا من الوعاظ أهوال المنذرات تكونت في صدورهم عقدة القنوط، ولو أن الوعاظ اتبعوا نهج القرآن في الترغيب والترهيب لفتحوا لذلك الشباب في جدار يأسه كوة ينفذ منها إلى الأمل، ويخرج منها إلى التوبة.

إن الخطر الكامن خلف عقدة القنوط، هو أن تتكون عند الشباب المسترسل في الإلحاد والفساد لذة التنفيس عن نفسه بطرائق ثلاث: الجدل في الإلحاد،

(١) في حدود ما بينه فقهاء المسلمين الذين يعتد برأيهم.

الاستهزاء بالشعائر، ثم جر الرفاق إلى الانزلاق .

ولقد سرت إلى شبابنا المثقف عدوى التقليد بعد أن قرأ تاريخ النزاع الطويل بين المفكرين ورجال الدين في أوروبا، الذي انتهى عند بعض المفكرين إلى الشك، وانتهى عند الماركسية المادية إلى الكفر والإلحاد، واحتقار الشعائر الدينية ومحاربة الدين ورجاله .

إن شبابنا الذي فتحت في تفكيره هوة من الفراغ بسبب ما يحمل في رأسه من غرور العقل وأوهام التعقل والجهل لحقيقة الإسلام، وما يحمل في صدره من عقد الكبت والقنوط أصبح بحاجة طبيعية لملء هذا الفراغ بأية فكرة تلائم نفسيته، فانجرف مع تقليد الغربيين في شكوكهم ثم زادته المشاكل الاقتصادية المعاصرة فراغاً فانجرف مع تقليد الماركسية بشيوعيتها وإلحادها.

● **عقدة التخاذل والاستخذاء**

وهي تظهر عند بعض الشبان الذين لم تتحمل رؤوسهم زهد الثقافة، فتخلوا باسم التقدمية عن شعائر دينهم وعزتهم الإسلامية في آن واحد، وهؤلاء المخاذيل ليسوا كلهم ملحدين بل قد يكونون في قرارة أنفسهم من المؤمنين، ولكن إذا ضمتهم المجالس والنوادي مع الإفرنج والمتفرنجين أظهروا من باب التفاخر بالتقدمية العصرية أنهم لا يبالون بشعائر الدين ولو كان أحدهم منتسباً إلى فرقة رياضية صغيرة، أو حزب سياسي هزيل أو حزب عقائدي ملحد، لرأيته يحمل شارتها ويرفع شعارها، ويفخر بها ويدافع عنها، ولكنه وهو المنسوب إلى أمة عظيمة لها في تاريخها ما يرفعها في كل مستويات المثل العليا فوق الأمم يتعير منها ومن شعائرها وتقاليدها، هذا الاستخذاء سببه جهل شبابنا للتاريخ ولو زعموا أنهم قرأوه واجتازوا به الامتحانات بجدارة.

وربما كان من أعظم أسباب ضعف الإيمان عند الشباب سوء القدوة في البيت والمدرسة والمسجد، ذلك لأن القدوة إنما تبنى على الاحترام والثقة، وما لم يكن للشباب في قرارة نفوسهم احترام لرجل الدين وثقة بعلمه وخلقه قولاً وعملاً، لا يمكن أن يتخذوا منه قدوة، بل يكون غير الصالح من رجال الدين سببا لتجريء

الشباب على الإلحاد، وعلاج هذا الأمر يحتاج إلى إعداد جيل كامل من رجال الدين يتولى هو بدوره تخريج جيل من الآباء والأمهات والمعلمين الصالحين للقدوة، لتستكمل الحلقة دورتها.

● **سلطان الرأي العام**

إن أولئك المصابين من شبابنا بتلك العقد، والذين بلغ الأمر بهم إلى حد إعلان الإلحاد والاستهزاء بالدين، وإغواء الآخرين وتخذيل الأمة، هم مرضى، يجب أن نعالجهم كما نعالج كل الأمراض النفسية، والعقلية، أي تارة بالإيحاء والاستهواء والإرشاد، وتارة بشيء من القسوة، وعلاج القسوة من عمل الرأي العام، هذا الرأي العام الذي وضع به التشريع الإسلامي أعظم ركائز الإصلاح والزجر في المجتمع، فلو أن الرأي العام درج على إظهار الاستنكار والاحتقار للجاهرين بالإلحاد لأحدث ذلك أثراً عظيماً في الإصلاح.

● **وأخيراً... الإيمان بالله ضرورة**

إن آخر طرق العلاج مع الشباب المثقف، بل أولها عند البعض، أن نقنعهم بجدوى الإيمان وأنه ضرورة إنسانية في فلسفة «البراغماتيزم» أي فلسفة الذرائع. إن الفكرة إنما تكون حقاً لأنها نافعة، وإنما تكون نافعة لأنها حق، وإن الحق والنافع يعبران عن شيء واحد، هذه الفلسفة التي تتخذ من القيمة العملية للفكرة مقياساً للحقيقة ليست صحيحة في أساسها وليس هذا مقام الكشف عن جوانب الخطأ فيها، ولكننا نتخذ منها منطلقاً لطرح السؤال الآتي:

هل نبدأ التفكير في الحق أولاً لنستخرج منه النافع أم نبدأ التفكير في النافع الضروري لنقول عنه إنه حق؟

أرى أن نبدأ بالثاني ولكن من أي جوانب النفع والضرورة نمسك خيوط الجدل مع هذا الشباب الذين تحيط بهم الشكوك في الدين من كل جانب؟

لاريب أن البداية يجب أن تكون أمراً نتفق نحن والشباب على أنه «حق وضرورة» فما هو هذا الأمر؟ إنه «إنسانيتنا» التي يمكن أن يجادل الشباب في كل شيء إلا فيها.

يقول الفيلسوف الإسلامي الكبير، ابن مسكويه، إن المزية الوحيدة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوانات كلها هي «مكارم الأخلاق». كأن يقال: إن الإنسان يمتاز عن الحيوانات بمزية واحدة هي «النطق أي العقل». ولكن التحقيق العلمي أثبت أن الحيوانات لا تخلو من عقل تدرك به كثيراً من أمور معيشتها لذلك صار علينا أن نبحث عن مزية أخرى خاصة، يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، وبها يسمى إنساناً، وهذه المزية الخاصة هي الأخلاقية التي تتجلى بالضمير الإنساني. وجاء «دارون» بعد ابن مسكوية بعصور يقول: إن الضمير أو الحي الأخلاقي هو أظهر فاصل يفرق بين الإنسان والحيوان، وجاء «كانط» يتخذ من هذا الشعور الأخلاقي منطلقاً لإثبات خلود الأرواح ويوم الحساب ووجود الله الحكم العدل.. هذا الضمير الأخلاقي إنما يصونه الصيانة الكاملة شيء واحد: وهو الإيمان بوجود الله الحكم العدل القدير.

فتحقيق إنسانيتنا ضرورة اجتماعية، وإنسانيتنا لا تتحقق إلا بأخلاقيتنا، وأخلاقيتنا لا تصان إلا بالإيمان، فالإيمان إذن، أمر ضروري لأنه يمسك أخلاقيتنا التي تثبت بها إنسانيتنا.

* * *

الإيمان ضرورة إنسانية

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).

في فلسفة البراغماتيزم، التي سموها بالعربية «فلسفة الذرائع» أن الفكرة إنما تكون «حقاً» لأنها «نافعة»، وإنما تكون نافعة لأنها حق. وأن «الحق والنافع يعبران عن شيء واحد». أي أن القضية تصبح حقاً عندما تبررها العواقب. فنحن في زعم البراغماتيزمية الأميركية نخلق «الحقيقة» ونخلق «الحقيقي» حسب حاجة المجتمع.

إن هذه الفلسفة التي تتخذ من القيمة العملية للفكرة مقياساً للحقيقة، ليس صحيحة في أساسها وليس هذا مقام الكشف عن جوانب الخطأ فيها. ولكننا نتخذ منطلقاً لطرح السؤال الآتي: هل نبدأ التفكير في «الحق» أولاً، لنستخرج منه «النافع» أم نبدأ التفكير في «النافع الضروري» لنقول عنه إنه حق؟ إنني مع الشباب المثقف بالذات، وفي قضية الإيمان بالذات، أرى أن نبدأ بالثاني ولكن من أي جوانب النفع والضرورة نمسك خيط الجدل مع هؤلاء الشباب الذين تحيط بهم الشكوك في الدين من كل جانب؟.

يقول القرآن ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ (الكهف: ٥٤) فكيف إذا كان هذا الإنسان من الشباب المزهو بسلاح العلم المجادل في كل القيم؟.

إن السنين الطوال سوف تنضج على جمر العذاب، تفكير الشباب، حتى يصدقوا أن الإيمان «حق وضرورة». ولكننا نريد أن نختصر لهم السنين الطوال، ونوفر عليهم عذاب الندم والحسرة إذا جاءت سكرة الموت بالحق، كما يقول القرآن. فمن أين نبدأ الكلام في أن الإيمان بالله ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية؟.

لاريب في أن البداية يجب أن تكون أمراً نتفق نحن والشباب على أنه «حق

وضرورة». فما هو هذا الأمر؟ إنه «إنسانيتنا» التي يمكن أن يجادل الشباب في كل شيء إلا فيها.

يقول الفيلسوف الإسلامي الكبير «ابن مسكويه» في كتابه الموجز الجليل «تهذيب الأخلاق» إن المزية الوحيدة، التي يتميز بها الإنسان عن الحيوانات الكثيرة كلها هي «مكارم الأخلاق».

ذلك أن كل مخلوق يشترك مع غيره من المخلوقات في بعض الصفات، ويمتاز عنها لنفسه بصفة ومزية خاصة لا يشاركه فيها غيره كالأسد يمتاز بالقوة والفرس بسرعة الجري، والبغل والحمار بحمل الأثقال، والعندليب والكنار بالتغريد، والطاووس بجمال الشكل. إلى غير ذلك.

أما الإنسان فإنه يشارك الحيوانات الأخرى، بصفات الحركة والتغذي والتناسل ويمتاز عنها بمزية واحدة هي «النطق» أي العقل. ومن هنا أطلقوا عليه اسم «الحيوان الناطق» أي العاقل.

ولكن التحقيق العلمي قد أثبت أن الحيوانات لا تخلو من عقل تدرك به كثيراً من أمور معيشتها.

لذلك صار علينا أن نبحث عن مزية أخرى خاصة يمتاز بها الإنسان عن الحيوانات، وبها يسمى إنساناً.

هذه المزية الخاصة هي «الأخلاقية» التي تتجلى «بالضمير الإنساني».

فالحيوان يعقل، وقد ترتقي فيه قوة التعقل، كما في بعض القرود، ولكنه لا يفهم معنى «الأخلاقية» ولا يمكن أن يكون له الشعور الذي نسميه «الضمير».

فأخلاقيتنا إذن هي المزية الوحيدة التي تثبت بها «إنسانيتنا». وإذا خرجنا عن هذه المزية عدنا إلى مرتبة الحيوانات، بل كان كل حيوان بمزيته الخاصة خيراً منا، لأننا فقدنا مزيتنا الخاصة، وليس لنا مزاياه الخاصة.

هكذا قال ابن مسكويه، وهكذا من بعده بعصور، جاء «دارون» يقول: «إن الضمير أو الحس الأخلاقي هو أظهر فاصل يفرق بين الإنسان والحيوان» وجاء «كانت» يتخذ من هذا «الشعور الأخلاقي» منطلقاً لإثبات خلود الأرواح، ويوم

الحساب، ووجود الله الحكم العدل القدير.

هذا الضمير الأخلاقي إنما يصونه الصيانة الكاملة الدائمة الساهرة النافذة من وراء حجب الخفاء شيء واحد وهو الإيمان بوجود الله الحكم العدل القدير.

فتحقيق إنسانيتنا ضرورة اجتماعية، وإنسانيتنا لا تتحقق إلا بأخلاقيتنا، وأخلاقيتنا لا تصان إلا بالإيمان.

فالإيمان إذاً، أمر ضروري لأنه يمسك أخلاقيتنا التي تثبت بها إنسانيتنا.

وأكرر القول للشباب: إن الإيمان بالله هو:

- أس الفضائل.
- ولجام الرذائل.
- وقوام الضمائر.
- وسند العزائم في الشدائد.
- وبلسم الصبر عند المصائب.
- وعماد الرضى والقناعة بالحظوظ.
- ونور الأمل في الصدور.
- وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة.
- وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه.
- والعروة الوثقى بين الإنسانية ومثلها الكريمة.

فلا يخدعنكم أيها الشباب، من يقول لكم أن مكارم الأخلاق تغني بوازع الضمير عن الإيمان. لأن مكارم الأخلاق التي تواضعنا عليها، للتوفيق بين غرائزنا وحاجات المجتمع، لابد لها عند اعتلاج الشهوات في الشدائد والأزمات، أن تعتمد على الإيمان، بل إن هذا الشيء الذي نسميه ضميراً، إنما يعتمد في سويدائه على الإيمان.

وانقياد الناس لمكارم الأخلاق، إنما يكون بزاجر من السلطان أو وازع من القرآن أو رادع من المجتمع فإذا كنا في نجوة من سلطان القانون والدين والمجتمع لم يبق لنا وازع إلا الضمير. ونحن في معركة الشهوات والغرائز مع الضمائر، قل

أن نرى الضمير منتصراً إلا عند القلة من الناس، وهذه القلة نفسها لا تستمسك بضمائرها عند جموح الشهوات، إلا إذا كانت تخشى الله.

ولو تركنا مكارم الأخلاق جانباً، ونظرنا إلى حاجتنا للإيمان من حيث هو سند في الشدائد، وبلسم للمصائب وسكن للنفوس، وعزاء للقلوب وعلاج لشقاء الحياة، لوجدنا أننا عند فقد الإيمان، نكون أسوأ حظاً في الحياة، وأدنى رتبة في سلم المخلوقات، من أذل البهائم، وأضعف الحشرات، وأشرس الضواري.

فالبهائم تجوع كما نجوع، ولكنها في نجوة من هم الرزق، وخوف الفقر وكرب الحاجة، وذل السؤال... وهي تلد كما نلد، وتفقد أولادها كما نفقد، ولكنها في راحة من هلع المشكلة، وجزع الميتة، وهم اليتامى المستضعفين.

وهي في أجسادها، تلذذ كما نلتذ، وتألم كما نألم، ولكنها في راحة مما يأكل القلوب، ويقرح الجفون، ويقض المضاجع، ويقطع الأرحام، ويفرق الشمل، ويخرب البيوت من المهلكات: كالحسد والكذب والنميمة والفرية والقذف والنفاق والخيانة والعقوق وكفر النعمة ونكران الجميل.

وهي تعرف بنوع من الإدراك، ما يضرها وما ينفعها، ولكنها في نجوة من أعباء التكليف، وأثقال الأوزار، ومضض الشك، وكرب الحيرة وعذاب الضمير.

وهي تمرض كما نمرض وتموت كما نموت ولكنها في راحة من التفكير في عقبى المرض، وفراق الأحباب، وسكرات الموت، ومصير الموتى وراء القبور.

والضواري تسفك الدماء لتشبع بلا سرف، ولكنها لا تسفكها أنفاً ولا جنفا ولا صلفا ولا ترفا ولا علوا في الأرض ولا استكباراً.

أما هذا الحيوان الفيلسوف الضعيف الهلوع الجزوع المطماع المحتال الفخور المترف المتكبر المتجبر السافك الدماء الذي لا يأتيه شقاء الحياة، أكثر ما يأتيه إلا من تفكيره فإنه لا علاج لشقائه إلا بالإيمان.

فالإيمان هو الذي يقويه، وهو الذي يعزيه، وهو الذي يسليه، وهو الذي يمنيه، وهو الذي يرضيه، وهو الذي يجعله إنساناً يسعى إلى مثله الأعلى لتسجد له الملائكة.. ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق

وأسوأها حظاً، وأعظمها شقاء وأشدها بلاء وأحطها رتبة وأرذلها مصيراً.

وسبيله إلى الإيمان هو ذلك «التفكير» الذي كان سبب شقائه. إنه عبد لتفكيره قبل أن يكون عبداً لربه، ولا يكون عبداً لربه حق العبودية إلا بهذا التفكير. الذي ينسج خيوط سعوده ونحوسه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

لقد خلق الله هذا الإنسان، ورفعه وكرمه وميزه بهذه النفس العاقلة المفكرة التي علمه بها الأسماء كلها، وخلفه بها على الأرض، وصيره بها فوق الملائكة، وكتب الفلاح لمن زكاها، والخيبة لمن دساها. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس: ٧-١٠) فكيف نزكيها؟

إننا نزكيها بالتفكير، حتى تتسامى إلى مثلها الأعلى، وتصل إلى «اليقين» من الحق والخير والجمال، فترى الله عنده.. وتجد من حلاوة الإيمان ما تدرك به سر شقائها وسعادتها، وضعفها وقوتها، وعجزها وقدرتها، وعبوديتها وحريتها.. بل سر خلقها، ووضعها على مفترق «النجدين» وتركيبها على هذه الصورة القابلة «للضدين»، التي من دونها لا يفهم معنى «العبودية» ولا يستقيم معنى «العبادة».

لذلك كان حقاً علينا من باب الحاجة والضرورة، إن لم يكن من باب الحق والعبادة والتقوى، ومن أجل سلامة عقولنا، وسلامة قلوبنا، وسلامة ضمائرنا، وسلامة إنسانيتنا ومثلها العليا وسلامة المجتمع، أن ندعو إلى الإيمان بالله، ونيسره للعقول، ونشرح له الصدور.

* * *

نحن والشباب المثقف

العدد (٢١) رمضان ١٣٨٦هـ ديسمبر ١٩٦٦م

أمام هذا الجيل الصاعد من الشباب المسلم، المزهو بسلاح العلم والعقل، المفتون بأقوال المستشرقين، لا يجوز لنا أن نحصر الرد على المتهجمين أو المشككين في مبادئ الإسلام في أن هذا المبدأ موضع إجماع المسلمين، ولا أن نشهر في المعركة أسلحة التفسيق والتكفير لنخنق أصوات الشباب؛ لأن خنق الأصوات يرد الشك إلى صدور الشباب ويجعلهم أكثر حيرة وزيغاً، وتصديقاً لتُهم المشككين من أعداء الإسلام، ولأن هؤلاء المثقفين من الشباب لا يكتفون بالردود السطحية، ولا يبالون بالتهديد والوعيد، ولا يقلعون عن التساؤل والاستفهام إلا إذا يئسوا من قدرة العلماء على الرد القاطع المقنع، ودخلوا- بيأسهم- إلى منطقة الزيغ والكفر لا سمح الله. ولست أدري - والله - سبباً يجعلنا ننكر على الشباب مطالبته لنا بالإقناع العقلي الحر، ونحن أهل دين يجعل للعقل السلطان الأعلى في فهم نصوص القرآن فضلاً عن الحديث.

● توطئة للكلام مع الشباب

وقبل أن أقدم للشباب المثقف ما عندي من وسائل الإقناع العقلي، وقبل أن أنصب لهم الميزان الذي توزن به صحة الأحاديث أو المبادئ الإسلامية يهمني أن أكرر لهم الشيء الذي طالما كررته في كل ما أكتب في الدين، لخير الشباب وهو: التنبيه إلى عدم الخلط بين المستحيل عادة، والمستحسن والمستهجن رأياً وذوقاً.

فالشباب المثقف، الذي يحسن التفريق والتمييز بين هذه المعاني عند التفكير في قضية رياضية أو فلسفية، لا يتورع عن الخلط بينهما عند التفكير في قضايا الإيمان والدين، ومن هنا يأتيهم الإنكار لكثير من الأحاديث الواردة في

الصحيحين، بل الزيغ أمام المتشابهات من آيات القرآن، بل ضعف الإيمان بوجود الله.

وإذا كان بعضهم يتعمد هذا الخلط لمجرد المراء والتفاخر بتقليد الملحدين، فإن أكثر الناضجين منهم يقعون في هذا الخلط عن عدم انتباه، بل عن حسن نية وغيرة على الدين، حين يخيل إليهم أن بعض الأحاديث يتناقض مع العقل أو يتنافى مع الحق والخير والمصلحة.

فلهؤلاء أقول، من باب التنبيه لا من باب التعليم لشيء قد عرفوه في دراساتهم الرياضية الفلسفية: إن المستحيل العقلي هو الذي يحدث تصوره تناقضاً عقلياً في الذهن. كقولنا إن الجبل يدخل في الكأس أو أن الجمل يدخل في سم الخياط، كما مثل القرآن، أو إنكارنا أن الواحد نصف الاثنين، أو إنكارنا أن الكل أكبر من جزئه. أما المستحيل العادي فإنه لا يحدث تناقضاً عقلياً في الذهن والكن جرت «العادة» أن نستبعد وقوعه، مثل استبعادنا، قبل اليوم طيران الإنسان إلى السماء وسماع صوت المتكلم من أقصى الأرض، والوصول إلى القمر، وغير ذلك من الأمور التي كنا نحسبها، في العادة، «مستحيلة» ثم تبين أنها «ممكنة» ولذلك سموها المستحيلات العادية.

أما الاستحسان والاستهجان فإنهما لا يصلحان حجة للقطع بحسن الشيء وقبحه إلا إذا كان هنالك إجماع من كل العقول السليمة، كاستحسان الصدق واستهجان الكذب، أو كان هنالك نص ديني قاطع يقضي بهما، ولو خفيت علينا الحكمة بادئ الرأي، كالاستهجان لأكل لحم الخنزير. أما الاستحسان والاستهجان الصادران عن رأي الفرد، لا عن إجماع، وكذلك الاستبعاد الصادر عن رأي علمي لم يبلغ درجة اليقين فإنها كلها لا تصلح أن تكون أساساً للقطع والجزم بعدم صحة الأحاديث الصحيحة.

لأنه قد يكون وراء الرأي الفردي، أو وراء الرأي العلمي، حقيقة من النفع والضرر، أو حقيقة من العلم سوف تظهر لنا، كما ظهرت طبياً حكمة الحديث الآمر بغسل الإناء الذي تلوث بلعاب الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب لإزالة

جراثيم داء الكلب، وكما ظهر من ضرر القليل من الخمر وأثره في الأجنة، بالتجربة التي أجراها العلماء في أمريكا على عشرة أزواج من الأرانب سقيت تسع منها جرعات متفاوتة القدر من الخمر، فظهر تأثير الخمر وضررها في أجنتها جميعاً، حتى عند الزوجين اللذين لم يسقيا إلا جرعة واحدة فقط، أما الزوجان اللذان لم يسقيا شيئاً من الخمر فلم يظهر في أجنتهما أي أثر لأي ضرر. وعلى غرار هذين المثلين نذكر ما اكتشفه العلم مؤخراً من وجود مادة هرمونية في البول تسمى «يوروغا سترون ursgistrone» وأخرى تسمى «أنثلون Antheline» تنفعان في مرض «قرحة المعدة» كما ذكر ذلك الدكتور ميشال صليب أستاذ الأمراض الباطنية بكلية عين شمس في مبحث «قرح المعدة» من كتابه «أمراض الجهاز الهضمي» المؤلف بالإنجليزية المطبوع سنة ١٩٦٣م في الصفحة السادسة والأربعين. وقد تمكنت شركة «بارك ديفز» الإنجليزية الشهيرة من صنع علاج يسمى «كورتون Kurtone» يحتوي على هذه الهرمونات البولية. وهذا ما يحل الإشكال الذي كنا نعانيه في تفسير حديث البخاري عن شرب أبوال الإبل، الذي أمر النبي ﷺ به بعض الأعراب المرضى. فكل هذه الأحاديث عن غسل الإناء وتحريم الخمر والتداوي بالأبوال، قد قيلت منذ أربعة عشر قرنا، في وقت لم يكن فيه الناس يدركون بعقولهم وجود جراثيم الكلب، أو ضرر القليل من الخمر، أو نفع شرب البول في بعض الأمراض بل كنا كلنا نستهجن هذا الشرب ونستقذره ونحار في تفسير هذا الحديث للسائلين من الشباب.

وهكذا يظهر بجلاء أن الاستحسان من الأفراد، والاستبعاد المبني على الآراء العلمية (الظنية) لا يجوز أن تتخذ أساساً للقطع والجزم بعدم صحة الأحاديث النبوية الصحيحة.

وبعد فهذه توطئة نرجو ألا تغيب حقائقها الواضحة عن تفكير الشباب المثقف، عند كل بحث وتساؤل من بعض الأحاديث النبوية الواردة في صحيح البخاري أو صحيح مسلم. ولسنا نريد بها أن نحمل الشبان المثقفين على أن يتهيبوا البحث، ويدفنوا شكوكهم في صدورهم لتنقلب إلى زيغ مرير، بل نريد بها

أن نضع لهم الميزان الذي يوزن به كل حديث يقع في تفكير الشباب، وظنهم أن ظاهره يخالف العقل أو الحق أو الخير أو العلم.

● **ما هو الميزان**

الميزان هو القرآن الكريم والعقل. وللإيضاح لابد من ذكر ست حقائق:

الحقيقة الأولى: أن القرآن قد يجعل للعقل السليم السلطان الأعلى في إدراك الحق والخير من أتفه شيء، كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم شيء وهو الإيمان بوجود الله. وهذه أولى مزايا الإسلام. فنحن بالعقل نؤمن بوجود الله وبالعقل نؤمن بوحدانيته وكل صفات كماله، وبالعقل نؤمن بالقرآن الذي أمرنا بتحكيم العقل في كل أمر من أمور الإيمان.

الحقيقة الثانية: كل نص يوجب ظاهره تناقضاً عقلياً قاطعاً في الذهن يجب تأويله حتى يرتفع التناقض، وهذا متفق عليه عند العلماء، لأن تعطيل العقل يرجع بالتعطيل على جميع الآيات الكثيرة التي أمرنا الله فيها بتحكيم العقل في أمور الإيمان، ويرجع بالتعطيل على صدق الرسول الذي عرفنا صدق رسالته بالبراهين العقلية.

مثال ذلك: قول القرآن في سورة الكهف عن ذي القرنين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ (الكهف: ٨٦)، فإن ظاهر هذه الآية يتناقض مع الحكم العقلي البديهي القاطع الذي يقضي بامتناع دخول الجسم الكبير في الوعاء الصغير، لأن الأرض أصغر من الشمس بكثير، فوجب هنا تأويل ظاهر الآية، كما فعل العلماء الأعلام حين قالوا: إن المراد بها: أن ذا القرنين رأى الشمس في غروبها كأنها تغرب في العين الحمئة، كما يقول أحدنا رأيت الشمس تغرب في النيل أو في البحر وهو يعلم قطعاً أنها لا تغرب في النيل ولا في البحر بل تغرب وراء الأرض.

الحقيقة الثالثة: وهي نابعة من الحقيقة الثانية، وتابعة لها، ولكننا أفردناها عنها، وأبرزناها مستقلة، لأهميتها وخطرها: وهي أن التناقض لا يكون إلا بين قضيتين قاطعتين تتناقضان. أما إذا كانت إحدى القضيتين قاطعة والثانية غير قاطعة وإنما هي ظنية، فلا يكون هنا ذلك التناقض الذي يوجب تأويل النص.

ففي قضية غروب الشمس في العين نجد أننا بين قضيتين قطعيتين، الأولى قول القرآن ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والثانية القضية البديهية القائلة بامتناع دخول الجسم الكبير وهو الشمس في الجسم الصغير وهو العين، فاحتجنا إلى التأويل الذي يرفع التناقض.

ولكنا في آية أخرى مشابهة في نفس سورة الكهف نجد أن التناقض غير متحقق: وإن كانوا في الماضي يظنون خطأ أنه موجود، ذلك في قوله تعالى عن ذي القرنين ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ فهاهنا حقيقة قاطعة وهي قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ناشئ من العلم الجغرافي القديم الناقص، الذي كان معتمداً قبل اكتشاف مناطق القطبين، وقبل معرفة دورة الأرض حول الشمس وهي مائلة ميلاً يحدث عنه طول النهار في أحد القطبين حتى لا تغيب عنه الشمس عدة أشهر، وحلول الليل في القطب الثاني حتى لا تطلع عليه الشمس عدة أشهر. فقد كان الناس لا يجدون في بقاع الأرض التي عرفوها، بقعة تطلع عليها الشمس بلا ليل. فكان يبدو في الظاهر وجود تناقض بين القرآن والعلم. والحال أنه لا يوجب ذلك التناقض الحقيقي الذي شرطه قيام قضيتين قاطعتين تتناقضان، لأن نفي الناس وجود بقعة أرض لا تغيب عنها الشمس كان نفياً ظنياً خاطئاً بحسب ما عندهم من العلم الناقص عن جميع بقاع الأرض، فلما تم اكتشاف القطبين وظهرت البقاع التي تبقى الشمس فيها طالعة عدة أشهر تحقق صدق الآية.

نرجو ألا تغرب هذه الحقيقة الثالثة عن أذهان الشبان المثقفين، لأنهم سيقعون في الأحاديث النبوية الصحيحة على كلام يتوهمون فيه التناقض لاعتقادهم بأن الأمور التي يعرفونها قطعية، وهي لا تكون قطعية حقاً في باب العلم كما ظهر في المثال الآنف الذكر.

الحقيقة الرابعة: ليس في القرآن أبدا أي معنى أو خبر يحدث تناقضا مع أحكام العقل أو مع أحكام العلم اليقينية، لأن إرادة الله لا تتعلق بالمستحيلات العقلية. حتى المعجزات هي من الممكنات العقلية. فخلق عيسى من غير أب من

الممكنات، وفلق البحر لموسى من الممكنات، وانقلاب عصا موسى إلى حية تسعى من الممكنات، وتكلم عيسى في المهد من الممكنات، وإحياء الموتى من الممكنات، والإسراء بالنبي من مكة إلى بيت المقدس في ليلة واحدة من الممكنات. وقس عليه ما ورد في الأحاديث الصحيحة. ولكن لا تخرج في قياسك هذا عن القاعدة وهي التميز الصحيح بين المستحيل عقلاً والمستحيل عادة، وبين أحكام العلم اليقينية والظنية، فالمستحيل العادي من نوع الممكن.

وأحكام العلم الظنية لا تصلح أساساً للقول بوجود التناقض.

الحقيقة الخامسة: أن القرآن فيه آيات «محكمات» وأخر «متشابهات» كما قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران: ٧).

فالمحكمات التي وصفها الله بأنها «أم الكتاب» هي الآيات التي لا يحدث تصور معانيها تناقضاً عقلياً في الذهن، بل القول باستحالتها هو الذي يحدث التناقض العقلي، لأنها إما أن تكون من نوع الواجب العقلي، وإما أن تكون من نوع الممكن العقلي. والقول باستحالة الواجب أو الممكن هو الذي يحدث التناقض العقلي. كما لا يخفى. أما المستحيل العقلي فلا تتعلق به إرادة الله كما سبق القول.

أما المتشابهات فهي ما يشتبه ويلتبس على الناظر أمرها فيظن أنها تحدث تناقضاً مع العقل، أو مع المحكمات وهي ليست كذلك. وقد أمرنا الله عند حصول هذا الالتباس، أن نرد المتشابهات إلى المحكمات، قبل أن نتورط في إنكارها، مادامت بذاتها لا تشكل في الحقيقة تناقضاً قطعياً مع العقل، أو مع المحكمات، أو مع العلم اليقيني القاطع، كما في الأمثلة التي ذكرناها عن المعجزات التي يشتبه على غير الراسخين في العلم أمرها ويعدها من المستحيلات، وهي من الممكنات. وكما في المثال الذي أوردناه عن طول ظهور الشمس في منطقة القطبين، فقد اشتبه على الناس أمر تلك الآية، فظنوا

أنها تناقض العلم، ثم تبين لنا أن القضية العلمية ليست يقينية بل ظنية كذبها العلم. فظهر بهذا حكمة أمر الله لنا بأن نرد المتشابهات إلى المحكمات، قبل أن نتورط في الجدل والمراء بشأنها، وبأن نقول عنها قول الراسخين في العلم، الذين يعرفون هذه الفروق بين التناقض الحقيقي المؤكد وشبهة التناقض فيعتمدون على صدق القرآن، ويرجعون في تصديق المتشابهات- ولو لم يعلموا تأويلها إلى المحكمات، ويقولون عن القرآن كله ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ٧)

الحقيقة السادسة: إن كل ما في السنة الصحيحة معتمد على أصل القرآن، ومردود إليه، ومقيد به فلا يناقضه أبداً. فالقرآن هو «الميزان» الذي نزن به الأحاديث الصحيحة فما كان منها متفقاً مع أصول القرآن فلا مجال للبحث فيه. وما كان منها متناقضاً مع القرآن، وكان التناقض قطعياً لا سبيل فيه إلى التوفيق، فهذا هو الذي يصح أن نقف عنده، ونبحث فيه عن صحة الحديث وقوته.

وخلاصة القول: إن الميزان الذي نزن به الحديث هو القرآن نفسه. فإن كان الحديث يتلاءم مع أصول القرآن، ولا يتناقض معها، لم يبق مجال عند المؤمن العاقل إلى نقد الحديث أو إنكاره اعتماداً على ما في تفكيره من الاستحسان أو الاستهجان أو الاستبعاد الظني. وكل ما نرجوه من الشبان المثقفين المخلصين ألا يستعجلوا في نشر النقد للحديث الصحيح الذي لا يسيغه تفكيرهم، وأن يعرضوه بأنفسهم، أو بمعونة أهل العلم، على الميزان الذي ذكرناه من القرآن والعقل. فإن وجدوا له أصلا في القرآن فقد انحل الإشكال. وإن لم يجدوا له أصلاً في القرآن لجأوا إلى ميزان العقل الذي قررناه وأوضحناه، فإن رأوا في الحديث ما يوجب تناقضاً عقلياً، لا ظنياً، مع أصل أو أكثر من أصول القرآن جاز لهم عندئذ البحث في مبلغ الحديث من الصحة.

هذا ما ألهمنا الله أن نكتبه في هذا الموضوع ليكون جواباً لكل شبهة. والله المستعان.

وتحسبونه هيناً..؟

العدد (٢٩) جمادى الأولى (١٣٨٧هـ)، أغسطس (١٩٦٧هـ)

قرأت في مجلة «الوعي» مقال[١] الأخ العالم الجليل الأستاذ أحمد الشرباصي عن لغة القرآن والتهاون الحادث في إتقانها، فرأيت فيه أموراً عظيمة تستحق أن يكتب فيها أكثر من مقال، ولا سيما ذلك التنادر بالمشايخ علماء الدين، الذي أشار إليه الأستاذ في نهاية مقاله بكلمه عابرة غير زاجرة.

إن التنادر والتفكه بذكر تفاصح النحاة وتفيهقهم وتمططهم هو أمر قديم. وقد لا يكون مضراً ومحرماً إلا عندما يدخل في باب الغيبة واللمز والسخرية من رجل معين. بل قد يكون- إذا برئ من هذه الآثام- نافعاً في رد كثير من النحاة عن تباردهم وتسامجهم، فمن كمال العالم أن يكون كيساً، ومن نقص العقل أن يكون متسامجاً من حيث لا يدري.

أما التنادر والتفكه بذكر علماء الدين، والسخرية من تقواهم وتورعهم وفقرهم[٢] فإنها فتنة جديدة استشرى خطرها في العصر الحديث، حتى أصبحت من الكبائر المهلكات الموبقات، التي لا يقف ضررها عند حدود التباغض بين الناس، كما هو الحال في الغيبة واللمز، بل تتعدى هذا كله حتى يصل إلى زعزعة الدين والإيمان في القلوب.

● **نحن في غفلة**

وقد لا يكون جميع المتنادرين والمتفكهين من ضعيفي الإيمان، ولكنهم في

---

(١) في العدد الرابع والعشرين.

(٢) كما نرى صوراً من ذلك في الأفلام والمسرحيات وإظهارهم بمظهر غير كريم على عكس ما نراهم يفعلون مع غير علماء الدين المسلمين مع الأسف. (الوعي).

غفلة عن أن هذا التسخر من حملة العلم والقرآن هو تسخر من الدين والقرآن، وتهاون في احترام الله ورسوله. وأخطر ما في هذه الغفلة أن الواقعين فيها لا يقعون في مثلها أبداً إذا كان الرجل الذي أثار سخريتهم خويدما لعظيم من الأمراء أو الوزراء.

● **توقير العلماء**

إن مقام علماء الدين عند الله عظيم. وقد عظم الله مقامهم في القرآن بآيات كثيرة أعظمها قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ١٨) فقرن سبحانه اسم العلماء إلى اسمه الأعظم، وجعلهم في العلم كالملائكة، وصيرهم من ناحية الإدراك لوحدانية الله في صف الرسل والأنبياء، فاكتفى بوصف العلم عن تخصيص الرسل والأنبياء بالذكر لأنهم سادة العلماء.. فهل بعد هذا المقام مقام في التعظيم؟

بل لو خلا كتاب الله من هذه الآية لكان واجباً علينا- بحكم العقل- أن نوقرهم، إن كنا مسلمين ومؤمنين حق الإيمان، لأن هؤلاء العلماء الفقهاء هم الذين انتدبهم الله لتعليمنا وإرشادنا وإنذارنا وتحذيرنا بقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة: ١٢٢).

فإذا قل احترام العلماء بين الناس، قل بالضرورة الإصغاء إليهم، والأخذ بإرشادهم وإنذارهم وتحذيرهم وكفى بهذا فتنة في الدين.

بل نقول لهؤلاء المستهزئين بعلماء الدين. إنكم لو تركتم الأخذ بمواعظهم، وأقدمتم على ارتكاب المعاصي، لكان ذلك عند الله أهون، وأقرب إلى الغفران، من ذلك الاستهزاء، لأن ضرر معاصيكم ينحصر بكم، أما الاستهزاء بالعلماء فإنه يؤدي إلى قتل العلم، وتنفير الناس من الدين، وحملهم على الاستهزاء بالدين نفسه.. بل قد يؤدي إلى الكفر أخيراً.

● **أسباب هذه الفتنة**

إن فتنة التنادر والتفكه بذكر علماء الدين التي استشرى أمرها واستفحل في

العصر الحديث، لها أسباب كثيرة منها القديم ومنها الحديث، ومنها ما يقع وزره على الأمراء، ومنها ما يقع وزره على الأدباء ومنها ما يقع اللوم فيه على العلماء أنفسهم.

لقد بدأت هذه الفتنة بسفه الأمراء والحكام، وتعاليهم على علماء الدين، بعد أن كانوا في الصدر الأول من الإسلام موضع التوقير والتعظيم. ومن هذه الثغرة أخذت فتنة التنادر والتفكه تذر قرنها بسفه الأدباء والرواة والقصاصين، الذين يسامرون الأمراء، ويتعمدون إضحاكهم بالحكايات والنكات المروية أو المخترعة، فبدأوا- أول ما بدأوا- بذكر حماقات معلمي الصبيان، ثم تجاسروا على التفكه بذكر القراء. وتنوقلت هذه النكات بين الناس، حتى تجاسر بعض كبار الأدباء كالأصمعي والجاحظ وغيرهما على تدوينها في الكتب. أما علماء الدين فقد بقي احترامهم في القلوب، على الرغم مما بدر من بعض الأمراء من أذيتهم، لأسباب سياسية أو اجتهادية كلامية ظالمة. بل زاد هذا العدوان في احترام العلماء عند الناس جميعاً.

ثم جاءت عصور التأخر الإسلامي فانصرف الأمراء والحكام عن توفير أسباب الرزق الكريم لعلماء الدين، كما انصرف الناس عما جرت به العادة من إعانتهم. وأصبح رزق أكثر المشايخ محصوراً فيما يتناوله المحظوظون منهم من أجور زهيدة على وظائف الإمامة والخطابة والتدريس. ومن لم يسعده الحظ منهم بوظيفة لجأ إلى طلب الرزق من أبواب لا يليق بكرامة العلم والعلماء.

وزاد الطين بلة أن طائفة من العلماء الفقراء أرادوا أن يستروا فقرهم بما يسمونه «الدروشة» ولكن هذه الدروشة زادت عن حدها، حتى كادت تصبح طابعاً للفقراء وغير الفقراء، وانتقلت من الزهد إلى لون من التبذل في الملبس والنظافة والأكل في السوق، فاستقرت في أذهان الجيل الطالع المولع بالجمال والتجمل، صورة عن العلماء هي أبعد ما يكون عما يأمر به الدين من الجمال والتجمل.

وهكذا تضافرت الأسباب والدواعي للتقليل من احترام العلماء وتوقيرهم واستشرت الفتنة.

ولست أجد لهذه الفتنة علاجاً إلا إذا حزم حكام المسلمين في كل قطر إسلامي أمرهم على تنفيذ التوصيات الآتية:

١- حصر لبس الزي الديني في علماء الدين دون سواهم.

٢- الاتفاق على وضع زي ديني واحد موحد، وإذا تعسر ذلك، فوضع علامة خاصة يتميز بها علماء الدين عن سواهم.

٣- إغناء علماء الدين بالرواتب الكافية.

٤- أخذ علماء الدين بنظام مسلكي صارم يحملون به على ترك التبذل والدروشة والتزام دقائق آداب الدين في الوقار والنظافة والكياسة والظرف في الملبس.

٥- أن يمنع رجال الدين من قبول أي أجر من الناس على أي عمل من الأعمال أسوة بباقي الموظفين، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وإني لأرجو أن يكون هذا الموضوع الخطير موضع عناية مجلة «الوعي» وعناية المفكرين، لعله يجتمع لنا من التوصيات الأخرى ما يكتمل به العلاج، وأن يكتب في هذا الأمر أكثر من مرة، لكي تستجيب الحكومات الإسلامية لهذه الدعوة المباركة للإصلاح الديني الذي نحن بأشد الحاجة إليه.

* * *

«الوعي الإسلامي» هذا الموضوع الذي علق عليه فضيلة العلامة الأستاذ الكبير الشيخ نديم وقدم بشأنه هذه الاقتراحات إنما هو ظاهرة لرياح عاتية هبت على النفسية المسلمة فاقتلعت منها أو من معظمها بذور التدين السليم، ومن البديهي أن الإنسان المسلم السليم الإيمان يجد نفسه مدفوعاً إلى احترام كل ما يمت للدين بصلة قريبة أو بعيدة. وفي المقدمة العلماء المسلمون الذين وهبوا حياتهم لترسيخ دعائم الإيمان في النفوس، وجعلوا أنفسهم شموعاً تضيء الطريق للسالكين.. ومن الطبيعي أن كل إنسان يعتنق فكرة أو مبدأ ترف نفسه لكل من يشاركه هذا المبدأ، وعلى الأخص أولئك الذين يمثلون الطليعة الهادية لهذا

المبدأ . . ويقوي حبه واحترامه لزملائه وقادته في المبدأ على قدر تفانيه في مبدئه وإخلاصه له . . فإذا ضعف تمسكه بفكرته ومبدئه كان تهاونه وعدم عنايته بمن يشاركونه مبدأه . . حتى أصحاب الحرف والمهن تجدهم يعظمون «معلميهم» ويعتبرونهم هداتهم ويتعصبون لهم ويحيطونهم بمظاهر التكريم .

فالداء الكمين لهذه الظاهرة التي نشكو منها يكمن في ضعف الوازع الديني في النفوس، كما يرجع إلى عدم عناية المجتمع ممثلاً أولاً في المسؤولين بإظهار صوت الدين عملياً. فإن الدولة مثلاً حين تتجه للهندسة وتعنى بأصحابها تجد المجتمع بالتالي يعظم من شأنهم، وهكذا في كل مجال تعنى به الدولة . .

إن أكبر وصمة لهذه الأمة الإسلامية العربية، التي تتنادى بالإسلام والعروبة إلا يلقى ممثلو الإسلام أو المتخصصون فيه وفي العربية ما يتسق مع ادعائنا الاعتزاز بإسلامنا وعروبتنا.

وكم يحز في النفس ويفتت القلب حزنا وأسفاً أن نلاحظ أن الطوائف غير الإسلامية تحيط هداتها الدينيين بالاحترام والتكريم في الوقت الذي يتظرف فيه بعض الكتاب والرسامين والمتحدثين المسلمين بالغض من مكانة هداتهم الدينيين، والذين يعلمونهم لغتهم القومية.

لقد رأينا صوراً ورأى غيرنا على الطبيعة ملك دولة غير مسلمة يطأطئ على يد أحد رجال دينه ويقبلها في المطار ونحن لا نريد عندنا مثل هذا، ولكنا نريد ما يدل عليه هذا التقبيل لليد وسط كبار رجال الدولة والسفراء وجموع المستقبلين. نريد أن يتوفر للعلماء المسلمين ما يجب نحوهم من تكريم كرمز حي على تكريمنا لديننا وعنايتنا بكل ما يتصل به وليكون لهم الصوت النافذ حين يجد الجد وتحتاج الأمة لهذا الصوت يجند قواها ويعبئها لحفظ كيانها والحفاظ على كرامتها.

ركائز التفكير الإسلامي (١)

موقف العقل من الإيمان وموقف القرآن من العلم والمعرفة

العدد (٣٢) شعبان ١٣٨٧هـ - نوفمبر ١٩٦٧م

كان أحد أساتذة الفلسفة في جامعة كبرى كتب يتساءل - كالمنكر - عن بعض آيات القرآن الكريم، ثم يدعي أن التفكير الإسلامي المعاصر مشدود إلى الوراء شدًا يمنعه من الانطلاق في آفاق العلم والمعرفة. فأجابه الشيخ نديم الجسر بجواب أوضح فيه ركائز التفكير الإسلامي القائم على «الحق» في باب العقل والعلم، توضيحاً امتاز به فضيلة الشيخ في مخاطبة الشباب والعلماء المتفلسفين بلغة العلم والفلسفة نفسها، وقد رأينا- تقديراً منا لهذا البحث أن نضعه بين أيدي القراء الكرام وبخاصة الشباب منهم. «الوعي الإسلامي»

وجود الله

أرجح أن الجدل بيننا الآن، ليس عن وجود الله أو عن عدم وجوده. فإنك وأنت أستاذ الفلسفة، لا بد أن تكون عند الحق من قول «فرنسيس باكون» «إن القليل من الفلسفة يبعد عن الله والكثير منها يرد إلى الله». والظاهر من كلامك أنك تؤمن بأن الله هو خالق الكون، ومؤمن- بالتالي، وبالبداهة- بأن خالق الكون هو خالق النواميس، وبأنه خالق الحياة، وخالق الذباب، الذي قال عنه القرآن، في سورة الحج ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج: ٧٣ - ٧٤) وقد نزل هذا قبل أن يقول (روجر بيكون)

و«توماس اكويناس» بقرون طوال قوليهما المشهورين «ما من عالم قد عرف حتى اليوم حقيقة ذبابة».

وإنما أنت تستصعب تصور الذهن لهذا الإله، على طريقة القرآن الذي يقول عنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١) وتستشكل في خلق الله لآدم من تراب، وتقطع كل علاقة لله في خلق الأجنة، حتى تخرج من هذه الصعوبات والاستشكالات إلى ما يكاد يكون إلغاء لوجود الله.. وهذا ما يحيرني في أمرك. وإلا فقل لي: كيف نوفق بين كونك مؤمناً بأن الله خالق الكون، وخالق الحياة، وخالق الإنسان، وخالق النواميس، وكونك تغفل- وأنت العالم الألمعي- عن تفسير آيات خلق آدم، وخلق الجنين في بطن أمه بأنها قد تعني الخلق التطوري للخلية الإنسانية بطريق النواميس التي خلقها الله، مثلما قد تعني في الظاهر الخلق الدفعي المباشر، مع أن كلا الخلقين داخل في قدرة الله، وليس أحدهما بأدل على هذه القدرة والحكمة من الأخر.؟

ومهما يكن الأمر، فإننا لا نسوق الحديث إليك وحدك، بل نسوقه إلى من وراءك من الشبان العلماء الذين يؤمنون بوجود الله وبأنه خالق الكون، ويرددون في صدورهم بعض الأسئلة التي طرحتها وأمثالها. والحوار مع هؤلاء لا يدور، إذن، حول وجود الله. وإنما يدور الحوار حول القرآن الكريم وما فيه من آيات متشابهات، يبدو لك ولهم- في الظاهر- أنها تتناقض مع العقل أو مع العلم، ويدور أيضاً حول تفكير المسلمين في العالم المعاصر، وزعمك أنه مقيد ومشدود إلى الوراء شداً يمنعه من الانطلاق والتلاقي مع التفكير العقلي العلمي الحديث.

فعلينا، إذن، أن نكشف تراب الظنون الباطلة عن ركائز التفكير الإسلامي، لنرى إن كانت تتعارض مع العقل أم تعتمد عليه، وتتنافى مع العلم - كما زعمت- أم تؤيده. وبهذا الكشف والتبيين يستكمل الرد على شكوكك وشكوك غيرك- مهما كان نوعها وموضوعها- حُجَجَه وبراهينه بدون تطويل، ويصبح هذا الرد المركز الذي نضعه كالجعبة فيها السهام، بل كخزانة الدواء في البيت، نجد فيها العلاج لكل شك وزيغ.

ركائز التفكير الإسلامي

١- القرآن والعقل

إن القرآن يجعل للعقل السلطان الأعلى في إدراك كل معاني الحق والخير، من أتفه الأمور كإماطة الأذى عن الطريق، إلى أعظمها وهو وجود الله وصفات كماله.

وفي القرآن أكثر من (٣٠٠) آية تدعو إلى تحكيم العقل، وتزري أزراء شديداً، بالذين لا يحكمون عقولهم. وأبلغ هذه الآيات وأوجعها قوله ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنفال: ٢٢)، وكل إيمان لا يبنى على العقل لا يبعد من الإيمان الكامل. أما (إيمان العجائز) فإنما هو مقبول من باب العذر ورفع الحرج من العاجزين[١].

والقرآن يكره الجمود على تقاليد الآباء والأجداد، إذا كانت هذه التقاليد تناهض أحكام العقل القاطعة، ويهزأ بهؤلاء الجامدين، ويسخر من الخرافات والأساطير، وليس فيها أسرار يحدث تصورها تناقضاً عقلياً في الذهن. وكل نص في القرآن يحدث تصوره، في الظاهر، تناقضاً عقليا في الذهب يجب تأويله حتى يرتفع التناقض.

فالإسلام، إذن، هو الدين السماوي الذي يجعل (الجدل العقلي) الصارم طريقاً للوصول إلى الحق.

هذه حقائق يقينية مقررة، حتى تكاد تكون معلومة من الدين بالضرورة. ومن جهلها أو أنكرها فهو جاهل لحقيقة القرآن والإسلام.

---

(١) يكاد الناس جميعاً يتجهون في فهم إيمان العجائز إلى أنه الإيمان التلقائي الذي لا يقوم على دليل أو تعقل... فلماذا لا يفهم على أنه الإيمان الراسخ الذي دعمته الدلائل وتجارب السنين حتى صار ثابتاً لا يتزعزع وهنا يصبح رجاء لكل إنسان «اللهم إيماناً كإيمان العجائز» إذ لا يعقل - فيما أرى - أن يطلب المؤمن من الله أن يجعل إيمانه إيماناً غير قائم على دليل ولا تعقل.. «الوعي الإسلامي»

٢- القرآن والحرية

إن حرية الإنسان، في نظر القرآن، هي أمر طبيعي وضروري وبديهي. وإن حرية الفرد مطلقة إلى آخر حدود الإطلاق ولا تقف إلا إذا اصطدمت بالحق أو بالخير.

وهذا المفهوم الجامع، كما أنه يشمل كل أنواع الحريات، من حرية التفكير وحرية العقيدة والقول والعمل والتملك والتصرف. فإنه يشمل، كذلك، كل أنواع الحق والخير، بالنسبة للفرد ذاته، وبالنسبة لغيره من الناس، وبالنسبة إلى المجتمع. لا فرق، في ذلك كله، بين أن يكون الفعل أو القول مباحاً بذاته للفرد، أو حقاً من حقوقه المشروعة، أو ضرباً من القربات إلى الله. فلو أسرف الفرد في أكل الطيبات إسرافاً مضراً بصحته انقلب المباح حراماً، ولو أسرف في إساءة استعمال حقه وقف حقه، ولو أسرف في الزهد والتقشف والتبتل بل في العبادة نفسها، بل في الصدقات والمبرات، إلى الحد الذي تصطدم عنده حريته بخير نفسه أو زوجه أو ولده أو وارثه أو المجتمع، لانقلبت قرباته هذه كلها إلى محظورات يمنعها القرآن[١].

٢- القرآن والعلم

إن القرآن يجعل لحقائق العلم الطبيعية القاطعة. نفس القوة التي للحقائق الرياضية القاطعة، أي نفس السلطان الذي للعقل. لأن العلوم الطبيعية إنما هي انكشاف للنواميس التي خلقها الله في الكون، فإنكارها، هو بالضرورة، إنكار للعقل الذي يدرك النواميس، وإنكار للذي خلق النواميس، ومعارضة للقرآن الذي استدل، في آيات كثيرة، بهذه النواميس على وجود الله وقدرته. وهذه الإنكارات تؤلف بذاتها تناقضاً عقلياً صارخاً بين الإيمان والعقل.

---

(١) نذكر في هذا قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ من سورة المائدة. وقول رسول الله ﷺ حين جاءه من يريد أن يتصدق بماله كله فمنعه الرسول وأجاز له أن يتصدق بالثلث وقال له: «والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم يتكففون الناس». «الوعي الإسلامي»

وليس صحيحاً قولك «إن العلم الذي حث على طلبه الإسلام هو في جوهره العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها وليس الفيزياء والكيمياء». بل الحث عام يشمل علم الدين، الذي هو أعظم العلوم وأنفعها للمجتمع، ويشمل علم الطب، وكل علم ينفع الناس والمجتمع. وليس أدل على ذلك من الآية ٢٨ من سورة فاطر، التي يخلع بها القرآن وصف «الخشية الكاملة» على علماء الطبيعة، ويكاد يحصرها فيهم حين يقول ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨) فهل العلماء هنا هم علماء الشريعة والفقه أم هم علماء الطبيعة العالمين بأسرار النواميس في الحياة والنبات والحيوان والمطر وطبقات الأرض الذين يهديهم علمهم إلى معرفة الله وخشيته.

٤- القرآن ليس بموسوعة

ولكن القرآن ليس بموسوعة للعلوم والفنون. وما فيه من الإشارات لبعض النواميس الطبيعية إنما هو للتدليل على وجود النظام المحكم، ثم الاستدلال الفعلي بهذا النظام على وجود الله وأما قول القرآن ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) فليس معناه أنه موسوعة لعلوم الأولين والآخرين، كما يقول بعض البلهاء. بل معناه أنه لم يترك أصلاً من الأصول ولا مبدأ من المبادئ التي يرتكز عليها الحق والخير إلا ذكره وبينه.

٥- نهج القرآن في الخطاب

إن إعجاز القرآن اللغوي لا يقوم على بلاغته المعروفة عند بلغاء العرب فحسب، وإنما يقوم أيضاً على قدرة عجيبة في التعبير عن الحق بشأن النواميس الطبيعية والاجتماعية. التي لم تكن معروفة للعرب أو معروفة للبشر، ببيان يفهمه البدوي الساذج على قدره، ويفهم أسراره المدهشة العالم أو الفيلسوف على قدره. لأنه ما كان لله العليم الحكيم أن يخاطب الناس بأمور تفصيلية لا يفهمونها ولا سمعوا بها ولا تتسع لإدراكها معارفهم.

فإذا قال لهم سبحانه ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ (الحج : ٦٥) أو قال لهم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: ١٢) أو قال لهم ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥)- أو قال لهم ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (النمل: ٦٠)- أو قال لهم ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الواقعة: ٧١-٧٢) - أو قال لهم ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ (البلد: ٨) - أو قال غير ذلك من مئات الآيات الدالة على قدرته، المشيرة إلى النواميس التي وضعها في مخلوقاته، فإنه يقول لهم ما يفهمونه على ظاهره. من غير أن يشوش أفهامهم ويذهل عقولهم بذكر ما لا يفهمون من أسرار نواميس «الجاذبية، والنور، والبصريات ودوران الأرض على نفسها أمام الشمس، وقانون أرخميدس، أو أسرار عملية المطر، أو أسرار ناموس الاحتراق عند اتحاد الكربون مع الأوكسجين. . . الخ» ولكنه سبحانه يقول لمن سيأتي من العلماء الذين يطلعون على هذه الإسرار ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٣٥) وقد جاء الوقت، وانكشفت بعض الأسرار، وتبين الحق. . والبقية تأتي. .

٦- قانون العلية

من ركائز التفكير العقلية في القرآن أمر الفطرة، ومن جملتها (قانون العلية). ذلك أن في عقولنا قوانين فطرية وهي التي سماها الفيلسوف (كانط) (قوانين العقل المنظمة) Les lois Reglatrices de La Raison، ومن جملتها، بل من أعظمها قانون العلية، الذي يتطلب، بالبداهة، لكل معلول علة، ولكل مسبب سبباً. هذا مقرر وليس لنا أن نشك فيه، كما أنه ليس لنا أن نتطلب عقولاً وراء عقولنا التي فطرنا الله عليها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠) - وبهذه الفطرة من (قانون العلية) ندرك وود الله. ومهما اختلف المتفلسفون في هذه الفطرة وكونها مكتسبة من تجارب الإنسان الطويلة، أو كونها من خلق الله، فإن قانون العلية الذي اعتبره (ديكارت) صادقاً وغير خادع،

واستدل به على الله، وعلى صفات كماله، هو، على كل حال، القانون العقلي الذي يتحكم في إدراكنا لكل ما في الوجود، وعليه يقوم العلم، وعليه تقوم المعرفة، وعليه تقوم الحياة، وعليه يقوم الإيمان بالله.

٧- ميزان التناقض

إن النظر العقلي يدور في كل شيء من الماديات والمعنويات، والمشاهدات والمغيبات، حول أحكام ثلاثة. الوجوب والإمكان والاستحالة. هذا مفهوم عند أبسط الناس علماً وفهماً؟! ولكن الذي يشتبه ويخفى أحياناً، على بعض أرقى المثقفين من الشباب، هو التفريق بين نوعين من المستحيل.

المستحيل العقلي: وهو الذي يشكل تصور وجوده، أو تصور عدمه «تناقضاً عقلياً» في الذهن، كقولنا الواحد ربع الاثنين لا نصف الاثنين، أو قولنا جزء الشيء أكبر من الشيء، أو قولنا إن جبل لبنان يدخل في الفنجان. أما المستحيل العادي فهو لا يحدث تناقضاً عقلياً في الذهن، ولكننا بحكم العادة نظن أنه مستحيل، وما هو كذلك ولكننا تعودنا أن نراه مستبعداً كالمستحيل، ثم عرفتنا الأيام أنه ليس بمستحيل عقلي. مثل الصعود إلى السماء، والتخاطب والتناظر من أقاصي الأرض، والوصول إلى القمر.

والميزان الضابط في تكذيب الخبر ليس استبعاده واستغرابه، بل هو كونه يحدث تناقضاً عقليا- يقول «لايبنتز» فإن أحدثه نفيناه، وإن لم يحدثه توقفنا عن التكذيب. فلا يغفلن الشاب الثقيف عن التفريق بين هذين النوعين من المستحيل إذا هو تورط في جدل، حول الله والدين وأخبار القرآن.

ركائز التفكير الإسلامي (٢)

موقف العقل من الإيمان

العدد (٣٤) شوال ١٣٨٧هـ - يناير ١٩٦٨م

٨) نطاق العقل

ومن ركائز التفكير الإسلامي الراسية على أصول القرآن، التفريق في الإدراك، بين عالم الغيب وعالم الشهادة. وهذا نفس ما عرفته الفلسفة، وأوضحه «كانط». فهنالك نوعان من الإدراك للموجودات. إدراك لِكُنْهِ الشيء بذاته. وإدراك لوجوده بالدليل، مع العجز المطلق عن إدراك كنه ذاته. فالعقل البشري قد يستطيع إدراك كنه الشيء بذاته، إلى حد ما، ضمن نطاق محدود، وهو نطاق العالم المادي المحسوس «عالم الشهادة» أما في عالم الغيب غير المحسوس، فالعقل يستطيع إدراك وجود الشيء بالاستدلال ويستطيع إدراك بعض صفاته من آثاره، ولكنه يعجز عن إدراك كنه ذاته.

هذا مقرر لا يحتمل الجدل. وبهذا الإدراك نستدل على وجود الله، وعلى بعض صفات كماله، من آثاره، بدون أن نستطيع إدراك كنه ذاته.

٩) التصور والتعقل

ومن ركائز التفكير الإسلامي الذي ينبع من أصول القرآن أن نفرق بين التعقل والتصور. وهكذا يقول العلم، وهكذا تقول الفلسفة الصحيحة. فليس كل ما يمكن تعقله يمكن تصوره؛ لأننا قد نعقل وجود الشيء بالدليل، ولكن لا نستطيع أن نتصوره. وليس عجزنا عن تصور الشيء الذي تعقلناه مبرراً للقول بعدم وجوده. أترانا نستطيع أن نتصور أن ورقة من ورق السجاير الرقيق، الرقيق، إذا قطعت بالتضعيف ٤٥ مرة[١] ثم ركمت صعوداً فإنها تصل القمر؟ ولكننا بالحساب البسيط

(١) أي مرتين، فأربعة، فثمانية، فستة عشر، فاثنتين وثلاثين فأربعة وستين وهكذا.

يمكن أن نتعقله.

وإذا ألقي إلينا من المجرة مثلاً جهاز تلفزيون أفلا نستدل به على وجود صانع، ثم نستدل به على بعض صفات ذلك الصانع، التي منها أنه عاقل وذكي وعالم.؟ ولكننا مع تعقل وجوده، وتعقل بعض صفاته، لا نستطيع تصور كنه ذاته، لأننا لم نشاهده ولم نحسه، ولكن هل يصح، في حكم العقل، أن ننكر وجوده، لأننا لا نستطيع تصور كنه ذاته، بعد أن تعقلنا وجوده وبعض صفاته بالدليل العقلي القاطع؟

١٠) غايات الأشياء

ومن ركائز التفكير الإسلامي الراسية على أصول القرآن كذلك أننا محجوبون عن إدراك كل بدايات الأشياء ونهاياتها. هذا مقرر. وهكذا خلقت عقولنا. بل هكذا خلقت حواسنا، حتى في عالم المادة الذي نعيش فيه، كما يقول «باسكال». فالصوت إذا أفرط في الشدة يصم أسماعنا، أو على الأصح لا نسمعه، والنور إذا أفرط في الشدة يغشى أبصارنا، بل يصعقنا كما صعق موسى، والقرب يمنعنا من الرؤية إذا أفرط، كما يمنعنا البعد. هذا هكذا في عالم الشهادة، فكيف إذا كان الأمر الذي نريد معرفة أولياته وبداياته ونهاياته وغاياته من عالم الغيب؟

١١) الظن والحق

ومن ركائز التفكير الإسلامي، أن الظن لا يغني من الحق شيئاً وهذا هو نفسه منطق العقل في إثبات الشيء ونفيه. هنالك فرق كبير عند القطع والجزم، بين الإثبات والنفي. فنحن نجزم بثبوت الشيء الذي يقوم الدليل العقلي أو العلمي القاطع على وجوده. ولكن لا يحق لنا أن نجزم بنفي الشيء أو الخبر الذي لم يقم لدينا الدليل على وجوده. إلا إذا كان تصور وجود هذا الشيء، أو هذا الخبر، يشكل تناقضاً عقلياً في الذهن، كما يقول «لايبنتز». أما إذا لم يكن الأمر كذلك، وكان الشيء أو الخبر من النوع الممكن، فإننا نقف أمامه موقفنا من كل ممكن غير مستحيل، فلا نقطع بثبوته عقلاً، ولا نقطع بنفيه عقلاً.

١٢) نواميس الله لا تتخلف

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ (فاطر: ٤٣) وكذلك يقول العلم أن النواميس الكونية ثابتة ولا تتعطل ولا تتخلف. ولكن الإنسان يستطيع أن يوقف تأثير ناموس بناموس آخر. ولا يقال هنا إن الإنسان عطل فعل الله، أو عطل خلق الله. ولكن يقال: إن ناموس الله تعطل بناموس الله، كما في تأخير نمو الخلية الإنسانية في الجنين، أو إفسادها، أو تشويهها بالمواد الكيماوية، أو بالأشعة، كما ذكرت في سؤالك.

هذه أهم الركائز في التفكير الإسلامي النابع من معين القرآن، وهي تكاد تكون كالبديهيات في منطق العقل، ومنطق العلم، ومنطق القرآن. وهي الكفيلة بالرد على كل التساؤلات والشكوك والصعوبات التي أثيرت، وبالرد على كل صعوبة يجدها الشاب الثقيف في بعض آيات القرآن، حتى يفهمها، أو يكف عن تكذيبها على الأقل. ويكفي الشاب الثقيف إذا كان يسأل للاستفهام حقاً، لا للجدل والمراء ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ (الحج: ٨) يكفي أن يعرض شكه على هذه الركائز، وينعم النظر فيها، ليجد الجواب الذي يرضاه العقل السليم، والمنطق القويم، والقرآن الكريم.

● في الرد بإيجاز على تساؤلاتك

أ- أما تساؤلك عن موقف المسلم من الثقافة والحضارة المعاصرة، والانقلاب العلمي، والثورة الصناعية، وكتاب «دارون» في أصل الأنواع، ومؤلف «ماركس» في «رأس المال»، ونظرية «آينشتاين» في «النسبية»، فإنك تجد جوابه في الركائز الثلاث الأولى التي أوضحنا فيها أن القرآن يقدس العقل والعلم والحرية. ولن يكون موقف المسلم، من هذه المستجدات التي ذكرتها، إلا كموقف كل إنسان ذي عقل سليم، يدركها ويفهمها، ويأخذ منها بكل ما يتلاءم مع الحق والخير على أساس مفهوم الحرية في الإسلام.

أما مذهب «دارون» فقد بينا في كتابنا «قصة الإيمان»[١]، نقلاً عن «الرسالة الحميدية» أنه عند ثبوته القاطع، لا يتنافى مع القرآن.

وأما نظرية «أينشتاين» في النسبية فقد بينا في قصة الإيمان أيضاً أنها لا تتعارض مع القرآن في شيء، لأن القرآن يؤيد كل ما هو حق في باب العقل والعلم.

ب- وأما تساؤلك عن خلق آدم من طين فتجد جوابه في كلامنا عن مذهب «دارون» في نفس الكتاب.

ومثله سؤالك عن المعجزات، فإنك تجد جوابه في الركائز (٧، ٨، ٩، ١٠، ١١)، فالمعجزات التي قد ورد ذكرها في كل الكتب السماوية لا في القرآن وحده، ما هي في الحقيقة إلا خرق للناموس من قبل الله. فإذا كنا نؤمن بأن الله هو خالق الكون وخالق نواميسه، فبداهة العقل تحكم بأن الذي خلق الناموس قادر على خرقه. والقول بنفي هذه القدرة هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً.

وكذلك سؤالك عن الملائكة والجن، فإنك تجد جوابه في الركائز الخمس المذكورات. لقد كان تصور الملائكة والجن- لعمري- أكثر صعوبة قبل اكتشاف نواميس الضوء.. أما اليوم، بعد معرفة أمواج الضوء وأنواعها من المنظورة وغير المنظورة، وسلالمها الكثيرة التي يقع العالم المنظور في سلم واحد منها فقط، فقد أصبح من قبيل التعنت والمراء أن نقف من الملائكة والجن موقف الإنكار.

والخلاصة أن هذه الأمور الغيبية كلها، من خلق آدم، وخرق النواميس ووجود الملائكة والجن إنما يقع تصديقها أو تكذيبها تحت تمحيص مبدأ التناقض الذي ذكرناه في الركيزة (٧) وبما أنها من النوع الممكن، ولا يحدث تصور حدوثها أو وجودها «تناقضاً عقلياً في الذهن»، فلا مجال للجزم والقطع بتكذيبها.

جـ- وأما تساؤلك عن الآية الواردة في سورة «المؤمنون» التي تتعلق بخلق الإنسان من نطفة وعلقة ومضغة.. وقولك عنها إن ظاهرها يفيد الخلق الدفعي

---

(١) من أحسن ما كتب لهداية النفوس إلى خالقها ولعلنا نستطيع في المستقبل تقديم عرض لهذا الكتاب القيم إلى القراء. «الوعي الإسلامي».

المباشر، وأن هذا يتنافى مع علم الأجنة، وما ثبت فيه من تطور الخلية الإنسانية وتحيرك في كيفية التوفيق بين خلق الله المباشر المتكرر للنطفة فالعلقة فالمضغة فالجنين في أطواره المذكورة، وبين كوننا نستطيع أن نتحكم في نمو الخلية، ونستطيع تأخيره أو تشويهها، ونكون بالتالي المعطلين لعمل الله في الخلق، فإنك لتجد جوابه في الركيزة (١٢)، وفي كلامنا عن خلق آدم ومذهب «دارون»، وقولنا فيه، أن الخلق يمكن أن يكون بالطريق التدريجي التطوري، على مقتضى نواميس وقوانين وضعها الله في الكون. وأحسب أن علم الأجنة مما يؤيد هذا الخلق التطوري، ويقدم عنه مثالاً محسوساً، وإن كان الخلقان يقعان تحت قدرة الله، وليس أحدهما أدل على القدرة من الآخر.

وأما تعجبك مما يعطيه ظاهر الآية من معنى الخلق المباشر المتكرر، فتجد جوابه في الركيزة التي بينا فيها أن نهج القرآن في مخاطبة الناس إنما يكون على قدر أفهامهم ومعارفهم. وما كان لله العليم الحكيم، الذي هو الخالق في الحقيقة على كل حال، أن يحير الناس، في عهد نزول القرآن، بذكر تفاصيل الخلق عن طريق الخلية، ونموها التطوري بقوة النواميس التي وضعها الله في الكون، وهم لا يفهمون معنى الخلية، ولا معنى الناموس، ولا معنى التطور. وهذا ما قلنا عنه أنه من إعجاز القرآن، حين يعبر عن المعنى بعبارة يفهمها البدوي الأمي على ظاهرها، ويفهمها العالم الفيلسوف في أعماق أسرارها.

وآخر الأجوبة عن أمر الخلية هذه تجده في الركيزة (١٢) التي قلنا فيها: إن نواميس الله لا تتخلف، ولكن يمكن توقيف أثرها بتسليط ناموس على ناموس. فنحن عندما نتحكم في نمو الخلية أو إفسادها أو تشويهها لا يقال: إننا عطلنا عملية الخلق التي يقوم بها الله بيده، ولكن يقال: إن أحد نواميس الله قد توقف بأحد نواميس الله، طبقاً لما أراد الله في الناموسين أن يتفاعلا، وطبقاً لما أراد الله للإنسان من التصرف في استعمال النواميس، والانتفاع بها، وطبقاً لما قدره الله في عمله الأزلي، من خلق الجنين، أو عدم خلقه. وهذا أظهر من أن يحتاج إلى جدل.

د- وأما كلامك عن مخالفة الله لجميع الأشياء، وعن قول القرآن عن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١) وقولك أنت عنه في آخر الكلام عن لسان المسلم: «كيف أؤمن بكائن يقال لي إنه في الحقيقة لا يوصف؟ وهل يكون ذهني خالياً من كل معنى أو تصور حينما أصفه بالعدل والرحمة مثلاً؟ ألا يكون عندئذ وجود مثل هذا الإله أو عدم وجوده سيين بالنسبة إليَّ؟» .

فإني أسألك، في جوابه: ما لك يا دكتور؟

إنه ليبدو أنك تكاد تضع المشكلة في طريق مسدود أو تكاد تطلقها إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب فإما أن تنكر وجود الله، وإما أن تقول بالتجسيد للإله، وإما أن تقول بوحدة الوجود، وما أحسبك تريد شيئاً من هذا.

ثم. هل القرآن وحده قال بهذا التنزيه لله عن مشابهة الحوادث، أم أجمعت عليه كل الكتب السماوية المنزلة الصحيحة، كما أجمع عليه كل الفلاسفة الإلهيون؟

ألا تذكر ما قلناه في الركيزة «التاسعة» عن الفرق بين التعقل والتصور، وأن ليس كل ما يمكن تعقله بالدليل القاطع يمكن تصوره؟ ثم، ألا تذكر ما قلناه في الركيزة الثامنة عن عجز عقولنا عن إدراك كنه الشيء بذاته إلا في المحسوسات؟ ثم. من الذي زعم أن القرآن قال عن الله بأنه لا يوصف؟ أمثلك يقول هذا، والقرآن مملوء بصفات كمال الله سبحانه؟ ولو لم ترد صفات كمال الله في القرآن ألسنا نستطيع أن نعرفها من آثارها؟ ألم يعرفها «ديكارت» بعقله لما رجع عن شكه، واستنتج من وجود نفسه، وجود ربه وخالقه، ثم استنتج من آثاره أكثر صفات كماله[1]؟

هـ- وأما قولك: «إنه يفترض في المسلم أن يعتقد بإيمانه وقلبه لا بعقله وذهنه» فغير صحيح. بل عكسه هو الصحيح. فليس في الإسلام إيمان قلبي روحاني يكتفي بالتخيل أو الإلهام أو التلقين أو التقليد، دون أن يعتمد على أدلة العقل إذا

(١) فليس معنى الآية كما فهم الدكتور أنه لا يوصف بالعدل ولا بالرحمة. بل إنه يوصف بهما ولكن على أن نعلم أن الصفات التي يوصف بها غير صفاتنا نفسها التي توصف بها.

نضج العقل، وبدأ بالتفكير، أما الذي يسمونه «إيمان العجائز» فإنه ليس بالإيمان الكامل الذي يقف على رجليه إذا عصفت زوابع الشك وأعاصير الشبهات. ولكنه يقبل من العجائز والعاجزين عن الاستدلال العقلي، من باب رفع الحرج والتكليف بالوسع، وهما من أهم وأحكم مبادئ القرآن. بل إن هذا الإيمان العجائزي، «الذي نحسبه قلبياً روحانياً إلهامياً تلقينياً تقليدياً» ينبع، في الحقيقة، من العقل الباطن الذي تكمن فيه - من غير شعور منا - أدلة العقل، بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومن بعضها قانون العلية الذي يتطلب العقل فيه لكل معلول علة، ولكل مسبب سبباً.

ولو اكتفى إيمان الإسلام بأن يكون من الظن والخيال والإلهام والتلقين والتقليد، لما كان يختلف في هذا عن إيمان المشركين وعبدة الأوثان!!. إن إيمان الإسلام هو إيمان الحق واليقين، لا إيمان الظن والخيال ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨) وإذا كان إيمان المسلم يقع أخيراً، في القلب والضمير، فإنما ينحدر إليهما من قمة العقل، طاهراً من أدران الظنون والأوهام، بعد أن يمر بمصفاة العقل السليم، ويصبح صالحاً لمقاومة الشكوك والشبهات، كالدم الذي يرده القلب إلى حيث يصفى من سمومه، ليصبح قوياً وصالحاً لمقاومة الجراثيم.. هذا هكذا. ومن ظن أن في الإسلام إيماناً كاملاً غير هذا الإيمان العقلي البرهاني اليقيني، فإنه يشوه معنى الإيمان بالله، الذي يمتاز به دين الإسلام عن الوثنية المشركة بكل أشكالها.

يأس وأمل

حول مؤتمر القمة

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ) - مارس (١٩٦٨م).

عرف القراء فضيلة الشيخ نديم الجسر كاتباً مجيداً وباحثاً عميقاً ولكن ربما لم يعرف الكثير منهم أنه شاعر ممتاز أيضاً، وهذه قصيدة من قصائده يعبر فيها أصدق تعبير وأجوده عما يجيش في صدورنا جميعاً. «الوعي الإسلامي».

أخشى على قلبي، وأنت حبيبه ... أن يستشيط إذا ظللت تذيبه
ما بي، وحقك، أن يكون منعماً ... سيان، عندي، برده ولهيبه
كلا، ولا بي أن يقر قراره ... هين علي سكونه ووجيبه
لكن أخاف فراره وإباقه ... إن طال من هذا الجفاء نصيبه
ويلي إذا انتهت الحياة ولم أجد ... قلباً منيباً في الحساب أنيبه
فتن الحياة أمرها تلك التي ... تأتي على القلب الكسير تريبه
واحسرتا للعبد يظلم نفسه ... ويظل يعلو بالثبور نعيبه
ويقول ربي شانني وأهانني ... ويخوض في قدر السماء يعيبه
وإذا أصاب الخير قال، بجهله ... هذا على علم لدي أصيبه
يكبو، ويطلب أن يقال عثاره ... يجني ويرجو أن تقال ذنوبه
وينام من سنن الحياة ويشتهي ... أن المحال إذا دعاه يجيبه
يا سادة جمع «الكتاب» شتاتهم ... ووقاهمُ من فرقة تهذيبه
بالله بالإسلام بالجرح الذي ... ما زال ينهر في القلوب صبيبه
لا تتركوا أحقادكم تطغى على ... إيمانكم بالله فهي تشوبه

الخطب في الإسلام فوق صغائر ... نلهو بهن وقد أطل رهيبه
لم ننس «أندلسا» وكيف أضاعها ... ذاك الشقاق، وفي الفؤاد ندوبه
دول نكاد نكون في تاريخنا ... صورا لها يطوي البعيد قريبه
ما كانت «الحمراء» إلا ومضة ... من عهد مجد قد أطل شحوبه
القصر لا يبقى إذا لم يحمه ... شعب أبي ضرسته حروبه
أولى علامات الزوال لأمة ... ترف يدب إلى الشعوب دبيبه
أستغفر الرحمن من يأس بدا ... مني على غرب الدموع غريبه
لم يجتمع، في صدر عبد مؤمن ... يأس مع الإيمان فهو يشوبه
ثلث البسيطة ملكنا، وعديدنا ... ثلث الورى والدين نحن قطوبه
ولنا من البر الفسيح عوالم ... ولنا من البحر المحيط دروبه
ولنا من الأمواه أعظم أنهر ... ولنا من النفط العظيم قليبه
ولنا، ببحر الروم، أطول ساحل ... هو حصة الأسد اشترته نيوبه
وعلى معابره الثلاثة تلتقي ... أشداقنا، فنجبه، ونجوبه
ويشد وحدتنا كتاب واحد ... نلقى عليه الله وهو حسيبه
مهما تفرقنا فلا معدى لنا ... عن ألفة يقضي بها تأديبه
هذا بمعركة البقاء سلاحنا ... لم يجتمع عند الشعوب ضريبه
إن مسنا قرح فما من معشر ... إلا أتاه، من القروح، نصيبه
دول هي الدنيا يداولها الذي ... خلق الوجود وصرفته غيوبه
هي نكبة لكن أكاد أرى بها ... خيراً لشعب أترفته عيوبه
ما الخطب، عندي، أن يباغت نائم ... في غفلة، بالمترفات، تنوبه
الخطب أن يبقى الخمار ملازماً ... شعباً توطأ بالنعال جنوبه

نديم الجسر

بشائر عن معركة المصير بين المسلمين وإسرائيل (١)
في ضوء القرآن والأحاديث النبوية والنواميس الكونية والتاريخ

العدد (٤٨) ذو الحجة ١٣٨٨هـ - فبراير ١٩٦٩م

في الأيام الأول من بعد المعركة الخاسرة شعرت أن صورة الإيمان قد اهتزت في القلوب، وأن الثقة بالله قد ارتجت بمس طائف من سوء الظن، وأن سكينة التفاؤل بوعد الله ورسوله قد انقلبت إلى قلق متشائم كاد يصل عند كثير من الناس، إلى حدود الشك والخوض في قدر الله، فأصبح أعظم همي، بل كل همي، أن أعيد الثقة إلى النفوس، في بلدي وكل بلد إسلامي زرته، ومن هنا كان اختياري لموضوع «المبشرات» ليعرف المسلمون من علماء الدين ما يحفظ عليهم إيمانهم، ويرد إليهم ثقتهم بالله وبأنفسهم، فألف معركة خاسرة تاعسة في ميادين الحروب أهون من معركة واحدة خاسرة تاعسة في طوايا النفوس والقلوب.

● **المسلمون بين الغرور والاستخذاء**

من جوامع الكلم المروية عن رسول الله ﷺ قوله «ما هلك امرؤ عرف قدره». ولكن أكثر الناس يحملون هذه الكلمة الجامعة على وجه واحد من النصيحة، وهو أن يعرف الإنسان جوانب ضعفه ونواحي عجزه، وقل أن يتبادر منها إلى الأذهان ذلك المعنى الأهم الأوسع، الذي نحن أحوج إليه اليوم، إن غفلة الإنسان عن معرفة قدر نفسه، في حقيقة ضعفها وعجزها ونقصها، ليست أكثر ضرراً من غفلته عن عرفان قدر نفسه في حقيقة قوتها وقدرتها.

ويزداد هذا الضرر ضراوة واستشراء إذا كانت الغفلة في حادث يتعلق بالجماعة والأمة، لأن للاستخذاء والخور واليأس والتهالك، عند صعقة البلية وبغتة النازلة، عدوى سارية طاغية، تنتقل من الضعفاء إلى الأقوياء بل من السخفاء إلى الحكماء، وهذا من حقائق علم النفس، ولولا ذلك لما استخذينا

وتهالكنا كلنا بعد النكبة: حيارى مولولين يائسين قانطين، كأن المسلمين لم يصابوا، قبل اليوم، بأية نكبة، وكأن تاريخ الأمم، التي تتحكم اليوم في الأرض، خلو من النكبات...

وهكذا دلت أحوال المسلمين، من قبل النكبة، على أنهم في غرور، ودلت أحوالهم، من بعد النكبة، على أنهم في استخذاء، والاستخذاء شر من الغرور.

فألف معركة خاسرة تاعسة في ميادين الحروب، أهون شراً، من معركة واحدة خاسرة يائسة في طوايا النفوس والقلوب.

واستخذاء النفوس أول علامات موت الأمة، كما أن الأمل، والثقة بالنفس، أول أسلحة النصر والبقاء.

والواثق بالله وبنفسه يستطيع أن يعد العدة. أما القانط من ربه ونفسه فلا يستطيع. ولو أعد له السلاح لا يحمله، وإن حمله لا يصدق في استعماله، لأنه يصبح إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢).

إن في تاريخنا، وتاريخ الدول التي تحكم العالم اليوم، عثرات وكبوات ونكبات أعظم، بألف مرة، من هذه النكبة التي أصابتنا.

معركة «أحد»، التي جرح بها النبي القائد الأعلى، في قلب معقله، وكاد يقتل، بعد تخبط الجيش وانكساره لم تكن نكبة الأبد.

وهزيمة «حنين» التي بقي فيها النبي وحده على سرجه ينادي الناس، لم تكن نكبة الأبد.

وفتح الصليبيين لبلاد الشام، وتمكنهم فيها مدة قرنين، لم يكونا نكبة الأبد.

واستيلاء التتر على بغداد عاصمة الخلافة وتخريبها، بعد قتل الخليفة المستخذي، لم يكونا نكبة الأبد على شعب نثل سهامه من «كنانة الله» فاستطاع أن يصنع معركة (حطين) ثم استطاع أن يبيد إبادة كاملة في «عين جالوت»، جيوش المغول المتحالفة مع الصليبيين، كما يقول مؤرخو الإفرنج أنفسهم متعجبين مدهوشين... وهزيمة دمياط، التي كانت تحمل كل عناصر النكبة اليائسة من

خيانة القائد المتراجع سعياً وراء العرش، إلى موت (الملك الصالح) لم تكن نكبة الأبد على شعب لم تخرجه الكارثة عن ثقته بالله، (الصالحية) لم تكن نكبة الأبد على شعب لم تخرجه الكارثة عن ثقته بالله، فاستطاع أن يأسر ملك فرنسا العظيم الشأن، ويسجنه في دار القاضي لقمان بالمنصورة.

واحتلال الاستعمار، في القرن الماضي، للهند وأندونيسيا، والجزائر وتونس ومصر والسودان والمغرب الأقصى وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق، أي للعالم العربي والإسلامي كله تقريباً، لم يكن نكبة الأبد. . .فهذه الأقطار كلها تتمتع اليوم بالاستقلال.

واحتلال الحلفاء في سنة ١٩١٨ لاستانبول عاصمة الخلافة، لم يكن نكبة الأبد على شعب لم يفقد ثقته بالله وبنفسه، فناضل وجاهد، وانتهى به الأمر، بعد ربع قرن أو أقل، إلى أن يرى الحلفاء الذين حطموه وحاولوا إذلاله، يستجدونه استجداء ليدخل معهم في حلف الأطلسي.

هذا عندنا. أما عند الأمم الأخرى فالأمثلة أكثر وأوجع.

إن أسر ملك فرنسا في معركة «المنصورة» لم يكن نكبة الأبد، فقد عاد الملك الأسير، بعد أمد قصير يشن حملة صليبية أخرى على تونس. . . فأخذه الله، هنالك بالطاعون كما أخذ أصحاب الفيل. . .

وأسر فرنسوا الأول ملك فرنسا في معركة «بافية»، التي «خسر فيها - على حد قوله- كل شيء إلا الشرف» لم يكن نكبة الأبد على شعب استطاع بعد ذلك أن يتحكم في أوروبا في عهد لويس الرابع عشر.

وانتصار فرنسا وحلفائها على ألمانية، في الحرب العالمية الأولى، لم يكن نكبة الأبد على شعب استطاع في الحرب العالمية الثانية أن يحتل باريس.

واحتلال ألمانيا الهتلرية، هذا، لفرنسا، لم يكن نكبة الأبد على شعب استطاع أن يسترد دوره في قيادة أوروبا، ويصنع القنبلة الذرية، في عهد ديغول.

غثاء السيل

ذلك الاستخذاء في النفوس هو الذي عبر عنه النبي ﷺ «بالوهن» وشبهنا، من أجله «بغثاء السيل»، في حديث يعد من معجزات أخبار الغيب، يصف به حالة المسلمين، في عصورهم الأخيرة هذه وصفا ينطبق على واقعنا[1] الحاضر بعد مرور أربعة عشر قرنا مع الأسف الشديد!!

إن حاضر العالم الإسلامي اليوم يتلخص وصفه بما يأتي:

١- **في العدد**: كتلة هائلة من البشر يبلغ عددها الحقيقي، لو جرى إحصاء دقيق، أكثر من سبعمائة مليون، أي ما يزيد على ربع سكان الأرض.

٢- **في المكان**: تحتل هذه الكتلة العظيمة وسط العالم القديم وسرته، في رقعة واسعة متصلة تجمع بين آسيا وأفريقيا، وتشمل أكثر شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وجميع البحر الأحمر، وأكثر من ثلث البحر الأسود، وأكثر بحر قزوين، وتتسلط، تسلطا تاماً، على أخطر الممرات والمعابر البحرية في العالم القديم، مضيق جبل طارق، ومضيق الدردنيل، ومضيق البوسفور، وقناة السويس، ومضيق باب المندب، ومضيق هرمز، ومضيق «مالقا» وغيرها.

٣- **في الثروة المائية**: تضم هذه الرقعة الإسلامية ثلاثة من أعظم أنهار الدنيا: النيل والفرات والدجلة، عدا نهر العاصي ونهر السند وغيرهما من الأنهار والبحيرات.

٤- **في الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية**:

تعتبر رقعة الأرض الإسلامية بحكم اتساعها، واتصال أراضيها، وتنوع

---

(١) بعض ضعاف النفوس يتخذون من هذا الحديث ذريعة للاستسلام والرضا بالضعف باعتبار أن هذا الوصف قاله الرسول الصادق، ولا بد أن يقع. والواقع أن الرسول قال هذا للتحذير من الوقوع فيه، وللتحذير من الرضا به والاستسلام له حين يحدث، فهو في حقيقته يبعث على القوة ويحث على التخلص من أسباب الضعف التي ذكرها وهي حب الدنيا وكراهة الموت. «الوعي الإسلامي».

أقاليمها ومناخاتها، وطول شواطئها، قارة كاملة تجمع كل أنواع الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية المتنوعة. فهي في حالة اكتفاء ذاتي كامل، لا يعد لها فيه من الدول، إلا الولايات المتحدة الأميركية. هذا كله فوق ثروتها الممتازة، التي تتحكم في صناعة العالم القديم وتجارته، وفي وسائل النقل، بل تتحكم في مصير العالم عند الحروب الكبرى، وهي الثروة البترولية الهائلة، التي تبلغ في الإنتاج، أكثر من ربع إنتاج العالم كله، وعلى مزيد جديد يظهر في كل يوم، وتبلغ في احتياطي البترول، أكثر من ٢٦ ألف مليون طن، أي أكثر من ٥٦ في المائة تقريباً من احتياطي العالم المقدر بثمانية وأربعين ألف مليون طن. وهي ثروة لا يتم اعتزازنا بها إلا إذا تذكرنا أن إنتاج البترول غير العربي، ينحصر جزء منه في روسيا، ولا يكاد يكفيها لحاجاتها الصناعية والحربية، أما الأجزاء الأخرى فمحصورة في أمريكا البعيدة عن العالم القديم بعدا شاسعاً يجعل نقل البترول صعباً وغالياً بل يجعله، عند الحروب العامة، متعذراً.

إن هذه الحقائق التاريخية والجغرافية التي ذكرناها، بشيء من الإسهاب، تكاد تكون معلومة عند أقل الناس اطلاعاً، وما كنا بحاجة لذكرها لولا أن من طبيعة الإنسان، عند طغيان التشاؤم على قلبه، أن يذكر النقمة وينسى الصبر عليها، ويكفر النعمة وينسى الشكر لها. وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

٥- **في الوحدة الدينية**: يضاف إلى تلك القوى البشرية والطبيعية الهائلة قوة معنوية لا مثيل لها، في تماسكها وقدسيتها، عند أمة من أمم الأرض، وهي قوة الأخوة الدينية، رغما عما يبدو، في الظاهر، من تعادي الحكومات العربية والإسلامية وتناحرها، فالحكام والحكومات شيء، والشعوب، في قلوبها وضمائرها شيء آخر.

ولكن على الرغم من هذه القدرة المادية والمعنوية الهائلة فإن أكثر العالم الإسلامي (من المغرب العربي على الأطلانطيكي إلى إندونيسيا وجوارها في أقصى الباسيفيكي، إلى التركستان والقفقاس إلى أواسط أفريقيا) كان محتلاً

ومستعمراً إلى وقت قريب، فصح وصدق، بهذا الواقع، ذلك الكلام المعجزة من قول النبي ﷺ لأصحابه «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. فسأله أحد أصحابه: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير. ولكنكم غثاء كغثاء السيل» وفي رواية[1] ورد ذكر «الوهن» و«كره القتال».

خميرة البقاء

ولكن هذه الأمة التي أصبحت، في عصورها الأخيرة «كغثاء السيل» مما اعتراها من «الوهن وكره القتال» لا تزال تحمل في باطنها خميرة البقاء.

لقد ظهرت على مسرح التاريخ أمم ودول وإمبراطوريات، حكمت العالم، ثم طواها الدهر حين دب فيها «الوهن» واجتاحتها أمم فتية قوية، أكلتها وبلعتها وهضمتها، حتى لم يبق لها وجود إلا في كتب التاريخ أو دور الآثار. ولكن هؤلاء المسلمين، الذين حكموا العالم، ثم صاروا كغثاء السيل، واجتمع لهم من أسباب الوهن ما يكفي لزوال الأمم وانقراضها، لا يزالون قائمين.

تداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وأكلت من قصعتهم ولا تزال تأكل، ولكنها لم تستطع أن تأكلهم.

يذكرني هذا الصمود بالعادة، التي يروى أنها كانت متبعة عند الإسبارطيين الأشداء: كانوا يغطسون الطفل عند ولادته، في البحر تغطيسا يكفي في العادة لاختناقه وموته. فإن مات ذهب غير مأسوف عليه، وإن صمد فهو الصالح للنضال والبقاء.

فما هي الخميرة التي جعلت المسلمين يصمدون ويصلحون للبقاء على الرغم من تلك الكوارث التي أصابتهم؟

---

(١) جاء في هذه الرواية تكملة للحديث «ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت» «الوعي الإسلامي».

إن المسلم المؤمن بالقرآن يجد الجواب في بشائر كثيرة، أوضحها قوله تعالى، بالتوكيد بعد التوكيد، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩).

والذكر هو القرآن. وحفظه إنما يبلغ الغاية من تنزيله بحفظ الأمة التي تذكره وتحفظه.

ولكن المسلم يجد التعليل، الاجتماعي العقلي، لصمود المسلمين، في آيتين أخريين، يقبلهما عقله وإن لم يؤمن بالقرآن، لأنهما تكشفان عن ناموس اجتماعي تدركه العقول:

الآية الأولى قوله تعالى في سورة الرعد ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ (الرعد: ١٧).

والآية الثانية قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ (إبراهيم: ٢٤ -٢٧).

الزبد رغوة لا تلبث - وهي تفور وتعلو - أن تتلاشى وتذهب جفاء.

والذهب، الذي لا يفور ولا يعلو، هو الذي يبقى في الأعماق ويمكث في الأرض، ويصمد لتأثير الماء والهواء فلا يصدأ ولو تراكم عليه التراب.

والشجرة الطيبة يحافظ عليها الناس، والشجرة الخبيثة الضارة يجتثها الناس لتذهب طعاما للنار.

أليس هذا هو ناموس الأنسب والأصلح؟

وما هو الزبد؟ أليس هو الباطل الذي يزهق كما قال القرآن؟

وما هو الذهب؟ أليس هو الحق الذي يبقى كما قال القرآن؟

وما هي الشجرة الطيبة؟ أليست، هي شجرة الحق والخير؟

وما هي الشجرة الخبيثة؟ أليست هي شجرة الباطل والشر؟

لو أن للفلك أن يعكس دورته، ويرجع القهقرى إلى عهود الظلام العقلي

القديم، لكان ممكنا للشجرة الطيبة أن تجتث بمعول الجهل، ولكان ممكنا، للشجرة الخبيثة السامة، أن تعبد على أنها إله مخيف قتّال، ولكن التفكير الإنساني أخذ يسير في النور نحو الحق. وكلما ازداد النور سطوعا ازداد الحق ظهورا، فخميرة بقاء المسلمين هي هذا الحق الذي يرتكز عليه الإسلام، والذي يزداد ظهورا وإشراقا كلما ازداد التفكير الإنساني نضوجا وازداد تفهما «لوسطية الإسلام».

وسطية الإسلام

ومن هذه الخميرة تنبع «وسطية الإسلام» التي بشرنا الله بها بقوله:
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).
وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

والوسط هو العدل. والتوسط هو الاعتدال. والشهادة، هنا، بمعنى العلم والإعلام. فما هي هذه «الوسطية» العادلة المعتدلة، التي جعلنا الله عليها، وأمرنا أن نقف عندها، وأن نرشد الناس إليها؟

أهي في الوقوف مع الحق ضد الباطل؟

أهي في الوقوف مع الخير ضد الشر؟

هذه بديهيات ساذجة تقرها كل الديانات السماوية والقوانين والشرائع الأرضية، وتعرفها كل العقول، فليس فيها نظرة جديدة عميقة تصلح لحل أزمات الصراع الفكري حول قضايا الإيمان والعقل والعلم والحرية والمجتمع.

فالوسطية الإسلامية - إذن - أعمق من ذلك:

إنها في الوقوف بالمركز الوسط العدل الذي نكون فيه قادرين على أن نمنع تعارض الحق والخير مع الحق والخير: فالحق بذاته، لا يمكن أن يتعارض مع الحق، والخير بذاته لا يمكن أن يتعارض مع الخير. ولكن الإفراط والتفريط في النظرة هو الذي يعطل صفاء الإدراك، ويعكر صفاء الاستنتاج، ويشل القدرة على التوفيق بين هذه المعاني الكريمة:

فالإيمان بالله حق وخير، وبه أمرنا. والعقل الذي ندرك به وجود الله حق وخير، وبتحكيمه أمرنا. وقضايا العلم حق وخير، وبالاستدلال بها على الخالق أمرنا. ولكن لا يجوز أن نجعل تحمسنا المفرط لخدمة الإيمان وصونه من الجدل سببا لتعطيل العقل بتحميله المتناقضات، أو نجعل تعظيمنا لقدر العقل سببا لتحميله ما هو فوق طاقته من معرفة كنه الغيب الذي استأثر الله بعلمه، أو نجعل زهونا باكتشاف قضايا العلم التي هي، في الحقيقة انكشاف لنواميس الله في خلقه، وسيلة للكفر بالله، وهي من أول الدلائل على الله.

وقدر الله حق وخير، وبالإيمان به أمرنا. والأخذ بالأسباب حق وخير، وبه أمرنا. فلا يجوز أن نجعل سوء فهمنا لمعنى القدر سببا لتعطيل الأخذ بالأسباب، أو نجعل اعتمادنا على الأسباب طريقا لإنكار قدر الله، الذي ﴿تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ (الروم: ٢٥). وإعداد القوة لدفع العدوان حق وخير، وبه أمرنا. والتوكل على اللّه حق وخير، وبه أمرنا. فلا يجوز أن نجعل اعتمادنا على إعداد القوة سببا لتعطيل اتكالنا على الله. أو نجعل اتكالنا على الله سببا لإهمال ما أمرنا به من إعداد القوة.

والحرية الشخصية للإنسان الفرد حق وخير، وبصيانتها أمرنا.

ومصلحة الجماعة حق وخير، وبحفظها أمرنا. فلا يجوز أن نعطل الحرية الشخصية تعطيلاً مطلقاً على حساب مصلحة الجماعة، ولا أن نتجاهل مصلحة الجماعة على حساب الإفراط في تقديس الحرية الفردية إلى حد الفوضى.

فالوسطية الإسلامية هي في هذا التوفيق بين هذه المعاني وأمثالها من الحق والخير، توفيقاً كاملاً تبقى معه غير متعارضة ولا متناقضة ولا يغني بعضها عن بعض.

بهذه الوسطية ساد المسلمون، ثم تخلوا عنها فأصبحوا كغثاء السيل، وتداعت عليهم الأمم حتى أضعفها وأذلها كاليهود ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٥٣). صدق الله العظيم.

عناصر أساسية

في معركة المصير الأبدي للأمم والدول عناصر ثلاثة طبيعية أولية أساسية وضرورية، يقوم عليها بقاؤها الأبدي. وعناصر أخرى ثانوية تساعد على استدامة البقاء. وما أشبه ذلك، عند التمثيل والتوضيح، بالإنسان: بين أن يخلق خلقاً سوياً، في جسده وحواسه، ثم يستكمل بعد ذلك أسباب بقائه بالسلاح، وبين أن يخلق، من بداية أمره، مسيخاً ضعيفاً مشوهاً، فلا ينفعه أي سلاح ثانوي في معركة البقاء.

والعناصر الثلاثة الطبيعية الأساسية التي لابد من اجتماعها للأمة التي يكتب لها البقاء هي:

أ- الأرض الكافية الوافية.

ب- العدد الكافي للبقاء.

ج- الوحدة الفكرية الوجدانية الضامنة لجمع القلوب.

وكل نقص، في غير هذه الثلاثة، من علم وتصنيع وتسلح يمكن تلافيه مع الزمن:

أما الأرض الكافية فأعني بها:

أ- تلك التي تضمن الاكتفاء الذاتي، للأمة القاطنة فيها، بالموارد الطبيعية: (المائية والنباتية والمعدنية الصالحة للغذاء والوقود والتصنيع والتسلح والحرب) فلا تحتاج معها إلى سواها من الأمم.

ب- وأن تكون الأرض منفتحة على العالم براً وبحراً، أي غير محصورة بالبر فلا بحر لها، وغير محصورة بالبحر.

ج- أن تكون الأرض مستعصية، بسعتها، وتنوع مناخاتها، على الفناء الشامل بالكوارث الطبيعية المختلفة، كالجفاف والصقيع والزلازل والخسف. فلو أصابها، في بعض مناطقها، شيء من هذه الكوارث سلمت المناطق الأخرى الكافية للعيش والاكتفاء الذاتي.

أما العدد الكافي فأعني به العدد الغفير:

د- الذي يضمن للأمة معيناً لا ينضب، أو غير سريع النضوب، من البشر، الذين يمدون الجيوش مهما طالت الحرب، ويخلفون الموتى عند الكوارث المرضية والمجاعات.

هـ- والذي يستعصي، بصورة خاصة، على خطر الفناء الجديد بالقنابل الذرية التي يمكن، إذا كانت أرض الأمة ضيقة وعددها قليلاً، أن تكون سبباً لإفناء الأمة بكاملها فلا يبقى منها عدد كاف يصلح لاستئناف الحياة واستمرار البقاء.

أما الوحدة الفكرية فإنما أعني بها الوحدة التي تجمع قلوب أفراد الأمة كلهم حول هدف واحد، ثابت، لا يزول ولا يحول ولا ينحرف باختلاف المؤثرات القومية والعنصرية والسياسية والاقتصادية، بل يثبت أمام كوارث الفقر والجوع والموت، ثباتاً عقائدياً يبقى قائماً في قرارة وجدان الأمة.

فإذا قيل لكم، يا شباب المسلمين، أن أمة على وجه الأرض، بل في تأريخ الأرض، قد اجتمعت لها هذه العناصر الطبيعية الأساسية الثلاثة الضامنة للبقاء الأبدي بأمر الله، أكثر مما اجتمع للأمة الإسلامية فلا تصدقوا، ومهما قيل لكم من ذهاب ريح المسلمين بسبب تنازعهم فلا تخافوا ولا تيأسوا.

أخوة المسلمين

إن أخوة المسلمين، على اختلاف أقطارهم وأعراقهم وألوانهم ومصالحهم الدنيوية، ليست من نوع الأخوة الوطنية، ولا من نوع العصبية، ولا من نوع الرابطة الاجتماعية، التي تشد الأواصر بين الخلطاء والشركاء حول مصالحهم الاقتصادية والمعاشية، ولكنها أخوة من صميم العقيدة، لا يتم إسلام المسلم، ولا يتحقق إيمانه إلا إذا استقرت في قلبه استقراراً وجدانيا، ينسى معه كل مصلحة شعوبية أو مذهبية أو عصبية أو إقليمية أو عائلية أو شخصية أو اقتصادية، أو معاشية، حتى يجعل هذه المصالح كلها تحت قدمه إذا تعارضت مع تلك الأخوة

الإسلامية المقدسة.

ولا يغترن أحد من المسلمين أو غير المسلمين بما يراه اليوم في هذه الأخوة من تخلخل عند بعض ضعفاء النفوس، فإن هؤلاء قلة. ومثلهم عند الأمم كثير. ولاسيما الأمم التي دخلت زمنا طويلاً تحت حكم الغزو والاحتلال. ولكن ما من مسلم، مهما بلغ رجسه في الخيانة، ومهما بلغ الثمن الذي باع به نفسه، إلا ويجد في سويداء قلبه، إذا هو خلا، في سواد الليل، إلى نفسه، غصة أليمة في الفؤاد، وكرباً ممضاً في الضمير، مادام يؤمن بالله وبأن محمداً رسول الله.

هذه حقيقة يعرفها كل مسلم من نفسه وإن جهلها أو شك فيها غير المسلمين.

وكيف لا يكون المسلم كذلك إذا كان يؤمن بالله ورسوله، وهو يسمع قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ (محمد: ٢٢-٢٣) ويسمع قول رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» وقوله ﷺ: «من بات ولم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم» وقوله ﷺ «من غشنا فليس منا» و«من حمل علينا السلاح فليس منا» وقوله «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وقوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار».

للبحث بقية

* * *

بشائر عن معركة المصير بين المسلمين وإسرائيل (٢)
في ضوء القرآن والأحاديث النبويَّة والنواميس الكونية والتاريخ

العدد (٥٠) صفر (١٣٨٩هـ) إبريل (١٩٦٩م)

ما وجدت لتبقى

أما إسرائيل فلن يكتب لها البقاء، لأنه لم يكتب لها البقاء.

يقول الذين خلقوها إنها وجدت لتبقى. وأنا أقول: إنها وجدت لتزول. لا أقولها مغروراً ولا موتوراً ولا مهولاً ولا معللاً بالآمال، ولكن أقولها عارفاً بنواميس الاجتماع، التي بني عليها وجود الأمم، وبقاؤها أو زوالها، بأمر الله، وحتمية التاريخ.

دولة إسرائيل هذه لن تبقى في فلسطين ولو اجتمع يهود العالم بملايينهم العشرة المبعثرة في جوانب الأرض، وجاءوا كلهم إلى فلسطين، وحمل كل واحد منهم مدفعاً في دبابة وصاروخاً في طيارة.

ما هي دولة شاوول وداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، اللذين نقرأ عن أمجاد ملكهما في تاريخ الدين والدنيا صفحات ذهبية، يكاد بريقها يوهمنا أنها دولة عظيمة؟

إنها دويلة بل أصغر من دويلة، لا يتعدى كيانها حدود رقعة صغيرة من قطر فلسطين الصغير القاحل، الضيق، المحصور بين الإمبراطوريات الفرعونية والكلدانية والآشورية والفارسية والمقدونية والرومانية، المتطاحنات في حروب لا نهاية لها للسيطرة على العالم القديم.

فهي من وجهة النظر إلى ماهية كيانها الأرضي والبشري، (وبقطع النظر عن الرسالة السماوية التي كانت ملقاة على عاتقها) لا تكفي، بأرضها وسكانها

وهيكلها الذهبي، أن تكون لقمة في أشداق تلك الإمبراطوريات التي تقوم على جوانبها من الشرق والغرب.

هذا من بديهيات الناموس الإلهي الاجتماعي الذي يسمى «ناموس تنازع البقاء وبقاء الأنسب» وهو الأقوى بكل معاني القوة.

ولكن دولة داود وسليمان قد وجدت بتدبير الله من أجل حكمة عظيمة استنفذت أغراضها منذ عشرين قرنا.

إنها وجدت، بمعونة الله، لحماية رسالة الحق والخير، التي أراد الله حفظها، في تلك الفترة من التاريخ على يد الشعب الباقي، (بعد إبراهيم عليه السلام ونسله)، على عبادة الله الحق من طغيان الوثنية. فازدهرت الدولة في عهد داود وسليمان، حين كانت تقوم على مبادئ الحق والخير.

ثم فسد الشعب اليهودي، وخرج عن مبادئ الحق والخير، بفسوقه وعصيانه وترفه وظلمه وقتله الأنبياء، فخسرت الدولة اليهودية سبب وجودها وسند بقائها الأوحد، وخسرت الديانة اليهودية المحرفة مقومات صلاحها، فأرسل الله السيد المسيح، صلوات الله عليه، بالإنجيل والدين الحق، ليحل محل الديانة التي أفسدها أهلها.

وسلط الله على الدولة الفاسدة من زلزلها، وعلى الشعب المفسد الفاسق الظالم من مزقه وشرده تشريداً لم يعرف التاريخ نظيره في أي شعب من شعوب العالم: فكان الإجلاء الأول على يد بختنصر الكلداني، وكان بعد ذلك هدم الهيكل والتشتيت في أطراف الأرض على يد تيطوس الروماني، الذي لا نزال نقرأ اسمه وذكرى نصره على اليهود منقوشين على قوس النصر المنصوب له في روما.

انتهت الدولة اليهودية الصغيرة لأنه لم يبق لوجودها أي سند إلهي وهو حماية الدين الحق.

وانتهى الشعب اليهودي، كوحدة اجتماعية، لأنه لم يبق له كيان اجتماعي مستقل بحكم تشتته وضعفه وقلته وفقدان أرضه، وعانى اليهود، من ضروب الاضطهاد والقتل والذبح والحرق والتعذيب والإذلال على أيدي النصارى، ما

أنبأ عنه القرآن بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١).

بعد هذا التمهيد التاريخي والاجتماعي أعود فأكرر قولي: إن دولة إسرائيل لن تبقى:

أولاً- لأن كيان الدولة اليهودية فقد مبررات وجوده الدينية فأعطاها لغيره.

ثانياً- لأن دولة إسرائيل الجديدة الاصطناعية غير الطبيعية لا تصلح للبقاء، في أرض فلسطين بالذات، بحكم ناموس تنازع البقاء لأنها محرومة من العنصرين الأساسيين الضروريين للبقاء، وهما الأرض الكافية والعدد الكافي.

ثالثاً- لأن فلاسفة اليهود الذين فكروا بإيجاد دولة يهودية خدعوا أنفسهم حين ركزوا أنظارهم على جاذبية الدعاية الدينية، التي تسحر كل يهودي يقال له إنك سوف تحيي دولة داود وسليمان في هيكل سليمان.

فيا لغباء الفلاسفة.. لقد تذكروا جاذبية الدعاية الدينية عند اليهود، وغفلوا عن رد الفعل العنيف للدعاية الدينية عند المسلمين، الذين يدخل في صميم عقيدتهم حفظ المسجد الأقصى والأرض المقدسة، التي بذلوا في الحروب الصليبية دماء غزيرة حتى استردوها، والتي مضى على استقرارهم التاريخي فيها مدة تكاد تكون أطول مدد الاستقرار لشعب على أرض في التاريخ.

من هذا يظهر بوضوح: أن خلق هذه الدولة في أرض فلسطين الضيقة القاحلة، التي لا تكفي بمساحتها وثروتها الطبيعية لتكوين دولة قادرة على البقاء، ومن شعب لا يكفي بعدده، ولو اجتمع كله، للصمود، وفي وسط بحر من الامتداد العربي والإسلامي الهائل، ومع التجاهل الأبله لما يمكن أن يصير إليه العرب والمسلمون من العلم والقوة والتسلح، كان خلقاً مسيخاً يحمل في صدره عناصر زواله، لأنه لا يعتمد على أساس من الأسس التاريخية والاجتماعية أو الأرضية أو العددية أو الاقتصادية التي يبنى عليها بقاء الأمم.

وإن قيل لكم يا شباب المسلمين إن هذا الكيان الاصطناعي تحميه الدول

الغربية المسيحية إلى الأبد فلا تصدقوا، لأنه لا يوجد مبرر طبيعي أو تاريخي لحماية هذا الكيان إلى الأبد.

فالحماية إما أن تكون للعاطفة والمودة، وإما أن تكون للمصلحة: أما العاطفة والمودة فلا عاطفة ولا مودة. وتاريخ المسيحيين مع اليهود، هو سلسلة من القتل والخنق والحرب، كما هو معروف ومشهور من ألفي سنة إلى عهد الأفران النازية.

بل إن كانت هنالك مودة فإنه لولا مصلحة السياسة الاستعمارية ورواسب التاريخ الحربي التوسعي الطويل، لكانت المودة من المسيحيين للمسلمين أقرب. وبهذا بشر القرآن وأكد بعد أن أنذر بعداوة اليهود وشدد بقوله ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ (المائدة: ٨٢).

وتبقى المساعدة للمصلحة السياسية، وهذا هو الواقع، فالدول الاستعمارية التي ساعدت على خلق إسرائيل لتكون شوكة في حلق العرب، إنما خلقتها لمصلحة سياستها الاستعمارية والبترولية، وسوف تظل تحميها ما دامت لها مصلحة في حمايتها.. فإذا قيل لكم إنها سوف تحميها إلى الأبد فلا تصدقوا.. فما في «سياسة المصلحة» شيء ثابت إلى الأبد.

ناموس التدافع الإلهي

وإذا كان سلطان المصلحة هو المسيطر فإننا نتساءل:

هل التخلي عن تونس والمغرب والجزائر والهند الصينية، أعظم وأوجع في ميزان المصلحة الإفرنسية من التخلي عن مساعدة إسرائيل؟

وهل التخلي عن الهند الدرة في التاج البريطاني، وعن مصر والسودان والعراق وغيرها، أعظم وأوجع في ميزان المصلحة الإنجليزية من التخلي عن مساعدة إسرائيل؟

الجواب واضح وبديهي.

ومع ذلك فإنه، بحكم سياسة المصلحة العليا، وبقوة حفظ التيارات الدولية المتعاكسة، اضطرت فرنسا وانكلترا لترك هذه المستعمرات العزيزة الغالية.

هذه السياسة الدولية المتعاكسة (المتدافعة)، التي تتفاعل على الأرض، فترغم الجبابرة على أن يتخلوا عن جبروتهم وطغيانهم، بحكم تدافعهم، فضلاً ورحمة من الله، هي الناموس الإلهي الذي عبر عنه القرآن بقوله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١). صدق الله العظيم.

وبقوة هذا الناموس يقوم التوازن الدولي في جميع عصور التاريخ، ويقوم اليوم بين المعسكرين الشرقي والغربي.

وبقوة هذا الناموس نفسه، دفن الإنجليز والافرنسيون أربعين ألف جندي، من زهرة شبابهم، أمام حصون «سيفاستابول» ليردوا روسيا المسيحية عن تركيا المسلمة في حرب «القرم».

ولعله يكون قريباً ذلك اليوم الذي تجد به نفسها أمريكا، حامية إسرائيل الكبرى، «أمام الخطر الأصفر الهائل الآتي من الصين الشيوعية المسلحة بالقنبلة الذرية» مضطرة، بحكم «ناموس التدافع» إلى طلب المساندة من دول «المدار الإسلامي كما طلبتها من تركيا المسلمة حين استنجدتها الدخول معها في حلف الأطلسي» لتجعلها الحصن الأمامي الأول في وجه الخطر الشيوعي الأحمر. وما ذلك على الله بعزيز.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ (آل عمران: ٢٦).

نعمة التحدي

وعلى ذكر ناموس «التدافع»، الذي عده الله فضلاً منه على الناس، وما كان من حماية هذا الناموس للدولة العثمانية المسلمة عند تكالب الدول الغربية عليها، أذكر ناموسا آخر أشار إليه القرآن في آيتين، وعده من مزايا المؤمنين، وسماه

خيراً، لأنه يخلق من الضعف قوة، ومن البغي انتصاراً، ومن الشر خيراً، وهو ناموس «رد التحدي» وأثره في صراع الأمم عبر التاريخ.

الآية الأولى قوله تعالى في سياق آيات يمدح بها المولى صفات المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الشورى: ٣٩).

والآية الثانية قوله تعالى في آيات يذكر بها سبحانه تحدي المشركين للمسلمين، وبغيهم عليهم وإخراجهم لهم من المسجد الحرام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة: ٢١٦).

منذ أكثر من عشر سنوات دعيت للكلام في اجتماع عام عقد لتجديد الندب والنياحة على مصيبتنا في فلسطين. وكان أني بدأت الكلام، عن المصيبة بقولي «إنها نعمة وليست بنقمة»، وكان هذا المطلع غريباً عجيباً عند السامعين. وكنت أعني «نعمة التحدي»، التي أيقظت العرب والمسلمين من سباتهم العميق، اليوم وفي أيام متعددة من التاريخ.

ولم أكن يومئذ قرأت شيئاً مما فصله المؤرخ الفيلسوف البريطاني «تومبي» عن أثر «التحدي ورد التحدي» بين الأمم في سير التاريخ، ولكن كان منطلقي إلى الكلام من كارثة مذلة عايشتها في مطلع شبابي، فأدمت قلبي، وزعزعت ثقتي، مثلما تفعل اليوم كارثة الخامس من حزيران في شبابنا..

حكاية تلك الكارثة ربما عرفها بعض شبابنا المثقف إجمالاً ولكنهم قد لا يعرفونها بالتفصيل:

في الحرب العالمية الأولى طلب الحلفاء وعلى رأسهم انكلترا من دولة اليونان أن تدخل إلى جانبهم ليتمكنوا من مهاجمة تركيا من جهة الدردنيل. وما كان لدولة اليونان أن ترد لإنكلترا طلباً وهي صاحبة الفضل عليها في التخلص من حكم الأتراك. ولكن رئيس وزراء اليونان اغتنم هذه الفرصة فانتزع من الحلفاء وعداً بتكبير حدود اليونان حتى تشمل منطقة «أيونيا» اليونانية القديمة، وهي القسم الغربي من الأناضول الذي يضم في حفائره آثار «طروادة».

ولما انتصر الحفاء جاءت اليونان تطالب بإنجاز الوعد ولكن السياسة الدولية لم تجد مبررا لاقتطاع جزء من تركيا وإعطائه لدولة صغيرة لم تستطع الدخول إليه في الحرب، فأشارت انكلترا على اليونان بخلق نزاع مع تركيا، والهجوم على الأناضول، ليكون هذا الاحتلال منطلقاً لتدخل الحلفاء، وإرغام تركيا على القبول بالأمر الواقع، وإعطاء القسم الغربي من الأناضول إلى اليونان، باسم الحق التاريخي الكاذب، الذي مضى على زواله ثلاثة آلاف سنة. وهي نفس التمثيلية المضحكة المبكية التي تلعبها إسرائيل بمساعدة الحلفاء أنفسهم، كانت الحالة قبل هجوم اليونان هكذا.

أساطيل الحلفاء ترسو في القرن الذهبي، وجيوشهم تسرح وتمرح في استانبول عاصمة الخلافة، والحفلات الراقصة تقام كل ليلة على ظهور البوارج، والسلطان ينام في قصره عند شاطئ البوسفور على أنغام موسيقى الأساطيل.. وظهرت يومئذ، في الأناضول، مبادئ مقاومة للحلفاء المحتلين لعاصمة الخلافة، من قبل مصطفى كمال وطائفة من شباب الأتراك.. ولكن ماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا، والجيش التركي المسرح ليس له وجود، والشعب التركي في مثل حالة الحيرة واليأس والقنوط التي نحن العرب عليها اليوم، والفتاوى الدينية تصدر تترى من شيخ الإسلام في استانبول، بأمر مطاع من الحلفاء للسلطان، معلنة (في صفحات المجلة الدينية التي لا أزال أحتفظ بها في مكتبي) أن مصطفى كمال وصحبه عصاة على الخليفة وكفرة فجرة يستحقون الإعدام؟

وشاء ربك أن تقع المعجزة.. سبحانه.

في صبيحة يوم من تلك الأيام السود احتل اليونانيون أزمير، وسار جيشهم يشق بلاد الأناضول.

إن من طبيعة التحدي أن تختلف ردة الفعل عليه سرعة وبطأً، باختلاف مكانة الأمة المتحدية والأمة المتحداة، ومجدهما وعزتهما في التاريخ. وباختلاف الناحية التي يمسها التحدي:

فالأمة العزيزة قد تصر، بعض الوقت، على التحدي إذا وقع لها من أمة عظيمة

عزيزة مثلها أو أكثر منها. أو كان يستهدف ما في القصعة، ولا يمس المقدسات في الصميم. ولكن إذا كان التحدي من أمة صغيرة ذليلة لأمة عزيزة، أو كان مما يجرح الأمة في مقدساتها، فذلك الذي يهون عنده الموت.

فلو كان الهجوم على الأناضول من فرنسا أو إنكلترا أو أمريكا، لما وجد الشعب التركي عاراً في الصبر عليه بعض الوقت. أما أن تأتي دويلة اليونان، التي كانت إلى الأمس القريب، ولاية تابعة للدولة العثمانية، لتهاجم الشعب التركي، الذي سبق له أن أرعب أوروبا، فهذا هو التحدي الذي صنع معركة «صقارية» الضاربة، التي لم يغسل الأتراك سيوفهم من دماء اليونان في نهايتها إلا بمياه البحر عند أزمير.

وطلبت اليونان من حليفتها وحبيبتها انكلترا المساعدة عند هذه النكبة، فكان جوابها «إن حكومة صاحب الجلالة لا ترغب في التورط بحرب عالمية جديدة».

ذلك أنه كان من قدر الله، الذي يقلب القلوب، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، أن الخلاف بدأ ينشب بين كلمنصو رئيس وزراء فرنسا ولويد جورج رئيس وزراء انكلترا على اقتسام تركة الرجل المريض، التي أخذت منها انكلترا حصة الأسد، فما كان من كليمنصو إلا أن انحرف لمساعدة الثورة التركية، وأمر الجيش الفرنسي الموجود في كيليكيا أن يخرج منها، ويترك جميع ما معه من العتاد الحربي ملكاً لحكومة الثوار الأتراك.

هذا مثل حي قريب العهد من أثر ناموس التحدي الذي سماه القرآن خيراً ومن أثر «ناموس التدافع» الذي سماه المولى فضلاً.

فالتحدي في الحروب الصليبية هو الذي خلق من الضعف قوة في معركة «حطين» والتحدي المغولي الصليبي هو الذي خلق من الضعف قوة في «عين جالوت» والتحدي في معركة دمياط هو الذي خلق من الضعف والفوضى قوة في معركة المنصورة..

وهذا التحدي المعاصر في خلق إسرائيل هو الذي خلق اليقظة الشعبية عند العرب والمسلمين. وسوف يخلق من الوهن قوة واتحادا، في يوم تخفيه قدرة

العليم الحكيم وراء الظروف الملائمة، التي يهيئها القدر لاحتدام «ناموس التدافع» الذي قلنا إنه ليس ببعيد.

بشارة من وراء الغيب

في الصحيحين حديث عن مقتلة تقع، في المستقبل البعيد، بين اليهود والمسلمين، وتكون النصرة فيها للمسلمين جاء في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله»، وفي رواية عن ابن عمر أيضاً «أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله». وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله». وجاء في صحيح البخاري «عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله» وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله». وفيه عن عبد الله بن عمر «يقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله».

في أسبوع النكبة جاءني شاب مؤمن من أرقى المثقفين وسألني عن هذا الحديث. قلت: هو من أعظم المبشرات فعلى كل مسلم أن يعرفه، ويجعله نصب عينيه ليستضيء بنوره في هذه الأيام السود الحوالك.

قال: سألنا عنه أحد كبار العلماء فقال: إنه حديث ورد في الصحاح ولكنه آحادي وليست له قوة الحديث المتواتر.

قلت: كأنه يشك فيه؟ قال: لا، ولكنه يرى أنه لا ينبغي الاعتماد عليه. ولا يقصد بذلك إلا وقاية للناس من الشك بكلام رسول الله.

قلت: إن صاحبك هذا ربما كان حسن النية، وربما كان كبيراً في علم مصطلح الحديث، ولكنه لا يفهم شيئاً من فقه الحديث.

قال: كيف؟ قلت: إن هذا الحديث أصح من الصحيح، وأقوى من المتواتر.

قال: وهل يكون بين الأحاديث الصحيحة ما هو أصح من الصحيح، وبين الأحاديث الآحادية ما هو أقوى من المتواتر؟ قلت: أما في علم مصطلح الحديث فلا. وأما في فقه الحديث فنعم.

قال: لماذا؟ قلت: لأن هذا الحديث (بقطع النظر عن صحة السند) يحمل براهين صحته بذاته ولفظه ومعناه، وقد جاءت الأيام تبرهن على صدقه بواقع الحال.

ذلك أن نصوص الأخبار عن المغيبات منها ما لا يحمل براهين صحته بذاته، ولكننا نقول بصحته، اعتماداً على صحة السند، ومنها ما يحمل، فوق برهان السند الصحيح، براهين صحته بألفاظه ومعانيه والظروف التي روي فيها، ومنها ما تأتي أحداث المستقبل بتحقيق الأخبار الغيبية التي أنبأ عنها النص. خذ لك مثلاً آية الأخبار المبشرة بغلبة الروم للفرس في قوله تعالى ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ (الروم: ٢-٦).

إن هذه البشارة القرآنية من أخبار الغيب، لا تحمل براهين صحتها بذاتها؛ ولكن المسلمين آمنوا بها وصدقوا لأنها من القرآن، ثم جاءت الأيام، بعد بضع سنين، كما ذكر القرآن، تؤيد وتحقق، بالواقع، غلبة الروم للفرس. فكان ذلك من جملة وجوه إعجاز القرآن.

أما هذا الحديث، عن قتال اليهود، فإنه يحمل براهين صحته وصدقه من الوجوه الثلاثة: بسنده، وبذاته، وبواقع الحال. وهذا معنى قولي لك عنه أنه أصح من الصحيح وأقوى من المتواتر.

وسأشرح لك هذا المعنى ولكني أريد قبل ذلك أن أقول كلمة عن المشككين

الذين يقولون، بحسن نية أو بسوء نية، إن الحديث آحادي ولا يجوز الاعتماد عليه في الصراع بيننا وبين إسرائيل، التي تعتمد على أسباب المادة والقوة، إن هؤلاء ينسون أو يتناسون أمرين:

الأول: أن هذه المبشرات هي من أوليات أسباب القوة، كما أوضحنا في صدر هذه المحاضرة عن نفع تشديد القلوب، وعن ضرر اليأس والاستخذاء، وعن ضرورة الثقة بالله من أجل إعداد القوة، بل من أجل القدرة على استعمال القوة.

ثانياً: أن أعداءنا اليهود ما استطاعوا جمع شتاتهم، وإعداد قوتهم إلا باعتمادهم على ما اخترعوه من المبشرات الدينية بإعادة الدولة اليهودية في أرض الميعاد. . أفيكون للمبشرات اليهودية، التي نعتقد، نحن المسلمين، أنها مخترعة كاذبة أثرها ونفعها عند أعدائنا، ثم نحاول، نحن، أن نهمل، أو نضعف مبشراتنا الدينية، التي نؤمن بأنها صادقة. .؟ يا للعجب. . .

ولنرجع إلى شرح أدلة صدق الحديث:

أ- إن الحديث يصرح بأن المقتلة مع اليهود ستكون في المستقبل، بل في قوله، على إحدى الروايات، «لا تقوم الساعة حتى. . .» ما يفيد أن المقتلة ستكون في المستقبل البعيد.

ب- إن المفهوم من ظاهر وصف المقتلة أنها ستكون عظيمة وضارية.

ج- إن المفهوم من قول الحديث، في إحدى الروايات «تقاتلكم اليهود» أنهم هم الذين يبدأون المسلمين بالقتال وهذا يقتضي أن تكون لهم دولة وشوكة تشجعهم على أن يبدأوا بالقتال.

د- لا يخفى أن يهود الحجاز والجزيرة العربية لم يكن لهم كيان دولي قائم بذاته قبل الإسلام. وأما بعده فلم يعد لهم شوكة، بل لم يعد لهم وجود يظن معه أنهم يقاتلون المسلمين.

هـ- ولا يمكن أن يعني الحديث قتالاً يقع بين المسلمين وشراذم اليهود الضعفاء من أهل الذمة، لأن الإسلام يأمر بحماية أهل الذمة ورعايتهم، ولأن قتل مثل هذه

الشراذم الضعيفة ليس من الأمور الهامة التي تستحق أن يبشر بها النبي ﷺ، المسلمين بالنصر.

و- أما في الخارج فاليهود، بعد التشتيت الثاني، الذي حصل لهم على يد تيطوس الروماني، لم يعد لهم كيان دولي، أو تجمع، أو تكتل مستقل، في أي قطر من أقطار الأرض.

وأخيراً: لا يخفى أن اختلاق الأحاديث لا بد أن تكون له دواع وأسباب ومقاصد وأغراض وغايات: منها ما يتعلق بالخلافات السياسية، ومنها ما يتعلق بخدمة الشعوبية، ومنها ما يراد به استرضاء الحكام أو تبرير أخطائهم، ومنها ما يتعلق بأساطير الخلق والتكوين التي سماها علماء الحديث «الإسرائيليات»، ومنها ما سببه إظهار البراعة بحفظ الأحاديث، أو الاستعانة على الفلج في الجدل والمناظرة.

وكل هذه الدواعي لا بد فيها أن تنبع مما يتصل بالناس، ويحيط بهم، أو يهمهم، أو يجري في أحاديثهم من الأمور والمشاكل. وليس من المعقول أن يخترع أحد الناس حديثاً لا يمت بصلة إلى شيء من هذه الأسباب. ولو أن الحديث المذكور تعلق بقتال يقع مع الفرس أو الترك أو الروم أو الهنود، مثلاً، لكان افتراض اختلاقه ممكنا ومعقولاً، بقصد التبشير بالنصرة على هذه الأمم التي لها احتكاك مع المسلمين. وأما أن يوضع حديث عن مقتلة عظيمة تحمل بشائر النصرة على شعب ذليل مشتت لا شوكة له ولا دولة ولا كيان ولا تجمع ولا تكتل، بل لا ذكر له عند المسلمين، ولا يخطر بالبال التخوف منه، فإن اختلاق الحديث يكون بلا سبب ويكون بالتالي غير معقول.

وإذا لم يكن في العالم دولة يهودية، أو تجمع أو تكتل يهودي مستقل، يتصور معه حصول احتكاك أو قتال كبير مع المسلمين، فما هو، إذاً، معنى هذا الحديث؟

قد برهنا على أن اختلاقه غير معقول لأنه لا يرتكز على سبب من أسباب اختلاق الأحاديث الموضوعة.

وإذا كان صحيحاً وغير موضوع فكيف، وحالة اليهود على ما ذكرنا، سوف يتم تحقيق ما انطوى عليه من أخبار الغيب؟

لقد ظل الجواب عن هذا السؤال مخبوءاً وراء حجاب الغيب أربعة عشر قرناً حتى ظهرت دولة إسرائيل الحديثة، التي لم يخطر بالبال ولا بالخيال ظهورها في حياة الإمامين البخاري ومسلم رضي الله عنهما في القرن التاسع الميلادي أي في القرون الوسطى.

وأين ظهرت؟ أين؟

في قلب البلاد العربية والإسلامية، حيث أصبح حصول الاحتكاك مع اليهود معقولاً، بل في صميم الأرض المقدسة عند المسلمين، حيث أصبح وقوع القتال محتماً، وعلى مقربة من الكعبة بيت الله، ومقربة من «يثرب» مدينة الرسول، التي لليهود فيها ذكريات كلها أحقاد. أي حيث أصبح القعود عن القتال كفراً وخروجاً عن الإسلام...

وهكذا تحقق صدق الحديث النبوي المعجزة في حصول القتال، ولا بد أن يتحقق صدقه عن نتيجة القتال إن شاء الله. والأيام بيننا.

أيها المسلمون في الأرض كل الأرض

إني على يقين من أن هذه البشارة النبوية سوف تتحقق في يوم من الأيام قريب أو بعيد.

وعسى أن يكون قريباً بتعاون هذا الجيل الحاضر من حكام المسلمين وتناصرهم حتى لا تتكرر لعنة الله والتاريخ التي سجلها الشاعر الأندلسي، عند ضياع الأندلس، على المتنابذين والمتخاذلين في النصرة بقوله:

يا راتعين وراء البحر في سعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
هل جاءكم نبأ من أرض أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

* * *

١٠ مقالات

الشيخ عطية محمد صقر

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- قضية الدين.

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).

٢- لبيك بحجة حقا، تعبد ورقا.

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢).

ترجمة

الشيخ عطيه صقر

● **مولده:**

ولد الشيخ عطية محمد صقر في ٢٢ نوفمبر ١٩١٤م بقرية بهنا باي مركز الزقازيق.

حفظ الشيخ القرآن الكريم منذ أن كان عمره تسع سنوات، وحصل على الشهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين بالأزهر عام ١٩٤٣، وعُين خطيباً بالأوقاف ١٩٤٣م، وواعظاً بالأزهر ١٩٤٥م، كما عمل مترجماً للغة الفرنسية بمراقبة البحوث والثقافة بالأزهر، ثم مفتشاً للوعظ ومراقباً عاماً للوعظ حتى أحيل إلى التقاعد في عام ١٩٧٩م، ثم مستشاراً لوزير الأوقاف.

تدرج في العديد من المناصب الحيوية حتى وصل إلى شغل منصب رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، وهو من أشهر من تولوا رئاسة اللجنة؛ فقد أصدر موسوعة كبيرة لفتاواه وصلت إلى أكثر من ثلاثين جزءاً، وكل جزء يحوي عدة أبواب تجمع الفتاوى في قضية أو مجال معين.

اختير عضواً بمجلس الشورى، وكان عضواً بمجمع البحوث الإسلامية، وعضواً بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وعضواً بلجنة الفتوى بالأزهر.

● **من مؤلفاته:**

«الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، الأسرة تحت رعاية الإسلام، دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة، الزكاة وآثارها الاجتماعية، الحجاب وعمل المرأة، البابية والبهائية تاريخا ومذهباً»

شارك في العديد من البرامج الدينية في الإذاعة والتليفزيون، وعقد العديد من

الندوات الدينية في دور التعليم والجمعيات والمؤسسات المختلفة. كما أن له مقالات في الصحف والمجلات العربية والإسلامية، منها مجلة الوعي الإسلامي الكويتية. وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

● **وفاته:**

توفي في ٩ ديسمبر ٢٠٠٦ عن عمر يناهز ٩٢ عاماً رحمه الله رحمة واسعة وغفر له وللمسلمين.

قضية الدين في العصر الحديث

(العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م)

الدين في حقيقته نظام إلهي، اختاره الله لهداية البشر وإصلاح دنياهم، وأخراهم، وقضية كونه نظاماً إلهياً، تحتم أن يكون في دقته وأحكامه متناسباً مع ما يتصف به الإله من صفات العدل والحق والحكمة، وأن يكون بعيداً عن مجال الشك والارتياب.

وهداية الله للبشرية فيض من رحمته، وقبس من عطفه، وتأكيد لقصور الإنسان عن معرفة كل ما يصلح أمره ويهديه السبيل.

وغاية الدين تبدو واضحة في مظهرين، هما عمارة الكون بالخير تحقيقاً لحكمة خلق الله آدم، ليكون خليفة في الأرض، وربط المخلوق بالخضوع لعظمته واستمداد العون منه، وتحمله مسؤولية ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، والرجوع إليه بعد البعث، ليلقى جزاءه على ما كسب من خير، واكتسب من شر.

هذه الهدايات الإلهية نزل بها الوحي متتابعاً في جميع عصور التاريخ على رسل اصطفاهم الله لحمل تبعة الرسالة، وقيادة الناس إلى الخير.

والأديان في مبادئها العامة الهادفة إلى تحقيق الغاية من وجود الإنسان، لا تختلف على مر العصور وفي مختلف البيئات. فعبادة الله وحده والشعور بالمسؤولية الكبرى أمامه، والإيمان باليوم الآخر، وكذلك مبادئ العدالة والحرية والمساواة والأخوة، وأخلاق الصدق والعفة والرحمة والتعاون وأمثالها من المبادئ والأخلاق الإنسانية والاجتماعية كلها قدر مشترك بين جميع الأديان غير أن علاج الدين لمشاكل الإنسانية، ورسم الطريق لبلوغ الغاية المرجوة قد أخذ أشكالاً متعددة، يتناسب كل شكل منها مع حاجة المجتمع إلى نوع معين من

الهداية، وأسلوب خاص من السلوك ومع استعداده للتجاوب مع ما تقرره هذه الهداية وتدعو إليه.

● **تطور المجتمعات البشرية**

والمجتمع البشري في تطور دائم وتغير مستمر، وهو في تنوعه بحسب الأقاليم والبيئات والظروف متفاوت في مشاكله، وفي الطرق المثلى لحل هذه المشاكل، كما أن التاريخ في سيره الحثيث يخلق مشاكل جديدة ويتنفس عن أحداث تقتضي علاجاً مناسباً قد لا تكون هناك صلة بينه وبين ما قرر من آلاف السنين.

وتعاليم الأديان كلما مست مشاكل الفرد والمجتمع، وكانت في أساليبها متجاوبة مع الفطرة متفقة مع العقل لا توجد رد فعل عام تنفر منه الطباع السليمة والعقول المتزنة الحرة- كان ذلك دليلاً قوياً على صدق هذا الدين وحيويته، وعلى جدارته بأن يكون منسوباً لله الذي لا يصدر عنه إلا كل عمل حكيم.

غير أن آفة الأديان عامة هي تشويه القائمين عليها من البشر لتعاليمها، وإساءة فهم مقاصدها، والميل بها عن هدفها الأصيل، وتحكيم الأغراض والشهوات فيها، بغياً بينهم وتنافساً على مصالح دنيوية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩).

والأديان السماوية التي تقدمت في التاريخ على الإسلام كانت كلها مؤقتة جاءت لفترة معينة من الزمن، أو لقوم مخصوصين، لهم مشكلتهم الخاصة وكان الدين اللاحق ناسخاً للدين السابق مؤذناً بانتهاء مهمته. جاء يؤكد الأصول الأولى التي دعا إليها الدين السابق، وينبه إلى الأخطاء التي ارتكبها أتباع هذا الدين ويقرر مبادئ أخرى جديدة تصلح للطور الجديد. كما أن الرسالة التي تخص جماعة معينة لا تنافيها أن تكون هناك رسالة أخرى معاصرة لها جاءت لقوم آخرين لهم مشاكلهم الخاصة، كما اجتمعت في وقت واحد رسالة سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ

إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾(العنكبوت: ٣١- ٣٢).

● **الإسلام دين عام**

ولم يسبق الإسلام دين عام للبشرية جميعاً يعم أجناسهم وألوانهم، ويشمل كل بيئاتهم. ولعل ذلك راجع إلى عدم تكامل المقومات الأساسية للمجتمع العام من حيث النضج العقلي، ومن حيث الشعور بالروح الجماعية والتعاون الشامل، نظراً لعدم سهولة المواصلات واكتفاء كل مجتمع اكتفاء ذاتياً بما يغطي مطالبه الضرورية التي اقتضاها وضعهم الاجتماعي المبسط، ومشاكلهم التي لا تستصعب على الحل. ويشير إلى خصوصية تلك الرسالات قول النبي ﷺ: «كان النبي ﷺ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» كما أن الرسالات السابقة انتهت مهمتها بظهور الإسلام الذي ختمت به الرسالات كلها، وكان هو دين البشرية حتى تقوم الساعة، فالنبي ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» كما أن الرسالات السابقة انتهت مهمتها بظهور الإسلام الذي ختمت به الرسالات كلها، وكان هو دين البشرية حتى تقوم الساعة، فالنبي ﷺ خاتم النبيين بنص القرآن الكريم، وقد تحدث عن نفسه بذلك في عدة أحاديث.

والهداية الإسلامية في أبعادها الطولية والعرضية خصبة خصوبة تامة بالحلول الدقيقة لجميع مشاكل الناس وعلى مدى التاريخ، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

والإسلام يحمل خاصية العموم والخلود من أول يوم صاح فيه النبي صيحته المدوية بين العرب: «إني رسول إليكم خاصة وإلى الناس كافة» ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وكان يقرر هذه الحقيقة حتى في أشد أوقات الأزمات التي لا يظن معها خلاص أو نجاة. فكان في غزوة الخندق، والأحزاب مجتمعون حول المدينة يريدون أن يقضوا على الدعوة مرة واحدة، يتفاءل ويستبشر، ويمد نظره إلى الأفق الواسع في رحاب الدنيا العريضة، وإلى المدى البعيد في أحضان المستقبل. فهو

يقول عندما ضرب الصخرة ثلاث مرات: «أعطيت مفاتيح الشام وفارس وصنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها».

● **دعوة الملوك والشعوب**

وكتب إلى الأمراء والملوك ورؤساء الدول المجاورة يدعوهم إلى التعاون معه على كلمة سواء هي العقيدة الصحيحة وتخليص الإنسان من عبوديته للإنسان، وتقرير مبادئ العدل والحق والمساواة، وهو حين يدعوهم إلى ذلك يقدر أسوأ النتائج برفض هذه الدعوة، فلا يفوته أن يدعوهم إلى الاعتراف بالدولة الإسلامية الجديدة كقوة لها كيانها ومقوماتها، يجب أن تعامل دوليا كبقية الدول المعترف بها، يتبين ذلك واضحاً من هذه الآية التي كتب بها إلى الملوك ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران: ٦٤).

وفي الوقت الذي بزغت فيه شمس الرسالة الإسلامية كان هناك دينان ما يزال لهما سلطان على رقعة واسعة من الأرض، هما اليهودية والنصرانية. ولكن الإسلام بقوته الذاتية التي تتمثل في مبادئه استطاع أن يكتسح سلطان هذين الدينين في زمن وجيز، وامتد رواقه في أقل من قرن من الزمان إلى حدود الصين شرقاً، وشواطئ المحيط الأطلسي غرباً في إفريقيا وأوربا.

● **حضارة الإسلام**

ظهر الإسلام في الشرق بقوته، وازدهرت حضارته، وغطت على الحضارات الأخرى، وحدثت عدة لقاءات بين الغرب والشرق، اطلع فيها الغرب المتأخر على حضارة الشرق المنبثقة من الدين الجديد فانكب رواد المعرفة على التزود من ثقافة الإسلام، ولم يستنكف الأحبار والرهبان أن يكونوا تلاميذ لعلماء المسلمين في جامعات الأندلس وغيرها، بل إن البلاط الإنجليزي أوفد بعثات من نسائه ليتعلمن الآداب والمراسيم في البلاط الإسلامي، واستدعت دول أوروبا مهندسين مسلمين لإقامة المنشآت والاستنارة بأفكارهم في المجالات المختلفة.

وتحرك في نفوس الغربيين عامة شوق كبير إلى الانفلات من قيود الأوضاع التي تسود بلادهم، والثورة على التعاليم الدينية التي كانت تتحكم في جميع شؤونهم، فانبعثت في عصر النهضة صيحات وصيحات تريد التحرر من القديم، والانطلاق إلى العالم الفسيح بعلومه واكتشافاته وحضارته، كما انطلق المسلمون من قبل وملكوا ناصية السلطان.

وبعد عراك دموي، وصدامات سجلها التاريخ بين القديم والحديث، انطلق مارد الغرب من القمقم، وجال جولته الناهضة التي يعيش الناس في ظلها الآن، وكان من عقابيل هذه النهضة عقدة نفسية ضد الدين الذي كان يسيطر من قبل على مشاعرهم وأفكارهم ويحول بينهم وبين الانطلاق والتحضر، وشهدت المؤلفات حملات قوية تهاجم الدين وتأخذ بجريرته الأديان الأخرى- ظناً من الناس أنها جميعاً على وتيرة واحدة، لا تتجاوب مع العلم ولا تساعد على النهوض، وكان الدين الإسلامي من الأديان التي أصيبت ببعض هذه السهام الطائشة، ووقر في نفوس بعض الشبان الذين تخرجوا في مدارس الثقافة الغربية المستوردة أن الإسلام كبقية الأديان حجر عثرة في سبيل التقدم والنهوض. وكان من واجبنا في هذه الأيام أن نتصدى لرد الشبهات، وإبراز محاسن الإسلام وتفاعله مع المدنية، وإن نعبئ كل قوانا للجهاد في هذا الميدان الذي نزلت فيه هذه المجلة المسلمة قوية نرجو لها ولأمثالها النصر إن شاء الله .

«الحديث موصول»

لبيك بحجة حقاً تعبدًا ورِقاً

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢م)

هذا العنوان الذي رواه البزار والدارقطني عن النبي ﷺ حين كان في حجة الوداع، مع قول سيدنا عمر رضي الله عنه وهو يقبل الحجر الأسود، «والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» كما رواه البخاري ومسلم- هذان القولان يجران إلى الحديث عن حكمة التشريع للعبادات بوجه عام، وحكمته للحج بوجه خاص.

إن عبادة الله تقتضي القيام بالتكاليف دون الحاجة إلى فهم أسرارها والوقوف على الحكمة منها، مع ضرورة إيمان العبد بأن أفعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وإن قصرت العقول عن فهمها ولم تصل إلى إدراك سرها، كما قال سبحانه في تشريع القتال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة: ٢١٦).

والله سبحانه يعلم أن العباد ليسوا على درجة واحدة من التسليم والانقياد. ولهذا بين لهم بعض نواحي الحكمة في هذه التشريعات، يأتي بها مجملة أحياناً ومفصلة أحياناً أخرى، وتأتي الأحاديث النبوية فتوضح جوانب هذه الحكمة وتكشف عن بعض أسرارها. ولم يحظر سبحانه على الفكر أن يسرح في تفهم هذه الحكمة على ضوء ما جاءت بها النصوص. فما وصلت إليه العقول لا يغير حكماً قرره الإسلام، ولكنه يدعمه لتنشط النفس لأدائه، وتزداد إيماناً بحكمته.

وقد تحدث العلماء في تقويم العبادة حين تؤدى دون ملاحظة حكمتها وحين تؤدى والنفس متعلقة بما يترتب عليها من خير عاجل أو آجل، فقالوا: إن فهم الحكمة وإن كان ينشط النفس عند الأداء، ويحمي المكلف من الشبه التي يوجهها

الأعداء إلا أن العبادة المؤداة في هذا الجو تشوبها شائبة المنفعة التي لولاها ما توجهت النفس إليها ولا تحملت ما فيه من تكليف. وهي في درجة الإذعان لله ليست كالعبادة التي يؤديها المؤمن لمجرد أنها أمر من الله الموصوف بالحكمة والمنزه عن العبث، غير متطلع إلى ما وراءها من نفع، فليس للعبد حاجة عند ربه، فلله أن يأمر وعلى العبد أن يطيع- على ما يشير إليه ما جاء في وصف صهيب: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».

ومن هنا احتفظ الله بسر بعض التكاليف فلم يبينه ولم يشر إليه ليمحص إيمان المؤمنين ويميز الخبيث من الطيب. ومثل له العلماء بالحروف المقطعة أوائل السور، وببعض الأحكام الواردة في ثنايا العبادات التي منها مثلاً رمي الجمرات في الحج.

يقول الإمام الغزالي في الإحياء (ج١ ص ١٩١ طبعة عثمان خليفة) واجبات الشرع ثلاثة أقسام، قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه- وذلك كرمي الجمرات مثلاً إذ لا حظ للجمرة في وصول الحصاة لها، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما يعقل معناه فقد يساعد الطبع عليه، ويدعو إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية، وقال في ص ٢٤٠ «وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق، إلى مقتضى الاسترقاق. وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات».

ولعل الرسول ﷺ كان يحس أن في بعض النفوس خواطر تحوم حول بعض الشعائر التي تؤدى في الحج فنبه إلى جانب التعبد والتسليم المطلق فيها قائلاً وهو يلبي: «**لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً**». فالأمر في أداء العبادة لا بد أن يسيطر عليه مبدأ التسليم الذي أعلنه عمر وهو يقبل الحجر الأسود، مقرراً أنه ليست للنفوس

حظوظ في تقبيل ما لا يضر ولا ينفع، ولكنه الامتثال المطلق والاتباع التام لرسول الله ﷺ، فهو القدوة الحسنة والذي نزل فيه قول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١) وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧).

وقد قال ﷺ في وجوب اتباعه في العبادة بنوع خاص: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وقال في الحج: «خذوا عني مناسككم» كما روته الكتب الصحيحة.

وإذا كان في بعض التشريعات الجزئية نواح لم ينص على حكمتها فإن العبادات الأساسية جاءت حكمتها منصوصة، إما في القرآن وإما في السنة، مع إطلاق العنان للفكر ليشرحها أو يبحث عن جوانب أخرى تدعمها، فالله سبحانه أمر بالنظر والتفكر والتدبر، والنبي ﷺ شجع على البحث حتى جعل للمخطئ فيما وصل إليه باجتهاده أجراً لا يحرمه من ثمرة العمل، فهو مثاب بنيته، وإن كان للمصيب أجران، أجر على بحثه وتعبه، وأجر على توفيقه الذي يفيد منه كما يفيد منه غيره.

ومهما يكن من شيء فإن الحكمة العامة للتشريع تتلخص في نقطتين أساسيتين أولاهما: ربط المخلوق بالخالق، لأنه هو الذي خلقه ثم رزقه ثم يميته ويحاسبه، فهو منه مخلوق وإليه راجع، فلا تنقطع صلته عن الله بدءاً ونهاية، وثانيتهما: إعداد العبد للحياة على الأرض ليحقق خلافته فيها.

ومن مظاهر النقطة الأولى، الإيمان بالله واليوم الآخر والتوجه إليه سبحانه بالعبادة وطلب المعونة، على ما يفيده قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥).

ومن مظاهر النقطة الثانية، الأخلاق الفردية والاجتماعية والتنظيمات الخاصة والعامة في ميادين الفكر والسياسة والاقتصاد والعمران وسائر الميادين التي تحدد فيها الحقوق والواجبات وعلى ضوء هذه الحكمة العامة بشقيها يمكننا أن نوضح حكمة تشريع الحج فيما يلي:

قال تعالى في بيان حكمة الحج المفروض من أيام إبراهيم عليه السلام والمأمور به

في شريعة محمد ﷺ كأحد الأركان التي بني عليها الإسلام ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ (الحج: ٢٧- ٢٨). فكلمة المنافع التي يشهدها الحجاج كلمة عامة جامعة تشمل كل منفعة دينية ودنيوية، مادية ومعنوية، سياسية واقتصادية، ثقافية واجتماعية وغيرها، وإليك تفصيل هذه المنافع على ضوء حكمة التشريع العامة للعبادات.

أولاً: صلة العبد بربه تظهر في الحج عندما يحرم الحاج ملبياً مقراً بوحدانية الله شاكراً له أنعمه: «لبيك اللهم لبيك- لبيك لا شريك لك لبيك- إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» وحين يطوف بالبيت سائلاً متضرعاً يستمنح الله عفوه وبره، وحين يقبل الحجر ويستلمه معاهداً ربه على الطاعة مجدداً معه البيعة على ما رواه- أحمد وابن خزيمة في صحيحه عنه «أنه يمين الله يصافح بها خلقه» وفي سعيه بين الصفا والمروة كالمتردد قلقاً على مصيره، هل تفضل الله عليه عند طوافه فقبله أو لا، وفي وقوفه بعرفة متجرداً من كل زينة خاشعاً ضارعاً في ذلة وانكسار يباهي الله بأهل عرفات الملائكة إذا أتوه شعثاً غبرا ضاحين من كل فج عميق، يرجون رحمته ويخشون عقابه. وفي رميه للجمرات تشبه بحربه للشيطان، وفي الهدي والفداء رمز للتضحية بالدم وبأغلى ما يملك الإنسان، إيثارًا لما عند الله وجهاداً في سبيله.

وفي الحج ارتباط بمهد النبوة وعمارة لبيت الله، وتذكر لحوادث ماضية كانت سبباً في قدسية هذا المكان، من وجود هاجر وإسماعيل وحيدين في هذا الوادي، ولطف الله بهما فنبعت زمزم وعمر المكان وبني أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين. وذلك كله إلى جانب ذكر الله بالتكبير والتلبية عند المشاعر، في عرفات والمشعر الحرام ورمي الجمرات. مما يدل على حكمة الحج في ربط العبد بخالقه كما يشير إليه قول النبي ﷺ: «إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله» (رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح).

ثانياً: الإحرام بالحج في ملابس متواضعة وبعد عن مظاهر الترف درس عملي

في التواضع وعدم الغرور بزخارف الحياة، وفيه نكران للذات وتركيز على الإخلاص لله في الطاعة، وقد حج النبي ﷺ على رحل رث وقطيفة خلقة، وقال: «اللهم حجاً لا رياء فيه ولا سمعة» (رواه الترمذي). وعن ابن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله من الحاج؟ فقال: «الشعث التفل» (رواه ابن ماجه بإسناد حسن). والشعث هو البعيد العهد بتسريح شعره وغسله، والتفل هو من ترك الطيب والتنظف حتى كادت تتغير رائحته، وفي الحج تمرن على الأسفار والترحال، وتحمل للمضايقات، وضبط النفس عن السباب والفسوق والمغريات، وفيه إلى جانب ذلك ثقافة واطلاع وتفكر واعتبار، وكل هذا كمال نفسي يفيد منه الحجاج.

ثالثاً: لا ينكر أحد أن الحج فرصة لعقد مؤتمر إسلامي يتخطى حدود البيئة والجنس واللغة، ويعلو على الفوارق والعصبيات- ينبغي أن تناقش فيه المشاكل وتوضع الحلول وتتلاقى الأفكار وتتلاقح الثقافات وتتبادل المنافع من كل لون، توكيداً للوحدة الجامعة التي يقررها الله في قوله ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء: ٩٢) وذلك كله لننهض سوياً بالواجبات الدينية والإنسانية، ولنقف صفاً واحداً أمام المحاولات التي تريد السوء للإسلام والمسلمين. وأن للمسلمين في هذا الموسم من عوامل الوحدة ما يعلو على كل العوامل. فربهم جميعاً واحد، ورسولهم واحد، وشريعتهم واحدة، وقبلتهم واحدة، وزيهم واحد، ونشيدهم واحد وكل ذلك يجعلهم كالجسد الواحد والبنيان المرصوص. وفي موسم الحج فائدة لأهل الوادي المقدس ولأرض النبوة الأولى، إجابة لدعوة إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم: ٣٧).

هذه بعض جوانب الحكمة في شريعة الحج. تدور حول المنافع التي ذكرت في القرآن.. تلك المنافع التي يمكن أن تكون لها صور تختلف باختلاف الظروف والأحوال، وعلى المسلمين أن يفيدوا منها ويطبقوها في حياتهم العملية ليكون

هناك تجاوب بين الدين والحياة، ولعل مما يلح علينا في هذه الأيام أن نتنبه إليه هو وحدة الكلمة للوقوف أمام الاستعمار وأذنابه، ولتخليص أرضنا المقدسة من رجس اليهود، وتمهيد الطريق لانطلاق الثورة العربية لتعيد ماضيها المشرق المجيد، الذي كانت به زعيمة العالم يوم كانت الدولة المسيطرة على مصير الناس اليوم تعيش في الأحراش وتتخبط في الظلمات.

ولا يكون ذلك إلا بالتزام الطريق الذي خطه الإسلام واتباع النور الذي جاء به القرآن، وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥- ١٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ (النساء: ١٧٤ - ١٧٥).

١١ مقالات

الشيخ عبد الله خياط

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

مقالة بعنوان : الحلال والحرام.

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).

ترجمة الشيخ عبد اللَّه خياط

ولد الشيخ عبد الله بن عبد الغني خياط في ٢٩ شوال عام ١٣٢٦هـ بمكة المكرمة، ونشأ في بيت علم ودين، وكان أبوه مثقفاً ثقافة دينية عالية، وله إلمام بالفقه الحنفي والتفسير والحديث.

تلقى الشيخ رحمه الله تعليمه الابتدائي في مدرسة الخياط بمكة المكرمة، ودرس المنهج الثانوي بالمدرسة الراقية على عهد الحكومة الهاشمية، ودرس على علماء المسجد الحرام، وحفظ القرآن الكريم في المدرسة الفخرية، ثم التحق بالمعهد العلمي السعودي بمكة وتخرج منه في عام ١٣٦٠هـ، وكان يساعد الشيخ عبد الظاهر أبو السمح في صلاة التراويح وينفرد بصلاة آخر الليل.

تم تعيينه إماماً وخطيباً للحرم المكي عام ١٣٧٣هـ واستمر في عمله حتى عام ١٤٠٤هـ حيث طلب من جلالة الملك إعفاءه لظروفه الصحيَّة.

● **وفاته:**

توفي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مكة المكرمة صباح يوم الأحد ٧ شعبان عام ١٤١٥هـ بعد عمر حافل بجلائل الأعمال، وشيعه خلق كثير من المحبين له والعارفين بفضله، يتقدمهم الأمراء والعلماء، رحمه الله رحمة واسعة.

الحلال والحرام

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).

في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

هذا الحديث أصل من أصول الدين وقاعدة من قواعده، ففيه إيضاح عن الحلال والحرام، وبيان المشتبه بهما، وتوجيه الأنظار للإعراض عن الأخذ به طلبا لبراءة الدين والعرض، وحيث انتفت الشبهة ارتفع الحرج، وقد أورد العلماء رحمهم الله خلافا في أصل تحريم الأشياء، وهل الأصل فيها الحرمة فلا حلال إلا ما دل الدليل على تحليله، أم أن الأصل في الأشياء الإباحة، فيجوز للمرء أن يأكل ويشرب ويتمتع بالطيبات ما لم يرد نص على التحريم، وهذا هو رأي الجمهور وهو الذي تؤيده الآيات والأحاديث.

● **المشتبهات**

والمشتبه ما اشتبه بالحلال والحرام، ولا توجد قرينة تصرفه إلى أحدهما، ولا يعرف أكثر الناس حرمته أو حله، فهو ملتبس عليهم، والورع بالنسبة لهم تركه والانصراف عنه، ففي ذلك البراءة للدين والعرض، أما البراءة للدين فلأن الأخذ بالشبهة قد يكون سبباً في مزلة الأقدام، فيقع المرء في الحرام نتيجة لعدم التورع - نقل من حديث الحسن بن علي قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك**

إلى ما لا يريبك» أي اترك ما يقع في نفسك منه شبهة من طعام أو شراب أو مال أو أي متاع، ولم تطب به نفسك، وخذ بالشيء الواضح المتيقن حله، الذي تطمئن إليه النفس ويسكن إليه القلب.

● **التمتع بالطيبات**

وهذا هو الورع المطلوب شرعا، لا الورع المزعوم المصطنع الذي يزهد في الحلال، ويمنع عن التمتع بالطيبات المباحة، ذكر المفسرون عند تفسير قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٧) أن رسول الله ﷺ قام يوما فوصف القيامة وأهوالها فبكى الناس ورقت قلوبهم فاجتمع نفر من صحابة رسول الله ﷺ واعتزموا الترهب، وأن يلبسوا الخشن من الثياب ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النِّساء والطيب، ويسيحوا في الأرض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنهاهم وقال: «إني لم أومر بذلك ثم قال: إن لنفسك عليك حقا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصلي وأفطر، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» ولم يكتف ﷺ بهذا البيان الشافي لمن جنح إلى الترهب، بل قام خطيبا وأعلنها مدوية في المجموع، قياما بواجب البلاغ وقال: «أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وحجوا، واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع».

وفي هذا البيان النبوي الكريم الضافي رد على كل متنطع أو متزهد فيما أحل الله أو محرم لما أباحه لعباده من متع الحياة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾(الأعراف: ٣٢).

● **مواقف الريبة**

وعلى عكس هذا الصنف الزاهد في الحلال من يتسامح في الأخذ بالشبهة، فينزلق في الحرام، ويستمرئه، ويندفع في تحقيق شهوات النفس المحرمة، وملذاتها وانطلاقاتها في كل ما تريد، غير مكترث بوعيد ولا ملتفت لسوط عذاب، وهو من شبهه الرسول الكريم ﷺ بالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه وهو لا شك واقع.

أما البراءة للعرض فلأن من يقع في مواطن الريب تنطلق الألسنة فيه بالغيبة والاستطالة عليه بما هو منه بريء، وينسبون إليه السوء، روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره، فرب سامع نكراً لا تستطيع أن تسمعه عذراً، وفي حديث عن النبي ﷺ أنه قال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم» ورأى بعض أصحابه زوجة من زوجاته ﷺ تمشي وراءه فبادرهم بقوله «إنها صفية بنت حيي» دفعا بهم عن سوء الظن فيهلكوا، ورسما لطريق السلامة للأمة، هذا وهو رسول الله المعصوم من الزلل، فكيف بمن كان في أعقاب الزمن، وقد فسدت الضمائر والذمم، وغلب على أكثر الناس سوء الظن، أليس جديراً به أن يرتفع عن مواطن التهم، وعن كل ما يحمل على إساءة الظن؟!

وفي الحديث أيضا تصوير للسياج المنيع الذي ضربه الله على حدوده وما حرمه على عباده، حيث شبهه رسول الهدى ﷺ بالحمى يحميه الملوك، ويحظرون وروده والرعي فيه على رعاياهم، فمن قاربه وقع فيه لا محالة، وفيه أيضا تصوير للقلب النفسي (وهو مركز الوجدان والشعور الذي تصدر منه الإيعازات للنفس، فتعمل بإشاراته وإيعازاته) بالقلب المادي وهو مركز الدورة الدموية، فكما أن الجسد يصلح ويصح بسلامة القلب، والجوارح تقوم بواجبها تبعاً لذلك، فكذلك مركز الوجدان والشعور من النفس إذا كان صحيحاً سليما صحت الإرادات والنيات، واندفعت الجوارح نحو الخير والصلاح، فلا تصدر إلا عن خير، ولا تحجم إلا عن شر ومفسدة.

وبعد: فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، ومن الورع إن أراد المرء القدوم على أمر أن يراجع فيه قلبه قبل القدوم عليه، فإن اطمأن إليه وسكن فعله، وإلا تركه، ففي الحلال البين الواضح غنية عن كل مشتبه فيه أو ملتبس على المرء حقيقته.

والله الموفق.

١٢ مقالات

الأستاذ مالك بن نبي

- **ترجمة الشيخ.**
- **المقالات:**

١- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (١).
العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

٢- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (٢).
العدد (٥٢) ربيع الثاني (١٣٨٩هـ) - يونيو (١٩٦٩م).

٣- المجتمع الإنساني والإنسانية العذراء.
العدد (٧٧) جمادى الأولى(١٣٩١هـ) - يونيو (١٩٧١م).

ترجمة الأستاذ

مالك بن نبي

مالك بن نبي من أعلام الفكر الإسلامي العربي في القرن العشرين.

● **مولده:**

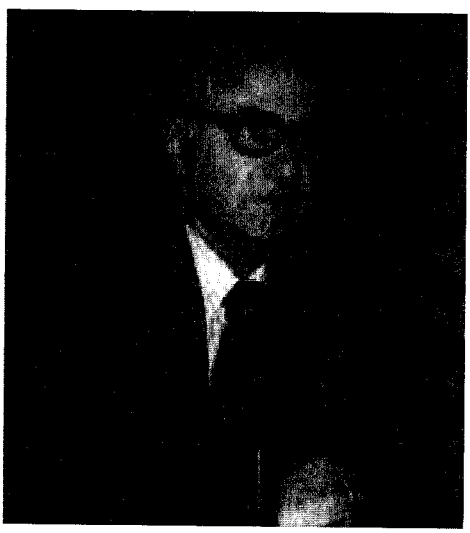

ولد في مدينة قسنطينة شرق الجزائر سنة ١٩٠٥م، وترعرع في أسرة إسلامية محافظة، فكان والده موظفاً بالقضاء الإسلامي حيث حول بحكم وظيفته إلى ولاية تبسَّة حيث بدأ مالك بن نبي يتابع دراسته القرآنية. والابتدائية بالمدرسة الفرنسية. وتخرج سنة ١٩٢٥م بعد سنوات الدراسة الأربع.

سافر إلى فرنسا حيث كانت له تجربة فاشلة فعاد مجددا إلى مسقط رأسه، وعمل عدة أعمال منها: عمله في محكمة أفلو، ثم استقال منه إثر نزاع مع كاتب فرنسي لدى المحكمة المدنية.

سافر رَحِمَهُ اللَّهُ مرة ثانية إلى فرنسا لطلب العلم، فالتحق بمدرسة «اللاسلكي» ليتخرج كمساعد مهندس، ممّا يجعل موضوعه تقنياً خالصاً، أي بطابعه العلمي الصرف.

انغمس رَحِمَهُ اللَّهُ في الدراسة وفي الحياة الفكرية، وأقام في فرنسا وتزوج من فرنسية ثم شرع يؤلف الكتب في قضايا العالم الإسلامي، فأصدر كتبه «الظاهرة القرآنية، كتاب النهضة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ويعتبر من أهم ما كتب بالعربية في القرن العشرين» وغيرها.

انتقل إلى القاهرة بعد إعلان الثورة المسلحة في الجزائر سنة ١٩٥٤م وهناك

حظي باحترام كبير، فكتب فكرة الإفريقية الآسيوية ١٩٥٦م. وتوالت أعماله الجادة. وبعد استقلال الجزائر عاد إلى أرض الوطن، فعين مديراً للتعليم العالي في جامعة الجزائر المركزية، حتى استقال سنة ١٩٦٧ متفرغاً للكتابة، بادئاً هذه المرحلة بكتابة مذكراته، بعنوان «مذكرات شاهد القرن».

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ يوم ٣١ أكتوبر ١٩٧٣م، مخلفا وراءه مجموعة من الأفكار القيمة والمؤلفات النادرة.

الحادث والتاريخ

العدد (١١) ذوالقعدة (١٣٨٥هـ) فبراير (١٩٦٦م)

لقد كان التاريخ إلى حد القرن العشرين شبه متحف، حيث كان يأتي المؤرخ ليتزود بالمعلومات عن شعب ما وذلك في زاوية معينة مخصصة لهذا الشعب وسياسته وفنه وأدبه وفلكلوره. ذلكم هو التصور التقليدي للتاريخ.

بيد أنه كان من الممكن بالنسبة للمؤرخ أن يلاحظ في بعض الأوقات السمة المشتركة وصلة الرحم بين بعض زوايا المتحف، فهو إذ ذاك أمام «وحدة» تاريخية معينة. ولقد يسمي ج. أ. توينبي هذه الوحدة بحقل الدراسة أو مجال البحث.

ومجال البحث هذا عبارة عن المساحة التي يتم فيها النسيج التاريخي بفعل حوادث تجد تفسيراتها وغاياتها وأسبابها ومسبباتها في هذا المجال أو الحقل.

وهكذا يوسع توينبي التصور التقليدي توسيعا ملحوظاً يعمقه وذلك بتطعيمه بمفهوم «مجال البحث»، الذي يطيح بالإطار الوطني، حيث كان ينحصر تصور المؤرخ اليوناني «توسيديد».

إلا أن الإطار الجديد الذي يقترحه المؤرخ الإنجليزي الكبير، كان قد تداعى هو الآخر خلال القرون تحت وطأة دفع حوادث تاريخية أقوى وأكثر تشابكا من أن نلتمس لها تفسيرا، فيما يسميه المؤرخ الكبير بمجال البحث.

فسقوط الدولة الرومانية مثلا ظاهرة ينسبها المؤرخون إلى موجة المهاجرين العارمة التي تدافعت على شعوب الشرق الأوروبي، فدفعت بهم إلى غزو الغرب اللاتيني. ويفسر، فعلاً، الحادث في مشكلة كهذه في نطاق «مجال البحث الأوروبي»، بيد أننا إذا ذهبنا بالتحري مذهبا أبعد بأن نطرح هذا السؤال: ترى كيف نشأت هذه الموجة التي يسميها المؤرخون الألمان «الفولكار فاندرونغ».

أي موجة الشعوب، هي الأخرى؟ ففي الحال يحطم سؤالنا هذا نطاق ما يسميه المؤرخ الإنجليزي بحقل الدراسة لأن الظاهرة التي كانت إلى الآن شيئاً أوروبيًّا تصبح فجأة «حدثا» آسيويًّا. وبالفعل فإن تداعي أسرة مالكة صينية قبل ذلك بقرون هو الذي دفع قبيلتين منغوليتين على المسارعة للنهب والسلب بحيث اصطدمتا، فكان لاصطدامهما أثره البعيد في دفع شعوب الشرق الأوروبي في التيار المسمى «موجة الشعوب» أو «الفولكار فاندرونغ». فهاهنا حدث معبر على تصور تاريخ عالمي على مستوى ذلك الزمن.

وهناك حدث آخر وقع بعد ألف عام من ذلك لا يقل كشفا عن التصور التاريخي العالمي في العصور الوسطى، ذلكم هو تدخل تيمورلنك الذي غير مجرى التاريخ، لأن حفيد جنكيز خان قد ظهر بالضبط في الوقت الذي كان يستعد الأمير العثماني بايزيد وملك القبيلة المغولية المسماة بالقبيلة الذهبية توغطاميش أحدهما في الغرب والثاني في الشرق، لغزو أوروبا تلك القارة التي كانت تنفض عنها غبار القرون الوسطى، وأخذت تدخل طريق النهضة.

وهكذا ينقذ عمل تيمورلنك جميع آمال هذه النهضة التي تشكل من غير منازع المقدمة التاريخية لعصر الذرة الذي نعيش فيه.

هل تيمورلنك جد عصرنا؟ فهذا تصور لم نعهده في التاريخ وبزيادة على ذلك فهو تصور لا شك أنه كان يغيب عن وعي الأمير التتاري نفسه.

وما قيمة معركة مارينيان على سبيل المثال إذا قيست بأحداث على هذا المستوى من التأثير العالمي؟ وعلى هذا يبدو لنا أن التاريخ نسيج معقد مما هو عارض وما هو مقدر.

وإنني أتذكر وأنا أكتب هذه الجملة انتقاداً وجه إلي في صحيفة باريسية غداة نشر كتاب «وجهة العالم الإسلامي» بأنني أحمل السببية في التاريخ أكثر مما تتحمل، ولو أجبت على هذا الانتقاد لقلت بكل بساطة إنني لست أحمل التاريخ، بل هو الذي يحملني. ولست أرى داعيا لإزاحة البصر عن تصور يفرض نفسه علينا، والواقع أن هذا يستدعي إقامة نظرية كاملة للحادث التاريخي.

إن الحادث عند انقذافه يكون محملا بكل ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تودعه فيه من غرض مصلحي وهوى وطموح وبغض ووهم. . .إلخ

إنه صاروخ منطلق في الزمان مدفوع بكل ما يحرك الإنسان، ولا ريب أن أثره ذو بال، ولو اقتصرنا على النظر إليه من هذا الجانب البشري، فقد يكون غزوا يغير الخريطة السياسية، أو ثورة تغير حياة أمة، أو ميلاد دولة، أو سقوط أخرى، أو ظهور فن صناعي، أو اختفاء فن آخر.

وكل هذا يحقق ما يكون قد سبق تصميمه وتدبيره عند منشئه، وقد لا يحقق ولكن دائماً في إطار «مجال بحث معين».

لقد كانت الحرب العالمية الأولى حادثاً تسببته إرادة التوسع الألمانية - إن وضعنا حادث سراجيفو البسيط جانباً.

تلكم كانت شحنتها التاريخية عند انطلاقه.

وقد كانت الحرب العالمية الثانية حادثاً مماثلا أطلقته إرادة القوة «الهتلرية».

ولكن الصاروخ يذهب إلى أبعد، إنه يخرج بعد انقذافه عن المسار الذي قدره العقل البشري له، فكأني به تتغير شحنته تدريجيا في الطريق، فلم يعد يندفع في الزمان أو التاريخ تبعا لسببية، ولكن بمقتضى غاية، وفي نهاية مستقره وغاية مطافه يصيب الحادث الوجدان البشري، ولا يحدد وقعه في مجال حقل دراسة معين، أي في حياة أمة أو مجتمع، ولكن في مجال شامل للإنسانية.

إن الحرب العالمية الأولى لا تطيح بآل «الهوهانزولارن، والهابسبورغ» فقط، ولكنها تنشئ فكرة جديدة تجسدت في شكل «عصبة الأمم».

إن وقع الحادث لم يهدم بعض البناءات السياسية فقط، ولكنه ولد مفهوما دوليًا للمسؤولية، إلا أن بعض التركيبات الذهنية الخاصة بالقرن التاسع عشر قد تخلفت كما نرى ذلك عندما تتوزع عصبة الأمم المنبثقة من وعي الإنسانية رغيف المستعمرات الأخرى.

إن الحرب العالمية الثانية لم تكتسح المطامح الهتلرية والنظرية العنصرية، فحسب، ولكنها أخرجت إلى الوجود هيئة الأمم المتحدة، وربما يقول حفدتنا إن

القنبلة الذرية لم تهدم هيروشيما ونجازاكي، فقط، ولكنها وترت وأرهفت الشعور بالمسؤولية الدولية، فعجلت بتكوين وعي عالمي.

ومن الغرور أن يقال إن هذا الأمر كان يشغل العالم الفيزيائي أوبنهايمر عندما كان في فيافي النيفادا يضع آخر لمسة على القنبلة التي ستهدم هيروشيما.

إن وقع حادث ما أطلقت عنانه الإرادة البشرية يخرج في النهاية عن رقابتها.

إنه صاروخ مقذوف في الزمان يتجاوز دائماً تقديراتنا وحساباتنا، الأمر الذي أشار إليه ﷻ في قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠)، والواقع أن المؤرخين الذين يصنفون التاريخ يعوزهم شيء من الحرية، أو بعبارة أخرى فالتاريخ الذي تهدف إليه إرادتنا يكون دوما دون التاريخ الذي تحققه، فبسبب المنطق الكارتزيائي الذي يقتصر حكمه على الحوادث على النظر إليها من زاوية الأسباب يغيب على نظرهم جزء أساسي من مدار الأحداث.

وبما أن الصاروخ لا يندفع- في هذا الجزء- بفعل قوى تحصر في مبدأ السببية ولكنه يخضع فيما يبدو لمبدأ فانٍ، فإن المؤرخين يهملون بهذا جانبا عظيماً من فلسفة التاريخ.

مع أن الحادث يحقق معناه الكامل ومؤداه الشامل عندما يبلغ مرساه وغايته في التاريخ، إلا أن اكتشاف هذا الجانب الثاني من معنى الحادث يتطلب من المؤرخ مزيدا من الحرية على ما يمنحه المنطق الكارتزيائي.

وإن إيمانوال مونيي أحد هؤلاء «المتحررين» استطاع بصره أن يرى - على حد تعبيره- شمولا في الظاهرة التاريخية بحيث يأتي كل حدث فيها ليقوم بدوره لخير المجموع ونجاته.

وهذا التصور لا يحيط رغم تعمقه إلا ببعض جوانب الموضوع، فعلينا أن نغوص في قلبه وأن نميز في الظاهرة التاريخية جانبين: الجانب العرضي البشري والجانب القدري كما يراه مونيي. ولا أظن أن هذا التصور التاريخي يمكن الاستغناء عنه في لحظة بلغت فيها مأساة الإنسانية أشد توترها، حيث نرى بروقاً مهددة فوق أعالي جبال الكاشمير ومستنقعات الفيتنام.

إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م)

قامت الهند والمسلمون على الأخص بهذه الثورة ضد الإنجليز الذين سيطروا على البلاد بواسطة شركة الهند الشرقية الإنجليزية وانتزعوا الحكم فيها من المسلمين الذين كانوا يحكمونها في ذلك الوقت، ولكن الثورة فشلت فأعلنت إنجلترا ضم الهند لمستعمرات التاج ونفوا آخر الحكام المسلمين إلى رانجون وبقي فيها حتى مات. «الوعي الإسلامي»

يجب أولا أن يحدد المصطلح: إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية.

ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى «طبقات» على صنفين:

أ- من حيث الزمن، طبقة القدماء، مثل جربر دوريياك Gerbert d,Aurillac والقديس طوماس الأوكويني وطبقة المحدثين مثل كاره دوفر Carrade Vaux، وجلد زهر Goldizer.

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم، فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين عليها المشوهين لسمعتها.

هكذا وعلى هذا الترتيب يجب أن تقوم كل دراسة شاملة لموضوع الاستشراق، إلا أننا من الوجهة الاجتماعية الخاصة التي تهمنا في هذا البحث وفي النطاق الضيق المحدد لهذه السطور، نختار عن قصد فصلا خاصا، اختيارا تبرره مبررات إلغائنا للفصول الأخرى. إنه لمن الواضح أن المستشرقين القدماء أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي، دون أيما

تأثير على أفكارنا، نحن معشر المسلمين، إن ما كتبوا كان قطعا المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا، بينما لا نرى لهم أي أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم.

فلنترك إذن قضيتهم جانبا لمن تهمه دراسة التاريخ العام، كما نترك أيضا قضية المنتقدين على الحضارة الإسلامية المحدثين حتى ولو كان لهم بعض الأثر في تحريك أقلامنا أو كان لهم بعض الصيت في زمنهم وفي بلادهم مثل الأب لامانس، إنهم لا يدخلون في موضوع بحثنا لأن إنتاجهم، على فرض أنه مس ثقافتنا إلى حد ما، إلا أنه لم يحرك ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائيا، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي، كما وقع ذلك في العهد الذي نشر فيه كتاب «في الشعر الجاهلي» على غرار ما تقتضيه مسلمة قدمها المستشرق مرجليوت قبل سنة، فأثار كتاب طه حسين تلك الزوبعة من السخط التي تخللتها الصواعق الانتقامية المنطلقة من قلم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله وأكرم مثواه.

ولكننا على عكس ذلك نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس الذي يمكننا تصوره بقدر ما ندرك أنه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل، حيث لم يكن هناك، في بادئ الأمر، مبرر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلا لهذا السبب.

وموضوعنا هنا هو أن نبين ما كان لهذه الثغرة في جهازنا للدفاع عن الكيان الثقافي من أثر في تطور أفكار المجتمع الإسلامي منذ قرن، وأثناء هذا القرن العشرين على وجه الخصوص.

لا شك أن المستشرقين المادحين مثل رينو Renaud الذي ترجم جغرافية أبي الفداء في أواسط القرن الماضي، ومثل دوزي DOZY الذي بعث قلمه قرون الأنوار العربية في أسبانيا ومثل سيديو Sedillo الذي جاهد جهاد الأبطال طول حياته من أجل أن يحقق للفلكي والمهندس العربي أبي الوفاء لقب المكتشف لما يسمى في علم الهيئة «القاعدة الثانية لحركة القمر» ومثل آسين بلاثيوس الذي

كشف عن المصادر العربية للكوميدية الإلهية، لا شك أن هؤلاء العلماء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية، وللتاريخ وكل ذلك من أجل مجتمعهم الغربي.

ولكننا نجد أن أفكارهم كان لها وقع أكبر في المجتمع الإسلامي، في طبقاته المثقفة.

إن الجيل المسلم الذي أنتسب أنا إليه يدين إلى هؤلاء المستشرقين الغربيين بالوسيلة التي كانت بين يديه لمواجهة مركب النقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمام ظاهرة الحضارة الغربية.

ولكننا إذا تصفحنا هذه القضية في ضوء خبرتنا الحديثة وفي ضوء تجاربنا القريبة لم يكن لهذه الوسيلة إلا الأثر المحمود في تطور أفكارنا وثقافتنا، بل كان لها أثر مرض هو الذي نريد طرحه كموضوع للبحث في هذه السطور.

فلكي نتصور هذا الأثر على صورته الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي، يجب أن نعيد هذا النوع من الاستشراق إلى مصادره التاريخية.

إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها، فكانت في مرحلة القرون الوسطى قبل وبعد طوماس الإكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلا تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر.

وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها الاستعمارية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها، وربما انطبقت هذه المجهودات العلمية، في نفس أصحابها على مجرد الاعتراف بفضل تلك الشعوب وبمساهمتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني، ولا شك أن المستشرق سيديو والعلامة جوستاف لوبون يتسمان في إنتاجهما بميزة العلم الخالص والاجتهاد المخلص للحقيقة العلمية.

ولكن تجب هنا الملاحظة بأن هذا اللقاء الجديد وقع في ملابسات تاريخية لم

يكن فيها العلم الإسلامي علما حيا ينقل من أفواه الأساتذة مباشرة ومن كتبهم المعاصرة، بل أصبح أشبه شيء بعلم الآثار يكتشفه الباحثون الأوروبيون بحكم الصدفة ويصدقون أو لا يصدقون في نقله، ثم ينسبونه لأصحابه من العلماء المسلمين، أو ينسبونه لأنفسهم أو لأحد الأوروبيين، فهكذا كانت اكتشافات كبرى تنسب لغير أصحابها، مثل دورة الدم الصغرى للإنجليزي فليام هرفي، بينما كان صاحبها الطبيب المسلم ابن النفيس الذي عاش قبله بأربعة قرون.

كما تجب الملاحظة أيضا أن العالم الإسلامي أصبح في هذه الملابسات يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية، ويعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركب نقص محسوس من ناحية، ومحاولة التغلب عليه من ناحية أخرى حتى بالوسائل التافهة.

لقد أحدثت هذه الصدمة، عند قبيل من المثقفين المسلمين شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية، حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، وكأنهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزيي بالزي الغربي، وينتحل في أذواقه وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع مظهرا لا شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية.

وبدأت تظهر في الأفق الثقافي الإسلامي الفكرة الجديدة التي حركت بعد ثورة سنة ١٨٥٨م بالهند، تأسيس جامعة عليكرة وحركت من جانب آخر ضد هذا المشروع، باعث النهضة الإسلامية السيد جمال الدين الأفغاني.

وهكذا أصبح الفكر الإسلامي، على أثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته وما تسبب عنها من مركب نقص، ينحاز إلى معسكرين، أحدهما يدعو لتقبل الفنون والعلوم والأشياء الغربية- حتى اللباس- والآخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس.

فالتيار الأول كان من الناحية العقلية والسياسية والاجتماعية له أثره في لونين،

اللون الذي يتمثل في تأسيس جامعة عليكرة، واللون الذي يتمثل في دعوة جمال الدين الأفغاني مع تباين الأهداف وتشابه الوسائل التي كانت تفرض على العالم الإسلامي في كلتا الحالتين تطورا يؤدي به إلى الشيئية والتكديس.

وأما التيار الثاني وهو موضوع حديثنا لاتصاله بإنتاج المستشرقين فإنه وجد مخدره الطبيعي في أدب الفخر والتمجيد الذي أنشأه علماء مستشرقون أمثال دوزي عن الحضارة الإسلامية.

ولا يمكننا، على أية حال أن نجعل بين التيارين فاصلا قاطعا، لأن الثاني منهما لا يكون بصورة منهجية مدرسة مستقلة عن الأول، بل نجده يخامر الفكر الإسلامي على العموم ويتخلل اتجاهه العام كفكر يبحث عن حقنة اعتزاز للتغلب على المهانة التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتا إشباع حاجته المرضية.

وهذا لا يجعلنا ننفي لهذا التيار ولنوع الأدب الذي نتج عنه كل أثر حسن في مصير المجتمع الإسلامي، لأنه كان له نصيب لا يزهد فيه في الحفاظ على شخصيته، والجيل الذي أنا منه يدين له بذلك النصيب على الأقل في المحافظة على شخصيته الإسلامية.

إنني على سبيل المثال قد اكتشفت وأنا بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر أمجاد الحضارة الإسلامية في ترجمة دوسلان لمقدمة ابن خلدون وفيما كتب دوزي وأحمد رضا بعد الحرب العالمية الأولى.

وإني لعلى إدراك تام لما أدين به لهذه المطالعات، وقد ذكرت ذلك في الجزء الأول من «مذكرات شاهد القرن» والآن وقد تجاوزت الستين من العمر أستطيع أكثر من ذي قبل تقدير هذا العلاج للفكر وللضمير، لا في النطاق الشخصي، بل في النطاق الشامل للمجتمع الإسلامي طيلة أربعين سنة بعد تجربتي، فأرى أن أقرر هنا مع الاختصار اللازم في هذا العرض أن مساوئ طريقة هذا العلاج تظهر لي بالتالي أكثر من حسناته وذلك لأسباب متعددة.

فالسبب الأول لأنه بديهي، ولأن ملاحظة الآثار النفسية لأسلوب التكوين،

أي البيداغوجية، تبرز تلقائيا بالنحو الذي نشير إليه بمثل بسيط.

إننا عندما نتحدث إلى فقير، لا يجد ما يسد به الرمق اليوم، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده، إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل إلى حينٍ فكره مؤقتا وضميره عن الشعور بها، إننا نسكن الآلام، لا نشفيها.

فكذا لا نشفي أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه، ولا شك أن أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للأجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة ألف ليلة وليلة، وتركوا بذلك (إثر كل سمر) نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا على صورة ساحرة لماض مترف.

ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد، فتنفتح أبصارها من جديد على مشهد الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه اليوم.

فالأدب الذي ينشد عصور الأنوار للحضارة الإسلامية يؤدي أولا هذين الدورين، إنه أتاح في مرحلة معينة الجواب اللائق للتحدي الثقافي الغربي الذي حفظ مع عوامل أخرى الشخصية الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى، نراه قد صب في هذه الشخصية الإعجاب بالشيء الغريب ولم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية.

ربما تبدو هذه الملاحظة عارضة في هذا العرض، إلا أنها في نظرنا جديرة، على بساطتها، بكل الاهتمام، وذلك ليس لأنها تهمنا من جهة نظر الاجتماع فحسب، بل لأنها تهمنا أكثر إذا اعتبرنا مدلولها بالنسبة إلى مجال الصراع الفكري الذي تورط فيه العالم الإسلامي اليوم، في مرحلته الراهنة.

وإذا أردنا، بما يمكن من الإيجاز، التعريف بما نسميه «الصراع الفكري» في العالم الإسلامي فإنه يجب على الأقل أن نضع نصب أعيننا هذه القاعدة العامة: فكلما طرح المسلم أو المسلمون مشكلة ما تتصل بمصير هذا المجتمع، يجب علينا القطع بأن الاستعمار قد طرحها أو سيطرحها على الفور، وأنها لا تخفى على المختصين بالدراسات الإسلامية، فهم تناولوها قطعا بالبحث أو سيتناولونها، وأنهم سيبذلون كل جهدهم، إذا ما وفق المسلمون إلى حل من

الحلول لهذه المشكلة، في تزييف هذا الحل إن كان صحيحا، أو في توسيع الرتق فيه إن كان مخطئا.. هذا أبسط تعريف للصراع الفكري.

وعليه، فإذا بدرت في العالم الإسلامي بادرة، حتى ولو كانت خافية على أبصارنا نحن، فسرعان ما تلتقطها مراصد أولئك الأخصائيين، فيضعونها تحت مجاهر التحليل، خصوصا إذا كانت تلك البادرة ذات صلة قريبة أو بعيدة بحركة الأفكار في العالم الإسلامي، وبنهضته، أفنجري عملية الفحص والتحليل إلى أقصى حدها، وتمر النتيجة بمائة عملية تقطير وتصفية، حتى يبقى في المبادرة عندما تبرز بعد هذه العمليات، أقل ما يمكن من الصواب وأكثر ما يمكن من الخطأ، يعني من الناحية العملية أقل ما يمكن من العوامل الميسرة للتطبيق وأكثر ما يمكن لجعله متعسرا أو مستحيلا.

ومن الواضح أن أول صورة تبرز فيها مبادرة هي صورة فكرية تشتمل على أفكار توجيهية من حيث مبررات العمل وكيفيته، فإذا تسممت المبررات بالريب والتشكيك أو فقدت الكيفية ما يجب من الوضوح، صعب العمل أو استحال.

إذن قضية الأفكار التوجيهية قضية رئيسية، وقد يكون التوجيه من حيث المبررات، إما إلى الأمام وإما إلى الخلف، إذا كان ملتفتا بصورة مرضية إلى الوراء.

* * *

المجتمع الإسلامي والإنسانية العذراء!

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) يونيو (١٩٧١م)

إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة وكيفية إيجاد الحلول الواقعية لها وإزالة التناقض بين النجاح المادي والتخلف المعنوي، أعني تخلف القيم أو إهمالها، لقد شعرت منذ فترة طويلة وعلى وجه التحديد منذ وصولي إلى أوروبا لتلقي العلم عام ١٩٣٠ أن المجتمعات المعاصرة تواجه مشكلات بالغة التعقيد ومتعددة الأنواع، وإذا كان من المفروض على رجل السياسة أن يتناول هذه المشكلات في تنوعها وتعددها ويجهد في إيجاد الحلول الملائمة لها، وإذا كان من حق رجل الفكر أيضاً أن يطرق هذا الطريق في بلاد متقدمة فأولى برجل السياسة والفكر في البلاد المتأخرة أن يوجه اهتماماً متزايداً لدراسة هذه المشكلات في مجتمعه وأن يجتهد في إيجاد الحلول الملائمة لها.

ومن الأخطاء والأخطار التي واجهت بعض الدول الإسلامية أنها تناولت مشكلاتها ووضعت لها حلولها وفقا للأنماط والنماذج التي واجهت بها الدول المتقدمة مشكلاتها، وإذا كان هذا الأمر له خطورته من الناحية السياسية، أعني من الناحية التطبيقية، فإن خطورته أشد من الناحية النظرية، لا سيما أن الناحية النظرية هي التي توحي بالحلول التي تطبق وتكون النتيجة أن تبقى حياتنا السياسية أسيرة مجهودات فكرية غير ملائمة لواقعنا، لأنها أخلت بمبدأ أساسي من مبادئ فلسفة التاريخ.

يمكننا أن نقرب هذه الحقيقة إلى ذهن القارئ إذا ما طبقناها على مستوى الأفراد، من المسلم به أن ما يمكن أن يصنعه أو يتحمله الرجل المكتمل من

مجهودات لا يمكن أن يصنعه أو يتحمله طفل صغير أو شيخ هرم، أيضا المجتمعات لها أعمارها، فهذا المجتمع في عنفوان شبابه، يستطيع أن يتحمل وينتج ما تنتجه المجتمعات المزدهرة، وهذا مجتمع ناشئ لا تستطيع قواه أن تواجه نفس الأعباء التي يتحملها المجتمع الأول، وهذا مجتمع ثالث هرم لا يستطيع لنفس الأسباب أن يقوم بالمهمات الكبرى مادام يستولي عليه هرمه.

وإذا أرجعنا هذه الاستعارات إلى مصطلح علم الاجتماع نقول بغير تردد إن المجتمع الإسلامي اليوم يتكون من عناصر بشرية مازالت تشكل ما نسميه بـ«الإنسانية العذراء»، أعني الإنسانية التي لم تدخل بعد في دورة حضارة، ولهذا السبب تحتفظ بكل رصيدها التاريخي الأمر الذي يملأها بالتفاؤل نحوها.

كما يتكون المجتمع الإسلامي أيضا من عناصر بشرية قامت بدور حضاري كبير وأنارت الإنسانية طيلة قرون ازدهارها وأتى على هذه المجتمعات ما يأتي على كل المجتمعات وكل الحضارات فاستولى عليها الهرم، وربما تجد نفسها في هذه الحالة عاجزة عن القيام بالمهمات التي يضطلع بها غيرها من الشعوب المتحضرة لأنها هرمت.

والمشكل الرئيسي إذن، بل أم المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي مشكلة الحضارة من طرفين، كيف تدخل الشعوب العذراء في دورة حضارية جديدة، وكيف تعود الشعوب الإسلامية التي خرجت من حلبة التاريخ لدورة حضارية جديدة.

إذا سلمنا بهذه الحقائق يبقى علينا أن نفكر في مصير العالم الإسلامي، وكيف يمكن لنا الدخول في دورة حضارية جديدة، هذه القضية باختصار هي التي وجهت لها كل مجهوداتي المتواضعة منذ ثلاثين سنة، ولسنا في حاجة إلى حديث طويل لكي نؤكد أن الفكر الإسلامي قد وضع حلولا لمشكلات العالم الإسلامي وما يعانيه إنسان العصر الحديث من قضايا ومواقف، إن القرآن الكريم قد وضع حلولا لهذه القضايا والمواقف، ويجب أن نعمل على ضوء هذه الحقيقة، فمن ناحية المشكلات الاجتماعية التي تواجه الإنسان تكفل القرآن بوضع تشريع المعاملات

الاجتماعية كالزواج والمعاشرة والطلاق... إلخ، كما وضع تشريعا للمسائل الدنيوية كالبيع والشراء والتجارة من ناحية أخرى، فإن القرآن الكريم يضع في أعماق عقيدتنا الاستعدادات التي تؤهلنا لتطبيق المعاملات المتعددة ويحفزنا على الإبداع والابتكار.

إن حصيلة دراستي في هذه الناحية تتحدد في مجموعة من النقاط أبرزها أن الحضارة لا تصنع بمنتوجات حضارية مستوردة، بل هي التي تصنع وحدها المنتوجات الحضارية، وهذا يؤدي بنا إلى تساؤل تقليدي عن شروط الحضارة في جوهرها العام، والجواب من دون استطراد طويل، إن شروط الحضارة تتكون من ثلاثة عناصر: الإنسان.. التراب.. والوقت.. وإذا دقننا النظر في هذه العناصر نستطيع أن نستخلص المعنى المطلوب.

وإذا كانت هذه فقط شروط الحضارة فلماذا لا توجد حضارة في مجتمع توافرت فيه هذه الشروط وهي غالباً ما تتوافر في مجتمعات العالم الثالث الذي يضم أكبر كتلة بشرية وأخصب مساحات من التراب ولديه من الوقت ما لغيره من الدول صاحبة الحضارة، ومع ذلك فلا توجد حضارة كالموجودة في الدول الأولى، وفي رأيي أن السبب في ذلك أن هذه العوامل تتطلب إلى جانبها عاملا آخر لا غنى عنه، هو العامل النفساني، هذا العامل الذي يصطلح البعض على تسميته بكلمة «العقيدة» والبعض الآخر يسميه «أيديولوجية» فنحن إذن أمام قضية واضحة وضوحاً كاملاً، إن الشروط اللازمة لتكوين الحضارة موجودة.. والذي ينقصنا هو العمل بموجب العقيدة الإسلامية، الإسلام وحده هو الذي يمكن أن يعيد المسلمين إلى عالم الحضارة الخلاقة والمبدعة، أو يدخلهم في حلبتها، ولكن شريطة أن يعتبروا أن هذه العقيدة رسالة هامة وضرورية ولا غنى عنها.. ولكن العقيدة لا يمكن أن تحرك الطاقات إلا بقدر تسخيرها- أي العقيدة- لحاجات أبعد وأسمى وأجل من الحاجات اليومية.

١٣

الشيخ السيد سابق

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- حجة الوداع.

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

٢- كيف نعيش.

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) - يناير (١٩٦٧م).

٣- التدين.

العدد (١١٦) شعبان (١٣٩٤هـ) - أغسطس (١٩٧٤م).

٤- الدولة الإسلامية.

العدد (١٨١) محرم (١٤٠٠هـ) - نوفمبر (١٩٧٩م).

ترجمة الشيخ

سيد سابق

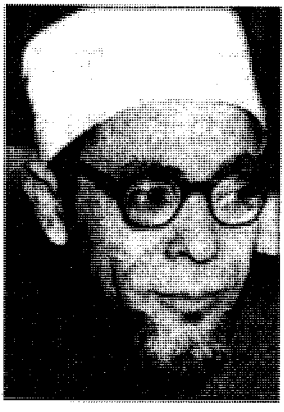

ولد الشيخ سيد سابق رحمه الله تعالى في يناير عام ١٩١٥م بقرية «إسطنها»، من مركز الباجور بمحافظة المنوفية، وأتم حفظ القرآن في صغره، ثم التحق بالأزهر في القاهرة، وظل يتلقى العلم ويترقى حتى حصل على العالمية في الشريعة عام ١٩٤٧م، ثم حصل بعدها على الإجازة من الأزهر وهي درجة علمية أعلى.

عمل رحمه الله بالتدريس بعد تخرجه في المعاهد الأزهرية، ثم بالوعظ في الأزهر، ثم انتقل إلى وزارة الأوقاف في نهاية الخمسينيات متقلداً إدارة المساجد، ثم الثقافة، فالدعوة، فالتدريب، ثم انتقل إلى مكة المكرمة للعمل أستاذاً بجامعة الملك عبد العزيز، ثم جامعة أم القرى، وأسند إليه فيها رئاسة قسم القضاء بكلية الشريعة، ثم رئاسة قسم الدراسات العليا، ثم عمل أستاذاً غير متفرغ.

● **مؤلفاته:**

أشهر كتبه وأحبها إليه الذي اقترن اسمه به هو «فقه السنة»، ومن مؤلفاته أيضاً: «مصادر القوة في الإسلام، الربا والبديل، تقاليد وعادات» وغيرها.

تخرج على يديه العديد من العلماء وطلبة العلم منهم الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور صالح بن حميد، وغيرهما، واستعان به الكثير من العلماء أمثال الشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمود شلتوت، ومحمد أبو زهرة.

● **وفاته**

مرض الشيخ في آخر حياته وأبى أن يمتنع عن التدريس في المساجد حتى وافته المنية مساء يوم الأحد ٢٣ من ذي القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٠م عن عمر ناهز ٨٥ سنة.

حجة الوداع

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

● الحج عبادة قديمة

الحج عبادة من العبادات القديمة التي عرفتها الأمم جميعاً منذ أقدم العصور، فقد كان لكل أمة مكان معين. أو أكثر تحج إليه وتؤمه مرة أو مرات، عرفه قدماء المصريين. والسريان، والصينيون، والهنود، واليونانيون، وعرفه الإسرائيليون. فقد كانوا يذهبون إلى أورشليم ليقضوا عيد الفصح بها حاجين متعبدين حسب ما أمروا به.

ولما جاءت المسيحية جعلت الحج في أول عهدها إلى قبور الأولياء والشهداء والقديسين ثم اتجهت به إلى أورشليم.

وكان العرب في العهد الجاهلي يحجون إلى البيت الحرام الذي بناه بمكة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

إلا أن حج العرب كان قد شابه الكثير من الوثنية - كما شابه الكثير من السيئات -، فقد كانوا يلبون ويقولون في تلبيتهم. «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك» كما كانوا يطوفون بالبيت عراة الأجسام رجالاً ونساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون. ويتعللون لذلك بأنه لا ينبغي لهم أن يطوفوا بالبيت في ملابس عصوا اللَّه فيها. فسجل الله عليهم ذلك فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥).

والمكاء هو الصفير.. والتصدية هي التصفيق. وأمرهم الله أن يستروا عوراتهم فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١).

وإذا كان الحج قد عرفته الأمم القديمة جميعها. فالظاهر أن ذلك مستمد من الشرائع الإلهية. ومن الأصل السماوي. باعتباره من دين الله الذي كلف به جميع

الأمم والشعوب. وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: ٦٧).

● الحج في الإسلام

فلما جاء الإسلام فرض الحج على المسلمين كما فرضته الشرائع السابقة، وجعله أحد أركان الإسلام الخمسة وفريضة من الفرائض التي علمت من الدين بالضرورة. فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧).

● متى فرض

والذي اختاره أكثر العلماء أن إيجابه كان سنة ست بعد الهجرة، لأنه نزل فيها قول الله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦) وهذا مبني على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض. ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي: ﴿وأقيموا﴾» رواه الطبراني بإسناد صحيح.

أما ابن القيم فقد رجح أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر.

● الترغيب فيه

وقد رغب الشارع في أداء هذه الفريضة فاعتبرها من أفضل الأعمال. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن أفضل الأعمال. قال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟. قال: «ثم جهاد في سبيل الله» قيل ثم ماذا؟ قال: «ثم حج مبرور».

والحج المبرور هو الحج الذي لا يخالطه إثم وقال الحسن: أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة».

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: «إني جبان وإني ضعيف، فقال: هلم إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج» ومن ثم كان للحجاج عند الله المنزلة الرفيعة والمقام المحمود، يقول رسول الله ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم».

● **شروط وجوبه**

وقد اشترط الفقهاء لوجوبه الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة، وإنما تتحقق الاستطاعة بصحة البدن وأمن الطريق وملك ما يكفيه ويكفي من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية من مطعم وملبس ومسكن، وألا يوجد ما يمنع الناس من الذهاب إلى الحج كالحبس والخوف من سلطان جائر يمنع الناس منه.

● **حكمته**

قد يبدو أن الحج عبادة رمزية غير معقولة المعنى، ولا ظاهرة الحكمة وأن ما يأتيه الإنسان من أعمال إنما هو امتثال للأمر وإظهار للعبودية، وقيام بحق الله، ولكنه عند المتأمل تتجلى أسراره وتظهر آثاره النفسية والخلقية والاجتماعية.

● **أسراره النفسية**

إن شعائر الحج تثير في النفس ذكريات عذاباً، إذ إنها ترتبط بالواقع التاريخي لأبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. والحج يلقي على هذه الذكريات من الظلال والألوان ما يجعلها شاخصة للعيون وماثلة في الأذهان. إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي رفع قواعد البيت وإسماعيل. وهو أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض. ومن ثم أمر الحنفاء أن يتوجهوا إليه كلما توجهوا إلى الله في صلاتهم، وأن يتلاقوا عنده كل عام يحدوهم الحب في الله والاجتماع عليه ليعلنوا تضامنهم واتفاقهم على إقامة شريعة الله الواحد.

ولا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأول وتحن إليه، وتقيم لذلك المعالم الهادية وتتخذ منه حافظاً يرقى بحاضرها وينهض بها إلى حياة أهدى وأزكى.

ولقد جاشت نفس رسول الله ﷺ وانفعلت بهذه الذكريات فبكي وهو عند الكعبة وقال: «يا عمر: هنا تسكب العبرات».

● **آثاره الخلقية**

والحج نوع من السلوك ولون من ألوان التدريب العملي على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل الأعلى، والاندماج في حياة روحية خالصة تمتلئ

فيها القلوب بحب الله، وتنطلق الحناجر هاتفة بذكره مثنية عليه. وبينما يرتدي المرء ملابس الإحرام وهي ملابس خالية من الزينة ومن كل ما يثير في النفس دواعي العجب والخيلاء يقول الله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ١٩٧) تشير هذه الآية إلى أن المرء حينما يدخل في أعمال الحج يجب عليه أن يعيش في جو من العفاف والأدب العالي فلا يتدلى إلى رفث ولا يميل إلى فسوق ولا ينطق بكلمة طائشة. أو ينظر نظرة فاحشة. كما تشير أيضاً إلى فعل الخير. وهو عمل إيجابي يجمل بكل مؤمن أن يهتم به ويحرص عليه.

● **آثاره الاجتماعية**

يمكن تلخيص الحكم الاجتماعية للحج فيما يلي:

١- إن الحج رحلة سياحية لتجميع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمة الإسلامية ليشهدوا المنافع التي تعود عليهم بالخير والبركات. سواء أكانت منافع روحية أم منافع اقتصادية أم منافع سياسية.

٢- إن فيه تعارف الشعوب الإسلامية وتوحيد غاياتهم التي توجههم الوجهة التي تأخذ بأيديهم إلى حياة القوة والعزة والعلم والعمل. بما يفيده بعضهم من بعض ومن تبادل الآراء المختلفة والثقافات المتنوعة.

٣- يمكن عقد معاهدات واتفاقات في موسم الحج ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الاقتصادي والثقافي مما تحتاج إليه هذه البلاد.

هذه هي بعض حكم الحج وأسراره.

فلننظر إلى أرض الله الواسعة ولنستحضر كل المؤتمرات والتجمعات، فهل نجد مجتمعاً أطهر وأبر من هذا المجتمع مع هذا العدد الوفير. والكثرة الكاثرة؟. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٧ -٢٨).

● **كيفيته**

ومن الثابت أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حج حجة واحدة، وكان

ذلك في السنة العاشرة من الهجرة وسميت حجته تلك بحجة الوداع، وقد بين فيها الرسول صلوات الله عليه مناسك الحج وقال: «خذوا عني مناسككم»، فمن اقتدى برسول الله ﷺ واهتدى بهديه في حجه كان حجه صحيحاً، وهذا بيان حجه كما رواه الإمام مسلم:

قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وإسحق بن إبراهيم جميعاً، عن حاتم، قال أبو بكر حدثنا حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فسأل عن القوم حتى انتهى إلي. فقلت أنا محمد بن علي بن حسين فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زري الأعلى، ثم نزع زري الأسفل، ثم وضع كفه بين ثديي، وأنا يومئذ غلام شاب.

فقال مرحباً بك يا ابن أخي، سل عما شئت؟ فسألته- وهو أعمى وحضر وقت الصلاة، فقام في نساجة[١] ملتحفاً بها، كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب[٢] فصلى بنا، فقلت أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ فقال بيده فعقد تسعاً، فقال إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين[٣] لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحيلفة، فولدت أسماء بنت عميس: محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟

قال: اغتسلي واستثفري[٤] بثوب وأحرمي.

فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب «القصواء»[٥] حتى إذا استوت به

---

(١) نساجة ثوب يشبه الطيلسان.

(٢) المشجب اسم لأعواد- يوضع عليها الثياب- ومتاع البدن أشبه بما يسمى عندنا بالشماعة.

(٣) تسع سنين. أي بالمدينة قبل أن يحج.

(٤) الاستثفار: أن تشد في وسطها شيئاً وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها لمنع سيلان الدم - وفي هذا دليل على صحة إحرام الحائض والنفساء بعد استثفارهما. وعلى أن غسل الإحرام سنة لهما. ولغيرهما من باب أولى.

(٥) القصواء: اسم لناقة النبي ﷺ.

ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به، فأهل[1] بالتوحيد (لبيك اللهم لبيك * لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك * لا شريك لك) وأهل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته. قال جابر رضي الله عنه: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت. فكان يقرأ في الركعتين ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت، واستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[2]. ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي[3] سعى، حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة».

فقام سراقة بن مالك بن جعشم، فقال يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك

---

(١) أهلَّ: من الإهلال وهو رفع الصوت بالتلبية.

(٢) هزم الأحزاب وحده. أي هزمهم بغير قتال من الآدميين. ولا بسبب من جهتهم والمراد بالأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ يوم الخندق.

(٣) بطن الوادي: هو الذي يقال له بين الميلين - لمن لم يسق الهدي - كما فعل الصحابة بأمر رسول الله ﷺ.

رسول الله ﷺ أصابعه، واحدة في الأخرى، وقال: «دخلت العمرة في الحج مرتين، لا، بل لأبد أبد».

وقدم علي من اليمن ببدن النبي ﷺ، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممن حلَّ.. ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمرني بهذا. قال فكان علي يقول بالعراق. فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً[١] على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أنّي أنكرت ذلك عليها، فقال صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟. قال:

قلت: «اللَّهمَّ إني أهلّ بما أهل به رسولك ﷺ قال: «فإن معي الهدي فلا تحلَّ».

قال فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن. والذي أتى به النبي ﷺ مائة. قال فحلَّ الناس كلَّهم وقصروا[٢]، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي، فلما كان يوم التروية[٣] توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب، والعشاء والفجر[٤] ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبّة من شعر تضرب له بنمرة. فسار رسول الله ﷺ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام. كما كانت قريش تصنع في الجاهلية[٥].

---

(١) محرشاً التحريش الإغراء - والمراد به أنه كان يعتب عليها.

(٢) يؤخذ من هذا، جواز فسخ الحج إلى العمرة لمن لم يسق الهدي- كما فعل الصحابة بأمر رسول الله ﷺ.

(٣) يوم التروية، هو اليوم الثامن من ذي الحجة وسمي بذلك لأنه مشتق من الرواية لأن الإمام يروي للناس مناسكهم. وقيل من الارتواء لأنهم يرتوون الماء في ذلك اليوم ويجمعونه بمنى.

(٤) يؤخذ من هذا أن من السنة صلاة خمسة أوقات بمنى. والمبيت بها هذه الليلة وهي ليلة التاسع من ذي الحجة. ومن السنة كذلك إلا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل عرفات إلا بعد زوال الشمس، وهذا كله بحسب الاستطاعة.

(٥) كانت قريش في الجاهلية تقف بالمشعر الحرام، وهو جبل في المزدلفة يقال له قزح وقيل إن المشعر الحرام كل المزدلفة. وكان سائر العرب يتجاوزون المزدلفة ويقفون بعرفات فظنت قريش أن النبي ﷺ يقف في المشعر الحرام على عادتهم ولا يتجاوزه فتجاوزه ﷺ إلى عرفات لأن الله تعالى أمر بذلك في قوله ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي سائر العرب غير قريش وإنما كانت قريش تقف بالمزدلفة لأنها من الحرم، وكانوا يقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه.

فأجاز[١] رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرحلت[٢] له فأتى بطن الوادي[٣].

فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا، دم ابن ربيعة بن الحارث. كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع[٤] وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء. فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. . . إلى قوله: ولهن عليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لا تضلوا بعده، إن اعتصمتم به، كتاب الله وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا. نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة[٥] يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس، اللهم اشهد، ثلاث مرات، ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصلّ بينهما شيئاً[٦] ثم ركب رسول الله ﷺ. حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة[٧] بين يديه. واستقبل القبلة.

فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ، وقد شنق[٨] للقصواء الزمام حتى إن

---

(١) فأجاز، أي جاوز المزدلفة ولم يقف بها، بل توجه إلى عرفات.

(٢) فرحلت، أي جعل عليها الرحل.

(٣) بطن الوادي، هو وادي عرفة.

(٤) ربا الجاهلية موضوع. أي باطل.

(٥) فقال بإصبعه السبابة أي يقلبها ويرددها إلى الناس مشيراً إليهم.

(٦) فيه دليل على مشروعية الجمع بين الظهر والعصر هناك في ذلك اليوم بسبب النسك أو بسبب السفر، على خلاف في ذلك.

(٧) حبل المشاة أي مجتمعهم.

(٨) شنق أي ضم وضيق.

رأسها ليصيب مورك رحله[١] ويقول بيده اليمنى[٢] أيها الناس: السكينة السكينة كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً[٣] ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر. وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة. ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً. فدفع قبل أن تطلع الشمس.

وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيما[٤] فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن[٥] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل.

فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر. فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى[٦] التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخزف، رمى من بطن الوادي[٧]. ثم انصرف إلى المنحر. فنحر ثلاثاً وستين بيده[٨] ثم أعطى عليا. فنحر ما غبر[٩] وأشركه في هديه، ثم أمر

(١) المورك الموضع الذي يثني الراكب رجله عليه قدام واسطة الرحل إذا مل من الركوب.

(٢) ويقول بيده اليمنى أي يشير بها قائلاً الزموا السكينة. وهي الرفق والطمأنينة.

(٣) لم يسبح بينهما شيئاً أي لم يصل بينهما شيئاً من الصلوات وهذا الجمع متفق عليه من العلماء.

(٤) وسيماً جميلاً.

(٥) ظعن جمع ظعينة وهي البعير الذي عليه امرأة، ثم سميت به المرأة مجازاً لملابستها البعير.

(٦) فيه دليل على أن سلوك هذا الطريق من عرفات سنة. وهو غير الطريق الذي ذهب فيه إلى عرفات. وكان قد ذهب إلى عرفات من طريق «ضب» ليخالف الطريق كما كان يفعل في الخروج إلى العيدين في مخالفة طريق الذهاب والإياب.

(٧) بطن الوادي أي بحيث تكون مني وعرفات والمزدلفة عن يمينه ومكة عن يساره.

(٨) فنحر ثلاثاً وستين بيده، فيه دليل على استحباب تكثير الهدي، وكان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تلك السنة مائة بدنة.

(٩) ما غبر: ما بقي.

من كل بدنة ببضعة[١] فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها. ثم ركب رسول الله ﷺ. فأفاض إلى البيت[٢] فصلى بمكة الظهر فأتى بني عبدالمطلب يسقون على زمزم فقال انزعوا[٣] بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم[٤] لنزعت معكم فناولوه دلوا فشرب منه». قال العلماء واعلم أن هذا الحديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد. قال القاضي عياض قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً أخرج فيه من الفقه مئة ونيفاً وخمسين نوعاً. قال ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه. قالوا وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ولغيرهما بالأولى.

وعلى استثفار الحائض والنفساء، وعلى صحة إحرامهما، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبي ﷺ. فإن زاد فلا باس، فقد زاد عمر: لبيك ذا النعماء والفضل الحسن، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك.

وإنه لينبغي للحاج القدوم أولاً على مكة ليطوف طواف القدوم وأن يتسلم الركن- الحجر الأسود- قبل طوافه ويرمل في الثلاثة الأشواط الأول.

والرمل أسرع المشي مع تقارب الخطا وهو الخبب وهذا الرمل يفعله في ما عدا الركنين اليمانيين.

ثم يمشي أربعاً على عادته وأنه يأتي بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلي ركعتين. ويقرأ فيها- في الأولى- بعد الفاتحة «سورة الكافرون» وفي الثانية بعد الفاتحة

(١) ببضعة أي بقطعة من اللحم.

(٢) أفاض إلى البيت أي طاف بالبيت طواف الإفاضة.

(٣) انزعوا أي اسقوا بالإدلاء وانزعوا بالرشاء أي الحبال.

(٤) أن يغلبكم الناس على سقايتكم معناه لولا خوفي أن يعتقد الناس ذلك من مناسك الحج ويزدحموا عليه بحيث يغلبونكم ويدفعونكم عن الاستسقاء لاستقيت معكم لكثرة فضيلة هذا الاستقاء.

«سورة الإخلاص». ورد الحديث على أنه يشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد كما فعله عند الدخول. واتفق العلماء على أن الاستلام سنة. وأنه يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف عليه، مستقبل القبلة ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ويدعو ثلاث مرات ويرمل في بطن الوادي وهو الذي يقال له «بين الميلين» وهو- أي الرمل- مشروع في كل مرة من السبعة الأشواط. لا في الثلاثة الأول كما في طواف القدوم بالبيت وأنه يرقى أيضاً على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو، وبتمام ذلك تتم عمرته.

فإن حلق أو قصر صار حلالاً. وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة.

وأما من كان قارنا، فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ثم في يوم التروية- وهو الثامن من ذي الحجة- يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى، والسنة أن يصلي بمنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة - وهي ليلة التاسع من ذي الحجة - ومن السنة كذلك أن لا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل «عرفات» إلا بعد زوال الشمس. وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بعرفات فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات. ولم يدخل ﷺ الموقف إلا بعد الصلاتين. ومن السنة أن لا يصلي بينهما شيئاً، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة وهذه إحدى الخطب المسنونة في الحج.

والثانية: أي من الخطب المسنونة يوم السابع من ذي الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر.

والثالثة: أي من الخطب المسنونة يوم النحر.

والرابعة يوم النفر الأول. وفي الحديث سنن وآداب منها:

أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين، وأن يقف في عرفات راكباً أفضل. وأن يقف عند الصخرات، عند موقف النبي ﷺ. أو قريباً منه، وأن يقف مستقبل القبلة. وأن يبقى في الموقف حتى تغرب الشمس. ويكون في وقوفه

داعياً الله ﷻ. رافعاً يديه إلى صدره. وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات، وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء، وإنما اختلفوا في سببه، فقيل إنه نسك، وقيل لأنهم مسافرون- أي السفر هو العلة لمشروعية الجمع- ومن السنن المبيت بمزدلفة وهو مجمع على أنه نسك. وإنما اختلفوا في كونه- أي المبيت- واجباً أو سنة.

ومن السنة أن يصلي الصبح في المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك. فيأتي المشعر الحرام فيقف به ويدعو.

والوقوف عنده من المناسك. ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً، فيأتي بطن محسر، فيسرع السير فيه، لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل، فلا ينبغي الأناة فيه ولا البقاء فيهن فإذا أتى الجمرة - وهي جمرة العقبة - نزل ببطن الوادي ورماها بسبع حصيات كل حصاة كحبة الباقلاء- أي الفول- يكَبّر مع كل حصاة. ثم ينصرف بعد ذلك على المنحر فينحر إن كان عنده هدي ثم يحلق بعد نحره.

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة وهو الذي يقال له طواف الزيارة.

ومن بعده يحل له كل ما حرم عليه بالإحرام. حتى وطء النساء، وأما إذا رمى جمرة العقبة، ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شيء ما عدا النساء.

* * *

هذا هو هدي رسول الله ﷺ في حجه، والآتي به مقتد به ﷺ وممتثل لقوله «خذوا عني مناسككم» وحجه صحيح.

كيف نعيش؟

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) يناير (١٩٦٧م)

● اختلاف مفهوم الكمال والسعادة

كل فرد من أفراد النوع الإنساني ينشد الكمال ويحرص على السعادة، ويحاول الوصول إليهما بكل سبيل، ولكن فهمهم لهما يختلف اختلافا بينا.

فمنم من يرى أن السعادة المنشودة محصورة في التمتع باللذائذ المادية والنعم الظاهرة.

ومنهم من يرى حقارة هذه اللذائذ، وأن السعادة هي الخروج عن دائرة الفطرة البشرية بتحريم الطيبات والانقطاع عن الدنيا.

وكل فريق من الفريقين مخطئ في فهمه، ومجانب للحق والصواب، إذ إنه فهم لا ينسجم مع الحياة، ولا يتسق مع ما خلق له الإنسان من تحقيق الخلافة في الأرض. فالفريق الأول الذي يؤثر الدنيا، ويحرص على لذائذها يفسد خلقه، وتضعف إرادته، ويضطرب أمره ولهذا مقت الله هذا السلوك، ووصفه بالكفر والضلال، وشبهه بسلوك الأنعام التي لا تعقل معنى الوجود، ولا تفهم قيمة الحياة .

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ (محمد: ١٢).

وأما الفريق الآخر فإنه فريق انعزالي يقف من الحياة والوجود موقفا سلبيا.

وسلوك هذا الفريق من شأنه أن ينقل قياد الحياة إلى الأشرار، فيوجهوها حسب أهوائهم وتبع رغباتهم، وفي ذلك فساد الدين، وضياع الدنيا، والله يوجه الخطاب لهذا الصنف من الناس فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾ (المائدة: ٨٧).

● **فكرة الإسلام عن مفهوم السعادة والكمال**

وإذا كان كل من الفريقين مخطئا في فهمه للسعادة، وفي نظرته إلى الكمال في نظر الإسلام، فما رأيه إذن؟ هل وضح لنا صورتهما، ورسم معالمهما؟ نعم، فهو يرى أن الإنسان خليفة عن الله في الأرض، وأن عليه القيام بواجبات هذه الخلافة، وأنه جسد وروح، وأن الجسد ليس عدوا للروح ولا سجنا لها، وإنما هو أداة لها من أجل القيام بهذه الواجبات والتبعات، وأن الدنيا دار عمل، وميدان كفاح، وليست دار تعذيب أو شقاء، وأن على الإنسان أن يظهر مواهبه بالجد والسعي، والكدح والكفاح في كل ميدان من ميادين النشاط الإنساني.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢).

وإحسان العمل يتلخص في أن يحسن الإنسان صلته بالله عن طريق العقيدة والعبادة، ويحسن صلته بالناس عن طريق الخلق والبر، ليحقق بذلك كماله الروحي والإنساني.

يضاف إلى ذلك استخراج كنوز الأرض، والانتفاع بقوى الكون، وإصلاح النظام المعيشي لتحقيق الكمال المادي.

● **اهتمام الإسلام بضرورات الإنسان وحاجاته المادية**

لهذا نجد الإسلام عني بكسب المال وتحصيله باعتباره عصب الحياة وقوامها، وجعل ذلك فريضة من فرائضه: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم» وأوجب المحافظة عليه سواء كان عقاراً أم ذهبا أم فضة ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ (النساء: ٥)، واهتم بتوفير الحاجات الاستهلاكية من الغذاء والكساء والمسكن وما لا غنى للإنسان عنه ليكون على مستوى كريم من الحياة: «من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادما، أو ليس له دابة فليتخذ له دابة» (رواه أحمد).

وسئل رسول الله ﷺ عن حد الكفاية للفرد فقال «ما سد جوعتك، وداري عورتك، وإن كان لك بيت يظلك فذاك، وإن كان لك دابة فبخ بخ» (رواه

الطبراني).

وأمر بالأكل من الطيبات ونهى عن تحريمها واعتبر ذلك اعتداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (المائدة: ٨٧-٨٨).

وامتن على الناس بالملابس ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأعراف: ٢٦).

والمراد أنه خلق لنا الملابس نداري بها عوراتنا ونتزين بها، كما امتن عليهم بالسكن فقال ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ (النحل: ٨٠).

وأمر بالزواج واعتبره آية من آياته ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١).

وفي الحديث «تزوجوا الودود الولود».

والمرأة الحسناء لا يزهد فيها مهما غلا مهرها، لما في الزواج بها من تكميل للدين على أن تكون صالحة كي تسر العين بجمالها والقلب بكمالها. ويرغب في إقامة الدور والمساكن التي تحوي جميع المرافق والأثاث مادام لم يقصد المباهاة والمفاخرة، وبذلك تتسع دائرة العمران، وقد فعل ذلك الزبير بن العوام وابن المبارك ومحمد بن الحسن وكثير من الصحابة والتابعين والعلماء الراشدين.

● الجمال والزينة

ولا بأس بتزيينها وتجميلها فإن طلب الزينة والجمال مقصود حسن في ذاته، والنفس التي لم تفسد فطرتها تعشق الجمال وتتلذذ به.

والله سبحانه يقول ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ (النحل: ٥-٦). وأي فرق بين التلذذ بالجمال في الأنعام والجمال في الدور؟ ويقول سبحانه ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (النحل: ٨).

أي أن الله خلق هذه الدواب للركوب وللزينة، وإن لم يحتج إلى ركوبها، وأما الآثار التي وردت في كراهية رفع البنيان وزخرفته فليست على إطلاقها، وإنما المقصود بها كراهية ذلك إذا قصد بها المفاخرة والمباهاة، والتطاول على الناس، لا مجرد التلذذ بالجمال والزينة، فإنهما مطلوبان في كل حال ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ (الأعراف: ٣١ -٣٢).

إن الحرص على الجمال ابتغاء الحصول عليه مما يحبب فيه الإسلام، ويدعو إليه حتى يشعر الإنسان براحة نفسية من جانب، ويحتفظ بكرامته فلا يستخف به ولا ينزل عن مكانته التي هو أهل لها من جانب آخر.

وكثيرا ما يلفت القرآن نظر الإنسان إلى الجمال في الكون والطبيعة والأشياء المحيطة به.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ (الحجر: ١٦)، ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ (النمل: ٦٠).

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾ (ق: ٦-٧).

والله سبحانه يحب الجمال في كل شيء جمال الأقوال وجمال الأفعال وجمال الصفات، وجمال الأسماء حتى جمال الثياب فعن مالك بن عوف قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة قال: «هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته». وفي حديث آخر «إذا آتاك الله مالا فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» وصح عن رسول الله ﷺ قوله «أحسنوا لباسكم وأصلحوا رواحلكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس».

والحديث يشير إلى أن المسلم شخصية فذة ممتازة، فكما طلب منه أن يطهر

باطنه بالإيمان بالله والارتباط به، طلب منه أن يكون في مظهره كاملا أنيقا، بحيث يسترعي انتباه الناس في ملبسه ومركبه وأثاث بيته وحتى يكون فيهم كأنه شامة بينهم، أي بارزا ظاهرا.

فعن أبي يعفور قال: «سمعت ابن عمر يقول - وقد سأله رجل عما يلبس من الثياب - قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء وما لا يعيبك فيه الحكماء» (رواه الطبراني).

وكان الحسن البصري يلبس ثوبا بأربعمائة، وفرقد يلبس المُسُح، فلقي الحسن، فقال ما ألين ثوبك؟ قال «يا فرقد ليس لين ثيابي يبعدني عن الله ولا خشونة ثوبك تقربك من الله» وقد أنكر أحد المتزمتين على أبي الحسن الشاذلي جمال هيئته وكان هذا الرجل ذا رثاثة فقال له أبو الحسن: يا هذا هيئتي هذه تقول: الحمد لله، وهيئتكم تقول: أعطوني من دنياكم.

ولا يدخل هذا الاستمتاع في الدنيا التي ذمها الإسلام في قوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» (رواه البيهقي في الشعب عن الحسن مرسلا).

فإن المراد بالدنيا التي هي رأس كل خطيئة هي حب الشرف والرئاسة، وحب المال رغبة في التفاخر والتكاثر والترؤس والعلو على الناس دون كفاية أو إرادة نصر الحق.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص: ٨٣) وعن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» (رواه الترمذي)، لأنه لم يرد بالمال والشرف إلا العلو والفساد في الأرض.

أما إذا أراد بالمال والشرف نصرة الحق أو الوجاهة ليأخذ مكانته التي تليق به، أو كانت له كفاية يريد أن يجعلها في خدمة أمته فإن حب الشرف والمال وطلبهما حسن، فقد قال يوسف عليه السلام للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥).

وطلب أحد المسلمين من الرسول ﷺ أن يكون إمام قومه فقال الرسول ﷺ «أنت إمام قومك».

ومع هذا ينبغي الحذر والتوقي عما يلهي النفس، ويصرفها عن غايتها المثلى من الطهارة والنظافة وينحرف بها عن معاني الخير الى رذائل الأخلاق ومساوئ الصفات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ (المنافقون: ٩).

● **حقيقة الزهد**

وطلب الدنيا على هذا النحو لا يتنافى مع الزهد، لأن الزهد ليس في تحريم زينة الله التي أخرج لعباده ولا في ترك الطيبات من الرزق، وإنما الزهد الذي أراده الإسلام هو الزهد في الحرام، والزهد في الشبهات، والزهد في التوسع في اللذائذ والشهوات التي تصرف الإنسان عن واجباته الشخصية والاجتماعية، وتنسي المرء واجبه نحو ربه ونحو نفسه ونحو أسرته ونحو بني جنسه.

وقد وضع الإسلام تحديدا للزهد فيما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك وأن تكون في المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك».

والزهد بهذا المعنى يريح القلب والبدن ويكسب محبة الله ويجلب مودة الناس، عن سهل بن سعد قال «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال له: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» (رواه ابن ماجه).

التدين

العدد (١١٦) شعبان (١٣٩٤هـ) - أغسطس (١٩٧٤م)

من الظواهر التي تشاهد في المجتمعات البشرية، وعلى اختلاف درجاتها في سلم التطور، ظاهرة التدين، فالمجتمع البدوي الذي لم يعرف شيئا عن الحضارة، له معتقداته وعباداته، والمجتمع الحضري الذي بلغ شأوا في العلم والمدنية، له كذلك إيمانه بالغيب وطقوسه الخاصة.

ولظهور هذه الظاهرة وبروزها رأى العلماء أنه كلما وجد مجتمع وجد معه دين، أيا كان هذا الدين، وأيا كان مصدره.

ولا يعترض على هذا بأن المجتمع الشيوعي قد أسقط الدين من حسابه وأقام حياته على أساس ألَّا إله، والحياة مادة، فإن هذا لا يعبر في الواقع عن نفسية المجتمع، ولا يترجم مشاعره ترجمة صحيحة، إذ إن فكرة هذا الانحراف الديني نبتت في ذهن بعض الأفراد ونمتها الظروف الاجتماعية الخاصة، ظروف الفقر والحاجة والحرمان، وساعد على تقوية جذورها، وبسط سلطانها أنه لم يكن ثمة دين ينير العقل أو يطمئن القلب، فضلا عن أن المتظاهرين بالتدين كانوا مظهرا للتخلف والرذيلة، بل كانوا مضرب المثل في التفاهة والحقارة، ولم يقضوا يوما واحدا في جانب المحرومين، وإنما كانوا دائما عونا للقياصرة، وسندا للمستبدين.

فهذه الفكرة الإلحادية، ليست وليدة علم، ولا ممثلة للفطرة الإنسانية وإنما هي فكرة شاذة، أوحت بها الظروف القاسية، وخلقتها البيئة المجهدة، وروجت لها الأحقاد التي ملأت الصدور أمدا طويلا، ثم حمل الشعب عليها حملا، وأكره عليها إكراها، دون أن يكون له رأي أو اختيار.

ومنذ قيامها وهي في حماية الحديد والنار.

وأعتقد أن الفطرة الإنسانية أقوى من جميع القوى التي تحاول أن تطمسها، وتغير معالمها، وأن لها الغلبة والنصر مهما طال الزمن.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧)

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (إبراهيم: ٢٦).

وإذا كان للدين هذه الجذور العميقة في النفس الإنسانية، فإنه لا يتصور أن يأتي يوم يعيش الناس فيه من غير دين، بل ستبقى النفس تنزع إليه، لأنها تنزع إلى شيء هو من طبيعتها، وتشعر بفراغ كبير إذا تخلت عنه.

وليست المشكلة هي مشكلة الدين، من حيث هو، فالتدين غريزة كما قلنا، وكما يقرر الإسلام: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠)، وفي الحديث الصحيح: «كل مولود يولد على الفطرة»، وإنما المشكلة الحقيقية، هي عدم وجود الدين التعليمي الذي يفتح آفاق الفكر، ويطلق الطاقات الكامنة في النفس ويدفع إلى السمو الروحي والكمال المادي.

لقد كان الإنسان فيما مضى - ولايزال ذلك في الطبقات الجاهلة - يستسلم لما يلقى إليه من عقائد، ويذعن لما يقال له من دين، ولا يكلف نفسه مشقة البحث، ولا مؤونة الدرس، ولو كان الذي يلقى إليه من الخرافات التي لا يصدقها العقل ولا يعترف بها العلم.

ولكن هذا الأمر قد تغير الآن في نظر الإنسان الذي يعيش في عصر العلم، إنه يريد من الدين أن يقنع عقله، ويرضي طموحه، ويساير تقدمه ويجاري تطوره، ولا يحرمه من ثمرة جهده، ولا لذة بدنه.

وربما كان عدم وجود دين ينطوي على هذه المبادئ، هو أحد الأسباب التي صرفت بعض العلماء الذين أسهموا في بناء الحضارة عن الدين، وجعلتهم يتجهون إلى العقل وحده، يستفتونه ويحتكمون إليه، ولا يعولون في قضية إلا

عليه.

ولم تتح الفرصة لهؤلاء أن يطلعوا على مبادئ الإسلام الكريمة، وتعاليمه السامية، وإن كان أتيح لبعضهم أن يعرف الإسلام ممثلا في أعمال من ينتسبون إليه، وهي في واقعها تشويه لجمال الإسلام، وعرض سيئ لمبادئه الحقة، فكان حكمهم عليه كحكمهم على غيره من الديانات الأخرى.

إن الإنسان في هذا العصر - بالرغم من المغريات المادية التي صرفته عن الدين- تهفو نفسه إلى دين موثوق بأصله من جهة، وقادر على أن يسمو به إلى الكمال المادي والروحي من جهة أخرى.

ونحن نجزم في إيمان وفي ثقة، بأن الإسلام- والإسلام وحده- هو الذي توافر فيه هذان العنصران، لأنه هو الدين الذي وضحت معالمه، وكرمت مبادئه، وثبتت مصادره، وحفظت من التغيير والتحريف، والتبديل والتصحيف.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجرات: ٩).

وإنه كفيل بأن يحقق للإنسان ما ينشده من ارتقاء، وما يرجوه من كمال ورفعة.

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥-١٦).

والإسلام هو الدستور الكامل، والمنهج الذي استهدف إقامة حياة إنسانية رفيعة، يتحرر فيها العقل والضمير، وتستقل فيها الإرادة والتفكير، ويشعر فيها كل فرد بأنه سيد نفسه، ومالك أمره، وأنه لا سلطان لأحد عليه، سوى سلطان الحق، الذي يعلو ولا يعلى عليه.

وهو الذي أهاب بالناس أن يفتحوا عقولهم، ليعرفوا آيات الله في الكون، وسننه في الخلق، وحكمته في الطبيعة.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

وتعطيل قوى الإدراك، وعدم الانتفاع بها، يعتبر في نظره جريمة، يسأل عنها الإنسان، ويحاسب عليها الحساب العسير.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

والإسلام بعقائده، وعباداته، ومثله، وقيمه، قد بعث الحياة في العواطف الجامدة، واليقظة في القلوب الهامدة وحرك حواس الخير في الإنسان لتتسع نفسه للعلاقات الحسنة، والصداقات الطيبة، والمعاشرة بالمعروف.

وإنه إلى جانب هذا حارب الظلم، والبغي، حتى لا تهدر كرامة أحد، ولا تنتهك حرمة إنسان، ولا يشعر ضعيف بهوان، ولا يحس فقير بضياع ولا يؤخذ مال بغير حق.

وإنه أراد أن يقيم أطهر حياة وأنظفها على وجه الأرض.

حياة لا شرك فيها ولا وثنية، بل فيها التوحيد الخالص، والعبادة لله الذي تعنو له الوجوه، حياة لا ظلم فيها ولا استبداد بل فيها حق، وعدالة وحرية، وإخاء، حياة لا جهل فيها ولا أمية، بل فيها علم ومعرفة وحكمة.

حياة لا رفث فيها ولا فسوق، ولكن فيها طهارة، ونظافة وعفاف، حياة لا حسد فيها ولا حقد، بل فيها محبة وتعاون وتآزر وتناصر، حياة لا سرف فيها ولا ترف، بل فيها بذل، وكرم وإيثار، حياة لا خمر فيها، لا قمار، بل فيها كدح وعمل وطلب لما أحل الله.

وإنه استهدف تهذيب الفرد، وتعاون الجماعة، وإيجاد حكم أساسه الشورى، وغايته حراسة الدين، وسياسة الدنيا، وجعل في طليعة وظيفته الدعوة إلى هداية هذا الدين، لتعم الأخوة الإنسانية، مما يعجل بسلام عام، يعيش الناس في ظله آمنين.

هذا هو الإسلام الذي يمكن أن نقدمه للناس في عصر العلم والاكتشاف الذري، وإن هذا الوقت لهو أنسب الأوقات للنهوض بهذه الرسالة السامية.

فقد انتهت معظم الآراء في أوروبا وأميركا إلى وجوب المناداة بالعودة إلى الدين، لأن التطور المادي الذي لم يصحبه سند من روح تطور خطر لا غاية له إلا

الخراب والدمار، ولأن النفوس قد أفسدها الطمع، والجشع، والشره، والأنانية، وهم أحوج ما يكونون إلى إصلاح هذه النفوس وعلاجها، ليسود المجتمع المودة، والرحمة، والمعاونة، والإيثار، والسماحة، والطيبة.

وهذه الفضائل لا مصدر لها إلا الدين والإيمان.

وليس من دين سوى دين الإسلام، يستطيع تقديم هذه الفضائل الإنسانية، وليس هذا هو رأينا الخاص، وإنما هو رأي علماء الغرب الذين درسوا الإسلام، ووقفوا على حقائقه.

يقول جولد زيهر: «إنه إذا أردنا الإنصاف ينبغي أن نؤمن بأن في الإسلام قوة صالحة، توجه الإنسان نحو الخير، وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية، حياة أخلاقية لا غبار عليها، ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله، والوفاء بالعهود، والمحبة، والإخلاص، وكف غرائز الأنانية، إلى هذه الفضائل التي أخذها الإسلام من الديانات التي اعترف لأصحابها بالرسالة».

المسلم الصالح هو الذي يحيا حياة يحقق فيها مطالب خلقية قاسية.

ولكي يتم هذا في أقصر وقت، وبأقل جهد، لابد من أن تتبنى الدولة الاضطلاع بهذا العبء، أو تحتضنه أمة مخلصة، فإن جهد الأفراد أضعف من أن يحتل النهوض بهذا الأمر الكبير.

وعلى الدولة، أو الأمة التي تتبناه أن تتمثله علما وعملا، وأن تكون صورة صادقة لمبادئه، وتعاليمه، كما جاء في الكتاب والسنة.

وبعرض الإسلام في صورته الصحيحة، وفي صورته العلمية التطبيقية نكون قد أقمنا الدعوة الإسلامية على أساس متين، بينما يكون علمنا وعملنا أقوى حجة، وأوضح برهانا، في الإقناع، والاستدلال، وإفحام من يتصدى لنا من الخصوم المعارضين.

إن الإسلام قوي بنفسه، لأنه الحق، ولكنه في حاجة إلى رجال يوضحون حقائقه، ويظهرون معالمه، ويضحون من أجله.

وإن أي جهد يبذل من أجل الإسلام لهو خدمة للإنسانية نفسها وهي أحوج ما

تكون إليه.

وإن مئات الملايين من البشر الذين يؤمنون بالإسلام ويدينون به، والذين يشغلون حيزا كبيرا من أرض الله الواسعة، ليحتاجون إلى من يزيدهم علما بالإسلام، وتبصرا به، وهم من جانبهم مستعدون لأن يكونوا جنود هذا الدين، وأنصاره المخلصين، ولن يدخروا وسعا في إعزازه وتأييده، ومناصرة كل من يمد يده إليهم.

إن صراع المبادئ اليوم على أشده، وإنه بالغ غاية العنف.

وإن كل دولة تتخذ كل الوسائل الممكنة لها، لترويج أفكارها والدعاية لمذاهبها، فتنشئ الوزارات، وتجهز الأجهزة، وتستغل الطاقات الفكرية، والأدبية، والفنية، لتأييد ما تراه، وإقناع الآخرين به.

وإذا كانت هذه الدول تنفق عن سعة، وتبذل هذه الجهود، من أجل تأييد أفكارها البشرية، القابلة للتغيير، فإن المسلمين أحق بالبذل وأولى بالتضحية، وأجدر بالتنظيم لحماية الإسلام الحق والتبشير به والدعاية له في آفاق الدنيا الرحبة المتعطشة لهداية الله، والفقيرة إلى من يرشدها إلى الحق وينير لها الطريق.

وإن هذا لهو جهاد الوقت، ولا يقل في قيمته عن جهاد الحرب والقتال.

وأي جهد يبذل في هذه السبيل لهو جهد عظيم يباركه الله، ويثيب عليه أجزل مثوبة.

الدولة الإسلامية

العدد (١٨١) محرم (١٤٠٠هـ) - نوفمبر (١٩٧٩م).

١- الإسلام دين ودولة

الإسلام دين ودولة وعبادة وقيادة ومصحف وسيف فكما أن الإسلام واجب نحو الله وزكاة نفس وأدب فاضل مع المجتمع فهو كذلك قانون ونظام ولا قيام له إلا في ظل دولة تحميه وحكومة ترعاه وتسهر عليه.

ومفهوم الدولة في الإسلام يتفق مع مفهوم الدولة الحديث والذي أطلق عليه فقهاؤها«دار الإسلام».

والدولة أو دار الإسلام هي المنطقة التي يقطنها المسلمون وتطبق فيها أحكام الإسلام بواسطة حكومة منتخبة ترضى عنها الأمة. وتظفر بثقتها.

٢- طبيعة الدولة وأهدافها

والدولة الإسلامية دولة تقوم على أساس من المبادئ التي جاء بها الإسلام لتحقق التعاليم المثالية التي تجلب المصالح العامة والخاصة وتؤمن كل فرد على نفسه وماله وعرضه وحريته وكرامته وتوطد السلام بين الناس جميعاً فهي دولة لها أسس تقوم عليها وغايات تستهدفها وتعمل من أجلها وجملة هذه الأهداف هي:

أ- تنفيذ أحكام الإسلام في داخل الوسط الإسلامي.

ب- تبليغ الدعوة في الخارج لغير المسلمين.

جـ- حماية الدولة ورد عدوان المعتدين عليها حتى تبقى للمسلمين السيادة عليها ينفذون فيها حكم الله ويقيمون شريعته وهم سادة أحرار مستقلون.

٣- سلطان الدولة

والسلطات التي ترعى شؤون الدولة وتدير أمورها ثلاث:

أ- **السلطة التنفيذية**: ويختار أعضاءها رئيس الدولة مع استشارة أهل الصلاح والرأي.

ووظيفتها الأساسية: إدارة شؤون البلاد وتدبير إدارة الحكم ورعاية المصالح العامة والخاصة في حدود التشريع الإسلامي.

ب- **السلطة القضائية**: ويتولى شؤون هذه السلطة الفقهاء من الأمة والعلماء ممن لهم قدم راسخ في دين الله وبصر نافذ في معرفة أحوال الناس وقدرة على فض المنازعات والفصل في الخصومات والحكم بين الناس بالعدل.

جـ- **المجلس الشوري**: وهو الذي يتولى الإشراف على السلطة التنفيذية ويراقب تصرفاتها ويعينها بالمشورة ويقدم لها النصيحة وينقد ما يدعو إلى النقد ويحاسب من يستحق الحساب ويقوم المعوج بالطرق المشروعة.

ولا يختار لعضوية هذا المجلس إلا القمم الشامخة ممن توفرت فيهم خشية الله والتزموا القانون والأخلاق وكان لهم سداد الرأي والحرص على مصالح الأمة. والأمة الواعية هي التي تختار هؤلاء، لأنهم هم الذين يمثلون إرادتها ويتفانون في خدمتها وينهضون برسالتها.

٤- رئيس الدولة

والدولة لها رئيس مسؤول تختاره الأمة متى توفرت له عناصر الصلاحية من الإلمام بشؤون الأمة والقدرة على الاضطلاع بتبعات الحكم. والآيات والأحاديث الآتية تشير إلى عناصر الصلاحية، ومن الآيات:

١- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

٢- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

٤- ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

٥- ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

ومن الأحاديث:

١- «أحب الناس إلى الله إمام عادل وأبغض الناس إلى الله إمام جائر» الطبراني والترمذي.

٢- «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» مسلم.

٣- «من قلد رجلاً عملاً على جماعة وفي تلك الجماعة من هو خير منه.. فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين». الحاكم.

٤- «إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة قيل وما تضييع الأمانة؟ قال إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة» البخاري.

٥- «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلاء فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» الشيخان .

٥- قانون الدولة

والقانون في الدولة هو الشريعة، والشريعة تنتظم:

أ- القانون الدستوري.

ب- القانون العام المدني والجنائي.

جـ- قانون الأسرة.

د- قانون العلاقة الدولية.. ولا مانع شرعاً من سن قانون تقتضيه الحاجة بشرط أن يكون عن مشورة وألا يعارض نصاً أو قاعدة شرعية أو إجماعاً.

الحقوق والواجبات

والناس في الدولة الإسلامية متساوون في الحقوق والواجبات، والحقوق، حقوق إنسانية وسياسية ومدنية .

والحقوق السياسية هي:

١- حق تولي الوظائف العامة. ٢- حق الترشيح.

٣- حق الانتخاب. ٤- حق المناقشة والنقد والمعارضة.

والحقوق المدنية هي:

١- حق العمل.

٢- حق التعاقد.

٣- حق الزواج.

ومنها الحقوق الإنسانية وهي:

حق الانتفاع بمرافق الدولة العامة وحرية التدين.

والواجبات هي:

١- السمع والطاعة في المعروف.

٢- تقديم النصيحة للحاكم.

٣- الجهاد من أجل إعلاء كلمة الدولة ورفع شأنها وكذلك العمل على توحيد كلمتها وتحريرها وإنهاضها بالعلم والعمل والإنتاج واقتباس كل جديد نافع فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

٦- العدل أساس الدولة

والعدل أساس الدولة ويتمثل في أمرين:

١- الحكم بما أنزل الله: فما أنزله الله عدل كله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام: ١١٥) صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام.

٢- إعطاء كل ذي حق حقه.

فللمسلم حق المؤاخاة والموالاة والبر والنصح والحماية «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا قد عرفنا كيف ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم فذلك نصره» ولغير المسلم البر والقسط والمعاملة الحسنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة: ٨).

ولكل حق المحافظة على الدم والعرض والمال والكرامة [كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

٧- قوة الدولة

وتمتاز الدولة الإسلامية بنوعين من القوة:

١- القوة الروحية التي تتمثل في المعرفة بالله وفي حبه والإخلاص له وفي ذكره وشكره وحسن عبادته وفي طاعته والتزام ما شرع من أحكام.

٢- القوة المادية التي تتمثل في التدريب والإعداد والسلاح والذخيرة.

٨- السياسة المالية للدولة

وتملك المال تملكاً فردياً والتصرف فيه والانتفاع به حق مقرر متى كان سبب التملك سبباً مشروعاً ومتى كان التصرف في دائرة ما أحل الله.

وأسباب الملكية هي:

١- العقود الناقلة للملك مثل البيع والهبة والوصية.

٢- العمل في الصناعة أو التجارة أو الزراعة أو العمل الفكري والأدبي.

٣- الميراث وهو توزيع تركة المتوفى على ورثته من أصحاب الفروض والعصبة. ومهما كان التملك صحيحاً فإنه لا يحل الاعتداء عليه إلا عند الضرورة فلا باس من نزع الملكية مع التعويض العادل كأن يحتاج إلى نزع الملكية في حفر الجداول والأنهار وإنشاء الطرق ونحو ذلك مما تحتاج الأمة إليه في مصالحها العامة.

ومع احترام الإسلام للملكية الخاصة فإنه أوجب فيها حقوقاً للدولة وهذه الحقوق هي:

١- نفقة الأقارب الفقراء.

٢- الزكاة.

٣- كفاية الفقراء إذا لم تف الزكاة بحاجاتهم ولم يكن في بيت المال ما يكفيهم وفي الحديث: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليما» رواه الطبراني.

ومن حق الدولة أن تفرض ضريبة عند الجهاد حيث لا يوجد عندها من المال

ما يكفي لدفع الخطر عن الأمة.

وقد أراد الإسلام بهذا النظام تقريب الفوارق الطبقية وتفتيت الثروة وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وكما أن الإسلام يعترف بالملكية الخاصة فهو يعترف أيضاً بالملكية العامة التي تملكها الدولة وهي أنواع.

١- الأموال الموجودة بخلق الله مثل- الماء، والنار، والكلأ فقد جاء في الحديث أن الناس شركاء فيها.

ويدخل في هذا الباب المعادن والبترول والأحجار الكريمة ونحو ذلك.

٢- الأموال المعدة للنفع العام مثل: مال الوقف والمسجد والطرق والأنهار، أما الأرض التي فتحها المسلمون عنوة فهي مملوكة للدولة ويد الفاتحين عليها يد اختصاص لا يد ملك عام.

٩- السياسة الخارجية

الإسلام يجعل علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول علاقة أخوة وسلام لا علاقة عداوة وخصام. فالعالم كله أسرة واحدة وما تفرقوا شعوباً وقبائل إلا للتعارف وتبادل المنافع. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (الحجرات: ١٣).

والإسلام يوافق على إنشاء عهود مع الدولة الأخرى ويدعو إلى احترامها. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ٤) وهو يدعوهم بأحسن الأساليب وهو لا يرفع السيف إلا دفاعاً عن حق أو إبطالاً لباطل. ولا يبدأ بحرب عدوانية ويعتبرها ضرورة وهي رحمة فلا يقتل إلا المقاتل.

للذميين في أرض الإسلام ما للمسلمين والمستأمن له الأمان ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة: ٦).

* * *

١٤ مقالات

الشيخ مصطفى أحمد الزرقا

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- خصائص التشريع الإسلامي.

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) - مايو (١٩٦٦م).

٢- حجة الشريعة على العقل.

العدد (٢٥) المحرم (١٣٨٧هـ) - إبريل (١٩٦٧م).

٣- موسوعة الفقه الإسلامي.

العدد (٢٦) صفر (١٣٨٧هـ) مايو (١٩٦٧م).

ترجمة الشيخ
مصطفى أحمد الزرقا

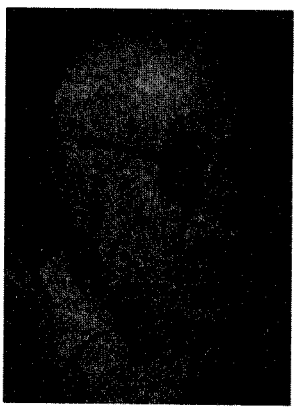

● **مولده ونشأته**

من أبرز علماء الفقه في العصر الحديث، ولد الشيخ مصطفى الزرقا بمدينة حلب في سورية عام ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م في بيت علم وصلاح، فوالده الفقيه أحمد الزرقا، وجدّه العلّامة محمد الزرقا، وكلاهما من كبار علماء الأحناف، في حلب.

حفظ القرآن منذ صغره، وتتلمذ على يد المحدث محمد بدر الدين الحسني، والمؤرخ محمد راغب الطباخ، ثم نال شهادة البكالوريا الأولى في الآداب والثانية في الرياضيات والفلسفة، ثم التحق بالجامعة السورية.

في عام ١٩٣٣م تخرج من كليتي الحقوق والآداب معا، ثم كلية الشريعة عام ١٩٤٧ من جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا).

عينته وزارة الأوقاف في الكويت خبيراً للموسوعة الفقهية سنة ١٩٦٦، ودرَّس في عدد كبير من كليات الشريعة في سوريا والجامعة الأردنية والخليج، يعتبر حجة في الاجتهاد في كثير من القضايا مثل: قضايا البنوك والتلقيح الاصطناعي والبيوع الحديثة.

انتخب نائباً في مجلس الشعب السوري عام ١٩٥٤م وأسندت إليه وزارتا العدل والأوقاف عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٢م.

● **تلامذته**

من تلامذته: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وعبد الرحمن رأفت باشا.

● **ومن مؤلفاته**

«أحكام الوقف، الاستصلاح، الفعل الضار والضمان فيه، الفقه الإسلامي ومدارسه» وغيرها.

● **وفاته**

وافته المنية يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠ هـ الموافق ٣ يوليو ١٩٩٩ م بعد أذان صلاة العصر وهو جالس ينقح الفتاوى ويبوبها.

خصائص التشريع الإسلامي

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) - مايو (١٩٦٦م)

عرضت في محاضرتي الثانية التي ألقيتها في الموسم الثقافي، الذي دعتني إليه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت بعض خصائص الفقه الإسلامي، وجوانب من مزاياه، التي تجعله هو المصدر الوحيد، الذي يجب أن يستمد منه كل تشريع ناظم للحقوق في البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة، وأوضحت تلك الخصائص والمزايا بالأمثلة والشواهد العمليّة الواقعية من أحكام الفقه الإسلامي.

أ- فمن خصائصه الذاتية العامة التي أكسبته صفة الخلود وقابلية الاستجابة لتغطية جميع الحاجات التشريعية في مراحل الحضارة الإنسانية، الخصائص الذاتية التالية:

١- السعة والاستيعاب والغنى بالنظريات القانونية في تنظيم الحقوق والالتزامات ومصالح المجتمع بصورة شملت كل شُعب القانون المعروفة إلى اليوم مبتدئة من علاقة الإنسان بأسرته من أحكام الزواج إلى الميراث وما بينهما، وتنتهي بأحكام القانون الدولي المنظم لعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الأمم والدول سلما وحربا. كل ذلك نظمه النظام القانوني في الشريعة الإسلامية بأعدل القواعد، وأحكم الأحكام، وأسمى المبادئ وأخلدها وأكثرها رعاية للمثل الإنسانية العليا، وتطعيمًا للعنصر القانوني بالعنصر الخلقي.

٢- الدقة المتناهية في بناء الأحكام، حتى لكأن الدارس الباحث في مسائل الفقه الإسلامي وآراء الفقهاء ونظرياتهم، يشعر كأنما هو أمام ميزان حساس يوزن به الألماس، وتظهر به الفروق بين المتشابهات مهما دقت وغمضت.

٣- مرونة أصوله ومصادره، سواء ما كان منها نصوصًا كنصوص القرآن العظيم والسنة النبوية، وما كان منها طرقا ومسالك وقواعد ومقاصد كالقياس والاستحسان والاستصلاح. فطريق الاستحسان يفسح مجالا لتقرير أحكام استثنائية على خلاف القياس عندما تختلف الظروف والاعتبارات الخاصة بين المسائل المتشابهة التي يقاس بعضها على بعض في الأحكام. ومن الأمثلة التطبيقية لذلك أحكام المفقود وهو الذي فُقد ولا يدري أحد أهو حي أو ميت ولا أين هو. فالحكم الفقهي الأساسي في علاقاته وحقوقه وأمواله أنها تجمد فلا يرث ولا يورث منه حتى تثبت حياته، أو تثبت وفاته بمثبت أو بالقرائن الكافية كموت أقرانه جميعا في بلده، فعندئذ يحكم بوفاته وتوزع أمواله بين ورثته. هذا هو مقتضى قاعدة الاستصحاب القياسية.

ولكن عمر بن الخطاب ﷺ رأى أن تطبيق هذا القياس على الزوجة وتركها معلقة على عصمة زوجها المفقود حتى يموت أقرانه فيه حرج عظيم وضرر بليغ بالنسبة إلى الزوجة، لأن تجميد المال غير تجميد الزوجة، فقضى بالنسبة إلى الزوجة أن لها الحق أن تطلب القضاء لها بإنهاء الزوجية بعد أربع سنوات من فقدان زوجها في حال السلم، وبعد سنة واحدة فقط في أيام الحرب، وهذا حكم قرر بطريق الاستحسان استثناء من قاعدة الاستصحاب القياسية.

٤- مكانة العرف في الشرع الإسلامي، فإن العرف مصدر هام دائم للأحكام القضائية، وتتبدل الأحكام العرفية بتبدل العرف. وبما أن العرف مُعبر في أغلب الأحيان عن حاجات المجتمع، فاعتماده في الفقه الإسلامي مصدرا للأحكام والقضاء جعل هذا الفقه مستجيبا بصورة دائمة لهذه الحاجات سوى ما كان منها انحرافا يجب تقويمه، وللعرف في الفقه الإسلامي نظرية ضافية ذات قواعد وشرائط وتفصيل رائع.

٥- بناء أحكام الفقه الإسلامي على أساس التوازن بين الحقوق الفردية والمصلحة العامة والحق العام.

ويتجلى ذلك في منع التعسف في استعمال الحق الخاص، وفي منع الاحتكار

في التجارة، وفي الحجر على السفيه المبذر، والحجر على شخصين يخصهما الفقهاء بالذكر في ضمن التعميم وهما:

الطبيب الجاهل والمكاري المفلس «والمكاري هو من يتعهد للناس بالنقل السفري على دوابه مثل مكاتب السفريات اليوم». فإذا كان مفلسا ليس عنده دواب كافية يأخذ من الناس أجور النقل ثم لا يستطيع نقلهم في مواعيد سفرهم المقررة. فلذا يحجر عليه شرعا في فتوى الفقهاء.

٦- بناء أحكام الفقه الإسلامي على أساس الموضوعية والتجرد عن كل دافع من عصبية أو عاطفة خاصة سوى فكرة العدل والحق المجردة بقطع النظر عن اللون أو الجنس أو البيئة أو الدين أو أي صفة أخرى في الأشخاص الذين تطبق عليهم أحكام الشريعة.

ومن الأمثلة الرائعة على ذلك في التاريخ الإسلامي فتوى الإمام الأوزاعي للخليفة الأموي بعدم جواز قتل الرهائن، وهم أشخاص أخذهم المسلمون من الروم ضمانًا لعدم غدر قومهم - وكانت العادة العامة المتبعة أن تقتل الرهائن إذا غدر قومهم - فلما غدر الروم، وهَمّ الخليفة بقتل الرهائن عارضه الإمام الأوزاعي ونادى به أنه لا يحل قتلهم في شريعة الإسلام وقانونه، لأن الله - تعالى- قد منع أن يؤاخذ أحد من الناس بجريرة غيره، وقرر ألا تزر وازرة وزر أخرى. فإذا غدر الروم فإن ذنبهم لا يسري إلى رهائنهم التي أخذناها منهم، وقد نزل الخليفة على فتوى الإمام الأوزاعي هذه.

ومن الأمثلة الرائعة أيضا التي دوى بها التاريخ، حادثة محمد بن عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها عندما سبقه قبطي نصراني في حلبة سباق، فضربه محمد بن عمرو بقضيب، وقال له: أتسبق ابن الأكرمين، فلما اشتكى القبطي إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين في المدينة أحضر محمدا وأباه عمرا من مصر، بعد أن حقق وثبت لديه الحادثة، وقال لمحمد منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ ثم أمر القبطي النصراني أن يضرب محمد بن عمرو في المجلس ثم أمره أن يضرب أيضا أباه عمرًا، أمير مصر، فلما امتنع القبطي عن

ضربه قال: إنما ضربك بسلطان أبيه.

من هذه الينابيع والأسس الموضوعية المجردة عن كل نزعة سوى مبدأ إحقاق الحق وإقامة العدل استمدت أحكام الفقه الإسلامي، وبهذه المادة بني صرحه العظيم الخالد، ولا يستغرب هذا في فقه مؤسسه الأول هو الرسول العربي القائل- عليه الصلاة والسلام- في التوصية بأهل الذمة، وهم المواطنون المقيمون في ظل الدولة الإسلامية من غير المسلمين: «من آذى ذميًّا فقد آذاني». فلنقارن هذا بالقانون الأسود القائم في أميركا مثلا على التمييز العنصري في الأحكام الإدارية والقضائية بين السود والبيض.

وبالقانون الروماني القديم، الذي هو أصل معظم التشريعات الأوروبية، والذي كان يميز في الأحكام بين الرومانيين والرعايا الآخرين من مواطني الدولة الرومانية.

٧- وهناك خاصة هامة في الفقه الإسلامي، هي خاصية بالنسبة إلى العرب فقط، وهي أنه فقه عربي المنشأ والمصدر. فالكتاب الأصلي الذي يستمد منه قواعده وتوجيهاته العامة في خطوطه العريضة هو القرآن، وهو عربي، والمؤسس الأول لهذا الفقه وهو الرسول محمد ﷺ هو عربي، وكلامه الذي هو نواته ثم شجرته الأصلية هو كلام عربي، والأدمغة التي خدمته ودونته في البداية هي عربية استمدته من تلك الأصول العربية، والعلماء اللاحقون الذين وسعوه ونموه بالأقيسة والاجتهاد والتخريج من مختلف الأمم الإسلامية، وإن كان منهم أناس غير عرب، إنما بنوا كل بحوثهم فيه على تلك الأسس العربية وما استنبط منها.

وبذلك يكون هذا الفقه العظيم الضخم تراثا عربيا قانونيا خَلُدَ على الزمن، بينما زال كل تراث علمي آخر انشأه الغرب أو اقتبسوه ووسعوه.

وهذا الميراث القانوني العربي، كما يقول الأستاذ السنهوري، هو مفخرة كل عربي، ولو غير مسلم، إذا كان حقا يعتز بعروبته وأصالته فيها وصادقا في ذلك.

هذا إجمال الخصائص الأساسية لهذا الفقه الإسلامي ومزاياه إلى جانب ما فيه من خصائص أخرى من نوع آخر كاللغة الاصطلاحية القانونية الخالدة التي أتى

فيها فقهاؤنا بروائع المصطلحات مما لا يوجد له نظير في القانون، ومما لا يزال القانونيون العرب يستمدون منها حاجتهم في الترجمة عن الفقه الأجنبي، هذا إلى خصائص أخرى كثيرة فرعية يعرفها الراسخون من العلماء.

ومن هذا يتبين أن الفقه الإسلامي هو الفقه الوحيد الذي تجتمع فيه الخصائص والمزايا التي تفي بحاجة التشريع في البلاد العربية والإسلامية، لأنه منسجم مع تاريخها، ونابع من عقيدتها ولغتها الجامعة، كما أنه هو الذي يمكن أن تجتمع عليه البلاد العربية في توحيد تقنيناتها عن طريق استمدادها، ولا يمكن أن تجتمع كلمتها واتجاهاتها في ذلك على مصدر آخر سواه.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من العالم العربي اليوم يجهلون أنفسهم وقيمة ما عندهم من تراث أصيل، ويتنكرون لذاتيتهم جهالة منهم، فيحبون استجداء الفقه والقانون من المصادر الأجنبية، معلنين أنهم فقراء جوف في هذا المضمار، ويظنون هذا تَقدُمية، بينما هم أغنى أمة بالتراث القانوني، ورحم الله شاعرنا المرحوم حافظ إبراهيم، اذ يقول:

أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من الذهب

أما شبهة الجهلاء الببغاويين، الذين يرددون ما كان زعمه بعض المشككين الخبثاء من المستشرقين أو سواهم من أن التشريع الإسلامي وفقهه مستمد من القانون الروماني فهذه شبهة أصبحت عتيقة رثة سخيفة لم تبق في حاجة إلى أن يهتم المحققون في جمع الأدلة على إدحاضها، ذلك لأن المستشرقين المنصفين منهم قد أغنونا عن دفعها، بما كتبوا هم وبينوا في هذا الشأن، وقرروا أن الفقه الإسلامي فقه أصيل مستقل بأصوله وفروعه غير مستمد من أي فقه آخر، وأن زعم استمداده من القانون الروماني هي خرافة تدل على عدم معرفة قائلها بالنظامين القانونيين كليهما، النظام الروماني والنظام الإسلامي. وإن كانت بعض قواعد العدل قد تتشابه بين أمة وأخرى نتيجة وحدة منطق التفكير العلمي ومنطق العدالة.

وأقرب ما أحيلكم عليه في ذلك قرار مجمع القانون الدولي المقارن في مدينة لاهاي عام ١٩٣٧، حيث صرح فيه بما ذكرت من عدم وجود أية صلة بين الفقه

الإسلامي والقانون الروماني، وأن الفقه الإسلامي صالح لإمداد التشريع الحديث بأحسن النظريات والقواعد.

وقد نقلت أنا خلاصة هذا القرار في أوائل الجزء الأول من السلسلة الفقهية التي وضعتها باسم «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد»، وكذا قرار مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامي الذي عقد في كلية الحقوق بجامعة السوربون بباريس، وكنت مشتركا فيه باسم الجامعة السورية، حيث تضمن ذلك القرار تأكيد هذا المعنى، بالإضافة إلى بيان ما في مجموع المذاهب الفقهية من قيمة فقهية خالدة، تصلح أن تكون خير مستمد للتشريع الحديث.

وجدتها وجدتها

حجة الشريعة على العقل

العدد: (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م)

في حديث عابر مع أحد الأصدقاء من الشباب المؤمن الواعي، وهو شاب طلعة يحب أن يزداد علما كل يوم، وأن يتفهم وأن يسأل عما لا يعلم، وأن يعلم عن دليل، وأن يناقش ليفهم، ونحن زمرة من الأصدقاء في بيته منذ ثلاث ليال نودعه ليلة سفره إلى الحج، ولم يترك السؤال والبحث والنقاش في شؤون من الشريعة وأحكامها.. استطرد إلى الحديث عن صاحب له زميل في الوظيفة من رواد الحقيقة المتطلعين إلى المعرفة، مولع بالجدل صعب الانقياد، فيه شيء من العناد، ولكنه ليس من الذين يحبون الجدل للجدل، بل يريد أن يعرف الحقيقة وأن يقع عليها.

في غمرة تلك الأحاديث ونحن مع صديقنا في وداع الحجة إلى موطن حجة الوداع، عندما وصل به الحديث إلى صاحبه هذا الزميل في الوظيفة، ووصفه بما ذكرنا قال لنا: إنه على جدله الذي يجاوز به أحيانا حدود الاعتدال قد سمعت منه بالأمس جملة عبر بها عن ملاحظة من ملاحظاته ملكت علي إعجابي كله، وحضرت في ذهني فنزلت منه في مستقر ومستودع وأصبحت عندي إحدى ذخائر الفكر التي أختزنها.

قلنا فما هي تلك الجملة الحكيمة التي نزلت من إعجابك هذه المنزلة الرفيعة؟ أشركنا معك فيها يا رعاك الله، وهذا ثمنها نقدمه إليك سلفا، دعوات صالحات نرفعها إلى رب البيت المعمور الذي أنت إليه قاصد، أن يكتبك في المقبولين الأبرار، ويجعل حجك مثمرا لديه، وفي نفسك ثمرته التي شرع لأجلها، ويجعل متعتك الروحية فيه أعظم مما تؤمل.

تهللت أسارير صديقنا لهذه الدعوات، وانبرى يتابع حديثه ويروي لنا تلك الجملة التي سمعها من صاحبه الجدل.

فقال:

قال لي صاحبي هذا الذي حدثتكم عنه: إن من أعجب ما هو جدير بالملاحظة والاعتبار من غرائب الواقع في حياة الإنسان أن كل جزء في جسمه من الأجزاء التي لا تفهم ولا تعقل، يعمل بانتظام وإتقان دون خطأ، فالمعدة مثلا لا تخطئ في عملها وإفرازها وسائر نواحي وظائفها، ومثل ذلك الأمعاء، والكبد، والغدد المختلفة، والكلى، والعروق، والأعصاب بمختلف شعبها ومناطق نفوذها، إلى غير ذلك من آلاف أو ملايين الأجهزة وأجزائها وجزيئاتها في أداء وظائفها الحيوية التي تقوم بها حياة الانسان، والتي تحير عقول علماء الطب والتشريح وعلم الغريزة (الفيزيولوجيا)، وإن كان كثير من هذه الأجهزة والأجزاء قد يعجز، وقد يصاب بآفة مرضية فيختل عمله أو يقصر فيه، فهذا ليس بخطأ في عمله، فالمهم أنه لا يخطئ أبدا، وإن كان قد يعجز أو يمرض أو يصاب بآفة.

أما العقل وهو الجانب المدرك، أو مجموع القوى المدركة في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان، ويمثل الفكر والذكاء وقدرة الابتكار التي لا حدود لها، والتدبير والتخطيط للمقاصد المستقبلة، والحيلة البارعة للتغلب على جميع العقبات والصعوبات التي تواجهها حياة الإنسان، إلى غير ذلك من المواهب التي تضافرت على تزويد الإنسان بالعلم في كل مجال وميدان بكل ما في كلمة العلم من معنى وما تشمله من آفاق وأعماق، هذا العقل الذي هو الجانب المدرك الواعي، أو هو أداة الفهم والتعقل والبصيرة لا يعمل دون خطأ، وخطؤه أكثر من صوابه!! أليس ذلك مثار عجب، ومدار اعتبار؟

قال صديقي الذي كنا في زيارته: فأنا لا أزال أتدبر هذه الجملة من صاحبي هذا، فقد نزلت في قرارة نفسي، وأصبحت لدي في جملة الملاحظات الهامة التي اكتسبتها في حياتي.

قلت له: حقا إنها ملاحظة قيمة، وقد وجدت بها أنا أيضا ضالتي المنشودة،

كما وجد الحكيم اليوناني أرخميدس ضالته عندما لحظ، وهو في حوض الحمام أن وزن الأجسام وهي في الماء ينقص عن وزنها وهي خارجه، فصاح وجدتها وجدتها (Eureka Eureka) واستنبط القانون الطبيعي في نسبة نقصان الوزن في هذه الحال، ذلك القانون الذي استخدم بعد ذلك في مجالات علمية وصناعية ذات شأن كبير.

ذلك أنني تعهدت لمجلة الوعي الإسلامي بكتابة كلمة للعدد الممتاز منها، وقد قرب موعد تسليم الكلمة، وأنا لا أزال محتاراً في اختيار موضوع مناسب جديد. فقد وجدته الآن، ملاحظة صاحبك جزاه الله تعالى خيرا.

قال صديقي: فما هو الموضوع الصالح الذي وجدته في ملاحظة صاحبي هذه؟ قلت إنه حجة الشريعة على العقل، هذا الموضوع الخطير في ميزان الإيمان، حيث يقوم به الدليل على أن العقل مهما سما شأنه، وعظمت قدرته على المعرفة والاكتشاف والفهم، فإن صاحبه الإنسان هو في حاجة دائمة مع عقله هذا إلى النور السماوي الذي يهدي إلى الصواب وينير له سبيل الرشاد، ويجنبه كثيرا من الوقوع في المآزق، والتردي في الهاويات. أفتدري أيها الأخ لماذا كان كل جزء غير ذي فهم في الإنسان يعمل بانتظام دون خطأ، وكان العقل الذي هو أداة الفهم والإدراك يخطئ أكثر مما يصيب؟ قال: لماذا كان ذلك؟ قلت: إليك التعليل والبيان.

إن كل جهاز من أجهزة جسم الإنسان أو جسم أي حيوان، وكل جزء أو غدة أو خلية حية من خلاياه إنما يعمل بحكم الغريزة، وإنما يعمل عملا نمطيا رتيبا في وقت ثابت أو عند منبه معين، وإنما يعمل عمله هذا في طريق معبدة ووسيلة وظرف مهيأين، ففي هذه الشرائط يقوم الجزء الحي بعمله النمطي بحكم الغريزة فيصبح عمله ووظيفته أشبه بانحدار الماء الذي صب في طريق محصورة منحدرة، فالماء في هذه الحال لا يخطئ في الانحدار، ولا في سلوك المجرى الذي يراد انحداره فيه حتى يصل إلى مقره بحكم الجاذبية الأرضية فيحجز فيه ويستقر.

فالمعدة إذا نزلها الطعام قامت بعملها فيه بانتظام من الحركة والإفراز،

وكذلك إذا رأت عين الجائع طعاما شهيا أو شم رائحته، أو ذكر اسمه له كان ذلك منبها عصبيا يشبه نزول الطعام إلى المعدة، فتبدأ أيضا بالإفراز اللازم، وهذا منها عمل نمطي رتيب في ظروف وشرائط متماثلة، فكلما توافرت وتكررت هذه الشرائط والظروف نبهت المعدة فعاودت عملها نفسه، وكررت قيامها بوظيفتها ذاتها بصورة لا تختلف عما عملته في مرة سابقة وعما ستعمله في مرة لاحقة، وهذا ما نعنيه بنمطية العمل.

ومثل ذلك يقال في الكلية أو الكبد أو العين . . . الخ بل في الكريات الحمراء أو البيضاء، وكل خلية من خلايا الجسم الحي، مما هو معروف في علم الغريزة (الفيزيولوجيا).

وإذا رأيت فارقا في التمثيل لهذا النوع من العمل الوظيفي الغريزي النمطي بين عمل أجزاء الجسم الحي وانحدار الماء في المجرى المحصور المنحدر من حيث إن الماء مادة غير حية، فينحدر كما يسقط الحجر بحكم قانون الجاذبية في اتجاه معين نحو مركز الأرض إذا قطع الخيط الذي يحمله في حين أن الجزء العامل في الجسم الحي هو جزء حي يعمل عن إحساس وتنبه هو مظنة للخطأ، ولكنه لا يخطئ فإني عندئذ أنقلك إلى مثال آخر أقرب إلى مطلوبك وأوضح، مثال العامل الواقف أمام آلة واحدة في معمل كبير عظيم فيه آلات كثيرة لكل واحدة منها وظيفة، وأمامها عامل يقدم لها المادة أو القطعة التي تعمل فيها، فلا أشبه لك الجزء الحي العامل في الجسم بالآلة التي تعمل في هذا المعمل، بل أشبهه لك بالعامل الواقف أمامها، ووظيفته كلما وصلت إليه القطعة محمولة على حاملة آلية أن يتناولها ويقدمها إلى الآلة التي أمامه لتعمل فيها عملها وتدفعها إلى حاملة آلية أخرى بجانبها فتحملها إلى عامل آخر، وهكذا، ولا بد أن تكون قد رأيت طريقة صناعة الأجزاء في المعامل، فهذا الشخص العامل، الواقف أمام الآلة ليتلقى القطعة القادمة إليه، ويقدمها إلى الآلة التي أمامه هو إنسان حي كامل مفكر فاهم واع، ولكنه في عمله هذا النمطي الرتيب بتقديم القطعة إلى الآلة كلما وصلت إليه قد أصبح أشبه بالآلة يقوم بهذا العمل الواحد بصورة تلقائية عفوية تعتمد على

الإحساس الغريزي دون إعمال الفكر وتجميع المعلومات واستنباط النتائج منها، وهو في عمله هذا لا يخطئ أو قلما يخطئ كما لا يخطئ العضو أو الجزء من الأجهزة العاملة في جسم الإنسان الحي.

وكلما خرجت المهمة في العمل عن النطاق الضيق المحصور والنمطية الرتيبة، فاتسع النطاق، وتنوعت الوظيفة، وأصبحت عرضة لمواجهات جديدة ومفاجآت، فإنها عندئذ تحتاج إلى تفكير وتدبير ومعالجات مختلفة باختلاف نوعية الطوارئ وما يصحبها من ملابسات معقدة، فتجعل المهمة معقدة وتستوجب من الفكر عملا يعتمد على التشخيص والتمحيص والتحليل والتركيب، فإن الخطأ عندئذ يتسع مجاله فيقوى احتماله، ويكثر وقوعه.

ولنأخذ مثالا على ذلك عمل الطبيب الذي عليه تشخيص الداء ووصف الدواء النوعي له، فإنه كثيرا ما يواجه في المرضى بمرض واحد، لدى كل مريض حالة جديدة تحتاج إلى ترتيب مختلف، فإنه إن لم يختلف عليه المرض فقد اختلف المريض، وما يحمله مع المرض الرئيسي من ملابسات ومضاعفات وحساسية المريض واختلاف درجة المرض وحدته أو أزمانه، مما يستدعي ترتيبا وتدبيرا خاصا بهذا المريض دون آخر، فإن العلاج النوعي الواحد قد يفيد مريضا ولكنه يؤذي مريضا آخر بالمرض نفسه، ومن ثم يكثر خطأ الطبيب، لأنه يجب أن يكشف حالة غامضة مبهمة، وأن يعرف الطريق الصحيح الموصل في وسط متاهة مظلمة. وهذا بخلاف الصيدلي، فإنه قلما يخطئ في تقديم العلاج أو تركيبه وفقا لوصفة الطبيب.

بعد هذا أيها الأخ أصل بك إلى الناحية المقصودة، كثرة خطأ العقل، وسببها وعلاجها.

نعم إن العقل كما لاحظ صاحبك وقال، هو ذلك الجزء المدرك في تكوين الإنسان، هو الجانب المختص بالفهم والفكر ومعرفة الحقائق والوعي في السلوك، هو ذلك المصباح الكهربائي العظيم القوة البعيد المدى في الإنارة، ينير للإنسان ما حوله فيستطيع بذلك أن يبصر وأن يتبصر، ولكن مهمة العقل ليست

نمطية رتيبة كعمل جزء من جهاز في جسم الإنسان أو خلية من خلاياه، إن مهمة العقل متنوعة معقدة، بل هي أكثر ما في الحياة تنوعا وأشدها تعقدا. إنها أصعب بملايين المرات من مهمة الطبيب الصعبة في تشخيص الأمراض الباطنة ومعالجتها في كل مريض.

إن العقل لكي لا يخطئ يجب أن يستطيع معرفة كل ما يحيط به من الأشياء المادية والاعتبارات المعنوية في كل ما هو حاضر أو غائب، قريب منه أو بعيد عنه وأن يعرف الملابسات التي تتصل بكل شيء من ذلك، ويبقى بعد كل هذه المعرفة لو استطاعها عرضة للخطأ بما يطرأ من تحولات ومفاجآت على الأوضاع والحالات في الظروف والأشياء التي تغير منها ما كان يعهده ويبني عليه، وأنى لعقل الإنسان كل هذه المعارف، وهو إنما يعيش في متاهات، في وسط مجاهل من هذا الكون العظيم الرهيب وموجوداته ونواميسه، ومهما ملك الإنسان وعقله الجبار من معارف وبصائر، فإنه لن يبلغ علمه وبصيرته أكثر مما يصل إليه نظر واقف على ساحل البحر المحيط الهادي مثلا بالنسبة إلى ما وراء الحدود التي يقف عندها امتداد بصره، وما في أعماق ذلك المحيط، وغيره من البحار الكبرى، وما في أجواز الفضاء وأغوار الكون كله، مما يقف عقل الإنسان تجاهه وتجاه ما يسمع عن بعضه في موقف حقارة وصغار، كحقارة الترابة الواحدة بالنسبة إلى الكرة الأرضية كلها، ولاسيما إذا تصورنا مدى ما يعنيه قول العلماء اليوم أن بين الكرة الأرضية وبعض النجوم التي تراها أعيننا مسافة مائة سنة ضوئية أو أكثر (وأنت تعلم معنى السنة الضوئية في تقدير مسافات الفضاء الكوني)[1].

فما مبلغ علم الإنسان وقدرة عقله بالنسبة إلى ما في الحياة البشرية ونواميس الكون من حقائق وخفايا وملابسات وتعقيدات، بالنسبة إلى الفرد وإلى الجماعة وإلى الحاضر والمستقبل إذا أراد أن يعرف كيف يبني حياته وسلوكه في طريق

(١) سرعة الشعاع الضوئي يقدرها علماء الفيزياء بأكثر من ثلثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، ومسافة السنة الضوئية هي المسافة التي يحتاج الشعاع الضوئي إلى أن يستمر سائرا بهذه السرعة مدة سنة كاملة حتى يقطعها!

قويمة حكيمة رشيدة بين أمواج هذا الخضم العظيم الهائل؟

صدق الله العظيم بقوله في قرآنه الكريم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء: ٨٥).

فعقل الإنسان في هذه المتاهة الهائلة والمجاهل المذهلة أشبه ما يكون بالطفل الصغير الذي كان يحبو فقويت رجلاه بعض الشيء فنهض يمشي وفرح بما وصل إليه من قدرة، وهو لا يعرف شيئا عما يعرض له من مزالق ونواتئ يتعثر بها، ولا يعرف ضعف ساقيه وعدم مرونته، فهو تارة تخونه قدرته فيهوي على شيء يؤذيه، وتارة يصطدم فيشج ويقع، وتارة يتعثر بذيله، إنه يقع ويقوم ويصل إلى الجدار مرة ويسقط دونه أخرى، وهكذا. ولكن الفرق بين عقل الإنسان وبين الطفل الذي بدأ يتعلم المشي هو أن الطفل سوف يتغلب على صعوبة المشي، بما يزداد من قوة ومن خبرة ومن مرونة، فيستطيع بعد مدة أن يمشي فلا يقع وأن يركض ويقفز. أما عقل الإنسان فيبقى ما بقيت الحياة طفلا يترعرع في بداية تعلم المشي، يقع ويقوم ويتعثر وينزلق في مجالات سلوكه في مسالك الحياة، مهما بلغ من علم ومعرفة، ومهما انكشف له من آفاق، لأن مدى علمه لا يعد شيئا يذكر بالنسبة إلى مدى جهله بما وراءه وأمامه من أمور مغلقة ومخاطر محجبة.

ذلك أن وظيفة العقل البشري هي أعظم شيء تنوعا وتعقدا، فهي ليست مهمة بسيطة نمطية في مجال محدود ممهد معبد يستطيع أداءها غريزيا بصورة آلية، إن وظيفته كوظيفة الطبيب المكلف بتشخيص داء باطن مستخف في الجسم بين مئات العلل التي لها أعراض مشابهة وعليه وصف الدواء الصحيح، وهذا تشبيه تصغير وتقريب، فمهمة العقل البشري في الواقع أعظم تعقيدا من مهمة هذا الطبيب بما لا يمكن معه قياس.

إن مهمته هي اختيار السلوك الصحيح المستقيم الموصل إلى أحسن النتائج في حياة الأفراد والجماعات، والمتنكب للمزالق المتوقي من العثرات والهاويات المغطاة بالأعشاب الغشاشة كمزارع الألغام في أرض العدو، بل إن التشبيه الأدق الأقرب لمهمة العقل البشري، وموقفه بين مصاعبها التي لا تغلب، هو أنه

كشخص ملقى في مفازات ومتاهات غير متناهية الأبعاد، وهي مليئة بالحيوانات المفترسة، والحشرات القتالة، والمزالق المردية، وتغمره فيها ظلمة حالكة دائمة لا تنجلي، ومعه مصباح يضيء له ما حوله إلى مسافة أمتار محدودة، وعليه أن يسلك طريقا آمنة إلى رزقه وقوام حياته، يصل فيها إلى مطلوبه ويتوقى المخاطر المهلكة.

ذلك لأن مدى العلم الذي يمكن أن يبلغه الإنسان بعقله بالنسبة إلى ما في هذا الكون الشاسع الزاخر بالعجائب والمتاهات والمجاهل هو أقل كثيرا كثيرا من مدى نور هذا المصباح في هذه المفازات المظلمة، هذا إذا اقتصرنا في التصوير والتشبيه على مدى كل من أفق العلم وآفاق الجهل بما في الكون من حقائق وواقع، وأسقطنا من الحساب ما يحول بين العقل والتقدير الصحيح وحسن الاختيار من شهوات الإنسان وعوامله النفسية والمغريات التي تجذبه وتطغى على علمه وعقله، والمطامع المتسلطة على العقول والنفوس البشرية، وحب الأثرة والحظوظ، مما يدعو الإنسان إلى إيثار اللذائذ على الواجبات المتعبة، وما ينشأ عن كل ذلك من تغشية على الأبصار والبصائر، ودفع للأفراد والجماعات إلى أرض الألغام المكسوة بالأعشاب الغشاشة بدلا من طريق الأمان.

ففي هذا الواقع من طريق الإنسان ووعورتها وظلمتها ومن مهمة عقله ذلك المصباح المنير المحدود المدى، كان لا بد لهذا الإنسان من قائد ودليل بصير خبير إلى جانب المصباح الذي بيده، وإلا كان أمام مفاجآت حتمية من المخاطر وضلال الطريق، إن هذا القائد هو الشريعة الإلهية (والشريعة في أصل اللغة هي الطريق)، وإن الدليل هو أحكامها وتوجيهاتها وأوامرها ونواهيها. إنها ترسم له طريق الهدى البعيد المدى الذي يجهله ولا يعلم منه إلا القليل، بمقدار ما يمتد إليه نور مصباحه القاصر من أمتار، يرسم له هذه الطريق الأقوم الأسلم خالق الكون العالم بخوافيه وبكل ما فيه من مسالك ومهالك، والخبير بما ركبه هو في الإنسان من طبائع وغرائز ودوافع خير ونوازع شر، وما حف طريقه من مخاوف ومخاطر.

فخالق الكون أعلم بما فيه، جعل للإنسان شريعته تعبيدا لطريق العقل. نعم إن الإنسان لا يستغني عن هذا المصباح مع الشريعة، ولكنه لا ينبغي له أن يغتر بمسافة النور القصيرة التي يبلغها ضوء هذا المصباح، فيظن في نفسه القدرة على الاستقلال عن الشريعة والانفصال عن الطريق الذي خططه له خالقه ومهده كي يجنبه المفاجآت الخطرة والمهالك.

بل عليه أن يتلمس بمصباحه المتواضع معالم هذه الطريق في حدود الشريعة الإلهية، لأن خالقه أدرى بما يصلحه وبما يفسده، لأنه أدرى بما يحيط به من مجاهل لا يستطيع هو معرفة ما فيها من آفات، فما حسنته له الشريعة بنصوصها الثابتة فهو حسن، ولو لم يستطع عقله إدراك حسنه، وما قبحته له فهو قبيح خطر وخيم العواقب على الفرد أو على الجماعة عاجلا أو آجلا.

هذه حجة الشريعة على العقل، تقوم على أساس هذا الواقع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فليس للإنسان المؤمن أن يناقش الشريعة بعقله القاصر مناقشة الند للند، فيقول: ما قبله عقلي قبلته، وما لم يقبله رفضته!! فما هو عقله؟ وما مدى الثقة به؟!

إنما عليه أن يتفحص بعقله أوامر الشريعة ونصوصها، ويناقشها مناقشة المتفهم المطيع المستسلم الذي يريد أن يعرف ماذا يريد الشارع ليعرف كيف يطيع، هذا هو شأن العالم البصير وما سواه فشأن الجاهل المغرور.

نعم إن هذه الحجة تقنع المؤمن. أما الملحد المادي الذي لا يؤمن بالخالق ورسالاته الهادية بل يجحد الحقائق ويكابر في المحسوس مغرورا بعقله القاصر، فذلك لا ينفع معه الاحتجاج، بل يجب التأسيس معه أولا، والبدء بمناقشته من مبدأ آخر.

موسوعة الفقه الإسلامي

فكرتها .. الغاية منها .. كيف يمضي العمل فيها

العدد (٢٦) صفر (١٣٨٧هـ) مايو (١٩٦٧م)

● **منشأ فكرة الموسوعة**

لما عقد مؤتمر «أسبوع الفقه الإسلامي» في باريس في بهو كلية الحقوق من جامعة السوربون أول شهر تموز ١٩٥١م، بدعوة من لجنة الحقوق الشرقية في المجمع الدولي للقانون المقارن، وظهر - من المحاضرات التي ألقيت في موضوعات شتى من مختلف شعب الحقوق والقانون في الفقه الإسلامي - ما في هذا الفقه الأصيل المؤثل من ثروة حقوقية ونظريات قانونية خالدة القيمة، اتخذ المؤتمر قراره التاريخي الذي من جملة ما جاء فيه ما ترجمته الحرفية كما يلي:

أ- إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة «حقوقية تشريعية» لا يمارى فيها.

ب- وإن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات، وإن الأصول الحقوقية هي مناط الإعجاب، وبها يستطيع الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها.

ويأمل المؤتمرون في أسبوع الفقه الإسلامي أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقا للأساليب الحديثة[1].

فهذا الأمل الذي دعا إلى تحقيقه مؤتمر «أسبوع الفقه الإسلامي» الأول في باريس كان هو النواة الأولى لفكرة «موسوعة الفقه الإسلامي» التي أنشئت لها لأول مرة لجنة خاصة في كلية الشريعة بجامعة دمشق سنة ١٩٥٥.

(١) انظر المجلة الدولية للحقوق المقارنة، العدد ٤ من السنة (٣) الصادر في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥١م.

● **غاية الموسوعة**

إن دراسة الحقوق وعلم القانون اليوم تتجه إلى المقارنة بين الشرائع والنظم ليستفيد الاتجاه التشريعي والاجتهاد القضائي من أحسن النظريات الحقوقية وأقربها إلى العدل.

ولاشك أن الفقه الإسلامي الذي هو أغنى فقه عرفه التاريخ البشري في أمة من الأمم هو أولى بالاطلاع عليه والمقارنة به، ولاسيما في البيئات العربية التي تربطها به وشيجة النسب، لأنه تراثها الأصيل المجيد، العربي الأصول والمنابع، فضلا عن غناه الواسع، وذلك لكي يمكن اتخاذه أساسا للتشريع والاجتهاد القضائي في البلاد العربية والإسلامية.

ولكن باختلاف الزمن وتطور الأساليب والحاجات الثقافية أصبح فقهنا هذا وما فيه من جوهر نفيس، ونظريات حقوقية محكمة، ومبادئ قانونية سامية ذات قيمة خالدة، كل ذلك فيه أصبح محجوبا عن أنظار الحقوقيين والمشرعين بغلاف من أسلوبه وترتيبه القديم، وعباراته المعقدة في كثير من كتبه، وبمراجعه الصعبة المسالك على غير المختصين، ولكن تطور الحياة وحاجاتها وتشعب الثقافة العامة جعلا الزمن أضيق من أن يسمح للباحث ببذل الجزء الكبير منه في المراجعة، وهذا ما يوجب على أبناء العربية اليوم تعبيد الطريق إلى هذا الفقه العالمي الضخم الذي أقام نظام العدل في مشارق الأرض ومغاربها نحو أربعة عشر قرنا، وواجه ألوان الحضارات، وحل جميع مشكلات الحياة بأحسن الحلول، وأعدل الأحكام، وأمرن القواعد في معالجة مشكلات اختلاف الزمان والمكان والأعراف والحاجات، بمذاهبه الاجتهادية المتعددة.

فغاية الموسوعة صياغة الفقه الإسلامي كما هو في مراجعه الأصلية وبأسلوب سهل، وتبسيط العبارات المعقدة التي تصادف فيه، دون أن يدخل الكتاب شيئا من اجتهاداتهم الشخصية، مع الإشارة إلى اختلاف المذاهب والاجتهادات في كل موطن يكون فيه ذلك هاما ومفيدا، ثم ترتيب هذه الأحكام الفقهية الشرعية في الموسوعة ترتيبا أبجديا على حروف المعجم بحسب الحرف الأول، وما يليه من الكلمة العنوانية الدالة على الموضوع الفقهي.

فأحكام التقادم مثلا تذكر تحت كلمة «تقادم» التي تأتي في حرف التاء المثناة مع القاف، وأحكام عدة المرأة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تذكر تحت كلمة «عدة» التي تأتي في حرف العين المهملة مع الدال وما يليها.

والأحكام المتعلقة بالأجير العام والأجير الخاص مثلا تذكر تحت كملة «أجير» التي تأتي في حرف الهمزة مع الجيم وما يليهما، وهكذا في كل موضوع فقهي، فكل باحث ولو غير فقيه مختص يستطيع أن يراجع في الموسوعة عن حكم الشريعة وآراء الفقهاء في كل موضوع بالنظر إلى ترتيب حروف كلمته، كما يراجع عن أي كلمة شاء في قاموس لغوي، لكنه في القاموس يراجع عن الكلمة ليرى معناها في اللغة، أما في الموسوعة الفقهية فيراجع عنها ليرى ما تحتها من أحكام الشريعة وفقهها في الموضوع، واختلاف المذاهب والآراء الفقهية في ذلك، مع الإحالة على مواطن البحث في مراجعه الفقهية الأصلية من كتب المذاهب بذكر اسم الكتاب والجزء والصفحة واسم المطبعة وتاريخ الطبع ليرجع إليها من يشاء.

وهذه الموسوعة يقدر لها لتكون وافية كافية أن تبلغ ثلاثين مجلدا فأكثر، ولاسيما أنها ستشتمل على جميع أقسام الفقه من عبادات ومعاملات وجنايات وعقوبات وقضاء وبينات وسياسة شرعية وأحكام الأسرة المعروفة اليوم باسم «الأحوال الشخصية» من النكاح إلى الميراث وما بينهما.

من هذا التعريف الموجز يتضح ما لفكرة الموسوعة الفقهية من شأن عظيم وما سيكون لتنفيذها من أثر عالمي في عالم التشريع والقانون يجعلها من الأعمال المخلدة.

وإن دولة الكويت التي تبني اليوم نهضتها بجد وسرعة ونشاط هي الجديرة بأن تجعل من هذا المشروع العلمي الجليل عنوانا مشرقا ومشرفا لنهضتها المباركة.

لذلك رأت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تتبنى هذا المشروع، وتجند له الكفاءات، وهي تأمل بفضل معونة فقهاء العالم الإسلامي الذين سيطلب إليهم أن يكتبوا فيما سيوزع عليهم من بحوث الموسوعة، وبفضل إدراكهم لهذا الواجب الإسلامي العام، أن تبرز هذه الموسوعة كاملة في أقصر زمن ممكن بالنسبة إلى طبيعة هذا المشروع العظيم.

١٥ مقالات

الشيخ محمود مهدي استانبولي

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- هل الإنسان خليفَة الله في الأرض.

العدد (٢٣) ذو القعدة (١٣٨٦هـ) - فبراير (١٩٦٧م).

٢- حول اجتهادات الخليفة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه.

العدد (٣٣) رجب (١٣٨٧هـ) - اكتوبر (١٩٦٨م).

٣- الإنسان العربي بين الجاهلية والإسلام.

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

٤- التعليم الجامعي.

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

٥- الشخصية الإسلامية في معركة إثبات الذات.

العدد (٤٢) جمادى الثانية (١٣٨٨هـ) - اغسطس (١٩٦٨م)

٦- في رحاب الأماكن المقدسة.

العدد (٦٠) ذو الحجة (١٣٨٩هـ) - فبراير (١٩٧٠م).

٧- نظرية الإعدام بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

العدد(٩٢) شعبان (١٣٩٢هـ)- سبتمبر (١٩٧٢م)

٨- من غرائب المحاكمات في التاريخ

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - أكتوبر (١٩٧٢م).

٩- نصيحة ذهبية إلى مفكري الغرب وزعمائه

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

١٠- افتراء المستعمرين

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣م) - فبراير (١٩٧٣م).

ترجمة الشيخ
محمود مهدي استانبولي

● **مولده**

الشيخ محمود مهدي إستانبولي عالم وباحث وتربوي، ولد بدمشق سنة ١٣٢٧هـ، واهتم بتحصيل العلوم الشرعية والحديث الشريف، وعمل في المجال التربوي، قال عنه الشيخ علي الطنطاوي: إنه من أركان التربية في بلده، لازم المحدث الشيخ «محمد ناصر الدين الألباني»، وتبنى منهجه، وصحب الشيخ عبد الفتاح الإمام، وأخذ عنه مبادئ السلفية.

● **مؤلفاته:**

صنف رحمه الله العديد من الكتب التي لاقت الرواج والقبول منها: «تحفة العروس، كتب ليست من الإسلام، على هامش التربية الإسلامية، عبقرية الإسلام في التربية، مشكلات الغرب وكيف يحلها الإسلام، عظمة الإسلام، دفاع عن الإسلام.. بيني وبين المبشرين، مذكرات عن الحج، الرد على مفتريات الشيوعية، المنهج الإسلامي الجديد في التربية، السبيل إلى أسرة أفضل...». وغيرها من المصنفات.

● **وفاته:**

توفي الشيخ سنة ١٤٢٠هـ بعد ٩٣ سنة أمضاها في طلب العلم والتعليم، رحمه الله رحمة واسعة وغفر له ولجميع المسلمين.

هل الإنسان خليفَة الله في الأرض

العدد (٢٣) ذو القعدة (١٣٨٦هـ) - فبراير (١٩٦٧م).

شاع على ألسنة وكتابات كثير من الأدباء الإسلاميين أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وحجتهم في ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية.

وعلى الرغم من الاعتراضات التي وجهت إليهم، نرى بعضهم يصر على رأيه، ويروح يستغيث باللغة العربية للدفاع عن هذا الرأي، كأن اللغة- وحدها هي مصدر فهم القرآن، لا النصوص العامة للشريعة، ولو كانت كافية لاقتصرنا في صلاتنا على الدعاء، ومع ذلك فإن اللغة العربية ليست نصيراً لهم في هذا الفهم، ولا نريد أن ندخل معهم في هذه المناسبة، بمناقشة لغوية قد تطول...

لقد كان يكفي هؤلاء الكتاب للرجوع عن فكرتهم، كلمة للخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه...

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتاويه (٣/ ٤٦١) «وقد ظن بعض القائلين الغالطين كابن عربي، أن الخليفة هو الخليفة عن الله، مثل نائب الله، والله تعالى لا يجوز له خليفة. ولهذا قالوا لأبي بكر يا خليفة الله! فقال: «لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. حسبي ذلك» رواه أحمد في المسند (١/ ١٠/ ١١) بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره، قال النبي ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا»..

ولا يجوز أن يكون أحد خلفاً منه (أي من الله تعالى) ولا يقوم مقامه، إنه لا سمي له، ولا كفء فمن جعل له خليفة فهو مشرك به!!.

والغريب - الغريب جداً - أن هؤلاء الكتاب المصرين على رأيهم في أن الإنسان خليفة الله في الأرض، يروحون أيضاً يقحمون - كما أقحموا اللغة - بعض آي القرآن الكريم لإثبات صحة ما ذهبوا إليه، كأن أبا بكر- رضي الله تعالى عنه وكأن الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وقد رأيناهما يرفضان نسبة خلافة الإنسان لله سبحانه- لم يفهما تلك الآيات!!

وقد استشهدوا على هذه الخلافة بقوله تعالى.

١- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وهذه الآية حجة عليهم لا لهم بدليلين:

أولاً: أن الله سبحانه عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال فإذا كان الإنسان هو خليفة الله فكيف عرض سبحانه هذه الأمانة على غيره؟!

ثانياً: كيف يجعل الله الإنسان خليفة في الأرض، ثم يقول عنه إنه كان ظلوماً جهولاً؟!

٢- ومن الآيات التي استدل بها هؤلاء الكتاب على هذه الخلافة قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ (ص: ٧١-٧٧).

وليس في هذه الآية حجة لهم فيما ذهبوا إليه. والغريب أنهم فهموا من قوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي من روح الله نفسه مما جعلهم يتأكدون من هذه الخلافة! مع أن المقصود من روحه التي خلقها، وإلا كان الإنسان جزءاً من الله، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (الزخرف: ١٥).

وإذا كان لا يصح أن نقول إن الإنسان خليفة الله، فكذلك لا يصح أن نقول إنه أفضل المخلوقات كما زعم هؤلاء القائلون بالخلافة، ليدعموا حجتهم.

ودليلنا على ذلك أن رسول الله ﷺ نفسه وهو على سمو مكانته لم يقل إنني سيد المخلوقات، بل قال «إنني سيد ولد آدم». إن هناك الملائكة السفرة، الكرام البررة الذين يستنسخون من اللوح المحفوظ. وليس لدينا نص صريح على أفضلية الإنسان عليهم ولا العكس.

وليت هؤلاء الكتاب حاولوا فهم قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

إن هؤلاء الملائكة لو فهموا أن آدم خليفة الله، لما تجرأوا، ولا توهموا أن خليفة الله سيفسد في الأرض، ويسفك الدماء، إنما فهموا أن آدم وذريته من البشر سيخلفون من سبقهم من المخلوقات الذين أفسدوا في الأرض، قاله ابن عباس والحسن كما جاء في تفسير الإمام ابن الجوزي.

ومما لا ينبغي إغفاله بهذه المناسبة أن بعض المفسرين ظنوا أن سؤال الملائكة لربهم كان على وجه الاعتراض أو الحسد، فقال السيوطي في تفسيره على لسانهم «فنحن أحق بالاستخلاف».

وهذا لا يليق بالملائكة. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه.

وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً- قال قتادة- وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، أي نصلي لك، كما سيأتي، أي لا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾! أي إني أعلم من

المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون. . .» اهـ باختصار عن تفسير ابن كثير.

ومن أعظم الأدلة على بطلان دعوى القائلين بأن الإنسان خليفة الله في الأرض قوله ﷺ في حديث له لأحد قواده «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم، أهون أن تخفروا ذمة الله، وذمة نبيه. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟» (رواه مسلم).

نعود بعد هذا كله إلى الآية التي اتخذها الكتاب المشار إليهم من أعظم حججهم على إثبات دعواهم من خلافة الإنسان لله تعالى.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيرها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل كما قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣٩) ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ (النمل: ٦٢) وقال ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الزخرف: ٦٠) وقال ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ (الأعراف: ١٦٩).

ونقل القرطبي ما ملخصه عن زيد بن علي: وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه الصلاة والسلام فقط. . وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل.

ومن العجيب أن هؤلاء الكتاب لم يقتصروا على جعل آدم عليه السلام خليفة الله كما يمكن أن يفهم بعضهم من ظاهر الآية. بل ذهبوا إلى خلافة البشر كلهم مؤمنهم وكافرهم وصالحهم وفاسقهم!.

ولا شك أن فكرة خلافة الإنسان لله في الأرض مأخوذة عن نظرية الحلول والاتحاد ونظرية القطب الغوث لغلاة الصوفية. فقد قال أبو الحسن الشاذلي «للقطب خمس عشرة علامة، عدد منها أن يمد بمدد العصمة، والخلافة- وهو أن

يكون خليفة الله في الأرض- والنيابة- وهي أن يكون نائباً عن الحق في تصريف الأحكام»[١]. إلى غير ذلك من صفات الألوهية، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!.

* * *

(١) معراج التشوف إلى حقائق التصوف ص ٤٩- ٥١ باختصار نقلاً عن كتاب التصوف بين الحق والخلق للأستاذ محمد فهر الشفقه ص ١٠٠ .

حول اجتهادات الخليفة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه

العدد (٣٣) رجب (١٣٨٧هـ) - أكتوبر (١٩٦٨م).

قام هذا الخليفة الراشد، والحاكم العبقري بطائفة من الإجراءات الحكيمة التي ظنها بعض الناس اجتهادات منه، جاءت خلاف نصوص الشريعة، فأخذوا يؤولون ذلك بأن الخليفة عمر نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره، وبذلك فتحوا المجال للعبث بالشريعة والجرأة عليها تحت ستار التحري عن المصلحة، والبحث عن علل وغايات النصوص دون ظواهرها(!!!).

وقد سرت عدوى هؤلاء إلى كثير من الشباب المثقف، الذي أخذ يتهاون بنصوصها متخذا من صنيع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حجة له بزعمه.

وقد رأيت أن أبحث هذا الموضوع الخطير، لأثبت للملأ أن هذا الخليفة الراشد لم يكن مجتهداً، إنما كان متبعاً لنصوص الشريعة التي خفيت على كثير من الباحثين الذين كتبوا في هذا البحث الشائك. وسأنقل كلامهم وأرد عليه.

١- قالوا: إن عمر منع سهم المؤلفة قلوبهم مع أن سهمهم مفروض بنصوص القرآن، وأولوا ذلك بأنه - رضي الله تعالى عنه - نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره، فقد كانت علة إعطائهم تأليفهم واتقاء شرهم عندما كان الإسلام ضعيفاً، فلما قويت شوكة الإسلام زال الداعي إلى إعطائهم.

أقول: إن هذا الخليفة فهم معنى لفظ المؤلفة قلوبهم محدوداً بطائفة معينة من الناس، فلما زالت أوقف سهمها، بينما هذا السهم أوسع من ذلك فيما دلت عليه نصوص الأحاديث الكثيرة التي وردت حول سهم المؤلفة قلوبهم، والتي بينت أصنافهم، وقد شرح ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره فقال: وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي صلى الله عليه وآله

وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين.

وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلي بعد أن كان أبغض الناس إلي. كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا ابن عدي، حدثنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي» (ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري).

ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى الرسول يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إلي منه، خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي بذهبية في تربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة وزيد الخير، وقال: «أتألفهم» ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات مما يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة قلوبهم على الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة، وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. اهـ.

وعلى ذلك فلا يصح أن يقال إن عمر منع المؤلفة قلوبهم نصيبهم من الزكاة، بل الصواب أنه إنما منع من ليس من المؤلفة قلوبهم في فهمه هو، ولذلك فلا يجوز أن يتخذ فعل عمر هذا مثالاً للمنهاج الفقهي الواقعي، والنظر إلى علة النص، لا إلى ظاهره فليس في المسألة أكثر من فهم خاص لهذا النص القرآني.

إن سهم المؤلفة قلوبهم لو استخدمه المسلمون في أيام مجدهم وثرائهم

لاشتروا به كثيراً من المرتزقة الذين يضللون أقوامهم أو يسكتون على ضلالهم لتتسنى لهم الحياة الرغيدة، فلو وجدوها من المسلمين عن طريق هذا السهم لدخلوا في دين الله أفواجاً وأدخلوا أقوامهم معهم!.

ولو كان لي من الأمر شيء، لجعلت سهم المؤلفة قلوبهم لتأليف كتاب الغرب وأدبائه وأرباب صفحه ليثنوا على الإسلام ويدافعوا عنه ويحضوا أقوامهم لاعتناقه!.

ومهما كان من اجتهاد الخليفة عمر رضي الله تعالى عنه، فقد كان اجتهاده في فهم النص، لا في تركه، فله أجر الاجتهاد لقوله ﷺ: «إذا أصاب الحاكم فله أجران، وإن أخطأ فله أجر» ورحم الله تعالى الإمام مالكاً فقد قال:

«كلهم يرد عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

٢- وقالوا: وكذا اجتهد عمر في وقف تنفيذ حد السرقة على السارقين واكتفائه بتعزير السارق عن قطع اليد في عام المجاعة المسمى بعام الرمادة، فاعتبر فيه شبهة عامة في أنهم كانوا يسرقون عن ضرورة.

أقول: ليس في عمل الخليفة عمر وقف تنفيذ حد السرقة على السارقين عام المجاعة اجتهاد منه، فإنه لا اجتهاد في مورد النص، إنما هو اتباع لنص قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ (البقرة: ١٧٣) وقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

وأستبعد لجوء هذا الخليفة الراشد حتى إلى تعزير السارق المضطر، - كما زعموا- وقد أعلن الله سبحانه بأنه ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾.

٣- وقالوا: وكذلك اجتهد عمر في منع تقسيم أراضي سواد العراق على المجاهدين الفاتحين لها الذين طالبوا بتقسيمها بينهم كما تقسم الغنائم الحربية بعد تخميسها حسب نص قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١).

وقالوا أيضاً: وقد ذهب عمر إلى خلاف رأي هؤلاء المجاهدين، فاعتبر

الأراضي من الفيء الذي تتعلق به حقوق المسلمين عامة حاضرهم وآتيهم رعاية لمصلحة الأجيال وحقوقها في بيت المال، وفقاً لما ينبئ به النظر السديد إلى مجموع النصوص القرآنية لا إلى بعضها دون بعض.

فأبقى- لذلك عمر الأرضين لأهلها وطرح عليها ضريبة الخراج، لأن ذلك أصلح لإحيائها، وأعم وأدوم لنفعها.

وقالوا أيضاً: وقد ثبت في السنة أنه عندما فتح النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خيبر، وقد فتحت عنوة لا صلحا، ونزل أهلها اليهود والمحاربون على حكم الجلاء- عدت أراضيها من الفيء! وعزل النبي نصفها، فتركه للنوائب والنوازل، وقسم الباقي بين المسلمين.

أقول: من الغريب أن يزعم هؤلاء، أن عمر اعتبر أراضي سواد العراق من الفيء، كأن المسألة كيفية!! وقد فتحت عنوة بإيجاف الخيل وصولة الجيش في المعارك الحربية، وأغرب من ذلك أن يزعموا أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه اعتبر أيضاً أراضي خيبر من الفيء! وقد فتحت عنوة!!

ما أبعد الفرق بين توزيع أموال الغنائم وأموال الفيء، وقد ذكرنا سابقاً آية توزيع الغنيمة، وها نحن أولاء نذكر آية تعريف الفيء وطريقة توزيعه:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ (الحشر: ٦). ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ (الحشر: ٧).

فهل يتصور العقل أن يعتبر عمر أراضي العراق من الفيء وقد فتحت عنوة وحرباً؟!.

أم هل يتصور العقل أيضاً أن يعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام أراضي خيبر فيئاً، وقد فتحها بالحرب والقتال؟!.

إن هؤلاء لما رأوا عدم توزيع أراضي العراق وخيبر حسب آية الغنائم لجأوا إلى هذه التأويلات، زاعمين أنها اجتهادات من عمر!.

ومن المؤسف أن هؤلاء المدعين لجأوا إلى تتمة آية الفيء في سورة الحشر السابقة لإثبات دعواهم وهي: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ . . الخ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الخ. . . ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وزعموا بأن الخليفة عمر بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ قال للمجاهدين الذين طلبوا توزيع الأراضي: «ما أرى هذه الآية إلا عمت الخلق كلهم حتى الراعي بكداء».

ومن الغريب أن الحشر جاءت كلها في الفيء فكيف يعقل أن يحتج بها الخليفة عمر لرد طلب المجاهدين في توزيع الأراضي التي فتحت عنوة؟!.

والصواب أن هذا الخليفة إنما استشار المسلمين في طريقة توزيع أموال الفيء، لا أموال الغنائم.

جاء في كتاب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي. أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والبيهقي عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول: اجتمعوا لهذا المال فانظروا لمن ترونه. ثم قال لهم: إني أمرتكم أن تجتمعوا لهذا المال فتنظروا لمن ترونه، وإني قرأت آيات من كتاب الله، أفلقتني: سمعت الله- تعالى- يقول: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ - إلى قوله- ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر: ١٠) والله ما هو لهؤلاء وحدهم، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ - إلى قوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ - والله ما أحد من المسلمين إلا له حق في هذا المال أعطي منه أو منع منه حتى راع بعدن. . وقسم عمر ذات يوم من المال فجعلوا يثنون عليه، فقال: ما أحمقكم! لو كان لي ما أعطيتكم درهما!اهـ.

ومما سبق ندرك أن اجتهاد عمر - رضي الله تعالى عنه- كان في طريقة تقسيم الفيء لا الغنائم خلافاً لما ذكره من نحن بصددهم.

نعود بعد هذه التوطئة إلى الكلام على حجة الخليفة عمر في عدم توزيع أراضي العراق على المحاربين نقلاً عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ومنه

ندرك ونتحقق أن هذا الخليفة لم يكن مجتهداً، خلافاً للنص، إنما كان متبعاً للنص النبوي.

جاء في كتاب زاد المعاد:

«... والإمام مخير في أرض العنوة بين قسمها، ووقفها وقسم بعضها، ووقف البعض، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأنواع الثلاثة: فقسم قريظة والنضير- أي على المحاربين - ولم يقسم مكة. وقسم شطر خيبر، وترك شطرها»[1].

فيكون عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه- اختار في أراضي العراق ما فعله الرسول في مكة.

وقد يعترض على هذا الكلام معترض، فيقول إن مكة لم تفتح عنوة، وهذا الاعتراض مردود!.

قال الإمام ابن القيم:

والذي يدل على أن مكة فتحت عنوة وجوه: أحدها أنه لم ينقل أحد قط أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صالح أهلها زمن الفتح، ولا جاءه أحد منهم صالحه عن البلد، وإنما جاءه أبو سفيان، فأعطاه الأمان لمن دخل داره، أو أغلق بابه أو دخل المسجد أو ألقى سلاحه.

ولو كانت قد فتحت صلحاً لم يقل: من دخل داره أو أغلق بابه أو دخل المسجد فهو آمن، فإن الصلح يقتضي الأمان العام. والثاني أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين وإنه أذن لي فيها ساعة من نهار، وفي لفظ أنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وفي لفظ فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقولوا: «إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم» وإنما أذن لي ساعة من نهار. وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس».

وهذا صريح في أنها فتحت عنوة، وأيضاً فإنه ثبت في الصحيح أنه جعل يوم

(١) ٢/ ١٣٧ باختصار.

الفتح خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى وجعل أبا عبيدة على البيادقة وبطن الوادي. . وأيضاً فإن أم هانئ أجارت رجلاً، فأراد علي بن أبي طالب قتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» وأيضاً ففي السنن بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان يوم الفتح قال: «أمنوا الناس إلا امرأتين وأربعة نفر اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة». والله أعلم[1].

أكتفي الآن بهذا القدر، آملاً أن أكون وفقت لإقناع الذين كتبوا في اجتهادات عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، إلى مبلغ حرص هذا الخليفة الراشد على نصوص الشريعة وتمسكه بها، وقد كان اجتهاده ينحصر في تقديم نص على آخر رأى فيه مصلحة للمسلمين.

وفي ذلك بلاغ لمن كان له قلب، أو القى السمع وهو شهيد.

* * *

(١) زاد المعاد (٢/ ٦٩- ٧٠) باختصار.

الإنسان العربي بين الجاهلية والإسلام

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

عاش الإنسان العربي قبل الإسلام في جاهلية عمياء، وفي ظلمات بعضها فوق بعض، فكانت العصبية القبلية على أشدها، شعارها: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» بمعناها الضيق البغيض، فكانت الحرب- على الرغم من ويلاتها - ملهى لهذا الإنسان، وسفك الدماء من أعظم ألهياته. كما كانت الوثنية والخمر والقمار من أبرز مظاهر حياته.

وكان يعامل المرأة معاملة سيئة فيعبث بها، ويأكل حقوقها، ويرثها كما يرث الدابة والمتاع، بل يروح أيضاً يكرهها على[1] الزنا- كما وصفه القرآن- ويأخذ أجرها.

قال تعالى في النهي عن ذلك: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ (النور: ٣٣).

وقد خضع الإنسان العربي في الجاهلية للاستعمار الفارسي في العراق واليمن، وللاستعمار الروماني في الشام، في أبشع صوره وأذل أشكاله.

وما كانت حال الإنسان العربي في الحجاز بأحسن من حالها في الشام والعراق، فكان شبه مستعمر للرأسمالية اليهودية عن طريق الربا أضعافاً مضاعفة

(١) لا نعتقد أن ذلك كان يمثل ظاهرة عامة في العرب حتى ندمغهم جميعاً بهذا العيب، وقد كانوا غيارى على محارمهم، كما كانوا يحترمون المرأة وينزلون عند رأيها بل إن من كبارهم من كان ينتسب إلى أمه، وهذا لا يمنع من وجود بعض الصفات التي ذكرها الكاتب في بعض الأفراد كما في كل مجتمع مما جعل القرآن الكريم يعنى باجتثاثها لتطهير المجتمع الإسلامي تطهيراً كاملاً. «الوعي الإسلامي».

حتى استولت على كثير من أراضيه، علاوة على الفتنة التي كانت تثيرها بين القبائل العربية لإشعال نيران الحروب بينها حتى كادت تهددها بالفناء.

● **انحراف وفراغ مخيف**

هذا وصف مجمل للإنسان العربي في الجاهلية الأولى. انحراف في العقيدة، انحلال في الأخلاق، فكان في طريقه إلى الاحتضار والانتحار.

إنا لنتصور هذا العربي المضطرب الضال، وهو يضرب في صحرائه على غير هدى، حائراً من هذا الكون الذي يحيط به، مقصراً في استعمال طاقته على هذه الأرض، لا يعرف كيف يحيا حياته، أو يستغل وجوده، ولكنه يتمنى لو خرج من هذه الحيرة، وجلا عنه هذا الظلام، فما هذه الحروب التي كانت تشتعل دونما أدنى تفكير أو وعي، إلا هرباً من هذا الفراغ، وقتلاً للوقت الذي يحويه... وما هذه العادات المتطرفة لدرجة القبح والشر التي ألمت بالعربي حيناً من الزمن إلا محاولة لقهر هذا الفراغ الذي لا يحصل ضمن أجوائه أدنى معنى للوجود، وأية غاية للحياة.

تصوروا هذا الإنسان وقد أفرغ نفسه إلا من تأملاته، وجرد عقله إلا من تفكيره الخاص، وأبقى قلبه وروحه في صفاء غريب، لا ينعكس عليهما إلا إحساسات حب عابر، وتشوفات تأملية... سريعاً ما تتحول إلى وجد وبكاء وذكرى، وأناشيد تصدح في الصحراء، على ألسنة الحداة... لم يزل صداها يرن في أعماقنا إلى اليوم.

● **في رحاب الإسلام**

تصوروه بعد هذه الشكوك التي ألمت به، وبعد هذه الاضطرابات التي عصفت بشخصه، وقد رأى أمامه فجأة كل ما يريد.. وكل ما يشبع ميوله ونزعاته إلى الحرية والجهاد والسمو.. إن المفاجأة لاشك قد أخذته ولم يستطع أن يصدق كل ما يرى، فهب لمقاومته، ثم وقف على شاطئه حذراً، ثم اقترب رويداً رويداً، حتى إذا اطمأن إليه وأنس له، عب منه بامتلاء، فأصبح الحياة التي تعاش، والرسالة التي تخدم، والمصير الذي يريد.

لقد كان العربي فارغاً. فإذا بالإسلام يملؤه، ويفيض من جوانبه، وإذا به يمنحه شخصية جديدة كل الجدة، كانت شخصيته القديمة أساساً لها، ويظل ثلاثاً وعشرين سنة، مدة البعثة، في كفاح مرير وعلم مستزيد وتطور مستمر، حتى ينتهي ذات لحظة إلى ما يشبه الكمال، وهو الذي تاقت نفسه للكمال المطلق، بعد أن امتلأ هذا الامتلاء الثري بالإسلام.

إن أي شخص في العالمين وجد على الأرض ما استطاعت فلسفة أو عقيدة أو دين أن يعطيه عشر ما استطاع الإسلام أن يعطيه للعربي[1].

● **من الضعف إلى القوة**

لما بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأشرقت على هذا الإنسان العربي شمس الإسلام، انقلب شركه إلى إيمان، وانحلاله إلى قوة، وذله إلى عزة، فسارع إلى تحرير بلاده من اليهودية في الحجاز، ثم من الفرس والرومان في سورية والعراق.

في طريق المجد.

وتقدم بعد ذلك شرقاً وغرباً حتى فتح الهند والصين، وأسبانيا وقسماً كبيراً من فرنسا.. كل ذلك بسرعة عجيبة أدهشت علماء الغرب فراحوا يطلقون على هذه الحادثة التاريخية اسم «المعجزة العربية».

لم تقتصر مهمة الإنسان العربي على هذا الفتح المبين بل أنشأ دولة عربية امتدت حدودها من المحيط الكبير شرقاً، إلى المحيط الأطلسي غرباً، وبلاد القفقاس شمالاً إلى إندونيسيا جنوباً، وقد قامت هذه الدولة بأعظم نصيب في إشادة الحضارة، بما قدمته من العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية والجغرافية، على أيدي علماء، ما زالت تدرس نظرياتهم وكتبهم في الجامعات العلمية إلى عصور متأخرة، وكانوا من أعظم أسباب يقظة الغرب والجيد من مدينته الحاضرة، كما شهد بذلك كثير من علماء الغرب أنفسهم.

---

(١) مأساة العربي المسلم ص (٤٣- ٤٤).

● **والفضل ما شهدت به الأعداء**

قال يربفولت في كتابه «تيار الإنسانية»:

«لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الإسلامية على العالم الحديث. . إن ما يدين به علمنا لعلم المسلمين ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة الإسلامية بأكثر من هذا: إنه يدين لها بوجود نفسه».

ثم ضرب الأمثلة الكثيرة على فضل العرب والمسلمين ولم يقتصر علماء الغرب المنصفون على الإشادة بفضل الإنسان العربي على المدنية، بل راحوا يألمون لانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقي في معركة بواتيه في فرنسا.

يقول كلودفارير في المقدمة التي كتبها للترجمة الفرنسية من رواية العباسة أخت الرشيد تأليف جورجي زيدان: «أصيبت الإنسانية والعالم الغربي عام ٧٣٢ بكارثة عظمى لم تصب بمثلها في القرون الوسطى، وبقي أثرها ظاهراً في العالم مدة سبعة قرون أو ثمانية قرون، إن لم يكن أكثر من ذلك لأن روح التجدد كانت يومئذ قد بدت للعيان، حتى وقعت تلك الكارثة، فكان من نتائجها تأخر سير الحضارة، ورجوع العالم إلى الوراء، هذه الكارثة هي الانتصار المؤلم الذي أحرزه وحوش «الكاركا» من جيوش الإفرنج، التي كان يقودها «شارل مارتل» سليل الكارلنجيين، محارباً بها كتائب العرب التي لم يحسن عبد الرحمن جمعها وحشدها بالمقدار الكافي، فكان ذلك سبب خذلانها وتقهقرها.

(في ذلك اليوم المظلم تقهقرت الحضارة إلى الوراء ثمانية قرون).

● **ظهور الإسلام خاتمة العصور القديمة**

لم يقتصر الغربيون على الإشادة بفضل الإسلام على المدنية، بل راح الأستاذ «بيرون» يعلن في المؤتمر الدولي للعلوم التأريخية الذي عقد بمدينة «أوسلو» عاصمة النرويج في ١٤ آب ١٩٢٩ دعوته التي أعلنها في المؤتمر الخامس الدولي، إلى اعتبار ظهور الإسلام هو خاتمة العصور القديمة، وبداية إيقاظ

الإنسانية في أول عصورها المتوسطة حيث بدأت أوروبا الغربية تكون مدنية جديدة وحياة جديدة، يجب معها اعتبار هذا الحادث العظيم هو بداية الوسيط[١].

● **مبادئ قوية**

وقد كان الإنسان العربي في ظلال الإسلام إيجابياً يؤمن بالقدر كقوة للاندفاع والنضال والعمل، فلا يخشى أحداً إلا الله، ويثور على التواكل وينكر الجبر، ويعتقد أنه مسؤول وحر، كما يعتقد أن الله سخر له ما في السماوات والأرض إذا هو قام بدوره بحق.

أصغى هذا الإنسان إلى النداء الإلهي، ومثل دوره في ميدان الجهاد والحضارة أعظم تمثيل، فدخل التاريخ بدور بطولي وقيادي وتبوأ سدرة المجد، والفخار والسؤدد.

● **صورة الإنسان العربي المسلم**

وقد أحببت بمناسبة الكلام على الإنسان العربي المسلم أن أنقل صورة رائعة من ألوف صوره التي تمثل مبلغ قوة شخصيته وشجاعته، واحتقاره للمظاهر الجوفاء، ومبلغ فهمه لمبادئ الإسلام.

أرسل سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية «ربعي بن عامر» رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحريرية، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وكان على رستم تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، ليدهش الرسول وينقل أخبار عظمته إلى المسلمين ليهابوه.

ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس

---

(١) ومما يؤسف له أن جميع مؤرخينا ومؤلفينا بحكم فقدان الشخصية العربية وبحكم التقليد الأعمى للمؤرخين الغربيين المتعصبين لا يزالون يعتبرون انقسام الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية يتطرقون إلى ظهور الإسلام كأعظم حادثة تافهة ولا يتطرقون إلى ظهور الإسلام كأعظم حادثة تاريخية في العالم كما ينادي المؤرخ الغربي نفسه! فيا لقلة الوعي وضعف الشخصية!! «الوعي الإسلامي».

بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته فوق رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له.

فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها.

فقال له رستم: ما جاء بكم؟

فقال ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

ثم خرج ربعي وقد ملأ قلب قائد الفرس وجنده هلعاً ورعباً، بقوته المعنوية التي غرسها فيه الإسلام.

راحت العصور تمر، ونجم الإنسان العربي يتألق، وجيوشه تهزم الأعداء في كل المعارك، وأساطيله تشق عباب البحر، وتستولي على الممالك، ومدنيته تعم الخافقين.

● **مؤامرات الشعوبية**

وعلى حين غفلة، استيقظت الشعوبية الغادرة اللئيمة، وقد ساءها مجد هذا الإنسان العربي الذي ملأ الدنيا، وشغل الناس، وقضى على ملكها وجبروتها، فأكل الحسد والحقد قلبها فراحت تنسج الخطط، وتدبر المؤامرات، وتحيك الدسائس على توالي السنين، لم تمل، ولم تهدأ، فعمدت إلى مصدر هذا المجد، فعكرت نبع الإسلام الصافي، وأثارت الفتن، وحولت تياره القوي نحو الداخل، بعدما قهر إمبراطوريتين من أعظم إمبراطوريات التاريخ.

● **تخدير المارد**

ولم تكتف هذه الشعوبية بكل ذلك، بل أخذت تسعى لتخدير المارد العربي بسموم الأوهام والبدع والخرافات وغيرها من المبادئ الوثنية المميتة، وزهدته

بالعلم والجهاد، ورغبته بالخلوات المظلمة، والتشرد بالبراري والقفار، وأنشأت له الزوايا والتكايا بدلاً من حلقات المعرفة والدراسة، ليخلد إلى الكسل والبطالة والفسق، وزينت له عقيدة الجبر والخضوع ليستسلم للأحداث، وصرفته عن عبادة الله وحده مصدر قوته وعظمته، إلى عبادة الأنبياء والأولياء، فراح هذا الإنسان العربي يرتمي على عتباتهم، ويتمسح بتراثهم، ويقدم لهم النذور والقرابين مستعيناً بهم في الملمات، وفي قضاء الحوائج، وقلبه يرتجف خوفاً وجزعاً منهم.

هذا في ميدان العقيدة، أما في ميدان العبادات، فقد زينت هذه الشعوبية لهذا الإنسان العربي التعصب المذهبي والتقليد الأعمى، مما قضى على البقية الباقية من تفكيره وشخصيته، فاتخذ شيوخه وأئمته أرباباً من دون الله، يحللون له ويحرمون، فبعد عن الإسلام وعن الله، وهو يحسب أنه لا يزال يعبده.

وكان من نتيجة بعده عن كتاب ربه وسنة نبيه، انقسامه على فرق وشيع يقاتل بعضها بعضاً، وهذا جزاء من يترك النور الهادي والصراط المستقيم ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٣ - ١٢٤).

● حملات الصليبيين والتتار

وبعد تخدير الشعوبية للإنسان العربي، عمدت إلى تأليب الصليبية والتتار عليه وعلى بلاده، فجاسوا خلال الديار وأعملوا القتل والذبح في صفوفه، وهدموا مدنيته وألقوا تراثه الفكري والعلمي في اليم.

فاستفاق إنساننا العربي على هذه الضربات الشديدة يستحث الخطا ويثير العزائم، فاستطاع طرد هذه الزحوف الأجنبية حقبة من الزمن، ولكنه ما لبث أن عاد إلى غفوته بتأثير أفيون الشعوبية، فعاش بعيداً عن مثله العليا الإسلامية، زاهداً في الحياة مستسلماً للأحداث، غارقاً في الأوهام، يوجه- حتى في المساجد وفي دروس الوعظ والإرشاد- توجيهاً بليداً ومخدراً، وما زال على هذه الحال حتى فاجأه الغرب في العصور الحديثة بقواه المادية، فتقهقر أمام حملات

المستعمرين ودسائس المستشرقين الذين زينوا له الإلحاد وحببوا إليه الإباحية، ورغبوه بترك تراثه وتقليد الغرب في تقاليده، فسقط صريعاً وانطمرت شخصيته تحت ركام المؤامرات، وخدعوه وأوهموه أن إسلامه هو الذي كان سبب نومه وانحطاطه، كل ذلك ليزهدوه بهذا الدين العظيم الذي حول في القديم طاقاته وخاماته إلى قوى جبارة قيادية، فتحت الدنيا، ومدنت العالم.

● **على مفترق الطرق**

إن الإنسان العربي اليوم على مفترق الطرق. فإما أن يختار طريق المستعمرين والمستشرقين، فيصغي إلى دسائسهم عن الإسلام، فيضيع شخصيته، ويدفن تراثه؛ ويفقد ذاته، ويضيع في متاهات الغرب، كما يضيع الجدول في رمال الصحراء، بل يشقى إلى الأبد كما يشقى الغرب نفسه اليوم بسبب أنظمته الوضعية التي تقوده إلى الهلاك وإلى انهيار الحضارة كما تنبأ بذلك كثير من فلاسفته.

وقد جرب هذا الإنسان العربي بذاته هذا الطريق، فغدا ألعوبة بين هذا وذاك، وفقد كثيراً من أجزاء بلاده، وغدا مهدداً بضياع الأجزاء الأخرى.

وإما أن يستيقظ، ويفهم إسلامه فهما جديداً، كما فهمه أسلافه المجاهدون، ويعمل حسب منهاجه، ولا يرضى بديلاً من التشريعات والأنظمة الوضعية مهما قويت الدعاية لها، وينطلق من قيوده، غير مصغ لدسائس الشعوبيين والمستعمرين والمستشرقين.

وبذلك يعيد سيرته الأولى كقوة مستقلة، ومعسكر لا شرقي ولا غربي، فيقود قافلة الإنسانية كما قادها من قبل، وينقذ الحضارة من السقوط والانهيار.

التعليم الجامعي

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

في رسالة من الكاتب الكبير والمؤلف الإسلامي المعروف الأستاذ محمود مهدي استانبولي وجهها إلى السادة مديري الجامعات العربية وأساتذتها من أجل تجديد الإرادات وشحذ الهمم والسير في دروب الإصلاح الصحيح لإنشاء جيل جديد يتحمل التبعات وإعادة المجد الضائع. وقد صدر هذه الرسالة بقوله: إن التعليم الجامعي في الحالة الراهنة لا يستطيع أن يقوم بهذا الدور القيادي والعمل المصيري. ما لم نحدث انقلاباً جذرياً في مناهج الجامعة وأساليبها وامتحاناتها. وما لم نعد إلى ذاكرتنا أهداف هذا التعليم بصورة واضحة.

وتناولت الرسالة بشيء من التفصيل أهداف التعليم الجامعي الذي ينشد إعداد صفوة من الشباب الطموح الوثاب لقيادة أمتهم في الميادين المادية والروحية وهذا لا يتم إلا بتعليم يقوي في الطلبة الشعور بالتبعية، ويدفعهم إلى الحرية في البحث والاستقلال في الرأي. يتعرفون على مشكلات أمتهم ووطنهم، ويساهمون في وضع الحلول لها بإبداع ودراسة وتخطيط. . كل ذلك بموضوعية وشمول خاليين عن التعصب والهوى، وبروح جامعية بعيدة عن السطحية والغرور.

وتطالب الرسالة بأن تعمل الجامعات على تشجيع البحث العلمي والعمل على تقدم المعارف الإنسانية والكشوف العلمية. وتصنيع التعليم في مختلف درجاته وخاصة التعليم الجامعي، كما تركز الرسالة على ضرورة السمو بالقيم

الروحية لدى الطالب الجامعي.

ويستثير الواقعُ المؤلمُ الذي تعيش فيه الأمة العربية صاحبَ الرسالة، فيقول في خاتمتها: آمل أن توقظ هذه النكسة النائم. وتنبه الوسنان، وتشحذ الهمم شأن الأمم الحية التي تحيي النكسات نفوسها. وتثير عزائمها. وقد قال أحد الكتاب: لا شيء يجعلنا عظماء كالألم.

لنذكر الأعداء والأحزاب من يهود وكفرة الذين أحاطوا بالعروبة المسلمة من الداخل والخارج في غزوة الخندق فاستعدت وصبرت حتى تم لها النصر..

لنذكر هذه العروبة في غزوة أحد يوم انقض عليها الأعداء من أعلاها وأسفل منها، فأصيبت بنكسة رهيبة، فجمعت شملها، وشحذت إراداتها، وجددت عزيمتها فعاد لها النصر.

لنذكر الوقفة البطولية للإمام ابن تيمية يوم أنقذ الشام من غزوة التتار بإيقاظه للنفوس اليائسة حتى تحقق النصر.

لنذكر في العصر الحديث ما أصاب فرنسا في أول الحرب العالمية الثانية.

وما أصاب ألمانيا واليابان في نهايتها من نكسات قاصمة حتى ظن الكثيرون أنه لن تقوم لهذه الدول قائمة ولكن سرعان ما غالبت الصعاب، وصارعت النكبات، وسخرت بالمصائب، وقدمت التضحيات حتى أعادت قوتها، واسترجعت مكانتها بين الدول الكبرى.

إن حياتنا في سباق بين العلم والجهل.. بين الجهل والعلم.. بين التخطيط والتخليط.. بين المنهج والغرض.. بين المجد والدمار.

نرى أن يكون لنا تربية قوية وتعليم صحيح، يجعلاننا نسخر من النكبة، ونضحك للنكبة، ونبعث أمتنا من جديد.

الشخصية الإسلامية في معركة إثبات الذات

العدد (٤٢) جمادى الثانية (١٣٨٨هـ) - اغسطس (١٩٦٨م).

لقد حرص الإسلام- هذا الدين الواعي- حرصاً عظيماً على توطيد دعائم الشخصية الإسلامية لتبقى متميزة عن غيرها بمعالمها الواضحة كالشمس بين الكواكب. صوناً لبقاء الأمة الإسلامية وحمايتها من الانحلال، فإنه ليس أسرع لضياع الأمة -أية أمة- من فقدان شخصيتها وذوبانها في تقاليد أمة أخرى وعاداتها.

لذا نجد المستعمرين يسارعون- أول ما يسارعون- إلى فرض عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم على الشعوب المستعمرة بمختلف الأساليب والوسائل، من أجل ضياعها وتلاشيها، وذهاب ريحها، ومن ثم اعتناق دين هؤلاء المستعمرين والميل إليهم لتعيش هذه الشعوب على مائدتهم، وتصبح خدماً لهم، كما حدث لزنوج أمريكا الذين يحبون اليوم عيشة الذل والاسترقاق، على الرغم من تشبههم بالغربيين، وتقليدهم لهم في كل شيء.

إن الغربيين ينظرون إلى غيرهم- ولو اعتنقوا دينهم- على أنهم برابرة وفقاً للمبدأ الروماني الذي قسم العالم قسمين: (غربيين وبرابرة).

وينبغي أن يتأكد المسلمون أن الغربيين لا يزالون يحملون نفوس الرومان وشراستهم وهمجيتهم، وإن تقدموا، وتقدمت بهم العصور، إنما يتميزون عليهم بأنهم يحاربون بالقذائف والصواريخ، بدلاً من الرماح والحراب، فهم لذلك أكثر إجراماً، وأشد فتكاً من جدودهم الأقدمين، وقد رأينا جرائمهم في سورية وفلسطين والجزائر وعمان وليبيا وغيرها من البلدان الإسلامية.

وعلى الرغم من بغض الغربيين للمسلمين كشرقيين، فهم يرغبون في تنصيرهم - والعياذ بالله- من أجل تحطيم معاقل الدفاع في نفوسهم، لما يعلمون من قوة

الإسلام في نفوس أتباعه، وقد أدركوا ذلك في فتوحات المسلمين لبلاد الشام وفارس، وقضائهم على إمبراطوريتين من أعظم إمبراطوريات العالم القديم، وجربوه في حروبهم الاستعمارية في شمال إفريقية، وفي الشرق الأوسط، لذلك فهم يرغبون في تخلي المسلمين عن دينهم، وقد خصصوا من أجل ذلك جميع وسائل الإعلام، من كتب ومجلات وإذاعات وأفلام، وحشدوا جميع قواهم المادية والمعنوية من أجل تحقيق ذلك في أضخم غزو ثقافي وعسكري عرفه العالم.

لقد أعلن الإسلام حرباً لا هوادة فيها على تقليد المسلمين لغيرهم وأعلن أن «من تشبه بقوم فهو منهم» وفي هذا من التهديد ما فيه، وقد كان حرص هذا الدين العظيم على تمييز الشخصية المسلمة على غيرها من أول يوم مدعاة دهشة أعدائه حتى راح اليهود يقولون في عصر النبي ﷺ: «ما يريد محمد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه».

ومما يؤسف له، ويبعث في النفس الأسى والألم أن نجد المسلمين اليوم - أغلب المسلمين- على الرغم من جميع التوجيهات الإسلامية في التحذير من التشبه بغيرهم قد عم بينهم داء التشبه بهم في جميع مرافق حياتهم، حتى بات من المتعذر التمييز بينهم وبين الأجانب في عاداتهم وتقاليدهم، وغدوا تبعاً للغرب في كل ما يأتي به، حتى ولو كان فيه ضياع الأخلاق وانحلال الذات ومحاربة اقتصاديات الوطن الإسلامي.. وهم لا يعبأون بكل ذلك، ظانين أن هذا الأمر بسيط لا خطر فيه ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥).

وأسوق فيما يلي بعض الآيات والأحاديث في النهي عن التشبه بالكفرة والتحذير من تقاليدهم.

● **جاء في القرآن العظيم**

* ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ - الخطاب لموسى وهارون - ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٩).

* وقال موسى لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢).

* ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ (النساء: ١١٥).
* ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ - أي أهواء الكفار- ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ (المائدة: ٤٩).
* ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة: ١٢٠).
* ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الجاثية: ١٨).

أما الأحاديث فهي قول الرسول ﷺ:

* «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟
* «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا في خفافهم».
* «إياكم ولبوس الرهبان، فإنه من تزيا بزيهم أو تشبه فليس مني».
* «... ومن تشبه بقوم فهو منهم».

ومما ينبغي التنبه إليه بهذه المناسبة أن التهافت على تقاليد الغربيين أو التشبه بهم في عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم قد بلغ أشده في زماننا ظناً منا بأن ذلك يلحقنا بركابهم ويجعلنا مثلهم ويجلب لنا احترامهم وهذا ظن خاطئ[1]، فإن تقليدهم والتشبه بهم في هذه العادات والتقاليد لا يزيدهم إلا احتقاراً لنا، بسبب

(١) قال الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (ج١ص٤٥) لا.. لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء- وهي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي: أن نسير سير الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها (كذا) حلوها ومرها، وما يحب منها ويكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخادع!!

فقدان شخصيتنا وتلاشيها أمامهم، شأننا شأن القردة التي تضحك منها الناس نتيجة تقليدها لهم!

وكذلك هذا التقليد، وهذا التشبه لا يجعلاننا أقوياء أيضاً، لأن القوة بالعلم الصحيح، والاستعداد المادي العظيم والصناعة المهنية والعسكرية، وكل ذلك تراث إنساني مشترك من واجبنا اقتباسه وإلا كنا متأخرين وضعفاء في الدنيا وآثمين عند الله يوم القيامة.

ولنعلم أن الغربيين لا يحترمون ولا يهابون إلا القوي بصرف النظر عن عاداته وتقاليده.

ومما يؤسف له أن هذه الحضارة الغربية المادية التي بهرت أنظار الكثيرين وخدعت عقولهم، حتى راحوا يطالبوننا في الارتماء بين أحضانها، والأخذ بخيرها وشرها تحمل في طياتها جراثيم الانهيار والسقوط كما تنبأ لها علماء الغرب أنفسهم بسبب انهماكها باللذات وانصرافها إلى المادة، وتخليها عن القضايا الدينية والقيم الروحية.

ولنستمع الآن إلى شهادات الفلاسفة والمؤرخين المعاصرين في هذه الحضارة التي زهدت الكثيرين من المسلمين المغفلين في إسلامهم نتيجة مختلف أنواع الدعاية والإعلام حتى ظنوها المثل الأعلى الذي ليس بعده مطمع لطامع.

● **جاء في كتاب «فلسفة الحضارة»**

«الخاصة المروعة في حضارتنا هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير من تقدمها الروحي، لقد اختل توازنها، فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، قد أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض، وبين الجماعات، وكذلك بين الدول، فأثرت معارفنا، وازدادت قواتنا إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله، وبهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح، لكن حماستنا للتقدم والمعرفة وأسباب القوة التي بلغناها، تصور الحضارة تصوراً ناقصاً معيباً، فإننا نغالي في تقدير إنجازاتنا المادية ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره.

ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير، إنها تقول بلسان حاد: إن الحضارة التي تنمو فيها النواحي المادية، دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح، هي أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضى عليها».

وقال «أرنولد تونبي» المؤرخ الحضاري المعاصر في كتابيه: «الحضارة والغرب» و«الحضارة في محنة».

«إن الحضارة الغربية تمر الآن في طور من التدهور والانحلال الذي مرت به الإمبراطورية الرومانية من قبل، من أجل ذلك كانت فنون الصناعة والاقتصاد وغيرهما من المعارف علوماً غير كافية لتوفير أسباب الاستقرار والسعادة للمجتمع الإنساني، وكانت الروابط الروحية والخلقية والفكرية هي العمد التي يقوم عليها صرح المجتمع ويتماسك بها بناؤه».

وقد عبر العالم النفساني «قلدوكال» عن ضلال الحضارة الحديثة وخلوها من الهدف بقوله: «إن سيرنا أشبه بسير طائرة تقطع محيطاً عظيماً بسرعة فائقة، ومع أن ملاحيها لا يعلمون أين هم؟ ولا إلى أين يتجهون، فإنهم يستمرون في السير، جادين في استخدام آلاتهم، ومؤملين أن ذلك سوف يؤدي بكيفية ما إلى نتيجة ما»[1]. وهيهات هيهات فإن السقوط محتم.

ومع هذه الحقائق نرى أكثر زعماء العالم الإسلامي وقادته، لا يزالون يبذلون الجهود الجبارة والأموال الطائلة بقصد السير في طريق الغرب مما كان له أعظم الأثر في انحطاط المسلمين وشقائهم.

وكان الجدير بهؤلاء القادة والزعماء للعالم الإسلامي، وهم حملة أعظم تراث إسلامي وذخر حضاري، ونظام سماوي أن يقودوا قافلة البشرية الضالة نحو المدنية الصحيحة بدل أن يكونوا مقلدين لغيرهم من السائرين في طريق الضلال والهلاك.

وما أروع ما قاله المستشرق لويس ماسينيون:

---

(١) نقلاً عن كتاب «اتجاهات في التربية الحديثة» للأستاذ محمد فؤاد جلال (ص٢٦).

«ومن حق العرب علينا نحو ضيوفهم، والوافدين عليهم من مثلي أنا والأستاذ فانتاجو، أن نرفع الصوت عالياً طالبين إليهم المقاومة، أن يقاتلوا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم وتراثهم، والاستسلام أمام القوة الغربية ورؤوس الأموال المصرفية التي تطلب إليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة، حضارة الإنسان الآلي التي لم تعد تؤمن بنفسها أو بالذات الإلهية، وتصبو إلى إخضاع العالم إلى نظامية ثقافية أمريكية بلهاء. إن هذا الإنتاج الصناعي المغشوش سيسقط سريعاً وشيكاً. ليصمد العرب فالعالم بحاجة إليهم»[١].

ويطيب لي بعد هذا أن أضع أمام القارئ بعض الحقائق التي يقررها هذا الرجل الذي أسلم وفقه الإسلام مع فقهه بالحياة.

يقول الأستاذ محمد أسد[٢]:

إن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها، إن المدنية ليست شكلاً أجوف فقط، ولكنها نشاط حي، وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتقبل شكلها، تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلاً معيناً، ولكن ببطء، ومن غير أن نلحظ ذلك.

ولقد قدر الرسول ﷺ هذا الاختيار حق قدره حينما قال: «من تشبه بقوم فهو منهم». وهذا الحديث المشهور ليس إيماءة أدبية فحسب، بل هو تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها...

إن الميل إلى تقليد التمدين الأجنبي نتيجة الشعور بالنقص- هذا، ولا شيء سواه، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية.

وكيما يستطيع المسلم إحياء الإسلام يجب أن يعيش عالي الرأس، يجب عليه أن يتحقق أنه متميز، وأنه مختلف عن سائر الناس، وأن يكون عظيم الفخر لأنه

---

(١) نقلاً عن كتاب «المعجزة العربية» لماكس فانتاجو (ص٥).

(٢) في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» ص (٨١-٨٦).

كذلك، ويجب عليه أن يكد ليحتفظ بهذا الفارق على أنه صفة غالية، وأن يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعة بدلاً من أن يعتذر عنه بينما هو يحاول أن يذوب في مناطق ثقافية أخرى. على أن هذا لا يعني أن المسلمين يجب أن يصموا آذانهم عن كل صوت يأتي من الخارج، فإن أحدنا يستطيع أن يتقبل مؤثرات إيجابية جديدة من مدنية أجنبية ما، من غير أن يهدم مدنيته ضرورة، والنهضة الأوروبية أحسن مثل في هذا الباب، فقد رأينا كيف أن أوروبا تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيب خاطر، ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط.. الخ.

ثم يقول: وفي هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الإسلام أن يظل شكلاً أجوف. لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالاً، فيجب أن ينهض أو يموت. إن المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق الطرق، إنه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه، ولكن معنى هذا أنه سيموت جوعاً، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان: «نحو المدنية الغربية» ولكنه حينئذ يجب أن يودع ماضيه إلى الأبد، أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها «إلى حقيقة الإسلام» إن هذه الطريق وحدها هي التي تستميل أولئك الذين يعتقدون بماضيهم، وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي.

أجل ينبغي أن يختار المسلمون من جديد الطريق التي كتب عليها «إلى حقيقة الإسلام». فليس طريق سواها تضمن لهم عزتهم ومجدهم، وقد جربوه في الماضي، فوحد كلمتهم وجعلهم سادة الدنيا وأساتذة العالم، وجربوا غيره فضلوا وشقوا وباءوا بالخزي والعار.

* * *

في رحاب الأماكن المقدسة

العدد (٦٠) ذو الحجة (١٣٨٩هـ) - فبراير (١٩٧٠م).

تحدث الكثير من الكتاب والأدباء عن عظمة الجيل المثالي الذي أنشأه سيدنا محمد رسول الله ﷺ لأول مرة في تاريخ الإنسانية، فكان مثار الإعجاب والدهشة بعبقريته وبطولته وحسن سيرته، حتى من الغربيين أنفسهم، فراحوا يطلقون على هذا الانقلاب الفكري التربوي اسم «المعجزة العربية».

وقد كان إعداد هذا الجيل حلم الفلاسفة من أيام أفلاطون «٤٣٠ - ٣٤٨) ق.م في كتابه «الجمهورية»، والفارابي (٢٦٠- ٣٣٩)هـ في كتاب «المدينة الفاضلة» إلى عصر توماس مور (١٤٧٨- ١٥٣٥) في كتابه «يوتوبيا».

ولم يكن فضل رسولنا العظيم ليقتصر على سبق هؤلاء الفلاسفة في تحقيق هذا الحلم فحسب، بل إنه رسم المخططات والمناهج التربوية الرائعة، بوحي من ربه سبحانه، حتى جعل من أمته: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ففتحت الدنيا ومدنت العالم، وأنقذت الإنسانية من الظلمات إلى النور، بينما ضل هؤلاء الفلاسفة ضلالاً بعيداً في رسم هذه المخططات والمناهج، ولا يزال هذا الضلال إلى يومنا هذا، حيث يعاني الجيل- وخاصة في الغرب- أزمات رهيبة حتى بات يهدد الأمن والسلام بسبب ما يشعرون به من قلق وفراغ نتيجة حرمانه من الدين الصحيح.

وما أشد حاجة المسلمين، بل البشرية جمعاء، وخاصة في هذا العصر المضطرب الذي فشل فيه المربون فشلاً ذريعاً في ميادين التربية، إلى دراسة قواعد الإسلام وأساليبه في إعداد الجيل المثالي الذي لم يعرف له التاريخ مثيلاً في عظمته وسماحته وطموحه وحسن سيرته.. وأنا لا أذيع سراً إذا قلت: إنني

اكتشفت أنموذجاً لهذا الجيل المثالي يمثل دوره على مسرح الإنسانية مرة في كل عام في البقعة المباركة من الحجاز خلال موسم الحج .

هناك في موطن النور الذي أشرق منه الإسلام نجد الألوف المؤلفة والجماهير المحتشدة من الحجيج يعطوننا صورة مصغرة للجيل الإسلامي الذي رباه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون حجة على الناس إلى يوم القيامة على عظمة الإسلام وسمو مبادئه.

فنشاهد المسلمين: أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وأصفرهم يجتمعون على صعيد واحد، قد زالت بينهم الفوارق وانمحت الحدود، ووحد بينهم الإسلام، حتى كأنهم أعضاء أسرة واحدة، بل أعضاء جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

فالتعاطف بينهم يبلغ أشده والمحبة أوجها، حتى لترى الدموع تنهمر عند اللقاء. فأين هذه الأخوة من التمييز العنصري الذي نرى فواجعه وويلاته في الغرب حتى في القرن العشرين؟!

وهذا السلام- وما أشد حاجة الإنسانية إليه- يعم تلك البقعة المقدسة، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال. . حتى لنرى الطير يأمن الإنسان فيحلق فوق رأسه، وربما شاركه طعامه وشرابه!

والأمانة تصل إلى ذروتها، مما ليس له مثيل في جميع بقاع العالم، فنرى الحجاج يتركون أموالهم وأمتعتهم دون حراسة كأنهم في بيوتهم، وإذا عثر أحدهم على لقطة مهما كانت ثمينة فرح بإيصالها إلى صاحبها كما يفرح لو عادت إليه بعد ضياعها.

والبذل للفقراء يعيد سيرته الأولى يوم كان الغني يحمل صدقات أمواله من مكان إلى آخر باحثاً عن فقير يأخذها منه، ولا غرابة في ذلك، فالحاج قد ضرب أروع الأمثلة في التضحية بتركه ماله ووطنه وأهله وعمله إجابة لنداء ربه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ (الحج: ٢٧ -٢٨).

ولو أن المسلمين أفادوا من فريضة الحج «منافع» سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية... كما تشير الآية السابقة وتؤكد، لكان لهم شأن: أي شأن ولخشيهم الأعداء، وما تجاسروا على الاعتداء عليهم.

وفي الحج يعود المسلم إلى حياة البساطة، فيقنع بأقل العيش وأسهل الشراب وأبسط الفراش، وقد يفترش الأرض ويلتحف السماء متجنباً الكماليات، ويألف الخشونة، ويترك النعومة والرفاهية، وهي من أسوأ الأمور في سلوك المسلم، لما تؤدي إليه من رخاوة الجسم وترهله، ومن استسلام النفس للراحة والنفور من الجهاد! لذا كان من أهم وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إياك والتنعم! فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين».

حتى الموت، فإنه في الحج تعود إليه بساطته وفطرته التي رسمها له الإسلام، فيغسل الميت ويصلى عليه ويدفن في جو كله خشوع وتواضع، فلا أذان مبتدع، ولا نخيل[1] ولا آس، ولا قراءة قرآن على الميت، ولا على قبره. فإن كتاب الله جاء للأحياء لا للأموات!

إن المسلمين في الحج يقومون بدورة تدريبية، لاعتياد حياة الخشونة والقسوة، وترك التنعم، فيذكروننا بقوله عليه الصلاة والسلام، وقد أثر الحصير على جنبه، وطلب منه أن يلان له الفراش: «مالي وللدنيا! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

وقد كان لهذه التربية القوية الفضل الكبير في الفتح المبين يوم قضى المسلمون على الرغم من قلتهم وقلة اعتدتهم، على إمبراطوريتي الروم والفرس.

وذكر التاريخ أن القائد سعد بن أبي وقاص أرسل قبل معركة القادسية: «ربعي

---

(١) صحيح أنه ورد عن الرسول ﷺ أنه وضع جريد النخيل على قبرين، ولكن ذلك كان خصوصية له بدليل قوله- كما في صحيح مسلم: «لعل بشفاعتي يخفف عنهما». ولم يفعل ذلك سوى مرة أو مرتين، كما لم يفعله أصحابه رضوان الله عليهم، فكم أضاع ويضيع المسلمون الأموال الكثيرة على مثل هذه البدع. والسنة في زيارة القبور تكون بالسلام على أصحابها والدعاء لهم مع استقبال القبلة، لا استقبال القبر في الدعاء!

بن عامر» رسولاً إلى رستم قائد الفرس وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحريرية، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، وعليه تاجه، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل «ربعي» بثياب صفيقة وترس بسيط وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك! فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا، وإلا رجعت! فقال رستم: ائذنوا له.

فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، ثم نزعها وجلس على الأرض، ولما سئل عن السبب قال: نهينا عن الجلوس على الحرير!!..

ولو رأيت الحاج في فصل الصيف، وقد سلطت عليه الشمس أشعتها في منطقة الحجاز الحارة، وهو يحمل أمتعته الثقيلة ويتصبب عرقاً، ويصعد السلالم ويسير المسافات، تنفيذاً لأوامر ربه.. لأعاد إلى ذاكرتك المسلم الأول، لما كان يقطع الفيافي والقفار مشياً على الأقدام، ليس له من العدة المادية سوى سيفه ورمحه. أما عدته المعنوية، فكانت في القمة: إيمان قوي بالله تعالى، وتضحية في سبيله، وحب للموت وشوق إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض.

وما ألفت أمة حياة النعومة والرفاهية إلا ذهبت قوتها حيث تصبح عرضة لهجوم الأعداء والاستسلام لهم.

وفي هذا العالم الذي أصبح فيه البشر- أكثر البشر- لصوص الأعراض وعبيد الشهوة، نرى الحاج يغض البصر، كأن النساء المسلمات أخواته وبناته، ونرى المرأة تغض البصر أيضاً، وتترك التبرج وترتدي لباس الحشمة، وتحمل الأثقال من أمتعة الحج، كأنها في ميدان الجهاد، فتذكرنا بالمرأة المسلمة الأولى يوم كانت عضواً عاملاً في بناء النهضة الإسلامية.

ويعطي موسم الحج إلى الحاج أسمى أنواع المراقبة لله تعالى، فهو يتذكر في رحلته البسيطة إلى الحج، رحلته الكبرى يوم يرحل فيها إلى ربه، ويؤكد عليها يوم

يمتطي سيارته أو باخرته أو طائرته بالدعاء المأثور: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون».

وهذه المراقبة وهذه التذكرة للرحلة إلى الله من أسمى العوامل في الكف عن المعاصي والاستزادة من الأعمال الصالحات وتكوين الجيل المثالي، لذا نرى الحاج أكثر الناس خشية ومراقبة.

ومما يزيد هذا الحجيج اندفاعاً نحو تحقيق الجيل المثالي - ولو خلال موسم الحج - أنه يعيش خلال قيامه بهذه الفريضة في أرض الذكريات والتضحيات والبطولات والعظمات.

وكفى بها دروساً وعبرا..

أما بعد، فإن الكعبة بمثابة القلب لدنيا الإسلام، يبعث في المسلمين دماً جديداً: نقياً وقوياً! فليت الحجاج يتعهدون أنفسهم بعد رجوعهم من الحج! ليزدادوا صلاحاً، فلا يجرفهم التيار العام المنحرف، فيكونون على الدوام نواة للجيل المثالي بعدما ملأوا قلوبهم في الحج كما تملأ المولدات الكهربائية لتضيء على الناس وتبدد الظلمات المخيمة على العالم.

نظرية الإعدام بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

العدد (٩٢) شعبان (١٣٩٢هـ) - سبتمبر (١٩٧٢م).

تشغل قضية إعدام قاتل العمد علماء القانون والاجتماع، نظراً لخطورتها وقد انقسموا إلى فريقين متنازعين: فريق يقول بإعدامه، وفريق يقول بمنع هذا الإعدام.

وقد تركوا البشرية في حيرة واضطراب، لأنهم هم أنفسهم في حيرة واضطراب، لأن البشرية أعجز من أن يضعوا القوانين، وإنما يضعها خالقهم، كما وضع القوانين المادية الطبيعية. وسيبقى البشر في شقاء من مخالفة القوانين الإلهية كما هم يشقون إذا تركوا القوانين الطبيعية، فلا بد لهم من الخضوع لها حتى يتسنى لهم البقاء والرقي.

وقد أدلى كل من هذين الفريقين بحجج وأدلة نذكرها فيما يلي ثم نعقبها بحكم الشريعة الإسلامية في هذا الموضوع الخطير.

• أنصار نظرية إلغاء الإعدام

إن الذين يقولون بعدم الشرعية يحتجون بأن ليس من حق الهيئة الاجتماعية أن تزهق روح إنسان وهبه الله الحياة ولله وحده الحق أن يأخذها. واحتجوا أيضاً بأن عقوبة الإعدام هي عقوبة خطرة لأن الضرر الذي ينتج عنها غير ممكن تلافيه إذا ما نفذت في المحكوم عليه ثم بعد ذلك ثبت خطأ القاضي وظهرت براءته كما حدث فعلاً في كثير من القضايا، فمن يسترد عندئذ حياة البريء.

لاسيما وأن قناعة القضاة هي نسبية واختلاف الرأي بين قضاة الدرجات المختلفة شائع بكثرة. وقالوا أيضاً بأن هذه العقوبة جائرة ولا تتناسب مع الجريمة مهما كانت فظيعة. فضلاً عن أنها بشعة تشمئز منها النفوس. وقالوا كذلك بأنها لا فائدة جذرية لها لأن وجودها في التشريع لم يردع المجرمين عن ارتكاب

الجرائم، ويستدلون على ذلك بأن نسبة الجرائم المعاقب عليها بالإعدام لم تقل في البلاد التي لا تزال قوانينها تقر عقوبة الإعدام ولم تزد نسبة هذه الجرائم في البلاد التي ألغتها.

ويقول أصحاب هذه النظرية إن المجرم مريض ومن واجب المجتمع أن يداويه حتى يشفى تماماً لا أن ينتقم منه.

وقد عبر عن هذا الاتجاه صاحب هذه النظرية الدكتور «ball» في كتابه «فيزيولوجية الدماغ» وهو أستاذ في باريس في أوائل القرن التاسع عشر بقوله: «إن الميل السريع إلى السرقة ثمرة فعالية زائدة لعاطفة حب التملك القوية»

● **أنصار نظرية تنفيذ الإعدام**

أما القائلون بشرعية هذه العقوبة فيجيبون عن هذه الحجج بقولهم:

١- إن من حق الهيئة الاجتماعية فرض هذه العقوبة لأنه إذا كان المجتمع لم يعط حق الحياة فهو لم يعط حق الحرية لأحد، فكيف يجاز له سجن الناس ومنعهم من الحرية، فضلاً عن أن الإنسان له حق الحياة كما له حق الحرية. فالاعتراض إذن على شرعية الإعدام يفضي إلى الاعتراض على شرعية كل العقوبات التي تمنح الحرية مع الاعتراف بأن الحياة هي أثمن من الحرية.

٢- إذا كانت عقوبة الإعدام هي خطرة في حال خطأ القاضي فعقوبة الحبس في هذه الحالة هي جائرة أيضاً وتؤثر في صحة الفرد وفي حياته بصورة لا يمكن معها تلافي الضرر.

٣- إذا كانت عقوبة الإعدام لم تخفف من الإجرام لدى كبار المجرمين فهي ولاشك خففت كثيراً من عدد المجرمين وهؤلاء هم كثر.

٤- إن الاعتراض القائم على عدم تناسب هذه العقوبة مع الجريمة يصح أيضاً بشأن كل عقوبة لأن تحقيق التناسب التام بين العقوبة والجريمة أمر غير مستطاع فتقدير الإنسان للأمور نسبي دائماً.

٥- إن خوف المجرمين من عقوبة الإعدام هو رادع لهم وله أثره.

٦- إن بلاء العقوبات الطويلة المدة أخطر وأوقع من عقوبة الموت على قصر

عذابها. ومن الطرافة أن نذكر أن النظرية الأولى تمثل نظرية ما يسمى بالإنجيل والنظرية الثانية تمثل ما يسمى بالتوراة مما سنرى تفصيله.

وقد رأينا في كل من هاتين النظريتين السابقتين محاسن ومساوئ ذكرها أنصارهما وخصومهما فلا داعي لإعادتهما.

هذا- وإن النظرية القائلة بإلغاء الإعدام علاوة على مساوئها التي ذكرتها حين الكلام على النظرية الإسلامية فإنها خاطئة من نواح أخرى.

الأولى، أنها قد تؤدي إلى زيادة عدد الجرائم فإن نظام إصلاح المجرمين لا يرضي ذوي القتيل، فيثأرون له مما قد يؤدي إلى زيادة عدد الجرائم.

الثانية، أن هذه النظرية تميل إلى المدرسة الإيطالية القائلة بأن الجريمة هي نتاج طبيعي محض، وأنه ليس ثمة موضوع للتحدث عن حرية مزعومة ننسبها للمجرم، وقد دعا «لمبروزو» الذي يتزعم هذه المدرسة إلى دراسة السمات الخلقية «الجسمية» والنفسية المميزة للمجرمين[١].

وهذه النظرية جبرية رهيبة تدعو إلى عدم معاقبة المجرم بالكلية. قال «لمبروزو»: «المجرم ولد مجرماً». ولا يخفى ما في ذلك من خطر على المجتمع وتهديد لسلامة أفراده، وقد راح أنصار هذه المدرسة يطالبون بتكييف العقوبة مع الطبيعة النفسية «السيكولوجية» للمجرم وكل ذلك لتمييع القضية وإعفائه من العقوبة. وهي مخالفة لجميع الشرائع الإلهية والأنظمة الوضعية.

وقد جاء العالم الإنجليزي «كورنغ» فقام بدراسة حوالي ثلاثة آلاف سجين من نزلاء السجون بإنجلترا خلال ثمان سنوات متواليات وخلص من هذه الدراسة إلى أنه ليس ثمة طراز جسمي خاص يميز المجرم، بدليل أن النتائج الإحصائية للأقيسة التي أجريت على المجرمين أظهرت أن الفارق بين الأقيسة الجمجمية لدى كل من طلبة كمبردج أو أكسفورد لا يختلف عن الفارق الموجود بين المجرمين وغيرهم من سواد الناس[٢].

---

(١) راجع كتاب «الجريمة والمجتمع» للدكتور زكريا إبراهيم ص (١٥-١٦).

(٢) المصدر السابق ص (١٧-١٨).

ومهما كان من شأن هذه النظرية، فإن الإسلام لا يهمل الحالة النفسية للمجرم، فإن كان مصاباً بالجنون أو اضطراب الغدد الصماء وغيرها من الأمراض النفسية التي تفقد المجرم عقله وإرادته وشخصيته فإنه يعفى من العقوبة ولكنه يحجر عليه حتى يشفى كما يراعى التشريع الإسلامي في ظروف المجرم وملابسات جريمته، فلا يعاقب السارق إذا كان جائعاً مضطراً ولم تؤمن له الدولة سبيل العمل، أو أجاعه رب عمله، فيعاقب الإسلام المسبب في هذه الحال.

ولا شك أن هذه النظرية تقول بإلغاء الإعدام والاستعاضة عنه بسجون كالمستشفيات حتى يشفى فيما إذا كان مصاباً بالجنون أو غيره مما يفقد عقله وإرادته.

وإنني أبعثها صرخة مدوية: إن السجون قد أفسدت في العالم علاوة على ما سببته من إيجاد المجرمين المحترفين الذين يتعلمون دروس الجريمة من زملائهم في السجن. ومما يؤسف له أن أنصار السجون لم يفكروا مطلقاً بزوجة السجين وأولاده الذين سيشردون غالباً بسبب اعتقال وليهم.

حقاً إن قضية السجن قضية شائكة جداً، ربما كنت أول من أسميته «قصر الضيافة» يكلف الأمة النفقات الباهظة سواء في إطعام السجناء وسواء في حراستهم وسواء في إيوائهم.

ولا يخفى أن هناك كثيراً من النفوس التي تألف مثل هذه الحياة التي هي أشبه بخلوات الصوفية ينعم بها السجناء كما ينعم الصوفية، ولا شك أن السجون تمتاز على هذه الخلوات بكونها مشتركة ومضيئة ولا تسبب الجنون والانحراف.

والغريب من أمر السجن أنه إذا نظم ونفذت الإجراءات التحسينية أصبح مكاناً مرغوباً فيه وقصراً للضيافة حقاً مما يشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم. وإذا أهمل كان مصدراً لانتشار الأوبئة والأمراض والمفاسد الخلقية بجميع أنواعها، وفي الحقيقة فإن السجون كثيراً ما كانت تزيد المجرمين صلابة، فلم يكونوا يخرجون من السجن إلا لكي يعاودوا ارتكاب جرائمهم، مدفوعين إلى ذلك برغبة حادة في الثأر من المجتمع، هذا إلى أن اختلاط صغار المجرمين

بغيرهم من المجرمين الخطرين كثيراً ما كان يجعل من «السجن نفسه» مدرسة لتلقي فنون الإجرام. فلم يكن المجرم الصغير يغادر السجن إلا وقد أصبح مجرماً محترفاً يجيد من أساليب الجريمة ما لم يكن له به عهد، قبل أن تطأ قدماه أرض السجن.

ومن جهة أخرى فإن الأساليب السائدة في معاملة المجرمين قلما تنجح في ردع المجرمين والقضاء على أسباب الجرائم، بل هي قد تدفع بهم نحو الانفجار والتمرد والإمعان في تحدي القانون .

وقد ثبت بالفعل أن السجن عاجز عن توليد مشاعر الحب والتعاطف والصبر والطمأنينة النفسية والرغبة في العمل واستعادة مكانة الذات. وهي المشاعر الضرورية لإعادة التكيف إلى نفس المجرم.

وفضلاً عن ذلك، فإننا حينما نترك المجرم نهباً لذكريات الماضي، دون أن ننجح في شغل باله بالأفكار السليمة والمبادئ القويمة، فإننا نزيد من اختلال توازنه النفسي بدلاً من أن نعيد إلى شخصيته تنظيمها النفسي وتوافقها الاجتماعي، وهذا ما حدا بالكثيرين إلى القول بفشل الأنظمة القديمة للعقوبة (أي أنظمة السجون) نظراً لأنها لم تكن تهتم جدياً بإعادة المجرمين إلى حظيرة القانون، والعمل على تقويم شخصياتهم حتى يتمكنوا من العودة إلى الحياة الاجتماعية العادية في ظل احترام العادات والتقاليد والقانون.

إن أغلب المجتمعات لا زالت تميز الخارجين من السجن عن غيرهم من سواد الناس، فلا يكون من شأن هذا التمييز نفسه سوى أن يتسبب في عجز السجناء عن العودة إلى حياة التكيف مع الجماعة والتعامل مع غيرهم من المواطنين، حتى ولو صحت عزيمتهم على العدول نهائياً عن حياة الجريمة، ولا شك أنه حينما يشعر المجرم بأن المجتمع ليس على استعداد لتقبله أو أن ماضيه يقف حائلاً بينه وبين الاندماج في الجماعة من جديد، فإنه قد يندفع إلى مواصلة سلوكه الإجرامي بدلاً من أن يعمد إلى أخذ نفسه بالمعايير الجماعية. ولما كانت مواصلة حياة الإجرام هي أيسر على المجرم من السعي الجاهد في سبيل اكتساب

عادات توافقية جديدة فإن عدداً غير قليل من المجرمين لا يكاد يجد صعوبة في معاودة الانتماء إلى جماعات المجرمين المحترفين التي دأب على الاختلاف إليها .

لهذا كله نرى الشريعة الإسلامية لا تلجأ إلى السجن إلا في حالات نادرة وقتية كضمان سلامة التحقيق أو إنذار المجرم بالتشهير به، فقد وضعت لكل جريمة عقوبتها الزاجرة، بحسب نوع العمل الذي اقترفه المجرم، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (المائدة: ٤٥).

وقد كان النبي ﷺ يؤتى ببعض المفسدين ويربطهم بإحدى سواري المسجد أمام الناس. فحبذا لو تعمم هذه العقوبة في بعض جرائم التعزير فيربط المخالفون في أعمدة الكهرباء في بعض الشوارع أمام أنظار الناس فإن ساعات من هذه العملية تعدل شهراً أو شهوراً في السجون المعروفة ويكون فيها المخالف عبرة بليغة ورهيبة لمن يعتبر، وهي لا تكلف الأمة شيئاً يذكر.

والغريب أن بعض أدعياء القانون يحملون على هذا المبدأ أو مثله قطع يد السارق بأنه قاس، دون أن يوجدوا ما يقوم مقامه، وقد أفلست جميع حلولهم وسببوا انتشار الجرائم في العالم بصورة واسعة ومرعبة حتى بات الإنسان لا يأمن على حياته وعلى أولاده من القتل والخطف، وعلى أمواله من السلب والنهب في أرقى عواصم العالم كالولايات المتحدة مثلاً.

وقد طبق هذا القانون الإلهي في المملكة العربية السعودية في العصر الحديث فأعطى النتائج ونشر الأمن والسلام مما يحسدها عليه أرقى وأعظم دول العالم. وقد نسي هؤلاء الأدعياء المغرورون أن العقوبات الإسلامية تحمي حتى المجرم نفسه فلا يتجاسر على ارتكاب جريمته لشدتها، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ١٧٩).

وقديماً استطاع التشريع الإسلامي محو الجريمة أو الإقلال منها لدرجة

الندرة، ومن أهم ما ينبغي الإشارة إليه أن هذه العقوبات ليست إسلامية فقط، بل قد سبقتها إليها شريعة التوراة وهي شريعة اليهود والنصارى حتى يومنا هذا.

وقد ساعد على تحقيق هذا السلام ما كان يتحلى به المسلم من عقيدة عظيمة جعلت من المجرم يأتي ويعترف بجريمته مهما كانت قسوتها، لينجو من عذاب الله يوم القيامة.

بينما اليوم قد عجزت الدول عن اكتشاف الجرائم على الرغم من رقي الوسائل الحديثة حتى راحت تستعين بالكلاب «البوليسية».

● **نظرية الشريعة الإسلامية**

لقد اشتملت هذه النظرية على محاسن كل من النظريتين وخلت من مساوئهما في تنسيق عجيب وحل نفساني (سيكولوجي) دقيق. وهذه مزية التشريع الإسلامي العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤).

وهذه النظرية تتلخص في أن قاتل العمد يقتل قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء: ٣٣).

والإسلام دين الحياة ودين السلام، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله، فالله واهب الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها. وكل نفس هي حرم لا يمس، وحرام إلا بالحق. وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى. وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة**».

فأما الأولى فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة لنفوس ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾. حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس

والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء. وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفون عند القاتل بل يمضون في الثأر ويتبادلون القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء. وحياة يأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص فينطلق آمناً يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة.

وأما الثانية فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة، وهي لون من القتل على النحو الذي بيناه.

وأما الثالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضى في الجماعة، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة. والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنها اختار الإسلام لم يجبر عليه، ودخل في جسم الجماعة المسلمة واطلع على أسرارها، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها.

ولو بقي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب، وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء: ٣٣).

تلك الأسباب الثلاثة هي المبيحة للقتل، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب فقد جعل الله لوليه - وهو أقرب عاصب إليه - سلطاناً على القاتل، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية وإن شاء عفا عنه بلا دية فهو صاحب الأمر في التصرف في القاتل، لأن دمه له.

وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه. والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم، كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل، ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل، والولي مسلط على دمه بلا مثلة، فالله يكره المثلة والرسول قد

نهى عنها.

﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ يقضي له الله، يؤيده الشرع، وينصره الحاكم. فليكن عادلاً في قصاصه، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه[١]. وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل، وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية وتهدئة للغليان الذي تستشعره نفس الولي الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يميناً وشمالاً في حمى الغضب والانفعال على غير هدى. فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص، فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن عند حد القصاص العادل الهادئ[٢].

غير أن حكم قتل القاتل ليس مطلقاً، فإن في القرآن العظيم آية أخرى سنراها بعد قليل تقول بتنازل ذوي القتيل عن حق القتل، ولهم أخذ الدية أو التنازل عنها وليس لأحد غيرهم العفو عنه فهم وحدهم أصحاب الحق الشرعي والطبيعي في القاتل وهم وحدهم المفجوعون به. وفي هذه الحال يكون المقدم على القتل في حالة ذعر دائم وخوف رهيب من مطالبتهم بقتله من السلطة الحاكمة وقبوله العفو والدية مشكوك فيه، وربما كان بعيداً، فكم من الناس لم يقبلوا بالتنازل عن حقهم وأصروا على طلب الإعدام، فأعدم القاتل.

إلا أن هناك احتمالاً قد يكون ضعيفاً وقد يكون قوياً بأن تهب الهيئة الاجتماعية، إذا كان القاتل ليس من أصحاب السوابق، وكان من ذوي الفضل والعلم الذي يخسر المجتمع إذا فقدوا الحياة، فتسارع هذه الهيئة للتوسط ورجاء ذوي القتيل للعفو عنه سواء بأخذ الدية أو بدونها حسب رغبتهم الخاصة.

والأمل قد يكون قوياً بقبول شفاعتهم فينجو القاتل من الإعدام، وينجو المجتمع من فقده، وقد يكون هذا الأمل ضعيفاً فيقتل ويذهب ضحية جريمته.

والقضية في هذه الحال تأخذ وضعاً دقيقاً وحساساً يكون فيها المقدم على

(١) عقوبة الإعدام للأستاذ: المحامي مصطفى ذوق ص (٢- ٤).

(٢) في ظلال القرآن تأليف سيد قطب ص (٣١و٣٢) المجلد الخامس.

القتل في وضع رهيب يسيطر عليه الخوف كما صوره القرآن العظيم في آية ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ (١).

• تفصيل الحكم الإسلامي

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (٢) (البقرة: ١٧٨ -١٧٩).

النداء للذين آمنوا بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله، الذي آمنوا به في تشريع القصاص. وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى. وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة. كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى، وهو صمام الأمن في مجال القتلى والقصاص ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجاني، ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة، ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال، تحقيقاً لصفاء القلوب، وشفاء لجراح النفوس، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء.

وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

ولم يكن هذا التشريع مباحاً لبني إسرائيل في التوراة، إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند التراضي والصفاء ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة... يتعين قتله، ولا تقبل منه

---

(١) هذا الحكم منسوخ بآية ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ...﴾ الآية.

(٢) قال ابن عباس: مما كتب على من كان قبلكم، فإنه كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية..» الحديث أخرجه البخاري والنسائي. والمسيحية كانت تقول بالعفو مطلقاً!

الدية، لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول، نكث للعهد، وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب. ومتى قبل ولي الدم الدية فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي.

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام، وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها، ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع.. إن الغضب للدم فطرة وطبيعة. فالإسلام يلبيها بتقرير القصاص دعوة إلى التسامي في حدود التطوع، لا فرضاً يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق.

ثم يكمل سياق الحديث عن فريضة القصاص بما يكشف عن حكمتها العميقة وأهدافها الأخيرة ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

إنه ليس الانتقام، وليس إرواء الأحقاد. إنما هو أجل من ذلك وأعلى إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة.. ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله.

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل.. جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل. شفائها من الحقد والرغبة في الثأر. الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاماً كما في حرب البسوس المعروفة عندهم.

وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلاً بعد جيل، ولا تكف عن المسيل. وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم، فاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة.. حياة مطلقة، لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة.. بل حياة..

ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استجاشة شعور التدبر لحكمة الله، ولتقواه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء، الاعتداء بالقتل ابتداء والاعتداء في الثأر أخيراً.. التقوى.. حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله، وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه.

إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة، ولا يفلح قانون، ولا يتحرج متحرج، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان.

وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي ﷺ، وعهد الخلفاء، ومعظمها كان مصحوباً باعتراف الجاني نفسه طائعاً مختاراً.. لقد كانت هناك التقوى، كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر وفي حنايا القلوب، تكفها عن مواضع الحدود.. إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب.. وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور، نظيف الحركة نظيف السلوك، لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير[1].

أما بعد..

فإني تحدثت فيما سبق عن حكم من أحكام الإسلام، وهو الإعدام، وكيف أنه في القمة من الحق والعدل والرحمة، وقد اشتمل على مزايا نظرية الإعدام ونظرية إلغائه، وخلا من محاذيرهما بصورة رائعة.

فهل يشجعنا هذا المثال من ألوف الأمثلة على دراسة الشريعة الإسلامية والعمل بها من أجل تحقيق العدالة والحق والسلام، تلك الشريعة التي شهد بعظمتها كبار أساطين الشرق والغرب في القانون من مسلمين وغيرهم مما يضيق المجال عن التحدث عنه.

إننا نستصرخ الضمائر الحية، راجين أن يتناول هذا البحث بالدراسة والعناية والاهتمام، وإننا لا ندري كيف نسوغ لأنفسنا ترك تراثنا التشريعي الضخم،

(١) في ظلال القرآن تأليف سيد قطب ص (٦٨- ٧٢) الجزء الثاني- المجلد الأول.

والتهافت على القوانين الغربية المهلهلة التي من شأنها تضييع شخصيتنا العربية وتطبعنا بطبائع الغربيين فنعتنق أخلاقهم الإباحية، ونجعلهم سادة لنا، ونصبح خداما لهم، مثلنا في ذلك هنود أمريكا الذين اعتنقوا عقيدة القوم وقبلوا قوانينهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً، وإنما هددهم بالفناء وعرضهم للخطر.

إن قبولنا تحكيم التشريع الإسلامي علاوة على كونه يحفظ كياننا ويصون قوميتنا، يجعلنا أئمة لخمسمائة مليون مسلم، وهم حلفاء طبيعيون لنا وأصدقاء صادقون يفرحون لفرحنا ويألمون لألمنا، باستثناء بعض حكوماتهم الدائرة في فلك الاستعمار. ولكن الحكومات لا تدوم وقد رأينا مصارعها، إنما البقاء للشعوب.

وهذه الشعوب تشارك العرب بعواطفهم وتقر لهم بالزعامة، وترى مصيرها مرتبطاً بمصيرهم.

خطب الحكيم محمد إقبال في أعضاء المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام (١٣٥٠- ١٩٣١) فقال: «إن الإسلام مهدد بخطرين مصدرهما الغرب: أولهما الإلحاد، وثانيهما الاستعمار، وإن مستقبل المسلمين في العالم رهن بمستقبل العرب، ومستقبل العرب رهن بوحدة العرب، فإذا تمت وحدة العرب علا شأن المسلمين في كل أنحاء الأرض».

إن القومية العربية متعطشة اليوم إلى تحقيق العدالة بين شعوبها، وخاصة العدالة الاجتماعية فهي حريصة على ما يكفل بقاءها عزيزة ويجعلها تساهم في تأسيس الحضارة.

إلا أن بعض من يتظاهر بالإخلاص لهذه القومية، يغرينا بالارتماء في أحضان النزعات المتخلفة من أجل تحقيق هذه العدالة.

ما القول إذا كان هنالك نظام، لا يدعنا ذيلاً في القافلة، قافلة المعسكرات المتطاحنة، إنما يمنحنا مع العدالة (على اختلاف صورها) كرامة دولية عزيزة في الخارج، ويرد لنا اعتبارنا في المجتمع الدولي.

ما القول إذا كان هنالك نظام يحل مشكلاتنا الداخلية وفي الوقت ذاته لا

يدعنا نقف أبداً من المائدة الإنسانية وقفة المستجدي الذليل، بل وقفة المساهم في هذه المائدة المعطي ما عنده، وما عنده ليس بقليل.

إننا لنعجب كيف يمكن الإنسان أن ينأى بنفسه عن موقف الكرامة إلى موقف الذلة وعن دور المعطي إلى دور المستجدي، وعن مركز القيادة إلى موقف التبعة وهو قادر على الاختيار، لو قاوم في ضميره شعور الاضطرار.

إن لدينا ما نعطيه، ولسنا من المفلسين بحيث يتصور الكثيرون، أو بحيث تصورنا لأنفسنا المعسكرات الأجنبية.

إن لدينا ما نعطيه ولسنا من الإفلاس بحيث يتصور الكثيرون، أو بحيث يصورنا لأنفسنا الأجانب المستعمرون على اختلاف مشاربهم، إنما يصورونا هكذا لغاية في أنفسهم، ليحل التخاذل في نفوسنا محل الثقة، واليأس محل التطلع، ولنسقط فرائس ذليلة مستغفلة، في هذا الفخ أو ذاك، إن لدينا ما نعطيه، ولكن في حاجة لأن نؤمن بأنفسنا، ففي هذا الإيمان حياة، وفي هذا الإيمان نجاة.

إذا اتضح أن الإسلام يملك أن يحل لنا مشكلاتنا الأساسية، ويمنحنا عدالة شاملة، ويردنا إلى عدل في الحكم، وعدل في المنزل، وعدل في الفرص، وعدل في الجزاء فإنه يكون بلا شك أقدر على العمل في بلادنا من كل مذهب آخر، نحاول استعارته عن طريق التقليد، أو عن طريقه المشاركة في الحضارة الإنسانية بالاستجداء.

أجل- إذا اتضح هذا كله- فالإسلام أقدر على العمل معنا هنا في الداخل، ولن نحتاج إلى استجلابه من وراء الحدود، كما نستجلب الثياب المستعملة الجاهزة فتجيء فضفاضة، أو خانقة، (وقد تجيء وفيها السل) لأنها لم تصنع على أعيننا ولم تفصل على قدنا، ولم تنبع من آلامنا وآمالنا.

والإسلام- يا قوم- صاحب لنا صديق، صاحبناه ألفاً وأربعمائة عام تقريباً، له في الجوانح هزة، وفي المشاعر ذكرى، وفي الضمائر أصداء، وليس بالغريب على أرواحنا ومشاعرنا وعاداتنا وتقاليدنا غربة المذاهب الأخرى التي نحمد منها

أشياء ونكره منها أشياء، ونألف منها اتجاهاً وننكر عليها اتجاهاً وتتوزع مشاعرنا إزاءها على أية حال توزيعاً لا يضمن معه توحيد الجبهة في طلب عدالة قوية كما نضمن توحدها إذا نحن هتفنا إلى العدالة باسم الإسلام.

إن الذين يريدون تنحية الإسلام عن معركة العدالة على أنواعها ليخوضوها تحت راية أخرى، إنما يخونون أنفسهم إن كانوا مخلصين في دعوى العدالة أو يخونون قضية الجماهير، جهلاً بقيمة القوة الكبرى التي يزودهم الإسلام بها، أو عداوة مريبة لهذه القوة العظيمة، أو احتقاراً لأنفسهم وكفراً بقيمتهم، رضاء كرضاء العبيد بفتات الموائد ووقفة الأذناب.

إننا نفهم جيداً أن ينصب المستعمرون والمستغلون والطغاة للإسلام لينحوه عن معركة الحكم، لأنه يحارب استعمارهم واستغلالهم وظلمهم بقوة، أما أن ينصب للإسلام دعاة العدالة ورجال القضاء فذلك أمر غير مفهوم عندنا، فإن وراءه لخبثاً ومؤامرة يجب أن يفطن إليها الأبرياء والمخلصون الذين يريدون العدالة لذاتها، ويكافحون للجماهير وحدها، ويتجردون لهذه الغاية النبيلة بلا رياء ولا التواء، ولا خيانة.

إن ارتباطنا بعجلة قوانين الغرب جريمة في حق العدالة، وهدر لشرفنا العربي، فهي تجعل عقوبة من يزني بأمه أو ابنته أو شقيقته أقل- بكثير- من عقوبة من يسرق متاعاً بسيطاً.

إن ارتباطنا بعجلة قوانين الغرب جريمة قومية، فهو طالما داس كرامتنا وحاول استرقاقنا وعرضنا للذبح والتشريد، فهل يليق اتباعه بدلاً من أن نثير عليه روح اللعنة والانتقام .

إن ارتباطنا بقوانين الغرب استهانة بحق الإسلام وتهاون بأوامر الله سبحانه الذي شاءت حكمته أن تحكم قوانينه الإنسانية البشر، كما حكمت قوانين الطبيعة الكون. وقد تم للبشر الإفادة من الطبيعة بخضوعهم لهذه القوانين، فما بالهم تمردوا على القوانين الأخرى حتى حرموا الإفادة من عدلها وخيرها وسلامها.

لقد وصف هذا الإله العظيم من يهجر قوانين الإسلام بالكفر والفسق والظلم

فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).
﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥).
﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧)

وهل أكفر وأفسق وأظلم ممن يترك النظم الإلهية التي أثبت التطبيق، ثم أثبت رجال القوانين عظمتها- ثم يروح ويرتمي في أحضان القوانين الغربية الوضعية التي زادتنا فساداً وفوضى كما زادته خراباً وانهياراً.

اذكروا يوم كان أجدادكم العرب قبل أربعة عشر قرنا يتخطفهم الاستعمار الروماني والفارسي من كل مكان ويستذلهم، فجاء التشريع الإسلام العربي فأنقذهم ورفع لهم راية الحرية وقادهم إلى أعلى ذرى المجد.

اذكروا أجدادكم العرب الذين كانوا يهيمون في الضلالة وقد انقسموا إلى قبائل يذبح بعضها بعضاً، مما كان يهددهم بالفناء، فسارع الإسلام- بأسرع من البرق- فأصلحهم ووحد بينهم وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

اذكروا سرطان اليهود الذي كان يسري في جسم القبائل العربية والحجاز مهدداً إياها بالفقر والمرض حتى جاء الإسلام فاستأصل شأفتهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية، اذكروا أن هذه الأمة العربية لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، وأن قوة العقيدة الصحيحة ليس مثلها قوة.

وأن هذا التشريع الإسلامي الذي أنشأ مدنية دمشق وبغداد والأندلس (وهي سبب المدنية الغربية) لن يعجز عن مدنية العصر الحديثة الصحيحة.

اذكروا أن جامعة إكسفورد الإنجليزية قد أنشأت كرسياً لمحاربة التشريع الإسلامي وإبعاد القومية العربية عن هذا النظام الديناميكي ليسهل استعمارها فهل يجوز أن نعمل كما يعمل المستعمرون؟

اذكروا أنكم حملة رسالة العروبة المؤمنة، وأن العالم اليوم على فوهة بركان، فقد عرضته المدنية المادية الحديثة ومذاهبها الهوجاء الإلحادية إلى الفناء باعتراف مفكري الغرب. سارعوا لحمل الشعلة وإنقاذ قافلة الإنسانية الضالة.

من غرائب المحاكمات في التاريخ

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - أكتوبر (١٩٧٢م).

نشرت مجلة المختار (ريدرزدايجست) في أحد أعدادها مقالاً بعنوان «داروين في قفص الاتهام» بقلم «جون سوكبس» ذكر فيه قصة محاكمته، لأنه قال: إن أصل الإنسان قرد... كما يزعم داروين في نظريته: «النشوء والارتقاء» التي تخالف ما جاء في التوراة والإنجيل.

وقد أصدر القاضي حكمه عليه بطرده من التعليم وتغريمه (١٠٠) مئة دولار مع المصاريف، بناء على طلب هيئة المحلفين، وكان عددهم اثني عشر، ثلاثة منهم لم يسبق لهم أن قرأوا أي كتاب سوى الإنجيل، واعترف واحد بأنه لا يعرف القراءة!

فما أجهل وأسخف نظام المحلفين البالي، الذي لا يعرف الحق كحق، إنما يعرفه حسب صداه في الرأي العام مهما كان هذا الرأي جاهلاً وظالماً.

وإلى القارئ وصف طريف لهذه المحاكمة الغريبة:

سرت دمدمة بين أفراد الجمهور، وأنا أتخذ مكاني في قاعة المحكمة المزدحمة ببلدة «دايتون» الصغيرة بولاية تنيسي في ذلك اليوم الشديد القيظ من أيام يوليو ١٩٢٥م، وقد جلس إلى جواري أمام منضدة الدفاع المحامي الأول عن كلارنس دارو أشهر محامي الجنايات، بينما جلس في مواجهتنا نجم الادعاء وليام جننجز بريان الخطيب الذي اشتهر بذلاقة لسانه وهو يحرك في وهن مروحة من سعف النخيل.. وقد رشح الحزب الديموقراطي بريان ثلاث مرات في انتخابات الرئاسة، وهو زعيم حركة «الأصولية» التي تدعو للتمسك بحرفية الكتاب المقدس، والتي كانت السبب في تقديمي للمحاكمة.

كنت قبل ذلك ببضعة أسابيع مدرساً ثانوياً مغموراً في بلدة جبلية صغيرة، وهأنذا الآن أشترك في محاكمة تذاع أنباؤها في أنحاء العالم، وقد جلس في قاعة المحكمة استعداداً للشهادة في صالحي ١٢ من مشاهير الأساتذة والعلماء وفي مقدمتهم البروفسور كيرت لي ماثر الأستاذ بجامعة هارفارد. . وكان هناك أكثر من مائة مخبر من مخبري الصحف ومندوبي الإذاعة، الذين جاءوا لأول مرة في التاريخ لإذاعة إحدى المحاكمات التي تجري أمام هيئة من المحلفين.

* * *

لقد أحاطت هذه القضية برأسي بعد وصولي إلى بلدة «دايتون» بقليل، لتدريس العلوم وتدريب فريق الكرة في المدرسة الثانوية. . وكان هناك صدام بين أنصار «الأصولية» من أهالي البلدة، وأنصار النظريات الحديثة، فالأصوليون يتمسكون بالتفسير الحرفي للنصوص الدينية، بينما يقبل الآخرون نظرية النشوء والارتقاء التي نادى بها عالم الأحياء البريطاني «تشارلس داروين» في القرن التاسع عشر، والتي تتلخص في أن كل الحياة الحيوانية، بما فيها القردة والإنسان، قد نشأت عن سلف مشترك.

وكان مذهب «الأصولية» قوياً في ولاية تنيسي، وقد أصدر المجلس التشريعي للولاية أخيراً قانوناً يحرم تدريس أية نظرية تنكر قصة الخلق كما وردت في الإنجيل، وكان القانون الجديد يهدف بصفة خاصة إلى تحريم نظرية داروين عن التطور، وقد اعتاد مهندس يدعى جورج رابلين أن يجلس في «صيدلية روبنسون» كل يوم حيث يجادل لفيفاً من أهل البلدة مهاجماً القانون. . وفي خلال مناقشة من هذه المناقشات قال رابلين إنه ليس هناك مدرس يستطيع أن يدرس علم الأحياء، دون أن يشرح نظرية النشوء والارتقاء. . ولما كنت مدرساً لعلم الأحياء، فقد بعثوا في طلبي لمعرفة رأيي. .

وجئت لأقول لهم: رابلين على حق. . وعندئذ قال الصيدلي روبنسون:

- إذاً فأنت تخرق القانون!

قلت:

- وكذلك يفعل كل مدرس آخر.. فقد ورد شرح نظرية التطور في كتاب هانتر عن علم الأحياء، وهو الكتاب الذي ندرسه للطلبة.

واقترح المهندس أن نحمل الأمر إلى القضاء لنختبر مدى ما فيه من شرعية وعندما تلقيت قرار الاتهام في ٧ مايو، لم يكن هناك من يتوقع أن تصبح قضيتي من أشهر المحاكمات التي دارت في تاريخ الولايات المتحدة.. فقد أعلن «اتحاد الحريات المدنية» في أمريكا أنه سينقل قضيتي على المحكمة الأمريكية العليا إذا دعا الحال ليقرر ما إذا كان للمدرس أن يذكر الحقيقة دون أن يلقوا به في السجن، ثم تطوع بريان لمساعدة الولاية في إثبات اتهامي، وعلى الفور عرض المحامي الكبير كلارنس دارو خدماته للدفاع عني. والطريف أنني لم أكن أعرف دارو قبل ذلك.

وفي الوقت الذي بدأت فيه المحاكمة يوم ١٠ يوليو ١٩٢٥، كانت بلدتنا التي لا يزيد عدد سكانها على ١٥٠٠ نسمة قد أصبحت أشبه «بالسيرك».

فقد امتلأت المباني على طول الشارع الرئيسي بالأعلام والرايات، وازدحمت الشوارع التي تحيط بمبنى المحكمة العتيق بمنصات مؤقتة لبيع السجق والكتب الدينية والبطيخ، وأقام بعض رجال الدين الإنجيليين خياماً للوعظ.

وبالإضافة إلى دارو الداهية الذي يبلغ الثامنة والستين، كان الدفاع عني يتكون من المحامي الوسيم الساحر «راولي فيلد بالون» و«أرثرجارفيلد هايز» الهادئ المتبحر في القانون.. وفي هذه المحاكمة التي يلعب فيها الدّين دوراً رئيسياً كان دارو يمثل الإلحاد.. ومالون يمثل الكاثوليكية.. أما هايز فهو يهودي، وجاء أبي من ولاية كنتكي ليكون إلى جواري خلال المحاكمة.

ودعا القاضي رولستون أحد القسس المحليين ليفتتح الجلسة بالصلاة.. ثم بدأت المحاكمة بإحضار المحلفين، وقد ذكر ثلاثة من المحلفين الاثني عشر أنه لم يسبق لهم أن قرأوا أي كتاب سوى الإنجيل، واعترف واحد بأنه لا يعرف القراءة!

وبعد المناقشات الأولية على الشكليات القانونية، نهض دارو ليلقي كلمته.. فقال:

- يقول صديقي المدعي العام أن «جون سكوبس» يعرف لماذا يمثل أمامنا اليوم.

وأنا أعرف أيضاً لماذا هو هنا.. إنه هنا لأن الجهل والتعصب قد تحالفاً معاً وهو تحالف بالغ القوة..

وجلس بريان يقرض بأسنانه أطراف مروحته المصنوعة من سعف النخيل، بينما سار دارو ببطء في أرجاء القاعة التي تتلظى من حرارة الجو..

واستطرد يقول:

- إنكم تحاكمون اليوم أحد مدرسي المدارس العامة، وغداً الخاصة. وبعد ذلك محرري الكتب والصحف والمجلات.. وبعد فترة قليلة تطلقون الإنسان على الإنسان، والدين ضد الدين.. حتى نسير القهقرى.. إلى القرن السادس عشر المجيد، الذي كان المتعصبون فيه يشعلون حزم الحطب ليحرقوا الرجال الذين يجرؤون على إدخال أي ذكاء أو تنوير أو ثقافة إلى العقل البشري.

وعندما أنهى دارو خطابه. همست سيدة بصوت مرتفع: هذا الكافر الملعون!

وفي اليوم التالي بدأت النيابة في استدعاء شهود الإثبات، فشهد اثنان من تلاميذي، وهما ينظران إلي، وعلى شفتيهما بسمة الخجل، بأنني كنت أدرس لهما نظرية النشوء والارتقاء..

ثم أضافا قائلين: إن هذه التجربة لم تسمم أفكارهما!

وبعد أن انتهت الشهادة، نهض بريان ليلقي كلمته على المحلفين.

فقال: المسألة بسيطة، فالمسيحي يؤمن بأن الإنسان جاء من أعلى.. وأصحاب نظرية التطور يؤمنون بأنه جاء من أسفل... وهنا ضحك الجمهور مما شجع بريان على مواصلة حملته، وكان يمسك في يده كتاباً لعلم الأحياء، ويصيح ضد العلماء الذين جاءوا إلى البلدة ليشهدوا في صالح الدفاع..

وعندما انتهى بريان من كلمته الحماسية وقد برز فكه وتألقت عيناه صفق

الحاضرون بشدة.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بدا بوضوح أن أيام الحماسة البالغة التي كان بريان يكتسح فيها مؤتمر الحزب الديمقراطي اكتساح النار الهشيم قد ولت. وأحس الجمهور أن بطله لم يحرق الكفرة بأنفاسه الملتهبة كما كان يجب أن يفعل.

ونهض راولي مالون ليرد فقال:

إن مستر بريان ليس الوحيد الذي له الحق في التحدث عن الإنجيل، بل هناك أشخاص آخرون في هذه البلاد وهبوا حياتهم كلها لله والدين، أما بريان فقد وهب أغلب حياته وحماسته للسياسة.

ورشف بريان بعض الماء بينما كان صوت مالون يزداد ارتفاعاً وهو يدعو لحرية الثقافة، واتهم بريان بأنه يدعو لصراع حتى الموت بين العلم والدين.

وعندما انتهى مالون، ساد الصمت في أنحاء القاعة لحظة، ثم انفجرت فجأة عاصفة مدوية من التصفيق، فاقت ما لقيه بريان.. ووجدت نفسي أربت على ظهر مالون الذي كان العرق يبلل سترته.. ولكن على الرغم من أن مالون قد كسب جولة الخطابة، فإن القاضي رولستون رفض أن يسمح للعلماء بالشهادة لصالح الدفاع.

وبعد أن تأجلت الجلسة، امتلأت شوارع البلدة بالغرباء.. كان الباعة يصيحون على سلعهم في كل ركن، وكان هناك ٢٢ من عمال التلغرافات يرسلون كل يوم ١٦٥ ألف كلمة عن المحاكمة.

وبسبب الحرارة الشديدة والخوف من انهيار سقف مبنى المحكمة القديمة تحت ثقل الحشود المزدحمة، فقد تقرر استئناف المحاكمة في الخارج تحت الأشجار العالية. وبلغت المحاكمة ذروتها عندما تمسكت النيابة بوجوب تفسير الكتاب المقدس حرفياً وفقاً لنص القانون المعادي لنظرية دارون، وعندئذ كشف المحامي دارو عن ورقته الرابحة. بدعوة بريان نفسه للشهادة لصالح الدفاع!

ونظر القاضي إليه في ذهول.

وعندئذ قال دارو:

- إننا ندعوه بصفته خبيراً في الإنجيل.. وسمعته كخبير في النصوص المقدسة، معروفة في أنحاء العالم!

وساورت الشكوك بريان، حيال دعوة دارو الداهية.. ولكنه لم يستطع أن يرفض هذا التحدى، فقد ظل بضع سنوات يحاضر ويكتب عن الكتاب المقدس ويشن حملة عنيفة على نظرية دارون في أنحاء الولاية حتى قبل أن يصدر القانون الذي يحرم تدريسها.

وتلا دارو نصاً من سفر التكوين يقول: «والمساء والصباح كانا اليوم الأول».

ثم سأل بريان عما إذا كان يعتقد أن الشمس قد خلقت في اليوم الرابع فقال بريان إنه يعتقد ذلك.

وعاد دارو يسأله:

- وكيف يتسنى أن يكون هناك صبح ومساء بلا شمس..؟!!

فمسح بريان صلعته اللامعة في صمت... سرت قهقهة بين الحضور حتى الأتقياء منهم، بينما أخذ دارو يحكم وثاق الطوق الذي يطوق به عنق بريان.. فسأله عما إذا كان يعتقد حرفياً في قصة حواء.. فأجاب بريان بالإيجاب.. فقال دارو:

- وهل تعتقد أن الله عاقب الحية بأن حكم على كل الحيات بعدئذ أن تزحف على بطونها إلى الأبد[1].

- أجل.. إنني أؤمن بذلك..

- حسناً.. هل تعرف كيف كانت الحية.. تسير قبل ذلك..؟

وعندئذ انفجر الجمهور ضاحكاً. واحمر وجه بريان وارتفع صوته في حشرجة، واهتزت المروحة في يده. ودق القاضي مطرقته لإسكات الجمهور، ثم أجل المحاكمة لليوم التالي...

ووقف بريان المخذول وحده.

---

(١) ونص الفقرة في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: «... على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك» وترى هل تتغذى الحية بالتراب؟! أرجو جواب المشاهدة والعلم والتجربة!!

وفي ظهر اليوم التالي طلب القاضي إلى المحلفين أن يصدروا قرارهم، فاختلوا في أحد أركان حديقة المحكمة، وظلوا يتبادلون الهمس تسع دقائق، ثم صدر حكمهم بأنني مذنب!

وأصدر القاضي رولستون حكمه بتغريمي ١٠٠ دولار مع المصاريف..

وقد وصف ورادلي فيلد مالون هذا الحكم بأنه «هزيمة منتصرة» وأشارت بعض صحف الجنوب - التي لا تزال مخلصة لبطلها المخذول بريان - إلى الحكم باعتباره انتصاراً له، ولكن بريان كان حزيناً مجهداً. فمات بعد يومين من صدور الحكم في بلدة دايتون!

وعرض عليّ أن أعود لوظيفتي كمدرس، ولكنني رفضت، فقد حصل بعض الأساتذة الذين جاءوا للشهادة في صالحي على منحة لي من جامعة شيكاغو، لأتمكن من متابعة دراسة العلوم. وأصبحت فيما بعد خبيراً جيولوجياً لإحدى شركات البترول في ليوزيانا وأمريكا الجنوبية.

ومنذ فترة قصيرة، عدت إلى «دايتون» لأول مرة منذ محاكمتي التي تمت منذ ٣٥ عاماً.. وبدت البلدة الصغيرة في نظري كما كانت تقريباً. فيما عدا جامعة «وليام بريان» التي أقيمت فوق قمة تل يطل على الوادي.

وكانت هناك بعض تغيرات أخرى أيضاً. فمذهب التطور أصبح يدرس في ولاية تنيسي بالرغم من أن القانون الذي أدانني لا يزال قائماً واجتاحت العاصفة الخطابية التي نفخها كلارنس دارو ورادلي مالون كل المدارس والجمعيات التشريعية في أنحاء أمريكا، وكأنها الريح المنعشة التي تجلب في أعقابها جوا جديداً من الحرية الثقافية والعلمية تنمو على مر السنين[1].

* * *

وهكذا انهزم بريان محامي الادعاء معنوياً أمام الجماهير نتيجة دفاع دارو محامي الدفاع وانهزمت بانهزامه التوراة التي اتضح أنها تناقض العلم والتجربة

(١) المجلد ٣٨ العدد ٧ الصادر في نيسان (أبريل) ١٩٦٥.

والمشاهدة مناقضة لا تدع مجالاً للشك!

وقد سرت موجة الإلحاد في الغرب بسبب ذلك ما دام أن الدين يخالف العلم. والحق أن دارو كان خبيثاً في دفاعه، كما كان بريان مغفلاً في ادعائه، فقد كان يكفيه أن يطالب بعقوبة المعلم لتدريسه نظرية لا تزال قيد التجربة، وقد رفضها كثير من العلماء وأثبتوا مناقضتها للعلم، ويعتبر الأسئلة السابقة لدارو عما جاء في التوراة، خروجاً عن الموضوع، وتهرباً من الجريمة.

ولكن شاءت الأقدار الإلهية أن يتضح ما في التوراة من مخالفات للحقيقة العلمية والمشاهدة الحسية نتيجة تحريفها كما اعترف بذلك كثير من المؤرخين الغربيين أنفسهم..

وقد أصدرت مجلة «لايف» العالمية عدداً خاصاً باسم «الكتاب المقدس» نقتطف منه ما يلي على قاعدة من فمك أدينك.

تقول هذه المجلة:

هذا الكتاب الذي نحن بصدده أوسع الكتب انتشاراً.. ولكنه مع ذلك كتاب إنسان!! إن مؤلفيه يحملون أسماء ذائعة الصيت.. ولكن أغلب كلماته كتبها أشخاص آخرون لا يعرف أحد من هم!! ولا يمكن معرفتهم في يوم من الأيام، لقد ظل الوحي الإلهي إلى الإنسان ينتقل من الأب إلى الابن ألف سنة تقريباً بعد «إبراهيم» من غير أن يكتب! وبعد ذلك فقط بدأ اليهود في تدوينه! وكان ذلك قبل ألف سنة أخرى جديدة. وقد استلزم الأمر أن تعاد كتابة لفائفهم عدة مرات.

وأن تنقل وتنسخ. مما أوجد فرصاً أخرى جديدة لا تحصى لتغييرات لا عد لها، وبعضها مقصود!!

والبعض الآخر غير مقصود. ولما بدأت المسيحية تنتشر بسرعة، ازدادت الحاجة إلى عمل نسخ جديدة، لا سيما «العهد الجديد» وأخذ كثير من المؤمنين يصنعون نسخاً لأنفسهم بأنفسهم، أو كان أحدهم يقرأ بصوت مرتفع في «النسخ» بينما كان يتلقى عنه ما يقرب من اثني عشر ناسخاً، وهذا ما مهد الطريق لأخطاء أكثر وأكثر!!

لذلك فإنه لا يوجد اليوم أي نص «أصلي» لأي جزء من هذا الكتاب!! وربما حوى «العهد الجديد» تغييرات أكثر وأبلغ من «العهد القديم»!!هـ.

ونورد فيما يلي مثالاً من تحريف التوراة على مر السنين من أصل مئات الأمثلة، ما جاء في ترجمة سفر التكوين المطبوعة سنة ١٨١١ «هكذا سمى إبراهيم اسم الموضع مكان يرجم الله زائره».

وفي ترجمته المطبوعة سنة ١٨٤٤ وردت هذه الفقرة هكذا «دعا إبراهيم اسم ذلك المكان: الرب يرى».

وفي سفر التكوين في النسخ المتداولة اليوم.

«فدعا إبراهيم اسم ذلك المكان: يهوه يراه».

انظر الإصحاح الثاني والعشرين الفقرة الرابعة عشرة منه.

ومن أعظم الأدلة على تحريف التوراة ما جاء فيها من انحرافات أخلاقية في حق الأنبياء المعصومين الذين أرسلوا لهداية البشر وتهذيبهم، وإلى القارئ بعض الأمثلة على ذلك.

أولاً : النبي لوط زنا بابنتيه (سفر التكوين الإصحاح ١٩ الفقرة ٣٠).

ثانياً : أحد أولاد يعقوب يزني بسرية أبيه (سفر التكوين: ٣٥: ٢٢).

ثالثاً : النبي يهوذا بن يعقوب يزني بكنته (سفر التكوين: ٣٨- ٦).

رابعاً: داود يزني بامرأة قائده أوربا (سفر صموئيل الثاني: ١١-٢).

خامساً: أحد أولاد داود يزني بأخته (صموئيل: ٢- ١٣).

سادساً: النبي سليمان يعبد الأصنام (سفر الملوك الأول: ١١).

سابعاً: تغزل هذا النبي بالنساء تغزلاً فاحشاً ويهيم بهن كأحد العشاق الفساق (نشيد الإنشاد).

ولم يكتف محرفو التوراة بنسبة الزنا إلى الأنبياء، بل راحوا ينسبونه إلى الله نفسه! «تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا» راجع سفر حزقيال (الإصحاح الثالث والعشرون).

* * *

نعود بعد هذا الاستطراد إلى نظرية داروين التي صالت وجالت في القرن الماضي، وكانت سبباً في إلحاد الكثيرين وارتمائهم في أحضان الشهوات البهيمية بعدما زعمت أن أصل الإنسان حيوان، وقد تبع ذلك إنكار الإله والبعث..

نعود لهذه النظرية لنثبت انهيارها وضلالها وجهل واضعها، باعتراف كبار أنصارها وأشدهم تحمساً لها.

قال جوليان هكسلي معلناً بكل صراحة تفرد الإنسان واستقلاله عن جميع الحيوانات.

«وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعاً تجنب اعتبار نفسه حيواناً ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً. وفي حالات كثيرة لا مثيل له. ولا يزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام»[(١)].

وإذن فالإنسان متفرد في كيانه البيولوجي ذاته.. الذي ظن فيه دارون المشابهة الكاملة للحيوان، وبنى عليه تفسيره الحيواني للإنسان!

ويسرد هكسلي ألواناً من هذا التفرد البيولوجي. من بينها أنه في الحيوانات كلها ترتبط العضلات بالمخ بنوعين من الأعصاب، أحدها يتصل بالعضلات القابضة، والثاني يتصل بالعضلات الباسطة، ولا يصدر مخ الحيوان إلا نوعاً واحداً من الإشارات في اللحظة الواحدة. فإما إشارة للعضلات القابضة، وإما إشارة للعضلات الباسطة، فالكلب إما أن يهرش وإما أن يجري في اللحظة الواحدة، ولا يستطيع أن يهرش ويجري معاً في ذات الوقت. أما الإنسان، فهو - وحده في هذه الخلائق كلها - الذي يستطيع أن يقوم بأعمال متعارضة في آن واحد، لأن مخه يستطيع أن ينسق بين الأعمال المتعارضة[(٢)]!

ويتحدث هكسلي عن «خواص» الإنسان البيولوجية فيقول: «وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً، قدرته على التفكير التصويري، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية، فقل: استخدامه الكلام الواضح.

---

(١) جوليان هكسلي «الإنسان في العالم الحديث» ص٣.

(٢) المصدر السابق ص: ٢٧- ٢٩.

ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة..

ومن أهم نتائج تزايد التقاليد - أو إذا شئت - من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات..

وإن التقاليد والغدد لهي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية. وهذه السيادة البيولوجية في الوقت الحاضر خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة.

ولم يتكاثر الإنسان فحسب، بل تطور، ومدّ نفوذه، وزاد من تنوع سبله وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات، كما تقول الأديان.

ولقد أدى الكلام والتقاليد والغدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى، التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى، ومعظمها واضح معروف.. ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهي من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيراً، لأن الجنس البشري- كنوع- فريد في صفاته البيولوجية الخالصة، ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق، سواء من وجهة نظر علم الحيوان، أو من وجهة نظر علم الاجتماع.. وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره».

ويقول هكسلي أيضاً في موضع آخر:

وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان، والتي يمكن تسميتها «نفسية» أكثر منها «بيولوجية» تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

«الأولى» قدرته على التفكير الخاص والعلم.

«الثانية» التوحيد النسبي لعملياته العقلية، بعكس انفصام العقل والسلوك عند الحيوان.

«الثالثة» وجودات الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها.

وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان[١]، وهي بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية. ولنذكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية، والتقدير والإبداع الفنيين، والدين، والحب المثالي..

ولكن لا يكفي هنا أن نحصي بعض أوجه النشاط، ففي الحقيقة أن معظم أوجه النشاط الإنساني وخواصه، نتائج ثانوية لخواصه الأصلية. وكذلك فهي فذة من الناحية البيولوجية!!.. وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد..

وبذلك يكون الإنسان فريداً في أحواله أكثر مما نظن الآن»[٢].

وقال العالم الأمريكي: «أ. كريسي موريسون» في كتابه:

"man does not stand alons" الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

«إن القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة» (الجينات)!!ص١٤٥.

«لقد رأينا أن «الجينات» متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية، وهي تحفظ التصميم، وكل السلف، والخواص التي لكل شيء حي. وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات، تماماً كما تقرر الشكل والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان» (ص١٤٧).

«ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها!! حتى إن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك».

«والإنسان حيوان من رتبة الطليعة، وتكوينه يشبه فصائل «السيميا» «الأورانجتان والغوريلا والشمبانزي» ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة

---

(١) هذا رأي هكسلي الخاص وقد نقضه بنفسه مراراً.

(٢) من كتاب «الإنسان في العالم الحديث» ترجمة الأستاذ حسن خطاب.. مقتطفات متفرقة.

برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية «من القرود» أو أن تلك القرود هي ذرية منحطة للإنسان، ولا يمكن أحد أن يزعم أن سمك القد (cod) قد تطور من سمك الحساس وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها، ويأكل الطعام نفسه، ولهما عظام تكاد تكون متشابهه..» (ص١٤٢).

«إن ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي، ودون قصد ابتداعي».

«وإذا قبلت واقعية القصد، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً، ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار، لا فائدة منه، والعلم لا يعلل من يتولى إدارته، وكذلك لا يزعم أنه مادي!».

«لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره، ولا يزال الإنسان في طور طفولته من جهة الخلق، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه «بالروح» وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهيئة بغريزته بأنها خالدة».

هذا، ومن أهم ما ينبغي الإشارة إليه أن دارون لم يكن ملحداً - كما يقولون[1]- بينما أدت نظريته إلى انتشار الإلحاد بين الناس. وقد كان من أهم غاياته رد المخلوقات الكبيرة إلى الحيوانات الصغيرة البسيطة بظنه، ليعلل طريقة وجود الحياة على الأرض لإنقاذ العلم من الوقوف عاجزاً عن إيجاد تعليل صحيح لها.

وقد كان مخطئاً خطأ فاحشاً فيما ذهب إليه من ظنه ببساطة هذه المخلوقات التي زعمها بدائية نشأت في الطبيعة أول ما نشأت ثم تطورت منها الحيوانات الأخرى.

يقول «رسل تشارلز إرنست» أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا:

«لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس،

(١) المصدر السابق مقتطفات من ص (٣- ص ٦).

أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء، وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع، على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة! فهذا شأنه وحدهَ ولكنه إذ يفعل ذلك إنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله، الذي خلق الأشياء ودبرها.

«إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً»[1].

وهكذا انهارت نظرية دارون وانهار معها الإلحاد الذي نجم بسببها، وثبت أن الإنسان جاء من الأعلى لا من الأسفل.

ومما يؤسف له ويحز في النفس أن هذه النظرية الهدامة التي أثبت العلم فشلها وضلالها في الغرب وألفت المجلدات في البرهنة على بطلانها، لا تزال تدرس في كثير من معاهدنا وجامعاتنا كأعظم حقيقة علمية، مما يدل على أن هناك مخططات مرسومة لإفساد النشء الإسلامي وإلقائه في هوة الإلحاد، ليعمل هدماً في كيان أمته ويتهالك على الشهوات والموبقات ما دامت حياته- كما تقول النظريات الإلحادية- صائرة إلى الفناء والاضمحلال، وما دام ليس هناك مثل عليا مقدسة، فكل شيء في تطور، حتى الأخلاق فما هو فضيلة اليوم رذيلة غداً...

(١) مقال «الخلايا الحية تؤدي رسالتها» في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم».

وهكذا يعمل الأعداء على هدم معاقل المقاومة في الأمة الإسلامية.

جاء في «بروتوكولات زعماء صهيون»:

«إن دارون ليس يهودياً، ولكننا استطعنا كيف نستخدم نظريته لهدم الأخلاق وانحراف الشباب غير اليهودي، ليفسح لنا المجال لحكم العالم...» فهل من معتبر.

نصيحة ذهبية إلى مفكري الغرب وزعمائه

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

كتب إليَّ بعض الجمعيات الإسلامية في ديار الغرب، تطلب مني أن أكتب لها رسالة في بيان مزايا الإسلام وحاجة الغرب إليه، تترجمها إلى اللغات الأجنبية وترسلها إلى مفكري الغرب وعلمائه وزعمائه في مختلف المناسبات تدعوهم فيها للإسلام، وذلك بناء على اقتراح لي أرسلته إليها.

واشترطت علي الإيجاز فسارعت إلى تلبية الطلب، وكتبت لها الرسالة التالية، آملا أن يتبناها من يقدر على تنفيذها، وتعديل ما يراه ضرورياً، والله سبحانه نسأل أن يتولانا بعنايته وتوفيقه.

● أيها الغربي، أخي في الإنسانية.

تحيات طيبة أبعث بها إليك من الشرق الجميل، من بلاد العرب، نبع النور والحكمة.

آملاً أن تسمح لي ما دمت أخي في الإنسانية- أن أقدم لك أعظم هدية سمينة، فيها سعادتك وسعادة قومك، بل وسعادة البشرية جمعاء. بل خلاصها من كل ما تعانيه من قلق واضطراب وفوضى.

اذكر - يا أخي في الإنسانية - أن جزيرة العرب كانت تتخبط قبل أربعة عشر قرناً بالضلال، والانحطاط، والفساد، والظلام، فحدثت حادثة عظيمة استطاعت بسرعةٍ عجيبةٍ أن تجعل من العرب خير أمة أخرجت للناس فسمت بأخلاقهم

ووحدت كلمتهم، وجعلت منهم هداة مهديين انطلقت بهم في ميادين العلم والمدنية، فخرجوا إلى العالم ينقذونه من ظلمات الوثنية، والجهل.

فأسسوا أعظم حضارة عرفها التاريخ وكانت سبباً في إنقاذ البشرية كلها من ظلمات الجهل، والظلم، بشهادة مؤرخي وعلماء الغرب المنصفين الذين راحوا يطلقون عليها اسم «المعجزة العربية» وهي ظاهرة تاريخية عجيبة تستحق الدراسة للإفادة منها!.

إن هذه الهدية هي: «الإسلام».

ولاشك أنه بلغك عن هذا الدين الأخبار الكثيرة، ولكن أغلبها مشوه وكاذب، شوهه أناس لا يخافون الله، قد ماتت ضمائرهم، غايتهم تضليل الأبرياء، لتبقى لهم امتيازاتهم ويتسنى لهم امتصاص أموال الناس بالباطل.

إن هؤلاء الأشرار يحبون أن يبقى العالم في شقائه فيسعون جهدهم لتشويه حقيقة الإسلام، ليظهروه بمظهر سيّئ بمختلف وسائل الدعاية الكاذبة لتنفير الناس منه، وليبقوا في ظلام دامس وشقاء مستمر، مثلهم في ذلك مثل اللص يحاول - أول ما يحاول - إطفاء المصباح لتسهل عليه السرقة!

إن هذا المصباح المضيء، هو الإسلام الذي أضاء نوره العالم قبل أربعة عشر قرناً، فهم يحجبون ضياءه بمختلف الحيل والأساليب، ويخوفون جماعاتهم حتى من قراءة صفحات عنه، لأنهم يعلمون أن حقيقته وعظمته ستجذبهم إليه فيدخلون في دين الله أفواجاً.

ليس غايتي الدعاية للإسلام، إنما غايتي الأولى هدايتك إلى طريق الحق، وإنقاذك من الضلال، ومن الفراغ السحيق الذي تعانيه البشرية كلها بسبب النظم المادية التي تعكر حياتها وتهدد العالم بحرب هيدروجينية مدمرة نتيجة تركها للإسلام، شريعة الله!

وأهم ما ينبغي أن ألفت نظرك إليه أنك إذا دخلت الإسلام فلا تكون قد تركت ديانة المسيح عليه الصلاة والسلام.

أبداً! إن الإسلام امتداد للمسيحية الصحيحة، وإتمام لها، كما أن المسيحية

إتمام لشريعة موسى عليه السلام، هكذا أعلن المسيح عليه السلام في قوله «إنني ما جئت لأنقد الناموس، بل جئت لأتمم» وقال النبي محمد ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

قال لوزارون «ألفنس باسنت سابقاً» معترفاً بأن الإسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوراً، ونصح قومه الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالإسلام للعثور على ضالتهم المنشودة[1].

إنجيل يوحنا (١٤، ٢٤، ٢٥)، إنجيل مرقس (١٢، ٢٨)، إنجيل مرقس (١٣/ ٣٢) إنجيل متى (٢٠/ ٢)، إنجيل متى (١١، ١١)، إنجيل يوحنا (١٧، ٣)، إنجيل متى (٢١، ١١)، إنجيل يوحنا (٨، ٤)، إنجيل يوحنا (٦، ١٤)، إنجيل يوحنا (٥، ٨).

أجل راجع هذه الفقرات وفي مقدمتها ما جاء في (إنجيل مرقس ٢، ٣٣ حيث يقول المسيح: «الحق قلت: لأن الله واحد، وليس سواه»!

نجد توحيد الإله الذي جاء به الإسلام واضحاً في الأناجيل نفسها- كما هو واضح في التوراة- مما لا يدع مجالاً للشك في أن الله سبحانه واحد لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأن المسيح عبده ورسوله.

وراجع الفقرات التالية أيضاً من إنجيل يوحنا، ومثلها كثير في توراة يوحنا: ١٥، ٢٦ ويوحنا: ١٦، ١٢، ١٣، يوحنا: ١٥، ٢٢، يوحنا ١٦، ١٨.

أجل راجع هذه الفقرات وفي مقدمتها: «إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد - أي خاتم الأنبياء - وروح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله، لأنه ليس يراه ولا يعرفه. وأنتم تعرفونه، لأنه مقيم عندكم وهو ثابت بينكم «لأنه مذكور في التوراة،

(١) راجع تاريخ الإمام محمد عبده (٢/ ٤١٠)، وأرجو بهذه المناسبة مراجعة المجلد ٢٨ العدد ٧ الصادر في إبريل نيسان ١٩٦٥ من مجلة لايف الأمريكية حيث يثبت كبار العلماء الغربيين حدوث التحريف في التوراة والإنجيل.

والإنجيل والفارقليط»[1]. روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم. والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى تؤمنوا!. أي تؤمنوا بالنبي محمد وتدخلوا في دينه! يوحنا: ١٤- ١٥) وما بعدها...

● **بشارات التوراة بمجيء الرسول محمد**

في التوراة عدد كثير من البشارات بمجيء الرسول محمد ﷺ، فعلى طالب الحقيقة مراجعتها في الإصحاح (١٨- والفقرة ٢٠) من سفر التثنية، والإصحاح (٣٢: والفقرة ٢١) والإصحاح (١٧ والفقرة ٢٠) من سفر الاستيثاء، والإصحاح (٤٩ الفقرة العاشرة) من سفر التكوين. والإصحاح (٤٢) من كتاب أشعيا، والإصحاح الرابع والخمسين من كتاب أشعيا، والباب الثاني من كتاب دانيال والفقرة ٣١، وجاء في أشعيا الإصحاح ٦٠ والفقرة ١- ٧ أجل في التوراة بشارات كثيرة، وفي مقدمتها ما جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين قوله «جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، وتلألأ من جبل فاران» وفي الترجمة العربية المطبوعة عام ١٨٤٤ بالإضافة على ما سبق «ومعه ألوف الأطهار».

فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل للمسيح. وتلألؤه من جبل فاران إنزاله القرآن على الرسول محمد.

ويمكن أن نستدل على أن فاران هي الحجاز بما جاء في التوراة على أن هاجر زوجة إبراهيم وأم إسماعيل سافر بها زوجها وأسكنها برية فاران، ومما هو ثابت في التاريخ أن هذه الهجرة كانت إلى الحجاز، وقاموس الكتاب المقدس نفسه، يفسر فاران: بالحجاز.

وقوله «ومعه ألوف الأطهار» يقصد صحابة الرسول محمد الذين رباهم فكانوا أمثال الطهر والأخلاق المثالية والجيل المثالي العظيم.

---

(١) ترجمت هذه الكلمة إلى اليونانية بلفظ «بيركلوطوس» أو باراكلوت فكانت بمعنى محمد وأحمد، كما هو واضح في الإنجيل المطبوع أعوام ١٨٢١ و ١٨٣١ و١٨٤٤ ثم حرفت ويا للأسف لإضاعة الحقيقة وترك البشرية في الضلال والفوضى.

لقد بشرت التوراة والإنجيل بمجيء نبي بعد المسيح (عليه السلام) الذي ذكر قاعدة لتميز الرسول محمد عن الأنبياء الكذبة فقال: «من ثمارهم تعرفونهم» وهل أعظم من الآثار التي جاء بها النبي محمد من عند ربه؟!

وفي مقدمتها: القرآن العظيم الذي لا يزال معجزته الخالدة على مر العصور، وقد تحدى الله سبحانه البشر أن يأتوا بمثله، وأن يجدوا فيه عيباً أو مخالفة للبديهيات العلمية الثابتة بعد مرور أربعة عشر قرناً على نزوله، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فإن في هذا القرآن عدداً كثيراً من الآيات التي سبقت العلم، مما لا يدع مجالاً للشك أنه من عند الله، بينما جاء في كتب بعض الأديان الأخرى من المهازل والسخافات والمتناقضات للعلم الشيء الكثير!

هذا وفقرة «من ثمارهم تعرفونهم» التي وردت في الإنجيل، وقد مر ذكرها، فإنها علاوة على إشارتها على ما سبق، فإنها تدل أيضاً على وعد السيد المسيح بمجيء الرسول محمد، وأن اليهود، والنصارى، كانوا ينتظرون مجيء هذا النبي.

إن اليهود المعاصرين للمسيح كانوا منتظرين نبياً آخر مبشراً به، وكان هذا المبشر عندهم غير المسيح، بدليل أنهم سألوا يوحنا قائلين: أأنت المسيح؟ ولما أنكر سألوه أأنت إيليا؟ ولما أنكر، سألوه: أأنت النبي المنتظر الذي أخبر به موسى. مما يدل على أن النبي محمدا كان منتظراً مثل المسيح وإيليا.

ولكن لعن الله المحرفين والمضللين الذين يخفون الحقيقة!!

إنك تتأكد مما سبق أن السيد المسيح قد أخبر وبشر بمجيء الرسول محمد ﷺ بصورة صريحة لا تدع مجالاً للشك، وحض على اتباعه، وسرعة الإيمان به، والدخول في دينه.

فما عليك إلا أن تؤمن به وتدخل في دين الإسلام.

وأذكر بهذه المناسبة أن الإسلام قد أشاد بعظمة المسيح، ورفع من شأنه، وأمر المسلمين بالإيمان به، وأثنى على أمه مريم الصديقة، في آيات.

إن البشرية اليوم بحاجة إلى الإسلام، بعدما أفلست جميع تشريعاتها ومذاهبها.

إن الإسلام قادر على حل جميع مشكلات الغرب، بل مشكلات العالم بأسلوب طبيعي، وإنقاذه من القلق والفوضى والهلاك الذي يهدده، بسبب مذاهبه المنحرفة، التي سببت النزاع بين جماعاته، ذلك النزاع الذي يوشك أن يتحول إلى حرب هيدروجينية تعرض العالم والحضارة إلى الفناء.

إن الإسلام يرسم للعالم طريق السعادة الحقيقية، ويقدم له الحلول السريعة لمشكلاته كما اعترف بذلك كبار الساسة، والعلماء، والمؤرخين المنصفين في الغرب والشرق.

● **القوانين الطبيعية والتشريع السماوي**

اذكر- يا أخي في الإنسانية- أن الله العظيم قد وضع في هذا الكون لتنظيم العلاقة بين البشر والطبيعة قوانين مادية، فلابد للإنسان من الخضوع لها إذا أراد أن يستفيد من الطبيعة، وإذا خالف هذه القوانين عرض حياته للشقاء والانحطاط.

واذكر إلى جانب ذلك أن الله- سبحانه- وضع أيضاً قوانين تشريعية لتنظيم العلاقة بين البشر بعضهم ببعض، وهي ما تسمى الدين - فلا بد للإنسان من الخضوع لها إذا أراد أن يعيش سعيداً راقياً في حياته. وإذا خالف هذه التشريعات عرض حياته للشقاء والهلاك .

وما تعانيه البشرية اليوم من فوضى، وانحلال، وحروب، وفساد، ما هو إلا نتجية مخالفتها للتشريعات الإسلامية الإلهية، واعتمادها على تشريعات وضعية كانت سبباً في شقائها، فكما أن الإنسان لا يقدر أن يعدل قوانين الإله الطبيعية، كذلك لا يستطيع أن يعدل قوانين الإله التشريعية التي أنزلها عن طريق رسله إلى البشرية.

ويمكننا أن نقول أيضاً: إن البشرية إذا كانت عاجزة عن وضع القوانين بينها وبين الطبيعة وقد وضعها الإله، وفرض عليها اتباع هذه القوانين، فهي عاجزة كذلك أن تضع القوانين التشريعية بين أفرادها أنفسهم لأسباب وأسرار يطول الكلام عليها، وقد وضعها الإله وفرض على هذه البشرية اتباعها.

وقد جرب الفلاسفة، والعلماء، والساسة، وضع مثل هذه القوانين قبل عهد

أرسطو، وأفلاطون، إلى عهدنا هذا، ففشلوا جميعاً، بعدما عرضوا شعوبهم بسببها إلى الفوضى والهلاك.

فهذا أفلاطون (٤٣٠- ٣٤٨ ق.م) في كتابه «الجمهورية»، وهذا كنفوشيوس (٥٥٠- ٤٧٩ ق.م) في كتابه «الحوار»، وهذا الفارابي «٩٥٠م» في كتابه «يوتوبيا»، وهذه النازية، والفاشية، والرأسمالية، والديمقراطية، والشيوعية كلها قد انهارت، وتنهار، تاركة وراءها أسوأ الآثار والجرائم، بعد ما أنهكت البشرية في حروب طاحنة خلال نصف قرن من الزمن.

ولله در شوقي فقد خاطب الرسول محمداً ﷺ فقال يشير إلى الإسلام:

داء الجماعة من أرسطاليس لم يوصف له - حتى أتيت- دواء!

وكل ذلك من الأدلة الواضحة على حاجة البشرية إلى الإسلام، وأنه لا بد لها من الدخول فيه! جرب أن تقرأ عن الإسلام، ولو صفحات قليلة من مصادر موثوقة، حاول أن تطالع القرآن العظيم باللغة العربية إن كنت تحسنها، أو من الترجمة الصادقة، فإنه لا شك سيجذبك إليه لدراسته بتفصيل، إذا خلعت عنك رداء التعصب الذميم، والتقليد الأعمى، والتربية الحاقدة، التي تربيت عليها.

قبل أن أودعك، فإني أستصرخ ضميرك أن تسارع إلى دراسة الإسلام من مصادره الصحيحة: من القرآن، وحديث الرسول محمد، فإنه في ذلك نجاتك، ونجاة قومك، ونجاة البشرية جميعاً، من القلق، والاضطراب، والهلاك في الدنيا، وعذاب الله في الآخرة.

واذكر أن مئات الغربيين المفكرين المنصفين من جميع الدول الأوروبية والأمريكية دخلوا ويدخلون في الإسلام وأثنوا عليه، وشهدوا بأن باستطاعته حل جميع مشكلات العرب بسرعة وأنه- لا شك سيكون دين الغربيين في الوقت القريب، فما يمنعك أن تكون واحداً منهم فتنال سعادة الدنيا والآخرة.

واذكر في الختام أننا قد بلغناك دعوة الإسلام. فأصبحت مسؤولاً أمام الله عن الإيمان به. كما دعاك إلى ذلك السيد المسيح عليه السلام. ولا تنس في هذه المناسبة أن الإسلام غير المسلمين اليوم، فهم لا يعطون صورة صحيحة عنه. وهو

غير مسؤول عن تأخرهم وضعفهم وانحطاطهم. بعد أن تركوا التمسك به بحق، بسبب إهمالهم وانجرافهم في دعاية المستعمرين والمبشرين ضده.

ولا تنس أيضاً أن المسلمين لما تمسكوا بالإسلام تمسكاً صحيحاً وقوياً. وحدهم بعد فرقة. وقواهم بعد ضعف. ومدنهم بعد تأخر. وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس. ولما تركوه انهاروا وخذلوا، يشهد على ذلك التاريخ!

بعكس الحال في النصرانية بسبب تحريفها فإن الأوروبيين لما تمسكوا بها قد تأخروا وعاشوا في العصور الوسطى المظلمة في الغرب. والمتلألئة الراقية في الشرق بسبب حكم الإسلام ومبادئ الإسلام.

إن العالم اليوم يعيش في جاهلية مدمرة، وفوضى رهيبة. كما كان يعيش قبل بعثة الرسول محمد، وكلما تقدم الزمن فقد سعادته. وزاد في شقائه، وليس سوى الإسلام المنقذ والمخلص الوحيد.

● **زعماء العالم**

وبمناسبة الحديث عن الإسلام اذكر أن زعامة العالم في هذا الدين العظيم لن تكون للعرب خاصة، إنما تكون لأكثر الناس صلاحاً وإنتاجاً وتطبيقاً لمبادئ الإسلام التي هي مبادئ الحق، والقوة، والخير، والسلام، والجمال.

إن أول ما ينادي به الإسلام من أجل تحقيق السلام على الأرض. وإثارة الضمير الإنساني، أنه يعلن في مناسبات كثيرة أن البشرية ترجع في أصلها إلى نسب واحد وأبوين مشتركين، وإذا حكمنا العقل نجد أن كل ضرر يلحق بإحدى الجماعات البشرية ينتقل إلى الجماعات الأخرى بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، مما يدعوهم إلى المحبة، والوئام، والسلام.

وهذا المفهوم إذا كان غريباً في القديم، فإنه اليوم بعد اختراع وسائل النقل السريعة العجيبة والإذاعة والتلفزيون والهاتف والبرق... أصبح مقبولاً وضرورياً، فقد غدت الكرة الأرضية كوطن واحد، أو بلد واحد، وغدا سكانها كأسرة واحدة، أو كشعب واحد، فهل رأيت أسرة واعية أو شعباً مفكراً ينشأ بين أفراده النزاع والخصام؟

وبعد هذا النداء يعلن الإسلام. أنه لا بد لهذه المجموعة الإنسانية الواحدة من تشريع عظيم موحد، يعلمها حقوقها وواجباتها كيلا تختلف، ولا تتنازع فإنه ليس كاختلاف الناس في القوانين، والمعارك، سبب في النزاع، والخصام، فوضع لهم نظاماً راقياً ينطلق بهم في ميادين الرقي. والفضيلة. والسعادة، والسلام، فلا نزاع، ولا ظلم، ولا حرب، ولا جحود، ولا تأخر.

وليس هذا الكلام دعاية فارغة، فقد طبق الإسلام منذ قرون سابقة، فحقق جميع هذه الأهداف بشهادة المنصفين من الغربيين، وأوجد مدنية دمشق، وبغداد، والأندلس، فكانت سبب مدنية الغرب وإعجابه.

آه! ما أحوج الغربيين اليوم إلى الإسلام ليعلمهم الحياة السعيدة الراقية التي لم يذوقوها حتى الآن، صحيح أنهم طاروا في السماء، وغزوا القمر، ولكنهم ويا للأسف- لم يعرفوا حتى كيف يعيشون على الأرض بسعادة وسلام، فكانت هذه الاختراعات والاكتشافات سبب شقائهم، وباتت تهددهم بالدمار والفناء.

اذكر على الدوام أن محمداً رسول الله كما وصف نفسه- رحمة مهداة من الله إلى الإنسانية، وقد بعثه ليخرج الناس:

١- من عبادة المخلوق إلى عبادة الله وحده.

٢- ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

٣- ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

٤- ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

واذكر في ختام هذه الرسالة أن البشرية اليوم منقسمة إلى معسكرين متخاصمين، ويوشك أن تقع حرب مدمرة بينهما بسبب اختلافهما في الفردية والجماعية، في الرأسمالية، والشيوعية، وفي الروحية، والمادية، ولا يمكن توحيد هذين المعسكرين والتوفيق بينهما إلا بالإسلام، فهو وسط بن الرأسمالية، والشيوعية، وبين الفردية. والجماعية، وبين الروحية، والمادية.

تعال نصل إلى الله تعالى، وندعوه أن يجمع البشرية على دين واحد صحيح، يوحد بينها، ويحقق لها السعادة والرقي والسلام.

افتراء المستعمرين

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣م) - فبراير (١٩٧٣م).

من أنواع الحملات التي تفنن المبشرون والمستشرقون من ذوي الأغراض الماكرة في شنها على الإسلام لتزهيد المسلمين فيه وإبعادهم عنه ليصبحوا نهباً مقسماً للفوضى والاضطراب في التشريع ونظام الحياة، كي يسهل القضاء عليهم...

أجل من أنواع هذه الحملات التي يتفنن هؤلاء المبشرون والمستشرقون وأبواقهم المقلدة من أبناء جنسنا ويا للأسف في شنها على الإسلام.. اختلاق العيوب على كثير من تشريعاته كالحجاب والطلاق وتعدد الزوجات وقسوته في العقوبات، ولست في مجال تعداد مزايا هذه التشريعات وإثبات أنها فضائل لا عيوب، إنما أود بيان أن الإسلام ليس وحده الذي أتى بهذه الأنظمة.

فلماذا تشن عليه الحملات من هؤلاء المستعمرين والمستشرقين؟

وجميع هذه الأديان سواء في الحض على الحجاب وإباحة الطلاق وتعدد الزوجات والحزم في معاقبة الزناة والقتلة واللصوص!

كل ذلك يثبت مبلغ الحقد والبغض والافتراء الذي يشنه خصوم الإسلام عليه ظلماً وعدواناً لإبعاد أبنائه عنه وعن جهاده كي يصبحوا لقمة سهلة الازدراد والضياع، ولتنفير العالم منه، وقد بدأ يهتم بالإسلام ويستعد لدراسته وقبوله، بعد ما يئس من نظمه الوضعية الفاشلة التي تقوده إلى الهلاك.

إننا لا نقول القول جزافاً.

وليس لنا غاية بأن ندافع عن الإسلام بأسلوب اتهام غيره.

كلا.. ثم كلا..

فها نحن أولاء نأتي على المصادر اليهودية والنصرانية في إثبات الحجاب وجواز الطلاق وتعدد الزوجات وقتل القاتل ورجم الزاني وقطع يد السارق..

● **الحجاب**

جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن «رفقة» أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق.. فأخذت البرقع وتغطت..

وفي الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين أيضاً أن «تامار».. خلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت..

وبعد ذلك بزمن كان فيليب أوف هيس، وفريدريك وليام الثاني البروسي، يبرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثريين، وأقر لوثر نفسه تصرف الأول منهما، كما أقره فلانكتون، وكان لوثر يتكلم في مختلف المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض، فإنه لم يحرم بأمر من الله تعالى.

وفي سنة ١٦٥٠ الميلادية - بعد صلح وستفاليا بعد أن تبين النقص في عدد السكان من جراء الحرب الثلاثين- أصدر مجلس الفرنسيين بنورمبرج قراراً يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين، بل ذهبت بعض الطوائف النصرانية إلى إيجاب تعدد الزوجات، ففي سنة ١٥٣١ نادى اللامعمدانيون في مونستر صراحة: بأن المسيحي- حق المسيحي- ينبغي أن تكون له عدة زوجات، ويعتبر المورمون كما هو معلوم أن تعدد الزوجات نظام إلهي مقدس..

● **الطلاق**

جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من التثنية: إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه، لأنه وجد فيها عيوباً شتى، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها، وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر.

وجاء في الإصحاح الثالث من كتاب أرميا: «إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر، فهل يرجع لها بعد؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة؟»

ولا أدري لماذا تتنجس إذا رجعت إلى زوجها الأول ولم تتنجس إذا تزوجها

الزوج الثاني؟!!

جاء في الإصحاح السابق: «وأما المتزوجون فأوصيهم- لا أنا بل الرب- ألا تفارق المرأة رجلها، وإن فارقته- وهذا اعتراف منه بجواز الطلاق- فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها».

وجاء في إنجيل متى: «أن السيد المسيح سئل عن الطلاق فاستنكره لقسوته، وقال إن من طلق امرأته لغير الزنى جعلها تزني، ودفع بالزوجة إلى اقتراف الرذيلة» «هل صحيح أن النساء جميعاً يزنين إذا طلقن؟!!».

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني!

ولا أدري كيف نوفق بين هذا النص للمسيح عليه السلام الذي لا يفهم منه تحريم الطلاق؟

وفي الإصحاح الثالث من سفر أشعيا إن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة برنين خلاخيلهن.

ويقول بولس المسمى بالرسول في رسالة كورنتوس الأولى: إن النقاب شرف للمرأة.

ولا يخفى أن البرقع أشد من الحجاب.

● **تعدد الزوجات**

جاء في أخبار العهد القديم أن داود وسليمان عليهما السلام قد جمعا بين مئات الزوجات الشرعيات والإماء، حتى نسب اليهود ظلماً وكذباً إلى سيدنا داود أنه أراد الزواج بامرأة قائده «أوريا» بالإضافة إلى زوجاته الكثيرات. بعد تعريض هذا القائد للقتل، وقد وقع كثير من المفسرين المسلمين في هذه الخطيئة بسبب أخذهم الإسرائيليات كأنها حقائق ثابتة!

وفي الإصحاح الثاني عشر من سفر صمويل الثاني يقول النبي ناتان لداود: «أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك.. لماذا أخذت امرأة أوريا لك امرأة؟!».

وفي الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول كانت لسليمان سبعمائة من النساء والسيدات وثلاثمائة من السراري.

ويقول نيوفلد صاحب كتاب «قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين»: «إن التلمود والتوراة معاً قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه».

والديانة النصرانية هي تبع للديانة اليهودية لقول المسيح عليه السلام: «ما جئت لأنقض الناموس بل جئت لأتمم». فيمكن أن نجزم بإباحة تعدد الزوجات فيها، لاسيما وأنه لم يرد في الإنجيل نص صريح بتحريم هذا التعدد، غير أنه ورد في كلام بولس استحسان الاكتفاء بزوجة واحدة لرجل الدين.

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «المرأة في القرآن الكريم»:

«وبقي تعدد الزوجات مباحاً في العالم المسيحي إلى القرن السادس عشر، كما جاء في تواريخ الزواج بين الأوروبيين»، ويقول وستر مارك في تاريخه: «إن ديارمات ملك إيرلنده كان له زوجتان، وسريتان، وتعددت زوجات الملوك الميروفنجين غير مرة في القرون الوسطى، وكان لشرلمان زوجتان وكثير من السراري، وكان يظهر من بعض قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولاً بين رجال الدين أنفسهم».

بل الزجر عنه، وبين قوله: «إنني ما جئت لأنقض الناموس»- أي الديانة اليهودية وهي تبيح الطلاق كما رأينا- «بل جئت لأكمل».

وعلى كل حال فإن جميع الدول الأمريكية والدول الأوروبية وآخرها إيطاليا بلد الفاتيكان! قد أخذت بالطلاق.

وبمناسبة الكلام على اشتراط الإنجيل- الحالي- الزنى في الطلاق، وهو أمر غير طبيعي ولا معقول، أنشئت في أمريكا عصابات من «كبار» المثقفين.. من المحامين والأطباء والكتاب ورجال القانون.. مهمتها.. ماذا؟!

مهمتها تيسير مهمة الزنى.. لأغراض قانونية..!!

ففي الولايات الكاثوليكية لا يباح الطلاق إلا في جريمة الزنى من أحد الزوجين فيحق للزوج الآخر أن يطلب الطلاق، ومن ثم يلجأ الطرف الكاره الذي

يطلب الطلاق - سواء هو الزوج أو الزوجة - إلى واحدة من هذه العصابات للإيقاع بالطرف الآخر في جريمة زنى، وضبطه متلبساً، وإعطاء المستندات اللازمة التي تمكن من طلب الطلاق لقاء أجر معلوم.

● **العقوبات:**

إن عقوبة قتل القاتل العمد ورجم الزاني والزانية المحصنين وغير ذلك من العقوبات الشديدة تشترك فيها الديانات الثلاث، وقد أشار إلى بعض ذلك الله سبحانه في القرآن الكريم بقوله: «﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي في التوراة - ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾» (المائدة: ٤٥).

وقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة بشأن الرجم؟» فقالوا نفضحهم ويجلدون.. قال عبد الله بن سلام - وكان منهم وقد أسلم: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم.

فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله، فرجما، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة!!.. وهذا لفظ البخاري..

وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ التي وضعه الله عليها، أي يبدلونه ﴿يَقُولُونَ﴾ لمن أرسلوهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أي المحرف أي الجلد أي أفتاكم به محمد ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم بخلافه- أي بالرجم- فاحذروا» أي أن تقتلوه ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٤١).

ومما سبق ندرك كذب وافتراء المستعمرين والمبشرين الذين يحاولون الطعن في الإسلام بتخصيصهم له في هذه النظم السابقة، متجاهلين ومتناسين أنها شرائع التوراة والإنجيل كما هي شريعة القرآن، وهي في منتهى العدل والحكمة كما ظهر ذلك حين تطبيقها في صدر الإسلام فكانت سبباً في تحقيق المدينة الفاضلة وإنشاء الجيل المثالي لأول مرة في تاريخ البشرية ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (التوبة: ٣٢- ٣٣).

كل ذلك بعكس نظمهم وتشريعاتهم الوضعية من ديموقراطية وشيوعية، وقد نرى مصارعها وفشلها في هذا العهد، كما رأينا مصارع الفاشية والنازية من قبل!

وأهم ما يريده الطغاة المفسدون من دسائسهم وافتراءاتهم أن يظهروا الإسلام للمرأة المسلمة بأنه عدوها، وأنه ظلمها في الوقت الذي حماها من الاعتداء على حقوقها والتبذل في سلوكها، وأعطاها حقوقها كاملة لأول مرة في التاريخ دون أن ترفع صوتاً أو تقدم احتجاجاً للمطالبة بها..

ألا ساء ما يعملون.

وساء ما يفترون.

وإذا كنا ذكرنا مما سبق وجه الشبه بين القرآن والتوراة والإنجيل في بعض الأحكام والتشريعات، فليس معنى ذلك أن الإسلام يقر كل ما جاء في اليهودية والمسيحية بعد تحريفهما من آراء ونظم عن المرأة، بل الأمر بالعكس، فقد ثار هذا الدين العظيم على كل ما يسيء إلى المرأة ويستذلها.. وإلى القارئ بعض ما جاء في الديانتين اليهودية والنصرانية وأقوال رؤسائهما من انحرافات يبرأ منها الحق والعدل والذوق ويحاربها الإسلام بلا هوادة، وذلك في قصة غريبة واقعية قصها عليَّ أحد طلابي:

ذهبت فتاة مسيحية إلى الكنيسة صحبة خطيبها لعقد زواجهما في ألمانيا الغربية وكان معهما طائفة كبيرة من أصدقاء وأقرباء كل منهما. وكان هذا الزوج مثقفاً درس بعض مبادئ الدين الإسلامي.

وما كاد القس ينتهي من مراسيم العقد حتى راح يوصي الزوج بقوله: «إنني أوصيك يا بني ألا تظلم زوجتك وتسيء معاملتها، وتحتقرها كما يحتقر الدين الإسلامي المرأة ويأمر المسلمين بسوء معاملتها!!

فغضب الزوج من هذا الكلام وقال بأعلى صوته:

«هذا الكلام مغاير للحقيقة، فإن الذي يحتقر المرأة ويأمر بظلمها هي الكنيسة، وما جاءت به من مبادئ، وما زعمته من أقوال المسيح، وهو لا شك بريء منها!».

ثم تمم الزوج كلامه:

«كل ذلك بعكس ما جاء به الإسلام الذي له الفضل الأكبر في إنصاف المرأة، وإعطائها حقوقها كاملة لأول مرة في تاريخ البشرية».

فدهش القس من هذه المفاجأة والتف القسس حول الكاهن، وتجمهر المدعوون حول الزوجين يطلبون من رجال الكنيسة التحقيق في ادعاء هذا الزوج، حتى إذا كان مخطئاً أقنعه القس بالتراجع عن كلامه..

اضطرب الكاهن لجرأة الزوج، وغلب على أمره تجاه ضغط الحضور فسأله عن دليله فيما يقول:

فتقدم بكل شجاعة وقال: ألم تقل الكنيسة في مبادئها:

«إن المرأة ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور، وهي للرجل باب من أبواب جهنم من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء، فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة وينبغي أن تستحي من حسنها وجمالها، لأنه سلاح إبليس الذي لا يوازيه سلاح من أسلحته المنوعة، وعليها أن تكفر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً، لأنها هي التي قد أتت بما أتت به من الرزء والشقاء للأرض وأهلها».

ودونكم ما قاله ترتوليان أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها، مبيناً نظرية المسيحية في المرأة:

«إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وأنها دافعة بالمرء إلى الشجرة

الممنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوهة لصورة الله- أي الرجل».

وكذلك يقول كرائي سوستام الذي يعد من كبار علماء الديانة المسيحية في شأن المرأة:

«هي شر لا بد منه، ووسوسة جبلية، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة ورزء مطلي مموه».

ثم قال هذا الزوج:

ألم يجتمع مجمع «ماكون» في القرن الخامس للبحث في مسألة: «هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه؟ أو لها روح؟».

وأخيراً قرر رجال الكنيسة في هذا المجمع: «إن المرأة خلو من الروح الناجية (من عذاب جهنم) ما عدا أم المسيح».

ألم يجتمع أيضاً مؤتمر في فرنسا عام ٥٨٦ تحت إشراف الكنيسة للبحث: «هل تعد المرأة إنساناً أو غير إنسان؟» وأخيراً قرروا «أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب» وقد جاء في التوراة التي يدين بها اليهود والنصارى: «المرأة أمرّ من الموت!! وإن الصالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحداً بين ألف وجدت، أما امرأة، فبين كل أولئك لم أجد!!» .

فهل بعد هذا الاحتقار من قبل الكنيسة للمرأة احتقار؟!

وهل بعد هذا الظلم لها من ظلم؟!

هذا- وقد ذكرت الكنيسة لنا على لسان المسيح في الإنجيل أنه قال: «...إنه يولد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، من استطاع أن يفعل فليفعل»[1].

فهل يعقل أن يقول هذا المسيح، فيعطل فطرة الرب في الزواج؟!

ومن المؤسف أن يعلق «ترتوليان» السابق الذكر على ما زعمته الكنيسة أنه من أقوال المسيح «لقد فتح المسيح للخصيان أبواب السماء؛ لأن حالتهم قد باعدت

(١) إنجيل متى: الإصحاح ١٩ الفقرة ١١.

بينهم وبين قربان النساء».

ولا يخفى على عاقل عاقبة الخصي ونتيجته في تشريد ملايين النساء وتركهن بدون أزواج، الأمر الذي يدفعهن إلى ارتكاب مختلف الجرائم الجنسية.

ومما يؤسف له أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي نجس في نفسها بنظر الكنيسة، فيجب أن تتجنب، ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع ولنأخذ لذلك مثلاً شائعاً بين النصارى خلاصته:

أن الزوجين اللذين اتفق لهما أن يبيتا معاً ليلة عيد من الأعياد، لا يجوز لهما أن يعيِّدا ويشتركا مع القوم في رسومهم ومباهجهم، كأنهما قد اقترفا إثماً سلبهم حق المشاركة في حفل ديني.

ومن أعظم الأدلة على احتقار الكنيسة للمرأة والسعي لتعذيبها.

أن القانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥ كان يبيح للرجل- تحت تأثير النظرة المسيحية للمرأة- أن يبيع زوجته، وقد حدد ثمن الزوجة بستة بنسات (نصف شلن).

وقد حدث منذ أعوام أن باع إيطالي زوجته لآخر على أقسام فلما امتنع المشتري عن سداد الأقسام الأخيرة قتله الزوج البائع!

وهذا الاحتقار والذم للمرأة قد انتقلا عن المسيحية إلى كثير من الآداب الأوروبية، فقد جاء في المثل الروسي: «لا تجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة».

وجاء في المثل الأسباني: احذر المرأة الفاسدة، ولا تركن إلى المرأة الفاضلة!.

وجاء في المثل الإيطالي: المهماز للفرس الجواد والفرس الجموح، والعصا للمرأة الصالحة، والمرأة الطالحة.

وأخيراً ختم الزوج كلامه قائلاً: «إنني أعلنها صريحة إن الكنيسة تحمل اليوم أعظم الجريمة فيما نراه في الغرب من انهماك في الشهوات الجنسية وتكالب على الزنى.. كنتجية حتمية لرد الفعل لتعاليم الكنيسة التي حاربت الفطرة الإنسانية

قروناً طويلة ثم ما لبث الغربيون أن ثاروا على نظمها وفكوا الأغلال وكسروا القيود وانطلقوا رجالاً ونساء في حياة الفجور وساروا وراء غرائزهم الجنسية إلى أبعد الحدود حتى بات الغرب مهدداً بخطر مخيف.

خطر إهمال التبشير في ديار الغرب

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - مارس (١٩٧٣م).

إننا معشر المسلمين نعيش اليوم في خطر داهم، فإن الغرب يحاربنا حرباً صليبية لا هوادة فيها، ويعتبر قتالنا جهاداً مقدساً بسبب ما غرسه المبشرون في سكانه من عداوة لنا منذ نشأتهم، فهم يعتبروننا- ظلماً وافتراء- أعداء المسيح، وأعداء الإنسانية، ويحسبون تشريعنا تشريعاً همجياً، ويصفون رسولنا محمدا- صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه من سفاكي الدماء، ومحبي الشهوات، والكذب على الله تعالى.

كل ذلك ليحجب هؤلاء المبشرون نور الإسلام عن البشرية، ويبقوا متمتعين بامتيازاتهم وسلطانهم.

لنستمع الآن إلى ما يقوله أحد المتعصبين من الغربيين، وما يذيعه على قومه، وهو باحث مستشرق فرنسي يدعى «كيمون» فقد ذكر في كتابه: «باثولوجيا الإسلام»:

«أن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمع بين القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث على الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة «الله»[1] إلى ما لا

(١) انظر كيف تسيء البدع والأوهام إلى سمعة الإسلام، فإن الذكر بلفظ «الله، الله» لم يرد في الكتاب أو السنة، وخاصة إذا كان مصحوباً بالرقص كما يحدث ذلك فيما يسمونه بحلقات الذكر، مما جعل هذا المستشرق يظن أن ذلك من الإسلام وراح يسميه بمظاهر الصرع والذهول العقلي.

نهاية والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات»[١].

ويرى هذا المستشرق الخبيث وأمثاله كثيرون، المسلمين وحوشاً ضارية ويعتقد أن من الواجب إبادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- في متحف اللوفر[٢].

يا للهول.. فكيف يهنأ لنا حال، ويهدأ لنا بال؟ وهذا ما يذاع عن الإسلام في ديار الغرب، ونحن ساهمون لاهون، ثم لا تلبث أن تنصب علينا حمم وقذائف الغربيين انتقاماً وتشفياً منا نتيجة هذه الدعايات والافتراءات التي لا نكلف أنفسنا الرد عليها بصورة صحيحة وعملية منتجة تصل إلى جميع الأسماع والأنظار.

وقد يعمد هؤلاء الغربيون قبل محاربتنا مادياً، إلى شن الحملات الثقافية والغزو الفكري بين أبنائنا وبناتنا لتسميم أفكارهم عن الإسلام عن طريق مدارسهم التبشيرية والعلمانية وبوساطة البعثات والسينما والكتب والمجلات وغيرها ليكونوا حرباً علينا وعلى عقيدتنا من الداخل.

إن الإسلام- والمسلمين- في حرب إذًا من الخارج والداخل ضد قوى هائلة، وإذا كنا باقين على شيء من الحياة، فلأن هؤلاء المستعمرين مختلفون فيما بينهم على اقتسام الغنيمة، ولو اتفقوا- كما كانت الحال عقب الحرب العالمية الأولى- لعمدوا إلى استعمارنا وامتصاص دمائنا، وبالتالي إلى إفنائنا واستئصالنا! وذلك لأن نفوسهم تغلي حقداً على الإسلام والمسلمين بسبب التربية الإجرامية والتوجيهات الهدامة والإشاعات الماكرة التي يتلقونها في بيوتهم ومدارسهم ومعابدهم، وقد رأينا مثالاً من هذا الحقد في كلام «كيمون» وقد جاء في إحدى الأناشيد الإيطالية التي تعلم للطلبة في المدارس:

«إني ذاهب يا أمي إلى الجهاد لمحو القرآن، وإذا ما مت، فلا تحزني علي، وإن سئلت عن سبب عدم حدادك، فقولي- وأنت فرحة- لقد استشهد في سبيل

---

(١) تاريخ الإمام محمد عبده (٣/ ٤٠٩).

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (١/ ٢٢٧).

القضاء على الإسلام».

وقد أعلن قادة فرنسا في مناسبات كثيرة أن الحرب في الجزائر بين الصليب والهلال بقصد الانتقام من المسلمين.

والمستعمرون غالباً يخفون نواياهم الدينية- أحياناً- تحت أستار اقتصادية وسياسية وغيرها من الحيل، ولكن غايتهم الحقيقية هي القضاء على الإسلام والمسلمين.

وقسماً بالله لو أن عرب فلسطين كانوا نصارى لما كان لهم هذا المصير، وهذه شعوب البلقان النصرانية، فإن أول ما فعلته حكومات أوروبا لما قويت، المسارعة إلى تحريرها من سلطان الدولة العثمانية المسلمة.

كل ذلك يفعله الغربيون على الرغم من حسن معاملة المسلمين لهم في عهود مجدهم وقوتهم، فمدوا إليهم يد المعونة وأنقذوهم من ظلمات الجهل باعتراف علمائهم ومؤرخيهم المنصفين مما لا مجال لسرده هنا.

* * *

والآن، ما العمل؟ وكيف النجاة من أخطار الغربيين وغزوهم؟ ريثما يتم لنا الحصول على قوة كقوتهم واستعداد كاستعدادهم؟

السبيل إلى ذلك التبشير بالإسلام في البلدان الغربية لإطلاع الغربيين على عظمة الإسلام وإنسانيته وسماحته وسمو مبادئه، ومبلغ حاجتهم إليه وما خسروه بسبب محاربتهم له، وأنه صديق المسيح عليه الصلاة والسلام، ومؤمن بنبوته، وقد جاء هذا الدين رحمة للعالمين فاستطاع النهوض بالعرب خلال مدة قصيرة من الزمن، فانطلقوا من باديتهم وفتحوا الدنيا المعروفة وقتئذ وملأوها عدلاً ورحمة بعدما ملئت جوراً وهمجية.. وهو لا يزال- وإلى الأبد- يحمل بين طياته عناصر القوة والسعادة والمعرفة..

وينبغي أن يكون هذا التبشير على مستوى عال وبأرقى وسائل الإعلام، ونذكر فيما يلي نماذج منها لبيان مزايا الإسلام وحاجة الغرب إليه، كل ذلك بمختلف

اللغات الأجنبية:

١- استئجار بعض الصحف والمجلات الغربية.

٢- الاتصال بالعلماء والأدباء الغربيين وإطلاعهم على الإسلام.

٣- صنع الأفلام السينمائية وعرضها في الغرب.

٤- المسارح والفرق التمثيلية.

٥- تأليف الكتب والنشرات المبسطة عن الإسلام.

٦- إنشاء مجلات إسلامية وخاصة للأطفال.

٧- التعاون مع الغربيين الذين أسلموا لوضع المخططات لنشر الإسلام.

٨- تقوية الإذاعات العربية لإيصال صوت الإسلام إلى أسماع جميع الغربيين بأساليب حديثة مشوقة.

ويحسن إلى جانب ما سبق، إعلام الغربيين بما جاء في كتبهم الدينية من تحريف وتناقض ومعوقات عن التقدم والرقي.

كما يحسن أيضاً إعلام هؤلاء الغربيين عما جاء في هذه الكتب من توحيد الإله ونبوة المسيح، وبعثة محمد عليهما الصلاة والسلام.

وينبغي أن نشير بمناسبة الكلام عن التبشير إلى أن الظروف الحاضرة كلها مواتية له، فإن الغرب اليوم يعيش في قلق مخيف وفراغ سحيق بسبب إفلاس وعجز الديانة المسيحية ومثلها جميع النظم والقيم التي وضعها الغربيون لأنفسهم.. فكانت سبب اضطرابهم.. ووقوعهم فريسة للمادة التي كرسوا حياتهم لها، فكان مثلهم مثل عبدة الأصنام الذين صنعوا معبودهم، فما لبث أن أذلهم وأعمى أبصارهم..

هذا مثل الحياة المادية التي يعيشها الغربيون، فغدوا أسرى لها، وأفنوا أعمارهم من أجل الحصول عليها دون أن تحقق لهم الاستقرار والسعادة والطمأنينة بل كانت سبب حروب طاحنة بينهم.

واليوم شعروا بالفراغ نتيجة البعد عن القيم الروحية، ونادى كبار علمائهم ومفكريهم بقرب انهيار حضارتهم بسبب ذلك، وسموا هذا العصر بعصر القلق

على الرغم من توفر جميع الوسائل المادية.

ففي هذه الأزمة الروحية إذا تقدم المسلمون بالإسلام الصحيح من منبعيه الفياضين: الكتاب والسنة، لا من الاختلافات المذهبية المضطربة، وبالأساليب الحديثة النفسانية (السيكولوجية) وأثبتوا للغربيين استعداد هذا الدين وقدرته على حل جميع مشكلاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كما اعترف بذلك كثير من علمائهم المنصفين.

أجل إذا تقدم المسلمون بالإسلام إلى الغربيين بالصورة السابقة، فإنهم لا شك سيقبلون عليه إقبال الظمآن على الماء العذب، وسيدخلون فيه أفواجاً...

وبذلك نكون قد أنقذناهم من خطر داهم ينتظرهم من جراء فقدان المثل العليا واستعدادهم الجهنمي الذي يهدد البشرية كلها بالفناء.

كما نكون قد أنقذنا أنفسنا وأبناءنا الذين يسيرون وراءهم ويدورون بفلكهم.

وكذلك نكون قد أنقذنا الحضارة من شر محدق، ووجهنا هؤلاء الغربيين العباقرة وجهة صالحة نحو الحق والخير والسلام، وفتحنا للبشرية صفحة جديدة تحقق لها السعادة والرقي الصحيح.

لقد بشر الله سبحانه في القرآن العظيم بهذا اللقاء، وبإسلام العالم أجمع في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

وقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ (الصف: ٩).

كما بشر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذا المستقبل العظيم للإسلام بقوله: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر» رواه أحمد والطبراني والحافظ المقدسي وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وقد أعلن كثير من منصفي علماء الغرب وفلاسفته عن قرب اليوم الذي يدخل فيه الغربيون الإسلام، فقال الفيلسوف الإنكليزي «برنارد شو»:

«إن محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، ولو أن رجلاً مثله تولى قيادة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما، وإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً ومقبولاً لكل جيل من الناس، وقد تنبأت أنه سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً، وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم.. وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي، ومن أهل أوروبا دخلوا دين محمد، حتى لنتمكن أن نقول: إن تحول الغرب إلى الإسلام قد بدأ»[1].

هذا، وإذا سلمنا جدلاً أن الغرب في الوقت الحاضر لا يدخل في الإسلام فإننا نكون في هذا التبشير قد قمنا بواجبنا الديني، وأطلعنا الغربيين على ديننا وعرفناهم بمبادئه، وهم- ولا شك- سيقلعون عن محاربته وعن قتالنا.

* * *

ومن الغريب- والغريب جداً- أن يهمل المسلمون التبشير بدينهم وقد خص الله سبحانه في القرآن سهماً معيناً ومستقلاً من أموال الزكاة للتبشير، وهو سهم «المؤلفة قلوبهم» ولو استخدمه المسلمون بوعي لانتشر الإسلام في كل مكان..

وقد فهم الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- من هذا السهم قسما معيناً من الناس، فلما قوي الإسلام امتنع عن إعطائه لهم، وهو أوسع من ذلك قال الإمام ابن كثير في تفسيره:

«وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام، منهم من يعطى ليسلم كما أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلي بعد أن كان أبغض الناس إليَّ. كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري

(١) من رسالة سماها «نداء العمل» نشرت في مجلة «نور الإسلام» التي كان يصدرها الجامع الأزهر.

عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال- وذكر الحديث السابق رواه مسلم والترمذي من حديث سعيد بن يونس عن الزهري.

ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذهبية في تربتها في اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير وقال: «أتألفهم».

ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل ذلك في كتب الفروع والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهذا أمر يحتاج إليه فيصرف إليهم»اهـ.

وجاء في تفسير الإمام ابن الجوزي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذوي شرف، وهم صنفان: مسلمون وكافرون، فأما المسلمون، فصنفان، صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة، فتألفهم تقوية لنياتهم كعيينة بن الحصن، والأقرع، وصنف كانت نياتهم حسنة، فأعطوا تألفاً لعشائرهم من المشركين، مثل عدي بن حاتم، وأما المشركون، فصنفان، صنف يقصدون المسلمين بالأذى، فتآلفهم دفعاً لأذاهم مثل عامر بن الطفيل، وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام، تألفهم بالعطية ليؤمنوا، كصفوان بن أميه، وقد ذكرت عدد المؤلفة قلوبهم في كتاب «التلقيح» وحكمهم باق عند أحمد في رواية، وقال أبوحنيفة، والشافعي: حكمهم منسوخ.

قال الزهري: «لا أعلم شيئاً من نسخ حكم المؤلفة قلوبهم». أهـ.

* * *

لنفكر من جديد في سهم المؤلفة قلوبهم، ولنصرفه كما خطط له الإسلام مما رأينا خلاصته سابقاً، فإنه كفيل بإحداث انقلاب عظيم في صفوف الغربيين ودخولهم في دين الله أفواجاً، أو نجاتنا من شرهم على أقل تقدير، والحفاظ على البقية الباقية من ثروة المسلمين من الضياع وابتلاع المستعمرين لها نتيجة إهمالنا التبشير بديننا.

وقد حرص الرسول ﷺ كما حرص القرآن العظيم على التبشير، فلم تصرفه مشكلاته في المدينة المنورة بعد هجرته إليها، وما لاقاه من مؤامرات المشركين من الخارج، ومؤامرات اليهود والمنافقين من الداخل عن هذا التبشير، فبعث الكتب والرسل إلى الملوك والأمراء والأقيال يبلغهم دعوة الإسلام ويحثهم على الدخول فيه مع أقوامهم الذين يحملهم تبعتهم.

وقد كان هذا الرسول العظيم يعرض نفسه على القبائل قبل الهجرة في موسم الحج ويشرح لها مبادئ الإسلام بمختلف الوسائل متحملاً في سبيل ذلك أنواع الاضطهاد والعنت، حتى دخل الكثيرون في الإسلام.

وقد رأيت من الطرافة - ونحن بصدد الحديث عن عرض الدعوة للإسلام - أن أتحدث عن الكتب التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما رافقها من أحداث وتطورات، لعلها تثير فينا الحماسة وتبعثنا على التضحية فنسارع إلى تبليغ دين الله تعالى إلى الأمم جمعاء حتى نكون شهداء حقاً عليهم يوم القيامة بأننا بلغناهم وإلا كانوا معذورين بعدم إسلامهم، وكنا مسؤولين عن تقصيرنا، وعما نلاقي منهم من اعتداء..

وأول ما فعله هذا الرسول أن هيأ رسله وأعدهم لحمل هذه الكتب وقطع المسافات الشاسعة لتسليمها إلى أصحابها وتحمل كل ما يتصور أن يصيبهم بسببها من اضطهاد وقتل.

خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه فقال: «أيها الناس، إن الله قد بعثني رحمة للناس كافة فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم»..

قال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟

قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً، فرضي وسلم، وأما من مبعثه مبعثاً بعيداً، فكره وجهه وتثاقل».

ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميري ملك اليمن، وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام.

فأجابه أصحابه إلى ما أراد، فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه «محمد رسول الله» وأرسل الكتب مع رسله.

ترى كيف كان مصير هذه الكتب وبماذا أجيب عنها؟

روى الطبري في الجزء الثالث من تاريخه أنه لما وصل كتاب رسول الله إلى هرقل ملك الروم، وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينيه، جمع الروم وقال لهم ما ملخصه:

يا معشر الروم، إني عارض عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها، قالوا: وما هي؟ قال: تعلمون - والله - أن هذا الرجل لنبي مرسل، إنا نجده في كتابنا، نعرفه بصفته التي وصف لنا، فهلم فلنتبعه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. فقالوا: نحن نكون تحت يدي العرب، ونحن أعظم الناس ملكاً وأكثرهم حالاً وأفضلهم بلداً. فلما أبوا عليه، قال: أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم.. ثم جلس على بغل له، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال: السلام عليك أرض سورية تسليم الوداع، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية.

أما كسرى فارس فإنه ثارت ثائرته، واشتد غضبه عندما تسلم كتاب الرسول، وبعث إلى عامله على اليمن- باذان- يأمره بأن ينهض لتأديب هذا الرجل وجاء في إنذاره «ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك فليأتياني به».

وأرسل رجلين من قبله إلى الرسول، فلما وصلا إليه أخبراه أن كسرى يطلب مقابلته، فصرفهما الرسول على أن يلتقي بهما في الغد. . وحان موعد الرجلين، فذهبا لمقابلة الرسول ﷺ، فأخبرهما بمصرع كسرى بيد ابنه شيرويه، كما أخبره الوحي، فدهشا من هذا الخبر. وقال لهم رسول الله: «أخبرا ملككم ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى. . وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء».

ولما وصل الخبر إلى باذان وتحقق بعد ذلك من قتل كسرى قال: «إن هذا الرجل لرسول». . فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن.

وأما المقوقس عظيم القبط في مصر، فقد استقبل حامل كتاب الرسول بما يجب من إكرام وبعث معه بهدية: جاريتين وغيرهما، أما الجاريتان فمارية التي اختارها النبي لنفسه فولدت له إبراهيم من بعد، وسيرين التي أهداها إلى شاعره حسان بن ثابت.

وأما ملك الحبشة النجاشي، فقد ذكر المؤرخون أنه لما تسلم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضعه على عينيه، ونزل عن سريره وجلس على الأرض، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وحفظ الكتاب عنده، ثم بعث بكتاب إلى رسول الله جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمته وبركاته الذي لا إله إلا هو، والذي هداني للإسلام، أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام، فورب السماء والأرض إن عيسى عليه الصلاة والسلام لا يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثته إلينا وقرّبنا ابن عمك وأصحابك، وأشهد أنك رسول الله صادقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يده لله رب العالمين.

وقد سر النبي كثيراً لإسلام النجاشي، ولما بلغه موته صلى عليه صلاة الغائب لعلمه أنه لم يصل عليه أحد في الحبشة.

أكتفي بهذا القدر من سرد مبلغ اهتمام الإسلام بالتبشير، وقد جعله فرضاً عينياً على العلماء فقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي إلى الإسلام ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وفي الختام أستصرخ ضمائر المسؤولين وأصحاب الثروات في العالم العربي والإسلامي لإعطاء موضوع التبشير بالإسلام في ديار الغرب ما يستحقه من اهتمام، وهو أولى من التبشير به في أفريقيا وغيرها حيث يلقى هناك مقاومة عنيفة من جيوش المبشرين النصارى بوسائلهم المختلفة القوية.. ولا يوجد كل ذلك في الغرب نفسه، وهو مصدر الجريمة.

أليس مما يبعث على الأسى والحسرة أن نرى دول الغرب القوية تتعاون على حشد كثير من إمكانياتها وثرواتها للتبشير بالنصرانية في العالم مما أخضع لها كثيراً من الشعوب والجماعات والأفراد بينما نحن ساهمون لاهون عن هذا التبشير، مما جعلنا نحصد جزاء تفريطنا: استعماراً واضطهاداً وجلاء واعتداء وغيرها من الشرور لا نزال نعاني ويلاتها إلى يومنا هذا!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾(ق: ٣٧).

١٦ مقالات

الشيخ عبد الله النوري

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- القرآن والعرب.

العدد (٢٤) ذو الحجة (١٣٨٦هـ) - مارس (١٩٦٧م).

٢- كلكم راع ومسؤول عن رعيته.

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

٣- بالعمل الصالح تطيب الحياة.

العدد (٣٣) رمضان (١٣٨٧هـ) - ديسمبر (١٩٦٧م).

٤- الحب في الإسلام.

العدد (٩٩) ربيع الأول (١٣٩٣هـ) - إبريل (١٩٧٣م).

ترجمة الشيخ

عبد الله النوري

● **مولده ونشأته**

ولد الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد النوري، فجر الثلاثاء ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢٣هـ، الموافق ١٧ مايو ١٩٠٥م، وكان رجلاً تقياً ورعاً محبوباً بين أهل الكويت، وكان مرجعا دينيا موثوقا في الدوله، إذ يرجع إليه أهل الكويت في مسائلهم الدينية.

وكان شاعراً ومؤلفاً وأديباً، وساهم في تطور التعليم في الكويت، ويعتبر من أبرز رجالات الكويت. وكان والده الشيخ محمد رجلا تقيا ومقبلا على التعلم والعلم منذ صغره.

عمل الشيخ عبد الله النوري بالتدريس والتعليم، ثم انتقل إلى التجارة وسافر على أثرها إلى الهند وسيلان، وإندونيسيا، وأستراليا، وغيرها، لكن التجارة لم تكن هدفه، فتركها والتحق بالتدريس في المدرسة المباركية ثم الأحمدية، ثم بالمعهد الديني، وقرأ الفقه الحنبلي والنحو على يد والده الذي توفاه الله في سنة ١٩٢٧، ولازم بعدها الشيخ عبد الله الخلف الدحيان فاستفاد منه كثيراً.

عين رَحِمَهُ اللَّهُ رئيسا لكتاب المحكمة، ثم سكرتيراً لرئيسها، ثم مفتشاً ومرشداً لأئمة المساجد، كما شارك في إدارة إذاعة الكويت، وفي عام ١٩٥٥ استقال من عمله بالمحاكم وأحيل إلى التقاعد حيث تفرغ للعمل بالمحاماة، ورُشِّح عضواً في لجنة الفتوى، ثم تفرغ بعدها للإمامة والتدريس.

● **مؤلفاته**

قام رَحِمَهُ اللَّهُ بتأليف كتب كثيرة في الدعوة والإرشاد منها: «الرشد، المنبر،

ديوان من الكويت، قصة التعليم في الكويت»، وغيرها.

● **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في يوم السبت ١١ ربيع الأول سنة ١٤٠١ هـ الوافق ١٧ يناير ١٩٨١م وشيع جثمانه يوم الأحد ولم يمنع المطر في ذلك اليوم جموع المشيعين من الخروج في جنازته.

القرآن والعرب

العدد (٢٤) ذو الحجة (١٣٨٦هـ) - مارس (١٩٦٧م).

العرب هم العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام، ولكن شتان بينهم في الزمنين من قبل ومن بعد.

والله جل شأنه بعث رسوله محمدًا ﷺ، وأنزل عليه كتابه بلسانهم ليعلمهم ويزكيهم.

وكانوا قبل نزول القرآن في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، قد يعمد أحدهم إلى ابنته فيدفنها وهي حية، خوفا من عار ربما يلحق به.

وكانوا قبل نزول القرآن في فوضى، فلا وفاق يؤلف بين القلوب ولا جامعة تجمع بين القبائل، فهم دائمًا في حرب وعداء، وسفك دماء.

وكان الناس طبقات سيدًا ومسودا وشريفا ووضيعا وحرًّا وعبدًا.

وكان القوي منهم يأكل الضعيف، وكان عزيزهم يتمرغ على تراب الأوثان يطلب منها العون، ويسجد عند أقدام الأصنام يطلب منها المدد.

ذكر القرآن كل ذلك في مواضع عدة، فذكرهم بنعمة الله عليهم حيث ألف بين قلوبهم بالإسلام بعد أن كانوا أعداء، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث والميتة والدم ولحم الخنزير، وحرم عليهم عبادة الأوثان، وعبادة من لا يسمع دعاء ونداء، وعاب من إذا ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ (النحل: ٥٨-٥٩).

ونزل القرآن والناس في ضلالهم منهمكون، والحرب بين القبائل مستعرة.

ودعا الرسول بأمر الله إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وإلى توحيد الوجهة، وتحرير الإنسان من الذلة لغير الله.

كانت دعوة الإسلام هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ومعنى ذلك أن الله هو المعبود فلا معبود سواه، والإنسان كريم كرامة تجله عن أن يذل لغير المعبود الخالق البارئ المصور، وأن الإنسان أخو الإنسان، وهو عزيز لا يهون لمثله من بني الإنسان، والناس كلهم إخوة فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

وبدأت عزة النفس تجد طريقها عند من سمعوا صوت الحق وآمنوا به، وقرأوا شيئًا مما نزل على رسوله، فنهض بهم إيمانهم من الجهالة، وأخرجهم من سراديب الضلالة، فظهروا على مسرح الوجود ليكونوا النواة الأولى لأمة القرآن.

وظهرت الأمة العربية على وجه البسيطة بعد الإسلام، ولم تكن شيئا مذكورًا قبله، أخرجها الإسلام من زوايا النسيان لتكون ملء سمع الدنيا وبصرها، وكانت به خير أمة أخرجت للناس ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ويعلمون الناس الحق، ويأمرون بالعدل والإحسان، ويتواصون بالحق وبالصبر، ليصلوا بذلك كله إلى خير يعم العالمين.

وبالإسلام دخل العرب باب التاريخ.

فكان كتاب الله دستور دولتهم وقانون قضائهم، ورائد مجتمعهم، ومربي صغارهم وكبارهم، وكان كتاب الله هو الآمر الناهي في جميع مراحل الحياة في المسجد، والمدرسة، وفي البيت، والمتجر، والمعمل، وفي جميع الأدوار التي تمر بالإنسان منهم أو يمر بها، وهذه حقيقة أثبتها التاريخ، ولا يستطيع أن يجحدها إلا مكابر.

من هذا نفهم أن الإسلام هو الذي علم العرب معنى الكرامة، وهداهم إلى الألفة، وأذاقهم حلاوة المجد، وعزة السؤدد.

آمنوا بأن القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن ما فيه من تشريع هو من عند الله وحده، وأنهم إن تمسكوا به فلن يضلوا الطريق، لأنهم في حماية الله سبحانه وتعالى الذي اختارهم لهذا الدين جنودًا، واختار لهم هذا الدين هداية وعزة، وجعلهم به خير أمة تهدي الناس وتبشر بالخير، ومن كان في حماية الله فلن يغلب، ومن يتخل الله عنه فهو من الهالكين.

وكانت الأمة قبل نزول القرآن محصورة في جزيرة العرب، لا تتعدى حدودها، وجاء القرآن وعرب أمما لم يكونوا من العرب، فأخرجهم من قائمة الشعوب الغير العربية وأثبتهم في قائمة الشعوب العربية الإسلامية.

كانت هذه الأمم تتكلم لغات مختلفة وتدين بأديان متباينة، فنطقت بلغة القرآن ودانت بدين القرآن.

وإذا كانت هذه الأمم اليوم تتكلم لهجات مختلفة، وقد لا يفهم المشرقي منهم لهجة المغربي، لكن إذا اجتمعا تفاهما بلغة القرآن الخالدة خلود الدهر، وهي اللغة الكريمة التي حفظها الله بالقرآن، والتي اكتسبت الخلود بالقرآن فاللغة العربية لن تبلى حتى يبلى الدهر.

بها نتعارف وبها نتفاهم وعليها نجتمع وبها يتصل بعضنا ببعض، لا أقول ذلك للعرب وحدهم ولكن للعرب والمسلمين.

وإنه من العقوق ونكران الجميل أن نتنكر للقرآن الذي رفع الله به العرب من ذلة فأعزهم، وعلمهم به من جهل فكرمهم، وهداهم به إلى رشاد فبصرهم وبنى لهم مجدًا خالدًا باقيًا ذكره بقاء التاريخ.

كلكم راع ومسؤول عن رعيته

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

لقد غزانا دعاة الإلحاد بضلالهم ووجدوا في شبابنا قبولا لتضليلهم لأن هذا الشباب جاهل في الدين لا يعرف قيمه ولا تعاليمه، والدعاة يحاولون تدمير هذه القيم واقتلاعها من صدور الناشئة والشباب حتى يصبح الجيل الذي يكون فيه هؤلاء الشباب رجالاً هدفا لكل ناهب ومكسباً لكل محارب، ومن أجل هذا فتح الغرب المجند لهؤلاء الدعاة أبواب ثقافته ودعا الأمة المسلمة في المشرق والمغرب ليتبادلوا معه الثقافة، والمسلمون الجاهلون بدينهم فرحوا بهذه المنة وفتحوا لوفده الصدور لبث سمومه في القلوب والعقول.

الإسلام الحنيف أولى هذه الناحية أمرها ووجه عناية المسلمين لها وحث على تربية الصغار وجعل كل فرد في الأمة راعياً وكلف كل راع بالعناية برعيته فقال المبعوث بهذا الدين ﷺ مبلغاً ومعلماً: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وإذا أهمل المسؤولون هذا الأمر ضاع النشء وضاع بضياعه مستقبل الأمة، إذن فليكن المسؤول والدًا كان أو أخا أو معلما، مثلا صالحا لمن هم تحت مسؤوليته، يأمرهم بالخير ويفعله أمامهم ولا يفعل ما يخالفه ولاسيما إذا كانوا أطفالاً، لأن الأطفال أكثر خضوعا واستجابة للنداء.. بنين كانوا أو بنات، وللأطفال مرونة قابلة للتكيف يتقبلون التوجيه ويرتاحون له متى كان الموجه صالحاً يعرف كيف يستخدم عناصر التشويق استخداما طبيعيا لا تصنع فيه ولا افتعال، فإذا أمر المربي طفله بالصدق فلا يكذب وإذا أمره بالعدل فلا يظلم، وإذا نهى عن شيء فلا يفعله أمام طفله لأن الطفل كالمرآة تنعكس عليها أفعال من هو أكبر منه، فيفعلها تقليداً له من حيث لا يعلم، لأن الطفل يعتقد الكمال بمربيه

ويفخر على أقرانه بأنه يقلد أباه أو عمه أو خاله أو أخاه الأكبر، وكثيراً ما تنغرس أفعال الأب في فكر ابنه الناشئ حتى إذا كبر فعل ما كان فعله أبوه من قبل دون ضابط أو رابط، لا يعبأ بالنتائج ولا يبالي بالعواقب.

وكثيراً ما انحرف شباب وشابات وفسد فتيان وفتيات من جراء هذا التقليد لأنهم لم يجدوا من يقومهم من اعوجاج أو يهديهم إلى صواب، الأب منهمك في ملذاته منكب على شهواته ساع إلى إشباع رغباته، لا يهمه من أمر البنين والبنات إلا أن يقدم لهم ولهن الطعام والكساء ظنا منه أن ذلك هو كل شيء في الحياة، فترك لهم الحبل على الغارب فنشأوا على ما كان تركهم عليه وكانت العاقبة سيئة في الأسرة وشرًّا في المجتمع، من أين للناشئ أن يعرف دينه إذا كان المربي لا دين له؟ ومن أين له أن يحتفظ بالآداب إذا كان المسؤول لا أدب عنده؟ ومن أين له أن يتمسك بتقاليده إذا كان وليه قد ضرب بالتقاليد عرض الحائط؟ ومن أين للناشئ الغض أن يجد في دينه ما يستهويه ويثير انتباهه وتحمسه ويحظى بإعجابه ورضاه إذا كان المسؤول عنه جاهلاً بكل شيء من ذلك؟

إن الحال لا يختلف في مكان عنه في مكان آخر فهو في البيت كما هو في المدرسة، وهو عند الأب كما هو عند المدرس فلا آمر بمعروف يأمر أو يأتمر، ولا ناهي عن منكر ينهى أو ينتهي، ولا شعائر للدين تقام هنا أو هناك، ولا يعنيهم أمرها عند أولاء وأولئك وهكذا ضاع الشباب بين البيت والمدرسة، وظل أثر الدين يتضاءل عندهم شيئاً فشيئاً ودعاة الإلحاد ساهرون يترقبون الفرص لبث سمومهم، وقد حانت وكان لهم ما أرادوا (جهل وإهمال) وهكذا ذوى غصن الدين حتى تلاشى في القلوب وحل محله الإلحاد.

إذن فماذا قدمنا لناشئتنا من نماذج طيبة لأعمالنا تكون لهم أسوة يقتدون بها ويفخرون بالاقتداء بها ولقد تعود شبابنا مع الأسف أن يرى النور ظلاماً، والرشد غيا حتى أبدل أسماء الفضائل بأقبح الأسماء فسمى الدين رجعية، والتمسك به جمودا، ولا لوم عليه، إنما اللوم على المسؤولين الذين أعرضوا عن الدين أو جهلوا قيمته أو تمسكوا بتقاليد بعيدة عن الدين، مع ما فيها من إساءة إليه.

وديننا ولله الحمد وضاء مشرق، وهو في كل وقت وكل مكان وضاء مشرق، ولكن جهلنا به جعلنا ندخل فيه ما ليس منه عناداً منا وتقليداً لأئمة جهال أدخلوا في الدين ما ليس منه فضلوا وأضلوا.

والإسلام والحمد لله عقل كله، جاء به محمد ﷺ من عند الله لقوم يعقلون، وهو اليسر لا عسر فيه وهو السهل لا صعب فيه، وهو الهدى لا ضلال فيه، وهو كما وصفه سيد المرسلين محجة بيضاء ليلها كنهارها.

فيا أخي في الإسلام تعال إلى الإسلام ففيه النجاة، وتعال معي نجيل الطرف في جميع جهاتنا وكافة أحوالنا حتى نحدد موقفنا على ضوء ما نجده في ديننا لنرى هل نحن حقا مسلمون؟ وهل نحن جديرون بهذا النداء الكريم؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم: ٦).

* * *

بالعمل الصالح تطيبُ الحياة

العدد: (٣٣) رمضان (١٣٨٧هـ) - ديسمبر (١٩٦٧م).

دعت الأديان كلها للعمل الصالح وتتابع رسل الله يحملون رسالته إلى عباده في مختلف الأزمان، يبشرون الناس بأن ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف: ٨٨)

والقرآن الكريم يحكي لنا عن قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨)

ويخبرنا عن نوح أنه قال لقومه ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ (نوح: ١٠-١٢)

ويقص قصة هود عليه السلام فيقول هود لقومه ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (هود: ٥٢).

وبفعل الصالحات استخلف الله في الأرض أمما عمروها، ولكنهم بعد أجل عاثوا فيها فسادا وطغوا وظلموا، فأهلكهم الله بذنوبهم، وكأنهم لم يعمروا أرضاً، ولم يبسطوا بها يداً، ولا سلكوا فيها سبيلاً.

ثم ختم الله رسالات السماء ببعثة محمد ﷺ خاتم الأنبياء، يدعو الناس إلى الخير فاتبعته أمة كان منها الشهداء على الناس، وكانت خير أمة أخرجت للناس عبادة لله، ودعوة للخير، ونهيا عن المنكرات. وعدها الله ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ١١١)، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ (النور: ٥٥).

ووفى الله لهذه الأمة وعده واستخلفها في الأرض، فتكسرت من هيبتها عروش الطغاة، وهوت رهبة منها تيجان البغاة، ودالت أمام فتحها دول الظلم، وكانت الشعوب المظلومة تستقبل جيوش المسلمين الفاتحة بالترحيب.

لماذا؟ والجيش الفاتح لا يرحب به، ذلك لأن فتح المسلمين أمن وسلام، وجيش المسلمين الفاتح لا يقتل شيخاً ولا امرأة ولا طفلا ولا متعبداً تفرغ لعبادته، ولا يقطع شجرا ولا يهدم داراً، ولا يصطحب معه في الفتح الظلم والعدوان، والشعوب المفتوحة بلادها تعلم أن جيش المسلمين جاء ليحمي الحرية لا ليعتدي عليها وليكرم الإنسانية لا ليهينها ويحطم قيمتها، وليصون الملكية والأموال لا لينهب ويغتصب، وليصون الأعراض لا ليهتكها.

ودخل تلك البلاد مع الفاتحين كتاب الله العربي المبين، دخل باسم الله واسم رسوله وفيه الدين والدنيا دستور دولة، وقانون حكم، ومعاملات، ونظام مجتمع، وعبادة. يهدي للتي هي أقوم، كرامة تطيب للإنسان بها الحياة، وعلم يعرف به الإنسان قيمة الحياة.

وذاق الناس حلاوة الحياة في ظل الإسلام، وعرفوا ما هي الكرامة التي كرم الله بها الإنسان وعاش الناس في ظل الإسلام كراماً أعزة.

وطال على المسلمين الأمد كما طال على غيرهم من الأمم قبلهم، وأعرضوا عن القرآن وتعاليمه وقست قلوبهم على بعضهم فتفرقوا، وكانت النتيجة فشلا وذهاب ريح، وصدق الله العظيم ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ (طه: ١٢٤ - ١٢٦).

وبعد:

فما زلنا ندين بالإسلام (والحمد لله) ولن نزال إن شاء الله مسلمين نؤمن بالله ربا، وسيدنا محمد ﷺ نبيًّا، والقرآن كتاب الله ما زلنا نقدمه، ونعتني به، ولكنا (وأقولها بألم) أعرضنا عنه، فلا هو دستور دولة ولا قانون حكم ولا نظام مجتمع.

بالقرآن كنا مسلمين، هدى الله به أسلافنا، وعلمهم، وزكاهم، وبه مكن لهم في الأرض، واستخلفهم فيها، ومحا بهم ظلم الناس للناس.

وفي ظل القرآن أقام المسلمون دولة الإسلام بين مشرق المعمورة ومغربها.

وظل القرآن أبداً لا ينحسر، ولكن الخلف الذي اتبع دعاة الضلال وباعة الشهوات هو الذي ابتعد عن ظل القرآن وانحسر عنه.

ختاما أقول لإخوتي أمة محمد ﷺ إن الباب لا يزال مفتوحاً لمن أراد دخوله، والظل مازال ممدوداً لمن أراد أن يستظل به، والله جل جلاله حي باق يستجيب لمن استجاب له.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ (الطلاق: ٢).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ (الطلاق: ٤).

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ (الأنبياء: ٩٤).

* * *

الحب في الإسلام

العدد (٩٩) ربيع الأول (١٣٩٣هـ) - إبريل (١٩٧٣م)

سألني سائل قال:

هل للمسلم أن يحب؟

وجوابي له:

إن الحديث عن الحب شائق، وإن البحث فيه شائك.

والله جل شأنه لما منح الحياة للحيوان منحه معها الحب، فالحب فطرة يهبها الله مع الحياة، أم الحيوان تحب صغارها وتدافع عن حياتها، إذا ما اعتدى عليها معتد، وقد تهلك في هذا الحب.

والإنسان أي إنسان يحيا ليحب ويحب ليحيا، وقد صدق من قال «الحياة الحب والحب الحياة».

وإن لحظات حب يعيشها الإنسان مع محبوبه يحس بها المحب معنى الحياة، فيشعر بالغبطة ويتذوق لذة السعادة وحلاوة النعيم.

وإن أول ما يمنحه الخالق للإنسان حين يهبه الحياة هو الحب.

فالأم وهي تحمل جنينها - وهنًا على وهن - تحس وكأنه جزء من جسمها، بل أعز جزء في جسمها. وبعضهن تراها وقد ذاب وجودها في حملها وكأن ذاتها في ذاته.

والأم وكل أم متى أحست بحركة جنينها بدأت تهيئ له ما يحتاجه بعد ولادته فتراها تقضي كل أوقاتها في لوازم هذا الطفل المنتظر. وحب الأم هو المثل الأعلى لكل ما عداه من أنواع الحب وأصنافه، والطفل، وأعني كل طفل، يحب أمه ويسر بوجودها إلى جانبه، ويحس أنه محبوبها، ألا ترى الطفل الذي تحنو

عليه أمه بالحب وتلقمه ثديها بالعطف تطمئن نفسه ويبتسم لها حين تضمه إليها وتقبله، ثم ينام هانئ البال مرتاحا، لأنه أحس أنه غذي بالحب، وأنه سينام وهو يحمى بحمى الحب.

وحب القريب للقريب سماه الإسلام صلة الرحم، وأوجبها على كل قريب لقريبه وحذر من قطيعتها، وهي واجبة في كل دين، وفي كتاب الله في سورة النحل قال جل شأنه﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠) وفي سورة الإسراء ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ (آية: ٢٦).

وفي الحديث الذي رواه الشيخان «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».

وفي الحديث الذي رواه أحمد في مسنده «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر».

وفي الحديث القدسي أن الله ﷻ قال: «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» رواه أبو داود عن عبدالرحمن بن عوف ورواه الترمذي عن غيره.

وحب المسلم للمسلم حب أخوة في الدين، والإسلام جعل من هذه الأخوة قرابة، هي أولى بالصلة من قرابة النسب، فقال جل شأنه في سورة الحجرات ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

وقال في سورة آل عمران ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ .(آل عمران: ١٠٣).

وهذه المحبة يجب أن تذوب فيها أفراد الأمة في الأمة كلها، لتصبح واحدة يتفانى كلها في كلها، كما أراد الله لها بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء: ٩٢).

وحب الصداقة له في الإسلام مكانة، ما لم تكن هذه الصداقة لجلب منفعة، بل لله وحده، وقد جعل رسول الله ﷺ هذه الصداقة من الإيمان، فقال عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فقد وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله

ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» (رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك).

ومن كمال الإيمان في المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ولا ننسى قوله ﷺ في الحديث الذي رواه الشيخان في صحيحيهما حين ذكر السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» والله جل شأنه يحب جميع خلقه، خلقهم ومنَّ عليهم بالنعم الكثيرة التي منها نعمة العقل، ونعمة الحياة، ونعمة الرزق، ونعمة الهواء، والماء والغذاء، ونعمة إرسال الرسل ليدلوهم على طريق الحياة، وينقذوهم من الضلال، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجر: ١٠)، وقوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (الحديد: ٢٥).

يأمرهم بما فيه خيرهم وجمع شملهم، وينهاهم عن كل ما يضرهم في أفرادهم ومجتمعاتهم.

ولكنه جل شأنه يخص بمحبته الصالحين، والمتطهرين، والتوابين، والمحسنين، والمنفقين، والمقسطين، الذين يحبون الناس ويجاهدون في إعلاء كلمة الله ويقاتلون في سبيله كأنهم بنيان مرصوص.

والحب إذا وجد في أمة قوَّم أخلاقها، وأحيا في نفوس أفرادها الإخلاص بينهم، فتراهم متضامنين يسعى الجميع في مصلحة الجميع، يرحم كبيرهم صغيرهم، ويوقر صغيرهم كبيرهم، فتراهم كتلة متماسكة وقوة هائلة، لا ينفذ إليها عدو كما قال الله تعالى في وصف محمد ﷺ وأصحابه ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)، أو كما قال في وصف صنف من عباده المؤمنين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤).

وحبنا لله تعالى هو الذي دفعنا لعبادته، وطمعنا في حبه وهو الذي حذرنا من معصيته، فهو لا يحب الكافرين ولا العاصين، ولا الظالمين، ولا المتكبرين.

والحب بين الأسرة وعميدها يجعل من البيت جنة تحسدها الجنان، فهو يحبهم، ويذلل الصعب في سبيل سعادتهم، والتوسعة عليهم وهم يحبونه ويفدونه بالمهج والأرواح.

أما الحب الطائش، أو حب الجسد، أو الحب الجنسي، وأعني الحب الذي غايته الشهوة، فهو حب حرام، وهناك حب يسمى العشق أو الحب العذري وهو حب مكتوم، يغطيه الصبر، وتكتمه العفة، ويبقى العاشق المحب متيما فيه، يمنعه الحياء من إفشاء سره، ويمنعه الإيمان في استهتاره في حبه، فيبقى صابرا والله جل شأنه أعد للصابرين أجرا عظيما وعدهم به، والله لا يخلف الميعاد.

وأذكر أني قرأت أثرا لا أعلم مدى صحته وهو «من عشق فكتم وعف ثم مات فهو شهيد».

فهرس المقالات

للمجلد الأول

مرتبة حسب الآتي: اسم صاحب المقالات ثم ترجمته، ثم عناوين مقالاته

- **تصدير: بقلم رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي** ٥

١- مقالات: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ٧

- ترجمة الشيخ: محمد محيي الدين عبد الحميد ٩
  - الإسلام والمجتمع المثالي (١) ١٠
  - الإسلام والمجتمع المثالي (٢) ١٦

٢- مقالات: الأستاذ عبد العزيز العلي المطوع ٢٣

- ترجمة الأستاذ عبد العزيز العلي المطوع ٢٥
  - الإيمان ٢٧
  - بين الفقه والولاية ٣٣
  - في سبيل الدعوة الإسلامية ٣٧
  - لا تحتقر الطين ٤١
  - في رحاب القران الكريم (١) ٤٥
  - في رحاب القرآن الكريم (٢) ٥٤
  - في رحاب القرآن الكريم (٣) ٥٧
  - نظرات في سورة الإخلاص ٦٠

٣- مقالات: الشيخ أحمد الخميس ٦٥

- ترجمة الشيخ أحمد الخميس ٦٧
  - الكويت تمنع الخمر ٦٩
  - العلاقة بين الزوجين ٧٢

- الزواج وآثاره في حياة الفرد والجماعة ٧٧
٤- مقالات: الأستاذ أحمد حسن الزيات ٨٣
● ترجمة الكاتب: أحمد حسن الزيات ٨٩
- المبادىء المثاليه التى تضمنتها دعوة الاسلام ٨٦
- من تراثنا الأدبي ٨٩
٥ - مقالات: د. عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا ٩٣
● ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ٩٥
- الإسلام ومقومات الحضارة ٩٦
- الرسول ﷺ وسنته الشريفة ١٠١
- الإسراء والمعراج ١٠٦
- اقرأ باسم ربك.. ..... ١٢٠
- نشر السنة واجب ديني وإصلاح خلقي واجتماعي ١٣٨
- الوحدة الإسلامية ١٤٣
- فقيه مصر الليث بن سعد (١): نشأته وحبه للعلم ١٤٧
- فقيه مصر الليث بن سعد (٢): كرَمه واتزانه ١٥٣
- فقيه مصر الليث بن سعد (٣): محدثًا وفقيهًا ١٥٨
٦- مقالات الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي ١٦٥
● ترجمة الكاتب: محمد عبد اللطيف السبكي ١٦٧
- إشراقة الإسلام كانت بالدعوة إلى العلم ١٦٨
- أحمد بن حنبل (١) ١٧٢
- أحمد بن حنبل (٢) ١٧٩
- من ملامح النبوة والرسالة ١٨٦
٧- مقالات: د.محمد محمد أبو شهبة ١٨٣
● تعريف بالكاتب: الدكتور/ محمد محمد أبو شهبة ١٩٥
- أعداء الإنسانية ١٩٧

- نحو ثقافة إسلامية ٢٠٤
- تحويل القبلة إلى الكعبة ٢١١
- الجهاد في الإسْلام (١) ٢١٧
- الجهاد في الإسْلام (٢) ٢٢٣
- إمام الفقهاء أبوحنيفة النعمان (١) ٢٢٨
- الإمام أبوحنيفة النعمان (٢) ٢٣٥
- اللغة العربية هي لغة القرآن والإسلام ٢٤٢
- القرآن والسنة معا ٢٤٦
- موعظة بليغة ٢٥٢
- مساهمة المسلمين في العلوم الإسلامية والعربية ٢٥٩
- المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ٢٧٠
- ترغيب الشباب في الزواج ٢٧٧

٨- مقالات الشيخ علي الطنطاوي ٢٨٥

- ترجمة الشيخ علي الطنطاوي ٢٨٧
- نحن والحضارة الغربية ٢٨٨
- سبحان مقسم الأرزاق ٢٩٣
- دليل الحاج ٢٩٨
- عام جديد ٣٠٥
- عبرة من تاريخنا ٣١٢
- زورق الأحلام ٣١٨
- ما هي السماء؟ ٣٢٥
- أربع قواعد للإيمان ٣٢٩
- فكروا لماذا؟ ٣٣٧
- خواطر في القرآن ٣٤٦

٩- مقالات الشيخ نديم الجسر ٣٥٧

- ترجمة الكاتب: الشيخ نديم الجسر رَحِمَهُ اللَّهُ ٣٥٩
- شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين ٣٦١
- الإيمان ضرورة إنسانية ٣٧٠
- نحن والشباب المثقف ٣٧٥
- وتحسبونه هيناً..؟ ٣٨٢
- وجود الله ٣٨٧
- موقف العقل من الإيمان ٣٩٤
- حول مؤتمر القمة ٤٠١
- بشائر عن معركة المصير بين المسلمين وإسرائيل (١) في ضوء القرآن والأحاديث النبوية والنواميس الكونية والتاريخ ٤٠٣
- بشائر عن معركة المصير بين المسلمين وإسرائيل (٢) في ضوء القرآن والأحاديث النبويَّة والنواميس الكونية والتاريخ ٤١٥

١٠- مقالات: الشيخ عطية محمد صقر ٤٢٩

- ترجمة الشيخ عطيه صقر ٤٣١
- قضية الدين في العصر الحديث ٤٣٣
- لبيك بحجة حقاً تعبدًا ورِقاً ٤٣٨

١١- مقالات: الشيخ عبد الله خياط ٤٤٥

- ترجمة الشيخ عبد اللَّه خياط ٤٤٧
- الحلال والحرام ٤٤٩

١٢- مقالات الأستاذ مالك بن نبي ٤٥٣

- ترجمة الأستاذ مالك بن نبي ٤٥٥
- الحادث والتاريخ ٤٥٧
- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ٤٦١
- المجتمع الإسلامي والإنسانية العذراء! ٤٦٨

١٣- مقالات الشيخ السيد سابق ٤٧١

- ترجمة الشيخ سيد سابق ٤٧٣
- حجة الوداع ٤٧٤
- كيف نعيش؟ ٤٨٦
- التدين ٤٩٢
- الدولة الإسلامية ٤٩٨

١٤- مقالات الشيخ مصطفى أحمد الزرقا ٥٠٥

- ترجمة الشيخ مصطفى أحمد الزرقا ٥٠٧
- خصائص التشريع الإسلامي ٥٠٩
- حجة الشريعة على العقل ٥١٥
- موسوعة الفقه الإسلامي ٥٢٤

١٥- مقالات الشيخ محمود مهدي استانبولي ٥٢٧

- ترجمة الشيخ محمود مهدي استانبولي ٥٢٩
- هل الإنسان خليفَة الله في الأرض ٥٣٠
- حول اجتهادات الخليفة عُمر بن الخطاب ﷺ ٥٣٥
- الإنسان العربي بين الجاهلية والإسلام ٥٤٢
- التعليم الجامعي ٥٥٠
- الشخصية الإسلامية في معركة إثبات الذات ٥٥٢
- في رحاب الأماكن المقدسة ٥٥٩
- نظرية الإعدام بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية ٥٦٤
- من غرائب المحاكمات في التاريخ ٥٨٠
- نصيحة ذهبية إلى مفكري الغرب وزعمائه ٥٩٥
- افتراء المستعمرين ٦٠٤
- خطر إهمال التبشير في ديار الغرب ٦١٤

١٦- مقالات الشيخ عبد الله النوري ٦٢٥

- ترجمة الشيخ عبد الله النوري ٦٢٧

- القرآن والعرب ٦٢٩
- كلكم راع ومسؤول عن رعيته ٦٣٢
- بالعمل الصالح تطيبُ الحياة ٦٣٥
- الحب في الإسلام ٦٣٨
- فهرس مقالات المجلد الأول ٦٤٣

* * *

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثاني